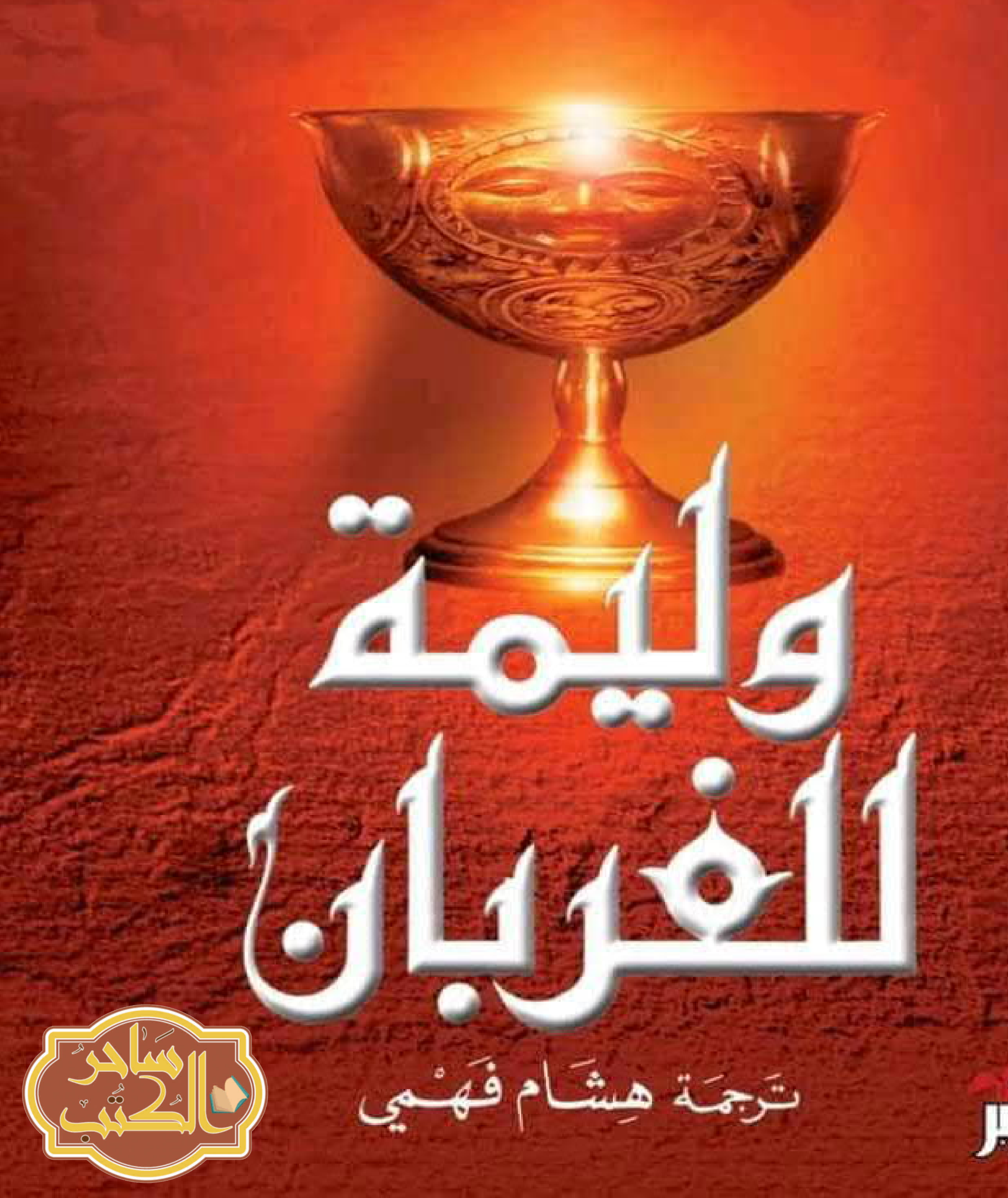
الكتاب الرابع من أغنية الجليد والنار

چورج ر.ر. مارتن

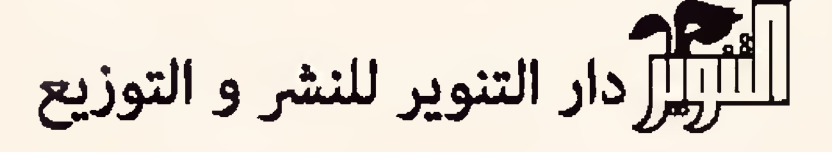


التنوير

جورج ر.ر. مارتن

وليمة للغربان

الكتاب الرابع من أغنية الجليد والنار
رواية



جميع الحقوق محفوظة©



لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا



لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

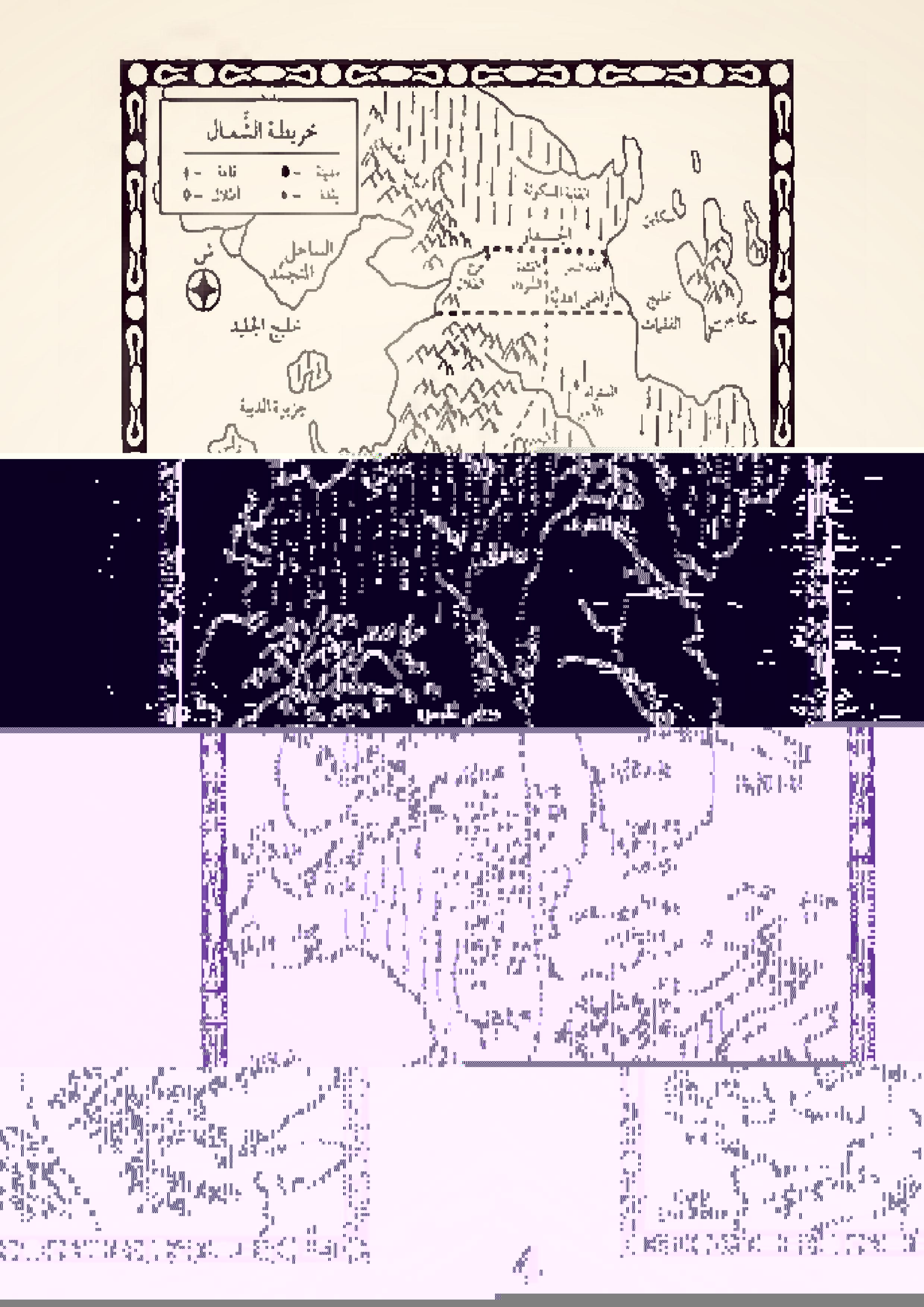
او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

إلى ستيڤن بوشيه

ساحر الويندوز وتنّين الدوس

الذي لولاه لكُتبت هذه الرّواية بأقلام الشّمع





خريطة الشمال
مدينة
قلعة
بلدة
أطلال
ش
الساحل المتجمد
خليج الجليد
جزيرة الدببة
الغابة المسكونة
الجدار
خليج الفقمات
سكاجوس


خريطة الجنوب
مدينة
قلعة
بلدة
أطلال
جزر الحديد



رأس الكراكن
جُرف فلينت
جُزر الحديد
بلاكتايد
ويك القديمة
ويك الكُبرى
أوركمونت
هارلو
پايك
جُرف الملح
خليج الرِّجال الحديديِّين
رأس الثوارس
التوأمتان
سيجارد
بانفورت
شجرة الغِدفان

تمهيد

- «الثّنانين»، قالها مولاندر واختطف تفّاحةً ذابلةً من على الأرض وراح يتقاذفها بين يديه.

قال أليراس أبو الهول مستحثًّا إياه: «ارمِ الثفّاحة»، والتقط سهمًا من جَعبته وسحبَه على وتر قوسه.

قال روون: «كم أودّ أن أرى تنّينًا، أودّ هذا حقًّا». الصّبي الممتلئ أصغرهم سِنًّا، وما زالَ يفصله عامان كاملان عن بلوغ مبلغ الرّجال.

فكّرَ پايت مبدّلًا جلسته على الدّكّة بتملمُل: *وكم أودُّ أن أنام بينما تُطوّقني روزي بذراعيها.* بحلول الغد ستكون الفتاة قد أصبحَت له. *سآخذها بعيدًا عن (البلدة القديمة)، أعبرُ بها (البحر الضيّق) إلى واحدةٍ من المُدن الحُرّة.* هناك لا يوجَد مِايسترات، لا أحد يتّهمه.

تناهت إلى مسامعه ضحكات إما الآتية من نافذةٍ مغلَقة المصراعين بالأعلى، ممتزجةً بالصَّوت الأعمق للرَّجل الذي تستضيفه. إنها أكبر العاملات سِنًّا في (الرِّيشة والدَّورق)، في الأربعين من العمر على الأقل، وإن كانت لا تزال تتمتَّع بنوعٍ معيَّن من حُسن ممتلئات الجسد. أمَّا روزي فابنتها، فتاة في الخامسة عشرة أزهرَت لتوِّها، وقد قضَت إما أن بكارة روزي ستكلِّف مَن يفضُّها تنِّينًا ذهبيًّا كاملًا. كان پايت قد ادَّخر تسعة أيائل فضِّيَّة ومِلء جرَّةٍ من النُّجوم والبنسات النُّحاسيَّة، وعلى الرغم من هذا لا يزال بعيدًا كلَّ البُعد عن المبلغ المطلوب، وفُرصة أن يجعل بيضة تنِّينٍ حقيقي تفقس أفضل من فُرصة ادِّخاره ما يكفي من مالٍ لتنِّينٍ ذهبي.

قال آرمن المُعاون لروون: «وُلِدتَ متأخِّرًا للغاية على رؤية التَّنانين يا فتى». يضع آرمن حول عُنقه شريطًا جلديًّا علَّق منه حلقاتٍ من القصدير والصَّفيح والرَّصاص والنُّحاس، ويبدو أنه -كأغلب المُعاونين- يعتقد أن ما على أكتاف المبتدئين ثمار لِفت لا رؤوس. «آخِر تنِّين مات في عهد الملك إجون الثَّالث».

رَدَّ مولاندر بإصرار: «آخِر تنِّين في (وستروس) فقط».

عادَ أليراس يستحثُه قائلًا: «ارمِ الثفّاحة». الشّاب وسيم الطّلعة، صديقهم أبو الهول الذي صارَ محطّ شغف جميع العاملات في المكان، وحتى روزي تمسّ ذراعه أحيانًا عندما تُقدّم له النّبيذ. فيضطرُ پايت إلى الضّغط على أسنانه والتّظاهر بأنه لم يرَ.

قال آرمن بعناد: «آخِر تنّين في (وستروس) كان آخِر تنّين، هذا معلوم للجميع».

كرّر أليراس: «الثفّاحة، ما لم تكن تنوي أن تأكلها».

قال مولاندر: «هاك»، وجَرّ قدمه المعوجّة ووثبَ وثبةً قصيرةً، ثم دارَ وألقى الثفّاحة بزاويةٍ مستقيمة في الضّباب العالق فوق (نهر البِتع)[1]. لولا التشوّه في قدمه لكان قد أصبحَ فارسًا كأبيه، ففي ذراعيه الغليظتين وكتفيه العريضتين من القوّة ما يَكفُل له هذا. هكذا حلّقت الثفّاحة مبتعدةً بسُرعة...

... ولكن ليس بسُرعة السّهم الذي انطلقَ وراءها صافرًا في الهواء، قناته طولها ياردة كاملة من الخشب الذّهبي المزوّد بالرّيش القِرمزي. لم يرَ پايت السّهم يُصيب الثفّاحة، لكنه سمعَ صدى الارتطام الخافت يتردّد عبر النّهر، يتبعه صوت سقوط الثّمرة في الماء.

صفرَ مولاندر، وقال: «قوّرتها، جميل!».

لكن ليس بنصف جمال روزي. يحبّ پايت لون البُندق في عينيها ويحبّ ثدييها الثّابتين، والطّريقة التي تبتسم بها كلّما رأته، ويحبّ الغمّازتين في وجنتيها. أحيانًا تمشي حافيةً وهي تدور على الزّبائن، لتشعُر بملمس الغشب تحت قدميها، وهذا أيضًا يحبّه پايت، تمامًا كما يحبّ رائحتها النّظيفة المُنعشة وشعرها الذي يتلولَب وراء أُذنيها، بل ويحبّ أصابع قدميها. ذات ليلةٍ ستدعه يُدَلّك هاتين القدمين ويُداعِبهما، وسيؤلّف لها حكايةً طريفةً عن كلّ إصبعٍ ليجعلها تضحك بلا انقطاع.

لعلّ الأصلح له أن يبقى على هذا الجانب من (البحر الضيّق). يُمكنه أن يبتاع حمارًا بالنّقود التي ادّخرها، ويتبادَل هو وروزي ركوبه بينما يجولان في أنحاء (وستروس). ربما لا يراه إيبروز جديرًا بوضع حلقةٍ فضّيّة في سلسلته، لكن پايت يعرف كيف يُجَبّر العظام المكسورة ويُعلّق العَلق[2] للمصابين بالحُمّى. سيمتنّ العامّة لمساعَدته، وإذا تعلّم أن يقصّ الشّعر ويحلق اللّحى فمن الممكن أن يصير حلّاقًا كذلك. قال لنفسه: *يكفيني هذا ما دامَت معي روزي*. من الدُّنيا كلّها لا يُريد إلّا روزي.

على أن الأمر لم يكن هكذا دائمًا. في السّابق كان خلمه أن يُصبِح مِايستر في قلعة، في خدمة لورد سخي يُكرِّمه لحكمته ويهِب له حصانًا أبيض مطهَّمًا عرفانًا بخدمته. كان ليمتطيه بسُمُوٍّ ونُبل، ويبتسم للعوام من أعلى حين يمرُّ بهم على الطّريق...

ذات ليلةٍ في قاعة (الرِّيشة والدّورق) العامّة، بَعد أن شربَ دورقه الثّاني من خمر التُّفّاح القويّة للغاية، قال بِايت متبجِّحًا إنه لن يظلَّ مبتدئًا إلى الأبد، فرَدَّ ليو الكسول: «صحيح تمامًا، ستكون مبتدئًا سابقًا يرعى الخنازير».

أفرغَ ثُمالة الشّراب في جوفه. كانت شرفة الخان المضاءة بالمشاعل جزيرةً من الضّوء في بحرٍ من الضّباب هذا الصّباح، وفي اتّجاه مصبّ النّهر تسبح منارة (البُرج العالي) البعيدة في رطوبة اللّيل كقمرٍ برتقاليٍّ مبهَم، لكن الضّوء لم يُفلِح في رفع معنويّاته إلّا قليلًا.

كان يُفترَض أن يأتي الخيميائي. هل المسألة كلُّها دُعابة قاسية أم أن شيئًا جرى للرَّجل؟ لن تكون المرَّة الأولى التي يعبس فيها الحَظُّ في وجه پايت، فقد حدثَ أن عَدَّ نفسه محظوظًا من قبل عند اختياره لمساعَدة المِايستر الرَّئيس والجريف العجوز على العناية بالغِدفان، دون أن يتصوَّر أنه سرعان ما سيُكَلَّف أيضًا بإحضار وجبات الرَّجل وكنس مسكنه وإلباسه ثيابه كلَّ صباح. يقول الجميع إن والجريف نسيَ عن حِرفة الغِدفان أكثر مما يتعلَّمه معظم المِايسترات في حياتهم كلِّها، فقدَّر پايت أن حلقةً من الحديد الأسود هي أقلُّ ما يأمله، فقط ليكتشف أن والجريف لا يستطيع أن يمنحه إياها، لأن العجوز ما زالَ مِايستر رئيسًا على سبيل المجامَلة لا أكثر، وعلى الرغم من أنه كان مِايستر عظيمًا في الماضي، فالآن يُواري رداؤه ثيابًا داخليَّةً متَّسخةً أكثر الوقت، وقبل نِصف عامٍ وجدَه عدد من المُعاونين يبكي في المكتبة وقد عجزَ عن العثور على طريق العودة إلى مسكنه. حاليًّا يجلس المِايستر جورمون تحت القناع الحديد بدلًا من والجريف، جورمون نفسه الذي سبقَ أن اتَّهم پايت بالسَّرقة.

على شجرة التفّاح المجاورة للماء بدأ عندليب يُغنّي، صوته الجميل راحة مستحبّة من صريخ الغِدفان الخشن ونعيقها المتّصل بَعد أن ظَلّ پايت يعتني بها طيلة اليوم. تعرف الغِدفان البيضاء اسمه ويُتَمتِم بعضها به لبعض كلّما وقعَت أعيُنها عليه، فترَدّد «*پايت، پايت، پايت*» إلى أن تنتابه الرّغبة في الصُّراخ. تلك الطُّيور البيضاء الكبيرة مفخرة المِايستر الرّئيس والجريف، ويُريدها أن تأكله عندما يموت، وإن كان پايت يظنّ أنها تُريد أن تأكله أيضًا.

ربما تكون خمر التّفّاح القويّة للغاية السّبب -ولم يكن پايت قد أتى ليشرب، غير أن أليراس دعاهم إلى الشّراب احتفالًا بحصوله على حلقته النّحاسيّة، والشّعور بالذّنب أصابَ پايت بالظّمأ- ولكن بدا له كأن العندليب يُرَدِّد بصوتٍ راجف: «*الذّهب مقابل الحديد، الذّهب مقابل الحديد، الذّهب مقابل الحديد*»، وهو العجيب نوعًا، لأن هذا ما قاله الغريب ليلة رتّبت روزي لقاءهما. حينها سأله پايت: «مَن أنت؟»، فأجابَ الرّجل: «خيميائي، أستطيعُ تحويل الحديد إلى ذهب»، ثم ظهرَت قطعة العُملة في يده، تتراقص على مفاصل أصابعه ويلمع ذهبها الأصفر الخالص في ضوء الشّموع، على أحد وجهيها تنّين ذو ثلاثة رؤوس، وعلى الآخر رأس ملكٍ ميت ما. تذكّر پايت ما قاله الرّجل: *الذّهب مقابل الحديد، لن تجد صفقةً أفضل. هل تُريدها؟ هل تُحِبُّها؟* قال للرّجل الذي دعا نفسه بالخيميائي: «لستُ لصًا، إنني مبتدئ في (القلعة)»، فحنى الخيميائي رأسه مجيبًا: «إذا غيّرت رأيك، سأعودُ بَعد ثلاثة أيام من الآن ومعي تنّيني».

ومرّت ثلاثة أيام، وعادَ پايت إلى (الرّيشة والدّورق) وهو غير واثق بعدُ إن كان لصًا حقًا أم لا، لكن بدلًا من الخيميائي وجدَ مولاندر وآرمن وأبا الهول وفي أعقابهم روون، ولو لم ينضمّ إليهم لأثارَ شكوكهم.

(الرّيشة والدّورق) مفتوح دائمًا. طيلة ستمئة عامٍ وهو قائم على جزيرته في (نهر البِتع)، دون أن تنغلق أبوابه في وجه الزّبائن قَطُّ، ومع أن المبنى الخشبي يميل نحو الجنوب كما يميل المبتدئون فوق دوارق الشّراب أحيانًا، فإن بايت يتوقّع أن يظلّ الخان قائمًا ستمئة عامٍ أخرى، يبيع النّبيذ والمِزر[3] وخمر التّفّاح القويّة للغاية لملّاحي النّهر والبحر، والحدّادين والمطربين، والرّهبان والأمراء، ومبتدئي (القلعة) ومُعاونيها.

أعلنَ مولاندر بصوتٍ أعلى من اللّازم: «(البلدة القديمة) ليست العالم». إنه ابن فارس، وسكران الآن لأقصى درجة، فمنذ أتوه بخبر مقتل أبيه في معركة (النّهر الأسود) وهو يسكر كلّ ليلةٍ تقريبًا. لقد مسّتهم حرب الملوك الخمسة جميعًا على الرغم من كونهم آمنين وراء أسوار (البلدة القديمة) بعيدًا عن القتال... وإن كان المايستر الرّئيس بنيدكت يصرّ على أن الحرب لم تكن بين خمسة ملوكٍ حقًّا، بما أن رنلي باراثيون ماتَ قبل أن يُتوّج بالون جرايجوي نفسه. واصلَ مولاندر: «كان أبي يقول دومًا إن العالم أكبر من قلعة أيّ لورد. لا بدّ أن الثّنانين أقلُّ ما يُمكن أن يجده المرء في (كارث) و(آشاي) و(يي تي). حكايات البحّارة تلك...».

قاطعه آرمن: «... ليست أكثر من حكايات بحّارة. إنهم بحّارة يا عزيزي مولاندر. اذهب إلى أرصفة الميناء وأراهنُ أنك ستجد بحّارةً يحكون لك عن عرائس البحر اللاتي ضاجعوهن، أو كيف قضوا عامًا في بطن سمكة».

قال مولاندر وهو يبحث بقدمه في الغشب عن المزيد من الثفّاح: «وكيف تعلم أنهم لم يفعلوا؟ عليك أن تُدخُل بطن السّمكة بنفسك لتجزم بأن هذا لم يَحدث. حكاية من بحّارٍ واحد، نعم، من الممكن أن تسخر منها، لكن حين يحكي بحّارة من أربع شفنٍ مختلفة الحكاية نفسها بأربع لُغاتٍ مختلفة...».

رَدّ آرمن بإصرار: «الحكايات ليست واحدةً. تنانين في (آشاي)، تنانين في (كارث)، تنانين في (ميرين)، تنانين مع الدوثراكي، تنانين تُحَرِّر العبيد... كلُّ حكايةٍ تختلف عن الأخرى».

- «في التّفاصيل فقط»، قال مولاندر الذي يزداد عنادًا عندما يشرب، وهو متصلّب الرّأي أصلًا حتى وهو مفيق. «الجميع يحكون عن التّنانين، وملكةٍ شابّة جميلة».

التنّين الوحيد الذي يُبالي به بايت مصنوع من الذّهب الأصفر. تساءلَ عمّا جرى للخيميائي. *اليوم الثّالث، قال إنه سيكون هنا.*

خاطبَ أليراس مولاندر قائلًا: «ثمّة تفّاحة أخرى قُرب قدمك، وما زالَ معي سهمان في جعبتي».

قال مولاندر: «سحقًا لجَعبتك»، ثم التقط ثمرةً أسقطتها الرّيح من الشّجرة، وأضاف متذمّرًا: «فيها ديدان»، لكنه رماها رغم ذلك، وأصابَ السّهم التّفّاحة إذ بدأت تَسقُط وشطرَها نِصفين، هبطَ أحدهما على سطح بُرجٍ ثم هوى إلى سطحٍ أدنى وارتدّ وأخطأ آرمن بقدمٍ واحد، فقال لهم المُعاون: «إذا قطعت دودةً نِصفين تُصبِح هناك دودتان».

رَدّ أليراس بواحدةٍ من ابتساماته النّاعمة: «ليت الأمر كان كذلك مع التّفّاح، فما كان أحد ليجوع أبدًا». دائمًا يبتسم أبو الهول كما لو أنه مطّلع على دعابةٍ سرّيّة ما، وقد منحه هذا مظهرًا خبيثًا يتماشى جيّدًا مع ذقنه البارز ومقدّمة شَعره المدبّبة وخُصلاته الفاحمة الكثيفة المشذّبة بعناية.

سوف يُصبِح أليراس مِايستر ذات يوم. لقد جاء (القلعة) منذ عامٍ واحد فقط، لكنه كوّن ثلاث حلقاتٍ من سلسلته بالفعل. صحيحٌ أن حلقات آرمن أكثر، إلّا أنه استغرقَ عامًا كاملًا حتى استحقّ كلًّا منها، ومع ذلك سوف يُصبِح مِايستر أيضًا. روون ومولاندر ما زالا مبتدئين عاريَي العُنق، لكن روون صغير جدًا، ومولاندر يُؤثِر الشّرب على القراءة.

أمّا بايت...

إنه في (القلعة) منذ خمسة أعوام، جاءها وهو في الثّالثة عشرة من العُمر لا أكثر، لكن عُنقه لا يزال عاريًا كما كان يوم وصلَ من أراضي الغرب. مرّتين اعتقدَ نفسه مستعدًّا؛ الأولى مثلَ فيها أمام المِايستر الرّئيس ڤايلين ليُدَلِّل على معرفته بالأجرام السّماويّة، وبدلًا من هذا تعلّم كيف حصلَ ڤايلين على لقب «الخل»، ثم استغرقَ الأمر پايت عامين ليستجمع شَجاعته من جديدٍ ويُحاوِل ثانيةً. تلك المرّة قدّم نفسه إلى المِايستر الرّئيس إيبروز العجوز العطوف، الشّهير برقّة نبرته وخفّة يديه، غير أن زفرات إيبروز كانت بوسيلةٍ ما مؤلمةً ككلمات ڤايلين الشّائكة.

وعدَهم أليراس قائلًا: «تفّاحة أخيرة وسأخبركم بظنوني بتلك الثّنائين».

دمدمَ مولاندر: «وما الذي تعرفه وأجهله أنا؟»، ولمحَ تفّاحةً على فرعٍ فوثبَ وقطفَها ورماها، فسحبَ أليراس وتر قوسه إلى أذنه وهو يدور برشاقةٍ متابعًا هدفه المحلّق، وأطلقَ سهمه لحظة أن بدأت التّفّاحة تَسقُط.

قال روون: «دائمًا تُخطئ الرّمية الأخيرة».

وسقطَت الثّمرة في النّهر دون أن يمسّها السّهم.

قال روون: «أرأيت؟».

أجابَ أليراس: «إذا أصبتها جميعًا ستكفُّ عن التَّحشن»، وأرخى وتر قوسه الطَّويل ودَسَّه بخفَّةٍ في قِرابه الجِلدي. القوس منحوت من القلب الذَّهبي، ذلك الخشب النَّادر الممتاز الذي يأتي من (جُزر الصَّيف)، وقد جرَّب پايت أن يسحب الوتر عليه مرَّةً وفشلَ. قال پايت لنفسه متأمِّلًا: *أبو الهول يبدو هزيلًا، لكن ثمَّة قوَّة في هاتين الذِّراعين النَّحيلتين*، فيما جلسَ أليراس وساقاه على جانبَي الدَّكَّة ومَدَّ يده إلى كأس نبيذه معلنًا بلهجته الدورنيَّة المتشدِّقة: «التنِّين له ثلاثة رؤوس».

تساءلَ روون: «أهذه أحجية؟ دائمًا ما يكون كلام آباء الهول ملغَّزًا في الحكايات».

رشفَ أليراس من النَّبيذ مجيبًا: «ليست أحجيةً». كانت بقيَّتهم تعبُّ من خمر التُّفَّاح القويَّة للغاية التي يشتهر بها (الرِّيشة والدَّورق)، لكنه يُفَضِّل الخمور المحلَّاة الغريبة من بلاد أمِّه، وحتى في (البلدة القديمة) لا تُباع تلك الخمور بثمنٍ رخيص.

كان ليو الكسول هو من لقَّب أليراس بأبي الهول. أبو الهول كائن هجين؛ وجهه وجه إنسان وجسمه جسم أسد وله جناحا صقر، وأليراس مِثله، فأبوه دورني وأمُّه امرأة سوداء البشرة من (جُزر الصَّيف)، أمَّا بشرته هو فداكنة كخشب السَّاج، وكتمثالَي أبي الهول وأم الهول المنحوتين من الرُّخام الأخضر ويقفان على جانبَي بوَّابة (القلعة) الرَّئيسة، لأليراس عينان من الجَزع الأخضر.

قال آرمن المُعاون بحزم: «ليست هناك تنانين بثلاثة رؤوس إلّا على الثروس والرّايات. إنه رمز لا أكثر، ثم إن آل تارجاريَن ماتوا جميعًا».

رَدّ أليراس: «ليس جميعهم. الملك الشّحّاذ كانت له أخت».

قال روون: «حسبتهم هشّموا رأسه على جِدار».

قال أليراس: «لا. إجون ابن الأمير ريجار الصّغير هو من هشّم رجال الأسد لانستر الشّجعان رأسه على جِدار. إننا نتكلّم عن أخت ريجار التي وُلِدَت في (دراجونستون) قبل سقوطها، تلك المسمّاة دنيرس».

قال مولاندر: «وليدة العاصفة، تذكّرتها الآن»، ورفعَ دورقه عاليًا ليدور ما تبقّى فيه من خمر التفّاح، وصاح: «نخبها!»، ثم جرعَ وضربَ المائدة بالدّورق الخالي وتجشّأ، قبل أن يمسح فمه بظَهر يده ويسأل: «أين روزي؟ ملكتنا الشّرعيّة تستحقّ دورًا آخر من الشّراب، أليس كذلك؟».

لاحَ الانزعاج على آرمن المُعاون وهو يقول: «اخفض صوتك أيها الأحمق. لا يَجدُر بك أن تمزح مجرّد مُزاح بشأن تلك الأشياء، فلست تدري من يتنصّت. العنكبوت له آذان في كلّ مكان».

- «آه، لا تَبُل في سراويلك يا آرمن. كنتُ أقترح شرابًا لا ثورةً».

سمعَ پايت قهقهةً، ثم نادى صوت خبيث ناعم من ورائه قائلًا: «لطالما عرفتُ أنك خائن أيها الضِّفدع النَّطّاط». كان ليو الكسول واقفًا بتراخٍ عند قدم الجسر الخشبي القديم، يرتدي الساتان المخطّط بالأخضر والذّهبي تحت حرملةٍ[4] من الحرير الأسود، يُثَبّتها إلى كتفه مشبك على شكل وردةٍ من اليَشب، وقد بدا من البُقع على صدره أن النّبيذ الذي شربَه كان أحمر قانيًا، بينما سقطَت خُصلة من شَعره الذّهبي الشّاحب على إحدى عينيه.

اشتعلَ مولاندر غضبًا لمرآه، وقال: «تبًا لهذا، ارحل، ليس مرحّبًا بك هنا»، فوضعَ أليراس يده على ذراعه ليُهدّئه، في حين عبسَ آرمن قائلًا: «ليو، سيّدي، حسبتك ستظلُّ محتجَزًا في (القلعة)...».

قاطعه ليو: «... ثلاثة أيام أخرى»، وهزَّ كتفيه مضيفًا: «پيرستان يقول إن العالم عمره أربعون ألف عام، ومولوس يقول إنها خمسمئة ألف، فما قيمة ثلاثة أيام؟»، وعلى الرغم من وجود دستة من الموائد الخالية في الشُّرفة، فقد جلس ليو إلى مائدتهم مردفًا: «ادعُني إلى كأسٍ من نبيذ (الكرمة) الذَّهبي أيها الضِّفدع النَّطّاط ولن أخبر أبي بأمر نخبك. الحَظُّ لم يُحالِفني في لعب البلاطات في (النّرد المرتّع) وبدّدت أيلي الفضِّي الأخير على العَشاء. خنزير رضيع في صلصة البرقوق، محشو بالكستناء والكمأة البيضاء. الإنسان يحتاج إلى الطَّعام. وماذا أكلتم أنتم يا أولاد؟».

غمغمَ مولاندر وقد بدا مستاءً من الإجابة: «أكلنا ضأنًا، تقاسَمنا فخذ ضأنٍ مسلوقة».

قال ليو: «أنا واثق بأنها كانت مشبعةً»، والتفتَ مخاطبًا أليراس: «المفترَض أن يكون ابن لورد مِثلك سخيًا يا أبا الهول. بلغَني أنك فُزت بحلقتك النُّحاسيَّة. سأشربُ نخب هذا».

ابتسمَ أليراس مجيبًا: «لستُ أدعو إلّا الأصدقاء إلى الشَّراب، ثم إنني لستُ ابن لورد كما أخبرتك. أمّي كانت تاجرةً».

قال ليو وفي عينيه البندقيَّتين لمعة النَّبيذ والنِّقمة: «أمُّك كانت قردةً من (جُزر الصَّيف). الدورنيُّون يُضاجِعون أيَّ شيءٍ له فتحة بين ساقيه. لا أقصدُ إساءةً. ربما تكون بنِّيًا كحبَّةٍ من الجوز، لكنك تستحمُّ على الأقل، على عكس فتى الخنازير المبقَّع هذا»، ولوَّح بيده نحو پايت.

فكَّر پايت: *إذا ضربته في فمه بدورقي فيمكنني أن أكسر نِصف أسنانه*. پايت المبقَّع فتى الخنازير هو بطل ألفٍ من القصص البذيئة، صعلوك أبله طيِّب القلب استطاعَ دومًا أن يتغلَّب على السَّادة السِّمان والفُرسان المتغطرسين والسِّپتونات المبهرجين الذين يُزعِجونه، وبشكلٍ ما يتَّضح أن غباءه نوع من الدَّهاء غير المألوف، ودائمًا تنتهي به الحكايات جالسًا على مقعد لورد عالٍ أو في الفِراش مع ابنة أحد الفُرسان. لكنها مجرَّد قصص، ففي عالم الواقع لا يُحالِف التَّوفيق صِبية الخنازير. أحيانًا يُفكِّر پايت أن أمَّه كانت تكرهه بالتَّأكيد ما دامَت قد أطلقَت عليه هذا الاسم.

قال أليراس وقد غابَت ابتسامته: «ستعتذر».

- «حقًّا؟ وكيف أعتذرُ وحَلقي بهذا الجفاف؟».

قال أليراس: «إنك تجلب العار على عائلتك مع كلِّ كلمةٍ تقولها، وتجلب العار على (القلعة) بكونك واحدًا منا».

- «أعرفُ، فادعُني إلى القليل من النَّبيذ إذن كي أغرِق عاري».

قال مولاندر: «أريدُ أن أقتلع لسانك من جذوره».

ردّ ليو: «حقًّا؟ وكيف أحكي لكم عن التّنانين إذن؟»، وعادَ يهزُّ كتفيه متابعًا: «الهجين على حق، ابنة الملك المجنون حيّة ومعها ثلاثة تنانين».

ردّد روون مندهشًا: «ثلاثة؟».

ربّت ليو على يده مجيبًا: «أكثر من اثنين وأقلُّ من أربعة. لو كنتُ مكانك لما حاولتُ الحصول على حلقتي الذّهبيّة بعدُ».

قال مولاندر منذرًا: «دعه وشأنه».

- «يا لشهامتك أيها الضّفدع النّطّاط. كما تشاء. كلُّ رجلٍ من كلّ سفينةٍ أبحرَت على مسافة مئة فرسخٍ من (كارث) يتحدّث عن تلك التّنانين، وستجد بعضهم يقول إنه رآها بنفسه. المشعوذ يميل إلى تصديقهم».

زَمّ آرمن شفتيه استنكارًا، وقال: «مارووين معتلُّ العقل. المِايستر الرّئيس پيرستان أول من سيقول لك هذا!».

قال روون: «هذا ما يقوله المِايستر الرّئيس ريام أيضًا».

تثاءبَ ليو، وقال: «البحر مبتلٌّ والشّمس دافئة ومعرض الوحوش يكره الدّرواس[5]».

فكّر پايت: *لديه اسم ساخر لكلّ أحد*، لكنه لا يستطيع أن يُنكِر أن ماروين يبدو أقرب إلى دِرواس من مِايستر بالفعل. *كأنه يُريد أن يعضّك*. ليس المُشعوذ كبقيّة المِايسترات، ويقول النّاس إنه يُرافِق العاهرات والسّحرة الجوّالين، ويُكلّم الإيبنيزيّين المُشعرين وأهل (جُزر الصّيف) ذوي البشرة السّوداء كالقار بلُغتهم، ويُقدِّم القرابين لآلهةٍ غريبة في معابد البحّارة الصّغيرة عند أرصفة المرفأ، وهناك من يتكلّمون عن رؤيته في الأنحاء الكريهة من المدينة، في حلبات الجرذان[6] والمواخير السّوداء، يُسامِر الممثّلين والمُطربين والمرتزِقة، بل والمتسوّلين أيضًا. ثم إن هناك من يتهامَسون قائلين إنه قتلَ رجلًا ذات مرّةٍ بقبضتيه العاريتين.

حينما رجعَ ماروين إلى (البلدة القديمة)، بَعد أن أمضى ثمانية أعوام في الشّرق يرسم خرائط الأراضي البعيدة ويبحث عن كُتبٍ مفقودة ويدرس مع الدّجّالين وآسري الظّلال، لقّبه ڤايلين الخَل بماروين المُشعوذ، وسرعان ما انتشرَ اللّقب في جميع أنحاء المدينة، وهو ما أثارَ ضيق ڤايلين لأقصى درجة. في مرّةٍ قال المِايستر الرّئيس ريام لپايت على سبيل النّصيحة: «دَع الصّلوات والتّعاويذ للرّهبان والسّپتونات، وكرّس عقلك لتعلُّم الحقائق التي يستطيع أن يثق بها الإنسان»، لكن خاتم ريام وصولجانه وقناعه من الذّهب الأصفر، وسلسلته تخلو من حلقةٍ من الفولاذ الڤاليري.

لآرمن أنف طويل رفيع مدبّب، مناسب تمامًا للنّظرة التي رمقَ بها ليو الكسول من فوقه وهو يقول: « المِايستر الرّئيس ماروين يعتقد بالعديد من الأشياء الغريبة، لكنه لا يملك دليلًا على وجود التّنانين أكثر من مولاندر. مزيد من قصص البحّارة لا أكثر».

قال ليو: «أنت مخطئ. ثمّة شمعة زُجاجيّة متّقدة في مسكن المُشعوذ».

رانَ الصّمت على الشُّرفة المضاءة بالمشاعل، ثم تنهّد آرمن وهَزَّ رأسه، وبدأ مولاندر يضحك، وتفرّس أبو الهول في وجه ليو بعينيه السّوداوين الواسعتين، وبدَت الحيرة على روون.

يعرف پايت بأمر الشُّموع الزُّجاجيّة، وإن لم يرَ واحدةً مشتعلةً من قبل قَطُّ. إنها السّر الأكثر انفضاحًا في (القلعة)، ويُقال إنها جُلِبَت إلى (البلدة القديمة) من (ڤاليريا) قبل ألف عامٍ من هلاكها. كان پايت قد سمعَ بوجود أربعٍ منها، إحداها خضراء والبقيّة سوداء، وكلُّها طويلة ملتوية.

سألَ روون: «ما تلك الشُّموع الزُّجاجيّة؟».

تنحنحَ آرمن المُعاون، وأجابَ: «في اللّيلة السّابقة لحلف كلّ مُعاون اليمين، عليه أن يسهر في القبو، وغير مسموحٍ له أن يأخذ معه فانوسًا أو مشعلًا أو مصباحًا أو فتيلًا مكسوًّا بالشّمع... فقط شمعة من الزُّجاج البُركاني. هكذا يجب أن يقضي اللّيل في الظّلام ما لم يستطِع أن يُشعِل تلك الشّمعة. بعضهم يُحاوِل، الحمقى والعنيدون، أولئك الذين درسوا الغوامض العُليا إياها، وكثيرًا ما يجرحون أصابعهم، لأن حواف الشّمعة حادّة كالموسى حسب ما يُقال، ثم يكون عليهم أن ينتظروا بزوغ الفَجر بأيدٍ دامية وهُم يُفَكِّرون في فشلهم. الحُكماء يَخلُدون إلى النّوم ببساطة، أو يقضون اللّيل في الصّلاة، لكن هناك دائمًا من يُصِرُّون على التّجربة كلّ عام».

قال پايت الذي سمعَ القصص نفسها: «نعم، لكن ما الفائدة من شمعةٍ لا تُلقي ضوءًا؟»

جاوبَه آرمن: «إنه درس، آخِر درسٍ يجب أن نتعلّمه قبل أن نضع سلسلة المِايسترات. المفترَض أن تُمَثِّل الشّمعة الزُّجاجيّة الحقيقة والمعرفة، وهما شيئان نادران وجميلان وهشّان، وهي مصنوعة على شكل شمعةٍ كي تُذَكِّرنا بأن على المِايستر أن يُلقي الضّوء أينما خدمَ، وحادّة كي تُذَكّرنا بأن المعرفة من شأنها أن تكون خطرةً. قد تُصيب الحكمة أصحابها بالغرور، لكن على المِايستر أن يبقى متواضعًا دومًا، وهذا ما تُذَكّرنا الشّمعة الزُّجاجيّة به أيضًا، فحتى بَعد أن يحلف اليمين ويضع سلسلته ويبدأ خدمته، سيُفكّر المِايستر في سهرته تلك ويتذكّر أن شيئًا لم يكن في وسعه لإشعال الشّمعة... بعض الأشياء ليس ممكنًا حتى في وجود المعرفة».

انفجرَ ليو الكسول في الضّحك، وقال: «تعني أنه ليس ممكنًا لك. لقد رأيتُ الشّمعة مشتعلةً بعينيّ هاتين».

ردّ آرمن: «رأيت شمعةً ما مشتعلةً بلا شك، من الشّمع الأسود ربما».

- «أعرفُ ما رأيتُ. الضّوء كان غريبًا وساطعًا، أكثر سطوعًا من ضوء أيّ شمعةٍ من شمع العسل أو الشّحم، وألقى ظلالًا غريبةً دون أن يتذبذَب اللّهب إطلاقًا، حتى عندما هَبّ تيّار الهواء من الباب المفتوح ورائي».

عقدَ آرمن ذراعيه على صدره قائلًا: «الزُّجاج البُركاني لا يشتعل».

قال پايت وقد بدَت له المعلومة مهمّةً بشكلٍ ما: «زُجاج التنّين، العامّة يُسمّونه زُجاج التنّين».

علّق أليراس أبو الهول متأمّلًا: «صحيح، وإذا عادَت التّنانين إلى العالم حقًّا...».

قال ليو: «التّنانين وأشياء ألعن. الخراف الرّماديّة أغلقت أعيُنها، لكن الدّرواس يرى الحقيقة. القوى القديمة تستيقظ من سُباتها والظّلال تتحرّك، وقريبًا سيبدأ عصر من العجائب والرُّعب، عصر للآلهة والأبطال»، وتمطّى راسمًا على شفتيه ابتسامته الكسول، وأضافَ: «أعتقدُ أن الأمر يستحقُّ دورًا من الشّراب».

قال آرمن: «شربنا بما فيه الكفاية. سرعان ما سيطلع الصُّبح علينا، والمِايستر الرّئيس إيبروز سيتحدّث اليوم عن خواص البول، وعلى من يرغب في حلقةٍ من الفضّة ألّا يُفوّت حديثه».

رَدّ ليو: «حاشا لي أن أعطّلكم عن تذوّق البول، أمّا أنا فأُفضّلُ مذاق نبيذ (الكرمة) الذّهبي».

قال مولاندر: «إذا كان الخيار بين البول وبينك، فإنني أختارُ البول»، ودفعَ مقعده عن المائدة مخاطبًا روون: «هيا بنا».

التقظ أبو الهول قِراب قوسه قائلًا: «أنا أيضًا سأخلد إلى النّوم. أتوقّعُ أن أحلم بالثّنانين والشّموع الزّجاجيّة».

تساءلَ ليو: «كلُّكم راحلون؟»، وهَزَّ كتفيه مردفًا: «ليكن، روزي ستبقى. ربما أوقِظُ قطعة الحلوى الصّغيرة وأجعلُ منها امرأةً».

رأى أليراس النّظرة على وجه پايت، فقال له: «إذا كان لا يملك قطعةً نُحاسيّةً لكأسٍ من النّبيذ، فلا يُمكن أن معه تثْينًا للفتاة».

قال مولاندر: «نعم، ثم إن الأمر يتطلّب رجلًا كي يجعل منها امرأةً. تعالَ معنا يا پايت. والجريف العجوز سيستيقظ حين تُشرِق الشّمس، وسيحتاج إلى مساعَدتك في الذّهاب إلى المرحاض».

هذا *إذا تذكّر من أنا اليوم*. لا يجد المِايستر الرّئيس والجريف صعوبةً في التّمييز بين غُدافٍ وآخر، لكنه لا يملك المهارة نفسها مع البَشر، وفي بعض الأيام يحسب پايت شخصًا آخر اسمه كرسن. قال لأصدقائه: «ليس بعدُ، سأبقى قليلًا». الفَجر لم يطلع بعدُ، ليس تمامًا، وربما يكون الخيميائي ما زالَ قادمًا، وإذا جاءَ فپايت ينوي أن يجده هنا.

قال آرمن: «كما تُريد»، وحدجَ أليراس پايت بنظرةٍ طويلة، ثم علّق قوسه على كتفه النّحيلة وتبعَ الآخَرين نحو الجسر. كان مولاندر سكران لدرجةٍ جعلَته يضطرُّ إلى المشي مستندًا إلى كتف روون كي لا يقع. ليست (القلعة) بعيدةً بسُرعة طيران الغُداف، لكن لا أحد منهم غُداف، و(البلدة القديمة) متاهة فعليّة، ملأى بالمنعطفات والأزقّة المتقاطعة والشّوارع الضيّقة الملتوية. سمعَ پايت آرمن يقول إذ ابتلعَ ضباب النّهر أربعتهم: «احذروا، اللّيلة كانت رطبةً وستجدون حجارة الشّوارع زلقةً».

لمّا رحلوا تطلّع ليو إلى پايت بنظرةٍ فظّة عبر المائدة، وقال: «محزن، أبو الهول هجرَني بفضّته كلّها وتركَني لپايت المبقّع فتى الخنازير»، وعادَ يتمطّى متثائبًا، وسألَ: «كيف حال خلوتنا روزي يا تُرى؟».

أجابَ پايت باقتضاب: «إنها نائمة».

قال ليو بابتسامةٍ عريضة: «عاريةً بلا شك. أتحسب أنها تستحقُّ تنّينًا كاملًا بحق؟ أظنُّ أن عليّ أن أعرف الإجابة بنفسي ذات يوم»، وحين لم يتكلّم پايت الأعقل من أن يردّ، تابعَ ليو الذي لم يحتَج إلى رَد: «أتوقّعُ بمجرّد أن ألج الفتاة سينهار سِعرها بحيث يقدر عليه صِبية الخنازير أنفسهم. يَجدُر بك أن تشكُرني».

فكّر پايت: *يَجدُر بي أن أقتلك*، وإن لم يكن سكران لدرجة أن يُبدِّد حياته، فليو ممرّن على السّلاح، ومعروف بأنه مميت حقًّا حين يُقاتِل بسيف مُبارزي البراڤو والخنجر، وحتى إذا استطاعَ پايت بوسيلةٍ ما أن يَقتله، فمعنى هذا أن يفقد رأسه بالتَّبعيّة. لليو اسمان في حين أن لپايت اسم واحد، واسمه الثّاني تايرل. السير مورين تايرل قائد حَرس المدينة في (البلدة القديمة) هو أبو ليو، ومايس تايرل سيّد (هايجاردن) وحاكم الجنوب ابن عمّه، ناهيك بأن شيخ (البلدة القديمة) اللورد لايتون سيّد (البُرج العالي) -الذي تضمُّ ألقابه العديدة لقب «حامي القلعة»- من حمَلة راية عائلة تايرل والمقسمين لها على الولاء. قال پايت لنفسه: *لا عليك، إنه يقول ما يقوله ليجرحني لا أكثر*.

كان الضّباب قد بدأ ينقشِع في الشّرق، فأدرك پايت أنه الفَجر. *الفَجر طلعَ والخيميائي لم يأتِ*. لم يدرِ إن كان عليه أن يضحك أم يبكي. *هل سأظلُّ لصًّا إذا وضعتُ كلّ شيءٍ في مكانه ولم يدرِ أحد؟* سؤال آخَر بلا إجابةٍ عنده، كالأسئلة التي طرحَها عليه إيبروز وڤايلين من قبل.

عندما دفعَ نفسه عن المائدة ونهضَ، صعدَت خمر الثُفّاح القويّة للغاية إلى رأسه دُفعةً واحدةً، واضطرَّ إلى وضع يده على المائدة ليقف ثابتًا، ثم إنه قال على سبيل الوداع: «دَع روزي وشأنها، دَعها وشأنها وإلّا ربما أقتلك».

نقرَ ليو تايرل خُصلة الشّعر عن عينه بإصبعه، وقال: «لا أبارزُ صِبية الخنازير. ارحل».

دارَ پايت وقطعَ الشُرفة، وتعالَت دقّات كعبيه على ألواح الجسر الخشبي القديم البالية، ولدى بلوغه الضّفّة الأخرى كانت سماء الشّرق قد بدأت تصطبِغ بلونٍ وردي.

قال لنفسه: *العالم فسيح. إذا اشتريتُ حمارًا فما زالَ يُمكنني أن أجول في طرقات (الممالك السّبع) ومسالكها، أعلّق العَلق للعامّة وأفلّي شَعرهم من القمل. يُمكنني أن ألتحق بطاقم سفينةٍ ما وأعمل مُجذفًا، أبحرُ إلى (كارث) عن طريق (بوّابات اليَشب) وأرى تلك التّنانين اللّعينة بنفسي. لا يوجَد ما يدعوني إلى العودة إلى والجريف العجوز والغِدفان.*

ولكن بشكلٍ ما قادَته خُطاه إلى طريق (القلعة).

حين نفذَ أول خيوط ضوء الشّمس من الشحب إلى الشّرق بدأت أجراس الصّباح تدقُّ في (سِپت البحّارة) عند الميناء، وبَعد لحظةٍ انضمَّت إليها أجراس (سِپت اللورد)، ثم (المقامات السّبعة) من حدائقها عبر النّهر، وأخيرًا (السّپت النّجمي) الذي كان مقرّ السّپتون الأعلى طيلة ألف عامٍ قبل أن يرسو إجون في (كينجز لاندنج). معًا صنعَت الأجراس موسيقى جليلةً حقًّا. *وإن لم تكن بعذوبة صوت عندليبٍ واحدٍ صغير.*

ترامى إلى مسامعه الإنشاد أيضًا بصوتٍ أدنى من رنين الأجراس. في كلّ صباحٍ مع أول ضوءٍ يجتمع الرّهبان الحمر للتّرحيب بالشّمس خارج معبدهم المتواضع المجاور لأرصفة الميناء. *فالليل مظلمٌ ومفعمٌ بالأهوال.* لقد سمعَهم يهتفون بتلك الكلمات مئة مرّة، يسألون إلههم راهلور أن يُنقِذهم من الظُّلمات. يكتفي پايت بالآلهة السّبعة، لكنه سمعَ أن ستانيس باراثيون يتعبّد عند النّار اللّيليّة الآن، بل ووضعَ قلب راهلور النّاري على راياته بدلًا من الوعل المتوّج. فكّر پايت: *إذا ارتقى العرش الحديدي سيكون علينا جميعًا أن نتعلّم كلمات أنشودة الرُّهبان الحمر،* لكنه لا يعتقد أن شيئًا كهذا محتمَل، فقد حطّم تايوين لانستر ستانيس وراهلور في معركة (النّهر الأسود)، وقريبًا سيُجهِز عليهما ويُعَلّق رأس المدّعي باراثيون فوق بوّابات (كينجز لاندنج).

إذ زالَ ضباب الصُّبح بدأت (البلدة القديمة) تستردُّ شكلها من حوله، تَبرز ككيانٍ شبحي من عتمة ما قبل الفَجر. لم يرَ پايت (كينجز لاندنج) قَطُّ، لكنه يعلم أنها مدينة أبنيتها من الجِصّ والأغصان المجدولة، امتداد من الشُّوارع الطِّينيّة والسّقوف القَش والبيوت الخشبيّة. أمّا (البلدة القديمة) فمبنيّة بالحجارة، وشوارعها كلُّها معبّدة بحجر الإسكافي، بل وأحقر أزقّتها كذلك. لا تبدو المدينة أجمل أبدًا مما تبدو عند بزوغ الفَجر. فغرب النّهر تصطفُّ دور الرّابطات المختلفة على الضّفّة كالقصور، وفي اتّجاه المنبع ترتفع قباب وأبراج (القلعة) على الضّفّتين، تربط بينها الجسور الحجريّة المتخَمة بالقاعات والمنازل، وفي اتّجاه المصب، أسفل أسوار (السّپت الحجري) الرُّخام السّوداء ونوافذه المقنطرة، تحتشد إيوانات المتديّنين كأطفالٍ مجتمعين عند قدمَي أرملةٍ عجوز من الأعيان.

ووراء كلّ هذا، حيث يتّسع (نهر البِتع) ويمتزج بـ(النّهر الهامس)، يرتفع (البُرج العالي) وتتّقد نار منارته في ضوء الفَجر، ومن مكانه فوق جُروف (جزيرة المعركة) يقطع ظِلّه المدينة كالسّيف. مَن وُلِدوا ونشأوا في (البلدة القديمة) يعرفون ساعات النّهار عن طريق هذا الظّل، ويَزعم بعضهم أنك تستطيع أن ترى (الجِدار) نفسه إذا وقفت على القمّة. ربما لهذا السّبب لم ينزل اللورد لايتون من أعلى منذ أكثر من عقدٍ من الزّمن، مفضّلًا أن يَحكُم مدينته من بين السّحاب.

قعقعت عربة جزّارٍ مارّةً ببايت في طريق النّهر وفي مؤخّرتها خمسة خنازير صغيرة تُصرخ مذعورةً، وقد تحاشاها بايت في الوقت المناسب فتفادى أن تتناثر عليه الفضلات التي أفرغَتها امرأة من نافذةٍ بالأعلى. فكّر: حين *أصبح مِايستر في قلعةٍ سأمتطي حصانًا*، ثم إنه تعثّر في حجرٍ وتساءلَ مَن يُحاوِل أن يخدع. لا سلسلة له، لا مقعد إلى مائدةٍ عالية عند أحد اللوردات، لا حصان أبيض طويلًا يركبه. سيمضي أيامه في الإصغاء إلى نعيب الغِدفان وتنظيف ثياب المِايستر الرّنيس والجريف الدّاخليّة من بُقع الغائط.

كان جاثيًا على رُكبته يُحاوِل مسح ردائه من الطّين حين سمعَ صوتًا يقول: «طابَ صباحك يا بايت».

وكان الخيميائي واقفًا فوقه.

نهضَ پايت قائلًا: «اليوم الثّالث... قلت إنك ستكون في (الرّيشة والدّورق)».

- «كنتَ مع أصدقائك، ولم أرغب في التّطفُّل على ضحبتكم». يرتدي الخيميائي معطف مُسافرين مزوّدًا بقلنسوة، بني اللّون ويخلو من أيّ علاماتٍ مميّزة، وقد بدأت الشّمس المشرقة تطلُّ من فوق سقوف المباني وراء كتفه جاعلةً إبصار الوجه تحت القلنسوة صعبًا. «هل قرّرت ماذا تكون؟».

أيجب أن يجعلني أقولها؟ «أظنُّ أني لص».

- «هذا ما حسبته».

أصعب ما في الأمر كان أن يركع على يديه وركبتيه ليسحب الصّندوق المنيع من تحت فِراش المِايستر الرّئيس والجريف، وعلى الرغم من أن الصّندوق قويٌّ ومدعَّم بالحديد، فقفله مكسور، وكان المِايستر جورمون قد شَكَّ في أن پايت قد كسرَه، لكن ذلك غير صحيح، فقد كسرَ والجريف القفل بنفسه بَعد أن فقدَ مفتاحه.

في الدّاخل وجدَ پايت كيسًا من الأيائل الفضّيّة، وخُصلةً من الشّعر الأصفر مربوطةً بشريط، وصورةً منمنمةً مرسومةً لامرأةٍ تُشبِه والجريف (بما في ذلك الشّارب)، بالإضافة إلى قُفّاز فارس مصنوع من الفولاذ المقعّر لتسهيل حركة اليد. يَزعُم والجريف أن القُفّاز كان ملكًا لأمير، ولكن يبدو أنه نسيَ أيَّ أميرٍ هو، ولمّا رَجَّ پايت القُفّاز سقطَ منه المفتاح على الأرض.

يَذكُر أنه فكّر لحظتها: *إذا أخذته فأنا لص*. المفتاح قديم وثقيل، مصنوع من الحديد الأسود، ويُفترَض أنه يفتح كلّ بابٍ في (القلعة). لا أحد إلّا رؤساء المِايسترات يحمل مفاتيح كهذه، ويحتفظ الآخَرون بمفاتيحهم معهم طوال الوقت أو يُخفونها في مكانٍ آمن، لكن لو أخفى والجريف مفتاحه لما رآه أحد ثانيةً أبدًا. اختطفَ پايت المفتاح، وكان قد قطعَ نِصف الطّريق إلى الباب قبل أن يعود أدراجه ويأخذ الفضّة أيضًا. اللّص لصٌ سواء أسرقَ القليل أم الكثير. سمعَ أحد الغِدفان البيضاء يُناديه: «*پايت، پايت، پايت!*».

سألَ الخيميائي: «هل معك تنّيني؟».

- «إذا كان معك ما أطلبه».

قال پايت الذي لا ينوي أن ينخدِع: «أعطِني إياه، أريدُ أن أراه».

- «طريق النّهر ليس المكان المناسب. تعالَ».

لم يجد وقتًا ليُفكّر، ليزن خياراته. كان الخيميائي يبتعد، وعلى پايت أن يتبعه أو يفقد روزي والتنّين في آنٍ واحدٍ إلى الأبد. هكذا تبعَه، وإذ مشيا دَسّ يده في كُمّه متحسّسًا المفتاح الموضوع بأمانٍ في الجيب الخفي الذي خاطَه هناك. ثياب المِايسترات مليئة بالجيوب، وهو يعرف هذا منذ كان صبيًا صغيرًا.

اضطرّ إلى الهروع كي يلحق بخُطوات الخيميائي الواسعة. قطعا زُقاقًا ودارا حول منعطِف وعبرا (سوق اللُّصوص) القديمة وسارا بطول (عطفة الزَّبّالين)، وأخيرًا دخلَ الرّجل زُقاقًا آخر أكثر ضيقًا من الأول، فقال پايت: «ابتعدنا بما يكفي. لا أحد في الجوار. سنُجري المبادَلة هنا».

- «كما ترغب».

- «أريدُ تنّيني».

- «بالتّأكيد». وظهرَت العُملة، وراح الخيميائي يُنقِّلها على مفاصل أصابعه مِثلما فعلَ حين أجزت روزي اللّقاء بينهما، والتمعَ التنّين في ضوء الصّباح ملقيًا وهجًا ذهبيًا على أصابع الخيميائي.

التقطَه پايت من يد الرّجل ليحسّ بدفء الذّهب على راحته، ثم إنه رفعَه إلى فمه وعَضّ عليه كما رأى النّاس يفعلون، مع أن الحقيقة أنه لا يعرف مذاق الذّهب، لكنه لم يُرِد أن يبدو كالحمقى.

تساءلَ الخيميائي بنبرةٍ مهذّبة: «المفتاح؟».

جعلَ شيء ما پايت يتردّد ويسأل: «هل تُريد كتابًا ما؟». يُقال إن بعض المخطوطات الڤاليريّة القديمة في الخزائن المغلقة هي آخِر النُّسخ الموجودة في العالم.

- «ما أريده ليس من شأنك».

- «لا». *انتهى الأمر. اذهب، اجرِ إلى (الرّيشة والدّورق) وأيقِظ روزي بقُبلة وقُل لها إنها لك*. هكذا فكّر پايت، وعلى الرغم من هذا لم يتحرّك وقال: «أرِني وجهك».

قال الخيميائي: «كما ترغب»، وأنزلَ قلنسوته.

مجرّد رجلٍ ووجهه مجرّد وجه، وجه رجلٍ شاب، تقليدي، لحيته خفيفة للغاية ووجنتاه ممتلئتان، وعلى اليُمنى ندبة باهتة، وأنفه معقوف وشَعره الأسود الكثيف يتجعّد بشدّةٍ حول أُذنيه، ليس وجهًا مألوفًا لپايت الذي قال: «لستُ أعرفك».

- «ولا أنا أعرفك».

- «مَن أنت؟».

- «غريب، لا أحد حقًا».

- «أوه». كان الكلام قد نفدَ من پايت، فأخرجَ المفتاح ووضعه في كفِّ الغريب شاعرًا بالدُّوار يكاد يكتنف رأسه. قال لنفسه مذكّرًا: روزي، ثم قال للرّجل: «انتهينا إذن».

كان قد قطعَ نِصف الزُّقاق حين أحسَّ بحجارة الرّصف تتحرّك تحت قدميه، ففكّر: *الحجارة مبتلّة وزلقة*، لكن الأمر لم يكن كذلك. كان قلبه يدقُّ بعُنف في صدره، وقال شاعرًا بقدميه تستحيلان إلى ماء: «ماذا يَحدث؟ لستُ أفهمُ».

قال صوت بحُزن: «ولن تفهم أبدًا».

مسرعةً، ارتفعت حجارة الشّارع لتقبّله، وحاولَ پايت أن يصيح طالبًا النّجدة، إلّا أن صوته تخلّى عنه أيضًا.

وآخِر ما فكّر فيه كان روزي.

---

(1) البتع هو نبيذ العسل. (المترجم).

(2) العلَقات كائنات طفيليّة تُشبه الدّيدان وتمتصّ الدّماء، وبدأ استخدامها قبل ألفي عام بغرض تطهير الجسد من الدّم الفاسد بعمليّة كانت تُعرَف بتعليق العلق، بالإضافة إلى الحفاظ على الدّم من التّجلُّط في أثناء الجراحة. (المترجم).

(3) المِزر نوع من البيرة يستغرِق فترةً أقصر حتى يختمر، ومذاقه غير مُر. (المترجم).

(4) الحرملة رداء قصير واسع يُحيط بالعنق ومفتوح من الأمام. (المترجم).

(5) الدّرواس كلب قبيح الشّكل شديد الضّخامة يُستخدَم في الصّيد والحراسة. (المترجم).

(6) حلبة الجرذان منطقة مغلقة توضَع فيها الجرذان لتقتلها الكلاب، وكان هذا النّشاط يُمارَس في أوروبا حتى منعه البرلمان البريطاني في منتصف القرن التّاسع عشر. (المترجم).

كان النّبي يُغرِق عددًا من الرّجال في (ويك الكُبرى) حين أتوه بنبأ موت الملك.

في هذا الصّباح البارد الكئيب تلوّن البحر مِثل السّماء بدرجةٍ قاتمة من الرّمادي، وكان أول ثلاثة رجالٍ قد قدّموا حياتهم للإله الغريق بلا خوف، لكن رابعهم ضعيف الإيمان، وقد بدأ يُقاوِم بينما راحت رئتاه تُصرخان طالبتين الهواء. واقفًا وسط الأمواج المتكسّرة المرتفعة حتى خصره، أطبقَ آرون على كتفَي الصّبي العاري وعاد يدفع رأسه تحت الماء وهو يُحاوِل انتزاع بضعة أنفاس، وقال له: «تشجَّع. من البحر جئنا وإلى البحر نعود. افتح فمك وانهل من بَركة الإله، املأ رئتيك بالماء كي تموت وتُولَد من جديد. لن تُجديك المقاوَمة نفعًا».

إمّا أن الصّبي لم يسمعه ورأسه تحت الأمواج، وإمّا أن إيمانه تخلّى عنه بالكامل، إذ بدأ يَركُل ويتلوّى بضراوةٍ أرغمَت آرون على طلب المساعَدة، فأقبلَ أربعة من رجاله الغرقى خائضين ليقبضوا على المأفون ويُثبّتوه تحت الماء، وبصوتٍ عميق كالبحر نفسه صلّى الرّاهب قائلًا: «إلهنا الذي غرقَ من أجلنا، اجعل خادمك إموند يُولَد ثانيةً من البحر كما وُلِدتَ. بارِكه بالملح، بارِكه بالحجر، بارِكه بالفولاذ».

أخيرًا انتهى الأمر؛ كفّت فقاقيع الهواء عن الخروج من فم الصّبي، وغادرَت القوّة كلُّها أطرافه، وطفا إموند على وجهه في مياه البحر الضّحلة، جسده شاحب بارد ساكن.

عندئذٍ انتبه ذو الشّعر الرّطب إلى وجود ثلاثة خيّالة انضمّوا إلى رجاله الغرقى على حصى الشّاطئ. تعرّف آرون ابن سيار، العجوز ذا الوجه الطّويل النّحيف والعينين الدّامعتين، الذي يُعَدُّ صوته الرّاجف قانونًا في هذه المنطقة من (ويك الكُبرى)، وقد اصطحبَه ابنه ستيفاريون وشاب آخَر يرتدي معطفًا مبطّنًا بالفرو الأحمر القاني، يُثبّته إلى كتفه مشبك منمّق عليه رمز عائلة جودبراذر، البوق الحربي بلونيه الذّهبي والأسود. أدركَ الرّاهب مَن يكون بمجرّد النّظر، وقال لنفسه: *أحد أبناء جورولد*. ثلاثة أبناء أنجبَتهم زوجة جودبراذر في سِنٍّ متأخّرة بَعد دستةٍ من الفتيات، ويُقال إن لا أحد يستطيع التّمييز بين الإخوة الثّلاثة، فلم يتكرّم آرون ذو الشّعر الرّطب بمجرّد المحاوَلة. سواء أكان هذا جرايدون أم جورموند أم جران، فليس لدى الرّاهب وقت له.

زمجرَ بأمرٍ مقتضَب، فقبضَ رجاله الغرقى على ذراعَي الصّبي الميت وساقيه ليحملوه فوق منسوب المياه، وتبعَهم الزّاهب عاريًا إلّا من خرقةٍ من جِلد الفقمات تَستُر عورته. ببشرةٍ مقشعرة يَقطُر منها الماء عادَ إلى اليابسة خاطيًا فوق الرّمال الباردة المبتلّة والحصى الذي جلاه البحر، وناولَه أحد رجاله الغرقى ثوبًا من الخيش المبرقَش بدرجات الأخضر والأزرق والرّمادي، ألوان البحر والإله الغريق. ارتدى آرون الثّوب وحَلّ خُصلات شَعره، ذلك الشّعر الأسود المبتل الذي لم تمسّه شفرة منذ لفظَه البحر، لينسدل على كتفيه كمعطف خفيف رَثّ ويتجاوَز خصره، وقد حبك آرون جدائل من الطّحالب البحرية في ثناياه وفي لحيته المتشابكة الطّليقة.

كوّن رجاله الغرقى حلقةً حول الصّبي الميت وشرعوا في الصّلاة، وتولّى نورجن تحريك ذراعيه بينما ركعَ روس فوقه منفرِج السّاقين وأخذَ يضغط على صدره، لكن الجميع أفسحوا الطّريق لآرون، الذي دَسّ أصابعه بين شفتَي الصّبي الباردتين وفتحَهما، ثم أعطى إموند قُبلة الحياة مرّةً ثم أخرى ثم أخرى، إلى أن تدفّق البحر من فمه، وبدأ الصّبي يَسعُل ويَبصُق، وانفتحَت عيناه المليئتان بالخوف.

واحد آخر يعود. يقولون إنها أمارة على مُحاباة الإله الغريق، فكلُّ راهبٍ سواه يفقد رجلًا بين الحين والآخر، حتى تارل الغارق ثلاثًا الذي رآه النّاس ذات يومٍ رجلًا تقيًا للغاية، لدرجة أنه اختيرَ لأن يُتوَّج ملكًا بنفسه... الكلُّ باستثناء ذي الشّعر الرّطب الذي رأى أبهاء الإله المائيّة رأي العين وعادَ ليحكي عنها. قال للضّبي الذي يَبصُق الماء وهو يُرَبِّت على ظَهره العاري: «انهض. لقد أغرِقت وأُعِدت إلينا. ما ماتَ لا يُمكن أن يموت أبدًا».

غمغمَ الضّبي: «بل يُبعَث»، وسعلَ بعُنفٍ مُخرجًا المزيد من الماء. «يُبعَث من جديد». كلُّ كلمةٍ ينقطها معاناة، لكن هذا ديدن العالم، ويجب أن يُكافِح المرء ليعيش. كزر إموند: «يُبعَث من جديد»، ونهضَ بصعوبةٍ مكملًا: «أقوى وأصلب».

قال له آرون: «إنك تنتمي إلى الإله الآن»، وتجمَّع باقي الرّجال الغرقى حول الضّبي، لينال من كلٍّ منهم لكزةً وقُبلةً على سبيل التّرحيب به في أخوّتهم. ساعدَه أحدهم على ارتداء ثوبٍ من الخيش المصبوغ بالأزرق والأخضر والرّمادي، وقدَّم له آخر هراوةً من الخشب المجروف، فيما قال آرون: «إنك تنتمي إلى البحر الآن، ولذا سلّحك البحر. ندعو إلهنا أن تحمل هراوتك بضراوةٍ ضد كلِّ أعدائه».

لحظتها فقط التفت الرّاهب إلى الرّاكبين الثّلاثة الذين يُشاهِدون من فوق خيولهم، وسألَهم: «هل جئتم لتُغرَقوا أيها السّادة؟».

سعلَ ابن سپار، وأجابَ: «لقد أُغرِقتُ في صباي، وابني يوم ميلاده».

أطلقَ آرون نخيرًا ساخرًا. لا شَكّ لديه في أن ستيفاريون سپار وُهِبَ إلى الإله الغريق عقب مولده، بل ويعرف الكيفيّة أيضًا؛ غمسة سريعة في حوضٍ مليء بماء البحر الذي بلّل رأس الرّضيع بالكاد. لا عجب في أن حديديّي الميلاد قد قُهِروا، أولئك الذين كانوا فيما مضى يبسطون سُلطانهم على كلّ مكانٍ يُسمَع فيه صوت الموج. خاطبَ الرّاهب الرّاكبين قائلًا: «ذلك ليس إغراقًا حقًّا. مَن لا يموت فعلًا لا أمل له في العودة من الموت. لماذا أتيتم إذن إن لم يكن لإثبات إيمانكم؟».

أشارَ ابن سپار برأسه إلى الشّاب في المعطف الأحمر مجيبًا: «ابن اللورد جورولد جاءَ يسعى إليك حاملًا أخبارًا».

لا يبدو أن الصّبي يتجاوَز السّادسة عشرة من العُمر، وقد سألَه آرون: «نعم، وأيُّهم أنت؟».

- «جورموند، جورموند جودبراذر، إذا سمحَ سيّدي».

- «الإله الغريق هو من يجب أن تَطلُب سماحه. هل أُغرِقتَ يا جورموند جودبراذر؟».

- «يوم ميلادي يا ذا الشّعر الرّطب. لقد أرسلَني أبي لأجدك وآخذك إليه، يُريد أن يراك».

ردّ آرون: «هأنذا، فليأتِ اللورد جورولد ويُمَتّع نظره»، وتناولَ من روس قِربةً جِلديّةً مملوءةً للتّوّ بماء البحر، وخلعَ سِدادتها وأخذَ رشفةً.

قال جورموند الشّاب بإصرارٍ من فوق حصانه: «المفترَض أن آخذك إلى القلعة».

يخشى أن يترجّل وإلّا ابتلّ حذاؤه. «إنني مشغول بعمل الإله». آرون جرايچوي نبي، ولا يُطيق أن يُلقي عليه اللوردات التّافهون الأوامر كأنه قِنٌّ[7] من الأقنان.

قال ابن سپار: «جورولد وصلَ إليه طائر».

أضافَ جورموند مؤكِّدًا: «طائر من المِايستر في (پايك)».

أجنحة سوداء، أخبار سوداء. «الغِدفان تطير فوق الملح والحجارة. إذا كانت هناك أخبار تعنيني فتكلّم الآن».

أجابَه ابن سپار: «الأخبار التي نحملها لأذنيك وحدك يا ذا الشّعر الرّطب، ليست أشياء أرغبُ في الكلام عنها هنا أمام هؤلاء الآخرين».

- «هؤلاء الآخرون رجالي الغرقى، خدم الإله، مِثلي تمامًا، ولستُ أخفي أيّ أسرارٍ عنهم أو عن إلهنا الذي أقفُ عند بحره المقدّس».

تبادلَ الرّاكبون نظرةً، ثم قال ابن سپار: «أخبِره»، فاستجمعَ الشّاب في المعطف الأحمر شَجاعته، وأعلنَ: «الملك ماتَ». بهذه البساطة قالها، كلمتان صغيرتان لكن البحر نفسه ارتجفَ حين نطقَهما.

في (وستروس) ملوك أربعة، لكن آرون لم يحتَج إلى سؤاله مَن يقصد. بالون جرايچوي لا غيره كان حاكم (جُزر الحديد). *الملك ماتَ. كيف هذا؟* كان آرون قد رأى أخاه الأكبر قبل أقلّ من دورة قمر، لمَّا عادَ إلى (جُزر الحديد) من الإغارة على (السّاحل الحجري). في غياب الرّاهب ابيضَّ نِصف شَعر بالون الأشيب، ولاحت انحناءة كتفيه أكثر مما كانت عندما أقلعَت الشّفن الطّويلة من الوطن، لكن إجمالًا لم تبدُ على الملك علامات المرض.

لقد شيّد آرون جرايچوي حياته على عِمادين راسخين، وتلكما الكلمتان الصّغيرتان هدمَتا أحدهما. *لم يبقَ لي إلّا الإله الغريق، فعسى أن يجعلني قويًا مثابرًا كالبحر.* «أخبِرني كيف ماتَ أخي».

- «كان جلالته يَعبُر جسرًا في (پايك)، وسقطَ ليتحطَّم جسده على الصُّخور».

ينتصِب معقل آل جرايچوي على لسانٍ أرضي محطّم، حصونه وأبراجه مبنيّة فوق ثلاث كوماتٍ عملاقة من الحجارة المرتفعة من البحر، وتربط الجسور بعض (پايك) ببعض؛ جسور مقنطَرة من الحجر المنحوت، وأخرى متأرجحة من الألواح الخشبيّة وحبال القِنّب.

سألَهم آرون: «هل كانت العاصفة ثائرةً حين سقطَ؟».

أجابَه الشّاب: «نعم، كانت ثائرةً».

أعلنَ الزّاهب: «إله العواصف أطاح به». منذ ألف ألف عامٍ والحرب بين البحر والسّماء مضطرمة. من البحر جاءَ حديديُو الميلاد والأسماك التي يقتاتون بها حتى في غمق الشّتاء، لكن العواصف لا تأتي إلّا بالويل والحُزن. «أخي بالون جعلَنا عظامًا من جديد، وهو ما جلبَ عليه غضبة إله العواصف. إنه يأكل وليمةً الآن في أبهاء الإله الغريق المائيّة، حيث تُلَبّي عرائس البحر كلَّ رغبةٍ له، وعلينا نحن الباقون في هذا الوادي الموحش اليابس أن نتمّ عمله العظيم»، ودسّ آرون الشدادة في قِربة الماء مضيفًا: «سأتكلّمُ مع السيّد والدك. كم المسافة من هنا إلى (هامرهورن)؟».

- «ستة فراسخ. ستركب معي».

- «واحد يركب أسرع من اثنين. أعطِني حصانك وسيُبارِكك الإله الغريق».

قال ستيفاريون سبار: «خُذ حصاني يا ذا الشّعر الرّطب».

- «لا، حصانه أقوى. حصانك يا فتى».

تردّد الشّاب لحظةً خاطفةً قبل أن يترجّل ويُمسك العِنان لآرون، الذي دَسّ قدمًا سوداء حافيةً في أحد الرِّكابين، ثم وثبَ فوق السّرج. إنه ليس مغرمًا بالخيول، فهي مخلوقات من الأراضي الخضراء تُساعِد على إضعاف البَشر، لكن الحاجة تُجبِره على الرُّكوب. *أجنحة سوداء، أخبار سوداء.* ثمّة عاصفة في طور الميلاد، بإمكانه أن يسمعها في الأمواج، والعواصف لا تجلب إلّا الشّرور. قال لرجاله: «قابِلوني في (بلدة الحصى) أسفل بُرج اللورد مرلين»، وأدارَ رأس حصانه وانطلقَ.

الطّريق وعر، وقد مضى آرون فيه صاعدًا تلالًا ومجتازًا غاباتٍ وأخاديد حجريّةً محدودةً، ثم قطعَ دربًا ضيّقًا أخذَ يختفي بين الحين والآخَر تحت حوافر الحصان. (ويك الكُبرى) أوسع (جُزر الحديد)، ضخمة لدرجة أن لعددٍ من لورداتها أملاكًا لا تطلّ على البحر المقدّس، وجورولد جودبراذر أحد هؤلاء، فقلعته مقامة في تلال (الحجر الصّلب)، أبعد عن ملكوت الإله الغريق من أيّ مكانٍ آخَر في الجُزر كلّها، ويكدح قومه في ظُلمة مناجمه الحجريّة تحت الأرض، حتى إن بعضهم يعيش ويموت دون أن يرى المياه المالحة ولو مرّةً. *لا غرو أن قومًا كهؤلاء فاسدو الطّباع وغُرباء الأطوار.*

وبينما ركبَ آرون تحوّلت أفكاره إلى إخوته.

تسعة أبناء وُلِدوا من صُلب كويلون جرايچوي سيِّد (جُزر الحديد). هارلون وكوينتون ودونل أنجبتهم زوجة اللورد كويلون الأولى التي كانت من عائلة ستونتري، وبالون ويورون وڤيكتاريون ويوريجون وآرون جاءوا من زوجته الثّانية التي كانت من آل سندرلي أولاد (جُرف الملح). أمّا زوجته الثّالثة فكانت فتاةً من الأراضي الخضراء أعطته ابنًا أحمق سقيمًا اسمه روبن، الأخ الذي يُستحسَن أن يُنسى. لا يَذكُر الرّاهب كوينتون أو دونل اللذين ماتا وأظفارهما لا تزال ناعمةً، وهارلون يَذكُره بشكلٍ ضبابي، جالسًا بثباتٍ ووجهٍ رمادي في غُرفة بُرجٍ بلا نوافذ، يتكلَّم بهمسٍ يَخفُت يومًا بَعد يومٍ والدّاء الأرمد يُحيل شفتيه ولسانه إلى حجر. ذات يومٍ *سنحتفل بمأدبةٍ من الأسماك معًا في أبهاء الإله الغريق المائيّة، نحن الأربعة ومعنا يوري أيضًا.*

تسعة أبناء وُلِدوا من صُلب كويلون جرايچوي، لكن أربعةً منهم فقط عاشوا وبلغوا سِنّ الرُّجولة. إنه سَمت هذا العالم البارد، حيث يصطاد الرِّجال من البحر ويَحفُرون في الأرض ويموتون، بينما تلد النِّساء أطفالًا قصار الأجل في أسرَّة الدَّم والألم. آرون أصغر وأدنى الكَراكِن[8] الأربعة، وبالون أكبرهم وأجرأهم، صبيٌّ قويٌّ مقدام لم يَعِش إلَّا لإعادة حديديِّي الميلاد إلى مجدهم التَّليد. في سِنّ العاشرة تسلَّق (جُروف الصَّوَّان) إلى بُرج اللورد الأعمى المسكون، وفي الثَّالثة عشرة كان بإمكانه أن يُبحِر بسفينةٍ طويلة ويَرقُص رقصة الأصابع ببراعة أيِّ رجلٍ من الجُزر، وفي الخامسة عشرة أبحرَ مع داجمر ذي الفَك المفلوق إلى (الأعتاب) وأمضى صيفًا في الإغارة، وهناك قتلَ رجلًا للمرَّة الأولى واتَّخذ لنفسه أول زوجتين ملحيَّتين، وفي السَّابعة عشرة صارَ بالون رُبّانًا على سفينته الخاصَّة. كان بالون كلَّ ما ينبغي أخٍ كبير أن يكونه، مع أن آرون لم يرَ منه إلَّا الازدراء. *كنتُ ضعيفًا ومحمَّلًا بالخطايا، والازدراء أكثر مما استحقَقتُ. خيرٌ لي أن يزدريني بالون الشُّجاع من أن يُحِبَّني يورون عين الغُراب*. لكن إذا أفعمَت السِّنون والأحزان بالون بالمرارة، فقد جعلَته أيضًا أشدَّ عزمًا من أيِّ رجلٍ على قيد الحياة. *لقد وُلِدَ ابنًا للورد ومات ملكًا، قتلَه إله غيور، والآن العاصفة آتية، عاصفة لم تشهد لها هذه الجُزر مثيلًا*.

كان الظّلام قد حَلّ منذ مدّةٍ طويلة عندما لمحَ الرّاهب شُرفات (هامرهورن) ذات البروزات الحديد الحادّة تخدش وجه القمر الهلال. قلعة جورولد ضخمة متناسقة البناء، حجارتها الكبيرة مقتلعَة من الجُرف اللّائح وراءها، وأسفل أسوارها تنفتح مداخل الكهوف والمناجم العتيقة متثائبةً كأفواه سوداء بلا أسنان. وجدَ آرون بوّابة (هامرهورن) الحديديّة مغلقةً وموصدةً مع حلول اللّيل، فدَقّ عليها بصخرةٍ إلى أن أيقظَ الضّجيج أحد الحرس.

الشّاب الذي أدخلَه كان نُسخةً من جورموند الذي أخذَ حصانه، فسألَه آرون: «أيّهم أنت؟».

- «جران. أبي ينتظرك في الدّاخل».

دخلَ الرّاهب القاعة الرّطبة الملأى بالظّلال وتيّارات الهواء، حيث قدّمت له إحدى بنات جورولد قرنًا من المِزر، وحرّكت أخرى جمر نارٍ متواضعة ينبعِث منها دُخان أكثر من الحرارة، فيما انشغلَ جورولد جودبراذر نفسه بحديثٍ خفيض مع رجلٍ نحيل في رداءٍ رمادي أنيق، يضع حول عُنقه سلسلةً حلقاتها من مختلِف المعادن، معلنةً أنه مِايستر من (القلعة).

سألَ جورولد حالما رأى آرون: «أين جورموند؟».

- «عائد على قدميه. اصرف فتاتيك يا سيّدي، والمِايستر أيضًا». إنه لا يُكِنُّ أيّ وُدّ للمِايسترات، فغِدفانهم من مخلوقات إله العواصف، كما أنه لا يثق بأساليبهم في العلاج منذ ما حدث ليوري. لا رجل *حقيقيًا يختار حياةً من العبوديّة أو يسعى إلى تكوين سلسلة قِنٍّ يضعها حول عُنقه.*

قال جودبراذر باقتضاب: «جايزلا، جوين، اترُكانا، وأنت أيضًا يا جران. المِايستر مورنميور سيبقى».

رَدّ آرون بإصرار: «سيذهب».

- «هذه قاعتي يا ذا الشّعر الرّطب، وليس لك أن تُقرّر من يبقى ومن يذهب. المِايستر سيبقى».

قال آرون لنفسه: *الرّجل يحيا بعيدًا جدًا عن البحر.* ثم خاطبَ جودبراذر معلنًا: «إنني راحل إذن»، وأصدرَ الحصير الجاف حفيفًا تحت قدميه الحافيتين السّوداوين المشقّقتين إذ دارَ وبدأ يبتعد، وقد بدا له أنه ركبَ كلَّ هذه المسافة بلا طائل.

كان قد بلغَ الباب تقريبًا حين تنحنحَ المِايستر، وقال: «يورون عين الغُراب جالس على كُرسي حجر اليّم».

التفتَ ذو الشّعر الرّطب، وقد ازدادَت برودة القاعة فجأةً. *عين الغُراب على الجانب الآخر من العالم. بالون طردَه منذ عامين وأقسمَ أن يدفع حياته ثمنًا إذا عادَ.*

قال بصوتٍ مبحوح: «أخبِرني».

وأخبرَه جورولد جودبراذر: «لقد رسا في (لوردزيورت) بَعد موت الملك بيومٍ واحد وأخذَ القلعة والتّاج باعتباره أكبر إخوة بالون، والآن يُرسِل غِدفانًا لاستدعاء الرّبابنة والملوك من كلِّ جزيرةٍ إلى (پايك) ليركعوا له ويُبايعوه ملكًا عليهم».

قال آرون ذو الشَّعر الرّطب دون أن يزن كلماته: «لا، لا حَقَّ إلّا لمؤمن في الجلوس على كُرسي حجر اليَم. عين الغُراب لا يَعبُد إلّا كبرياءه».

تساءلَ جودبراذر: «كنتَ في (پايك) منذ فترةٍ قصيرة ورأيت الملك، فهل ذكرَ لك شيئًا عن الخلافة؟».

نعم. كانا قد تكلّما في (بُرج البحر) بينما تعوي الرّيح خارج النّوافذ وتتكسّر الأمواج بلا انقطاعٍ في الأسفل، وهَزَّ بالون رأسه بقنوطٍ حين أخبرَه آرون بما جرى لابنه الحي الأخير، وقال: «الذّئاب أضعفَته كما خشيت. أدعو الإله أنهم قتلوه، كي لا يعترض طريق آشا». في هذا كان بالون أعمى البصيرة، إذ رأى نفسه في ابنته الجامحة العنيدة واعتقدَ أنها تستطيع أن تخلفه. كان مخطئًا، وقد حاولَ آرون أن يُخبِره بهذا، فقال بإصرار: «لا امرأة ستَحكُم حديديّي الميلاد أبدًا، حتى لو كانت امرأةً كآشا»، إلّا أن بالون اعتادَ أن يصمَّ أذنيه عن كلِّ ما لا يرغب في سماعه.

قبل أن يُجيب الرّاهب جورولد جودبراذر، انفتحَ فم المِايستر ثانيةً ليقول: «شرعًا كُرسي حجر اليَم من حَقِّ ثيون، أو آشا إذا ماتَ الأمير. إنه القانون».

رَدَّ آرون باحتقار: «قانون الأراضي الخضراء، ما قيمته عندنا؟ إننا حديديُّو الميلاد، أولاد البحر ومُختارو الإله الغريق. ليس من حَقِّ امرأةٍ أن تَحكُمنا، أو من حَقِّ أيِّ رجلٍ كافر».

سألَ جورولد جودبراذر: «وڤيكتاريون؟ الأسطول الحديدي تحت قيادته. هل سيُطالِب ڤيكتاريون بالحُكم يا ذا الشَّعر الرَّطب؟».

بدأ المِايستر يتكلَّم: «يورون الأخ الأكبر...».

غير أن آرون أخرسَه بنظرة. في قُرى الصَّيد الصَّغيرة والقلاع الحجريَّة العظيمة على حَدٍّ سواء، نظرة كهذه من ذي الشَّعر الرَّطب كفيلة بإصابة الفتيات بالدُّوار ودفع الأطفال إلى الهروع صارخين إلى أمَّهاتهم، والآن كانت أكثر من كافيةٍ كي يلوذ هذا العبد مغلول العُنق بالصَّمت. قال الرَّاهب: «يورون الأكبر، لكن ڤيكتاريون أتقى».

سألَه المِايستر: «هل ستقوم الحرب بينهما إذن؟».

- «يجب ألَّا يُريق حديديُّو الميلاد دماء حديديِّي الميلاد».

قال جودبراذر: «فكرة ورعة يا ذا الشَّعر الرَّطب، لكنها ليست فكرةً يُشارِكك أخوك إياها. لقد أمرَ بإغراق ساوان بوتلي لقوله إن كُرسي حجر اليَم من حَقِّ ثيون شرعًا».

- «إذا أُغرِقَ فلم تُرَق دماء».

تبادلَ المِايستر واللورد نظرةً، ثم قال جورولد جودبراذر: «عليّ أن أرسل خبزًا إلى (بِايك) قريبًا، وأريدُ نصيحتك يا ذا الشّعر الرّطب. ماذا سيكون إذن؟ البيعة أم العصيان؟».

شَدَّ آرون شَعر لحيته مفكِّرًا: *لقد رأيتُ العاصفة، واسمها يورون عين الغُراب*، ثم أجابَ اللورد قائلًا: «لا تُرسِل إلَّا الصّمت في الوقت الحالي. يجب أن أصلّي قبل أن أجيب».

قال المِايستر: «صَلِّ كما تشاء، لكن ذلك لن يُغيِّر القانون. ثيون الوريث الشّرعي، وبَعده آشا».

هدرَ آرون: «صمتًا! لطالما أصغى حديديّو الميلاد إليكم أيها المِايسترات مغلولو الأعناق وأنتم تُثَرثِرون عن الأراضي الخضراء وقوانينها. حانَ الوقت لأن نُصغي للبحر مجدّدًا، حانَ الوقت لأن نُصغي لصوت الإله». تردّد صوته في القاعة الملأى بالدُّخان رنّانًا مفعمًا بالقوة لدرجة أن جورولد جودبراذر ومِايستره لم يجرؤوا على الرّد. *الإله الغريق معي، وقد أراني السّبيل*.

عرضَ عليه جودبراذر أن يقضي اللّيل مستريحًا في القلعة، لكن الرّاهب رفضَ، فنادرًا ما ينام تحت سقف قلعة، ولا ينام أبدًا على هذا البُعد من البحر. «سأعرفُ الرّاحة في أبهاء الإله الغريق المائيّة تحت الأمواج. لقد وُلِدنا لنُعاني ونستمدَّ القوّة من معاناتنا. لستُ أطلبُ إلّا حصانًا جديدًا يحملني إلى (بلدة الحصى)».

أسعدَ جودبراذر أن يُزَوِّده بالحصان، وأرسلَ ابنه جرايدون أيضًا ليُري الرّاهب الطّريق الأقصر عبر التّلال إلى البحر. كانت تفصلهما عن الفَجر ساعة كاملة حين تحرّكا، لكن حصانيهما قويّان ثابتا الخُطى، وقد قطعا مسافةً لا بأس بها على الرغم من الظّلام. أغلقَ آرون عينيه وردّد دُعاءً صامتًا، وبَعد قليل بدأ الوسن ينتابه وهو راكب.

جاءه الصّوت بخفوت، صرخة مِفصلة الباب الصّدئة. تمتمَ: «يوري»، واستيقظَ خائفًا. *لا توجَد مِفصلة هنا، لا باب، لا يوري.* فأس مقذوفة بترَت نِصف يد يوري وهو في الرّابعة عشرة من العُمر بينما يَرقُص رقصة الأصابع في غياب أبيه وإخوته الأكبر في الحرب. كانت زوجة اللورد كويلون الثّالثة من آل پاييپر أولاد (قلعة العذراء الورديّة)، فتاةٌ ذات ثديين كبيرين غضّين وعينَي ظبية بنّيّتين، وبدلًا من علاج يد يوري على النّهج القديم بالنّار وماء البحر تركَته لمِايسترها القادم من الأراضي الخضراء بدوره، فأكّد الرّجل أنه يستطيع أن يخيط الأصابع المبتورة في مكانها، وقد فعلَ هذا ثم استخدمَ أدويةً وكمّاداتٍ وأعشابًا، لكن اليد تعفّنت وأصيبَ يوري بالحُمّى، ولمّا بترَ المِايستر ذراعه كاملةً كان أوان إنقاذه قد فات.

لم يرجع اللورد كويلون من رحلته الأخيرة، إذ أنعمَ عليه الإله الغريق بالموت في البحر. اللورد بالون هو من رجعَ ومعه أخواه يورون وڤيكتاريون، وحين سمعَ بالون بما أصابَ يوري بترَ ثلاثةً من أصابع المِايستر بساطور طاهٍ وأرسلَ زوجة أبيه ابنة ياپير لتخيطها، لتأتي الأدوية والكمّادات بالنّتيجة نفسها مع المِايستر كما فعلَت مع يوريجون، فماتَ الرّجل وهو يهذي، وسرعان ما تبعَته زوجة اللورد كويلون الثّالثة بينما أخرجَت القابلة فتاةً جهيضةً من رحمها. سُرَّ آرون لهذا، وقد بُتِرَت أصابع يوري بفأسه هو في أثناء رقصهما رقصة الأصابع معًا كما يفعل الأصدقاء والإخوة.

ما زالَ يَشعُر بالخزي كلّما تذكّر السّنين التي تلَت موت يوري. في سِنّ السّادسة عشرة وصفَ نفسه بالرُّجولة، لكن الحقيقة أنه لم يكن أكثر من جوال نبيذٍ بساقين، وقد تعوّد أن يُغنّي ويَرقُص -ولكن ليس رقصة الأصابع التي كَفّ عنها تمامًا- ويمزح ويُثرثِر ويسخر من النّاس، بالإضافة إلى العزف على المزمار وممارَسة ألعاب الحواة وركوب الخيل، والقُدرة على الشُّرب أكثر من آل وينش وآل بوتلي كافّة، ونِصف آل هارلو أيضًا. الإله الغريق يمنح كلّ رجلٍ موهبةً، حتى هو، فلم يكن هناك من يُمكنه أن يبول أطول أو يُوَجِّه بوله أبعد من آرون جرايچوي، كما أثبتَ في كلّ مأدبة. في مرّةٍ راهنَ بسفينته الطّويلة الجديدة مقابل قطيعٍ من الماعز على أنه يستطيع أن يُطفئ نار مستوقَدٍ بقضيبه لا أكثر، والتهمَ آرون لحم الماعز طيلة عامٍ كامل وسمّى سفينته (العاصفة الذّهبيّة)، وإن هدّده بالون بتعليقه من صاريها حين عرفَ شكل المِدَكّ الذي أرادَ أخوه أن يُرَكّبه على مقدّمتها.

في النّهاية غرقَت (العاصفة الذّهبيّة) عند (الجزيرة القصيّة) خلال ثورة بالون الأولى، وقد شطرَها نِصفين قادس[9] حربي هائل اسمه (الثّورة)، لمّا أوقعَ ستانيس باراثيون ڤيكتاريون في فخّه وحطّم الأسطول الحديدي. على أن الإله لم يَفرَغ من آرون وحملَه إلى الشّاطئ، حيث أسرَه بعض الصّيّادين وساقوه إلى (لانسپورت) مكبّلًا بالأغلال، فقضى بقيّة الحرب في أعماق (كاسترلي روك) مثبتًا أن الكَراكن تستطيع أن تبول أطول وتُوَجّه بولها أبعد من الأُسود أو الخنازير البرّيّة أو الدّجاج.

ذلك الرّجل مات. لقد غرقَ آرون وبُعِثَ من جديدٍ من البحر نبيًّا للإله، لا يحسّ خوفًا من أيّ رجلٍ فانٍ ولا يحسّه من الظّلام... أو الذّكريات، عظام الرّوح. صوت *بابٍ يُفتَح، صرخة مِفصلةٍ صدئة*. يورون جاءَ ثانيةً. لا يهمّ. إنه الرّاهب ذو الشّعر الرّطب، محبوب الإله.

سألَه جرايدون جودبراذر وقد بدأت الشّمس تُضيء التّلال: «هل ستقوم حرب؟ حرب بين أخٍ وأخيه؟».

- «إذا شاءَ الإله الغريق. ليس لكافرٍ أن يجلس على كُرسي حجر اليَم». *لكن عين الغُراب سيُقاتِل، هذا مؤكَّد.* لا امرأة تستطيع أن تهزمه، ولا حتى آشا، فالنِّساء مخلوقات لخوض معاركهن في فِراش الولادة. أمَّا ثيون -إذا كان حيًّا- فلا رجاء منه أيضًا، مجرَّد صبيٍّ يعبس ويبتسم لا أكثر. لقد برهنَ في (وينترفل) على قيمته المحدودة أصلًا، لكن عين الغُراب ليس صبيًّا قعيدًا. أسطح سفينة يورون مطليَّة بالأحمر كي تُخفي الدِّماء التي تشبَّعت بها ألواحها. *ڤيكتاريون*، يجب *أن* يكون *الملك ڤيكتاريون وإلَّا دمَّرتنا العاصفة جميعًا.*

تركه جرايدون عندما ارتفعت الشَّمس في السَّماء، ليحمل خبر موت بالون إلى أبناء عمومته في أبراجهم بـ(الخفرة العميقة) و(قلعة قرن الغُراب) و(بحيرة الجُثث)، وواصلَ آرون الطَّريق وحده صاعدًا تلالًا ونازلًا إلى وديانٍ صغيرة، يقطع دربًا حجريًّا أخذَ يتَّسع ويظهر عليه ناس أكثر مع اقترابه من البحر. في كلِّ قريةٍ توقَّف ليعظ، وفي ساحات اللوردات الصِّغار أيضًا، وقد قال للأهالي بصوتٍ عميق كالمحيط راعدٍ كالموج: «من البحر وُلِدنا وإلى البحر نعود جميعًا. في غضبته انتزعَ إله العواصف بالون من قلعته وأطاح به، والآن يأكل وليمةً تحت الأمواج في أبهاء الإله الغريق المائيَّة»، ورفعَ يديه متابعًا: «ماتَ بالون! ماتَ الملك! لكن ملكًا جديدًا سيجيء! عسى الميت ألَّا يموت أبدًا، بل يُبعَث من جديدٍ أقوى وأصلب! سيأتينا ملك!».

ألقى بعض من سمعوه معازقهم ومعاولهم ليتبعوه، وهكذا حين سمعَ الأمواج تتكسّر كانت دستة من الرّجال تمشي وراء حصانه، وقد مسّهم الإله وانتابَتهم الرّغبة في الغرق.

تضمُّ (بلدة الحصى) عدّة آلاف من الصّيّادين الذين شيّدوا أكواخهم حول قاعدة منزلٍ مربّع يرتفع بُرج من كلّ رُكنٍ من أركانه، وهناك وجدَ آرون أربعين من رجاله الغرقى في انتظاره مخيّمين على شاطئٍ رماله رماديّة، في خيامٍ من جِلد الفقمات ومآوٍ من الخشب المجروف. أيديهم اخشوشنَت من الماء المالح، وخلّفت فيها الشّباك والصّنارات النّدوب، وغلّظتها المجاذيف والمعاول والفؤوس، لكن الآن تحمل تلك الأيدي هراواتٍ من الخشب المجروف قويّةً كالحديد، إذ سلّحهم الإله من ترسانته في أعماق البحر.

كانوا قد بنوا للرّاهب مأوى فوق منسوب المياه مباشرةً، وقد زحفَ داخلًا إياه شاعرًا بالشرور بَعد أن أغرقَ أتباعه الجُدد، ثم صلّى: *إلهي، حدّثني بهدير الموج ودلّني على ما يجب أن أفعله. الزّبانية والملوك ينتظرون كلمتك. من سيكون ملكنا بدلًا من بالون؟ غنّ لي بلُغة اللّوِياثانات*[10] *كي أعرف اسمه. أخبِرني يا إلهي السّاكن تحت الأمواج، من يملك القوّة لمواجَهة العاصفة الثّائرة في (بايك)؟*

على الرّغم من الإرهاق الذي أصابته به الرّحلة إلى (هامرهورن)، ظَلّ آرون ذو الشّعر الرّطب يتقلّب متململًا في فِراشه داخل المأوى المبني بالخشب المجروف وتحت سقفه المصنوع من الطّحالب البحريّة السّوداء، وقد احتشدت الشحب حاجبةً القمر والنّجوم، وجثمَ الظّلام الدّامس على البحر كما يجثم على روحه. *بالون آثرَ آشا ابنة جسده، لكن ليس لامرأةٍ أن تُحكَم حديديّي الميلاد. لا بُدّ أن يكون الملك ڤيكتاريون.* تسعة أبناء وُلِدوا من صُلب كويلون جرايچوي، وڤيكتاريون أصلبهم، رجل قوي كالثّيران، شُجاع ومطيع. *وفي هذا يَكمُن الخطر.* الأخ الصّغير مدين بالطّاعة لأخيه الكبير، وڤيكتاريون ليس بالرّجل الذي يُبحِر ضد تيّار التّقاليد. *لكنه لا يحبّ يورون منذ ماتت المرأة.*

من الخارج، بصوتٍ أدنى من غطيط رجاله الغرقى وعويل الرّيح، تناهت إلى مسامعه دقّات الأمواج، مطرقة إلهه تستدعيه إلى المعركة. خرج آرون من مأواه الصّغير إلى برد اللّيل، وعاريًا وقف، شاحبًا هزيلًا طويلًا، وعاريًا خاض في البحر الأسود المالح. كانت المياه باردةً كالجليد، لكنه لم يجفل من تربيتة إلهه، وانكسرَت موجة على صدره جاعلةً إياه يترنّح، والثّالية انكسرَت فوق رأسه. تذوّق الملح على شفتيه وأحسّ بالإله يحفُّه وبجلال أغنيّته يتردّد في أذنيه. *تسعة أبناء وُلِدوا من صُلب كويلون جرايجوي، وكنتُ أدناهم، ضعيفًا خائفًا كالفتيات، لكني لم أعد كذلك. ذلك الرّجل غرقَ ومدّني الإله بالقوّة*. أحاطَ به البحر المالح البارد واحتضنه، مَدّ يده مخترقًا لحمه البَشري الضّعيف ومَسّ عظامه. *العظام، عظام الرّوح، عظام بالون ويورن. الحقيقة في عظامنا، فاللّحم يفنى والعظام تبقى، وعلى (تَل ناجا) عظام (يهو الملك الأشيب)*...

وهزيلًا وشاحبًا ومرتجفًا، عادَ آرون ذو الشّعر الرّطب إلى الشّاطئ رجلًا أكثر حكمةً مما كان عندما خاضَ في البحر، إذ عثرَ على الإجابة في عظامه وصارَ الطّريق جليًا أمامه. كان اللّيل باردًا للغاية لدرجة أن البُخار بدا كأنه ينبعث من جسده وهو يمشي بشموخٍ عائدًا إلى مأواه، لكن في قلبه اضطرمَت النّار، وأتاه النّوم بسهولةٍ هذه المرّة، دون أن يُوقِظه صراخ المِفصلات الحديد.

حين استيقظَ وجدَ النّهار صافيًا قويّ الرِّيح، وأفطرَ على مرق المحار وطحالب البحر المطبوخ فوق نارٍ حطبها من الخشب المجروف. لم يكد يَفرَغ من الطّعام حتى نزلَ ابن مرلين من منزله يسعى إليه مع نِصف دستةٍ من رجاله، فقال له ذو الشّعر الرّطب: «الملك ماتَ».

- «نعم وصلَ إليّ طائر، والآن وصلَ آخر». ابن مرلين رجل أصلع مستدير الجسد وممتلئه، يُلقّب نفسه بـ«اللورد» على غرار أهل الأراضي الخضراء، ويرتدي الفراء والمخمل. «هناك غُداف يستدعيني إلى (پايك) والثّاني إلى (البروج العشرة). أنتم أيها الكَراكِن لكم أذرع كثيرة كفيلة بتمزيق المرء إربًا. ما قولك أيها الرّاهب؟ أين أرسلُ سُفني الطّويلة؟».

(البروج العشرة) مقرُّ سيِّد (هارلو)، وهو ما جعلَ آرون يُقطِّب وجهه ويسأل: «تقول (البروج العشرة)؟ أيّ كراكِن يستدعيك إلى هناك؟».

- «الأميرة آشا. لقد أبحرَت إلى الوطن، والقارئ أرسلَ غِدفانًا يستدعي جميع أصدقائها إلى (هارلو). يقول إن بالون أرادَ أن يكون كُرسي حجر اليَم لها».

قال الرّاهب: «الإله الغريق سيُقرِّر من يجلس على كُرسي حجر اليَم. اركع كي أباركك»، فركعَ اللورد مرلين على رُكبتيه، وخلعَ آرون سِدادة قِربته وصَبَّ خيطًا من ماء البحر على رأس الرّجل الأصلع مبتهلًا: «إلهنا الذي غرقَ من أجلنا، اجعل خادمك ملدريد يُولَد ثانيةً من البحر. بارِكه بالملح، بارِكه بالحجر، بارِكه بالفولاذ». سالَ الماء على وجنتَي ملدريد مرلين اللّحيمتين ليتخلّل لحيته ومعطفه المصنوع من فرو الثّعالب، في حين ختمَ آرون صلاته: «عسى الميت ألّا يموت أبدًا، بل يُبعَث من جديدٍ أقوى وأصلب»، لكن عندما نهضَ مرلين قال له: «ابقَ وأصغِ كي تُنشر كلمة الإله».

على بُعد ثلاثة أقدامٍ من حافة الماء تتكسّر الأمواج حول جُلمودٍ دائري من الجرانيت، وعليه وقفَ آرون ذو الشّعر الرّطب ليراه جميع أتباعه ويسمعوه، ثم بدأ يتكلّم كما فعلَ مئة مرّةٍ من قبل بقوله: «من البحر وُلِدنا وإلى البحر نعود جميعًا»، قبل أن يُتابِع: «في غضبته انتزعَ إله العواصف بالون من قلعته وأطاحَ به، والآن يأكل وليمةً تحت الأمواج»، ورفعَ يديه صائحًا: «ماتَ الملك! لكن ملكًا جديدًا سيجيء! عسى الميت ألّا يموت أبدًا، بل يُبعَث من جديدٍ أقوى وأصلب!».

هتفَ الرّجال الغرقى مجيبين: «*سيأتينا ملك!*».

قال ذو الشّعر الرّطب: «سيأتي، يجب أن يأتي، لكن مَن؟»، وأصغى لحظةً ولم يسمع رَدًا إلّا من الأمواج، فكرّر: «مَن سيكون ملكنا؟».

بدأ الرِّجال الغرقى يضربون بعض هراواتهم ببعض هاتفين: «*ذو الشَّعر الرَّطب! ذو الشَّعر الرَّطب ملكًا! آرون ملكًا! أعطِنا ذا الشَّعر الرَّطب!*».

هَزَّ آرون رأسه نفيًا، وقال: «إذا كان لأبٍ ابنان، أعطى أحدهما فأسًا والثَّاني شبكةً، فأيُّهما يُريد أن يكون مُحاربًا؟».

صاح روس مجيبًا: «الفأس للمُحارب والشَّبكة لصيَّاد البحر».

- «نعم. لقد أخذَني الإله إلى الأعماق تحت الموج وأغرقَ الشَّيء الحقير الذي كنته، ولمَّا لفظَني البحر وهبَ لي عينين أرى بهما وأذنين أسمع بهما وصوتًا أنشرُ بها كلمته، كي أكون نبيَّه الذي يُعلِّم حقيقته لمَن نسوا. إنني لم أُخلَق للجلوس على كُرسي حجر اليَم... وكذا يورون عين الغُراب، ذلك أني سمعتُ الإله يقول: *ليس لكافرٍ أن يجلس على كُرسي حجر اليَم!*».

عقدَ ابن مرلين ذراعيه على صدره متسائلًا: «أهي آشا إذن؟ أم ڤيكتاريون؟ أخبِرنا أيها الرَّاهب!».

قال آرون: «الإله الغريق سيُخبِركم، ولكن ليس هنا»، وأشارَ إلى وجه مرلين الأبيض البدين مواصلًا: «لا تتطلّعوا إليّ أو إلى قوانين البَشر، بل إلى البحر. ارفع أشرعتك وأنزِل مجاذيفك يا سيِّدي وخُذ نفسك إلى (ويك القديمة)، أنت وجميع الرَّبابنة والملوك. لا تذهبوا إلى (پايك) لتركعوا للكافر، ولا إلى (هارلو) لتُخادِنوا النِّساء المتآمرات، بل وجِّهوا سُفنكم إلى (ويك القديمة)، حيث كان (پهو الملك الأشيب). باسم الإله أستدعيكم، أستدعيكم جميعًا! اترُكوا قاعاتكم وبيوتكم، اترُكوا قلاعكم وحصونكم، وارجعوا إلى (تَل ناجا) لتُقيموا انتخاب الملك!».

حدَّق ابن مرلين إليه قائلًا: «انتخاب الملك؟ لم يَحدُث أن أُقيمَ انتخاب ملكٍ حقيقي منذ...».

قاطعَه آرون محزونًا: «... زمنٍ طويل للغاية! لكن في فَجر الزّمان كان حديديُو الميلاد يختارون ملوكهم ويرفعون الأجدر بينهم. آنَ أوان العودة إلى نهجنا القديم، فما من شيءٍ غيره سيردُّ إلينا عظمتنا. بانتخاب الملك اختيرَ أوراس ذو القدم الحديد ملكًا أعلى ووُضِعَ تاج من الخشب المجروف على رأسه، وسايلاس ذو الأنف الأفطس، وهاراج هور، والكراكِن العجوز، جميعهم رفعَهم انتخاب الملك، ومن انتخاب الملك هذا سيأتينا رجل يتمُّ العمل الذي بدأه الملك بالون ويستردُّ لنا حرّيّتنا. أقول مجدّدًا ألّا تذهبوا إلى (پايك) أو بروج (هارلو) العشرة، بل اسعوا إلى (تَل ناجا) وعظام (بهو الملك الأشيب)، ففي ذلك المكان المقدّس، عندما يغرق القمر ويطلع من جديد، سنختار لأنفسنا ملكًا يستحقّ، ملكًا مؤمنًا!»، وعادَ يرفع يديه النّاحلتين مردفًا: «أصغوا! أصغوا إلى الأمواج! أصغوا إلى الإله! إنه يُكلّمنا ويقول لنا: *لا ملك إلّا بانتخاب الملك!*».

قال قوله هذا فتعالى هدير الحاضرين، ومن جديد دَقَّ رجاله الغرقى بعض هراواتهم ببعض هاتفين: *«انتخاب، انتخاب، انتخاب! لا ملك إلّا بانتخاب الملك!»*، وكان لضجيجهم دويّ لا بُدّ أن عين الغُراب سمعَه في (پايك) وسمعَه إله العواصف في بهوه وسط السّحاب، وعلمَ آرون ذو الشّعر الرّطب أنه أحسنَ البلاء.

(7) القِنانة وضع اجتماعي واقتصادي ظهرَ في أوروبا خلال العصور الوُسطى، فكان القِنّ يُجبَر على خدمة السّادة والعمل في أراضيهم وقلاعهم مقابل المأوى والملبس والحماية، وهو الاختلاف بينه وبين العبد. (المترجم).

(8) الكراكِن وحش بحري أسطوري عملاق يظهر على سطح البحر كجزيرة، وله أذرع أخطبوطيّة طويلة تلتفّ حول السُفن وتُغرِقها. (المترجم).

(9) القادس نوع من السُفن المزوّدة بمجاذيف، يتميّز ببدنه الطّويل الرّفيع، والقدرة على الملاحة في الظّروف غير المواتية، واستُخدِم في الحرب والتّجارة والقرصنة. (المترجم).

(10) اللّوياثان وحش بحري أسطوري هائل الحجم، له سبعة رؤوس. (المترجم).

بصوتٍ متعَب علّق الأمير حين دحرجَ القائد كُرسيّه المتحرّك إلى الشُرفة: «البُرتقال الدّموي نضجَ أكثر مما ينبغي».

وبَعدها مرّت ساعات دون أن يتكلّم مرّةً أخرى.

ما قاله عن البُرتقال صحيح، وكان بعض الثّمار قد سقطَ لينفطِر على الرُّخام الوردي الباهت، لتُفعِم الرّائحة اللّاذعة الحُلوة أنف آريو هوتا مع كلّ نفَسٍ يلتقطه. لا ريب أن الأمير يشمُّها أيضًا وهو جالس تحت الأشجار على الكُرسي المتحرّك الذي صنعَه له المِايستر كاليوت، بوسائده المحشوّة بريش الإوز وعجلتيه الثّقيلتين المصنوعتين من خشب الأبنوس والحديد.

فترة طويلة مرّت لم يُسمَع فيها صوت إلّا للأطفال العائمين في المسابح والنّوافير، وفي مرّةٍ ارتطام بُرتقالةٍ أخرى بأرض الشُرفة وانفطارها، قبل أن تتناهى إلى مسامع قائد الحَرس دقّات الحذاء الخافتة على الرُّخام آتيةً من جانب القصر البعيد.

أوبارا. يعرف مشيتها الطّويلة المتعجّلة الغاضبة، ولا بُدّ أن حصانها في الاسطبل الآن، غارق في الرّغوة[11] وينزف من عُنف همزها. دائمًا ما تمتطي أوبارا الفُحول، وقد سمعَها النّاس تقول مزهوّةً إنها تستطيع ترويض أيّ حصانٍ في (دورن)... وأيّ رجلٍ كذلك. سمعَ القائد أيضًا خُطواتٍ سريعة لقدمين أخريَين، وقد جدّ المِايستر كاليوت السّير بخُفّيه اللّيّنين ليلحق بها.

دائمًا تمشي أوبارا ساند مسرعةً، *تُطارِد شيئًا لا تستطيع الإمساك به أبدًا*، كما سمعَ القائد الأمير يقول لابنته ذات مرّة.

حين ظهرَت تحت القنطرة الثُّلاثيَّة، دفعَ آريو هوتا فأسه الطّويلة إلى الجانب ليسدّ الطّريق، الفأس ذات الرّأس المثبّت على قناةٍ من خشب الدّردار الجبلي طولها ستّة أقدام، فلم تستطِع أوبارا الدّوران من حولها، وقال لها القائد مدمدمًا بصوته الجهير المثقّل بلكنات (نورقوس): «لا تقتربي أكثر يا سيّدتي، الأمير لا يُريد أن يُزعِجه أحد».

قبل أن يتكلّم كان وجهها حجرًا... ثم قسا. قالت له: «أنت في طريقي يا هوتا». أوبارا ساند أكبر أفاعي الرّمال سِنًّا، امرأة كبيرة العظام تُقارِب الثّلاثينات من العُمر، ورثَت عينيها الضّيّقتين وشَعرها البنّي كفرو الجرذان من عاهرة (البلدة القديمة) التي ولدَتها. تحت معطفها المفضّل من الحرير الرّملي[12] المبرقَش بالذّهبي والبنّي المائل إلى الرّمادي ترتدي ثياب ركوبٍ من الجِلد البنّي اللّين البالي، وتلك الثّياب أرقُّ ما فيها. على أحد وَركيها تُثبّت سوطًا ملفوفًا، وعلى ظَهرها تضع تُرسًا من الفولاذ والنّحاس، أمّا حربتها فتركَتها في الخارج، وهو ما أشعرَ آريو هوتا بالامتنان، فعلى الرغم من سُرعتها وقوّتها فإنه يعلم أنها ليست نِدًّا له... لكنها لا تعلم، وهو لا يرغب في رؤية دمائها مراقةً على الرّخام الوردي الباهت.

نقلَ المِايستر كاليوت ثِقله من ساقٍ إلى ساق قائلًا: «ليدي أوبارا، حاولتُ أن أقول لكِ...».

- «هل يعرف أن أبي ماتَ؟»، سألَت أوبارا القائد دون أن تُعير المِايستر اهتمامًا أكثر من ذُبابة، هذا إذا كانت هناك ذُبابة بالحماقة الكافية لأن تطنّ حول رأسها.

أجابَ القائد: «نعم، وصلَ إليه طائر».

جاءَ الموت (دورن) محمولًا على جناحَي غُداف، مكتوبًا بخَطٍّ صغير ومختومًا بلطخةٍ من الشَّمع الأحمر اليابس. لا بُدَّ أن كاليوت قد خمَّن ما تحتويه الرِّسالة، إذ أعطى هوتا إياها كي يُسلِّمها للأمير، فشكرَه هذا وإن قضى وقتًا طويلًا للغاية دون أن يكسر الختم، وجلسَ طيلة فترة الأصيل وفي حِجره الرِّق، يُشاهِد الأطفال يلعبون، وظَلَّ يُشاهِد إلى أن غابَت الشَّمس ودفعَه هواء المساء البارد إلى الدُّخول، ثم أخذَ يُشاهِد انعكاس ضوء النُّجوم على الماء، ولمَّا طلعَ القمر أرسلَ هوتا يُحضِر شمعةً ليقرأ رسالته تحت شجر البُرتقال في ظلام اللَّيل.

مشت أوبارا سوطها قائلةً: «الآلاف يقطعون الرّمال سيرًا على الأقدام ويصعدون إلى (طريق العظام) ليُساعِدوا إلاريا على إعادة أبي إلى الوطن. الشيّتات مزدحمة عن آخِرها بالنّاس، والرّهبان الحُمر أشعلوا نار معبدهم. في بيوت الهوى تُعاشِر النّسوة كلّ رجلٍ يأتيهن ويَرفُضن الأجر. في (صنسپيرٍ)، على (الذّراع المكسورة)، بطول ضفاف (الدّم الأخضر)، في الجبال وفي عُمق الرّمال، في كلّ مكان، في كلّ مكانٍ تُمزّق النّساء شَعرهن ويَصرُخ الرّجال غضبًا، والسّؤال نفسه يتردّد على كلّ لسان: ماذا ستفعل (دورن)؟ ماذا سيفعل أخو أميرنا القتيل انتقامًا له؟»، ودنَت من القائد مضيفةً: «وتقول إنه لا يرغب في أن يُزعِجه أحد!».

كرّر آريو هوتا: «لا يرغب في أن يُزعِجه أحد».

يعرف قائد الحرس الأمير الذي يَحرُسه. ذات يومٍ في زمنٍ بعيد أتى شابٌ غِر من (نورڤوس)، صبيٌّ كبير الجسد عريض المنكبين له شَعر أسود فاحم. ذلك الشّعر أبيض الآن، وذلك الجسد يحمل ندوب معارك عديدة... لكن قوّته لم تتخلّ عنه، وفأسه الطّويلة يُحافِظ على حِدّتها دومًا كما علّمه الرّهبان الملتحون. قال لنفسه: *لن تمرّ*، ولها قال: «الأمير يُشاهِد الأطفال يلعبون، وليس مسموحًا بإزعاجه أبدًا بينما يُشاهِد الأطفال يلعبون».

قالت أوبارا ساند: «هوتا، ستُزيح نفسك عن طريقي وإلّا أخذت هذه الفأس...».

أتى الأمر من ورائه مقاطعًا إياها بصوتٍ مبحوح: «أيها القائد، دَعها تمرّ، سأتكلّمُ معها».

سحبَ آريو هوتا فأسه الطّويلة معيدًا إياها إلى وضعها العمودي وأخذَ خُطوةً إلى الجانب، ورمقَته أوبارا بنظرةٍ طويلة أخيرة ثم مرّت به مسرعةً وفي أعقابها المِايستر. لا يتعدّى كاليوت الأقدام الخمسة طولًا، وله رأس أصلع كالبيضة ووجه شديد النُّعومة والامتلاء لدرجة أنك لا تستطيع أن تُخمّن سِنّه الفعليّة، لكنه هنا من قبل القائد، بل وخدمَ أُم الأمير كذلك، وعلى الرغم من سِنّه وحجمه فلا يزال رشيق الحركة بما فيه الكفاية وبالغ الذّكاء، ولو أنه يتّسم بالخنوع. *ليس نِدًا لأيٍّ من أفاعي الرّمال*.

في ظِلِّ أشجار البُرتقال جلسَ الأمير على كُرسيّه رافعًا ساقيه المصابتين بالنّقرس أمامه، وتحت عينيه أكياس ثقيلة... إلّا أن هوتا يجهل إن كان مصدر أرقه الحُزن أم النّقرس. في الأسفل ما زالَ الأطفال يلعبون في النّوافير والمسابح، أصغرهم لا يتجاوَز الخامسة وأكبرهم لا يتجاوَز العاشرة، مزيج من الصّبية والفتيات، وباستطاعة هوتا أن يسمعهم يَنثرون المياه ويتصايَحون بأصوات عالية حادّة. قال الأمير عندما جثَت المرأة على رُكبتها أمام الكُرسي المتحرِّك: «لم يمضِ وقت طويل منذ كنتِ واحدةً من هؤلاء الأطفال في المسابح يا أوبارا».

ردّت ساخرةً: «مضى ما يَقرُب من عشرين عامًا، كما أني لم أبقَ طويلًا هنا. إنني ابنة العاهرة، أم أنك نسيت؟»، ولمّا لم يُجِب نهضت ووضعت يديها على وَركيها قائلةً: «لقد اغتيلَ أبي».

قال الأمير دوران: «لقد قُتِلَ في نزالٍ فردي خلال محاكَمة بالقتال. طِبقًا للقانون ليس هذا اغتيالًا».

- «كان أخاك!».

- «نعم».

- «وماذا تنوي أن تفعل بشأن موته؟».

دوّر الأمير كُرسيّه بصعوبةٍ ليُواجِهها. على الرغم من أنه لم يتجاوز الثّانية والخمسين، فإن دوران مارتل يبدو أكبر كثيرًا، جسده واهن مشوّه تحت ثيابه الكتّان، وقدماه من الصّعب النّظر إليهما، إذ ألهبَ النّقرس مفاصله وخضّبها بالأحمر على نحوٍ بشع، فصارَت رُكبته اليُسرى كحبّة تفّاح، واليُمنى كحبّة شمّام، واستحالَت أصابع قدميه إلى حبّات عنبٍ حمراء قانية تبدو ناضجةً عن آخِرها كأن لمسةً واحدةً كفيلة بفلقها. مجرّد ثِقل غطاءٍ خفيف يجعله يرتجف ألمًا، مع أنه يتحمّله بلا شكوى. ذات مرّةٍ سمعه القائد يقول لابنته: *الصّمت صديق الأمراء. الكلام كالسّهام يا آريان، ما إن ينطلق فلا سبيل لاستعادته*. قال الأمير: «لقد كتبتُ للورد تايوين...».

- «كتبت؟ لو كنت نِصف الرّجل الذي كانه أبي...».

- «أنا لستُ أباكِ».

قالت أوبارا بصوتٍ مفعَم بالازدراء: «أعرفُ هذا».

- «تُريدينني أن أذهب إلى الحرب».

- «إنني أعقل من هذا. لن تضطرَّ إلى القيام من كُرسيِّك حتى. دَعني أنا أنتقمُ لأبي. إن لديك جيشًا في (ممر الأمير)، واللورد يرونوود لديه جيش آخر على (طريق العظام). سلِّمني قيادة أحدهما ونيم قيادة الثَّاني، دَعها تَسلُك (طريق الملوك) بينما أُخرجُ لوردات (الثُّخوم) من قلاعهم وأدوزُ لأزحف على (البلدة القديمة)».

- «وكيف تأملين في السَّيطرة على (البلدة القديمة)؟».

- «يكفيني نهبها. ثروة عائلة هايتاور...».

- «أهو الذَّهب ما تُريدين؟».

- «ما أريده هو الدَّم».

- «اللورد تايوين سيُسَلِّمنا رأس الجبل».

- «ومَن سيُسَلِّمنا رأس اللورد تايوين؟ لطالما كان الجبل حيوانه المدلَّل».

أشارَ الأمير إلى المسابح قائلًا: «أوبارا، انظُري إلى الأطفال إذا سمحتِ».

- «لا أسمحُ. سيُرضيني أكثر أن أطعن اللورد تايوين بحربتي في بطنه. سأجعله يُغَنّي (أمطار كاستامير) بينما أنتزعُ أحشاءه وأبحثُ فيها عن الذَّهب».

ردَّد الأمير: «انظُري، هذا أمر».

كان بعض الأطفال الأكبر سِنًا متمدّدين على بطونهم على الرُّخام الوردي الأملس لتُحمّصهم الشّمس، في حين سبحَ بعضهم في البحر أمام القصر، وانشغلَ ثلاثة منهم ببناء قلعةٍ من الرّمل تُحاكي (بُرج الحرية) في (القصر القديم)، واجتمعَ عشرون أو أكثر في المسبح الكبير ليُشاهِدوا المعارك الدّائرة بين الأطفال الأصغر حجمًا الرّاكبين على أكتاف كبار الحجم، وقد خاضوا حتى الخصر في المياه الضّحلة وراحَ كلٌّ منهم يُحاوِل إسقاط الآخَر في الماء، وكلّما سقطَ زوجان تبعَ صوت سقوطهما الضّحك المدوّي. شاهَدا فتاةً بشرتها بنيّة كالجوز تسحب صبيًا فاتح الشّعر من على كتفَي أخيه لتُسقطه مقلوبًا في مياه المسبح.

قال الأمير: «كان أبوكِ يلعب هذه اللّعبة نفسها ذات يوم، مِثلما لعبتها قبله. كان أصغر مني بعشرة أعوام، وحين كبرَ بما يكفي لأن يلعبها كنتُ قد كففتُ عن نزول المسابح، لكني اعتدتُ أن أشاهده كلّما أتيتُ لزيارة أمّنا. كم كان قويًا، حتى في صِباه، وسريعًا كثعابين الماء. كثيرًا ما رأيته يُسقِط صِبيةً أكبر منه حجمًا بكثير، وقد ذكّرني بهذا يوم غادرَ إلى (كينجز لاندنج)، وأقسمَ أنه سيفعلها مرّةً أخرى، وإلّا لما سمحتُ له بالذّهاب».

ردّدت أوبارا: «سمحت له بالذّهاب؟»، وضحكَت مردفةً: «كأن كنت تستطيع أن تمنعه. أُفعوان (دورن) الأحمر كان يذهب حيثما يشاء».

- «صحيح. ليت لديّ كلام أواسيكِ به...».

قاطعَته بصوتٍ مليء بالاستهانة: «لم آتِ طلبًا لمواساتك. يوم جاءَ أبي يأخذني لم تُرِدني أمّي أن أذهب معه، وقالت له: *إنها فتاة، ولا أظنُّ أنها ابنتك. لقد عاشرتُ ألف رجلٍ غيرك*. فألقى حربته عند قدمَي ولطمَ أمّي بظَهر يده على وجهها، وقال لها وهي تبكي: *فتاة أو فتى، كلُّنا نخوض معاركنا، لكن الآلهة تَترُكنا نختار أسلحتنا*، وأشارَ إلى الحربة ثم إلى دموع أمّي، فالتقطتُ الحربة، وقال أبي: *قلتُ لك إنها ابنتي*، وأخذَني. استغرقَت أمّي في الشّراب حتى ماتَت قبل أن ينقضي العام، ويقولون إنها كانت تبكي وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة»، ودنَت أوبارا أكثر من الأمير في كُرسيّه مضيفةً: «دَعني أستخدمُ الحربة، لستُ أطلبُ أكثر من هذا».

- «إنه طلب كبير يا أوبارا. سأفكّرُ في الأمر وأتّخذُ القرار بَعدما أنامُ».

- «لقد نمت طويلًا للغاية بالفعل».

- «ربما تكونين محقّةً. سأرسلُ لكِ خبزًا في (صنسپير)».

قالت أوبارا: «ما دامَ خبز الحرب»، ودارَت على عقبيها وغادرَت غاضبةً كما أتَت، عائدةً إلى الاسطبل من أجل حصانٍ جديد توطئةً لانطلاقةٍ متهوّرة أخرى على الطّريق.

بقيَ المِايستر كاليوت بجسده المستدير وقامته القصيرة، وسألَ: «هل تُؤلِمك ساقاك يا سموّ الأمير؟».

ابتسمَ الأمير بشحوبٍ قائلًا: «هل الشّمس ساخنة؟».

- «هل أجلبُ دواءً للألم؟».

- «لا، أحتاجُ إلى الاحتفاظ بقُدرتي على التّفكير».

تردّد المِايستر لحظةً قبل أن يقول: «سموَّ الأمير، هل... هل من الحكمة أن تسمح لليدي أوبارا بالعودة إلى (صنسپير)؟ مؤكّد أنها ستُلهِب مشاعر العامّة. لقد أحبُّوا أخاك كثيرًا».

قال الأمير: «كلُّنا أحببناه كثيرًا»، وضغطَ بأصابعه على صُدغيه مضيفًا: «لا، أنت محقٌّ. يجب أن أعود إلى (صنسپير) أيضًا».

عادَ الرّجل المستدير الصّغير يتردّد قبل أن يسأله: «أهذا تصرُّف حكيم؟».

- «ليس حكيمًا لكنه ضروري. الأفضل أن تُرسِل خيّالًا إلى ريكاسو وتجعله يفتح مسكني في (بُرج الشّمس)، وبلِّغ ابنتي آريان أنني سأصلُ غدًا».

أميرتي الصّغيرة. كم يفتقدها قائد الحَرس.

قال المِايستر محذِّرًا: «سوف يراك النّاس».

يفهم القائد ما يعنيه. قبل عامين، حين رحلوا من (صنسپين) إلى سكينة (الحدائق المائيّة) وغزلتها، لم يكن نِقرس الأمير دوران بهذا السّوء. في تلك الأيام كان لا يزال يمشي -ولو ببطء- متّكئًا على عُكّازٍ وتلتوي قسماته ألمًا مع كلّ خُطوة، لكن الأمير لم يُرِد أن يعرف أعداؤه كم صارَ ضعيفًا، و(القصر القديم) ومدينته الظّليلة مليئان بالأعين. *أعين وسلالم لا يستطيع أن يصعدها. عليه أن يطير كي يَبلُغ قمّة (بُرج الشّمس).*

قال الأمير: «يجب أن يراني النّاس. لا بُدّ أن يَهدَئ أحدهم الموقف، ولا بُدّ من تذكير (دورن) بأنها ما زالَ لها أمير»، وابتسمَ بوهنٍ مضيفًا: «حتى إن كان عجوزًا أقعدَه النّقرس».

قال كاليوت: «إذا غدت إلى (صنسپين) فعليك أن تلتقي الأميرة مارسلا. سيكون فارسها الأبيض معها... وأنت تعلم أنه يَكتُب رسائل لملكته».

- «أظنُّ هذا».

فكّر القائد عابسًا: *الفارس الأبيض*. كان السير آريس قد جاءَ (دورن) ليعتني بأميرته، تمامًا كما جاءَ آريو هوتا مع أميرته هو ذات يوم. حتى الاسمين متشابهان على نحوٍ غريب: آريو وآريس، لكن التّشابُه بينهما لا يتعدّى هذا، إذ تركَ القائد (نورقوس) وزهبانها الملتحين، أمّا السير آريس أوكهارت فما زالَ يخدم العرش الحديدي. يَشعُر هوتا بنوعٍ معيَّن من الحُزن متى رأى الرّجل في معطفه النّاصع الطّويل كلّما أرسلَه الأمير إلى (صنسپير)، ويحسّ أن يومًا سيأتي ويتقاتَل فيه الاثنان، وفي ذلك اليوم سيموت أوكهارت بجمجمةٍ هشَّمتها فأس القائد الطّويلة. مرّر يده على قناة الفأس الملساء متسائلًا إن كان ذلك اليوم يدنو.

كان الأمير يقول: «الأصيل في نهايته. سننتظر حتى الصّباح. احرص على أن يكون هودجي جاهزًا مع أول خيوط الضّوء».

حنى كاليوت رأسه قائلًا: «كما تأمر»، وتنحّى القائد جانبًا ليجعله يمرّ، وأصغى إلى خُطواته المبتعدة.

قال الأمير بصوتٍ خافت: «أيها القائد».

تقدّم هوتا مطوِّقًا فأسه الطّويلة بيده وشاعرًا بنعومة الدّردار كأنه بشرة امرأةٍ على كفّه، ولمّا بلغَ الكُرسي المتحرّك دَقَّ الأرض بكعبها بقوّةٍ معلنًا حضوره، لكن الأمير ظَلّ مسلّطًا عينيه على الأطفال وحدهم، وسألَه: «هل كان لك إخوة في صِباك في (نورقوس) أيها القائد؟ أو أخوات؟».

أجابَ هوتا: «الاثنان، أخوان وثلاث أخوات. كنتُ أصغرهم». *أصغرهم وغير مرغوب فيّ، فمٌ آخر يحتاج إلى الطّعام، صبيٌ كبير يأكل كثيرًا وسرعان ما كبرَ على ثيابه*. لا عجب أن أهله باعوه للزّهبان الملتحين.

قال الأمير: «كنتُ الأكبر، ومع ذلك فأنا الأخير. بَعد موت مورس وأوليڤار في مهديهما تخلّيتُ عن الأمل في أن يكون لي إخوة. حين وُلِدَت إليا كنتُ في التّاسعة، مُرافقًا أخدم على (ساحل الملح)، وعندما وصلَ إلينا الغُداف حاملًا خبر ولادة أمّي مبكّرًا بشهرٍ كامل، كنتُ كبيرًا بما فيه الكفاية لأن أفهم أن الطّفل لن يعيش، وحتى عندما أخبرَني اللورد جارجالن بأن أمّي أنجبَت لي أختًا أكّدتُ له أنها ستموت قريبًا، لكنها عاشت برحمة (الأم)، وبَعد عامٍ وصلَ أوبرين يَصرُخ ويَركُل. كنتُ رجلًا بالغًا وهما يلعبان في هذه المسابح، لكن هأنذا جالس هنا بينما رحلَ كلاهما».

لم يدرِ آريو هوتا بِمَ يردُّ. إنه مجرّد قائد حَرس، ولم يزل غريبًا على هذه الأرض وإلهها ذي الوجوه السّبعة، حتى بَعد كلّ تلك السّنين. *احمِ، أطِع، احمِ*. هذه هي اليمين التي حلفَها وهو في السّادسة عشرة من العُمر، يوم تزوّج فأسه. يمين بسيطة لرجلٍ بسيط كما قال الزّهبان الملتحون، لكنه ليس مدرَّبًا على نصيحة الأمراء الحزانى.

كان ما زالَ يبحث عن كلامٍ يردُّ به حين سقطَت بُرتقالة أخرى بصوتٍ ثقيل على بُعد أقلّ من قدمٍ من حيث يجلس الأمير، وقد جفلَ دوران للصّوت كأنه آلمَه بوسيلةٍ ما، ثم إنه تنهّد وقال: «كفى، يكفي هذا. اترُكني يا آريو، دَعني أشاهد الأطفال بضع ساعاتٍ أخرى».

عندما غربَت الشّمس اكتسبَ الهواء شيئًا من البرودة ودخلَ الأطفال بحثًا عن العَشاء، ومع ذلك ظَلّ الأمير جالسًا تحت أشجار البُرتقال متطلّعًا إلى المسابح السّاكنة ومن ورائها البحر. جلبَ له أحد الخدم وعاءً من الزّيتون الأرجواني مع الخُبز المدوّر والجُبنة ومعجون الحِمّص، فأكلَ القليل وشربَ كأسًا من النّبيذ الحُلو القوي الذي يحبّه، ولمّا فرغَت الكأس عادَ يملأها. أحيانًا في ساعات الصّباح السّوداء يغلبه النّوم وهو جالس في مكانه، وعندئذٍ فقط دحرجَ القائد كُرسيّه في الشُّرفة المضاءة بنور القمر مارًّا بصَفٍّ من الأعمدة الرّفيعة وتحت قنطرةٍ أنيقة، ودخلَ به حُجرةً تطلُّ على البحر فيها فِراش عليه ملاءات خفيفة من الكتّان. أنَّ دوران عندما حرّكه القائد، لكن الآلهة كانت رحيمةً ولم يستيقظ.

تُجاوِر حُجيرة نوم القائد حُجرة الأمير، وهناك جلسَ على السّرير الضّيق والتقطَ المِشحذ والقُماش المزيّت من كوّتهما وبدأ يعمل. يوم وسَموه قال له الرّهبان الملتحون أن يُحافِظ على حدّة فأسه، وهذا ما التزمَه دائمًا.

وبينما سَنّ هوتا الفأس اتَّجهت أفكاره إلى (نورقوس)، إلى المدينة العالية على التَّلّ والمدينة الواطئة على النّهر. ما زالَ بإمكانه أن يسمع أصوات الأجراس الثّلاثة؛ جلجلة (نووم) العميقة التي كانت تبعث الرِّجفة في عظامه ذاتها، ودقّات (نارا) القويّة الفخور، وضحكات (نايل) الفضّيّة العذبة. من جديدٍ ملأ فمه مذاق الكعك الشّتوي الغني بالزّنجبيل وجوز الصّنوبر وقِطع الكرز، والذي يتلوه شراب الناشا، وهو حليب ماعز مخمّر منكّه بالعسل يُقدّم في كوبٍ من الحديد. رأى أمّه في فُستانها ذي الياقة المصنوعة من فرو السّناجب، الذي اعتادَت أن ترتديه مرّةً واحدةً فقط في العام، عند ذهابهم لمشاهَدة الدّببة تَرقُص على (سلالم الخُطاة)، وشمّ رائحة الشّعر المحترق المنفّرة إذ مَسّ الرّاهب الملتحي منتصَف صدره بالوسم. كان الألم شنيعًا لدرجة أنه حسبَ أن قلبه سيتوقّف، لكن آريو هوتا لم يجفل، ولم ينمُ الشّعر ثانيةً فوق وسم الفأس.

فقط حين أصبحت حافتا الفأس حادّتين لدرجة أنك تستطيع أن تحلق لحيتك بهما، وضعَ القائد زوجته المصنوعة من الدّردار والحديد على السّرير، ثم خلعَ ملابسه المتّسخة وهو يتثاءب وألقاها على الأرض، وتمدّد على الحشيّة المبطّنة بالقش. تفكيره في الوسم جعلَه يستحكّه، فحكّه قبل أن يُسدِل جفنيه مفكّرًا: *كان حريًا بي أن أجمع البرتقالات التي سقطَت*، وغابَ في النّوم حالمًا بمذاقها الحُلو اللّاذع، وبملمس العُصارة الحمراء اللّزجة على أصابعه.

تعجّل الفَجر في طلوعه، وخارج الاسطبلات وقف أصغر الهوادج التي تجرّها ثلاثة أحصنة جاهزًا للأمير، الهودج المصنوع من خشب الأرز بستائره الحرير الحمراء. انتقى القائد لاصطحابه عشرين من حمَلة الحِراب من الثّلاثين المكلّفين بحراسة (الحدائق المائيّة)، وسيبقى الآخرون لحماية المكان والأطفال الذين يضمّون عددًا من أولاد اللوردات الكبار والتّجّار الأثرياء.

على الرغم من أن الأمير ذكرَ الرّحيل مع أول خيوط الضّوء، كان آريو هوتا يعلم أنه سيتلكأ، وبينما ساعدَ المِايستر دوران مارتل على الاستحمام ثم ضمّد مفاصله الملتهبة بالكتّان المغموس في المستحضَرات الملطّفة، ارتدى القائد قميصًا من الأقراص النُّحاسيّة يُلائِم رُتبته، وفوقه معطفًا فضفاضًا من الحرير الرّملي المصبوغ بالذّهبي والبنّي المائل إلى الرّمادي، ليحجب الشّمس عن النُّحاس. يُنذِر هذا النّهار بأنه سيكون حارًا، وقد مضى زمن طويل منذ تخلّص القائد من معطفه الثّقيل المصنوع من شَعر الخيل وسُترته الجِلد المطعّمة بالحديد، اللتين اعتادَ ارتداءهما في (نورڤوس)، فارتداؤهما هنا في (دورن) كفيل بأن يسلقه، على أنه احتفظَ بخوذته الحديد القصيرة بريشتها ذات البروزات الحادّة، وإن كان يعتمرها الآن ملفوفةً بالحرير البُرتقالي، حابكًا إياه في البروزات وحولها، فلولا هذا ستُصيبه أشعّة الشّمس التي تضرب المعدن بالصُّداع قبل أن يُبصِروا القصر.

وما زالَ الأمير لم يستعدّ للرّحيل. قرّر أن يَفطِر قبل أن يتحرّك، وأكلَ بُرتقالةً دمويّةً وطبقًا من بيض النّوارس بقِطع اللّحم المقدّد والفلفل الحرّيف، وبَعدها لم يكن هناك مفرٌّ من أن يُوَدّع عددًا كبيرًا من الأطفال الذين صارَت لهم أفضليّة خاصّة عنده؛ ابن دالت، وولدَي الليدي بلاكمونت، والفتاة اليتيمة التي كان أبوها يبيع الأقمشة والتّوابل على ضفاف (الدّم الأخضر). غطّى دوران ساقيه بدثارٍ فاخر من (مير) وهو يُكلّمهم، ليقي الصّغار منظر مفاصله الملتهبة المضمّدة.

كان النّهار قد انتصفَ عندما تحرّكوا، الأمير في هودجه، والمِايستر كاليوت على ظَهر حمار، والبقيّة على الأقدام. أمامهم سارَ خمسة من حمَلة الحِراب ووراءهم خمسة، وخمسة آخرون على كلٍّ من جانبَي الهودج، أمّا آريو هوتا نفسه فاتّخذ موقعه المعتاد على يسار الأمير، مريحًا فأسه الطّويلة على كتفه وهو يمشي. يمضي الطّريق من (صنسپير) إلى (الحدائق المائيّة) على ساحل البحر، فصاحبتهم النّسيم البارد المنعش إذ قطعوا اليابسة القاحلة بحجارتها ورمالها البنّيّة الضّارية إلى الحُمرة وأشجارها الملتوية ناقصة النّمو.

وفي منتصف الطّريق لحقَت بهم أفعى الرّمال الثّانية.

فجأةً ظهرَت فوق كثيبٍ راكبةً جواد صحراء ذهبيًا له غرف كالحرير الأبيض النّاعم. حتى على متن الحصان تبدو الليدي نيم بهيّة الطّلعة، وقد تألّقت في ثوبها الأرجواني الفاتح وحرملتها الحرير الكبيرة بلونيها القشدي والنّحاسي، التي تُرَفرِف مع كلّ هبّة ريح وتجعلها تبدو كأنها على وشك التّحليق. نايميريا سائد في الخامسة والعشرين من العُمر، هيفاء كصَفصافة، ويُكلِّل رأسها شَعر أسود مسترسل عقدَته في جديلةٍ مربوطة بسلكٍ من الذّهب الأحمر، وتنسحب مقدّمته المدبّبة إلى الوراء فوق عينيها الدّاكنتين كعينَي أبيها. بعظم وجنتيها المرتفع وشفتيها الممتلئتين وبشرتها الشّاحبة كالحليب تتحلّى بكلّ الجَمال الذي تفتقِر إليه أختها الأكبر... لكن أم أوبارا كانت عاهرةً من (البلدة القديمة)، أمّا نيم فتنحدِر من أنبل دماء (ڤولانتيس القديمة). كانت تتبعها دستة من حاملي الحِراب الرّاكبين الذين تلتمِع تروسهم المستديرة في الشّمس، وقد نزلوا الكثيب وراءها.

كان الأمير قد أزاح ستائر هودجه ليستمتع أكثر بنسيم البحر، وأبطأت الليدي نيم حركة فَرسها الذّهبيّة الجميلة لتجاري حركة الهودج، وصاحت كأن وجودها هنا مصادَفة محضة: «ما أحسن لُقياك يا عمّاه! أتسمح بأن أركب معك إلى (صنسپير)؟». كان القائد راكبًا على الجانب الآخر من الهودج، لكن كلام الليدي نيم كلّه بلغَ مسامعه.

أجابَ الأمير: «يسرُّني هذا»، ولو أن نبرته بدَت للقائد خاليةً من السّرور، وأضافَ: «النّقرس والحُزن رفيقان بائسان على الطّريق»، وهو ما يعلم القائد أنه يعني أن كلّ حصاةٍ على الأرض تغرس مسمارًا في مفاصله المتورِّمة.

قالت: «النّقرس لا أستطيعُ أن أعينك عليه، أمّا الحُزن فلم يكن أبي يراه ذا جدوى. الانتقام كان يُناسب ذوقه أكثر. أصحيحٌ أن جريجور كليجاين اعترفَ بقتل إليا وطفليها؟».

- «لقد أعلنَ ذنبه على مسمعٍ من البلاط كلّه. اللورد تايوين وعدَنا برأسه».

قالت الليدي نيم: «واللانستر يُسدِّد ديونه دائمًا، لكن يبدو لي أن اللورد تايوين ينوي أن يدفع لنا بعُملتنا. وصلَ إليّ طائر من السير ديمون العزيز، الذي يُقسِم أن أبي دغدغَ ذلك الوحش بحربته أكثر من مرّةٍ خلال نزالهما، وإذا كان ذلك صحيحًا فالسير جريجور في عداد الموتى، وليس بفضل اللورد تايوين».

تقلّصت ملامح الأمير، ولكن سواء أمن ألم النّقرس أم كلام ابنة أخيه فالقائد لا يدري.

- «ربما يكون صحيحًا».

- «ربما؟ أقولُ إنه كذلك».

- «أوبارا تُريدني أن أحارب».

ضحكَت نيم قائلةً: «نعم، تُريد أن تُضرِم النّار في (البلدة القديمة). إنها تكره تلك المدينة قدر ما تحبُّها أختنا الصّغيرة».

- «وأنتِ؟».

ألقَت نيم نظرةً من فوق كتفها إلى حيث يركب رفاقها على مسافةٍ لا بأس بها وراءها، وسمعَها القائد تقول: «كنتُ في الفِراش مع التّوأمين فاولر حين بلغَني الخبر. هل تعرف كلمات آل فاولر؟ *دَعوني أحلِّق!* هذا كلُّ ما أطلبه منك يا عمّاه، دَعني أحلّق. لستُ أحتاجُ إلى جيشٍ جرّار، بل إلى واحدةٍ من أخواتي الجميلات فحسب».

- «أوبارا؟».

- «تايين. أوبارا صاخبة أكثر من اللّازم، لكن تايين أكثر رقّةً وعذوبةً من أن يرتاب فيها أحد. أوبارا تُريد أن تجعل من (البلدة القديمة) محرقة جنازة أبينا، لكنّي لستُ طمّاعةً لهذا الحدّ، وتكفيني أربع أنفُسٍ لا أكثر؛ توأما اللورد تايوين الذّهبيّان عوضًا عن طفلَي إليا، والأسد العجوز عوضًا عن إليا نفسها، وأخيرًا الملك الصّغير مقابل أبي».

- «الصّبي لم يُخطئ في حقّنا قطّ».

- «الصّبي نغل وليد الخيانة وزنى المحارم، إذا صدقَ ما يقوله اللورد ستانيس». اختفَت النّبرة العابثة من صوتها، ووجدَ القائد نفسه يُراقِبها مضيّقًا عينيه. أختها أوبارا تضع سوطها على وَركها وتحمل حربتها على مرأى من الجميع، ومع أن الليدي نيم لا تقلُّ عنها خطورةً فإنها تُواري سكاكينها جيّدًا. «لن يغسل اغتيال أبي إلّا الدّماء الملكيّة».

- «أوبرين ماتَ في نزالٍ فردي وهو يُقاتِل في مسألةٍ لا علاقة له بها. لا أعدُّ هذا اغتيالًا».

- «فلتعدّه كما تشاء. لقد أرسلنا إليهم خيرة رجال (دورن)، ويُرسِلون إلينا كيسًا من الرُّفات».

- «لقد تجاوزَ كلَّ ما طلبته منه. *قيِّم هذا الملك الصّبي ومجلسه وسجِّل نقاط ضَعفهم وقوّتهم*. هذا ما قلته له ونحن في الشُّرفة، وكنا نأكل البُرتقال. *جِد لنا أصدقاء إذا استطعت، واعرف ما تستطيع عن نهاية إليا، لكن احرص على عدم استفزاز اللورد تايوين بلا داعٍ*. كان هذا كلامي له، لكن أوبرين ضحك وقال: *متى استفززتُ أحدًا... بلا داعٍ؟ الأفضل أن تُحذِّر آل لانستر من استفزازي أنا*. لقد أرادَ العدالة لإليا، لكنه رفضَ أن ينتظر...».

قاطعته الليدي نيم: «أبي انتظرَ سبعة عشر عامًا. لو قتلوك أنت لقادَ جيوشه شمالًا قبل أن تبرد جثّتك. لو قتلوك أنت لكانت الحِراب تنهمر كالمطر على (الثخوم) الآن».

- «ليس لديّ شكٌ في هذا».

قالت: «ولا يَجذر بك أن تشكَ في هذا أيضًا يا سموّ الأمير... أنا وأخواتي لن ننتظر سبعة عشر عامًا لننال انتقامنا»، وهمزَت فَرسها وانطلقَت تَركُض إلى (صنسپين)، تتبعها حاشيتها بكلّ شرعتها.

أسندَ الأمير ظَهره إلى وسائده وأغمضَ عينيه، وإن أدركَ هوتا أنه لم ينم. *إنه يتألَم*. فكّر لحظةً أن يُنادي المِايستر كاليوت إلى الهودج، لكن لو أرادَه الأمير دوران لناداه بنفسه.

كانت ظلال الأصيل طويلةً داكنةً والشّمس حمراء ملتهبةً كمفاصل الأمير قبل أن يلمحوا أبراج (صنسپين) إلى الشّرق؛ أولًا (بُرج الحربة) الرّفيع الذي يرتفع مئةً وخمسين قدمًا وتُتوّجه حربة من الفولاذ المذهّب تُضيف ثلاثين قدمًا أخرى إلى طوله، ثم (بُرج الشّمس) المهيب بقُبّته الذّهبيّة وزُجاجه المطلي بالرّصاص، وأخيرًا (سفينة الشّمس) بلونه البنّي الضّارب إلى الرّمادي الذي يبدو كذرمونة[13] هائلة جرفَها التّيّار إلى الشّاطئ وتحوّلت إلى حجر.

ثلاثة فراسخ فقط من الطّريق السّاحلي تفصل (صنسپين) عن (الحدائق المائيّة)، إلّا أنهما عالمان مختلفان تمامًا. هناك يمرح الأطفال غراةً في الشّمس وتُعزَف الموسيقى في ساحاتٍ من الرُّخام ويحمل الهواء رائحة اللّيمون والبُرتقال الدّموي اللّاذعة، وهنا تُفعِم الهواء روائح الغُبار والعَرق والدُّخان ولا يعرف اللّيل سكونًا من أصوات الثرثرين، وبدلًا من الرُّخام الوردي الذي بُنِيت به (الحدائق المائيّة)، فإن بنايات (صنسپين) من الطّمي والقش وتتأرجَح ألوانها بين درجات البنّي والرّمادي. يرتفع معقل عائلة مارتل العتيق في أقصى شرق لسانٍ أرضي من الحجر والرّمال، محاطًا بالبحر من ثلاث نواحٍ، وإلى الغرب، في ظِلّ أسوار (صنسپين) العملاقة، تتشبّث المحال المبنيّة بالطّوب اللّبن والأكواخ الخالية من النّوافذ بالقلعة كما تتشبّث الكلّابات بأبدان الشفن، وغرب الأكواخ والمحال تنتشر الاسطبلات والخانات والخمّارات وبيوت الهوى، كثير منها مطوّق بأسواره الخاصّة، وعلى الرغم من هذا يرتفع المزيد من الأكواخ عند تلك الأسوار. *وهكذا وهكذا وهكذا، كما يقول الرّهبان الملتحون*. مقارنةً بـ(تايروش) أو (مير) أو (نورقوس الكُبرى)، لا تعدُّ مدينة الظّل أكثر من بلدةٍ عاديّة، لكنها أقرب ما لدى الدورنيّين إلى مدينةٍ حقيقيّة.

سبقَ وصول الليدي نيم وصولهم بعدّة ساعات، ولا بُدّ أنها نبّهت الحُرّاس إلى مجيئهم، لأنهم وجدوا (البوّابة الثُلاثيّة) مفتوحةً عندما بلغوها. في هذه البُقعة فقط تصطفُّ البوّابات بعضها وراء بعض لتُتيح للزّائرين أن يمرُّوا أسفل الأسوار الملتفّة إلى (القصر القديم) مباشرةً، دون أن يضطرُّوا إلى قطع أميالٍ من الأزقّة الضيّقة والأفنية الخفيّة والأسواق المزدحمة.

كان الأمير دوران قد أسدلَ ستائره ما إن أبصروا (بُرج الحربة)، ومع ذلك راحَ العوام يصيحون منادين إياه في أثناء مروره، ففكّر القائد بتوتُّر: *أفاعي الرّمال أثاروهم حدّ الغليان*. تجاوزوا السّور الهلالي الخارجي بقذارته ودخلوا من البوّابة الثّانية، حيث أفعمَت الرّيح روائح القطران والمياه المالحة والطّحالب البحريّة المتعفّنة، وازدادَت أعداد الجموع مع كلّ خُطوة. صاح فيهم آريو هوتا بصوته الجهوري وهو يدقُّ القرميد بكعب فأسه الطّويلة: «أفسِحوا الطّريق للأمير دوران! أفسِحوا الطّريق لأمير (دورن)!».

صرخت امرأة من ورائه: «الأمير مات!».

وهدرَ رجل من شُرفة: «إلى الحِراب!».

وهتف أحد علية القوم: «دوران! إلى الحِراب!».

تخلّى هوتا عن محاوَلة تعرُّف المتكلِّمين، فالزِّحام شديد وثُلثهم يهتف. «*إلى الحِراب! الثّأر للأفعوان!*». لدى وصولهم إلى البوّابة الثّالثة كان الحُرّاس يدفعون النّاس جانبًا لإفساح الطّريق لهودج الأمير، وبدأ النّاس يُلقون أشياء. اندفعَ صبي رَثُّ الثّياب متجاوزًا حاملي الحِراب وفي يده ثمرة رُمّان شِبه متعفّنة، لكن حين رأى آريو هوتا في طريقه وفأسه الطّويلة جاهزةً ترك الثّمرة تَسقُط دون أن يُلقيها وتراجعَ مسرعًا، في حين ألقى آخرون غيره على مسافةٍ أبعدَ البُرتقال واللّيمون أصفره وأخضره هاتفين: «*الحرب! الحرب! إلى الحِراب!*»، فأصيبَ أحد الحُرّاس في عينه بليمونةٍ وانفجرَت بُرتقالة على قدم القائد نفسه.

لم تأتِ إجابة من داخل الهودج، وظَلّ دوران مارتل مستترًا وراء جُدرانه الحرير إلى أن ابتلعَتهم أسوار القلعة السّميكة جميعًا وأُنزِلَت الشّبكة الحديد من ورائهم بصلصلةٍ صاخبة، وبدأت أصوات الصّياح تَخفُت ببُطء. كانت الأميرة آريان منتظرةً في السّاحة الخارجيّة لتُحَيّي أباها وحولها نِصف البلاط؛ القهرمان ريكاسو، والسير مانفري مارتل أمين القلعة، والمِايستر مايلز الشّاب بردائه الرّمادي ولحيته النّاعمة المعطّرة، وأربعون من الفُرسان الدورنيّين بثيابهم الكتّان عديدة الألوان، بينما وقفَت مارسلا باراثيون الصّغيرة مع سِبتتها والسير آريس فارس الحَرس الملكي الذي يتصبّب عَرقًا في دِرعه المطليّة بالمينا الأبيض.

تقدّمت الأميرة آريان من الهودج في خُفَّين من جِلد الثّعابين مربوطين حتى فخذيها، شَعرها خليقات من السّواد الفاحم منسدلة حتى أسفل ظَهرها، وحول جبهتها حلقة من الشّموس النّحاس. قال القائد لنفسه: *ما زالَت ضئيلة الحجم*. أفاعي الرّمال طويلات القامة، بينما ورثَت آريان قامة أمّها التي لم تتجاوَز أقدامًا خمسة وبوصتين، لكن تحت نطاقها المحلّى بالجواهر وطبقات الحرير الأرجواني والسّميت[14] الأصفر الفضفاضة لها جسد امرأةٍ غَض مستدير المنحنيات. أعلنَت والسّتائر تُفتَح: «أبي، (صنسپير) مبتهجة لعودتك».

قال الأمير: «نعم، سمعتُ البهجة»، وابتسمَ بشحوبٍ ووضعَ يدًا حمراء منتفخةً على وجنة ابنته مضيفًا: «تبدين بخير. أيها القائد، ساعِدني على النّزول من فضلك».

دَسّ هوتا فأسه الطّويلة في حزامها على ظَهره والتقطَ الأمير بذراعيه برفقٍ لئلا يُزعِج مفاصله الملتهبة، وعلى الرغم من هذا حبَس دوران مارتل شهقة ألم.

قالت آريان: «لقد أمرتُ الطّهاة بتجهيز وليمةٍ بكلّ أصنافك المفضّلة لهذا المساء».

ردّ الأمير: «أخشى أن لا شهيّة عندي»، وتطلّع بتؤدةٍ في أنحاء السّاحة، وأردفَ: «لا أرى تايين».

- «لقد طلبَت الكلام معك على انفراد، وأرسلتها تنتظرك في قاعة العرش».

تنهّد الأمير، وقال: «ليكن. أيها القائد، فلنفرَغ من هذا الأمر بسَرعةٍ لأستريح».

حملَه هوتا صاعدًا سلالم (بُرج الشّمس) الحجريّة الطّويلة إلى القاعة الدّائريّة الكبيرة تحت القُبّة، حيث تتسرّب خيوط ضوء الأصيل الأخيرة من زُجاج النّوافذ السّميكة ذي الألوان المتعدّدة لتُرقّط الرّخام بماساتٍ من مئة لون، وهناك كانت أفعى الرّمال الثّالثة تنتظرهم.

وجدوها جالسةً متقاطعة السّاقين على وسادةٍ أسفل المنصّة المرتفعة التي يعتليها المقعدان العاليان، لكنها نهضَت لدى دخولهم، وقد ارتدَت فُستانًا ضيّقًا من السّميت الأزرق الباهت بكُمّين من شرائط الزّينة المايريّة التي جعلَتها تبدو ببراءة (العذراء) نفسها، وفي إحدى يديها قطعة تطريزٍ تعمل عليها، وفي الثّانية زوجان من الإبر الذّهب. شعَرها ذهبيٌّ أيضًا، وعيناها لُجّتان زرقاوان عميقتان... ومع ذلك فإنهما بشكلٍ ما تُذكّران القائد بعينَي أبيها، رغم أن عينَي أوبرين كانتا سوداوين كاللّيل. قال أريو هوتا لنفسه وقد فطنَ إلى الحقيقة فجأةً: *كلُّ بنات الأمير أوبرين لهن عيناه الأفعوانيّتان، بغَضّ النّظر عن اللّون.*

قالت تايين ساند: «عمّي، كنتُ أنتظرك».

- «أيها القائد، ساعِدني على الجلوس على المقعد العالي».

على المنصّة مقعدان أقرب إلى توأمين، مع فرق أن أحدهما على ظَهره حربة آل مارتل المزخرَفة بالذّهب، والثّاني يحمل شمس الروينار الوهّاجة التي رفرفَت على صواري سُفن نايميريا حين رسَت على سواحل (دورن). أجلسَ القائد الأمير أسفلَ الحربة وابتعدَ.

- «هل الألم بالغ؟»، سألَت الليدي تايين بنبرةٍ رقيقة وقد بدَت عذبةً كالفراولة في الصّيف. كانت أمُّها سِبتةً، ولتايين طابع من الرِّقّة كأنه من عالمٍ آخَر. «أهناك ما يُمكنني أن أفعله لأخفّف الألم؟».

- «قولي ما لديكِ واتركيني أستريح، إنني مرهَق يا تايين».

قالت: «صنعتُ هذه من أجلك يا عمّاه»، وبسطَت القطعة التي تُطرّزها، التي تُظهِر الأمير أوبرين مبتسمًا على صهوة جوادٍ صحراوي في دِرعٍ حمراء. «إنها لك حين أفرغُ منها، لتُساعِدك على تذكُّره».

- «ليس واردًا أن أنسى أباكِ».

- «جيّد أن تقول هذا، فكثيرون يتساءلون».

- «اللورد تايوين وعدَنا برأس الجبل».

- «يا للُطفه... لكن سيف الجلّاد ليس نهايةً تليق بالسير جريجور الشّجاع. لقد صلّينا من أجل موته طويلًا جدًا، وعين العدل أن يُصلّي من أجله أيضًا. إنني أعرفُ السّمّ الذي استخدمه أبي، وليس هناك سُمٌّ في الدّنيا أبطأ مفعولًا أو أكثر إيلامًا. قد نسمع صُراخ الجبل قريبًا، حتى هنا في (صنسپير)».

زفرَ الأمير دوران قائلًا: «أوبارا تزعق فيّ مطالبةً بالحرب، ونيم قانعة بالاغتيال، فماذا عنكِ؟».

قالت تايين: «الحرب، لكن ليس حرب أختي. أحسن قتال الدورنيّين على أرضهم، لذا أقولُ أن نشحذ حِرابنا وننتظر، ولمّا يأتينا آل لانستر وتايرل سنُدميهم في الممرّات وندفنهم في الرّمال كما فعلنا مئة مرّةٍ من قبل».

- «هذا إذا أتوا».

- «أوه، من المحتّم أن يأتوا، وإلّا عادَت البلاد تتمزّق كما كانت قبل أن نتزوّج التّنانين. أبي مَن أخبرَني بهذا، قال إن علينا أن نَشكُر العِفريت لأنه أرسلَ إلينا الأميرة مارسلا. إنها جميلة جدًا، أليس كذلك؟ ليت لي خُصلات كخُصلاتها. لقد خُلِقَت لتكون ملكةً، تمامًا مِثل أمّها»، وأزهرَت الغمّازتان في وجنتَي تايين وهي تواصِل: «سيُشرّفني أن أرتّب الزّفاف وأشرف على صُنع التّاجين كذلك. تريستان ومارسلا شديدا البراءة، لذا فكّرتُ أن يكون التّاجان من الذّهب الأبيض... مع الزُّمرّد ليتماشى مع عينَي مارسلا. أوه، لا بأس بالماس واللُّؤلؤ أيضًا ما دامَ الطّفلان سيتزوّجان ويُتوَّجان، وما علينا عندئذٍ إلّا أن نُعلِن مارسلا الأولى ملكةً على الأنداليّين والروينار والبشر الأوائل، باعتبارها الوريثة الشّرعيّة لممالك (وستروس) السّبع، وننتظر مجيء الأسود».

ردّد الأمير ساخرًا: «الوريثة الشّرعيّة؟».

شرحَت تايين كأنه أحمق: «إنها أكبر من أخيها، والمفترَض بالقانون أن ينتقل العرش الحديدي إليها».

- «القانون الدورني».

- «عندما تزوّج الملك دايرون الكريم الأميرة ميريا وضمّنا إلى المملكة كان هناك اتّفاق يقضي أن يُطَبَّق القانون الدورني في (دورن) دومًا، وللصُّدفة مارسلا في (دورن) الآن».

قال بنبرةٍ متذمِّرة: «هي كذلك. دَعيني أفكِّرْ في الأمر».

ردّت تايين بصرامة: «إنك تُفَكِّر كثيرًا جدًّا يا عمّاه».

- «حقًّا؟».

- «هذا ما كان أبي يقوله».

- «أوبرين كان يُفَكِّر لِمامًا».

- «بعض النّاس يُفَكِّر لأنه يخاف أن يفعل شيئًا».

- «هناك فرق بين الخوف والحذر».

قالت تايين: «أوه، أدعو ألّا أراك خائفًا أبدًا يا عمّاه، فقد تنسى أن تتنفّس»، ورفعت يدها...

ودَقَّ القائد الرُّخام بكعب فأسه قائلًا: «إنكِ تتجرّئين يا سيِّدتي. ابتعدي عن المنصّة إذا سمحتِ».

ردّت تايين: «لا أقصد أذى أيها القائد. إنني أحبُّ عمّي مِثلما أعلمُ أنه أحبَّ أبي»، وجثَت أمام الأمير مردفةً: «لقد قلتُ كلَّ ما جئتُ لأقوله يا عمّاه. سامِحني إذا أسأتُ إليك، فقلبي كسير عن آخِره. أما زلتُ أحظى بحبّك؟».

- «دائمًا».

- «أعطِني بَركتك إذن وسأذهبُ».

تردّد دوران هنيهةً قبل أن يضع يده على رأس ابنة أخيه، ويقول: «تشجّعي يا صغيرتي».

- «وكيف لا؟ إنني ابنته».

لم تكد تُغادِر حتى هرعَ المِايستر كاليوت إلى المنصّة قائلًا: «سموّ الأمير، إنها لم... تَعني أرى يدك»، وتفحّص الكَفّ أولًا ثم قلبَها برفقٍ ليتشمّم أصابع الأمير، ثم قال: «لا، جيّد، هذا جيّد، ليست هناك خدوش، لذا...».

قال الأمير ساحبًا يده: «هل لي بالقليل من حليب الخشخاش[15] أيها المِايستر؟ كوب صغير يكفي».

- «الخشخاش، نعم، بالتّأكيد».

حثّه الأمير قائلًا بهدوء: «الآن»، فأسرعَ كاليوت إلى السّلالم.

كانت الشّمس قد غربَت في الخارج، واصطبغَ الضّوء داخل القُبّة بزُرقة الغسق، فيما بدأت الماسات على الأرض تُحتضَر وتزول، والأمير جالس على مقعده العالي تحت حربة آل مارتل بوجهٍ ممتقع من الألم، وبَعد صمتٍ طالَ التفتَ إلى آريو هوتا سائلًا: «أيها القائد، ما مدى إخلاص خزّاسي؟».

أجابَ القائد غير عالمٍ بأيّ شيءٍ آخَر يردّ: «إنهم مخلصون».

- «بعضهم أم جميعهم؟».

قال القائد: «إنهم رجال صالحون، دورنثيون صالحون، وسيفعلون ما آمرهم به»، ودَقَّ الأرض بفأسه مردفًا: «سأقطعُ رأس أيِّ رجلٍ يخونك».

- «لا أريدُ رؤوسًا، أريدُ الطَّاعة».

- «هي لك». *اخدِم، أطِع، احمِ. يمين بسيطة لرجلٍ بسيط*. «كم رجلًا تُريد؟».

- «سأتركُ لك هذا القرار. ربما تُفيدنا قِلَّة من الرِّجال البارعين أكثر من عشرين. أريدُ أن يتمَّ الأمر بأسرع وأهدأ ما يُمكن، دون أن تُراق دماء».

- «بِسُرعةٍ وهدوء ودون دماء، نعم. ما أوامرك؟».

- «ستجد بنات أخي وتقبض عليهن وتحبسهن في الزِّنازين على قمَّة (بُرج الحربة)».

قال القائد بخلقٍ جَفٍّ: «أفاعي الرِّمال؟ كلُّهن... ثمانيتهن يا سموَّ الأمير؟ والصَّغيرات أيضًا؟».

فكَّر الأمير لحظةً قبل أن يُجيب: «بنات إلاريا أصغر من أن يُمثِّلن خطرًا، لكن ربما يسعى أحدهم إلى استغلالهن ضدي. الأفضل أن يكن آمناتٍ في متناوَل اليد. نعم، الصَّغيرات أيضًا... لكن تايين ونايميريا وأوبارا أولًا».

قال القائد بقلبٍ منزعج: «كما يأمر سموُّ الأمير». *لن يُعجِب هذا أميرتي الصَّغيرة*. «وماذا عن ساريلا؟ إنها امرأة ناضجة، تُقارِب العشرين».

- «ما لم ترجع إلى (دورن) فليس هناك ما يُمكنني أن أفعله بشأنها غير أن أصلّي أن تكون أعقل من أخواتها. دَع ساريلا لـ... للُعبتها، واقبض على الأخريات. لن أنام إلى أن أعرف أنهن آمنات وتحت الحراسة».

قال القائد: «سيتمُّ الأمر»، وتردّد لحظةً قبل أن يُضيف: «عندما يَبلُغ الخبر الشّوارع سيثور العامّة».

رَدَّ دوران مارتل بصوتٍ تَعِب: «(دورن) كلُّها ستثور. آملُ فقط أن يسمعهم اللورد تايوين في (كينجز لاندنج) ليعلم أن له صديقًا وفيًا في (صنسپير)».

---

(11) عندما تعرق الخيول نتيجةً للمجهود الشّديد، تَخرج من مسامِها مادّة رغويّة يتسبّب بروتين معيّن في إفرازها. (المترجم).

(12) الحرير الرّملي نوع خشن من الحرير يُنعَّم بفركه بالرّمل، ويساعِد على عدم ارتفاع حرارة الجسد في الأجواء الحارّة. (المترجم).

(13) الدّرمونة من السّفن الحربيّة ذات الأشرعة والمجاذيف، تتميّز بسرعتها وحجمها الكبير وقُدرتها على حمل عددٍ كبير من الرّجال. (المترجم).

(14) السّميت نسيج حريري شديد الفخامة مضلّع الحبكة. (المترجم).

(15) حليب الخشخاش مشروب حقيقي ذو أصل اسكندنافي، مخدِّر ومسكِّن للألم. (المترجم).

في الحُلم رأت نفسها جالسةً على العرش الحديدي، سامية عنهم جميعًا.

كان أفراد الحاشية فئرانًا زاهية الألوان في الأسفل. أمامها ركعَ كلُّ لورد عظيم وليدي مترفِّعة، ووضعَ الفُرسان الشُّبّان الأشاوس سيوفهم عند قدميها مستجدين حظوتها، وابتسمت لهم الملكة من عليائها... إلى أن ظهرَ القزم كأنه برزَ من العدم، يُشير إليها ويعوي ضحكًا، فبدأ اللوردات والليديهات في القهقهة بدورهم وقد أخفوا ابتساماتهم وراء أيديهم، ولحظتها فقط أدركَت الملكة أنها عارية.

مذعورةً، حاولَت أن تُغطّي نفسها بيديها، وانغرسَت نصال العرش الحديدي وأشواكه في لحمها إذ انحنَت على نفسها محاولةً تخبئة عورتها، فسالَت الدّماء حمراء على ساقيها ونهشَت أسنان من الفولاذ ردفيها، ولمّا حاولَت أن تنهض انزلقَت قدمها في فجوةٍ في المعدن المشوَّه، وكلّما قاومَت ناشدةً التّحرُّر ابتلعَها العرش أكثر، ممزِّقًا قطعًا من اللّحم من ثدييها وبطنها ومشرِّحًا ذراعيها وساقيها، إلى أن اكتسَت بلمعة الحُمرة الزَّلقة.

وطوال الوقت يتوثّب أخوها في الأسفل ضاحكًا.

كانت ضحكاته الجذِلة لا تزال تتردّد في أذنيها حين أحسّت بلمسةٍ خفيفة على كتفها واستيقظت فجأةً، ولأقلّ من لحظةٍ بدت اليد جزءًا من الكابوس، فأطلقت سرسي صيحةً، لكنها كانت يد سينل لا غير، وقد لاح الخوف على وجه الوصيفة الممتقع.

قالت الملكة لنفسها وقد أتاها الإدراك: *لسنا وحدنا.* كانت الظّلال تُحيط بفِراشها، أشباح طويلة تلتمع حلقاتها المعدنيّة تحت معاطفها، ولكن ليس للرّجال المسلّحين شأن هنا. *أين حرّاسي؟* كانت غُرفة نومها مظلمةً تمامًا، لا ضوء فيها إلّا ذلك المنبعث من المصباح الذي يرفعه أحد المتطفّلين عاليًا. *يجب ألّا أبدي خوفًا.* أزاحت سرسي شعرها الذي شعّثه النوم سائلةً: «ماذا تُريدون مني؟»، فتقدّم رجل داخلًا دائرة الضّوء، وعندما رأت معطفه الأبيض قالت: «چايمي؟». *أحلمُ بأخٍ فيأتي الثّاني لإيقاظي.*

أجابها الصّوت الذي ليس لأخيها: «جلالة الملكة، حضرة القائد قال أن نأتي ونُحضِركِ». له شَعر متموّج كچايمي، لكن شَعر أخيها كالذّهب المطرّق، مِثلها بالضّبط، أمّا هذا الرّجل فشَعره أسود دُهني، وقد حدّقت إليه وهو يُغمغِم بكلامٍ ما عن مرحاضٍ ونُشّابيّة ويَذكُر اسم أبيها. *ما زلتُ أحلمُ، لم أستيقظ ولم ينتهِ كابوسي. قريبًا سيزحف تيريون خارجًا من تحت الفِراش ويضحك مني.*

لكن ما تُفكِّر فيه شخف. أخوها القزم حبيس الزَّنازين السُّوداء، ومحكوم عليه بالموت اليوم تحديدًا. تطلَّعت إلى يديها وقلبتهما لتتأكَّد من أن أصابعها كلَّها لا تزال موجودةً، وحين تحسَّست ذراعها وجدَت جِلدها مقشعرًا ولكن سليمًا، ولا جروح في ساقيها أو شقوق في باطن قدميها. *حُلم، لم يكن أكثر من حُلم. شربتُ الكثير ليلة أمس، وهذه المخاوف وليدة النَّبيذ فقط. سأكونُ أنا الضَّاحكة مع حلول الغسق، سيصير ولداي آمنين وعرش تومن محفوظًا، ويفقد ڤالونكاري الصَّغير الشَّائه رأسه ويتعفَّن.*

وجدَت چوسلين سويفت عند مِرفقها تُناوِلها كوبًا، فأخذَت سرسي رشفةً لتذوق الماء المخلوط بعصير اللَّيمون، وكان لاذعًا لدرجة أنها بصقَته. سمعَت رياح اللَّيل ترجُّ مصاريع النَّوافذ، وأصبحَ بإمكانها الآن أن ترى بوضوحٍ كامل غريب. كانت چوسلين ترتجف خوفًا كورقة شجرٍ مِثل سينل، ورأت سرسي السير أوزموند كِتلبلاك واقفًا فوقها، ووراءه السير بوروس بلاونت حاملًا المصباح، وعند الباب حرس لانستر الذين تلتمع الأسود المذهَّبة على ريشات خوذاتهم، وقد بدوا خائفين أيضًا. تساءلَت الملكة: *أهذا حقيقي؟ أيُمكن أن يكون حقيقيًّا؟*

نهضَت وتركَت سينل تضع معطف نومٍ على كتفيها لتَستُر عُريها، ثم ربطَت الحزام بنفسها بأصابع متيبّسة خرقاء، وقالت: «السيّد والدي يحتفظ بحُرّاسه حوله ليل نهار». أحسّت بلسانها ثقيلًا، فأخذَت رشفةً أخرى من الماء باللّيمون ودوّرته في فمها لتُنعِش أنفاسها. كانت غتّة قد دخلَت المصباح الذي يحمله السير بوروس، وسمعَت سرسي طنينها ورأت ظِلّ جناحيها وهما يضربان الزُّجاج.

قال أوزموند كِتلبلاك: «الحُرّاس كانوا في مواقعهم يا جلالة الملكة. لقد وجدنا بابًا خفيًّا وراء المستوقَد، طريقًا سرّيًّا. حضرة القائد نزلَ ليرى أين يقود».

استحوذَ عليها الفزع فجأةً كالعاصفة، وقالت: «چايمي؟ المفترَض أن يكون چايمي مع الملك...».

- «لم يمسّ الصّبي أذى. السير چايمي أرسلَ دستةً من الرّجال لحراسته. جلالته نائم في سلام».

فليحظَ بحلمٍ أجمل من حلمي، وبإيقاظٍ أرحم. «مَن مع الملك؟».

- «السير لوراس له هذا الشّرف، بَعد رضاكِ».

لكن هذا لا يُرضيها. آل تايرل مجرّد وُكلاءٍ رفعَهم ملوك التّنانين فوق مكانتهم كثيرًا، وليس أكبر من غرورهم إلّا طموحهم. قد يكون السير لوراس وسيمًا كأحلام العذراوات، لكنه تايرل حتى النّخاع تحت معطفه الأبيض، وعلى حدّ علمها فربما تكون ثمرة اللّيلة التّالفة قد زُرِعَت وترعرعَت في (هايجاردن).

لكنه شَكٌّ لا تستطيع المجاهَرة به. هكذا قالت: «اسمحوا لي بلحظةٍ لارتداء ثيابي. سير أوزموند، ستصحبني إلى (بُرج اليد). سير بوروس، أيقِظ السّجّانين وتأكّد من أن القزم ما زالَ في زنزانته». تَرفُض أن تنطق اسمه. حدّثت نفسها قائلةً: *مُحال أن يجد شَجاعة أن يرفع يدًا ضد أبينا*، لكن عليها أن تتيقّن.

قال بلاونت: «كما تأمرين يا صاحبة الجلالة»، وناولَ السير أوزموند المصباح، فلم يُثِر استياء سرسي أن تراه يرحل. *لم يكن يَجدُر بأبي أن يُعيد إليه معطفه الأبيض قَطُّ*. لقد برهنَ الرّجل على جُبنه.

لدى خروجهم من (حصن ميجور) كانت السّماء قد اصطبغَت بزُرقةٍ عميقة كالكوبالت، ولو أن النُّجوم لا تزال تلتمع. جميعها *باستثناء واحد. نجم الغرب السّاطع هوى، والآن ستصبِح اللّيالي أكثر حلكةً*. توقّفت على الجسر المتحرّك الممدود فوق الخندق الجاف متطلّعةً إلى الخوازيق في الأسفل، وفكّرت: *ما كانوا ليجسُروا على الكذب عليّ في شأنٍ كهذا*، ثم إنها سألَت: «مَن وجدَه؟».

أجابَ السير أوزموند: «أحد حُرّاسه، لوم. ذهبَ يُلَبّي نداء الطّبيعة ووجدَ حضرة اللورد في المرحاض».

لا، لا يُمكن أن يكون هذا صحيحًا. ليس هكذا يموت الأسد. أحسّت الملكة بهدوءٍ غريب، وتذكّرت أول مرّة فقدت فيها سِنًّا في صِغرها وكيف لم تشعُر بأيّ ألم، وإن ولّدت الفجوة إحساسًا غريبًا في فمها جعلَها لا تستطيع الكَفّ عن لمسها بلسانها. *والآن ثمّة فجوة في العالم كان يسدُّها أبي، والفجوات تحتاج إلى ملء.*

إذا ماتَ تايوين لانستر حقًّا فلا أحد في أمان... لا سيّما ابنها على عرشه. حين يموت اللّيث تنقضُّ الحيوانات الأقلُّ شأنًا، العِقبان وبنات آوى والكلاب الضّارية. سيُحاوِلون تنحيتها جانبًا كما فعلوا دومًا، وعليها أن تتحرّك بسرعةٍ مِثلما فعلَت حين ماتَ روبرت. قد يكون هذا من صُنع ستانيس باراثيون من خلال أجيرٍ ما، وربما يكون تمهيدًا لهجومٍ جديد على المدينة، وهي تأمل أن يكون كذلك. *فليأتِ. سأسحقه كما سحقَه أبي، وهذه المرّة سيموت.* لا يُخيفها ستانيس أكثر مما يُخيفها مايس تايرل، لا أحد يُخيفها. إنها اللّبوة ابنة (الصّخرة). *لن يكون هناك المزيد من الكلام عن إرغامي على الزّواج مجدّدًا.* (كاسترلي روك) لها الآن، وكلُّ شلطة عائلة لانستر، ولن يستخِفّ بها أحد ثانيةً أبدًا، وحتى عندما تنتهي حاجة تومن إلى وصيّة ستظلُّ سيّدة (كاسترلي روك) قوّةً لا يُستهان بها في البلاد.

خضّبت الشّمس المشرقة قمم الأبراج بالأحمر الفاقع، لكن تحت الأسوار ظَلّ اللّيل رابضًا، وخيّم على القلعة الخارجيّة صمت مطبِق لدرجة أن سرسي كانت لتُصَدّق أن أهلها جميعًا قد ماتوا. *حريٌّ بهم أن يموتوا، فلا يليق بتايوين لانستر أن يموت وحده. رجل مِثله يستحقُّ حاشيةً تخدمه في الجحيم.*

عند باب (بُرج اليد) وقفَ أربعة من حاملي الحراب في المعاطف الحمراء والخوذات ذات ريشة الأسد، فقالت لهم: «لا أحد يَدخُل أو يَخرُج دون إذني». صدرَ منها الأمر بسهولة. *أبي أيضًا كان في صوته فولاذ.*

أزعجَ دُخان المشاعل عينيها داخل البُرج، إلّا أن قطرة دمعٍ لم تَسِل من سرسي كما لم تكن لتسيل من أبيها. *أنا الابن الحقيقي الوحيد الذي أنجبَه.* احتكّ كعباها بالحجر وهي تصعد السّلالم، ولم يزل بإمكانها أن تسمع ضربات جناحَي العُثّة العنيفة داخل مصباح السير أوزموند، فخاطبَتها الملكة في سريرتها بضيق: موتي، حلّقي *إلى اللّهب وافرَغي من الأمر.*

على قمّة السّلالم وقف حارسان آخَران بمعطفين أحمرين، وتمتمَ لستر الأحمر بكلمة عزاءٍ إذ مرّت به. أحسّت الملكة بأنفاسها سريعةً قصيرةً وبقلبها يرتجف في صدرها، فقالت لنفسها: *إنها السّلالم، هذا البُرج الملعون سلالمه كثيرة للغاية.* الحقيقة أنها تَشعُر بميلٍ في نفسها إلى هدمه.

ألفَت القاعة مليئةً بالحمقى الذين يتكلّمون همسًا، كأن اللورد تايوين نائم ويخشون أن يُوقِظوه، وانكمش الحَرس والخدم على حَدٍّ سواءٍ منها لدى مرورها وأفواههم تنفتح وتنغلق، فرأت لِثاهم الورديّة وألسنتهم المتراقصة، لكن كلامهم لم يعنِ لها شيئًا أكثر من طنين الغثّة. *ماذا يفعلون هنا؟ كيف عرفوا؟* المفترَض أن يكونوا قد استدعوها هي أولًا. إنها الملكة الوصيّة على العرش، أم أنهم نسوا؟

أمام غُرفة نوم يد الملك وقف السير مرين ترانت بمعطفه ودِرعه الأبيضين، وقد فتحَ مقدّمة خوذته فجعلَته الأكياس الثّقيلة تحت عينيه يبدو كأنه ما زالَ نِصف نائم. قالت له: «أبعِد هؤلاء النّاس. هل أبي في المرحاض؟».

فتحَ لها السير مرين الباب مجيبًا: «حملوه إلى سريره يا سيِّدتي».

كانت خيوط الضّوء المائلة تتسرّب من مصاريع النّوافذ راسمةً خطوطًا ذهبيّةً على الحصائر المفروشة على أرضيّة غُرفة النّوم، ووجدت الملكة عمّها كيڤان على رُكبتيه إلى جوار الفِراش، يُحاوِل أن يُصَلّي وبالكاد يستطيع إخراج الكلمات من بين شفتيه. تجمّع الحَرس قُرب المستوقَد، وقد لاحَ الباب السّرّي الذي ذكرَه السير أوزموند مفتوحًا وراء الرّماد، لا يتعدّى حجمه حجم فُرن، وهو ما يعني أن المتسلّل منه عليه أن يزحف.

أصابَتها الفكرة بالغضب. *لكن تيريون نِصف رجلٍ فقط. لا، القزم محبوس في زنزانةٍ سوداء.* ليس ممكنًا أن هذا من صُنعه. *ستانيس، ستانيس وراء الأمر. ما زالَ له مناصرون في المدينة. إمّا هو وإمّا آل تايرل...*

لطالما تردّد الكلام عن وجود ممرّاتٍ سرّيّة داخل (القلعة الحمراء)، ويُفترَض أن ميجور المتوحّش قتلَ الذين بنوا القلعة ليُحافِظ على السّر. *كم غُرفة نومٍ أخرى فيها أبواب خفيّة؟* تكوّنت في عقل سرسي فجأةً صورة للقزم يَخرج زاحفًا من وراء إحدى المعلّقات في غُرفة تومن وفي يده سكّين، لكنها حدّثت نفسها قائلةً: *تومن تحت حراسةٍ قويّة.* واللورد تايوين كان تحت حراسةٍ قويّة أيضًا.

مرّت لحظة دون أن تتعرّف الرّجل الميت. إن له شعرًا كشعر أبيها، نعم، وإنما مؤكّد أن هذا رجل آخر، رجل أصغر حجمًا وأكبر سِنًّا بكثير، معطف نومه مرفوع حول صدره تاركًا إياه عاريًا تحت الخصر. كان السّهم قد أصابَه فوق خاصرته بين الذّكر والسّرّة، وقد انغرسَ في لحمه تمامًا لدرجة أن ريشته فقط بارزة، ويبّست الدّماء الجافّة شَعر عانته، بينما بدأ المزيد منها يتخثّر في سُرّته.

جعلَت رائحته أنفها يتقلّص اشمئزازًا، وقالت آمرةً: «أخرِجوا الشهم منه. إنه يد الملك!». *ووالدي، السيّد والدي. أيَجدُر بي أن أصرخ وأمزّق شَعري؟* يقولون إن كاتلين ستارك مزّقت وجهها تمزيقًا حين قتلوا عزيزها روب. أرادَت أن تسأله: *هل كان هذا ليروقك يا أبي أم كنت لتُريدني أن أتحلّى بالثّبات؟ هل بكيت أنت أباك؟* لقد ماتَ جدُّها وسِنُّها عام واحد لا أكثر، لكنها تعرف قصّة اللورد تايتوس الذي صارَ في غاية البدانة، وفي يومِ انفجرَ قلبه وهو يصعد السّلالم إلى عشيقته. كان أبوها في (كينجز لاندنج) عندما حدثَ هذا، يدًا للملك المجنون، وقد اعتادَ اللورد تايوين أن يغيب طويلًا في المدينة وقت طفولتها هي وچايمي، فإذا كان بكى حين أتوه بخبر موت أبيه فقد فعلَها في مكانٍ لم يرَ أحد فيه دموعه.

قالت الملكة شاعرةً بأظفارها تنغرس في راحتَي يديها: «كيف تتركوه هكذا؟ أبي كان يدًا لثلاثة ملوك، أعظم رجلٍ عرفته (الممالك السّبع). لا بُدّ أن تُدَقّ له الأجراس كما دُقّت لروبرت، ولا بُدّ أن يُغسّل ويُكسى بثيابٍ تليق بمكانته، بفراء القاقوم[16] وقُماش الذّهب والحرير القرمزي. أين پايسل؟ أين پايسل؟!»، والتفتت إلى الحُرّاس قائلةً: «پوكنز، أحضِر المِايستر الأكبر پايسل. عليه أن يتولّى العناية باللورد تايوين».

ردّ پوكنز: «لقد رآه بالفعل يا جلالة الملكة، أتى ورأى وذهبَ يستدعي الأخوات الصّامتات».

كنتُ آخِر مَن أرسلوا يستدعونه. أصابتها الإدراك بحنقٍ كادَ يُعجِزها عن الكلام. *ويهرب پايسل ليرسِل رسالةً بدلًا من أن يُلَوِّث يديه الرّقيقتين المتغضّنتين. هذا الرّجل عديم الفائدة*. قالت بنبرةٍ آمرة: «اعثر على المِايستر بالابار، اعثر على المِايستر فرنكن، هذا أو ذاك»، فهرعَ پوكنز وذو الأذن القصيرة لتلبية الأمر، وتساءلَت هي: «أين أخي؟».

- «نزلَ في النّفق. ثمّة بئر فيها درجات حديد مثبّتة في الحجر. السير چايمي ذهبَ ليرى عُمقها».

أرادَت أن تزعق فيهم: *إن له يدًا واحدةً فقط*. كان *على أحدكم أن يذهب، فليس لچايمي أن يتسلّق السّلالم. قد يكون مَن قتلوا أبي كامنين في الأسفل في انتظاره*. لطالما كان توأمها متهوّرًا، ويبدو أن فقدانه يده لم يُعَلّمه الحذر. كانت على وشك أن تأمر الحَرس باللّحاق به عندما عادَ پوكنز وذو الأذن القصيرة وبينهما رجل أشيب، وقال ذو الأذن القصيرة: «جلالة الملكة، هذا الرّجل يقول إنه كان مِايستر».

انحنى الرّجل بشدّةٍ قائلًا: «كيف أخدمُ جلالتكِ؟».

وجدَت سرسي وجهه مألوفًا على نحوٍ طفيف، وإن لم تستطِع أن تتذكّره. عجوز، *لكن ليس هَرِمًا كپايسل، ما زالَ يتمتّع بالقليل من الحيويّة*. الرّجل طويل القامة لكن ظَهره محنيٌ بعض الشّيء، وحول عينيه البنّيّتين الجريئتين تجاعيد. *ورقبته عارية*. قالت له: «لست تضع سلسلة مِايستر».

- «أخِذَت مني. اسمي كايبرن، بَعد إذن صاحبة الجلالة. لقد عالجتُ يد أخيكِ».

- «تقصد جَدعة يده». الآن تَذكُر أنه جاءَ مع چايمي من (هارنهال).

- «لم أستطِع أن أنقذ يد السير چايمي، هذا صحيح، لكن فنوني أنقذَت ذراعه، وربما حياته ذاتها. لقد أخذَت (القلعة) سلسلتي، لكن ليس بمقدور أحدٍ هناك أن يأخذ معرفتي».

قالت وقد حزمَت أمرها: «قد تَصلَح. إذا خذلتني ستفقد أكثر من مجرّد سلسلة، هذا وعد. أخرِج السّهم من بطن أبي وجهّزه للأخوات الصّامتات».

قال كايبرن: «كما تأمر مليكتي»، وذهبَ إلى الفِراش، ثم توقّف ونظرَ خلفه متسائلًا: «وكيف أتعاملُ مع الفتاة يا جلالة الملكة؟».

- «الفتاة؟». لم تنتبِه سرسي إلى الجثّة الثّانية، لكنها أسرعَت الآن إلى الفِراش وطوّحت كومة الأغطية الدّامية جانبًا، وها هي ذي الفتاة، عارية باردة متورِّدة... باستثناء وجهها المسود كوجه چوف في مأدبة زفافه، وقد اندفنَت سلسلة من الأيدي الذّهبيّة التي يشدُّ بعضها على بعض في لحم عنقها، والتوَت بشدّةٍ جعلَتها تخترق الجِلد. هسهسَت سرسي كهرّةٍ غاضبة، وقالت: «ماذا تفعل هذه هنا؟».

قال ذو الأُذن القصيرة: «وجدناها هنا يا جلالة الملكة. إنها عاهرة العِفريت». كأن قوله يُفسّر وجودها هنا.

فكّرت: *لم يكن السيد والدي يُطيق العاهرات، ولم يمسّ امرأةً بَعدما ماتت أمُنا.* حدجَت الحارس بنظرةٍ تُجمّد الدّماء، وقالت: «هذا ليس... حين ماتَ أبوه عادَ اللورد تايوين إلى (كاسترلي) روك ليجد... امرأةً من هذا النّوع... تتحلّى بجواهر أمّه وترتدي أحد فساتينها، فجرّدها منها ومن كلّ شيءٍ آخر، وطيلة أسبوعين جُرّسَت عاريةً في شوارع (لانسپورت)، لتقرّ لكلّ رجلٍ تلتقيه بأنها لصّة وبغي. هكذا كان اللورد تايوين يتعامَل مع العاهرات. إنه لم... هذه المرأة كانت هنا لسببٍ آخَر، وليس لـ...».

قال كايبرن مقترحًا: «ربما كان حضرة اللورد يستجوب الفتاة بشأن سيّدتها. سانزا ستارك اختفَت ليلة قُتِلَ الملك حسب ما سمعت».

تمسّكت سرسي بالاقتراح بحماسة، وقالت: «بالضّبط. لا بُدّ أنه كان يستجوبها، لا شَكّ في هذا على الإطلاق». كانت ترى تيريون يَنظُر إليها شزرًا بفمٍ ملتوٍ بابتسامةٍ كالقرود تحت أنفه الخرِب، وتسمع القزم يهمس لها: *وهل من وسيلةٍ أفضل لاستجوابها من أن تكون عاريةً فاتحةً ساقيها؟ هكذا أحبّ أن أستجوبها أيضًا.*

أشاحت الملكة بوجهها. *لن أنظر إليها.* فجأةً أصبحَ وجودها في الغرفة نفسها مع المرأة الميتة فوق الاحتمال، فاندفعَت متجاوزةً كايبرن وخرجَت إلى الرّدهة.

كان أوزني وأوزفريد أخوا السير أوزموند قد انضمًا إليه، فقالت سرسي للإخوة كِتلبلاك الثّلاثة: «هناك امرأة ميتة في غرفة اليد. يجب ألّا يعلم أحد أبدًا بأنها كانت هنا».

- «حاضر يا سيّدتي»، قال السير أوزني الذي تلوح على وجنته خدوش باهتة حيث خمشته واحدة أخرى من عاهرات تيريون. «وماذا نفعل بها؟».

- «أطعِموها لكلابكم، احتفظوا بها في سريركم، لا أبالي. إنها لم تكن هنا قطّ. سأقطعُ لسان من يتجرّأ ويقول إنها كانت هنا، مفهوم؟».

تبادلَ أوزني نظرةً مع أوزفريد، ثم قال: «نعم يا جلالة الملكة».

تبعَت الأخوين إلى الدّاخل وشاهدَت بينما لفّا الفتاة بأغطية أبيها الدّامية. *شاي، كان اسمها شاي*. آخِر مرّةٍ رأتها كانت في اللّيلة السّابقة لمُحاكمة القزم، بَعد أن عرضَ الثُّعبان الدورني الباسم أن يُناصِره في مُحاكمةٍ بالنّزال. سألَت شاي عن بعض الجواهر التي أعطاها لها تيريون، وعن وعودٍ معيّنة تقول إن سرسي قطعَتها بخصوص إيوانٍ في المدينة وفارسٍ يتزوّجها، فقالت الملكة بمنتهى الوضوح إن العاهرة لن تنال شيئًا منها إلى أن تُخبِرهم بمكان سانزا ستارك، وأضافَت: «كنتِ وصيفتها، فهل تتوقّعين أن أصدّق أنكِ لم تعلمي شيئًا عن مخطّطاتها؟»، وغادرَت شاي باكيةً.

رفعَ السير أوزفريد الجثّة الملفوفة على كتفه، وقالت له سرسي: «أريدُ هذه السّلسلة. احرص على ألّا تخدش الذّهب»، فأومأ أوزفريد برأسه إيجابًا وبدأ يتحرّك نحو الباب، إلّا أنها استوقفته قائلةً: «لا، ليس عبر السّاحة»، وأشارَت إلى الطّريق السّرّي مردفةً: «ثمّة بئر تقود إلى الزّنازين، اذهب من هناك».

وبينما جثا السير أوزفريد على رُكبةٍ واحدة أمام المستوقَد توهّج الضّوء في الدّاخل وسمعَت الملكة جلبةً، ثم ظهرَ چايمي محنيّ الظّهر كامرأةٍ مسنّة، يَركُل حذاؤه شخام نار اللورد تايوين الأخيرة ويُطيّره، وقال للأخوين كِتلبلاك: «ابتعدا عن طريقي».

هرعَت سرسي إليه متسائلةً: «هل وجدتهم؟ هل وجدت القتَلة؟ كم عددهم؟». مؤكّد أن هناك أكثر من واحد. لا يُمكن أن رجلًا وحيدًا قتلَ أباها.

أجاب توأمها وعلى وجهه نظرة منهَكة: «البئر تنزل إلى حُجرةٍ تتفرّع منها دستة أنفاق مغلَقة بأبواب حديديّة موصَدة بالسّلاسل. يجب أن أعثر على المفاتيح»، وجالَ ببصره في الغُرفة مضيفًا: «قد يكون من فعلَها أيًا كان لا يزال كامنًا وراء الجُدران. إنها متاهة مظلمة».

تخيّلت تيريون يزحف بين الجُدران كجرذٍ وحشي. لا، *دعكِ من هذه الأفكار السّخيفة، القزم في زنزانته.*

«اهدِم الجُدران بالمطارق، اهدِم البُرج كلّه إذا لزمَ الأمر. أريدُ العثور عليهم. أيًا كان من فعلَها أريده أن يُقتَل».

عانقَها چايمي ضاغطًا بيده السّليمة على أسفل ظَهرها، تفوح منه رائحة الرّماد وإن كان نور شمس الصّباح في شَعره يُضفي عليه وهجًا ذهبيًا. أرادَت أن تسحب وجهه إلى وجهها لتُقبّله، لكنها قالت لنفسها: *لاحقًا، لاحقًا سيأتيني ينشد المواساة*. همسَت له: «إننا وريثاه يا چايمي، وعلينا أن نتمّ عمله. لا بُدّ أن تحلّ محلّ أبينا كيد الملك. مؤكّد أنك ترى هذا الآن. تومن سيحتاج إليك...».

دفعَها عنه ورفعَ ذراعه لتُواجِه جَدعته وجهها مباشرةً، وقال: «يد بلا يد؟ دُعابة رديئة يا أختاه. لا تُطلُبي مني أن أحكم».

سمعَ عقُهما صدْته لها، وكذا كايبرن والأخوان كِتلبلاك اللذان يحملان الكومة عبر الرّماد بصعوبة، وحتى الحرس سمعوه؛ پوكنز وهوك وساق الحصان وذو الأذن القصيرة. *سيذيع الكلام في القلعة كلّها بحلول المساء*. أحسّت سرسي بالحرارة ترتفع إلى وجنتيها، وقالت: «تُحكُم؟ لم أقل شيئًا عن الحُكم. سأحكمُ أنا إلى أن يَبلُغ ابني».

قال أخوها: «لا أدري على مَن أشفقُ أكثر، تومن أم (الممالك السّبع)».

هوَت على وجهه بصفعة، وارتفعَت ذراع چايمي تصدُّها بسُرعة القِط... لكن هذا القِط له جَدعة مُعاقٍ بدلًا من يد يُمنى، فتركَت أصابعها علاماتٍ حمراء على خدّه.

دفعَ الصَّوت عمَّهما إلى النُّهوض قائلًا: «أبوكما مسجًى ميتًا هنا. تحلّيا باللّياقة وخُذا شجاركما إلى الخارج».

حنى چايمي رأسه معتذرًا، وقال: «سامِحنا يا عمّاه. أختي أسقمَها الحُزن ونسيَت نفسها».

أرادَت أن تصفعه ثانيةً لقوله هذا. *لا بُدَّ أني جُنِنتُ حين حسبتُ أنه يَصلُح لأن يكون يدًا.* خيرٌ لها أن تُلغي المنصب برُمَّته. منذ متى جلبَ عليها يد الملك إلّا البلاء؟ چون آرن وضعَ روبرت باراثيون في فِراشها، وقبل أن يموت بدأ يحوم حول علاقتها بچايمي أيضًا، ثم بدأ إدارد ستارك من حيث توقَّف آرن، وأجبرَها تطفُّله على الخلاص من روبرت في وقتٍ أقرَب مما أرادَت، قبل أن تتعامَل مع أخويه المزعجين، أمّا تيريون فباعَ مارسلا للدورنيّين واتَّخذ أحد ابنيها رهينةً واغتالَ الثّاني، وحين عادَ اللورد تايوين إلى (كينجز لاندنج)...

وعدَت نفسها قائلةً: *اليد التّالي سيعرف مقامه.* لا بُدَّ أن يكون السير كيڤان، فعمُّها دؤوب متعقِّل ومطيع لأقصى الحدود، وتستطيع الاعتماد عليه مِثل أبيها من قبلها. *اليد لا تُجادِل الرّأس.* ثمّة مملكة عليها أن تَحكُمها، لكنها ستحتاج إلى رجالٍ جُدد لمساعدتها على الحُكم. پايسل منافق خرِف، وچايمي فقدَ شَجاعته مع يده، ومايس تايرل وصديقاه الحميمان ردواين وروان ليسوا أهل ثقة، وعلى حدِّ علمها ربما يكون لهم دور في هذا. لا ريب أن اللورد تايرل علمَ أنه لن يحكم (الممالك السّبع) أبدًا ما عاشَ تايوين لانستر.

عليّ أن أتصرَّف بحذرٍ معه. المدينة تعجُّ برجاله، كما أنه نجحَ في زرع أحد أبنائه في الحرس الملكي، ويُزمِع أن يزرع ابنته في فِراش تومن. ما زالَت تتميَّز غيظًا من موافَقة أبيها على خطبة تومن ومارچري تايرل. *الفتاة في ضِعف سِنّه وترمَّلت مرَّتين*. يَزعم مايس تايرل أن ابنته بِكر، لكن سرسي تشكّ في صحَّة هذا. چوفري اغتيلَ قبل أن يُعاشِر الفتاة، لكنها كانت زوجة رنلي أولًا... *قد يُفضِّل المرء مذاق الهيپوكراس*[17]*، لكن ضَع دورقًا من المِزر أمامه وسيعبُه في لحظات*. عليها أن تأمر اللورد ڤارس بأن يجمع ما يستطيع من معلومات.

أوقفَها الخاطر في مكانها. لقد نسيَت أمر ڤارس. *المفترَض أن يكون هنا، إنه موجود دائمًا*. متى حدثَ شيء مهمٌّ في (القلعة الحمراء) يظهر الخصيُّ كأن العدم انشقَّ ولفظَه. *چايمي هنا، والعمُّ كيڤان، وپايسل جاءَ وذهبَ، لكن ڤارس غائب*. أحسَّت بإصبعٍ بارد يمسُّ عمودها الفقري. *إنه جزء من هذا. لا بُدَّ أنه خشيَ أن يضرب أبي عنقه، فوجَّه ضربته أولًا*. لم يكن اللورد تايوين يكنُّ وُدًّا لوليِّ الهامسين بابتساماته المتكلِّفة، وإذا كان هناك رجل واحد يعرف أسرار (القلعة الحمراء) فمؤكَّد أنه وليُّ الهامسين. *لا بُدَّ أنه تحالفَ مع اللورد ستانيس. لقد خدما معًا في مجلس روبرت رغم كلِّ شيء*...

اتّجهت سرسي مسرعةً إلى باب الغُرفة حيث يقف السير مرين ترانت، وقالت له: «ترانت، أحضِر لي اللورد فارس، أحضِره صارخًا مكبّلًا إذا دعَت الحاجة، لكن دون أن يمسّه أذى».

- «كما تأمرين يا جلالة الملكة».

لكن لم يكد فارس الحَرس الملكي يرحل حتى عادَ آخَر. كان السير بوروس بلاونت محتقن الوجه متقطّع الأنفاس من اندفاعته المتعجّلة على السّلالم، ولمّا رأى الملكة قال لاهثًا: «اختفى»، ونزلَ على رُكبته متابعًا: «العِفريت... زنزانته مفتوحة يا جلالة الملكة... لا أثر له في أيّ مكان».

كان الحُلم حقيقةً. «لقد أمرتُ بأن يبقى تحت الحراسة ليل نهار...».

رَدّ بلاونت وصدره يعلو ويهبط بسُرعة: «أحد السّجّانين مفقود أيضًا، اسمه روجن، ووجدنا رجلين آخرَين نائمين».

قالت باذلةً قصارى جهدها كي لا تَصرُخ: «آمل أنك لم تُوقِظهما يا سير بوروس. اترُكهما نائمين».

رفعَ عينيه إليها وتساءلَ بارتباكٍ ولُغده يهتزّ: «نائمين؟ أمرك يا جلالة الملكة. إلى متى أترك...».

- «إلى الأبد. اعمل على أن يناما إلى الأبد أيها الفارس. لن أسمح بأن ينام الحرّاس في أثناء مناوبتهم». *إنه بين الجدران. قتلَ أبي كما قتلَ أمّي كما قتلَ چوف*. تعلم الملكة أن القزم سيأتيها أيضًا، تمامًا كما توعّدتها العجوز في عتمة الخيمة إياها. ضحكتْ في وجهها، *لكنها كانت تتمتّع بقُدراتٍ حقيقيّة. لقد رأيتُ مستقبَلي في قطرة دم، رأيتُ هلاكي*. شعرَت بقدميها ضعيفتين كالماء، وحاولَ السير بوروس أن يلتقط ذراعها، لكن الملكة جفلَت من لمسته. ربما يكون واحدًا من مخلوقات تيريون أيضًا. صاحت: «ابتعد عني، ابتعد!»، وترنّحت قبل أن تُثبّت نفسها.

قال بلاونت: «هل أحضرُ كوبًا من الماء يا جلالة الملكة؟».

ما أحتاجُ إليه هو الدّم لا الماء، دمُ تيريون، دمُ الڤالونكار. راحت المشاعل تدور حولها، فأغلقَت سرسي عينيها ورأت القزم يبتسم لها باتّساع. *لا، لا، كنتُ أوشكتُ على الخلاص منه*. لكن أصابعه انغلقَت حول رقبتها، وأحسّت بها تبدأ في الانطباق.

---

(16) القاقوم حيوان ثديي ينتمي إلى فصيلة العرسيّات، وهو من أخطر حيوانات هذه الفصيلة على الرغم من لُطف شكله وجماله، وله فرو يُستخدم في صناعة الملابس الفاخرة. (المترجم).

(17) الهيبوكراس مشروب صحّي يُعَدُّ من النّبيذ المخلوط بالسُّكّر والتّوابل، وعادةً ما يتضمَّن القرفة، ابتكره أبقراط وسُمّيَ نسبةً إليه. (المترجم).

قالت للعقيلة الشّيباء الواقفة عند بئر القرية: «أبحثُ عن بنتٍ في الثّالثة عشرة، بنت رفيعة النّسب رائعة الجمال، عيناها زرقاوان وشعرها كستنائي. قد تكون مُسافرةً مع فارسٍ سمين في الأربعين، أو ربما مع مهرّج. هل رأيتِها؟».

أجابَت العقيلة وهي تَنقُر على جبهتها بمفاصل أصابعها: «ليس حسب ما أذكز أيها الفارس، لكن أعدك بأن أبقي عيني مفتوحةً».

الحدّاد كذلك لم يرَها، ولا السّيتون في سِيت القرية، ولا راعي الخنازير بقطيعه، ولا الفتاة التي تقلع البصل في حديقتها، أو أيٌ من العامّة البُسطاء الذين وجدَتهم عذراء (تارث) وسط أكواخ (روزبي) المبنيّة بالجِصّ والأغصان المجدولة، وعلى الرغم من هذا ثابرَت بِريان وقالت لنفسها: *هذا أقصر الطُرق إلى (وادي الغسق). إذا مرّت سائرًا من هنا فلا بُدّ أن أحدًا رآها*. عند بوّابة القلعة ألقت سؤالها على حارسين يحملان الحِراب، على شارة كلٍّ منهما ثلاثة جملونات[18] حمراء على خلفيّةٍ بيضاء مرقَّطة بالأسود، رمز عائلة روزبي. قال لها أكبرهما سِنًّا: «إذا كانت على الطّريق هذه الأيام فلن تظلّ بنتًا طويلًا»، أمّا أصغرهما فسألَها إن كان للبنت ذلك الشّعر الكستنائي بين ساقيها أيضًا.

لن أجد عونًا هنا. بينما امتطَت بِريان فَرسها مجدّدًا لمحَت فتى نحيلًا على متن حصانٍ أرقط في أقصى القرية، ففكّرت: *لم أتكلّم مع هذا الصّبي*، لكنه اختفى وراء السّيپت قبل أن تسعى إليه، فلم تُكلّف نفسها عناء اللّحاق به، فعلى الأرجح لا يعرف شيئًا أكثر من الآخرين. (روزبي) ليست أكثر من مكانٍ واسع على الطّريق، وليس هناك ما يحمل سانزا على البقاء فيها. هكذا عادَت بِريان إلى الطّريق واتّجهت شمالًا وشرقًا، مارّةً ببساتين تفّاح وحقول ذُرة، وسرعان ما غابَت القرية وقلعتها وراءها. قالت لنفسها إن (وادي الغسق) هي المكان الذي ستجد فيه بُغيتها. *إذا كانت قد سلكَت هذا الطّريق أصلًا*.

- «سأعثر على الفتاة وأحافظُ على سلامتها، لأجل خاطر أمّها ولأجل خاطرك». هكذا وعدَت بِريان السير چايمي في (كينجز لاندنج). كلمات نبيلة، لكن الكلام سهل والفعل صعب. لقد ظلّت في المدينة وقتًا أطول من اللّازم، وما توصّلت إليه يكاد لا يُذكَر. *كان عليّ أن أتحرّك مبكّرًا... لكن إلى أين؟* سانزا ستارك اختفَت ليلة موت الملك چوفري، وإذا كان أحدهم قد رآها منذ ذلك الحين، أو إن كانت عنده معرفة ولو طفيفة بالمكان الذي ذهبَت إليه، فلا أحد يتكلّم. *لا أحد يتكلّم معي أنا على الأقل*.

تعتقد بِريان أن الفتاة غادرَت المدينة، فلو كانت لا تزال في (كينجز لاندنج) لعثرَ عليها ذوو المعاطف الذَّهبيَّة. لا بُدَّ أنها ذهبَت إلى مكانٍ آخَر... لكن ذلك المكان الآخَر قد يكون أيَّ مكان. سألَت نفسها: *لو كنتُ فتاةً أزهرَت مؤخَّرًا، وحيدةً وخائفةً وفي خطرٍ داهم، فماذا أفعلُ؟ أين أذهبُ؟* بالنِّسبة إلى بِريان نفسها الإجابة سهلة، إذ ستعود إلى (تارث) وإلى أبيها... أمَّا أبو سانزا فقد قطعوا رأسه على مرأى منها، والسيِّدة والدتها ماتَت أيضًا، اغتيلَت في (التَّوأمتين)، وقلعة عائلة ستارك العظيمة (وينترفل) نُهِبَت وأُحرِقَت وقُتِّلَ أهلها. *ليس لها وطن تهرب إليه، ولا أب ولا أم ولا إخوة*. قد تكون الفتاة في البلدة التَّالية أو على متن سفينةٍ راحلة إلى (آشاي)، الاحتمالات كافَّة متساوية.

حتى إذا أرادَت سانزا ستارك أن تعود إلى وطنها، فكيف تصل إليه؟ (طريق الملوك) ليس آمنًا، وكلُّ طفلٍ يعلم هذا، وحديديُّو الميلاد مسيطرون على (خندق كايلن) التي تسدُّ (العُنق)، وفي (التوأمتين) يستقرُّ آل فراي الذين اغتالوا أخا سانزا والسيِّدة والدتها. تستطيع الفتاة أن تُسافِر بحرًا إذا كانت تملك المال، لكن الميناء في (كينجز لاندنج) لا يزال خرِبًا، والنَّهر فوضى من الأرصفة المحطَّمة والقوادس المحروقة والغارقة. كانت بِريان قد سألَت عند أحواض السُّفن، لكن لا أحد تذكَّر رؤية سفينةٍ ترحل ليلة ماتَ الملك چوفري، وقال لها أحد الرِّجال إن بعض السُّفن التِّجاريَّة الرَّاسية في الخليج تُفرِغ حمولتها بالقوارب، لكن عددًا أكبر يُواصِل طريقه على السَّاحل إلى (وادي الغسق) التي تضمُّ ميناءً مزدحمًا عن آخِره.

تمتطي بِريان فَرسًا جميلة المنظر سريعة الحركة، وعلى الطّريق قابلَت مُسافرين أكثر مما كانت تحسب، فرأت إخوةً شحّاذين يمشون بخُطى بطيئة وأوعيتهم معلّقة بسيورٍ جِلديَّة من رقابهم، وهرولَ سِبتون شاب مارًّا بها على متن حصانٍ صغير يليق بأيّ لورد، ولاحقًا التقت جماعةً من الأخوات الصّامتات اللواتي هززن رؤوسهن نفيًا حين ألقت عليهن سؤالها، ومضت قافلة من العربات التي تجرُّها الثّيران جنوبًا حاملةً غلالًا وأجولةً من الصّوف، وبَعدها مرَّت براعي خنازير يسوق قطيعه، وامرأةٍ عجوز في هودجٍ تجرُّه الخيول وتُصاحِبه مجموعة من الحَرس الرّاكبين. سألَتهم جميعًا إن كانوا قد رأوا بنتًا في الثّالثة عشرة لها عينان زرقاوان وشَعر كستنائي، إلّا أن أحدًا لم يرَها. سألَت عن الطّريق أمامها أيضًا، فأجابَها رجل: «إنه آمن بما فيه بين هنا و(وادي الغسق)، لكن بَعد (وادي الغسق) هناك خارجون عن القانون ورجال مكسورون[19] في الغابات».

وحدها أشجار الصّنوبر الجُندي والحارس[20] ما زالَ فيها اخضرار، أمّا الأشجار الأخرى ذات الورق العريض فاتّشحت بالخمري والذّهبي، أو تجرّدت لتخدش السّماء بفروعٍ بنّيّة عارية. كلُّ هبّة ريحٍ تدفع سحاباتٍ دوّارة من الأوراق الميتة على الطّريق المليء بالحُفر، فتُصدِر حفيفًا وهي تتناثَر حول حوافر الفَرس الكستنائيّة التي منحَها چايمي لانستر لبِريان. *العثور على فتاةٍ مفقودة في (وستروس) كالعثور على ورقةٍ في مهبّ الرّيح.* وجدَت نفسها تتساءَل إن كان چايمي قد كلّفها بهذه المهمّة على سبيل الدّعابة القاسية. ربما تكون سانزا ستارك ميتةً، قطعوا رأسها للدّور الذي لعبَته في موت الملك چوفري ودفنوها في قبرٍ بلا شاهد. وهل من وسيلةٍ أفضل لإخفاء قتلها من إرسال فتاةٍ حمقاء كبيرة من (تارث) للبحث عنها؟

ما كان چايمي ليفعل هذا. كان صادقًا، وأعطاني السّيف وسمّاه (حافِظ العهد). لا فرق على كلّ حال. لقد وعدَت الليدي كاتلين بأن تُعيد ابنتيها، وما من يمينٍ مقدّسة كتلك التي خُلِقَت للموتى. چايمي زعمَ أن الفتاة الصُّغرى ماتَت منذ فترةٍ طويلة، أمّا آريا التي أرسلَها آل لانستر شمالًا لتتزوّج نغل رووس بولتون فزائفة، أي أنه لم يَعُد هناك إلّا سانزا، ويجب أن تُعثَر عليها بِريان.

قُرب الغسق أبصرَت نار مخيّمٍ إلى جوار غدير، يجلس عندها رجلان يشويان أسماك التَرويت، وقد كوّما أسلحتهما وعتادهما أسفل شجرة. أحدهما عجوز والثّاني أصغر بعض الشّيء، وإن كان بعيدًا عن الشّباب، وهو من نهضَ يُحيّيها، فرأت أن له بطنًا كبيرًا يضغط على أربطة سُترته المبقَّعة المصنوعة من جِلد الظِّباء، ولحيةً خشنةً مشعثةً لونها كالذَّهب القديم تُغطّي وجنتيه وذقنه. ناداها قائلًا: «لدينا سَمك يكفي ثلاثةً أيها الفارس».

ليست هذه أول مرّة يحسب أحدهم بِريان رجلًا. خلعَت خوذتها محرِّرةً شَعرًا أصفر كالقشّ المتّسخ ويدانيه في الهشاشة، فتطايرَ حول كتفيها طويلًا خفيفًا وهي تقول: «أشكرك أيها الفارس».

زَرَّ الفارس المتجوّل عينيه متفرّسًا في ملامحها بشدّةٍ جعلَتها تُدرِك أنه قصير النّظر، وقال: «امرأة؟ مسلَّحة ومدرّعة؟ إيلي، انظُر إلى حجمها بحَقّ الآلهة».

رَدّ الفارس الأكبر سِنًّا وهو يُدوِّر السّمك على النّار: «حسبتها فارسًا أيضًا».

لو كانت بِريان رجلًا لقيل إنه رجل كبير الحجم، لكن بالنّسبة إلى النّساء فهي ضخمة حقًّا. «مسخ» هي الكلمة التي سمعتها طوال حياتها. إن لها كتفين عريضتين ووَركين أعرض، وساقاها طويلتان وذراعاها غليظتان، وعضلات صدرها تجعل حجم ثدييها لا يُذكَر، ويداها كبيرتان وقدماها ضخمتان، وكلُّ هذا علاوةً على قُبح ملامحها، فوجهها منمَّش ويبدو كوجه الحصان، وأسنانها تكاد تكون كبيرةً على فمها، وهي ليست في حاجةٍ إلى أن يُذكِّرها أحد بكلّ هذا. قالت: «أيها الفارسان، هل رأيتما بنتًا في الثّالثة عشرة على الطّريق؟ لها عينان زرقاوان وشَعر كستنائي، وربما كانت في صُحبة رجلٍ سمين متورِّد الوجه في الأربعين».

حَكَّ الفارس المتجوِّل قصير النّظر رأسه، وقال: «لا أذكرُ بنتًا على شاكلتها. وما هذا الشّعر الكستنائي؟».

أجابَ الأكبر سِنًّا: «أحمر مائل إلى البنّي. لا، لم نرَها».

وقال الأصغر: «لم نرَها يا سيّدتي. هلمّي، ترجّلي. السّمك على وشك النّضوج. أأنتِ جائعة؟».

كانت جائعةً بالفعل، لكنها حذرة أيضًا. للفرسان المتجوّلين هؤلاء شمعة سيّئة، ويُقال إن الفارس المتجوّل والفارس اللّص وجهان لسيف واحد. *لكن هذين الاثنين لا يبدوان خطرين لهذه الدّرجة*. «هل لي أن أعرف اسميكما أيها الفارسان؟».

قال ذو البطن الكبير: «يُشرِّفني أن أكون السير كرايتون لونجبو الذي يُغنّي عنه المُطربون. ربما تكونين قد سمعتِ عن مآثري في معركة (النّهر الأسود). ورفيقي هو السير إيليفر المُفلس».

إذا كانت هناك أغنيّة عن كرايتون لونجبو فهي واحدة لم تسمعها بِريان، واسما الفارسين لا يعنيان شيئًا لها أكثر من رمزيهما. على تُرس السير كرايتون ليس هناك إلّا شريط بنّي وشَقٌّ عميق صنعته فأس حربيّة، أمّا السير إيليفر فتُرسه مقسّم إلى ثمانية مثلّثاتٍ نِصفها ذهبي ونِصفها أبيض مرقّط بالأسود كفرو القاقوم، ولو أن كلّ شيءٍ في مظهر الرّجل يُوحي بأنه لم يعرف في حياته من الذّهب وفرو القاقوم إلّا النّوع المطلي. إنه في السّتين من العُمر على الأقل، وجهه هزيل مسحوب تحت قلنسوة معطفه الخيش المرقّع، وقد ارتدى تحته قميصًا من الحلقات المعدنيّة، وإن بقّع الصّدأ الحديد كأنه النّمش. تفوق بِريان كليهما طولًا برأسٍ كامل، ناهيك بأن مطيّتها وسلاحها أفضل. *إذا خشيت أمثالهما فحريٌّ بي أن أستبدل بسيفي الطّويل إبرتَي خياطة*.

قالت: «أشكركما أيها الفارسان الكريمان. يسرُّني أن أشارككما سَمككما»، ووثبَت من فوق فَرسها وخلعَت سَرجها وسقَتها قبل أن تُقيِّدها وتُرخي لها الحبل لترعى، ثم كوَّمت أسلحتها وتُرسها وجرابَي السَّرج تحت شجرة دَردار، وعندئذٍ كان سَمك الترويت قد نضجَ تمامًا، فناولَها السير كرايتون واحدةً جلسَت تأكلها متقاطعة السَّاقين على الأرض.

قال لها لونجبو وهو يُفسِّخ سمكته بأصابعه: «إننا متوجِّهان إلى (وادي الغسق) يا سيِّدتي. خيرٌ لكِ أن تركبي معنا، فالطُّرق محفوفة بالمخاطر».

كانت بِريان لتحكي له عن مخاطر الطُّرق أكثر مما يُريد أن يعرف، لكنها أجابَته: «أشكرك أيها الفارس، لكني لستُ في حاجةٍ إلى حمايتكما».

- «إنني مصرٌّ. لا بُدَّ أن يُدافِع الفارس الحقيقي عن الجنس اللَّطيف».

مسَّت مقبض سيفها قائلةً: «هذا سيُدافِع عني».

- «السَّيف لا ينفع إلَّا بقدر مهارة من يحمله».

- «إنني ماهرة في حمله بما فيه الكفاية».

- «كما ترغبين. ليس من الكياسة أن يُجادِل المرء سيِّدةً. سنصحبكِ سالمةً إلى (وادي الغسق). ثلاثة معًا يركبون في أمانٍ أكثر من واحدٍ وحده».

كنا ثلاثةً حين خرجنا من (ريفرَن)، ومع ذلك فقدَ *چايمي يده وكليوس فراي حياته.* «حصاناكما لا يستطيعان مجاراة فَرسي». حصان السير كرايتون البنِّي المخصي مجرَّد مخلوقٍ عجوز أقعس الظَّهر دامع العينين، وحصان السير إيليفر يبدو مهزولًا يتضوَّر جوعًا.

قال السير كرايتون بإصرار: «جوادي خدمَني جيِّدًا في معركة (النَّهر الأسود)، بل وقتَلتُ ذات اليمين وذات الشِّمال وفزتُ بدستةٍ من الفِديات. هل سمعتِ سيِّدتي بالسير هربرت بولينج؟ لن تُقابِليه أبدًا، فقد قتلته حيث كان يقف. عندما تتقارَع السُّيوف لن تجدي السير كرايتون لونجبو في المؤخِّرة أبدًا».

أطلقَ رفيقه قهقهةً جافَّةً، وقال: «دَعك منها يا كراي. أمثالها ليسوا في حاجةٍ إلى أمثالنا».

سألَته بِريان غير مدركةٍ ما يرمي إليه: «أمثالي؟».

أشارَ السير إيليفر بإصبعٍ رفيعٍ إلى تُرسها. على الرغم من أن طلاءه مشقَّق متقشِّر فما زالَ الرَّمز عليه واضحًا؛ خُفَّاش أسود على خلفيَّةٍ مقسومة قُطريًّا إلى ذهبي وفضِّي. «إنكِ تحملين تُرس شخصٍ كاذب لا حَقَّ لكِ فيه. لقد ساعدَ جَدٌّ جدِّي على قتل آخِر أفراد عائلة لوثستون، ومنذ ذلك الحين لم يجرؤ أحد على إظهار هذا الخُفَّاش الأسود كأفعال من كانوا يحملونه».

إنه التُّرس الذي أخذَه السير چايمي من مستودَع السّلاح في (هارنهال)، وقد وجدَته بِريان في الاسطبلات مع فَرسها بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة؛ السّرج واللِّجام، وقميص من الحلقات المعدنيّة وخوذة كبيرة، وصُرّتين من العملات الذّهب والفضّة، وورقة زَقوق أثمن من الاثنين. قالت مفسّرةً: «لقد فقدتُ تُرسي».

أعلنَ السير كرايتون بحزم: «التُّرس الوحيد الذي تحتاج إليه فتاة هو فارس حقيقي».

لم يُعِره السير إيليفر انتباهًا وهو يقول: «حافي القدمين يبحث عن حذاءٍ ينتعله، والبردان يبحث عن معطفٍ يرتديه، لكن من ذا الذي يختار أن يرتدي العار؟ اللورد لوكاس القوّاد كان يضع هذا الرّمز، وابنه مانفريد ذو القلنسوة السّوداء، وإنني أسألُ نفسي عن سبب اتّخاذكِ رمزًا كهذا ما لم تكن خطيئتكِ أقبح... وأحدث»، واستلّ خنجره القبيح المصنوع من الحديد الرّخيص مواصلًا: «امرأة كبيرة كالمسوخ وقويّة كالمسوخ تُخفي ألوانها الحقيقيّة. كراي، انظُر إلى عذراء (تارث) التي شقّت لرنلي خلقه الملكي».

- «هذه أكذوبة». بالنّسبة إليها كان رنلي باراثيون أكثر من ملك. لقد أحبّته منذ جاء (تارث) في رحلته المتمهّلة إلى اللورديّة احتفالًا ببلوغه سنّ الرّجولة، ورحّب به أبوها بمأدبةٍ وأمرَها بأن تحضرها، ولولا هذا لكانت قد اختبأت في غرفتها كحيوانٍ جريح. حينئذٍ لم تكن أكبر من سانزا، تخاف الضّحكات السّاخرة المكتومة أكثر من الشيوف، فقالت للورد سلوين: «سيعلمون بأمر الوردة ويضحكون مني»، لكن نجم المساء لم يتزحزَح عن قراره.

وقد رأت من رنلي باراثيون كلّ كياسةٍ كما لو أنها فتاة طبيعيّة حسناء، بل ورقص معها فأحسّت بين ذراعيه بأنها رشيقة وطفت قدماها فوق الأرض، ولاحقًا طلبَ آخرون الإذن في الرّقص معها بسبب المثل الذي ضربَه لهم، ومنذ ذلك اليوم لم ترغب إلّا في أن تكون قريبةً من اللورد رنلي، أن تخدمه وتحميه... لكنها في النّهاية خذلَته. قالت لنفسها: *رنلي ماتَ بين ذراعي، لكني لم أقتله*، على أن هذين الفارسين المتجوّلين لن يتفهّما أبدًا. قالت لهما: «كنتُ لأدفع حياتي فداءً للملك رنلي وأموتُ سعيدةً. لم أمسّه بسوء، أقسمُ على هذا بسيفي».

قال السير كرايتون: «الفُرسان فقط يُقسِمون بسيوفهم».

وأضافَ السير إيليفر المُفلس: «أقسِمي بالآلهة السّبعة».

- «بالآلهة السّبعة إذن. لم أمسّ الملك رنلي بسوء. أقسمُ بـ(الأم)، عسى ألّا أعرف رحمتها أبدًا إذا كنتُ كاذبةً. أقسمُ بـ(الأب) وأدعوه أن يَحكُم عليّ بالعدل. أقسمُ بـ(العذراء) و(العجوز)، وبـ(الحدّاد) و(المُحارب)، وأقسمُ بـ(الغريب) الذي أسأله أن يأخذني الآن إن كنتُ أقولُ الباطل».

علّق السير كرايتون: «إنها تُجيد القسم بالنّسبة إلى فتاة».

قال السير إيليفر المُفلس: «نعم»، وهزّ كتفيه مضيقًا: «طيِّب، إذا كانت كاذبةً ستتولّى الآلهة أمرها»، وعادَ يدسّ خنجره في غِمده، وأردفَ: «نوبة الحراسة الأولى لكِ».

بينما غابَ الفارسان المتجوّلان في النّوم دارَت بِريان حول المخيّم الصّغير مصغيةً إلى طقطقة النّار. يَجدُر بي *أن أواصل طريقي والفُرصة سانحة*. إنها لا تعرف هذين الرّجلين، لكنها لا تقوى على تركهما دون حماية، فحتى في جوف اللّيل هناك عابرون على الطّريق، وأصوات في الغابة ربما يكون مصدرها البوم والثّعالب وربما لا، وهكذا راحت بِريان تذرع المكان جيئةً وذهابًا وقد خلخلَت سيفها في غِمده.

كانت حراستها سهلةً إجمالًا، لكن ما بَعدها هو الصّعب، حين استيقظ السير إيليفر وقال إنه سيحلُّ محلّها. بسطَت بِريان دثارًا على الأرض وانثنت على نفسها لتُغلِق عينيها، وعلى الرغم من جسدها المكدود قالت لنفسها: *لن أنام*. إنها لم تتعوّد النّوم مستريحةً قَطُّ في وجود الرّجال، وحتى في معسكَرات اللورد رنلي كان خطر الاغتصاب حاضرًا دومًا، وهو الدّرس الذي تعلّمته عند أسوار (هايجاردن)، ومرّةً أخرى عندما سقطَت وچايمي في أيدي رِفقة الشُّجعان.

تسرّبت برودة الأرض عبر أغطية بِريان لتنفذ إلى عظامها، وسرعان ما أحسّت بكلّ عضلةٍ في جسدها متيبّسةً متشنّجةً، من فكّيها إلى أصابع قدميها. تساءلَت إن كانت سانزا ستارك بردانةً أيضًا أينما كانت. لقد قالت الليدي كاتلين إنها فتاة مرهفة الحِسّ تحبُّ كعكات اللّيمون والفساتين الحرير وأغاني الفُروسيّة، لكن سانزا شهدَت رأس أبيها يُبتَر وأُرغِمَت بَعدها على الزّواج بأحد قتلته، وإذا كان نِصف ما يُحكى صحيحًا فالقزم أقسى آل لانستر جميعًا. *إذا سمَّمت الملك چوفري حقًّا فلا بُدّ أن العِفريت أجبرَها. لقد كانت وحيدةً بلا أصدقاء في ذلك البلاط*. في (كينجز لاندنج) سعَت بِريان إلى العثور على امرأةٍ اسمها بريلا كانت من وصيفات سانزا، وقالت لها المرأة إنه لم يكن هناك وُدٌّ بين سانزا والقزم، وربما تكون الفتاة هاربةً منه كذلك علاوةً على هربها من قتل چوفري.

أيًا كانت الأحلام التي رأتها بِريان فقد تلاشت حينما أيقظَها الفَجر. شعرَت بساقيها يابستين كالخشب من برودة الأرض، لكن لا أحد تحرّش بها وظلّت حاجياتها كما هي. وجدَت الفارسين المتجوِّلين مستيقظين بالفعل، وقد انشغلَ السير إيليفر بتقطيع سنجابٍ للإفطار، ووقفَ السير كرايتون مواجهًا شجرةً ليبول طويلًا. *فارسان متجوّلان، عجوزان ومغروران وبدينان وقصيرا النّظر، لكنهما رجلان لطيفان على الرغم من هذا*. سرّها أن تعلم أن هناك رجالًا لطافًا في العالم حتى الآن.

أفطَروا على لحم السّنجاب المشوي ومعجون جوز البلُّوط والخيار المخلّل، فيما روى لها السير كرايتون قصص بطولاته في معركة (النّهر الأسود)، حيث قتلَ دستةً من الفُرسان الصّناديد الذين لم تسمع عنهم قطّ، وقال لها: «أوه، لكم كان قتالًا نادرًا يا سيّدتي، معمعةً نادرةً داميةً»، وأضافَ أن السير إيليفر قاتلَ ببسالةٍ في المعركة أيضًا، أمّا إيليفر نفسه فلم يقل إلّا القليل.

حين آنَ أوان استئناف الرِّحلة ركبَ الفارسان على جانبيها كحارسين يحميان ليدي عظيمةً ما... وإن كانت هذه الليدي تجعل من حاميَيها قزمين مقارنةً بحجمها، بالإضافة إلى تفوُّقها عليهما في السّلاح والعتاد. سألَتهما بِريان: «هل مَرّ أحد خلال حراستكما؟».

قال السير إيليفر المُفلس: «كبنتٍ في الثّالثة عشرة لها شَعر كستنائي؟ لا يا سيّدتي، لا أحد».

عقّب السير كرايتون: «رأيت بعضهم. صبيٌ مزرعةٍ ما على حصانٍ أرقط مرّ بنا، وبَعد ساعةٍ نِصف دستة من السّائرين حاملي الهراوات والمناجل. لمحوا نارنا وتوقّفوا ليُلقوا نظرةً طويلةً على الخيول، لكنّي أريتهم لمحةً من فولاذي وقلتُ لهم أن يُواصِلوا طريقهم. رجال خشنون كما يوحي منظرهم، ويائسون أيضًا، لكن ليس لدرجة أن يعبثوا مع السير كرايتون لونجبو».

فكّرت بِريان: *نعم، ليس لهذه الدّرجة*، وأشاحت بوجهها لتُخفي ابتسامتها، ولحُسن الحَظّ أن السير كرايتون كان أكثر استغراقًا في حكاية معركته الملحميّة مع فارس الدّجاجة الحمراء من أن يلحظ سخرية العذراء، التي سرّها أن يكون معها رفيقان على الطّريق، حتى إذا كانا هذين الرّجلين.

كان النّهار في منتصَفه عندما سمعَت بِريان التّرنيم آتيًا عبر الأشجار البنّيّة الجرداء، وتساءلَ السير كرايتون: «ما هذا الصّوت؟».

- «إنها أصوات مرفوعة بالصّلاة». تعرف بِريان هذه التّرنيمة. يتضرّعون *إلى (المُحارب) أن يحميهم وإلى (العجوز) أن تُنير طريقهم*.

جرّد السير إيليڤر المُفلس سيفه البالي وشدّ عِنان حصانه لينتظر مجيئهم قائلًا: «إنهم قريبون».

أفعمَت التَّرانيم هواء الغابة كرعدٍ خاشع، وفجأةً ظهرَ مصدر الصّوت على الطّريق أمامهم. كانت مجموعة من الإخوة الشّحّاذين تقود القادمين، رجال ملتحون مغبّرون يرتدون الخيش، بعضهم حافي القدمين وبعضهم ينتعل الأخفاف، ووراءهم تتحرّك مجموعة تتألّف من ستّين من الرّجال والنّساء والأطفال مهترئي الثّياب، ومعهم خنزيرة رقطاء وعدد كبير من الخراف، وقد حملَ كثير من الرّجال فؤوسًا وأكثرهم مضارب وهراواتٍ خشبيّة بسيطة الصّنع، ووسطهم تتدحرَج عربة من الخشب الرّمادي المتشظّي على عجلتين، كُوّمَت عليها على ارتفاعٍ كبير الجماجم والعظام المكسورة. توقّف الإخوة الشّحّاذون لدى رؤيتهم الفارسين المتجوّلين وسكنَت التّرانيم، وقال أحدهم: «أيها الفارسان الكريمان، (الأم) تحبّكما».

ردّ السير إيليفر: «وتحبّكم يا أخي. من أنتم؟».

أجابَه رجل كبير يحمل فأسًا: «صعاليك». على الرغم من برودة الغابة الخريفيّة كان عاري الجذع، وعلى صدره نُقِشَت نجمة سُباعيّة. النّجمة نفسها التي نقشها المُحاربون الأندالثّيون على لحمهم حين عبروا (البحر الضيّق) ليقهروا ممالك البَشر الأوائل.

قالت امرأة طويلة ممسكة بأحد مَقاود العربة: «إننا متّجهون إلى المدينة لنجلب هذه العظام المقدّسة لبيلور المبارَك ونَطلُب العون والحماية من الملك».

وقال رجل قصير ضئيل على جسده رداء سپتون رث وحول عُنقه سير جِلدي تتدلّى منه بلّورة: «انضمّا إلينا أيها الصّديقان. (وستروس) في حاجةٍ إلى كلّ سيف».

أعلنَ السير كرايتون: «إننا في الطّريق إلى (وادي الغسق)، لكن ربما يُمكننا أن نصحبكم بأمانٍ إلى (كينجز لاندنج)».

أضافَ السير إيليفر الذي يبدو عمليًا إضافةً إلى كونه مفلسًا: «إذا كان معكم مال تدفعون به ثَمن اصطحابنا إياكم».

قال السّپتون: «نحن العصافير لا نحتاج إلى الذّهب».

ردّد السير كرايتون حائرًا: «العصافير؟».

- «العُصفور أكثر الطّيور تواضُعًا وشيوعًا، مِثلما نحن أكثر النّاس تواضُعًا وشيوعًا». للسّپتون وجه ناحل حادٌ ولحية قصيرة شابَها الرّمادي والبنّي، وشَعره الخفيف مسحوب ومربوط وراء رأسه، وقدماه الحافيتان سوداوان خشنتان وقاسيتان كجذور الشّجر. «هذه عظام أناسٍ أتقياء قُتِلوا لإيمانهم، وقد خدموا الآلهة السّبعة حتى الموت. بعضهم جوّعوه وبعضهم عذّبوه. لقد انتُهِكَت السّپتات ونُهِبَت، والعذراوات والأمّهات اغتصبَهن الزّنادقة وعبدة الشّياطين، وحتى الأخوات الصّامتات تعرّضن للتّحرّش. (الأم في الأعالي) تَصرخ لوعةً. حانَ الوقت لأن يتخلّى جميع الفُرسان المحلّفون عن سادتهم الدّنيويّين ويدافِعوا عن عقيدتنا المقدّسة. تعاليا معنا إلى المدينة إذا كنتما تحبّان (السّبعة)».

قال السير إيليفر: «أحبُّهم كثيرًا، لكن يجب أن آكل».

- «وكذا كلُّ أطفال (الأم)».

رَدَّ السير إيليفر بجمود: «إننا ذاهبون إلى (وادي الغسق)».

بصقَ أحد الإخوة الشحّاذين، وأطلقَت إحدى النساء أنينًا، وقال الرّجل الكبير ذو النّجمة على صدره: «أنتما فارسان زائفان»، وشرعَ عدد من الآخرين في التّلويح بهراواتهم مهدّدين.

على أن السّپتون هدّأهم قائلًا: «لا تدينوا، فالإدانة لـ(الأب) وحده. دعوهم يمرّون بسلام. إنهم صعاليك مِثلنا، ضائعون في الأرض».

تقدّمت بِريان بفَرسها، وقالت: «أختي ضائعة أيضًا. إنها بنت في الثّالثة عشرة لها شَعر كستنائي وجميلة المحيّا».

قال السّپتون: «كلُّ أطفال (الأم) جميلو المحيّا. عسى (العذراء) أن تقي تلك الفتاة المسكينة... وتقيكِ أيضًا على ما أظنُّ»، ورفعَ أحد مَقاود العربة على كتفه وبدأ يسحب، وعادَ الإخوة الشّحّاذون يُرَدّدون ترنيمتهم، وظلّت بِريان والفارسان المتجوّلان على متون خيولهم بينما مَرّ الرّكب بتؤدةٍ سالكًا الطّريق المحفّر صوب (روزبي)، وببطءٍ خفتَت أصواتهم المترنّمة وغابَت.

رفعَ السير كرايتون فلقة مؤخّرته عن السّرج وحكّها متسائلًا: «من ذا الذي يَقتل سِپتون يخدم الآلهة؟».

تعرف بِريان هذا النّوع من البَشر، وتَذكُر أن رجال رِفقة الشُّجعان علَّقوا سِيتون قُرب (بِركة العذارى) من قدميه من فرع شجرةٍ واستخدَموا جثَّته هدفًا لتمارين الرِّماية. تساءلَت إن كانت عظامه مكوَّمة على العربة مع بقيَّة العظام.

كان السير كرايتون يقول: «لا بُدّ أن من يغتصب أختًا صامتةً أحمق. مجرَّد أن يضع يديه عليها... يُقال إنهن زوجات (الغريب)، وإن أعضاءهن الأنثويّة باردة مبتلّة كالجليد»، ورمقَ بِريان مردفًا: «آه... أستميحكِ العُذر».

همزَت بِريان فَرسها لتُسرِع إلى (وادي الغسق)، وبَعد وهلةٍ لحقَ بها السير إيليفر وتبعَهما السير كرايتون في المؤخِّرة.

بَعد ثلاث ساعاتٍ صادَفوا ركبًا ثانيًا يتقدّم ببُطءٍ نحو (وادي الغسق). كان تاجرًا وخدمه، يصحبهم فارس متجوِّل آخر، وقد امتطى التّاجر فَرسًا رماديَّةً مرقَّطةً في حين تبادلَ رجاله جَرَّ عربته، يكدح أربعة منهم على مَقاودها ويمشي الاثنان الآخَران إلى جوار العجلتين، لكن حين سمعوا صوت الخيول أحاطوا بالعربة في تشكيل استعدادٍ رافعين النّبابيت، وأخرجَ التّاجر نُشّابيّةً والفارس سيفًا. نادى التّاجر قائلًا: «سامِحوني إذا كنتُ شكّاكًا، لكننا في أوقاتٍ عصيبة، وليس هناك إلّا السير شادريك الكريم يُدافِع عني. من أنتم؟».

رَدّ السير كرايتون بنبرة جريح الكرامة: «إنني السير كرايتون لونجبو الشّهير بالطّبع، جئتُ لتوّي من معركة (النّهر الأسود)، وهذا رفيقي السير إيليفر المُفلس».

وقالت بِريان: «لسنا نُضمِر لكم سوءًا!».

حدجَها التّاجر بريبةٍ قائلًا: «سيّدتي، حريٌّ بكِ أن تكوني آمنةً في بيتكِ. لماذا ترتدين ثيابًا غريبةً كهذه؟».

أجابَت دون أن تجرؤ على ذكر اسم سانزا مع اتّهامها بقتل الملك: «أبحثُ عن أختي. إنها بنت جميلة رفيعة النّسب، عيناها زرقاوان وشَعرها كستنائي. ربما رأيتموها مع فارسٍ سمين في الأربعين، أو مع مهرّج سكّير».

- «الطّرق ملأى بالمهرّجين السّكّيرين والفتيات المختطَفات، وبالنّسبة إلى الفارس السّمين فمن الصّعب على أيّ رجلٍ شريف أن يظلّ بطنه ممتلئًا بينما يعوز كثيرين الطّعام... وإن كان السير كرايتون لم يَذُق الجوع على ما يبدو».

قال السير كرايتون بعناد: «إن لي عظامًا كبيرةً. هل نركب معًا بعض الوقت؟ لستُ أشكّك في شَجاعة السير شادريك، لكنه يبدو صغير الحجم، وثلاثة سيوفٍ أفضل من واحد».

فكّرت بِريان: أربعة سيوف، لكنها لزمَت الصّمت.

نظرَ التّاجر إلى رفيقه متسائلًا: «ما قولك أيها الفارس؟».

- «أوه، لا خوف من هؤلاء الثّلاثة». السير شادريك رجل نحيف قوي له وجه كالثّعالب وأنف حاد وشَعر بُرتقالي، ويمتطي جوادًا حربيًا رشيق السّيقان بلون الكستناء، ومع أن طوله لا يتجاوَز أقدامًا خمسةً وبوصتين، إلّا أن له أسلوبًا واثقًا في الكلام. «أحدهم عجوز والثّاني بدين وتلك الكبيرة امرأة. فليأتوا».

خفضَ التّاجر نُشّابيّته قائلًا: «كما تقول».

إذ واصَلوا رحلتهم تقهقرَ الفارس المأجور وأمعنَ النّظر إلى بِريان كأنها شريحة من لحم الخنزير المملّح الممتاز، وقال لها: «يبدو أنكِ فتاة قويّة البنية تتمتّع بصحّةٍ طيّبة يا هذه».

شخرية السير چايمي جرحَتها في الصّميم، لكن كلام الرّجل الصّغير مسّها بالكاد، ولذا قالت له: «إنني عملاقة مقارَنةً ببعضهم».

ضحكَ مجيبًا: «إنني كبير بما فيه الكفاية حيث يهمُّ يا هذه».

- «التّاجر قال إن اسمك شادريك».

قال: «السير شادريك من (الوادي الظّليل)، وبعضهم يدعونني بالفأر المجنون»، ودوّر تُرسه ليُريها رمزه، الفأر الأبيض الكبير ذا العينين الحمراوين الشّرستين على شرائط متعرّجة من البنّي والأزرق، ثم تابعَ: «البنّي للأراضي التي جُبتها، والأزرق للأنهار التي عبرتها، والفأر أنا».

- «وهل أنت مجنون؟».

- «أوه، جدًا. الفأر التّقليدي يفرُّ من الدّماء والمعارك، والمجنون يسعى إليها سعيًا».

- «يبدو أنه نادرًا ما يجدها».

- «أجدُ ما يكفيني. صحيحٌ أني لستُ فارس مباريات، لكني أدّخرُ شَجاعتي للمعارك يا امرأة».

قدّرت أن مخاطبتها بـ«يا امرأة» أفضل من «يا هذه» بشكلٍ طفيف، وقالت: «أنت والسير كرايتون الكريم مشتركان في أشياء عدّة إذن».

رَدّ السير شادريك ضاحكًا: «أوه، أشكُ في هذا، لكن ربما أشترِكُ أنا وأنتِ في مهمّةٍ معيّنة. تقولين إنها أخت صغيرة مفقودة؟ عيناها زرقاوان وشَعرها كستنائي؟»، وعادَ يضحك مردفًا: «إنكِ لستِ الصّيّادة الوحيدة في الغابة. أنا أيضًا أبحثُ عن سانزا ستارك».

حافظَت بِريان على جمود ملامحها كالقناع لتُخفي وجلها، وقالت: «من سانزا ستارك تلك؟ ولِمَ تبحث عنها؟».

- «من أجل الحُبّ، وهل هناك سبب سواه؟».

عقدَت حاجبيها مرتدّةً: «الحب؟».

- «نعم، خبُث الذّهب. على عكس فارسكِ الكريم السير كرايتون، قاتلتُ أنا بالفعل في معركة (النّهر الأسود)، لكن مع الجانب الخاسر، ودمّرتني فديتي. لا بدّ أنك تعرفين من هو فارس، أليس كذلك؟ الخصيّ عرضَ صُرّةً ممتلئةً بالذّهب مقابل هذه الفتاة التي لم تسمعي بها. إنني لستُ طمّاعًا. إذا ساعدَتني فتاة كبيرة الحجم على العثور على تلك الطّفلة المُشاغبة فسأقتسمُ معها مال العنكبوت».

- «حسبتك أجيرًا عند هذا التّاجر».

- «حتى (وادي الغسق) فحسب. هيبالد بخيل قدر ما هو جبان، وهو جبان للغاية. ما قولكِ يا هذه؟»

ردّت بإصرار: «لا أعرفُ سانزا ستارك تلك. إنني أبحث عن أختي، بنت رفيعة النّسب...».

- «... ذات عينين زرقاوين وشَعر كستنائي، نعم. أخبِريني، من هذا الفارس الذي مع أختكِ؟ أم أنكِ قلتِ إنه مهرّج؟»، ولم ينتظر السير شادريك إجابةً منها، وهو ما ناسبَها لأن لا إجابة لديها، وواصلَ: «ثمّة مهرّج معيَّن اختفى من (كينجز لاندنج) ليلة ماتَ الملك چوفري، رجل سمين له أنف مليء بالعروق الزّرقاء، اسمه السير دونتوس الأحمر، الذي كان تابعًا لـ(وادي الغسق) فيما مضى. أتمنّى ألّا يخلط أحد بين أختكِ ومهرّجها السّكّير وبين سانزا ستارك والسير دونتوس. سيكون هذا مؤسفًا للغاية»، وهمزَ جواده الحربي وخبَّ ساعيًا إلى مقدّمة الرّكب.

حتى چايمي لانستر نفسه نادرًا ما أشعرَ بِريان بهذا الخمق. *إنكِ لستِ الصَّيَّادة الوحيدة في الغابة*. كانت المرأة بريلا قد أخبرَتها كيف جرَّد چوفري السير دونتوس من فُروسيَّته، وكيف توسَّلت سانزا إلى چوفري أن يُبقي على حياته، وعندما سمعَت الحكاية حزمَت بِريان أمرها قائلةً لنفسها: *لقد ساعدَها على الهرب. إذا عثرتُ على السير دونتوس سأعثرُ على سانزا*. كان حريًّا بها أن تعلم أن آخَرين سيتوصَّلون إلى النَّتيجة ذاتها. *وقد يكون بعضهم أقلَّ كياسةً من السير شادريك*. ليس في وسعها إلَّا أن تأمل أن يكون السير دونتوس قد أخفى سانزا جيِّدًا. *لكن إذا فعلَ هذا فكيف سأجِدها؟*

وحنَت بِريان كتفيها وواصلَت الطَّريق مقطِّبةً.

كان اللَّيل يتوغَّل لدى وصولهم إلى الخان، وهو بناية طويلة من الخشب تطلُّ على ملتقى فرعَي نهرٍ وتعلو جسرًا حجريًّا قديمًا. قال لهم السير كرايتون إن هذا هو اسم الخان، (الجسر الحجري القديم)، وإن صاحِب الخان صديقه، وأضافَ مؤكِّدًا: «ليس طاهيًا سيِّئًا، وليس في الغُرف براغيث أكثر من معظم الخانات. من يرغب في فِراشٍ دافئ اللَّيلة؟».

قال السير إيليفر المُفلس: «ليس نحن، ما لم يكن صديقك يُؤجِّرها مجَّانًا. لسنا نملك مالًا للغُرف».

قالت بِريان: «يُمكنني أن أدفع لثلاثتنا». إنها لا تفتقر إلى النُّقود، ففي جرابَي سَرجها وجدَت صُرَّةً متخمةً بالأيائل الفضِّيَّة والنُّجوم النُّحاسيَّة، وواحدةً أصغر محشوَّةً بالتِّنانين الذَّهبيَّة، بالإضافة إلى رَقٍّ يأمر جميع رعايا الملك الأوفياء بمساعَدة حاملته بِريان التارثيَّة التي تُمارِس عملًا يخصُّ جلالته، وقد وقَّعه بخطِّه الطُّفولي تومن الأول ملك الأنداليِّين والرويْنار والبَشر الأوائل وسيِّد (الممالك السَّبع).

آثرَ هيبالد التَّوقُّف أيضًا، وأمرَ رجاله بترك العربة قُرب الاسطبل. كان الضَّوء الأصفر الدَّافئ يسطع من وراء زُجاج النَّوافذ ذي الشَّكل الماسي، وسمعَت بِريان فَحلًا يصهل إذ اشتمَّ رائحة فَرسها، وبينما بدأت تخلع السَّرج خرجَ صبي من باب الاسطبل قائلًا: «دَعني أتولَّى هذا أيها الفارس».

ردَّت: «لستُ فارسًا، لكن يُمكنك أن تأخذ الفَرس. احرص على إطعامها وسقايتها وتمشيطها».

تورَّد وجه الصَّبي، وقال: «اعذُريني يا سيِّدتي، حسبتُ...».

قاطعَته بِريان: «إنه خطأ شائع»، وناولَته العِنان وتبعَت الآخرين إلى داخل الخان وقد حملَت جرابَي السَّرج على كتفها ودسَّت لفافة النَّوم تحت إبطها.

في الدّاخل كانت الأرضيّة مغطّاة بنشارة الخشب، والهواء تُفعِمه روائح حشيشة الدّينار[21] والدّخان واللّحم، وقد وُضِعَ فوق النّار تيس يَطقطِق وينزُّ الدّهن، وإن غابَ من يُتابِعه في الوقت الحاضر، واستقرَّ ستّة من السُّكّان المحليّين حول مائدةٍ يتكلّمون، لكنهم قطعوا حوارهم ما إن دخلَ الغُرباء. أحسّت بريان بنظراتهم المسلّطة عليها، وعلى الرغم من قميصها المعدني ومعطفها وسُترتها الجِلديّة أحسّت كأنها عارية، ولمّا قال أحدهم: «انظُروا»، علمَت أنه لا يعني السير شادريك.

ظهرَ صاحِب الخان ممسكًا بثلاثة دوارق بكلّ يد ويَسكُب المِزر مع كلّ خُطوة، فسألَه التّاجر: «ألديك غُرف شاغرة أيها الرّجل الطيّب؟».

أجابَ صاحِب الخان: «ربما، لمن يملكون المال».

لاحَ الاستياء على السير كرايتون لونجبو وهو يقول: «ناجل، أهكذا تُحيّي صديقًا قديمًا؟ هذا أنا، لونجبو».

- «هو أنت بالفعل. إنك مدين لي بسبعة أيائل. أرِني الفضّة وسأريك السّرير»، ووضعَ صاحِب الخان الدّوارق واحدًا تلو الآخر، ساكبًا المزيد من المِزر على المائدة.

قالت بريان مشيرةً إلى السير كرايتون والسير إيليفر: «سأدفعُ ثَمن غُرفةٍ لي وأخرى لرفيقَي».

وقال التّاجر: «وسآخذُ غُرفةً أيضًا، لي وللسير شادريك الكريم، وسينام خدمي في الاسطبل إذا كان هذا يُناسِبك».

تطلّع إليهم الرّجل، ثم قال: «لا يُناسِبني، ولكن ربما أسمحُ به. هل تُريدون عشاءً؟ عندي تيس جيّد جدًا على الشّيخ».

أعلنَ هيبالد: «سأحكمُ على جودته بنفسي، وسيكتفي رجالي بالخُبز ومرق الشّواء».

وهكذا تناوَلوا عشاءهم، وجرّبت بِريان التّيس بنفسها بَعد أن تبعَت صاحِب الخان إلى الطّابق العُلوي ودسّت بضع عُملاتٍ في يده ووضعَت حاجياتها في ثاني غُرفةٍ أراها إياها. طلبَت لحم التّيس للسير كرايتون والسير إيليفر أيضًا، بما أنهما تقاسَما معها سَمكهما، وشربَ الفُرسان المتجوّلون والتّاجر المِزر مع اللّحم، في حين اكتفَت بِريان بكوبٍ من حليب الماعز، وقد أنصتَت إلى الحديث الدّائر حول المائدة آملةً رغم ضَعف الأمل أن تسمع شيئًا يُساعِدها على التّوصّل إلى سانزا.

قال أحد المحليّين لهيبالد: «إنكم قادمون من (كينجز لاندنج). أصحيحٌ أن قاتِل الملك أصبحَ مُعاقًا؟».

أجابَ هيبالد: «صحيح، فقدَ يد سيفه».

أضافَ السير كرايتون: «نعم، قضمَها ذئب رهيب[22] كما سمعت، أحد تلك الوحوش التي أتَت من الشّمال. لا خير يأتي من الشّمال أبدًا. حتى آلهتهم غريبة».

سمعَت بِريان نفسها تقول: «لم يكن ذئبًا. السير چايمي فقدَ يده بأمرٍ من مرتزِق كوهوري».

علّق الفأر المجنون: «ليس سهلًا أن يُقاتِل المرء بيدٍ لم تعرف التّدريب».

أطلقَ السير كرايتون لونجبو صيحة استنكار، وقال: «يتصادَف أني أجيدُ القتال بكلتا يدَي».

قال السير شادريك: «أوه، لا أشكُ في هذا»، ورفعَ دورقه على سبيل التَّحيَّة.

تذكَّرت بِريان قتالها مع چايمي لانستر في الغابة. يومها استنفرَت قُواها كلَّها كي تتفادى سيفه. *كان ضعيفًا بَعد طول السِّجن ومعصماه مقيَّدين بالسَّلاسل. لا فارس في (الممالك السَّبع) بأسرها كان ليصمُد أمامه وهو بكامل قوَّته دون سلاسل تُعيقه*. لقد اقترفَ چايمي شرورًا كثيرةً، ولكن يا لبراعته في القتال! كان تشويهه قسوة ما بَعدها قسوة، لكن أن تَقتُل أسدًا شيء وأن تُبتَر كفُّه وتَتركه كسيرًا مبهوتًا شيء آخَر.

فجأةً صارَ صخب القاعة العامّة يفوق تحمُّلها البقاء فيها لحظةً أخرى، فغمغمَت متمنّيةً لهم ليلةً طيِّبةً وأخذَت نفسها إلى الفراش. السّقف في غُرفتها واطئ، وإذ دخلَت بِريان حاملةً فتيلًا مكسوًّا بالشّمع اضطرّت إلى الانحناء لئلا تصدم رأسها. الأثاث الوحيد في المكان عبارة عن سريرٍ واسع بما فيه الكفاية لنوم ستّة أفراد، بالإضافة إلى بقايا شمعةٍ من الشّحم على عتبة النّافذة، فأشعلَتها بنار الفتيل وأنزلَت مزلاج الباب وعلّقت حزام سيفها من أحد أعمدة السّرير. غِمدها تقليدي تمامًا، خشب مغلّف بالجِلد البنّي المشقّق، وسيفها أكثر تقليديّةً، وقد ابتاعته في (كينجز لاندنج) بدلًا من السّيف الذي سرقَته رِفقة الشّجعان. *سيف رنلي*. ما زالَ يُؤلِمها فقدانه.

على أن هناك سيفًا طويلًا آخر خبّأته في لفافة النّوم، وقد جلسَت على السّرير وأخرجَته، ليلتمع الذّهب الأصفر والياقوت بالأحمر في ضوء الشّمعة، وحين سحبَت بِريان (حافِظ العهد) من غِمده المنمّق احتبسَت أنفاسها لمرأى التّموّجات السّوداء والحمراء في أعماق الفولاذ. *فولاذ ڤاليري، مطرّق بالتّعاويذ*. سيف يليق ببطل. في صِغرها ملأت مربّيتها أُذنيها بحكايات البسالة وقصّت عليها المآثر النّبيلة للسير جالادون المورني وفلوريان المهرّج والأمير إيمون الفارس التنّين وغيرهم من الأبطال، وكان لكلّ رجلٍ منهم سيف شهير، ولا بُدّ أن (حافِظ العهد) يَصلُح لضحبتهم حتى إن لم تكن هي تَصلُح. «ستُدافِعين عن ابنة ند ستارك بفولاذ ند ستارك». هكذا وعدَها چايمي.

ركعَت بين السّرير والحائط ممسكةً بالسّيف، وردّدت صلاةً صامتةً لـ(العجوز) التي يُنير مصباحها الذّهبي السّبيل للبَشر في الحياة. *أرشِديني، أنيري طريقي وأريني كيف أصلُ إلى سانزا*. لقد خذلَت رنلي وخذلَت الليدي كاتلين، ويجب ألّا تخذل چايمي أيضًا. *لقد ائتمنني على هذا السّيف، ائتمنني على شرفه*.

بَعدها تمدّدت على السّرير قدر المستطاع، وعلى الرغم من اتّساعه لم تجده طويلًا كفايةً. فنامَت عليه بالعرض. تناهَت إلى مسامعها قعقعة الدّوارق من الأسفل، والأصوات التي يحملها الهواء على السّلالم، ثم ظهرَت البراغيث التي ذكرَها لونجبو، فساعدَها الحَكّ على البقاء مستيقظةً.

سمعَت هيبالد يصعد الدّرج، وبَعد فترةٍ الفُرسان بدورهم، وكان السير كرايتون يقول وهو يمرُّ: «... لم أعرف اسمه قَطُّ، لكن كانت على تُرسه دجاجة حمراء قانية، ومن نصله يَقطر الدّم...»، ثم خبا صوته، وفي مكانٍ ما في الأعلى انفتحَ باب وانغلقَ.

احترقَت شمعتها عن آخِرها، واستقرَّ الظَّلام فوق (الجسر الحجري القديم)، ورانَ على الخان صمت تام جعلَها تسمع خرير مياه النَّهر، وعندها فقط نهضَت بِريان تجمع أغراضها. فتحَت الباب برفقٍ وأنصتَت لحظةً، ثم نزلَت السَّلالم بقدمين حافيتين، وفي الخارج انتعلَت حذاءها وأسرعَت إلى الاسطبل لتُجهِّز فَرسها الكستنائيَّة، قبل أن تمتطيها مستميحةً السير كرايتون والسير إيليفر غذرًا صامتًا. استيقظَ أحد رجال هيبالد حين مرَّت به، لكنه لم يتحرَّك من مكانه ليمنعها، ورنَّت حوافر فَرسها على حجارة الجسر القديم، وسرعان ما ابتلعَتها الأشجار السَّوداء كالقار الملأى بالأشباح والذِّكريات، وإذ انطلقَت بِريان في ظُلمة اللَّيل قالت في أعماقها: *إنني قادمة يا ليدي سانزا. لا تخافي، فلن أستريح حتى أجدكِ*.

---

(18) الجملون هو الجزء الأعلى من المثلَّث. (المترجم).

(19) الرِّجال المكسورون هم المجنَّدون إلزاميًّا الذين يتهرَّبون من الخدمة ولا يعودون إلى ديارهم، وإنما يُكوِّنون عصاباتٍ من الخارجين عن القانون، وفي عالم الواقع ظهرَ المصطلح قديمًا في أيرلندا وسكوتلندا وصفًا لمن يتخلَّون عن ولائهم لقبائلهم. (المترجم).

(20) الصَّنوبر الجُندي والحارس شجرتان من ابتكار المؤلِّف. (المترجم).

(21) حشيشة الدِّينار نبات عُشبي معمِّر تَدخُل زهرته في صناعة البيرة. (المترجم).

(22) الذئب الرهيب حيوان حقيقي منقرض كان يقطن الأمريكتين قبل عشرة آلاف سنة. (المترجم).

بينما يقرأ عن (الآخَرين) رأى سام الفأر.

كانت عيناه محمرَّتين رطبتين، وكلَّما فركَهما قال لنفسه: *ينبغي ألَّا أفركهما كثيرًا*. الغُبار يُصيبهما بالحكَّة ويجعلهما تدمعان، والغُبار في كلِّ مكانٍ هنا، تملأ شحبه الصَّغيرة الهواء متى قلبَ سام صفحةً، ويرتفع كغمامٍ رمادي متى رفعَ كومةً من الكُتب ليرى ما قد يكون متواريًا في قاعها.

لا يدري كم مضى منذ نامَ آخِر مرّة، لكن أقلَّ من بوصةٍ واحدة تبقّى من الشَّمعة الثَّخينة المصنوعة من الشَّحم، التي أشعلَها حين بدأ مطالَعة رزمة أوراقٍ مخلوعة وجدَها مربوطةً بخيط. كان منهَكًا لأقصى درجة، إلّا أن التّوقُّف صعب، وفي البداية ظَلَّ يقول لنفسه: *كتاب آخَر ثم أتوقَّف. ملزمة أخرى فقط. صفحة أخرى ثم أصعدُ وأستريح وآكلَ*. لكن هناك دائمًا صفحة أخرى بَعد تلك الصَّفحة، ثم أخرى وأخرى، وكتاب آخَر قابع تحت الكومة، فيُخبِر نفسه: *سألقي نظرةً سريعةً فقط لأرى موضوعه*، وقبل أن يدري يكون قد قرأ نِصفه. لم يكن قد أكلَ شيئًا منذ حساء الفاصوليا واللّحم المقدّد الذي تناولَه مع پيپ وجِرِن. *باستثناء الخُبز والجُبنة، لكنها كانت مجرّد وجبةٍ خفيفة*. وتلك هي اللّحظة التي رمقَ فيها الطّبق الفارغ فأبصرَ الفأر يلتهم فُتات الخُبز.

لا يتجاوَز الفأر نِصف طول خنصره، وله عينان سوداوان وفرو رمادي ناعم، ويعلم سام أن عليه أن يَقتله، فمع أن الفئران تُفَضِّل الخُبز والجُبنة فإنها تأكل الورق أيضًا، وقد وجدَ الكثير من فضلاتها وسط الرُّفوف والأكوام، وبدا بعض أغلفة الكُتب الجِلديَّة مقروضًا.

لكنه مخلوق ضئيل للغاية، وجائع. كيف يضنُّ عليه بالقليل من فُتات الخُبز؟ *لكنه يأكل الكُتب...*

بَعد ساعاتٍ من الجلوس أصبحَ ظَهر سام متيبّسًا كلوحٍ من الخشب وساقاه شِبه نائمتين. يعرف أنه ليس سريعًا بما يكفي للإمساك بالفأر، ولكن ربما يستطيع أن يسحقه. عند مِرفقه كانت تستقرُّ نُسخة ضخمة مغلّفة بالجِلد من (حوليّات القنطور الأسود)[23]، تقرير السِبتون چوركوين الذي يحوي أدقَّ تفاصيل السّنوات التّسع التي قضاها أوبرت كازويل قائدًا لحرس اللّيل، وفيه صفحة لكلِّ يومٍ من خدمته، كلٌّ منها مستهلّة بعبارة «استيقظَ اللورد أوبرت في الفَجر وأفرغَ أمعاءه»، باستثناء الصّفحة الأخيرة التي تقول: «وُجِدَ اللورد أوبرت وقد ماتَ خلال اللّيل». *ما من فأرٍ يَدُّ للسِبتون* چوركوين. هكذا أمسك سام الكتاب بيُسراه بمنتهى البُطء فوجدَه سميكًا ثقيلًا، ولمّا حاولَ أن يرفعه بيدٍ واحدة انزلقَ من أصابعه السّمينة وسقطَ على المنضدة، وفي أقلِّ من لحظةٍ اختفى الفأر بمنتهى الشرعة. أحسّ سام بالرّاحة، فسحقه المخلوق الصّغير المسكين كان ليُصيبه بالكوابيس، وقال بصوتٍ مسموع: «لكن لا يَجدُر بك أن تأكل الكُتب». ربما عليه أن يجلب معه القليل من الجُبنة عندما يأتي المرّة القادمة.

أدهشَه القليل الذي تبقَّى من الشَّمعة. هل كان حَساء الفاصوليا واللَّحم المقدَّد اليوم أم البارحة؟ *البارحة، لا بُدَّ أنه كان البارحة*. جعلَه إدراك الوقت يتثاءب. مؤكَّد أن جون يتساءَل عمَّا حَلَّ به، وإن كان المِايستر إيمون سيتفهَّم بالتَّأكيد. قبل أن يفقد بصره كان المِايستر يحبُّ القراءة قدر ما يحبُّها ساموِيل تارلي، ويُدرِك الطَّريقة التي يَسقُط بها المرء سقوطًا في الكُتب أحيانًا، كأن كلَّ صفحةٍ فجوة تُفضي إلى عالمٍ آخَر.

دفعَ سام نفسه عن المنضدة ناهضًا، والتوَت قسماته من التَّنميل في رَبلتَي ساقيه. مقعده صُلب للغاية، وينغرس في لحم فخذيه من الخلف عندما ينحني فوق كتاب. *عليَّ أن أتذكَّر أن أجلب وسادةً*. بل ومن الأفضل أن ينام هنا، في الحُجيرة التي وجدَها نِصف متواريةٍ وراء أربعة صناديق ملأى بالصَّفحات المخلوعة من كُتبها، لكنه لا يرغب في ترك المِايستر إيمون وحده طويلًا، فقُوى الرَّجل بدأت تخور في الفترة الأخيرة وأصبحَ يتطلَّب العون، خصوصًا في العناية بالغِدفان. صحيحٌ أن كلايداس يُساعِد إيمون، لكن سام أصغر سِنًّا وأمهر في التَّعامُل مع الطُّيور.

بكومةٍ من الكُتب والمخطوطات تحت إبطه الأيسر وشمعةٍ في يده اليُمنى شَقَّ سام طريقه عبر الأنفاق التي يُسمّيها الإخوة المسالك الدُّوديّة، وقد أنارَ خيط شاحب من الضُّوء الدّرجات الحجريّة المرتفعة التي تقود إلى السّطح، فعرفَ أن النّهار طلعَ. ترك الشّمعة مشتعلةً في كُوّةٍ في الحائط وبدأ يصعد، وعند الدّرجة الخامسة كان يلهث، وعند العاشرة توقّف لينقل الكُتب إلى ذراعه اليُمنى.

خرجَ تحت سماءٍ بلون الرّصاص الأبيض، فضيّق عينيه ورفعهما قائلًا لنفسه: *سماء ثلجيّة*. أصابَته الفكرة بالتّوتّر، وتذكّر اللّيلة إياها على قمّة (قبضة البَشر الأوائل) حين أتَت الجُثث الحيّة والثّلوج في آنٍ واحد. *لا تكن جبانًا هكذا. إخوتك المحلّفون يُحيطون بك، ناهيك بستانيس باراثيون وجميع فُرسانه*. من حوله ارتفعَت حصون وأبراج (القلعة السّوداء)، وإن قزّمتها ضخامة (الجِدار)، وقد لاح جيش صغير يزحف على الجليد في رُبع المسافة إلى أعلى، حيث ترتفع سلالم متعرّجة جديدة بتؤدةٍ لتتّصل ببقايا القديمة. على الجليد تردّدت أصداء مناشير ومطارق البنّائين الذين أمرَهم چون بالعمل ليل نهار، وقد سمعَ سام بعضهم يشكو على العَشاء، ويقول إن اللورد مورمونت لم يُجشّمهم مشقّةً كهذه قَطُّ. ولكن من دون السّلالم الضّخمة ليست هناك وسيلة لبلوغ قمّة (الجِدار) إلّا القفص المتحرّك، ومهما كره ساموِيل تارلي السّلالم فإنه يكره القفص أكثر، ودائمًا يُغلِق عينيه متى ركبَه وفي نفسه يقين بأن السّلسلة على وشك أن تنكسر، وكلّما احتكّ القفص الحديد بالجليد يتوقّف قلبه عن الخفقان لحظةً.

وجدَ سام نفسه يُفَكِّر وهو يُشاهِد القفص ينخفض ببُطء: *كانت توجَد تنانين هنا قبل مئتي عام، تطير ببساطةٍ إلى قمّة (الجِدار)*. لقد زارَت الملكة أليسين (القلعة السّوداء) على متن تنّينتها، ولحقَ بها زوجها الملك چهيرس على تنّينه. أيُمكن أن سيلفروينج تركَت بيضةً وراءها؟ أو هل وجدَ ستانيس بيضةً في (دراجونستون)؟ حتى إذا كانت في حوزته بيضة، فكيف يجعلها تفقس؟ بيلور المبارَك صلّى على بيضاته، وغيره من آل تارجاريَن حاولوا جعل بيضهم يفقس بالسِّحر، فلم ينالوا إلّا المهازل والمآسي.

قال صوت واجم: «ساموِيل، كنتُ قادمًا لإحضارك. قيلَ لي أن آخذك لحضرة القائد».

تساءلَ سام ونُدفة ثلجٍ تحطُّ على أنفه: «چون يُريد أن يراني؟».

أجابَ إد توليت الكئيب: «لا أدري. إنني لم أرغب في رؤية نِصف الأشياء التي رأيتها، ولم أرَ نِصف الأشياء التي رغبتُ في رؤيتها. لا أظنُّ أن للرّغبة علاقة بالأمر. لكن من الأفضل أن تذهب. اللورد سنو يُريد الكلام معك ما إن يَفرُغ من زوجة كراستر».

- «جيلي».

- «بالضّبط. لو كانت مُرضِعتي تُشبِهها لظللتُ أرضعُ حتى الآن. مُرضِعتي كان لها شارب».

- «معظم الماعز له شوارب»، صاح پيپ إذ ظهرَ مع جرِن عند أحد الأركان، وكلٌّ منهما يحمل قوسًا طويلًا في يده وجَعبة سهامٍ على ظَهره. «أين كنت أيها القاتِل؟ افتقدناك ليلة أمس على العشاء. ثمّة ثور مشوي كامل لم يأكله أحد».

- «لا تُنادِني بالقاتِل»، رَدَّ سام متجاهلًا مزحة الثور، فهذا ديدن پيپ لا أكثر. «كنتُ أقرأ. كان هناك فأر...».

- «لا تَذكُر الفئران أمام جرِن، إنه مرعوب منها».

أعلنَ جرِن بغيظ: «غير صحيح!».

- «سيُرعِبك أن تأكل واحدًا».

- «يُمكنني أن آكل فئرانًا أكثر منك».

تنهَّد إد الكئيب، وقال: «في صِغري كنا نأكل الفئران في أيام الأعياد فقط. كنتُ الأصغر، فلم أنل إلَّا الذَّيل دائمًا. ليس هناك لحم في الذَّيل».

سألَ جرِن: «أين قوسك الطَّويل يا سام؟ أولمر كان ينتظرك في ساحة التَّدريب». اعتادَ السير أليسر أن يُلَقِّب جرِن بـ«الثَّور»، ويبدو أن الاسم ينطبق عليه أكثر فأكثر كلَّ يوم. لقد أتى (الجِدار) كبير الحجم لكن بطيئًا، برقبةٍ غليظة وخصرٍ ممتلئ ووجهٍ أحمر وحركةٍ خرقاء، ولئن كانت رقبته لا تزال تحمرُّ كلَّما أوقعه پيپ في حبائل واحدةٍ من دُعاباته، فإن ساعات التَّدريب الطَّويلة بالسَّيف والتُّرس سوَّت بطنه وقوَّت ذراعيه وفلطحت صدره. إنه قويٌّ حقًّا، وأشعث كالثِّيران.

ردّد سام بارتباك: «أولمر». أول شيءٍ تقريبًا فعلَه چون سنو باعتباره القائد أنه قضى أن تكون تدريبات الرِّماية يوميّةً لأفراد الحامية كلِّها، حتى الوُكلاء والطُّهاة، قائلًا إن حَرس اللّيل ركّزوا أكثر من اللّازم على السّيف وأقلّ من اللّازم على القوس، وهو أثر باقٍ من الأيام التي كان فيها فارس من كلّ عشرة إخوةٍ بدلًا من كلّ مئة. رأى سام ما في القرار من حصافة، لكنه يكاد يكره تدريبات الرِّماية بالقوس الطّويل مِثلما يكره صعود السّلالم. عندما يضع قُفّازيه لا يستطيع أن يُصيب شيئًا أبدًا، وعندما يخلعهما تتقرّح أصابعه. تلك الأقواس خطرة بحق، والدّليل أن ساتان قطعَ نِصف ظُفر إبهامه بوتر أحدها. «نسيث».

قال پيپ: «كسرت قلب الأميرة الهمجيّة أيها القاتِل». في الفترة الأخيرة تعوّدت ڤال أن تُشاهِدهم يتمرّنون من نافذة غُرفتها في (بُرج الملك). «كانت تبحث عنك».

- «غير صحيح! لا تقل هذا!». لم يتكلّم سام مع ڤال إلّا مرّتين، حين استدعاها المِايستر إيمون لتتأكّد من أن الرّضيعين في صحّةٍ جيّدة، والأميرة رائعة الجَمال بحق، لدرجة أنه يجد نفسه يتلعثم ويتورّد خجلًا في حضورها.

قال پيپ: «ولِمَ لا؟ إنها تُريد أن تحمل أطفالك. ربما علينا أن ندعوك بسام المُغوي».

احمرّ وجه سام. إنه يعلم أن عند الملك ستانيس خُططًا لقال، أنها الأداة التي ينوي أن يُحكِم بها السّلام بين الشّماليّين وشعب الأحرار. «لا أملك وقتًا للرّماية اليوم. يجب أن أذهب لأرى چون».

- «چون؟ چون؟ هل نعرف أحدًا اسمه چون يا چرِن؟».

- «يقصد حضرة القائد».

- «أووووه، اللورد سنو العظيم، بالتّأكيد. لماذا تُريد أن تراه؟ إنه لا يستطيع هزهزة أُذنيه»، وهزهزَ پيپ أُذنيه الكبيرتين المحمرّتين من البرد ليُريهم أنه يستطيع، وأضافَ: «إنه اللورد سنو فعليًا الآن، أعلى نسبًا من أن يُجالِس أمثالنا».

قال سام مدافعًا عنه: «چون عليه واجبات. (الجِدار) تحت قيادته، وكلُّ ما يتضمّنه هذا المنصب».

- «والمرء عليه واجبات نحو أصدقائه أيضًا. لولانا لأصبحَ چانوس سلينت قائدنا. كان اللورد چانوس ليُرسِل سنو في جولة تقصٍّ وهو عارٍ على ظهر بغل، ولقال له: اذهب *إلى (قلعة كراستر) وعُد لي بمعطف وحذاء الدُّب العجوز*. لقد أنقذناه من هذا، والآن واجباته أكثر من أن يشرب معنا كوبًا من النّبيذ المتبّل إلى جوار النّار؟».

أيّده چرِن بقوله: «واجباته لا تحول دون نزوله السّاحة. ستجده نيارِز أحدهم هناك معظم الأيام».

أقرّ سام مضطرًا بصحّة هذا. ذات مرّة، عندما جاء جون يتشاور مع المايستر إيمون، سأله سام لماذا يقضي كلّ هذا الوقت في تدريبات المبارَزة، وأضاف: «الدُّب العجوز لم يعتَد أن يتدرَّب كثيرًا حين كان قائدًا»، وهو ما أجابَ عنه جون بأن وضعَ سيفه (المخلب الطّويل) في يد سام وتركَه يستشعر خفّته وتوازُنه، وجعلَه يُدوِّر النّصل لتَبرُق تموُّجات المعدن الدّاكن كالدُّخان، ثم قال: «هذا فولاذ ڤاليري، مطرّق بالتّعاويذ وحاد كالموسى، يكاد يكون غير قابلٍ للإتلاف. لا بُدّ أن يكون حامل السّيف بجودة سيفه يا سام. (المخلب الطّويل) من الفولاذ القاليري، أمّا أنا فلا، وكان باستطاعة ذي النّصف يد أن يَقتلني بسهولة سحقك بعوضةً».

أعادَ سام السّيف قائلًا: «كلّما حاولت أن أسحق بعوضةً طارَت، فلا أفعلُ إلّا أن أضرب ذراعي. شيء مؤلم».

أضحكَ قوله جون الذي رَدّ: «كما تُريد. كان باستطاعة كورين أن يَقتلني بسهولة أكلك وعاءً من الثّريد». سام مولع بالثّريد، خصوصًا المحلّى بالعسل.

- «ليس عندي وقت لهذا»، قالها سام لأصدقائه وشَقّ طريقه إلى مستودَع السّلاح ضامًّا كُتبه إلى صدره. *أنا الدّرع التي تقي بلدان البَشر*. تساءلَ عمّا سيقوله هؤلاء البَشر إذا أدرَكوا أن بلدانهم يقيها مَن على شاكلة جرِن وپيپ وإد الكئيب.

(بُرج القائد) خرّبته النّار، و(بُرج الملك) اتَّخذه ستانيس باراثيون مقرًّا لإقامته، ومن ثم استقرَّ جون سنو في مسكن دونال نوي المتواضع وراء مستودَع السِّلاح. كانت جيلي مغادرةً حين وصلَ سام، جسدها ملفوف بالمعطف القديم الذي أعطاها إياه في أثناء فرارهما من (قلعة كراستر). كانت الفتاة تندفع متجاوزةً إياه، لكنه أمسكَ ذراعها ليَسقُط منه كتابان، وقال: «جيلي».

رَدَّت بصوتٍ مبحوح: «سام». لجيلي شَعر داكن وجسد ناحل وعينان بنّيّتان واسعتان كعينَي ظبية، وقد ابتلعَتها طيّات معطف سام القديم وكادَ وجهها يتوارى تحت قلنسوته، وإن كانت ترتجف على الرغم من هذا، ولاحَ على ملامحها الخوف والامتقاع.

سألَها سام: «ما الخطب؟ كيف حال الطّفلين؟».

سحبَت جيلي ذراعها منه مجيبةً: «بخير يا سام، بخير».

قال بلُطف: «عجيب أنكِ تستطيعين النّوم في وجود الاثنين. مَن الذي سمعته يبكي ليلة أمس؟ حسبته لن يتوقّف أبدًا».

غمغمَت: «صبيُّ دالا، دائمًا يبكي حين يُريد أن يرضع.
أمّا صبيِّي... صبيِّي يكاد لا يبكي أبدًا. أحيانًا يُقَرقِر،
ولكن...»، وبترَت عبارتها واستطردَت بعينين أغرقَتهما
الدُّموع: «يجب أن أذهب. تأخّرتُ على إطعامهما.
سأغرقُ نفسي باللّبن إذا لم أذهب»، واندفعَت تجتاز
السّاحة تاركةً سام حائرًا.

اضطرَّ إلى الرُّكوع على رُكبتيه ليلتقط الكتابين
اللذين أسقطَهما. *لم يكن ينبغي أن أجلب عددًا كبيرًا،*
قال لنفسه وهو يمسح الوحل عن (خُلاصة اليَشب)
لكولوكو قوتار، المجلَّد السّميك الذي يضمُّ حكاياتِ
وأساطير من الغرب وأمرَه المِايستر إيمون بالعثور عليه.
بدا الكتاب سليمًا، ولو أن الحَظَّ نفسه لم يُحالِف
(عشيرة الثّنانين، تاريخ عائلة تارجاريَن من المنفى إلى
التّأليه، مع بحث في حياة الثّنانين وموتها) للمِايستر
توماكس. انفتحَ الكتاب إذ سقطَ، وتلوّثت بضع صفحاتٍ
بالوحل، منها واحدة تحوي صورةً ممتازةً بالأحبار
الملوّنة للرُّعب الأسود بالريون. سَبَّ سام نفسه وخَرَقها
وهو يُسوِّي الصَّفحات ويمسحها. دائمًا يُربِكه وجود
جيلي ويُثير فيه... ما يُثيره! لا يَجدُر بأخٍ محلَّف في
حرس اللّيل أن يَشعُر بما تُشعِره به جيلي، لا سيّما حين
تتكلَّم عن ثدييها و...

- «اللورد سنو ينتظرك». عند باب مستودَع السّلاح وقفَ حارسان متّكئان على حربتيهما، كلاهما يرتدي معطفًا أسود ويعتمر خوذةً قصيرةً من الحديد. كان هال الفشعر من تكلّم، بينما ساعدَ مولي سام على النّهوض، فتمتمَ شاكرًا وأسرعَ يتجاوزهما متشبّثًا باستماتةٍ بكومة الكُتب وهو يمرُّ بورشة الحدادة بسندانها وكيرها، وقد استقرَّ قميص نِصف مكتمل من الحلقات المعدنيّة على طاولة العمل. رأى جوست متمدّدًا أسفل السّندان يقضم عظمة ثورٍ ليصل إلى النّخاع، ورفعَ الذّئب الرّهيب الأبيض الكبير عينيه حين مَرّ سام، وإن لم يُصدِر صوتًا.

تقع حُجرة چون الشّمسيّة وراء رفوف الحِراب والتّروس، ولدى دخوله ألفاه سام يقرأ رَقًّا، وقد جثمَ غُداف اللورد مورمونت على كتفه محدّقًا إلى الورقة كأنه يقرأها أيضًا، لكن حين أبصرَ الطّائر سام بسطَ جناحيه وحلّق صوبه صائحًا: «*ذُرة، ذُرة!*».

عدَل سام وضع الكُتب ودَسّ يده في الكيس المجاور للباب ليُخرِج حفنةً من الحبوب، فحَطّ الغُداف على معصمه والتقطَ واحدةً من كَفّه ناقرًا بقوّةٍ حدَت بسام إلى الصّياح وانتزاع يده بسرعة، وعادَ الغُداف يُحلّق وتناثرَت الحبوب الصّفراء والحمراء في كلّ مكان.

قال چون: «أغلِق الباب يا سام. هل جرحَ المأفون جِلدك؟». على وجنته لا تزال تلوح النّدوب الباهتة التي خلّفتها محاولة نسرٍ أن يفقأ عينه.

وضعَ سام الكُتب برفقٍ وخلعَ قُفّازه، وأجابَ شاعرًا بالدُّوار: «نعم، إنني أنزفُ!».

رَدَّ چون: «كلُّنا ننزف من أجل حَرس اللّيل. ارتدِ قُفّازاتٍ أغلظ»، ودفعَ مقعدًا بقدمه نحو سام مردفًا: «اجلس وألقِ نظرةً على هذا»، وناولَه الرَّق.

سألَه سام بينما بدأ الغُداف يلتقط الحَبّ من وسط الحصائر: «ما هذا؟».

- «دِرع من ورق».

امتصَّ سام الدّم من راحة يده وهو يقرأ، وقد تعرَّف خَطَّ المِايستر إيمون بمجرّد النَّظر. للعجوز خَطٌّ صغير دقيق، لكنه لا يرى المواضع التي يُلَطِّخ فيها الحبر الورقة، فيترُك أحيانًا بُقعًا قبيحةً. «رسالة إلى الملك تومن؟».

قال چون: «في (وينترفل) تبارزَ تومن وأخي بران بسيفين خشبيَّين. كان يرتدي بطانةً سميكةً لدرجة أنه بدا كإوزّةٍ محشوّة، وطرحَه بران أرضًا»، وذهبَ إلى النّافذة مواصلًا: «ومع ذلك ماتَ بران، والآن يجلس تومن السَّمين ذو الوجه المتورِّد على العرش الحديدي، ووسط خُصلاته الذَّهبيّة يستقرُّ التّاج».

أرادَ سام أن يقول: *بران لم يَمُت، بل ارتحلَ وراء (الجِدار) مع ذي اليدين الباردتين*، لكن الكلمات احتبسَت في حلقه. *لقد أقسمتُ ألّا أقول*. «لم تُوَقِّع الرِّسالة».

- «الدُّب العجوز توسّل العون من العرش الحديدي مئة مرّة، فأرسلوا له چانوس سلينت. لا رسالة من شأنها أن تجعل آل لانستر يحبّوننا أكثر ما إن يسمعوا أننا ساعدنا ستانيس».

قال سام: «في الدّفاع عن (الجِدار) فقط، وليس في تمرّده»، وقرأ الرّسالة ثانيةً بسُرعةٍ قبل أن يُضيف: «هذا هو المكتوب هنا».

قال چون: «قد يغيب الفرق عن اللورد تايوين»، وتناولَ الرّسالة من سام متسائلًا: «لِمَ يُساعِدنا الآن؟ إنه لم يفعلها من قبل قطُّ».

- «لأنه لن يُريد أن يقول النّاس إن ستانيس هَبَّ للدّفاع عن البلاد بينما يلعب الملك تومن بلُعبه. شيء كهذا سيؤدّي إلى الشخرية من عائلة لانستر».

قال چون: «ما أريده لعائلة لانستر هو الموت والدّمار»، ورفعَ الرّسالة وقرأ: «*حَرس اللّيل لا يتدخّلون في حروب (الممالك السّبع). إننا نحلف أيماننا للبلاد، والبلاد في خطرٍ داهم الآن. ستانيس باراثيون يُساعِدنا ضد أعدائنا من وراء (الجِدار)، لكننا لسنا رجاله*...».

قال سام بارتباك: «طيّب، نحن لسنا رجاله بالفعل، أليس كذلك؟».

- «لقد أعطيتُ ستانيس الطّعام والمأوى و(قلعة اللّيل)، بالإضافة إلى السّماح له بتوطين عددٍ من شعب الأحرار في (الهديّة)، هذا كلُّ شيء».

- «اللورد تايوين سيقول إن هذا كثير للغاية».

- «وستانيس يقول إنه لا يكفي. كلّما أعطيت ملكًا المزيد أرادَ أكثر. إننا نمشي على جسرٍ من الجليد على جانبيه هاوية. إرضاء ملكٍ واحد عسير بما فيه الكفاية، أمّا إرضاء اثنين فيكاد يكون مستحيلًا».

- «نعم، لكن... إذا كانت الغلبة لآل لانستر وقرّر اللورد تايوين أننا خُنّا الملك بدعمنا ستانيس فقد يعني هذا نهاية حَرس اللّيل. إن وراءه آل تايرل وقوّة (هايجاردن) بأكملها، كما أنه هزمَ اللورد ستانيس في معركة (النّهر الأسود)». ربما يُصيب منظر الدّماء سام بالدُّوار، لكنه يعلم كيف تُربَح الحروب. أبوه حرصَ على هذا.

- «(النّهر الأسود) معركة واحدة. روب انتصرَ في معاركه كلّها وفقدَ رأسه رغم ذلك. إذا استطاعَ ستانيس أن يحشد الشّمال...».

أدركَ سام أن چون يُحاوِل إقناع نفسه. *لكنه غير قادر.* لقد حلّقت الغِدفان من (القلعة السّوداء) في عاصفةٍ من الأجنحة السّوداء، تستدعي لوردات الشّمال لإعلان تأييدهم ستانيس باراثيون وضَمّ قوّاتهم إلى قوّاته، وقد أرسلَ سام معظم الطّيور بنفسه، وحتى الآن لم يرجع إلّا واحد، الطّائر الذي أرسلوه إلى (كارهولد)، وفيما عدا ذلك فالصّمت يصمُّ الآذان.

حتى إذا استطاعَ ستانيس أن يربح الشّماليّين في صفّه، فسام لا يرى كيف يأمل في معادَلة قوّة (كاسترلي روك) و(هايجاردن) و(التّوأمتين) مجتمعةً... لكن قضيّته خاسرة لا محالة دون الشّمال. *خاسرة كخَرس اللّيل إذا وصمَنا اللورد تايوين بالخيانة*. «آل لانستر معهم شماليّون في صفوفهم، اللورد بولتون ونغله».

- «ستانيس معه آل كارستارك. إذا فازَ بتأييد (الميناء الأبيض)...».

قاطعَه سام ضاغطًا على الكلمة: «إذا. وإذا لم يَحدُث... سيّدي، حتى دِرع من ورق أفضل من لا شيء».

لوّح چون بالورقة قائلًا: «أظنُّ هذا»، وتنهّد ثم التقطَ ريشةً وذيّل الرّسالة بتوقيعه، وقال: «أحضِر الشّمع». وهكذا سخّن سام قالبًا من الشّمع الأسود فوق شمعةٍ وقطّر القليل منه على الرّق، ثم شاهدَ وچون يضغط ختم خَرس اللّيل بقوّةٍ في الشّمع الطّري، قبل أن يقول آمرًا: «خُذها إلى المِايستر إيمون حين تُغادِر وقُل له أن يُرسِل طائرًا إلى (كينجز لاندنج)».

قال سام: «سأفعلُ»، وتردّد لحظةً ثم استطرد: «سيّدي، إذا سمحت لي بالسّؤال... لقد رأيتُ جيلي وهي ذاهبة، وكانت مجهشةً بالبُكاء».

- «قال أرسلَتها تتشفّع لمانس مجدّدًا».

- «أوه». قال أخت المرأة التي اتَّخذها ملك ما وراء الجِدار ملكةً له، ويُطلِق عليها ستانيس ورجاله «الأميرة الهمجيّة»، وقد ماتت أختها دالا خلال المعركة، مع أن نصلًا لم يمسّها، بل فاضَت نفسها وهي تلد ابن مانس رايدر. قريبًا سيتبعها رايدر نفسه إلى القبر، إذا صدقَت الهمسات التي سمعَها سام. «ماذا قلت لها؟».

أجابَ چون: «إنني سأتكلّمُ مع ستانيس، وإن كنتُ لا أظنُّ أن كلامي سيؤَثِّر فيه. أول واجبات الملك أن يُدافِع عن بلاده، ومانس رايدر هاجمَ البلاد، وليس واردًا أن ينسى جلالته هذا. لقد اعتادَ أبي أن يقول إن ستانيس باراثيون رجل عادل، لكن لا أحد قال قطُّ إنه متسامح»، وصمتَ لحظةً مقطّبًا وجهه قبل أن يُتابِع: «أوثرُ أن أقطع رأس مانس بنفسي، فقد كان رجلًا في حَرس اللّيل ذات يوم، وبالحَقِّ يُفترَض أن تكون حياته في أيدينا نحن».

- «پيپ يقول إن الليدي مليساندرا تنوي أن تُحرِقه لتصنع سحرًا ما».

- «على پيپ أن يتعلّم أن يصون لسانه. الكلام نفسه سمعته من آخَرين. دم الملوك الذي من شأنه أن يُوقِظ تنّينًا، لكن لا أحد يدري أين تحسب مليساندرا أنها ستجد تنّينًا نائمًا. إنها تُرهات. دماء مانس ليست أكثر ملكيّةً من دمائي. إنه لم يعتمر تاجًا أو يجلس على عرشٍ قطُّ. الرّجل قاطع طريقٍ لا أكثر، وليست هناك قوّة في دماء قُطّاع الطُرق».

على الأرض رفعَ الغُداف عينيه وصرخَ: «*دماء!*».

لم يُعِره چون اهتمامًا، وقال: «سأصرفُ جيلي من هنا».

غمغمَ سام: «أوه»، وأومأ برأسه قائلًا: «حسنٌ، هذا... هذا جيِّد يا سيِّدي». أفضل شيءٍ لها أن تذهب إلى مكانٍ آمنٍ دافئ، بعيدًا عن (الجِدار) والقتال.

- «هي والصَّبي. علينا أن نجد مُرضِعةً أخرى لأخيه في الرَّضاعة».

- «لا بأس بحليب الماعز حتى تجدوا واحدةً. إنه أفضل للرُّضَّع من حليب الأبقار». كان سام قد قرأ هذا في مكانٍ ما. اعتدلَ في جلسته قائلًا: «سيِّدي، بينما أقرأ الحوليّات عثرتُ على قائدٍ صبي آخَر قبل أربعمئة عامٍ من الغزوة. أوزريك ستارك كان في العاشرة من العُمر حين اختيرَ، لكنه خدمَ ستّين عامًا. هكذا أصبحوا أربعةً يا سيِّدي، أي أنك لست قريبًا حتى من أن تكون أصغر رجلٍ يُنتخَب للقيادة. إنك الخامس حتى الآن».

- «والأربعة الأصغر كلُّهم أبناء أو إخوة أو نغول للملك في الشَّمال. أخبِرني بشيءٍ مفيد، حدِّثني عن عدوِّنا».

قال سام: «(الآخرون)»، ولعقَ شفتيه مستدركًا: «إنهم مذكورون في السّجلّات، وإن لم يكن بالكثرة التي حسبتها... في السّجلّات التي وجدتها وقرأتها بالأحرى، لكني أعرفُ أن هناك المزيد مما لم أجده. بعض الكُتب الأقدم متفسّخ، والصّفحات تتفتّت حين أحاولُ أن أقلبها. وبالنّسبة إلى الكُتب العتيقة... إمّا أنها تفتّتت تمامًا وإمّا أنها مدفونة في مكانٍ ما لم أبحث فيه بعدُ، وربما... ربما لا تكون هناك كُتب كهذه من الأصل ولم يكن لها وجود قَطُّ. أقدم التّواريخ المدوّنة كان بَعد مجيء الأنداليّين إلى (وستروس)، بينما ترك لنا البَشر الأوائل نقوشًا على الصّخور فحسب، لذا فإن كلَّ شيءٍ نظنُّ أننا نعرفه عن عصر الأبطال واللّيل الطّويل يأتي من حكاياتٍ كتبها سِپتونات بَعد آلاف الأعوام من تلك الأحداث، وهناك مِايسترات رؤساء في (القلعة) يُشكّكون فيها جميعًا. تلك التّواريخ القديمة ملأى بالملوك الذين حكموا مئات السّنين، والفُرسان الذين جابوا البلاد قبل ألف عامٍ من وجود فُرسان. أنت تعرف تلك الحكايات؛ براندون البنّاء وسيميون ذو العينين النّجمتين وملك اللّيل... نحن نقول إنك القائد التّسعمة وثمانية وتسعون لحرس اللّيل، لكن أقدم قائمةٍ وجدتها تضمُّ ستمئة وأربعة وسبعين قائدًا، وهو ما يُفيد بأنها كُتِبت...».

قاطعه چون: «منذ زمنٍ طويل. ماذا عن (الآخرين)؟».

- «وجدتُ ذِكرًا لزُجاج التنّين. أطفال الغابة تعوَّدوا أن يُعطوا حرس اللّيل مئة خنجرٍ من الزُّجاج البُركاني كلَّ عامٍ خلال عصر الأبطال. معظم الحكايات متّفق على أن (الآخَرين) يأتون في البرد، أو أن البرد يأتي معهم. أحيانًا يظهرون وقت العواصف الثّلجيّة ويختفون حين تصفو السّماء، ويختبئون من ضوء الشّمس ويَخرُجون ليلًا... أو أن اللّيل يحلُّ حين يَخرُجون. بعض القصص يتكلّم عن ركوبهم الحيوانات الميتة؛ الدِّببة والذِّئاب الرَّهيبة والماموثات والخيول، لا فرق ما دامَ الحيوان ميتًا. الذي قتلَ پول الصّغير كان يمتطي حصانًا ميتًا، فواضح أن هذا الجزء صحيح. بعض الحكايات يَذكُر عناكب جليديّةً أيضًا، لكني لا أدري ماهيتها. مَن يسقطون في المعركة أمام (الآخَرين) لا بُدَّ أن يُحرَقوا وإلّا سينهض الموتى من جديدٍ كعبيدٍ لهم».

- «نعرف كلَّ هذا. السُّؤال هو كيف نُقاتِلهم؟».

قال سام: «دروع (الآخَرين) منيعة ضد معظم الأسلحة التّقليديّة، إذا صدّقنا ما ورَدَ في الحكايات، وسيوفهم باردة للغاية لدرجة أنها تُحطّم الفولاذ، لكنهم يهابون النّار، ومن شأن زُجاج التنّين أن يُؤذيهم». تذكَّرَ (الآخَر) الذي واجهَه في (الغابة المسكونة)، وكيف بدا أنه يذوب ذوبانًا عندما طعنَه بخنجر الزُّجاج البُركاني الذي صنعَه له جون. «وجدتُ حكايةً عن اللّيل الطّويل تقول إن البطل الأخير قتلَ (الآخَرين) بسيفٍ من فولاذ التنّين. المفترَض أنهم لا يستطيعون الصُّمود أمامه».

قطّب چون جبينه قائلًا: «فولاذ التنّين؟ الفولاذ القاليري؟».

- «هذا أول ما خطرَ لي أيضًا».

- «إذن إذا استطعتُ أن أقنع لوردات (الممالك السّبع) بإعطائنا سيوفهم المصنوعة من الفولاذ القاليري فستنتهي المشكلة؟»، وأطلق چون ضحكةً خاليةً من المرح، وأردفَ: «هل عرفت من يكون (الآخَرون)؟ من أين يأتون؟ ماذا يريدون؟».

- «ليس بعدُ يا سيّدي، لكن لعلّي كنتُ أقرأ الكُتب الخطأ فقط. هناك مئات الكُتب التي لم أفتحها حتى الآن. أعطِني مزيدًا من الوقت وسأجدُ كلَّ ما يُمكن إيجاده».

بنبرةٍ حزينة قال چون: «ليس هناك مزيد من الوقت. عليك أن تحزم أغراضك يا سام، إنك راحل مع جيلي».

مرّت لحظة دون أن يستوعب سام، ثم قال: «راحل؟ أنا راحل؟ إلى (القلعة الشّرقيّة) يا سيّدي؟ أم... أين...».

- «(البلدة القديمة)».

- «(البلدة القديمة)؟!». خرجَت الكلمة منه صريرًا. (هورن هيل) قريبة من (البلدة القديمة). *التّيار*. مجرّد الفكرة جعلَ رأسه يدور. *أبي*.

- «وإيمون أيضًا».

- «إيمون؟ المِايستر إيمون؟ لكن... لقد تجاوزَ المئة بعامين يا سيِّدي، ولا يقوى على... ستُرسِله وتُرسِلني أيضًا يا سيِّدي؟ ومن سيعتني بالغِدفان؟ إذا مرضْت أو جُرِحْت، فمن...».

- «كلايداس، إنه مع إيمون منذ سنوات».

- «كلايداس مجرَّد وكيل، وبصره يزداد ضعفًا. أنت محتاج إلى مِايستر. المِايستر إيمون واهن، ورحلة في البحر...». فكَّر في (الكرمة) والسَّفينة (ملكة الكرمة فكادَ يختنق بلسانه. «ربما... إنه شيخ، و...».

- «ستكون حياته في خطر. أدركُ هذا يا سام، لكن الخطر هنا أكبر. ستانيس يعرف من هو إيمون، وإذا كانت تعاويذ المرأة الحمراء تقتضي دم الملوك...».

رَدَّ سام بوجهٍ شحبَ: «أوه».

- «سينضمُّ داريون إليكم في (القلعة الشَّرقيَّة). أملي أن تُكسِبنا أغانيه بعض الرِّجال في الجنوب. ستحملكم (الطَّائر الأسود) إلى (براڤوس)، ومن هناك عليكم ترتيب رحلتكم إلى (البلدة القديمة). إذا كنت لا تزال تعتزم أن تُعلِن ابن جيلي نغلك، فأرسِلها إلى (هورن هيل)، وإن لم يكن فسيجد لها إيمون عملًا كخادمةٍ في (القلعة)».

- «تـنـنغلي». لقد قال هذا، نعم، ولكن... *كلُّ تلك المياه، يُمكن أن أغرق. الشّفن تغرق طوال الوقت، والخريف فصل عنيف العواصف*. لكن جيلي ستكون معه، وسينشأ الطّفل في أمان. «نعم، أنا... أمّي وأخواتي سيُساعِدن جيلي على العناية بالصّبي». *يُمكنني أن أرسل رسالةً. لا حاجة إلى الذّهاب إلى (هورن هيل) بنفسي*. «داريون يستطيع أن يصحبها إلى (البلدة القديمة) مِثلي تمامًا. إنني... إنني أتمرّنُ على الرِّماية كلَّ أصيلٍ مع أولمر كما أمرت... إلّا عندما أكون في القبو، لكنك قلت لي أن أكتشف ما يُمكن اكتشافه عن (الآخرين). القوس الطّويل يُؤلِم كتفَي ويجعل أصابعي تتقرّح»، ورفعَ يده يُري جون أحد القروح المفتوحة مواصلًا: «لكني ما زلث أتمرّنُ، وأستطيعُ أن أصيب الهدف معظم الوقت الآن، إلّا أنني لا أزالُ أسوأ رامٍ حملَ قوسًا في العالم. لكني أحبُّ قصص أولمر. على أحدهم أن يُدوِّنها ويضعها في كتاب».

- «دوِّنها إذن. إن لديهم حبرًا وورقًا في (القلعة)، بالإضافة إلى الأقواس الطّويلة. سأتوقّعُ منك أن تُواصِل تدريباتك. سام، في حرس اللّيل مئات الرِّجال الذين يستطيعون الرّمي بالسّهام، لكن ليس بينهم إلّا شرذمة ممن يُجيدون القراءة والكتابة. أريدك أن تكون مِايستري الجديد».

جعلَته الكلمة يجفل. *لا، أرجوك يا أبي، لن أتكلّم عن هذا ثانيةً، أقسمُ بالآلهة السّبعة. أخرِجني، أرجوك أخرِجني.* «سيّدي، أنا... إن عملي هنا. الكُتب...».

- «ستكون هنا عندما تعود إلينا».

وضعَ سام يده على عُنقه وهو يكاد يحسّ بالسّلسلة حوله، تَخنُقه. «سيّدي، (القلعة)... إنهم يجعلونك تُشرّح الجُثث هناك». *إنهم يجعلونك تضع سلسلةً حول عُنقك. إذا كنت تُريد سلسلةً فتعالَ معي.* طيلة ثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ ظَلّ سام ينتحب حتى يغلبه النّوم وهو مقيّد بالأصفاد إلى الحائط، تُحيط بعُنقه سلسلة مشدودة عن آخِرها لدرجة أنها جرحَت جِلده، ومتى التفّ في اتّجاهٍ خاطئ في نومه انقطعَت أنفاسه. «لا يُمكنني أن أضع سلسلةً».

- «بل يُمكنك، وستفعل. المِايستر إيمون عجوز كفيف وقوّته تتسرّب منه. من سيحلّ محلّه عندما يموت؟ المِايستر مولين في (بُرج الظّلال) مُقاتل أكثر من نطاسي، والمِايستر هارميون في (القلعة الشّرقيّة) يسكر أكثر مما يستفيق».

- «إذا سألت (القلعة) أن تُرسِل المزيد من المِايسترات...».

- «هذا ما أنتويه، فسنحتاج إلى كلّ واحدٍ منهم، لكن إيمون تارجاريَن لا يُستبدَل بسهولة»، ولاحَت الحيرة على چون وهو يُضيف: «كنتُ واثقًا بأن الأمر سيسرُّك. في (القلعة) كُتب أكثر مما يأمل أحد أن يقرأها كلَّها. ستُبلي بلاءً حسنًا هناك يا سام، أعلمُ هذا».

- «لا. يُمكنني أن أقرأ الكُتب، لكن... على المِمايستر أن يكون مُعالجًا أيضًا، والدَّدم يُصيبني بالدُّوار»، ورفعَ سام يدًا مرتعدةً لچون مضيفًا: «أنا سام الخائف لا سام القاتِل».

- «خائف؟ مِمَّ؟ توبيخ بضعة رجالٍ مسنِّين؟ سام، أنت رأيت الجُثث الحيَّة تجتاح (القبضة)، رأيت طوفانًا من الموتى الأحياء بأيدٍ سوداء وأعيُن زرقاء لامعة. لقد قتلت واحدًا من (الآخَرين)».

- «قتلَه زُززُزجاج التنِّين وليس أنا».

- «صمتًا. لقد كذبت وتحايَلت وتآمَرت لتجعلني القائد، ستُطيعني إذن. ستذهب إلى (القلعة) وتُكوِّن سلسلةً، وإذا كان عليك أن تُشرِّح الجُثث فليكن. على الأقل لن تعترض الجُثث في (البلدة القديمة)».

إنه لا يفهم. «سيّدي، إن أأأأبي، اللورد راندل، إنه، إنه، إنه، إنه، إنه... حياة المِايستر حياة خدمة». يعلم سام أنه يتكلّم الآن كأنه يهذي، لكنه تابَع: «لا أحد من أبناء عائلة تارلي يضع سلسلةً حول عُنقه أبدًا. رجال (هورن هيل) لا ينحنون للوردات الأدنى ويُعظّمونهم». *إذا كنت تُريد سلسلة فتعالَ معي*. «چون، لا أستطيعُ أن أعصي أبي».

قال سام: «چون»، لكن چون لم يَعُد هناك، ومن يُواجِهه الآن هو اللورد سنو بعينيه الرّماديّتين وصلابته الجليديّة. وقد قال اللورد سنو: «أنت لا أب لك، بل إخوة فقط، نحن فقط. إن حياتك تنتمي إلى حَرس اللّيل، فاذهب واحشر ثيابك الدّاخليّة في جوالٍ ومعها كلّ شيءٍ آخر تُريد أن تأخذه إلى (البلدة القديمة). ستُغادِر قبل ساعةٍ من الشُّروق. وهاك أمر آخَر: من اليوم فصاعدًا لن تنعت نفسك بالجُبن. لقد واجهت في العام المنصرم أشياء أكثر مما يرى معظم النّاس في حياتهم كلّها. يُمكنك أن تُواجِه (القلعة)، لكنك ستُواجِهها باعتبارك أخًا محلّفًا في حَرس اللّيل. لا أستطيعُ أن آمرك بأن تكون شُجاعًا، لكني أستطيعُ أن آمرك بأن تُخفي مخاوفك. لقد حلفت اليمين يا سام، أتذكُر؟».

أنا السّيف في الظُّلمات. لكنه أخرق تمامًا في استعمال السّيف، والظُّلمة تُخيفه. «سـ... سأحاولُ».

- «لن تُحاوِل، وإنما ستُطيع».

خفقَ غُداف مورمونت بجناحيه الأسودين الكبيرين مردِّدًا: «تُطيع!».

- «كما يأمر سيِّدي. هل... هل يعرف المِايستر إيمون؟».

قال جون: «إنها فكرته قدر ما هي فكرتي»، وفتحَ له الباب مردفًا: «لا وداع. كلّما قَلّ عدد من يعلمون بالأمر كان أفضل. ساعة قبل طلوع الفَجر في ساحة الأشنة[24]».

لا يَذكُر سام أنه غادرَ مستودَع السِّلاح، وإذا به يمشي متعثِّرًا في الأوحال وزقع الثّلج القديم إلى مسكن المِايستر إيمون. قال لنفسه: *يُمكنني أن أختبئ، يُمكنني أن أختبئ في الأقبية وسط الكُتب، يُمكنني أن أعيش هناك مع الفأر وأتسلّل إلى السّطح ليلًا لأسرق الطّعام.* يعلم أنها خواطر جنونيّة، عديمة الجدوى قدر ما هي يائسة. ستكون الأقبية أول مكانٍ يبحثون عنه فيه، أمّا آخِر مكانٍ يبحثون عنه فيه فوراء (الجِدار)، لكن هذا خاطر أكثر جنونًا. *ربما يقبض عليّ الهَمج ويَقتُلونني ببطء، ربما يُحرِقونني حيًا كما تنوي المرأة الحمراء أن تُحرِق مانس رايدر.*

حين وجدَ المِايستر إيمون في المِغدفة[25] أعطاه رسالة جون واندفعَ يبوح بمخاوفه بكلماتٍ مرتبكةٍ صاخبة وهو يَشعُر بالغثيان: «إنه لا يفهم! إذا وضعتْ سلسلةً فإن السيِّد ووووالدي سـ... سـ... سوف...».

قال الشّيخ: «أبي أيضًا أبدى الاحتجاج نفسه حين اخترتُ حياة الخدمة، وكان أبوه هو من أرسلَني إلى (القلعة). لقد أنجبَ الملك دايرون أربعة أبناء، وثلاثة منهم أنجبوا أبناءً. يوم ودّعوني سمعتُ جلالته يقول للسيّد والدي: *التّنانين الأكثر من اللّازم خطرة كالتّنانين الأقل من اللّازم*»، ورفعَ إيمون يدًا مبقّعةً إلى سلسلته ذات المعادن العديدة التي تتدلّى مرتخيةً حول رقبته الرّفيعة، وأضافَ: «السّلسلة ثقيلة يا سام، لكن جدّي كان محقًّا، وكذا اللورد سنو».

تمتمَ أحد الغِدفان: «*سنو!*»، وردّد آخر: «*سنو!*»، ثم استشرى الصّياح بين بقيّة الطّيور التي راحت تُرَدّد: «*سنو، سنو، سنو، سنو، سنو!*». سام هو من علّمها هذه الكلمة. أدركَ أنه لن يجد مساعَدةً هنا، فالمِايستر إيمون مغلوب على أمره مِثله تمامًا، وفكّر بيأس: *سيموت في البحر. إنه أكثر عجزًا من أن يحتمل رحلةً كتلك. وقد يموت ابن جيلي أيضًا. الصّبي ليس كبيرًا وقويًا كابن دالا. هل يُريد جون أن يَقتلنا جميعًا؟*

في الصّباح التّالي وجدَ نفسه يضع السّرج على الفَرس التي ركبَها من (هورن هيل) ويقودها إلى ساحة الأشنة على الطّريق الشّرقي، وقد انتفخَ جرابا السّرج بالجُبن والشّجق والبيض المسلوق، بالإضافة إلى نِصف فخذٍ مملّحة من لحم الخنزير أهداه له هوب ذو الثّلاثة أصابع يوم ميلاده، وقال له الطّاهي: «أنت رجل يُقدّر الطّهو حَقَّ قدره أيها القاتِل. نحن محتاجون إلى المزيد من أمثالك». سيُساعِدهم اللّحم لا ريب، فبين هنا و(القلعة الشّرقيّة) طريق بارد طويل، وليست هناك بلدات أو خانات في ظِلّ (الجِدار).

كانت السّاعة السّابقة للفَجر مظلمةً ساكنةً، وعلى (القلعة السّوداء) خيّم صمت عجيب. في ساحة الأشنة انتظرَته عربتان بعجلتين، ومعهما چاك بولوار الأسود ودستة من الجوّالة المخضرمين الأصلاب كخيولهم. أطلقَ كِدج ذو العين البيضاء سبابًا عاليًا عندما أبصرَ سام بعينه السّليمة، فقال له چاك الأسود: «دَعك منه أيها القاتِل. لقد خسرَ رهانًا، قال إنه سيكون علينا أن نجرّك صارخًا من تحت فِراشٍ ما».

لأن المِايستر إيمون أوهن من أن يركب حصانًا، فقد جُهِّزَت له عربة وكُوِّمَت عليها الأغطية الفرو، وثُبِّتَت فوقها مظلّة جِلد لتقيه من المطر والثّلج. ستركب جيلي وطفلها مع المِايستر، أمّا العربة الثّانية فتحمل ثيابهم وأغراضهم، بالإضافة إلى صندوقٍ من الكُتب القديمة النّادرة التي خطرَ لإيمون أن (القلعة) قد تفتقر إليها، وكان سام قد أمضى نِصف اللّيل بحثًا عنها، وإن لم يعثر إلّا على كتابٍ واحدٍ من كلّ أربعة. *لا بأس، وإلّا كنا سنحتاج إلى عربةٍ أخرى*.

عندما ظهرَ المِايستر كان متدثّرًا بفروة ذئبٍ تفوقه حجمًا ثلاث مرّات، وإذ قاده كلايداس إلى العربة هبّت الرّيح بقوّةٍ جعلَت الرّجل الهَرِم يترنّح، فهرعَ إليه سام وطوّقه بذراعه. *هبّة أخرى كهذه كفيلة بأن تُطَيِّره فوق (الجِدار)*. «أمسِك ذراعي أيها المِايستر. العربة ليست بعيدةً».

أومأ الرّجل الكفيف برأسه بينما أزاحَت الرّيح قلنسوته عن رأسه، وقال: «الطّقس دافئ دومًا في (البلدة القديمة). ثمّة خان مُقام على جزيرةٍ في (نهر الهِتع) اعتدتُ الذّهاب إليه وأنا مبتدئ شاب. سيكون جميلًا أن أجلس هناك ثانيةً وأشرب خمر الثّفّاح».

لدى وضعهم المِايستر على العربة كانت جيلي قد ظهرَت بدورها حاملةً الرّضيع بين ذراعيها، وتحت قلنسوتها بدَت عيناها حمراوين من البُكاء. في الوقت نفسه وصلَ چون ومعه إد الكئيب، فناداه المِايستر إيمون قائلًا: «لورد سنو، لقد تركتُ لك كتابًا في مسكنك، (خُلاصة اليَشب) الذي كتبَه المُغامر الڤولانتيني كولوكو ڤوتار، الذي سافرَ إلى الشَّرق وزارَ جميع أراضي (بحر اليَشب). هناك فقرة قد تُثير اهتمامك، قلتُ لكلايداس أن يُعَلِّمها لك».

ردَّ چون سنو: «سأحرِص على قراءتها».

سالَ خيط من المخاط الشّاحب من أنف المِايستر إيمون، فمسحَه بظَهر قُفّازه، وقال: «المعرفة سلاح يا چون، فسلِّح نفسك جيدًا قبل أن تخوض المعركة».

- «سأفعلُ». كان ثلج خفيف قد بدأ يَسقُط، تنزل نُدفاته الكبيرة النّاعمة بكسلٍ من السّماء، فالتفتَ چون إلى چاك بولوار الأسود قائلًا له: «أسرِعوا قدر الإمكان، لكن لا داعي للمُخاطرات الحمقاء. إن معكم رجلًا عجوزًا وطفلًا رضيعًا. احرِص على دفئهم وإطعامهم جيدًا».

قالت جيلي: «افعل المِثل يا سيِّدي، افعل المِثل مع الآخَر، اعثُر له على مُرضِعةٍ كما قلت، لقد وعدتني بأنك ستفعل. الصّبي... صبيّ دالا... أعني الأمير الصّغير... اعثُر له على امرأةٍ صالحة ليَكبُر قويًّا».

قال چون سنو برصانة: «لكِ كلمتي».

- «إياكم أن تُسَمُّوه، لا تفعلوا هذا قبل أن يتجاوَز العامين. تسميتهم وهُم ما زالوا يرضعون طالع سيِّئ. ربما لا تعرفون هذا أيها الغِربان، لكنه صحيح».

- «كما تأمرين يا سيِّدتي».

اشتعلَ وجه جيلي غضبًا، وصاحت: «لا تُنادِني بهذا. أنا أمّ ولستُ سيِّدة أحد. أنا زوجة كراستر وابنته، وأُم».

أخذَ إد الكئيب الطِّفل فيما صعدَت جيلي إلى العربة وغطَّت ساقيها بالجلود الزَّنخة، وعندئذٍ كانت سماء الشَّرق قد صارَت رماديَّةً أكثر من سوداء، وأبدى ليو الأعسر استعجاله الرَّحيل. ناولَ إد الطِّفل لجيلي فألقمَته ثديها، وفكَّر سام وهو يمتطي فَرسه: *ربما تكون هذه آخِر مرَّةٍ أرى (القلعة السَّوداء)*. قدر ما كان يكره (القلعة السَّوداء) ذات يومٍ فإن فؤاده يتمزَّق الآن لتركها.

قال بولوار آمرًا: «هيا بنا»، وطرقعَ سوطٌ وبدأت العربتان تتحرَّكان بتؤدةٍ على الطَّريق المحفَّر بينما نزلَت الثُّلوج حولهم.

ظَلَّ سام إلى جوار كلايداس وإد الكئيب وچون سنو ليقول: «حسنٌ، وداعًا».

ردَّ إد الكئيب: «ووداعًا لك يا سام. لا أظنُّ أن سفينتك ستغرق. الشفن لا تغرق إلَّا عندما أكونُ على متنها».

قال جون وهو يُراقِب العربتين: «أول مرّةٍ رأيث جيلي كان ظَهرها ملتصقًا بجِدار (قلعة كراستر)، تلك الفتاة النّحيلة ذات الشّعر الدّاكن والبطن المنتفخ، منكمشة رُعبًا من جوست. كان قد افترسَ أرانبها، وأظنّ أنها خافَت أن يُمزّق بطنها ويلتهم جنينها... ولكن الذّئب لم يكن ما عليها أن تخافه، أليس كذلك؟».

فكّر سام: *نعم. كراستر كان الخطر، أبوها*. «إنها تمتلك شَجاعةً أكثر مما تحسب».

قال جون: «وكذلك أنا يا سام. رحلةً سريعةً آمنةً، واعتنِ بها وبإيمون والطّفل»، وارتسمَت على شفتيه ابتسامة غريبة حزينة وهو يُضيف: «وارفع قلنسوتك. نُدف الثّلج تذوب في شَعرك».

---

(23) القنطور مخلوق أسطوري نِصفه الشفلي حصان والعلوي إنسان. (المترجم).

(24) الأشنة كائنات تعايشيّة تتكوّن من ترافُق بين الطّحالب الخضراء أو الجراثيم الزّرقاء والفطريّات، وتنمو على الأبنية القديمة والقبور، ولذا يُطلَق على ساحات المقابر هذا الاسم. (المترجم).

(25) المغدفة عبارة عن قفص كبير بمثابة عُش لطيور الغُداف. (المترجم).

خافتًا بعيدًا اتّقد الضّوء الواطئ في الأُفق، يتلألأ متخلّلًا ضباب البحر.

قالت آريا: «يبدو كنجمة».

فقال دينيو: «نجمة الوطن».

كان أبوه يزعق ملقيًا الأوامر، والبحّارة يتحرّكون صاعدين ونازلين الصّواري الطّويلة الثّلاثة ويشدّون الحبال ليطووا الأشرعة الأرجوانيّة الثّقيلة، وفي الأسفل يكدح المجذّفون على صفّي المجاذيف الكبيرين، فمالَت الأسطح مصدرةً صريرًا مع ميل القاليون[26] (ابنة المارد) إلى الميمنة توطئةً لتعديل اتّجاهه.

نجمة *الوطن*. وقفَت آريا عند المقدّمة مريحةً يدها على التّمثال المذهّب الذي يتّخذ شكل فتاةٍ تحمل وعاء فاكهة، وتركَت نفسها تتظاهَر لأقلّ من لحظةٍ بأن القابع أمامهم وطنها هي.

لكن هذا سُخف. وطنها ضاعَ، وأبواها ماتا، وإخوتها قُتِلوا جميعًا باستثناء چون سنو على (الجِدار)، وهو المكان الذي أرادَت أن تذهب إليه، وهذا ما قالته للزُّبّان، لكن حتى العُملة الحديد لم تُقنِعه. يبدو أن آريا تعجز دائمًا عن بلوغ الأماكن التي تُريد الذَّهاب إليها. لقد أقسمَ يورن على أن يُوَصِّلها إلى (وينترفل)، وانتهى بها المطاف في (هارنهال) وبيورن في قبره، وحين هربَت من (هارنهال) ساعيةً إلى (ريڤررَن) أسرَها ليم وآنجاي وتوم أبو السَّبعات وجرُّوها إلى التَّلِّ الأجوف، ثم اختطفَها كلب الصَّيد وجرَّها إلى (التَّوأمتين)، قبل أن تتركه يُحتضَر عند النَّهر وتتَّجه إلى (الملّاحات) آملةً أن تستقلَّ سفينةً إلى قلعة حَرس اللَّيل الشَّرقيَّة على البحر، ولكن...

ربما لا تكون (براڤوس) بذلك السُّوء. سيريو كان من (براڤوس)، وقد أجدُ چاكِن هناك أيضًا. چاكِن هو من أعطاها العُملة الحديد. لم يكن صديقها حقًّا مِثل سيريو، ولكن بِمَ نفعها الأصدقاء من قبل على كلِّ حال؟ *لستُ في حاجةٍ إلى أصدقاء ما دامَت إبرتي معي.* مسَّت قبيعة السَّيف الملساء بغُقلة إبهامها وهي تتمنَّى أن... تتمنَّى أن...

الحقيقة أن آريا لا تدري ماذا تتمنّى، تمامًا مِثلما لا تدري ما ينتظرها هناك تحت ذلك الضّوء البعيد. لقد سمحَ لها الرُّبّان بركوب السّفينة، لكنه لم يملك وقتًا للكلام معها، كما أن عددًا من أفراد الطّاقم تجنّبها، وإن كان بعضهم قد أعطاها هدايا، منها شوكة فضّة وقُفّازان بلا أصابع وقبّعة عريضة من الصّوف المرقّع بالجِلد، وأراها أحد الرّجال كيف تعمل العُقد الشّراعيّة، وصَبّ لها آخَر فناجين صغيرةً من النّبيذ النّاري. الودودون منهم يَنقُرون على صدورهم مردّدين أسماءهم مرارًا وتكرارًا إلى أن تردّ بها آريا، ولو أن أحدًا لم يسألها عن اسمها هي، وبدلًا من هذا يُسَمّونها «مِلحة»، بما أنها ركبَت معهم من (الملّاحات) قُرب مصبّ (الثّالوث)، وعلى ما تظنّ فلا فرق بينه وبين أيّ اسمٍ آخَر.

اختفى آخِر نجوم اللّيل... كلُّها باستثناء الاثنتين الثّابتتين أمامهم مباشرةً، فقالت: «إنهما نجمتان الآن».

قال دينيو: «عينان. (المارد) يرانا».

المارد البراڤوسي. في (وينترفل) حكَت لهم العجوز نان عن (المارد)، وكيف أنه عملاق يُناهِز الجبال طولًا، ومتى حاقَ الخطر بـ(براڤوس) تدبُّ فيه الحياة وتشتعل عيناه نارًا، وتصرُّ أطرافه الصَّخريّة وتُطَقطِق إذ يخوض في البحر ليسحق الأعداء. «البراڤوسيُّون يُطعِمونه لحم بنات علية القوم الطّازج الغَضّ». بهذه العبارة كانت نان تختتم حكايتها، فتُصدِر سانزا صريرًا خائفًا سخيفًا، لكن المِايستر لوين قال إن (المارد) مجرّد تمثال، وقصص العجوز نان ما هي إلّا قصص.

حدّثت آريا نفسها مذكّرةً: (وينترفل) *احترقَت وسقطَت*. وغالبًا مات المِايستر لوين والعجوز نان، وسانزا أيضًا، ولن ينفعها أن تُفكِّر فيهم. *كلُّ البشر يُدرِكهم الموت*. هذا ما تعنيه الكلمتان، الكلمتان اللتان علّمها چاكن إياهما عندما أعطاها العُملة الحديد البالية. منذ رحلوا من (الملّاحات) تعلّمت المزيد من الكلمات البراڤوسيّة أيضًا، مرادفات «من فضلك» و«شكرًا» و«البحر» و«النُّجوم» و«النّبيذ النّاري»، لكنها أتَتهم عالمةً أن كلّ البشر يُدرِكهم الموت. معظم طاقم (ابنة المارد) يعرف كلماتٍ متناثرة من اللُّغة العاميّة لقضائهم ليالي وليالي على البَرّ في (البلدة القديمة) و(كينجز لاندنج) و(بِركة العذارى)، وإن كان الرُّبّان وأبناؤه يُجيدانها بما يكفي للكلام مع آريا. دينيو أصغر الأبناء، غلام ممتلئ بشوش في الثّانية عشرة، يُعنى بقمرة أبيه ويُساعِد أخاه الأكبر في الحساب.

قالت له آريا: «آملُ أن (المارد) ليس جائعًا».

ردّد حائرًا: «ليس جائعًا؟».

- «لا عليك». حتى لو كان (المارد) يأكل لحم البنات الطّازج الغَضّ حقًّا، فآريا لا تخافه. إنها مخلوقة هزيلة، ليست وجبةً تُصلُح لعملاق، وعلى وشك بلوغ الحادية عشرة من العُمر، أي أنها -عمليًّا- امرأة ناضجة. ثم إن مِلحة ليست من بنات علية القوم. سألَت: «هل (المارد) إله (براڤوس) أم أنكم تَعبُدون الآلهة السّبعة؟».

يحبُّ ابن الرُّبان الكلام عن مدينته قدر ما يحبُّ الكلام عن سفينة أبيه تقريبًا، وقد قال لها: «كلُّ الآلهة مكرَّمون في (براڤوس). سبعتكِ لهم سِبت هنا، (سِبت ما وراء البحر)، لكن البحّارة الوستروسيِّين وحدهم يتعبَّدون هناك».

ليسوا سبعتي. لقد كانوا آلهة أمّي، ومع ذلك تركوا آل فراي يغتالونها في (التّوأمتين). تساءلَت إن كانت ستجد في (براڤوس) أيكة آلهةٍ في قلبها شجرة ويروود. ربما يعرف دينيو، لكنها لا تستطيع أن تسأله. مِلحة أتَت من (الملّاحات)، وما الذي تعرفه فتاة من (الملّاحات) عن آلهة الشّمال القديمة؟ قالت لنفسها: *الآلهة القديمة ماتت، ماتت مع أمّي وأبي وروب وبران وريكون، الموت أخذ الجميع.* تَذكُر أنها سمعت منذ زمنٍ طويل أباها يقول إنه عندما تهبُّ الرّيح الباردة يَنفُق الذّئب الوحيد وينجو القطيع. *لم يعرف أن العكس هو الصّحيح.* آريا، الذّئبة الوحيدة، لم تزل حيّةً، لكن ذئاب القطيع صيدَت وقُتِلَت وسُلِخَت.

قال دينيو: «شُداة القمر قادونا إلى هذا الملاذ، حيث لم تستطِع تنانين (ڤاليريا) العثور علينا. معبدهم أعظم المعابد في المدينة. إننا نُبجِّل أبا المياه كذلك، لكن داره تُبنى من جديدٍ كلّما اتّخذ لنفسه عروسًا جديدةً، وبقيّة الآلهة تستوطن جزيرةً في منتصَف المدينة معًا. هناك ستجدين الـ... الإله عديد الوجوه».

ازدادَ الألَق في عينَي (المارد) وبدَتا أكثر تباعُدًا الآن.

لا تعرف آريا أيّ إلهٍ عديد الوجود، لكن إذا كان يُجيب الدُّعاء فربما يكون الإله الذي تبحث عنه. *السير جريجور، دانسن، راف المعسول، السير إلين، السير مرين، الملكة سرسي. ستّة فقط الآن.* چوفري ماتَ، وكلب الصّيد فتكَ بپوليڤر، وآريا طعنَت المُدغدِغ بنفسها بالإضافة إلى المُرافق الأحمر ذي البثور. *لم أكن لأقتله إذا لم يضع يده عليّ.* وكلب الصّيد كان يلفظ أنفاسه القليلة الأخيرة حين تركَته على ضفاف (الثّالوث)، تحرقه الحُمّى التي سبّبها جرحه. *كان يَجدُر بي أن أعطيه هديّة الرّحمة وأغرس سكّيني في قلبه.*

أخذَها دينيو من ذراعها ودوّرها صائحًا: «مِلحة، انظُري! هل ترين؟»، وأضافَ مشيرًا: «هناك».

انجابَ الضّباب أمامهم كستائر رماديّة مهترئة تشقُّها مقدّمة السّفينة، وشقّت (ابنة المارد) عباب المياه الخضراء الرّماديّة محلّقةً بأجنحةٍ أرجوانيّة منفوشة، وسمعَت آريا صياح طيور البحر من فوقهم. هناك، حيث أشارَ دينيو، يرتفع صَفٌّ من الجروف الحجريّة فجأةً من البحر، تُغطّي منحدَراتها الشّاهقة أشجار الصّنوبر الجُندي والتّنّوب الأسود، لكن أمامهم مباشرةً خرقَ البحر ثغرةً في الصّخر، وفوق الماء يقف (المارد) بعينين متّقدتين وشَعرٍ أسود طويل يُرَفرِف في الرّيح.

ساقاه مفتوحتان فوق الثّغرة، وقدماه مزروعتان على الجبلين على جانبيه، وترتفع كتفاه عن القمم المحزّزة. قدماه منحوتتان من الحجر المصمت، من الجرانيت الأسود نفسه كالجبلين البحريّين اللذين يقف عليهما، وإن كان يرتدي حول وَركيه تنُورةً مدرّعةً من البرونز المخضر، وواقي صدره من البرونز أيضًا، وكذا رأسه في خوذته الصّغيرة ذات الرّيشة، أمّا شَعره المُرفرِف فمن حبال القنّب المصبوغة بالأخضر، وفي كهفَي عينيه تشتعل بؤرتا نارٍ عظيمتان. على القمّة اليُسرى تستريح يده وقد تكوّرت أصابعه حول كُتلةٍ من الحجر، ويده الأخرى مرفوعة في الهواء ممسكةً بمقبض سيف مكسور.

قالت آريا لنفسها وهُم لا يزالون بعيدين في البحر: *إنه أكبر من تمثال الملك بيلور في (كينجز لاندنج) قليلًا فقط*، لكن مع دنوّ القاليون من البُقعة التي تتكسّر فيها الأمواج على خطّ الجُروف تعاظمَ حجم (المارد). كانت تسمع أبا دينيو يرفع عقيرته العميقة بالأوامر، في حين بدأ الرّجال يشدّون الحبال لإنزال الأشرعة. *سنمرُّ من بين ساقَي (المارد)*. رأت آريا فتحات الرّماية في واقي الصّدر البرونزي الضّخم، والبُقع على ذراعَي التّمثال وكتفيه حيث تُعشّش طيور البحر، ورجعَت برأسها إلى الوراء قائلةً لنفسها: *بيلور المبارَك لا يَبلُغ طول رُكبتيه حتى. إنه يستطيع أن يخطو فوق أسوار (وينترفل) بكلّ بساطة*.

ثم أطلق (المارد) هديرًا عظيمًا.

صوته هائل مِثله، مزيج شنيع من الأنين والضرير، هادر لدرجة أنه طغى على صوت الرُّبّان وارتطام الأمواج بتلك الجُروف المكسوّة بالصّنوبر. في لحظةٍ واحدة حلّق ألف من طيور البحر، وانكمشَت آريا على نفسها إلى أن رأت دينيو يضحك وسمعَته يصيح: «إنه يُخطِر (التّرسانة) بوصولنا لا أكثر. لا داعي للخوف».

ردّت صائحةً: «لم أكن خائفةً. الصّوت عالٍ فقط».

الآن أصبحَت (ابنة المارد) في قبضة الرِّياح والموج، فساقاها بسُرعةٍ صوب المجرى، وبنعومةٍ تحرّك صفًّا مجاذيفها التي راحَت تضرب المياه مكوّنةً رغوةً بيضاء فيما سقطَ ظِلُّ (المارد) عليهم. بدا لحظةً أنهم سيرتطمون حتمًا بالأحجار تحت ساقيه، وقد ربضَت آريا عند المقدّمة مع دينيو متذوّقةً الملح الذي تركه الرّذاذ على وجهها. حنَت رأسها تمامًا إلى الوراء لترى رأس التّمثال، ومرّةً أخرى سمعَت العجوز نان تقول: «البراڤوسيُّون يُطعِمونه لحم بنات علية القوم الطّازج الغَضّ». لكنها ليست بنتًا صغيرةً، ولن يُخيفها تمثال سخيف!

وعلى الرغم من هذا أبقت يدها على إبرتها وهم يمرّون من بين ساقيه. رأت المزيد من فتحات الرّماية المصطفّة داخل الفخذين الحجريّتين العظيمتين، ولمّا لوت عنقها لتشاهد منصّة المراقبة أعلى الصّاري تمرّ وفوقها عشر ياردات كاملة من الفراغ، لمحت عددًا من المزاغل[27] تحت تنّورة (المارد) المدرّعة، ووجوهًا شاحبةً تُحدّق إليهم من فوق من وراء قضبان حديديّة.

ثم تجاوزوا التّمثال.

ارتفع الظّلّ وتراجعت الجُروف المكسوّة بالصّنوبر على الجانبين وهدأت الرّيح، ووجدوا أنفسهم يتحرّكون في هَوْرٍ[28] عظيم.

أمامهم يقف جبل بحري آخر، كُتلة من الصّخر تَبرُز من الماء كقبضةٍ شائكة تنتشر عليها كالشّعيرات المنتصبة المقاذيف والعرّادات[29] ونافثات اللّهب. «إنها ترسانة (براڤوس)»، قال دينيو بفخرٍ كأنه شيّدها بنفسه. «يستطيعون أن يبنوا قادسًا حربيًا هنا في يومٍ واحد». رأت آريا عشرات القوادس المربوطة إلى المراسي والقابعة على أرصفة الإنزال، وطلّت المقدّمات المطليّة لقوادس أخرى من عددٍ لا يُحصى من السّقائف الخشبيّة ككلاب صيدٍ في وجارها، رشيقة شرسة جائعة تنتظر أن يُدوّي بوق الصّيّاد ويستدعيها. حاولت أن تُحصيها لكنها وجدتها كثيرةً للغاية، وهناك المزيد من الأحواض والسّقائف والأرصفة حيث ينعطِف خطّ السّاحل مبتعدًا.

كان قادسان قد خرجا للقائهم منزلقين على الماء بخفّة اليعاسيب ومجاذيفهما الباهتة تُومِض في الضّوء. سمعت آريا الرّبّان يصيح لهما فيردّ رَبّاناهما الصّياح، لكنها لم تفهم الكلام. دوّى نفير قوي ومَرّ القادسان على جانبيهم على مقربةٍ شديدة جعلتها تسمع دقّات الطّبول المكتومة الآتية من داخل بدنيهما الأرجوانيّين، بوم بوم بوم بوم بوم بوم، كخفقان قلبٍ حي.

ثم أصبحَ القادسان وراءهم وكذا (التّرسانة)، وأمامهم امتدّت مساحة شاسعة من المياه الخضراء كالبازلاء، تترقرَق كلوحٍ من الزّجاج الملوّن، ومن قلبها البليل ترتفع المدينة نفسها، امتداد مترامي الأطراف من القباب والأبراج والجسور، رمادي وذهبي وأحمر. *تجزر (براڤوس) المنة في بحرها*.

لقد درّس لهم المِايستر لوين حقائق عن (براڤوس)، لكن آريا نسيت معظم ما قاله. إنها مدينة مسطّحة، وباستطاعتها أن ترى هذا حتى من بعيد، على عكس (كينجز لاندنج) القائمة فوق تلالها الثّلاثة العالية. التّلال الوحيدة هنا هي تلك التي بناها النّاس بالقرميد والجرانيت والبرونز والرّخام، وثمّة شيء آخر غائب أيضًا، وقد استغرقت آريا عدّة لحظات حتى أدركته. *المدينة بلا أسوار*. لكن حين ذكرَت هذا لدينيو ضحك منها، وقال: «أسوارنا من الخشب وملوّنة بالأرجواني. قوادسنا هي أسوارنا، ولسنا في حاجةٍ إلى سواها».

صَرَّ سطح السّفينة من ورائهما، والتفتت آريا لتجد أبا دينيو واقفًا فوقهما في معطفه الصّوف الأرجواني الطّويل. الزّبّان التّاجر ترنيسيو تيريس حليق الوجه ويحرص على العناية بشَعره الأشيب القصير وتشذيبه، ليصنع إطارًا حول وجهه المربّع الذي لوّحته الرّيح. كثيرًا ما رأته خلال الرّحلة يمزح مع أفراد طاقمه، لكن حين يتجهّم يفرّ منه الرّجال كما يفرّون من عاصفة، والآن كان متجهّمًا وهو يقول لآريا: «رحلتنا في نهايتها. سنتّجه إلى (المرفأ المربّع)، حيث سيصعد مأمورو جمارك أمير البحر إلى المتن لتفتيش مخازننا. سيقضون نِصف يومٍ في العمل كالمعتاد، لكن ليس هناك ما يدعو إلى انتظارك فروغهم. اجمعي حاجياتكِ، سأنزلُ قاربًا ليأخذك يوركو إلى البرّ».

عضّت آريا شفتها مفكّرةً: *البر*. لقد عبرَت (البحر الضيّق) كي تصل إلى هنا، لكن لو سألَها الزّبّان لقالت إنها تُريد البقاء على متن (ابنة المارد). مِلحة أصغر حجمًا من أن تعمل على مجذاف، وهي تعلم هذا الآن، غير أن بإمكانها أن تتعلّم كيف تجدل الحبال وتثني الأشرعة وتوجّه الدّفّة في البحار المالحة الفسيحة. في مرّةٍ أخذها دينيو إلى منصّة المراقبة بالأعلى فلم تشعر بأيّ خوف على الرغم من حجم سطح السّفينة الذي بدا ضئيلًا أسفلها. *أجيدُ الحساب أيضًا، وتنظيف القمرات وتنسيقها*.

لكن القاليون ليس في حاجةٍ إلى عامل نظافةٍ ثانٍ، ثم إن ما عليها إلّا أن تَنظُر إلى وجه الرُّبّان لترى رغبته الملحّة في الخلاص منها، وهكذا اكتفَت آريا بالإيماء، وقالت: «البِر»، مع أن البِرّ لا يعني إلّا الغُرباء.

مَسّ جبهته بإصبعين قائلًا: «ڤالار دوهايرِس. أرجو أن تتذكّري ترنيسيو تيريس والصّنيع الذي أسداكِ إياه».

ردّت بصوتٍ خفيض: «سأفعلُ».

وشدّت الرِّيح معطفها بإصرار الأشباح، وعلمت آريا أن وقت الرَّحيل حانَ.

قال الرُّبّان أن تجمع حاجياتها، لكن حاجياتها قليلة للغاية، ليست أكثر من الثّياب على جسدها وصُرّة النُّقود وهدايا الطّاقم والخنجر على وَركها الأيسر و(الإبرة) على الأيمن.

كان القارب جاهزًا قبلها، وجلسَ يوركو عند المجذافين بالفعل. هو أيضًا ابن الرُّبّان، لكنه أكبر من دينيو وأقلُّ وُدًا. فكّرت وهي تنزل لتنضمّ إليه: *لم أودّع دينيو*، وتساءلَت إن كانت سترى الغُلام ثانيةً. *كان عليّ أن أودّعه*.

تضاءلَت (ابنة المارد) وراءهما بينما تعاظمَت المدينة مع كلِّ ضربةٍ بمجذافَي يوركو، وبعيدًا إلى يمينها لاح أحد الموانئ بشبكته المعقَّدة من الأحواض والأرصفة المزدحمة عليها شفن صيد الحيتان كبيرة البطن الآتية من (إيبن) والشفن البجعيّة من (جُزر الصّيف) والقوادس الأكثر من أن تُحصيها الفتاة. إلى يسارها ميناء آخَر أبعد، وراء مساحةٍ غائصة من اليابسة ترتفع فيها سطوح المباني شِبه الغارقة فوق صفحة الماء. لم ترَ آريا كلَّ هذا العدد من المباني الكبيرة معًا في مكانٍ واحد. في (كينجز لاندنج) هناك (القلعة الحمراء) و(سِبت بيلور الكبير) و(جُب التنانين)، في حين يبدو أن (براقوس) تزخر بعشرات المعابد والأبراج والقصور التي تُعادِل تلك البنايات الثّلاث أو تفوقها حجمًا. فكَّرت بكآبة: *سأعودُ فأرًا من جديدٍ كما كنتُ في (هارنهال) قبل أن أهرب.*

من حيث يقف (المارد) بدَت المدينة كجزيرةٍ واحدة كبيرة، لكن إذ دنا بهما يوركو رأت أنها جُزر صغيرة عديدة متقاربة، تربط بينها الجسور الحجريّة المقنطَرة الممتدّة فوق قنواتٍ لا تُحصى. وراء الميناء أبصرَت شوارع منازلها من الأحجار الرّماديّة، متدانية لدرجة أن بعضها يميل على بعض، وقد بدَت غريبة المنظر في عينَي آريا بطوابقها التي تَبلُغ أربعةً أو خمسةً وبنائها الرّفيع للغاية وسطوحها المكسوّة بالقرميد والمدبَّبة كالقبّعات. لم تر قشًّا على الشطوح، ومن المنازل الخشبيّة التي تعرف مثيلها في (وستروس) رأت القليل. تبيّنت أن لا أشجار في المدينة. *(براقوس) كلُّها من الحجر، مدينة رماديّة في بحر أخضر.*

توجّه يوركو بهما شمال الميناء ودخلَ قناةً كبيرة يقود مجراها الأخضر الواسع إلى قلب المدينة. مرّا تحت قناطر جسرٍ حجريٍّ نُقشَت عليه عشرات من أشكال السّمك والسّرطان والحيتان، ثم ظهرَ أمامهم جسر ثانٍ منقوش بأشكال النّباتات المعترشة المورقة، وبَعده جسر ثالث يُحدّق إليهم من أعلى بألف عينٍ مرسومة. على جانبيهما تنفتح مداخل قنواتٍ أصغر، ومنها تتفرّع قنوات أصغر فأصغر. ورأت آريا أن بعض المنازل مبني فوق المياه محوّلًا القنوات إلى أنفاق بشكلٍ ما، وبين المنازل تتحرّك قوارب رفيعة على شكل أفاعٍ مائيّة برؤوسٍ ملوّنة وذيولٍ مرفوعة. تلك القوارب لا تتحرّك بالمجاذيف وإنما بالعِصيّ التي يدفعها رجال يقفون عند مؤخّرة كلّ قاربٍ في معاطف تتراوح ألونها بين الرّمادي والبنّي والأخضر الطُّحلبي الدّاكن. رأت أيضًا صنادل ضخمةً مسطّحة القيعان تتكدّس عليها عاليًا الأقفاص والبراميل ويدفع كلٌّ منها عشرون رجلًا بعِصيّهم، ومنازل عائمة أنيقة ذات مصابيح من الزُّجاج الملوّن وستائر من المخمل وتماثيل مقدّمةٍ نُحاسيّة. بعيدًا، فوق القنوات والمنازل في آنٍ واحد، يرتفع ما يُشبِه طريقًا ضخمًا من الحجر الرّمادي، تحمله ثلاثة صفوف من القناطر الصُّلبة التي تبتعد جنوبًا لتغيب في الضُّباب. فسألَت آريا يونكو مشيرةً: «ما هذا؟»، وأجابَها: «نهر المياه العذبة، يجلبها من البَرّ الرّئيس عبر السّهول الطّينيّة والمياه المالحة الضّحلة. مياه عذبة نقيّة للنّوافير».

حين نظرَت وراءها وجدَت أن الميناء والهَور قد غابا عن بصرها، وأمامها رأت صفًّا من التّماثيل الكبيرة الواقفة على ضفّتي القناة، تماثيل لرجالٍ وقورين من الحجر يرتدون ثيابًا طويلةً من البرونز لطّختها فضلات الطّيور البحريّة، يحمل بعضهم كُتبًا وبعضهم خناجر أو مطارق، ويُمسِك أحدهم نجمةً ذهبيّةً بيده المرفوعة، ويقلب آخَر إبريقًا حجريًا يتدفّق منه الماء في القناة بلا انقطاع. سألَت آريا: «أهؤلاء آلهة؟».

أجابَها يوركو: «أمراء بحر. (جزيرة الآلهة) أبعد قليلًا. هل ترينها؟ بَعد ستّة جسور على الضّفّة اليُمنى. هذا (معبد شداة القمر)».

كان أحد المعابد التي لمحَتها آريا من الهَور، كُتلة هائلة من الرُّخام الأبيض كالثّلج تعلوها قُبّة مفضّضة ضخمة، وتُظهِر نوافذه المصنوعة من الزُّجاج اللّبني أطوار القمر، وقد وقفَت فتاتان من المرمر على جانبَي بوّابته، كلتاهما طويلة كأمراء البحر ومعًا تدعمان عتبةً عُليا على شكل هلال.

ووراءه يقف معبد آخَر، صرح من الحجر الأحمر يبدو مهيبًا كأيّ قلعة، وعلى قمّة بُرجة المربّع العظيم تشتعل النّار في مستوقَدٍ حديدي عرضه عشرون قدمًا، بينما تتّقد ناران أصغر على جانبَي بابه النُّحاسي. قال لها يوركو: «الرُّهبان الحُمر يحبّون النّار. إله الضّياء ربُّهم، راهلور الأحمر».

/عرفَ. تذكّرت آريا ثوروس المايري بقطع الدُّروع القديمة التي يرتديها فوق ملابس بهتَت لدرجة أنه بدا كراهبٍ وردي لا أحمر، وعلى الرغم من ذلك أعادَت قُبلته اللورد بريك من الموت. شاهدَت بيت الإله الأحمر يمرُّ وهي تتساءَل إن كان بإمكان رُهبانه البراڤوسيِّين أن يفعلوا الشَّيء نفسه.

بَعده كان بناء ضخم من القرميد تنبت على جُدرانه الأشنة، وكانت آريا لتظنّه مخزنًا لولا أن يوركو قال: «هذا هو (الملاذ المقدّس)، حيث تُكرَّم الآلهة الصَّغيرة التي نسيَها العالم. ستسمعين النّاس يُسمّونه (جُحر الأرانب) أيضًا». بين جُدران (جُحر الأرانب) العالية المغطّاة بالأشنة تمضي قناة صغيرة، فوجّه يوركو القارب يمينًا ليمرّا من نفقٍ سرعان ما خرجا منه إلى الضّوء مجدّدًا، ورأت آريا على جانبيهما مزيدًا من المقامات، فقالت: «لم أكن أعلمُ أن هناك آلهةً بهذه الكثرة».

أصدرَ يوركو خوارًا، ودارا حول منعطفٍ ثم عبرا تحت جسرٍ آخَر، وعلى يسارهما ظهرَت هضبة صخريّة مدوَّرة يستقرُّ على قمّتها معبد من الحجر الرَّمادي القاتم يخلو من النّوافذ، وتقود درجات حجريّة من بابه إلى مرسى مغطًّى.

سحبَ يوركو المجذافين ليرتطم القارب برفقٍ بالدّعائم الحجريّة، ومَدَّ يده يُطبِق على حلقةِ حديد مثبّتة لإبقائهم في مكانهم، وقال لها: «هنا أتركُكِ».

رأت آريا المرسى مظلّلًا والسّلالم عاليةً، وسقف المعبد المبني بالقرميد الأسود يرتفع في قمّةٍ حادّة كالمنازل المطلّة على القنوات، ومضغَت شفتها مفكّرةً: *سيريو أتى من (براقوس). ربما زارَ هذا المعبد، ربما تسلّق هذه الدّرجات*، ثم أمسكَت حلقةً ودفعَت نفسها إلى المرسى.

قال يوركو من القارب: «تعرفين اسمي».

- «يوركو تيريس».

قال: «ڤالار دوهايرِس»، ودفعَ القارب بمجذافٍ وعادَ يَمخُر المياه العميقة، وشاهدَته آريا يعود أدراجه إلى أن غابَ في ظِلّ الجسر، وإذ تلاشى صوت المجذافين خُيّلَ لها أنها تسمع نبض قلبها. فجأةً أضحَت في مكانٍ آخَر... في (هارنهال) مع جندري ربما، أو مع كلب الصّيد في الغابة على ضفاف (الثّالوث). قالت لنفسها: *مِلحة طفلة حمقاء. أنا ذئبة، ولن أخاف*، وربّتت على مقبض إبرتها طلبًا للحظّ واندفعَت وسط الظّلال صاعدةً السّلالم درجتين درجتين كي لا يقول أحد أبدًا إنها خائفة.

عند القمّة وجدَت بابًا بمصراعين خشبيّين يرتفعان اثني عشر قدمًا، الأيسر من خشب الويروود الشّاحب كالعظام، والأيمن من الأبنوس اللّامع، وفي منتصَفهما نُقِش وجه مستدير كالقمر، أبنوس على جانب الويروود وويروود على جانب الأبنوس. ذكَّرها شكله بعض الشّيء بشجرة القلوب في أيكة الآلهة في (وينترفل)، وفكَّرت: *الباب يُراقِبني*. دفعَت المصراعين في آنٍ واحدٍ براحتَي يديها المقفَّزتين لكنهما لم يتزحزَحا. *موصَدان ومزلَجان*. قالت للباب: «أدخِلني أيها الأحمق. لقد عبرتُ (البحر الضيِّق)»، وكوَّرت قبضتها ودقَّت مواصلةً: «جاكِن قال لي أن آتي. معي عُملة حديد»، وأخرجَتها من كيسها ورفعَتها مضيفةً: «أترى؟ ڤالار مورجولِس».

ولم يُجِر الباب جوابًا إلّا بالانفتاح.

انفتحَ المصراعان إلى الدّاخل بصمتٍ تام دون أن تُحَرِّكهما يد إنسان، وتقدّمت آريا خُطوةً ثم أخرى، قبل أن ينغلق الباب وراءها لتمضي لحظة وقد كَفَّ بصرها، ووجدَت إبرتها في يدها وإن كانت لا تَذكُر أنها استلَّتها.

كانت شموع قليلة مشتعلةً عند الجُدران، لكن ضوءها خافت للغاية حتى إن آريا لا ترى قدميها، وتناهى إلى مسامعها همس أحدهم بخفوتٍ شديد فلم تُمَيِّز الكلام. سمعَت أيضًا بُكاء شخصٍ غيره، وخُطواتٍ خفيفة لقدمين يحتكّ نعلاهما الجِلد بالأرض الحجريّة، وبابًا يُفتَح ويُغلَق. *وماء، أسمعُ خرير ماء أيضًا*.

ببُطءٍ تكيّفت عيناها مع العتمة، وبدا المعبد من الدّاخل أكبر كثيرًا مما بدا من الخارج. لسِپتات (وستروس) سبعة جوانب وفي كلٍّ منها سبعة مذابح للسّبعة آلهة، لكن الآلهة هنا أكثر من سبعة، تقف تماثيلها عند الجُدران عملاقةً متوعّدةً، وحول أقدامها يتذبذب ضوء الشُّموع الحمراء الخافت كالنُّجوم البعيدة. أقربها امرأة من المرمر طولها اثنا عشر قدمًا، ومن عينيها تنضح عبرات حقيقيّة لتملأ الوعاء الذي تحمله بين ذراعيها، ووراءها رجل له رأس أسدٍ جالس على عرشٍ من الأبنوس، وعلى جانب الباب الآخر يرفع جواد من البرونز والحديد قائمتيه الأماميّتين العظيمتين. على مسافةٍ أبعد ميّزت وجهًا حجريًّا كبيرًا، ورضيعًا شاحبًا في يده سيف، وكبشًا أسود أشعث بحجم ثورٍ بزّي، ورجلًا مغطّى الرّأس يتّكئ على عُكّاز، أمّا البقيّة فلاحت لها كمجرّد أشكالٍ غامضة شِبه مرئيّة في العتمة. بين الآلهة ثمّة فجوات في الجُدران تملأها الظّلال، وهنا وهناك شمعة موقّدة.

بصمت الظِّلال سارَت آريا بين صفَّين من الدّكك الحجريّة الطّويلة وسيفها في يدها، وقالت لها قدماها إن الأرضيّة من الحجر الخشن وليس الرّخام المصقول كما في (سِپت بيلور الكبير). مرّت ببضع نساء يتهامَسن وهي تحش بالهواء دافئًا ثقيلًا، ثقيلًا لدرجة أنها تثاءبَت، واشتمّت رائحة الشّموع أيضًا، وإن كانت غير مألوفةٍ لها، فقدّرت أنه نوع غريب من البَخور، لكن مع توغُّلها في المعبد أكثر بدَا كأن للشُّموع روائح الثّلج وإبر الصّنوبر واليخنة السّاخنة. قالت آريا لنفسها: *روائح طيِّبة*، وأحسّت بشَجاعةٍ أكبر بعض الشّيء، كفيلة بأن تجعلها تدسّ إبرتها في غِمدها.

في منتصَف المعبد وجدَت الماء الذي سمعَت خريره، بِركةً عرضها عشرة أقدام سوداء كالحبر مُضاءةً بالشّموع الحمراء شاحبة الضّوء، وإلى جوارها يجلس شابٌ في معطفٍ يميل لونه إلى الفضّي يبكي بصوتٍ خافت. شاهدَته يغمس يده في الماء صانعًا تموُّجاتٍ قرمزيّة على صفحة الماء، وحين سحبَها راح يمصّ أصابعه واحدًا تلو الآخر. *لا بُدّ أنه عطشان*. على حافة البِركة أكواب حجريّة، فملأت آريا أحدها وأخذَته إليه ليشرب، وحملقَ الشّاب إليها وهلةً طويلةً حين قدّمته له، قبل أن يقول: «ڤالار مورجولِس».

ردّت: «ڤالار دوهايرِس».

عَبّ الماء عبًا، ثم ترك الكوب يَسقُط في البِركة محدثًا صوتًا خفيفًا، ثم دفعَ نفسه إلى النُهوض مترنّحًا وقد وضعَ يده على بطنه، وحسبَت آريا لحظةً أنه سيقع. عندها فقط رأت البُقعة الدّاكنة تحت حزامه تتّسع، فاندفعَت تقول: «أنت مطعون»، لكن الشّاب لم ينتبِه لها، وتحرّك بلا ثباتٍ نحو الجِدار ودخلَ إحدى الفجوات ليتمدّد على سريرٍ من الحجر القاسي. تطلّعت آريا حولها فرأت مزيدًا من الفجوات، وفي بعضها ينام أناس مسنُّون.

ومن أعماق ذاكرتها سمعَت صوتًا كأنه يهمس في رأسها قائلًا: *لا، إنهم موتى، أو يموتون. انظُري بعينيكِ*.

ثم مسّت يد كتفها.

دارَت آريا مبتعدةً، لكنها لم تجد إلّا فتاةً صغيرةً شاحبةً في رداءٍ مزوّد بقلنسوة يكاد يبتلعها، أسود على اليمين وأبيض على اليسار، وتحت القلنسوة وجه ناحل مهزول وخدّان أجوفان وعينان داكنتان تبدوان كبيرتين كصحون الفناجين. قالت آريا للّقيطة محذّرةً: «لا تُمسكيني. لقد قتلتُ آخِر صبيٍّ أمسكَني»، ولمّا ردّت الفتاة بكلامٍ لم تفهمه هزّت رأسها وسألَتها: «ألا تعرفين اللّغة العاميّة؟».

قال صوت من ورائها: «أنا أعرفها».

لم تَرَق آريا الطّريقة التي يُباغِتونها بها. رأت رجلًا طويلًا تُخفي وجهه قلنسوة ردائه الذي يعدُّ نُسخةً أكبر من الذي ترتديه الفتاة، وتحت القلنسوة لا تلوح إلّا لمعة الشموع الحمراء الخافتة المنعكسة في عينيه. سألَته: «ما هذا المكان؟».

أجابَها بصوتٍ رفيق: «مكان للسّلام. أنتِ آمنة هنا. هذه هي (دار الأبيض والأسود) يا صغيرتي، وإن كنتِ أصغر من أن تَنشُدي هديّة الإله عديد الوجوه».

- «أهو كالإله الجنوبي ذي الوجوه السّبعة؟».

- «سبعة؟ لا. إن وجوهه لا تُحصى أيتها الصّغيرة، وجوه بعدد ما في السّماء من نجوم. في (براقوس) يتعبّد النّاس كما يشاؤون... لكن في نهاية كلّ طريق يقف هو ذو الوجوه العديدة منتظرًا. سيكون في انتظاركِ ذات يوم، لا تخافي، فلا تتعجّلي ضمّته».

- «لم آتِ إلّا لأجد جاكن هاجار».

- «لستُ أعرفُ هذا الاسم».

قالت وقد غاصَ قلبها بين قدميها: «إنه من (لوراث)، وشعره أبيض على جانب وأحمر على الآخر. قال إنه سيُعلّمني أسرارًا وأعطاني هذه». كانت تقبض على العُملة الحديد، وعندما فتحَت أصابعها ظلّت ملتصقةً بكفّها المبلّلة بالعَرق.

أمعنَ الكاهن النّظر إلى العُملة وإن لم يُحاوِل أن يلمسها، وتطلّعت إليها اللّقيطة ذات العينين الكبيرتين، وأخيرًا قال الرّجل ذو القلنسوة: «أخبِريني باسمكِ أيتها الصّغيرة».

- «مِلحة. جئتُ من (الملّاحات) على نهر (الثّالوث)».

على الرغم من أنها لا ترى وجهه فإنها بشكلٍ ما أحسّت به يبتسم وهو يقول: «لا. أخبِريني باسمكِ».

أجابَت هذه المرّة: «الكتكوت».

- «اسمكِ الحقيقي أيتها الصّغيرة».

- «أمّي سمّتني نان، لكنهم كانوا يدعونني ببنت عرس...».

- «اسمكِ».

ابتلعَت ريقها، وقالت: «آري، أنا آري».

- «اقتربتِ. والآن الحقيقة».

أخبرَت نفسها: *ضربة الخوف أمضى من السّيف*، ثم قالت: «آريا». في المرّة الأولى همسَت بالاسم، وفي الثّانية ألقته في وجهه: «أنا آريا سليلة عائلة ستارك».

قال: «أنتِ كذلك، لكن (دار الأبيض والأسود) ليست مكانًا لآريا سليلة عائلة ستارك».

- «أرجوك، ليس هناك مكان أذهب إليه».

- «هل تخافين الموت؟».

عضّت شفتها مجيبةً: «لا».

قال الكاهن: «لنرَ إذن»، وأنزلَ قلنسوته. تحتها لم يكن له وجه، وإنما جمجمة مصفرّة ما زالَت بعض زقع الجِلد متشبّثةً بوجنتيها، وثمّة دودة بيضاء تخرج متلوّيةً من أحد المحجرين الخاويَين، وبصوتٍ جافٍ مبحوح كخشخشة الموت همسَ الرّجل: «قبّليني أيتها الصّغيرة».

هل يُريد أن يُخيفني؟ قبّلته آريا حيث يُفترَض أن يكون أنفه، والتقطَت دودة القبور من عينه لتأكلها، لكنها تلاشَت كظِلّ في يدها.

وتلاشَت الجمجمة الصّفراء أيضًا، وأمام آريا كان وجه أطيب رجلٍ رأته في حياتها يبتسم لها قائلًا: «لم يُحاوِل أحد أن يأكل الدّودة من قبل. ألَأنتِ جائعة أيتها الصّغيرة؟».

أجابَت في أعماقها: *نعم، لكنه ليس جوعًا للطّعام*.

---

(26) القاليون سفينة أكبر من القادس، أشرعتها مربّعة وتُبحِر بصفّين أو ثلاثة من المجاذيف، وكانت تعدّ أكبر سفن الأسطول العثماني. (المترجم).

(27) المزغل كلمة فارسيّة الأصل بمعنى منفذ، وهو عبارة عن فتحة ضيّقة في جدار الحصن لإلقاء الحجارة والزّيت المغلي والقار وخلافه من أدوات الدّفاع. (المترجم).

(28) الهُور بُحيرة ضحلة تتّصل بمياه البحر وتُحيط بها اليابسة. (المترجم).

(29) العرّادة ضرب من المنجنيق تُقذَف به الأحجار والسّهام الكبيرة. (المترجم).

انهمرَ المطر البارد محيلًا لون أسوار القلعة ومتاريسها إلى حُمرةٍ قانية كالدّم، بينما أمسكَت الملكة الملك من يده وقادَته بحزمٍ عبر الشاحة الملوّثة بالأوحال إلى حيث ينتظر الهودج ومُرافقوه، لكن الصّبي قال معترضًا: «الخال چايمي قال إنه يُمكنني أن أركب حصاني وألقي البنسات للعامّة».

- «هل تُريد أن تُصاب بالبرد؟». لن تُجازِف بحدوث ذلك، فتومن لم يكن قويًا كچوفري قطُّ. «كان جدُّك ليُريد أن يليق مظهرك بالملوك حين تحضر تأبينه. لن نظهر في (السّبت الكبين) مبتلّين متّسخين». *سيّئ بما فيه الكفاية أن عليّ أن أرتدي ملابس الحِداد ثانيةً*. ليس الأسود باللّون البهيج عليها البتّة، ومع بشرتها البضّة يجعلها هي نفسها تبدو أقرب إلى جثّة. كانت سرسي قد استيقظَت قبل ساعةٍ من الفَجر لتستحمّ وتُصفّف شعرها، ولا تنوي أن تَترُك المطر يُفسِد جهودها.

داخل الهودج أسندَ تومن ظهره إلى وسائده وتطلّع إلى المطر السّاقط في الخارج قائلًا: «الآلهة تبكي جدّي. الليدي چوسلين تقول إن قطرات المطر دموعها».

- «چوسلين سويفت حمقاء. لو كانت الآلهة تبكي لبكَت أخاك. المطر هو المطر. أغلِق السّتارة قبل أن تُدخِل المزيد. هذا المعطف من فرو السّمُور، هل تُريده أن يبتلّ؟».

فعلَ تومن كما أمرَته، وإن أقلقَها خنوعه. المفترَض أن يكون الملك قويًا. *كان چوفري ليجادلني. إنه لم يكن سهل الإخضاع قَطُّ*. قالت لتومن: «لا تجلس متراخيًا هكذا، أعِد كتفيك إلى الوراء واضبط تاجك. هل تُريد أن يقع من فوق رأسك أمام جميع لورداتك؟».

قال الصّبي: «لا يا أمّاه»، واعتدلَ في جلسته ومَدَّ يده يضبط تاجه الذي اعتمرَه چوف من قبله، وإن كان كبيرًا على تومن. لطالما مالَ جسد ابنها إلى الامتلاء، غير أن وجهه يبدو أنحل الآن. *هل يأكل جيِّدًا؟* يجب أن تتذكَّر أن تسأل الوكيل. لن تُخاطِر بأن يمرض تومن، خصوصًا مع وجود مارسلا في أيدي الدورنيِّين. مع *الوقت سيكبر ويُناسِبه تاج چوف*. وحتى ذلك الحين فربما يحتاج إلى واحدٍ أصغر لا يُهدِّد بابتلاع رأسه. ستُفاتِح الصّاغة بالأمر.

شَقَّ الهودج طريقه البطيء نازلًا (تَل إجون العالي)، يتقدّمه رجلان من الحرس الملكي، فارسان أبيضان على حصانين أبيضين ومن أكتافهما يتدلَّى معطفان أبيضان تشبَّعا بالماء، وفي المؤخِّرة خمسون من حرس لانستر يرتدون الذّهبي والقرمزي.

اختلسَ تومن النّظر إلى الشّوارع الخالية من بين السّتائر، وقال: «حسبتُ أنه سيكون هناك ناس أكثر. حين ماتَ أبي خرجَ الجميع ليُشاهِدوا موكبنا».

- «المطر دفعَهم إلى الدُّخول». لم تحبّ (كينجز لاندنج) اللورد تايوين قَطّ. *لكنه لم يرغب في الحُبّ على كلّ حال*. ذات مرّةٍ سمعَته يقول لجايمي: «لا يُمكنك أن تأكل الحُب، أو تبتاع به حصانًا، أو تُدفئ به بيتك في ليلةٍ باردة». حينئذٍ لم يكن أخوها أكبر من تومن.

عند (سِپت بيلور الكبير)، ذلك البناء الرُّخامي المهيب على قمّة (تَل ڤيزينيا)، بدَت بوضوحٍ قلّة أعداد المعزّين مقارنةً بذوي المعاطف الذَّهبيّة الذين نشرَهم السير أدام ماربراند في السّاحة. قالت الملكة لنفسها بينما ساعدَها السير مرين ترانت على النّزول من الهودج: *سيظهر المزيد لاحقًا*. ليس مسموحًا إلّا للنّبلاء وحاشيتهم بحضور مراسم العزاء الصّباحيّة، على أن تُقام مراسم أخرى للعوام بَعد الظُّهر، ثم تُفتَح الصّلاة للجميع في المساء. على سرسي أن تعود لحضور الأخيرة كي يراها العامّة تندب الفقيد، فلا بُدّ أن يُنصَب للغوغاء العرض الذي ينتظرونه. *مسألة مزعجة*. إن عليها أن تجد من يشغل المناصب الشّاغرة وتربح الحرب وتَحكُم المملكة، وكان أبوها ليتفهّم هذا.

على قمّة الدّرج قابلَهما السّپتون الأعلى، رجل عجوز محنيّ الظّهر له لحية شائبة خفيفة، أثقلَ كاهله رداؤه المطرّز المنمّق لدرجة أن عينيه صارَتا في مستوى نهدَي سرسي... ولو أن تاجه بالغ الفخامة المصنوع من البلّور والذّهب المغزول أضاف إلى طوله قدمًا ونصفًا دفعةً واحدةً. اللورد تايوين هو من أعطاه هذا التّاج بدلًا من الآخر الذي ضاع حينما قتلَ الرّعاع السّپتون الأعلى السّابق. يومها سحبوا الأحمق البدين من هودجه ومزّقوه إربًا، اليوم نفسه الذي أبحرَت فيه مارسلا إلى (دورن). *الآخر كان نهِمًا سهل الانقياد، أمّا هذا*... تذكّرت سرسي بغتةً أن السّپتون الأعلى صنيعة تيريون، وأزعجَتها الفكرة كثيرًا.

بدَت يد العجوز المبقّعة أشبه بمخلب دجاجةٍ إذ مدّها من داخل كُمّه المحلّى بزخارف قشرة الذّهب والبلّورات الصّغيرة. ركعَت سرسي على الرُّخام المبتل وطلبَت من تومن أن يحذو حذوها سائلةً نفسها: *ما الذي يعرفه عني؟ بِمَ أخبرَه القزم؟* ابتسمَ السّپتون الأعلى وهو يقودهما إلى داخل السّپت، لكن أهي ابتسامة تهديد من عليم ببواطن الأمور أم مجرّد اختلاجةٍ بلهاء لشفتَي العجوز المتغضّنتين؟ ليست الملكة متأكّدةً من الجواب.

شقًّا طريقهما ويد تومن في يدها عبر (بهو القناديل) تحت كُرات الزُّجاج المطلي بالرّصاص الملوَّن، وقد ساز ترانت وكِتلبلاك على جانبيهما والماء يتقاطر من معطفيهما المبتلَّين ليُكوِّن بِركًا على الأرض، والسِّپتون الأعلى يتحرَّك ببُطءٍ متَّكئًا على عُكّازٍ من خشب الويرووود تُتوِّجه كُرة من البلَّور، وفي صُحبته سبعة من مجلس القانِتين يتألَّقون في ثيابهم المفضَّلة من قُماش الفضَّة. كان تومن يرتدي قُماش الذَّهب تحت معطف فرو السَّمُّور، والملكة فُستانًا قديمًا من المخمل الأسود الموشَّى بفرو القاقوم، فلم يكن هناك وقت لتفصيل واحدٍ جديد، ولا يُمكنها أن ترتدي الفُستان نفسه الذي حضرَت به جنازة چوفري أو الذي ذهبَت تدفن روبرت فيه.

على الأقل لن ينتظر مني أحد أن أرتدي ثياب الحِداد على تيريون. من أجله سأرتدي الحرير القرمزي وقُماش الذَّهب وأزيِّنُ شَعري بالياقوت. لقد أعلنَت أن مَن يأتيها برأس القزم سيُرفَع إلى مرتبة لورد مهما كان مولده وعمله وضيعًا، والآن تحمل الغِدفان وعدها إلى أرجاء (الممالك السَّبع) كلِّها، وقريبًا سيَعبُر الخبر (البحر الضيِّق) ويَبلُغ تسعة المُدن الحُرَّة وما وراءها من بلدان. *فليهرب العِفريت إلى أقاصي الأرض، فلن يفلت مني*.

مَرَّ الموكب الملكي من البّاب الدّاخلي إلى قلب (السّپت الكبير) الفسيح، وقطعَ ممشى واسعًا هو واحد من سبعةٍ تلتقي تحت القُبّة. إلى اليمين واليسار ركعَ المعزّون مع مرور الملك والملكة، وقد حضرَ كثيرون من حمَلة راية أبيها، بالإضافة إلى فُرسان قاتَلوا إلى جوار اللورد تايوين في معارك عدّة، فأكسبتها رؤيتهم مزيدًا من الثّقة. *لستُ بلا أصدقاء.*

تحت قبّة (السّپت الكبير) الشّامخة المصنوعة من الذّهب والبلّور كان جُثمان اللورد تايوين لانستر مسجّى فوق منصّةٍ مدرّجة من الرّخام، عند رأسها يقف چايمي مؤدّيًا شعيرة السّهر[30] وتُطوّق يده السّليمة مقبض سيف عظيم من الذّهب يستقرُّ رأسه على الأرض. المعطف ذو القلنسوة الذي يرتديه أبيض كالثّلج الطّازج، وحلقات سترته المعدنيّة الطّويلة من عِرق اللّؤلؤ المرصّع بالذّهب، وهو ما جعلَ سرسي تقول لنفسها: *كان اللورد تايوين ليُريده أن يرتدي الذّهبي والقرمزي كلانستر. لطالما أغضبَه أن يرى چايمي مرتديًا الأبيض.* كان أخوها قد بدأ يُطلِق لحيته من جديدٍ أيضًا، فغطّى الزّغب فكّه ووجنتيه مضفيًا عليه مظهرًا خشنًا فظًا. *كان يُمكنه أن ينتظر حتى يُدفَن زُفات أبينا تحت (الصّخرة) على الأقل.*

صعدَت سرسي بالملك ثلاث درجاتٍ قصيرة ليركعا إلى جوار الجُثمان، ولمّا رأت عينَي تومن ممتلئتين بالدُّموع مالَت عليه قائلةً: «ابكِ بصمت. أنت ملك لا طفل صارخ. لورداتك يُشاهِدونك»، فمسحَ الصَّبي دموعه بظَهر يده. إن له عينيها، عينين خضراوين كالزُّمرُّد وكبيرتين كعينَي چايمي حين كان في سِنّه. لطالما كان أخوها صبيًا جميل الطَّلعة... وإنما قوي أيضًا، قوي كچوفري، شبل ابن أسد. طوَّقت الملكة تومن بذراعها ولثمَت خُصلاته الذَّهبيّة مفكِّرةً: *سيحتاج إليّ كي أعلّمه كيف يَحكُم وأحميه من أعدائه*. ومنهم من يُحيطون بهما في هذه اللَّحظة، يتظاهَرون بأنهم أصدقاء.

كانت الأخوات الصّامتات قد ألبسن اللورد تايوين أفضل دروعه كأنما يستعدُّ لمعركةٍ أخيرة. هكذا ارتدى الفولاذ الثّقيل المطلي بالمينا القرمزي القاني والمحلّى بالزّخرفة الذّهبيّة على قُفّازيه وواقيَي ساقيه وواقي صدره، مع الأقراص الواقية ذات أشكال الشُّموس الذّهب المتفجّرة، وقد قبعت لبؤة ذهبيّة على كلّ كتف، واتّخذت ريشة الخوذة العظيمة الموضوعة إلى جوار رأسه شكل أسدٍ غزير اللّبدة، وعلى صدره استقرّ سيفه الطّويل في قِرابٍ مذهّب مرصّع بالياقوت، تُحيط يداه بمقبضه في قُفّازين من الحلقات المعدنيّة المذهّبة. *حتى في الموت يبدو وجهه نبيلًا، مع أن فمه*... كان زكنا شفتي أبيها منحنيين إلى أعلى على نحوٍ طفيف للغاية، لتبدو عليه سيماء الاستمتاع الغامض. *لا يُفترَض أن يبدو هكذا*. لامت پايسل الذي كان عليه أن يُخبِر الأخوات الصّامتات بأن اللورد تايوين لانستر لم يبتسم قطّ. *ذلك الرّجل عديم الفائدة كحلمتين على واقي الصّدر*. تلك الابتسامة الخافتة تجعل اللورد تايوين يبدو أقلّ مهابةً بشكلٍ ما، بالإضافة إلى حقيقة أن عينيه مغلقتان. دائمًا كانت عينا أبيها مثيرتين للتّوجّس، لونهما الأخضر الشّاحب يكاد يكون مضيئًا، وفيهما شذرات من الذّهب، وكانت نظراته تسبر أغوارك وترى كم أنت ضعيف تافه قبيح من الدّاخل. *كنت تعرف حين يَنظُر إليك أن نظراته تخترقك*.

بلا دعوةٍ استعادَت ذكرى المأدبة التي أقامَها الملك إيرس لدى مجيء سرسي إلى البلاط أول مرّة، فتاة خضراء كالعُشب في الصّيف. كان ميريويذر العجوز يُثرثِر عن زيادة الجمارك على الخمور عندما قال اللورد ريكر: «إذا كنا نحتاج إلى الذّهب فحريٌّ بجلالته أن يُجلِس اللورد تايوين على وعاء فضلاته». فدوّت ضحكات إيرس ومنافقيه، في حين حدّق أبوها إلى ريكر من فوق كأسه، وطويلًا بَعد خبوّ المرح ظلّت نظرته مسلّطةً على ريكر الذي أشاحَ بوجهه ثم عادَ يَنظُر في عينَي أبيها، قبل أن يتجاهَلهما ويشرب دورقًا من المِزر ويُغادِر بوجهٍ محتقن وقد هزمَته عينان لا تطرفان.

عينا اللورد تايوين هاتان انغلقَتا إلى الأبد. الآن ستُجفِلهم نظراتي أنا، وعليهم أن يخافوا عبوسي أنا. إنني أسد أيضًا.

مع تلبّد السّماء بالغيوم في الخارج كان الضّوء معتمًا داخل السِّبت، لكن إذا توقّفت الأمطار سيتدفّق نور الشّمس عبر البلّورات المعلّقة ليكسو الجُثمان بأقواس قزح، وسيِّد (كاسترلي روك) يستحقُّ أقواس قزح. لقد كان رجلًا عظيمًا. *لكني سأكونُ أعظم. بَعد ألف عامٍ من الآن، حين يُدَوّن المِايسترات وقائع زماننا هذا، لن يتذكّرك أحد إلّا باعتبارك والد الملكة سرسي.*

شدّ تومن كُمّها قائلًا: «أمّي، ما هذه الرّائحة؟».

قالت لنفسها: *رائحة السيّد والدي*، وقالت له: «الموت». هي أيضًا تشمُّها؛ رائحة تعفُّنٍ ضعيفة جعلَت أنفها يُريد أن يتقلّص، لكن سرسي لم تُعِرها اهتمامًا. كان السِّپتونات السَّبعة واقفين وراء النَّعش يتضرَّعون إلى (الأب في الأعالي) أن يَحكُم على اللورد تايوين بالعدل، وحين فرغوا اجتمعَت سبع وسبعون سِپتة أمام مذبح (الأُم) وشرعن يترنَّمن متوسّلاتٍ رحمتها. عندئذٍ كان تومن قد بدأ يتململ، وحتى الملكة نفسها بدأت رُكبتاها تُؤلِمانها. ألقَت نظرةً نحو چايمي، فرأت توأمها واقفًا كأنه منحوت من الحجر، يَرفُض أن تلتقي عيناه عينيها.

على الدَّكك ركعَ عمُّهما كيڤان بكتفين محنيَّتين وإلى جواره ابنه. *لانسل يبدو أسوأ من أبي*. على الرغم من أن سِنّه لا تتعدّى السَّابعة عشرة فمن الممكن أن تحسبه في السَّبعين، بوجهه المربد وهزاله وخدَّيه الأجوفين وعينيه الغائصتين وشَعره الأبيض الهش كالطَّباشير. *كيف يظلُّ لانسل بين الأحياء ويموت تايوين لانستر؟ هل فقدَت الآلهة عقلها؟*

راحَ اللورد جايلز يَسعُل أكثر من المعتاد ويُغَطّي أنفه بمنديلٍ مربّع من الحرير الأحمر. *هو أيضًا يشمُّ الرّائحة.* وأغلقَ المِايستر الأكبر پايسل عينيه. *إذا غابَ في النّوم فأقسمُ أن آمر بجَلده.* إلى يمين النّعش ركعَ آل تايرل؛ سيّد (هايجاردن) وأمُّه الشّنيعة وزوجته السّمجة وابنه جارلان وابنته مارچري. أخبرَت نفسها مذكِّرةً: *الملكة مارچري.* أرملة چوفري وعروس تومن المقبلة. تُشبِه مارچري أخاها فارس الزُّهور كثيرًا، فتساءلَت الملكة إن كانت ثمّة أشياء أخرى مشتركة بينهما. *وردتنا الصّغيرة حولها ليديهات عديدات يُحِطن بها ليل نهار.* إن معها الآن نحو دستةٍ منهن، وفي وجوههن تفرّست سرسي متسائلةً: *من أكثرهن خوفًا وأكثرهن استهتارًا وأكثرهن جوعًا للحظوة؟ من أكثر واحدةٍ لسانها متبرِّئ منها؟* عليها أن تحرص على معرفة الإجابات.

أراحَها أن انتهَت التّرانيم أخيرًا. الرّائحة المنبعثة من جثّة أبيها تبدو كأنها صارَت أقوى، ولئن تحلّى أكثر المعزّين بالكياسة وتظاهَروا بأن كلّ شيءٍ على ما يرام، فقد رأت سرسي اثنتين من بنات عمومة الليدي مارجري تُقلّصان أنفيهما الصّغيرين، وبينما قطعَت الممشى عائدةً مع تومن خُيّلَ لها أنها سمعَت أحدهم يُتمتِم بكلمة «مرحاض» وينطلِق ضحكةً مكتومةً، لكن حين دوّرت رأسها لترى من تكلّم وجدَت بحرًا من الوجوه الوقورة التي تَرمُقها بخواء. *ما كانوا ليجسُروا على التّندُّر عليه هكذا وهو لا يزال حيًّا. كان ليُحيل ما في أحشائهم إلى ماء بمجرّد نظرة.*

في (بهو القناديل) احتشدَ المعزّون حولهما كالذّباب الطّنّان وكلّهم حماسة لإغراقها بالتّعازي الفارغة. لثمَ التّوأمان ردواين يدها وأبوهما وجنتها، ووعدَها هالاين البايرومانسر[31] بأن يدًا ناريّةً ستضطرم في السّماء فوق المدينة يوم رحيل زُفات أبيها إلى الغرب، وبين سعلةٍ وسعلةٍ قال لها اللورد جايلز إنه استأجرَ واحدًا من أساتذة النّحّاتين ليصنع تمثالًا للورد تايوين سيسهر حراسةً إلى الأبد عند (بوّابة الأسد)، وظهرَ السير لامبرت تِرنبري بزقعةٍ على عينه اليُمنى مقسمًا أنه سيضعها إلى أن يأتيها برأس أخيها القزم.

لم تكد الملكة تفرّ من براثن ذلك الأحمق حتى وجدَت نفسها تحت حصار الليدي فاليس ابنة (ستوكوورث) وزوجها السير بيرش، وهمهمَت فاليس قائلةً: «السيِّدة والدتي تُبلِغكِ اعتذارها يا جلالة الملكة. لوليس أُخِذَت إلى الفِراش لتضع طفلها وشعرَت أمّي بالحاجة إلى البقاء معها. إنها تُناشِدكِ أن تُسامِحيها، وقالت أن أسألكِ... لقد كانت أمّي معجبةً بأبيكِ الرّاحل أكثر من أيّ رجلٍ آخر، وإذا ولدَت أختي صبيًا فإنها راغبة في أن نُسمِّيه تايوين، بَعد... بَعد إذنكِ».

حدّقت سرسي إليها مشدوهةً، وقالت: «أختكِ البلهاء يغتصبها نِصف أهل المدينة وتاندا تُفكِّر في إطلاق اسم أبي على النّغل؟ لا أظنّ».

جفلَت فاليس كأنها صُفِعَت، لكن زوجها اكتفى بالتّمليس على شاربه الأشقر الكَث بإبهامه قائلًا: «هذا ما قلته لليدي تاندا. سنجد اسمًا، آه... أنسب لنغل لوليس، لكِ كلمتي».

قالت سرسي: «احرِصوا على هذا»، والتفتت عنهما مبتعدةً، لترى أن تومن وقعَ في براثن مارجري تايرل وجدّتها. لملكة الأشواك قامة قصيرة للغاية، حتى إن سرسي حسبَتها طفلةً أخرى للحظة. قبل أن تستطيع إنقاذ ابنها من اللوردات دفعَ بها الزِّحام إلى مواجهة عمِّها، وعندما ذكَّرته بلقائهما لاحقًا أومأ السير كيفان برأسه بتعب واستأذنَها في الانصراف، على أن لانسل تلكّأ وقد بدا نموذجًا لرجلٍ قدمه في القبر. *لكن أهو داخل أم خارج؟*

أرغمَت سرسي نفسها على الابتسام، وقالت: «لانسل، يُسعِدني أن أراك أقوى كثيرًا. المِايستر بالابار نقلَ لنا أخبارًا مؤسفةً وخشينا على حياتك. كنت لأحسبك في الطّريق إلى (داري) الآن لتتولّى لورديّتك». كان أبوها قد رفعَ لانسل إلى مرتبة لورد عقب معركة (النّهر الأسود) استرضاءً لأخيه كيفان.

- «ليس بعد. هناك خارجون عن القانون في قلعتي». تكلَّم ابن عمِّها بصوتٍ بالغ الخفَّة كذلك الشّارب فوق شفته العُليا، وعلى الرغم من ابيضاض شَعره ظَلَّ زغب شاربه محتفظًا بلونه الرّملي. كثيرًا ما تطلّعت سرسي إليه والصّبي في داخلها يدفع نفسه جيئةً وذهابًا بطاعة. *يبدو كلطخة تُراب فوق شفته*. لقد اعتادَت أن تُهَدِّده بمسحه بالقليل من اللُّعاب. «أبي يقول إن أراضي النّهر محتاجة إلى يدٍ قوية».

أرادَت أن تقول: مؤسفٌ *أنها ستنال يدك أنت*، إلّا أنها ابتسمَت بدلًا من هذا، وقالت: «كما أنك ستتزوّج أيضًا».

مرّت على وجه الفارس الشّاب السّقيم نظرة كئيبة، وردّ: «واحدة من بنات فراي، وليست من اختياري. إنها ليست عذراء حتى، بل أرملة من دم داري. أبي يقول إن هذا سيُساعِدني في التّعامُل مع الفلّاحين، لكن الفلّاحين كلُّهم ماتوا»، ومَدَّ يده إلى يدها مواصلًا: «إنها قسوة يا سرسي. جلالتكِ تعلمين أنني أحبُّ...».

قاطعَته منهيةً العبارة: «... عائلة لانستر. لا أحد يشكّ في هذا يا لانسل. أتمنّى أن تُنجِب لك زوجتك أبناء أقوياء». *لكن خيرٌ لك ألّا تدع جدّها يُقيم الزّفاف.* «أعرفُ أنك ستقوم بصنائع نبيلةٍ عديدةٍ في (داري)».

أومأ لانسل برأسه والبؤس يبدو عليه بوضوح، وقال: «حين بدا أني سأموتُ جلبَ أبي السّبتون الأعلى ليُصَلّي لأجلي. إنه رجل صالح»، وتابعَ ابن عمّها بعينين مبتلّتين لامعتين كعينَي طفلٍ في وجهِ عجوز: «يقول إن (الأم) أبقَت على حياتي من أجل هدفٍ سامٍ، كي أتوب عن خطاياي».

تساءلَت سرسي كيف ينوي أن يتوب عن خطاياه معها. *تنصيبه فارسًا كان خطأً، ومُضاجعته خطأً أكبر.* لانسل ضعيف لا يُعتمَد عليه، ولا يُعجِبها ورعه المستجدُّ هذا على الإطلاق، ثم إنه كان مسلّيًا أكثر بكثير عندما كان يُحاوِل أن يكون جايمي. *ما الذي قاله هذا الأحمق الدّامع للسيتون الأعلى؟ وماذا سيقول لابنة فراي وهما نائمان معًا في الظّلام؟* إذا اعترفَ بمُضاجعة سرسي فيُمكنها أن تدحض هذا، فالرّجال يكذبون بشأن النّساء طوال الوقت، وتستطيع أن تعزو الأمر إلى صلف صبيٍّ غِر فتنَه جَمالها. لكن *إذا تفوّه بشيءٍ عن روبرت والنّبيذ القوي*... قالت له سرسي: «أفضل السّبل لنيل التّوبة الصّلاة... الصّلاة الصّامتة»، وتركَته يُفكّر في قولها وهيّأت نفسها لمواجهة جيش تايرل.

عانقَتها مارجري كأخت، وهو ما وجدَته الملكة اجتراءً، ولكن ليس هذا بالمكان المناسب لتوبيخها. قنعَت الليدي آليري وبنات العُمومة بلثم أصابعها، وطلبَت الليدي جريسفورد الحُبلى إذن الملكة في تسمية وليدها تايوين إن كان صبيًّا أو لانا إن كانت بنتًا. كادَت سرسي تئنُّ ضيقًا، وقالت لنفسها: *واحد آخر؟ سيُغرِق مَن اسمهم تايوين البلاد،* لكنها أبدَت موافقتها بأكبر قدرٍ ممكن من الكياسة وتظاهرَت بالسّرور.

مَن سرّتها حقًّا هي الليدي ميريويذر، التي قالت بلكنتها المايريّة المثيرة: «جلالة الملكة، لقد أرسلتُ خبزًا لأصدقائي عبر (البحر الضيّق)، أسألهم أن يقبضوا على العِفريت في الحال إذا ظهرَ وجهه القبيح في المُدن الحُرّة».

- «هل عندكِ أصدقاء كثيرون وراء البحر؟».

- «كثيرون في (مير)، وفي (لِيس) أيضًا، و(تايروش). رجال ذوو نفوذ».

لم تجد سرسي غسزًا في تصديق هذا، فالمرأة المايريّة رائعة الجمال بحق، طويلة السّاقين وممتلئة النّهدين، ولها بشرة زيتونيّة ملساء وشفتان ناضجتان وعينان كحيلتان واسعتان للغاية وشعر أسود غزير يبدو دائمًا كأنها نهضَت لتوّها من الفِراش. *بل وتضوع منها رائحة الخطيئة، كأنها زهرة لوتس غريبة*. قالت المرأة بصوتٍ كخرير القِطط: «اللورد ميريويذر وأنا لا نتمنّى إلّا أن نخدم جلالتكِ والملك الصّغير». كانت على وجهها نظرة حُبلى بالإيحاءات تكاد تُنافِس بطن الليدي جريسفورد المنتفخ.

ثم انقضّ عليها سيِّد (هايجاردن).

لا يكبر مايس تايرل سرسي إلّا بأعوامٍ عشرة، ومع ذلك تُفكِّر فيه باعتباره في سِنّ أبيها لا سِنّها. ليس الرّجل طويل القامة كما كان اللورد تايوين، لكن بقيّة جسده أكبر، فصدره مكتنز وبطنه أكثر اكتنازًا، ولشَعره لون الكستناء وإن بدأ الأبيض والرّمادي يشوبان لحيته، ويبدو وجهه محمرًا أغلب الوقت. أعلنَ تايرل بلهجةٍ ثقيلة بَعد أن قبّل كلتا وجنتيها: «اللورد تايوين كان رجلًا عظيمًا، رجلًا فلتة، وأخشى أننا لن نرى مثيلًا له أبدًا».

ردّت سرسي عليه في سريرتها: *إنك تَنظُر إلى مثيلته أيها الأحمق. ابنته هي الواقفة أمامك*، لكنها محتاجة إلى تايرل وقوّة (هايجاردن) لإبقاء تومن على عرشه، فاكتفَت بقولها: «سنفتقده كثيرًا».

وضعَ تايرل يده على كتفها قائلًا: «لا رجل على قيد الحياة يَصلُح لأن يحلّ محلّ اللورد تايوين، هذا جلي، لكن البلاد باقية ولا بدّ أن تُحكَم. إذا كان هناك ما يُمكنني أن أفعله على الإطلاق في هذه السّاعة السّوداء، فما على جلالتكِ إلّا أن تَطلُبي».

فكّرت الملكة: *إذا كنت تبغي أن تكون يد الملك يا سيّدي فتحلّ بالشّجاعة وقُلها*، ورسمَت على شفتيها ابتسامةً مضيفةً لنفسها: *فليستنتج منها ما يُريد أن يستنتجه*، ثم إنها قالت: «مؤكّد أن هناك حاجة إلى سيّدي في (المرعى)، أليس كذلك؟».

أجابَ الرَّجل رافضًا أن يلحظ تلميحها الواضح تمامًا: «ابني ويلاس فتى قدير. ربما تكون ساقه مشوّهةً لكنه لا يفتقر إلى الذّكاء. قريبًا سيستولي جارلان على (قلعة المياه الوضّاءة) أيضًا، وبين الاثنين سيصير (المرعى) في أيدٍ أمينة إذا دعَت الحاجة إلى وجودي في مكانٍ آخَر. لا بُدّ أن يأتي حُكم البلاد أولًا كما اعتادَ اللورد تايوين أن يُرَدِّد، ويسرُّني أن أنقل لجلالتكِ خبرًا طيِّبًا في هذا الصّدد. عمّي جارث وافقَ على الخدمة أمينًا للنّقد كما كان السيّد والدكِ يرغب، وهو في الطّريق إلى (البلدة القديمة) الآن ليستقلَّ سفينةً في صُحبة ابنيه. كان اللورد تايوين قد ذكرَ شيئًا عن العثور على مكانين لهما أيضًا، في حَرس المدينة ربما».

على وجه الملكة تجمّدت ابتسامتها بشدّةٍ لدرجة أنها خشيت أن تتشقّق أسنانها. *جارث السّمين في المجلس الصّغير وابناه مع ذوي المعاطف الذّهبيّة... هل يحسب آل تايرل أني سأقدّمُ لهم البلاد على طبقٍ من ذهب بهذه البساطة؟* هذه الغطرسة تُذهِلها حقًّا.

كان تايرل يُواصِل: «جارث أحسنَ خدمتي كقهرمان كما خدمَ أبي من قبلي. صحيحٌ أن الإصبع الصّغير كان موهوبًا في إيجاد الذّهب، لكن جارث...».

قاطعته سرسي: «سيّدي، أخشى أن في المسألة سوء فهم. لقد سألتُ اللورد جايلز أن يكون أمين نقدنا الجديد، وقد شرّفني بالقبول».

حملقَ مايس إليها قائلًا: «روزيي؟ ذلك الـ... السّعّال؟ لكن... لقد اتّفقنا على الأمر. جارث في طريقه إلى (البلدة القديمة)».

قالت الملكة: «الأفضل إذن أن ترسِل غُدافًا إلى اللورد هايتاور وتُطلُب منه أن يحرص على عدم ركوب عمّك السّفينة. سنكره أن يُواجِه البحر في الخريف بلا طائل»، وابتسمَت له ببشاشة.

قال تايرل والأحمر يزحف على عنقه الثّخين: «هذا... السيّد والدكِ أكّد لي...»، وبدأ يلفظ كلامًا مختلطًا غير مفهوم.

ثم ظهرَت أمّه وتأبّطت ذراعه قائلةً: «يبدو أن اللورد تايوين لم يُطلِع وصيّتنا على العرش على خُططه، ولا أتصوّرُ السّبب. لكن الأمر منتهٍ، فلا داعي لإزعاج جلالتها. إنها محقّة تمامًا. عليك أن تَكتُب للورد لايتون قبل أن يستقلّ جارث السّفينة. تعلم أن البحر سيُغثيه ويجعل فساءه أسوأ»، ومنحَت الليدي أولينا سرسي ابتسامةً بلا أسنان متابعةً: «ستكون رائحة قاعة مجلسكِ ألطف في وجود اللورد جايلز، وإن كنتُ أظنُّ أن شعاله كفيل بتشتيت انتباهي. كلُّنا مغرمون بالعم جارث العجوز العزيز، لكن الرّجل متطبّل البطن ولا أحد يُنكِر هذا. إنني أمقتُ الرّوائح الكريهة حقًّا»، وتغضّن وجهها المتغضّن أكثر وهي تُضيف: «لقد شممتُ رائحةً مزعجةً داخل السّبت المقدّس في الحقيقة. هل شممتِها أيضًا؟».

أجابَت سرسي بيرود: «لا. تقولين إنها رائحة؟».

- «رائحة كريهة».

- «ربما تفتقدين وردكِ الخريفي. لقد أبقيناكِ هنا أطول من اللّازم». كلّما عجّلت بتخليص البلاط من الليدي أولينا كان أفضل، فلا شكّ أن اللورد تايرل سيُرسِل عددًا لا بأس به من فُرسانه ليصحبوا أمّه بأمانٍ إلى وطنها، وكلّما قَلّ عدد رجال تايرل في المدينة ستعرف الملكة نومًا أفضل.

قالت العجوز: «أعترفُ بأني مشتاقة إلى عطور (هايجاردن)، لكني لا أستطيعُ أن أغادر بالطّبع قبل أن أشهد زفاف حُلوتي مارچري إلى عزيزكِ الصّغير تومن».

أضافَ تايرل: «أنا أيضًا أنتظرُ ذلك اليوم بلهفة. أنا واللورد تايوين كنا على وشك تحديد موعدٍ بالفعل. ربما يُمكننا أن نُناقِش هذا معًا يا جلالة الملكة».

- «قريبًا».

قالت الليدي أولينا متنشّقةً: «لا بأس. هيا بنا يا مايس، لندع جلالتها لـ... حُزنها».

تركَت سرسي ملكة الأشواك تبتعد بين حارسيها الفارعين، رجلين يَبلُغ كلٌّ منهما الأقدام السّبعة طولًا ويروق المرأة أن تُسَمِّيهما شِمال ويمين، وإذ شاهدَتها تبتعد وعدَت نفسها: *سأشهدُ موتكِ أيتها العجوز، وسنرى كم ستكون جُثّتكِ جميلة المنظر*. واضحٌ تمامًا أن العجوز أذكى من ابنها اللورد مرّتين.

أنقذَت الملكة ابنها من مارجري وبنات عمومتها واتّجهت به إلى الباب، وفي الخارج كان المطر قد توقّف أخيرًا وصارَت لهواء الخريف رائحة طازجة نقيّة. خلعَ تومن تاجه، لكن سرسي قالت له آمرةً: «ضَعه على رأسك».

قال الصّبي: «إنه يُؤلِم عنقي»، لكنه أطاعَ الأمر، وأردفَ: «هل سأتزوّجُ قريبًا؟ مارجري تقول إننا نستطيع الذّهاب إلى (هايجاردن) حالما نتزوّج».

ردّت سرسي: «لن تذهب إلى (هايجاردن)، لكن يُمكنك ركوب حصان إلى القلعة»، وأشارَت إلى السير مرين ترانت، وقالت له: «اجلب حصانًا لجلالته، واطلُب من اللورد جايلز أن يُشرّفني بالانضمام إليّ في الهودج». الأمور تمضي بسُرعةٍ أكبر مما توقّعت، وما من وقتٍ تُبدّده.

أسعدَت تومن فكرة الرُّكوب، وبالطّبع شرّفت اللورد جايلز دعوتها... ولكن عندما سألَته أن يكون أمين نقدها الجديد بدأ الرّجل يَسعُل بمنتهى العُنف، حتى إنها خشيَت أن يموت هنا والآن، لكن (الأم) كانت رحيمةً وفي النّهاية تعافى جايلز بما يكفي لأن يقبل المنصب، بل وبدأ يَسعُل أسماء الرّجال الذين يُريد استبدالهم، ومنهم قيّمو الجمارك ومصنّعو الأصواف الذين عيّنهم الإصبع الصّغير، بالإضافة إلى أحد حفَظة المفاتيح.

- «سَمّ البقرة التي تُريدها ما دامَت تنضح حليبًا. وإذا أثيرَ السُّؤال، فقد انضممتَ إلى المجلس البارحة».

- «البار...». انتابَته نوبة من الشعال جعلَته يلتوي على نفسه. «البارحة، بالتّأكيد». يستخدم اللورد جايلز منديلًا من الحرير الأحمر يَسعُل فيه كأنما يُحاوِل إخفاء الدّم في لُعابه، وهو ما تظاهرَت سرسي بأنها لا تُلاحِظه.

حين يموت *سأجد أحدًا غيره*. ربما عليها أن تستدعي الإصبع الصّغير إلى البلاط. إنها لا تتصوّر أن پيتر بايلش سيُسمَح له بالبقاء حافظًا لـ(الوادي) طويلًا وقد ماتت لايسا آرن، خصوصًا أن لوردات (الوادي) بدأوا يتحرّكون بالفعل إذا صَحّ ما قاله پايسل. بمجرّد *أن يأخذوا منه ذلك الصّبي المأفون سيعود اللورد پيتر زحفًا*.

- «جلالة الملكة»، قال اللورد جايلز وسعلَ ومسحَ فمه. «هل لي...»، وسعلَ ثانيةً. «... أن أسأل مَن...»، وعصفَت به نوبة أخرى من الشعال قبل أن يتمالَك نفسه ويُكمِل: «... مَن سيكون يد الملك؟».

أجابَت بشرود: «عمّي».

تنفّست الملكة الصّعداء لرؤية أسوار (القلعة الحمراء) ترتفع عاليةً أمامها، وهناك عهدَت بتومن إلى مُرافقيه وخلَت إلى نفسها في مسكنها شاعرةً بالامتنان لفُرصة الرّاحة.

لكن ما إن خلعَت حذاءها حتى دخلَت چوسلين على استحياءٍ لتقول إن كايبرن في الخارج ويلتمس المثول أمامها، فقالت الملكة: «أدخِليه». *الحُكّام لا يعرفون الرّاحة*.

كايبرن عجوز، لكن ما زالَ الرّماد يغلب الثّلج في شَعره، وتجاعيد الضّحك حول فمه تجعله يبدو كجَدّ فتاةٍ صغيرة المفضّل. *وإن كان جدًا رَثّ الملبس*. ياقة ردائه مهترئة، وأحد كُمّيه تمزّق ورُتِقَ بلا براعة. قال لها: «أرجو من جلالتكِ ألّا تؤاخِذيني لمجيئي. كنتُ في الزّنازين أحقّقُ في هروب العِفريت كما أمرتِ».

- «وإلامَ توصّلت؟».

- «ليلة اختفاء اللورد ڤارس وأخوكِ اختفى رجل ثالث أيضًا».

- «نعم، السّجّان، ماذا عنه؟».

- «الرّجل اسمه روجن، مُشرف سجّانين كان مسؤولًا عن الزّنازين السّوداء. رئيس السّجّانين يصفه بأنه رجل ممتلئ طليق اللّحية وغليظ الكلام. الملك القديم إيرس هو من كلّفه بوظيفته، واعتادَ أن يروح ويجيء كما يحلو له، بالذّات مع شغور الزّنازين السّوداء معظم الوقت في السّنوات الأخيرة. يبدو أن باقي السّجّانين كانوا يخافونه، لكن لا أحد يعرف الكثير عنه. كان بلا أهلٍ أو أصدقاء، ولم يعتد أن يشرب أو يتردّد إلى المواخير. حُجيرة نومه رطبة موحشة، والقَشّ الذي كان ينام عليه متعفّن، ووعاء فضلاته طافح».

- «أعرفُ كلّ هذا». چايمي فحصَ حُجيرة روجن، ثم فحصَها رجال السير أدام مرّةً أخرى.

قال كايبرن: «نعم يا جلالة الملكة، لكن هل تعرفين أن تحت وعاء الفضلات المقزِّز هذا حجرًا مخلوعًا يسدُّ تجويفًا صغيرًا؟ إنه من تلك الأماكن التي يُخبِّئ فيها أحدهم مقتنياتٍ ثمينة لا يُريد أن يكتشفها أحد».

معلومة جديدة هذه. «مقتنيات ثمينة؟ أتعني المال؟». طيلة الوقت كانت الشُّكوك تُخالِجها في أن تيريون اشترى هذا السَّجّان بوسيلةٍ ما.

- «قطعًا. صحيحٌ أني وجدتُ التَّجويف خاليًا، فلا بُدَّ أن روجن أخذ ثروته الحرام معه حين هربَ، ولكن بينما قرفصتُ فوق التَّجويف بمشعلي رأيتُ شيئًا يلمع، فنقَّبتُ في الثُّراب حتى أخرجته»، وفتحَ كايبرن يده مضيفًا: «إنها عملة ذهبيّة».

هو ذهب، نعم، لكن لحظة أن التقطَت سرسي العملة أدركَت أنها ليست سليمةً. صغيرة ورفيعة *للغاية*. كانت قديمةً باليةً، على أحد وجهيها صورة جانبيّة لملك، وعلى الآخر نقش ليد. قالت: «هذا ليس تنّينًا».

أيّدها كايبرن قائلًا: «نعم. إنها تعود إلى ما قبل الغزوة يا جلالة الملكة. الملك هو جارث الثّاني عشر، واليد رمز آل جاردنر».

سادة (*هايجاردن*). أغلقت سرسي يدها على العُملة متسائلةً: *أيّ خيانةٍ هذه؟* مايس تايرل كان أحد قُضاة تيريون، ودعا إلى إعدامه على الملأ. *أكانت مجرّد حيلة؟ هل كان يتآمر مع العِفريت طوال الوقت ويُخَطّطان لموت أبي؟* مع وجود تايوين لانستر في القبر يُصبِح اللورد تايرل الاختيار التّلقائي لليدويّة، ولو أن... قالت آمرةً: «لن تُذكَر شيئًا عن هذا لأيّ أحد».

- «لكِ أن تثقي بكتماني يا صاحِبة الجلالة. مَن يركب في صُحبة المرتزِقة يتعلّم أن يصون لسانه خشية ألّا يحتفظ به طويلًا».

قالت الملكة: «وفي صُحبتي أيضًا»، ووضعت العُملة جانبًا مقرّرةً أن تُفكّر في أمرها فيما بعد، ثم سألَت: «ماذا عن المسألة الأخرى؟».

أجابَ كايبرن: «السير جريجور»، وهَزّ كتفيه متابعًا: «لقد فحصته كما أمرتِ. السُّمّ على حربة الأفعوان كان زُعاف مانتيكور[32] من الشّرق، أراهِن بحياتي على هذا».

- «پايسل ينفي هذا. قال لأبي إن زُعاف المانتيكور يَقتُل ما إن يَبلُغ القلب».

- «صحيح، لكن هذا الزُّعاف مخفّف بوسيلةٍ ما ليُطيل احتضار الجبل».

- «مخفّف؟ مخفّف كيف؟ بمادّةٍ أخرى؟».

- «ربما يكون الأمر كما تقولين يا صاحبة الجلالة، ولو أن في معظم الحالات لا تتسبّب إضافة مواد أخرى إلى الشموم إلّا في الحَدّ من مفعولها. قد يكون السّبب... لنقل إنه أقلّ طبيعيّةً، تعويذة على ما أعتقد».

أهذا الرّجل أحمق كبير كپايسل؟ «تقول لي إذن إن الجبل يموت بالسّحر الأسود؟».

قال متجاهلًا التّهكّم في صوتها: «إنه يموت بالزُّعاف، ولكن ببُطءٍ وبألمٍ لا يوصَف. كجهود پايسل لم تُثمِر جهودي لتخفيف الألم شيئًا. أخشى أن السير جريجور تعوّد تناوُل الخشخاش. مُرافقوه قالوا لي إنه مبتلى بالصّداع العنيف، وكثيرًا يجرع حليب الخشخاش كما يجرع الرّجال الأصغر منه المِزر. أيًّا كان، لقد اسودّت عروقه من رأسه إلى قدميه، وبوله ملوّث بالقيح، والزُّعاف جعلَ جانبه يتآكَل صانعًا فجوةً بحجم قبضتي. وجود الرّجل على قيد الحياة حتى الآن أعجوبة في الحقيقة».

علّقت الملكة بوجهٍ مقطّب: «إنه حجمه. جريجور رجل كبير للغاية، وغبيٌّ للغاية أيضًا، أغبى من أن يعرف متى يموت على ما يبدو»، ورفعَت كأسها لتملأها سينل مجدّدًا، وأردفَت: «صُراخه يُخيف تومن، بل ويُوقِظني في اللّيل أيضًا أحيانًا. رأيي أن الوقت حانَ لاستدعاء إلين پاين».

قال كايبرن: «جلالة الملكة، هل تأذنين لي في نقل السير جريجور إلى الزّنازين؟ لن يُزعِجكِ صُراخه هناك، وسأتمكّنُ من العناية به بحرّيّةٍ أكبر».

ردّت ضاحكةً: «العناية به؟ دَع السير إلين يعتني به».

- «إذا كانت هذه رغبة جلالتكِ، لكن ذلك السّم... سيكون من المفيد أن نعرف المزيد عنه، أليس كذلك؟ أرسِلي فارسًا ليَقتُل فارسًا وراميًا ليَقتُل راميًا كما يقول العامّة، ولمواجهة الفنون السّوداء...»، ولم يتمّ كايبرن كلامه واكتفى بالابتسام لها.

واضح أنه ليس بايسل. أمعنَت الملكة النّظر إليه متسائلةً: «لماذا أخذَت (القلعة) سلسلتك؟».

- «رؤساء المِايسترات كلُّهم جُبناء في قلوبهم، خراف رماديّة كما يدعوهم ماروين. كنتُ معالجًا ماهرًا كإيبروز، لكني طمحتُ إلى أن أتفوّق عليه. طيلة مئات السّنين ورجال (القلعة) يفتحون جُثث الموتى ليدرسوا طبيعة الحياة، في حين أردتُ أنا أن أدرس طبيعة الموت ففتحتُ أجساد الأحياء، ولهذه الجريمة وصفتني الخراف الرّماديّة بالعار ودفعتني إلى المنفى... لكني أفهمُ طبيعة الحياة والموت أفضل من أيّ رجلٍ في (البلدة القديمة)».

أثارَ قوله اهتمامها، فقالت له: «حقًّا؟ ليكن إذن، الجبل لك، افعل به ما تُريد، لكن احضر دراساتك في نطاق الزّنازين السّوداء، ولمّا يموت اجلب لي رأسه، فقد وعدَ أبي بتسليمه لـ(دورن). لا شَكّ أن الأمير دوران يُؤثِر أن يَقتُل جريجور بنفسه، لكن علينا جميعًا أن نُعاني خيبة الأمل في هذه الحياة».

قال كايبرن: «عظيم يا جلالة الملكة»، ثم تنحنحَ قبل أن يُضيف: «لكنني أفتقرُ إلى الإمكانات المتوفّرة لپايسل، ويجب أن أجهّز نفسي بـ...».

- «سأكلّفُ اللورد جايلز بتزويدك بذهب يكفي احتياجاتك. اشترِ لنفسك ثيابًا جديدةً أيضًا. إنك تبدو كأنك صعدت من (جُحر البراغيث)»، وتمعّنت الملكة في عينيه متسائلةً إلى أيّ مدى تستطيع الثّقة به، وأضافَت: «هل من داعٍ لأن أقول إن خيرًا لن يَحدُث لك على الإطلاق إذا تسرّبت كلمة واحدة عن... عملك... إلى خارج هذه الجُدران؟».

منحَها كايبرن ابتسامةً مطمئِنةً، وقال: «لا يا جلالة الملكة. أسرارك آمنة معي».

بَعد رحيله صبّت سرسي لنفسها كأسًا من النّبيذ القوي، وشربَتها عند النّافذة وهي تُشاهِد الظّلال تستطيل في السّاحة وتُفَكّر في العملة. ذهب من (المرعى). *لماذا يملك مُشرف سجّانين في (كينجز لاندنج) ذهبًا من (المرعى) ما لم يكن قد نُقِدَ إياه لمساعَدته في موت أبي؟*

مهما حاولَت لم تستطِع أن تتخيّل وجه اللورد تايوين دون أن ترى تلك الابتسامة الصّغيرة السّخيفة وتتذكّر الرّائحة النّتنة المنبعثة من جثّته، وتساءلَت إن كان تيريون وراء هذا أيضًا. *حيلة حقيرة قاسية مِثله*. هل جعلَ تيريون پايسل أجيره؟ *لقد أرسلَ العجوز إلى الزّنازين السّوداء، الزّنازين نفسها التي كان روجن مسؤولًا عنها*. الخيوط كلُّها متشابكة بطريقةٍ لا تُعجِبها. تذكّرت سرسي فجأةً أن السّپتون الأعلى من مخلوقات تيريون أيضًا. *وجِثمان أبي المسكين كان في عنايته من اللّيل إلى الفَجر*.

وصلَ عقُّها بلا إبطاءٍ عند الغروب، يرتدي سُترةً ضيِّقةً مبطّنةً، صوفها فاحم مربدٌ كوجهه. ككلِّ بني لانستر للسير كيڤان بشرة شاحبة وشَعر أشقر، وإن كان قد فقدَ أكثره مع بلوغه الخامسة والخمسين، لكن ما من أحدٍ يُمكن أن يصفه بالوسامة، بخصره المكتنز وكتفيه المستديرتين وذقنه المربّع البارز الذي لم تُفلِح لحيته الصّفراء المشذّبة في مواراته. إنه يُذكِّرها بكلب دِرواس عجوز... لكن دِرواسًا عجوزًا مخلصًا هو ما تتطلّبه تحديدًا.

تناوَلا عَشاءً بسيطًا من الشَّمندر والخُبز ولحم البقر الدّامي مع النّبيذ الدورني الأحمر، ولم يتكلّم السير كيڤان إلّا قليلًا وبالكاد مَسّ كأسه. *إنه واجم للغاية. لا بُدّ من تكليفه بعملٍ كي يتجاوَز حُزنه*. وهذا ما قالته له بَعدما رُفِعَت أطباق الطّعام وغادرَ الخدم. «أعرفُ كم كان أبي يعتمد عليك يا عمّاه، والآن عليَّ أن أفعل مِثله».

قال: «تحتاجين إلى يد، وچايمي رفضَ».

يتكلَّم بلا موارَبة، ليكن. «چايمي... لقد شعرتُ بالضَّياع مع موتِ أبي، وكنتُ أجهلُ ما أقوله. چايمي شُجاع، لكنه أحمق نوعًا، لنكن صُرحاء. تومن محتاج إلى رجلٍ متمرِّس أكثر، شخص أكبر...».

- «مايس تايرل أكبر».

اتَّسعت طاقتا أنفها غضبًا، وقالت: «مستحيل»، وأزاحَت خُصلة شَعرٍ عن جبهتها مضيفةً: «آل تايرل يتخطّون حدودهم».

قال السير كيڤان: «ستكونين حمقاء إذا جعلتِ مايس تايرل يدًا، لكن حمقاء أكبر إذا جعلتِه عدوَّكِ. لقد سمعتُ ما قيلَ في (بهو القناديل). كان حريًّا بمايس أن يكون أعقل من أن يفتح تلك المسائل علنًا، وعلى الرغم من هذا لم تكوني حكيمةً حين أهنتِه أمام نِصف البلاط».

ردّت وقد ضايقها تأنيبه: «أفضل من أن نسمح لتايرل آخَر بدخول المجلس. روزبي سيكون أمين نقدٍ ملائمًا. أنت رأيت هودجه بزخارفه وستائره الحرير. خيوله كسوتها أفضل من ثياب معظم الفُرسان. رجل بهذا الثّراء لن يجد مشكلةً في العثور على الذّهب. وبالنّسبة إلى اليدويّة... فمَن أفضل لإتمام عمل أبي من الأخ الذي شاركه خُططه كلّها؟».

- «كلُّ رجلٍ يحتاج إلى أحدٍ يثق به. كنتُ أنا هذا الشّخص عند تايوين، ومن قبلي السيّدة والدتكِ».

قالت سرسي رافضةً التّفكير في العاهرة الميتة في فِراشه: «لقد أحبّها للغاية. أعرفُ أنهما معًا الآن».

قال السير كيڤان: «هذا ما أتمنّاه»، وتفحّص وجهها طويلًا قبل أن يُجيب: «إنكِ تسألينني الكثير يا سرسي».

- «ليس أكثر مما كان أبي يسألك».

التقط عمُّها كأسه وأخذَ رشفةً، ثم قال: «أنا متعب. إن لي زوجةً لم أرَها منذ عامين، وابنًا ميتًا أريدُ أن أرثي له، وابنًا آخَر على وشك الزّواج وتولّي اللورديّة. لا بُدّ من تحصين (قلعة داري) من جديد، وحماية أراضيها وحرث وزراعة حقولها المحروقة. لانسل محتاج إلى عوني».

لم تكن سرسي تتوقّع أن يتطلّب كيڤان تملُّقًا، لكنها قالت: «وتومن أيضًا». *إنه لم يدّعِ الاستحياء مع أبي قطُّ*. «البلاد تحتاج إليك».

غمغمَ: «البلاد، أجل، وعائلة لانستر»، وأخذ رشفةً أخرى من نبيذه، ثم قال: «ليكن. سأبقى وأخدمُ باعتباري اليد...»، فبدأت تقول: «عظيم...»، لكن السير كيڤان رفعَ صوته وداهمَها متابعًا: «... بشرط أن تُسمّيني وصيًا على العرش بالإضافة إلى اليدويّة وتأخذي نفسكِ وتعودي إلى (كاسترلي روك)».

للحظةٍ لم تفقْ سرسي إلّا على الحملقة إليه، قبل أن تقول مذكِّرةً: «أنا الوصيّة على العرش».

- «كنتِ. تايوين لم ينتوِ أن تستمرّي في هذا الدّور، وأخبرَني بخُططه لإعادتكِ إلى (الصّخرة) وإيجاد زوجٍ جديد لكِ».

أحسّت سرسي بغضبها يتصاعَد في أعماقها وهي تقول: «تكلّم عن هذا، نعم، وقلتُ له إنني لا أريدُ الزّواج ثانيةً».

رَدّ عمُّها بلا تأثُّر: «إذا كنتِ عازمةً على عدم الزّواج ثانيةً فلن أجبِركِ، لكن بالنّسبة إلى المسألة الأخرى... أنتِ سيّدة (كاسترلي روك) الآن، ومكانكِ هناك».

أرادَت أن تَصرُخ: كيف تجرؤ؟ لكنها بدلًا من هذا قالت: «أنا الملكة الوصيّة على العرش أيضًا، ومكاني مع ابني».

- «ليس هذا ما ارتآه أبوكِ».

- «أبي ماتَ».

- «ويا لحُزني، وويلٌ للبلاد كلّها. افتحي عينيكِ وانظُري حولكِ يا سرسي. المملكة خراب. كان يُمكن لتايوين أن يُصحّح الأوضاع، ولكن...».

صاحت سرسي: «سأصحّحُ أنا الأوضاع!»، ثم خفّفت نبرتها مردفةً: «بمساعَدتك يا عمّي. إذا خدمتني بإخلاصك نفسه لأبي...».

- «أنتِ لستِ أباكِ، ولطالما عَدّ تايوين چايمي وريثه الشّرعي».

- «چايمي... چايمي حلفَ يمينًا. چايمي لا يُفكّر أبدًا، بل يسخر من كلّ شخصٍ وكلّ شيء ويقول ما يعنُّ له أيًا كان. چايمي أحمق وسيم».

- «ومع ذلك كان اختياركِ الأول ليد الملك، فماذا يجعلكِ هذا يا سرسي؟».

- «قلتُ لك إن الحزن أسقمَني ولم أفكّر...».

- «نعم، ولهذا السّبب يَجدُر بكِ أن ترجعي إلى (كاسترلي روك) وتتركي الملك مع من يُفكّرون».

نهضت سرسي زاعقةً: «الملك ابني!».

قال عمُّها: «أجل، وممّا رأيتُ من چوفري فأنتِ لا تُصلُحين للأمومة مِثلما لا تُصلُحين للحُكم».

وألقت سرسي محتويات كأسها في وجهه مباشرةً.

وبكرامةٍ نهضَ السير كيڤان متثاقلًا والنّبيذ يسيل على وجنتيه ويَقطُر من لحيته المشذّبة، وقال: «هل تسمحين لي بالانصراف؟».

- «بأيِّ حَقٍّ تتجرّأ وتُملي عليّ الشُّروط؟ إنك لست أكثر من واحدٍ من فُرسان أبي».

- «لستُ أملك أراضي، هذا صحيح، لكن عندي مصادر دخلٍ معيّنةٌ وصناديق من المال أحتفظُ بها جانبًا. أبي لم ينسَ أحدًا من أولاده حين ماتَ، وتايوين كان يعرف كيف يُكافئ الخدمة الوفيّة. إنني أطعمُ مئتَي فارسٍ وأستطيعُ مضاعَفة هذا العدد إذا دعَت الحاجة، وثمّة مُحاربون غير نظاميّين سيتبعون رايتي، كما أني أملك الذّهب لاستئجار المرتزِقة. من الحكمة ألّا تستخفّي بي يا جلالة الملكة... وأكثر حكمةً ألّا تصنعي مني خصمًا».

- «هل تُهدّدني؟».

- «إنني أنصحكِ. إذا كنتِ لا تُريدين التّنازُل عن الوصاية لي فعيّنيني أمينًا للقلعة في (كاسترلي روك) واجعلي ماثيس روان أو راندل تارلي يدًا للملك».

أخرسها الاقتراح. *كلاهما من حمَلة راية تايرل. هل اشتروه؟ هل أخذ ذهب تايرل ليخون عائلة لانستر؟*

واصلَ عمُّها الغافل عن خواطرها: «ماتيس روان متعقِّل وحكيم ومحبوب، وراندل تارلي أبرع جُندي في البلاد. إنه يد غير مناسب لزمن السَّلام، لكن مع موت تايوين فلا رجل أفضل منه لإنهاء الحرب. لن يَشعُر اللورد تايرل بالإهانة إذا اخترتِ أحد حمَلة رايته يدًا. تارلي وروان كلاهما رجل قدير... ومخلص، فعيِّني أحد الاثنين وستجعلينه رجلكِ، وبهذا تُقوِّين نفسكِ وتُضعِفين (هايجاردن)، ومع ذلك سيَشكُركِ مايس غالبًا»، وهزَّ كتفيه مضيفًا: «هذه نصيحتي، خُذيها أو ارفُضيها. يُمكنكِ أن تجعلي فتى القمر يدًا ولن أبالي. لقد ماتَ أخي يا امرأة، وسآخذه إلى الوطن».

خائن، مارق. تساءلَت كم دفعَ له مايس تايرل. «تُريد أن تتخلَّى عن مليكك وهو في أمسِّ الحاجة إليك، تُريد أن تتخلَّى عن تومن».

قال السير كيفان: «تومن معه أمُّه»، ولاقَت عيناه الخضراوان عينيها دون أن تطرفا، وارتجفَت قطرة أخيرة من النَّبيذ تحت ذقنه ثم سقطَت أخيرًا، وأتبعَ هو بَعد بُرهة صمت: «أجل، وأبوه أيضًا على ما أعتقد».

---

(30) شعيرة السَّهر طقس ديني ترجع أصوله إلى اليهوديَّة واستمرَّ مع المسيحيَّة، وينصُّ على أن يقف شخص أو أكثر حراسةً على الميت تكريمًا له لمدَّة معيَّنة، غالبًا من تمتدُّ من التَّأبين وحتى الدَّفن. في مِلَّة الآلهة السَّبعة في عالم الرواية يُؤدِّي هذه الشَّعيرة الفرسان أيضًا كجزءٍ من طقوس تنصيبهم. (المترجم).

(31) البايرومانسر كلمة يونانيّة تعني) كاهن النّار(، وكانت تُستخدَم قديمًا للإشارة إلى كلّ من يحترف فنّ التّعامل مع النّار لمختلف الأغراض. (المترجم).

(32) المانتيكور في الأساطير الفارسيّة حيوان له رأس إنسان وجسم أسد وجناحان كالوطواط وثلاثة صفوف من الأسنان الحادّة كسمكة القرش. أمّا في عالم الرواية فيُطلَق على حشرةٍ لها رأس شبيه بالإنسان وذيل شائك مقوّس مليء بالسّم، وتستطيع أن تطوي أجنحتها كالجعران. (المترجم).

وقفَ السير چايمي لانستر مرتديًا أبيض على أبيض إلى جوار النّعش الذي يحمل جُثمان أبيه، وقد أغلقَ أصابعه الخمسة على مقبض سيفٍ عظيم من الذّهب.

مع حلول الغسق اتّشح (سِپت بيلور الكبير) من الدّاخل بالعتمة والغموض، وتسرّبت خيوط النّهار الأخيرة من النّوافذ العالية مضفيةً قتامةً حمراء على تماثيل الآلهة السّبعة الذين تُومِض الشّموع المعطّرة حول مذابحهم، فيما احتشدَت الظّلال الكثيفة في الأجنحة وزحفَت بصمتٍ على الأرضيّة الرُّخام، وخفتَت أصداء أناشيد المساء برحيل آخِر المعزِّين.

مكثَ بالون سوان ولوراس تايرل بَعد رحيل الآخَرين، وقال السير بالون: «لا أحد يستطيع أن يقف ساهرًا سبعة أيام وسبع ليالٍ. متى نِمت آخِر مرّةٍ يا سيِّدي؟».

أجابَ چايمي: «عندما كان السيِّد والدي حيًّا».

قال السير لوراس مقترحًا: «اسمح لي بالوقوف اللّيلة بدلًا منك».

- «لم يكن أباك أنت». *ولم تقتله، أنا قتلته. ربما أطلقَ تيريون سهم النُّشّابيّة الذي أزهقَ روحه، لكنني أطلقتُ تيريون.* «اتركاني».

قال سوان: «كما يأمر سيِّدي».

لاحَ على السير لوراس أنه يُريد أن يُجادِل أكثر، لكن السير بالون أخذَه من ذراعه وسحبَه مبتعدًا، وأصغى جايمي إلى أصداء خُطواتهما تخفت بدورها. هكذا عادَ بمفرده مع السيِّد والده، وسط الشُّموع والبلّورات ورائحة الموت العطرة المغثية. كان ظَهره يُؤلِمه بسبب وزن دِرعه، وساقاه شِبه خدِرتين، فعدّل وقفته بعض الشَّيء وأحكمَ إغلاق أصابعه على مقبض السَّيف الذَّهبي. إنه لا يستطيع المبارَزة بسيف، لكنه يستطيع أن يُمسِكه. أحسَّ بيده المفقودة تنبض، وهو ما يكاد يكون طريفًا، ففي الطَّرف الذي فقدَه إحساس أكثر من سائر الجسد الذي تبقَّى له.

يدي تشتهي السَّيف. أحتاج إلى أن أقتل أحدًا، فارس كبداية، لكن عليَّ أولًا أن أجد الصَّخرة التي اختبأ تحتها.

قال للجثمان: «أمرتُ الخصيَّ بأن يأخذه إلى سفينة، لا إلى غُرفة نومك. يداه ملوّثتان بالدِّماء تمامًا كـ... كيذي تيريون». كان يقصد أن يقول: *يداه ملوَّثتان بالدِّماء تمامًا كيدَي*، لكن الكلمات احتبسَت في حلقه. *أيًّا كان ما فعلَه فارس فأنا من جعلَه يفعله.*

ليلتها انتظرَ في مسكن الخصيّ، حين قرّر أخيرًا ألّا يدع أخاه الصّغير يموت. وبينما انتظرَ راح يشحذ خنجره بيدٍ واحدة، مستمدًا سُلوانًا غريبًا من صوت الفولاذ إذ يحتك بالحجر ويحتكُّ ويحتكُّ. عندما سمعَ الخُطوات وقفَ إلى جوار الباب، ودخلَ ڤارس وعلى وجهه المساحيق ومنه يفوح عبير الخُزامى، فخطا چايمي وراءه وركلَه في باطن رُكبته، ثم جثمَ فوق صدره ودفعَ الخنجر تحت ذقنه الأبيض النّاعم رافعًا رأسه، وقال له بأسارير منبسطة: «أهلًا يا لورد ڤارس، عجيب أن ألتقيك هنا».

قال ڤارس لاهثًا: «السير چايمي؟ أخفتني».

- «هذا ما قصدته»، ودوّر چايمي الخنجر لتسيل قطرة من الدّم على نصله، وأردفَ: «كنتُ أفكّرُ في أن تُساعِدني على انتزاع أخي من زنزانته قبل أن يقطع السير إلين رأسه. إنه رأس قبيح لا شكّ، لكنه لا يملك غيره».

رَدّ الخصيّ: «نعم... حسن... إذا سمحت بأن... ترفع الخنجر... نعم، برفق بَعد إذن سيّدي، برفق، أوه، لقد وخزني...»، ومَسّ عُنقه وحدّق إلى الدّم على أصابعه قائلًا «لطالما بغضتُ منظر دمائي».

- «سأريقُ المزيد لتبغضه حالًا ما لم تُساعِدني».

اعتدلَ ڤارس جالسًا بصعوبة وهو يقول: «أخوك... إذا اختفى العِفريت بلا تفسيرٍ من زنزانته ستُثار أ-أسئلة، وسأ-أخشى على حياتي...».

- «حياتك ملكي. لا أبالي بالأسرار التي تعرفها. إذا ماتَ تيريون فلن تبقى حيًّا بَعده طويلًا، أعدك بهذا».

امتصَّ الخصيُّ الدَّم من على أصابعه، وقال: «إنك تَطلُب شيئًا فظيعًا... أن تُطلِق سراح العِفريت الذي قتلَ ملكنا المحبوب. أم أنك تعتقد أنه بريء؟».

وبكلِّ حماقةٍ قال چايمي: «بريء أو مذنب، اللانستر يُسدِّد ديونه». يا للسُّهولة التي أتَته بها الكلمات.

منذ ذلك الحين لم ينَم، والآن يُمكنه أن يرى أخاه، والطَّريقة التي ابتسمَ بها القزم تحت جَدعة أنفه وضوء المشعل يلعق وجهه، وكيف زمجرَ بصوتٍ مثقل بالغِل: «يا لك من مُعاق مسكين أعمى أحمق! سرسي عاهرة كذَّابة، كانت تُضاجِع لانسل وأوزموند كِتلبلاك وربما فتى القمر أيضًا. وأنا الوحش الذي يقولون. نعم، قتلتُ ابنك الكريه».

لم يقل إنه ينوي أن يَقتُل أبانا. لو قالها لمنعته، ولأصبحتُ أنا لا هو قاتِل الأقربين.

يتساءَل چايمي أين اختبأ ڤارس. لم يَرجع وليُّ الهامسين إلى مسكنه بالطَّبع، ولم يُسفِر عنه تفتيش (القلعة الحمراء)، فربما إذن استقلَّ الخصيُّ السَّفينة نفسها مع تيريون بدلًا من البقاء للإجابة عن الأسئلة المريكة. إذا كان هذا صحيحًا فالاثنان في عرض البحر الآن، يتقاسمان إبريقًا من نبيذ (الكرمة) الذَّهبي في قمرة قادس.

ما لم يكن أخي قد قتلَ فارس أيضًا وترك جثته تتعفّن تحت القلعة. قد تمرُّ سنوات كاملة هناك بالأسفل قبل أن يَعثُر أحد على عظامه. لقد قادَ چايمي دستةً من الحَرس إلى أسفل بالمشاعل والحبال والمصابيح، وطوال ساعاتٍ تلمّسوا طريقهم عبر ممرّاتٍ ملتوية وسراديب ضيّقة وأبوابٍ خفيّة وسلالم سرّيّة وآبار قيعانها غارقة في الظّلام الدّامس. قلّما شعرَ چايمي بكلّ هذا العجز. المرء يعدُّ أشياء كثيرةً من المسلّمات حين يملك كلتا يديه، كالسّلالم على سبيل المثال. حتى الزّحف لم يكن سهلًا عليه، فلا أحد يتكلّم عن الزّحف «على يديه وركبتيه» عبثًا، ولا استطاعَ كذلك أن يحمل مشعلًا على السّلالم كالآخَرين.

وكلُّ هذا سُدى، فلم يجدوا إلّا الظّلام والتّراب والجرذان. *والتّنانين أيضًا، تنانين كامنة بالأسفل*. تذكّرَ وهج الفحم البُرتقالي الكئيب في فم التّنّين الحديدي الذي يتّخذ شكله مستوقَد يُدفئ هواء حُجرةٍ في قرار بئرٍ تلتقي فيه دستة من الأنفاق. على الأرض رأى رسمًا باليًا من الفُسيفساء الحمراء والسّوداء لتنّين عائلة تارجاريَن ذي الثّلاثة رؤوس، وبدا كأن الوحش يقول له: *إنني أعرفك يا قاتِل الملك، كنتُ هنا طيلة الوقت أنتظرُ أن تأتيني*، وخُيّلَ لچايمي أنه يعرف الصّوت، النّبرة الحديديّة التي كانت سمة ريجار أمير (دراجونستون).

كان نهارًا قويّ الرّيح يوم ودّع ريجار في ساحة (القلعة الحمراء)، وقد ارتدى الأمير دِرعه السّوداء كاللّيل، وازدانَ صدره بالياقوت على شكل التنّين ذي الرّؤوس الثّلاثة. ساعتها قال چايمي متوسّلًا: «يا سموّ الأمير، دَع داري يبقى لحراسة الملك هذه المرّة، أو السير باريستان. إن معطفيهما أبيضان كمعطفي».

هَزّ الأمير ريجار رأسه، وقال: «والدي الملك يخشى أباك أكثر مما يخشى ابن عمومتنا روبرت. إنه يُريدك على مقربةٍ منه كي لا يستطيع اللورد تايوين أن يُؤذيه، ولا أجرؤُ على أن أسلبه تلك الدّعامة التي يستند إليها في ساعةٍ كهذه».

ارتفعَ شخط چايمي حتى بلغَ حلقومه وهو يقول: «أنا لستُ دِعامةً، إنني فارس في الحرس الملكي».

رَدّ عليه السير چون داري بحدّة: «احرُس الملك إذن. حين ارتديت هذا المعطف أقسمت على الطّاعة».

ووضعَ ريجار يده على كتف چايمي قائلًا: «أنوي بَعد أن تنتهي هذه المعركة أن أعقد مجلسًا. ستحدُث تغييرات. لقد أردتُ أن أفعل هذا منذ فترةٍ طويلة، ولكن... لا داعي للكلام عن الطُّرق التي لم نَسلُكها. سنتحدّث حين أرجعُ».

كانت تلك آخِر كلماتٍ قالها له ريجار تارجاريَن على الإطلاق. خارج الأسوار احتشدَ جيش، وفي الأثناء نفسها زحفَ جيش آخَر إلى (الثّالوث)، وهكذا اعتمرَ أمير (دراجونستون) خوذته السّوداء الطّويلة وركبَ إلى نهايته.

كان على حقٍّ أكثر مما أدرك. حين انتهَت المعركة حدثَت تغييرات. قال لجثّة أبيه: «إيرس ظَنّ أن أذًى لن يمسّه إذا أبقاني قريبًا منه، أليس هذا طريفًا؟». بدا أن هذا رأي اللورد تايوين أيضًا، إذ كانت ابتسامته متّسعةً الآن عن ذي قبل. *كأنه مستمتع بكونه ميتًا*.

الغريب أنه لا يَشعر بالحُزن. *أين دموعي؟ أين غضبي؟* چايمي لانستر لم يفتقر إلى طاقة الغضب قطُّ. قال للجثّة: «أنت الذي قلت لي إن الدُّموع دلالة على ضَعفٍ في الرّجل، فلا تتوقّع مني أن أبكيك».

ألف لورد وليدي أتوا في الصّباح ليصطفُّوا في الطّابور المار بالنّعش، ثم عدّة آلاف من العامّة بَعد الظُّهر، ثيابهم داكنة ووجوههم خاشعة، إلّا أن چايمي ارتابَ في أن كثيرين منهم مبتهجون في سريرتهم لمرأى سقوط الرّجل العظيم. حتى في الغرب كان اللورد تايوين محترمًا أكثر من محبوب، و(كينجز لاندنج) لم تزل تذكُر يوم النّهب.

من بين جميع المعزّين بدا المِايستر الأكبر پايسل الأكثر اضطرابًا، وبَعد الشّعائر قال لچايمي وهو يتشمّم حول الجثّة بريبة: «لقد خدمتُ ستّة ملوك، لكن ها هنا أمامنا يَرقُد أعظم رجلٍ عرفته على الإطلاق. لم يكن اللورد تايوين يعتمر تاجًا، لكنه تحلّى بكلّ ما يجب أن يكونه الملك».

دون لحيته لا يبدو پايسل مسنًّا فحسب بل وواهن أيضًا. *حلاقة لحيته كانت أقسى ما يُمكن أن يفعله تيريون به*. يعلم چايمي معنى أن تفقد جزءًا منك، الجزء الذي يجعلك أنت، ولقد كانت لحية پايسل رائعةً فعلًا، بيضاء كالثّلج وناعمةً كصوف الحِملان، نبتةً فاخرةً غطّت وجنتيه وذقنه وانسدلَت طويلةً حتى دانَت حزامه، وقد اعتادَ المِايستر الأكبر أن يُمَلِّس عليها وهو يتكلّم بمنتهى الوقار، فمنحته سمت الحُكماء وأخفَت جميع أنواع المناظر المنفّرة، من الجِلد الرّخو المتدلّي تحت فَكّ العجوز، إلى الفم الصّغير الرّاجف والأسنان المفقودة، والثّآليل والتّجاعيد وبُقع الشّيخوخة الأكثر من أن تُحصى. حاولَ پايسل أن يُعيد تربية ما فقدَه، لكن محاولاته مُنِيَت بالفشل، ولم ينبت من وجنتيه المتغضّنتين وذقنه الضّعيف إلّا خُيوط وشُعيرات خفيفة للغاية، لدرجة أن چايمي يرى الجِلد الوردي المبقّع أسفلها.

قال العجوز: «سير چايمي، لقد رأيتُ أشياء رهيبةً في حياتي، حروبًا ومعارك واغتيالاتٍ آثمة... كنتُ صبيًا في (البلدة القديمة) عندما أتى الطّاعون الأرمد على نِصف المدينة وثلاثة أرباع (القلعة). حينها أحرقَ اللورد هايتاور كلَّ سفينةٍ في الميناء وأغلقَ البوّابات وأمرَ حُرّاسه بقتل كلّ مَن يُحاوِل الفرار، سواء أكان رجلًا أم امرأةً أم حتى طفلًا رضيعًا. بَعد أن جرى الطّاعون مجراه الطّبيعي وانزاحَ قتلوه، في اليوم نفسه الذي أعادَ فيه فتح الميناء جرّوه من على حصانه وذبَحوه هو وابنه الشّاب. حتى يومنا هذا يَبصُق الجُهلاء في (البلدة القديمة) لسماع اسمه، لكن كوينتون هايتاور فعلَ ما كان ضروريًا. أبوك كان من هذا النّوع من الرّجال أيضًا، رجلًا يفعل ما هو ضروري».

- «ألهذا يبدو مسرورًا من نفسه؟».

قال پايسل والأبخرة المتصاعدة من الجُثة تُدمِع عينيه: «اللّحم... مع جفاف اللّحم تشتدُّ العضلات وتسحب شفتيه إلى أعلى. هذه ليست ابتسامةً وإنما... جفاف لا أكثر». وأغمضَ عينيه وفتحَهما محاولًا منع الدّموع، وأردفَ: «أرجو أن تَعذرني، إنني مرهَق للغاية». واتّكأ بثقلٍ على عُكّازه وتحرّك مغادرًا السّپت على مهل. هذا الرّجل على عتبة الموت أيضًا. لا غرو أن سرسي *تقول إنه عديم الفائدة.*

بالطّبع تعتقد أخته العزيزة أن يَصف مَن في البلاط إمّا عديمو الفائدة وإمّا خونة؛ پايسل والحرس الملكي وآل تايرل وچايمي نفسه... وحتى السير إلين پاين، الفارس الصّامت الذي يعمل جلّادًا. عند شغله منصب عدالة الملك أضحت الزّنازين مسؤوليّته، وبما أنه بلا لسانٍ فغالبًا ما ترك پاين واجب إدارة تلك الزّنازين لمرؤوسيه، غير أن سرسي تلومه هو على هرب تيريون رغم ذلك. كادَ يقول لها: *كان هذا من صُنعي لا صُنعه،* لكنه وعدَ بدلًا من ذلك بأن يَحصُل على ما يستطيع من إجاباتٍ من رئيس السّجّانين، وهو عجوز محنيّ الظّهر اسمه رينيفر لونجوووترز.

قهقة الرّجل بصوتٍ كقوقأة الدّجاج حين ذهبَ چايمي يستجوبه، وقال له: «أراك تتساءل عن اسمي هذا. إنه اسم قديم، هذا صحيح. لستُ أحبُّ التّباهي، لكن في عروقي دماءٌ ملكيّةٌ. إنني أنحدرُ من ذُرّيّة أميرة. أبي حكى لي الحكاية وأنا صبيٌّ صغير». لم يَعُد لونجوووترز صبيًّا صغيرًا منذ سنين عدّة كما يشي رأسه المبقّع والشّعر الأبيض النّابت من ذقنه. «كانت أجمل كنوز (قفص العذراوات)، وسلبَت الأميرال العظيم اللورد أوكنفيست قلبه رغم أنه كان متزوّجًا بأخرى. أطلقَت على ابنهما اسم النّغول «ووترز» تكريمًا لأبيه، وكبرَ الابن ليُصبِح فارسًا عظيمًا. وكذا ابنه الذي وضعَ «لونج» في اسمه قبل «ووترز» ليعرف النّاس أنه ليس ابن حرام عن نفسه، وهكذا هناك القليل من دم التّنانين في عروقي».

رَدّ چايمي: «نعم، كدتُ أحسبك إجون الفاتح». ووترز من أسماء الثّغول الشّائعة في منطقة (الخليج الأسود)، وعلى الأرجح جاءَ لونجووترز القديم من ذُرّيّة أحد فُرسان العائلات الصّغيرة لا من أميرة. «لكن يتصادَف أن عندي اهتمامات أكثر إلحاحًا من نَسبك».

حنى لونجووترز رأسه قائلًا: «السّجين الضّائع».

- «والسّجّان المفقود».

عقّب العجوز: «روجن، مُشرف سجّانين. كان مسؤولًا عن المستوى الثّالث، الزّنازين السّوداء».

قال چايمي مرغمًا: «حدّثني عنه». *مهزلة لعينة*. إنه يعلم هويّة روجن، حتى إن كان لونجووترز يجهلها.

- «أشعث الشّعر، طويل اللّحية، فَظّ الأسلوب. لم يكن الرّجل يروقني، صحيح، أعترفُ بهذا. كان روجن هنا حين وصلتُ قبل اثني عشر عامًا. الملك إيرس هو من كلّفه بوظيفته، ولكن يجب أن أقول إنه نادرًا ما ظهرَ هنا، وقد دوّنتُ هذا في تقاريري يا سيّدي، أؤكّدُ لك وأعطيك كلمتي، كلمة رجلٍ في عروقه دماء ملكيّة».

اذكُر تلك الدّماء الملكيّة مرّةً أخرى وسأُريقُ القليل منها. «من رأى تلك التّقارير؟».

- «بعضها ذهبَ إلى أمين النّقد وبعضها إلى وليّ الهامسين، وكلُّها إلى رئيس السّجّانين الأعلى وعدالة الملك. لطالما جرَت الأمور على هذا المنوال في الزّنازين»، وحَكّ لونجووترز أنفه متابعًا: «روجن كان يظهر عند الحاجة يا سيّدي، لا مفرّ من قول هذا. قليلًا ما تُستخدَم الزّنازين السّوداء. قبل أن ينزل فيها أخو جنابكم الصّغير قضى المِايستر الأكبر بايسل فترةً عندنا، وقبله اللورد ستارك الخائن، وكان هناك ثلاثة آخَرون من العوام، لكن اللورد ستارك سلّمهم لحرس اللّيل. لم أرَ إطلاق سراح أولئك الثّلاثة خيرًا، لكن الأوراق كانت سليمةً. هذا أيضًا دوّنته في التّقارير، لك أن تثق بكلمتي».

- «حدّثني عن السّجّانين اللذين راحا في النّوم».

تنشّق لونجووترز قائلًا: «تقول سجّانين؟ لم يكونا سجّانين، بل مجرّد حاملَي مفاتيح. التّاج يدفع أجور عشرين حامل مفاتيح يا سيّدي، لكن طيلة خدمتي لم يزد عددهم على الاثني عشر. المفترَض أن يكون عندنا ستّة مُشرفي سجّانين أيضًا، اثنان في كلّ مستوى، لكن لا يوجَد إلّا ثلاثة».

- «أنت واثنان آخَران؟».

عادَ لونجووترز يتنشَّق، وقال باعتداد: «أنا رئيس مُشرفي السَّجَّانين يا سيِّدي، أي أني أعلى من مُشرفي السَّجَّانين. إنني مكلَّف بمراجعة الدَّفاتر. إذا كان سيِّدي يرغب في إلقاء نظرةٍ عليها فسيرى أن الأرقام كلَّها مضبوطة»، ثم إنه راجعَ الدَّفتر الضَّخم المغلَّف بالجِلد المفتوح أمامه، وأردفَ: «حاليًا عندنا أربعة سُجناء في المستوى الأول وواحد في الثَّاني، بالإضافة إلى أخي جنابكم»، ثم قطَّب وجهه مضيفًا: «الذي فَرَّ، هذا صحيح، سأشطبُ اسمه»، والتقطَ ريشة كتابةٍ وبدأ يسنُّها.

فكَّر چايمي بجهامة: *ستَّة سُجناء، بينما ندفع أجور عشرين حامل مفاتيح وستَّة مُشرفي سجَّانين ورئيس مُشرفي سجَّانين وسجَّان وعدالة الملك*. «أريدُ أن أستجوب حاملَي المفاتيح هذين».

تخلَّى رينيفر لونجووترز عن سَنِّ ريشته ورفعَ عينيه رامقًا چايمي بارتياب، ثم سألَ: «تستجوبهما يا سيِّدي؟».

- «كما سمعتني».

- «سمعتك يا سيِّدي، سمعتك بالتَّأكيد، ولكن... يستطيع سيِّدي أن يستجوب من يشاء، هذا صحيح، فليس لي أن أقول إنه لا يستطيع، ولكن أيها الفارس، إذا سمحت لي، لا أظنُّ أنهما سيُجيبان. إنهما ميتان يا سيِّدي».

- «ميتان؟! بأمر مَن؟».

- «بأمرك كما حسبتُ... أو ربما بأمر الملك؟ لم أسأل. ليس... ليس لي أن أراجع رجال الحرس الملكي».

ضَبَّ الجواب الملح على جرحه. لقد استخدمَت سرسي رجاله ليقوموا بعملها الدّامي، هُم وأعزّاؤها الإخوة كِتلبلاك.

بَعدها، في الزّنزانة التي فاحت فيها رائحة الدّماء والموت، زمجرَ چايمي في بوروس بلاونت وأوزموند كِتلبلاك قائلًا: «أيها الأحمقان عديما العقل، ماذا حسبتما نفسيكما فاعلين؟».

أجابَ السير بوروس الأقصر قامةً من چايمي لكنه أثقل: «ليس أكثر مما قيلَ لنا يا سيّدي. جلالتها أمرَت بهذا، أختك».

ونَشَّ السير أوزموند إبهامه في حزام سيفه مضيفًا: «طلبَت أن يناما إلى الأبد، فحرصت وإخوتي على هذا».

هذا ما حرصتم عليه حقًّا. كانت إحدى الجثّتين ملقاةً على وجهها على المائدة كرجلٍ غابَ عن الوعي في أثناء مأدبة، لكن ما تحت رأسه بِركة من الدّم لا النّبيذ. أمّا حامل المفاتيح الثّاني فيبدو أنه استطاعَ أن ينهض من على الدّكّة ويسحب خنجره قبل أن يغرس أحدهم سيفًا طويلًا في ضلوعه، فكانت نهايته الأطول والأكثر فوضى. *قلتُ لفارس ألّا يمسّ الأذى أحدًا في تلك المسألة، ولكن كان عليّ أن أقول لأخي وأختي أيضًا*.

«أسأتم التّصرّف أيها الفارس».

هَزَّ السير أوزموند كتفيه قائلًا: «لن يفتقدهما أحد. أراهنُ أنهما لعبا دورًا في ما جرى، بالإضافة إلى الآخَر المفقود».

كان يُمكن لچايمي أن يقول له: *لا. قارس تَش مخدَّرًا في تبيذهما ليناما*، لكنه قال: «إذا صَحَّ هذا لكنا استطعنا انتزاع الحقيقة منهما»... *كانت تُضاجِع لانسل وأوزموند كِتلبلاك وربما فتى القمر أيضًا*... «لو كنتُ ذا طبيعةٍ شكَّاكة لتساءلتُ عن سبب استعجالكم التأكُّد من عدم استجواب هذين الاثنين أبدًا. هل أردتم إخراسهما لإخفاء دوركم في المؤامرة؟».

رَدَّ كِتلبلاك مبغوتًا: «نحن؟ لم نفعل إلَّا ما أمرَت به الملكة، أقسمُ بكلمتي كأخيك المحلَّف».

اختلجَت أصابع چايمي الشَّبحيَّة وهو يقول: «أحضِر أوزني وأوزفريد ونظِّفوا الفوضى التي صنعتموها، وعندما تأمرك أختي المرَّة القادمة بقتل أحدٍ تعالَ إليَّ أولًا. فيما عدا هذا اغرُب عن وجهي أيها الفارس».

تردّدت أصداء الكلام في عقله وهو واقف في عتمة (سِپت بيلور)، وقد اسودّت النّوافذ كلُّها من فوقه، وأصبحَ يرى ضوء النُّجوم البعيدة الخافت إذ غابَت الشّمس تمامًا. ما زالَت رائحة الموت النّتنة تزداد قوّةً على الرغم من الشُّموع المعطّرة، وذكّرت تلك الرّائحة چايمي لانستر بالممرّ أسفل (النّاب الذّهبي) حيث حقّق نصرًا عظيمًا في أيام الحرب الأولى. في الصّباح التّالي للمعركة التهمَت الغِربان وليمةً من لحم المنتصرين والمهزومين على حدّ سواء، مِثلما التهمَت لحم ريجار تارجاريَن بَعد (التّالوث). *ما قيمة التّاج إذا كانت الغِربان تتعشّى بلحم الملوك؟*

يظنُّ چايمي أن هناك غِربانًا تدور حول أبراج (سِپت بيلور) السّبعة وقُبّته العظيمة الآن تحديدًا، تضرب أجنحتها السّوداء هواء المساء وهي تبحث عن سبيلٍ للدّخول. حريٌّ بكلّ غُرابٍ في (الممالك السّبع) *أن يأتي ويُعرِب عن تقديره لك يا أبي. لقد أطعمتها جميعًا، من (كاستامير) إلى (النّهر الأسود).* سرّت الفكرة اللورد تايوين الذي اتّسعت ابتسامته أكثر، ففكّر چايمي: بحَقّ *الجحيم، إنه يبدو كعريسٍ في أثناء إضجاعه!*

كان الخاطر شاذًا لدرجة أن چايمي أطلق ضحكةً عاليةً.

وتردّد صداها في الأجنحة والسّراديب والمُصلّيات كأن الموتى المدفونين داخل الجُدران يضحكون أيضًا. *ولِمَ لا؟ الأمر أكثر عبثًا من مسرحيّةٍ هزليّة؛ وقوفي ساهرًا على الأب الذي ساعدتُ على قتله، وإرسالي رجالًا للقبض على الأخ الذي ساعدتُ على إطلاق سراحه...* كان قد أمرَ السير أدام ماربراند بتفتيش (شارع الحرير)، وقال له: «ابحثوا تحت كلّ سرير. أنت تعلم غرام أخي بالمواخير». سيجد ذوو المعاطف الذّهبيّة أشياء أكثر إثارةً للاهتمام تحت فساتين العاهرات مما سيجدون تحت أسرّتهن، حتى إن چايمي يتساءل كم نغلًا سيُولَد من جرّاء هذا البحث عديم الجدوى.

دون إرادةٍ منه انتقلَت أفكاره إلى بِريان التارثيّة. *فتاة حمقاء عنيدة قبيحة*. تُرى أين هي الآن؟ *امنحها القوّة يا أبتِ*. يكاد يكون دُعاءً... لكن أإلى الإله يبتهل؟ إلى (الأب في الأعالي) الذي يتألّق تمثاله المذهّب الشّاهق في ضوء الشّموع عبر المكان؟ أم أنه يُصلّي للجُثمان المسجّى أمامه؟ *هل يهمّ؟ كلاهما لم يُنصِت قَطُّ*. منذ كبرَ چايمي حتى استطاعَ حمل السّيف كان (المُحارب) إلهه. قد يكون مَن عداه من الرّجال آباءً وأبناءً وأزواجًا، أمّا چايمي لانستر فلا. إنه الرّجل ذو السّيف الذّهبي كشَعره، مُحارب، وأبدًا لن يكون إلّا هذا.

يَجدُر بي أن أخبر سرسي بالحقيقة، أن أعترف بأني مَن حرّر أخانا الصّغير من زنزانته. قول الحقيقة أتى بنتيجةٍ رائعة مع تيريون في النّهاية. *قتلتُ ابنك الكريه، والآن سأذهبُ لأقتل أبانا أيضًا.* سمعَ چايمي العِفريت يضحك في العتمة، فالتفتَ يَنظُر لكن الصّوت لم يكن إلّا صدى ضحكته هو. أغلقَ عينيه، وبالسّرعة نفسها فتحَهما مجدّدًا. يجب *ألّا أنام*. إذا نامَ فربما يَحلُم. أوه، يا لضحكة تيريون السّاخرة تلك... *عاهرة كذّابة... تُضاجِع لانسل وأوزموند كِتلبلاك...*

في منتصَف اللّيل صرّت مِفصلات (باب الأب) مع دخول عدّة مئات من السّيتونات لإقامة صلواتهم، يرتدي بعضهم الأردية المفصّلة من قُماش الفضّة ويعتمر الأكاليل البلّور التي تُمَيِّز مجلس القانِتين، في حين علّق إخوتهم الأدنى شأنًا بلّوراتهم من سيورٍ حول أعناقهم وأوثَقوا أرديتهم البيضاء بأحزمةٍ من سبع جدائل بسبعة ألوان مختلفة. من (باب الأم) دخلَت السّيتوات من معزلهن، سبع يرتدين الأبيض ويمشين متجاورات ويترنّمن بنعومة، بينما نزلَت الأخوات الصّامتات (سلالم الغريب) في طابور، وقد ارتدَت وصيفات الموت الرّمادي الفاتح، وفوق رأس كلّ منهن قلنسوة وعلى وجهها لثام، فلا يُرى منها إلّا عيناها. ظهرَ حشد من الإخوة أيضًا، يرتدون البنّي والعسلي والرّمادي الدّاكن، وحتى الخيش غير المصبوغ، ويشدّون ما يرتدونه على خصورهم بحبال القنّب، ويُعَلِّق بعضهم مطرقة (الحدّاد) الحديد من الأعناق، وبعضهم أوعية الشّحاذة.

لم يُعِر أحد من المصلّين چايمي اهتمامًا، بل داروا في محيط السّپت متعبّدين على كلّ من المذابح السّبعة تكريمًا لسبعةِ أوجُه الإله، ولكلّ إلهٍ قدّموا قُربانًا، ولكلّ واحدٍ أنشَدوا لترتفع أصواتهم وقورًا عذبةً. أسدلَ چايمي جفنيه ليُصغي، لكنه رفعهما من جديدٍ لمّا بدأ يتمايَل. *إنني مرهَق أكثر مما حسبتُ.*

لقد مضت سنوات منذ أذّى شعيرة السّهر آخِر مرّة. *كنتُ أصغر حينئذٍ، غُلامًا في الخامسة عشرة*. لم يكن يرتدي دِرعًا وقتها، بل مجرّد سُترةٍ بيضاء تقليديّة، ولم يَبلُغ السّبت الذي أمضى فيه اللّيل ثُلث مساحة أيٍّ من أجنحة (سيبت بيلور) السّبعة. ليلتها وضعَ چايمي سيفه على رُكبتَي (المُحارب) وكوّم دِرعه عند قدميه وركعَ على الأرض الحجريّة الخشنة أمام المذبح، وحين بزغَ الفَجر كانت رُكبتاه مسحوجتين داميتين، فقال له السير آرثر داين لمّا رآه: «لا مناص من أن ينزف كلُّ الفُرسان يا چايمي. الدّم ختم إخلاصنا»، ثم إنه رفعَ سيفه (فَجر) مربّتًا به على كتفَي چايمي، وكان النّصل الشّاحب حادًّا لدرجة أن تلك اللّمسة الخفيفة للغاية شقّت سُترته ومن جديدٍ نزفَ... لكنه لم يَشعُر بالجرح لحظةً. غُلامًا ركعَ، وفارسًا نهضَ. *الأسد الصّغير لا قاتِل الملك*.

لكن ذلك كان منذ زمن، والغُلام مات.

لا يدري متى انتهَت الصّلوات. ربما نامَ وهو واقف. حين خرجَ المتعبِّدون عادَ السّكون يُخيِّم على (السّبت الكبير)، والشّموع كأنها حائط من النّجوم المتّقدة في الظّلام، وإن ظَلَّ الهواء يعبق بالموت. عدّل چايمي قبضته على السّيف الذّهبي العظيم. ربما كان عليه أن يدع السير لوراس يحلُّ محلّه رغم كلّ شيء. *كانت سرسي لتكره ذلك*. فارس الزّهور ما زالَ نِصف صبي، ومغرور متكبِّر، لكنه يملك إمكانيّة أن يُصبِح عظيمًا، أن يكون من أهل المآثر الكُبرى التي تليق بـ(الكتاب الأبيض).

سيكون (الكتاب الأبيض) في انتظاره عندما ينتهي سهره، صفحته منه مفتوحة ترمُقه بتأنيبٍ صامت. *سأمزِّق الكتاب اللّعين إربًا قبل أن أملأه بالأكاذيب*. لكن إذا كان لن يكذب، فماذا يَكتُب سوى الحقيقة؟

فجأةً وجدَ امرأةً تقف أمامه.

المطر يَسقُط من جديد. رآها مبتلّةً تمامًا والماء يَقطُر من معطفها صانعًا بِركةً عند قدميها. *كيف دخلَت؟ لم أسمعها تَدخُل*. كانت ترتدي ثياب ساقية في حانة، معطفًا من الخيش الثّقيل مصبوغًا بلا مهارةٍ بدرجات البنّي ومهترئ الحاشية، وقد أخفَت قلنسوة وجهها لكنه رأى الشّموع تتراقَص في لُجّتَي عينيها الخضراوين، ولمّا تحرّكت عرفَها.

- «سرسي». تكلّم ببطءٍ كرجلٍ صحا لتوّه من حُلمٍ وما زالَ يتساءَل أين هو. «ما السّاعة الآن؟».

أجابَت أخته: «ساعة الذّئب[33]»، وأنزلَت قلنسوتها وتقلّص وجهها وهي تُضيف: «الذّئب الغريق ربما»، ثم ابتسمَت له بكلّ عذوبةٍ، وقالت: «هل تَذكُر أول مرّةٍ أتيتك هكذا؟ كانت في خانٍ كئيب عند (زُقاق بنات عرس)، وارتديتُ ثياب خادمةٍ لأمرّ من حُرّاس أبي».

- «أذكرُ. كان في (زُقاق الحنشان)». تُريد مني *شيئًا*. «ماذا تفعلين هنا في هذه السّاعة؟ ماذا تُريدين مني؟».

تردّدت كلمته الأخيرة في جنبات السّبت، مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني، وراحَت تخفت حتى غدَت همسةً، وللحظةٍ جرؤ چايمي على أن يأمل أن كلّ ما تُريده سرسي هو الرّاحة بين ذراعيه.

- «تكلّم بهدوء». كانت نبرتها غريبةً... لاهثةً، أقرب إلى الخوف. «چايمي، كيڤان رفض، لن يتولّى اليدويّة. إنه... إنه يعلم بأمرنا، لمّح إلى هذا بوضوح».

قال مندهشًا: «رفض؟ وكيف يعلم؟ لا بُدّ أنه قرأ ما كتبَه ستانيس، لكن ليس هناك...».

قاطعَته: «تيريون كان يعلم. من يدري ماذا حكى ذلك القزم البغيض أو لمَن؟ العمّ كيڤان أقلّ المصائب... السّپتون الأعلى، تيريون هو من رقّاه إلى تاجه حين ماتَ الآخر البدين. ربما يعلم أيضًا»، ودنَت منه متابعةً: «لا مفرّ من أن تكون يد تومن. إنني لا أثق بمايس تايرل. ماذا لو كانت له يد في موتِ أبينا؟ ربما كان يتآمَر مع تيريون. من الممكن أن يكون العِفريت في طريقه إلى (هايجاردن)...».

- «غير صحيح».
قالت متوسّلةً: «كُن يدي وسنحكُم (الممالك السّبع) معًا كملكٍ ومليكته».
- «كنتِ مليكة روبرت، ولكنكِ تأبين أن تكوني مليكتي».
- «كنتُ لأفعلها إذا جرؤت، لكن ابننا...».
قاطعَها بقسوة: «تومن ليس ابني كما لم يكن چوفري. لقد جعلتِهما ابنَي روبرت أيضًا».
جفلَت أخته قائلةً: «لقد وعدت بأن تحبّني دائمًا، وليس من المحبّة أن تجعلني أتوسّلُ».
أفعمَت أنف چايمي رائحة خوفها على الرغم من نتانة الجثّة، وأرادَ أن يحتويها بذراعيه ويُقبّلها، أن يدفن وجهه في خُصلاتها الذّهب ويعدها بأن لا أحد سيمسّها بسوءٍ أبدًا... لكنه أخبرَ نفسه: *ليس هنا، ليس هنا أمام الآلهة وأبينا*، وقال لها: «لا، لا أستطيع، ولن أفعل».
قالت وهو يسمع المطر ينهمر على النّوافذ بالأعلى: «إنني محتاجة إليك، محتاجة إلى نِصفي الآخر. أنت أنا وأنا أنت. أحتاجُ إليك إلى جواري، في داخلي، أرجوك يا چايمي، أرجوك».
نظرَ چايمي ليستوثق بأن اللورد تايوين لا ينهض في هذه اللّحظة من على منصّته غاضبًا، لكن أباه ظَلّ متمدّدًا في مكانه، باردًا يتعفّن. «لقد خُلِقتُ لميادين المعارك لا قاعة مجلس، والآن يبدو أني لم أعد أصلحُ لذلك أيضًا».

مسحَت سرسي دموعها بكمِّ بنّي زَت، وقالت: «ليكن، إذا كانت ميادين المعارك ما تشتهي فميادين المعارك ما سأعطيك»، ورفعَت قلنسوتها بغضبٍ مردفةً: «كنتُ حمقاء لمجيئي، كنتُ حمقاء عندما أحببتك»، وردَّدت خُطاها المبتعدة أصداءً عاليةً شقَّت الهدوء وتركَت بُقعًا مبتلّةً على الأرض الرُّخام.

كادَ الفَجر يأخذ چايمي على حين غرّة، وإذ بدأ زُجاج القُبّة يستنير راحَت أقواس قزح تتلألأ على الجُدران والأرضيّات والأعمدة، وغمرَت جُثمان اللورد تايوين بسديمٍ من الضَّوء عديد الألوان. يد الملك يتعفَّن بوضوح، وقد شابَ وجهه اخضرار خفيف وغاصَت عيناه كثيرًا فأصبحَتا حُفرتين سوداوين عميقتين وبدأت وجنتاه تنفتقان، بينما تسرَّب سائل أبيض كريه من مِفصلات دِرعه الفاخرة بلونيها الذَّهبي والقرمزي ليتجمَّع تحت جثّته.

أول من رأى المنظر الشيتونات عندما عادوا لأداء صلوات الفَجر، فأنشَدوا أناشيدهم ودعوا أدعيتهم وقلّصوا أنوفهم، لكن رأس واحدٍ من القانِتين دارَ لدرجة أنهم اضطرُّوا إلى مساعَدته على الخروج من الشيپت، وبَعدها بفترةٍ قصيرة دخلَت جماعة من التّلامذة مؤرجحين المباخر، فأفعمَ البَخور الكثيف الهواء حتى بدا النَّعش ملتحفًا بالدُّخان، وغابَت أقواس قزح كلُّها في ذلك الضّباب المعطّر، إلّا أن الرّائحة ظلّت قويّةً، رائحة هي مزيج من العفن والشّذا جعلَت الرّغبة في القيء تنتاب چايمي.

عندما فُتِحت الأبواب كان آل تايرل بين أول الدّاخلين بما يُناسب مكانتهم، وقد أحضرَت مارچري باقةً كبيرةً من الورود الذّهبيّة وضعَتها بحركةٍ مسرحيّة عند قدم نعش اللورد تايوين، وإن احتفظَت بواحدةٍ أبقَتها تحت أنفها وهي تتّخذ مقعدها. *إذن فالفتاة ذكيّة كما هي جميلة. إنها أفضل من كثيراتٍ غيرها كملكةٍ لتومن. ملوك قبله تزوّجوا من هن أسوأ.*

حذَت رفيقات مارچري حذوها، أمّا سرسي فانتظرَت حتى أخذَ الباقون أماكنهم كي تَدخُل وإلى جوارها تومن، يُصاحِبهما السير أوزموند كِتلبلاك في دِرعه البيضاء المطليّة بالمينا ومعطفه الصّوف الأبيض.

- *«... كانت تُضاجِع لانسل وأوزموند كِتلبلاك وربما فتى القمر أيضًا...».*

رأى چايمي كِتلبلاك عاريًا في الحمّام، ورأى الشّعر الأسود على صدره وذلك الأشبه بالقشّ الخشن بين ساقيه، وتخيّل ذلك الصّدر مضغوطًا إلى صدر أخته وذلك الشّعر يحكّ جِلد ثدييها النّاعم. *ما كانت لتفعل شيئًا كهذا. العِفريت كاذب.* الذّهب المغزول والشّعر الأسود مشتبكان، يتصبّبان عرقًا، وفلقتا مؤخّرة كِتلبلاك الضيّقتان تنضمّان كلّما دفعَ نفسه في داخلها، ويسمع چايمي أنين أخته. *لا، إنها كذبة.*

بعينين محمرّتين ووجهٍ ممتقع صعدَت سرسي الدّرجات وركعَت إلى جوار أبيهما وسحبَت تومن ليركع معها. تراجعَ الصّبي لمرأى المنظر لكن أمّه أطبقَت على معصمه قبل أن يبتعد، وهمسَت له: «صَلِّ»، فحاولَ تومن أن يُطيع الأمر، غير أنه مجرّد طفلٍ في الثّامنة واللورد تايوين زعِب حقيقي. نفس يائس واحد من الهواء وأجهشَ الملك بالبُكاء. قالت سرسي: «كُفَّ عن هذا!»، ودوّر تومن رأسه وانثنى على نفسه مفرغًا معدته، وسقطَ تاجه ليتدحرج على رُخام الأرض. تراجعَت أمّه باشمئزاز، وفي غمضة عينٍ كان الملك يَركُض إلى الباب بأقصى سُرعةٍ تُتيحها له ساقاه ذاتا الأعوام الثّمانية.

قال چايمي بحدّةٍ بينما التفتَ كِتلبلاك ليُطارِد التّاج: «سير أوزموند، خُذ مكاني»، وناولَ الرّجل سيفه الذّهبي وهرعَ وراء مليكه. في (بهو القناديل) لحقَ به أمام أعيُن دستةٍ من السّپتوات الجافلات، وقال تومن باكيًا: «إنني آسف. سأبلي بلاءً أحسن غدًا. أمّي تقول إن على الملك أن يُري النّاس الطّريق، لكن الرّائحة قلبَت معدتي».

لن يَصلُح هذا. آذان مرهفة كثيرة وأعيُن تُراقِب. قال چايمي: «الأفضل أن نَخرُج يا جلالة الملك»، وقادَ الصّبي إلى الخارج حيث الهواء نظيف نقيٌّ قدر المستطاع في مدينةٍ كـ(كينجز لاندنج). رأى أربعين من ذوي المعاطف الذّهبيّة منتشرين في السّاحة لحراسة الخيل والهوادج، فأخذَ الملك جانبًا على مسافةٍ لا بأس بها من الجميع، وأجلسَه على الدّرجات الرُّخام، حيث قال الصّبي بإصرار: «لم أكن خائفًا، الرّائحة قلبَت معدتي. ألم تقلب معدتك أيضًا؟ كيف تحتملها يا خالي الفارس؟».

لقد شممتُ يدي وهي تتعفّن عندما جعلَني ڤارجو هوت أعلّقها كقلادة. قال چايمي لابنه: «الرّجل يستطيع أن يحتمل أيّ شيءٍ إذا لزمَ الأمر». *لقد شممتُ رائحة شواء رجلٍ طهاه الملك إيرس في دِرعه*. «العالم مليء بالأهوال يا تومن، فإمّا أن تُقاوِمها وإمّا أن تَنظُر دون أن ترى... تنسحب داخل نفسك».

فكّر تومن لحظةً، ثم قال بنبرة اعتراف: «كنتُ... كنتُ أنسحبُ داخل نفسي أحيانًا عندما كان چوفي...».

- «چوفري». كانت سرسي واقفةً فوقهما والرِّيح تضرب ساقيها بتنُّورتها. «أخوك كان اسمه چوفري، وما كان ليُخزيني هكذا».

- «لم أقصد، لم أكن خائفًا يا أمِّي، لكن رائحة السيِّد والدك كانت سيئةً...».

قالت: «هل تظنُّ أني شممتُ رائحةً أفضل؟ إن لي أنفًا أيضًا»، وأمسكَت أذنه وسحبَته ليقف مضيفةً: «اللورد تايول له أنف. هل رأيته يتقيأ في السِّپت المقدَّس؟ هل رأيت الليدي مارچري تنوح كالرُّضَّع؟».

قامَ چايمي قائلًا: «سرسي، كفى».

اشتعلَ الغضب على مُحيّاها، وقالت: «ماذا تفعل هنا أيها الفارس؟ لقد أقسمت أن تسهر على جثَّة أبينا حتى ينتهي التَّأبين على ما أذكرُ».

- «التَّأبين انتهى. اذهبي وانظُري إليه».

- «لا. سبعة أيام وسبع ليالٍ كما قلت. مؤكَّد أن حضرة القائد يعرف كيف يعدُّ إلى سبعة. خُذ عدد أصابعك وأضِف اثنين».

كان آخَرون قد بدأوا يتدفَّقون من الدَّاخل إلى الشَّاحة هاربين من الرَّائحة الشَّنيعة، فقال لها چايمي محذِّرًا: «سرسي، اخفضي صوتكِ، اللورد تايرل يقترب».

سبرَت كلماته غضبتها وسحبَت الملكة تومن إلى جانبها، وانحنى مايس تايرل أمامهما قائلًا: «أرجو أن يكون جلالته بخير».

قالت سرسي: «حزن الملك غلبه لا أكثر».

- «كما يغلبنا جميعًا. إذا كان هناك ما بإمكاني أن أفعله...».

بعيدًا بالأعلى أطلقَ غُراب صرخةً مرتفعةً وهو جاثم على تمثال الملك بيلور ويتبرّز على الرّأس المقدّس.

قال چايمي: «هناك الكثير جدًا بإمكانك أن تفعله من أجل تومن يا سيّدي. هلّا شرّفت جلالتها بتناوُل العَشاء معها بَعد صلوات المساء؟».

رمَته سرسي بنظرةٍ تُذبِل الزَّرع، لكنها تعقّلت وحفظَت لسانها هذه المرّة، في حين بدا تايرل مندهشًا، وقال: «العَشاء؟ أظنُّ... بالطّبع، سنتشرّف بهذا أنا والسيّدة زوجتي».

أجبرَت الملكة نفسها على الابتسام وردّدت كلامًا فارغًا عن سرورها، لكن حين انصرفَ تايرل وضرِفَ تومن مع السير أدام ماربراند التفتَت إلى چايمي ساخطةً، وقالت: «أأنت سكران أم تَحلُم أيها الفارس؟ أخبِرني من فضلك، لماذا أتناولُ العَشاء مع هذا الأحمق الجشع وزوجته البلهاء؟»، وحرّكت هبّة ريحِ شَعرها الذّهبي وهي تُضيف: «لن أعيّنه يدًا إذا كان هذا ما...».

قاطعَها: «أنتِ في حاجةٍ إلى تايرل، ولكن ليس هنا. سليه أن يستولي على (ستورمز إند) من أجل تومن. أطري عليه وقولي له إنك تحتاجين إليه في الميدان بدلًا من أبي. مايس يتخيَّل نفسه مُحاربًا مغوارًا، فإمَّا يُسَلِّمكِ (ستورمز إند) وإمَّا يُفسد الأمر ويبدو كالحمقى. في الحالتين أنتِ الرَّابحة».

لاحَت أمارات التَّفكير على سرسي وهي تقول: «(ستورمز إند)؟ نعم، ولكن... اللورد تايرل جعلَ من الواضح تمامًا أنه لن يبرح (كينجز لاندنج) قبل أن يتزوَّج تومن مارچري».

تنهَّد چايمي، وردَّ: «دعيهما يتزوَّجان إذن. ستمضي سنوات قبل أن يكبر تومن ويستطيع إتمام الزِّيجة، وحتى ذلك الحين فإبطالها متاح دائمًا. أعطي تايرل زفافه وأرسليه يلعب لُعبة الحرب».

زحفَت ابتسامة حذرة على وجه أخته، وغمغمَت: «حتى الحصار له أخطاره، بل وربما يفقد سيِّد (هايجاردن) حياته في مغامرةٍ كتلك».

أيَّدها قائلًا: «تلك المخاطرة واردة، خصوصًا إذا نفدَ صبره هذه المرَّة واختارَ اقتحام البوَّابة».

ثبَّتت سرسي عينيها عليه لحظات، ثم قالت: «أتدري؟ للحظةٍ كنت تتكلَّم كأنك أبونا بالضَّبط».

---

(33) في عالم الرِّواية ساعة الذِّئب هي الفترة الأشدُّ حلكةً من اللَّيل، تسبقها ساعة البومة وتأتي بَعدها ساعة العندليب، ثم الفَجر. (المترجم).

كانت بوّابة (وادي الغسق) مغلقةً موصدةً. في عتمة ما قبل الفَجر التمعَت أسوار البلدة بشحوب، وعلى متاريسها تحرّكت خيوط الضّباب كحُرّاس شبحيّين، فيما توقّفت عربات اليد والعربات التي تجرّها الثّيران خارج البوّابة منتظرةً شروق الشّمس. أخذَت بِريان مكانها وراء عربةٍ محمّلة باللّفت، ولمّا كانت زَبلتا ساقيها تُؤلِمانها فقد أراحَها أن تترجّل وتفردهما. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تُقبِل عربة يدٍ أخرى من الغابة، وحين بدأت السّماء تُنير كان الطّابور يمتدّ رُبع ميل.

حدجَها المُزارعون بنظراتٍ فضوليّة وإن لم يُخاطِبها أحد. قالت لنفسها: *عليّ أنا أن أخاطِبهم*، لكن الكلام مع الأغراب كان صعبًا عليها دومًا. حتى في صِغرها كانت خجولًا، ولم تُفلِح سنوات السّخرية الطّويلة إلّا في جعلها أكثر خجلًا. *يجب أن أسأل عن سانزا، وإلّا كيف سأجدها؟* تنحنحت وقالت للمرأة الجالسة على عربة اللّفت: «أيتها العقيلة، هل عساكِ رأيتِ أختي على الطّريق؟ إنها بنت في الثّالثة عشرة، جميلة الملامح ولها عينان زرقاوان وشَعر كستنائي. ربما تكون راكبةً مع فارس سكّير».

هزّت المرأة رأسها نفيًا، لكن زوجها قال: «أراهنُ إذن أنها لم تَعُد بنتًا. ما اسم المسكينة؟».

وجدَت بِريان رأسها خاليًا. *كان عليّ أن أختلق لها اسمًا*. أيُّ اسم على الإطلاق يَصلُح، إلّا أنها لم تنجح في التّفكير في واحد.

- «لا اسم؟ طيِّب، الطُّرق مليئة بالبنات اللاتي بلا اسم».

أضافَت زوجته: «وساحات الأشنة أكثر امتلاءً».

مع بزوغ الفَجر ظهرَ الحَرس في الشُّرفات، فصعدَ المُزارعون إلى عرباتهم وهزُّوا أزمّة دوابِّهم، وامتطَت بِريان فَرسها أيضًا وألقَت نظرةً وراءها. معظم من في الطّابور المنتظر دخول (وادي الغسق) مُزارعون بأحمالٍ من الخضراوات والفواكه في طريقها إلى البيع، ووراءها بنحو دستةٍ من المنتظرين ثمّة اثنان من رجال البلدة الأثرياء يركبان حصانين أصيلين، وعلى مسافةٍ أبعد لمحَت صبيًّا نحيلًا على حصانٍ أرقط تقليدي، لكنها لم ترَ أثرًا للفارسين المتجوِّلين أو السير شادريك الفأر المجنون.

لوّح الحَرس للعربات بالمرور دون أن يُكلّفوا أنفسهم مجرّد النّظر، ولكن حين بلغَت بِريان البوّابة جعلَتهم يعدلون عن وتيرتهم، وصاح قائدهم: «توقّفي يا هذه!»، وقاطعَ رجلان يرتديان الحلقات المعدنيّة حربتيهما ليسدّا طريقها، بينما أضافَ القائد: «أفصِحي عن غرضكِ هنا».

- «أبحث عن سيِّد (وادي الغسق) أو مِايستره».

ثبّت القائد نظرته على ترسها قائلًا: «خُفّاش لونستون الأسود، رمز سيّئ السّمعة».

- «ليس رمزي، وأنوي أن أعيد طلاء التّرس».

حكّ القائد ذقنه المغطّى بالزّغب، وقال: «حقًّا؟ أختي تُزاوِل هذا العمل بالمناسَبة. ستجدينها في المنزل ذي الباب الملوّن، قُبالة (السّيوف السّبعة)»، وأشارَ إلى الحارسين مردفًا: «دعاها تمرُّ. إنها فتاة».

ينفتح مبنى البوّابة على ميدان الشوق، حيث يُفرِّغ من سبقوها إلى الدّخول حمولاتهم من اللّفت والبصل الأصفر والشّعير ليُنادوا عليها، بينما يبيع آخرون أسلحةً ودروعًا، وبأسعار رخيصة للغاية أيضًا كما تشي الأرقام التي سمعَتهم يزعقون بها وهي تمرّ. مع *غِربان الجيف يأتي اللّصوص بعد كلّ معركة*. مضت بِريان بفَرسها لتشهد قمصانًا حلقاتها المعدن لا تزال ملوّثةً بالدّماء البنّيّة وخوذاتٍ منبعجةً وسيوفًا طويلةً ثلمةً، بالإضافة إلى الثّياب المعروضة للبيع التي تضمّ أحذيةً جِلد ومعاطف فرو وشتراتٍ متّسخة فيها تمزُّقات في بقاعٍ مريبة. تعرّفت عددًا كبيرًا من الشّارات، كالقبضة المقفّزة بالحلقات المعدنيّة والموظ[34] والشّمس البيضاء والبلطة ذات النّصلين. كلُّها رموز شماليّة، غير أن رجال تارلي لقوا حتفهم هنا أيضًا، وكثيرين من أراضي العواصف كذلك، إذ رأت تفّاحًا أحمر وأخضر، وتُرسًا عليه صواعق عائلة لايجود الثّلاث، وكسوة حصانٍ مزركشة بنمل عائلة أمبروز، كما ظهرَ صيّاد اللورد تارلي طويل القدمين على كثرةٍ كاثرة من الشّارات والدّبابيس والشّترات. *عدوًّا كان أم صديقًا، الغِربان لا تُبالي*.

وجدَت بِريان تُروسًا من خشب الصَّنوبر وخشب الزَّيزفون تُشترى ببنسات معدودة، لكنها تجاوزَتها بلا اكتراث، إذ تنوي الاحتفاظ بالتُّرس البلُّوط الثَّقيل الذي أعطاها چايمي إياه وحملَه بنفسه من (هارنهال) إلى (كينجز لاندنج). للتُّرس المصنوع من خشب الصَّنوبر مميِّزاته، فهو أخفُّ وزنًا ومن ثم أسهل في الحمل، ومن شأن الخشب الطَّري أن يجعل سيف الخصم أو فأسه ينغرس فيه فلا يستطيع انتزاعه، على أن البلُّوط يحمي حامله أكثر إذا كان قويًّا كفايةً لاحتمال وزنه.

(وادي الغسق) مبنيَّة حول مينائها. شمال البلدة ترتفع جُروف الطَّباشير، وإلى الجنوب يقي لسان أرضٍ صخريَّة الشُّفن الرَّاسية من العواصف الهابَّة من (البحر الضيِّق)، في حين تطلُّ القلعة على الميناء وتُمكن رؤية حصنها المربَّع وأبراجها المستديرة من أيِّ مكانٍ في البلدة. ألفَت المشي أسهل من الرُّكوب في الشَّوارع المرصوفة المزدحمة، فتركَت بِريان فَرسها في اسطبلٍ وواصلَت الطَّريق على قدميها، وقد علَّقت تُرسها على ظَهرها ودسَّت لفافة النَّوم تحت إبطها.

لم يكن العثور على أخت القائد صعبًا، فـ(الشيوف السّبعة) أكبر خانٍ في البلدة، بناء من أربعة طوابق يرتفع فوق جيرانه، ويُقابِله منزل بابه من مصراعين مزيَّنين برسمٍ رائع الجَمال لقلعةٍ في غابةٍ خريفيَّة، أشجارها ملوّنة بدرجات الخمري والذَّهبي، ويزحف اللّبلاب على جذوع السّنديانات العجوز، وحتى أشجار البلُّوط مرسومة بعنايةٍ وشغف، ولمّا أمعنَت بِريان النَّظر رأت مخلوقاتٍ وسط ورق الشَّجر، منها ثعلب أحمر مكّار وغصفوران على فرع، غير ظِلِّ الذِّئبِ البادي وراء الأوراق.

قالت للمرأة داكنة الشَّعر التي فتحت الباب حين دقَّته: «بابكِ جميل. أيُّ قلعةٍ هذه؟».

أجابَت أخت القائد: «جميع القلاع. الوحيدة التي أعرفها هي (قلعة التَّبَّة) عند الميناء. الأخرى اختلقتها من خيالي، ما ينبغي لقلعةٍ أن تبدو. إنني لم أرَ تنّينًا من قبل كذلك، ولا جريفين[35] أو يونيكورن[36]». كانت تتكلّم بأسلوبٍ مرِح، لكن عندما أرَتها بِريان الثُّرس أظلمَ وجهها، وقالت: «أمّي العجوز اعتادَت أن تقول إن الخفافيش العملاقة تطير من (هارنهال) في اللّيالي غير المُقمرة، لتحمل الأطفال سيّئي الخُلق إلى دائل المجنونة لتطبخهم. أحيانًا أسمعها تُخربِش مصاريع النّوافذ»، ثم شفطَت أسنانها مصدرةً صوتًا حادًّا وفكّرت لحظةً قبل أن تسأل: «ماذا تُريدين مكانه؟».

رمز عائلة تارث أربعة مربّعات، اثنان لونهما وردي واثنان أزرق سماوي، وعليه شمس صفراء وهلال، لكن ما دامَ النّاس يعتقدونها قاتلةً فبِريان لا تجرؤ على حمل هذا الرّمز. هكذا قالت: «بابلِكِ ذكّرني بتُرسٍ قديم رأيته مرّةً في مستودَع سلاح أبي»، ووصفَته لها قدر ما أسعفَتها الذّاكرة.

أومأت المرأة قائلةً: «أستطيعُ أن أرسمه في الحال، لكن الطّلاء سيحتاج إلى وقتٍ ليجفّ. خُذي غُرفةً في (الشيوف السّبعة) إذا أردتِ وسأجلبُ لكِ التّرس في الصّباح».

لم تكن نيّة بِريان أن تقضي اللّيل في (وادي الغسق)، ولكن قد يكون هذا خيرًا، فهي لا تدري إن كان سيّد القلعة موجودًا، وإن كان سيُوافِق على رؤيتها. شكرَت الرّسّامة وعبرَت الشّارع إلى الخان الذي تتأرجح فوق بابه لافتة عليها سبعة سيوف خشبيّة معلّقة من مسمارٍ كبير من الحديد، وعلى الرغم من أن الجير الذي رُسِمَت به الشيوف يبدو مشقّقًا متقشّرًا فإن بِريان تعرف معنى اللّافتة، وأن الشيوف ترمز إلى أبناء عائلة داركلين السّبعة الذين ارتدوا معاطف الحرس الملكي البيضاء. لا عائلة أخرى في البلاد كلّها يُمكنها أن تتباهى بهذا العدد. *كانوا مفخرة عائلتهم، والآن غدوا لافتةً فوق باب خان.*
دفعَت الباب داخلةً القاعة العامّة وطلبَت من صاحِب الخان غُرفةً وحمّامًا.

أنزلَها في غُرفةٍ في الطّابق الثّاني، وأحضرَت لها امرأة ذات وحمةٍ بلون الكبد على وجهها حوضًا خشبيًا، ثم جلبَت الماء سطلًا سطلًا. سألَتها بِريان وهي تضع جسدها في الحوض: «هل تبقّى أحد من آل داركلين في (وادي الغسق)؟».

أجابَت المرأة: «هناك آل دارك. أنا منهم عن نفسي. زوجي يقول إنني كنتُ منهم قبل زواجنا ولذا سوّدتُ معيشته بَعد الزّواج»، وضحكَت مضيفةً: «لا يُمكنكِ أن ترمي حجرًا في (وادي الغسق) دون أن تُصيبي أحدًا من آل دارك أو داركوود أو دارجود، لكن لوردات آل داركلين بادوا عن آخِرهم. اللورد دينس كان الأخير، ذلك الشّاب الأحمق الجميل. هل تعلمين أن آل داركلين كانوا ملوكًا في (وادي الغسق) قبل مجيء الأنداليّين؟ لن تُخمّني هذا من مجرّد النّظر إليّ، لكن في عروقي دماء ملكيّة، هل ترين؟ المفترَض أن أجعلهم يقولون: *كوب آخَر من المِزر يا صاحبة الجلالة، وعاء الفضلات في حاجةٍ إلى إفراغ يا صاحبة الجلالة، واجلبي لي المزيد من الحطب، النّار تكاد تهمد يا صاحبة الجلالة اللّعينة*»، وضحكَت ثانيةً وأفرغَت آخِر قطرات الماء من السّطل، وقالت: «هاكِ. هل الماء ساخن كفايةً؟».

أجابَت وهي جالسة في الماء الفاتر: «لا بأس به».

- «كنتُ لأجلب المزيد، لكنه سينسكب من فوق الحافة. فتاة بحجمكِ تملأ حوضًا كهذا».

فقط لأنه حوض صغير ضيّق. في (هارنهال) كانت الأحواض ضخمةً ومصنوعةً من الحجارة، وامتلأ الحمّام بالبُخار المتصاعد من الماء السّاخن، وأتى چايمي يخترق تلك الغشاوة عاريًا كيوم مولده، يبدو نِصف جثّةٍ ونِصف إله. قالت لنفسها متذكّرةً ووجهها يتورّد: *يومها نزلَ إلى الحوض معي*. أطبقَت على قطعةٍ من صابون القلْي الصُّلب وحكّت بها إبطيها محاولةً أن تستدعي وجه رنلي إلى الذّاكرة مرّةً أخرى.

مع برود الماء كان جسدها قد صارَ نظيفًا تمامًا، فعادَت ترتدي الملابس نفسها التي خلعَتها وأوثقَت حزام سيفها حول وَركيها، وإن تركَت قميصها المعدني وخوذتها كي لا يبدو منظرها مهذّبًا في (قلعة التّبّة). أراحَها أن تفرد ساقيها، وعند بوّابة القلعة وجدَت حارسين يرتديان سُترتين من الجِلد على كلٍّ منهما شارة تُظهِر مطرقتين حربيّتين متقاطعتين على صليبٍ مائل. قالت لهما: «أريدُ أن أتكلّم مع سيّدكما».

ضحك أحدهما قائلًا: «الأفضل أن تزعقي إذن».

وقال الثّاني: «اللورد ريكر خرجَ إلى (بِركة العذارى) مع راندل تارلي وتركَ السير روفوس ليك أمينًا للقلعة، ليعتني بالليدي ريكر والصّغار».

وإلى ليك اصطحَباها، فوجدَت السير روفوس رجلًا قصيرًا مكتنزًا أشيب اللّحية، تنتهي ساقه اليُسرى بجَدعة. قال لها: «أرجو أن تُعذريني لعدم نهوضي».
أخرجَت بِريان رسالتها ليقرأها، لكن لأن ليك أمّيٌّ فقد أرسلَها إلى المِايستر الأصلع ذي فروة الرّأس المنمّشة والشّارب الأحمر اليابس.

بدا أن وجهها وشى بها، وحين سمعَ المِايستر اسم هولارد قطّب وجهه ضيقًا، وقال: «كم مرّةً عليّ أن أكرّر هذا الكلام؟ هل حسبتِ أنكِ أول من جاء يبحث عن دونتوس؟ إنكِ الأولى بَعد العشرين على الأقل. ذوو المعاطف الذّهبيّة كانوا هنا في غضون أيام بَعد اغتيال الملك ومعهم تفويض اللورد تايوين. ماذا تحملين أنتِ يا تُرى؟».

أرَته بِريان الرّسالة الممهورة بخَتم تومن وتوقيعه الطّفولي، وهمهمَ الرّجل ودمدمَ وهو يفحص الشّمع قبل أن يُعيدها إليها أخيرًا، ويقول: «تبدو سليمةً»، ثم جلسَ على كُرسيّ وأشارَ لبِريان بالجلوس على آخر مردفًا: «لم أعرف السير دونتوس قطُّ. كان صبيًا عندما رحلَ من (وادي الغسق). آل هولارد كانوا عائلةً نبيلةً، هذا صحيح. هل تعرفين رمزهم؟ أحمر توتي ووردي، مع ثلاثة تيجان ذهبيّة على شريطٍ أزرق. كان آل داركلين ملوكًا صغار الشّأن خلال عصر الأبطال، وثلاثة منهم اتّخذوا زوجاتٍ من عائلة هولارد. لاحقًا ابتلعَت الممالك الأكبر مملكتهم الصّغيرة، لكن آل داركلين استمرّوا وخدمَهم آل هولارد... نعم، حتى في التّحدّي. هل تعرفين القصّة؟».

- «بعض الشّيء». كان مِايسترها يقول إن تحدّي (وادي الغسق) هو ما قادَ الملك إيرس إلى الجنون.

- «ما زالوا يحبّون اللورد دينس في (وادي الغسق) على الرغم من الويلات التي جلبَها عليهم. إنهم يصبّون اللّوم على الليدي سيرالا، زوجته المايريّة الملقّبة بالأفعى الحريريّة. لو كان اللورد دينس قد تزوّج واحدةً من بنات ستونتون أو ستوكوورث... تعلمين كيف يتمادى العامّة في الكلام. يقولون إن الأفعى الحريريّة وسوسَت في أذن زوجها وملأتها بالشم المايري إلى أن هَبّ اللورد دينس ضد مليكه وأخذَه أسيرًا، وخلال عمليّة الأسر نفسها قتلَ قيّم سلاحه السير سايمون هولارد السير جواين جونت رجل الحرس الملكي. طوال نِصف عامٍ ظَلّ إيرس حبيس هذه الجُدران، بينما جلسَ يد الملك خارج (وادي الغسق) على رأس جيشٍ جرّار، وكان اللورد تايوين يملك قوّةً كافيةً لاقتحام البلدة في أيّ وقتٍ يشاء، لكن اللورد دينس أرسلَ له يقول إنه سيَقتُل الملك مع أول بادرة هجوم».

تذكّرت بِريان ما جرى بَعدها، وقالت: «وتحرّر الملك، السير باريستان أنقذَه وأخرجَه».

قال المِايستر: «نعم، وما كادَ اللورد دينس يفقد رهينته حتى فتحَ بوّاباته وأنهى التّحدّي بدلًا من أن يدع اللورد تايوين يأخذ بلدته، وركعَ وتوسّل الصّفح، لكن الملك لم يكن في مزاجٍ متسامح. فقدَ اللورد دينس رأسه، بالإضافة إلى إخوته وأخته وأعمامه وأولادهم، آل داركلين قاطبةً. أمّا الأفعى الحريريّة فقد أحرِقَت حيّةً، تلك المسكينة، لكنهم قطعوا لسانها أولًا، وأعضاءها الأنثويّة التي يُقال إنها أسرَت زوجها بها. حتى الآن سيقول لكِ نِصف أهل (وادي الغسق) إن إيرس ترفّق بها كثيرًا».

- «وآل هولارد؟».

- «أُدينوا واستؤصِلَت شأفتهم. كنتُ أكوّنُ سلسلتي في القلعة في ذلك الحين، لكني قرأتُ تقارير محاكَماتهم وعقوباتهم. السير چون هولارد الوكيل كان زوج أخت اللورد دينس وماتَ مع أخته، وكذا ابنهما الشّاب الذي كان نِصف داركلين. روبن هولارد كان مُرافقًا، ولمّا قُبِضَ على الملك راحَ يَرقُص حوله ويشدُّ لحيته، فماتَ على المِخلعة[37]. والسير سايمون هولارد قتلَه السير باريستان خلال هروب الملك. هكذا صودِرَت أراضي آل هولارد وهُدِمَت قلعتهم وأُحرِقَت قُراهم، وكعائلة داركلين فنَت عائلة هولارد».

- «باستثناء دونتوس».

- «صحيح. دونتوس الصَّغير كان ابن السير ستفون هولارد، توأم السير سايمون الذي مات قبل التَّحدِّي بسنواتٍ ولم يكن له دور فيه. أرادَ إيرس أن يضرب عُنق الصَّبي رغم ذلك، لكن السير باريستان سألَه أن يعفو عنه، فلم يستطِع الملك أن يَرفُض طلب الرَّجل الذي أنقذَه. فأُخِذَ دونتوس إلى (كينجز لاندنج) كمُرافق، وعلى حَدِّ علمي لم يرجع إلى (وادي الغسق) قَطُّ. ولِمَ يفعل؟ إنه لا يملك أراضي هنا وليس له أهل أو قلعة. إذا كان دونتوس وتلك الفتاة الشَّماليَّة قد لعبا دورًا في اغتيال ملكنا الحبيب، فيبدو لي أنهما سيرغبان في أن يفصل أكبر عددٍ ممكن من الفراسخ بينهما وبين العدالة. ابحثي عنهما في (البلدة القديمة) إذا لزمَ الأمر، أو عبر (البحر الضيِّق)، ابحثي عنهما في (دورن) أو على (الجِدار)، ابحثي في مكانٍ آخر»، ونهضَ المِايستر مضيفًا: «أسمعُ غِدفاني تصيح. أرجو أن تعذُريني وطابَ يومكِ».

بدَت لها مسيرة العودة إلى الخان أطول من مسيرة الذَّهاب إلى (قلعة الثَّبَّة)، وإن كان السَّبب مزاجها على الأرجح. واضحٌ الآن أنها لن تجد سانزا ستارك في (وادي الغسق)، وإذا أخذَها السير دونتوس إلى (البلدة القديمة) أو عبرَ بها (البحر الضيِّق) -كما يظنُّ المِايستر- فمهمَّة بِريان مستحيلة. قالت لنفسها: *وما لها في (البلدة القديمة)؟ المِايستر لا يعرفها أكثر مما يعرف هولارد. ما كانت لتذهب إلى غُرباء.*

في (كينجز لاندنج) وجدَت بِريان واحدةً من وصيفات سانزا السّابقات تعمل غسّالةً في ماخور، وقالت لها المرأة بريلا شاكيةً بمرارة: «خدمتُ اللورد رنلي قبل الليدي سانزا، وكلاهما تحوّل إلى خائن. لا أحد من السّادة سيمشني الآن، لذا عليَّ أن أغسل ثياب المومسات». لكن حين سألَتها بِريان عن سانزا أجابَت: «سأقولُ لكِ ما قتله للورد تايوين. تلك الفتاة كانت تُصلِّي دائمًا، اعتادَت أن تذهب إلى السّبِت لتُشعِل شموعها كما يليق بكلّ ليدي، لكنها كانَت تذهب إلى أيكة الآلهة أيضًا كلّ ليلةٍ تقريبًا. لقد عادَت إلى الشّمال، إلى الشّمال. إن آلهتها هناك».

على أن الشّمال شاسع، وبِريان تجهل مَن مِن حمَلة راية أبيها تميل سانزا إلى الثّقة به أكثر من غيره. *أم عساها سعَت إلى لحمها ودمها؟* على الرغم من أن إخوتها قُتِلوا جميعًا، فبِريان تعلم أن لسانزا عمًّا وأخًا نغلًا يخدمان في حرس اللّيل على (الجِدار)، وهناك أيضًا خالها إدميور تَلي الأسير في (التّوأمتين)، لكن عمّه السير برايندن ما زالَ مسيطرًا على (ريفررَن)، وأخت الليدي كاتلين الصّغيرة تَحكُم في (الوادي). *الدّم يُنادي الدّم*. ربما هرعَت سانزا إلى أحدهم بالفعل، لكن إلى أيِّهم؟

(الجِدار) بعيد جدًا من غير ريب، ثم إنه مكان كئيب موحش، وكي تَبلُغ الفتاة (ريڤرزن) عليها أن تقطع أراضي النّهر التي مزّقتها الحرب وتمرّ من خطوط حصار لانستر. (الغش) الخيار الأسهل، ولا بُدّ أن الليدي لايسا ستُرَحِّب بابنة أختها...

أمامها انعطف الزُّقاق. بشكلٍ ما سلكَت بِريان مسارًا خاطئًا، فوجدَت نفسها في طريقٍ مسدود، فِناء صغير موحل تُنقِّب فيه ثلاثة خنازير عن الطّعام حول بئرٍ حجريّة واطئة. قبعَ أحدها لمرآها، ورمقَتها عجوز تسحب الماء بشَك سائلةً: «ماذا تُريدين؟».

- «أبحثُ عن (الشيوف الشبعة)».

- «عودي من حيث أتيتِ، يسارًا عند السّبت».

قالت بِريان: «أشكركِ»، والتفتَت لتعود أدراجها... وارتطمَت مباشرةً بشخصٍ كان يُسرِع ليدور حول المنعطَف. طرحَته الصّدمة أرضًا، ووقعَ على مؤخّرته في الوحل، فتمتمَت: «معذرةً». وجدَته مجرّد صبيّ نحيل له شَعر خفيف مفرود ودُمّل تحت عينه. أضافَت: «هل تأذّيت؟»، ومدّت يدها تُعاوِنه على النّهوض، لكن الصّبي تراجعَ متملّصًا منها على كعبيه ومِرفقيه. لا يُمكن أن سِنّه تتجاوز العاشرة أو الثّانية عشرة، على الرغم من أنه يرتدي سُترةً من الحلقات المعدنيّة وعلى ظَهره سيف طويل في غِمدٍ جِلدي. سألَته بِريان: «هل أعرفك؟». بشكلٍ ضبابي يبدو وجهه مألوفًا، وإن لم تستطِع أن تتذكّر أين رأته من قبل.

قال: «لا، لا تعرفينني، إنكِ لم...»، ونهضَ مواصلًا: «سسسسامحيني يا سيّدتي. لم أكن أنظرُ، أعني أني كنتُ أنظرُ ولكن إلى أسفل، كنتُ أنظرُ إلى أسفل، إلى قدمَي»، وأطلقَ ساقيه للرّيح عائدًا إلى حيث جاءَ.

شيءٌ ما فيه أثارَ شكوك بِريان، غير أنها لم تكن لتطارِده في شوارع (وادي الغسق) بالطّبع. ثم إنها تذكّرت. *خارج البوّابة هذا الصّباح، هناك رأيته. كان يمتطي حصانًا أرقط*. ويخيّل لها أنها رأته في مكانٍ آخَر أيضًا، لكن أين؟

عندما عادَت بريان إلى (الشيوف الشبعة) كانت القاعة العامّة قد ازدحمَت. قُرب النّار تجلس أربع سِپتوات في أرديةٍ لوّثها وتربّها الطّريق، وفي باقي المكان يملأ أهل البلدة الدّكك ويغمّسون يخنة السّرطان البحري السّاخنة بقطعٍ من الخُبز. جعلَت الرّائحة بطنها يُقرقِر، لكنها لم ترَ مقاعد شاغرةً، ثم قال صوت من خلفها: «سيّدتي، تفضّلي، خُذي مكاني». حتى وثبَ من على الدّكّة لم تُدرِك بِريان أن المتكلّم قزم. لا يَبلُغ الرّجل الصّغير الأقدام الخمسة طولًا، وله أنف منتفخ معرّق وأسنان محمرّة من مضغ التّبغ المُر، ويرتدي الخيش البنّي كالإخوة المتديّنين، ومن عُنقه الثّخين تتدلّى مطرقة (الحدّاد).

قالت: «احتفظ بمقعدك. أستطيعُ الوقوف مِثلك تمامًا».

- «نعم، لكن رأسي ليس قمينًا بأن يخبط السّقف».
يتكلّم القزم بخشونةٍ وإنما بكياسة، ورأت بِريان قمّة رأسه التي حلقها ككثيرٍ من الإخوة المتديّنين الذين يُبقون هذه البُقعة جرداء. في مرّةٍ قالت لها السّپتة رويل إن الغرض من هذا أن يُروا أنهم لا يُخفون شيئًا عن (الأب). فسألَتها بِريان: «ألا يستطيع (الأب) أن يرى عبر الشّعر؟». *سؤال* سخيف. لطالما كانت طفلةً بطيئة الفهم، وكثيرًا ما ردّدت السّپتة هذا، والآن تكاد تَشعُر بالسّخافة نفسها، ولذا أخذَت مكان الرّجل الصّغير في طرف الدّكّة وأشارَت طالبةً اليخنة، ثم التفتَت تَشكُر القزم، وقالت: «هل تخدم في دار عبادةٍ في (وادي الغسق) أيها الأخ؟».

أجابَ الرّجل وهو يقضم من رغيف من الخُبز: «كنتُ أخدمُ قُرب (بِركة العذارى) يا سيّدتي، لكن الذّئاب أحرَقوا المكان. أعدنا البناء قدر الإمكان، إلى أن أتى بعض المرتزِقة. لا أدري رجال مَن كانوا، لكنهم أخذوا خنازيرنا وقتلوا الإخوة. دسستُ نفسي في جذع شجرةٍ أجوف واختبأتُ، لكن الآخَرين كانوا أكبر حجمًا من أن يفعلوا مِثلي. استغرقتُ وقتًا طويلًا حتى دفنتهم جميعًا، لكن (الحدّاد) مدّني بالقوّة، وحين فرغتُ نقّبتُ عن القليل من المال الذي أخفاه الأخ الكبير وخرجتُ وحدي».

- «التقيتُ عددًا من الإخوة الذّاهبين إلى (كينجز لاندنج)».

- «نعم، هناك مئات على الطُّرق، وليسوا إخوةً فقط، بل سِبِتونات وعوام أيضًا، كلُّهم عصافير. ربما أكون غصفورًا أيضًا. لقد خلقني (الحدّاد) صغيرًا»، وقهقه الرّجل الصّغير، وأردف: «وما حكايتكِ الحزينة يا سيِّدتي؟».

- «أبحث عن أختي. إنها رفيعة النّسب، في الثّالثة عشرة فقط، بنت جميلة لها عينان زرقاوان وشَعر كستنائي. لعلّك رأيتها مسافرةً مع رجل، فارس أو ربما مهرِّج. هناك ذهب لمَن يُساعِدني على العثور عليها».

منحها الأخ ابتسامةً حمراء، وقال: «ذهب؟ يكفيني وعاء من هذه اليخنة كمكافأة، لكني أخشى أني لا أستطيعُ مساعَدتكِ. من المهرِّجين قابلتُ الكثير، لكن من البنات الحسناوات فلا»، ثم مالَ برأسه إلى الجانب وتفكّرَ لحظةً، ثم أضافَ: «تذكّرتُ الآن أني رأيتُ مهرِّجًا في (بِركة العذارى). كان يرتدي أسمالًا متّسخةً على حَدِّ ما رأيتُ، لكن تحت الوسخ ارتدى ثياب مهرِّجين».

هل كان دونتوس هولارد يرتدي ثياب المهرِّجين؟ لا أحد قال لِبريان إنه يرتديها... لكن لا أحد قال لها العكس كذلك. لكن لماذا يرتدي الرّجل الأسمال؟ هل حاقَت به بليّة ما هو وسانزا بَعدما فرّا من (كينجز لاندنج)؟ وارد جدًّا في ظِلِّ الأخطار التي تكتنف الطُّرق. *وربما لم يكن هو أصلًا.* «هل كان لهذا المهرِّج أنف أحمر مليء بالعروق الزّرقاء؟».

- «لا يُمكنني أن أجزم بذلك. الحقيقة أنني أعرته انتباهًا قليلًا. لقد ذهبتُ إلى (بِركة العذارى) بَعد أن دفنتُ إخوتي مفكّرًا أني قد أجدُ سفينةً تحملني إلى (كينجز لاندنج)، ورأيتُ المهرّج أول مرّةٍ على أرصفة الميناء. كان له طابع ماكر، وحرصَ على أن يتحاشى جنود اللورد تارلي، وبَعدها صادَفته ثانيةً في (الإوزة النّتنة)».

ردّدت حائرةً: «(الإوزة النّتنة)؟».

أجابَ القزم: «مكان كريه. رجال اللورد تارلي يقومون بدوريّات حول الميناء في (بِركة العذارى)، لكن (الإوزة) مليئة بالبحّارة دومًا، والبحّارة معروفون بتهريب النّاس على أسطح سفنهم إذا كان الثّمن مناسبًا. المهرّج كان يبحث عن مسلكٍ لثلاثة عبر (البحر الضيّق). كثيرًا ما رأيته هناك يتكلّم مع ملّاحي القوادس، وأحيانًا كان يُغنّي أغاني طريفةً».

- «يبحث عن مسلكٍ لثلاثة لا اثنين؟».

- «ثلاثة يا سيّدتي، أقسمُ على هذا بالآلهة السّبعة».

ثلاثة، سانزا والسير دونتوس... ومَن الثّالث؟ العِفريت؟ «هل وجدَ المهرّج سفينةً؟».

قال لها القزم: «لا أدري، لكن في ليلةٍ زارَ بعض جنود اللورد تارلي الحانة يبحثون عنه، وبَعدها بأيامٍ قليلة سمعتُ رجلًا يقول مزهوًا إنه خدعَ مهرّجًا وإن معه الذّهب الذي يُثبِت هذا. كان سكران ويبتاع المِزر للجميع».

- «خدعَ مهرّجًا. ماذا يعني؟».

- «أجهلُ الإجابة، لكن اسمه ديك الرّشيق، أذكرُ هذا»، وبسطَ القزم كفّيه، وقال: «أخشى أن هذا هو كلُّ ما أستطيعُ أن أقدّمه لكِ، بالإضافة إلى دعوات رجلٍ صغير».

مصداقًا لكلمتها اشترَت له بِريان وعاءً من يخنة السّرطان السّاخنة، بالإضافة إلى خُبزٍ طازج وكوبًا من النّبيذ، وإذ أكلَ الرّجل وهو واقف إلى جوارها فكّرت مليًا في ما أخبرَها به. *أيُمكن أن العِفريت انضمَّ إليهما؟* إذا كان تيريون لانستر وليس دونتوس هولارد وراء اختفاء سانزا، فمن المنطقي أن يلوذا بالفِرار عبر (البحر الضيّق).

حين فرغَ الرّجل الصّغير من وعاء اليخنة أنهى ما تبقّى في وعائها أيضًا، وقال لها: «المفترَض أن تأكلي أكثر. امرأة كبيرة مِثلكِ عليها الاحتفاظ بطاقتها. المسافة إلى (بِركة العذارى) ليست طويلةً، لكن الطُّرق محفوفة بالمخاطر هذه الأيام».

أعرفُ. على هذا الطّريق تحديدًا ماتَ السير كليوس فراي وأسرَها الممثّلون السّفّاحون مع السير چايمي. *حاولَ چايمي أن يَقتُلني على الرغم من وهنه وهزاله والأصفاد التي قيّدت معصميه*. ومع كلّ هذا كادَ يغلبها، لكن ذلك كان قبل أن يَبتُر زولو يده. كان زولو ورورج وشاجويل ليغتصبوها نِصفمئة مرّةٍ لولا أن السير چايمي قال لهم إنها تستحقُّ وزنها من الياقوت الأزرق.

قال القزم: «سيِّدتي؟ تبدين حزينةً. هل تُفَكّرين في أختكِ؟»، وربّت على يدها، وأتبعَ: «(العجوز) ستُنير طريقكِ إليها، لا تخافي، و(العذراء) ستحفظها».

- «أدعو أن تكون محقًّا».

ردّ: «إنني محقٌّ»، ثم انحنى قائلًا: «لكن عليّ الآن أن أنصرف. ما زالَ أمامي طريق طويل قبل أن أبلغ (كينجز لاندنج)».

- «هل تملك حصانًا؟ أو بغلًا؟».

ضحكَ الرّجل الصّغير، وجاوبَ: «بغلان، ها هما ذان في طرفَي ساقَي. إنهما يوَصّلانني إلى حيث أبغي الذّهاب»، وانحنى ثانيةً ثم اتّجه إلى الباب متمايلًا مع كلّ خُطوة.

ظلّت جالسةً إلى المائدة بَعد ذهابه وقد أطرقَت ومعها كوب من النّبيذ المخفّف بالماء. لا تشرب بِريان النّبيذ كثيرًا، وإن وجدَت من فترةٍ طويلة إلى فترةٍ طويلة أنه يُساعِد على تهدئة معدتها. سألَت نفسها: *وأين أريدُ أنا أن أذهب؟ إلى (بِركة العذارى) لأبحث عن رجلٍ اسمه ديك الرّشيق في مكانٍ اسمه (الإوزّة النّتنة)؟*

حين رأت (بِركة العذارى) آخِر مرّةٍ كانت البلدة خرابًا، وكان سيّدها حبيس قلعته وأهلها موتى أو هربوا أو مختبئين. تذكّرت المنازل المحروقة والشّوارع الخالية والبوّابات المحطّمة والكلاب الضّارية التي مشت خلسةً وراء خيولهم، بينما طفَت الجُثث المنتفخة كزنابق ماءٍ شاحبة ضخمة على سطح البِركة التي يُغذّيها ينبوع واستمدّت البلدة منها اسمها. چايمي غنّى *(ست عذارى في بِركة)*، وضحك حين *طلبت منه أن يَصمُت*. ثم إن راندل تارلي في (بِركة العذارى) الآن أيضًا، وهو سبب آخَر لتحاشي البلدة. ربما الأفضل لها أن تستقلّ سفينةً إلى (بلدة النّوارس) أو (الميناء الأبيض). *ويُمكنني أن أفعل هذا وذاك، أزور (الإوزّة النّتنة) وأتكلّم مع المدعو ديك الرّشيق، ثم أجد سفينةً هناك تأخذني شمالًا أكثر.*

بدأت القاعة العامّة تفرَغ، ومزّقت بِريان قطعةً من الخُبز نِصفين وأصغَت إلى الكلام الدّائر على الموائد الأخرى، والذي كان معظمه عن موت اللورد تايوين لانستر.

قال أحد سُكّان البلدة يبدو من منظره أنه إسكافي: «يقولون إن ابنه قتلَه، ذلك القزم الصّغير الآثم».

أضافت كُبرى السّپتوات الأربع: «والملك مجرّد صبيّ صغير. مَن سيَحكُمنا حتى يَبلُغ؟».

قال أحد الحرس: «أخو اللورد تايوين، أو ربما اللورد تايرل، أو قاتِل الملك».

أعلنَ صاحِب الخان: «ليس هو، ليس ذلك الحانث بالقَسم»، وبصقَ في النّار.

أفلتَت بِريان الخُبز من يديها ومسحَت الفُتات على سراويلها ونهضَت. لقد سمعَت ما فيه الكفاية.

ليلتها في المنام رأت نفسها في خيمة رنلي ثانيةً. الشّموع كلُّها تنطفئ والبرد قارس حولها، وثمّة شيء ما يتحرّك في الظُّلمة الخضراء، شيء كريه مريع ينقضُّ على مليكها. أرادَت أن تحميه، لكنها أحسّت بأطرافها يابسةً متجمّدةً، ومجرّد رفع يدها تطلّب قوّةً أكبر مما تملك، وحين شَقَّ السّيفُ الظّلُّ واقي العُنق الفولاذي الأخضر وبدأت الدّماء تتدفّق رأت أن الملك المحتضر ليس رنلي على الإطلاق وإنما چايمي لانستر، ولقد خذلَته.

وجدَتها أخت قائد البوّابة في القاعة العامّة تشرب كوبًا من الحليب المخلوط بالعسل وثلاث بيضات نيئة، وعندما أرَتها المرأة التُّرس المطليّ قالت لها: «عمل جميل». المرسوم أقرب إلى صورةٍ من رمز، وقد أعادَها منظرها عبر السّنين الطّوال إلى ظلام مستودَع سلاح أبيها البارد، وتذكّرت كيف مرّرت أناملها على الطّلاء الباهت المتشقّق، على أوراق الشّجرة الخضراء وعلى مسار نجم هوى.

زادَت بِريان الرَّسّامة نِصف الأجر الذي اتَّفقتا عليه، وعلَّقت التُّرس على كتفها حين غادرَت الخان، بَعد أن ابتاعَت القليل من الخُبز الجامد والجُبن والطَّحين من الطَّاهي، ثم إنها خرجَت من البلدة من البوَّابة الشَّماليَّة وركبَت على مهلٍ وسط الحقول والمَزارع التي دارَ فيها السَّواد الأقبح من القتال حين هاجمَ الذِّئاب (وادي الغسق).

حينئذٍ كان اللورد راندل تارلي يقود جيش جوفري المكوَّن من رجال الغرب وأراضي العواصف وفُرسان (المرعى)، ومَن ماتوا من رجاله هنا حُمِلوا إلى داخل البلدة ليستريحوا في قبور الأبطال تحت سِبتات (وادي الغسق)، أمَّا موتى الشَّماليِّين فدُفِنوا في مقبرةٍ جماعيَّة تطلُّ على البحر، وفوق الرُّكام الذي يُعَيِّن مكان رقودهم رفعَ المنتصرون لافتةً تقليديَّةً من الخشب كُتِبَ عليها «**هنا يَرقُد الذِّئاب**» لا غير. توقَّفت بِريان إلى جوار المقبرة وردَّدت صلاةً صامتةً لهم ولليدي كاتلين ستارك وابنها روب وجميع من ماتوا معهما.

عادَت بذاكرتها إلى اللَّيلة التي بلغَ فيها الليدي كاتلين خبر موت ابنيها، الصّبيّين الصّغيرَين اللذين تركَتهما في (وينترفل) حفاظًا على أمنهما. ساعتها علمَت بِريان أن حدثًا جللًا قد وقعَ، وسألَت الليدي كاتلين إن كانت هناك أنباء عن ابنيها، فأجابَت: «ليس لي أبناء غير روب». تكلَّمت كأنما يتلوّى سكّين في أعماقها، ومدّت بِريان يدها عبر المائدة رغبةً في مواساتها، لكنها توقّفت قبل أن تمسّ أصابعها أصابع المرأة التي كانت تكبرها سِنًّا. قلبَت الليدي كاتلين يديها لتُريها النُّدوب في كفّيها وأصابعها حيث انغرسَ خنجر في عُمق لحمها، ثم شرعَت تتكلّم عن ابنتيها، فقالت: «سانزا ليدي صغيرة، شديدة الكياسة دائمًا وتوّاقة لإسعاد مَن حولها، ولم تُغرَم بشيءٍ قَطُّ كغرامها بحكايات الفُرسان ومآثرهم الشُّجاعة. ستكبر لتُصبِح امرأةً أجمل مني بكثير، وهذا واضح في ملامحها. كثيرًا اعتدتُ أن أصفِّف شَعرها بنفسي. شَعرها كستنائي، وشديد الكثافة والنُّعومة... ما فيه من أحمر يعكس ضوء المشاعل فيتألّق كالنُّحاس».

تكلَّمت أيضًا عن آريا، ابنتها الصُّغرى، لكن آريا مفقودة، وعلى الأرجح مائتة، أمّا سانزا... أقسمَت بِريان لشبح الليدي كاتلين القلِق: *سأعثرُ عليها يا سيِّدتي. لن أكفَّ عن البحث أبدًا. سأدفعُ حياتي ثمنًا إذا لزمَ الأمر، سأتخلّى عن شَرفي وعن أحلامي كلِّها، لكني سأعثرُ عليها.*

وراء أرض المعركة يمتدُّ الطّريق موازيًا السّاحل، بين البحر الأخضر الرّمادي بأمواجه المتلاطمة وخطّ تلال الجير المنخفضة. ليست بِريان وحدها المسافرة على الطّريق، فهناك قُرى صيد تنتشر على السّاحل لعدّة فراسخ، ويَسلُك الصّيّادون هذا الطّريق ليأخذوا أسماكهم إلى السّوق. قابلَت بائعة سمك وبناتها وهن عائدات إلى بيتهن وقد حملن السّلال الفارغة على الأكتاف، وبسبب دِرعها حسبنها فارسًا حتى رأين وجهها، ثم راحت الفتيات يتهامَسن ويَرمُقنها بنظراتٍ فضوليّة، لكنها سألتهن: «هل رأيتن بنتًا في الثّالثة عشرة على الطّريق؟ بنتًا رفيعة النّسب بعينين زرقاوين وشَعر كستنائي؟». لقد دفعها السير شادريك إلى توخّي الحذر، ولكن لم يزل عليها أن تُحاوِل. «ربما كانت مسافرةً مع مهرّج». لم تُجِر الفتيات جوابًا غير هَزّ رؤوسهن نفيًا والضّحك منها من وراء ظَهرها.

في القرية الأولى جرى الصّبية خفاة الأقدام إلى جوار فَرسها، وكانت قد اعتمرَت خوذتها متألّمةً من ضحك الصّيّادات، فحسبَها الآخرون رجلًا. عرض أحد الصّبية أن يبيعها المحار، وعرض آخَر السّرطان، وعرض ثالث أخته.



كانت في السّادسة عشرة آنذاك وليست الشيوف غريبةً عليها، ولكن خجلى أيضًا على الرغم من براعتها الفائقة في السّاحة، ومع هذا وجدَت بطريقةٍ ما الشّجاعة الكافية لأن تقول للسير همفري إنها لن تقبل التّأديب إلّا من رجلٍ قادر على هزيمتها في النّزال، فاربدّ وجه الفارس العجوز لكنه وافقَ على ارتداء دِرعه ليُعَلّمها مقام النّسوة، وتنازلَ الاثنان بأسلحة المباريات الثّلمة، فاستخدمَت بِريان هراوةً بلا بروزات. يومها كسرَت تَرقوة السير همفري واثنين من ضلوعه واضعةً بهذا نهاية خطبتهما، وكان الرّجل زوجها المنظور الثّالث والأخير، ولم يصرّ أبوها ثانيةً على زواجها.

إذا كان السير شادريك هو من يتعقّبها فعلًا فلربما تكون على وشك القتال. إنها لا تنوي أن تُشارِك الرّجل بحثه عن سانزا أو تُترُكه يتبعها إليها. *إنه يتّسم بتلك الغطرسة التي تنتاب المهَرة في السّلاح بسهولة، لكن حجمه صغير. مدى ذراعي أوسع منه، ولا بُدّ أنني أقوى أيضًا.*

بِريان قويّة كأكثر الفُرسان، وقد اعتادَ قيّم السّلاح الذي علّمها قديمًا أن يقول إنها أسرع مما يُمكن أن تكون أيّ امرأةٍ بحجمها، كما أن الآلهة أنعمَت عليها بقوّة الاحتمال أيضًا، وهو ما عدّه السير جودوين موهبةً ثمينةً، فالقتال بالسّيف والتّرس عمل متعِب، وكثيرًا ما ينال النّصر من يتمتّع بجَلَدٍ أكثر. علّمها السير جودوين أن تُقاتِل بحذر، أن تدّخر طاقتها بينما تترُك خصومها يستهلكون طاقتهم في الهجمات الضّارية، وقال لها: «سيبخس الرّجال قدركِ دومًا، وستجعلهم كبرياؤهم يرغبون في هزيمتكِ سريعًا خشية أن يُقال إن امرأةً أرهقَتهم ودوّختهم». تعلّمت بِريان حقيقة تلك المقولة حالما خرجَت إلى العالم، وحتى چايمي هاجمَها بتلك الطّريقة في الغابة قُرب (بِركة العذارى)، وإذا شاءت الآلهة سيقع الفأر المجنون في الخطأ ذاته. قالت لنفسها: *ربما يكون فارسًا متمرّسًا لكنه ليس چايمي لانستر*، واستلّت سيفها من غِمده.

لكن الذي توقّف عند مفترَق الطّريق ليس جواد السير شادريك الحربي الكستنائي، وإنما حصان أرقط عجوز بائس يمتطيه صبيٌ نحيل، ولمّا رأت بِريان الحصان تراجعَت بارتباكٍ مفكّرةً: مجرّد صبي، إلى أن لمحَت الوجه تحت القلنسوة. *الصّبي الذي ارتطمَ بي في (وادي الغسق)، إنه هو.*

لم يرفع الصّبي ناظرَيه إلى القلعة المتهدِّمة على الإطلاق، بل تطلّع إلى أحد الطّريقين ثم الثّاني، وبَعد هنيهة تردُّدٍ وجّه الحصان نحو الشّلال وعاد يتحرّك، وبينما شاهدَته بِريان يختفي في المطر المنهمر تذكّرت بغتةً أنها رأت ذلك الصّبي في (روزبي). *إنه يتبعني خلسةً، لكنها لُعبة يستطيع أن يلعبها اثنان*. هكذا حلّت رباط فَرسها وامتطَتها وتحرّكت وراءه.

أبقى الصّبي عينيه على الأرض وهو راكب، يُحدّق إلى الحُفر في الطّريق وهي تمتلئ بالماء. كتمَ المطر صوت حوافر فَرسها، ولا بُدّ أن قلنسوة الصّبي لعبَت دورًا أيضًا، فلم يَنظُر وراءه ولو مرّة، حتى لحقَت به بِريان وضربَت حصانه على الكفل بالجانب المسطّح من سيفها الطّويل، ليرفع الحصان قائمتيه الأماميّتين ويطير راكبه من فوق متنه ومعطفه يُرَفرِف كجناحين على جانبيه. سقطَ الصّبي في الوحل، ثم رفعَ وجهه وبين أسنانه الأوساخ والعُشب البنّي الميت ليجد بِريان واقفةً فوقه. أدركَت أنه الصّبي نفسه دون شكّ وقد تعرّفت الدُّمّل تحت عينه، فسألَته: «مَن أنت؟».

تحرّك فم الصّبي بلا صوت، واتّسعت عيناه حتى صارتا كبيضتين، ولم يستطِع أن يقول إلّا: «پوه، پوه»، وارتجفَ لتُخَشخِش سُترته المعدنيّة وهو يُكرِّر: «پوه، پوه».

قالت بِريان: «ماذا تقول؟»، ووضعَت رأس سيفها على تفّاحة حلقه مردفةً: «أرجوك أخبِرني مَن أنت ولِمَ تتبعني».

دَسّ الصَّبي إصبعًا في فمه ونقرَ كُتلةً من الطِّين، ثم قال: «پوه-پوه-پود، اسمي، پوه-پوه-پودريك، پوه-پاين».

خفضَت بِريان سيفها وقد غمرَها التَّعاطُف مع الصَّبي، وتذكَّرت يومًا في (بهو المساء) وفارسًا شابًا بوردةٍ في يده. *أحضرَ الوردة ليُعطيني إياها*. أو أن هذا ما أخبرَتها به سِپتتها. لم يكن عليها سوى أن تُرَحِّب به في قلعة أبيها. كان في الثَّامنة عشرة، وله شَعر أحمر طويل ينسدل على كتفيه، وكانت هي في الثَّانية عشرة، ترتدي فُستانًا يابسًا جديدًا محكمًا على جسدها ويُزيِّن صدره العقيق الأحمر. الاثنان كان طولهما واحدًا تقريبًا، إلَّا أنها لم تستطِع أن تنظُر في عينيه أو تُرَدِّد الكلام البسيط الذي علَّمتها سِپتتها إياه. *سير رونيت، مرحبًا بك في دار السيِّد والدي. يسرُّني أن أرى وجهك أخيرًا*.

سألَت الصَّبي: «لماذا تتبعني؟ هل قيلَ لك أن تتجسَّس عليَّ؟ هل تخدم ڤارس أم الملكة؟».

- «لا، لا هذا ولا تلك، لا أحد».

قدّرت بِريان أنه في العاشرة، وإن كانت خائبةً تمامًا في تقدير أعمار الأطفال، ولطالما حسبتهم أصغر من سِنّهم الفعليّة، ربما لأنها كانت أكبر حجمًا من سِنّها طيلة حياتها، «كبيرة على نحوٍ ممسوخ ومسترجلة» على حَدِّ تعبير السّبتة رويل. قالت له: «هذا الطّريق أخطر من أن يَسلُكه صبيٌ بمفرده».

- «ليس إذا كان مُرافقًا. إنني مُرافقه، مُرافق اليد».

أغمدَت بِريان سيفها متسائلةً: «اللورد تايوين؟».

- «لا، ليس ذلك اليد، الذي قبله، ابنه. لقد قاتلتُ معه في المعركة، وصحتُ: *النّصف رجل! النّصف رجل!*».

مُرافق العِفريت. كانت بِريان تجهل أن عنده واحدًا، فتيريون لانستر ليس فارسًا. من الوارد على ما تعتقد أن يكون عنده خادم أو اثنان يُلَبّيان طلباته، ووصيف وساقية وأحد يُساعِده على ارتداء ثيابه... لكن مُرافق؟ «لماذا تتبعني؟ ماذا تُريد؟».

نهض الصّبي قائلًا: «لأجدها، سيّدته التي تبحثين عنها. بريلا قالت لي. إنها زوجته، الليدي سانزا لا بريلا، فخطرَ لي أنكِ ربما تَعثرين عليها...»، والتوَت قسماته بأسى مفاجئ، وكرّر والمطر يسيل على وجهه: «إنني مُرافقه... لكنه تركَني!».

---

(34) الموظ أحد أنواع الأيائل، له عنق قوي وقرنان جريديّان، ويألف العيش في الغابات والمستنقعات. (المترجم).

(35) الجريفين مخلوق أسطوري له جسم أسد ورأس وجناحا عُقاب. (المترجم).

(36) اليونيكورن مخلوق أسطوري عبارة عن حصان له قرن واحد ويتمتّع بقدرات سحريّة. (المترجم).

(37) المخلعة آلة تعذيب تعود إلى العصور القديمة، بحيث يُربَط الشّخص على لوحٍ خشبي وتُشَدُّ أطرافه بالحبال حتى تتفكّك مفاصله وتتمزّق عضلاته. (المترجم).

(38) الشُرّافات هي الزّوائد الحجريّة التي تُبنى وبينها فراغات على قمم الأبراج والأسوار والحصون. (المترجم).

سانزا

ذات مرّةٍ في طفولتها مكث مغنٍّ متجوّل معهم في (وينترفل) نِصف عام. كان عجوزًا مبيضّ الشّعر له وجنتان لوّحتهما الرّيح، لكنه غنّى عن الفُرسان والمغامَرات والحسناوات، ولمّا حانَ وقت رحيله بكَت سانزا بمرارةٍ وتوسّلت إلى أبيها ألّا يسمح له بالذّهاب، إلّا أن اللورد إدارد قال لها برفق: «الرّجل غنّى لنا كلّ أغنيّةٍ يعرفها أكثر من ثلاث مرّات، ولا يُمكنني أن أُبقيه هنا ضد إرادته. لكن لا داعي لبُكائكِ. أعدكِ بأن مغنّين آخرين سيأتون».

لكن أحدًا لم يأتِ طيلة عامٍ أو أكثر. صلّت سانزا للآلهة السّبعة في سِبتها ولآلهة شجرة القلوب القديمة سائلةً إياها أن تُعيد العجوز، أو -وهذا أفضل- أن تُرسِل مطربًا آخر شابًا ووسيمًا، لكن الآلهة لم تُجِب، وظلّ الصّمت يُخيّم على قاعات (وينترفل).

كان ذلك وهي فتاة صغيرة حمقاء، أمّا الآن فهي شابّة في الثّالثة عشرة تفتّحت زهرتها، تمتلئ لياليها كلُّها بالأغاني، وبالنّهار تُصلّي مستجديةً الصّمت.

لو كانت (الغش) كسائر القلاع لما سمعَ غناء الرّجل الميّت إلّا السّجّانون والجرذان، فجدران الزّنازين التّقليديّة سميكة بما يكفي لابتلاع الأغنيّات والصّرخات على حَدٍّ سواء، على عكس زنازين السّماء التي لها جِدار من الهواء، ولذا تنساق كلُّ نغمةٍ يعزفها الرّجل الميّت حُرّةً لتتردّد أصداؤها على مناكب الجبل المسمّى (زمح العملاق). والأغاني التي يختارها... دائمًا يُغنّي عن رقصة الثّنانين وعن چونكويل ومهرّجها، عن چيني بنت (الحجر العتيق) وأمير (قلعة اليعاسيب)، عن خياناتٍ واغتيالاتٍ آثمة ورجالٍ معلّقين من المشانق وانتقاماتٍ دامية، يُغنّي عن الحُزن واللّوعة.

أينما ذهبَت في القلعة لا تجدُ سانزا مفرًّا من الموسيقى. دومًا تنجرف من أسفل وتصعد سلالم البُرج الملتفّة، فتجدها عاريةً في حمّامها، وتتناوَل معها العَشاء عند الغسق، وتتسلّل إلى غُرفة نومها حتى عندما تُحكِم إغلاق النّافذة. تأتيها الموسيقى محمولةً على الهواء البارد، وكالهواء تبعث جسدها على القشعريرة. على الرغم من أن الثّلج لم يَسقُط على (الغش) منذ يوم سقوط الليدي لايسا فاللّيالي كلّها هنا قارسة البرودة.

صوت المغنّي قويٌ وعذب، وتظنُّ سانزا أنه أفضل من قبل أيضًا، أنه بشكلٍ ما أغنى، مفعم بالألم والخوف والاشتياق، لكنها لا تفهم لماذا وهبَت الآلهة صوتًا كهذا لرجلٍ شرِّير مِثله، واضطرَّت إلى أن تُذكِّر نفسها قائلةً: *كان سيأخذني عنوةً ونحن في (الأصابع) لولا أن پيتر كلَّف السير لوثور بالعناية بي، وعزفَ موسيقاه لتطغى على صريخي حين حاولَت الخالة لايسا أن تقتلني.*

لكن هذا لم يجعل سماع الغناء أسهل، حتى إنها قالت للورد پيتر متوسِّلةً: «أرجوك، ألا يُمكنك أن تجعله يتوقَّف؟».

- «لقد أعطيتُ الرَّجل كلمتي يا حُلوتي»، قالها پيتر بايلش، سيِّد (هارنهال) وسيِّد أراضي (الثَّالوث) الأعلى واللورد حافظ (الفش) و(وادي آرن)، ورفعَ عينيه عن الرِّسالة التي يَكتُبها. كان قد كتبَ زُهاء مئة رسالةٍ منذ سقطة الليدي لايسا، ورأت سانزا الطُّيور تُحلِّق من المِغدفة وإليها. «أفضِّلُ أن أتحمَّل غناءه على أن أسمع نحيبه».

الأفضل أن يُغنِّي، نعم، ولكن... «أيجب أن يظلَّ يعزف طيلة اللَّيل يا سيِّدي؟ اللورد روبرت لا يستطيع النَّوم. إنه يبكي...».

قاطعَها پيتر: «... أمّه، ولا شيء يُمكننا أن نفعله حيال هذا. المرأة ماتت»، وهزَّ كتفيه مضيفًا: «لن يطول الأمر كثيرًا. اللورد نستور سيصعد الجبل غدًا».

التقت سانزا اللورد نستور رويس مرّةً من قبل بَعد زفاف بيتر وخالتها. رويس هو وليّ (بوّابات القمر)، القلعة العظيمة القائمة عند سفح الجبل وتَحرُس الدّرجات الصّاعدة إلى (العُش)، وقد نزلَ حاضرو الزّفاف ضيوفًا عنده ليلةً قبل أن يبدأوا رحلة الصّعود. ليلتها لم يُكلّف اللورد نستور نفسه النّظر إليها مرّتين، لكن فكرة مجيئه هنا تُرعِبها. إنه وكيل (الوادي) الأعلى أيضًا، تابِع چون آرن والليدي لايسا المؤتمَن. قالت: «إنه لن... إنك لن تدع اللورد نستور يرى ماريليون، أليس كذلك؟».

لا بُدّ أن رُعبها لاحَ على وجهها، لأن بيتر وضعَ ريشة الكتابة، وقال: «بالعكس، سأصرّ على أن يراه»، وأشارَ لها بالجلوس على مقعدٍ مجاور له، وتابعَ: «أنا وماريليون عقدنا اتّفاقًا. من شأن مورد أن يكون مقنعًا للغاية في الحقيقة، وإذا خيّب مطربنا العزيز أملنا وغنّى أغنيّةً لا نُريد أن نسمعها، فما عليّ أنا وأنتِ إلّا أن نقول إنه كاذب. مَن تخالين اللورد نستور سيُصدِّق؟».

قالت سانزا وهي تتمنّى لو تتأكّد: «نحن؟».

- «بالطّبع، لأن كذبنا سيُفيده».

كانت الغُرفة الشّمسيّة دافئةً والنّار تُطقطِق على نحوٍ مبهج، لكن سانزا ارتجفَت رغم ذلك، وقالت: «نعم، لكن... ماذا لو...».

قال بيتر: «ماذا لو وضعَ اللورد نستور الشَّرف فوق المصلحة؟»، ووضعَ ذراعه حولها مواصلًا: «ماذا لو أنه يبغي الحقيقة والعدالة لسيِّدته القتيلة؟»، وأضافَ مبتسمًا: «إنني أعرفُ اللورد نستور يا خُلوتي. أتتصوَّرين أنني سأسمحُ له بإيذاء ابنتي؟».

لستُ ابنتك، إنني سانزا ستارك ابنة اللورد إدارد والليدي كاتلين ودم (وينترفل). لكنها لم تقل هذا. لولا بيتر بايلش لكانت سانزا نفسها التي هوَت ستَّمئة قدمٍ في فراغ السَّماء الزُّرقاء الباردة إلى ميتةٍ حجريَّة بدلًا من لايسا آرن. *يا لجرأته*. تتمنَّى سانزا لو أنها تتحلَّى بشَجاعته، لكنها لا تُريد إلَّا أن تعود إلى الفِراش وتختبئ تحت دِثارها وتغيب في نومٍ عميق. إنها لم تنَم ليلةً كاملةً منذ ماتت لايسا آرن. «ألا يُمكنك أن تقول للورد نستور إنني متوعِّكة... أو...».

- «سيُريد أن يسمع شهادتكِ على موت لايسا».
- «سيِّدي، إذا... إذا قال ماريليون الحقـ...».
- «تعنين إذا كذبَ؟».
- «كذبَ؟ نعم... إذا كذبَ، إذا كانت كلمتي ضد كلمته ونظرَ اللورد نستور في عينَي ورأى كم أنا خائفة...».

- «لن تكون لمحة من الخوف في غير محلّها يا إليني. لقد رأيتِ شيئًا مخيفًا، وسيتأثّر نستور»، وتفرّس بيتر في عينيها كأنه يراهما للمرّة الأولى، وأردف: «إن لك عينَي أمّكِ، عينين صادقتين بريئتين، زرقاوين كبحرٍ تُنيره الشّمس. عندما تكبرين قليلًا سيغرق رجال كُثر في هاتين العينين». لم تدرِ سانزا بِمَ تردّ، وأكملَ هو: «ما عليكِ إلّا أن تحكي للورد نستور الحكاية نفسها التي حكيتِها للورد روبرت».

روبرت مجرّد صبيّ صغير سقيم. *اللورد نستور رجل ناضج، صارم وشكّاك.* روبرت ليس قويًّا ولا بُدّ من حمايته، حتى من الحقيقة، وكان بيتر قد قال لها مطمئنًا إن بعض الأكاذيب حُب، فذكّرته بهذا الآن قائلةً: «عندما كذبنا على اللورد روبرت كان هذا لنُغنيه عن الألم».

قال بيتر: «وهذه الكذبة تُغنينا أيضًا عنه، وإلّا سنُغادِر أنا وأنتِ (العُش) من الباب نفسه كلايسا»، وعادَ يلتقط ريشته مضيفًا: «سنسقيه الأكاذيب ونبيذ (الكرمة) الذّهبي وسيشرب ويَطلُب المزيد. هذا وعد».

أدركَت سانزا أنه يسقيها الأكاذيب أيضًا، وإن كانت أكاذيب مريحةً، وتحسب أن النّيّة منها الرّأفة. *ليست الأكاذيب بهذا السّوء ما دامَت النّيّة منها الرّأفة*. ليتها فقط تُصدّقها...

لا تزال الأشياء التي قالتها خالتها قُبيل سقوطها تُزعِج سانزا، لكن پيتر وصفَها بالهذيان، وقال: «زوجتي كانت مجنونةً وقد رأيتِ هذا بنفسكِ». وهو ما رأته سانزا بالفعل. *كلُّ ما فعلته أني بنيت قلعةً من الثّلج،*

إلّا عندما أخرجَني. هو من فعلَ هذا من أجلي. ظننتُ السير دونتوس وراء الأمر، فارسي فلوريان العجوز السّكّير البائس، لكنه كان پيتر طوال الوقت. الإصبع الصّغير لم يكن أكثر من قناعٍ عليه أن يضعه. على أن التّمييز بين الرّجل والقناع يستعصي على سانزا أحيانًا، ذلك أن الإصبع الصّغير وپيتر بايلش متشابهان لأقصى درجة. ربما كانت لتفرّ من الاثنين لو أن هناك مكانًا تذهب إليه. (وينترفل) احترقَت وهُجِرَت، وبران وريكون جثّتان باردتان، وروب غُدِرَ به واغتيلَ في (التّوأمتين) مع السيّدة والدتهم، وتيريون أعدِمَ بتهمة قتل چوفري، وإذا عادَت إلى (كينجز لاندنج) ستضرب الملكة عُنقها بدورها، والخالة التي أملَت أن تحفظ سلامتها حاولَت قتلها بدلًا من ذلك، وخالها إدميور أسير آل فراي، وعمّه السّمكة السّوداء تحت الحصار في (ريڤرّن). بتعاسةٍ قالت سانزا لنفسها: *لا مكان لي إلّا هنا، ولا صديق حقيقيًا إلّا پيتر.*

ليلتها غنّى الرّجل الميّت (يوم شنقوا روبن الأسود) و(دموع الأمّ) و(أمطار كاستامير)، ثم توقّف فترةً، ولكن بينما أثقلَ الوسن رأس سانزا عادَ الغناء مجدّدًا، وغنّى الرّجل (ستّة أحزان) و(الأوراق السّاقطة) و(أليسين). *أغانٍ حزينة كلُّها.* لمّا أغلقت عينيها رأته في زنزانته السّماويّة رابضًا في الرّكن بعيدًا عن السّماء السّوداء الباردة تحت غطاءٍ من الصّوف ويُوَسّد قيثارته الخشبيّة صدره. يجب *ألّا أشفق عليه. لقد كان مغرورًا قاسيًا، وقريبًا سيموت.* إنها لا تستطيع إنقاذه، ولماذا قد ترغب في ذلك؟ ماريليون حاولَ أن يغتصبها، وبيتر أنقذَ حياتها مرّتين لا واحدةً. *بعض الأكاذيب يجب أن يُقال.* لم يُحافِظ على حياتها في (كينجز لاندنج) إلّا الأكاذيب، ولو لم تكذب على جوفري لضربها رجال الحرس الملكي حتى أراقوا دماءها.

أوه، أيها الفارس الكريم

هل رأيت ولدي؟

إن شَعره بنّي كالكستناء

وقد وعدَني بالعودة

إليّ وإلى ديارنا

التي في (بلدة ونديش)

غطّت سانزا أذنيها بوسادةٍ محشوّة بريش الإوز لتحجب عنهما بقيّة الأغنيّة، ولكن بلا جدوى. لقد طلع النّهار واستيقظَت، واللورد نستور رويس يصعد الجبل.

بلغَ الوكيل الأعلى ومجموعته (الغش) في أواخر الأصيل، وقد صبغَ الذّهبي والخمري الوادي أسفلهم واشتدّت الرّيح، ومعه جاءَ ابنه السير ألبار ودستة من الفُرسان وعشرون من الجنود. *غُرباء كثيرون جدًا.* تطلّعت سانزا إلى وجوههم بقلقٍ متسائلةً إن كانوا أصدقاء أم أعداء.

رحّب بيتر بزوّاره مرتديًا سُترةً من المخمل الأسود لها كُمّان رماديّان كسراويله الصّوف، فأضفى اللّون نوعًا معيّنًا من الظُّلمة على عينيه الخضراوين الرّماديّتين. إلى جواره وقفَ المِايستر كولمون وحول عُنقه الطّويل الرّفيع ترتخي سلسلته ذات المعادن العديدة، وعلى الرغم من أن المِايستر أطول الرّجلين قامةً فاللورد الحافظ هو من لفتَ الأنظار. يبدو أنه تخلّى عن تبسُّمه المعتاد اليوم، فأصغى بوقارٍ واللورد رويس يُقدِّم الفُرسان الذين رافَقوه، ثم قال: «مرحبًا بكم أيها السّادة. إنكم تعرفون المِايستر كولمون بالطّبع. لورد نستور، هل تَذكُر ابنتي الطّبيعيّة[39] أليني؟».

- «بالتّأكيد». للورد نستور مظهر صارم ورقبة غليظة وصدر عريض، يزحف على رأسه الصّلع ويَخِطُ الشّيب لحيته، وقد حنى رأسه نِصف بوصةٍ كاملًا تحيّةً لها.

انحنَت سانزا بدورها خائفةً أن تنطق فتقول شيئًا خطأً، ثم سحبَها بيتر من يدها قائلًا: «كوني فتاةً مهذّبةً يا حُلوتي واجلبي اللورد روبرت إلى (القاعة العالية) ليستقبل ضيوفه».

- «حاضر يا أبي». بدا صوتها رفيعًا مشدودًا، وبينما أسرعَت تصعد الدّرج وتَعبُر الشُّرفة إلى (بُرج القمر) قالت لنفسها: *صوت كاذبة، صوت مذنبة*.

كانت جرتشل ومادي تُساعِدان اللورد روبرت على ارتداء سراويله عندما دخلَت غُرفة نومه. كان سيِّد (الغش) يبكي ثانيةً، كما تنمُّ عيناه المحمرّتان الرّطبتان وأهدابه اليابسة وأنفه المنتفخ السّائل، وقد التمعَ خيط من المُخاط تحت أحد منخرِنه ولوّث الدّم شفته السُّفلى حيث عضَّها. فكّرت سانزا بقنوط: *يجب ألّا يراه اللورد تستور هكذا*، وطلبَت من جرتشل أن تُحضِر الطّست، ثم أخذَت الصّبي من يده وسحبَته من على الفِراش قائلةً: «هل نامَ عُصفوري الجميل جيِّدًا ليلة أمس؟».

أجابَ متنشِّقًا: «لا، لم أنم إطلاقًا يا إليني. كان يُغنِّي ثانيةً، ووجدتُ بابي موصدًا. ناديتهم ليُخرِجوني لكن لا أحد أتى. أحدهم حبَسَني في غُرفتي».

- «يا لهم من أشرار». غمسَت قُماشةً ناعمةً في الماء الدّافئ وشرعَت تُنظِّف وجهه... برفقٍ شديد، بمنتهى منتهى الرِّفق. إذا حكَّت جسد روبرت بقوّةٍ أكبر من اللّازم فربما يبدأ في الارتجاف. الصّبي هَشٌّ، وصغير للغاية بالنِّسبة إلى سِنِّه. أي نعم هو في الثّامنة، لكن سانزا عرفَت أطفالًا في الخامسة أكبر منه حجمًا.

ارتعشَت شفة روبرت، وقال: «كنتُ سآتي لأنام معكِ».

أعرفَ هذا. لقد اعتادَ العُصفور الجميل النّوم إلى جانب أمِّه إلى أن تزوَّجت اللورد پيتر، ومنذ موت الليدي لايسا عمدَ الصّبي إلى التّجوال في أنحاء (العُش) بحثًا عن أسرّةٍ أخرى، وأكثر ما راقَه منها سرير سانزا... ولهذا السّبب طلبَت من السير لوثور بروِن أن يُوصِد بابه ليلة البارحة. ما كانت لتُمانِع لو أنه ينام فقط، لكنه يُحاوِل دومًا أن يُمَرِّغ أنفه في ثدييها، ثم إنه غالبًا ما يُبَلِّل الفِراش عندما تُصيبه نوبة الرّجفة.

قالت سانزا وهي تمسح تحت أنفه: «اللورد نستور صعدَ من (بوّابات القمر) ليراك».

- «لا أريدُ أن أراه. أريدُ قصّةً، واحدةً عن الفارس المجنّح».

- «فيما بعدُ. أولًا عليك أن ترى اللورد نستور».

قال روبرت: «اللورد نستور لديه شامة. مامي قالت إنه شنيع». إنها تعلم أن الصّبي يخاف من لهم شامات.

سوّت سانزا شعره قائلةً: «غصفوري الجميل المسكين. أعرفُ أنك تفتقدها. اللورد پيتر يفتقدها أيضًا. لقد أحبّها مِثلما تحبّها تمامًا». تلك أكذوبة، لكن الغرض منها الرّأفة. المرأة الوحيدة التي أحبّها اللورد پيتر في حياته هي أم سانزا القتيلة، وقد اعترفَ بهذا لليدي لايسا قبل أن يدفعها من (باب القمر) مباشرةً. *كانت مجنونةً وخطرةً. لقد قتلَت السيِّد زوجها، وكانت لتقتلني أيضًا لو لم يأتِ پيتر ويُغيثني*. لكن روبرت ليس في حاجةٍ إلى معرفة ذلك. إنه مجرّد صبيٍّ صغير مريض أحبّ أمّه. قالت: «هكذا يليق مظهرك باللوردات. مادي، أحضِري معطفه». المعطف من صوف الحملان، ناعم ودافئ وأنيق بلونه الأزرق السّماوي الذي أبرزَ لون سُترة الصّبي القشدي، وثبّتته سانزا على كتفيه بدبُّوسٍ فضّي على شكل هلال، ثم أخذَته من يده فمضى معها بخنوعٍ هذه المرّة.

ظلّت (القاعة العالية) مغلقةً منذ سقطَت الليدي لايسا، وقد بعث دخولها ثانيةً في سانزا القشعريرة. إنها تراها طويلةً فخمةً جميلةً، لكنها لا تحبّ وجودها هنا في هذا المكان الشّاحب الذي تسوده البرودة حتى في أحسن الأوقات، حيث تبدو الأعمدة الرّفيعة كعظم الأصابع وتُذكّرك العروق الزّرقاء في الرّخام الأبيض بالعروق في ساق حيزبون هرِمة. على الرغم من اصطفاف خمسين حاملٍ فضّي على الجُدران فالمشاعل الموقَدة تقلّ عن دستة، فراحت الظّلال تتراقَص على الأرضيّة وتحتشد في كلّ زكنٍ بينما تردّدت أصداء خُطواتهم على الرّخام وسمعت سانزا الرّيح ترجّ (باب القمر)، فأخبرَت نفسها: *يجب ألّا أنظر إليه وإلّا اعترَتني رجفة عنيفة مِثل روبرت*.

بمساعدَة مادي أجلسَت روبرت فوق كومةٍ من الوسائد على عرشه المصنوع من خشب الويروود، ثم أرسلَت خبرًا بأن حضرة اللورد مستعدٌّ لاستقبال ضيوفه، ففتح حارسان في معطفين من الأزرق السّماوي الباب في طرف القاعة القصي، ليقود بيتر الضّيوف إلى الدّاخل على البساط الأزرق الطّويل الممتد بين صفّين من الأعمدة البيضاء كالعظام.

حيّا الصّبي اللورد نستور بأسلوبٍ كيّس وصوتٍ كالصّرير ولم يَذكُر شامته، وعندما سأله الوكيل الأعلى عن السيّدة والدته سرَت في يدَي روبرت رعشة طفيفة، وقال: «ماريليون آذى أمّي، ألقاها من (باب القمر)».

- «هل رأى حضرة اللورد هذا بنفسه؟»، سألَ السير ماروين بلمور، وهو فارس طويل نحيف له شَعر بنّي محمَر، كان قائد حرس لايسا إلى أن عيّن بيتر السير لوثور برون بدلًا منه.

أجابَ الصّبي: «إليني رأت، والسيّد زوج أمّي».

رمقَها اللورد نستور، ووجدَتهم يَنظُرون إليها، السير ألبار والسير ماروين والمِايستر كولمون، الجميع. *كانت خالتي لكنها أرادَت أن تَقتلني، جرّتني إلى (باب القمر) وحاولَت أن تدفعني منه. لم أرغب في تلك القُبلة قَطُّ. كنتُ أبني قلعةً في الثّلج*. احتضنَت سانزا نفسها لتمنعها من الارتجاف.

قال بيتر بهدوء: «سامِحوها أيها السّادة، إنها لا تزال ترى ذلك اليوم في الكوابيس. لا عجب أنها لا تُطيق الكلام عنه»، ثم وقفَ وراءها ووضعَ يديه بخفّةٍ على كتفيها قائلًا: «أدرك صعوبة الأمر عليكِ يا إليني، لكن يجب أن يسمع أصدقاؤنا الحقيقة».

أحسّت بحَلقها جافًا مشدودًا لدرجة أن الكلام كادَ يُؤلِمها وهي تقول: «نعم، رأيتُ... كنتُ مع الليدي لايسا عندما...»، وسالَت دمعة على وجنتها ففكّرت: جيّد، جيّد *أن تنزل مني دمعة*، وواصلَت: «... عندما... دفعَها ماريليون»، وحكَت الحكاية ثانيةً وهي تكاد لا تسمع الكلمات التي تدفّقت منها.

قبل أن تَبلُغ منتصَف الحكاية بدأ روبرت يبكي، ومالَت الوسائد على نحوٍ خطر تحته إذ صاح: «لقد قتل أمّي. أريده أن يطيرا»، واشتدّت رجفة يديه وبدأت ذراعاه ترتجفان أيضًا، ثم انتفضَ رأس الصّبي بحركةٍ عنيفة وراحَت أسنانه تصطكّ وضربَت ذراعاه وساقاه الهواء بضراوةٍ وهو يَصرخ: «يطير، يطير، يطيرا»، فأسرعَ لوثور برونِ إلى المنصّة في الوقت المناسب ليلقف الصّبي الذي انزلقَ ساقطًا عن عرشه، ووراءه بخطوةٍ واحدة المِايستر كولمون، وإن لم يكن هناك ما يُمكنه أن يفعله.

عاجزةً كالآخَرين، وقفَت سانزا وشاهدَت حتى جرَت النّوبة مجراها. ركلَت إحدى ساقَي روبرت السير لوثور في وجهه، فأطلقَ سبابًا وإن ظَلَّ متمسّكًا بالصّبي وهو يرتجف ويتشنّج ويُبَلّل نفسه، في حين لم ينبس أيٌّ من زائريهم بكلمة، فاللورد نستور على الأقل شهدَ تلك النّوبات من قبل. لحظات طويلة مرّت قبل أن تهمد تشنُّجات روبرت، بل وبدَت أطول من هذا كذلك، وفي النّهاية كان اللورد الصّغير واهنًا عاجزًا حتى عن الوقوف، فقال اللورد بيتر للمِايستر: «الأفضل أن تأخذ حضرة اللورد إلى فِراشه وتُعلّق له العَلق». هكذا حملَ برون الصّبي بين ذراعيه وخرجَ به من القاعة، وتبعَه المِايستر كولمون بوجهٍ متجّهم.

حين تلاشَت خُطوات أقدامهما رانَ صمت تام على قاعة (الغش) العالية، وسمعَت سانزا رياح المساء تئنُّ في الخارج وتخمش (باب القمر)، وتساءلَت شاعرةً ببردٍ وإرهاق شديدين: *أيجب أن أحكي الحكاية ثانيةً؟*

قال السير ألبار رويس: «لقد دعانا بالخنازير».
بملامحه الصّارمة وكتفيه العريضتين يبدو السير ألبار نُسخةً أصغر سِنًّا من أبيه، وقد حلقَ الفارس ذقنه وإن أطلقَ شَعر وجنتيه الأسود الكثيف ليصنع إطارًا كسياجٍ من الشُّجيرات حول وجهه التّقليدي. «ألّف أغنيّةً عن خنزيرين يرعيان حول جبلٍ ويأكلان فُضالة صقر، وبهذا كان يعنينا نحن، لكن حين قلت له هذا ضحك مني، وردّ: *إنها مجرّد أغنيّة عن زوجين من الخنازير أيها الفارس!*».
أضافَ السير ماروين بلمور: «وسخرَ مني كذلك، سمّاني السير جلاجل، ولمّا أقسمتُ أن أقطع لسانه هرعَ إلى الليدي لايسا واختبأ وراء تنّورتها».
قال اللورد نستور: «كما تعوّد أن يفعل. الرّجل كان جبانًا، لكن تحيّز الليدي لايسا له أصابَه بالغطرسة. لقد ألبسَته كاللوردات، وأهدَت إليه خواتم ذهبيّةً وحزامًا مرصّعًا بأحجار القمر».
عقّب فارس على شترته شموع عائلة واكسلي البيضاء السّت: «وحتى صقر اللورد چون المفضّل، ولكم أحبّ حضرة اللورد ذلك الصّقر. لقد أهداه الملك روبرت إليه».
زفرَ پيتر بايلش، وقال مؤيّدًا: «لم يكن الوضع يليق، وقد وضعتُ نهايةً له. لايسا وافقت على صرفه، ولذا التقته هنا يومها. كان عليّ أن أكون معها، لكني لم أتخيّل قطّ أن... لو لم أصمّم... أنا الذي قتلتها».

فكّرت سانزا بهلع: *لا، لا تقل هذا، لا تُخبِرهم، لا تفعلها*، لكن ألبار رويس هَزَّ رأسه قائلًا: «لا يا سيِّدي، يجب ألَّا تلوم نفسك».

ووافقَه أبوه بقوله: «المغنِّي هو من فعلَها. فلتأتِ به أيها اللورد بيتر، دَعونا نَكتُب نهايةً لهذه القصَّة المؤسفة».

بجَنانٍ ثابت قال بيتر بايلش: «كما تشاء يا سيِّدي»، والتفتَ إلى حارسيه وألقى أمرًا، وجيء بالمغنِّي من الزَّنازين. جاءَ معه السَّجَّان مورد ذو الملامح الوحشيَّة والعينين السَّوداوين الصَّغيرتين والوجه المائل الشَّائه. في معركةٍ ما طارَت إحدى أُذنيه وجزء من وجنته، وإن ظلَّت في جسده أكوام من اللَّحم الأبيض الممتقع، وقد ارتدى ثيابًا لا تُناسِب مقاسه وفاحَت منه رائحة منفِّرة.

على النَّقيض بدا ماريليون أقرب إلى الأناقة. وقد حمَّمه أحدهم وألبسَه سراويل من الأزرق السَّماوي وسُترةً قصيرةً فضفاضةً بكُمَّين منتفخين، مربوطةً بزنارٍ فضِّي كان هديَّةً من الليدي لايسا، بينما غطَّى يديه قُفَّازان من الحرير الأبيض، وأغنَت عصابة حريريَّة بيضاء السَّادة الحاضرين عن رؤية منظر عينيه.

وقفَ مورد وراءه حاملًا كُرباجًا، وحين نكزَه السَّجَّان في ضلوعه هوى المغنِّي على رُكبته قائلًا: «أتوسَّلُ مغفرتكم أيها السَّادة».

سألَه اللورد نستور بعبوس: «هل تعترف بجريمتك؟».

كان صوت المغنّي القويّ الواثق ليلًا راجفًا هامسًا الآن وهو يُجيب: «لو أن لي عينين لبكيث. لقد أحببتها كثيرًا، ولم أحتمل أن أراها بين ذراعَي رجلٍ آخر، أن أعلم أنها تُشارِكه فِراشه. لم أكن أنوي أن أمسّ سيّدتي الجميلة بأذى، أقسمُ على هذا، وأوصدتُ الباب فقط كي لا يُزعِجنا أحد بينما أعترفُ لها بعاطفتي، لكن الليدي لايسا كانت باردةً للغاية معي... لمّا قالت لي إنها تحمل طفل اللورد پيتر... تملّكني الجنون...».

حدّقت سانزا إلى يديه وهو يتكلّم. مادي البدينة زعمَت أن مورد بترَ ثلاثةً من أصابعه، كلا الخنصرين وإحدى السّبّابتين، وبشكلٍ ما بدا إصبعاه الصّغيرين أكثر تيبّسًا من البقيّة بالفعل، لكن من الصّعب أن تتيقّن في وجود هذين القفّازين. *ربما لا تكون أكثر من قصّة مختلَقة. وما أدرى مادي؟*

قال المغنّي الأعمى: «اللورد پيتر تكرّم وتركَ لي قيثارتي، قيثارتي و... لساني... كي أغنّي. كم كانت الليدي لايسا مولعةً بأغانيّ...».

قال اللورد نستور بغلظة: «خُذوا هذا المخلوق من هنا وإلّا قتلته بنفسه. مجرّد النّظر إليه يُغثيني».

خاطبَ پيتر السّجّان قائلًا: «مورد، أعِده إلى زنزانته».

رَدَّ مورد: «نعم سيِّدي»، وأمسكَ ماريليون من ياقته بخشونة، وقال له: «لا مزيد كلام». حين تكلَّم رأت سانزا -لدهشتها- أن أسنان السَّجّان من الذَّهب، وشاهدَته مع الآخرين وهو يجرُّ المغنِّي ويدفعه نحو الباب.

أعلنَ ماروين بلمور عقب خروجهما: «لا بُدَّ أن يموت هذا الرَّجل. كان ينبغي أن يتبع الليدي لايسا من (باب القمر)».

أضافَ السير ألبار رويس: «دون لسانه، دون هذا اللِّسان الكاذب السَّاخر».

بلهجةٍ اعتذاريَّة قال پيتر بايلش: «أعرفُ أني ترفَّقت به كثيرًا. الحقيقة أنني أشفقُ عليه. لقد قتلَ من أجل الحُب».

قال بلمور: «من أجل الحُب أو الكراهية، لا بُدَّ أن يموت».

قال اللورد نستور بفظاظة: «قريبًا. لا أحد يبقى طويلًا في زنازين السَّماء. سوف يُناديه الأزرق».

قال پيتر بايلش: «ربما، لكن سواء أأجابَ ماريليون النّداء أم لم يُجِبه فهو وحده يعرف»، وأشارَ ليفتح حارساه الباب في نهاية القاعة، واستطردَ: «أيها الفُرسان، لا بُدّ أنكم متعَبون من صعودكم. لقد أعددنا غُرفًا لكم جميعًا لقضاء اللّيل، والطّعام والنّبيذ في انتظاركم في (القاعة السُفليّة). أوزويل، أرِهم الطّريق واحرص على تلبية احتياجاتهم كلّها»، ثم التفتَ إلى نستور رويس قائلًا: «هلّا تناولت معي كأسًا من النّبيذ في غُرفتي الشّمسيّة يا سيّدي؟ إليني يا حُلوتي، تعالي وصُبّي لنا».

كانت نار خافتة مشتعلةً في الغُرفة الشّمسيّة حيث ينتظرهم إبريق من النّبيذ. نبيذ ذهبي من *(الكرمة)*. وملأت سانزا كأس اللورد رويس فيما حرّك پيتر الحطب بمِسعرٍ حديدي.

جلسَ اللورد نستور إلى جوار النّار، وقال لپيتر كأن سانزا ليست موجودةً: «لن تكون هذه النّهاية. ابن عمّي ينوي استجواب المغنّي بنفسه».

دفعَ پيتر قطعةً من الحطب جانبًا قائلًا: «يون البرونزي لا يثق بي».

- «إنه يَزمِع المجيء على رأس قوّة، وسينضمُّ إليه سايموند تمپلتون، إياك أن تشكّ في هذا، والليدي واينوود أيضًا كما أخشى».

- «واللورد بلمور واللورد هنتر الشّاب وهورتون ردفورت، وسيجلبون معهم سام ستون القوي وآل توليت وآل شِت وآل كولدووتر وعددًا من آل كوربراي».

- «أنت واسع الاطّلاع. مَن مِن آل كوربراي؟ اللورد لايونل؟».

- «لا، أخوه. السير لين لا يحبّني لسببٍ ما».

قال اللورد نستور بإصرار: «لين كوربراي رجل خطير. ماذا تنوي أن تفعل؟».

رَدّ پيتر: «وما الذي بإمكاني أن أفعله إلّا التّرحيب بهم إذا أتوا؟»، وحرّك المِسعر ليُزكي النّار أكثر ثم وضعَه.

- «ابن عمّي ينوي أن يخلعك من منصب اللورد الحافظ».

- «إذا كان هذا صحيحًا فليس بمقدوري أن أمنعه. إنني أحتفظُ بحامية لا تزيد على العشرين رجلًا، واللورد رويس وأصدقاؤه يستطيعون حشد عشرين ألف»، وذهبَ پيتر إلى الصّندوق البلّوط الموضوع أسفل النّافذة، وأضافَ وهو يركع أمامه: «يون البرونزي سيفعل ما يُريد أن يفعله»، ثم فتحَ الصّندوق وأخرج رَقًّا ملفوفًا وناولَ اللورد نستور إياه قائلًا: «سيّدي، هذه أمارة على الحُبّ الذي كانت سيّدتي تُكِنُّه لك».

شاهدَت سانزا رويس يبسط الرّقّ ويقول: «هذا... هذا غير متوقّع يا سيّدي»، وأذهلَها أن ترى في عينيه دموعًا.

- «غير متوقَّع لكنه ليس غير مستحَق. لقد قدَّرتك سيِّدتي أكثر من سائر حمَلة رايتها، وقالت لي إنك صخرتها».

قال اللورد نستور بوجهٍ تورَّد: «صخرتها. هي قالت هذا؟».

أجابَ پيتر: «مرارًا»، وأشارَ إلى الورقة مستدركًا: «وها هو ذا الدَّليل».

- «هذا... يسرُّني أن أعرف هذا. أعلمُ أن چون آرن كان يُقدِّر خدمتي، لكن الليدي لايسا... لقد استخفَّت بي حين أتيتُ أخطبُ وُدَّها، وخشيتُ أن...»، وعقدَ اللورد نستور حاجبيه مغمغمًا: «أرى أنه يحمل خَتم آرن، لكن التَّوقيع...».

- «لايسا قُتِلَت قبل أن تُقدِّم لها الوثيقة لتُوقِّعها، فوقَّعتها باعتباري اللورد الحافظ. أعلمُ أنها كانت لترغب في هذا».

قال اللورد نستور: «مفهوم»، وطوى الرَّقَّ متابعًا: «أنت... وفيٌّ يا سيِّدي، نعم، ولا تعوزك الشَّجاعة. سيقول بعضهم إن هذه المنحة لا تليق ويلومونك على تقديمها. منصب الوليِّ لم يكن متوارَثًا قطُّ. آل آرن هُم من شيَّدوا (بوَّابات القمر) في إبَّان اعتمارهم تاج الصَّقر وحكمهم ملوكًا في (الوادي). كانت (الغش) مقرَّهم الصَّيفي، لكن مع بدء سقوط الثُّلوج اعتادَ البلاط أن ينزل الجبل. ستجد مَن يقولون إن (بوَّابات القمر) لا تقلُّ ملكيَّةً عن (الغش)».

علّق پيتر بايلش: «لم يَعُد هناك ملك في (الوادي) منذ ثلاثمئة سنة».

أيّده اللورد نستور قائلًا: «حين أتى الثنانين، لكن حتى بَعدها ظلّت (بوّابات القمر) قلعةً تابعةً لعائلة آرن. چون آرن نفسه كان وليّ البوّابات في حياة أبيه، وبَعد تولّيه الحُكم كرّم أخاه رونل بالمنصب، ولاحقًا دينس ابن عمّه».

- «اللورد روبرت بلا إخوة، وأبناء عمومته بعيدون».

أطبقَ اللورد نستور على الوثيقة، وقال: «صحيح. لن أقول إنني لم أتمنّ هذا. حين كان اللورد چون يَحكُم البلاد بصفته يد الملك وقعَ على عاتقي أن أحكم (الوادي) من أجله، وفعلتُ كلّ ما طلبه مني ولم أسأله شيئًا لنفسي، لكني استحققت هذا بحَقِّ الآلهة!».

قال پيتر: «استحققته بالفعل، واللورد روبرت ينام بارتياحٍ أكثر عالمًا أنك موجود دائمًا، صديق صدوق عند سفح جبله»، ورفعَ كأسه مردفًا: «إذن... لنشرب نخبًا يا سيّدي. في صحّة آل رويس أولياء (بوّابات القمر)... الآن وإلى الأبد».

ردّد رويس: «الآن وإلى الأبد، أجل!»، وتقارعَت الكأسان الفضّيّتان.

لاحقًا، بَعدها بوقتٍ طالَ، بَعد أن فرغَ إبريق نبيذ (الكرمة) الذَّهبي، استأذنَ اللورد نستور في الانصراف لينضمَّ إلى رِفقة فُرسانه من جديد، وعندئذٍ كان النُّعاس يُغالِب سانزا الواقفة بلا رغبةٍ إلَّا في الذَّهاب إلى فِراشها، لكن پيتر أمسكَ معصمها قائلًا: «أترين الأعاجيب التي يصنعها الكذب ونبيذ (الكرمة) الذَّهبي؟».

لماذا تُريد أن تبكي إذن؟ من الجيِّد أن نستور رويس معهما. سألَته: «أكان كلُّ ما قيلَ كذب؟».

- «ليس كلُّه. كثيرًا ما دعَت لايسا اللورد نستور بالصَّخرة، وإن كنتُ لا أظنُّ أنها قصدَتها كإطراء، وتعوَّدت أن تدعو ابنه بكُتلة الطِّين. كانت تعلم أن اللورد نستور يَحلُم بالانفراد بحُكم (بوَّابات القمر)، أن يكون لورد حقيقةً لا اسمًا فقط، لكن لايسا كانت تَحلُم بإنجاب أبناء آخَرين وانتوَت أن تذهب القلعة إلى أخي روبرت الصَّغير»، ونهض پيتر سائلًا إياها: «هل تفهمين ما حدث هنا يا إليني؟».

تردَّدت سانزا بُرهةً، ثم قالت: «منحت اللورد نستور (بوَّابات القمر) لتتأكَّد من دعمه لك».

- «نعم، لكن صخرتنا من آل رويس، أي أنه شديد الاعتداد بالنّفس وسريع الغضب. لو كنتُ سألته عن سِعره لانتفخَ كضفدعٍ غاضب لإهانتي شَرفه، أمّا بهذه الطّريقة... الرّجل ليس غبيًا تمامًا، لكن الأكاذيب التي قدّمتها له أحلى من الحقيقة. إنه يُريد أن يُصدّق أن لايسا قدّرته أكثر من بقيّة حمَلة رايتها، فأحد هؤلاء الآخرين يون البرونزي في النّهاية، ونستور يعي جدًا حقيقة أنه من فرعٍ أدنى لعائلة رويس، ويرغب في المزيد لابنه. الشُرفاء يفعلون في سبيل أولادهم أشياء ما كانوا ليُفكّروا في فِعلها لأنفسهم بتاتًا».

أومأت برأسها متفهّمةً، وقالت: «التّوقيع... كان يُمكنك أن تجعل اللورد روبرت يُوَقّع الوثيقة ويختمها، لكن بدلًا من هذا...».

- «... وقّعتها بنفسي باعتباري اللورد الحافظ. لماذا؟».

- «لأن... في حالة إزاحتك أو... أو قتلك...».

- «... سيُصبِح امتلاك اللورد نستور (بوّابات القمر) فجأةً محلّ شَك. أؤكّد لكِ أن شيئًا كهذا لم يَفُته. براعة منكِ أن تلحظي، وإن لم أتوقّع أقلّ من هذا من ابنتي».

- «أشكرك»، قالت شاعرةً بفخرٍ شديد باستنتاجها السّليم، ولو أن فخرها امتزج بالحيرة. «لكني لستُ ابنتك، ليس حقًا. أعني أنني أتظاهر بكوني إليني، لكنك تعلم...».

وضعَ الإصبع الصّغير إصبعه على شفتيها، وقال: «أعلمُ ما أعلمُ وتعلمين ما تعلمين. الأفضل ألّا يُقال بعض الأشياء يا حُلوتي».

- «حتى ونحن وحدنا؟».

- «بالذّات ونحن وحدنا، وإلّا قد يأتي يوم ويَدخُل خادم غُرفةً دون تنبيه أو يسمع حارس على الباب شيئًا لا ينبغي أن يسمعه. هل تُريدين المزيد من الدّماء على يديكِ الجميلتين يا عزيزتي؟».

رأت وجه ماريليون يسبح في الهواء أمامها وعلى عينيه العصابة الباهتة، ووراءه رأت السير دونتوس وسهام النُّشّابيّة مغروسة في جسده. هكذا قالت سانزا: «لا، أرجوك».

- «وددتُ لو أقول إننا لسنا في لُعبةٍ يا بنيّتي، لكنها كذلك بالطّبع. إنها لُعبة العروش».

لم أطلب أن ألعب قَطُّ. واللُّعبة محفوفة بالمخاطر. *زلّة واحدة وأموتُ*. «أوزويل... سيّدي، أوزويل جذّف بي من (كينجز لاندنج) ليلة هروبي. لا بُدّ أنه يعرف هويّتي الحقيقيّة».

قال: «مؤكّد أنه يعرفها إذا كان يملك نِصف ذكاء خروف، والسير لوثور يعرف أيضًا، لكن أوزويل يعمل في خدمتي منذ زمنٍ طويل، وبرون كتوم بطبيعته. كِتلبلاك يُراقِب برون من أجلي، وبرون يُراقِب كِتلبلاك. ذات مرّةٍ قلتُ لإدارد ستارك ألّا يثق بأحد، لكنه أبى أن يُصغي. أنتِ إليني، ويجب أن تكوني إليني طوال الوقت»، ووضعَ إصبعين على ثديها الأيسر متابعًا: «حتى هنا، في قلبكِ. هل يُمكنكِ أن تفعلي هذا؟ هل يُمكنكِ أن تكوني ابنتي في قلبكِ؟».

- «إنني...». كادَت تقول: *لا أدري يا سيّدي*، لكن ذلك ليس ما يُريد أن يسمعه، فقالت لنفسها: *الأكاذيب ونبيذ (الكرمة) الذّهبي*، وأجابَته: «إنني إليني يا أبي، ومَن غيرها؟».

لثمَ اللورد الإصبع الصّغير وجنتها، وقال: «بعقلي وجَمال كات سيكون العالم ملك يمينكِ يا خُلوتي. والآن إلى الفِراش».

وجدَت سانزا أن جرتشل أشعلَت نارًا في مستوقَدها ونفشَت حشيّة فِراشها الرّيش، فخلعَت ثيابها ودخلَت تحت الأغطية، وترجّت في قرارة نفسها: *لن يُغنّي اللّيلة في وجود اللورد نستور والآخَرين في القلعة، لن يجرؤ*، وأسدلَت جفنيها.

وفي هزيعٍ ما من اللّيل استيقظت إذ انضمّ إليها روبرت الصّغير في الفِراش. *نسيتُ أن أقول للسير لوثور أن يحبسه ثانيةً*. لم يكن هناك ما يُمكنها أن تفعله، فطوّقته بذراعها قائلةً: «عُصفوري الجميل، يُمكنك أن تبقى، لكن حاول ألّا تتقلّب. أغلِق عينيك ونَم أيها الصّغير».

قال: «حاضر»، والتصقَ بها ووضعَ رأسه بين ثدييها، وسألَها: «إليني، أأنتِ أمّي الآن؟».

أجابَته: «أظنُّ هذا».

لا أذى في أكذوبةِ النّيّة منها الرّأفة.

---

(39) الطّفل الطّبيعي مصطلح من القرون الوُسطى يُطلَق على الأولاد غير الشّرعيين. (المترجم).

ضجَّت القاعة بصخب رجال هارلو السّكرانين، كلُّهم من أبناء خُؤولتها، وكلُّ لورد منهم يُعَلِّق رايته وراء مجموعة الدِّكك التي يجلس عليها رجاله، وقد تطلَّعت آشا جرايچوي إليهم من الشُّرفة مفكِّرةً: *قِلَّة قليلة للغاية، قِلَّة لا تُذكَر*. ثلاثة أرباع الدِّكك كان شاغرًا.

كارل البِكر قال ما مؤدّاه الخُلاصة نفسها وهما على متن (الرِّيح السَّوداء) المقبلة من البحر، إذ أحصى الشفن الطَّويلة الرّاسية أسفل قلعة خالها، ثم زَمَّ فاه معلِّقًا: «لم يأتوا، أو لم يأتِ عدد كافٍ». لم يكن مخطئًا، إلّا أن آشا لم تستطِع أن تُؤَمِّن على كلامه في مكانٍ مفتوح حيث يُمكن أن يسمعها أفراد طاقمها. إنها لا تشكُّ في إخلاصهم، لكن حتى حديديّي الميلاد يتردَّدون في بذل حياتهم في سبيل قضيَّةٍ من الجليّ للعِيان أنها خاسرة.

أأصدقائي قلائل لهذه الدّرجة حقًّا؟ ضمن الرّايات رأت سمكة آل بوتلي الفضّيّة، وشجرة آل ستونتري الحجريّة، ولَوِياثان آل ڤولمارك الأسود، وأناشيط آل ماير. أمّا البقيّة فمناجل آل هارلو. يضع بورموند منجله على خلفيّةٍ زرقاء شاحبة، ومنجل هوثو محاط بإطارٍ له شكل شُرفات الحصن، والفارس أضافَ إلى منجليه الطّاووسين المبهرجَين رمز عائلة أمّه، علاوةً على راية سيجفريد ذي الشّعر الفضّي التي تُظهِر منجلين متعارضين على خلفيّةٍ مقسومة بمَيلٍ إلى لونين. وحده اللورد هارلو على رايته منجل فضّي خالص على خلفيّةٍ بسواد اللّيل، تمامًا كما كانت تخفق في فَجر الزّمان. إنه رودريك الملقّب بالقارئ، سيّد (البروج العشرة) وسيّد (هارلو)، زعيم عائلة هارلو في (هارلو)... والمفضّل عندها من بين أشقّاء أبيها وأمّها.

كان مقعد اللورد رودريك العالي شاغرًا أيضًا، وقد تقاطعَ فوقه منجلان من الفضّة المطرّقة، هائلان حتى إن واحدًا من العمالقة أنفسهم كان ليجد عسرًا في حملهما، لكن تحتهما تستقرُّ الوسائد خاليةً. لم تندهش آشا، فالمأدبة انتهت منذ مدّةٍ طويلة، وعلى الموائد لم يتبقَّ غير العظام والأطباق المتّسخة بالدّهون. الآن ليس هناك في المكان إلّا من يشربون، وخالها رودريك لم يكن ميّالًا قطّ إلى صحبة السّكارى المشاكسين.

التفتَت إلى ذات الثلاث أسنان، امرأة في أرذل العُمر تعمل وكيلةً لخالها منذ كانت تُدعى ذات الاثنتي عشرة سِن، وسألَتها: «خالي مع كُتبه؟».

- «نعم، وهل هناك غيرها؟». المرأة طاعنة في السّنّ لدرجة أن أحد السَّپتونات قال في مرّةٍ إنها حتمًا أرضعَت (العجوز)، لكن ذلك كان في عهد التّسامُح مع عقيدة الآلهة السّبعة على الجُزر. الآن يحتفظ خالها بعددٍ من السَّپتونات في (البروج العشرة)، ليس من أجل خلاص روحه وإنما من أجل الكُتب. «مع الكُتب وبوتلي. هو أيضًا كان معه».

راية بوتلي أيضًا معلّقة في القاعة، سرب من السّمك الفضّي على خلفيّةٍ خضراء باهتة، وإن لم ترَ آشا سفينته (الزّعنفة السّريعة) وسط السُّفن الطّويلة الأخرى. قالت: «سمعتُ أن عمّي عين الغُراب أغرقَ العجوز ساوان بوتلي».

- «أقصدُ اللورد تريستيفر بوتلي».

تريس. تساءلَت عمّا جرى لابن ساوان الأكبر هارن. *لا شكّ أني سأعرفُ قريبًا. لن يكون موقفًا مريحًا*. إنها لم ترَ تريس بوتلي منذ... لا، يجب ألّا تُسهِب في التّفكير في ذلك. «والسيّدة أمّي؟».

- «في فِراشها في (بُرج الأرملة)».

نعم، وهل هناك مكان غيره؟ الأرملة التي استمدّ البُرج منها اسمه هي خالتها الليدي جوينيس، التي أتَت ترثي زوجها الذي ماتَ عند (الجزيرة القصيّة) خلال تمرُّد بالون جرايچوي الأول، ومعلوم أنها قالت لأخيها: «سأبقى حتى ينتهي حِدادي فقط، مع أن المفترَض حقًّا أن تكون (البُروج العشرة) لي، لأني أكبرك بسبعة أعوام». سنوات طويلة مرّت منذ ذلك الحين، وظلّت الأرملة في حِدادها، وبين الآن والآخَر تُتمتِم أن القلعة من حقِّها. *والآن عند اللورد رودريك أخت أرملة شِبه مجنونةٍ أخرى تحت سقفه. لا عجب أنه يسعى إلى العزاء وسط كُتبه.* حتى الآن يَصعُب استيعاب أن الليدي ألانيس السّقيمة الهشّة حيّة بينما ماتَ زوجها اللورد بالون الذي بدا شديد القوّة والصّلابة. عندما أبحرَت آشا إلى الحرب كان قلبها مثقلًا بالهَم، وتخشى أن تموت أمُّها قبل عودتها، ولم يَخطُر لها مرّةً أن أباها سيموت أولًا. *الإله الغريق يُمازِحنا مزاحًا قاسيًا، لكن البَشر أشدُّ قسوةً.* عاصفة مفاجئة وحبل مقطوع ألقيا ببالون جرايچوي إلى مصرعه. *أو هكذا يَزعُمون.*

آخِر مرّةٍ رأت أمّها كانت حين توقّفت في (البروج العشرة) لتعبئة المياه العذبة وهي في الطّريق شمالًا لمهاجَمة (ربوة الغابة). لم تتمتّع ألانيس هارلو قطّ بنوع الجَمال الذي يُثمّنه المغنّون، لكن لطالما أحبّت ابنتها ملامحها الحادّة القويّة وعينيها الضّحوكتين، على أنها في تلك الزّيارة الأخيرة وجدَت الليدي ألانيس جالسةً على مقعدٍ مجاور للنّافذة تحت كومةٍ من الفرو، تُحدّق إلى البحر، وتذكُر آشا أنها تساءلَت في نفسها وهي تُقبّل وجنتها: *أهذه أمّي أم شبحها؟* كان جِلد أمّها رقيقًا كورق الرُّقوق وشَعرها الطّويل مبيضًّا، ولئن تبقّى شيء من الكبرياء في الطّريقة التي ترفع بها رأسها، فقد بدَت عيناها منطفئتين غائمتين، واختلجَ فمها وهي تسأل عن ثيون قائلةً: «هل أتيتِ بابني الصّغير؟». كان ثيون في العاشرة من العمر حينما أُخِذَ رهينةً إلى (وينترفل)، ويبدو أنه سيظلّ هكذا دومًا في مخيّلة الليدي ألانيس. أجابَتها آشا مضطرّةً: «ثيون لم يأتِ. أبي أرسلَه يُغير على (السّاحل الحجري)»، فلم تردّ الليدي ألانيس، بل اكتفَت بالإيماء برأسها ببطء، وإن كان الجرح البليغ الذي أصابَتها به كلمات ابنتها جليًّا تمامًا.

والآن عليّ أن أخبِرها بموت ثيون وأغمد في فؤادها خنجرًا آخر. ثمّة سكّينان مغروسان هناك بالفعل، وعلى نصليهما نُقش اسما رودريك ومارون، وكثيرًا ما يُمَزّقان نياط قلب أمّها في جوف اللّيل. قالت آشا لنفسها متعهّدةً: *سأراها غدًا*. لقد قطعَت رحلةً طويلةً مرهِقةً، وليس بمقدورها أن تُواجِه أمّها الآن.

خاطبَت ذات الثّلاث أسنان قائلةً: «يجب أن أتكلّم مع اللورد رودريك. اعتني بأفراد طاقمي بمجرّد أن ينتهوا من تفريغ حمولة (الرّيح السّوداء). سيكون معهم أسرى. أريدهم أن يناموا في أسرّةٍ دافئة ويأكلوا وجبةً ساخنةً».

ردّت العجوز: «هناك لحم بقري بارد في المطابخ، وخردل في جرّة حجريّة كبيرة من (البلدة القديمة)»، وجعلَها ذِكر ذلك الخردل تبتسم، لتلوح سِنٌّ بنّيّة طويلة واحدة متمسّكة بلثتها.

قالت آشا: «لن يَصلُح هذا. رحلتنا كانت شاقّةً، وأريدُ شيئًا ساخنًا في بطونهم»، ودسّت إبهامها في الحزام المرصّع بالحديد المحيط بوَركيها، وأضافَت: «يجب ألّا يعوز الليدي جلوفر وصغيريها الطّعام أو الدّفء أبدًا. ضعيهم في بُرج وليس في الزّنازين. الرّضيعة مريضة».

- «الرُّضّع يمرضون طول الوقت، ويموت معظمهم ويَشعُر النّاس بالأسف. سأسأل سيّدي أين أضعُ قوم الذّئاب هؤلاء».

أمسكَت أنف العجوز بين إبهامها وسبّابتها وقرصَته قائلةً بغلظة: «ستفعلين كما أقول، وإذا ماتَت هذه الرّضيعة فلن يأسف أحد أكثر منكِ». فصاحَت ذات الثّلاث أسنان بحدّةٍ ووعدَت بأن تُطيع، إلى أن أطلقَت آشا سراحها وذهبَت إلى خالها.

جميل أن تمشي في هذه الأروقة من جديد. فلطالما عدّت آشا (البروج العشرة) بيتها أكثر من (پايك)، وعندما رأتها أول مرّةٍ فكّرت: *ليست قلعةً واحدةً وإنما عشر قلاع منحشرة معًا*. لا تزال تَذكُر سباقاتٍ لاهثةً على السّلالم وبطول مماشي الأسوار والجسور المغطّاة، وصيد الأسماك على (الرّصيف الحجري الطّويل)، وأيامًا وليالِيَ أمضَتها مستغرقةً في ثروة خالها من الكُتب. جَدُّ جدِّه هو من أقامَ القلعة التي تعدُّ الأجدد على الجُزر، وكان للورد ثيومور هارلو ثلاثة أبناءٍ ماتوا في المهد، وقد ألقى اللّوم على الأقبية المغمورة والأحجار الرّطبة والنّطرون الفاسد في (بهو هارلو) العريق، أمّا (البروج العشرة) فأحسن تهويةً وأكثر راحةً وأفضل موقعًا... لكن اللورد ثيومور كان رجلًا متقلّب الأطوار كما كانت أيٌّ من زوجاته لتشهد، وقد كانت له سِتٌّ منهن، كلهن متباينات كأبراجه العشرة.

(بُرج الكُتب) أوسع العشرة، متقَن الأضلاع ومشيّد بقوالب ضخمة من الحجارة المنحوتة، وسلالمه مبنيّة داخل الجُدران السّميكة. صعدَت آشا مسرعةً إلى الطّابق الخامس حيث الغُرفة التي يقرأ فيها خالها. *ولو أنه لا توجَد غُرف لا يقرأ فيها*. نادرًا ما يُرى اللورد رودريك دون كتابٍ في يده، سواء أكان هذا في المرحاض أم على سطح سفينته (أغنيّة البحر) أم في أثناء مقابلاته، وكثيرًا ما رأته آشا يقرأ على مقعده العالي تحت المنجلين الفضّيّين، فيُنصِت إلى كلّ حالةٍ تُطرَح عليه ويُصدِر حُكمه... ثم ينال قسطًا من القراءة بينما يذهب قائد حَرسه للإتيان بالملتمِس التّالي.

وجدَته مائلًا على منضدةٍ عند نافذة، تُحيط به مخطوطات ربما أتَت من (ڤاليريا) نفسها قبل هلاكها، وكُتب ثقيلة مغلّفة بالجِلد ولها مشابك من البرونز والحديد، وعلى جانبيه تشتعل شموع سميكة طويلة كذراعِ رجلٍ في شمعدانات حديديّة منمّقة. ليس اللورد رودريك هارلو بدينًا أو نحيفًا، ولا طويلًا أو قصيرًا، ولا قبيحًا أو وسيمًا، وله شَعر بنّي كعينيه، وإن شابَت اللّحية القصيرة المشذّبة التي تعوّد العناية بها. إجمالًا يبدو الرّجل تقليديًّا، ولا يُميّزه إلّا حبّه للكلمة المكتوبة، وهو ما يعدّه كثيرون جدًّا من حديديّي الميلاد تخنّثًا وانحرافًا.

أغلقَت الباب وراءها قائلةً: «خالي، ما القراءة العاجلة التي تجعلك تَترُك ضيوفك بلا مضيف؟».

قال: «(كتاب الكُتب المفقودة) للمِايستر الرّئيس ماروين»، ورفعَ ناظرينه عن الصّفحة يَرمقها متابعًا: «هوثو أحضرَ لي نُسخةً من (البلدة القديمة). إن له ابنةً يُريدني أن أتزوّجها»، ونقرَ اللورد رودريك على الكتاب بظُفرٍ طويل، وأردفَ: «انظُري هنا، ماروين يَزعُم أنه عثرَ على ثلاث صفحات من (علامات وآيات)، الرُّؤى التي دوّنتها ابنة إينار تارجاريَن العذراء قبل أن يأتي الهلاك (ڤاليريا). هل تعرف لاني أنكِ هنا؟».

لاني هو اسم التّدليل الذي يُطلِقه على أمّها، ووحده القارئ يدعوها به. أجابَت آشا: «ليس بعدُ. دَعها تستريح»، ونقلَت كومةً من الكُتب من على كُرسيّ وجلسَت مستطردةً: «يبدو أن ذات الثّلاث أسنان فقدَت سِنّين أخريَين. هل تدعوها بذات السِّنّ الواحدة الآن؟».

- «نادرًا ما أدعوها على الإطلاق. تلك المرأة تُخيفني. ما السّاعة الآن؟»، ونظرَ اللورد رودريك من النّافذة إلى البحر الذي أنارَه القمر، ثم أردفَ: «خلٌّ الظّلام بهذه الشرعة؟ لم ألاحظ. لقد تأخّرتِ، انتظرنا مجيئكِ منذ أيام».

- «كانت الرِّيح ضدنا وقلقتُ على أسراي، زوجة روبت جلوفر وطفلاه. الصُّغرى لا تزال رضيعةً، ولبن الليدي جلوفر جَفَّ خلال رحلتنا، فلم أجد خيارًا إلَّا الرّسو بـ(الرِّيح السّوداء) على (السّاحل الحجري) وإرسال رجالي للعثور على مرضِعة، وبدلًا من هذا وجدوا عنزةً. الفتاة ليست في صحّةٍ طيِّبة. هل هناك أم تُرضِع في القرية؟ (ربوة الغابة) مهمّة لخُططي».

- «يجب أن تتبدّل خُططكِ. لقد أتيتِ متأخِّرةً كثيرًا».

قالت: «متأخِّرة وجائعة»، ومدّت ساقيها الطّويلتين تحت المنضدة وقلبَت صفحات أقرب كتابٍ إليها، محاضَرة أحد السّپتونات عن حرب ميجور المتوحِّش على جماعة الصّعاليك، وأضافَت: «أوه، وظمأى أيضًا. لا بأس بقرنٍ من المِزر الآن يا خالي».

زَمَّ اللورد رودريك شفتيه قائلًا: «تعلمين أنني لا أسمحُ بالطّعام والشّراب في مكتبتي. الكُتب...».

أكملَت آشا عبارته ضاحكةً: «... ربما يُصيبها أذى».

قطّب خالها جبينه، وقال: «تحبّين استفزازي حقًّا».

- «أوه، لا تبدونّ متضرّرًا هكذا. إنني لم ألتق رجلًا لم أستفزّه قَطُّ، والمفترَض أنك تعلم هذا جيِّدًا. لكن كفى كلامًا عني. هل أنت بخير؟».

هَزَّ كتفيه مجيبًا: «بخير بما فيه الكفاية. نظري يَضعف. بعثتُ إلى (مير) أطلبُ عدسةً تُساعِدني على القراءة».

- «وكيف حال خالتي؟».

تنهّد اللورد رودريك، وقال: «ما زالَت تكبرني بسبع سنوات ومقتنعةً بأن (البروج العشرة) يجب أن تكون لها. أصبحت جوينيس كثيرة النّسيان، لكن هذا ما لا تنساه أبدًا. إنها ترثي زوجي الميت بالحرارة نفسها كيوم موته، مع أنها لا تتذكّر اسمه دائمًا».

قالت آشا: «لستُ واثقةً بأنها كانت تعرف اسمه أصلًا»، وأغلقَت كتاب السّيبتون بقوّةٍ متسائلةً: «هل قُتِلَ أبي؟».

- «هذا ما تعتقده أمُّكِ».

ثمّة أوقات معيّنة كان ليُسعِدها فيها أن تَقتله بنفسها.

«وما الذي يعتقده خالي؟».

- «بالون هوى إلى موته عندما انقطعَ جسر من الحبال من تحته. كانت العاصفة ثائرةً والجسر يتمايَل ويتلوّى مع كلّ هبّة ريح»، وعادَ رودريك يهزُّ كتفيه مضيفًا: «أو أن هذا ما قيلَ لنا. أمُّكِ وصلَ إليها طائر من المايستر ويندامير».

سحبَت آشا خنجرها من غِمده وطفقَت تُنظّف ما تحت أظفارها من وسخ، وقالت: «يغيب عين الغُراب ثلاثة أعوام ثم يعود يوم موت أبي تحديدًا».

- «في اليوم التّالي كما سمعنا. (الصّمت) كانت لا تزال في البحر عندما مات بالون، أو أن هذا ما يُقال، ومع ذلك أؤيّدكِ في أن عودة يورون... لنقل إنها كانت في حينها».

علّقت آشا: «لم أكن لأصفها هكذا»، ثم إنها غرست رأس خنجرها في المنضدة، وقالت: «أين سُفني؟! لقد أحصيت نحو أربعين من السُّفن الطَّويلة الرَّاسية بالأسفل، ليس عددًا يكفي ولو بعض الشَّيء لإزاحة عين الغُراب عن كُرسي أبي».

- «لقد أرسلت الاستدعاءات باسمكِ لأجل ما أكنّه لكِ ولأمّكِ من حُب. عائلة هارلو اجتمعت، وكذا عائلتا ستونتري وڤولمارك وبعض عائلة ماير...».

- «كلُّهم من (هارلو)... جزيرة واحدة من سبع. رأيت راية بوتلي وحيدةً من (پايك) في القاعة. أين سُفن سولتكليف وأوركوود؟ أين سُفن (ويك القديمة) و(ويك الكُبرى)؟».

- «بيلور بلاكتايد أتى من (بلاكتايد) يتشاوَر معي وسرعان ما رحلَ من جديد»، وأغلقَ رودريك (كتاب الكُتب المفقودة) مضيفًا: «إنه في (ويك القديمة) الآن».

- «(ويك القديمة)؟». كانت آشا تخشى أن يقول إنهم ذهبوا جميعًا إلى (پايك) ليُبايعوا عين الغُراب. «لماذا (ويك القديمة)؟».

- «حسبتكِ سمعتِ. آرون ذو الشَّعر الرَّطب دعا إلى انتخاب ملك».

ألقت آشا رأسها إلى الوراء ضاحكةً، ثم قالت: «لا بُدَّ أن الإله الغريق دَسَّ سمكةً شائكةً في دُبر العمِّ آرون. انتخاب ملك؟ أهذه دُعابة أم أنه يعني ما يقول حقًّا؟».

- «ذو الشَّعر الرَّطب لم يمزح قَطُّ منذ غرق، ثم إن الرُّهبان الآخرين تبنُّوا الدّعوة؛ بيرون بلاكتايد الأعمى وتارل الغارق ثلاثًا... حتى النّورس الرّمادي العجوز ترك الصّخرة التي يعيش عليها ليَبشّر بهذا الانتخاب في أنحاء (هارلو). الزّبابنة يجتمعون في (ويك القديمة) حاليًا».

سألَته آشا مندهشةً: «هل وافقَ عين الغراب على حضور تلك المهزلة المقدّسة والإذعان لقرارها؟».

- «عين الغُراب لا يُطلِعني على قراراته. منذ استدعاني إلى (پايك) لأبايعه لم تصلني أخبار من يورون».

انتخاب ملك. شيء جديد هذا... أو بالأحرى شيء قديم للغاية. «وعمّي ڤيكتاريون؟ ما رأيه في فكرة ذي الشّعر الرّطب؟».

- «ڤيكتاريون أُعلِمَ بموت أبيك، وبانتخاب الملك إياه أيضًا لا ريب، لكني لا أدري أكثر من هذا».

مجيء ملكٍ بالانتخاب أفضل من مجيئه بالحرب. قالت آشا: «أعتقدُ أني سأقبّلُ قدمَي ذي الشّعر الرّطب رغم رائحتهما الكريهة وألتقط طحالب البحر من بين أصابعهما»، وانتزعَت خنجرها من خشب المنضدة ودسّته في الغِمد مضيفةً: «انتخاب ملكٍ لعين!».

- «في (ويك القديمة)، وإن كنتُ أصلّي ألّا يكون لعينًا. كنتُ أراجعُ (تاريخ حديديِّي الميلاد) لهايرج. عندما اجتمعَ الملوك الملحيُّون والملوك الصّخريُّون آخِر مرّةٍ في انتخاب ملكٍ أطلق أورون ابن (أوركمونت) رجاله حاملي الفؤوس بينهم واصطبغَت ضلوع ناجا بحُمرة الدّماء، وبَعد ذلك اليوم الملعون حكمَت عائلة جرايآيرون غير مختارةٍ طيلة ألف عامٍ إلى أن جاءَ الأندالِيُّون».

- «يجب أن تُعيرني كتاب هايرج هذا يا خالي». عليها أن تتعلّم كلّ ما يُمكنها عن انتخابات الملوك قبل وصولها إلى (ويك القديمة).

رَدّ: «يُمكنك قراءته هنا. إنه قديم وهش»، وأمعنَ النّظر إليها عاقدًا حاجبيه، وقال: «المِايستر الرّئيس ريجني كتبَ يقول إن التّاريخ عجلة، لأن سليقة الإنسان لا تتغيّر أبدًا، وإن ما حدثَ من قبل سيحدُث ثانيةً بالضّرورة. كلّما تأمّلتُ في طبيعة عين الغُراب فكّرتُ في هذه المقولة. إن ليورون جرايچوي وفقًا على هاتين الأذنين العجوزين لا يختلف عن أورون جرايآيرون. لن أذهب إلى (ويك القديمة)، ولا ينبغي لكِ أن تذهبي كذلك».

ابتسمَت آشا قائلةً: «ويفوتني أول انتخاب ملكٍ يُعقَد منذ... منذ متى يا خالي؟».

- «أربعة آلاف عام إذا صدّقنا هايرج، أو نِصف تلك المدّة إذا قبلنا حُجج المِايستر دنستان في (الأسئلة). الذّهاب إلى (ويك القديمة) لن يُجدي نفعًا. ذلك الحُلم بالمُلك جنون في دمنا، وهذا ما قلته لأبيك حين تمرّد أول مرّة، وكلامي أصدق الآن مما كان آنذاك. إننا في حاجةٍ إلى الأرض لا التّيجان، ومع تنافُس ستانيس باراثيون وتايوين لانستر على العرش الحديدي أمامنا فُرصة نادرة لتحسين أوضاعنا. لنأخذ هذا الجانب أو ذاك ونُعينه على النّصر بأساطيلنا ونَحصُل على الأراضي التي نحتاج إليها من ملكٍ شكور».

- «قد تستحقُّ هذه الفكرة التّفكير حالما أجلس على كُرسي حجر اليم».

تنهّد خالها، وقال: «لن تُريدي أن تسمعي هذا يا آشا، لكنكِ لن تُختاري. لم يَحدث قَطّ أن حكمَت امرأة حديديّي الميلاد. جوينيس تكبرني بسبع سنوات بالفعل، لكن حين مات أبي انتقلَت (البروج العشرة) إليّ، وسيَحدث المِثل معكِ. أنتِ ابنة بالون لا ابنه، ولكِ ثلاثة أعمام».

- «ثلاثة أعمام وخال».

- «ثلاثة أعمام كَراكِن. أنا لا أُحسَب».

- «أنت محسوب عندي. ما دامَ معي خالي سيّد (البروج العشرة) فمعي (هارلو)». ليست (هارلو) أكبر (جُزر الحديد)، لكنها الأغنى والأكثر عمارًا بالشكّان، وسطوة اللورد رودريك لا يُستهان بها. ليس لهارلو من منافس في (هارلو)، وصحيحٌ أن آل ڤولمارك وستونتري لهم أملاك كبيرة على الجزيرة ويتباهون بربابنةٍ مشاهير ومُحاربين أشدّاء من بين ظهرانيهم، لكن حتى أقواهم ينحني تحت رمز المنجل، أمّا عائلتا كنينج وماير اللتان كانتا عدوّين لدودين في الماضي فقد هُزِمَتا منذ زمنٍ طويل وتحوّل أولادهما إلى أتباع.

قال اللورد رودريك: «أبناء عمومتي مدينون لي بالطّاعة، وفي الحرب تكون سيوفهم وأشرعتهم تحت إمرتي، أمّا في انتخاب الملك...»، وهَزَّ رأسه مستدركًا: «تحت عظام ناجا يقف جميع الرّبابنة سواسيةً. ربما يهتف بعضهم باسمكِ، لا أشكُ في هذا، ولكنهم لن يكفوا، وحين يُدوّي الهتاف لڤيكتاريون أو عين الغُراب سينضمُّ بعض مَن يشربون الآن في قاعتي إلى البقيّة. أقولُ لكِ ثانيةً ألّا تُبحِري إلى تلك العاصفة. معركتكِ يائسة».

- «لا معركة يائسة إلى أن تُخاض. الدّعوى الأفضل دعواي. إنني وريثة بالون ومن صُلبه».

- «ما زلتِ طفلةً عنيدةً. فكّري في أمّكِ البائسة. لم يتبقَّ للاني إلّاكِ. سأضرمُ النّار في (الرّيح السّوداء) إذا لزمَ الأمر لأُبقيكِ هنا».

- «وتجعلني أسبح إلى (ويك القديمة)؟».

- «ستكون سباحةً طويلةً باردةً من أجل تاجٍ لا تستطيعين الاحتفاظ به. أبوكِ كان يتمتّع بالشّجاعة أكثر من الحكمة. لقد نفعَ النّهج القديم جُزرنا حين كنا مملكةً واحدةً صغيرةً من بين كثيرات، لكن غزوة إجون وضعَت نهايةً لذلك. بالون رفضَ أن يرى الجليّ أمامه، أن النّهج القديم ماتَ مع هارن الأسود وأبنائه».

- «أعرفُ هذا». لقد أحبّت آشا أباها لكنها لم تُحاوِل أن تُضلّل نفسها، ذلك أن بالون كان أعمى في بعض النّواحي بالفعل. *رجل شُجاع لكن حاكم سيّئ*. «أيعني هذا أن علينا أن نعيش ونموت خدمًا للعرش الحديدي؟ إذا كانت هناك صخور إلى ميمنة السّفينة وعاصفة إلى ميسرتها فالرُّبّان الحكيم يختار مسارًا ثالثًا».

- «أريني ذلك المسار الثّالث».

- «سأفعلُ... في انتخاب الملكة. خالي، كيف تُفَكّر مجرّد تفكيرٍ في عدم الحضور؟ سيكون هذا تاريخًا حيًّا...».

- «أفضّلُ التّاريخ ميتًا. التّاريخ الميت مكتوب بالحبر، أمّا الحي فبالدّم».

- «أتُريد أن تموت عجوزًا جبانًا في سريرك؟».

قال اللورد رودريك: «وهل هناك غير هذا؟ ولكن ليس قبل أن أفرغ من القراءة»، ثم ذهبَ إلى النّافذة مردفًا: «لم تسألي عن السيّدة والدتكِ».

كنتُ خائفةً. «كيف حالها؟».

- «أقوى. ربما تظلُّ حيَّةً بَعد موتنا جميعًا، ومؤكّد أنكِ ستموتين قبلها إذا أصررتِ على هذه الحماقة. إنها تأكل أكثر مما كانت عندما أتَت هنا، وكثيرًا ما تنام اللَّيل بطوله».

- «عظيم». في سنينها الأخيرة في (پايك) جافى النَّوم الليدي ألانيس، واعتادَت أن تجوب الأروقة والأبهاء ليلًا بحثًا عن أبنائها، فتنادي بصوتٍ حاد: «مارون؟ رودريك، أين أنت؟ ثيون يا صغيري، تعالَ إلى أمِّك». مرَّاتٍ عديدة شاهدَت آشا بينما أخرجَ المِايستر الشَّظايا من كعبَي أمّها في الصَّباح بَعد أن عبرَت الجسر الخشبي المتمايل إلى (بُرج البحر) بقدمين حافيتين. «سأراها في الصَّباح».

- «ستسأل عن ثيون».

أمير (وينترفل). «ماذا قلت لها؟».

أجابَ: «أقلَّ القليل. لم يكن هناك ما يُقال»، وتردَّد لحظةً قبل أن يسألها: «أأنتِ واثقة بأنه ماتَ؟».

- «لستُ واثقةً بشيء».

- «هل وجدتم جثَّةً؟».

- «وجدنا أجزاءً من جُثثٍ كثيرة. الذِّئاب سبقَتنا إلى هناك... ذئاب من النَّوع ذي الأربع سيقان، لكنها لم تُبدِ تقديرًا لأقربائها ذوي السَّاقين. كانت عظام القتلى متناثرةً في كلِّ مكانٍ ومكسورةً لاستخلاص النُّخاع. أعترفُ بأن معرفة ما حدثَ هناك عصيَّة. لقد بدا كأن الشَّماليِّين قاتلوا بعضهم بعضًا».

قال اللورد رودريك: «الغِربان تتقاتَل على لحم الموتى ويَقتُل بعضها بعضًا من أجل التهام أعينهم»، وحدّق إلى البحر مشاهدًا تراقُص نور القمر على الأمواج، وأردفَ: «كان لنا ملك واحد ثم خمسة، والآن لا أرى إلّا غِربانًا تتنازَع على جثّة (وستروس)»، وأغلقَ النّافذة مضيفًا: «لا تذهبي إلى (ويك القديمة) يا آشا، ابقي مع أمِّكِ. أخشى أنها لن تظلّ معنا طويلًا».

اعتدلَت آشا في جلستها، وقالت: «أمّي ربَّتني على أن أكون جريئةً. إذا لم أذهب سأقضي بقيّة حياتي أسائلُ نفسي عمّا كان ليَحدُث لو ذهبتُ».

- «إذا ذهبتِ فربما تكون بقيّة حياتكِ أقصر من أن تقضيها في التّساؤل».

- «ذلك أفضل من أن أظلّ أشكو ما تبقّى لي من عُمرٍ من أن كُرسي حجر اليم حقّي. إنني لستُ جوينيس».

جعلَ قولها ملامحه تتقلّص انزعاجًا، وقال: «آشا، ابناي الطّويلان تحوّلا إلى طعامٍ للسّراطين عند (الجزيرة القصيّة)، وليس محتملًا أن أتزوّج ثانيةً. ابقي وسأسمّيكِ وريثةً لـ(البروج العشرة). اقنعي بهذا».

- «(البروج العشرة)؟». *ليتني أستطيعُ*. «لن يروق هذا أبناء عمومتك؛ الفارس وسيجفريد العجوز وهوثو الأحدب...».

- «إن لهم أراضيهم ومقرّاتهم الخاصّة».

صحيح. (يهو هارلو) الرّطب العطِن ينتمي إلى العجوز سيجفريد هارلو ذي الشّعر الفضّي، وهوثو الأحدب مقرّه في (بُرج البريق) فوق جُرفٍ على السّاحل الغربي، والفارس السير هاراس هارلو بلاطه في (الحديقة الرّماديّة)، وبورموند الأزرق يَحكُم من على قمّة (تَل هاريدان)، لكن جميعهم خاضع للورد رودريك. قالت آشا: «بورموند عنده ثلاثة أبناء، وسيجفريد ذو الشّعر الفضّي عنده أحفاد، وهوثو عنده طُموحات. كلُّهم يسعون إلى خلافتك، حتى سيجفريد. ذلك الرّجل ينوي أن يعيش إلى الأبد».

رَدّ خالها: «الفارس سيُصبِح سيّد (هارلو) من بَعدي، لكنه يستطيع أن يَحكُم من (الحديقة الرّماديّة) بالشهولة نفسها. قدّمي للسير هاراس فروض الولاء من أجل القلعة وسيحميكِ».

قالت: «يُمكنني أن أحمي نفسي. إنني كراكِن يا خالي، آشا سليلة عائلة جرايچوي»، ونهضَت مضيفةً: «أريدُ كُرسيّ أبي لا كُرسيّك. منجلاك هذان يبدوان خطرَين، وقد يَسقُط أحدهما ويقطع رأسي. لا، سأجلسُ على كُرسي حجر اليم».

قال اللورد رودريك: «إذن فأنتِ مجرّد غُرابٍ آخَر يَصرُخ مريدًا الجيفة»، وعادَ يجلس مردفًا: «اذهبي. أريدُ أن أعود إلى ماروين وبحثه».

- «أعلِمني إذا عثرَ على صفحةٍ أخرى». خالها هو خالها ولن يتغيّر أبدًا، لكنه سيأتي إلى (ويك القديمة) بغَضِّ النّظر عن كلامه.

لا بُدَّ أن أفراد طاقمها يتناوَلون طعامهم في القاعة الآن، وتعلم آشا أن عليها أن تنضمَّ إليهم لتتكلّم عن هذا الاجتماع في (ويك القديمة) وما يعنيه لهم. سيقف رجالها وراءها راسخين، لكنها ستحتاج إلى البقيّة أيضًا، أبناء خؤولتها من عائلة هارلو وآل ڤولمارك وآل ستونتري. *هؤلاء مَن يجب أن أكسبهم*. سينفعها انتصارها في (ربوة الغابة) حالما يبدأ رجالها في التّفاخُر به، وهي تعرف أنهم سيفعلون. يجدُ رجال طاقم (الرّيح السّوداء) نوعًا منحرفًا من الفخر بمآثر رَبّانتهم. نِصفهم يحبُّها كابنةٍ والنّصف الآخَر يُريد أن يفتح ساقيها، لكن كلا الصّنفين مستعدٌّ للموت من أجلها. *وأنا من أجلهم*، قالت لنفسها وهي تَخرُج من الباب عند قاعدة السّلالم إلى السّاحة المضاءة بنور القمر.

وهناك خرجَ ظِلٌّ من وراء البئر قائلًا: «آشا؟».

ذهبَت يدها إلى خنجرها من فورها... ثم إن نور القمر حوّل التّكوين الأسود إلى رجلٍ في معطفٍ من جِلد الفقمات. شبح *آخر*. «تريس، حسبتني سأجدك في القاعة».

- «أردتُ أن أراكِ».

قالت بابتسامةٍ عريضة: «أيّ جزءٍ مني يا ثُرى؟ حسن، هأنذي، بالغة راشدة. انظُر كما تشاء».

دنا منها قائلًا: «امرأة، وجميلة».

امتلأ جسد تريستيفر بوتلي منذ آخِر مرّةٍ رأته، ولكن ما زالَ له الشَّعر الأشعث نفسه الذي تَذكُره، والعينين الواسعتين الصّادقتين كعيون كلاب البحر. *عينان طيِّبتان* بحق. وتلك مشكلة تريستيفر المسكين، أنه أطيب قلبًا من أن يكون من بني (جُزر الحديد). *أصبحَت ملامحه وسيمةً*. في صِباه ابتُلِيَ تريس بالبثور، وقاسَت آشا البلوى نفسها، ولعلَّ هذا ما اجتذبَ كلاهما إلى الآخَر.

قالت: «أسفتُ لمّا سمعتُ بما جرى لأبيك».

- «وأنا حزين على أبيكِ».

كانَت تسأله: *لماذا؟* بالون هو من صرفَ الصّبي من (پايك) ليغدو ربيب بيلور بلاكتايد. «أصحيحٌ أنك اللورد بوتلي الآن؟».

- «اسمًا على الأقل. هارن ماتَ عند (خندق كايلن)، أحد شياطين المستنقعات أصابَه بسهمٍ مسموم. لكني لا أتسيَّدُ شيئًا. عندما أنكرَ أبي حَقَّ عين الغُراب في كُرسي حجر اليم أغرقَه وجعلَ أعمامي يُقسِمون له على الولاء، وحتى بَعد ذلك ضَمَّ نِصف أراضي أبي إلى (الأجَمة الحديديّة)، لأن اللورد وينش كان أول من يركع له ويدعوه بالملك».

لعائلة وينش نفوذ في (پايك)، لكن آشا حرصَت على عدم إظهار انزعاجها وهي تقول: «وينش لم يتحلَّ بشَجاعة أبيك قَطُّ».

قال تريس: «عمُّكِ اشتراه. (الصّمت) عادت بمخازن مكتظّة بالكنوز؛ دروع ولآلئ، زمرُّد وياقوت، صفّير بحجم البيض، أجولة من العُملة ثقيلة لدرجة أن لا رجل يستطيع أن يرفعها... عين الغُراب يشتري رجالًا ذات اليمين وذات الشّمال. عمّي جرموند يُسَمِّي نفسه اللورد بوتلي الآن، ويَحكُم في (لوردزپورت) باعتباره رجل عمِّكِ».

قالت له مطمئِنةً: «أنت اللورد بوتلي الشّرعي. بمجرّد أن أجلس على كُرسي حجر اليم سأعيدُ أراضي أبيك».

- «إذا أردتِ. الأمر لا يعنيني في شيء. تبدين رائعة الجَمال في نور القمر يا آشا. إنكِ امرأة بالغة الآن، لكنني أذكرُ عندما كنتِ فتاةً نحيلةً بوجهٍ مليء بالبثور».

لماذا يصرُّون على ذِكر البثور دومًا؟ «أذكرُ هذا أيضًا». *وإنما ليس بالحنين ذاته مِثلك*. من بين الصِّبية الخمسة الذين جلبتهم أمُّها إلى (پايك) لتُرَبِّيهم -بَعد أن أخذَ ند ستارك ابنها الحي الأخير رهينةً- كان تريس الأقرب إلى آشا في السِّن. لم يكن أول صبيٍّ قبّلته، لكنه كان أول من يحلُّ أربطة سُترتها ويدسُّ يده المبلّلة بالعرق ليتحسَّس ثدييها الصّغيرين.

كنتُ لأسمح له بتحسُّس المزيد لو تجرّأ كفايةً. لقد أزهرَت في أثناء الحرب واستيقظَت رغبتها، لكن حتى قبل ذلك كانت آشا تحسّ بالفضول. *كان موجودًا، كان في سِنّي وراغبًا... هذا كلُّ ما في الأمر... بالإضافة إلى النّزيف القمري*. وعلى الرغم من ذلك سقّته خبًا، إلى أن راح تريس يتكلّم عن الأبناء الذين ستحملهم له، دستة منهم على الأقل... أوه، وبعض الفتيات أيضًا، إلّا أنها قالت له مذعورةً: «لا أريدُ أن أنجب دستةً من الأبناء، أريدُ أن أخوض مغامَرات». لم يمضِ وقت طويل بَعدها حتى ضبطَهما المِايستر كالن يلعبان، وأرسِلَ تريستيفر بوتلي الصّغير إلى (بلاكتايد).

قال: «كتبتُ لكِ رسائل، لكن المِايستر چوزران رفضَ أن يُرسِلها. في مرّةٍ نقدتُ ملّاحًا على سفينةٍ تجاريّة متّجهة إلى (لوردزيورت) أيلًا فضّيًا ووعدَني بأن يضع الرّسالة في يدكِ».

- «الملّاح خدعَك وألقى رسالتك في البحر».

- «هذا ما خشيته. إنهم لم يُعطوني رسائلكِ كذلك».

لأني لم أكتب أيّ رسائل. الحقيقة أنها أحسّت بالرّاحة عندما صُرِفَ تريس، ففي ذلك الحين كانت قد بدأت تَشعر بالملل من عبثه بصدرها، لكن ذلك ليس بالشّيء الذي يرغب في سماعه، وهكذا قالت: «آرون ذو الشّعر الرّطب دعا إلى انتخاب ملك. هل ستأتي وتتحدّث نيابةً عني؟».

- «سأذهبُ إلى أيّ مكانٍ معكِ، لكن... اللورد بلاكتايد يقول إن انتخاب الملك هذا حماقة خطرة، ويظنُّ أن عمّكِ سيُهاجِمهم ويَقتُلهم جميعًا كما فعلَ أورون».

إنه مجنون بما يكفي لأن يفعلها. «إنه لا يملك القوّة».

- «لكنكِ تجهلين قوّته. إنه يجمع الرّجال في (پايك). أوركوود سيّد (أوركمونت) جلبَ له عشرين سفينةً طويلةً، وچون ماير ذو الوجه المسحوب دستةً. لوكاس كود الأعسر معهم، وهارن النّصف هور، والملّاح الأحمر، وكيميت پايك النّغل، ورودريك المولود حُرًّا، وتوروولد ذو السّن البنّيّة...».

قالت آشا التي تعرفهم جميعًا: «رجال ضئيلو الشّأن، أبناء الزّوجات الملحيّات وأحفاد الأقنان. آل كود... هل تعرف كلماتهم؟».

أجابَ تريس: «*مع أن كلّ النّاس يحتقروننا*... لكن إذا أوقعوكِ في شباكهم فستموتين كما لو أنهم من سادة التّنانين. وثمّة ما هو أسوأ. عين الغُراب جلبَ معه وحوشًا من الشّرق... نعم، وسحرةً أيضًا».

- «لطالما كان عمّي مولعًا بالمسوخ والحمقى. كثيرًا ما تشاجرَ أبي معه في هذا الصّدد. دَع السّحرة يبتهلون لآلهتهم وسيبتهل ذو الشّعر الرّطب لإلهنا ويُغرِقهم. هل سأحظى بصوتك في انتخاب الملكة يا تريس؟».

- «ستحظين بي كلّي. إنني رجلكِ إلى الأبد. أريدُ أن أتزوّجكِ يا آشا. لقد وافقت السيّدة والدتكِ بالفعل».

كتمَت آهة استنكارٍ مفكِّرة: *كان يُمكنك أن تسألني أولًا... مع أن الجواب لم يكن ليروقك.*

واصلَ هو: «لم أعد ابنًا ثانيًا. إنني اللورد بوتلي الشّرعي كما قلتِ بنفسكِ، وأنتِ...».

- «ما سأكونه أنا سيتحدّد في (ويك القديمة). تريس، إننا لم نَعُد طفلين يلعبان ويُحاولان أن يريا ماذا يوضع أين. إنك تحسب أنك تُريد أن تتزوّجني، لكنك لا تُريد حقًّا».

- «لكني أريدُ. إنني لا أحلمُ بسواكِ. آشا، أقسمُ بعظام ناجا أنني لم ألمس امرأةً أخرى».

- «اذهب والمس واحدةً إذن... أو اثنتين، أو عشرًا. عن نفسي لمستُ رجالًا أكثر مما أستطيعُ أن أُحصي، بعضهم بشفتَي والمزيد بفأسي». في سِنّ السّادسة عشرة سلّمت آشا بتولتها لبحّارٍ أشقر جميل الطّلعة على سفينةٍ تجاريّة من (لِيس). لم يكن يعرف إلّا كلماتٍ ستًّا من اللّغة العاميّة، لكن «مضاجَعة» كانت واحدةً منها، الكلمة التي أملَت أن تسمعها تحديدًا. بَعدها تصرّفت بعقلٍ وذهبت إلى ساحرة غابةٍ أرَتها كيف تعدُّ شاي القمر كي لا ينتفخ بطنها.

حملقَ بوتلي إليها كأنه لم يستوعب ما قالته، وقال: «أنتِ... خلتكِ ستنتظرين. لماذا...»، وفرك فمه سائلًا: «آشا، هل كنتِ مرغمةً؟».

- «كنتُ مرغمةً لدرجة أني مزّقتُ سترته. لست تُريد أن تتزوّجني، ثِق بكلمتي. أنت صبيٌ طيّب ولطالما كنت كذلك، لكني لستُ بنتًا طيّبةً. إذا تزوّجنا فسرعان ما ستكرهني».

- «مستحيل. لقد آلمني الاشتياق إليكِ يا آشا».

قرّرت أنها سمعَت ما فيه الكفاية. أم مريضة وأب قتيل ووبال من الأعمام، كلُّ هذا يكفي أيّ امرأةٍ ويزيد، وليست في حاجةٍ إلى جروٍ أضناه الغرام أيضًا. هكذا قالت: «اذهب إلى ماخور يا تريس وسيُعالِجنك هناك من هذا الألم».

هَزَّ تريستيفر رأسه نفيًا قائلًا: «لا يُمكنني أبدًا أن... أنا وأنتِ قدرنا أن نكون معًا يا آشا. لقد علمتُ دومًا أنكِ ستصيرين زوجتي وأم أبنائي»، وأطبقَ بيده على عضدها.

وفي غمضة عينٍ كان خنجرها على حلقه وكلماتها في أذنيه: «ارفع يدك وإلّا لن تعيش لتُنجِب أيّ أبناء الآن»، ولمّا فعلَ خفضَت السّلاح قائلةً: «تُريد امرأةً، لا بأس، سأضعُ واحدةً في فِراشك اللّيلة. تظاهَر بأنها أنا إذا كان هذا سيسرُك، لكن إياك أن تتجرّأ وتضع يدك عليّ ثانيةً. إنني ملكتك لا زوجتك، تذكّر هذا»، وأغمدَت آشا خنجرها وتركَته واقفًا هناك بقطرةٍ كبيرة من الدّم تسيل على عُنقه، سوداء في نور القمر الشّاحب.

قالت چوسلين سويفت وهي تعقد أربطة فُستان الملكة: «أوه، أرجو ألّا تجعل الآلهة المطر يَسقُط على زفاف الملك».

- «لا أحد يُريد المطر». عن نفسها تُريد سرسي ثلوجًا وجليدًا، ريحًا تعوي ورعدًا يرجُّ أحجار (القلعة الحمراء) ذاتها، تُريد عاصفةً تُضاهي الثّورة في داخلها. قالت لچوسلين: «أكثر، أحكِمي شَدّ الأربطة أكثر أيتها البلهاء المتملّقة».

الزّفاف مصدر غضبها الحقيقي، وإن كانت ابنة سويفت بطينة البديهة تُشكّل هدفًا أكثر أمنًا تصبُّ عليه هذا الغضب. قبضة تومن على العرش الحديدي ليست مُحكمةً بما يكفي لأن تُقدِم على إهانة (هايجاردن)، ليس وستانيس باراثيون لم يزل مسيطرًا على (دراجونستون) و(ستورمز إند)، و(ريڤرزن) مستمرّة في تحدّيها، والحديديّون يجوبون البحار كالذّئاب. هكذا على چوسلين أن تأكل الوجبة التي كانت سرسي تُؤثِر أن تُقدّمها لمارچري تايرل وجدّتها المتغضّنة المقيتة.

من أجل إفطارها أرسلَت الملكة إلى المطابخ تَطلُب بيضتين مسلوقتين ورغيفًا من الخُبز ووعاءً من العسل، لكن حين قشَّرت أول بيضةٍ ووجدَت في داخلها كتكوتًا داميًا نِصف مكتمل التَّكوين انقلبَت معدتها، وقالت لسينل: «خُذي هذا وأحضِري لي نبيذًا متبَّلًا ساخنًا». كان البرد في الهواء يَنخُر عظامها، وما زالَ أمامها يوم طويل كريه.

كما أن چايمي لم يُساعِد على تحسين مزاجها عندما جاءَ مرتديًا الأبيض دون أن يحلق لحيته، ليُحَدِّثها عن التَّدابير التي اتَّخذها للحيلولة دون تسميم ابنها، فقال: «سأضعُ رجالًا في المطبخ يُراقِبون بينما يعدُّ كلُّ صنف، وسيصحب رجال السير أدام الخدم وهُم يحملون الطَّعام إلى الموائد ليتأكَّدوا من عدم التَّلاعُب به في الطَّريق، والسير بوروس سيتذوَّق كلَّ صنفٍ قبل أن يضع تومن لُقمةً في فمه. وإذا لم ينجح شيء من هذا سيكون المِايستر بالابار جالسًا في نهاية القاعة ومعه عقاقير مطهِّرة وترياقات لعشرين نوعًا معروفًا من الشموم. أعدكِ بأن تومن سيكون آمنًا».

- «آمنًا». كان للكلمة مذاق مُرٌّ على لسانها. چايمي لا يفهم، لا أحد يفهم. وحدها ميلارا كانت موجودةً في الخيمة لتسمع العجوز الشّمطاء تُلقي تهديداتها بنبرةٍ كالنّعيق، وميلارا ماتت منذ زمنٍ طويل. «تيريون لن يَقتل بالوسيلة نفسها مرّتين، إنه أمكر من أن يفعل ذلك. ربما يكون تحت الأرضيّة الآن تحديدًا، يتنصّت على كلّ كلمةٍ يقولها ويُخطّط لذبح تومن».

قال چايمي: «لنفترض جدلًا أن هذا صحيح. أيًا كانت الخُطط التي يضعها سيظلُّ صغيرًا قصيرًا، وتومن سيكون محاطًا بخيرة فُرسان (وستروس). رجال الحرس الملكي سيحمونه».

نظرَت سرسي إلى حيث طُوِيَ كُمُّ سُترة أخيها الحرير البيضاء وثُبِّتَ بدبُوسٍ فوق جَدعته، وردّت: «أذكرُ كم أحسنَ فُرسانك المغاوير هؤلاء حماية چوفري. أريدك أن تبقى مع تومن طوال اللّيل، مفهوم؟».

- «سأضعُ حارسًا أمام بابه».

أطبقَت على ذراعه قائلةً: «لا حُرّاس، أنت، وداخل غُرفة نومه».

- «في حال خروج تيريون من المستوقَد؟ لن يَحدُث».

- «هذا ما تقوله أنت. هل ستُخبِرني بأنك عثرت على جميع الأنفاق الخفيّة وراء هذه الجُدران؟». كلاهما يعلم أن ذلك مستبعَد. «لن أسمح لمارچري بالانفراد بتومن ولو لجزءٍ من لحظة».

- «لن يكونا وحدهما، بنات عمومتها سيكن معهما».

- «وأنت أيضًا. آمرك بهذا باسم الملك».

لم تكن سرسي تُريد أن ينام تومن وزوجته في فِراشٍ واحد على الإطلاق، إلّا أن آل تايرل أصرّوا، وقالت ملكة الأشواك: «المفترَض أن ينام الزّوج والزّوجة معًا حتى إذا لم يفعلا ما هو أكثر من النّوم. مؤكّد أن سرير جلالته يسع اثنين، أليس كذلك؟».

أيّدت الليدي آليري حماتها قائلةً: «دَعي الطّفلين يستدفئ كلاهما بالآخر في اللّيل، سيجعلهما هذا أقرب. كثيرًا ما تُشارِك مارچري بنات عمومتها فِراشها، ويُغنّين ويلعبن ويتهامَسن الأسرار بَعدما تنطفئ الشُّموع».

ردّت سرسي: «يا للبهجة. يُمكنهن الاستمرار في هذا بالطّبع... في (قفص العذراوات)».

قالت الليدي أولينا لليدي آليري: «أنا واثقة بأن جلالتها تعرف الأصلح. إنها أُم الصّبي في النّهاية، ونحن من هذا متأكّدون. لا بُدّ أننا نستطيع الاتّفاق على ليلة الزّفاف على الأقل، أليس كذلك؟ لا ينبغي أن ينام العريس وعروسه منفصلين ليلة زفافهما. فأل سيّئ لزواجهما أن يفعلا».

تعهّدت الملكة في نفسها: *يومًا ما سأعلّمكِ معنى الفأل السيّئ*، لكنها وجدَت نفسها مرغمةً على أن تقول: «يُمكن لمارچري أن تنام في غُرفة تومن تلك اللّيلة فقط، لكن ليس أكثر من ذلك».

ردّت ملكة الأشواك: «جلالتك شديدة الكرم»، وتبادلَ الجميع الابتسامات.

كانت أصابع سرسي مغروسةً في ذراع جايمي بقوّةٍ كفيلة بترك كدماتٍ وهي تُواصِل: «أريدُ عينين داخل تلك الغُرفة».

- «لرؤية ماذا؟ خطر الجِماع ليس واردًا لأن تومن صغير للغاية».

- «وأوسيفر پلوم كان ميتًا للغاية، لكن هذا لم يمنعه من إنجاب طفل!».

لاحت الحيرة على أخيها إذ قال: «مَن أوسيفر پلوم؟ هل كان أبا اللورد فيليپ أم... مَن؟».

يكاد يكون جاهلًا كروبرت. عقله كلُّه كان في يد السّيف. «انسَ پلوم. تذكّر فقط ما قلته لك. أقيم لي أنك ستبقى إلى جانب تومن حتى تُشرِق الشّمس».

قال بلهجةٍ تُوحي بأنه يرى مخاوفها بلا مبرّر: «كما تأمرين. أما زلتِ تنتوين المضيّ في إحراق (بُرج اليد)؟».

- «بَعد المأدبة». إنه الجزء الوحيد من احتفالات اليوم الذي تعتقد سرسي أنها ستستمتع به. «السيّد والدنا قُتِلَ في هذا البُرج ولا أطيقُ النّظر إليه. إذا شاءت الآلهة ستدفع النّار بعض الجرذان إلى الخروج من الأنقاض».

دوّر جايمي عينيه قائلًا بملل: «تعنين تيريون».

- «هو واللورد ڤارس وذلك السّجّان».

- «لو كان أيُّهم مختبئًا في البُرج لوجدناه. لقد كلّفت جيشًا صغيرًا بالتّنقيب فيه بالمعاول والمطارق، وهدمنا جُدرانًا وحطّمنا أرضيّاتٍ واكتشفنا عشرات الممرّات السرّيّة».

- «وربما تكون هناك عشرات الممرّات الأخرى». بعض الأنفاق السرّيّة وجدوه صغيرًا للغاية، حتى إن چايمي لجأ إلى عددٍ من الخدم وصبيان الاسطبلات لاستكشافها، وأسفر البحث عن ممرٍّ إلى الزّنازين السّوداء وبئرٍ حجريّة تبدو بلا قرار، بالإضافة إلى حُجرةٍ ملأى بالجماجم والعظام المصفرّة، وأربعة أجولةٍ من العملات الفضّيّة المعيوبة من عهد الملك ڤسيرس الأول، ناهيك بآلاف الجرذان... لكن لا تيريون ولا ڤارس كانا بينها، وفي النّهاية أصرّ چايمي على وضع نهايةٍ للبحث. أحد الصّبية انحشرَ في ممرٍّ ضيّق واضطرّوا إلى سحبه من قدميه وهو يَصرُخ، وآخر سقطَ في بئر سُلّم وكسرَ ساقه، واختفى حارسان بينما يستكشفان نفقًا جانبيًا. أقسمَ بعض الحُرّاس الآخرون أنهم سمعوا صياحهما الخافت عبر الأحجار، لكن حين هدمَ رجال چايمي الجِدار لم يجدوا على الجانب الآخَر إلّا التُّربة والرُّكام. «العِفريت صغير أريب، وربما لا يزال مختبئًا بين الجُدران. إذا كان كذلك فستجبِره النّار على الخروج».

- «حتى إذا كان تيريون ما زالَ مختبئًا في القلعة فلن يكون في (بُرج اليد). إننا لم نُبقِ منه إلّا هيكله».

- «ليتنا نستطيع أن نفعل المِثل ببقيّة هذه القلعة الكريهة. بَعد الحرب أنوي أن أبني قصرًا جديدًا وراء النّهر». لقد حلمت به ليلة أول من أمس، بصرحٍ أبيض بديع تُحيط به الغابات والبساتين ويَبعُد فراسخ طويلةً عن (كينجز لاندنج) بضوضائها وروائحها المقرفة. «هذه المدينة مجرور. مقابل نِصف جروت[40] يُمكنني أن أنقل البلاط إلى (لانسپورت) وأحكم البلاد من (كاسترلي روك)».

- «تلك حماقة أكبر من إحراق (بُرج اليد). ما دامَ تومن جالسًا على العرش الحديدي ستراه البلاد الملك الحقيقي، لكن خبّئيه تحت (الصّخرة) وسيُصبِح مجرّد مُطالبٍ آخَر بالعرش لا فرق بينه وبين ستانيس».

بحدّةٍ قالت الملكة: «أعي هذا. قلتُ إنني أريدُ أن أنقل البلاط إلى (لانسپورت) وليس إنني سأفعلها حقًّا. هل كنت بطيء الفهم هكذا دومًا أم أن فقدانك يدك أصابَك بالغباء؟».

تجاهلَ سؤالها قائلًا: «إذا انتشرَ اللّهب بعيدًا عن نطاق البُرج فربما ينتهي بكِ الأمر وقد أحرقتِ القلعة حقًّا سواء أقصدتِ أم لم تقصدي. النّار الشّعواء[41] خدّاعة».

منذ أسبوعين ورابطة الخيميائيّين تُصنّع نارًا شعواء طازجةً. «اللورد هالاين أكّد لي أن الپايرومانسرات يستطيعون التّحكُّم في النّار. فلترَ (كينجز لاندنج) كلُّها اللّهب، سيكون درسًا لأعدائنا».

- «الآن تتكلّمين كأنكِ إيرس».

ردّت غاضبةً: «احفظ لسانك أيها الفارس».

- «أنا أيضًا أحبّكِ يا أختي الجميلة».

بَعد أن رحلَ سألَت نفسها: *كيف أحببتُ هذا المخلوق التّعس يومًا؟* وهمس صوت آخَر في داخلها مجيبًا: *كان توأمكِ، ظِلّكِ، نِصفكِ الآخَر*. فجاوبَته: *ربما فيما مضى، لكنه لم يَعُد كذلك. لقد أصبحَ غريبًا عني.*

مقارنةً بزفاف چوفري كان زفاف الملك تومن صغيرًا متواضعًا. لا أحد أرادَ احتفالًا باذخًا آخَر، لا سيّما الملكة، ولا أحد أرادَ أن يدفع تكلفته، لا سيّما آل تايرل، وهكذا اتّخذ الملك الصّغير مارچري تايرل زوجةً له في سِپت (القلعة الحمراء) الملكي، في حضور أقلّ من مئة ضيف بدلًا من الآلاف الذين شهدوا قران أخيه بالمرأة نفسها.

بدَت العروس رائقةً مرحةً جميلةً، والعريس لا يزال طفوليّ الوجه ممتلئًا، وقد ردّد نذوره بصوتٍ صبياني مرتفع، واعدًا ابنة مايس تايرل المترمّلة مرّتين بحُبّه وإخلاصه، فيما ارتدَت مارچري الفُستان ذاته الذي ارتدَته يوم زفافها إلى چوفري، بتصميمه الرّقيق من الحرير العاجي الشّفّاف وشرائط الزّينة المايريّة واللآلئ الصّغيرة. أمّا سرسي نفسها فما زالَت ترتدي الأسود علامةً على رثائها ابنها البِكري القتيل. ربما يحلو لأرملته أن تضحك وتشرب وترقُص وتُزيح ذكرى چوف بزمّتها من عقلها، لكن أمّه لن تنساه بهذه البساطة.

فكّرت سرسي: *ليس هذا سليمًا. لقد تعجّلوا جدًا. عام، عامان، كان ذلك ليكفي. كان على (هايجاردن) أن تقنع بالخطبة فقط*، وألقت نظرةً وراءها إلى حيث يقف مايس تايرل بين زوجته وأمّه، وقالت له: *أنت الذي أجبرتَني على مهزلة الزّفاف هذه يا سيّدي، ولن أنسى هذا في أيّ وقتٍ قريب*.

لمّا آنَ أوان تبادُل المعطفين نزلَت العروس على رُكبتيها بحركةٍ رشيقة أنيقة، وكساها تومن بالدّاهية الثّقيلة المفضّلة من قُماش الذّهب التي ألبسَ روبرت سرسي إياها يوم زفافهما، المعطف الذي خِيطَ وعل باراثيون على ظهره بحبّات الجَزْع. أرادَت سرسي أن ترتدي مارچري المعطف الحرير الأحمر النّاعم الذي استخدمَه چوفري، وشرحَت لآل تايرل قائلةً: «إنه المعطف الذي استخدمَه السيّد والدي حين تزوّج السيّدة والدتي»، لكن ملكة الأشواك عارضَتها في هذا أيضًا، وقالت الحيزبون: «ذلك الشّيء القديم؟ إنه يبدو لي مهترئًا بعض الشّيء... وأجسرُ على أن أقول إنه... منحوس أيضًا. وألن يكون الوعل أليق بابن الملك روبرت الشّرعي؟ في زماني كانت العروس ترتدي ألوان زوجها لا ألوان السيّدة والدته».

بسبب ستانيس ورسالته القذرة ثمّة شائعات كثيرة للغاية بالفعل تحوم حول نَسب تومن، فلم تجرؤ سرسي على صَبِّ المزيد من الزَّيت على النّار بأن تُصمِّم على أن يُلبِس ابنها عروسه معطف لانستر القرمزي، وهكذا رضخت بقدر ما أمكنَها من كياسة، وإن كان منظر كلّ هذا الذّهب والجَزع يُفعِمها بالسّخط. *كلّما أعطينا آل تايرل طالَبونا بالمزيد.*

لدى فروغهما من ترديد النّذور خطا الملكة والملكة إلى خارج السِّبت ليتلقّيا التّهاني، وقال لهما السير لايل كراكهول بصوتٍ جهوري: «(وستروس) لها ملكتان الآن، والصّغيرة جميلة كالكبيرة». كراكهول هذا فارس مأفون يُذكِّر سرسي كثيرًا بزوجها الرّاحل غير مأسوفٍ عليه، وقد أرادَت أن تصفعه لحظتها. حاولَ جايلز روزبي أن يلثم يدها ولم ينجح إلّا في السّعال على أصابعها، ولثمَها اللورد ردواين على وجنتها ومايس تايرل على كلتا الوجنتين، وقال لها المِايستر الأكبر پايسل إنها لم تفقد ابنًا بل كسبَت ابنةً، لكنها على الأقل لم تُبتلَ بأحضان الليدي تاندا الدّامعة، إذ لم تظهر أيٌّ من نساء ستوكوورث، وهو ما أشعرَ الملكة بالامتنان.

بين أواخر المهنّئين كان كيڤان لانستر، الذي قالت له الملكة: «بلغَني أنك ستتركنا لتحضر زفافًا آخر».

- «الحجر الصّلب أجلى الرّجال المكسورين من (قلعة داري). عروس لانسل تنتظرنا هناك».

- «هل ستنضمُّ إليك السيِّدة زوجتك لحضور الزِّفاف؟».

- «ما زالَت أراضي النّهر محفوفةً بالأخطار. حُثالة ڤارجو هوت طُلقاء، وبريك دونداريون يشنق أبناء فراي. أصحيحٌ أن ساندور كليجاين انضمَّ إليه؟».

كيف عرفَ هذا؟ «هكذا يقول بعضهم. التّقارير مرتبكة». كان الطّائر قد وصلَ ليلة البارحة من سيتري[42] على جزيرةٍ عند مصبّ (الثّالوث) مباشرةً، والأخبار أن بلدة (الملّاحات) القريبة تعرّضت إلى غارةٍ ضارية من جماعةٍ من الخارجين عن القانون، ويدّعي بعض النّاجين أن شخصًا وحشيًا يعتمر خوذةً على شكل كلب صيدٍ كان بين المُغيرين، ويُفترَض أنه قتلَ دستةً من الرِّجال واغتصبَ فتاةً في الثّانية عشرة. «لا شكَّ أن لانسل يتوق إلى القبض على كليجاين واللورد بريك ليسود سلام الملك أراضي النّهر من جديد».

حدّق السير كيڤان إلى عينيها وهلةً، ثم قال: «ابني ليس الرّجل المناسب للتّعامُل مع ساندور كليجاين».

هذا على الأقل نتّفق عليه. «قد يكون أبوه كذلك».

ضغطَ عمُّها فكّيه قائلًا: «ما دامت خدمتي ليست مطلوبةً في (الصّخرة)...».

خدمتك كانت مطلوبةً هنا. عيّنت سرسي داميون لانستر ابن خُؤولتها أمينًا للقلعة في (كاسترلي روك)، وابن خالٍ آخر هو السير داڤن لانستر حاكمًا للغرب. *للعجرفة ثَمنها يا عمّاه*. «ائتِنا برأس ساندور وأعلمْ أن جلالته سيكون في غاية الامتنان. ربما كان الرّجل يروق چوف، لكنه لطالما أخافَ تومن... ولسببٍ وجيه على ما يبدو».

قال السير كيڤان: «عندما يُسيء الكلب التّصرُّف فاللّوم على سيّده»، ثم دارَ على عقبيه وابتعدَ.

رافقها چايمي إلى (القاعة الصُّغرى) حيث يجري تجهيز المأدبة، وبينما يمشيان همست له: «إنني ألومك أنت على كلّ هذا. قلت أن أدعهما يتزوّجان. المفترَض أن تكون مارچري في حِدادٍ على چوفري لا أن تتزوّج أخاه، المفترَض أن تكون غارقةً في الأحزان مِثلي. لا أصدّقُ أنها عذراء. رنلي كان له قضيب، أليس كذلك؟ لقد كان أخا روبرت، فمؤكّد أنه كان له قضيب. إذا كانت تلك الحيزبون العجوز المقزّزة تظنُّ أنني سأسمحُ لابني بـ...».

قاطعَها چايمي بهدوء: «قريبًا جدًّا ستتخلّصين من الليدي أولينا. إنها راحلة إلى (هايجاردن) غدًا».

قالت سرسي التي لا تثق بأيٍّ من وعود آل تايرل: «هكذا تقول».

رَدَّ بإصرار: «إنها راحلة. مايس سيأخذ نِصف قوّات تايرل إلى (ستورمز إند)، والنّصف الثّاني عائد إلى (المرعى) مع السير جارلان ليأخذ حقّه في (قلعة المياه الوضّاءة). بضع أيامٍ أخرى ولن تتبقّى في (كينجز لاندنج) ورود إلّا مارجري ورفيقاتها وحُرّاس قلائل».

- «والسير لوراس، أم أنك نسيت أخاك المحلّف؟».

- «السير لوراس فارس في الحَرس الملكي».

- «السير لوراس ينتمي إلى آل تايرل لدرجة أنه يتبوّل ماء ورد. لم يكن ينبغي أن يُعطى معطفًا أبيض».

- «لم أكن لأختاره، هذا صحيح، لكن أحدًا لم يستشرني. أظنّ أن لوراس سيُبلي بلاءً حسنًا. المعطف الأبيض يُغيِّر الرّجل حالما يرتديه».

- «لقد غيّرك بالتّأكيد، وليس إلى الأفضل».

قال: «أنا أيضًا أحبّكِ يا أختي الجميلة»، وفتحَ لها الباب وسارَ معها إلى المائدة العالية حيث مقعدها إلى جوار الملك، بينما ستجلس مارجري على جانب تومن الآخَر في موضع الشّرف. حين دخلَت الملكة متأبّطةً ذراع الملك الصّغير تعمّدت أن تتوقّف لتلثم سرسي على وجنتيها وتُعانِقها، وبجرأةٍ برّاقة كالنّحاس الأصفر المصقول قالت الفتاة: «جلالة الملكة، أشعرُ كأن لي أمًّا ثانيةً الآن. أدعو الآلهة أن نكون قريبتين للغاية ويُوَحّد بيننا حُبّنا لابنكِ الجميل».

- «لقد أحببتُ كلا ابنَي».

قالت مارچري: «چوفري في صلواتي أيضًا. لقد أحببته حُبًا جَمًّا مع أني لم أنل فُرصة معرفته».

كاذبة. لو أحببتِه ولو لحظةً لما استعجلتِ الزَّواج بأخيه على هذا النَّحو المخزي. إنكِ لم تُريدي إلَّا تاجه.

مقابل نِصف جروت كانت سرسي لتصفع العروس على وجهها المتورِّد في مكانها على المنصَّة على مرأى من نِصف البلاط.

على غرار المراسم كانت مأدبة الزِّفاف متواضعةً. الليدي آليري هي من قامَت بالتَّرتيبات كلِّها، إذ لم تكن لدى سرسي أدنى رغبةٍ في مواجَهة تلك المهمَّة الجسيمة ثانيةً بَعد الطَّريقة التي انتهى بها زفاف چوفري. لم يُقدَّم أكثر من سبعة أصناف، وسلَّى برميل الزُّبدة وفتى القمر الضُّيوف بين كلِّ طبقٍ وطبق، فيما عزفَ الموسيقيُّون وهُم يأكلون، فاستمعوا إلى المزمار والكمنجة والعود والنَّاي والقيثارة الشَّامية[43]. المغنِّي الوحيد في الحفل كان أحد المفضَّلين عند الليدي مارچري، شاب متأنِّق مختال كالطَّاووس ثيابه كلُّها درجات من اللازَوَرد ويدعو نفسه بالشَّاعر الأزرق، وقد غنَّى عددًا من أغاني الحُبِّ ثم انسحبَ، فقالت الليدي أولينا متبرِّمةً بصوتٍ مسموع: «يا لها من خيبة أمل. كنتُ أرجو أن أسمع (أمطار كاستامير)».

متى نظرَت سرسي إلى الحيزبون رأت وجه ماجي الضِّفدعة سابحًا في الهواء أمامها بتجاعيده وبشاعته وحكمته. حاولَت أن تُطَمئِن نفسها قائلةً: *كلُّ العجائز يتشابَهن، هذا كلُّ ما هنالك*. والحقيقة أن المشعوذة ذات الظَّهر المحني لم تكن تُشبِه ملكة الأشواك على الإطلاق، ومع ذلك ظَلَّ منظر ابتسامة الليدي أولينا البغيضة كفيلًا بإعادتها إلى خيمة ماجي من جديد. ما زالَت تَذكُر رائحتها العابقة بالتَّوابل الشَّرقيّة الغريبة، وطراوة لثة ماجي إذ امتصَّت الدَّم من إصبعها، وكيف وعدَتها العجوز والدَّم لا يزال يُبَلِّل شفتيها ويلتمع عليهما: *ملكةً ستكونين، إلى أن تأتي أخرى أصغر منكِ وأجمل، لتُطيح بكِ وتسلبكِ كلَّ ما تعدِّينه عزيزًا*.

تجاوزَت سرسي تومن ببصرها لتَرمُق مارجري الجالسة تضحك مع أبيها، وقالت لنفسها: *حُسنها لا بأس به، لكن معظمه شباب. حتى بنات الفلّاحين يكن حسناوات في سِنٍّ معيَّنة، وهن لا يزلن يافعات بريئات عفيفات، وأكثرهن لهن نفس العيون البنّيّة والشَّعر البنّي مِثلها. لا أحد يدَّعي أنها أجمل مني إلّا وكان أحمق*. غير أن العالم مليء بالحمقى، وكذا بلاط ابنها.

لم يتحسّن مزاجها عندما نهضَ مايس تايرل ليُبادِر برفع الأنخاب، فرفعَ كأسًا ذهبيّةً عاليًا وهو يبتسم لابنته الحسناء، وبصوتٍ مدوٍّ قال: «نخب الملك والملكة!»، وتعالى ثُغاء الخرفان وهُي تقرع الكؤوس وتُرَدِّد: «*الملك والملكة! الملك والملكة!*». لم تجد سرسي خيارًا إلّا أن تُشارِكهم الشُّرب بينما تتمنّى في أعماقها لو أن جميع الضُّيوف لهم وجه واحد كي تُلقي نبيذها في أعيُنهم وتُذَكِّرهم بأنها هي الملكة الحقيقيّة. الوحيد الذي بدا أنه يتذكّرها على الإطلاق من بين مُداهني تايرل هو پاكستر ردواين، إذ نهضَ يرفع نخبه وجسده يترنَّح بعض الشّيء، وصاح بمرح: «نخب ملكتينا! نخب الملكة الصّغيرة والكبيرة!».

شربَت سرسي عدّة كؤوس من النّبيذ وراحَت تُحَرِّك طعامها في طبقٍ ذهبي، أمّا چايمي فأكلَ أقلّ منها، ونادرًا ما حاولَ احتلال مقعده على المنصّة. أدركَت الملكة أنه متوتِّر مِثلها تمامًا وهي تُشاهِده يذرع القاعة جيئةً وذهابًا، يُزيح المعلّقات بيده السّليمة ليتأكّد من أن لا أحد مختبئ خلفها. إنها تعلم أن رجال لانستر حاملي الجِراب منتشرون حول المبنى، بينما يَحرُس السير أوزموند كِتلبلاك أحد البابين والسير مرين ترانت الثّاني، وقد وقفَ بالون سوان وراء مقعد الملك ولوراس تايرل وراء مقعد الملكة. وتعلم كذلك أن السّيوف الوحيدة المسموح بها في المأدبة هي تلك التي يحملها رجال الحَرس الملكي.

قالت لنفسها: *ابني آمِن. لا أذى يُمكن أن يمسّه، ليس هنا، ليس الآن*، ورغم ذلك كلّما نظرَت إلى تومن رأت چوفري يخمش حَلقه، ولمّا بدأ الصّبي يَسعُل توقّف قلبُ الملكة عن الخفقان لحظةً، وفي خضمّ استعجالها بلوغه أوقفت إحدى الخادمات.

طمأنَتها مارچري تايرل قائلةً: «لقد شرِقَ بالقليل من النّبيذ لا أكثر»، والتقطَت يد تومن وقبّلتها مضيفةً: «على حبيبي الصّغير أن يأخذ رشفاتٍ أصغر. انظُر، كدت تُخيف السيّدة والدتك حتى الموت».

قال تومن بخجل: «آسفٌ يا أمّي».

كان الموقف يفوق احتمال سرسي، وحين أحسّت بالدّموع تترقرَق في عينيها قالت لنفسها: *لا يُمكنني أن أدعهم يرون دموعي*، وتحرّكت مارّةً بالسير مرين وخرجَت إلى الرّواق الخلفي، وعندما باتت بمفردها تحت شمعةٍ من الشّحم سمحَت لنفسها بانتحابةٍ راجفة، ثم أخرى. *يُمكن للمرأة أن تبكي، ولكن ليس الملكة*.

قال صوت من ورائها: «جلالة الملكة، هل أتطفّلُ عليكِ؟».

صوت امرأةٍ هو، منكّه بلكنات الشّرق، وللحظةٍ خشيَت سرسي أن ماجي الضّفدعة تُكلّمها من القبر، لكن المرأة لم تكن إلّا زوجة ميريويذر الجميلة داكنة العينين التي تزوّجها اللورد أورتون في منفاه وأخذَها معه إلى دياره في (الطّاولة الطّويلة). سمعَت سرسي نفسها تقول: «هواء (القاعة الصّغرى) فاسد. الدّخان أدمعَ عينَي».

- «وعينَي أيضًا يا جلالة الملكة». تُضاهي زوجة ميريويذر الملكة طولًا، لكنها سمراء بدلًا من بيضاء، شَعرها أسود كريش الغِدفان وبشرتها زيتونيّة وتصغرها بعقدٍ كامل، وقد قدّمت للملكة منديلًا أزرق باهتًا من الحرير الموشّى بشرائط الزّينة قائلةً: «إن لي ابنًا أيضًا، وأعرفُ أني سأبكي أنهارًا يوم زفافه».

مسحَت سرسي وجنتيها وقد أحنقَها أن يرى أحد دموعها، وقالت بجمود: «أشكركِ».

قالت المرأة المايريّة: «جلالة الملكة، إنني...»، وخفضَت صوتها مكملةً: «ثمّة شيء يجب أن تعرفيه. وصيفتكِ مرتشية، إنها تُخبِر الليدي مارچري بكلّ شيءٍ تفعلينه».

- «سينتل؟». تلوّت ثورة مفاجئة في بطن سرسي. ألا يوجَد من يُمكنها الثّقة به؟ «أأنتِ متأكّدة؟».

- «مُري أحدهم بأن يتبعها. مارچري لا تلتقيها وجهًا لوجهٍ أبدًا، لكن بنات عمومتها هن غِدفانها ويحملن إليها الرّسائل. أحيانًا إلينور، أحيانًا آلا، أحيانًا مِجا. كلُّهن قريبات من مارچري كأنهن أخواتها. إنهن يلتقينها في السّيت ويتظاهَرن بالصّلاة. ضعي أحد رجالكِ في الشُّرفة غدًا وسيرى سينل تهمس لمِجا عند مذبح (العذراء)».

- «إذا كان هذا صحيحًا فلماذا تُخبِرينني؟ إنكِ واحدة من رفيقات مارچري، فلِمَ تخونينها؟». لقد تعلَّمت سرسي الارتياب وهي لا تزال تجلس على رُكبة أبيها. ربما يكون هذا فخًّا، كذبةً تزرع الخلاف بين الأسد والوردة.

أجابَت المرأة ملقيةً شَعرها الأسود إلى الوراء: «ربما تكون (الطّاولة الطّويلة) مقسمةً على الولاء لـ(هايجاردن)، لكنني من (مير)، وولائي لزوجي وابني، ولا أريدُ إلّا الأفضل لهما».

- «مفهوم». في الممرّ الضيّق أفعمَ أنف الملكة عطر المرأة الأخرى، أريج كالمِسك هو مزيج من رائحة الطّحالب والتّربة والأزهار البرّيّة، وتحته شمّت سرسي رائحة الطّموح. قالت لنفسها وقد تذكّرت فجأةً: *لقد شهدَت في محاكَمة تيريون، رأت العِفريت يضع السُّمّ في كأس جوف ولم تخَف أن تتكلّم.* وعدَتها قائلةً: «سأنظرُ في هذه المسألة، وإذا كان ما تقولينه صحيحًا فستنالين مكافأةً». *وإذا كنتِ تكذبين عليّ فسأقطعُ لسانكِ وأصادرُ أراضي زوجك وذهبه أيضًا.*

قالت الليدي ميريويذر: «جلالتكِ لطيفة، وجميلة أيضًا»، وابتسمَت لتلوح أسنانها البيضاء بين شفتيها الممتلئتين الدّاكنتين.

حين عادَت الملكة إلى (القاعة الصّغرى) ألفَت أخاها يمشي جيئةً وذهابًا بتوتُّر، وقال لها: «مجرّد رشفةٍ من النّبيذ جعلته يشرَق، لكنها أفزعَتني أيضًا».

دمدمَت في وجهه: «بطني مقلوب لدرجة أني لا أستطيعُ الأكل، والنّبيذ مذاقه كالمِرّة. هذا الزّفاف غلطة».

- «هذا الزّفاف ضروري. الصّبي في أمان».

قالت: «أحمق. لا أحد يعتمر تاجًا في أمانٍ أبدًا»، وجاسَت بنظرها في القاعة لترى مايس تايرل يضحك وسط فُرسانه، واللوردين ردواين وروان يتكلّمان بصوتٍ خفيض، والسير كيڤان جالسًا بوجومٍ مع كأسه في نهاية القاعة، بينما يهمس لانسل بشيءٍ ما لأحد الشيتونات، وتتحرّك سينل بطول المائدة مالئةً كؤوس بنات عمومة العروس بنبيذٍ أحمر كالدّم، في حين غابَ المايستر الأكبر پايسل في النّوم. فكّرت بكآبة: *لا أحد بإمكاني الاعتماد عليه، ولا حتى چايمي. عليّ أن أزيح كلّ هؤلاء وأحيط الملك بأناسي.*

لاحقًا، بَعدما قُدّمَت الحلويات والمكسّرات والجُبنة ورُفِعَت، بدأت مارچري وتومن الرّقص، وقد بدوَا على قدرٍ لا بأس به من الشخف وهما يدوران. ابنة تايرل تفوق زوجها الصّغير بقدمٍ ونِصف طولًا، وتومن راقص أخرق في أحسن أحواله، لا يملك أيًا من رشاقة چوفري الثّلقائيّة، وإن بذلَ قصارى جهده وبدا غافلًا عن الفُرجة التي صنعَها من نفسه... ولم تكد العذراء مارچري تَفرُغ منه حتى انقضّت عليه بنات عمومتها واحدةً تلو الأخرى مصمّماتٍ على أن يَرقُص صاحِب الجلالة معهن أيضًا. فكّرت سرسي بامتعاضٍ وهي تُشاهِد: *سيجعلنه يتعثّر ويترنّح لمّا يَفرُغن منه. نِصف البلاط سيتهكّم عليه من وراء ظَهره.*

بينما أخذت كلٌّ من آلا وإلينور ومِجا دورها مع تومن، رقصت مارجري مرّةً مع أبيها ثم مع أخيها فارس الزُّهور، الذي ارتدى الحرير الأبيض وأوثقَ حول خصره حزامًا من الورود الذّهبيّة وثبّت معطفه بدبُّوسٍ على شكل وردةٍ من اليَشب. فكّرت سرسي وهي تُشاهِدهما: *كأنهما توأمان*. يكبر السير لوراس أخته بعام، لكن كليهما له العينان البنّيّتان الواسعتان نفسهما والشَّعر البنّي الكثيف الذي ينسدل في خُليقاتٍ طبيعيّة على أكتافهما، وكذا البشرة الملساء التي لا تشوبها شائبة. *قدر وافر من البثور سيُعَلّمهما شيئًا من التّواضُع*. لوراس أطول قامةً وله زغب بنّي ناعم خفيف على وجهه، ومارجري لها جسد امرأة، لكن فيما عدا ذلك فإنهما متشابهان أكثر من سرسي وچايمي، وهو ما أثارَ استياءها أيضًا.

قطعَ توأمها أفكارها بقوله: «هل تسمح صاحِبة الجلالة بتشريف فارسها الأبيض برقصة؟».

حدجَته بنظرةٍ مُهلكة قائلةً: «وأتركك تتلمّسني عبثًا بهذه الجَدعة؟ لا. لكني سأتركك تملأ كأسي، إذا كنت تحسب أنك تقدر دون أن تَسكُب النّبيذ».

ردَّ: «مُعاق مِثلي؟ لا أظنُّ»، وابتعدَ وعادَ يدور في أرجاء القاعة، وملأت هي الكأس بنفسها.

رفضَت سرسي أن تَرقُص مع مايس تايرل ثم لانسل، ففهمَ الآخرون التَّلميح ولم يَطلُب أحد آخر الرَّقص معها. *أصدقاؤنا الصَّديقون ولورداتنا المخلصون*. إنها لا تستطيع الثِّقة بالغربيِّين منهم حتى، حمَلة راية أبيها ورجاله المقسمين على الولاء، لا تستطيع إذا كان عمُّها ذاته يتآمَر مع أعدائها...

كانت مارجري تَرقُص مع ابنة عمومتها آلا، ومِجا مع السير تالاد الطَّويل، وابنة العمومة الأخرى إلينور تشرب كأسًا من النَّبيذ مع أوران ووترز، نغل (دريفتمارك) الوسيم. ليست هذه أول مرَّةٍ تلحظ الملكة ووترز، الشَّاب النَّحيل ذي العينين الخضراوين الضَّاربتين إلى الرَّمادي والشَّعر الطَّويل الذَّهبي المائل إلى الفضِّي. حين رأته للمرَّة الأولى كادَت تحسب لأقلِّ من لحظةٍ أن ريجار تارجارِيَن قد عادَ من الرَّماد. قالت لنفسها: شَعره *الشَّيب. إنه ليس بنِصف الوسامة التي كانها ريجار، ووجهه ضيِّق للغاية وهناك ذلك الشَّقُّ في ذقنه*. على أن آل ڤيلاريون ينحدرون من ذُرِّيَّةٍ ڤاليريَّة قديمة، ولبعضهم الشَّعر المائل إلى الفضِّي الذي كان لملوك التَّنانين القُدامى.

عادَ تومن إلى مقعده ليقضم من كعكة تفّاح، ونظرَت الملكة إلى مقعد عمّها لتجده شاغرًا، وأخيرًا وجدَته في زكنٍ يتكلّم باهتمامٍ بالغ مع ابن مايس تايرل جارلان. عمّ *يتكلّمان*؟ ربما يُلقّب أهل (المرعى) السير جارلان بالهُمام، لكنها لا تثق به أكثر من مارچري أو لوراس. إنها لم تنسَ العُملة القديمة التي اكتشفَها كايبرن تحت وعاء فضلات السّجّان. *يد ذهبيّة من (هايجاردن)، ومارچري تتجسّس عليّ*. عندما ظهرَت سينل لتملأ كأسها قاومَت الملكة مضطرّةً رغبتها الملحّة في أن تقبض على رقبتها وتخنقها، وقالت لها في سريرتها: *لا تتظاهَري بالتّبسُّم لي أيتها الحقيرة الخائنة. ستتوسّلين منّي الرّحمة قبل أن أفرغ منك*.

سمعَت شقيقها چايمي يقول: «أظنُّ أن صاحبة الجلالة شربَت نبيذًا بما يكفي اللّيلة».

لا، كلُّ ما في العالم من نبيذٍ لن يكفي لأن أتحمّل هذا الزّفاف. نهضَت بسرعةٍ جعلَتها توشِك على السّقوط، لكن چايمي أمسكَها من ذراعها وثبّتها، فانتزعَت الذّراع منه وصفّقت لتتوقّف الموسيقى وتَصمُت الأصوات، وبصوتٍ عالٍ قالت سرسي: «أيها السّادة والسيّدات، أرجو أن تتفضّلوا وتَخرُجوا معي لنُشعِل شمعةً احتفالًا باتّحاد (هايجاردن) و(كاسترلي روك) وبعصرٍ جديد من السّلام والرّخاء لممالكنا السّبع».

مظلمًا كئيبًا وقفَ (بُرج اليد)، تحتلُّ الفتحات الواسعة مكان أبوابه البلُّوط الثَّقيلة ومصاريع نوافذه، لكن حتى في خرابه وتجزُّده من زينته ظَلَّ مرتفعًا فوق السَّاحة الخارجيَّة، ومَرَّ ضيوف الزِّفاف في ظِلِّه إذ خرجوا من (القاعة الصُّغرى). حين نظرَت سرسي إلى أعلى رأت شُرُّافات البُرج تنهش قمر الصَّيَّادين[44]، وتساءلَت كم يبدًا لكم ملك قطنَ في هذا المكانَ على مَرِّ القرون الثَّلاثة المنصرمة.

على بُعد مئة ياردة من البُرج أخذَت نفسًا عميقًا لتوقِف رأسها عن الدَّوران، وصاحَت: «لورد هالاين، يُمكنك أن تبدأ!».

قال هالاين البايرومانسر: «همممممم»، ولوَّح بالمشعل الذي يحمله، فلقَّم الرُّماة على الأسوار أقواسهم وأطلَقوا دستةً من السِّهام النَّارية عبر النَّوافذ المفتوحة.

وشبَّت النَّار في البُرج بصوتٍ كالفحيح. خلال أقلِّ من لحظةٍ دبَّت الحياة في داخله بالأحمر والأصفر والبُرتقالي... والأخضر، أخضر داكن يُنذِر بالويل، لون المِرَّة واليَشب وبول البايرومانسرات. يُسمِّيها الخيميائيُّون «المادَّة»، لكن العامَّة يُطلِقون عليها «النَّار الشَّعواء»، وقد وُضِعَت خمسون جرَّةٍ منها داخل (بُرج اليد)، بالإضافة إلى الحطب وبراميل القار والسَّواد الأعظم من مقتنيات قزمٍ اسمه تيريون لانستر.

شعرَت الملكة بحرارة اللّهب الأخضر. يقول البايرومانسرات إن أشياء ثلاثةً فحسب أشدُّ حرارةً من مادّتهم: لهب التّنانين والنّار في باطن الأرض وشمس الصّيف. شهقت بعض الليديهات عندما ظهرَ اللّهب في النّوافذ يلعق الجُدران من الخارج كألسنةٍ خضراء طويلة، في حين هلّل آخَرون ورفعوا الأنخاب.

قالت لنفسها: *جميلة، جميلة كجوفري حين وضعوه بين ذراعَي*. لم يُشعِرها رجل قَطُّ بذلك الاستمتاع الذي أحسَّت به عندما التقمَ حلمتها ليرضع.

حدّق تومن إلى النّيران بعينين متّسعتين، مفتونًا بقدر ما هو خائف، إلى أن همسَت مارچري في أذنه بشيءٍ جعلَه يضحك، وبدأ بعض الفُرسان يتراهَنون على الفترة التي سيستغرقها البُرج قبل أن ينهار، بينما وقفَ اللورد هالاين يُهَمهِم لنفسه ويتأرجَح على كعبيه.

فكّرت سرسي في جميع أيادي الملوك الذين عرفَتهم على مَرِّ السّنين؛ أوين ميريويذر، وچون كوننجتون، وكارلتون تشيلستد، وچون آرن، وإدارد ستارك، وشقيقها تيريون... وفي أبيها اللورد تايوين لانستر، في أبيها على وجه الخصوص. قالت لنفسها مستمتعةً بالفكرة: *كلُّهم يحترقون الآن، موتى ويحترقون جميعًا ومعهم مخطّطاتهم ومؤامراتهم وخياناتهم. لقد أتى زماني. هذي قلعتي وهذي مملكتي*.

أصدرَ (بُرج اليد) قعقعةً مباغتةً دوّت بشدّةٍ لدرجة أن المحادثات جميعها توقّفت دُفعةً واحدةً، وتشقّقت الحجارة وتصدّعت وهوى جزء من الشُرفة العُليا وحَطّ بارتطامٍ صَمَّ الآذان ورَجّ التّلّ مثيرًا سحابةً من الغُبار والدُّخان، وإذ تدفّق الهواء الطّلق من الثّغرات الجديدة في الحجر تأجّجت النّار أكثر واندفعَت إلى أعلى، لتثب ألسنة اللّهب الأخضر في السّماء ويدور بعضها حول بعض. نكصَ تومن، إلّا أن مارجري أمسكَت يده قائلةً: «انظُر، اللّهب يَرقُص كما كنا نَرقُص يا حبيبي».

رَدّ بصوتٍ أفعمَته الدّهشة: «نعم. أمّي، انظُري، اللّهب يَرقُص».

- «أراه. لورد هالاين، كم ستبقى النّار مشتعلةً؟».

- «طوال اللّيل يا مولاتي».

قالت أولينا تايرل المستندة إلى عُكّازها بين حارسيها شمال ويمين: «شمعة جميلة بالفعل، مضيئة بما يكفي لأن نَخلُد إلى النّوم في أمان على ما أظنّ. العظام العجوز تتعب، وهذان الصّغيران شهدا إثارةً تكفي هذه اللّيلة. حانَ الوقت لأن يذهب الملك والملكة إلى الفِراش».

قالت سرسي: «نعم»، وأشارَت إلى چايمي مردفةً: «حضرة القائد، اصحب جلالته وملكته الصّغيرة إلى فِراشهما إذا سمحت».

- «كما تأمرين. وأنتِ أيضًا؟».

- «لا داعي». تحش سرسي بحيويّة لا تحتاج معها إلى النّوم. النّار الشّعواء تُطَهّرها، تحرق غضبها وخوفها كلّه وتملأها بالعزيمة. «اللّهب جميل للغاية. أريدُ أن أشاهده فترةً».

قال چايمي بتردُّد: «لا ينبغي أن تكوني وحدكِ».

- «لن أكون وحدي. السير أوزموند يُمكنه أن يبقى ويحميني، أخوك المحلّف».

قال كِتلبلاك: «إذا كان هذا يسرُّ صاحِبة الجلالة».

ردّت: «يسرُّني»، وتأبّطت ذراعه، وجنبًا إلى جنبٍ شاهدا النّيران تستعرُ.

---

(40) الجروت غملة كانت متداولةً قديمًا في إنجلترا وأيرلندا وسكوتلندا، وتُساوي أربعة بنسات. (المترجم).

(41) تُعرَف النّار الشّعواء في عالم الواقع باسم نار الإغريق، وهي سائل حارق سريع الاشتعال تكرّر استخدامه في المعارك البحريّة قديمًا، ولا أحد يعرف مكوّناته على وجه الدقّة. (المترجم).

(42) إذا كان السّپت معادلًا للكنيسة في عالم الواقع، فالسّپتري يُعادِل الدّير. (المترجم).

(43) آلة موسيقيّة من خيال المؤلّف. (المترجم).

(44) في عالم الواقع قمر الصّيّادين هو أول قمر مكتمل يتلو قمر الحصاد في فترة الاعتدال الخريفي، وغالبًا يطلع في شهر سبتمبر أو أكتوبر ويكون لونه بُرتقاليًا لاقترابه الشّديد من الأفق. (المترجم).

اللّيلة باردة على غير العادة، حتى بالنّسبة إلى الخريف، وفي الأزقّة تلتفُّ دوّامات الرّيح البليلة السّريعة محرّكةً أتربة النّهار. ريح *شماليّة مشبّعة بالبرودة*. رفعَ السير آريس أوكهارت قلنسوته ليُخفي وجهه، فليس في صالحه أن يتعرّفه أحد. قبل أسبوعين ذُبِحَ تاجر في مدينة الظّل، رجل مسالم أتى (دورن) لأجل فواكهها وبدلًا من الثمور وجدَ نحبه، وجريرته الوحيدة أنه كان من (كينجز لاندنج).

سيجدني الزّعاع خصمًا أشدّ بأسًا. الحقيقة أنه يكاد يُرَحّب باعتداءٍ عليه. تحرّكت يده تتحسّس بخفّةٍ مقبض السّيف الطّويل شِبه المتواري بين طيّات ملابسه الكتّان التي يرتدى طبقتين منها، المعطف الخارجي بخطوطه الفيروزيّة وصفوف الشّموس الذّهبيّة، والدّاخلي الأخف بلونه البُرتقالي. الثّياب الدورنيّة مريحة، إلّا أن أباه كان لينزعج أيّما انزعاج لو أنه عاشَ ليرى ابنه يرتديها. إنه من أبناء (المرعى)، والدورنيّون أعداؤه منذ عصورٍ سحيقة كما تشهد المعلّقات في (السّنديانة القديمة). ما على آريس إلّا أن يُغلِق عينيه ليراها؛ اللورد إدجيران السّخي جالسًا بسموٍّ وقد تكوّمت حول قدميه رؤوس مئةٍ من الدورنيّين، وورقات الشّجر الثّلاث -رمز عائلة أوكهارت- التي اخترقتها حِراب الدورنيّين في (ممر الأمير)، وآلستر يَنفُخ في بوقه الحربي لافظًا آخِر أنفاسه، والسير أوليڤار الملقّب بالسّنديانة الخضراء يرتدي أبيض على أبيض بينما يُحتضَر إلى جانب التنّين الصّغير. (دورن) *ليست مكانًا ملائمًا لأيٍّ من آل أوكهارت.*

حتى قبل موت الأمير أوبرين أصابَ الفارسَ التّوتُّر متى خرجَ من (صنسپير) ليمشي في أزقّة مدينة الظّل. أينما ذهبَ يَشعُر بأعيُنهم المسلَّطة عليه، أعيُن دورنيّة سوداء صغيرة تَرمُقه بعداوةٍ بيِّنة، وفي كلّ رُكنٍ يَبذُل أصحاب الحوانيت قصارى جهدهم للاحتيال عليه، حتى إنه يتساءَل أحيانًا إن كان سُقاة الحانات يَبصُقون في مشروباته. في مرّةٍ راحَت مجموعة صِبيةٍ يرتدون الأسمال تَرجُمه بالحجارة، إلى أن سحبَ سيفه فولُّوا الأدبار. ثم جاءَ موت الأفعوان الأحمر ليُلهِب الدورنيّين أكثر، مع أن الشّوارع هدأت نوعًا منذ حبس الأمير دوران أفاعي الرّمال في بُرج، لكن لو ارتدى معطفه الأبيض في مدينة الظّل على الرغم من هذا فكأنه يدعوهم للهجوم عليه. كان قد جلبَ ثلاثة معاطف بيضاء معه؛ اثنين من الصّوف أحدهما خفيف والثّاني ثقيل، وواحدًا من الحرير النّاعم، والآن يحسّ كأنه عارٍ دون واحدٍ يتدلّى من على كتفيه.

قال لنفسه: *العُري أفضل من الموت. إنني ما زلتُ حارسًا ملكيًا، حتى من دون معطف. لا بُدّ أن تحترم هذا، لا بُدّ أن أجعلها تفهم*. ما كان يَجدُر به قطُّ أن يَترُك نفسه يتورّط، لكن المغنّي قال إن الحُبّ قمين بإصابة أيّ رجلٍ بالبلاهة.

غالبًا تبدو المدينة الواقعة في ظِلّ (صنسبين) مهجورةً في قيظ النّهار، الفترة التي لا يتحرّك فيها في الشّوارع المتربة إلّا الذُّباب الطّنّان، لكن حالما يأتي المساء تدبّ الحياة في تلك الشّوارع. سمعَ السير آريس موسيقى خافتةً تتسرّب من النّوافذ المزوّدة بفتحات تهوية وهو يمرّ أسفلها، وفي مكانٍ ما كانت الطُّبول اليدويّة تُدَقّ بإيقاع رقصة الجِراب السّريع جاعلةً للّيل نبضًا. حيث تلتقي ثلاثة أزقّة أسفل ثاني الأسوار الملتفّة ناذته إحدى بنات الهوى من شُرفةٍ وليس على جسدها إلّا الجواهر والزُّيوت، فألقى نظرةً سريعةً عليها ثم ثنى كتفيه وواصلَ طريقه متوغّلًا وسط أنياب الرِّيح. *نحن معشر الرّجال ضعاف. حتى أنبلنا تخونهم أجسادهم.* فكّر في الملك بيلور المبارَك الذي اعتادَ الصّيام إلى حدّ السّقوط مغشيًا عليه ليُرَوِّض الشّهوات التي أخزَته. أعليه أن يحذو حذوه؟

رأى رجلًا قصيرًا واقفًا في مدخلِ مقنطَر يشوي قطعًا من لحم الثّعابين على مستوقَدٍ ويُقلّبها بِملقطٍ خشبي بينما تَنضَج، وأدمعَت رائحة صلصات الرّجل النّفّاذة عينَي الفارس، الذي سمعَ أن أفضل صلصات الثّعابين يحتوي على قطرةِ من الزُّعاف، بالإضافة إلى بذور الخردل وفلفل التّنانين. استهوى الطّعام الدورني الأميرة مارسلا بالشّرعة نفسها التي استهواها بها أميرها الدورني، وبين الحين والآخَر يُجَرِّب السير آريس صنفًا لإرضائها، فيسفع الطّعام فمه ويجعله يشهق طالبًا النّبيذ، ويحرقه خروجه من جسده أكثر من دخوله، لكن أميرته الصّغيرة تحبّه.

كان قد تركَها في مسكنها منحنيةً فوق طاولة لعبٍ في مواجَهة الأمير تريستان، تُحرِّك قطعًا منمّقةً على خاناتٍ من اليَشب والعقيق الأحمر واللازَوَرد. كانت شفتا مارسلا الممتلئتان مفترقتين بعض الشّيء، وقد ضيّقت عينيها تركيزًا. اللُّعبة اسمها السايڤاس، ووصلَت إلى (بلدة الأخشاب) على قادسٍ تجاري من (ڤولانتيس)، فنشرَها الأيتام بطول ضفاف (الدّم الأخضر)، ووقعَ البلاط الدورني في غرامها. أمّا السير آريس فيجدها مثيرةً للجنون، فثمّة عشر قطع مختلفة، كلٌّ منها لها خصائصها وقُدراتها، والرُّقعة تتبدّل من مباراةٍ إلى مباراةٍ اعتمادًا على ترتيب اللّاعبين لخاناتهم. راقَت اللُّعبة الأمير تريستان في الحال، وتعلّمتها مارسلا كي تلعب معه. إنها لم تَبلُغ الحادية عشرة بعد، وخطيبها في الثّالثة عشرة، لكن على الرغم من هذا بدأت تغلبه أكثر فأكثر في الفترة الأخيرة، ولا يبدو أن تريستان يُمانِع. لا يُمكن أن يبدو هذان الطّفلان أكثر اختلافًا؛ هو ببشرته الزّيتونيّة وشَعره الأسود المفرود، وهي ببشرتها الشّاحبة كالحليب وخُصلاتها الذّهبيّة، الفاتح والغامق، كالملكة سرسي والملك روبرت. يتمنّى أن تجد مارسلا مسرّةً أكثر في صبيّها الدورني مما وجدَت أمُّها في زوجها سيّد أراضي العواصف.

أشعرَه تركها بالقلق، مع أن المفترَض أن تكون آمنةً كفايةً داخل القلعة. هناك بابان فقط يقودان إلى مسكن مارسلا في (بُرج الشّمس)، وقد عيّن السير آريس رجلين على كلّ منهما، وكلُّهم من حَرس لانستر، رجال أتوا معهم من (كينجز لاندنج)، وإن كان لهم باع في المعارك، ثم إنهم أوفياء حتى النُّخاع. ومع مارسلا وصيفاتها والسّپتة إجلانتين أيضًا، والأمير تريستان يُرافِقه حارسه الشّخصي السير جاسكوين ابن (الدّم الأخضر). قال لنفسه: *لن يُزعِجها أحد، وفي غضون أسبوعين سنكون قد رحلنا إلى الأمان.*

هذا ما وعدَه به الأمير دوران. على الرغم من صدمة آريس لمرأى منظر الأمير الدورني العاجز الهرِم، فإنه لم يشكّ في كلمته، وقد قال له مارتل حين أدخَلوه غُرفته الشّمسيّة: «آسفٌ لأني لم أستطِع أن أراك حتى الآن أو ألتقي الأميرة مارسلا، لكني واثق بأن ابنتي آريان احتفَت بوجودك هنا في (دورن) أيها الفارس».

أجابَ راجيًا ألّا تخونه حُمرة الخجل: «نعم يا سموّ الأمير».

- «أرضنا قاسية وفقيرة، لكنها لا تخلو من المحاسن. يُؤسِفنا أنك لم تزَ من (دورن) أكثر من (صنسپير)، لكني أخشى أن لا أنت ولا أميرتك ستكونان آمنين خارج هذه الأسوار. نحن الدورنيّون قوم حارّو الدّماء، غضبتنا سريعة ومغفرتنا بطيئة. كان ليُفرِح قلبي أن أؤكّد لك أن أفاعي الرّمال وحدهن الرّاغبات في الحرب، لكني لن أكذب عليك أيها الفارس. لقد سمعت رعاياي في الشّوارع يُطالِبونني بأن أحشد جِرابي، وأخشى أن نِصف لورداتي متّفقون معهم».

واتت الفارس الجرأة على أن يسأل: «وأنت يا سموّ الأمير؟».

إذا كان السّؤال الفِجّ قد أساء إلى الأمير دوران فقد أخفى مشاعره جيّدًا وهو يُجيب: «منذ زمنٍ طويل علّمتني أمّي أن المجانين وحدهم يخوضون حروبًا لا يستطيعون الانتصار فيها، لكن سلامنا هذا هشّ... هشٌّ كأميرتك».

- «لا يُؤذي بنتًا صغيرةً إلّا وحش».

قال الأمير: «أختي إليا كانت لها بنت صغيرة اسمها ريينس، وكانت أميرةً أيضًا»، وتنهّد متابعًا: «مَن يرغبون في طعن الأميرة مارسلا بالخناجر لا يكنّون لها ضغينةً ما، تمامًا كالسير آموري لورك عندما قتلَ ريينس، لو أنه قتلَها حقًّا. إنهم يسعون فقط إلى إرغامي على الحرب، فمن سيُصَدِّق إنكاري إذا قُتِلَت مارسلا وهي في (دورن) تحت حمايتي؟».

- «لا أحد سيمسّ مارسلا بسوءٍ ما دمت حيًا».

ردّ دوران مارتل بابتسامةٍ واهية: «تعهّد نبيل، لكنك مجرّد رجلٍ واحد أيها الفارس. لقد أملتُ أن يُهَدِّئ حبس بنات أخي العنيدات الأمور، لكننا لم نُفلِح إلّا في دفع الصّراصير إلى الاختباء في جحورها. كلّ ليلةٍ أسمعها تتهامس وتشحذ سكاكينها».

لحظتها أدركَ آريس أنه خائف. *انظُر*، يده ترتجف. *أمير (دورن)* مرعوب. خذلَه الكلام ولم يستطِع أن يُعلِّق.

قال الأمير دوران: «تقبّل اعتذاري أيها الفارس. إنني واهن وفي صحّةٍ متدهورة، وأحيانًا... تُتعبني (صنسپين) بجلبتها وأتربتها وروائحها. إنني أنوي العودة إلى (الحدائق المائيّة) حالما تُتيح لي واجباتي، ووقتها سآخذُ الأميرة مارسلا معي»، وقبل أن يعترض الفارس رفعَ الأمير يدًا مفاصلها حمراء متورِّمة، وواصلَ: «أنت أيضًا ستذهب، علاوةً على سِپتتها ووصيفاتها وحُرّاسها. أسوار (صنسپين) قويّة، لكن أسفلها تقع مدينة الظِّل، وحتى داخل القلعة يجيء المئات ويذهبون بصفةٍ يوميّة. (الحدائق) ملاذي. لقد ابتناها الأمير مارون كهديّةٍ لعروسه ابنة تارجاريَن احتفالًا بزواج (دورن) بالعرش الحديدي. الخريف فصل جميل هناك... النّهارات حارّة واللّيالي معتدلة البرودة، والنّسيم المالح يهبّ من البحر، بالإضافة إلى النّوافير والمسابح، كما أن هناك أطفالًا آخرين، صِبيةً وصبايا من أولاد عِلية القوم. سيكون لمارسلا أصدقاء من سِنّها تلعب معهم، لن تَشعُر بالوحدة».

- «كما تشاء». دقّت كلمات الأمير في رأسه. *ستكون آمنةً هناك*. لماذا إذن ألحّ عليه دوران مارتل ألّا يَكتُب لـ(كينجز لاندنج) بشأن انتقالها؟ *الأكثر أمنًا لمارسلا ألّا يعلم أحد مكانها* . ووافقه السير آريس، لكن أكان يملك خيارًا آخر؟ إنه فارس في الحرس الملكي، غير أنه رجل واحد فقط رغم ذلك، تمامًا كما قال الأمير.

انفتحَ الزُّقاق فجأةً على باحةٍ يُنيرها القمر. في رسالتها كتبَت: *بَعد محلّ صانع الشُّموع، بوّابة وسلالم خارجيّة قصيرة.* دخلَ من البوّابة وصعدَ الدّرجات البالية إلى بابٍ لا علامة عليه. *هل عليّ أن أطرقه؟* بدلًا من هذا فتحَ الباب، ليجد نفسه في غُرفةٍ واسعة معتمة ذات سقفٍ واطئ، مضاءة بشمعتين معطّرتين تتذبذبان في تجويفين في الجِدار الفخّاري السّميك، وتحت خُفّيه رأى بُسطًا مايريّة منقوشةً، ومعلّقةً على الحائط، وسريرًا.

نادى: «سيّدتي، أين أنتِ؟».

أجابَت: «هنا»، وخرجَت من الظّلّ وراء الباب، على ساعِدها الأيمن يلتفُّ ثُعبان منمّق التمعَت حراشفه النّحاسيّة والذّهبيّة حين تحرّكت، وهو كلُّ ما ترتدي.

كانت نيّته أن يقول لها: *لا، لم آتِ إلّا لأخبركِ بأن عليّ الرّحيل*، لكن عندما رآها تتألّق في ضوء الشّمعتين بدا كأنه فقدَ القُدرة على النُّطق وأحسّ بحلقه جافًا كالرّمال الدورنيّة. صامتًا وقفَ ينهل من مفاتن جسدها؛ من غور حلقها، والنّهدين المستديرين الشّامخين بحلمتيهما الدّاكنتين الكبيرتين، والانحناءات النّاضرة في الخصر والوَركين... وإذا به بوسيلةٍ ما يحتويها وبها تخلع ثيابه، ولمّا بلغَت سترته التّحتيّة أمسكَتها من الكتفين ومزّقت الحرير حتى سُرّته، لكن آريس كان قد تجاوزَ مرحلة المبالاة بالفعل. بشرتها ملساء تحت أصابعه، دافئة الملمس كالرّمل في شمس (دورن). رفعَ رأسها ووجدَ شفتيها، وانفتحَ فمها تحت فمه وملأ نهداها كفّيه، وشعرَ بحلمتيها تنتصبان إذ مسّهما بإبهاميه. شَعرها أسود غزير رائحته كزهور الأوركيد، رائحة كالتّربة الخصبة جعلَت انتصابه يكاد يُوجِعه.

همسَت المرأة في أذنه: «المسني أيها الفارس»، وزحفَت يده على بطنها الصّغير المستدير إلى البُقعة الخلوة المبتلّة تحت أيكة الشّعر الأسود، وتمتمَت هي حين ولجَها بإصبعه: «نعم، هناك»، وتأوّهت وسحبَته إلى الفِراش ودفعَته عليه. «أكثر، أوه، أكثر، نعم، جميل، فارسي، فارسي، فارسي الأبيض الجميل، نعم، أنت، أنت، أريدك أنت». قادَته يداها إلى داخلها، ثم طوّقتا ظَهره مقرّبتين إياه أكثر، وهمسَت: «أعمق، نعم، أوه». حين لفّت ساقيها حوله شعرَ بقوّتهما التي تُداني الفولاذ، وخدشَت أظفارها ظَهره وهو يغوص فيها مرّةً ومرّةً ومرّةً، إلى أن صرخَت وقوّست ظَهرها تحته، وبينما فعلَت هذا وجدَت أصابعها حلمتيه وقرصَتهما إلى أن أفرغ لذّته في داخلها. قال الفارس لنفسه: *يُمكنني أن أموت سعيدًا الآن*، ولفترةٍ قصيرة أحسّ بالسّكينة.

ولم يَمُت.

رغبته كانت عميقةً لا متناهية كالبحار، لكن مع مجيء الجَزر ارتفعت صخور الذَّنب والخزي من الأعماق بحدّتها المعهودة. أحيانًا تُغَطّيها الأمواج، لكنها باقية تحت الماء، قاسية، سوداء، زلقة. سألَ نفسه: *إنني فارس في الحرس الملكي. ما هذا الذي أفعله؟* تدحرج من فوقها ليتمدّد محدِّقًا إلى السّقف الذي يمتدُّ صدع كبير فيه من حائطٍ إلى حائط. لم يلحظ هذا من قبل، مِثلما لم يلحظ المشهد المرسوم على المعلَّقة الذي يُصَوِّر نايميريا وشفنها العشرة آلاف. *لم أكن أرى إلّاها. لو أن تنّينًا أدخلَ رأسه من النّافذة لما رأيث إلّا ثدييها ووجهها وبسمتها.*

غمغمَت وهي تُريح رأسها على عُنقه: «هناك نبيذ»، ووضعَت يدها على صدره سائلةً: «أأنت عطشان؟».

قال: «لا»، واعتدلَ جالسًا على حافة الفِراش. الغُرفة ساخنة، وعلى الرغم من هذا يرتجف.

- «إنك تنزف، خدشتك بقوّة».

حين مسّت يده جفلَ كأن أصابعها مشتعلة نارًا، ونهضَ عاريًا وقال: «لا، كفى».

- «معي بلسم للخدوش».

لكن لا بلسم لعاري. «الخدوش لا شيء. سامِحيني يا سيِّدتي، يجب أن أذهب...».

- «بهذه الشرعة؟». لها صوت مبحوح رخيم، وفم واسع مخلوق للهمس، وشفتان ممتلئتان يانعتان جاهزتان دومًا للقُبلات، وينسدل شَعرها الفاحم الكثيف على كتفيها العاريتين إلى قمّتي نهديها العامرين متجعّدًا في خُليقاتٍ طبيعيّة ناعمة، وحتى الشّعر على جبل زهرتها ناعم مجعّد. «ابقَ معي اللّيلة أيها الفارس. ما زالَت عندي أشياء كثيرة أعلّمك إياها».

- «تعلّمتُ منكِ الكثير بالفعل».

- «بدوت مسرورًا كفايةً بالدّروس في حينها أيها الفارس. أأنت واثق بأنك لست ذاهبًا إلى فِراشِ آخَر وامرأةٍ أخرى؟ قُل لي مَن هي. سأقاتلها من أجلك بصدرٍ عارٍ سكّين في مواجَهة سكّين»، وابتسمَت مردفةً: «ما لم تكن من أفاعي الرّمال. إذا كانت كذلك فيُمكننا أن نتقاسَمك. إنني أحبّ بنات عمّي كثيرًا».

- «تعلمين أن لا امرأة أخرى لي. هناك فقط... الواجب».

استندَت على مِرفقها لترفع بصرها إليه فتبزق عيناها السّوداوان الواسعتان في ضوء الشّمعتين، وقالت: «تلك الحقيرة المجدورة؟ إنني أعرفها؛ جافّة كالتّراب بين السّاقين وتُريق قُبلاتها دماءك. دَع الواجب ينام وحده هذه المرّة وابقَ معي اللّيلة».

- «مكاني في القصر».

تنهّدت معقّبةً: «مع أميرتك. ستثير غيرتي. أظنُّ أنك تحبّها أكثر مما تحبّني. الفتاة صغيرة للغاية عليك. إنك في حاجةٍ إلى امرأة لا فتاة صغيرة، لكن أستطيعُ أن ألعب دور البريئة إذا كان هذا يُثيرك».

- «لا يَجدُر بكِ أن تقولي تلك الأشياء». *تذكّر أنها دورنيّة*. في (المرعى) يقولون إن الطّعام هو ما يجعل الدورنيّين حارّي المزاج ونساءهم ضارياتٍ خليعات. *الفلفل الحرّيف والبهارات الغريبة تُحمي الدّماء. لا تستطيع أن تمنع نفسها*. «إنني أحبّ مارسلا كأنها ابنتي». لا يُمكنه أن يُنجِب ابنةً أو يتّخذ لنفسه زوجةً، وبدلًا من هذا عنده معطف أبيض ناصع. «نحن ذاهبون إلى (الحدائق المائيّة)».

- «في النّهاية، مع أن كلّ شيءٍ يستغرق أربعة أضعاف الوقت المفترَض مع أبي. إذا قال إنه ينوي أن يُغادِر غدًا فالأكيد أنكم لن تتحرّكوا قبل أسبوعين كاملين. ستَشعُر بالوحدة في (الحدائق)، أؤكّدُ لك. وأين الفارس الباسل الشّاب الذي قال إنه يتمنّى أن يقضي بقيّة حياته بين ذراعَي».

- «كنتُ ثملًا عندما قلتُ هذا».

- «لم تشرب إلّا ثلاثة أكواب من النّبيذ المخفّف بالماء».

- «كنتُ ثملًا بكِ. لقد مرّت عشرة أعوام منذ... إنني لم ألمس امرأةً قبلكِ منذ ارتديتُ المعطف الأبيض. لم أعرف قطّ معنى الحُب، لكني الآن... خائف».

- «وما الذي يُخيف فارسي الأبيض؟».

- «أخافُ على شَرفي وشَرفكِ».

قالت: «يُمكنني أن أعتني بشَرفي»، ومسّت ثديها بإصبعها مدوِّرةً إياه ببُطءٍ حول حلمتها، وأضافَت: «وأن أعتني بلذّتي أيضًا إذا لزمَ الأمر. إنني امرأة بالغة».

هي كذلك دون شك. رؤيتها هكذا على الفِراش المحشوّ بالرِّيش، تبتسم تلك الابتسامة الخبيثة وتعبث بثديها... أهناك امرأة في العالم لها هاتان الحلمتان الكبيرتان وسُرعة استجابتهما؟ بالكاد يستطيع النَّظر إليهما دون أن يرغب في الإمساك بهما وأخذهما في فمه إلى أن تنتصبا وتبتلّا وتلتمعا...

أشاحَ بنظره. كانت ثيابه الدّاخليّة ملقاةً على الأرض، وانحنى الفارس يلتقطها.

قالت: «يداك ترتعشان. أظنُّ أنهما تُحبّذان التّمليس عليّ. أينبغي أن تستعجل ارتداء ثيابك هكذا أيها الفارس؟ إنني أفضّلك كما أنت. في الفِراش دون ملابس نكون في أصدق حالاتنا، رجلًا وامرأةً، حبيبين، جسدًا واحدًا، أقرب ما يُمكن لاثنين أن يكونا. أوثرُ أن أكون لحمًا ودمًا على الحرير والجواهر، وأنت... أنت لست معطفك الأبيض أيها الفارس».

قال السير آريس: «لكني كذلك، أنا معطفي، وما بيننا لا بُدّ أن ينتهي، لأجل صالحكِ علاوةً على صالحي. إذا افتضحَ أمرنا...».

- «سيعدُّك النّاس محظوظًا».

- «سيعدُّني النّاس ناقضًا للعهد. ماذا لو ذهبَ أحدهم إلى أبوكِ وحكى له كيف لوّثت شَرفكِ؟».

- «لأبي خصال سيّئة كثيرة، لكن أحدًا لم يقل قَطُّ إنه أحمق. نغل (عطيّة الآلهة) فَضَّ بكارتي حين كان كلانا في الرّابعة عشرة. هل تعلم ما فعلَه أبي عندما سمعَ؟»، وضمّت الأغطية في قبضتها وسحبَتها تحت ذقنها لتُواري عُريها، وتابعَت: «لا شيء. أبي بارع للغاية في فِعل اللا شيء، ويُسمِّي هذا تفكيرًا. اصدِقني القول أيها الفارس، هل يُقلِقك تلويث شَرفي حقًّا أم شَرفك أنت؟».

رَدَّ وقد آلمَه اتِّهامها: «كلاهما، ولذا يجب أن تكون هذه مرّتنا الأخيرة».

- «هذا ما قلته من قبل».

قلته وعنيته أيضًا، لكني ضعيف، وإلّا لما كنتُ هنا الآن. لا يُمكنه أن يُخبِرها بهذا لأنها من النّساء اللائي يحتقرن الضّعف كما يُؤكِّد له إحساسه. *فيها من عمِّها أكثر من أبيها*. التفتَ عنها ووجدَ سُترته الحرير المخطّطة تحت كُرسي، السُّترة التي مزّقتها حتى الشَّرّة عندما أنزلَتها على ذراعيه. قال متذمّرًا: «إنها تالفة. كيف أرتديها الآن؟».

- «بالعكس. لن يرى أحد المزق بمجرّد أن ترتدي معطفك. ربما ترتقها لك أميرتك الصّغيرة، أم أن عليّ أن أرسل واحدةً جديدةً إلى (الحدائق المائيّة)؟».

- «لا تُرسلي لي أيّ هدايا». لن يتسبّب ذلك إلّا في لفت الانتباه. نفضَ الشترة وارتداها بالعكس، وشعرَ بحريرها باردًا على جلده، وإن التصقَت بظَهره حيث خدشَته، لكنها ستكفي لإعادته إلى القصر على الأقل. «لا أريدُ إلّا أن أنهي هذه الـ... الـ...».

- «أهذه شهامة أيها الفارس؟ إنك تُؤلِمني، وبدأتُ أظنُّ أن كلَّ كلامك عن الحُبِّ كان كذبًا».

ليس بمقدوري أن أكذب عليكِ أبدًا. قال السير آريس شاعرًا كأنها صفعَته: «إن لم يكن من أجل الحُبِّ فلِمَ تخلّيتُ عن شَرفي برُمّته؟ حين أكونُ معكِ... أكادُ لا أقوى على التّفكير. إنكِ كلُّ ما حلمتُ به في حياتي، ولكن...».

- «الكلام هواء. إذا كنت تحبُّني فلا تَترُكني».

- «لقد أقسمتُ...».

- «ألّا تتزوّج أو تُنجِب أطفالًا. طيّب، لقد شربتُ شاي القمر، وأنت تعلم أنني لا أستطيعُ أن أتزوّجك»، وابتسمَت مردفةً: «وإن كان يُمكنني أن أقتنع بأن أحتفظ بك خليلًا لي».

- «الآن تسخرين مني».

- «قليلًا ربما. أتحسب أنك الحارس الملكي الوحيد الذي أحبَّ امرأةً؟».

أقرَّ مجيبًا: «لطالما وُجِدَ رجال كان أسهل عليهم أن يحلفوا الأيمان من أن يحفظوها». السير بوروس بلاونت ليس غريبًا على (شارع الحرير)، والسير پرستون جرينفيلد اعتادَ أن يزور منزل تاجر أجواخ معيَّن كلَّما غابَ صاحِبه، لكن آريس يَرفُض أن يُخزي إخوته المحلَّفين بالحديث عن تلك النَّقائص، وبدلًا من هذا قال: «السير تيرانس توين ضُبِطَ في الفِراش مع عشيقة مليكه. أقسمَ إنه حُب، لكنه كلَّفه حياته وحياتها، وجلبَ انهيار عائلته وموت أنبل فارِس عرفَه العالم».

- «نعم، وماذا عن لوكامور الشَّهواني وزوجاته الثَّلاث وأطفاله السِّتَّة عشر؟ تلك الأغنية تُضحِكني دومًا».

- «الحقيقة ليست بهذه الطَّرافة. لم يكن يُسَمَّى لوكامور الشَّهواني وهو حي، بل كان اسمه لوكامور سترونج، وحياته كلُّها كانت كذبةً. حين اكتُشِفَ خداعه خصاه إخوته المحلَّفون وأرسلَه الملك العجوز إلى (الجِدار)، وتُرِكَ أولئك الأطفال السِّتَّة عشر لدموعهم. لم يكن فارسًا حقيقيًّا، تمامًا مِثل تيرانس توين...».

أزاحَت الأغطية جانبًا وأنزلَت قدميها على الأرض قائلةً: «والفارس التِّنِّين؟ تقول إنه أنبل فارِس عرفه العالم، ومع ذلك أخذَ مليكته إلى الفِراش وحبلَت منه».

رَدَّ شاعرًا بالإهانة: «لن أصدِّق ذلك. حكاية خيانة الأمير إيمون والملكة نييرس ليست أكثر من حكاية، كذبة قالها أخوه عندما أرادَ أن يُزيح ابنه الشّرعي محاباةً لنغله. إجون لم يُلَقَّب بغير الجدير بلا داعٍ»، ووجدَ حزام سيفه وربطَه حول خصره، ورغم أنه يبدو غريب المنظر وهو يُحيط بالسُّترة الدورنيّة الحرير فقد ذكَّره ثقل السّيف الطّويل والخنجر المألوف بهويَّته، فأعلنَ: «لن أجعل النّاس يتذكَّرونني باعتباري السير آريس غير الجدير، لن ألوِّث معطفي».

- «نعم، ذلك المعطف الأبيض الأنيق. إنك تنسى أن عمّي الكبير ارتدى معطفًا مماثلًا. لقد ماتَ وأنا صغيرة، لكنّي أذكره. كان طويلًا كالبُرج، واعتادَ أن يُدَغدِغني حتى تنقطع أنفاسي من الضّحك».

- «لم أتشرَّف بمعرفة الأمير ليوين، لكن الجميع متّفقون على أنه كان فارسًا عظيمًا».

- «فارسًا عظيمًا له خليلة. إنها عجوز الآن، لكن النّاس يقولون إنها كانت ذات جَمالٍ نادر في شبابها».

الأمير ليوين؟ تلك الحكاية لم يسمعها السير آريس، وقد صدمَته حقًّا. خيانة تيرانس توين وخداع لوكامور الشّهواني مدوَّنان في (الكتاب الأبيض)، لكن ليست هناك إشارة على الإطلاق لامرأةٍ في صفحة ليوين مارتل.

واصلَت: «اعتادَ عمِّي أن يُرَدِّد دومًا أن السَّيف في يد الرَّجل هو ما يُحَدِّد قيمته، وليس الذي بين ساقيه، فأعفني من كلامك الورِع هذا عن المعاطف الملوَّثة. حبُّنا ليس ما لوَّث شَرفك، بل الوحوش الذين خدمتهم والحيوانات الذين دعوتهم بإخوتك».

طعنَته كلماتها على مقربةٍ شديدة من الجرح، فقال: «روبرت لم يكن وحشًا».

- «لقد ارتقى عرشه على جُثث الأطفال، وإن كنتُ أعترفُ بأنه لم يكن كچوفري».

چوفري. كان فتى وسيمًا، طويلًا وقويًا بالنِّسبة إلى سِنِّه، إلَّا أن هذا كلُّ ما يُمكن أن يُقال عنه من خير. ما زالَ يُخجِل السير آريس أن يتذكَّر المرَّات التي ضربَ فيها ابنة ستارك المسكينة بأمر الصَّبي، وحين اختارَه تيريون للذَّهاب مع مارسلا إلى (دورن) أشعلَ شمعةً لـ(المُحارب) شكرًا. «چوفري ماتَ، العفريت سمَّمه». لم يكن يخال القزم قادرًا على جريمةٍ منكرة كهذه قطُّ. «تومن الملك الآن، وتومن ليس كأخيه».

- «وليس كأخته».

ما تقوله صحيح. تومن رجل صغير طيّب القلب يبذل أقصى جهده دائمًا، لكن آخِر مرّةٍ رآه السير آريس كان الصّبي يبكي على رصيف الميناء، في حين لم تذرف مارسلا ولو دمعةً، مع أنها هي التي كانت مغادرةً بيتها وأهلها لتُبرِم حِلفًا بعُذريّتها. الحقيقة أن الأميرة أشجع من أخيها، وأذكى وأكثر ثقةً بنفسها كذلك، وبديهتها أسرع ومجامَلاتها أفضل تهذيبًا، وما من شيءٍ يُرهِبها أبدًا، حتى چوفري نفسه. *النّساء هن الأقوى حقًّا.* لحظتها لم يكن يُفكّر في مارسلا وحدها، بل في أمّها وأمّه أيضًا، وفي ملكة الأشواك وأفاعي الرّمال بنات الأفعوان الأحمر الحسناوات المميتات... وفي الأميرة آريان مارتل، فيها تحديدًا. قال بصوتٍ أجش: «لن أقول إنك مخطئة».

- «لن تقول؟ ولا يُمكنك أن تقول! مارسلا تَصلُح للحُكم أكثر من...».

- «الابن يسبق الابنة».

- «لماذا؟! مَن الإله الذي فرضَ هذا؟ إنني وريثة أبي، فهل عليّ أن أتخلّى عن حقوقي لأخوَي؟».

- «إنك تلوين كلامي. لم أقل إطلاقًا... (دورن) تختلِف. لم تكن لـ(الممالك السّبع) ملكة حاكمة قَطّ».

- «قسيرس الأول انتوى أن تخلفه ابنته رينيرا، هل تُنكِر هذا؟ لكن بينما يُحتضَر الملك قرّر قائد حرسه الملكي أن يكون الأمر غير هذا».

السير كريستون كول. كريستون صانع الملوك وضعَ الأخ في مواجَهة أخيه وجعلَ حَرس الملك ينقسمون على أنفسهم، لتنشب الحرب الرّهيبة التي يُسَمِّيها المغنّون رقصة التّنانين. بعضهم يَزعُم أنه تصرَّف بدافع الطُّموح، لأن الأمير إجون كان أسهل انقيادًا من أخته الاكبر العنيدة، في حين يتذرّع له غيرهم بدوافع أكثر نُبلًا، ويُحاوِلون أن يُبَرهِنوا على أنه كان يُدافع عن التّقاليد الأنداليّة القديمة، وثمّة قلائل يقولون همسًا إن السير كريستون كان عشيق الأميرة رينيرا قبل أن يرتدي المعطف الأبيض وأرادَ أن ينتقم من المرأة التي نبذَته. قال السير آريس: «صانع الملوك جلبَ أذًى شنيعًا على البلاد ودفعَ الثّمن غاليًا، ولكن...».

- «ولكن ربما أرسلَتك الآلهة السّبعة إلى هنا كي يعدل فارس أبيض ما ميّله فارس أبيض آخر. إنك تعلم أن أبي ينوي أن يأخذ مارسلا معه حينما يعود إلى (الحدائق المائيّة)، أليس كذلك؟».

- «ليحميها ممّن يُريدون إيذاءها».

قالت: «لا، بل ليُبعِدها عمّن يُريدون تتويجها. كان الأمير أوبرين الأفعوان ليضع التّاج على رأسها بنفسه لو عاش، لكن أبي يفتقر إلى الشّجاعة»، ونهضَت متابعةً: «تقول إنك تحبُّ الفتاة كما لو أنك تحبُّ ابنةً من دمك، فهل تسمح بأن تُسلَب ابنتك حقوقها وتُسجَن؟».

ردَّ محتجًا بضَعف: «(الحدائق المائيّة) ليست سجنًا».

- «لأن لا سجن فيه نوافير وأشجار تين، أهذا ما تعتقده؟ لكن بمجرَّد أن تصل الفتاة فلن يُسمَح لها أو لك بالمغادَرة. هوتا سيحرص على ذلك. أنت لا تعرفه مِثلي. إنه رهيب عندما يُستثار».

عقدَ السير آريس حاجبيه. لطالما أشعرَه القائد النورڤوشي الضَّخم بوجهه النَّديب بانزعاجٍ بالغ. يقولون *إنه ينام وتلك الفأس إلى جواره.* «ماذا تُريدينني أن أفعل؟».

- «ليس أكثر مما أقسمت عليه. احمِ مارسلا بحياتك، دافِع عنها... وعن حقوقها. ضَع التّاج على رأسها».

- «لقد حلفتُ يمينًا!».

- «لچوفري لا لتومن».

- «نعم، لكن تومن صبيٌ طيّب القلب. سيكون ملكًا أفضل من چوفري».

- «ولكن ليس أفضل من مارسلا. إنها تحبُّ الصّبي أيضًا، وأعلمُ أنها لن تسمح بأن يحلّ به أذى. (ستورمز إند) له شرعًا بما أن اللورد رنلي لم يَترُك وريثًا واللورد ستانيس خرِمَ من أملاكه، وبَعد فترةٍ ستنتقل (كاسترلي روك) إليه أيضًا من خلال أمِّه. سيكون من أعظم اللوردات في البلاد... لكن الواجب أن تجلس مارسلا على العرش الحديدي».

- «القانون... لا أدري...».

قالت: «أنا أدري»، ووقفَت أمامه لتَسقُط خُصلات شَعرها السّوداء الطّويلة حتى أسفل ظَهرها، وواصلَت: «إجون التنّين أنشأ الحَرس الملكي وأيمانه، لكن ما فعلَه ملك يستطيع آخَر أن يعكسه، أو يُغيّره. في السّابق كان رجال الحَرس الملكي يخدمون مدى الحياة، لكن چوفري صرف السير باريستان ليُوَفّر معطفًا لكلبه. ستُريدك مارسلا أن تكون سعيدًا، كما أنها مولعة بي أيضًا، وستُعطينا الإذن في الزّواج إذا طلبنا»، ووضعَت آريان ذراعيها حوله وأراحَت وجهها على صدره فبلغَ رأسها أسفل ذقنه، وأضافَت: «يُمكنك أن تحظى بي وبمعطفك الأبيض في آنٍ واحد إن كان هذا ما تُريده».

إنها تُمزّقني إربًا. «تعرفين أنني أريده، لكن...».

قالت بصوتها المبحوح: «أنا أميرة دورنيّة، ولا يليق أن تجعلني أتوسّلُ».

اشتمّ السير آريس العطر في شَعرها وشعرَ بنبضات قلبها وهي تضغط جسدها إلى جسده الذي بدأ يستجيب لقُربها منه، ولا شَكّ لديه أنها تَشعُر باستجابته أيضًا. حين وضعَ ذراعيه على كتفيها أدركَ أنها ترتجف، فسألَها: «آريان، أميرتي، ما الخطب يا حبيبتي؟».

- «أيجب أن أقولها أيها الفارس؟ إنني خائفة. تقول إنني حبيبتك، ومع ذلك ترفُضني وأنا في أمسّ حاجتي إليك. أهي جريمة أن أرغب في فارسٍ يحميني؟».

لم يسمعها تتكلّم بهذه الهشاشة من قبل قَطّ، فقال: «لا، لكن عندكِ حَرس أبيكِ يحمونك، فلِمَ...».

للحظةٍ بدَت نبرتها أصغر من نبرة مارسلا وهي تقول: «خَرس أبي هُم من أخشاهم، خَرس أبي هُم من جرّؤوا بنات عمّي مكبّلات بالسّلاسل».

- «لم يكن مكبّلات. سمعتُ أن كلّ سُبل الرّاحة متاحة لهن».

أطلقَت ضحكةً مريرةً، وسألَته: «هل رأيتهن؟ أتعلم أنه منعَني من رؤيتهن؟».

- «كن يتكلّمن عن الخيانة، يُحرّضن على الحرب...».

- «لوريزا في السّادسة ودوريا في الثّامنة، فما الحروب التي حرّضتا عليها؟ ورغم ذلك سجنَهما أبي مع أخواتهما. أنت رأيته. الخوف يجعل الأقوياء يفعلون أشياء ما كانوا ليفعلوها في ظروفٍ أخرى، وأبي لم يكن قويًا قطّ. آريس يا قلبي، اسمعني لأجل الحُبّ الذي تقول إنك تكنّه لي. إنني لم أكن مقدامةً كبنات عمّي قطّ لأنني نبتة بذرةٍ أضعف، لكن تايين وأنا قريبتان في السّن ومنذ طفولتنا ونحن كأختين. ليست هناك أسرار بيننا. إذا كان يُمكن أن تُسجَن هي فالمِثل ينطبق عليّ للسّبب ذاته... مارسلا».

- «لا يُمكن لأبوكِ أن يفعل ذلك أبدًا».

- «أنت لا تعرف أبي. إنني أخيّبُ أمله منذ خرجتُ إلى هذا العالم دون قضيب. عدّة مرّاتٍ حاولَ تزويجي بمسنّين سقطَت أسنانهم، كلٌّ منهم أوضع من سابِقه. صحيحٌ أنه لم يأمرني بالزّواج بأيّهم، لكن العروض وحدها تُثبِت كم يبخس قدري».

- «ومع ذلك أنتِ وريثته».

- «أأنا وريثته حقًّا؟».

- «لقد تركَكِ تَحكُمين في (صنسپين) لمَّا أخذَ نفسه إلى (الحدائق المائيَّة)، أليس كذلك؟».

- «أحكمُ؟ لا، بل تركَ السير مانفري ابن عمِّه أميئًا للقلعة، وريكاسو العجوز الأعمى قهرمانًا، ووُكلاء أملاكه ليجمعوا الضَّرائب والجمارك لتُحصيها خازنته آليس ليديبرايت، ومفوَّضيه ليكونوا عسس مدينة الظِّل، وقُضاته ليَحكُموا في القضايا، والمِايستر مايلز ليتعامَل مع الرَّسائل التي لا تتطلَّب عناية الأمير، وفوقهم جميعًا وضعَ الأُفعوان الأحمر. تكليفي أنا كان المآدب والحفلات وضيافة الزَّائرين عوالي المقام. أوبرين اعتادَ أن يزور (الحدائق المائيَّة) مرَّتين كلَّ أسبوعين، أمَّا أنا فاستدعاني أبي مرَّتين في العام. إنني لستُ الوريث الذي أرادَه أبي، وقد جعلَ هذا واضحًا. قوانيننا تُقيِّده، لكني أعلمُ أنه يُؤثِر أن يخلفه أخي».

ردَّد السير آريس: «أخوكِ؟»، ووضعَ يده تحت ذقنها ليرفع رأسها ويَنظُر في عينيها، وقال: «لا يُعقَل أنكِ تعنين تريستان. إنه مجرَّد صبي».

أجابَته بنظرةٍ لا تطرف من عينيها الجريئتين كنور الشَّمس: «ليس تريس، بل كوينتن. إنني أعرفُ الحقيقة منذ كنتُ في الرَّابعة عشرة، منذ اليوم الذي دخلتُ فيه غُرفة أبي الشَّمسيَّة لأعطيه قُبلة المساء ولم أجده. لاحقًا سمعتُ أن أمِّي أرسلَت تُطلُبه. كان قد تركَ شمعةً مشتعلةً، وحين ذهبتُ أطفئها وجدتُ إلى جوارها رسالةً غير مكتملة، رسالةً إلى أخي كوينتن الذي كان غائبًا في (يرونوود)، وكتبَ فيها أبي لكوينتن أن عليه أن يفعل كلَّ ما يُمليه عليه المِايستر وقيِّم السِّلاح، *لأنك ذات يومٍ ستجلس حيث أجلس وتحكم (دورن) كلَّها، ويجب أن يكون الحاكم قويَّ العقل والجسد*»، وسالَت عبرة على خدِّ آريان النَّاعم، وتابعَت: «كلمات أبي المكتوبة بخطِّ يده. لقد وسمَت نفسها في ذاكرتي. ليلتها بكيتُ حتى غلبَني النَّوم، وليالِيَ كثيرةً بَعدها».

لم يلتقِ السير آريس كوينتن مارتل بعدُ. فالصَّبي ربيب اللورد يرونوود منذ نعومة أظفاره، وخدمَه كوصيفٍ ثم كمُرافق، بل وحبَّذ أن يُقلِّده الفُروسيَّة على الأفعوان الأحمر. فكَّر: *لو كنتُ أبًا لأردتُ أن يخلفني ابني أيضًا*، لكنه سمعَ الألم في صوتها ويعلم أنه سيفقدها إذا باحَ لها بما يُفكِّر فيه. هكذا قال: «ربما أسأتِ الفهم. لقد كنتِ طفلةً، وربما قال الأمير هذا ليُشجِّع أخاكِ على الاجتهاد أكثر فحسب».

- «أتظنُّ هذا؟ أخبِرني إذن، أين كوينتن الآن؟».

أجابَ السير آريس بحذر: «الأمير مع جيش اللورد يرونوود في (طريق العظام)». هذا ما أخبرَه به أمين قلعة (صنسپيين) الشّيخ لدى وصوله إلى (دورن)، والمِايستر ذو اللّحية الملساء قال الكلام نفسه.

على أن آريان خالفَته قائلةً: «هذا ما يُريد أبي أن نعتقده، لكن لي أصدقاء يُخبِرونني بأشياء مختلفة. أخي عبرَ (البحر الضيّق) في السّرّ متنكّرًا في هيئة تاجر تقليدي، فلِمَ؟».

- «وما أدراني؟ قد يكون هناك مئة سبب».

- «أو سبب واحد. هل تُدرِك أن الجماعة الذّهبيّة فسخَت عقدها مع (مير)؟».

- «المرتزِقة يفسخون العقود طوال الوقت».

- «ليس الجماعة الذّهبيّة. *كلمتنا* من ذهب. هكذا يتباهون منذ أيام الفولاذ الأليم. (مير) على شفا الحرب مع (لِيس) و(تايروش)، فلِمَ يفسخون عقدًا يعدهم بالأجر الوافر والغنائم الجزيلة؟».

- «ربما عرضَت عليهم (لِيس) أو (تايروش) أجرًا أكبر».

قالت: «لا. أصدِّقُ أن تفعل هذا أيُّ جماعةٍ خُزَّة أخرى، فمعظمها يُبدِّل ولاءه ولو مقابل نِصف جروت إضافي، لكن الجماعة الذَّهبيَّة مختلفة. إنها أخوَّة من المنفيِّين وأبناء المنفيِّين يُوَحِّدها حُلم الفولاذ الأليم، يُريدون الوطن بقدر ما يُريدون الذَّهب، واللورد يرونوود يعلم هذا مِثلي تمامًا. لقد ركبَ أسلافه مع الفولاذ الأليم في ثلاثٍ من ثورات بلاكفاير»، وأمسكَت يد السير آريس وشبَّكت أصابعها في أصابعه مردفةً: «هل رأيت رمز آل تولاند أولاد (تَل الأشباح)؟».

فكَّر لحظةً، ثم قال: «تنِّين يلتهم ذيله؟».

- «التنِّين هو الزَّمن، بلا بدايةٍ أو نهاية، وهكذا تتكرَّر الحوادث كلُّها. آندرز يرونوود هو كريستون كول وقد وُلِدَ ثانيةً. إنه يهمس في أذن أخي قائلًا إن الأجدر به هو أن يخلف أبي في الحُكم، إنه ليس من الصَّواب أن يركع الرِّجال للنِّساء... إن آريان على وجه الخصوص لا تصلُح حاكمةً لكونها عنيدةً لعوبًا»، وألقَت آريان شَعرها إلى الوراء بتحدٍّ مضيفةً: «إذن فأميرتاك مشتركتان في قضيَّةٍ واحدة أيها الفارس... ومشتركتان أيضًا في فارسٍ يَزعُم أنه يحبُّهما لكنه يأبى القتال في سبيلهما».

هوى السير آريس على رُكبته قائلًا: «سأقاتلُ. مارسلا الأكبر والأصلح للتّاج. مَن سيُدافِع عن حقوقها إن لم يكن حارسها الملكي؟ سيفي وحياتي وشرفي لها... ولكِ يا بهجة القلب. أقسمُ أن لا رجل سيسرق حقَّكِ بالميلاد ما دمت أملك قوّة تكفي لأن أرفع سيفي. أنا لكِ، فماذا تسألينني؟».

انحنَت تُقبِّل شفتيه، وقالت: «كلّ شيء، كلّ شيءٍ يا حبيبي، يا حبيبي الوحيد، يا حبيبي الجميل، وإلى الأبد. لكن أولًا...».

- «سَلي وهو لكِ».

- «... مارسلا».

الشور الحجري قديم متداعٍ، لكن منظره عبر الحقل جعلَ الشُّعيرات على مؤخَّرة عُنقها تنتصب.

هنا اختبأ الرُّماة وقتلوا المسكين كليوس فراي... لكنها بَعد نِصف ميل مرَّت بسورٍ آخر يُشبه الأول إلى حَدٍّ كبير، فلم تَعُد متأكِّدةً. الطَّريق المحفَّر ينعطِف ويلتوي، والأشجار البُنِّيَّة الجرداء تبدو مختلفةً عن الخضراء التي تَذكُرها. هل تجاوزَت البُقعة التي انتزعَ فيها السير چايمي سيف ابن عمِّته من غِمده؟ أين الغابة التي تقاتَلا فيها؟ والغدير الذي خاضا في مياهه وتقارعَ سيفاهما إلى أن لفتا انتباه رجال رِفقة الشُّجعان إليهما؟

- «سيِّدتي، أيتها الفارس»، قال پودريك الذي يبدو أنه لا يعرف أبدًا بِمَ يدعوها. «عَمَّ تبحثين؟».

الأشباح. «سور مررتُ به مرَّةً، ليس شيئًا ذا بال». *آنذاك كان السير چايمي لا يزال يملك كلتا يديه. لكم احتقرته باستهزائه وابتساماته.* «الزم الهدوء يا پودريك. ربما ما زالَ هناك خارجون عن القانون في هذه الغابة».

تطلَّع الصَّبي إلى الأشجار البُنِّيَّة العارية والأوراق المبتلَّة والطَّريق الموحل أمامهما، وقال: «معي سيف طويل. أستطيعُ أن أقاتل».

ليس ببراعةٍ كافية. لا تشكُّ بريان في شَجاعة الصَّبي، وإنما في تدريبه فحسب، فربما يكون مُرافقًا -اسمًا على الأقل- لكن الرِّجال الذين رافقهم عادوا عليه بالضُّرر حقًّا.

استخلصَت بِريان قصّة الضّبي منه على فتراتٍ متقطّعة وهما في الطّريق من (وادي الغسق). إنه ينتمي إلى فرعٍ أدنى من عائلة پاين، ذُرّيّة فقيرة يعود أصلها إلى أحد أبناء العائلة الأصغر، وقد أمضى أبوه حياته مُرافقًا لأبناء عمومته الأغنى، وأنجبَ پودريك من ابنة صانع شموعٍ تزوّجها قبل أن يرحل ليموت في تمرُّد جرايچوي، وبَعدها تخلّت عنه أمُّه لأحد أبناء العمومة هؤلاء وهو في الرّابعة من العُمر، لتلاحِق مطربًا متجوّلًا وضعَ طفلًا آخَر في بطنها. لا يَذكُر پودريك شكلها. أقرب ما عرفَ في حياته إلى أبٍ أو أمٍّ كان السير سدريك پاين، وإن بدا لبِريان من روايته المتلعثمة أن الرّجل كان يُعامِل پودريك كخادمٍ أكثر من ابن. حين استدعَت (كاسترلي روك) راياتها أخذه الفارس معه ليعتني بحصانه ويُنَظِّف دِرعه، ثم قُتِلَ السير سدريك في أراضي النّهر بينما يُحارِب في جيش اللورد تايوين.

بعيدًا عن الدِّيار ووحيدًا ومفلسًا، ألحقَ الصَّبي نفسه بخدمة فارسٍ متجوِّل بدين اسمه السير لوريمر الكِرش، كان جزءًا من فِرقة اللورد ليفورد المكلَّفة بحماية قافلة المؤن، وقد أحبَّ السير لوريمر أن يَزدّد أن الصَّبية الذين يَحرُسون الأطعمة يأكلون أفضل من غيرهم دومًا، إلى أن ضبطوه ومعه فخذ خنزير مملَّحة سرقَها من مخازن اللورد تايوين الخاصّة، فاختارَ تايوين لانستر أن يشنقه كدرسٍ للُّصوص الآخرين. كان پودريك قد شاركَه اللَّحم ولربما شاركَه المشنقة كذلك، لكن اسمه أنقذَه وتولَّى السير كيڤان لانستر مسؤوليَّته، وبَعد فترةٍ أرسلَه يعمل مُرافقًا لتيريون ابن أخيه.

السير سدريك علَّم پودريك أن يسوس الخيول ويتفقَّد حدواتها بحثًا عن الحجارة، والسير لوريمر علَّمه السَّرقة، لكن كليهما لم يُدَرِّبه على المبارَزة إلَّا قليلًا، أمَّا العِفريت فعلى الأقل أرسلَه إلى قيِّم سلاح (القلعة الحمراء) حين ذهبا إلى البلاط، إلَّا أن السير أرون سانتاجار كان بين القتلى خلال فِتنة الخُبز، وبهذا كانت نهاية تدريب پودريك.

قطّعت بِريان سيفين خشبيّين من الغصون السّاقطة كي تُقيّم مهارات پودريك، وسرّها أن تُدرِك أن الصّبي سريع اليد على الرغم من بُطء كلامه، لكنه على الرغم من إقدامه وانتباهه ما زالَ ناحلًا ناقص التّغذية، وليس قويًا كفايةً على الإطلاق. إذا كان قد نجا حقًّا من معركة (النّهر الأسود) كما يدّعي، فالسّبب الوحيد أن أحدًا لم يحسب أن لقتله قيمةً. قالت له: «ربما تدعو نفسك بالمُرافق، لكني رأيت وُصفاءَ في نِصف سِنّك يُمكنهم أن يضربوك حتى تسيل دماؤك. إذا بقيت معي ستَخلُد إلى النّوم بقروحٍ على يدك وكدماتٍ على ذراعك كلَّ ليلةٍ تقريبًا، وسيكون الألم في جسدك المتخشّب بالغًا حتى إنك بالكاد ستنام. لست تُريد ذلك».

رَدّ الصّبي بإصرار: «بل أريده، أريدُ ذلك، الكدمات والقروح. أعني أني لا أريدها، لكني أريدها أيتها الفارس، يا سيّدتي».

حتى الآن والصّبي موفٍ بكلمته، وكذا بِريان. لم يشتكِ پودريك البتّة، وكلّما ظهرَ قرح جديد على يد سيفه أحسّ بالحاجة إلى أن يُريها إياه بفخر، ثم إنه يُحسِن العناية بحصانيهما أيضًا. قالت لنفسها مذكّرةً: *إنه ليس مُرافقًا رغم ذلك، كما أني لست فارسًا مهما ناداني بـ«أيتها الفارس»*. كانت لتصرفه لولا أن لا مكان يذهب إليه، وبالإضافة إلى هذا، ومع أن پودريك قال إنه يجهل أين ذهبَت سانزا ستارك، فربما يعلم أكثر مما يظنُّ، وربما يَكمُن مفتاح مهمّة بِريان في ملاحظةٍ عابرة شِبه منسيّة.

قال پودريك مشيرًا: «أيتها الفارس، سيِّدتي، هناك عربة أمامنا».

رأتها بِريان، عربة خشبيّة يجرُّها عادةً ثور، لها عجلتان وجوانب مرتفعة، لكن بدلًا من الثّور يكدح رجل وامرأة على مِقوديها ويسحبانها وسط الخفر في اتّجاه (بِركة العذارى). *مُزارعان كما يدلُّ منظرهما*. قالت للصّبي: «تحرّك ببُطء. قد يحسبانا من الخارجين عن القانون. تفوّه بما هو ضروري فقط وتكلّم بدماثة».

- «سأفعلُ أيها الفارس، سأكون دمثًا يا سيِّدتي».

يبدو الصّبي أقرب إلى الشرور بفكرة أن يحسبه أحدهم خارجًا عن القانون.

راقبهما المزارعان بحذرٍ وهما يَخُبّان بحصانيهما مقتربين، لكن بمجرّد أن أوضحت بِريان أنهما لا ينويان إيذاءهما تركاها تركب إلى جوارهما، وبينما يشقّون طريقهم وسط الحقول المختنقة بالحشائش وبحيرات الطّمي اللّين والأشجار المحروقة المسودّة قال لها الرّجل العجوز بوجهٍ محتقن من مجهود جَرّ العربة: «كان لدينا ثور لكن الذّئاب سرقوه، وخطفوا ابنتنا أيضًا وفعلوا بها ما فعلوه، لكنها عادَت بَعد المعركة في (وادي الغسق)، أمّا الثّور فلم يَعُد. أعتقد أن الذّئاب أكلوه».

لم تُضِف المرأة شيئًا إلى كلامه. إنها تصغره بنحو عشرين عامًا، ومع أنها لم تقل شيئًا لبِريان فقد تطلّعت إليها بالطّريقة نفسها التي كانت لتحدج بها عجلًا برأسين. رأت عذراء (تارث) نظراتٍ مشابهةً من قبل، ولئن عاملَتها الليدي ستارك بعطفٍ فإن معظم النّساء يتّسمن بالقسوة نفسها كالرّجال. لا تدري مَن تؤلِمها نظراتهن أكثر؛ الفتيات الحسناوات بألسنتهن اللّاذعة كالدّبابير وضحكاتهن الجافّة، أم الليديهات ذوات الأعيُن الباردة اللاتي يُوارين ازدراءهن تحت قناعٍ من الكياسة... ونسوة العوام أسوأ من كلا النّوعين أحيانًا. قالت: «(بِركة العذارى) كانت خرابًا عندما رأيتها آخِر مرّة، البوّابة محطّمة ونِصف البلدة محترق».

- «أعادوا بناءها نوعًا. تارلي هذا رجل قاسٍ، لكنه لورد أشجع من موتون. ما زالَ في الغابة خارجون عن القانون، لكن ليس بالأعداد نفسها كما من قبل. تارلي قبضَ على أسوأهم وضربَ أعناقهم بسيفه الكبير إياه»، ودوَّر الرَّجل رأسه وبصق، ثم أضاف: «ألم تريا خارجين عن القانون على الطَّريق؟».

- «إطلاقًا». *ليس هذه المرَّة*. كلَّما ابتعدا عن (وادي الغسق) خلا الطَّريق أكثر، والمسافرون الوحيدون الذين لمحاهم ذابوا في الغابة قبل أن يَبلُغاهم، باستثناء سِبتون ملتحٍ كبير الجسد قابَلاه يمشي جنوبًا مع نحو أربعين من الأتباع متقرِّحي الأقدام. الخانات التي مرَّا بها كانت منهوبةً مهجورةً أو حُوِّلَت إلى مخيَّماتٍ مسلَّحة، والبارحة قابَلا إحدى دوريَّات اللورد راندل الحافلة بحاملي النُّشَّابيَّة والرُّمح، وقد أحاطَ بهما الخيَّالة فيما استجوبَ قائدهم بِريان، لكنه تركَهما يمضيان في سبيلهما في النِّهاية، وقال لها: «عليكِ بالاحتراس يا امرأة. ربما لا يكون الرِّجال الذين تُقابِلينهم بَعدنا أُمناء كفِتيتي. لقد عبرَ كلب الصَّيد (الثَّالوث) بمئةٍ من المجرمين، ويُقال إنهم يغتصبون كلَّ أنثى في طريقهم ويقطعون أثداءهن ويأخذونها غنائم».

أحسّت بِريان أن واجبها أن تنقل التّحذير إلى المُزارع وزوجته، وأومأ الرّجل برأسه بينما أخبرَته، لكن حين فرغَت بصق ثانيةً، وقال: «الكلاب والذّئاب والأسود، فليأخذهم (الآخَرون) جميعًا. لن يجرؤ هؤلاء المجرمون على الاقتراب من (بِركة العذارى) ما دامَ اللورد تارلي الحاكم هناك».

تعرف بِريان اللورد راندل تارلي منذ الفترة التي قضَتها في جيش رنلي، ومع أنها لا تستطيع أن تجد في نفسها القُدرة على أن تحبّ الرّجل، فلا يُمكنها أن تنسى الدّين الذي عليها له أيضًا. *إذا شاءت الآلهة سنمرُّ من (بِركة العذارى) قبل أن يعرف أني هناك.* قالت للمُزارع: «البلدة ستُرَدُّ إلى اللورد موتون حالما ينتهي القتال. حضرة اللورد تلقّى عفوًا من الملك».

رَدّ الرّجل ضاحكًا: «عفوًا؟ عَمّ؟ جلوسه على مؤخّرته في قلعته اللّعينة؟ لقد أرسلَ رجالًا إلى (ريفَرن) للقتال لكنه لم يذهب بنفسه. الذّئاب نهبوا البلدة، ثم الأسود، ثم المرتزِقة، وظلّ حضرة اللورد وراء أسواره في أمان. ما كان أخوه ليختبئ هكذا إطلاقًا. السير مايلز كان شديد الجرأة إلى أن قتلَه روبرت هذا».

مزيد من الأشباح. «إنني أبحث عن أختي، بنت جميلة في الثالثة عشرة. ربما رأيتها».

- «لم أرَ بناتًا جميلات أو قبيحات».

لا أحد رآها. لكن عليها أن تُواصِل السُّؤال.

تابعَ الرّجل: «فتاة موتون بنت، حتى الإضجاع على الأقل. هذا البيض لزفافها إلى ابن تارلي. سيحتاج الطّهاة إلى بيضٍ للكعك».

- «صحيح». *ابن اللورد تارلي، ديكون الصّغير* سيتزوّج. حاولَت أن تتذكّر سِنّه، وتظنُّ أنه في الثّامنة أو العاشرة. في السّابعة خُطِبَت بِريان إلى صبيٍّ يكبرها بثلاث سنوات، ابن اللورد كارون الأصغر، وكان صبيًا خجولًا له شامة فوق شفته. مرّةً وحيدةً التقيا، وتلك المرّة كانت بمناسبة خطبتهما، وبَعد عامين ماتَ بنوبة البرد نفسها التي أتَت على اللورد والليدي كارون وبناتهما. لو عاشَ لتزوّجا في غضون عامٍ من إزهارها، ولاختلفَت حياتها كلّيّةً. ما كانت لتُصبِح هنا الآن، ترتدي دروع الرّجال وتحمل سيفًا وتُلاحِق طفلة امرأةٍ ميتة، وإنما لكانت غالبًا في (التّغريدة)، تلفُّ طفلتها هي بالقِماط وتُرضِع طفلًا آخر. ليست هذه بالفكرة الجديدة على بِريان، ودائمًا ما تُشعِرها بشيءٍ من الحُزن، لكنها تبثُّ فيها شيئًا من الرّاحة أيضًا.

كانت الشّمس شِبه مختبئةٍ خلف مجموعةٍ من الشحب حين خرجوا من بين الأشجار المتفحّمة ليُبصِروا (بِركة العذارى) أمامهم، وقد لاحت مياه الخليج العميقة وراءها. رأت بِريان على الفور أن بوّابة البلدة قد بُنِيَت من جديد، وعاد زُماة النُّشابيّة يمشون فوق الأسوار الحجر الورديّة. فوق مبنى البوّابة تُرَفرِف راية تومن الملكيّة، الوعل الأسود والأسد الذّهبي المتواجهان على خلفيّةٍ مقسومة إلى ذهبي وقرمزي، وعلى راياتٍ أخرى يظهر صيّاد تارلي، بينما لا ترتفع راية عائلة موتون ذات سمكة السلمون الحمراء إلّا على قلعته فوق تلّها.

عند الشّبكة الحديديّة وجدوا دستةً من الحَرس المسلّحين بالمطارد[45]، تشي شاراتهم بأنهم جنود في جيش اللورد تارلي، وإن لم يكن أحد منهم من رجاله. رأت قنطورين وصاعقة برقٍ وخنفسةً زرقاء وسهمًا أخضر، ولكن ليس صيّاد (هورن هيل) طويل القدمين. على صدر رقيبهم طاووس بهت ذيله الزّاهي من الغرضة الشّمس، ولمّا أوقف المُزارعان عربتهما أطلق صفيرًا، وقال: «ما هذا؟ بيض؟»، والتقط واحدةً وألقاها في الهواء وتلقّفها، وأضافَ بابتسامةٍ عريضة: «سنأخذه».

صاح العجوز بحدّة: «بيضنا للورد موتون، لكعك الزّفاف وما إلى ذلك».

قال الرّقيب: «اجعل دجاجاتك تبيض المزيد. إنني لم آكل بيضًا منذ نِصف عام. هاك، كي لا تقل إنك لم تتلقَّ ثَمنًا»، وألقى حفنةً من البنسات عند قدمَي العجوز.

نطقَت الزَّوجة للمرّة الأولى قائلةً: «هذا لا يكفي، لا يكفي إطلاقًا».

رَدَّ الرّقيب: «أقولُ إنه كافٍ، مقابل البيض ومقابلكِ أيضًا. ائتوا بها يا أولاد، إنها صغيرة جدًا على هذا العجوز».

أسندَ حارسان مِطرديهما إلى الجِدار وسحبا المرأة بعيدًا عن العربة وهي تُقاوِم، وشاهدَ المُزارع بوجهٍ مربد لكنه لم يجرؤ على الحركة، أمّا بِريان فهمزَت فَرسها متقدِّمةً، وقالت: «أطلِقا سراحها».

جعلَت نبرتها الحارسين يتردّدان لحظةً تملّصت خلالها زوجة المُزارع من قبضتيهما، وقال أحد الآخرين: «ليس هذا من شأنكِ. احفظي لسانكِ يا هذه».

وبدلًا من هذا امتشقَت بِريان سيفها.

قال الرّقيب: «هكذا إذن، فولاذ مجرّد. يبدو أنني أشتمُّ رائحة خارجةٍ عن القانون. أتعرفين ما يفعله اللورد تارلي بالخارجين عن القانون؟». كان لا يزال ممسكًا بالبيضة التي أخذَها من العربة، وانطبقَت يده عليها ونَزَّ الصّفار من بين أصابعه.

قالت بِريان: «أعرفُ ما يفعله اللورد تارلي بالخارجين عن القانون، وأعرفُ ما يفعله بالمغتصِبين أيضًا».

كانت تأمل أن يُرهبهم الاسم، لكن الرَّقيب اكتفى بنفض البيض عن أصابعه وأشارَ لرجاله بالانتشار لتجد بِريان نفسها محاصرةً بالرُّؤوس الفولاذ، وقال لها: «ماذا كنتِ تقولين يا هذه؟ ماذا يفعل اللورد تارلي بالـ...».

- «... بالمغتصبين»، قال صوت أعمق متمًّا العبارة. «إنه يخصيهم أو يُرسِلهم إلى (الجِدار)، وأحيانًا هذا ثم ذاك. حضرته يقطع أصابع اللُّصوص أيضًا». خرج شاب متراخٍ من مبنى البوَّابة متمنطقًا بحزام سيف، وقد ارتدى فوق دِرعه الفولاذ معطفًا كان أبيض ذات يوم، وهنا وهناك لا يزال كذلك، لكن معظمه ملوَّث ببُقع العُشب والدِّماء الجافَّة، وعلى صدره رمز غزالٍ بنِّي ميت ومعلَّق من عودٍ خشبي.

هو. صوته بمثابة لكمةٍ في بطنها، ووجهه كنصلٍ انغرس في أحشائها. قالت بجمود: «سير هايل».

قال السير هايل هَنت محذِّرًا: «الأفضل أن تدعوها تمز يا أولاد. هذه بِريان المليحة، عذراء (تارث) التي قتلَت الملك رنلي ونِصف حَرس قوس قزح. إنها شرسة بقدر ما هي قبيحة، وليس هناك من هو أقبح منها... ربما باستثنائك أنت يا وعاء البول، لكن أباك كان يُشبِه دُبر ثورٍ بزِّي، فلك عُذر مقبول، أمَّا هي فأبوها نجم المساء سيِّد (تارث)».

ضحك الحُرَّاس، لكنهم أزاحوا مَطاردهم، وسألَ الرَّقيب: «ألا يجب أن نقبض عليها أيها الفارس؟ لقتلها رنلي؟».

- «لماذا؟ رنلي كان متمرّدًا، تمامًا كما كنا جميعًا متمرّدين عن آخِرنا، لكننا فِتية تومن الأوفياء الآن»، وأشارَ الفارس للمُزارعين بالمرور من البوّابة قائلًا لهما: «سيُسَرُّ وكيل حضرة اللورد لرؤية هذا البيض. ستجدانه في الشوق».

دَقَّ العجوز بمفاصل أصابعه على جبهته، وقال: «أشكرك يا سيِّدي. واضح تمامًا أنك فارس حقيقي. هيا يا زوجتي»، وعادَ الاثنان يدفعان بأكتافهما العربة التي مرَّت مقعقعةً من البوّابة.

دخلَت بِريان وراءهما وفي أعقابها پودريك، وفكَّرت عابسةً: *فارس حقيقي*. جذبَت عِنان الفَرس داخل البلدة، وإلى يسارها رأت أنقاض اسطبلٍ تطلُّ على زُقاقٍ موحل تقف قُبالته في شُرفة ماخور ثلاث عاهرات شِبه عاريات يتهامَسن، وتُشبه إحداهن نوعًا تابعة معسكراتٍ ذهبَت إلى بِريان في مرّةٍ لتسألها إن كان ما بين ساقيها أيرًا أم فرجًا.

قال السير هايل مشيرًا إلى حصان پودريك: «أظنُّ أن هذا أقبح حصانٍ رأيته على الإطلاق. يُدهِشني أنكِ لم تركبيه يا سيِّدتي. هل تنوين أن تُشكُريني على مساعَدتي؟».

وثبَت بِريان من فوق فَرسها لتقف أمام السير هايل الذي تفوقه طولًا برأسٍ كامل، وردَّت: «ذات يومٍ سأشكرك في التحامٍ جماعي أيها الفارس».

سألَها هايل ضاحكًا: «كما شكرتِ رونيت الأحمر؟».
ضحكته عميقة رنّانة على الرغم من وجهه الذي لا يُمَيِّزه شيء، وجه حسبتِه صادقًا يومًا قبل أن تتعلَّم الحقيقة. له شَعر بنّي أشعث وعينان بلون البُندق وندبة صغيرة عند أُذنه اليُسرى، وذقنه مشقوق وأنفه معوج، لكن ضحكاته قويّة ومتكرّرة.

- «ألا يُفترَض أن تُراقِب البوّابة؟».

قال بامتعاض: «آلن ابن عمّي خرج يُطارِد الخارجين عن القانون. لا شكّ أن سيعود برأس كلب الصّيد وقد كلّل نفسه بالزّهو والمجد. أمّا أنا فمبتلى بحراسة هذه البوّابة بسببكِ. آملُ أن تكوني مسرورةً يا جميلتي. عمَّ تبحثين؟».

- «اسطبل».
- «هناك عند البوّابة الشّرقية. هذا احترقَ».

أرى هذا. قالت: «ما قلته لهؤلاء الرّجال... كنتُ مع الملك رنلي حين ماتَ فعلًا، لكن شعوذةً ما هي التي قتلَته أيها الفارس، أقسمُ بسيفي»، ووضعَت يدها على المقبض متأهّبةً للقتال إذا نعتَها هَنت بالكذب في وجهها.

- «نعم، وفارس الزُّهور هو من فتكَ بخَرس قوس قزح. ربما كان يُمكنكِ أن تهزمي السير إمون في ظروف مواتية، فقد كان مُحاربًا متهوّرًا ويتعب بسهولة. لكن رويس؟ لا. السير روبار كان مُبارزًا أبرع منكِ مرّتين... مع أنكِ لستِ مُبارزًا، أليس كذلك؟ هل لكلمة «مُبارِزة» وجود؟ تُرى ما الذي أتى بكِ إلى (بِركة العذارى)؟».

كانَت تقول: *أبحثُ عن أختي، بنت في الثالثة عشرة،* لكن السير هايل يعلم أنها بلا أخوات، ولذا قالت: «هناك رجل أبحثُ عنه، موجود في مكان اسمه (الإوزة النَّتنة)».

قال بابتسامةٍ لا تخلو من قسوة: «حسبتُ أن بِريان المليحة لا تحتاج إلى الرِّجال. (الإوزة النَّتنة)، اسم على مسمًّى... الجزء الخاص بالنَّتانة على الأقل. الحانة عند الميناء، لكنكِ ستأتين معي أولًا لرؤية حضرة اللورد».

لا تخشى بِريان السير هايل، لكنه أحد قادة راندل تارلي، وبصفيرٍ واحد من فمه سيهرع مئة رجلٍ للدِّفاع عنه. هكذا سألَت: «هل سيُقبَض عليّ؟».

قال: «لماذا؟ لقتل رنلي؟ مَن كان رنلي؟ لقد بدّلنا الملوك منذ ذلك الحين، بعضنا مرّتين. لا أحد يعبأ، لا أحد يتذكّر»، ووضعَ يده بخفّةٍ على ذراعها مردفًا: «من هنا إذا سمحتِ».

انتزعَت ذراعها قائلةً: «لك شُكري إذا لم تلمسني».

رَدَّ بابتسامةٍ هازئة: «الشُّكر أخيرًا».

حينما رأت (بِركة العذارى) آخِر مرّةٍ كانت البلدة مقفرةً، مكانًا كئيبًا شوارعه خالية وبيوته محترقة، لكن الآن تعجُّ الشّوارع بالخنازير والأطفال، وأكثر المباني المحترقة سُوِّيَ بالأرض، لتحلّ محلّ بعضها خضراوات مزروعة ومحلّ غيرها خيام التُّجّار وسُرادقات الفُرسان. رأت بِريان منازل جديدةً تُبنى، وخانًا حجريًا يرتفع مكان السّابق الخشبي، وسطحًا جديدًا من ألواح الأردواز فوق السّبت. في هواء الخريف البارد تردّدت أصوات المطارق والمناشير، بينما حملَ الرّجال الأخشاب في الشّوارع ودفعَ عُمّال المحاجر عرباتهم في الأزقّة الموحلة، كثيرون منهم على صدورهم رمز الصّيّاد. قالت مندهشةً: «الجنود يُعيدون بناء البلدة».

- «لا شكّ أنهم يُفضّلون أن يلعبوا النّرد ويشربوا وينكحوا، لكن اللورد راندل يُؤمِن بتكليف العاطلين بالعمل».

توقّعت أن يأخذها إلى القلعة، لكن هَنت قادهما بدلًا من ذلك إلى الميناء المزدحم، حيث سرّها أن ترى التّجارة عادَت إلى (بِركة العذارى). في المرسى قادس وقاليون وكوج[46] له صاريتان، بالإضافة إلى عشرين تقريبًا من قوارب الصّيد الصّغيرة، وفي الخليج لاح المزيد من صيّادي الأسماك. حزمَت بِريان أمرها، وقالت لنفسها: *إذا لم تُثمِر زيارة (الإوزة النّتنة) شيئًا سأستقلّ سفينةً*. (بلدة النّوارس) لا تَبعُد كثيرًا، ومن هناك يُمكنها أن تشقّ طريقها إلى (الوادي) بسهولة.

وجدوا اللورد تارلي في سوق السّمك يُقيم العدل.

قُرب الماء منصّة منصوبة يستطيع حضرة اللورد أن يَنظُر من فوقها إلى المتّهمين، وإلى يساره تمتدُّ مشنقة طويلة تكفي حبالها عشرين رجلًا، وقد تدلّت منها أربع جُثث، إحداها تبدو جديدةً في حين يقول منظر الثّلاث الأخريات بوضوح إنها هنا منذ مُدّة. كان غُراب ينتزع قطعًا من لحم أحد الموتى المتهتّك، بينما تشتّتت الغِربان الأخرى حذرًا من أهل البلدة الذين احتشدوا على أمل أن يتفرّجوا على أحدٍ يُشنَق.

تقاسمَ اللورد راندل المنصّة مع اللورد موتون، وهو رجل شاحب لحيم له مظهر ليّن، يرتدي سترةً بيضاء وسراويل حمراء، ويُثبّت معطفه المصنوع من فرو القاقوم إلى كتفه مشبك من الذّهب الأحمر على شكل سمكة سلمون. أمّا اللورد تارلي فارتدى الحلقات المعدنيّة والجِلد المقوّى بالزّيت المغلي وواقي صدرٍ من الفولاذ الرّمادي، ومن وراء كتفه اليُسرى برزَ مقبض السّيف العظيم المسمّى (آفة القلوب)، مفخرة عائلة تارلي.

كان مراهق في معطف من الخيش وسُترةٍ جِلديّة متّسخة يتكلّم حين وصلوا، وسمعَته بِريان يقول: «لم أضرّ بأحدٍ يا سيّدي. أخذتُ فقط ما تركَه الشّبتونات عندما هربوا. إذا كان عليك أن تقطع إصبعي مقابل هذا فاقطعه».

رَدّ اللورد تارلي بنبرةٍ صارمة: «العُرف إن يُقطَع للّص إصبع، لكن مَن يسرق مِن سِپت يسرق مِن الآلهة»، والتفتَ إلى قائد حَرسه قائلًا: «سبعة أصابع، اترُك الإبهامين».

ردَّد اللّص بوجهٍ امتقع: «سبعة؟!». حين قبضَ عليه الحُرّاس حاول أن يُقاوِم وإنما بوهنٍ كأن أصابعه بُتِرَت بالفعل، وإذ شاهدَته بِريان لم تستطِع إلّا أن تُفكّر في السير چايمي وكيف صرخَ عندما هوى أراخ زولو على يده.

التّالي كان خبّازًا متّهمًا بغَشّ طحينه بنُشارة الخشب، فغرّمه اللورد راندل خمسة أيائل فضّيّة، ولمّا أقسمَ الخبّاز أنه لا يملك ذلك المبلغ من الفضّة قضى حضرة اللورد أن يُجلَد بدلًا من كلّ أيلٍ يَنقُصه. بَعده حانَ دور عاهرة مهزولة الجسد سقيمة الملامح متّهمة بإصابة أربعةٍ من جنود تارلي بالجُدري، فقال تارلي آمرًا: «اغسلوا عورتها بصابون القِلْي وألقوا بها في زنزانة».

بينما جَرّ الجنود العاهرة باكيةً أبصرَ حضرة اللورد بِريان على حافة الزِّحام بين پودريك والسير هايل، وعبسَ في وجهها لكن نظرته لم تُوحِ بأنه تعرّفها على الإطلاق.

تلا العاهرة بحّار من القاليون، والمتّهم قوّاس من حامية اللورد موتون يده مضمّدة وعلى صدره سمكة سلمون، وقد خاطبَ تارلي قائلًا: «بَعد إذن سيِّدي، هذا الوغد غرسَ خنجره في يدي، قال إنني كنتُ أغشُّه في لعب النّرد».

أشاحَ اللورد تارلي بنظره عن بِريان ليتطلّع إلى الرّجلين أمامه، وسألَ: «وهل كنت تغشّ؟».

- «لا يا سيّدي، لا أغشّ أبدًا».

- «سأقطعُ إصبعًا جزاء السّرقة، لكن اكذب عليّ وسأشنقك. هل عليّ أن أطلب أن أرى ذلك النّرد؟».

- «النّرد؟». نظرَ القوّاس إلى موتون، لكن حضرة اللورد كان يتطلّع إلى قوارب الصّيد، فابتلعَ الرّجل لُعابه، وقال: «ربما أكونُ... ذلك النّرد يجلب لي الحظ، حقًّا، لكنني...».

قال تارلي وقد سمعَ ما يكفي: «اقطعوا إصبعه الصّغير. يُمكنه أن يختار اليد. وليُدَقّ مسمار في كفّ الآخر»، ونهضَ مردفًا: «انتهينا. خُذوا البقيّة إلى الزّنازين. سأتعاملُ معهم غدًا»، والتفتَ مشيرًا إلى السير هايل بالتّقدّم، فتقدّمت بِريان بدورها، وقالت عندما وقفَت أمام اللورد راندل شاعرةً بأنها في الثّامنة من العُمر من جديد: «سيِّدي».

- «سيِّدتي، إلامَ ندين بهذا... الشّرف؟».

أجابَت: «لقد أُرسِلتُ لأبحث عن... عن...»، وتردّدت باترةً عبارتها.

- «كيف ستعثرين عليه إذا كنتِ لا تعرفين اسمه؟ هل قتلتِ اللورد رنلي؟».

- «لا».

وزنَ تارلي الكلمة. *إنه يَحكُم عليّ كما حكمَ على أولئك الآخَرين.* أخيرًا قال: «لا، لكنكِ تركتِه يموت فقط».

لقد ماتَ رنلي بين ذراعيها وأغرقَتها دماؤه المسفوكة، وقد جفلَت بِريان من الاتّهام، وقالت: «كانت شعوذةً. إنني لم...».

قاطعَها بصوتٍ استحالَ إلى سوط: «لم؟! بلى، لم يكن عليكِ قَطُّ أن ترتدي الحلقات المعدنيّة أو تحملي سيفًا، لم يكن عليكِ قَطُّ أن تبرحي دار أبيكِ. إننا في حربٍ وليس احتفال حصاد. بحَقِّ الآلهة كلِّها حريٌّ بي أن أشحنكِ في سفينةٍ إلى (تارث)».

خرجَت نبرتها بناتيّةً عاليةً في حين أرادَت أن تكون صُلبةً إذ قالت: «افعل ذلك وسيكون عليك أن تشرح أسبابك للعرش. پودريك، في جرابي ستجد رَقًّا. اجلبه إلى حضرة اللورد».

تناولَ تارلي الرِّسالة وبسطَها عابسًا، وتحرَّكت شفتاه وهو يقرأ، ثم قال: «عملًا يخصُّ الملك؟ عملًا من أيِّ نوع؟».

اكذب عليّ وسأشنقك. «سانزا ستارك».

- «لو كانت ابنة ستارك هنا لعرفتُ. أراهنُ أنها هربَت عائدةً إلى الشّمال على أمل أن تجد ملاذًا عند أحد حمَلة راية أبيها. خيرٌ لها أن تختار الرّجل الصّحيح».

سمعَت بِريان نفسها تقول باندفاع: «ربما تكون قد ذهبَت إلى (الوادي)، إلى أخت أمِّها».

رمقَها اللورد راندل بازدراء، وقال: «الليدي لايسا ماتَت، مغنٍّ ما دفعَها من فوق جبل. الإصبع الصّغير يسود (الوادي) الآن... لكنه وضع مؤقَّت. لوردات (الوادي) ليسوا رجالًا يركعون لقردٍ مختال تخطَّى منزلته وبلا مواهب غير عَدِّ النّقود»، وأعادَ إليها الرّسالة متابعًا: «اذهبي حيث شئتِ وافعلي ما تُريدين... لكن عندما تُغتصَبين لا تتطلّعي إليّ ناشدةً العدالة. ستكونين قد استحققتِ هذا بحماقتكِ»، ورمقَ السير هايل قائلًا: «وأنت أيها الفارس يُفترَض أن تكون على بوّابتك. لقد كلّفتك بالقيادة هناك، أليس كذلك؟».

أجابَ السير هايل: «بلى يا سيّدي، لكني فكّرتُ أن...».

قاطعَه اللورد تارلي: «إنك تُفكِّر أكثر من اللّازم»، وابتعدَ بخُطواتٍ واسعة.

لايسا تَلي ماتَت. وقفَت بِريان تحت المشنقة وفي يدها الوثيقة الثّمينة، وقد تفرّق الجمهور وعادَت الغِربان تستأنف وليمتها. *مغنٍّ دفعَها من فوق جبل*. هل التهمَت الغِربان لحم أخت الليدي كاتلين أيضًا؟

قال السير هايل: «ذكرتِ (الإوزّة النّتنة) يا سيّدتي. إذا أردتِ فيُمكنني أن أريكِ...».

- «غد إلى بوّابتك».

لاحَت على وجهه نظرة ضيقٍ عابرة. وجه لا *يُمَيِّزه شيء، ليس وجهًا صادقًا*. «إذا كانت هذه رغبتكِ».

- «إنها كذلك».

قال: «كانت مجرّد لُعبة لتزجية الوقت، لم نقصد أذًى»، وتردّد قبل أن يُضيف: «بن ماث، قُتِلَ في معركة (النّهر الأسود)، وفارو أيضًا، وويل اللّقلق، ومارك مالندور أصيبَ بجرحٍ كلّفه نِصف ذراعه».

أرادت بِريان أن تقول: *عظيم، عظيم، لقد استحقَّ هذا*، غير أنها تذكّرت مالندور جالسًا أمام شرادقه وعلى كتفه قرده في بذلةٍ صغيرة من الحلقات المعدنيّة، وكلاهما يرسم على وجهه تعبيراتٍ مضحكة. بِمَ دعَتهم كاتلين ستارك ليلتها في (جسر العلقم)؟ *فُرسان الصّيف*. والآن حَلّ الخريف وها هُم يتساقَطون كأوراق الشّجر...

أدارَت ظَهرها للسير هايل هَنت، وقالت: «هلمّ يا پودريك».

تبعَها الصّبي قائدًا حصانيهما، وتساءلَ: «هل سنبحث عن ذلك المكان؟ (الإوزة النّتنة)؟».

- «أنا سأبحثُ عنه. أنت ستذهب إلى الاسطبل عند البوّابة الشّرقيّة. سَل السّائس عن خانٍ نقضي فيه اللّيل».

قال پودريك: «حاضر أيتها الفارس، يا سيِّدتي»، وبينما سارا حدّق إلى الأرض راكلًا الحجارة بين الحين والآخر، ثم إنه سألَها: «هل تعرفين مكان الإوزّة؟ أعني (الإوزّة النّتنة)».

- «لا».

- «قال إنه سيُرينا، ذلك الفارس، السير كايل».

- «هايل».

- «هايل. ماذا فعلَ بكِ أيتها الفارس؟ أعني يا سيِّدتي».

الصّبي متلعثم لكنه ليس غبيًا. «في (هايجاردن)، عندما استدعى الملك رنلي راياته، لعبَ عدد من الرّجال بي لُعبةً. السير هايل أحدهم. كانت لُعبةً قاسيةً، مؤذيةً وتخلو من النُّبل»، ثم توقّفت بِريان وقالت له: «البوّابة الشّرقيّة من هنا. انتظرني هناك».

- «كما تقولين يا سيِّدتي، أيتها الفارس».

لا لافتة تُحَدِّد مكان (الإوزّة النّتنة)، فاستغرقَت نحو ساعةٍ حتى وجدَت الحانة عند قاعدة سلالم خشبيّة تحت زريبة قصّاب لحم جيف. كان القبو معتمًا وسقفه واطئًا، واختبطَ رأس بِريان في إحدى عوارضه وهي تَدخُل. لم ترَ أيّ إوزٍّ في المكان، وقد تناثرَت بضعة مقاعد هنا وهناك، ووُضِعَت دكّة عند حائطٍ طيني، ورُصّت موائد هي براميل نبيذ قديمة رماديّة نخربَها الدّود. اشتمّت بِريان النّتانة الموعودة المتغلغِلة في كلّ شيء، معظمها نبيذ ورطوبة وعفن فِطري، لكن فيها شيئًا من رائحة المراحيض أيضًا، والقليل من رائحة القبور.

الشّاربون الوحيدون في المكان ثلاثة بحّارة تايروشيّون يُخاطِب بعضهم بعضًا بلُغتهم الخشنة من وراء لحاهم الخضراء والأرجوانيّة، وقد تفحّصوها بأعيُنهم باقتضابٍ وقال أحدهم شيئًا أضحكَ الآخرين. كانت مالكة الحانة واقفةً وراء لوحٍ من الخشب مرفوع على برميلين، امرأة شاحبة مستديرة الجسد ويزحف الصّلع على رأسها، ولها نهدان ضخمان متهدّلان يتأرجَحان تحت مئزرٍ متّسخ، وإجمالًا تبدو كأن الآلهة خلقَتها من عجينٍ نيء.

لم تجرؤ بِريان على طلب الماء هنا، وبدلًا منه طلبَت كوبًا من النّبيذ، وقالت: «أبحثُ عن رجلٍ اسمه ديك الزّشيق».

أجابَت المرأة: «ديك كراب، يأتي كلّ ليلةٍ تقريبًا»، ورمقَت قميص بِريان المعدني وسيفها مضيفةً: «إذا كنتِ تنوين قتله فافعلي ذلك في مكانٍ آخر. لا نُريد متاعب مع اللورد تارلي».

ردّت: «أريدُ أن أتكلّم معه. لماذا أوذيه؟». هزّت المرأة كتفيها بلا جواب، فقالت لها بِريان: «إذا أشرتِ عليه عندما يأتي سأكونُ شاكرةً».

- «شاكرةً لأيّ درجة؟».

وضعَت بِريان نجمةً نُحاسيّةً على اللّوح الخشبي بينهما، ثم وجدَت مكانًا وسط الظّلال ترى منه السّلالم بوضوح.

جرّبت النّبيذ. له مذاق زيتي على اللّسان، وفي الكوب وجدَت شعرةً طافيةً فكّرت وهي تُزيلها: شعرة *ضئيلة كأملي في العثور على سانزا.* لقد طاردَت السير دونتوس بلا طائل، وبموت الليدي لايسا لم يَعُد (الوادي) ملاذًا محتملًا. *أين أنتِ يا ليدي سانزا؟ هل فررتِ إلى ديارِكِ في* (وينترفل) *أم أنكِ مع زوجكِ كما يحسب بودريك؟* لا تُريد بِريان أن تُلاحِق الفتاة عبر (البحر الضيّق) حيث اللّغة نفسها غريبة عليها. *سأبدو كالمسوخ أكثر فأكثر هناك وأنا أزمجرُ وأشيرُ كي يفهموني. سيضحكون مني كما ضحكوا في* (هايجاردن).

زحفَت الخمرة على وجنتيها إذ تذكّرت.

حين توّج رنلي نفسه ركبَت عذراء (تارث) قاطعةً (المرعى) كلّه لتنضمّ إليه، واستقبلَها الملك بكياسةٍ ورحّب بها في خدمته، ولكن ليس لورداته وفُرسانه. لم تكن بِريان تتوقّع استقبالًا حارًّا، وهيّأت نفسها للبرودة والسّخرية والعدوانيّة، فكلُّ هذا ألفَته من قبلها. ليس تهكُّم الكثرة ما يُحَيِّرها ويجرحها، وإنما لُطف القِلّة. ذلك أن عذراء (تارث) خُطِبَت ثلاث مرّات، إلّا أن أحدًا لم يُغازِلها قَطّ حتى ذهبَت إلى (هايجاردن).

أولهم كان بن بوشي الكبير، أحد الرّجال القلائل في معسكر رنلي الذين يتجاوَزونها طولًا، وقد أرسلَ إليها مُرافقه ليُنَظّف دِرعها وأهدى إليها قرن شرابٍ فضّيًا، لكن السير إدموند أمبروز تفوّق عليه بدرجةٍ إذ جلبَ لها زهورًا وسألَها أن تركب معه، أمّا السير هايل هَنت فغلبَ الاثنين وأعطاها كتابًا زاخرًا بالرّسوم الجميلة وعشرات الحكايات عن بسالة الفُرسان، وأحضرَ تفّاحًا وجزرًا لأحصنتها وريشةً حريريّةً زرقاء لخوذتها، وأخبرَها بما يدور في المعسكر من نميمةٍ وألقى تعليقاتٍ ذكيّة لاذعة جعلَتها تبتسم، بل وتدرّب معها أيضًا ذات يوم، وهو ما عنى لها أكثر من سائر ما فعلَه.

ظنّت أن بسببه بدأ الآخرون يُعامِلونها بكياسةٍ بدورهم. *بأكثر من الكياسة*. على المائدة تشاجرَ الرّجال على مكانٍ إلى جوارها عارضين أن يملأوا كأسها أو يُناوِلوها الكعك، وعزفَ السير ريتشارد فارو أغاني الحُبّ على عوده خارج شرادقها، وجلبَ لها السير هيو بيزبوري جرّةً من العسل «الحُلو كعذراوات (تارث)». وأضحكَها السير مارك مالندور بطرائف قرده الصّغير الذي أتى بلونيه الأبيض والأسود من (جُزر الصّيف)، وعرضَ فارس متجوِّل اسمه ويل اللّقلق أن يُدلِّك كتفيها ليبسط عضلاتهما المشدودة.

ورفضَته برِيان، رفضَتهم جميعًا. عندما أمسكَها السير أوين إنشفيلد ذات ليلةٍ وقبّلها رغمًا عنها أسقطَته على مؤخِّرته في بؤرة نار، وبَعدها تطلّعت إلى نفسها في المرآة، فرأت وجهها عريضًا منمّشًا كبير الأسنان كما كان دومًا، وشفتيها كبيرتين وفكّها سميكًا. يا للقُبح. لم تكن تُريد إلّا أن تُصبِح فارسًا وتخدم الملك رنلي، لكن الآن...

لم تكن المرأة الوحيدة هناك. حتى تابعات المعسكرات كن أجمل منها، وفي القلعة اعتادَ اللورد تايرل أن يُقيم مأدبةً للملك رنلي كلَّ ليلةٍ فيما تُرقُص الفتيات عاليات المقام والليديهات الحِسان على أنغام المزمار والبوق والقيثار. متى ألقى عليها فارس غريب مجامَلةً ما أرادَت أن تَصرخ فيه: *لماذا تُعامِلني بلُطف؟! ماذا تُريد؟!*

وحَلّ راندل تارلي اللُغز يوم أرسلَ اثنين من جنوده لاستدعائها إلى شرادقه، حيث قال لها إن ابنه الصّغير ديكون سمعَ أربعة فُرسانٍ يضحكون وهُم يضعون على خيولهم سروجها، وأخبرَ أباه بما قالوه.

كانوا متراهنين عليها.

أخبرَها بأن ثلاثةً من الفُرسان الشّباب بدأوا الرّهان، أمبروز وبوشي، بالإضافة إلى هايل هَنت الذي ينتمي إلى حرس أهل بيته، لكن إذ انتشرَ الخبر في المعسكر انضمّ آخَرون إلى اللُعبة. كان على كلّ رجلٍ يرغب في الانضمام إلى المسابقة أن يدفع تنّينًا ذهبيًا، على أن يجني المبلغ الإجمالي مَن يفضُّ بِكارتها.

قال لها تارلي: «لقد وضعتُ نهايةً للُعبتهم. بعض هؤلاء الـ... المتنافسين... بعضهم أقلُّ شَرفًا من غيرهم، والرّهانات كانت تتزايَد كلّ يوم. كانت مسألة وقتٍ فقط قبل أن يُقرّر أحدهم أن ينال غنيمته بالإكراه».

قالت مذهولةً: «إنهم فُرسان، فُرسان منصّبون».

- «ورجال شُرفاء. أنتِ الملومة».

ردّت وقد أجفلَها الاتّهام: «إنني لم... سيّدي، أنا لم أفعل شيئًا لأشجّعهم».

- «وجودكِ هنا شجّعهم. إذا تصرّفت امرأة كتابعة معسكرات فلا يُمكنها أن تحتجّ على معاملتها كواحدة. الجيش ليس مكانًا للفتيات. إذا كنتِ تحترمين عفّتكِ أو شرف عائلتكِ على الإطلاق فاخلعي هذه الدّرع وارجعي إلى دياركِ وتوسّلي إلى أبيكِ أن يجد لكِ زوجًا».

قالت بإصرار: «جئت لأقاتل، لأكون فارسًا».

قال راندل تارلي: «الآلهة خلقت الرّجال للقتال والنّساء لحمل الأطفال. حرب المرأة في فِراش الولادة».

رأت بِريان أحدهم نازلًا السّلالم إلى القبو، فنحّت نبيذها جانبًا بينما دخلَ رجل رَثُّ الملبس مهزول القوام مدبّب الوجه له شَعر بنّي متّسخ. ألقى على البحّارة التايروشيّين نظرةً سريعةً وعلى بِريان نظرةً أكثر إمعانًا، ثم ذهبَ إلى المشرب، وقال: «نبيذ، ومن دون بول خيول، شكرًا».

نظرَت المرأة إلى بِريان وأومأت برأسها، فنادَت: «سأشتري لك النّبيذ مقابل كلمةٍ معك».

تفرّس الرّجل فيها بعينين حذرتين، ثم قال: «كلمة؟ أعرفُ كلماتٍ كثيرة»، وجلسَ على الكُرسي المقابل لها متابعًا: «أخبِريني أيّ كلمةٍ تُريد سيّدتي أن تسمعها وسيقولها ديك الرّشيق».

- «سمعتُ أنك خدعت مهرّجًا».

كان الرّجل الضّاوي يرتدي سُترةً باهتةً ممزّقةً انتُزِعَت من على صدرها شارة لورد ما، وقد رشفَ من نبيذه مفكّرًا، قبل أن يقول: «ربما وربما لا. من يُريد أن يعرف؟».

أجابَت: «الملك روبرت»، ووضعَت قطعةً فضّيّةً على البرميل بينهما، على أحد وجهيها رأس روبرت وعلى الثّاني رمز الوعل.

قال الرّجل: «حقًا؟»، والتقطَ العُملة ودوَّرها، وأردفَ: «أحبُّ أن أرى ملكًا يَرقُص، هاي-نوني هاي-نوني هاي-نوني-هو[47]. ربما رأيتُ مهرّجكِ هذا».

- «أكانت معه بنت؟».

أجابَ من فوره: «بنتان».

- «بنتان؟!». *هل يُمكن أن تكون الثّانية آريا؟*

- «لم أرَ الخلوتين الصّغيرتين، لكنه أرادَ رحلةً لثلاثة».

- «رحلة إلى أين؟».

- «إلى البَرِّ الآخَر من البحر على ما أذكرُ».

- «هل تَذكُر شكله؟».

اختطفَ العُملة التي تدور على سطح المائدة وقد بدأت حركتُها تتباطأ وجعلَها تختفي مجيبًا: «مهرِّج، مهرِّج خائف».

- «خائف مِمَّ؟».

هَزَّ كتفيه قائلًا: «لم يقل، لكن ديك الرّشيق يعرف رائحة الخوف. اعتادَ أن يأتي هنا كلَّ ليلةٍ تقريبًا، يدعو البحّارة إلى الشّراب ويُلقي النّكات ويُغنّي. ثم في ليلةٍ جاءَ رجال على صدورهم الصّيّاد فشحبَ وجه مهرّجكِ كالحليب وخرسَ حتى رحلوا»، ودنا منها أكثر مواصلًا: «تارلي هذا جنوده يجوبون الميناء مراقبين كلَّ سفينةٍ آتية أو ذاهبة. مَن يُريد غزالًا يذهب إلى الغابة، ومَن يُريد سفينةً يذهب إلى الميناء. مهرّجكِ لم يجرؤ، فعرضتُ عليه المساعَدة».

- «مساعَدة من أيِّ نوع؟».

- «النّوع الذي يُكلّف أكثر من قطعة فضّة واحدة».

- «أخبِرني وسأعطيك أخرى».

قال: «لنرَها»، فوضعَت غملةً أخرى على البرميل، ليُدوِّرها ويبتسم ويلتقطها مجيبًا: «مَن لا يستطيع الذّهاب إلى الشفن يحتاج إلى أن تذهب الشفن إليه. قلتُ له إنني أعرفُ مكانًا يُتاح فيه هذا، مكان خفي».

اقشعرّ جِلد بِريان على ذراعيها، وقالت: «وكر مهرِّبين، أرسلت المهرِّج إلى مهرِّبين».

رَدّ مقهقهًا: «هو والبنتان. المشكلة فقط أن المكان الذي أرسلته إليه لم تأتِه سفينة منذ فترة، نحو ثلاثين عامًا»، وحَكّ أنفه متسائلًا: «ما أهميّة هذا المهرِّج عندكِ؟».

- «هاتان البنتان أختاي».

- «حقًّا؟ مسكينتان. كانت لي أخت ذات يوم، فتاة نحيلة بِرُكبتين ناتئتين، لكن بَعد ذلك نما لها زوج من الأثداء ودخلَ ابن فارسٍ بين ساقيها. آخِر مرّةٍ رأيتها كانت في طريقها إلى (كينجز لاندنج) لتكسب قوتها على ظَهرها».

- «أين أرسلتهم؟».

عادَ يهزُّ كتفيه قائلًا: «هذا لا أذكره».

دقّت بِريان المائدة بأيلٍ فضّي آخر مكرِّرةً: «أين؟».

دفعَ الغملة ناحيتها بسبّابته، وقال: «إنه مكان لم يَدخُله أيل من قبل... لكن تنّينًا يستطيع».

أدركَت أن الفضّة لن تستخلص منه الحقيقة. *ربما يُفلِح الذَّهب*، وربما لا. *الفولاذ أضمن*. مسّت بِريان خنجرها، لكنها بدلًا من هذا دسّت يدها في صُرّتها والتقطَت تنّينًا ذهبيًا وضعَته على البرميل، وكرّرت: «أين؟».

اختطفَ الرّجل الأشعث العُملة وعَضّ عليها، ثم قال: «جميل، يُذَكّرني بـ(الرّأس المتصدّع)، شمالًا من هنا. إنها براري مليئة بالتّلال والمستنقعات، لكني وُلِدتُ وتربّيتُ هناك. اسمي ديك كراب، مع أن أكثر القوم يدعونني بديك الرّشيق».

لم تُجاوِبه باسمها، وسألَت: «أين في (الرّأس المتصدّع)؟».

- «(قلعة الهمس). مؤكّد أنكِ سمعت عن كلارنس كراب».

- «لا».

قال وقد لاحت عليه الدّهشة: «السير كلارنس كراب كما قلتُ. إن دمه في عروقي. كان يَبلُغ ثمانية أقدامٍ طولًا، وقوّته هائلة لدرجة أن يجتثّ شجرة صَنوبر من الأرض بيدٍ واحدة ويُلقيها على بُعد نِصف ميل. لم يكن هناك حصان يحتمل ثِقله، فامتطى ثورًا بِرّيًا».

- «ما علاقته بوكر المهرّبين؟».

- «زوجته كانت ساحرة غابة. كلّما قتلَ السير كلارنس رجلًا أخذ رأسه معه إلى زوجته، فتقبّل الرّأس على الشّفتين وتُعيده إلى الحياة. كانت رؤوس لوردات وسحرة وفُرسان وقراصنة مشاهير، وأحدها كان رأس ملك (وادي الغسق). تلك الرّؤوس أسدت لكراب نصائح مفيدة، لكن لأنها رؤوس فقط فلم تستطِع أن ترفع صوتها، ومع ذلك لم تَصمُت لحظةً. عندما يكون المرء رأسًا فقط فالكلام كلُّ ما لديه لتمضية الوقت. هكذا سُمّيت قلعة كراب (قلعة الهمس)، وما زالَ هذا اسمها مع أنها خربَت منذ ألف عام. مكان موحش»، وقلّب الرّجل العُملة برشاقةٍ على مفاصل أصابعه مردفًا: «تنّين واحد تُصيبه الوحدة، أمّا عشرة تنانين...».

- «عشرة تنانين ثروة. أتحسبني بلهاء؟».

رَدّ والعُملة تتراقَص من جانبٍ إلى جانب: «لا، لكنني أستطيعُ أن أقودكِ إلى المهرّج، أقودكِ إلى (قلعة الهمس) يا سيّدتي».

لم تَرُق بِريان الطّريقة التي تتلاعَب بها أصابعه بالعُملة الذّهبيّة، ومع ذلك... «ستّة تنانين إذا وجدنا أختي، اثنان إذا وجدنا المهرّج، ولا شيء إذا لم نجد شيئًا».

هَزّ كراب كتفيه قائلًا: «لا بأس بستّة، ستّة مبلغ مناسب».

قبلَ بسُرعةٍ بالغة. أطبقَت على معصمه قبل أن يدسّ الغملة في جيبه، وقالت: «إياك أن تُحاوِل خداعي. لن تجدني لُقمةً سائغةً»، ولمّا أطلقَت سراحه فركَ كراب معصمه متمتمًا: «تبًا، آلمتِ يدي».

- «آسفةٌ لهذا. أختي بنت في الثّالثة عشرة، ويجب أن أعثر عليها قبل...».

- «... قبل أن يضع فارس نفسه في فتحتها. نعم، أفهمكِ. اعتبريها في عِداد النّاجين. ديك الرّشيق معكِ الآن. قابِليني أمام البوّابة الشّرقية عند مطلع الفَجر. هناك رجل عليّ أن أراه بخصوص حصان».

---

(45) المطرد سلاح قديم يتألّف من رأس حربة ورأس فأس مثبّتين في القناة نفسها. (المترجم).

(46) الكوج سفينة لها شراع واحد مربّع عادةً وأحيانًا شراعان، وتُبنى من خشب البلُّوط. (المترجم).

(47) كلمة بلا معنى كانت تُستخدَم كثيرًا في الأغاني الشّعبيّة في العصر الإليزابيثي في إنجلترا، وقد وردَت في إحدى أغنيات مسرحيّة (جعجعة بلا طحن) لشيكسبير. (المترجم).

ساموويل

أصابَ البحر ساموويل تارلي بغثيانٍ فظيع.

ليس السّبب بالكامل خوفه من الغرق، ولو أن جزءًا كبيرًا منه كذلك بالفعل، وإنما حركة السّفينة أيضًا، الطّريقة التي يتمايَل بها السّطح ويهتزُّ تحت قدميه. يوم أبحَروا من (القلعة الشّرقيّة) اعترفَ لداريون قائلًا: «بطني يُصيبه الغثيان بسهولة»، فربَّت المغنّي على ظهره ورَدّ: «مع بطنٍ كبير كبطنك أيها القاتِل فهذا إفراط في الغثيان».

حاولَ سام أن يرسم على وجهه قناعًا من الشَّجاعة، لأجل خاطر جيلي قبل كلِّ شيء، فالفتاة لم تزَ بحرًا في حياتها قَطُّ. لمّا خاضا الثُّلوج بشِقِّ الأنفُس بَعد الهرب من (قلعة كراستر) صادَفا بُحيراتٍ عدَّة في طريقهما، لكن حتى تلك البُحيرات كانت لها بمثابة أعجوبة. بينما ابتعدَت (الطّائر الأسود) عن اليابسة راحت الفتاة ترتجف وسالَت قطرات الدُّموع المالحة الكبيرة على وجنتيها، وسمعَها سام تهمس: «يا للآلهة». اختفَت (القلعة الشَّرقيَّة) أولًا، ثم أخذَ (الجِدار) يتضاءل ويتضاءل حتى غابَ عن الأنظار تمامًا، وحينئذٍ كانت الرِّيح قد بدأت تشتدُّ. للقلوع لون رمادي باهت كمعطف أسود غُسِلَ مرارًا وتكرارًا، ووجه جيلي كان أبيض ممتقعًا من فرط الخوف، فقال لها سام مبتغيًا طمأنتها: «هذه سفينة قويّة، لا داعي للخوف»، غير أنها نظرَت إليه فحسب وضمَّت رضيعها إليها أكثر وفرَّت إلى أسفل.

سرعان ما وجدَ سام نفسه يتشبّث بحافة السّفينة ويُشاهِد حركة المجاذيف الرّتيبة، فألفى التّطلُّع إلى الطّريقة التي تتحرّك بها معًا جميلًا، بل وأفضل من النّظر إلى الماء. النّظر إلى الماء لا يجعله يُفكّر إلّا في الغرق. في صِغره جرّب السيّد والده أن يُعَلّمه السّباحة بإلقائه في البِركة التي تطلُّ عليها (هورن هيل)، فدخلَت المياه أنفه وفمه ورئتيه، ولازمَه السّعال والتّنفُّس الممزوج بالصّفير طيلة ساعاتٍ بَعد أن أخرجَه السير هايل، ومنذ ذلك الحين لم يَجسُر على النّزول في الماء على غمقٍ أعلى من خصره.

(خليج الفقمات) أعمق من خصره كثيرًا، وليس ساكنًا كبِركة الأسماك الصّغيرة عند قلعة أبيه، مياهه رماديّة وخضراء ومتقلّبة، والسّاحل المحرّج بالأشجار الذي يمضون بمحاذاته غابة من الصّخور والدّوّامات. حتى إذا استطاعَ بوسيلةٍ ما أن يقطع كلّ تلك المسافة رفسًا وزحفًا فالأرجح أن الأمواج ستدفعه ليرتطم بحجرٍ ما ويُهشّم رأسه تهشيمًا.

قال داريون حين رأى سام واقفًا يتطلّع عبر الخليج: «هل تبحث عن عرائس البحر أيها القاتِل؟». بشَعره الفاتح وعينيه البندقيّتين يبدو المغنّي الشّاب الوسيم الآتي من (القلعة الشّرقيّة) أقرب إلى أمير ظلامٍ من أخٍ أسود.

- «لا». لا يدري سام عَمَّ يبحث أو ماذا يفعل على متن هذه السّفينة. قال لنفسه: *أنا ذاهب إلى (القلعة) لأكوّن سلسلةً وأصبح مِايستر كي أخدم حرس اللّيل بشكلٍ أفضل*، لكن الفكرة أصابَته بالضّجر لا أكثر. إنه لا يُريد أن يُصبِح مِايستر يلفُّ حول عنقه سلسلةً ثقيلةً حلقاتها باردة على جِلده، لا يُريد أن يَترُك إخوته والأصدقاء الوحيدين الذين عرفَهم طول حياته، وقطعًا لا يُريد أن يُواجِه أباه الذي أرسلَه إلى (الجِدار) ليموت.

الأمر مختلف مع الآخَرين، فبالنّسبة إليهم للرّحلة نهاية سعيدة. جيلي ستكون آمنةً في (هورن هيل)، وبينها وبين الأهوال التي خبرَتها في (الغابة المسكونة) عرض (وستروس) بأكمله. باعتبارها خادمةً في قلعة أبيه ستحظى بالدّفء وحُسن التّغذية، ستكون جزءًا صغيرًا من عالمٍ رحب لم تَحلُم به قَطّ وهي زوجة كراستر، وسترى ابنها ينمو كبيرًا قويًا ويصير صيّادًا أو عامل اسطبلٍ أو حدّادًا، وإذا أبدى الصّبي جدارةً بحمل السّلاح فربما يتّخذه فارس ما مُرافقًا كذلك.

والمِايستر إيمون ذاهب إلى مكانٍ أفضل أيضًا، ومن السّار أن يُفكّر سام فيه إذ يقضي ما تبقّى له من عُمرٍ يستمتع بنسيم (البلدة القديمة) الدّافئ ويتناقش مع زُملائه المِايسترات وينقل حكمته إلى المعاونين والمبتدئين. لقد استحقّ الرّجل راحته أضعافًا مضاعفةً.

حتى داريون سيكون أسعد. إنه يَزعُم دومًا أنه بريء من تُهمة الاغتصاب التي نجمَ عنها إرساله إلى (الجِدار)، ويصرُّ على أن مكانه يُفترَض أن يكون في بلاط أحد اللوردات ليُغَنّي له على العَشاء، والآن سينال تلك الفُرصة وقد عيَّنه چون مجنِّدًا ليحلَّ محلَّ رجلٍ اسمه يورن اختفى وأصبحَ في عِداد الموتى. مهمَّته أن يجوب (الممالك السَّبع) ويُغَنّي عن بأس حَرس اللَّيل، وبين الحين والآخر يعود إلى (الجِدار) بدُفعةٍ جديدة من المجنَّدين.

ستكون الرِّحلة طويلةً مضطربةً ولا أحد يُنكِر ذلك، لكن على الأقل تنتظر الآخَرين نهاية سعيدة، وهذا عزاء سام الذي قال لنفسه: *إنني ذاهب من أجلهم، من أجل حَرس اللَّيل والنِّهاية السَّعيدة*. على أنه كلَّما تطلَّع إلى البحر أكثر بدا أبرد وأعمق.

لكن عدم النّظر إلى الماء أسوأ وأسوأ، كما أدركَ سام في القمرة الضّيّقة التي يشترك فيها المسافرون تحت السّلوقيّة[48] الخلفيّة. حاولَ أن ينأى بأفكاره عن الهياج في معدته بأن يُكَلِّم جيلي بينما تُرضِع ابنها، فقال: «هذه السّفينة ستأخذنا حتى (براڤوس)، وهناك سنجد سفينةً أخرى تحملنا إلى (البلدة القديمة). قرأتُ كتابًا عن (براڤوس) في طفولتي. المدينة كلُّها مبنيّة في هَور على مئة جزيرةٍ صغيرة، وعندهم مارد هناك، رجل حجري طوله مئات الأقدام. إنهم يركبون القوارب بدلًا من الخيول، ويُقدِّم ممثّلوهم قصصًا مكتوبةً بدلًا من اختلاق المهازل السّخيفة المعتادة. الطّعام جيّد جدًّا أيضًا، خصوصًا الأسماك، لأنهم يصطادون مختلف أنواع الحلزون والمحار وثعابين الماء الطّازجة من الهَور. المفترَض أن نقضي بضعة أيامٍ هناك بين الرّحلتين، وإذا فعلنا فلنذهب لمشاهَدة عرضٍ تمثيلي ونأكل المحار».

حسبَ أن ذلك سيثير حماستها، لكنه كان مخطئًا تمامًا، إذ حدّقت جيلي إليه بنظرةٍ فاترة خاوية من بين خُصلات شَعرها المتّسخ، وقالت: «إذا أردت يا سيّدي».

سألَها سام: «ماذا تُريدين أنتِ؟».

ردّت: «لا شيء»، والتفتَت عنه ونقلَت ابنها من ثديٍ إلى الآخر.

كانت حركة السّفينة تُقَلِّب ما في معدة سام من البيض واللّحم المقدّد والخُبز المحمّر الذي أكلَه قبل بداية الرّحلة، وعلى حين غرّةٍ لم يَعُد يستطيع البقاء في القمرة لحظةً أخرى، فدفعَ نفسه إلى القيام وتسلّق السُّلّم ليُعطي إفطاره للبحر. داهمَه الغثيان بقوّةٍ شديدة حتى إنه لم يتوقّف ليُعَيِّن اتّجاه هبوب الرّيح، فتقيّأ من الجانب الخطأ ولوّث نفسه بالقيء، وعلى الرغم من هذا أحسّ بتحسّنٍ كبير بَعدها... ولكن ليس لفترةٍ طويلة.

(الطّائر الأسود) أكبر قوادس الحرس الثّلاثة. (غُراب العواصف) و(البرثن) أسرع، كما أخبرَ كوتر پايك المِايستر إيمون وهُم في (القلعة الشّرقيّة)، لكنهما سفينتان حربيّتان، طائران كاسران سريعان رشيقان يجلس فيهما الملّاحون على السّطح المفتوح، أمّا (الطّائر الأسود) فخيار أفضل لمياه (البحر الضيّق) الهائجة وراء (سكاجوس). قال لهم پايك محذِّرًا: «ثمّة عواصف منذ فترة. عواصف الشّتاء أسوأ، لكن عواصف الخريف متكرّرة».

الأيام العشرة الأولى كانت هادئةً فيما مخرَت السّفينة عباب (خليج الفقمات) دون أن تبتعد عن منظر اليابسة إطلاقًا، ورغم أن الجوّ يَبرُد عندما تهبّ الرّيح ففي رائحة الملح في الهواء شيء منشّط منعش كذلك. بالكاد استطاعَ سام أن يأكل، وكلّما أرغمَ نفسه على ابتلاع شيءٍ لا يبقى في معدته طويلًا، لكنه لم يُعانِ كثيرًا بغَضّ النّظر عن هذا.

حاولَ أن يشحذ همّة جيلي ويبثّ فيها ما يستطيع من ابتهاج، إلّا أنه وجدَ المهمّة عسيرةً، فمهما قال رفضَت أن تصعد إلى السّطح وفضّلت أن تبقى قابعةً في الظّلام مع ابنها. ويبدو أن الرّضيع لا يروقه وجوده على السّفينة أكثر من أمّه، فحين لا يَصرُخ يتقيّأ اللّبن الذي أرضعته إياه، بالإضافة إلى الإسهال الذي أصابَه ليُلَوِّث الفرو الذي تلفّه به جيلي لتدفئته ويملأ الهواء برائحةٍ بنّيّة كريهة، ولا يهمّ كم شمعةً معطّرةً يُشعِلها سام، فرائحة الخراء لا تزال باقيةً.

يطيب لسام أكثر أن يبقى بالأعلى في الهواء الطّلق، بالذّات عندما يُغنّي داريون. يعرف ملّاحو (الطّائر الأسود) المطرب الذي تعوّد أن يُغنّي لهم بينما يُجذّفون، كما أنه يعرف جميع أغانيهم المفضّلة؛ منها الحزين كـ(يوم شنقوا روبن الأسود) و(مرثيّة عروس البحر) و(خريف غمري)، والحماسيّ كـ(الرّماح الحديد) و(سبعة سيوف لسبعة أبناء)، والخليع كـ(غشاء سيّدتي) و(زهرتها الصّغيرة) و(ماجيت كانت فتاةً مرحةً، فتاةً مرحةً كانت)، وحين يُغنّي (الجميلة والدّب) ينضمّ إليه الملّاحون فيبدو كأن السّفينة تطير على الماء طيرانًا. ليس داريون بالمُبارز الماهر -كما يعلم سام منذ أيام تدريبهما تحت إمرة أليسر ثورن- لكن له صوتًا جميلًا، «عسل مصبوب على رعد» على حدّ تعبير المايستر إيمون ذات مرّة. إنه يعزف على القيثارة الخشبيّة والكمنجة أيضًا، بل ويَكتب أغنياته الخاصّة... مع أن سام لا يحسبها جيّدةً إلى هذا الحد. ومع ذلك فمن المستحب عند سام أن يجلس ويُصغي، ولو أن الصّندوق الذي يجلس عليه صُلب كثير الشّظايا، لدرجة أنه يكاد يَشعر بالامتنان لشمنة مؤخّرته. *البدين يحمل معه وسادةً أينما ذهب.*

يُفضّل المايستر إيمون أيضًا أن يقضي النّهار على السّطح قابعًا تحت كومةٍ من الفرو ويتطلّع إلى الماء، وذات يومٍ تساءلَ داريون قائلًا: «إلامَ يَنظُر؟ بالنّسبة إليه الظّلام هنا وبالأسفل في القمرة واحد».

سمعَه العجوز. رغم أن عينَي إيمون انطفأتا إلى الأبد فما زالَت أذناه تعملان بكفاءةٍ تامّة، وقد قال لهما مذكّرًا: «إنني لم أولَد أعمى. حين مررتُ من هذا الطّريق آخِر مرّةٍ رأيت كلَّ صخرةٍ وشجرةٍ وموجة، وشاهدتُ النّوارس الرّماديّة تُحلّق في أعقابنا. كنتُ في الخامسة والثّلاثين، وأصبحتُ مِايستر مسلسلًا قبلها بستّة عشر عامًا. إج أرادَني أن أعينه على الحُكم، لكني كنتُ أعرفُ أن مكاني هنا. أرسلَني شمالًا على متن (التنّين الذّهبي) وأصرَّ على أن يصحبني صديقه السير دنكان إلى (القلعة الشّرقيّة). لم يصل مجنّد إلى (الجِدار) قطُّ بتلك الأبّهة منذ أرسلَت نايميريا إلى حرس اللّيل ستّة ملوكٍ مقيّدين بالأصفاد الذّهبيّة. أفرغَ إج الزّنازين أيضًا كي لا أضطرَّ إلى حِلف اليمين بمفردي. سمّاهم حرس شرف، وأحدهم لم يكن أقلَّ من بريندن ريفرز شخصيًا، الذي اختيرَ فيما بعدُ ليكون حضرة القائد».

قال داريون: «غداف الدّم؟ أعرفُ أغنيةً عنه، اسمها (ألف عينٍ وعين). لكني حسبتُ أنه عاش منذ مئة عام».

- «كلّنا عشنا منذ مئة عام. لقد كنتُ شابًا مِثلك ذات يوم». بدا أن الفكرة أحزنَته، وسعلَ وأغلقَ عينيه وغابَ في النّوم، وكلّما هزّت موجة ما السّفينة تمايلَ تحت أغطيته.

تحت سماواتٍ رماديّة أبحروا، شرقًا وجنوبًا ثم شرقًا من جديدٍ فيما اتّسع (خليج الفقمات) من حولهم. الرُّبّان أخ أشيب له بطن كبرميل المِزر ويرتدي ثيابًا متّسخةً للغاية وباهتةً لدرجة أن أفراد الطّاقم لقّبوه بذي الأسمال المالحة العجوز. نادرًا ما ينبس الرّجل ببنت شفة، ويعوِّض نائبه صمته بتلويث الهواء بالسّباب واللّعنات متى سكنت الرّياح أو تلكّأ الملّاحون. في الصّباح يأكلون ثريد الشّوفان، وبعد الظّهر ثريد البازلاء، وليلًا اللّحم البقري المملّح ولحم الضّأن المملّح وسمك القُد المملّح، ويشربون مع وجبتهم القليل من المِزر.

يُغنّي داريون، ويتقيأ سام، وتبكي جيلي وتُرضِع صغيرها، وينام المِايستر إيمون ويرتجف، وتشتدُّ برودة الرّيح وشرعتها بمرور كلّ يوم.

وعلى الرغم من كلّ هذا فالرّحلة أفضل من آخِر مرّةٍ أبحرَ فيها سام. لم يكن يتجاوَز العاشرة عندما ركِبَ قاليون اللورد رداوين المسمّى (ملكة الكرمة). كانت السّفينة أكبر من (الطّائر الأسود) خمس مرّات ومهيبة المنظر، لها ثلاثة أشرعة خمريّة وصفوف من المجاذيف تُومِض بالذّهبي والأبيض في نور الشّمس، وقد احتبسَت أنفاس سام انبهارًا بمرآها ترتفع وتنخفض وهُم يتحرّكون من (البلدة القديمة)... لكن تلك آخِر ذكرى طيّبة لديه عن (بوغاز ردواين). فحينها كما الآن أصابَه البحر بالغثيان، وبالتّالي أصابَ هو السيّد والده بالاشمئزاز.

وحين بلغوا (الكرمة) تدهورَت الأمور من سيئٍ إلى أسوأ. من النّظرة الأولى احتقرَ ابنا اللورد ردواين التّوأم سام، وكلّ صباحٍ وجدا وسيلةً جديدةً لتكليله بالخزي في ساحة التّدريب. في اليوم الثّالث جعلَه هوراس ردواين يَصرخ كالخنازير متوسّلًا الرّحمة، وفي اليوم الخامس ألبسَ أخوه هوبر إحدى عاملات المطابخ دِرعه وتركَها تضرب سام بسيفٍ خشبي إلى أن أجهشَ بالبُكاء، ولمّا أفصحَت عن نفسها تفجّرت ضحكات جميع المُرافقين والوُصفاء وعاملي الاسطبلات المدوّية.

ليلتها قال أبوه للورد ردواين: «الصّبي يحتاج إلى القليل من التّمرّس لا أكثر»، لكن مهرّج ردواين رَجّ خُشخيشته ورَدّ: «بل يحتاج إلى القليل من الفلفل والقرنفل وتفّاحةٍ في فمه»، وبَعدها حرّم اللورد راندل على سام أن يأكل التّفّاح ما داموا تحت سقف پاكستر ردواين. انتابه دُوار البحر في رحلة العودة إلى الدّيار أيضًا، لكنه كان يحسّ براحةٍ بالغة للرّحيل حتى إنه كادَ يُرَحّب بطعم القيء في مؤخّرة حَلقه. انتظرَت أمّه رجوعهم إلى (هورن هيل) لتُخبِره بأن أباه لم يكن ينوي عودته، وقالت له: «كان هوراس سيأتي معنا بدلًا منك، في حين كنت ستبقى أنت في (الكرمة) وصيفًا وساقيًا عند اللورد پاكستر، ولو سررته لخطبت ابنته». ما زالَ سام يَذكُر لمسة يد أمّه النّاعمة إذ مسحَت وجهه من الدّموع بقطعةٍ من الحرير المبلّل بلُعابها وهي تُغَمغِم: «صغيري المسكين سام، صغيري المسكين المسكين سام».

فكّر وهو يتمسّك بحاجز (الطّائر الأسود) ويُشاهِد الأمواج تتكسّر على السّاحل الحجري: سيكون جيّدًا *أن أراها ثانيةً، بل وربما تفخر بي إذا رأتني في ثيابي السّوداء. يُمكنني أن أقول لها: «إنني رجل الآن يا أمّاه، وكيل وأخ في حَرس اللّيل. أحيانًا يدعونني إخوتي بسام القاتِل»*. وسيرى أخاه ديكون وأخواته أيضًا. *يُمكنني أن أقول لهم: «انظُروا، انظُروا، اتّضح أنني أصلح لشيء»*.

لكن إذا ذهبَ إلى (هورن هيل) فربما يكون أبوه هناك.

جعلَ الخاطر معدته تثور من جديد، ومالَ سام من فوق الحاجز وعادَ يقيء، ولكن ليس في اتِّجاه الرِّيح، إذ ذهبَ إلى الحاجز الصَّحيح هذه المرَّة. لقد بدأ يبرع في التَّقيؤ.

أو أن هذا ما كان يحسبه، إلى أن ابتعدَت (الطَّائر الأسود) عن اليابسة وتوجَّهت شرقًا عبر الخليج نحو سواحل (سكاجوس).

تقع الجزيرة في مدخل (خليج الفقمات)، مساحتها هائلة وجبالها ضخمة وأرضها قاسية وعرة يَسكنُها البرابرة. سبقَ لسام أن قرأ أنهم يَقطُنون بالكهوف والجبال المنعزلة، ويمتطون اليونيكورنات الشَّعثاء الضُّخمة إلى الحرب. في اللُّغة القديمة كلمة «سكاجوس» معناها «حجر»، ويُسَمِّي السكاجوسيُّون أنفسهم حجريِّي الميلاد، لكن مَن عداهم من أهل الشَّمال يُسَمُّونهم «سكاجيِّين» ولا يُكِنُّون لهم مودَّةً. قبل مئة عامٍ فقط تمرَّد السكاجيُّون، واستغرقَ إخماد ثورتهم سنواتٍ وأتى على حياة سيِّد (وينترفل) ومئاتٍ من جُنده. يقول بعض الأغاني إن السكاجيِّين أكَلة لحوم بَشر، ويُفترَض أن مُحاربيهم يأكلون قلوب وأكباد مَن يَقتُلون، وفي الماضي السَّحيق أبحرَ السكاجوسيُّون إلى جزيرة (سكاين) القريبة وسبوا نساءها وذبَحوا رجالها وأكلوهم على الشَّاطئ في وليمةٍ استمرَّت أسبوعين كاملين، وحتى اليوم تظلُّ (سكاين) مقفرةً.

داريون أيضًا يعرف الأغاني، فحين ارتفعت قِمم (سكاجوس) الرَّماديَّة الكئيبة من البحر انضمَّ إلى سام عند مقدِّمة السَّفينة، وقال: «إذا شاءت الآلهة سنلمح يونيكورن».

- «إذا شاءت الآلهة لن نقترب لتلك الدَّرجة. التَّيَّارات خدَّاعة حول (سكاجوس)، وثمَّة صخور يُمكن أن تكسر بدن السَّفينة كقشرة البيضة. لكن لا تُذكِّر هذا لجيلي، إنها خائفة بما فيه الكفاية».

- «هي وابنها الذي لا ينقطع عن البُكاء. لا أدري أيُّهما أكثر صخبًا. الوقت الوحيد الذي لا يبكي فيه لمَّا تدسُّ حلمتها في فمه، وعندئذٍ تشرع هي في البُكاء!».

كان سام قد لاحظ هذا أيضًا، لكنه قال بكلل: «ربما يُؤلِمها الرَّضيع. إذا كان قد بدأ يُسَنِّن...».

نقرَ داريون على أوتار عوده بإصبعٍ واحد عازفًا نغمةً ساخرةً، وقال: «سمعتُ أن الهَمج أشجع من هذا».

رَدَّ سام بإصرار: «إنها شُجاعة»، ولو أنه هو نفسه عليه أن يقرَّ بأنه لم يرَ جيلي في تلك الحالة المزرية من قبل. على الرغم من أنها تُخفي وجهها أغلب الوقت وتُحافِظ على عتمة القمرة فإنه يرى عينيها محمرَّتين دائمًا والدُّموع تُبلِّل وجنتيها، لكن عندما سألَها عمَّا هنالك اكتفَت بهَزِّ رأسها وتركَته يبحث عن الإجابات بنفسه. قال لداريون: «البحر يُخيفها لا أكثر. قبل ذهابها إلى (الجِدار) لم تعرف في حياتها إلَّا (قلعة كراستر) والغابة المحيطة بها. لا أظنُّ أنها ابتعدَت أكثر من نِصف فرسخٍ عن المكان الذي وُلِدَت فيه. إنها تعرف الجداول والأنهار، لكنها لم ترَ بُحيرةً قَطُّ إلى أن صادَفنا واحدةً، والبحر... البحر مخيف».

- «اليابسة لم تَغِب عن أعيُننا إطلاقًا».

- «لكنها ستغيب». سام أيضًا لا يتطلَّع إلى تلك المرحلة من الرِّحلة.

- «مؤكَّد أن القاتِل لا يخشى القليل من الماء».

قال سام كاذبًا: «ليس أنا، بل جيلي... قد يُساعِد الرَّضيع على النَّوم أن تُغَنّي لهما بعض أغاني المهد».

التوى فم داريون اشمئزازًا، وقال: «فقط إذا دسّت سدادةً في مؤخّرته. لستُ أطيقُ الرّائحة».

في اليوم التّالي بدأت الأمطار وازدادَ البحر تقلّبًا، فقال سام لإيمون: «الأفضل أن ننزل بعيدًا عن البلل»، لكن المِايستر الهَرِمَ ابتسمَ قائلًا: «أحبُّ الشُّعور بالمطر على وجهي يا سام، كأنه دموع. دعني أبقى فترةً أطول قليلًا أرجوك. لقد مضى زمن طويل منذ بكيتُ».

إذا أرادَ المِايستر إيمون أن يبقى على السّطح على الرغم من شيخوخته وهشاشته فلا خيار لدى سام إلّا البقاء معه. هكذا جلسَ إلى جوار الرّجل ما يَقرُب من ساعة، وقد ربضَ بمعطفه الذي غاصَت فيه قطرات المطر النّاعمة الثّابتة وتخلّلته حتى الجِلد، أمّا إيمون فبدا أنه يَشعُر به بالكاد. تنهّد العجوز وأغلقَ عينيه، ودنا سام منه أكثر ليقيه من الرّيح قدر الإمكان قائلًا لنفسه: *سيَطلُب مني أن آخذه إلى القمرة قريبًا، لا بُدّ أن يفعل*، لكن إيمون لم يفعل، وأخيرًا بدأ هزيم الرّعد يتردّد من بعيد ناحية الشّرق، ليقول سام مرتعدًا: «يجب أن ننزل». لم يُجِبه المِايستر إيمون، وعندئذٍ فقط تبيّن سام أن العجوز غابَ في النّوم، فقال وهو يهزّه من كتفه برفق: «أيها المِايستر، مِايستر إيمون، استيقِظ».

انفتحَت عينا إيمون البيضاوان الكفيفتان، وقال والمطر ينهمر على وجنتيه: «إج؟ إج، حلمتُ بأني عجوز».

لم يدرِ سام ماذا يفعل. انحنى ورفعَ العجوز وحملَه إلى أسفل. لم يصفه أحد بالقوّة قَطّ، وقد تشبّعت ملابس المِايستر إيمون السّوداء بالماء مضاعِفةً وزنه، ومع ذلك لم يكن أثقل من طفل. حين اندفعَ إلى القمرة وإيمون بين ذراعيه وجدَ أن جيلي تركَت الشُّموع كلّها تنطفئ. كان الرّضيع نائمًا، وتكوّرت هي على نفسها في زكنٍ باكيةً بخفوتٍ بين طيّات المعطف الأسود الكبير الذي أعطاها سام إياه. قال مستعجلًا إياها: «ساعِديني، يجب أن نُجفّفه ونُدفّئه».

نهضَت من فورها، ومعًا خلعا عن المِايستر العجوز ثيابه المبتلّة ودفناه تحت كومةٍ من الفرو، لكن جِلده كان رطبًا باردًا دبق الملمس، فقال سام لجيلي: «ادخُلي معه تحت الأغطية، ضمّيه إليكِ، دفّئيه بجسدكِ، يجب أن تُدفّئيه». أطاعته في هذا أيضًا دون أن تقول كلمةً وإن ظلّت تتنشّق. سألَ سام: «أين داريون؟ سندفأ أكثر إذا كنا كلُّنا معًا. ينبغي أن يكون هنا أيضًا». كان في الطّريق إلى أعلى ثانيةً ليجد المغنّي عندما ارتفعَت الأرض من تحته ثم هوَت. ولولَت جيلي، وسقطَ فاقدًا توازنه، واستيقظَ الرّضيع صارخًا.

وأتت رجّة السّفينة الثّالية بينما يُحاوِل النّهوض بصعوبة، فألقَت جيلي بين ذراعيه وتشبّثت به الفتاة الهمجيّة بشدّةٍ مستميتة جعلَته يكاد لا يستطيع التقاط أنفاسه، لكنه قال لها: «لا تخافي، هذه مغامَرة فحسب. ذات يومٍ ستحكين لابنكِ عنها». لم يُفلِح قوله إلّا في جعلها تغرس أظفارها أكثر في ذراعيه، وارتعدَت واهتزَّ جسدها كلّه من عُنف نحيبها. *مهما قلتُ أزيدُ الأمر سوءًا*. احتواها بقوّةٍ وهو يعي على نحوٍ غير مريح أن ثدييها ملتصقان بصدره، وعلى الرغم من ذُعره كان هذا كافيًا لاستثارته. قال لنفسه خجِلًا: ستَشعُر به، لكن إذا شعرَت جيلي بشيءٍ فإنها لم تُبدِ أمارةً على ذلك، بل تمسّكت به أكثر.

اختلطَت الأيام معًا بَعد ذلك. لم يروا الشّمس قَطُّ، واصطبغَت النّهارات بالرّمادي واللّيالي بالأسود، إلّا عندما يُضيء البرق السّماء فوق ذُرى (سكاجوس)، وجميعهم يتضوّر جوعًا لكن لا أحد يقدر على الأكل. فتحَ الرُّبّان برميل نبيذٍ ناري لتقوية الملّاحين، وجرّب سام كوبًا منه وتنهّد إذ أحسّ بثعابين ساخنة تزحف داخل حَلقه إلى صدره، وأعجبَ الشّراب داريون أيضًا، ومنذ حينها لا يستفيق إلّا نادرًا.

ارتفعَت القلوع وانخفضَت، وتمزّق أحدها من صاريته وطارَ مبتعدًا كطائرٍ رمادي ضخم، وإذ دارَت (الطّائر الأسود) حول ساحل (سكاجوس) الجنوبي أبصَروا حُطام قاديسٍ على الصُّخور، وقد انجرفَ عدد من أفراد طاقمه إلى الشَّاطئ، واحتشدَت طيور الرُّخ[49] والسّراطين تحتفي بهم على طريقتها. دمدمَ ذو الأسمال المالحة العجوز: «قريبون للغاية. نفخة واحدة قويّة كفيلة بتحطيمنا إلى جوارهم». على الرغم من إعيائهم مالَ ملّاحوه على مجاذيفهم من جديد، وبعُسرٍ راحَت السّفينة تشقُّ الأمواج المعتلجة جنوبًا صوب (البحر الضيّق)، إلى أن تضاءلَت (سكاجوس) ولم يَعُد يلوح منها إلّا بضعة أشكالٍ قاتمة في السّماء ربما تكون زُكامًا رعديًا[50] أو قِمم جبالٍ سوداء شاهقة، أو هذا وذاك.

بَعدها مرّت عليهم أيام ثمانية وليالٍ سبع من الإبحار الهادئ في أجواءٍ صافية.

ثم هبّت عواصف أخرى أسوأ من سابقتها.

أكانت ثلاث عواصف أم عاصفةٌ واحدةٌ تخلّلتها فترات هدوء؟ لم يعرف سام الإجابة، وإن حاولَ بكلّ جوارحه أن يكترث، حتى إن داريون صرخَ فيه مرّة بينما تلملَموا معًا في القمرة: «ما الفرق؟!»، فأرادَ سام أن يقول له: *لا فرق، لكن ما دمتُ أفكّرُ في هذا فلن أفكّر في الغرق أو الغثيان أو رجفة المِايستر إيمون.* أجابَ بنبرةٍ كالصّرير: «لا فرق...»، لكن الرّعد طغى على بقيّة كلامه، وتمايلَت السّفينة ورمَته إلى الجانب. كانت جيلي تنوح، والرّضيع يعوي، ومن الأعلى بلغَ مسامع سام صوت ذي الأسمال المالحة العجوز يهدر في طاقمه، الرُّبّان الأشعث الذي قلّما يتكلّم.

كم أكرهُ البحر، كم أكرهُ البحر، كم أكرهُ البحر، كم أكرهُ البحر. ومضة البرق التّالية كانت ساطعةً لدرجة أنها أضاءت القمرة من خلال الشّقوق في ألواح الخشب أعلاهم. *هذه سفينة قويّة متينة، سفينة قويّة متينة، سفينة قويّة، لن تغرق، لستُ خائفًا.*

خلال واحدةٍ من فترات الهدوء بين عاصفتين، وبينما تشبّث سام ومفاصل أصابعه مبيضّة بالحاجز راغبًا بقوّة في أن يقيء، سمعَ بعضًا من أفراد الطّاقم يقولون متذمّرين إنهم آلوا إلى هذا الموقف بسبب وجود امرأةٍ على السّفينة، بل وامرأة همجيّة أيضًا. سمعَ أحدهم يقول والرّيح تشتدُّ مجدّدًا: «ضاجعَت أباها. هذا أسوأ من العِهر، أسوأ من أيّ شيء. سنغرق جميعًا ما لم نتخلّص منها ومن ذلك المسخ الذي ولدَته».

لم يجرؤ سام على مواجَهتهم. إنهم رجال قُساة أصلاب، أذرعهم وأكتافهم غلّظتها سنوات العمل على المجاذيف، لكنه حرصَ على شحذ سكّينه والذّهاب مع جيلي متى خرجَت من القمرة لتقضي حاجتها.

حتى داريون لم يقل خيرًا عن الفتاة الهمجيّة. في مرّةٍ بإلحاحٍ من سام بدأ يُغنّي تهويدةً لتهدئة الرّضيع، لكن في منتصَف البيت الأول انفجرَت جيلي في بُكاءٍ عنيف، فقال داريون بحدّة: «بحَقّ الجحائم السّبع اللّعينة! ألا يُمكنكِ أن تنقطعي قليلًا لتسمعي أغنيّة؟!».

ناشدَه سام قائلًا: «اعزف فقط، غَنِّ لها الأغنيّة».

ردّ داريون: «ليست تحتاج إلى أغنيّة، بل إلى الصّفع على مؤخّرتها، أو ربما إلى أن ينكحها أحد بقوّة. ابتعد عن طريقي أيها القاتِل»، ودفعَ سام جانبًا وخرجَ من القمرة ليجد شيئًا من السّلوى في كوبٍ من النّبيذ النّاري مع أخوّة الملّاحين الخشنة.

عندئذٍ كانت الأسباب قد تقطّعت بسام. إنه يكاد يعتاد الرّوائح، لكن بين العواصف وبُكاء جيلي لم يُراوِده النّوم منذ أيام. حين رأى المِايستر إيمون مستيقظًا سألَه بخفوتٍ شديد: «أما من شيءٍ يُمكنك أن تُعطيها إياه؟ عُشبًا أو عقّارًا كي لا تخاف؟».

قال له العجوز: «ليس صوت الخوف ما تسمع وإنما الحُزن، وليس هناك عقّار يُداوي هذا. دَع دموعها تنهمر حتى تنفد يا سام، فلا يُمكنك أن تسدّ النّبع».

لم يفهم سام، فسأل: «إنها ذاهبة إلى مكانٍ آمن، مكانٍ دافئ، فلِمَ تحزن؟».

همسَ العجوز: «سام، إن لك عينين سليمتين ورغم ذلك لا ترى. إنها أُم حزينة على طفلها».

- «إنه مصاب بالغثيان لا أكثر، كلُّنا مصابون بالغثيان. حالما نرسو في (براقوس)...».

- «... سيظلُّ الرَّضيع ابن دالا وليس الطِّفل الذي خرج من جسدها».

استغرقَ سام وهلةً حتى أدركَ ما يرمي إليه إيمون، ثم قال: «لا يُمكن أن... إنها لا... هو ابنها بالطَّبع. ما كانت جيلي لتتزك (الجِدار) دون ابنها إطلاقًا. إنها تحبُّه».

- «لقد أرضعَت الاثنين وأحبَّت الاثنين، لكن ليس على حدٍّ سواء. لا أم تحبُّ أطفالها جميعًا بالدَّرجة نفسها، ولا حتى (الأُم في الأعالي). إنني واثق بأن جيلي لم تُترُك الطِّفل برغبتها. ما ألقاه حضرة القائد من تهديداتٍ أو وعودٍ ليس بوسعي إلَّا أن أخمِّنه... لكن المؤكَّد أنه وعدَ وتوعَّد».

- «لا، لا، خطأ، ما كان جون لـ...».

- «ما كان جون ليفعل ذلك، أمَّا من فعلَه فحضرة القائد. أحيانًا لا توجَد خيارات سعيدة يا سام، بل خيارات أقلُّ جسامةً من غيرها».

لا خيارات سعيدة. فكّر سام في كلّ المِحن التي مَرّ بها مع جيلي؛ في (قلعة كراستر) ومصرع الدّب العجوز، في الثّلج والجليد والرّياح التي تُجمّد النّخاع في العظم، في أيامٍ وأيامٍ وأيامٍ من المشي، في الجُثث الحيّة في (وايتري)، في ذي اليدين الباردتين وشجرة الغِدفان، في (الجِدار)، (الجِدار)، (الجِدار)، والبوّابة السّوداء تحت الأرض. وإلامَ أفضى كلُّ ذلك؟ *لا خيارات سعيدة ولا نهايات سعيدة*.

أرادَ أن يَصرخ. أرادَ أن يُوَلوِل وينتحب ويرتجف ويتكوّر على نفسه في الرُّكن ويبكي. *بدّل الطّفلين، بدّلهما ليحمي الأمير الصّغير، ليُبعِده عن نيران الليدي مليساندرا وإلهها الأحمر. إذا أحرقَت ابن جيلي فمَن سيُبالي؟ لا أحد إلّا جيلي. إنه ابن كراستر لا أكثر، مسخ وُلِدَ من زنى المحارم، وليس ابن ملك ما وراء الجِدار. لا يَصلُح رهينةً، ولا يَصلُح قُربانًا، لا يَصلُح لشيء، بل إنه بلا اسمٍ حتى*.

بلا كلمةٍ صعدَ سام مترنّحًا إلى السّطح ليُفرِغ معدته، لكنه وجدَها خاويةً. كان اللّيل قد حَلّ عليهم، ليل ساكن غريب لم يروا مثيله منذ أيام. البحر أسود كالزُّجاج، والملّاحون مستريحون على المجاذيف وقد غابَ واحد أو اثنان منهم في النّوم في موضعيهما، والرّيح تدفع الأشرعة، وإلى الشّمال كوكبة من النّجوم رآها سام علاوةً على الرّحّال الأحمر الذي يُسمّيه شَعب الأحرار (اللّص)، ففكّر ببؤس: *المفترَض أن يكون هذا نجمي. لقد ساعدتُ على جعل جون القائد وجلبتُ له جيلي والرّضيع. ليست هناك نهايات سعيدة.*

ظهرَ داريون إلى جواره غير واعٍ لألمه، وقال: «أيها القاتِل، ليلة حلوة أخيرًا. انظُر، النّجوم بدأت تظهر، وقد نرى لمحةً من القمر أيضًا. ربما انتهى الأسوأ».

رَدّ سام: «لا»، ومسحَ أنفه وأشارَ جنوبًا بإصبعٍ سمين إلى الظّلام الحالك، وأضافَ: «هناك». ولم يكد يتكلّم حتى ومضَ البرق مباغتًا صامتًا ساطعًا يُعمي الأعيُن، ولأقلّ من لحظةٍ توهّجت الشحب البعيدة، جبال مكوّمة على جبال، أرجوانيّة وحمراء وصفراء، أطول من العالم ذاته. «الأسوأ لم ينتهِ، الأسوأ في بدايته فقط، وليست هناك نهايات سعيدة».

ضاحكًا قال داريون: «بحَقّ الآلهة أيها القاتِل، يا لك من جبان».

---

(48) كانت السّفن القديمة، خصوصًا الحربي منها، تُجهّز ببناءين محصّنين في المقدّمة والمؤخّرة، يُطلَق على كلٍّ منهما سَلوقيّة. (المترجم).

(49) الرّخ طائر أسود صغير من الغُرابيّات، ويختلف عن طائر الرّخ الخُرافي المذكور في أساطير الإغريق. (المترجم).

(50) الرّكام الرّعدي نوع من السّحاب يتشكّل على نحوٍ عمودي كثيف ويحمل المطر ويتزامَن مع هبوب العواصف الرّعديّة. (المترجم).

دخلَ اللورد تايوين لانستر المدينة على صهوة جواده، دِرعه المطليّة بالمينا القرمزي مصقولة برّاقة وتتألّق فيها الجواهر والزّخارف الذّهب، وخرج منها في عربةٍ طويلة مكسوّة بالرّايات القرمزيّة، بينما تركب سِتُّ أخواتٍ صامتات مصاحباتٍ زفاته.

غادرَ الموكب الجنائزي (كينجز لاندنج) من (بوّابة الآلهة) الأوسع والأفخم من (بوّابة الأسد)، غير أن چايمي أحسّ بخطأ هذا الاختيار، فأبوه كان أسدًا ولا أحد يُنكِر ذلك، لكن حتى اللورد تايوين نفسه لم يدّعِ الألوهيّة قطّ.

أحاطَ بعربة اللورد تايوين حرس شَرف من خمسين فارسًا تُرَفرِف الأعلام القرمزيّة على رماحهم، وقد راحت الرّيح تلهو براياتهم جاعلةً رموزهم تتراقَص وتنتفِض، وإذ خَبَّ چايمي بحصانه نحو مقدّمة الموكب مَرَّ بخنازير بريّة وغُرَيرات[51] وخنافس، وبسهمٍ أخضر وثورٍ أحمر، ومِطرَدين متقاطعين وحربتين متقاطعتين، وقِطّ أشجار وثمرة فراولة وكَمّ سيّدة[52]، وأربع شموس متفجّرة في مربّعاتٍ متباينة الألوان.

ارتدى اللورد براكس سترةً رماديّةً باهتةً مشرّطةً بقماش الفضّة، وثبّت فوق قلبه دبّوسًا من الجمشت على شكل يونيكورن، ودرّع اللورد چاست نفسه بالفولاذ الأسود، وقد زخرفت واقي صدره ثلاثة رؤوس أسودٍ ذهبيّة، وإن كان منظره يشي بأن شائعات موته لم تُبالِغ كثيرًا، إذ تركته الإصابات وفترة السّجن ظِلًا للرّجل الذي كانه من قبل، أمّا اللورد بانفورت فقد خلصَ من المعركة في حالٍ أفضل وبدا مستعدًا للعودة إلى الحرب في الحال. كان پلوم يرتدي الأرجواني ويرستر الأبيض المزركش بالأسود ومورلاند الخمري والأخضر، لكن كلًا منهم وضعَ على كتفيه معطفًا من الحرير القرمزي تكريمًا للرّجل الذي يصحبونه إلى الوطن.

وراء اللوردات تحرّك مئة من رماة النّشّابيّة وثلاثمئة من الجنود المُشاة الذين ينسدل القرمزي من على أكتافهم أيضًا، في حين شعرَ چايمي في معطفه الأبيض ودِرعه البيضاء بأنه في غير محلّه في هذا البحر الأحمر.

ولم يُهوِّن عمّه عليه الأمر. قال السير كيڤان عندما لحقَ به چايمي في مقدّمة الرّكب: «حضرة القائد، أهناك أمر أخير من صاحِبة الجلالة لي؟».

- «لستُ هنا من أجل سرسي». بدأت طبلة تدقُّ وراءهما بإيقاعٍ جنائزيٍّ بطيءٍ موزون، فبدا كأنها تقول: ميت، ميت، ميت. «جئتُ أودِّعه. لقد كان أبي».

- «وأباها».

- «أنا لستُ سرسي. إن لي لحيةً ولها ثديان. إذا كنت لا تزال تخلط بيننا يا عمّاه فاحصِ أيدينا. سرسي لها اثنتان».

قال عمُّه: «كلاكما يتلذَّذ بالسُّخرية. أعفني من نِكاتك أيها الفارس، فأنا لا أجد لذَّةً فيها».

- «كما تشاء». *الكلام لا يمضي على الوتيرة التي أملتها*. «كانت سرسي لترغب في توديعك بنفسها، لكن عليها واجباتٍ كثيرة ملحّة».

رَدَّ السير كيڤان ساخرًا: «كلُّنا كذلك. كيف حال مليكك؟». جعلَت نبرته السُّؤال تأنيبًا.

أجابَ چايمي بلهجةٍ دفاعيّة: «بخير. بالون سوان يقضي معه الصّباح. إنه فارس صالح شُجاع».

- «في الماضي كان هذا من نافلة القول عندما يتكلَّم النّاس عمّن يرتدون المعطف الأبيض».

فكَّر چايمي: *لا رجل يختار إخوته. اترُكوا لي فُرصة اختيار رجالي بنفسي وسيعود الحَرس الملكي عظامًا* من جديد. لكن دَعه يقولها على المكشوف وستبدو ذريعةً واهيةً، خيلاء فارغةً من رجلٍ تُلَقِّبه البلاد بقاتِل الملك. رجل شَرفه *خراء*. صرفَ چايمي المسألة من ذهنه، فهو لم يأتِ ليتجادَل مع عمّه، وبدلًا من ذلك قال: «أيها الفارس، عليك أن تُهادِن سرسي».

- «أنحن في حرب؟ لا أحد أخبرَني».

تجاهلَ چايمي التّعليق، وقال: «الشِّقاق بين لانستر ولانستر لن يُؤدّي إلّا إلى مساعَدة أعداء عائلتنا».

- «إذا كان هناك شِقاق فهو ليس من صُنعي. سرسي تُريد أن تَحكُم، ليكن إذن، البلاد لها. لا أريدُ إلّا أن أُترَك في سلام. إن مكاني في (داري) مع ابني. لا بُدّ من ترميم القلعة وزرع الأراضي وحمايتها»، وأطلقَ السير كيڤان ضحكةً مريرةً قصيرةً، ثم أضاف: «كما أن أختك تركَت لي قليلًا يشغل وقتي غير ذلك. عليّ أن أحضر زفاف لانسل. عروسه صبرها ينفد وهي جالسة تنتظر ذهابنا إلى (داري)».

عروسه *الأرملة ابنة (التوأمتين)*. كان لانسل ابن عمِّه راكبًا وراءهما على بُعد عشر ياردات، وقد بدا بنظراته الخاوية وشَعره الأبيض الجاف أكثر عجزًا من اللورد چاست. أحسّ چايمي بأصابعه الشَّبحيّة تستحكُّه لمجرّد مرآه... *تُضاجِع لانسل وأوزموند كِتلبلاك وربما فتى القمر أيضًا*... لقد حاولَ أن يتكلَّم مع لانسل مرّاتٍ أكثر مما يستطيع أن يُحصي، لكنه لم يجده بمفرده قَطّ، فإذا لم يكن أبوه معه فهناك سپتون ما يُلازِمه دومًا. *ربما يكون ابن كيڤان، لكن ما في عروقه لبن. تيريون كذب عليّ، لم يقل ما قاله إلّا ليجرحني.*

نحّى چايمي لانسل عن باله، وعادَ يلتفت إلى عمِّه متسائلًا: «هل ستبقى في (داري) بعد الزِّفاف؟».

- «فترةً ربما. يبدو أن ساندور كليجاين يشنُّ الغارات في أنحاء (الثالوث). أختك تُريد رأسه. محتمَل أنه انضمَّ إلى دونداريون».

سمعَ چايمي بما حاقَ بـ(الملّاحات)، ولا بُدّ أن يَصف البلاد سمعَ أيضًا. الغارة كانت استثنائيّةً في وحشيّتها؛ النّساء اغتُصِبن وقُطِعَت أثداءهن، والأطفال ذُبِحوا بين أذرُع أمّهاتهم، ويَصف البلدة أُضرِمَ فيه النّار. «راندل تارلي في (بِركة العذارى). دَعه يتعامَل مع الخارجين عن القانون. عن نفسي أفضِّلُ أن تذهب إلى (ريڤرزن)».

- «السير داڤن له القيادة هناك، حاكم الغرب. ليس هو من يحتاج إليّ بل لانسل».

- «كما تقول يا عمّاه». كان رأس چايمي يدقُّ بنفس إيقاع الطّبلة، ميت، ميت، ميت. «خيرٌ لك أن تحتفظ بفُرسانك حولك».

رمقه عمُّه ببرودٍ سائلًا: «أهذا تهديد أيها الفارس؟».

تهديد؟ رَدَّ وقد باغتته الكلمة: «إنه تنبيه. قصدتُ فقط أن... ساندور رجل خطِر».

- «إنني أشنقُ الخارجين عن القانون والفُرسان اللُّصوص وأنت لا تزال تتبرّز في قِماطك. لن أذهب وأواجه كليجاين ودونداريون بنفسي إذا كان هذا ما تخشاه أيها الفارس. اشتهاء المجد بكلِّ حماقةٍ ليس من خصال جميع أبناء لانستر».

اعتقدُ أنك تتكلّم عني أنا يا عمّاه. «أدام ماربراند يستطيع التّعامُل مع هؤلاء المجرمين مِثلك تمامًا، وكذا براكس أو بانفورت أو پلوم أو أيٌّ الآخرين، لكن لا أحد منهم مناسب لأن يكون يد مليكٍ صالحًا».

- «أختك تعرف شروطي، وشروطي لم تتغيّر. قُل لها هذا عندما تذهب إلى غُرفة نومها المرّة القادمة»، وهمزَ السير كيفان جواده الحربي وهرولَ إلى الأمام واضعًا نهايةً مبتورةً لحوارهما.

تركَه چايمي يذهب شاعرًا بيد سيفه المفقودة ترتعش. كان يأمل رغم وهن الأمل أن سرسي أساءت الفهم بشكلٍ ما، لكن الواضح أن ذلك خطأ. *إنه يعلم بأمرنا، بأمر تومن ومارسلا، وسرسي تعلم أنه يعلم.* السير كيفان عمُّهما لانستر من أولاد (كاسترلي روك)، ولا يُصَدِّق چايمي أنها تستطيع أن تُؤذيه بأيِّ وسيلة، ولكن... *لقد أخطأتُ بشأن تيريون، فلِمَ لا أكونُ مخطئًا بشأن سرسي أيضًا؟* في زمانٍ يَقتُل فيه الأبناء آباءهم ما الذي يردع ابنة أخٍ عن الأمر بقتل عمِّها؟ *وهو عَمٌّ مزعج يعرف أكثر من اللّازم.* ولو أن محتملًا أن سرسي تأمل أن يقوم كلب الصَّيد بعملها بدلًا منها. إذا قتلَ ساندور كليجاين السير كيفان فلن تحتاج إلى تلويث يديها بالدّماء. *وإذا التقيا فسيقتُله.* في الماضي كان كيفان لانستر رجلًا صُلبًا، إلّا أنه لم يَعُد شابًا، وكلب الصَّيد...

لحقَ به الموكب، وإذ مَرَّ به ابن عمّه وعلى جانبيه سِيتونان ناداه چايمي قائلًا: «لانسل يا ابن العم، أردتُ أن أهنّئك على زواجك. لا يُؤسِفني إلّا أن واجباتي لا تسمح لي بالحضور».

- «لا بُدَّ أن يظلَّ صاحِب الجلالة محميًّا».

- «وسيكون كذلك. لكني أكرهُ أن يفوتني إضْحاكُك. إنها زيجتك الأولى وزيجتها الثّانية حسب ما فهمتُ. أنا واثق بأن سيّدتي سيسرُّها أن تُريك ما الذي يُوضَع أين».

دفعَت الملاحظة البذيئة عددًا من اللوردات القريبين إلى الضّحك وسِيتونّي لانسل إلى النّظر إليه باستنكار، في حين اعتدلَ ابن عمّه متململًا فوق سَرجه، وقال: «أعرفُ ما يكفي لأن أؤدّي واجبي كزوجٍ أيها الفارس».

- «بالضّبط ما تُريده العروس ليلة زفافها، زوجًا يعرف كيف يُؤدّي واجبه».

زحفَ الاحتقان على وجنتي لانسل، وقال: «إنني أصلّي من أجلك يا ابن العم، ومن أجل جلالتها أيضًا. عسى أن تقودها (العجوز) إلى الحكمة وأن يُدافِع عنها (المُحارب)».

قال چايمي: «ولِمَ تحتاج إلى (المُحارب) وأنا أدافعُ عنها؟»، ودارَ بحصانه ليخفق معطفه الأبيض في الرّيح. *العِفريت كان يكذب. سرسي تُؤثِر أن تأخذ جثّة روبرت بين ساقيها على أحمق متديّن كلانسل. تيريون أيها الوغد الشرّير، كان يَجدُر بك أن تكذب بشأن أحدٍ أكثر قابليّةً للتّصديق.*

هرولَ مجتازًا عربة جنازة أبيه صوب المدينة التي تلوح من بعيد.

بدَت شوارع (كينجز لاندنج) أقرب إلى القفر بينما شَقَّ چايمي لانستر طريقه إلى (القلعة الحمراء) فوق (تَل إجون العالي). إلى حَدٍّ كبير رحلَ الجنود الذين كانوا يشغلون أوكار القمار ومحال الأكل في المدينة، إذ عادَ جارلان الهُمام بنِصف قُوّات تايرل إلى (هايجاردن) وذهبَت السيِّدة والدته وجدَّته معه، في حين زحفَ النّصف الآخَر جنوبًا مع مايس تايرل وماثيس روان لتطويق (ستورمز إند).

وبالنِّسبة إلى جيش لانستر فما زالَ ألفان من المُحاربين المحنَّكين مخيِّمين خارج أسوار المدينة في انتظار وصول أسطول پاكستر ردواين ليحملهم عبر (الخليج الأسود) إلى (دراجونستون). يبدو أن اللورد ستانيس تركَ وراءه حاميةً صغيرةً عندما أبحرَ شمالًا، أي أن ألفين عدد يكفي ويزيد كما قدَّرت سرسي.

باقي الغربيّين عادوا إلى زوجاتهم وأطفالهم، ليُعيدوا بناء بيوتهم ويزرعوا حقولهم في سبيل حصاد محصولٍ أخير. قبل أن يُغادِروا أخذَت سرسي تومن في جولةٍ في مخيَّماتهم ليُحَيُّوا مليكهم الصَّغير. لم تبدُ جميلةً قَطُّ كما بدَت يومها، على شفتيها ابتسامة وضوء شمس الخريف يلتمع في شَعرها. أيًّا كان ما يُمكن لامرئ أن يقوله عن أخته، فإنها تعرف كيف تجعل الرِّجال يهيمون بها حُبًّا عندما تأبه كفايةً بالمحاولة.

حين دخلَ چايمي من بوّابة القلعة لاقى نحو دستتين من الفُرسان يتمرّنون على الطّاووس[53] في السّاحة الخارجيّة، فقال لنفسه: *شيء آخَر لم يَعُد بمقدوري أن أفعله*. الرُّمح أثقل وأكثر إرهاقًا من السّيف، والسّيوف ثبتت استعصاء المبارزة بها عليه بالفعل. ربما يُمكنه أن يُجَرِّب حمل الرُّمح بيُسراه، لكن ذلك يعني أن ينقل تُرسه إلى ذراعه اليُمنى، وفي النِّزال يكون الخصم دائمًا إلى اليسار، أي أن تعليق التُّرس على ذراعه اليُمنى عديم الجدوى كحلمتين على واقي الصّدر. فكّر وهو يترجّل: *لا، أيامي في مضمار النِّزال انتهَت*... لكن على الرغم من هذا توقّف يُشاهِد بعض الوقت.

سقطَ السير تالاد الطّويل من فوق حصانه عندما دارَ كيس الرّمل وارتطمَ برأسه، وهوى السير لايل كراكهول الملقَّب بالغفر القوي[54] على التُّرس بضربةٍ عنيفة شقّقته، ثم حطّم كينوس ابن بلدة (كايس) بقيّته، ليُعَلّق تُرسٍ جديد للسير درموت ابن (الغابة المطيرة). وجّه لامبرت تِرنبري ضربةً عابرةً فحسب، لكن چون بتلي الحليق وهمفري سويفت وآلن ستاكسپير وجّهوا ضرباتٍ مُحكمةً جميعًا، وحطّم رونيت كوننجتون الأحمر رُمحه إذ أصابَ الهدف... ثم امتطى فارس الزُّهور حصانه وأخزى الآخَرين كلّهم.

لطالما آمنَ چايمي بأن فَنّ ركوب الخيل يَمَثّل ثلاثة أرباع النّزال، والسير لوراس يركب ببراعةٍ فائقة ويحمل الرّمح كأنه وُلِدَ قابضًا عليه... وهو ما يُفَسّر التّعبير المتقلّص دومًا على وجه أمّه لا ريب. *يضع الرّأس حيث يُريد أن يضعه بالضّبط ويتمتّع بتوازُن القِططة*. ربما لم يكن *إسقاطه إياي عن حصاني حَظّا محضًا*. مؤسفٌ أنه لن ينال فُرصة مواجَهة الصّبي ثانيةً أبدًا.

هكذا تركَ الرّجال لرياضتهم، ليجد سرسي في غُرفتها الشّمسيّة في (حصن ميجور)، ومعها تومن وزوجة اللورد ميريويذر المايريّة ذات الشّعر الدّاكن، وكان ثلاثتهم يضحكون من المِايستر الأكبر پايسل، فقال چايمي حين دخلَ من الباب: «هل فاتتني مزحة طريفة ما؟».

قرقرَت الليدي ميريويذر: «أوه، انظُري، لقد عادَ أخوكِ الشّجاع يا جلالة الملكة».

- «معظمه عادَ». لاحظَ چايمي أن الملكة ثملة. في الفترة الأخيرة يبدو أن في متناول سرسي إبريقًا من النّبيذ طوال الوقت، وهي التي كانت من قبل تزجُر روبرت باراثيون لإسرافه في الشُّرب. لا يُعجِبه هذا، لكن لا شيء تفعله أخته هذه الأيام يُعجِبه. قالت: «أيها المِايستر الأكبر، أطلِع حضرة القائد على الخبر من فضلك».

بدا پايسل مرتبكًا للغاية وهو يقول: «وصلَ إلينا طائر من (ستوكوورث). الليدي تاندا أرسلَت خبرًا بوضع ابنتها لوليس ابنًا قويًا في صحّةٍ طيّبة».

- «ولن تُخمِّن أبدًا الاسم الذي أطلقوه على النّغل الصّغير يا أخي».

- «أذكرُ أنهم أرادوا تسميته تايوين».

- «نعم، لكني نهيتهم عن ذلك. قلتُ لفاليس إنني لن أسمح بأن يُطلَق اسم أبينا النّبيل على ابن حرام أنجبَه راعي خنازير من خنزيرةٍ بلهاء».

قال المِايستر الأكبر پايسل وقد نضحَت جبهته المتغضّنة عرقًا: «الليدي ستوكوورث تُؤكّد أن اسم الطّفل لم يكن من اختيارها، وكتبَت أن زوج لوليس هو من اختارَه، ذلك الرّجل برون... يبدو أنه...».

قال چايمي مخمّنًا: «تيريون، سمّى الطّفل تيريون»، وأومأ العجوز برأسه باضطرابٍ وهو يُجَفّف جبهته بكُمّ ردائه، فضحك چايمي رغمًا عنه قائلًا: «هاكِ يا أختي الجميلة. كنتِ تبحثين عن تيريون في كلّ مكانٍ وهو مختبئ في رَحِم لوليس».

- «طريف. أنت وبرون شديدا الظّرافة. لا شكّ أن النّغل يمتصّ اللّبن من أحد ضرعَي لوليس بينما نتكلّم، بينما يُشاهِد المرتزِق مبتسمًا لصفاقته».

علّقت الليدي ميريويذر: «ربما بين هذا الطّفل وأخيكِ شبه ما، ربما وُلِدَ مشوّهًا أو بلا أنف»، وأطلقَت ضحكةً مبحوحةً.

أعلنَت الملكة: «علينا أن نُرسِل هديّةً إلى الصّغير العزيز، أليس كذلك يا تومن؟».

- «يُمكننا أن نُرسِل إليه هرّةً صغيرةً».

قالت الليدي ميريويذر: «فلنُرسِل له شِبلًا»، وقالت ابتسامتها: *ليُمَزِّق حلقه الصّغير.*

ردّت سرسي: «كنتُ أفكّرُ في هديّةٍ من نوعٍ آخر».

زوج *أمّ* جديد *على الأرجح*. يعرف چايمي هذه النّظرة في عينَي أخته. لقد رآها من قبل، أقرب مرّةٍ كانت ليلة زفاف تومن حين أحرقَت (برج اليد). ساعتها غمرَ ضوء النّار الشّعواء الأخضر وجوه المشاهدين فلم يبدوا إلّا أشبه بجُثثٍ تتعفّن، قطيع من الغيلان الظّروب، لكن بعض الجُثث كان أجمل من غيره. حتى في الوهج المشؤوم ظلّت سرسي رائعة الجَمال، وقد وقفَت واضعةً يدًا على صدرها وافترقَت شفتاها وتألّقت عيناها الخضراوان. تبيّن چايمي أنها تبكي، لكن سواء أكان بُكاؤها ناجمًا عن الحزن أم النّشوة فلا يدري.

أفعمَه المشهد بالانزعاج إذ ذكّره بإيرس تارجاريَن وكيف كان الحرق يُهَيِّج شبقه. لا يُخفي الملك أسرارًا عن حَرسه الملكي، وقد كانت العلاقة بين إيرس وملكته متوتِّرةً خلال السّنوات الأخيرة من حُكمه، فناما منفصلين وبذلا قصارى جهدهما ليتحاشى كلٌّ منهما الثّاني في ساعات اليقظة، لكن متى سلّم إيرس رجلًا للنّار كان يأتي الملكة رييلا زائر ليلي. يوم أحرقَ يد الصّولجان والخنجر وقفَ چايمي وچون داري خارج غُرفتها بينما قضى الملك وطره، وسمعا رييلا تصيح من وراء الباب البلُوطي السّميك: «إنك تُؤلِمني». على نحوٍ غريب كان هذا أسوأ من صُراخ اللورد تشيلستد، وأخيرًا وجدَ چايمي نفسه مرغمًا على أن يقول: «لقد أقسمنا على حمايتها أيضًا»، فرَدَّ داري باقتضاب: «نعم، ولكن ليس منه».

رأى چايمي رييلا مرّةً واحدةً فقط بَعدها في صبيحة اليوم الذي غادرَت فيه إلى (دراجونستون). كانت الملكة ترتدي معطفًا رفعَت قلنسوته وهي تَدخُل المركبة الملكيّة التي ستنزل بها (تَل إجون العالي) إلى السّفينة المنتظِرة، لكنه سمعَ وصيفاتها يتهامَسن عقب رحيلها، ويقلن إن الملكة بدَت كأن وحشًا افترسَها، خمشَ فخذيها ومضغَ ثدييها. وحش متوّج.

قُرب النِّهاية أضحى الملك المجنون خوّافًا لدرجة أنه حرَّم وجود أيّ نصالٍ في حضوره باستثناء سيوف الحَرس الملكي، وقد تلبّدت لحيته واتّسخت، وصارَ شَعره الذّهبي الفضّي شبكةً تصل إلى خصره، واستحالَت أظفاره إلى مخالب صفراء متشقّقة طولها تسع بوصات. لكن النّصال ظلّت تُعَذّبه، تلك التي لم يستطِع منها فرارًا، نصال العرش الحديدي. طيلة الوقت كانت الجُلَب والجروح شِبه المندملة تُغَطّي ذراعيه وساقيه.

تذكَّر چايمي كلماته بينما يُمعِن النَّظر إلى وجه سرسي: *فليكن ملكًا على العظام المتفحّمة واللّحم المشوي، فليكن ملكًا على الرّماد*. ثم إنه قال: «جلالة الملكة، هل تسمحين بأن نتكلّم على انفراد؟».

- «كما ترغب. تومن، تأخّرت على الذّهاب إلى درس اليوم. اذهب مع المِايستر الأكبر».

- «حاضر يا أمّاه. إننا ندرس قصّة بيلور المبارَك».

استأذنَت الليدي ميريويذر في الانصراف أيضًا، وقبّلت الملكة على وجنتيها متسائلةً: «هل أعود على العشاء يا صاحِبة الجلالة؟».

- «سأستاءُ منكِ كثيرًا إذا لم تفعلي».

لم يستطِع چايمي أن يمنع نفسه من ملاحظة الطّريقة التي تُحرِّك بها المايريّة وَركيها وهي تمشي. *كلُّ خُطوةٍ إغراء*. حين انغلقَ الباب وراءها تنحنحَ وقال: «أولًا الإخوة كِتلبلاك، ثم كايبرن، والآن هي. تحتفظين بمجموعة وحوشٍ غريبة هذه الأيام يا أختي الجميلة».

- «أصبحتُ مولعةً بالليدي تاينا، إنها تُسَلّيني».

- «إنها واحدة من رفيقات مارچري تايرل. لا بُدّ أنها تتجسّس عليكِ لحساب الملكة الصّغيرة».

قالت سرسي: «طبعًا»، وذهبَت إلى الخوان لتُعيد مَلء كأسها، وأردفَت: «مارچري اهتزَّت طربًا عندما طلبتُ إذنها في أن آخذ تاينا رفيقةً لي. كان يجب أن تسمعها. ستكون *أختًا لكِ كما كانت لي. يجب أن تأخذيها بالطّبع! إن معي بنات عمومتي ورفيقاتي الأخريات*. ملكتنا الصّغيرة لا تُريدني أن أشعر بالوحدة».

- «إذا كنت تعلمين أنها جاسوسة فلِمَ أخذتِها؟».

برقَت عينا سرسي خُبثًا وهي تُجيب: «مارچري ليست بِنِصف الذّكاء الذي تخاله. إنها لا تملك أدنى فكرة عن الأفعى الفاتنة في أعماق تلك المايريّة القذرة، بينما أستغلُّ أنا تاينا في إطعام الملكة الصّغيرة ما أريدها أن تعرفه، وبعضه صحيح كذلك، وتاينا تُخبِرني بكلّ ما تفعله العذراء مارچري».

- «حقًّا؟ ما الذي تعرفينه عن تلك المرأة؟».

- «أعرفُ أنها أم لها ابن صغير تُريده أن يسمو إلى مكانةٍ عالية في هذا العالم، وستفعل كلّ ما يلزم لتحرص على تحقُّق ذلك. الأمّهات كلُّهن واحد. ربما تكون الليدي ميريويذر أفعى، لكنها بعيدة كلّ البُعد عن الغباء، وتعرف أنها تستطيع الاستفادة مني أكثر من مارچري، ولذا تجعل نفسها مفيدةً لي. سيُدهِشك أن تسمع الأشياء الشّائقة التي أخبرَتني بها».

- «أشياء مِثل ماذا؟».

جلسَت سرسي عند النّافذة، وقالت: «هل تعلم أن ملكة الأشواك تحتفظ بصندوقٍ من النُّقود في مركبتها؟ إنه ذهب قديم من قبل الغزوة، فإذا تحامقَ تاجر ما وطلبَ ثَمن بضاعته ذهبًا نقدَته إياه بعُملة (هايجاردن) التي تزن الواحدة منها نِصف واحدٍ من تنانيننا. مَن التّاجر الذي يجرؤ على الشّكوى من أن السيِّدة والدة مايس تايرل غشَّته؟»، ورشفَت من نبيذها، وسألَته: «هل استمتعت برحلتك القصيرة؟».

- «عمُّنا علّق على غيابكِ».

- «تعليقات عمّنا لا تهمُّني».

- «المفترَض أن تهمّكِ. بإمكانكِ أن تُحسني استغلاله، إن لم يكن في (ريفرَن) أو (الصّخرة) ففي الشّمال ضد اللورد ستانيس. لطالما اعتمدَ أبونا على كيڤان عندما...».

- «رووس بولتون حاكم الشّمال، سيتعامَل هو مع ستانيس».

- «اللورد بولتون محبوس تحت (العُنق)، الحديديُّون في (خندق كايلن) يعترضون طريقه إلى الشَّمال».

- «لن يدوم هذا طويلًا. قريبًا سيُزيل ابن بولتون النَّغل هذه العقبة الصَّغيرة، وسيكون مع اللورد بولتون مدد من جنود فراي قوامه ألفا رجلٍ لدعم قُوَّاته، تحت قيادة هوستين وإينس ابنَي اللورد والدر. المفترَض أن يكفي هذا للتَّعامُل مع ستانيس وبضعة آلاف من الرِّجال المكسورين».

- «السير كيڤان...».

- «... سيكون مشغولًا تمامًا في (داري) بتعليم لانسل كيف يمسح مؤخِّرته. لقد جرَّده موت أبينا من شَجاعته وأصبحَ رجلًا عجوزًا انتهى أمره. داڤن وداميون سيُحسنان خدمتنا أكثر».

قال چايمي الذي لا يرى ما يعيب ابنَي خُؤولته: «لا بأس بهما، لكنكِ ستحتاجين إلى يد. إن لم يكن عمّنا فمَن؟».

قالت أخته ضاحكةً: «ليس أنت، لا تخف. ربما زوج تاينا. جدُّه كان يد إيرس».

يد قرن *الوفرة*[55]. ما زالَ چايمي يَذكُر أوين ميريويذر جيِّدًا. كان رجلًا دمثًا لكن غير فعَّال في منصبه. «حسب ما أذكرُ فقد أبلى الرَّجل بلاءً رائعًا حتى إن إيرس نفاه وصادرَ أراضيه».

- «روبرت أعادَها، بعضها على الأقل. ستسعد تاينا إذا استغلّ الباقي».

- «وهل الغرض إسعاد عاهرة مايرية؟ حسبت أنه حُكم البلاد».

- «أنا أحكمُ البلاد».

صحيح، *ولترحمنا الآلهة*. تحبُّ أخته أن تعتبر نفسها اللورد تايوبين بتدبين، لكنها مخطئة. أبوهما كان شديد القسوة والعناد كنهرٍ جليدي، أمّا سرسي فنار شعواء خالصة، خصوصًا عندما يُعارِضها أحد. لقد تاهَت فرحًا كفتاةٍ صغيرة حين علمت أن ستانيس هجرَ (دراجونستون) وقد أيقنت بأنه تخلّى عن القتال أخيرًا وأبحرَ إلى المنفى، لكن حين وصلَ الخبر من الشَّمال بأنه ظهرَ مجدَّدًا عند (الجِدار) كانت غضبتها تُخيف النّاظرين. *إنها لا تفتقر إلى الذّكاء، لكن يعوزها حُسن التّقدير والصّبر*. «إنكِ محتاجة إلى يدِ قوي يُساعِدكِ».

قالت: «الحاكم الضّعيف يحتاج إلى يدِ قوي، كما احتاجَ إيرس إلى أبينا، لكن الحاكم القوي لا يتطلّب إلّا خادمًا مطيعًا يُنفِّذ أوامره»، ودوَّرت نبيذها في الكأس متابعةً: «ربما يَصلُح اللورد هالاين. لن يكون أول پايرومانسر يشغل منصب يد الملك».

نعم. لقد قتلتُ السّابق. «ثمّة كلام عن نيّتكِ تعيين أوران ووترز قيّمًا للشفن».

سألَته: «هل هناك من يتجسّس عليّ؟»، ولمّا لم يُجِب ألقَت سرسي شَعرها إلى الوراء، وقالت: «ووترز مناسب جدًا للمنصب. لقد قضى نِصف حياته على متون الشفن».

- «نِصف حياته؟ إنه يبدو في العشرين على الأكثر».

- «في الثّانية والعشرين، وماذا في هذا؟ أبونا لم يكن قد بلغَ الحادية والعشرين عندما عيّنه إيرس تارجاريَن يدًا. حانَ الوقت لأن يُحيط بتومن شبّان بدلًا من أولئك المسنّين المتغضّنين. أوران قوي ونشيط».

قوي ونشيط ووسيم... كانت تُضاجِع لانسل وأوزموند كِتلبلاك وربما فتى القمر أيضًا... «پاكستر ردواين خيار أفضل. إنه يقود أكبر أسطول في (وستروس)، في حين يستطيع أوران ووترز أن يقود قاربًا، بشرط أن تبتاعيه له».

- «أنت طفل يا چايمي. ردواين من حمَلة راية تايرل وابن شقيق أمِّه الشّنيعة تلك. لستُ أريدُ أيًّا من مخلوقات اللورد تايرل في مجلسي».

- «تعنين مجلس تومن».

- «تعلم ما أعنيه».

جيّدًا جدًا. «أعلمُ أن أوران ووترز فكرة سيّئة وهالاين فكرة أسوأ، وبالنّسبة إلى كايبرن... بحَقِّ الآلهة يا سرسي، لقد كان من جماعة ڤارجو هوت، (القلعة) جرّدته من سلسلته!».

- «الخراف الرّماديّة. كايبرن جعلَ نفسه مفيدًا لي لأقصى درجة، كما أنه مخلص، وهذا أكثر مما يُمكن أن أقول عن أهلي أنفسهم».

ستلتهم الغِربان وليمةً من لحومنا جميعًا إذا استمرَرتِ في هذا الطّريق يا أختي الجميلة. «سرسي، أنصِتي إلى نفسكِ. إنكِ ترين الأقزام في كلّ ظِلٍّ وتصنعين من الأصدقاء أعداءً. العَمُّ كيڤان ليس عدوّكِ، أنا لستُ عدوّكِ».

انقلبَت سحنتها حنقًا، وقالت: «لقد توسّلتُ إليك أن تُساعِدني، ركعتُ على رُكبتَي أمامك ورفضتني!».

- «قَسمي...».

- «... لم يردعك عن قتل إيرس. الكلام هواء. كان بإمكانك أن تحظى بي، لكنك اخترت معطفًا أبيض بدلًا مني. اخرُج».

- «أختاه...».

- «قلتُ اخرُج. لقد سئمتُ من النّظر إلى جَدعتك القبيحة هذه. اخرُج!»، ولتدفعه إلى المغادَرة بسُرعةٍ ألقَت كأس نبيذها نحو رأسه. أخطأت سرسي التّصويب، لكن چايمي فهِمَ التّلميح.

حَلَّ عليه المساء وهو جالس وحده في الحُجرة المشترَكة بـ(بُرج السّيف الأبيض) ومعه كأس من النّبيذ الدورني الأحمر و(الكتاب الأبيض)، وكان يقلب الصّفحات بجَدعة يده المبتورة حين دخلَ فارس الزُّهور وخلعَ معطفه وحزامه وعلّقهما على مشجب على الحائط إلى جوار معطف وحزام چايمي، الذي قال: «رأيتك في السّاحة اليوم. أحسنت الرُّكوب».

رَدّ السير لوراس: «أحسنتَ وأكثر بالتّأكيد»، وصَبّ لنفسه كأسًا وجلس قُبالته إلى الطّاولة ذات الشّكل الهلالي.

- «كان رجل أكثر تواضُعًا ليقول: *أشكرُ لسيّدي لُطفه، أو كان حصاني جيّدًا*».

- «الحصان كان ملائمًا، وسيّدي لطيف بقدر ما أنا متواضع»، وأشارَ لوراس إلى الكتاب مستطردًا: «اعتادَ اللورد رنلي أن يقول إن الكُتب للمِايسترات».

- «هذا الكتاب لنا. تاريخ كلّ رجلٍ ارتدى المعطف الأبيض مدوّن هنا».

- «ألقيتُ نظرةً عليه. الشّروس جميلة. أفضَلُ الكُتب التي تحتوي على رسومٍ أكثر. اللورد رنلي كان يملك مجموعةً فيها رسوم كفيلة بأن تُعمي السّبتون الذي يقرأها».

ابتسمَ چايمي رغمًا عنه، وقال: «لا شيء من هذا هنا أيها الفارس، لكن القصص ستفتح عينيك. مفيدٌ لك أن تعلم سِيَر من سبقوك».

- «أعرفها. الأمير إيمون الفارس التنّين، السير رايمان ردواين، القلب الكبير، باريستان الباسل...».

- «... جواين كوربراي، آلن كونتجتون، شيطان (داري)، نعم. لا بُدّ أنك سمعت بلوكامور سترونج أيضًا».

أجابَ السير لوراس وقد لاحَ عليه الاستمتاع: «السير لوكامور الشَّهواني؟ ثلاث زوجات وثلاثون طفلًا، أليس كذلك؟ لقد قطعوا قضيبه. هل أغنِّي لك الأغنيّة يا سيِّدي؟».

- «والسير تيرانس توين؟».

- «ضَاجعَ عشيقة الملك وماتَ صارخًا. الدَّرس المستفاد أن على من يرتدون السَّراويل البيضاء أن يعقدوا أربطتها بإحكام».

- «وجايلز ذو المعطف الرَّمادي؟ وأوريڤل طليق اليدين؟».

- «جايلز كان خائنًا وأوريڤل كان جبانًا، رجلين لوَّثا المعطف الأبيض. ما الذي يرمي إليه سيِّدي؟».

- «لا شيء. لا تُشعِرَن بإهانةٍ لم تُوَجَّه أيها الفارس. ماذا عن توم كوستاين الطَّويل؟».

هَزَّ لوراس رأسه نفيًا.

- «كان فارسًا في الحرس الملكي طيلة ستِّين عامًا».

- «متى كان ذلك؟ إنني لم...».

- «السير دونل ابن (وادي الغسق) إذن؟».

- «ربما سمعتُ الاسم، لكن...».

- «أديسون هيل؟ البومة البيضاء مايكل مرتينز؟ چيفوري نوركروس؟ كانوا يُلَقِّبونه باللا مستسلم. روبرت فلاورز الأحمر؟ بِمَ يُمكنك أن تُخبِرني عنهم؟».

- «فلاورز اسم نغولة، وكذا هيل».

- «لكنَّ كليهما ترقَّى حتى قادَ الحَرس الملكي. حكايتاهما في الكتاب. رولاند داركلين هنا أيضًا، أصغر رجلٍ خدمَ في الحَرس الملكي على الإطلاق، إلى أن جنتُ أنا. لقد مُنِحَ معطفه في ميدان القتال وماتَ خلال ساعةٍ من ارتدائه».

- «لا يُمكن أنه كان بارعًا إذن».

- «كان بارعًا بما فيه الكفاية. لقد ماتَ، لكن مليكه عاشَ. رجال شُجعان كُثر ارتدوا المعطف الأبيض، لكن أكثرهم طواه النّسيان».

- «أكثرهم استحقَّ النّسيان، لكن الأبطال سيُذكَرون دومًا، الأفضل».

- «الأفضل والأسوأ». *أي أن أحدنا سيعيش في الأغاني غالبًا*. أضافَ چايمي وهو يَنقُر على الصّفحة التي كان يقرأها: «وقلائل ممَّن كانوا مزيجًا من هذا وذاك، مِثله».

اشرأبَّ السير لوراس بعُنقه ليرى، وقال: «مَن؟ عشر كُريات سوداء على خلفيّةٍ قرمزيّة. لا أعرفُ هذا الرّمز».

قال چايمي: «كان رمز كريستون كول الذي خدمَ قسيرس الأول وإجون الثّاني»، وأغلقَ (الكتاب الأبيض) مضيفًا: «كانوا يُسمُّونه صانع الملوك».

---

(51) القُزير حيوان من أكَلة اللُّحوم من فصيلة العرسيّات، تجمع هيئته بين الكلب والسّفور، وله قوائم سوداء قصيرة. (المترجم).

(52) كُم السيّدة من شعارات النّبالة القديمة في فرنسا وسكوتلندا وإنجلترا، ويُصوّر دون بقيّة الفُستان دلالةً على عادة فصل السيّدات أكمامهن وإعطائها للفُرسان دليلًا على المحاباة قبل نزولهم إلى مضامير النّزال. (المترجم).

(53) الظاووس مجسّم على شكل إنسان يدور على محور، يُستخدَم في التّدريب على النّزال، وعادةً ما يُثبَّت تُرس في إحدى يديه، وفي الثّانية سيف أو رُمح غير حاد أو كيس رمل. (المترجم).

(54) الغفر نوع من الخنازير البرّيّة الضّارية. (المترجم).

(55) قرن الوفرة رمز إقطاعي قديم، تعود أُصوله إلى الأساطير الإغريقيّة، وهو عبارة عن قرن مليء عن آخِره بالزُّهور والفاكهة والحلوى وغيرها مما يدلُّ على الوفرة والخصوبة. (المترجم).

قالت الملكة لنفسها إذ خَرُّوا راكعين أمامها: *ثلاثة حمقى مأفونين معهم كيس من الجِلد*. لم تجد منظرهم مشجِّعًا على الإطلاق. *لكن هنالك فُرصةً دائمًا على ما أظنُّ*.

خاطبَها كايبرن قائلًا بهدوء: «جلالة الملكة، المجلس الصَّغير...».

- «... سينتظر ذهابي على راحتي. محتمَل أن نزفَّ إليهم خبر موت أحد الخونة». عبر المدينة تترنَّم أجراس (سِبت بيلور) بلحن الحِداد، لكن سرسي فكَّرت: *لا أجراس ستدقُّ لك يا تيريون. سأغمسُ رأسك في القطران وأرمي جسدك المشوَّه للكلاب*. قالت للثَّلاثة الرَّاغبين في أن يكونوا لوردات: «أروني ما جلبتموه لي».

نهضوا، ثلاثة رجال قباح يرتدون أسمالًا، أحدهم على عنقه دُمَّل ولا أحد منهم استحمَّ منذ نِصف عام. وجدَت فكرة رفع أمثالهم إلى اللورديَّة طريفةً. *يُمكنني أن أجلِسهم إلى جوار مارجري في المآدب*. حين حَلَّ كبير الحمقى رباط الكيس ودَسَّ فيه يده أفعمَت رائحة العفونة قاعة اجتماعات الملكة كوردةٍ زنخة، ثم إنه أخرج رأسًا استحالَ لونه إلى الأخضر والرَّمادي ويغصُّ باليرقات. *رائحته كأبي*. شهقَت دوركاس وغطَّت جوسلين فمها وأفرغَت معدتها.

تطلّعت الملكة إلى غنيمتها بجَنانٍ ثابت، وأخيرًا قالت ضاغطةً أسنانها مع كلّ كلمة: «قتلتم القزم الخطأ».

تجرّأ أحد الحمقى على أن يقول: «لا، إطلاقًا، لا بُدّ أنه هو يا سيّدتي. إنه قزم، انظُري. تعفّن قليلًا فقط».

علّقت سرسي: «ونبتَ له أنف جديد، بل وأنف منتفخ أيضًا. أنف تيريون قُطِعَ في معركة».

تبادلَ ثلاثة الحمقى النّظرات، ثم قال الممسك بالرّأس: «لا أحد أخبرَنا. هذا جاءَ يمشي متبخترًا بكلّ جرأة، قزم قبيح ما، فحسبنا...».

أضافَ ذو الدُّمّل: «قال إنه غصفور»، وأشارَ إلى الرّجل الثّالث متابعًا: «وأنت قلت إنه يكذب».

أحسّت الملكة بالغضب لفكرة أنها تركَت مجلسها الصّغير ينتظر من أجل هذه المهزلة، وقالت: «لقد ضيّعتم وقتي وقتلتم رجلًا بريئًا. حريٌّ بي أن آمر بقطع رؤوسكم». لكن إذا فعلَت ذلك فربما يتردّد الرّجل التّالي ويَترُك العِفريت يفلت، وسرسي لن تسمح بحدوث ذلك حتى لو صنعَت كومةً من جُثث الأقزام ترتفع عشرة أقدامٍ كاملة. هكذا قالت لهم: «اغربوا عن وجهي».

قال الدُّمّل: «حاضر يا جلالة الملكة، نستميحكِ العُذر».

وسألَها حامل الرّأس: «هل تُريدينه؟».

- «أعطِ السير مرين إياه. لا، في الكيس أيها الأبله! نعم. سير أوزموند، اصحبهم إلى الخارج».

خرجَ ترانت بالرّأس وكِتلبلاك بِمَن قطعوه، تاركين إفطار الليدي چوسلين على الأرض الدّليل الوحيد على الزّيارة. قالت لها الملكة آمرةً: «نظّفي هذا في الحال».

إنه ثالث رأسٍ يأتيها به أحدهم. *على الأقل كان رأس قزم هذه المرّة*. السّابق كان مجرّد طفلٍ قبيح.

قال السير أوزموند مطمئِنًا عندما عادَ: «سيَعثُر أحدهم على القزم، لا تخافي، وحينها سنفتك به».

حقًّا؟ ليلة البارحة حلمَت سرسي بالعجوز بلُغدها المتغضِّن ونبرتها النّاعبة. في (لانسپورت) كانوا يُسمّونها ماجي الضّفدعة. *لو علمَ أبي بما قالَته لي لقطعَ لسانها*. على أن سرسي لم تُخبِر أحدًا قطُّ، ولا حتى چايمي. *ميلارا قالت إننا إذا لم نتكلّم عن النّبوآت فسننساها، قالت إن النّبوءة المنسيّة لا يُمكن أن تتحقّق*.

قال كايبرن: «عندي مُخبرون يتقصّون عن العفريت في كلِّ مكانٍ يا جلالة الملكة». كان قد ألبَس نفسه رداءً يُشبه أردية المِايسترات كثيرًا، لكنه أبيض بدلًا من الرّمادي، ناصع كمعاطف رجال الحرس الملكي، وتُزيِّن دوائر لولبيّة من الخيط الذّهبي حاشيته وكُمّيه وياقته العالية اليابسة، وحول خصره وشاح ذهبي مربوط. «(البلدة القديمة)، (بلدة النّوارس)، (دورن)، وحتى المُدن الحُرّة. أينما فرّ سيَعثُر عليه هامِسوي».

- «إنك تفترض أنه ترك (كينجز لاندنج). على حَدّ علمنا قد يكون مختبئًا في (سِپت بيلور) الآن، يتأرجَح على حبال الأجراس ليصنع هذه الضَّوضاء الشَّنيعة»، ورسقت سرسي على وجهها الامتعاض وتركَت دوركاس تُساعِدها على النُّهوض قائلةً: «هلمّ يا سيّدي، مجلسي ينتظر»، وبينما ينزلان السَّلالم تأبَّطت ذراع كايبرن، وسألَته: «هل نفَّذت المهمّة الصّغيرة التي كلَّفتك بها؟».

- «نعم يا جلالة الملكة. آسفٌ لأنها استغرقَت وقتًا طويلًا. إنه رأس كبير جدًّا، والخنافس استغرقَت ساعاتٍ كثيرة حتى نظَّفته من اللَّحم. على سبيل الاعتذار بطَّنتُ صندوقًا من خشب الأبنوس والفضَّة باللِّباد ليكون تقديم الجمجمة لائقًا».

- «كيس من القُماش يَصلُح أيضًا. الأمير دوران يُريد الرَّأس، ولن يُبالي مقدار ذرَّة بالصُّندوق الذي يتسلَّمه فيه».

كانت جلجلة الأجراس أعلى في السَّاحة، فقالت لنفسها: *كان مجرَّد سِپتون أعلى. إلى متى علينا أن نتحمَّل هذا؟* أي نعم في الرَّنين لحن أكثر من صرخات الجبل قبل أن تَصمُت، ولكن...

بدا أن كايبرن استشفَّ ما يجول ببالها، فقال: «الأجراس ستَصمُت عند الغروب يا جلالة الملكة».

- «ستكون راحةً عظيمةً. كيف عرفت؟».

- «المعرفة طبيعة خدمتي».

قارس جعلَنا جميعًا نُصَدِّق أنه غير قابل للاستبدال.

كم كنا حمقى. حالما أذاعت الملكة خبر شَغل كايبرن منصب الخصيّ لم يُبَدِّد الهوام المعتادون وقتًا قبل أن يُقَدِّموا أنفسهم له، ليُبادِلوا ما لديهم من همساتٍ بالقليل من المال. *طوال الوقت كانت الفضَّة ما يُحَرِّكهم وليس العنكبوت. كايبرن سيخدمنا بالكفاءة نفسها*. كم تتطلَّع إلى رؤية النَّظرة على وجه پايسل عندما يأخذ كايبرن مكانه.

دائمًا يقف فارس من الحرس الملكي على باب قاعة المجلس الصَّغير عندما يجتمع أعضاؤه، واليوم دور السير بوروس بلاونت، الذي قالت له الملكة ببشاشة: «سير بوروس، تبدو متوعِّكًا للغاية هذا الصَّباح. أهو شيء أكلته ربما؟». كان چايمي قد جعلَه ذوَّاق الملك. *واجب لذيذ، لكنه مخجل إذا كنت فارسًا*. وبلاونت يكره واجبه هذا، وقد ارتجفَ لُغده المتدلِّي إذ فتحَ لهما الباب.

بترَ المستشارون كلامهم لدى دخولها. سعلَ اللورد جايلز على سبيل التَّحيَّة بصوتٍ عالٍ أيقظَ پايسل، ونهضَ الآخرون لافظين المجامَلات، فأباحت سرسي لنفسها ابتسامةً خافتةً للغاية، وقالت: «أعلمُ أنكم ستغفرون لي تأخُّري أيها السَّادة».

رَدَّ السير هاريس سويفت: «نحن هنا لنخدم جلالتكِ، ومن دواعي سرورنا أن ننتظر وصولكِ».

- «مؤكَّد أن جميعكم يعرف اللورد كايبرن».

لم يُخيِّب المِايستر الأكبر پايسل أملها، وقال بوجهٍ كظيم: «اللورد كايبرن؟! جلالة الملكة، هذا... المِايستر يحلف يمينًا مقدَّسةً بعدم امتلاك أراضٍ أو حيازة لورديَّة...».

قالت سرسي: «قلعتكم جزْدته من سلسلته. إن لم يكن مِايستر فلا يُمكن إلزامه بيمين المِايسترات. لقد دعونا الخصيّ باللورد أيضًا إذا كنت تذكُر».

اندفعَ پايسل يقول: «هذا الرَّجل... إنه لا يَصلُح...».

- «لا تُكلِّمني عن الصَّلاح بَعد المهزلة العفنة التي صنعتها من جثَّة السيِّد والدي».

رفعَ يده المبقَّعة كأنما يردأ عن نفسه ضربةً، وقال: «لا يُمكن أن جلالتكِ تظنِّين... الأخوات الصَّامتات أزلن أحشاء اللورد تايوين وأعضاءه الدَّاخليَّة وأفرغن دماءه... لقد التزمنا العناية الكاملة... حشونا الجثَّة بالأملاح والأعشاب العطرة...».

- «أوه، أعفني من التَّفاصيل المقزِّزة. لقد شممت نتيجة عنايتك. فنون اللورد كايبرن العلاجيَّة أنقذَت حياة أخي، ولا أشكُ في أنه سيخدم الملك ببراعةٍ أكثر من ذلك الخصيّ المتزلِّف. سيِّدي، هل تعرف زملاءك المستشارين؟».

أجابَ كايبرن: «إذا لم أعرفهم فأنا مُخبر خائب يا جلالة الملكة»، واتَّخذ مقعدًا بين أورتون ميريويذر وجايلز روزبي.

أعضاء مجلسي. اقتلعَت سرسي كلّ وردةٍ وكلّ مدين بمعروف لعمّها وأخيها، ووضعَت مكانهم رجالًا إخلاصهم لها هي، بل وأطلقَت عليهم ألقابًا جديدةً استعارَتها من المُدن الحُرّة، فلن يكون في البلاط «قيّمون» إلّاها. أورتون ميريويذر كبير قُضاتها، وجايلز روزبي خازِنها، وأوران ووترز -نغل (دريفتمارك) الشّاب الوسيم- أميرالها الأعلى.

ويدها السير هاريس سويفت.

رجل ليّن أصلع خَنوع هو، له لحية صغيرة بيضاء سخيفة تُغَطّي ذقنه، وعلى وجه سُترته القطيفة الصّفراء الديك الأزرق الصّغير رمز عائلته مطرّزًا بحبّات اللازَوَرد، وقد ارتدى فوقها معطفًا من المخمل الأزرق مزيّنًا بمئة يدٍ ذهبيّة. طارَ السير هاريس فرحًا بتكليفه لكونه أكثر بلاهةً من أن يعي أنه أقرب إلى الرّهينة من اليد، فابنته زوجة عَمّ سرسي، وكيڤان يحبّ زوجته التّافهة على الرغم من صدرها المسطّح وساقيها الرّفيعتين كسيقان الدّجاج. ما دامَ السير هاريس تحت تصرّفها فعلى السير كيڤان لانستر أن يُفَكّر مرّتين قبل أن يُعارِضها. *صحيحٌ أن الحم ليس رهينةً مثاليّةً لكن وقايةٌ ضعيفةٌ أفضل من لا شيء*.

سألَها أورتون ميريويذر: «هل سينضمّ إلينا الملك؟».

- «ابني يلعب مع ملكته الصّغيرة. في الوقت الرّاهن فكرته عن المُلك أن يضع الختم الملكي على الأوراق. ما زالَ جلالته صغيرًا للغاية على استيعاب شؤون الدّولة».

- «وحضرة القائد الهُمام؟».

- «السير چايمي عند صانع السِّلاح يُرَكِّب يدًا. أعرفُ أننا جميعًا سئمنا من منظر تلك الجَدعة القبيحة، ولي أن أضيف أنه سيجد جلستنا هذه مضجرةً كما سيجدها تومن». قهقة أوران ووترز لقولها، ففكَّرت سرسي: جيِّد، *كلَّما ضحكوا أكثر شكَّل چايمي تهديدًا أضعف. فليضحكوا*. «هل عندنا نبيذ؟».

- «نعم يا جلالة الملكة». ليس أورتون ميريويذر بالرَّجل الوسيم، بأنفه الكبير وشعره البُرتقالي المحمَّر الأشعث، لكن الكياسة لا تعوزه أبدًا. «عندنا نبيذ أحمر من (دورن) ونبيذ ذهبي من (الكرمة)، وهيپوكراس حُلو ممتاز من (هايجاردن)».

- «الذَّهبي على ما أظنُّ. إنني أجدُ الخمور الدورنيَّة رديئةً كالدورنيِّين أنفسهم»، وبينما ملأ ميريويذر كأسها أضافَت سرسي: «أرى أن نبدأ بهم إذن».

كانت شفتا المِايستر الأكبر پايسل ما زالَتا ترتعدان، لكنه وجدَ القُدرة على الكلام بوسيلةٍ ما، فقال: «كما تأمرين. الأمير دوران قبضَ على نغلات أخيه المشاغبات، لكن (صنسپير) لم تزَل تغلي. الأمير كتبَ أن لا أمل لديه في تهدئة الأوضاع إلى أن يتلقَّى العدالة التي وُعِدَ بها».

- «بالتّأكيد». *كائن متعِب هذا الأمير.* «انتظاره الطّويل يُشارِف نهايته. سأرسلُ بالون سوان إلى (صنسپين) ليُوَصِّل له رأس جريجور كليجاين». وعلى السير بالون مهمّة أخرى يُنَفِّذها أيضًا، لكن الأفضل ألّا تَذكُر هذا الجزء.

داعبَ السير هاريس سويفت لحيته الصّغيرة المضحكة بسبّابته وإبهامه متسائلًا: «آه، هل مات إذن؟ السير جريجور؟».

أجابَه أوران ووترز بجفاف: «أظنُّ هذا يا سيّدي. قيلَ لي إن قطع الرّأس عن الجسد مميت في أغلب الحالات».

تحبُّ سرسي القليل من الظّرافة بشرط ألّا تكون هدفها، ولذا أيّدته بابتسامة، وقالت: «السير جريجور مات متأثّرًا بجراحه، تمامًا كما تنبّأ المِايستر الاكبر پايسل».

تنحنحَ پايسل ورمقَ كايبرن بعبوس قائلًا: «الحربة كانت مسمّمةً، لم يكن باستطاعة أحد أن يُنقِذه».

علّقت الملكة: «هذا ما قلته من قبل، أذكره جيّدًا»، والتفتت إلى يدها تسأله: «عمَّ كنتم تتكلّمون حين دخلتُ يا سير هاريس؟».

- «العصافير يا جلالة الملكة. الشپتون راينارد يقول إن هناك زُهاء ألفين في المدينة، والمزيد منهم يصل كلَّ يوم. قادتهم يُزَنْدون مواعظ عن الهلاك وعبادة الشّياطين...».

رشفَت سرسي من النّبيذ. لذيذ جدًا. «وهو ما كان يجب أن يَحدُث منذ زمن، أليس كذلك؟ ماذا نُسمّي ذلك الإله الأحمر الذي يَعبُده ستانيس إن لم يكن شيطانًا؟ المفترَض أن تُعارِض العقيدة هذا الشّر». كايبرن -هذا الرّجل الفطن- هو من ذكّرها بالأمر. «أخشى أن السّبتون الأعلى الرّاحل تغاضى عن الكثير. السّنّ أضعفَت بصره واستنزفَت قوّته».

ابتسمَ كايبرن لپايسل قائلًا: «كان رجلًا هَرِمًا يا جلالة الملكة، ولم يكن ينبغي أن يُفاجِئنا موته. لا أحد يَطلُب أكثر من أن يموت بسلامٍ في فِراشه وقد عاش سنينًا طوالًا».

قالت سرسي: «نعم، لكن علينا أن نأمل أن يكون خليفته أكثر نشاطًا. أصدقائي على التّلّ الآخَر يقولون لي إنه سيكون توربرت أو راينارد على الأرجح».

عادَ المِايستر الأكبر پايسل يتنحنَح، وقال: «إن لي أصدقاءَ في مجلس القانِتين أيضًا، ويتكلّمون عن السّبتون أوليدور».

قال كايبرن: «ولا تستبعدوا ذلك الرّجل لوشن أيضًا. ليلة أمس أولمَ لثلاثين من مجلس القانِتين، أطعمَهم الخنازير الرّضيعة وسقاهم نبيذ (الكرمة) الذّهبي، وبالنّهار يُحسِن إلى الفقراء بالخُبز الجامد ليُثبِت تقواه».

بدا أوران ووترز شاعرًا بالملل كسرسي بالضَّبط من كلِّ هذه الثَّرثرة عن السّيبتونات. حين تراه على مقربةٍ يتَّضح أن شَعره أقرب إلى الفضِّي من الذَّهبي، وعينيه خضراوان مائلتان إلى الرَّمادي في حين كانت عينا الأمير ريجار أرجوانيَّتين، وعلى الرغم من هذا فالشَّبه... تساءلَت إن كان ووترز يقبل أن يحلق لحيته من أجلها. مع أنه يصغرها بعشرة أعوامٍ فإنه يصبو إليها، وسرسي ترى هذا في الطَّريقة التي يَرمُقها بها، الطَّريقة نفسها التي يَرمُقها بها الرِّجال منذ بدأ ثدياها ينبتان. *لأني كنتُ جميلةً جدًّا كما قالوا، لكن جايمي كان جميلًا أيضًا، ومع ذلك لم يَنظُروا إليه بتلك الطَّريقة قَطُّ*. في صِغرها كانت أحيانًا ترتدي ثياب أخيها على سبيل اللَّهو، ولطالما أذهلَتها المعاملة المختلفة تمامًا التي وجدَتها من النَّاس وهُم يحسبونها جايمي. حتى اللورد تايوين نفسه...

كان پايسل وميريويذر ما زالا يتجادَلان بشأن الرَّجل الجدير بأن يكون السّيبتون الأعلى الجديد، فأعلنَت باترةً كلامهما: «أيُّهم يَصلُح، لكن أيًّا كان من يعتمر التَّاج البلّوري عليه أن يقضي بالحرمان العقائدي على العِفريت». كان التزام السّيبتون الأعلى السَّابق الصَّمت بخصوص تيريون جليًّا على نحوٍ فاضح. «وبالنِّسبة إلى هؤلاء العصافير المتحمِّسين، فما داموا لا يُحَرِّضون على الخيانة فهُم مشكلة العقيدة لا مشكلتنا».

تمتمَ اللورد أورتون والسير هاريس موافقين، أمّا محاوَلة جايلز روزبي أن يفعل المِثل فدحضَتها نوبة من الشعال، وأشاحت سرسي بوجهها باشمئزازٍ إذ سعلَ كُتلةً من البلغم الدّامي، وسألَت: «أيها المِايستر، هل جلبت الرّسالة التي وصلَت من (الوادي)؟».

أجابَ پايسل: «نعم يا جلالة الملكة»، والتقطَ الرّسالة من بين كومة أوراقه وسوّاها متابعًا: «إنه أقرب إلى بيانٍ من رسالة، وقّعه في (رونستون) كلٌّ من يون رويس البرونزي والليدي واينوود واللوردات هنتر وردفروت وبلمور، بالإضافة إلى سايموند تمپلتون فارس (النّجوم التّسع). كلُّهم وضعوا أختامهم، ويَكتُبون قائلين...».

... قدرًا لا بأس به من الهُراء. «يُمكنكم أن تقرأوا الرّسالة إذا شئتم أيها السّادة. رويس والآخرون يحشدون الرّجال أسفل (الغش)، وينوون إزاحة الإصبع الصّغير عن منصب اللورد حافِظ (الوادي)، بالإكراه إلى لزمَ الأمر. السّؤال الآن، هل نسمح بهذا؟».

سألَها هاريس سويفت: «هل يَطلُب اللورد بايلش مساعدتنا؟».

- «ليس بعدُ. الواقع أنه لا يبدو قلقًا على الإطلاق. في رسالته الأخيرة ذِكر عابر للمتمرّدين قبل أن يُناشِدني أن أشحن له بضع معلّقاتٍ قديمة كانت ملكًا لروبرت».

داعبَ السير هاريس لحية ذقنه متسائلًا: «وهؤلاء اللوردات الذين وقّعوا البيان، هل يلتمسون من الملك أن يتدخَّل؟».

- «لا».

- «إذن... ربما ليس علينا أن نفعل شيئًا».

قال پايسل: «نشوب حربٍ في (الوادي) سيكون أمرًا مأساويًا للغاية».

رَدَّ أورتون ميريويذر ضاحكًا: «حرب؟ اللورد بايلش رجل مسلٍّ جدًا، لكن المرء لا يخوض الحروب بالدُّعابة. أشك أن دمًا سيُراق، وهل يهمُّ مَن الوصيّ على اللورد روبرت الصّغير ما دامَ (الوادي) يدفع ما عليه من ضرائب؟».

قالت سرسي لنفسها وقد حزمَت أمرها: لا. الحقيقة أن الإصبع الصّغير كان مفيدًا أكثر في البلاط. *كان موهوبًا في إيجاد الذّهب، ولم يَسعُل قَطُّ*. هكذا قالت: «اللورد أورتون أقنعني. مِايستر پايسل، أملي على لوردات البيان هؤلاء ألّا يمسّ پيتر أذى، وفيما عدا ذلك فالتّاج راضٍ عن أيِّ ترتيباتٍ يتّخذونها إزاء الحُكم في (الوادي) خلال فترة قصور روبرت آرن».

- «أمركِ يا جلالة الملكة».

قال أوران ووترز: «هلّا ناقشنا الأسطول؟ أقلُّ من دستةٍ من سُفننا نجا من جحيم (النّهر الأسود)، ولا بُدَّ أن نسترجع قوّتنا في البحر».

أومأ هاريس سويفت برأسه قائلًا: «القوّة البحريّة ضروريّة للغاية».

سألَ أورتون ميريويذر: «هل نستطيع استغلال الحديديّين؟ أعداء أعدائنا؟ ما الذي قد يَطلُبه كُرسي حجر اليم منا ثمنًا لحِلف؟».

أجابَ المِايستر الأكبر پايسل: «يُريدون الشّمال، ووالد ملكتنا النّبيل وعدَ اللورد بولتون بالشّمال».

قال ميريويذر: «مؤسف. لكن الشّمال كبير ويُمكن تقسيم أراضيه. ليس ضروريًا أن يكون الاتّفاق دائمًا، وربما يقبل بولتون إذا أكّدنا له أن قوّتنا ستكون في صَفّه بمجرّد تدمير ستانيس».

قال السير هاريس سويفت: «سمعت أن بالون جرايچوي ماتَ. هل نعرف مَن يَحكُم الجُزر الآن؟ هل كان للورد بالون ابن؟».

سعلَ اللورد جايلز متسائلًا: «ليو؟ ثيو؟».

قال كايبرن: «ثيون جرايچوي نشأ في (وينترفل) ربيبًا لإدارد ستارك، وليس محتملًا أن يكون صديقًا لنا».

قال ميريويذر: «سمعت أنه قُتِلَ».

شَدّ السير هاريس سويفت لحيته الصّغيرة، وسألَ: «أكان له ابن واحد فقط؟ إخوة، كان هناك إخوة، أليس كذلك؟».

فكّرت سرسي بضيق: *كان ڤارس ليعلم*، ثم إنها قالت: «لا أقترحُ أن نتحالَف مع سرب الأسماك البائس هذا. دورهم سيحين بَعد أن نتعامَل مع ستانيس. إننا نحتاج إلى أسطولنا الخاص».

قال أوران ووترز: «أقترحُ أن نبني دُرمونات جديدة، عشرًا كبداية».

سألَ پايسل: «وأنَّى لنا بالتَّكلفة؟».

اعتبرَ اللورد جايلز السُّؤال دعوةً للسُّعال من جديد، فخرجَ منه المزيد من اللُّعاب الوردي الذي جفَّفه بمنديلٍ مربَّع من الحرير الأحمر، ثم إنه استطاعَ أن يقول: «ليس هناك... لا... ليس لدينا...»، قبل أن يبتلع السُّعال كلامه.

أثبتَ السير هاريس أنه سريع كفايةً في إدراك المعنى على الأقل، وقال معترضًا: «دخول التَّاج لم تكن أكبر مما هي الآن قَطُّ. السير كيڤان أخبرَني بهذا بنفسه».

قال اللورد جايلز ساعلًا: «...المصروفات... ذوو المعاطف الذَّهبيَّة...».

قالت سرسي التي سبقَ لها أن سمعَت اعتراضاته: «اللورد الخازن يُحاوِل أن يقول إن عندنا كثيرين من ذوي المعاطف الذَّهبيَّة وقليلًا من الذَّهب». بدأ سُعال روزبي يُضايِقها. *ربما لم يكن جارث السَّمين بهذا السُّوء.* «مع أن دخول التَّاج كبيرة فإنها لا تكفي لتسديد ديون روبرت، وبناءً عليه قرَّرتُ أن نُؤَجِّل دفعنا المبالغ التي ندين بها للعقيدة المقدَّسة ومصرف (براڤوس) الحديدي حتى نهاية الحرب». لا شَكَّ أن السِّپتون الأعلى الجديد سيُوَلوِل احتجاجًا ويرغي البراڤوسيُّون ويُزبِدوا في وجهها، لكن وماذا في هذا؟ «المبالغ الموفَّرة ستُستخدَم في بناء أسطولنا الجديد».

قال اللورد ميريويذر: «جلالتكِ رشيدة. إنه إجراء حكيم، وضروري أيضًا حتى تضع الحرب أوزارها. أوافِقُ».

قال السير هاريس: «وأنا أيضًا».

وبصوتٍ راجف قال پايسل: «جلالة الملكة، أخشى أن هذا سيُسَبِّب متاعب أكثر مما تحسبين. (المصرف الحديدي)...».

- «... سيظلُّ في (براڤوس)، بعيدًا وراء البحر. سينالون ذهبهم أيها المِايستر. اللانستر يُسَدِّد ديونه».

رنَّت حلقات سلسلة پايسل ذات الجواهر بصوتٍ ناعم وهو يقول: «البراڤوسيُّون عندهم مقولة أيضًا، يقولون: *(المصرف الحديدي) سينال ما له*».

- «(المصرف الحديدي) سينال ما له عندما أقولُ إنه سيناله، وحتى ذلك الحين سينتظر (المصرف الحديدي) باحترام. لورد ووترز، اشرع في بناء دُرموناتك».

- «ممتاز يا جلالة الملكة».

قلّب السير هاريس بعض الأوراق، ثم قال: «المسألة الثّالية... وصلَت إلينا رسالة من اللورد فراي يعرض فيها عددًا من الدّعاوى...».

قاطعَته الملكة محتدّةً: «كم يُريد هذا الرّجل من أراضٍ وتكريم؟ لا بُدّ أن أمّه كانت لها ثلاثة أثداء!».

قال كايبرن: «ربما لا يعلم سادتي هذا، لكن في الخمّارات ومحال الأكل في هذه المدينة من يُلمِّحون إلى أن الثّاج كان متواطئًا على نحوٍ ما مع اللورد والدر في جريمته».

حدجه المستشارون الآخرون حائرين، ثم سألَ أوران ووترز: «هل تُشير إلى الزّفاف الأحمر؟»، وردّد السير هاريس: «جريمته؟»، وتنحنحَ پايسل بصوتٍ مزعج، وسعلَ اللورد جايلز.

قال كايبرن منبّهًا: «هؤلاء العصافير يتكلّمون بجرأةٍ أكثر من غيرهم بكثير، يقولون إن الزّفاف الأحمر كان إهانةً لكلّ شرائع الآلهة والبشر، وإن من كانت لهم يد فيه ملعونون».

أدركَت سرسي ما يعنيه بلا إبطاء، فقالت: «مؤكَّد أن اللورد والدر سيخضع لحكم (الأب) قريبًا. إنه طاعن في السّن. فليتبضّق العصافير على ذكراه. لا علاقة لنا بالأمر».

قال السير هاريس: «نعم»، وقال اللورد أورتون: «نعم»، وقال پايسل: «لا أحد يُمكنه أن يظنّ هذا!»، وسعلَ اللورد جايلز.

أيّدهم كايبرن قائلًا: «القليل من البُصاق على قبر اللورد والدر لن يُزعِج الدُود، لكن من المفيد أيضًا أن يُعاقَب أحد على الزِّفاف الأحمر. بعض رؤوس أبناء فراي سينفع كثيرًا في تهدئة الشّمال».

قال پايسل: «اللورد والدر لن يُضَحّي بذويه أبدًا».

ردَّت سرسي متأمِّلةً: «صحيح، لكن ربما لا يميل ورثته إلى الاعتراض. اللورد والدر سيتعطّف علينا ويموت قريبًا كما نأمل، فهل يملك سيِّد (المعبر) الجديد وسيلةً لتخليص نفسه من أنصاف الإخوة المزعجين وأبناء العمومة السّمجين والأخوات المتآمرات أفضل من إلصاق الذّنب بهم؟».

قال أوران ووترز: «بينما ننتظر موت اللورد والدر ثمّة مسألة أخرى. الجماعة الذّهبيّة فسخَت عقدها مع (مير). سمعتُ على أرصفة الميناء من يقولون إن اللورد ستانيس استأجرهم وسيَعبُر بهم البحر».

سألَ ميريويذر: «وكيف سيدفع أجرهم؟ تلجّا؟ إن أسمها الجماعة الذّهبيّة. كم يملك ستانيس من الذّهب؟».

أجابَت سرسي: «القليل جدًا. اللورد كايبرن تكلّم مع طاقم القادس المايري الرّاسي في الخليج، الذي يقول إن الجماعة الذّهبيّة في طريقها إلى (ڤولانتيس). إذا كانوا ينتوون عبور البحر إلى (وستروس) فإنهم يتحرّكون في الاتّجاه الخاطئ».

اقترح اللورد ميريويذر قائلًا: «ربما سئموا من القتال مع الجانب الخاسر».

أيّدته الملكة قائلةً: «هناك هذا السّبب أيضًا. أعمى فقط من يفشل في رؤية أننا في حُكم المنتصرين في حربنا. اللورد تايرل يُطَوِّق (ستورمز إند)، و(ريڤرزن) يُحاصِرها آل فراي وداڤن ابن خالي حاكم الغرب الجديد، وسُفن اللورد ردواين عبرَت (مضيق تارث) وتُبحِر مسرعةً بمحاذاة السّاحل. لم يتبقَّ في (دراجونستون) إلّا قوارب صيد قليلة تُواجِه رسو ردواين. قد تَصمُد القلعة فترةً، لكن ما إن نستولي على المرفأ سنقطع الحامية عن البحر، وعندها لن يبقى إلّا ستانيس نفسه يُزعِجنا».

قال المِايستر الأكبر پايسل منبّهًا: «إذا صدّقنا ما قاله اللورد چانوس فإنه يُحاوِل أن يعقد حِلفًا مع الهَمج».

أعلن اللورد ميريويذر: «برابرة يرتدون الجلود. مؤكَّد أن اللورد ستانيس يائس حقًّا ما دامَ يسعى إلى تحالُف كهذا».

قالت الملكة موافقةً: «يائس وأحمق. الشَّماليُّون يكرهون الهَمج، فلن يُواجِه رووس بولتون مشكلةً في كسبهم إلى صفوفنا. بعضهم انضمَّ إلى ابنه النَّغل بالفعل لمساعَدته على إجلاء هؤلاء الحديديِّين الذَّمام من (خندق كالين) وإخلاء الطَّريق لعودة اللورد بولتون. أومبر وريزويل... نسيتُ أسماء الآخَرين. حتى (الميناء الأبيض) على وشك الانضمام إلينا. سيِّدها وافقَ على تزويج كلتا حفيدتيه باثنين من أصدقائنا أبناء فراي وفتح المرفأ لسُفننا».

قال السير هاريس حائرًا: «حسبتُ أن لا سُفن عندنا».

قال المِايستر الأكبر پايسل: «وايمان ماندرلي حامل راية إدارد ستارك المخلص. هل يُمكن أن نثق برجلٍ مِثله؟».

لا أحد جدير بالثِّقة. «إنه رجل عجوز بدين وخائف، لكنه ما زالَ يُعانِد في نقطةٍ واحدة، يصرُّ على أنه لن يخضع حتى يُعاد وريثه إليه».

سألَ السير هاريس: «وهل وريثه عندنا؟».

- «سيكون في (هارنهال) إذا كان حيًّا. جريجور كليجاين أسرَه». لم يكن الجبل يترفَّق بسَجنائه دائمًا، حتى من يستحقُّون فديةً لا بأس بها. «إذا ماتَ فأظنُّ أن علينا أن نُرسِل للورد ماندرلي رؤوس من قتَلوه، مصحوبةً بخالص اعتذارنا». إذا كان رأس واحد يكفي لاسترضاء أمير (دورن)، فلا بُدَّ أن كيسًا من الرُّؤوس يُناسِب شماليًّا بدينًا يرتدي جِلد الفقمات.

سألَ پايسل: «ألن يسعى اللورد ستانيس إلى الفوز بولاء (الميناء الأبيض) أيضًا؟».

- «أوه، لقد حاولَ. اللورد ماندرلي بعثَ لنا برسائله وأجابَها بالأعذار. ستانيس يُطالِب بسيوف (الميناء الأبيض) وفضَّتها، ومقابلها يعرض... لا شيء». ذات يومٍ عليها أن تُشعِل شمعةً لـ(المحارب) الذي أخذَ رنلي وتركَ ستانيس، فلو حدثَ العكس لكانت حياتها أشقَّ كثيرًا. «صبيحة اليوم تحديدًا وصلَ إلينا طائر آخَر. ستانيس أرسلَ مهرِّب البصل للتَّعامُل مع (الميناء الأبيض) نيابةً عنه، فألقى ماندرلي المأفون في زنزانةٍ ويسألنا ماذا يفعل به».

قال اللورد ميريويذر مقترحًا: «فليُرسِله إلينا هنا كي نستجوبه. ربما يعرف الرَّجل الكثير من المعلومات القيِّمة».

وقال كايبرن: «فليَمُت. سيكون موته درسًا للشَّماليِّين، يُريهم ما يحلُّ بالخونة».

ردّت الملكة: «أتّفقُ تمامًا. لقد أمرتُ اللورد ماندرلي بأن يقطع رأسه في الحال. سيكون هذا قمينًا بأن يضع نهايةً لفُرص تأييد (الميناء الأبيض) ستانيس».

علّق أوران ووترز مقهقهًا: «ستانيس سيحتاج إلى يدٍ جديد. فارس اللّفت ربما؟».

قال السير هاريس سويفت حائرًا: «فارس لِفت؟ مَن هذا الرّجل؟ لم أسمع عنه من قبل»، فلم يُحِر ووترز جوابًا إلّا بتدوير عينيه في محجريهما استهجانًا، في حين سألَ ميريويذر: «وماذا لو رفضَ اللورد ماندرلي؟».

قالت سرسي: «لن يجرؤ. رأس فارس البصل هو العُملة التي عليه أن يشتري بها حياة ابنه»، وابتسمت مردفةً: «ربما كان العجوز الأحمق البدين مخلصًا لآل ستارك على طريقته، لكن مع فَناء ذئاب (وينترفل)...».

قال پايسل: «جلالتكِ نسيتِ الليدي سانزا».

- «بكلّ تأكيدٍ لم أنسَ تلك الذّئبة الصّغيرة»، قالت الملكة مغضبةً، رافضةً أن تنطق اسم الفتاة. «كان الأحرى بي أن ألقيها في الزّنازين السّوداء باعتبارها ابنة خائن، وبدلًا من هذا جعلتها من أهل بيتي. لقد شاركَتني الدّفء والمأوى ولعبَت مع أطفالي، وأطعمتها وألبستها وحاولتُ أن أجعلها أقلّ جهلًا بالعالم، فكيف ردّت لي الجميل؟ ساعدَت على اغتيال ابني. حين نَعثر على العِفريت سنَعثر على الليدي سانزا أيضًا. إنها لم تَمُت... لكني أعدكم بأني لن أفرغ منها قبل أن أجعلها تُغنّي لـ(الغريب) متوسّلةً قُبلته».

تلا كلامها صمت متوتِّر، فسألَت سرسي نفسها بضيق: *هل ابتلعوا ألسنتهم جميعًا؟* صمتهم يكفي لأن تتساءل لِمَ تُتعب نفسها وتجتمع مع المجلس من الأصل.

تابعَت الملكة: «على كلِّ حال، ابنة اللورد إدارد الصُّغرى عند اللورد بولتون، وستتزوَّج ابنه رامزي ما إن تَسقُط (خندق كايلن)». شريطة أن تلعب الفتاة دورها ببراعةٍ كافية لتوطيد حَقِّ مطالَبتهما بـ(وينترفل)، فلن يُبالي ابنا بولتون كثيرًا بأنها في الحقيقة ابنة وكيلٍ ما دبَّر الإصبع الصَّغير هويَّتها الزَّائفة. «ما دامَ محتَّمًا أن يكون في الشَّمال ستارك فسنُعطيهم ستارك». تركَت اللورد ميريويذر يُعيد مَلء كأسها، وواصلَت: «لكن ثمَّة مشكلة أخرى ظهرَت على (الجِدار). إخوان حَرس اللَّيل فقدوا عقولهم واختاروا ابن ند ستارك النَّغل قائدًا لهم».

- «اسمه سنو»، قال پايسل فلم يُضِف جديدًا.

قالت الملكة: «لمحته مرّةً في (وينترفل)، ولو أن آل ستارك بذلوا أقصى جهدهم لمواراته. إنه يُشبِه أباه كثيرًا». كان نغول زوجها يُشبِهونه أيضًا، وإن تمتَّع روبرت بالكياسة وأبقاهم بعيدًا عن الأنظار على الأقل. ذات مرّة، بَعد تلك الحادثة المؤسفة مع القطّة، جعجع قائلًا شيئًا ما عن الإتيان بابنةٍ غير شرعيّة إلى البلاط. فقالت له: «*افعل ما تشاء، لكنك قد تجد المدينة مكانًا ضارًّا بفتاةٍ في طور النمو*». استعصى عليها إخفاء الكدمة التي نالَتها من جرّاء تلك الكلمات عن چايمي، لكنهم لم يسمعوا المزيد عن تلك النّغلة. *كاتلين تُلي كانت فأرةً، وإلّا لكانت كتمَت أنفاس چون سنو هذا في المهد، وبدلًا من هذا تركَت المهمّة القذرة لي*. «سنو يشترك مع اللورد إدارد في الجنوح إلى الخيانة أيضًا. الأب أرادَ أن يُسلِّم البلاد لستانيس، والابن أعطاه أراضي وقلاعًا».

قال پايسل مذكّرًا إياهم: «حرس اللّيل مقسمون على عدم التّدخُّل في حروب (الممالك السّبع). منذ آلاف السّنين والإخوة السّود يصونون هذا التّقليد».

قالت سرسي: «حتى الآن. النّغل كتبَ لنا مؤكّدًا أن حرس اللّيل لا يتدخّلون، لكن أفعاله تفضح أكاذيبه. لقد أعطى ستانيس الطّعام والمأوى، ومع ذلك ما زالَ بالصّفاقة الكافية لأن يُناشِدنا أن نُرسل إليه أسلحةً ورجالًا».

أعلنَ اللورد ميريويذر: «مهزلة! لا يُمكن أن نسمح لحَرس اللّيل بضَمّ قوّتهم إلى اللورد ستانيس».

قال السير هاريس سويفت متّفقًا: «يجب أن نُعلِن سنو هذا خائنًا ومتمرّدًا. لا بُدّ أن يُزيحه الإخوة السُّود».

أومأ المِايستر الأكبر پايسل برأسه بتؤدة، وقال: «أقترِحُ أن نُبلِغ (القلعة السّوداء) بأننا لن نبعث إليهم بمزيدٍ من الرّجال حتى يرحل سنو».

قال أوران ووترز: «دُرموناتنا الجديدة ستحتاج إلى ملّاحين. لتُملي على اللوردات أن يُرسِلوا اللّصوص ومنتهكي حُرمة الأراضي إليّ من الآن فصاعدًا بدلًا من (الجِدار)».

مالَ كايبرن إلى الأمام قائلًا بابتسامة: «حَرس اللّيل يُدافِعون عنا جميعًا ضد السناركات والجرامكنات[56]. أيها السّادة، رأيي أن علينا أن نُساعِد إخوتنا السُّود الشُّجعان».

رمقَته سرسي بحدّةٍ متسائلةً: «ماذا تقول؟».

- «ما قلته. منذ سنوات وحَرس اللّيل يلتمسون الرّجال، وقد أجابَ اللورد ستانيس التماسهم، فهل يُمكن أن يفعل الملك تومن ما هو أقل؟ يَجدُر بجلالته أن يُرسِل مئة رجلٍ إلى (الجِدار)... ليرتدوا المعاطف السُّوداء ظاهريًا، أمّا في الحقيقة...».

أكملَت سرسي العبارة مسرورةً: «... ليقصوا چون سنو عن القيادة». *كنتُ أعلمُ أني محقّة حين أردته في مجلسي.* قالت ضاحكةً: «وهذا ما سنفعله بالضّبط». *إذا كان ذلك النّغل ابن أبيه حقًّا فلن يرتاب في شيء، بل وربما يَشكُرني قبل أن ينغرِس النّصل بين ضلوعه.* «يجب أن يُنفَّذ هذا بحرصٍ بالتّأكيد. اترُكوا لي الباقي أيها السّادة». هكذا ينبغي التّعامُل مع العدو، بخنجرٍ لا بإعلان. «أحسنّا عملًا اليوم أيها السّادة، أشكركم. هل من شيءٍ آخَر؟».

أجابَ أوران ووترز بنبرةٍ اعتذاريّة: «شيء واحد أخير يا صاحِبة الجلالة. أتردّد في أن أستهلك وقت المجلس في التّوافه، لكن هناك كلامًا غريبًا يدور في الميناء في الفترة الأخيرة. البحّارة الآتون من الشّرق يتكلّمون عن التّنانين...».

قاطعَته سرسي: «... والمانتيكورات والسناركات الملتحية أيضًا دون شك، أليس كذلك؟»، وأطلقَت ضحكةً قصيرةً مردفةً: «عُد إليّ عندما تسمع شيئًا عن الأقزام يا سيّدي»، ونهضَت مشيرةً بهذا إلى نهاية الاجتماع.

كانت ريح خريفيّة عاتية تهبُّ عندما غادرَت سرسي قاعة المجلس، ولا تزال أجراس بيلور المبارَك تصدح بأغنيّة الحِداد في هواء المدينة من بعيد، وفي السّاحة نحو أربعين من الفُرسان يكزُّ بعضهم على بعض بالشيوف والثّروس مضيفين إلى الصّخب صخبًا. رافق السير بوروس بلاونت الملكة إلى مسكنها، حيث وجدَت الليدي ميريويذر تضحك مع چوسلين ودوركاس، فسألتهن: «ما الطّريف لهذه الدّرجة؟».

أجابَت تاينا: «التّوأمان ردواين، كلاهما وقعَ في هوى الليدي مارچري. من قبل اعتادا أن يتشاجَرا على من سيُصبِح سيّد (الكرمة) التّالي، أمّا الآن فكلاهما يرغب في الانضمام إلى الحَرس الملكي لمجرّد أن يكون قُرب الملكة الصّغيرة».

- «النّمش على وجوه آل ردواين أكثر دائمًا من الذّكاء في عقولهم». على أنها معلومة مفيدة. *إذا ضُبِطَ هورور أو سلوبر في الفِراش مع مارچري...* تساءلَت سرسي إن كانت الملكة الصّغيرة تحبُّ النّمش. «دوركاس، اجلبي السير أوزني كِتلبلاك».

تورّد وجه دوركاس، وقالت: «كما تأمرين».

لمّا خرجَت الفتاة رمقَت تاينا ميريويذر الملكة بنظرةٍ فضوليّة، وسألَتها: «لماذا احمرّ وجهها هكذا؟».

أجابَتها سرسي وقد حانَ دورها في الضَّحك: «إنه الخب. فارسنا السير أوزني يستهويها». إنه أصغر الإخوة كِتلبلاك، صاحب الوجه الحليق، ومع أن له نفس الشَّعر الأسود والأنف المعقوف والابتسامة العفويَّة كأخيه أوزموند، فعلى إحدى وجنتيه ثلاثة خدوش طويلة بفضل واحدةٍ من عاهرات تيريون. «أظنُّ أن نُدوبه تُعجِبها».

التمعَ الخُبث في عينَي الليدي ميريويذر الدَّاكنتين وهي تقول: «بالضَّبط. النُّدوب تجعل الرَّجل يبدو خطيرًا، والخطر مثير».

قالت الملكة مداعبةً: «إنك تصدمينني يا سيِّدتي. إذا كان الخطر يُثيرك هكذا فلِمَ تزوَّجتِ اللورد أورتون؟ كلُّنا نحبُّه، هذا صحيح، ولكن...». كان پيتر قد علَّق مرَّةً قائلًا إن بوق الوفرة الذي يُزَيِّن رايات عائلة ميريويذر يُلائم اللورد أورتون على نحوٍ رائع، بما أن شَعره له لون الجزر وأنفه منتفخ كثمرة شمندر وذكاءه يُضاهي وعاءً من ثريد البازلاء.

قالت تاينا ضاحكةً: «سيِّدي يتمتَّع بالوفرة أكثر من الخطر بالفعل، ورغم ذلك... آملُ أني لن أحطَّ من قدر نفسي في نظر جلالتكِ، لكني لم أذهب عذراء إلى فِراش أورتون».

كلكن عاهرات في المُدن الحُرَّة، أليس كذلك؟ جيِّد أن تعلم هذا، فربما تتمكَّن من استغلاله ذات يوم. «وثرى من هذا الحبيب الذي كان... مليئًا بالخطر؟».

ازدادَت بشرة تاينا الزَّيتونيّة دُكنةً إذ تخضَّبت بالأحمر، وقالت: «أوه، لم يكن يجب أن أتكلّم. جلالتكِ ستُحافِظين على سرِّي، أليس كذلك؟».

قالت سرسي: «للرّجال النُّدوب وللنّساء الأسرار»، وقبّلتها على وجنتيها مفكّرةً: *سأستخلص هذا الاسم منكِ قريبًا*.

صرفَت الملكة رفيقاتها حين عادَت دوركاس بالسير أوزني كِتلبلاك، ثم قالت له: «تعالَ اجلس معي عند النّافذة يا سير أوزني. هل تُريد كأسًا من النّبيذ؟»، وصبّت واحدةً لنفسها متابعةً: «معطفك مهترئ. أفكِّر في أن أضعك في واحدٍ جديد».

- «ماذا؟ معطف أبيض؟ مَن مات؟».

- «ليس بعدُ. أهذه رغبتك؟ أن تنضمَّ إلى أخيك أوزموند في الحرس الملكي؟».

- «أفضِّل أن أكون حارس الملكة فقط، بَعد إذن جلالتكِ»، وابتسمَ أوزني ابتسامةً عريضةً لتلمع النُّدوب على وجنته بالأحمر، فتحسّستها سرسي بأناملها قائلةً: «لسانك جريء أيها الفارس. ستجعلني أنسى نفسي ثانيةً».

أجابَ السير أوزني: «جيِّد»، والتقط يدها وقبّل أصابعها بخشونةٍ مضيفًا: «ملكتي الجميلة».

همسَت الملكة: «أنت رجل شرِّير، ولا أظنُّك فارسًا حقيقيًا كذلك»، وتركَته يلمس ثدييها من فوق حرير فُستانها، ثم قالت: «كفى».

- «لا. إنني أريدكِ».

- «لقد نلتني».

قال: «مرّةً فقط»، وأمسكَ ثديها الأيسر واعتصرَه بِخُرَقِ ذكّرها بروبرت.

- «ليلة طيّبة لفارس طيّب. لقد أسديتَني صنيعًا شجاعًا ونلت مكافأتك»، ومشّت سرسي أصابعها على أربطة سراويله وشعرَت به ينتصب. سألَته: «أهذا حصان جديد الذي كنت تمتطيه في السّاحة صباح أمس؟».

- «الفَحل الأسود؟ أجل. هديّة من أخي أوزفريد. أسمّيه منتصَف اللّيل».

يا للابتكار! قالت: «مُطية رائعة للمعارك. أمّا للمُتعة فلا شيء يُقارَن بركوب مُهرةٍ صغيرة مفعَمة بالحيويّة»، ومنحته ابتسامةً واعتصرَت ذَكره مرّةً متابعةً: «اصدِقني القول، هل تحسب ملكتنا الصّغيرة جميلةً؟».

تراجعَ السير أوزني قائلًا بحذر: «أظنُّ هذا. بالنّسبة إلى فتاة. أفضّلُ أن أحظى بامرأة».

همسَت: «ولِمَ ليس الاثنتين؟ اقطف الوردة الصّغيرة من أجلي ولن تجدني ناكرةً للجميل».

رَدَّ السير أوزني وحرارته تخمد في سراويله: «الملكة... تعنين مارچري؟ إنها زوجة الملك. ألم يكن هناك حارس ملكي فقدَ رأسه لمضاجَعة زوجة الملك؟».

- «منذ عصور». *كانت عشيقة الملك لا زوجته، ورأسه الشيء الوحيد الذي لم يفقده. إجون مثّل به قطعةً قطعةً وجعلَ المرأة تُشاهِد.* غير أن سرسي لا تُريده أن يُفكِّر في تلك الحادثة الكريهة الموغلة في القِدم، فقالت: «تومن ليس إجون غير الجدير. لا تخف، سيفعل ما أطلبه منه. إنني أنوي أن تفقد مارچري رأسها وليس أنت».

جعلَه هذا يتردَّد لحظةً ويسأل: «تقصدين بكارتها؟».

- «وهذه أيضًا. طريف أنها ما زالَت محتفظةً بها»، وعادَت تتحسَّس ندوبه مردفةً: «ما لم تكن تحسب أن مارچري لن تستجيب إلى... سِحرك».

رمقَها أوزني بنظرةٍ جريحة، وقال: «إنني أعجبها بما فيه الكفاية بالفعل. بنات عمومتها يُعابِثنني بشأن أنفي دائمًا، كم هو كبير وما إلى ذلك، لكن آخِر مرّةٍ فعلَت مِجا ذلك أمرَتهن مارچري بالتوقُّف وقالت إن لي وجهًا جميلًا».

- «هكذا إذن».

قال الرّجل بنبرةٍ ملؤها الشّك: «هكذا إذن، لكن أين سأذهبُ إذا كانت... إذا كنتُ... بَعد أن...».

- «... تفعلا فعلتكما؟». منحَته سرسي ابتسامةً شائكةً، وأجابَت: «النّوم مع الملكة خيانة. لن يجد تومن خيارًا إلّا إرسالك إلى (الجِدار)».

ردَّد مذعورًا: «(الجِدار)؟!».

بذلَت كلَّ جهدها لتمنع نفسها من الضَّحك مفكّرةً: *لا، الأفضل ألّا أضحك. الرِّجال يكرهون أن يضحك منهم أحد،* وبدلًا من ذلك قالت: «المعطف الأسود سيتماشى جيِّدًا مع عينيك وشعرك الأسود هذا».

- «لا أحد يعود من (الجِدار)».

- «أنت ستعود، وما عليك إلّا أن تَقتل صبيًا؟».

- «مَن؟».

- «صبيٌ نغل متواطئ مع ستانيس. إنه صغير وأخضر، وسيكون معك مئة رجل».

اشتمَّت رائحة الخوف المنبعثة من كِتلبلاك، وإن كان أكثر غرورًا من أن يعترف بخوفه. *كلُّ الرِّجال واحد.* قال بإصرار: «لقد قتلتُ صِبيةً أكثر مما أستطيعُ أن أحصي. بمجرّد أن يموت ذلك الصّبي هل سأنال عفوي من الملك؟».

- «العفو بالإضافة إلى لورديّة». *ما لم يَشنقك إخوة سنو أولًا.* «لا بُدّ أن يكون للملكة رفيق لا يعرف الخوف».

قال: «اللورد كِتلبلاك؟»، وزحفَت ابتسامة بطيئة على وجهه والتهبَت نُدوبه بالأحمر، وأردفَ: «نعم، يروقني وقع الكلمة، لورد من اللوردات...».

- «... ولائق بأن يُضاجِع ملكةً».

قطّب وجهه قائلًا: «(الجِدار) بارد».

وضعَت سرسي ذراعيها حول عُنقه، وردّت: «وأنا دافئة. ضاجِع فتاةً واقتل صبيًا وأنا لك. هل تملك الشّجاعة؟».

فكّر أوزني لحظةً قبل أن يُومئ إيجابًا ويقول: «أنا رجلكِ».

قالت: «أنت رجلي أيها الفارس»، وقبّلته وجعلَته يتذوّق لسانها قليلًا قبل أن تتراجَع قائلةً: «يكفي هذا الآن، يجب أن ينتظر الباقي. هل ستحلُم بي اللّيلة؟».

أجابَ بصوتٍ مبحوح: «أجل».

سألَته مداعبةً: «وحين تكون في الفِراش مع مارچري؟ حين تكون في داخلها هل ستحلُم بي؟».

أقسمَ أوزني كِتلبلاك قائلًا: «أجل».

- «عظيم».

بَعد ذهابه استدعَت سرسي جوسلين لتُمَشِّط شَعرها بينما خلعَت حذاءها وتمطّت كهِرّة. قالت لنفسها: *إنني مخلوقة من أجل هذا*. أناقة الخطّة الخالصة أكثر ما يسرُّها. حتى مايس تايرل نفسه لن يجرؤ على الدِّفاع عن ابنته الغالية إذا ضُبِطَت متلبِّسةً مع أمثال أوزني كِتلبلاك، ولن يجد ستانيس باراثيون أو چون سنو ما يدعو إلى التّساؤل عن سبب إرسال أوزني إلى (الجِدار). سوف تحرص على أن يكون السير أوزموند هو من يكتشف أخاه مع الملكة الصّغيرة، وبهذه الطّريقة لن يطعن أحد في ولاء الأخوين كِتلبلاك الآخرين. *لو رآني أبي الآن لما سارعَ بالكلام عن تزويجي ثانيةً. مؤسِفٌ أنه مات، هو وروبرت وچون آرن وإدارد ستارك ورنلي باراثيون، كلُّهم ماتوا وما بقيَ إلّا تيريون، وليس طويلًا*.

ليلتها استدعَت الملكة الليدي ميريويذر إلى غُرفة نومها، حيث سألَتها: «هل تشربين كأسًا من النّبيذ؟».

أجابَت المايريّة ضاحكةً: «واحدةً صغيرةً، واحدةً كبيرةً».

قالت سرسي بينما تضع دوركاس عليها ثياب النّوم: «أريدكِ أن تزوري زوجة ابني غدًا».

- «الليدي مارچري تسعد لرؤيتي دومًا».

- «أعرفُ». لم يَفُت الملكة أن تلحظ اللّقب الذي تستخدمه تاينا عند الإشارة إلى زوجة تومن الصّغيرة. «قولي لها إنني أرسلتُ سبع شموعٍ من شمع النّحل إلى (سِپت بيلور) إحياءً لذكرى السّپتون الأعلى العزيز».

ضحكَت تاينا، وقالت: «إذن فسترسِل هي سبعًا وسبعين شمعةً كي لا تتفوّقي عليها».

أجابَت الملكة باسمةً: «سأستاءُ كثيرًا إذا لم تفعل. أخبِريها أيضًا بأن لها معجبًا سرِّيًّا، فارسًا مفتونًا للغاية بجمالها حتى إنه لا يستطيع النّوم ليلًا».

برقَ المكر في عينَي تاينا الواسعتين الدّاكنتين وهي تسألها: «هل لي أن أسأل جلالتكِ أيّ فارس؟ أيُمكن أنه السير أوزني؟».

- «ربما، لكن لا تُقدّمي لها الاسم طواعيةً، اجعليها تنتزعه منكِ. هلّا فعلتِ ذلك؟».

- «إذا كان يسرُّكِ. هذا كلُّ ما أتمنّى يا صاحِبة الجلالة».

في الخارج كانت الرِّيح الباردة تشتدُّ. ظلَّت الاثنتان ساهرتين حتى ساعةٍ متأخِّرة من الصَّباح، تشربان نبيذ (الكرمة) الذَّهبي وتتبادلان الحكايات. سكرَت تاينا تمامًا واستخلصَت منها سرسي اسم حبيبها السِّرِّي، الذي كان زبَّانًا من (مير)، نِصف قُرصانٍ له شَعر أسود ينسدل على كتفيه ونُدبة على وجهه من الذَّقن إلى الأذن. قالت لها المرأة الأخرى: «مئة مرَّةٍ قلت له لا وقال نعم، إلى أن وجدتُ نفسي أقولُ نعم في النِّهاية أيضًا. لم يكن رجلًا يُرفَض».

قالت الملكة بابتسامةٍ ملتوية: «أعرفُ هذا النَّوع».

- «هل عرفَت صاحِبة الجلالة رجلًا كهذا يا ترى؟».

أجابَت كاذبةً وهي تُفكِّر في چايمي: «روبرت».

لكن حين أسدلَت جفنيها كان الأخ الآخَر هو من حلمَت به، وبثلاثة الحمقى المأفونين الذين بدأت بهم يومها. في الحُلم أتوها برأس تيريون في الكيس الجِلدي، فطلَته بالبرونز واحتفظَت به في وعاء الفضلات.

---

(56) السنارك والجرامكِن مخلوقان خياليَّان يرد ذكرهما في الحكايات الشَّعبيَّة في) وستروس(، الأول وحش ليس له وصف محدَّد، والثَّاني يُقال إنه يُحقِّق الأماني بالسِّحر.) المترجم).

كانت الرّيح تهبّ من الشّمال فيما دارَت (النّصر الحديدي) حول الرّأس الأرضي ودخلَت الخليج المقدّس المسمّى (مهد ناجا).

انضمّ ڤيكتاريون إلى نيوت الحلّاق عند مقدّمة السّفينة، وقد لاح أمامهما ساحل (ويك القديمة) المقدّس والتّلّ المعشوشب فوقه، حيث ترتفع ضلوع ناجا من الأرض كجذوع أشجارٍ بيضاء عظيمة، كلٌّ منها يُناظِر صاري الدّرمونة في العرض ويَبلُغ ضِعفه طولًا.

عظام (*بهو الملك الأشيب*). شعرَ ڤيكتاريون بما في هذا المكان من سِحر، وقال متذكّرًا: «بالون وقفَ أسفل هذه العظام حين نصّب نفسه ملكًا. أقسمَ أن يستردّ لنا حرّيّتنا، ووضعَ تارل الغارق تاجًا من الخشب المجروف على رأسه، وهتفَ النّاس: *بالون! بالون! بالون ملكًا!*».

قال نيوت: «سيذوّي هتافهم باسمك أيضًا».

أومأ ڤيكتاريون برأسه مؤمّنًا، ولو أنه لا يُشارِك الحلّاق ثقته حقًّا. *بالون كان له ثلاثة أبناء، وابنة أحبّها كثيرًا*.

هذا ما قاله لربابنته في (خندق كايلن) حين أوعزوا إليه بأن يُطالِب بكرسي حجر اليم، وقال رالف ستونهاوس الأحمر: «أبناء بالون ماتوا، وآشا امرأة. لقد كنتَ ذراع أخيك اليُمنى القويّة، ويجب أن تلتقط السّيف الذي أفلتَه»، لكن عندما ذكّرهم ڤيكتاريون بأن بالون أمرَه بالدّفاع عن (الخندق) ضد الشّماليّين قال رالف كنينج: «الذّئاب انكسروا يا سيّدي. ما جدوى أن نكسب هذا المستنقع ونخسر الجُزر؟»، وأضافَ رالف الأعرج: «عين الغُراب غابَ عنا طويلًا، إنه لا يعرفنا».

يورون جرايجوي، ملك الجُزر والشّمال. أيقظَ الخاطر غضبةً قديمةً في قلبه، ورغم ذلك...

قال لهم ڤيكتاريون: «الكلام هواء، والهواء الجيّد الوحيد هو الذي يدفع أشرعتنا. هل تُريدونني أن أقاتل عين الغُراب؟ الأخ ضد الأخ والحديدي ضد الحديدي؟». ما زالَ يورون أخاه الكبير مهما كان بينهما من ضغائن. *ما من أحدٍ ملعون كقاتِل الأقربين*.

لكن كلّ شيءٍ تغيّر حين وصلَ استدعاء ذي الشّعر الرّطب ودعوته إلى انتخاب الملك.

ذكَّر ڤيكتاريون نفسه قائلًا: *آرون يتكلَّم بصوت الإله الغريق، وإذا كانت مشيئة الإله الغريق أن أجلس على كُرسي حجر اليم...* في اليوم التَّالي ولَّى رالف كنينج قيادة (خندق كايلن)، وتحرَّك برًّا صوب (النَّهر المحموم) حيث يرسو الأسطول الحديدي وسط أحراج القصب وأشجار الصَّفصاف. بَعدها أخَّرهم هياج البحر وتقلُّب الرِّياح، لكن سفينةً واحدةً فقط فُقِدَت، وعادَ ڤيكتاريون إلى الوطن.

تحرَّكت (الثَّأر الحديدي) و(الثُّبور) على مقربةٍ وراء (النَّصر الحديدي) بينما تجاوزَت لسان اليابسة، ووراءهما جاءَت (اليد القويَّة) و(الرِّيح الحديد) و(الشَّبح الرَّمادي) و(اللورد كويلون) و(اللورد ڤيكون) و(اللورد داجون) والبقيَّة، تسعة أعشار الأسطول الحديدي المبحر في تيَّار المساء في صَفٍّ غير منتظم يمتدُّ فراسخ عديدةً إلى الوراء. ملأ منظر القلوع ڤيكتاريون جرايچوي بالرِّضا. لا رجل في الدُّنيا أحبَّ زوجاته كما يحبُّ حضرة الرُّبَّان القائد سفنه.

على شاطئ (ويك القديمة) المقدَّس تصطفُّ السُّفن الطَّويلة على مدى البصر بصوارٍ مرتفعة كالحِراب، وفي البُقع الأعمق من المياه ترسو الغنائم؛ أكواج وقراقير[57] وذرمونات ظُفِرَ بها في الغارات أو الحروب، وتمنعها أحجامها الكبيرة من الدُّنو من الشَّاطئ، وعلى مقدِّماتها ومؤخِّراتها وصواريها تخفق رايات مألوفة.

ضيّق نيوت الحلّاق عينيه ناظرًا إلى الشّاطئ، وتساءلَ: «أهذه (أغنيّة البحر) سفينة اللورد هارلو؟». الحلّاق رجل غليظ البنية له ساقان متقوّستان وذراعان طويلتان، لكن بصره لم يَعُد حادًا كما كان في شبابه. في تلك الأيام كان بإمكانه رمي الفأس بمنتهى البراعة، حتى إن النّاس قالوا إنه يستطيع أن يحلق لحيتك بها.

يبدو أن رودريك القارئ ترك كُتبه. «(أغنيّة البحر)، نعم. وهذه هي (الرّاعد) سفينة دروم العجوز، وإلى جوارها (طيّار اللّيل) سفينة بلاكتايد». ما زالَت عينا ڤيكتاريون تتمتّعان بحدّتهما المعهودة، وعلى الرغم من انطواء الأشرعة وارتخاء الرّايات فقد تعرّف الشفن كما يليق بحضرة الرّبان قائد الأسطول الحديدي. «و(الزّعنفة الفضّيّة) أيضًا. لا بُدّ أنه من أقرباء ساوان بوتلي». سمعَ ڤيكتاريون أن عين الغُراب أغرقَ اللورد بوتلي، كما أن وريثه ماتَ في (خندق كايلن)، لكن هناك إخوةً وأبناء آخرين أيضًا. *كم؟ أربعة؟ لا، خمسة، ولا أحد منهم عنده سبب يجعله يحبّ عين الغُراب.*

ثم إنه رآها. للسّفينة صارية واحدة، بدنها رفيع واطئ وله لون أحمر قانٍ، وأشرعتها -المطويّة الآن- سوداء كسماءٍ بلا نجوم. حتى في المرسى تبدو (الصّمت) قاسيةً سريعةً. على مقدّمتها فتاة حديديّة سوداء تمدُّ أحد ذراعيها، خصرها ممشوق ونهداها عاليان شامخان وساقاها طويلتان رشيقتان، ومن رأسها يَرَفرِف شَعرها الحديد الأسود كأن الرّيح تُطَيّره، وفي عينيها يلتمع عِرق اللُّؤلؤ، لكنها بلا فم.

انغلقَت قبضتا ڤيكتاريون. بهاتين اليدين ضربَ أربعة رجالٍ حتى الموت، وزوجةً أيضًا. رغم الشّيب الذي وخطَ شَعره فإنه لا يزال محتفظًا بقوّته كاملةً، صدره عريض كالثّيران وبطنه مسطّح كالصّبيان. *قاتِل الأقربين ملعون في أعين الآلهة والبَشر*. هذا ما ذكّره به بالون يوم صرفَ عين الغُراب إلى البحر.

قال ڤيكتاريون للحلّاق: «إنه هنا. أنزِلوا الأشرعة، سنتقدّم بالمجاذيف فقط. ومُر (الثّبور) و(الثّأر الحديدي) بالوقوف بين (الصّمت) والبحر، ولتُغلِق بقيّة الشفن الخليج. لا أحد يُغادِر إلّا بأمري، سواء أكان رجلًا أم غُرابًا».

كان مَن على الشّاطئ قد أبصَروا أشرعتهم، وتردّد هتافهم عبر الخليج إذ رفعَ الأصدقاء والأهل عقائرهم بالتّحيّات... لكن صوتًا لم يَخرج من (الصّمت). على ظَهرها لم تُصدَر كلمة واحدة من طاقمها المتنافر من البُكم والهِجان إذ دنَت (النّصر الحديدي)، وحدّق إليه رجال سُود كالقار وآخَرون قصار مكتنزون مشعرون كقِردة (سوثوريوس). وحوش.

ألقوا المرساة على بُعد عشرين ياردةً من (الصّمت)، وقال ڤيكتاريون: «أنزِلوا قاربًا، أريدُ الذّهاب إلى الشّاطئ»، ثم إنه تمنطقَ بحزامه فيما أخذَ الملّاحون أماكنهم، ليستقرّ سيفه الطّويل على أحد وَركيه وخنجره على الثّاني. حول كتفَي حضرة القائد ثبّت نيوت الحلّاق معطفه المصنوع من تسع طبقاتٍ من قُماش الذّهب والمفضّل على شكل كراكِن عائلة جرايچوي وتتدلّى ذراعاه حتى حذائه، وقد ارتدى تحته قميصًا ثقيلًا من الحلقات المعدنيّة الرّماديّة فوق الجِلد الأسود المقوّى. كان قد اعتادَ ارتداء الحلقات المعدنيّة في (موت كايلن) ليل نهار، فاحتمال تيبُّس كتفيه وألم ظَهره أسهل من الإسهال الدّموي، إذ يكفي أن يخدش أحد سهام شياطين المستنقعات المسمومة المرء مجرّد خدش، وخلال ساعاتٍ قليلة ستجده يَصرخ بينما تسيل حياته من بين ساقيه في دفقاتٍ من الأحمر والبنّي.
سأتعامَلُ مع شياطين المستنقعات أيًا كان الفائز بكُرسي حجر اليم.

اعتمرَ ڤيكتاريون خوذةً حربيّةً سوداء طويلةً، مطرَّقةً على شكل كراكِن حديدي تلتفُّ أذرُعه حول وجنتيه وتلتقي أسفل فَكِّه. عندئذٍ كان القارب قد صارَ جاهزًا، فقال لنيوت وهو ينزل على جانب السّفينة: «لقد وضعتُ الصّناديق في عهدتك. احرِص على وضع حراسةٍ مشدَّدة عليها». الكثير يعتمد على هذه الصّناديق.

- «كما تأمر يا جلالة الملك».

أجابَه ڤيكتاريون بوجهٍ عابس: «لستُ الملك بعدُ»، ونزلَ إلى القارب.

وكان آرون ذو الشّعر الرّطب في انتظاره وسط الأمواج المتكسّرة على الشّاطئ، وقد علّق قِربة الماء المالح تحت ذراعه. الرّاهب نحيل طويل ولكن أقصر قامةً من ڤيكتاريون، ويَبرُز أنفه كزَعنفة سمكة قِرش من وجهه المهزول تحت عينين من حديد، وتَبلُغ لحيته خصره، وعندما تهبُّ الرّيح يصفع شَعره الطّويل المتشابك كالحبال مؤخّرة ساقيه. قال والموج الأبيض البارد يتكسّر حول كاحليه: «أخي، ما ماتَ لا يُمكن أن يموت أبدًا».

رَدَّ ڤيكتاريون: «بل يُبعَث من جديدٍ أقوى وأصلب»، وخلعَ خوذته وركعَ لتملأ مياه الخليج حذاءه وتُبلّل سراويله بينما صَبَّ آرون خيطًا من الماء المالح على جبهته، وشرعَ الاثنان في الصّلاة، ولمّا فرغا سألَ حضرة القائد ذا الشّعر الرّطب: «أين أخونا عين الغُراب؟».

- «خيمته تلك المصنوعة من قُماش الذَّهب، هناك حيث اللَّغط أشدُّ. إنه يُحيط نفسه بالكافرين والوحوش، أسوأ من قبل. فيه فسدَت دماء أبينا».

- «ودماء أمِّنا أيضًا». يَرفُض ڤيكتاريون أن يتكلَّم عن قتل الأقربين هنا في هذا المكان المقدَّس أسفل عظام ناجا و(بهو الملك الأشيب)، ولكن كم من ليلةٍ حلمَ فيها بنفسه يهوي على وجه يورون الباسم بقبضةٍ مقفَّزة بالحديد، إلى أن يتشقَّق لحمه وتسيل دماؤه الفاسدة حمراء حرَّةً. *إياك أن تفعل ذلك. لقد أعطيت بالون كلمتك*. سأل أخاه الزَّاهب: «هل أتى الجميع؟».

- «جميع من لهم أهميَّة، الرَّبابنة والملوك». في (جُزر الحديد) الاثنان سيَّان، لأن كلَّ رُبَّانٍ ملك على سطح سفينته، وكلَّ ملكٍ لا بدَّ أن يكون رُبَّانًا. «هل تنوي المطالَبة بتاج أبينا؟».

أجابَ ڤيكتاريون متخيِّلًا نفسه يجلس على كُرسي حجر اليم: «إذا شاء الإله الغريق».

قال آرون ذو الشَّعر الرَّطب وهو يلتفت مبتعدًا: «سيقول الموج كلمته، فأصغِ إلى الموج يا أخي».

- «أجل». تساءلَ كيف سيكون وقع اسمه إذ تهمسه الأمواج ويهتف به الرَّبابنة والملوك. *إذا أتتني الكأس فأنا ذائقها*.

كانوا قد ازدحموا يتمنّون له التّوفيق ويتودّدون إليه، فرأى ڤيكتاريون رجالًا من كلّ جزيرة، من آل بلاكتايد وآل تاوني وآل أوركوود وآل ستونتري وآل وينش وكثيرين غيرهم، وقد حضرَ أيضًا آل جودبراذر أولاد (ويك القديمة) وآل جودبراذر أولاد (ويك الكبرى) وآل جودبراذر أولاد (أوركمونت) جميعًا، بالإضافة إلى آل كود على الرغم من احتقار الجميع لهم، بينما خالطَ آل شيپارد وآل ويڤر وآل نتلي المتواضعون رجالًا من عائلاتٍ عريقة أبيّة، بل وخالطَهم آل همبل المتواضعون أيضًا مع أنهم من نسل الأقنان والزّوجات الملحيّات. ربّت واحد من آل ڤولمارك على ظَهر ڤيكتاريون بقوّة، ودَسّ اثنان من آل سپار قِربة نبيذٍ في يده، فشربَ كثيرًا ومسحَ فمه وتركَهم يحملونه إلى بؤر النّار ليسمع كلامهم عن الحرب والتّيجان والغنائم وما ينتظرهم من أمجادٍ وحرّيّة في عهده.

ليلتها نصبَ رجال الأسطول الحديدي خيمةً ضخمةً من قُماش الأشرعة فوق خطّ المد، وأقامَ ڤيكتاريون مأدبةً لنصفمئةٍ من مشاهير الزّبابنة، أطعمَهم فيها لحم الجِديان المشوي وسمك القُد المملّح والكركند، وجاء آرون أيضًا وأكلَ السّمك وشربَ الماء، في حين تجرّع الزّبابنة مِزرًا يكفي لأن يُبحِر فيه الأسطول الحديدي. وعدَه كثيرون بأصواتهم، منهم فرالج القوي وآلفن شارپ الأريب، وكذا هوثو هارلو الأحدب الذي عرضَ عليه ابنته لتكون ملكته، فقال له ڤيكتاريون: «حظّي في الزّواج سيئ». زوجته الأولى ماتت في أثناء الولادة ومنحَته ابنةً جهيضةً، والثّانية فتكَ بها الجُدري، والثّالثة...

قال هوثو بإصرار: «لا بُدّ أن يكون للملك وريث. عين الغُراب جلبَ ثلاثةً من أبنائه يعرضهم في انتخاب الملك».

- «نغول وهِجان. كم سِنُّ ابنتك هذه؟».

أجابَ هوثو: «اثنا عشر عامًا، جميلة وخصبة، أزهرَت حديثًا، وشَعرها بلون العسل. ما زالَ ثدياها صغيرين، لكن وَركيها قويّتان. إنها تُشبِه أمّها أكثر مني».

أدركَ ڤيكتاريون أن معنى هذا أن الفتاة بلا حدبةٍ في ظَهرها، لكن حين حاولَ أن يتصوَّرها لم يزَ إلّا الزَّوجة التي قتلَها. مع كلِّ ضربةٍ هوى عليها بها انتحبَ، وبَعدها حملَها إلى الصُّخور ليُعطي سراطين البحر إياها. قال: «يسرُّني أن ألقي نظرةً على الفتاة حالما أتوَّج». كان هذا أقصى ما جرؤَ هوتو على أن يأمله، فابتعدَ قانعًا.

على أن إرضاء بيلور بلاكتايد أصعب، وقد جلسَ إلى جوار ڤيكتاريون بوجهه النّاعم الوسيم وقميصه المفصَّل من صوف الجِملان المضلَّع بالأسود والأخضر، وقد ارتدى فوقه معطفًا من فرو السَّمُّور تُثبِّته نجمة سُباعيّة من الفضّة. أمضى الرَّجل ثماني سنوات رهينةً في (البلدة القديمة)، وعادَ منها عابدًا لآلهة الأراضي الخضراء السَّبعة. قال اللورد بيلور: «بالون كان مجنونًا وآرون أكثر جنونًا ويورون الأكثر جنونًا على الإطلاق، فماذا عنك يا حضرة القائد؟ إذا هتفتُ باسمك فهل ستضع نهايةً لهذه الحرب المجنونة؟».

قطَّب ڤيكتاريون جبينه متسائلًا: «هل تُريدني أن أركع؟».

- «إذا لزمَ الأمر. إننا لا نستطيع الصُّمود وحدنا أمام (وستروس) كلِّها. الملك روبرت أثبت هذا وأذاقنا الويل. بالون قال إنه يُريد أن يدفع الثَّمن الحديدي لقاء الحرِّيّة، لكن نساءنا اشترين تيجان بالون بالأسرّة الخالية. أمّي كانت واحدةً منهن. النَّهج القديم ماتَ».

- «ما ماتَ لا يُمكن أن يموت أبدًا، بل يُبعَث من جديدٍ أقوى وأصلب. بَعد مئة عامٍ سيظلُّ النّاس يُغنّون عن بالون المقدام».

- «الأحرى أن تُسمِّيه بالون صانع الأرامل. كنتُ لأبادل حزّيته تلك بأبٍ بكلِّ سرور. أعندك أب تُعطيني إياه؟»، ولمّا لم يُجِب ڤيكتاريون أطلقَ بلاكتايد نخيزًا ساخرًا وتركَه.

ارتفعت الحرارة داخل الخيمة وامتلأت بالدُّخان. قلبَ اثنان من أبناء جورولد جودبراذر مائدةً في شجار، وخسرَ ويل همبل رهانًا ترتَّب عليه أن يأكل حذاءه، وعزفَ لينوود تاوني الصَّغير على الكمنجة، بينما غنّى رومني ويڤر (الكأس الدّامية) و(أمطار من فولاذ) وغيرهما من أغاني المُغيرين، ورقصَ كارل البِكر وإلدريد كود رقصة الأصابع، فدوّى الضّحك عندما طارَ أحد أصابع إلدريد وسقطَ في نبيذ رالف الأعرج.

بين الضّاحكين كانت امرأة. نهضَ ڤيكتاريون ورآها عند سديلة الخيمة، تهمس بشيءٍ ما في أُذن كارل البِكر جعلَه يضحك بدوره. كان يأمل أنها ليست بالحماقة الكافية لأن تأتي، غير أن مرآها حدا به إلى الابتسام رغم ذلك، فنادى بصوتٍ آمر: «آشا، ابنة أخي».

شقَّت طريقها إلى جانبه وقد بدَت نحيلةً رشيقةً في حذائها العالي الذي بقَّع جِلده الملح وسراويلها الصُّوف الخضراء وقميصها البنِّي المبطَّن وسُترتها الجِلديَّة عديمة الأكمام التي عقدَت نِصف أربطتها. آشا جرايچوي طويلة القامة بالنِّسبة إلى امرأة، وعلى الرغم من هذا شبَّت على أصابع قدميها لتلثم وجنته قائلةً: «عمَّاه، يسرُّني أن أراك في انتخاب الملكة».

رَدَّ ضاحكًا: «انتخاب الملكة؟ أأنتِ سكرانة يا ابنة أخي؟ اجلسي. لم ألمح سفينتكِ (الرِّيح السَّوداء) على الشَّاطئ».

- «رسوتُ بها عند قلعة اللورد جودبراذر وقطعتُ الجزيرة ركوبًا»، وجلسَت آشا على كُرسي، وبلا إذنٍ تناولَت نبيذ نيوت الحلَّاق وشربَت منه، إلَّا أن نيوت لم يعترض، إذ كان قد غابَ في النَّوم سكران منذ مدَّة. «لمَن القيادة في (الخندق)؟».

- «رالف كنينج. بموت الذِّئب الصَّغير لم يَعُد يقضُّ مضاجعنا إلَّا شياطين المستنقعات».

- «آل ستارك لم يكونوا الشَّماليِّين الوحيدين. العرش الحديدي قلَّد سيِّد (معقل الخوف) حُكم الشَّمال».

- «هل تُلقِّنينني دروسًا في الحرب؟ إنني أخوض المعارك وأنتِ ما زلتِ ترضعين لبن أمِّكِ».

أضافَت آشا: «وتخسر المعارك أيضًا»، وأخذَت رشفةً من النَّبيذ.

لا يحبُّ ڤيكتاريون أن يُذكِّره أحد بـ(الجزيرة القصيَّة)، فقال: «على كلِّ رجلٍ أن يخسر معركةً في شبابه كي لا يخسر حربًا حين يكبر. آملُ أنكِ لم تجيئي للمطالَبة بالحُكم».

قالت بابتسامةٍ عابثة: «وماذا لو أني جئت لهذا؟».

- «هناك رجال يَذكُرونكِ عندما كنتِ بنتًا صغيرةً تسبح عاريةً في البحر وتلعب بدُميتها».

- «ولعبتُ بالفؤوس أيضًا».

قال مقرًّا: «نعم... لكن المرأة تحتاج إلى زوجٍ لا إلى تاج. حين أصبحُ ملكًا سأعطيكِ واحدًا».

- «يا لحنان عمّي عليّ. هل أجدُ لك زوجةً حسناء حين أصبحُ ملكةً؟».

- «حظّي في الزّواج سيِّئ. منذ متى وأنتِ هنا؟».

- «منذ فترةٍ تكفي لأن أرى أن ذا الشّعر الرّطب أثارَ أكثر مما كان ينتوي. دروم يُزمِع أن يُطالِب بالحُكم، وتارل الغارق ثلاثًا سَمِعَ يقول إن مارون ڤولمارك الوريث الشّرعي لذوي النّسب الأسود من العائلة».

- «لا بُدّ أن يكون الملك من الكَراكِن».

قالت آشا: «عين الغُراب كراكِن. الأخ الكبير يسبق الصّغير»، ومالَت آشا دانيةً، وأردفَت: «لكنني ابنة الملك بالون ومن صُلبه، ولذا أسبقُ كليكما. اسمعني يا عمّاه...».

غير أن الصّمت رانَ فجأةً على المكان. سكتَ الغناء وخفضَ لينوود تاوني الصّغير كمنجته، ودوَّر الرّجال رؤوسهم، بل وسكتَت جلبة الأطباق والسّكاكين.

دستة من الوافدين الجُدد دخلَت خيمة المأدبة، ورأى ڤيكتاريون چون ماير ذي الوجه المسحوب، وتوروولد ذي السّن البنّيّة، ولوكاس كود الأعسر، إضافةً إلى جرموند بوتلي الذي عقدَ ذراعيه على واقي صدره المذهّب الذي أخذَه من جثّة أحد قادة لانستر خلال تمرُّد بالون الأول، وقد وقفَ إلى جواره أوركوود سيِّد (أوركمونت)، ووراءهما ذو اليد الحجر وكويلون همبل والملّاح الأحمر بشَعره النّاري المضفور، ومعهم رالف الرّاعي ورالف ابن (لانسپورت) وكارل القِن.

وعين الغُراب، يورون جرايچوي.

قال ڤيكتاريون لنفسه: *لا يبدو عليه تغيير، يبدو تمامًا كما كان يوم سخرَ مني ورحلَ*. يورون أوسم أبناء اللورد كويلون، ولم تُغيِّر ثلاثة أعوام في المنفى هذا. ما زالَ شَعره أسود كالبحر في منتصَف اللّيل دون أيّ لمحةٍ من الأبيض، وما زالَ وجهه ناعمًا شاحبًا تحت لحيته الفاحمة المشذّبة. تُغطّي عين يورون اليُسرى رُقعة جِلديّة سوداء، لكن اليُمنى زرقاء كسماء الصّيف.

فكّر ڤيكتاريون: *عينه الباسمة*، وقال: «عين الغُراب».

- «الملك عين الغُراب يا أخي»، رَدّ يورون مبتسمًا، فبدَت شفتاه داكنتين للغاية في ضوء المصابيح، مكدومتين مزرقّتين.

نهضَ ذو الشّعر الرّطب قائلًا: «لا ملك إلّا بانتخاب الملك. ليس لكافرٍ...».

قاطعَه يورون: «... أن يجلس على كُرسي حجر اليم، نعم»، وتطلّع عبر الخيمة متابعًا: «يتصادَف أني جلستُ على كُرسي حجر اليم كثيرًا في الفترة الأخيرة ولم يعترض»، والتمعَت عينه الباسمة وهو يُواصِل: «من يعرف عن الآلهة أكثر مني؟ آلهة خيول وآلهة نارٍ ثون، آلهة من الذّهب أعيُنها أحجار كريمة، آلهة منحوتة من خشب الأرز وآلهة منحوتة في الجبال وآلهة من هواء... أعرفها جميعًا. رأيتُ عبادها يضعون على رؤوسها أكاليل الزّهر ويسفحون دماء الماعز والثّيران والأطفال باسمها، وسمعتُ الصّلوات بعشرات اللُّغات. اشفِ ساقي العاجزة، اجعل الفتاة تحبّني، امنحني ابنًا سليمًا معافًى، أنقِذني، أسعِفني، أثرِني... احمِني! احمِني من أعدائي، احمِني من الظّلام، احمِني من المرض في بطني، من سادة الخيول، من النّخّاسين، من المرتزِقة على بابي، احمِني من (الصّمت)!»، وضحك قائلًا: «كافر؟ آرون، إنني أكثر رجلٍ إيمانًا في التّاريخ! تخدم أنت إلهًا واحدًا يا ذا الشّعر الرّطب، أمّا أنا فخدمتُ عشرة آلاف. من (إيب) إلى (آشاي)، حين يرى النّاس أشرعتي يُصلّون».

رفعَ الرّاهب إصبعًا رفيعًا، وقال: «إنهم يُصَلّون للأشجار والأصنام الذّهب والمسوخ ذات رؤوس الكباش، آلهة زائفة...».

قال يورون: «بالضَّبط، ولهذه الخطيئة أقتلهم جميعًا، أريقُ دماءهم في البحار وأزرعُ في نسوتهم الصَّارخات بذرتي. آلهتهم التَّافهة لا تقوى على صدِّي، فواضح إذن أنها آلهة زائفة. إنني أكثر تقوى منك شخصيًّا يا آرون. ربما عليك أنت أن تركع أمامي طالبًا البَركة».

أطلقَ الملّاح الأحمر ضحكةً صاخبةً لقوله، وحذا الآخرون حذوه، في حين قال الرَّاهب: «حمقى، ما أنتم إلّا حمقى وأقنان وغمي. ألا ترون الواقف أمامكم؟».

قال كويلون همبل: «نرى ملكًا».

بصقَ ذو الشَّعر الرَّطب على الأرض، وخرج إلى اللَّيل بخُطواتٍ واسعة.

وحين رحلَ التفتَ يورون بعينه الباسمة إلى ڤيكتاريون قائلًا: «حضرة القائد، ألن تُحَيّي أخاك الذي طالَ غيابه؟ ولا أنتِ يا آشا؟ كيف حال السيِّدة والدتكِ؟».

أجابَت آشا: «ليست بخير، رجل ما جعلَها أرملةً».

هَزَّ يورون كتفيه، وقال: «سمعتُ أن إله العواصف ألقى ببالون إلى حتفه. مَن هذا الرَّجل الذي قتلَه؟ أخبِريني باسمه يا ابنة أخي لأثأر لنفسي منه».

قامَت آشا قائلةً: «تعرف اسمه مِثلما أعرفه. ثلاث سنواتٍ غبت عنا، ثم ترجع (الصَّمت) في غضون يومٍ واحد من موت أبي».

سألَها يورون بوداعة: «هل تتَّهمينني؟».

- «هل يَجدُر بي أن أتّهمك؟». حدَت نبرة آشا الحادّة بڤيكتاريون إلى العبوس. من الخطر أن يُكلِّم المرء عين الغُراب بهذا الأسلوب، حتى والعبث يلتمع في عينه الباسمة.

سألَ عين الغُراب حيواناته المدلّلة: «هل تأتمر الرِّيح بأمري؟».

قال أوركوود سيِّد (أوركموند): «لا يا جلالة الملك».

وقال جرموند بوتلي: «الرِّيح لا تأتمر بأمر إنسان».

وقال الملّاح الأحمر: «ليتها تأتمر بأمرك. كنت لتُبحِر حيثما شئت ولا تُعاني سكونها أبدًا».

- «ها قد سمعتِ الحقيقة من ثلاثة رجالٍ شجعان. (الصّمت) كانت في البحر حين ماتَ بالون. إذا كنتِ تُشكّكين في كلمة عمِّكِ فلكِ الإذن في سؤال طاقمي».

- «طاقمك الأخرس؟ نعم، سينفعني هذا حقًّا».

قال يورون: «سينفعكِ أن تتزوّجي»، وعادَ يلتفت إلى أتباعه متسائلًا: «توروولد، لقد نسيتُ، ألك زوجة؟».

- «زوجتي الوحيدة»، أجابَ توروولد ذو السِّن البنّيّة بابتسامةٍ عريضة ليُريهم كيف اكتسبَ لقبه.

أعلنَ لوكاس كود الأعسر: «أنا أعزب».

قالت آشا: «لسببٍ وجيه. كلُّ النّساء يحتقرن آل كود. لا تنظُر إليّ بهذا الحُزن يا لوكاس، فما زالَت لديك يدك الشّهيرة»، وصنعَت حركةً بذيئةً بقبضتها.

راحَ كود يسبُّ ويلعن إلى أن وضعَ عين الغُراب يده على صدره قائلًا: «أهذه لباقة يا آشا؟ لقد جرحتِ لوكاس في الصَّميم».

- «أسهل من جرحه في القضيب. إنني أجيدُ رمي الفؤوس كأيِّ رجل، لكن عندما يكون الهدف صغيرًا هكذا...».

زمجرَ چون ماير ذو الوجه المسحوب: «هذه الفتاة تنسى نفسها. بالون تركَها تعتقد أنها رجل».

ردَّت آشا: «أبوك ارتكبَ الغلطة نفسها معك».

قال الملّاح الأحمر: «أعطِني إياها يا يورون. سأصفعها على مؤخِّرتها إلى أن تحمرَّ كشَعري».

قالت آشا: «تعالَ وحاوِل، وبعدئذٍ سنُسمِّيك الخصيَّ الأحمر»، وظهرَت في يدها فأس ألقَتها في الهواء والتقطَتها ببراعةٍ متابعةً: «ها هو ذا زوجي يا عمَّاه. على الرَّجل الذي يُريدني أن يتعامَل معه أولًا».

هوى ڤيكتاريون بقبضته على المائدة صائحًا: «لن أسمح بإراقة الدِّماء هنا. يورون، خُذ... حيواناتك الأليفة... واخرج».

- «كنتُ أتطلَّع إلى ترحيبٍ أكثر دفئًا منك يا أخي. إنني أخوك الكبير... وقريبًا مليكك».

اغبرَّ وجه ڤيكتاريون، وقال: «حين يقول انتخاب الملك كلمته سنرى من يعتمر تاج الخشب المجروف».

قال يورون: «على هذا نتّفق»، ورفعَ إصبعين إلى الرُّقعة التي تُغطِّي عينه اليُسرى وانصرفَ، وخرج الآخرون في أعقابه ككلابٍ مهجّنة. ظَلَّ الصّمت مخيِّمًا عقب خروجهم، إلى أن أمسكَ لينوود تاوني الصّغير كمنجته مجدّدًا وعادَ النّبيذ والمِزر يتدفّقان، وإن لاحَ على مجموعةٍ كبيرة من الضُّيوف أنهم لم يعودوا ظمآنين. انسلَّ إلدريد كود من الخيمة محتضنًا يده الدّامية، ثم تبعَه ويل همبل وهوثو هارلو وعدد لا بأس به من أبناء جودبراذر.

وضعَت آشا يدها على كتف ڤيكتاريون قائلةً: «عمّاه، تمشَّ معي إذا سمحت».

كانت الرِّيح تشتدُّ خارج الخيمة، والسّحاب يجري أمام وجه القمر الشّاحب فيبدو كقوادس تندفع لتدكَّ شفن العدو، والنُّجوم قليلة خافتة. بطول الشّاطئ الشفن الطّويلة راسية، صواريها العالية ترتفع كغابةٍ وسط الأمواج. سمعَ ڤيكتاريون صرير أبدانها وهي تستريح على الرِّمال، وسمعَ صوت انشداد حبالها الحادّ وخفقان الرّايات عليها، ووراءها في الجزء الأعمق من الخليج رأى الشفن الأخرى الأكبر تتمايَل في مرساها كظلالٍ قاتمة يتغلّفها الضّباب.

قالت آشا إذ سارا معًا على الشّاطئ فوق خطِّ المَد مباشرةً وبعيدًا عن المخيّمات وبؤر النّار: «اصدِقني القول يا عمّاه، لماذا رحلَ يورون فجأةً؟».

- «عين الغُراب اعتادَ الذّهاب للإغارة كثيرًا».

- «لكن ليس لفتراتٍ طويلة».

- «لقد أخذ (الصّمت) إلى الشَّرق. إنها رحلة طويلة».

- «سألتُ لماذا رحلَ وليس أين»، فلمّا لم يُجِبها تابعَت آشا: «كنتُ غائبةً عندما أقلعَت (الصّمت)، أخذتُ (الرِّيح السَّوداء) ودرتُ حول (الكرمة) إلى (الأعتاب) لأسرق القليل من الغنائم من القراصنة اللايسينيِّين، وحين عدتُ كان يورون قد رحلَ وماتَت زوجتك الجديدة».

- «كانت مجرَّد زوجةٍ ملحيّة». إنه لم يمسّ امرأةً أخرى منذ أعطى سراطين البحر إياها. *عليّ أن أتّخذ زوجةً حين أتوَّج ملكًا، زوجةً حقيقيّةً تكون ملكتي وتحمل لي أبنائي. يجب أن يكون للملك وريث.*

قالت آشا: «أبي رفضَ أن يتكلّم عنها».

ردَّ: «لا ينفع المرء الكلام عن أشياء لا يستطيع أحد تغييرها»، واستطردَ وقد سئمَ من الموضوع: «رأيتُ سفينة القارئ».

- «إخراجه من (بُرج الكُتب) تطلّب سحري كلّه».

آل هارلو يُؤيِّدونها إذن. ازدادَ وجه ڤيكتاريون عبوسًا، وقال: «لا أمل لكِ في الحُكم. إنكِ امرأة».

ضاحكةً قالت آشا: «ألهذا أخسرُ دومًا في مسابَقات التَّبوُّل؟». ثم إنها أردفَت: «عمّي، يُؤسِفني أن أقولها، لكن ربما تكون مصيبًا. منذ أربعة أيام وأربع ليالٍ وأنا أشربُ مع الرَّبابنة والملوك وأصغي لما يقولونه... وما لا يقولونه. إن رجالي معي، وكثيرين من آل هارلو، ومعي تريس بوتلي أيضًا وبعض الآخرين. لا يكفون»، وركلَت صخرةً وطيَّرتها لتسقُط في الماء بين سفينتين طويلتين، وأضافَت: «أفكِّرُ في أن أهتف باسم عمِّي».

سألَها: «باسم أيِّ عم؟ إن لكِ ثلاثةً».

- «ثلاثة أعمام وخال. اسمعني يا عمّاه. سأضعُ تاج الخشب المجروف على رأسك بنفسي... إذا وافقت على مشارَكة الحُكم».

- «مشارَكة الحُكم؟ كيف؟». المرأة لا تقول كلامًا معقولًا. *هل تُريد أن تكون ملكتي؟* وجدَ ڤيكتاريون نفسه يَنظُر إلى آشا بطريقةٍ جديدة تمامًا، وأحسَّ بذكره يتحرَّك. فذكَّر نفسه قائلًا: *إنها ابنة بالون*، وتذكَّرها وهي فتاة صغيرة ترمي الفؤوس على باب. عقدَ ذراعيه على صدره، وقال: «لا مكان على كُرسي حجر اليم إلَّا لواحد».

- «فليجلس عمِّي عليه إذن، وسأقفُ وراءك أحمي ظَهرك وأهمس في أذنك. لا ملك يستطيع أن يَحكُم وحده. حتى عندما جلسَ التِّنانين على العرش الحديدي كان هناك مَن يُساعِدونهم، أيادي الملوك. دعني أكونُ يدك يا عمّاه».

لم يحتَج ملك للجزر إلى يدٍ في تاريخها كلّه، ناهيك بكون ذلك اليد امرأةً. *سيسخر مني الزّبابنة والملوك وهُم يشربون.* «لماذا ترغبين في أن تكوني يدي؟».

- «لنضع نهايةً لهذه الحرب قبل أن تضع نهايتنا. لقد كسبنا كلّ ما يُمكننا أن نكسبه... ومعرَّضون لأن نخسر كلّ شيءٍ بالشرعة نفسها ما لم نعقد صُلحًا. لقد أريث الليدي جلوڤر كلّ كياسةٍ ممكنة، وتقسِم أن سيّدها سيتفاوض معي. تقول إنه إذا رددنا (ربوة الغابة) و(مربَع تورين) و(خندق كايلن) فسيتنازَل لنا الشّماليّون عن (رأس التنّين البحري) و(السّاحل الحجري) بأكمله. تلك الأراضي معمورة بقليلٍ من السّكّان، لكنها تفوق مساحة الجُزر مجتمعةً عشر مرّات. سنُبرِم الصّفقة بتبادُل الأسرى، وسيُوافِق كلُّ طرفٍ على التّحالُف مع الثّاني إذا ما قرّر العرش الحديدي...».

قاطعَها ڤيكتاريون مقهقهًا، وقال: «الليدي جلوڤر هذه تستحمقكِ يا ابنة أخي. (رأس التنّين البحري) و(السّاحل الحجري) لنا بالفعل، فلِمَ نردُّ أيّ شيء؟ (وينترفل) احترقَت وتهدّمت، والذّئب الصّغير تحت الأرض بلا رأس. سوف ننال الشّمال كلّه كما كان أبوكِ يَحلُم».

- «عندما تتعلّم الشفن الطّويلة الإبحار وسط الأشجار ربما. قد يعلق خُطّاف صيّادٍ بلَوِياثان رمادي، لكن اللِّوِياثان سيجرُه إلى موته في الأعماق ما لم يقطع الحبل. الشّمال أوسع من أن نستطيع السّيطرة عليه، ومليء للغاية بالشّماليّين».

قال ڤيكتاريون: «عودي إلى ذماكِ يا ابنة أخي، واتركي ربح الحروب للمُحاربين»، وأراها قبضتيه مردفًا: «إن لي يدين. لا أحد يحتاج إلى ثلاث».

- «لكنني أعرفُ رجلًا يحتاج إلى عائلة هارلو».

- «هوتو الأحدب عرضَ عليّ ابنته لتكون الملكة. إذا قبلتها فسأحظى بعائلة هارلو».

أدهش قوله آشا التي قالت: «اللورد رودريك يَحكُم عائلة هارلو».

- «رودريك ليس عنده بنات وإنما الكُتب فقط. هوتو سيكون خليفته، وسأكونُ الملك». ما إن قالها بصوتٍ عالٍ حتى بدا وقعها واقعيًا. «عين الغُراب غابَ طويلًا جدًا».

قالت آشا منذرةً: «بعض الرّجال يبدو أكبر من حجمه الحقيقي من بُعد. امشِ بين بؤر النّار إذا جرؤت وأنصِت. إنهم لا يحكون ويتحاكون عن قوّتك أو جَمالي الشّهير، بل يتكلّمون عن عين الغُراب فحسب، البلاد البعيدة التي رآها والنّساء اللاتي اغتصبَهن والرّجال الذين قتلَهم والمدائن التي نهبَها، وكيف أحرقَ أسطول اللورد تايوين في (لانسپورت)...».

قال بإصرار: «أنا أحرقتُ أسطول الأسد. بيدَي هاتين ألقيتُ المشعل الأول على سفينته الأم».

قالت آشا: «عين الغُراب هو من وضعَ الخطّة»، ووضعَت يدها على ذراعه مضيفةً: «وقتلَ زوجتك أيضًا... أليس كذلك؟».

كان بالون قد أمرَهم بعدم الإتيان على ذِكر تلك المسألة، لكن بالون ماتَ. «لقد وضعَ طفلًا في بطنها وجعلَني أقتلها بنفسي. كنتُ لأقتله أيضًا لولا أن بالون رفضَ قتل الأقربين تحت سقفه رفضًا قاطعًا، ونفى يورون بلا عودة...».

- «... ما دامَ بالون حيًا؟».

رمقَ ڤيكتاريون قبضتيه قائلًا: «لقد ركّبت لي قرنين. لم أملك خيارًا». *لو افتضحَ الأمر لضحكَ النّاس مني، كما ضحكَ عين الغُراب حين واجهته وقال متبجِّحًا: «لقد أتَتني مبتلّةً راغبةً. يبدو أن ڤيكتاريون كبير في كلِّ شيءٍ باستثناء الجزء المهم»*. لكنه لم يستطِع أن يبوح لها بذلك.

قالت آشا: «آسفةٌ لما جرى لك، وأكثر أسفًا لما جرى لها... لكنك لا تَترُك لي اختيارًا إلّا المطالَبة بكُرسي حجر اليم لنفسي».

لا يُمكنكِ. «حياتكِ ملككِ، فبذّديها كما شئتِ يا امرأة».

ردّت: «هي كذلك»، وتركَته.

(57) القرقور سفينة ضخمة تحمل آلات الحرب والمؤن والعتاد، وتتسع لعددٍ كبير من المجذفين والبحّارة. (المترجم).

فقط حينما خدّر البرد ذراعيه وساقيه تمامًا عاذ آرون جرايچوي أدراجه إلى الشّاطئ وارتدى ثيابه.

لقد فَزّ من عين الغُراب كأنه لا يزال ذلك الشّيء الضّعيف الذي كانه، لكن حين تكسّرت الأمواج فوق رأسه ذكّرته بأن ذلك الرّجل مات. *وُلِدتَ ثانيةً من البحر، رجلًا أقوى وأصلب*. لا فاني يُخيفه، ولا الظّلام يُخيفه، ولا عظام روحه، تلك العظام الرّماديّة العجوز. *صوت بابٍ ينفتح، وصرخة مِفصلةٍ حديديّة صدئة*.

طقطقَ رداؤه إذ سحبَه على جسده والملح لا يزال يُيبّسه منذ غسلَه آخِر مرّةٍ قبل أسبوعين، والتصقَ النّسيج بصدره المبتل متشرّبًا الماء المالح الذي يسيل من شَعره، ثم إن الرّاهب ملأ قِربته وعلّقها من كتفه.

بينما يقطع الشّاطئ بخُطواتٍ واسعة في الظّلام عثرَ فيه رجل غارق عائد من تلبية نداء الطّبيعة، فتمتمَ: «ذو الشّعر الرّطب»، ووضعَ آرون يده على رأسه وباركَه وواصلَ طريقه. بدأت الأرض ترتفع تحت قدميه، باعتدالٍ أولًا ثم بحدّةٍ أكثر، ولمّا أحسّ بالعُشب القصير بين أصابعه عرفَ أن الشّاطئ أصبحَ وراءه الآن، وبتأنٍّ صعدَ مصغيًا إلى الموج. *البحر لا يكلّ أبدًا، ومِثله يجب ألّا أكلّ*.

على قمّة التّلّ ترتفع من الأرض أربع وأربعون ضلعًا حجريّةً هائلة الحجم كجذوع أشجارٍ شاحبة ضخمة، وجعلَ منظرها نبض قلب آرون يتسارَع. ناجا كانت تنّينة البحر الأولى، أعتى الثّنانين التي انشقّت عنها الأمواج، وكانت تقتات بلحوم الكَراكِن واللّوِياثانات وتُغرِق جُزرًا كاملةً في خضمّ ثورتها، إلّا أن الملك الأشيب قتلَها وحوّل الإله الغريق عظامها إلى حجرٍ كي لا يكفّ النّاس عن التّعجُّب من شَجاعة الملوك الأوائل أبدًا، وصارَت ضلوع ناجا أعمدة وعوارض قاعته الطّويلة، تمامًا كما صارَ فَكّاها عرشه. *طيلة ألف عامٍ وسبعة حكمَ هنا، وهنا اتّخذ عروس البحر زوجةً له وخطّط لحروبه ضد إله العواصف، ومن هنا كان سيّدًا على الملح والحجر، يرتدي ثيابًا من طحالب البحر المجدولة ويعتمر تاجًا طويلًا شاحبًا من أسنان ناجا.*

لكن ذلك كان في فَجر الزّمان، حين كان جبابرة البَشر ما زالوا يستوطِنون البحر واليابسة. كانت تُدَفِّئ القاعة نيران ناجا الحيَّة التي سخَّرها الملك الأشيب لخدمته، وعلى جُدرانها تدلَّت معلَّقات مجدولة من طحالب بحرٍ فضِّيَّة تسرُّ الأعيُن، والتهمَ مُحاربو الملك الأشيب ولائم من فضل البحر على مائدةٍ شكلها كنجمة بحرٍ عظيمة، بينما يجلسون على عروشٍ منحوتة من عِرق اللُّؤلؤ. وراح المجد كلُّه، راح. الآن البَشر أضأل وأعمارهم أقصر. أطفأ إله العواصف نيران ناجا بَعد وفاة الملك الأشيب، وسُرِقَت المقاعد والمعلَّقات، وتعفَّنت الشقوف والجُدران وزالَت، وحتى عرش الأنياب العظيم الذي جلسَ عليه الملك الأشيب ابتلعَه البحر، ولا يبقى إلَّا عظام ناجا لتُذكِّر الحديديِّين بالأعجوبة التي كانت.

قال آرون جرايچوي لنفسه: *وهذا يكفي*.

في قمّة التّلّ تسع درجات منحوتة في الحجر، ومن ورائها تلوح تلال (ويك القديمة) العاصفة، وفي الخلفيّة البعيدة الجبال السّوداء الموحشة. توقّف آرون حيث كانت البوّابة في الماضي، وخلعَ سدادة قِربته وأخذَ رشفةً من الماء المالح، ثم التفت يُواجِه البحر. *من البحر وُلِدنا وإلى البحر نعود*. حتى من هذا الارتفاع يسمع هدير الأمواج اللا متناهي ويَشعُر بقُدرة الإله الكامن في الأعماق. ركعَ آرون على رُكبتيه، وصلّى: *قد أرسلت إليّ قومك، تركوا منازلهم وأكواخهم وقلاعهم وحصونهم وأتوا هنا إلى عظام ناجا، من كلّ قرية صيدٍ وكلّ وادٍ خفي، فامنحهم في هذه السّاعة الحكمة ليعرفوا الملك الحَقّ حين يقف أمامهم، والقوّة لينبذوا الباطل*. ظَلّ يُصَلّي طيلة اللّيل، فعندما يحلُّ فيه الإله لا يحتاج آرون جرايجوي إلى النّوم، تمامًا كما لا يحتاج إليه الموج أو السّمك في البحر.

أزجَت الرِّيح السّحاب القاتم بينما تسلَّلت خيوط الضَّوء الأولى إلى العالم. استحالَت السّماء من الأسود إلى رماديّ صخر الأردواز، وتحوَّل سواد البحر إلى أخضر رمادي، واصطبغَت جبال (ويك القديمة) السّوداء عبر الخليج بدرجات الأخضر المزرَق كأشجار الصّنوبر الجُندي. مع عودة الألوان على استحياءٍ إلى الدُّنيا ارتفعَت مئة رايةٍ خفّاقة، ورأى آرون سمكة بوتلي الفضِّيّة وقمر وينش الدّامي وأشجار أوركوود الخضراء الدّاكنة، علاوةً على أبواق الحرب واللّوياثانات والمناجل، وفي كلِّ مكانٍ الكَراكِن الذّهبيّة العظيمة. تحت الرّايات بدأ الأقنان والزّوجات الملحيّات يتحرّكون في المكان، يُقلِّبون الجمر الخامد ويُعيدونه إلى الحياة، ويُنظِّفون الأسماك لإفطار الرّبابنة والملوك. مَسّ ضوء الفَجر الشّاطئ الحجري وشاهدَ الرّاهب الرّجال يقومون من نومهم مزيحين أغطيةً من جِلد الفقمات ويَطلُبون قرن المِزر الأول، فقال لهم في نفسه: *اشربوا وارتووا، فعلينا اليوم أن نعمل عمل الإله*.

كان البحر يتحرّك أيضًا. تعاظمَت الأمواج مع اشتداد الرِّيح دافعةً أعمدةً من الرّذاذ تتكسّر على أبدان السّفن الطّويلة، ففكّر آرون: *الإله الغريق يستيقظ*. سمعَ صوته يَنبُع من أعماق البحر قائلًا له: *سأكونُ معك هنا اليوم يا خادمي القوي الأمين. لا كافر سيجلس على كُرسي حجر يَمّي*.

هناك تحت ضلوع ناجا المقوّسة وجدَه رجاله الغرقى واقفًا باعتدادٍ وصرامةٍ وشَعره الأسود الطّويل يُرَفرِف في الرّيح.

سألَه روس: «هل حانَ الوقت؟»، فأومأ آرون برأسه إيجابًا، وقال: «حانَ الوقت. اذهبوا وارفعوا أصوات الاستدعاء».

التقطَ الرّجال الغرقى هراواتهم المصنوعة من الخشب المجروف وطفقوا يضربون بعضها ببعض وهُم يُعاوِدون نزول التّل، وانضمّ إليهم آخَرون لتنتشر الضّجّة بطول الشّاطئ، مزيج مخيف من الطّقطقة والقعقعة كأن مئة شجرةٍ تتلاطم بأغصانها. بدأت الطّبول تدقّ أيضًا، بوم-بوم-بوم-بوم-بوم-بوم-بوم-بوم-بوم-بوم، ودوّى بوق حربي ثم آخَر، *ااااااووووووووووووووووووووووووووو!*

تركَ الرِّجال بؤر النّار ليشقُّوا طريقهم إلى (بهو الملك الأشيب): ملّاحون وموجِّهو دفّة، صُنّاع أشرعة وسفّانون، المُحاربون بفؤوسهم والصّيّادون بشباكهم، بعضهم معه أقنان وبعضهم معه زوجات ملحيّات، وغيرهم ممّن أبحروا أكثر من اللّازم إلى الأراضي الخضراء رافقهم مِايسترات ومغنّون وفُرسان، فيما تزاحمَ العامّة مشكّلين هلالًا حول سفح التّل، ونحو المؤخّرة وقفَ الأقنان والنّساء والأطفال. سلك الرّبابنة والملوك المنحدَرات صاعدين، ورأى آرون سيجفري ستونتري بوجهه البشوش وأندريك اللا مبتسم والفارس السير هاراس هارلو، واللورد بيلور بلاكتايد إلى جوار اللورد ستونهاوس في معطفٍ مهترئ من جِلد الفقمات.

وقفَ أخوه ڤيكتاريون مجاوزًا الجميع طولًا باستثناء أندريك، ولئن لم يعتمر خوذته فقد ارتدى درعه كاملةً وتسربلَ بمعطف الكراكِن الذّهبي. سيكون *ملكنا*. *مَن ذا الذي يَنظُر إليه ويُخالِجه الشّك؟*

حين رفعَ ذو الشّعر الرّطب يديه المعروقتين صمتت الطّبول والأبواق وخفضَ الرّجال الغرقى هراواتهم وسكتَت كلُّ الأصوات. بهدوءٍ قال آرون أولًا كي يُرهِفوا أسماعهم: «من البحر وُلِدنا وإلى البحر نعود جميعًا. في غضبته انتزعَ إله العواصف بالون من قلعته وأطاحَ به، لكنه الآن يأكل وليمةً تحت الأمواج في أبهاء الإله الغريق المائيّة»، ورفعَ عينيه إلى السّماء صائحًا: «ماتَ بالون! ماتَ الملك!».

ردّد رجاله الغرقى: «*ماتَ الملك!*».

- «لكن عسى الميت ألّا يموت أبدًا، بل يُبعث من جديدٍ أقوى وأصلب. سقطَ بالون، أخي بالون الذي بَرّ بالنّهج القديم ودفعَ الثّمن الحديدي. بالون الشّجاع، بالون المبارَك، بالون الغارق مرّتين، الذي استردّ لنا حزّيّتنا وإلهنا. ماتَ بالون... لكن ملكًا حديديًا سيأتينا ليجلس على كُرسي حجر اليم ويَحكُم الجُزر».

ردّوا: «*سيأتينا ملك! سيأتينا ملك!*».

بصوتٍ كرعد الأمواج قال آرون: «سيأتينا، لا بُدّ أن يأتي، لكن مَن هو؟ مَن سيجلس في مكان بالون؟ مَن سيَحكُم هذه الجُزر المقدّسة؟ أهو بيننا الآن؟»، وبسطَ الرّاهب كفّيه عن آخِرهما مردفًا: «مَن سيكون ملكًا علينا؟».

رَدّ عليه نورس صارخًا، وبدأ المحتشدون يتحرّكون في أماكنهم كأنهم يستيقظون من حُلم، كلُّ رجلٍ يتطلّع إلى جيرانه ليرى مَن منهم تُواتيه الجرأة على المطالَبة بالتّاج. قال آرون ذو الشّعر الرّطب لنفسه: عين *الغُراب لم يكن صبورًا قَطُّ. ربما يتكلّم أولًا*. وإذا فعلَ فهي نهايته. لقد قطعَ الزّبابنة والملوك طُرقًا طويلةً من أجل هذه المأدبة، ولن يختاروا أول صنفٍ يوضَع أمامهم. *سيُريدون أن يتذوّقوا ويُعاينوا، قضمة من هذا ولُقمة من ذاك، إلى أن يجدوا أكثر من يُناسِبهم*.

لكن لا بدّ أن يورون يعي هذا أيضًا، إذ وقف عاقدًا ذراعيه على صدره وسط خُرسه ووحوشه، ولم يُجِب نداء آرون إلّا الرّيح والموج.

وبَعد صمتٍ طالَ كرّر الرّاهب: «لا مناص من أن يكون للحديديّين ملك. أسألكم ثانيةً، مَن سيكون ملكًا علينا؟».

أتى الجواب من أسفل: «أنا».

في الحال ارتفع هتاف «*جيلبرت! جيلبرت ملكًا!*» بأصواتٍ خشنة، وأفسحَ الزّبانية الطّريق للمُطالب وأنصاره ليصعدوا التّلّ ويقفوا إلى جوار آرون أسفل ضلوع ناجا.

هذا الذي يُريد أن يكون ملكًا لورد فارع القامة مهزول الجسد، تبدو عليه سيماء الكآبة وله وجه طويل نحيل محلوق بعناية. أخذَ أنصاره الثّلاثة أماكنهم أسفله بدرجتين حاملين سيفه وتُرسه ورايته، وقد بدا عليهم تشابُه معيّن مع اللورد الطّويل، فقدّر آرون أنهم أبناؤه. بسطَ أحدهم الرّاية التي تُصَوّر سفينةً طويلةً سوداء أمام شمسٍ غاربة، وقال اللورد لناخِبي الملك: «أنا جيلبرت فاروويند، سيّد (المنارة الوحيدة)».

يعرف آرون بعض آل فارويند، وهُم قوم غُرباء الأطوار يملكون أراضي على السّواحل في أقصى غرب (ويك القديمة) والجُزر الصّغيرة المتفرّقة وراءها، صخور صغيرة للغاية يتّسع معظمها لأسرةٍ واحدةٍ فقط، و(المنارة الوحيدة) أبعدها على الإطلاق، فلكي تبلُغها عليك الإبحار ثمانية أيامٍ وسط مستعمرات الفقمات وسباع البحر في محيطٍ رمادي مترامي الأطراف. آل فارويند هناك أغرب أطوارًا من البقيّة، ويُقال إنهم مخلوقات آثمة تُبدّل هيأتها فتأخذ شكل سباع البحر والأفظاظ[58]، وحتى الحيتان الرّقطاء التي تعدُّ ذئاب البحر المائج.

بدأ اللورد جيلبرت حديثه، فتكلّم عن أرضٍ عجيبة تقع وراء (بحر الغروب)، أرضٍ بلا شتاءٍ أو فاقة وليس للموت فيها من سلطان. صاح: «اجعلوني ملككم وسأقودكم إلى هناك. سنبني عشرة آلاف سفينة كما فعلَت نايميريا ونُبحِر بشعبنا كلّه إلى تلك الأرض وراء مغرب الشّمس، وهناك سيصير كلُّ رجلٍ ملكًا وكلُّ زوجةٍ ملكةً».

عيناه... رآهما آرون تتغيّران، الآن رماديّتان، الآن زرقاوان، متقلّبتان كالبحر. *عينان مجنونتان، عينا أحمق.* لا ريب أن الرُّؤيا التي يتكلّم عنها شَرك نصبه إله العواصف ليستدرج الحديديّين إلى دمارهم. تضمّنت الهبات التي سكبَها رجال اللورد جيلبرت من الصّناديق أمام ناجِبي الملك جلود فقمات وأنياب أفظاظ وحلقات أذرُع من عظام الحيتان وأبواقًا حربيّةً مطعّمةً بالبرونز، وقد تطلّع الزّبابنة إليها ثم أشاحوا بأنظارهم تاركين الرّجال الأدنى شأنًا ينتقون ما يُريدون. حين فرغ الأحمق من الكلام وبدأ أنصاره يهتفون باسمه لم يُسمَع صوت إلّا لآل فارويند، وليس جميعهم كذلك، وسرعان ما خفتَ هتاف «*جيلبرت! جيلبرت ملكًا!*» حتى صمتَ.

صرخَ النّورس بإزعاجٍ من فوقهم وحَطَّ فوق أحد ضلوع ناجا بينما عادَ سيّد (المنارة الوحيدة) ينزل التّل، وتقدّم آرون ذو الشّعر الرّطب، وقال: «ثانيةً أسألكم، مَن سيكون ملكًا علينا؟».

دوّى صوت عميق معلنًا: «أنا»، ومرّةً أخرى أفسحَ المتزاحمون الطّريق.

حُمِلَ المتكلّم إلى قمّة التّلّ على مقعدٍ منقوش من الخشب المجروف فوق أكتاف أحفاده. رجل ضخم متهالك يبلغ أربعمئة رطلٍ وزنًا ويُناهِز التّسعين عمرًا ويرتدي معطفًا من جِلد الفقمات الأبيض، شَعره ناصع البياض أيضًا، ولحيته المديدة تُغَطّيه كأنها دثار من خدّيه إلى فخذيه مصعِّبةً التّمييز بينها وبين المعطف. وعلى الرغم من أن أحفاده ضخام أقوياء البنية فقد ناضلوا لاحتمال وزنه على الدّرجات الحجريّة المنحدِرة قبل أن يضعوه أمام (بهو الملك الأشيب)، وظلّ ثلاثة منه واقفين أدناه باعتبارهم أنصاره.

فكّر آرون: *قبل ستّين عامًا كان النّاجِبون لينحازوا إلى هذا الرّجل، لكن الدّهر عفا عليه.*

وإذ رفعَ أحفاده أصواتهم بالهتاف تقدّم أبناؤهم بصناديق على أكتافهم، وحين قلبوها عند قاعدة الدّرجات الحجريّة انهمرَ وابل من الفضّة والبرونز والفولاذ؛ حلقات أذرع وأطواق وسكاكين وخناجر وفؤوس. اختطفَ بعض الزّبابنة صفوة القِطع وأضافوا أصواتهم إلى الهتاف المتزايد، لكنه لم يكد يبدأ يتفاقم حتى شقّه صوت امرأةٍ صائحًا: «إريك!». أفسحَ لها الرّجال الطّريق لتمرّ، وبقدمٍ واحدة على الدّرجة الأدنى قالت: «إريك، انهض».

سادَ الصّمت. استمرّت الرّيح في الهبوب والموج في الانكسار على الشاطئ وراح بعض الرّجال يُهمهِم في آذان بعض، وحدّق إريك آيرونميكر الحديد من أعلى إلى آشا جرايچوي قائلًا: «أيتها الفتاة، أيتها الفتاة الملعونة ثلاثًا، ماذا قلتِ؟».

صاحت: «انهض، انهض يا إريك وسأهتفُ باسمك مع البقيّة، انهض وسأكونُ أول من يتبعك. تُريد التّاج، نعم، فانهض وخُذه».

في مكانه في الزّحام ضحكَ عين الغُراب، فحملقَ إريك إليه عابسًا. أطبقَ الرّجل الكبير بإحكامٍ على ذراعَي عرش الخشب المجروف، واحمرّ وجهه ثم اسودّ، وارتجفَت ذراعاه من المجهود، ورأى آرون عِرقًا أزرق ثخينًا ينبض في عُنقه بينما يُكافِح للنّهوض. للحظةٍ بدا كأنه على وشك أن يفعلها، لكن قواه كلّها خارَت دفعةً واحدةً وأطلقَ أنينًا وعادَ ينحطّ على وسادته.

طأطأ الرّجل الكبير رأسه وهرمَ في غمضة عين، وحمله أحفاده نازلين به التّل.

من جديدٍ صاح آرون ذو الشّعر الرّطب: «مَن سيَحكُم حديديِّي الميلاد؟ مَن سيكون ملكًا علينا؟».

تطلّع بعض الرّجال إلى بعض، بعضهم إلى يورون وبعضهم إلى ڤيكتاريون وبعضهم إلى آشا، وتكسّرت الأمواج خضراء وبيضاء على أبدان الشفن الطّويلة وصاح النّورس مرّةً أخرى، صرخته كئيبة خشنة.

نادى ابن مرلين: «اطرح دعواك يا ڤيكتاريون، دَعنا نَفرُغ من هذه المهزلة».

ردّ ڤيكتاريون النّداء: «حين أستعدّ».

سَرّ هذا آرون. *الأفضل أن ينتظر*.

التّالي كان ابن دروم، عجوز آخر وإن كان لا يُداني إريك في هِرَمه، فصعدَ التّلّ على ساقيه وقد استقرّ على وَركه سيفه الشّهير (المطر الأحمر) المطرّق من الفولاذ القاليري في أيام ما قبل الهلاك. أنصاره رجال مرموقون، فابناه دينس ودونل مقاتلان قويّان، وبينهما أندريك اللا مبتسم، الرّجل العملاق ذو الذّراعين الغليظتين كجذوع الأشجار، الذي يعدّ تأييد رجلٍ مثله بشير خيرٍ لابن دروم.

بدأ دروم خُطبته قائلًا: «مكتوبٌ أين أن ملكنا يجب أن يكون كراكِن؟ ما أحقيّة (پايك) في حُكمنا؟ (ويك الكُبرى) أكبر الجُزر، و(هارلو) أغناها، و(ويك القديمة) أقدسها. حين التهمَت نار الثّنائين الخَطَّ الأسود من العائلة ولَّى الحديديُّون ڤيكون جرايچوي عليهم، نعم... لكن باعتباره لورد لا ملكًا».

بداية موفَّقة. سمعَ آرون صيحات تأييد، لكنها خفتَت عندما بدأ الرّجل يحكي عن أمجاد آل دروم، فتكلَّم عن دايل الفرعب وروزين الفغير والأبناء المئة الذين أنجبَهم جورموند دروم الأب العجوز، واستلَّ (المطر الأحمر) وحكى لهم كيف أخذه هيلمار دروم الماكر من فارسٍ مدرَّع بعقله وهراوةٍ خشبيَّة لا أكثر، وتكلَّم عن سُفنٍ ضاعَت منذ زمن ومعارك نُسيَت من ثمانمئة عام، وبدأ الجمهور يُصاب بالضَّجر. تكلَّم وتكلَّم، ثم إنه تكلَّم أكثر.

ولمَّا فُتِحَت صناديق دروم رأى الزّبانية هدايا الضَّنين التي أتاهم بها، وقال ذو الشَّعر الرَّطب لنفسه: *لا أحد اشترى عرشًا بالبرونز قَطّ*. وصارَت حقيقة هذا جليَّةً للأسماع إذ خفتَت هتافات «*دروم! دروم! دروم ملكًا!*» وصمتَت.

أحسَّ آرون بمعدته تتلبّك، وخُيِّلَ إليه أن الموج يتلاطَم بهديرٍ أصخب من قبل، ففكَّر: *الآن، حانَ الوقت لأن يطرح ڤيكتاريون دعواه*. مرّةً أخرى صاحَ الرّاهب: «مَن سيكون ملكًا علينا؟»، لكن هذه المرّة وقعَت عيناه السّوداوان الثّاقبتان على أخيه في الزِّحام، وأضافَ: «تسعة أبناء وُلِدوا من صُلب كويلون جرايچوي، أحدهم أقوى من سائرهم ولا يعرف الخوف».

قابلَ ڤيكتاريون نظرته وأومأ إيجابًا، وعندما بلغَ القمّة قال: «بارِكني يا أخي»، وركعَ وحنى رأسه، فخلعَ آرون سدادة قِربته وصَبَّ خيطًا من ماء البحر على جبهة أخيه، ثم قال الرّاهب: «ما ماتَ لا يُمكن أن يموت أبدًا»، وردَّ ڤيكتاريون: «بل يُبعَث من جديدٍ أقوى وأصلب».

حين قامَ ڤيكتاريون ارتصّ أنصاره على درجةٍ أدنى منه؛ رالف الأعرج ورالف ستونهاوس الأحمر ونيوت الحلّاق، وكلُّهم مُحاربون ذائعو الصّيت. رفعَ ستونهاوس راية جرايجوي، الكراكِن الذّهبي على خلفيّةٍ سوداء كبحر منتصف اللّيل، وما إن رفرفَت حتى بدأ الزّبابنة والملوك يهتفون باسم حضرة الزّبّان القائد. فانتظرَ ڤيكتاريون حتى سكتوا، ثم قال: «كلُّكم تعرفونني. إذا كنتم تُريدون الكلام المعسول فتطلّعوا إلى أحدٍ غيري. إنني لا أتمتّعُ بلسان المغنّين، بل بفأس، وبهاتين»، ورفعَ لهم يديه الضّخمتين المقفّزتين بالحلقات المعدنيّة، ورفعَ نيوت الحلّاق فأسه الفولاذيّة المخيفة. تابعَ ڤيكتاريون: «كنتُ أخًا مخلصًا. عندما تزوّج بالون أرسلَني أنا إلى (هارلو) لآتي بعروسه، وقدتُ شفنه الطّويلة في معارك عديدة ولم أخسر إلّا واحدةً. أول مرّةٍ اعتمرَ بالون تاجًا أبحرتُ أنا إلى (لانسپورت) لأحرق ذيل الأسد، وفي المرّة الثّانية أرسلَني أنا لأسلخ الذّئب الصّغير إذا ما قرّر أن يعود عاويًا إلى وطنه. كلُّ ما ستنالونه مني هو المزيد مما نلتم من بالون، وهذا كلُّ ما عندي».

بختام كلامه بدأ أنصاره يصيحون: «*ڤيكتاريون! ڤيكتاريون! ڤيكتاريون ملكًا!*»، وفي الأسفل سكبَ رجاله محتويات صناديقه في شلّالٍ من الفضّة والذّهب والجواهر، ثروة من الغنائم تسابقَ الزّبابنة للاستيلاء على أفضلها بينما يهتفون: «*ڤيكتاريون! ڤيكتاريون! ڤيكتاريون ملكًا!*».

هدرَ الرّجل من حيث يجلس بصوتٍ يُعادِل بدنه ضخامةً: «نعم، أنا! ولِمَ لا؟ ومَن أفضل؟ أنا إريك آيرونميكر إذا كان العميان لا يرون، إريك العادل، إريك محطِّم السّنادين. أرِهم مطرقتي يا ثورمور». رفعَها أحد أنصاره ليراها الجميع بحجمها الهائل، مقبضها ملفوف بالجِلد القديم ورأسها قالب من الفولاذ بحجم رغيف الخُبز. قال إريك: «لا أستطيعُ أن أحصي كم يدًا حوّلتها إلى عجين بهذه المطرقة، ولكن ربما تجدون لصًّا ما يُخبِركم. ولا أدري كم رأسًا سحقتُ على سنداني كذلك، لكن هناك أرامل يُمكنهن أن يقلن لكم. أستطيعُ أن أحكي لكم عن كلِّ مآثري في المعارك، لكني في الثّامنة والثّمانين ولن أعيش حتى أفرغ. إذا كانت الشّيخوخة تعني الحكمة فليس هناك من هو أكثر حكمةً مني، وإذا كانت الضّخامة تعني القوّة فلن تجدوا من هو أقوى مني. هل تُريدون ملكًا له ورثة؟ إن عندي منهم أكثر مما يُمكنني أن أحصي. الملك إريك، نعم، يروقني وقعها. هلمّوا، قولوها معي. إريك! إريك محطِّم السّنادين! إريك ملكًا!».

راقبَ آرون عين الغُراب متسائلًا في نفسه: هل *سيتكلّم الآن أم يَترُك الانتخاب ينتهي؟*

كان أوركوود سيِّد (أوركمونت) يهمس في أذن يورون بشيءٍ ما.

على أن يورون ليس من وضعَ نهايةً للهتاف، وإنما المرأة. وضعَت آشا إصبعين في فمها وأطلقَت صفيرًا حادًّا صاخبًا شَقَّ الهرج والمرج كما يشقُّ السكّين قالبًا من الزُّبدة، ثم صاحَت: «عمّاه! عمّاه!»، وانحنَت تختطف طوقًا ذهبيًّا ملتويًا وأسرعَت تصعد الدّرجات. أطبقَ نيوت على ذراعها، ولجزءٍ من لحظة راودَ آرون الأمل في أن ينجح أنصار أخيه في إسكاتها، إلّا أن آشا انتزعَت ذراعها من الحلّاق وقالت شيئًا لرالف الأحمر جعلَه يُفسِح لها الطّريق، وإذ تجاوزَته صمتَ التّهليل. إنها ابنة بالون جرايجوي، والنّاس راغبون في سماعها.

قالت آشا لفيكتاريون: «لُطف منك أن تجلب تلك الهدايا لانتخاب الملكة يا عمّي، لكن ليس هناك ما يدعوك إلى تدريع نفسك لهذه الدّرجة. أعدُ بأني لن أوذيك»، والتفتَت تُواجِه الرّبابنة متابعةً: «لا أحد أشجع من عمّي، ولا أحد أقوى، ولا أحد أضرى في القتال، ويُمكنه أيضًا أن يعدّ إلى عشرة أسرع من أيّ أحد. لقد رأيته يفعل هذا... ولو أنه يضطرُّ إلى خلع حذائه عندما يعدُّ إلى عشرين». جعلَهم قولها هذا يضحكون. «لكنه بلا أبناء، وزوجاته يَفتن. عين الغُراب أكبر منه ودعواه أقوى...».

زعقَ الملّاح الأحمر من أسفل: «نعم!».

- «آه، لكن دعواي أقوى وأقوى»، ووضعَت آشا الطّوق على رأسها بزاويةٍ عابثة ليلتمع الذّهب في شَعرها الدّاكن، وأردفَت: «لا يجوز أن يسبق أخو بالون ابن بالون!».

صاحَ رالف الأعرج: «أبناء بالون ماتوا ولا أرى إلّا ابنته الصّغيرة!».

ردّدت آشا: «ابنته؟»، ودسّت يدها في سُترتها الجِلديّة قائلةً: «أوهو! ما هذا؟ هل أريكم؟ بعضكم لم يرَ واحدًا منذ فُطِمتم»، وضحكَت مواصلةً: «وجود ثديين على ملكٍ شيء شنيع، أهذا ما تقوله؟ رالف، إنك على حَق، أنا امرأة... ولو أني لستُ امرأةً عجوزًا مِثلك. رالف الأعرج... ألا يُفترَض أن يكون اسمك رالف الرّخو؟»، وسحبَت آشا خنجرًا من بين ثدييها رفعَته معلنةً: «إنني أم أيضًا، وهذا ابني الرّضيع! وها هُم أولاء أنصاري!». تقدّموا متجاوزين أنصار ڤيكتاريون الثّلاثة ووقفوا أسفلها؛ كارل البِكر وتريستيفر بوتلي والفارس السير هاراس هارلو الذي لا يقلُّ سيفه (غروب) شهرةً عن (المطر الأحمر) سيف دنستان دروم. «عمّي قال إنكم تعرفونه. إنكم تعرفونني أيضًا...».

صاحَ أحدهم: «أريدُ أن أعرفك أفضل!».

ردّت آشا: «عُد إلى بيتك واعرف زوجتك»، ثم إنها استدركَت: «يقول عمّي إنه سيُعطيكم المزيد مما أعطاكم أبي. طيِّب، وماذا كان هذا؟ سيقول البعض الذَّهب والمجد، الحرّيّة الثّمينة. نعم، بالفعل، هذا ما أعطانا إياه... والأرامل أيضًا كما سيقول لكم اللورد بلاكتايد. كم منكم احترقَ بيته حين أتى روبرت؟ كم منكم اغتُصِبَت ابنته وانتُهِك عِرضها؟ القُرى المحروقة والقلاع المتهدّمة، هذا ما نلتموه من أبي، نلتم الهزيمة. عمّي سيُعطيكم المزيد، أمّا أنا فلا».

سألَها لوكاس كود: «وماذا ستُعطيننا أنتِ؟ الحياكة؟».

أجابَت: «أجل يا لوكاس، سأحيك لنا مملكةً»، وتقاذفَت خنجرها من يدٍ إلى يدٍ مردفةً: «علينا أن نتعلّم درسًا من الذِّئب الصّغير الذي انتصرَ في كلِّ معركة... وخسرَ كلَّ شيء».

قال ڤيكتاريون باستهجان: «الذِّئب ليس كراكِن. ما يُطبِق عليه الكراكِن لا يُفلِته أبدًا، سواء أكان سفينةً طويلةً أم لَوِياثان».

- «وعلامَ نُطبِق يا عمّاه؟ الشّمال؟ وما الشّمال إلّا فراسخ وفراسخ من الفراسخ والفراسخ بعيدًا عن صوت البحر؟ لقد استولينا على (خندق كايلن) و(ربوة الغابة) و(مربّع تورين)، بل وعلى (وينترفل) ذاتها، فماذا جنينا؟»، وأشارَت آشا فتقدّم رجالها من طاقم (الرّيح السّوداء) حاملين صناديق من البلّوط والحديد، وقالت بينما شكِبَت محتويات أولها: «أقدّمُ لكم ثروة (السّاحل الحجري)»، وانهمرَ سيل من الحصى على الدّرجات، حصى رمادي وأسود وأبيض صقلَته مياه البحر. قالت والصّندوق الثّاني يُفتَح: «أقدّمُ لكم ثروات (ربوة الغابة)»، وتدفّقت أكواز الصّنوبر لتتدحرَج وترتطم بأجساد المتزاحمين. قالت: «وأخيرًا أقدّمُ لكم ذهب (وينترفل)»، ومن الصّندوق الثّالث سقطَت ثمار اللّفت الأصفر المستديرة الصّلبة الكبيرة كرأس رجل، وحطّت وسط الحصى وأكواز الصّنوبر. غرسَت آشا خنجرها في إحداها، وصاحَت: «هارموند شارپ، ابنك هاراج ماتَ في (وينترفل) من أجل هذا»، ونزعَت النّصل من الثّمرة وألقَتها إليه مضيفةً: «أظنُّ أن لك أبناء آخرين. إذا كنت ترغب في مبادَلة حياتهم باللّفت فاهتف باسم عمّي!».

سألَها هارموند: «وماذا لو هتفتُ باسمكِ؟».

أجابَت آشا: «السّلام، الأرض، النّصر. سأعطيكم (رأس التنّين البحري) و(السّاحل الحجري)، تُربة سوداء وأشجار طويلة وأحجار تكفي لأن يبني كلُّ ابنِ صغير قاعةً لنفسه. سنكسب الشّماليّين أيضًا... كأصدقاء يقفون معنا ضد العرش الحديدي. خياركم بسيط. توّجوني في سبيل السّلام والنّصر أو توّجوا عمّي في سبيل المزيد من الحروب والهزائم»، ودسّت خنجرها في مكانه متسائلةً: «ماذا تختارون أيها الحديديّون؟».

زعقَ روردريك القارئ وقد كوّر يديه حول فمه: «النّصر! النّصر وآشا!».

وردّد اللورد بيلور بلاكتايد: «**آشا! آشا ملكةً!**».

وانضمّ رجال طاقم آشا إلى الهتاف مردّدين: «*آشا! آشا! آشا ملكةً!*». دبدبوا على الأرض بأقدامهم وهزّوا قبضاتهم في الهواء بينما أصغى ذو الشّعر الرّطب مذهولًا. *تُريد أن تُدمّر ما بناه أبوها!* لكن تريستيفر بوتلي يهتف باسمها، ومعه كُثر من آل هارلو وبعض آل جودبراذر واللورد مرلين ذو الوجه المحتقن، رجال أكثر مما كان الرّاهب ليتخيّل... ومن أجل امرأة!

على أن آخرين لاذوا بالصّمت أو راحوا يَتمتِمون لجيرانهم، وهدرَ رالف الأعرج: «لا لسلام الجُبناء!»، ولوّح رالف ستونهاوس الأحمر براية جرايجوي مجعجعًا: «ڤيكتاريون! **ڤيكتاريون! ڤيكتاريون!**». بدأ الرّجال يتدافَعون، وألقى أحدهم كوز صنوبر على رأس آشا، فلمّا انحنَت تتفاداه سقطَ تاجها المرتجَل عن رأسها، وللحظاتٍ خُيِّلَ إلى الرّاهب أنه واقف على قمّة كثيب نملٍ عملاق، وعند قدميه ألف نملةٍ ثائرة. جاشَت الهتافات باسمَي آشا وڤيكتاريون جيئةً وذهابًا، وبدا كأن عاصفةً عاتيةً على شفا ابتلاعهم جميعًا. *إله العواصف بيننا، يَبذُر الفِتنة والشِّقاق.*

وكطعنة السّيف النّجلاء شقّ النّفير الهواء شقًّا.

ثاقبٌ مفجعٌ صوته، صرخة حارّة راجفة تجعل عظام المرء تهتزُّ كالأوتار في داخله، صيحة طالَ مقامها في هواء البحر الرّطب، *ااااررريييييييييييييييييييييييي!*

التفتَت الأعيُن كلُّها نحو الصّوت. كان واحد من هِجان يورون يَنفُخ في بوق، رجل رهيب الحجم له رأس حليق، تلتمع حلقات من الذّهب واليَشب والكهرمان الأسود على ذراعيه، وعلى صدره العريض وشم لطائرٍ ما من الكواسر تَقطُر من براثنه الدِّماء.

اااارررييييييييييييييييييييييي!

البوق الذي يَنفُخ فيه أسود لامع ملتوٍ، وأطول من قامة رجلٍ إذ حملَه بكلتا يديه، وتُطَعِّمه حلقات من الذَّهب الأحمر والفولاذ الدَّاكن منقوشة عليها رموز بالڤاليريّة توهَّجت بالأحمر إذ تعاظمَ الصَّوت.

ررريي
ييي!

صوتٌ فظيع، عويل ألمٍ وغضبٍ يُلهِب الآذان. غطّى آرون ذو الشَّعر الرَّطب أذنيه ودعا الإله الغريق أن يرفع موجةً عارمةً تُهَشِّم البوق وتُخرِسه، إلّا أن الصَّرخة استمرَّت واستمرَّت. أرادَ هو أن يَصرُخ: *إنه بوق الجحيم*، ولكن ما كان أحد ليسمعه. انتفخَت وجنتا الرَّجل الموشوم عن آخِرهما حتى بدوَتا على وشك الانفجار، واختلجَت عضلات صدره بطريقةٍ جعلَت الطّائر يلوح كأنه يُشارِف الانسلاخ من جِلده والتَّحليق، والآن كانت الرُّموز متَّقدةً بسطوعٍ مُعمٍ وكلُّ سطرٍ وحرفٍ يُومِض بنارٍ بيضاء. استمرَّ الصَّوت واستمرَّ واستمرَّ، تتردَّد أصداؤه بين التِّلال العاصفة من ورائهم وعبر مياه (مهد ناجا) لتدَوِّي وسط جبال (ويك القديمة)، واستمرَّ واستمرَّ واستمرَّ حتى ملأ العالم المبتلّ بأسره.

وحين بدا كأن الصَّوت لن يتوقَّف أبدًا توقَّف.

انقطعَت أنفاس نافخ البوق أخيرًا وترنَّح وكادَ يقع، ورأى الرّاهب أوركوود سيِّد (أوركمونت) يُمسِكه من ذراعه ليُثبِّته، في حين تناولَ لوكاس كود الأعسر منه البوق الذي يتصاعَد منه خيط رفيع من الدُّخان، أمَّا من نفخَ فيه فرأى الرّاهب دمًا وقروحًا على شفتيه، وكان الطّائر على صدره ينزف أيضًا.

صعدَ يورون جرايجوي التَّلَّ بتؤدةٍ وأعيُن الجميع عليه، وأعلاهم صرخَ النّوس وصرخَ. فكَّر آرون: *ليس لكافرٍ أن يجلس على كُرسي حجر اليم*، لكنه يعلم أن عليه أن يدع أخاه يتكلَّم، فتحرَّكت شفتاه بصلاةٍ صامتة.

انتحى أنصار آشا وڤيكتاريون جانبًا، وتقهقرَ الرّاهب خُطوةً وأسندَ يده إلى أحد أحجار ضلوع ناجا الخشنة. توقَّف عين الغُراب على قمّة الدَّرجات أمام باب (بهو الملك الأشيب) ورمقَ الرّبابنة والملوك بعينه الباسمة، لكن آرون شعرَ بعينه الأخرى أيضًا، العين التي يُخفيها.

قال يورون جرايجوي: «أيها الحديديُّون، قد سمعتم بوقي، والآن اسمعوا كلامي. أنا أخو بالون، أكبر أبناء كويلون الأحياء، في عروقي دماء اللورد ڤيكون ودماء الكراكِن العجوز، لكني أبحرتُ أبعد منهم جميعًا. كراكِن حَيٌّ واحد لم يعرف الهزيمة قَطُّ، واحد فقط لم يركع قَطُّ، واحد فقط أبحرَ إلى (آشاي) عند (بلاد الظِّل) ورأى عجائب وأهوالًا تفوق الخيال...».

صاح كارل البِكر نصير آشا ذو الوجه المتورِّد: «إذا كنت تحبُّ (بلاد الظِّل) كثيرًا هكذا فعُد إليها».

تجاهلَه عين الغُراب مستكملًا: «أخي الصَّغير يُريد أن يُنهي حرب بالون ويحوز الشَّمال، وابنة أخي العزيزة تُريد إعطاءنا السَّلام وأكواز الصَّنوبر»، والتوَت شفتاه الزَّرقاوان في ابتسامة، وتابعَ: «آشا تُؤثِر النَّصر على الهزيمة، وڤيكتاريون يرغب في مملكةٍ وليس بضع ياردات تافهة من الأرض. مني ستنالون الاثنين. تُسمُّونني عين الغُراب. حسن، ومَن بصره أثقب من الغُراب؟ عقب كلِّ معركةٍ تأتي الغِربان بالمئات والآلاف وتلتهم وليمةً من لحم السَّاقطين. الغُراب يُبصِر الموت من بعيد، وأقولُ لكم الآن إن (وستروس) قاطبةً تُحتضَر، ومَن يتبعونني سيلتهمون الولائم ما تبقَّى لهم من عُمر. إننا حديديُّو الميلاد، وفي ماضينا كنا غُزاةً فاتحين، لنا سطوة على كلِّ حدبٍ وصوبٍ يُسمَع فيه صوت الموج. أخي يُريدكم أن تقنعوا بالشَّمال البارد الكئيب، وابنة أخي بما هو أقلُّ... أمَّا أنا فسأعطيكم (لانسپورت) و(هايجاردن)، (الكرمة) و(البلدة القديمة)، أراضي النَّهر و(المرعى)، (غابة الملوك) و(الغابة المطيرة)، (دورن) وتُخومها، (جبال القمر) و(وادي آرن)، (تارث) و(الأعتاب). أقولُ لكم أن نأخذ كلَّ شيء، أقولُ أن نأخذ (وستروس)!»، ورمقَ الرَّاهب مضيفًا: «وكلُّ هذا لأجل مجد إلهنا الغريق بالطَّبع».

لأقلَّ من لحظةٍ فتنَت جسارة كلامه آرون. لقد حلَمَ الرّاهب الحُلم نفسه حين رأى المذنّب الأحمر في السّماء أول مرّة. *سنكتسح الأراضي الخضراء بالنّار والسّيف، نجتثُّ آلهة السّيپتونات السّبعة وأشجار الشّماليّين البيضاء...*

رفعَت آشا عقيرتها قائلةً: «هل تركت عقلك في (آشاي) يا عين الغُراب؟ إذا كنا لا نستطيع السّيطرة على الشّمال -ولسنا نستطيع- فكيف نظفر بكامل (الممالك السّبع)؟».

- «سبقَ أن حدثَ هذا. ألم يُعلّم بالون ابنته إلّا القليل عن طبائع الحرب؟ ڤيكتاريون، ابنة أخينا لم تسمع بإجون الفاتِح على ما يبدو».

عقدَ ڤيكتاريون ذراعيه على صدره المدرّع متسائلًا: «إجون؟ وما صِلة الفاتِح بنا؟».

قالت آشا: «أعرِفُ الحرب مِثلك تمامًا يا عين الغُراب. إجون تارجاريَن غزا (وستروس) بالتّنانين».

رَدَّ يورون جرايچوي: «كما سنغزوها نحن. البوق الذي سمعتموه وجدته وسط الأطلال الدّاخنة التي كانت (ڤاليريا)، حيث لم يجرؤ أحد على الذّهاب إلّاي. لقد سمعتم صوته وشعرتم بقوّته. إنه بوق تنانين، مطعّم بالذّهب الأحمر والفولاذ الڤاليري المنقوشين بالتّعاويذ. كان سادة التّنانين القُدامى يَنفُخون في أبواقٍ مشابهة قبل أن يلتهمهم الهلاك، وبهذا البوق أيها الحديديّون أستطيعُ أن أسخّر التّنانين لإرادتي».

أطلقت آشا ضحكةً عاليةً، وقالت: «ستجد نفعًا أكثر في بوقٍ يُسخِّر الماعز لإرادتك يا عين الغُراب. لم تَعُد هناك تنانين».

- «مرّةً أخرى تُخطئين يا فتاة. هناك ثلاثة، وأعرفُ أين أجدها. مؤكّد أن هذا يستأهل تاجًا من الخشب المجروف».

صاح لوكاس كود الأعسر: **«يورون!»**.

وهتفَ الملّاح الأحمر: **«يورون! عين الغُراب! يورون!»**.

فتحَ الخُرس والهِجان من طاقم (الصّمت) صناديق يورون وسكبوا هداياه أمام الرّبابنة والملوك، ثم سمعَ الرّاهب صوت هوتو هارلو يهتف إذ ملأ يديه بالذّهب، وهتفَ جورولد جودبراذر أيضًا، وإريك محطِّم السّنادين. «*يورون! يورون! يورون!*». استحالَ الهتاف إلى هدير. «*يورون! يورون! عين الغُراب! يورون ملكًا!*». زلزلَ (تل ناجا) كأن إله العواصف يرجُّ السّحاب. «*يورون! يورون! يورون! يورون! يورون!*».

حتى الرّاهب يُمكن أن تُخامِره الشُّكوك. بحثَ آرون ذو الشَّعر الرّطب في أعماقه عن ربّه ولم يكتشف إلّا الصّمت، وإذ هدرَ ألف صوتٍ باسم أخيه لم يستطِع أن يسمع إلّا صرخة مِفصلةٍ حديديّة صدئة.

---

(58) القُطّ حيوان بحري شبيه بالفقمة، يتميّز بشاربه الكثيف وفمه العريض الذي يَخرج منه زوجان من الأنياب العاجيّة الحادّة. (المترجم).

شرق (بِركة العذارى) ترتفع التّلال الوعرة وتنغلق عليهم أشجار الصّنوبر كجيش جُنده خُضر رماديُّون صامتون.

قال ديك الرّشيق إن الطّريق السّاحلي الأقصر والأسهل، ولذا فنادرًا ما غابَ الخليج عن أنظارهم، وإذ مضوا تضاءلَت مساحات البلدات والقُرى المطلّة على السّاحل وتزايدت المسافات بينها. عند الغروب يبحثون عن خانٍ يقضون فيه اللّيل، فينام كراب في الفِراش المشترَك مع غيره من المسافرين، في حين تأخذ بريان غُرفةً لها ولپودريك، وهو ما جعلَ ديك الرّشيق يقول لها: «أرخص أن ننام كلُّنا في فِراشٍ واحد يا سيِّدتي. يُمكنكِ أن تضعي سيفكِ بيننا. ديك العجوز شخص وديع وشهم كالفُرسان، ولكِ أن تثقي بأمانته كما تثقين بطول النّهار».

علّقت بريان: «النّهار أصبحَ أقصر مما كان».

- «نعم، ربما. إذا كنتِ لا تثقين بوجودي في الفِراش فيُمكنني أن أنام على الأرض يا سيِّدتي».

- «ليس على أرض غُرفتي».

- «قد يحسب المرء أنكِ لا تثقين بي إطلاقًا».

- «الثّقة تُكتسَب، مِثلها مِثل الذّهب».

قال كراب: «كما تقولين يا سيِّدتي، لكن في الشّمال حيث ينتهي الطّريق سيكون عليكِ أن تثقي بديك. إذا أردتُ أن آخذ ذهبكِ بحدّ السّيف فمَن سيمنعني؟».

- «إنك لا تملك سيفًا، أمّا أنا فأملك».

أغلقَت الباب بينهما ووقفَت تُصغي حتى تأكّدت من ابتعاده. مهما كان رشيقًا فديك كراب ليس چايمي لانستر أو الفأر المجنون، ولا حتى همفري واجستاف. إنه مهزول سيِّئ التَّغذية، ودِرعه الوحيدة خوذة قصيرة منبعجة مبرقّشة بالصَّدأ، وبدلًا من السَّيف يحمل خنجرًا قديمًا تحزُّز نصله. ما دامَت مستيقظةً فإنه لا يُمثِّل خطرًا. قالت ليودريك: «سيأتي وقت لا نجد فيه خانًا يُؤوينا. إنني لا أثق بمُرشدنا. عندما نُخيِّم هلّا سهرت عليّ وأنا نائمة؟».

قال: «أبقى مستيقظًا يا سيِّدتي، أيتها الفارس؟»، وفكَّر لحظةً ثم أضافَ: «إن معي سيفًا. إذا حاولَ كراب أن يُؤذيكِ سأقتله».

ردَّت بصرامة: «لا، لا تُحاوِل أن تُقاتِله. لا أطلبُ إلَّا أن تُراقِبه وأنا نائمة وتُوقِظني إذا فعلَ شيئًا مريبًا. ستجدني أستيقظُ بسرعة».

بانَت حقيقة كراب في اليوم التّالي عندما توقَّفوا لسَقي الخيول. ذهبَت بريان وراء بعض الشُّجيرات لتُفرِغ مثانتها، وبينما أقعَت سمعَت پودريك يقول: «ماذا تفعل؟ ابتعِد عنه»، فأنهَت ما تفعله ورفعَت سراويلها وعادَت إلى الطَّريق لتجد ديك الرّشيق يُنظِّف يديه من الطَّحين. أخبرَته: «لن تجد تنانينَ في جراب السَّرج. إنني أحتفظُ بذهبي معي». بعضه في الجِراب المعلّق من حزامها، والباقي مخبّأ في جيبين مخيطين داخل ثيابها. أمّا الصُّرّة المنتفخة في جراب سرجها فمليئة بالعملات النُّحاسيّة كبيرها وصغيرها والبنسات وأنصاف البنسات والجَراوِت والنُّجوم... والطَّحين الأبيض النّاعم ليجعلها أكثر انتفاخًا. كانت قد اشترَته من الطّاهي في (السّيوف السّبعة) صبيحة خروجها من (وادي الغسق).

قال ناقضًا أصابعه الملوّثة بالطّحين ليُريها أنه لا يحمل سلاحًا: «ديك لم يقصد سوءًا يا سيِّدتي. كنتُ أنظرُ لأرى إن كانت معكِ الثّمانين التي وعدتِني بها. العالم مليء بالكاذبين المتحفّزين لسرقة الشّرفاء. لا أعني أنكِ منهم طبعًا».

قالت بِريان آملةً أنه يُجيد الإرشاد عن اللّصوصيّة: «الأفضل أن نستأنف طريقنا»، وعادت تمتطي فَرسها.

تعوّد ديك الغناء وهم راكبون معًا، ولو أنه لا يُغنّي أغنيةً كاملةً أبدًا وإنما مجرّد مقطوعةٍ من هنا وبيتٍ من هناك، وقد ارتابت بِريان في أنه يُريد أن يخطب وُدّها ومن ثَمّ تتخلّى عن حذرها. أحيانًا يُحاوِل أن يجعلها وپودريك يُغنّيان معه ولكن بلا جدوى، فالصّبي خجول للغاية ولسانه معقود، وبِريان لا تُغنّي أبدًا. ذات مرّةٍ في (ريڤرّن) سألَتها الليدي كاتلين: «أكنتِ تُغنّين لأبيكِ؟ أكنتِ تُغنّين لرنلي؟»، لكنها لم تُغنِّ قطّ حقًّا، مع أنها أرادَت... أرادَت...

عندما لا يُغنّي ديك الرّشيق فإنه يتكلّم ويُتحِفهما بحكاياتٍ عن (الرّأس المتصدّع). يقول إن لكلّ وادٍ موحش هناك سيّده، ولا يُوَحّد هؤلاء إلّا انعدام ثقتهم بالغرباء، ففي عروقهم تتدفّق دماء البَشر الأوائل قانيةً قويّةً. «الأنداليّون حاوَلوا الاستيلاء على (الرّأس المتصدّع) فأرقنا دماءهم في الوديان وأغرقناهم في المستنقعات، لكن ما لم يستطِع أبناؤهم الفوز به بالسّيوف نالَته بناتهم بالقُبلات. لقد صاهَروا العائلات التي لم يستطيعوا إخضاعها، نعم».

حاولَ آل داركلين ملوك (وادي الغسق) فرض هيمنتهم على (الرّأس المتصدّع)، كما حاولَ آل موتون سادة (بِركة العذارى) أيضًا، ولاحقًا آل سلتيجار سادة (جزيرة السّراطين) المتغطرسون، لكن أهل (الرّأس المتصدّع) يعرفون مستنقعاتهم وغاباتهم أفضل من أيِّ غريب على الإطلاق، وإذا أرغِموا فإنهم يختفون في المغارات المنتشرة في تلالهم، عندما لا يُقاتِلون مَن يُحاوِلون غزوهم ينشغل بعضهم بقتال بعض، لأن ما بينهم من ثأرٍ وضغائن أعمق وأكثر سوادًا من المستنقعات بين تلالهم. من حينٍ إلى آخَر ينجح بطل ما في إحلال السّلام بالمنطقة، لكنه يدوم ما دامَ حيًّا لا أكثر. اللورد لوسيفر هاردي كان واحدًا من العظماء، والأخوان برون أيضًا، وأعظم منهم كاسر العظام العجوز، لكن آل كراب أعظمهم كافّةً، وما زالَ ديك يَرفُض أن يُصدِّق أن بِريان لم تسمع بالسير كلارنس كراب ومَناقبه.

قالت له: «ولِمَ أكذبُ؟ كلُّ مكانٍ له أبطاله المحلّيّون. في دياري يُغنّون عن السير جالادون المورني، الفارس المثالي».

ردّ ساخرًا: «السير جالامَن الماذا؟ لم أسمع به من قبل. ولِمَ كان مثاليًّا؟».

- «السير جالادون كان بطلًا شديد البسالة لدرجة أنه سلبَ (العذراء) نفسها قلبها، فأنعمَت عليه بسيفٍ مسحور دلالةً على حُبّها. كان اسمه (العذراء العادلة)، ولم يكن يُمكن لأيّ سيف تقليدي أن يصدّ تلك العذراء أو لأيّ ترس أن يتحمّل قُبلتها. حملَ السير جالادون (العذراء العادلة) بفخرٍ لكنه لم يُجرِّدها إلّا ثلاث مرّات، إذ رفضَ أن يُقاتِل بها رجلًا فانيًا لأن قوّتها تجعل أيّ قتالٍ كهذا غير عادل».

وجدَ كراب حكايتها هزليّةً للغاية، وقال: «الفارس المثالي؟ يبدو أنه كان الأحمق المثالي. ما المغزى من حمل سيفٍ مسحور إذا كان لا يستخدمه أبدًا؟».

أجابَت: «الشّرف، المغزى هو الشّرف».

جعلَه ردُّها يُطلِق ضحكةً أعلى ويقول: «كان السير كلارنس كراب ليمسح مؤخِّرته المشعرة بفارسِكِ المثالي يا سيِّدتي. لو التقيا لكان رأس إضافي موضوعًا الآن على الرُّفوف في (قلعة الهمس) إذا طلبتِ رأيي، يقول للرؤوس الأخرى: *كان عليَّ أن أستخدم السَّيف المسحور، كان عليَّ أن أستخدم السَّيف اللَّعين!*».

لم تستطِع بريان أن تمنع ابتسامتها، وقالت: «ربما، لكن السير جالادون لم يكن أحمق. ضد غريمٍ يَبلغ ثمانية أقدام طولًا ويمتطي ثورًا بريًّا كان ليُجرِّد (العذراء العادلة). يقولون إنه قتلَ بها تنِّينًا ذات مرَّة».

قال ديك الرَّشيق دون أن يبدو عليه تأثُّر: «كاسر العظام العجوز قاتلَ تنِّينًا أيضًا لكنه لم يحتَج إلى سيف مسحور، بل اكتفى بربط عُنقه على نفسه، وهكذا كلَّما نفث النَّار أحرقَ مؤخِّرته».

سألَته بريان: «وماذا فعلَ كاسر العظام حين أتى إجون وأختاه؟».

رمقها كراب بنظرةٍ جانبيّة مجيبًا: «كان قد مات حينئذٍ. مؤكَّد أن سيّدتي تعلم هذا. إجون أرسلَ أخته إلى (الرّأس المتصدّع)، تلك المسمّاة ڤيزينيا. كان اللوردات قد سمعوا بنهاية هارن، ولأنهم ليسوا حمقى فقد وضعوا سيوفهم عند قدميها، فأخذَتهم الملكة رجالًا لها وقالت إنهم لن يدينوا بالولاء لـ(بركة العذارى) أو (جزيرة الشراطين) أو (وادي الغسق)، لكن هذا لم يمنع آل سلتيجار الملاعين من إرسال رجال إلى الساحل الشّرقي لجني الضّرائب لسيّدهم. إذا أرسلَ عددًا كافيًا يعود إليه بعضهم... وفيما عدا ذلك فنحن لا ننحني إلّا لسادتنا والملك، الملك الحقيقي وليس روبرت ومَن هم على شاكلته»، وبصقَ قبل أن يُتابِع: «كان هناك رجال من آل كراب وبرون وبوجز مع الأمير ريجار في معركة (الثّالوث)، وفي الحرس الملكي أيضًا. واحد من آل هاردي، وواحد من آل كايف، وواحد من آل پايين، وثلاثة من آل كراب؛ كليمنت وروبرت وكلارنس القصير. كان طوله ستّة أقدام، لكنه ما زالَ قصيرًا مقارنةً بالسير كلارنس الحقيقي. كلُّنا من رجال التنّين المخلصون في (الرّأس المتصدّع) ونواحيها».

استمرّت حركة المسافرين في الانحسار مع توغُّلهم شمالًا وشرقًا، إلى أن لم تَعُد هناك خانات يقضون فيها اللّيل، وعندئذٍ كان طريق الخليج قد أصبح ممتلئًا بالحشائش أكثر من الحُفر. ليلتها أووا إلى قرية صيّادين، ونقدَت بِريان القرويّين القليل من العملات النّحاسيّة ليسمحوا لهم بالمبيت في مخزن تبن. أخذَت الغليّة لنفسها وليودريك، وبَعد صعودهما سحبَت السُّلّم، فنادى كراب من أسفل: «إذا تركتِني هنا وحدي فيُمكنني أن أسرق حصانيكما بكلّ سهولة. الأفضل أن تأخذيهما إلى أعلى معكِ يا سيّدتي»، ولمّا تجاهلَته واصلَ: «سيَسقُط المطر اللّيلة، مطر بارد غزير. أنتِ وپودز ستنامان مستريحين دافئين وديك العجوز المسكين سيبقى هنا يرتجف وحده»، وهزّ رأسه مهمهمًا إذ افترشَ كومةً من التّبن، وأضافَ: «لم أعرفْ فتاةً شكّاكةً مِثلكِ إطلاقًا».

تكوّرت بِريان على نفسها تحت معطفها وإلى جوارها پودريك يتثاءب، وقد أرادَت أن تصيح في كراب بالأسفل قائلةً: *لم أكن حذرةً دائمًا. في صِغري اعتقدتُ أن كلّ الرّجال نُبلاء كأبي.* حتى الرّجال الذين أخبروها كم هي جميلة، كم هي فارعة القامة وبهيّة وذكيّة، كم هي رشيقة عندما تَرقُص. السّيّدة رويل هي التي رفعَت الغشاوة عن عينيها، وقالت لها: «لا يقولون تلك الأشياء إلّا لينالوا رضا السّيّد والدِك. ستجدين الحقيقة في مرآتكِ وليس على ألسنة الرّجال». درس قاسٍ انهمرَت له دموعها، إلّا أنه أجداها النّفع في (هارنهال) عندما لعبَ السير هايل وأصدقاؤه لُعبتهم. حين بدأ المطر يهطل كانت تُفكّر: *على البنت أن تكون شكّاكةً في هذا العالم وإلّا لن تبقى بنتًا طويلًا.*

في الالتحام الجماعي في (جسر العلقم) بحثت عمّن توذّدوا إليها وأوسعتهم ضربًا واحدًا تلو الآخر؛ فارو وأمبروز وبوشي ومارك مالندور ورايموند نايلاند وويل اللّقلق، ودعست هاري سوير بحصانها وكسرت خوذة روبن پوتر وخلّفت على وجهه ندبةً قبيحةً، ولمّا سقط آخِرهم سلّمتها (الأم) كوننجتون، وهذه المرّة كان في يد السير رونيت سيف لا وردة، فكانت كلّ ضربةٍ هوت بها عليه أعذب من القُبلات. لوراس تايرل كان آخِر من واجهَ غضبتها يومها، ولئن لم يكن ممّن غازلوها -بل وبالكاد نظرَ إليها أصلًا- فقد كانت على تُرسه ثلاث وردات ذهبيّة في ذلك اليوم، وبِريان تَمقت الورد، فبِتُّ مجرّد منظره فيها قوّةً عاتيةً.

غابَت في النّوم حالمةً بالقتال الذي دارَ بينهما، وبالسير چايمي يُثبّت معطف قوس قزح حول كتفيها.

تواصلَ نزول المطر في الصّباح التّالي، وبينما أفطروا اقترح ديك الرّشيق أن ينتظروا حتى يتوقّف، فقالت بِريان: «ومتى سيتوقّف؟ غدًا؟ بعد أسبوعين؟ عندما يحلُّ الصّيف ثانيةً؟ لا، إن معنا معاطف، وأمامنا فراسخ طويلة نقطعها».

انهمرَ المطر طيلة النّهار. سرعان ما استحالَ الدّرب الضّيّق الذي يسلكونه إلى وحلٍ من تحتهم، وما رأوه من أشجارٍ كان أجرد، وقد حوّل المطر الثّابت أوراقها السّاقطة إلى بساطٍ بنّي مشبّع بالماء. على الرغم من بطانة معطف ديك المصنوعة من جلد الشّناجب فقد تخلّله الماء، ورأت بِريان الرّجل يرتجف فشعرت بالشّفقة عليه لحظةً. *واضح أنه لم يأكل جيّدًا*. تساءلَت إن كان هناك وكر مهرّبين أو أطلال اسمها (قلعة الهمس) حقًّا. الجوعى يقترفون أفعالًا دافِعها اليأس، وربما تكون هذه محاوَلةً للاحتيال عليها.

قلبَت الشّكوك معدتها.

لفترةٍ بدا كأن خرير المطر الثابت هو الصوت الوحيد في العالم. تقدّم ديك الرشيق لا يلوي على شيء، وراقبته برِيان من كثبٍ ملاحظةً الطريقة التي يحني بها ظهره كأن ركوبه منكمشًا على نفسه هكذا سيقيه من البلل. هذه المرّة لم تكن هناك قرية قريبة عندما حلّ عليهم الظلام، ولا حتى شجر يحتمون به، فخيّموا مجبرين وسط الصخور على بُعد خمسين ياردةً فوق خطّ المدّ، لكن على الأقل ستحميهم الصخور من الرّيح. قال لها كراب وهي تُعاني لإشعال النّار في خشبٍ مجروف: «الأفضل أن نسهر حراسةً اللّيلة يا سيّدتي. في مكانٍ كهذا قد يكون هناك هزّاسون».

رمقته برِيان بريبةٍ مردّدةً: «هزّاسون؟».

فسّر ديك الرّشيق باستمتاع: «وحوش، يبدون كالبشر إلى أن تقتربي منهم، لكن رؤوسهم كبيرة للغاية ولهم حراشف بدلًا من الشّعر عند البشر. لونهم أبيض كبطون السّمك وبين أصابعهم شباك، وملمسهم رطب دومًا وروائحتهم ذفرة ووراء شفاههم الرّخوة صفوف من الأسنان الحادّة كالإبر. بعض النّاس يقول إن البشر الأوائل قتلوهم جميعًا، لكن لا تُصدّقي ذلك. إنهم يمشون على أقدامٍ بين أصابعها شباك مصدرين أصوات هرس، ويأتون ليلًا ليختطفوا الأطفال سيّئي الخُلق، فيحتفظون بالفتيات ليتزاوجوا بهن، لكنهم يلتهمون الصّبية ويُمزّقون لحمهم بتلك الأسنان الخضراء الحادّة»، وأعطى پودريك ابتسامةً عريضةً مضيفًا: «يُمكنهم أن يأكلوك يا فتى، يُمكنهم أن يأكلوا لحمك نيئًا».

مسّ پودريك سيفه مجيبًا: «سأقتلهم إذا حاوَلوا».

- «جرِّب، لك أن تُجرِّب. الهزّاسون لا يموتون بسهولة»، وغمزَ كراب لبِريان متسائلًا: «هل كنتِ فتاةً سيّئة الخُلق يا سيّدتي؟».

- «لا». *كنتُ حمقاء فحسب*. وجدَت بريان الخشب أكثر ابتلالًا من أن يشتعل مهما أصدرَ الفولاذ والصَّوّان من شرر. انبعث القليل من الدُّخان من الهشيم، لكن هذا كلُّ شيء، فتخلَّت عنه ممتعضةً وأسندَت ظَهرها إلى صخرةٍ وسحبَت معطفها على جسدها واستسلمَت لقضاء ليلةٍ باردة بليلة، ثم راحَت تَحلُم بوجبةٍ ساخنة وهي تقضم من شريحةٍ من اللَّحم البقري المملَّح القاسي، بينما حكى ديك الرَّشيق عن المرَّة التي قاتلَ فيها السير كلارنس كراب ملك الهرّاسين. قالت لنفسها معترفةً: *حكاياته مسلّية حقًّا، لكن مارك مالندور كان مسلّيًا أيضًا بقِرده الصّغير.*

الأمطار أغزر من أن يروا الشَّمس تغيب والسَّماء أكثر تلبُّدًا بالغيوم من أن يروا القمر يطلع، فحلَّ عليهم اللَّيل حالكًا بلا نجوم. نضبَت الحكايات من كراب وخلدَ إلى النَّوم، وسرعان ما بدأ پودريك يغطُّ أيضًا، وظلَّت بريان جالسةً مستندةً ظَهرها إلى الصَّخرة، تُصغي إلى الأمواج وتتساءل: *أأنتِ قريبة من البحر يا سانزا؟ أأنتِ في (قلعة الهمس) تنتظرين سفينةً لن تأتي أبدًا؟ من معكِ؟ قال إنها رحلة لثلاثة. هل انضمَّ العفريت إليكِ أنتِ والسير دونتوس أم أنكِ عثرتِ على أختكِ الصّغيرة؟*

كان يومهم طويلًا وبريان متعَبة، وحتى مع جلوسها وظَهرها إلى الصَّخرة والمطر يَسقط بنعومةٍ حولها أحسَّت بجفنيها يَثقلان. مرَّتين غفَت، وفي المرَّة الثَّانية استيقظَت فجأةً وقلبها يدقُّ بعُنفٍ وهي على قناعةٍ بأن أحدهم كان يميل عليها. كانت أطرافها متخشِّبة وانعقدَ معطفها حول كاحليها، فركلَته متملِّصةً منه وقامَت، لتجد ديك متكوِّرًا على نفسه إلى جوار صخرة، مدفونًا في الرِّمال المبتلَّة الثَّقيلة ونائمًا. *كان حُلمًا*، مجرَّد حُلم.

ربما أخطأت بتخلّيها عن السير كرايتون والسير إيليفر. لقد بدوَا رجلين صادقين. فكَّرت: *ليت چايمي أتى معي*... لكن چايمي فارس في الحرس الملكي، ومكانه الواجب إلى جوار مليكه. ثم إن رنلي هو مَن ثريد. *أقسمتُ أن أحميه وأخفقتُ، ثم أقسمتُ على الانتقام له وأخفقتُ في هذا أيضًا، وفررتُ مع الليدي كاتلين لكنني خذلتها بدورها*. تبدَّل اتجاه الرِّيح، والآن يسيل المطر على وجهها.

في اليوم التَّالي اضمحلَّ الطَّريق حتى صارَ كخيطٍ رفيعٍ من الحصى، وأخيرًا أصبحَ هناك إيحاء فقط بوجود طريق، وقُرب انتصاف النَّهار انتهى فجأةً عند سفحِ جُرفٍ نحتته الرِّيح. أعلى الجُرف ترتفع قلعة عابسة فوق الأمواج، أبراجها الثَّلاثة المعوجَّة بارزة تحت السَّماء الغائمة.

سألَ پودريك: «أهذه هي (قلعة الهمس)؟».

ردَّ كراب بحدَّة: «هل تبدو لك كأطلال؟ إنها (عرين داين)، مقرُّ اللورد برون. لكن الطَّريق ينتهي هنا. ليس هناك إلَّا غابات الصَّنوبر من الآن فصاعدًا».

جاشت برِيان بنظرها في الجُرف متسائلةً: «كيف نصعد؟».

أجابَ ديك الرَّشيق دائرًا بحصانه: «بسهولة. ابقيا على مقربةٍ من ديك. الهرَّاسون يجنحون إلى أخذ المتلكِّئين».

اتّضح أن الطّريق إلى أعلى ممرّ حجري متحدّر متوارٍ داخل صدعٍ في الصّخر، معظمه طبيعي لكن هنا وهناك درجات منحوتة لتسهيل الصّعود. أحاطت بهم من الجانبين جُدران صخريّة عموديّة تآكلَت على مَرّ قرونٍ من عصف الرّيح ورذاذ الماء، وقد اتّخذت في بعض المواضع أشكالًا عجيبةً أشارَ ديك الرّشيق إلى عددٍ منها وهم يصعدون. «هذا رأس أوجر[59]، هل ترينه؟»، وابتسمت بريان لمّا رأته، فأضاف: «وهذا هناك تنّين حجري. الجناح الآخَر سقط في صِفر أبي. فوقه هذان ضرعان متدلّيان كثديَي عجوزٍ شمطاء»، وألقى نظرةً سريعةً وراءه على صدرها.

قال پودريك: «أيتها الفارس، سيّدتي، هناك خيّال».

- «أين؟». لا يوجَد تكوين صخري يُوحي لها بشكل خيّال.

- «على الطّريق، ليس خيّالًا في الصّخر، خيال حقيقي يتبعنا، بالأسفل».

أشارَ پودريك والتوَت بريان فوق سَرجها تَنظُر. كانوا قد بلغوا ارتفاعًا يُتيح لهم الرّؤية على مدى فراسخ طويلة بطول السّاحل، ورأت الحصان يَسلُك الطّريق نفسه الذي سلكوه، متخلّفًا عنهم بميلين أو ثلاثة. مرّةً أخرى؟ رمَت ديك الرّشيق بنظرة شكّ.

قال كراب: «لا تَنظُري إليّ هكذا. أيًا كان فلا علاقة له بالعجوز ديك الرّشيق. إنه أحد رجال برون غالبًا، عائد من الحروب، أو واحد من المغنّين الذين يجولون من مكانٍ إلى مكان»، ودوّر رأسه وبصق، ثم أردف: «ليس هرّاسًا، هذا مؤكّد. نوعهم لا يركب الخيل».

رنَت بريان: «نعم». على هذا على الأقل يتّفقان.

الأقدام المئة الأخيرة من صعودهم كانت الأكثر تحذّرًا وخطورةً. تحرّك الحصى المخلخل تحت حوافر أحصنتهم وسقط متدحرجًا على الممرّ الحجري وراءهم، وحين خرجوا من الصّدع أخيرًا وجدوا أنفسهم أسفل سور القلعة، ومن شُرفةٍ أعلاهم ألقى عليهم وجه نظرةً ثم اختفى، فخمّنت بريان أنه وجه امرأة، وقالت هذا لديك الزّشيق الذي أيّدها قائلًا: «برون أكثر هِرمًا من أن يمشي على الأسوار، وأبناؤه وأحفاده ذهبوا إلى الحروب. لم يتبقَّ أحد في الدّاخل إلّا النّسوة وربما طفل سائل الأنف أو ثلاثة».

كان على شفتيها سؤال مُرشدها عن الملك الذي ناصرَه اللورد برون، لكن الجواب لم يَعُد يهمّ. لقد رحلَ أبناؤه، وربما لا يعود بعضهم. *لن نجد ترحابًا هنا اللّيلة*. ليس واردًا أن تفتح قلعة مليئة بالمسنّين والنّساء والأطفال أبوابها لأغراب مسلّحين. قالت لديك: «تتكلّم عن اللورد برون كأنك تعرفه».

- «ربما عرفته في الماضي».

نظرَت إلى صدر سُترته، إلى الخيوط المحلولة ورُقعة النّسيج الأغمق المهترئة حيث كانت الشّارة التي انتزعها. دليلها متهرّب دون شك. هل يُمكن أن يكون الخيّال وراءهم أخاه في السّلاح؟

قال ديك مستحثًّا إياها: «يَجدُر بنا أن نُواصِل الطّريق قبل أن يبدأ برون يتساءل عمّا نفعله عند أسواره. حتى النّساء يستطعن إطلاق نُشّابيّة لعينة»، وأشارَ إلى تلال الحجر الجيري المرتفعة وراء القلعة بمنحدَراتها المشجَّرة مضيفًا: «لا طريق من الآن فصاعدًا، فقط الجداول ودروب الفرائس، لكن لا داعي للقلق يا سيّدتي. ديك الزّشيق يعرف هذه الأنحاء».

وهذا ما تخشاه بريان. كانت الرّيح تهبّ على قمّة الجُرف، إلّا أنها لا تشمّ إلّا قحًا. سألَت: «وماذا عن ذلك الخيّال؟». ما لم يكن حصانه يستطيع السّير على الموج فسرعان ما سيَبلُغ القمّة بدوره.

- «ماذا عنه؟ إذا كان أحمق ما من (بِركة العذارى) فربما لا يجد الممرّ اللّعين أصلًا، وإذا فعلَ فسنُضَلّله في الغابة. هناك لن يجد طريقًا يتبعنا عليه».

لن يجد إلّا آثارنا فقط. تساءلَت بريان إن كان الأسلم أن تُواجِه الخيّال هنا وسيفها في يدها. *سأبدو في غاية الحمق إذا كان مطريًا متجوّلًا أو أحد أبناء اللورد برون*. قد يكون كراب محقًّا. *إذا ظلّ وراءنا غدًا سأتعاملُ معه حينها*. قالت دائرةً بفرسها نحو الغابة: «كما تشاء».

تضاءلَت قلعة اللورد برون وراء ظهورهم وسرعان ما غابَت عن الأنظار، وارتفعَ شجر الحارس والصّنوبر الجُندي من حولهم في كلّ اتّجاه، حِراب شاهقة مكسوّة بالأخضر تطعن السّماء. أرض الغابة طبقة من الإبر السّاقطة سميكة كسور قلعة، تتناثر عليها هنا وهناك أكواز الصّنوبر، وبدا كأن حوافر خيولهم لا تُصدِر صوتًا إذ وطأتها. تساقطت الأمطار بعض الوقت وانقطعت ثم عاودَت الشّقوط، لكنهم لم يَشعُروا بقطرةٍ تقريبًا وسط الأشجار.

الحركة في الغابة أبطأ كثيرًا. قادَت بريان فَرسها في العتمة الخضراء ومضَت بها تتعرّج وسط الأشجار، وقد أدركَت أن الضّياع هنا سهل للغاية، فكلُّ اتّجاهٍ تَنظُر فيه يُشبِه غيره، والهواء نفسه يبدو رماديًا وأخضر وساكنًا. خدشَت أغصان الصّنوبر ذراعيها واحتكّت بصوتٍ مزعج بتُرسها حديث الطّلاء، وشعرَت بالصّمت الغريب يحزُّ في نفسها أكثر فأكثر مع كلّ ساعةٍ تمرُّ.

أزعجَت الأجواء ديك الرّشيق أيضًا. في أواخر النّهار والغسق يدنو حاولَ أن يُغنّي، وبصوتٍ خشن كسراويل من الصّوف ردّد: «*كان هناك دُب، دُب، دُب، كلّه أسود وبنّي ومغطّى بالشّعر*»، لكن شجر الصّنوبر تشرّب صوته كما تشرّب المطر والرّيح، وبعد فترةٍ قصيرة كفّ عن الغناء.

قال يودريك: «كلُّ شيءٍ سيئ هنا، هذا مكان سيئ».

هذا ما تشعر به بريان أيضًا، لكن لن ينفع أن تقرّ به، فقالت: «غابة الصنوبر مكان كئيب، لكنها في النهاية مجرّد غابة. لا يوجد هنا ما نخشاه».

- «وماذا عن الهزّاسين؟ والرؤوس؟».

قال ديك الرّشيق ضاحكًا: «صبيٌ ذكي».

رمقته بريان باستياءٍ وأجابت يودريك: «ليس هناك هزاسون وليست هناك رؤوس».

ارتفعت التلال، انخفضت التلال، ووجدت بريان نفسها تُصلّي أن ديك الرّشيق صادق ويعلم أين يقودهما. إنها ليست واثقةً باستطاعتها أن تجد البحر ثانيةً إذا كانت بمفردها. ليلًا أو نهارًا السّماء رماديّة مصمتة ملبّدة بالغيوم، ولا شمس أو نجوم تُعينها على العثور على طريقها.

خيّموا في ساعةٍ مبكّرة تلك الليلة، بعد أن نزلوا تلًا ووجدوا أنفسهم على حافة مستنقعٍ أخضر لامع. في الضّوء الأخضر الرّمادي بدت الأرض أمامهم صلبةً كفاية، لكن حين داسوا عليها غاصت فيها خيولهم حتى الكاهل، فداروا مضطرّين وكافحوا ليشقّوا طريقًا إلى أرضٍ ثابتة. قال لهما كراب مطمئنًا: «لا يهمّ. سنصعد التّلّ ثانيةً وننزل من طريقٍ آخر».

لم يختلف اليوم التّالي. ركبوا وسط أشجار الصّنوبر والمستنقعات تحت سماءٍ قاتمة ومطرٍ متقطّع، مارّين بانهياراتٍ أرضيّة وكهوف وأنقاض معاقل عتيقة اكتست جدرانها بالطّحالب. لكلّ كومةٍ من الأحجار قصّة، وقد حكاها ديك الرّشيق جميعًا، وحسب كلامه كان أهل (الرّأس المتصدّع) يروون أشجارهم بالدّماء. سرعان ما بدأ صبر بريان ينفد، وأخيرًا قالت له: «كم تبقّى؟ لا بدّ أننا رأينا كلّ شجرةٍ في (الرّأس المتصدّع) بالفعل».

أجابَ كراب: «إطلاقًا. نحن قريبون. انظري، كثافة الأشجار تقلُّ. إننا بالقُرب من (البحر الضيِّق)».

فكَّرت بريان: *هذا المهرِّج الذي وعدتني به سيكون انعكاسي في بِركةٍ على الأرجح*، وإن بدا لها أن من العبث أن تعود أدراجها الآن بَعد أن قطعَت شوطًا طويلًا. كانت ساقاها متصلِّبتين كالحديد من جرَّاء الجلوس على السَّرج، وفي الأيام الأخيرة نامَت أربع ساعاتٍ فقط في اللَّيلة بينما يَحرُسها پودريك. إذا كان ديك الرَّشيق ينوي أن يُحاوِل قتلهما غيلةً فإنها على يقين بأنه سيفعلها هنا على أرضٍ يعرفها جيِّدًا. ربما يقودهما إلى وكر لصوصٍ له فيه أهل مخادعون مِثله، أو ربما يقودهما في دوائر فحسب منتظرًا أن يلحق الخيَّال إياه بهم. لم يروا أثرًا للرَّجل منذ رحلوا من عند قلعة اللورد برون، لكن ذلك لا يعني أنه تخلَّى عن المطاردة.

في ليلةٍ قالت لنفسها بينما تذرع الأرض حول المخيّم: *قد أضطرُّ إلى قتله*. أصابتها الخاطر بالاضطراب. لطالما شكّك قيّم السّلاح العجوز الذي درّبها في تمتّعها بالصّلابة الكافية لمواجهة المعارك، وأكثر من مرّةٍ قال لها السير جودوين: «تتحلّين بقوّة الرّجال في ذراعيكِ، لكنكِ خرعة القلب كأيّ فتاة. التّدريب في السّاحة بسيفٍ مثلوم شيء، وشيء آخر أن تُغمِدي قدمًا من الفولاذ المشحوذ في أحشاء رجلٍ وتري الضّوء ينطفئ في عينيه». لجعلها أكثر صلابةً أرسلَها السير جودوين إلى جزّار أبيها لتذبح الجِملان والخنازير الرّضيعة. صرخت الجِملان والخنازير كأطفالٍ مرعوبين، ولدى فروغها من الذّبح كانت الدّموع قد أعمَت بريان وتلوّثت ثيابها بالدّماء لدرجة أنها أعطت وصيفتها إياها لتُحرِقها. على أن الشّكوك ظلّت تُساوِر السير جودوين، وقال لها: «الخنزير خنزير. الأمر مختلف مع الرّجال. حين كنتُ مُرافقًا صغيرًا في سِنّكِ كان لي صديق قوي سريع رشيق، بطل في السّاحة، وكنا نعلم جميعًا أنه سيغدو فارسًا مغوارًا ذات يوم. ثم اشتعلَت الحرب في (الأعتاب)، ورأيتُ صديقي يُسقِط خصمه على ركبتيه ويُطوِّح بفأسه من يده، لكن عندما كان يُفترَض أن يُجهِز عليه تردّد أقلّ من لحظة، وفي المعركة اللّحظة أو دونها غمر كامل. استلّ الرّجل خنجره ووجد شقًّا في دِرع صديقي. قوّته، سرعته، شجاعته، مهارته التي اكتسبها بالاجتهاد... كلُّ هذا كانت قيمته أقلُّ من فسوة، لأنه جفلَ من القتل. تذكّري هذا يا فتاة».

وعدَت طيفه هناك في غابة الصّنوبر: *سأتذكّر*، وجلست على صخرةٍ وسحبَت سيفها وراحت تشحذ نصله. *سأتذكّر، وأدعو ألّا أجفل*.

بزغَ فَجر اليوم الثالي بارِدًا غائمًا مغمًا. لم يروا الشَّمس تُشرِق، لكن عندما استحالَ السّواد إلى رمادي عرفَت بِريان أن الوقت حانَ لمواصَلة الرُّكوب. قادَ ديك الرّشيق الطّريق إذ عادوا يخوضون وسط الأشجار، وتبعته بِريان على مقربةٍ بينما تحرَّك پودريك في المؤخِّرة على متن حصانه الأرقط.

فاجأتهم القلعة دون سابق إنذار. في لحظةٍ كانوا في أعماق الغابة ولا شيء يُحيط بهم إلّا أشجار الصّنوبر الممتدّة فراسخ وفراسخ، ثم داروا حول جُلمودٍ ولاحت ثغرة أمامهم، وبَعد ميلٍ واحد انتهَت الغابة على حين غِرّة. وراءها كانت السَّماء والبحر... وقلعة عتيقة على شفير جُرف، متهدِّمة ومهجورة وتنمو في جنباتها الحشائش الكثيفة.

قال ديك الرّشيق: «أنصِتا. يُمكنكما أن تسمعا الرُّؤوس».

فغرَ پودريك فاه قائلًا: «أسمعها».

وسمعَتها بِريان أيضًا، غمغمة خافتة كأنها تنبعث من الأرض بقدر ما تأتي من القلعة. تعالى الصّوت مع اقترابها من الجُروف، ثم إنها أدركَت فجأةً أنه صوت البحر، وأن الصُّخور في الأسفل تآكلَت وثقبَها الموج الذي يتدفَّق هادرًا في كهوفٍ وأنفاق تحت الأرض. قالت: «ليست هناك رؤوس. ما تسمعه هو همس الأمواج».

- «الأمواج لا تهمس. إنها الرُّؤوس».

القلعة مبنيّة بأحجارٍ قديمة غير مملّطة لا يتماثل منها اثنان، والطّحالب نامية بكثافةٍ في الصّدوع بين الصّخور، والأشجار نابتة من الأساسات. معظم القلاع القديمة يضمّ أيكة آلهة، أمّا (قلعة الهمس) فمنظرها يشي بأن فيها القليل عدا ذلك. قادت بريان فرسها إلى حافة الجُرف حيث تداعى السّور وتنمو أكوام من اللّبلاب الأحمر السّام فوق الرّكام، وربطت الفرس بشجرةٍ واقتربَت من شفا الهاوية بقدر ما أتاحت لها جرأتها، فرأت تحتها بخمسين قدمًا الموج يدور داخل وحول بقايا بُرجٍ محطّم، ولمحت وراءه مدخل كهف واسع.

قال ديك الرّشيق الذي وقف وراءها: «هذا بُرج المنارة القديم. سقطَ وأنا في نِصف سِنّ بودز. كانت هناك سلالم تقود إلى الكهف لكنها سقطت أيضًا مع انهيار الجُرف، وبعدها امتنع المهرّبون عن الرّسو هنا. في الماضي كانوا يَدخلون الكهف بقواربهم، لكن ذلك انتهى، هل ترين؟»، ووضع يدًا على ظَهرها وأشارَ بالأخرى.

واقشعرّ جِلد بِريان. *دفعة واحدة وسأصبح في الأسفل مع البرج*. تراجعَت قائلةً: «أبعِد يديك عني».

عقدَ كراب حاجبيه، وقال: «كنتُ فقط...».

- «لا أبالي بما كنته فقط. أين البوّابة؟».

أجابَ: «النّاحية الأخرى»، وتردّد لحظةً ثم قال بتوتُّر: «مهرّجكِ هذا ليس رجلًا يكنّ ضغينةً، أليس كذلك؟ أعني... ليلة أمسِ فكّرتُ أنه قد يكون غاضبًا من العجوز ديك الرّشيق بسبب الخريطة التي بِعته إياها ولأني لم أذكر الجزء الخاص بعدم رسو المهرّبين هنا».

- «يُمكنك بالذّهب الذي ستقبضه أن تردّ له ما نقدك إياه لـ... لمساعدتك». لا تتصوّر بِريان أن دونتوس هولارد يُشكّل تهديدًا. «هذا إذا كان هنا من الأصل».

داروا حول الأسوار. كانت القلعة مثلّثةً وفي كلّ زاويةٍ بُرج مربّع، وقد تعفّن مصراعا بوّابتها تمامًا، فلمّا شدّت بِريان أحدهما تشقّق خشبه وانخلعت شظاياه الطّويلة المبتلّة وانهار نِصف البوّابة عليها. رأت مزيدًا من العتمة الخضراء في الدّاخل، إذ اخترقَت الغابة الأسوار وابتلعت الحصن والفِناء، لكن وراء البوّابة ثمّة شبكة حديديّة أنيابها غائصة بعُمقٍ في الأرض اللّينة الموحلة. صبغَ الصّدأ الحديد بالأحمر، لكنه صمدَ عندما رجّته بِريان، فقالت: «لا أحد استخدمَ هذه البوّابة منذ زمنٍ بعيد».

قال پودريك مقترحًا: «أستطيعُ أن أتسلّق من ناحية الجُرف حيث سقط الشور».

- «المخاطرة شديدة. الأحجار بدَت لي مخلخلةً، واللّبلاب الأحمر سام. لا بُدّ من وجود باب جانبي».

وجدوه على جانب القلعة الشّمالي، شِبه متوارٍ وراء أَجَمة توتٍ أسود ضخمة، وقد قُطِفَ التّوت كلّه وقُطِعَ نِصف الشّجيرات لإخلاء سبيلٍ إلى الباب. أفعمَ منظر الغصون المكسورة بِريان بالقلق، وقالت: «أحدهم مرّ من هنا، ومنذ فترةٍ قريبة».

قال كراب: «المهرّج وتلكما الفتاتان، كما قلتُ لكِ».

سانزا؟ لا تقوى بِريان على التّصديق. حتى سكّير منقوع في النّبيذ كدونتوس هولارد سيكون أعقل من أن يأتي بها إلى هذا المكان القفر. شيء ما في هذه الأطلال يملأها وجلًا. لن تجد ابنة ستارك هنا... لكن عليها أن تُلقي نظرةً. *أحدهم كان هنا، أحدٌ أرادَ أن يختفي عن الأعين*. قالت: «سأدخل. كراب، ستأتي معي. پودريك، أريدك أن تحرُس الخيول».

- «أريدُ أن آتي أيضًا. إنني مُرافق، أستطيعُ أن أقاتل».

- «لهذا أريدك أن تبقى هنا. قد يكون هناك خارجون عن القانون في هذه الغابة، وينبغي ألّا نترُك الخيول بلا حراسة».

حكّ پودريك صخرةً بحذائه قائلًا: «كما تقولين».

هكذا دخلَت وسط أجَمة الثّوت الأسود وجذبَت حلقةً حديديَّة صدئةً، فقاومَ الباب الجانبي لحظةً ثم انفتحَ بحركةٍ حادّة بينما تَصرخ مِفصلاته اعتراضًا، وجعلَ الصّوت الشُّعيرات على مؤخّرة عُنقها تنتصب. استلّت سيفها، وحتى وهي ترتدي الحلقات المعدنيّة والجِلد المقوّى أحسّت كأنها عارية.

حثّها ديك الواقف وراءها قائلًا: «هيّا يا سيّدتي. ماذا تنتظرين؟ كراب العجوز ماتَ منذ ألف عام».

ماذا تنتظر حقًّا؟ قالت بِريان لنفسها إنها تتصرَّف بحُمق. الصّوت ليس إلّا صوت البحر الذي تتردّد أصداؤه بلا نهايةٍ في الكهوف تحت القلعة، ترتفع وتنخفض مع كلّ موجة. لكن له وقع الهمس فعلًا، وللحظةٍ كادَت ترى الرؤوس المستقرّة على الرّفوف يُتمتِم بعضها لبعض، ويقول أحدها: *كان عليّ أن أستخدم السّيف، كان عليّ أن أستخدم السّيف المسحور.*

قالت بِريان: «پودريك، ثمّة سيف وغِمد داخل لفافة نومي. أحضِرهما إليّ».

ردّ الصّبي: «حاضر أيتها الفارس، يا سيّدتي، حالًا»، وهرعَ يُلبّي الأمر.

حكّ ديك الرّشيق وراء أذنه متسائلًا: «سيف؟ إن معكِ واحدًا في يدكِ، فلِمَ تحتاجين إلى آخر؟».

قدّمته له بِريان من المقبض مجيبةً: «هذا لك».

مدّ كراب يده بتردُّدٍ كأن النّصل سيعضُّه، وقال: «حقًّا؟ الفتاة الشّكّاكة تُعطي ديك العجوز سيفًا؟».

- «تعرف كيف تستخدمه، أليس كذلك؟».

أجابَ مختطفًا السّيف الطّويل من يدها: «أنا من آل كراب، في عروقي دماء السير كلارنس»، وشَقّ الهواء ثم منحها ابتسامةً عريضةً، وأضاف: «السّيف يصنع اللورد كما يقولون».

عادَ پودريك پاين حاملًا (حافِظ العهد) بحذرٍ بالغ كأنه طفل صغير، وأطلق ديك الرّشيق صفيرًا لمرأى الغِمد المنمّق وصَفِّ رؤوس الأسود عليه، لكنه لاذ بالصّمت حين استلّت السّيف وشقّت به الهواء. حتى صوته *أحدّ من أيّ سيف تقليدي*. قالت لكراب: «معي»، ودخلَت بجانبها من الباب وقد حنَت رأسها لتمرّ من تحت القنطرة.

انفتحَ أمامها الفِناء بحشائشه الكثيفة. إلى يسارها تقع البوّابة الرّئيسة والهيكل المنهار لما كان اسطبلًا، تَبرُز من نِصف مَرابطه الشّجيرات وتنفذ من القَشّ البنّي الجاف الذي يُغطّي سقفه، وإلى يمينها رأت سلالم خشبيّة متعفّنة تنزل إلى ظُلمة زنزانةٍ أو قبوٍ ما. حيث ارتفع الحصن من قبل كانت الآن كومة من الحجارة المتهدّمة تنمو عليها الطّحالب الأرجوانيّة والخضراء، وأرض الفِناء كلّها تفترشها الحشائش والإبر التي سقطَت من أشجار الصّنوبر الجُندي النّامية في كلّ مكان في صفوفٍ مهيبة، ووسطها شجرة غريبة شاحبة، شجرة ويروود رفيعة شابّة أبيض لونها كثياب فتاةٍ مترهبنة، ومن فروعها المديدة تنبت الأوراق الحمراء الدّاكنة. وراء كلّ هذا كان فراغ السّماء والبحر حيث سقط الشور...

... وبقايا نار.

راحَت الهمسات تقرض أذنيها بعناد، وركعَت برييان إلى جوار بؤرة النّار والتقطَت عودًا مسودًا وتشمّمته وحرّكت به الرّماد. *أحدهم كان يُحاول أن يتدفّأ ليلة البارحة، أو ربما كان يُحاول إرسال إشارةٍ إلى سفينةٍ عابرة*.

نادى ديك الرّشيق: «هالووووو! هل من أحدٍ هنا؟».

قالت له برييان: «صمتًا».

زدّ: «ربما يكون أحدهم مختبئًا، يُريد أن يُلقي علينا نظرةً قبل أن يكشف عن نفسه»، وذهبَ إلى حيث تنزل السّلالم تحت الأرض وحدّق إلى الظّلام مناديًا من جديد: «هالووووو! هل من أحدٍ بالأسفل؟».

رأت بريان شجيرةً تميل، ومن الدّغل خرجَ رجل تكتّل عليه الطّين لدرجة أنه بدا كأن الأرض انشقّت عنه. كان يحمل سيفًا مكسورًا في يده، لكن وجهه هو ما جعلّها تتردّد، العينان الصّغيرتان والمنخران العريضان المسطّحان.

تعرف بريان هذا الأنف، تعرف هاتين العينين. كان أصدقاؤه يدعونه ببيج.

كأن كلّ شيءٍ حدثَ في غمضة عين. خرجَ رجل ثانٍ من فوق حافة البئر دون أن يُصدِر صوتًا أكثر مما يُصدِره ثُعبان يزحف على كومةٍ من أوراق الشّجر المبتلّة، يعتمر خوذةً حديديّةً قصيرةً ملفوفةً بالحرير الأحمر المتّسخ، ويحمل حربةً قصيرةً غليظةً في يده. تعرف بريان هذا الرّجل أيضًا. سمعت من ورائها حفيفًا وظلّ وجه من بين الأوراق الحمراء، وكان كراب واقفًا تحت شجرة الويروود، فرفعَ رأسه ورأى الوجه، ليُنادي بريان قائلًا: «ها هو ذا مهرّجك».

ووثبَ شاجويل من شجرة الويرووود مطلقًا ضحكاتٍ كنهيق الحمير. كان يرتدي ثياب المهرِّجين، لكنها باهتة ومتّسخة تمامًا لدرجة أن لونها الآن بنيٌّ أكثر من رماديٌّ أو وردي، وبدلًا من مِدرس المهرِّجين يحمل هراوةً ثلاثيّة الرؤوس، ثلاث كُرات شائكة مثبّتة إلى قناةٍ خشبيّة بالسّلاسل، وقد هوى بها بعُنف مفجّرًا إحدى رُكبتَي كراب في دفقةٍ من الدّم والعظم، وإذ سقط نعق شاجويل قائلًا: «هذا طريف!». طار السّيف الذي أعطت ديك إياه من يده واختفى وسط الحشائش، وما انفكّ هو يتلوّى على الأرض صارخًا ومتمسّكًا ببقايا رُكبته. قال شاجويل: «أوه، انظُرا، إنه ديك المهرِّب الذي رسمَ لنا الخارطة. هل قطعت كلّ هذه المسافة لتردّ لنا ذهبنا؟».

قال ديك منتحبًا: «أرجوك، أرجوك لا، ساقي...».

- «هل تؤلِمك؟ يمكنني أن أجعل الألم يتوقّف».

قالت بريان: «دَعه وشأنه».

وصرخ ديك رافعًا يدين داميتين يقي رأسه، ومرّةً أخرى دوّر شاجويل كُرات الهراوة حول رأسه وهوى بها على وجه كراب في المنتصَف تمامًا، ليتعالى صوت تهشُّمٍ مغثٍ، وفي الصّمت الذي تلاه سمعَت بريان خفقات قلبها المتسارعة.

قال الذي خرج متسلّلًا من البئر: «شاجز السيئ»، ولمّا رأى وجه بريان ضحك وقال: «أنتِ ثانيةً يا امرأة؟ هل جئتِ تُطارِدينا أم أن وجوهنا الودود أوحشَتكِ؟».

تراقصَ شاجويل من قدمٍ إلى قدمٍ ملوّحًا بمِدرسه القاتل، وقال: «أتَت من أجلي. إنها تَحلم بي كلّ ليلةٍ عندما تضع أصابعها في فتحتها. إنها تُريدني. الحصان الكبير افتقدَت حبيبها شاجز المرِح! سأنكحها من دُبرها وأضخُّ فيها نُطفة المهرِّجين حتى تلد نسخةً صغيرةً مني».

قال تيميون بلكنته الدورنيّة المتشدّقة: «عليك أن تستخدم فتحةً مختلفةً لأجل هذا يا شاجز».

ردّ المهرّج: «الأفضل أن أستخدم فتحاتها كلّها إذن على سبيل الاحتياط»، وتحرّك إلى يمينها بينما داز پيج إلى يسارها مجبرًا إياها على أن تُولّي حافة الجُرف ظَهرها.

فكّرت پريان: *رحلة لثلاثة*، وقالت لهم: «أنتم ثلاثة فقط».

هزّ تيميون كتفيه مجيبًا: «كلّنا ذهبَ إلى حال سبيله بَعد خروجنا من (هارنهال). أورزويك وشرنزمته ركبوا جنوبًا إلى (البلدة القديمة)، وروورج حسبَ أنه يستطيع الخروج متسلّلًا من (الملّاحات)، أمّا أنا ورفيقاي فذهبنا إلى (بِركة العذارى)، لكننا لم نستطِع الاقتراب من سفينة»، ووازنَ الدورني حربته مواصلًا: «هل تعلمين أنكِ فتكتِ بڤارجو بعضّتكِ إياها؟ أذنه اسودّت وبدأت تنزّ صديدًا. أرادَ روورج وأورزويك الرّحيل، لكن الكبش قال إن علينا الدّفاع عن قلعته، إنه سيّد (هارنهال) ولا أحد سيأخذها منه. قالها ولُعابه يسيل بالطّبع كما كان يَحدُث دومًا عندما يتكلّم. سمعنا أن الجبل قتلَه قطعةً قطعةً، يدًا اليوم وقدمًا غدًا، بمنتهى البراعة والنّظافة. كانوا يُضمّدون الجَدعات كي لا يموت هوت. ادّخر كليجاين قضيبه للنّهاية، لكن طائرًا من (كينجز لاندنج) استدعاه فأجهزَ على الكبش ورحلَ».

- «لستُ هنا من أجلكم. إنني أبحث عن...». كادَت تقول أختي. «... عن مهرّج».

أعلنَ شاجويل بسعادة: «أنا مهرّج».

اندفعت پريان تقول: «المهرّج الخطأ. مَن أريده موجود مع فتاةٍ رفيعة النّسب، ابنة اللورد ستارك سيّد (وينترفل)».

قال تيميون: «إذن فكلب الصّيد مَن تُريدين. لكنه ليس هنا كذلك، نحن فقط».

- «ساندور كليجاين؟ ماذا تعني؟».

- «هو من عثرَ على ابنة ستارك. حسب ما سمعتُ فقد كانت في الطّريق إلى (ريڤررن) حين اختطفَها، الكلب الملعون».

(ريفرزن)، كانت متجهةً إلى (ريفرزن)، إلى خالها وعمّه. «وما أدراك؟».

- «أخبرَني واحد من جماعة بريك. سيِّد البرق يبحث عنها أيضًا، وأرسلَ رجاله بطول (الثّالوث) وعرضه يقتفون أثرها. صادَفنا ثلاثةً منهم بَعد (هارنهال) وانتزعنا الحكاية من أحدهم قبل أن يموت».

- «ربما كان يكذب».

- «ربما، لكنه لم يكذب. لاحقًا سمعنا أن كلب الصّيد قتلَ ثلاثةً من رجال أخيه في خانٍ على مفترَق الطُّرق. الفتاة كانت معه هناك. صاحِب الخان أقسمَ على هذا قبل أن يَقتله رورج، والعاهرات كرّرن الكلام نفسه. كم كن قبيحات! لسن بقُبحكِ بالطّبع، ومع ذلك...».

أدركَت بريان ما يَحدث، وقالت لنفسها: *يُحاوِل الهائي، يستغلُّ صوته لأركِّز عليه وحده.* كان پيج يدنو بتؤدة، ووثبَ شاجويل خُطوةً صوبها، فتراجعَت مفكِّرةً: *سيدفعونني إلى الشقوط في الهوّة إذا سمحتُ لهم.* قالت لهم منذرةً: «لا تقتربوا».

أعلنَ شاجويل: «أظنُّ أنني سأنكحكِ في أنفكِ يا هذه. ألن يكون هذا طريفًا؟».

وأضافَ تيميون: «قضيبه صغير للغاية. أفلِتي هذا السّيف الأنيق ولربما نترفّق بكِ يا امرأة. نُريد ذهبًا ندفع به أجر المهرّبين، هذا كلُّ شيء».

- «وإذا أعطيتكم الذّهب ستتركوننا نرحل؟».

ابتسمَ تيميون مجيبًا: «نعم، بمجرّد أن ينكحكِ ثلاثتنا. سننقُدكِ أجركِ كأيّ عاهرةٍ محترفة، قطعة فضّيّة لكلِّ نكحة. إمّا هذا وإمّا أن نأخذ الذّهب ونغتصبكِ على كلِّ حال ونفعل بكِ ما فعلَه الجبل باللورد ڤارجو. ماذا تختارين؟».

ردّت بريان: «هذا»، وألقَت نفسها على پيج.

أسرعَ يرفع سيفه المكسور ليحمي وجهه، ولكن لئن سدّد النّصل إلى أعلى سدّدت هي نصلها إلى أسفل، وشقّ (حافِظ العهد) الجلد والصّوف والعضلات ليغوص في فخذ المرتزق. لوّح بيج بسيفه بشراسةٍ وساقه تتداعى من تحته، فاحتكّ بقميصها المعدني قبل أن يحطّ على ظَهره، وطعنته برِيان في حلقه ودوّرت النّصل بقوّة، ثم سحبته ودارت في اللّحظة نفسها التي ومضَت فيها حربة تيميون خادشةً وجهها، وإذ سالَ الدّم على وجنتها فكّرت: *لم أجفل. هل رأيت يا سير جودوين؟* شعرَت بالجرح بالكاد، وبينما أخرجَ الدورني حربةً ثانيةً أقصر وأغلظ من الأولى قالت له: «دورك، ألقِها».

- «كي تتفاديها وتنقضّي عليّ؟ في هذا موتي كبيج. لا. نَل منها يا شاجز».

قال شاجويل: «نَل منها أنت. هل رأيت ما فعلَته ببيج؟ لقد أجنّ التّزيف القمري جنونها».

المهرّج وراءها وتيميون أمامها، ومهما دارَت سيكون ظَهرها إلى أحدهما.

قال تيميون مستحثًا شاجويل: «نَل منها ويمكنك أن تنكح جثّتها».

- «أوه، إنك تحبّني حقًا». كانت الهراوة الشّائكة تدور، وقالت برِيان لنفسها: *اختاري أحدهما، اختاريه واقتليه بسرعة*.

ثم أتى حجر محلّقًا من اللا مكان وأصابَ شاجويل في رأسه... ولم تتردّد برِيان وانقضّت على تيميون.

الدورني أبرع من ﭘيج، لكنه يحمل مجزّد حربةٍ قصيرة، أمّا هي فتحمل سيفًا من الفولاذ الڤاليري. دبّت الحياة في (حافِظ العهد) في يدها، ولم تحسّ بِريان بحركتها سريعةً هكذا من قبل قَطّ، واستحالَ النّصل إلى غشاوةٍ رماديّة في الهواء. جرحَها تيميون في كتفها إذ كرّت عليه، لكنها بترَت أذنه ونِصف وجنته وطيّرت رأس حربته وأغمدَت قدمًا من الفولاذ المتموّج في بطنه عبر حلقات الشترة المعدنيّة التي يرتديها.

كان تيميون لا يزال يُحاوِل القتال عندما انتزعَت من بطنه سيفها الذي تخضّب واقيه العرضي بحُمرة الدّماء. فتّش مسعورًا في حزامه ورفعَ خنجرًا، فقطعَت بِريان يده. *من أجل چايمي*.

شهقَ الدورني والدّم يجيش من فمه وينبجس من معصمه، وقال لاهثًا: «زِحماكِ يا أمّنا. أجهزي عليّ، أعيديني إلى (دورن) أيتها الحقيرة الملعونة».

ونفّذَت بِريان طلبه.

وجدَت شاجويل على رُكبتيه لمّا التفتَت وقد بدا دائخًا وهو يتحسّس الأرض بحثًا عن هراوته الثُّلاثية الشّائكة، وإذ نهضَ مترنّحًا ارتطمَ حجر آخَر بأذنه. كان ﭘودريك قد تسلّق السُّور المنهار ويقف محملقًا بتجهُّمٍ وسط فروع اللّبلاب وفي يده صخرة جديدة، وصاحَ فيها من أعلى: «قلتُ لكِ إنني أستطيعُ القتال!».

حاولَ شاجويل أن يزحف مبتعدًا، وصاحَ: «أستسلمُ، أستسلمُ! يجب ألّا تؤذي شاجويل العزيز. إنني أطرف من أن أموت».

- «لست أفضل من بقيّتهم. لقد سرقت واغتصبت وقتلت».

- «أوه، فعلتُ هذا، فعلتُ هذا، لن أنكر... لكنني أسلّي الرّجال بدُعاباتي وتوثُّبي، أجعلهم يضحكون».

- «وتُبكي النّساء».

- «أهذه غلطتي؟ النّساء لا يملكن حِسّ دُعابة».

خفضَت بِريان (حافِظ العهد) قائلةً: «احفُر قبرًا. هناك، تحت الويروود»، وأشارَت بالسَّيف.

- «ليس معي جاروف».

- «لديك يدان». *أكثر مما تركتُم لجايمي.*

- «وما الفائدة؟ أتزكيهما للغِربان».

- «فلتأكل الغِربان تيميون وبيج. القبر لديك الرَّشيق. لقد كان من آل كراب، وهذا مكانه».

كانت الأرض مبتلَّةً من جرّاء الأمطار، وعلى الرغم من هذا استغرقَ المهرِّج بقيَّة النَّهار حتى حفرَ قبرًا عميقًا كفايةً، ولدى انتهائه واللَّيل يبدأ يتسيَّد السَّماء كانت يداه قد تقرَّحتا وأخذَتا تنزفان. دسَّت بِريان سيفها في غِمده ورفعَت ديك كراب بين ذراعيها وحملَته إلى الحفرة متجنِّبه النَّظر إلى وجهه الخرب، وقالت له: «آسفةٌ لأنِّي لم أثق بك. لم أعد أدري كيف أفعل ذلك».

وبينما ركعَت تضع الجُثمان في القبر فكَّرت: *سيُقدِم المهرِّج على قتلي الآن وظَهري له.*

سمعَت أنفاسه الخشنة قبل أقلَّ من لحظةٍ من صياح پودريك محذِّرًا. في يد شاجويل كانت صخرة محزَّزة، وتحت كُمِّ بِريان خنجرها.

والخنجر يغلب الصَّخرة كلَّ مرَّةٍ تقريبًا.

ضربَت ذراعه مزيحةً إياها وغرسَت الفولاذ في أحشائه مزمجرةً: «اضحك». وبدلًا من هذا أنَّ. «اضحك»، كرَّرت وهي تُطبِق على رقبته بيدٍ وتطعنه في بطنه مرَّةً تلو المرَّة. «اضحك!». ظلَّت تقولها وتقولها وتقولها إلى أن احمرَّت يدها حتى المعصم وكادَت رائحة احتضار المهرِّج النتنة تخنقها. لكن شاجويل لم يضحك، والنَّحيب الذي سمعَته بِريان كان نحيبها، ولمَّا أدركَت هذا أفلتَت الخنجر مرتعدةً.

عاونها پودريك على وضع ديك الزّشيق في حفرته، ولدى فروغهما كان القمر يرتفع في السّماء. فركّت پريان التّراب من يديها وألقت تنّينين ذهبيّين فوق القبر، فسألّها پودريك: «لماذا فعلتِ هذا يا سيّدتي، أيتها الفارس؟».

- «إنها المكافأة التي وعدته بها للعثور على المهرّج».

دوّى الضّحك من ورائهما، فانتزعت پريان سيفها من غِمده ودارّت على عقبيها متوقّعةً المزيد من الممثّلين السّفّاحين... لكنها لم ترَ إلّا السير هايل هَنت جالسًا متقاطع السّاقين على قمّة السّور المتهدّم. صاح الفارس من أعلى: «إذا كانت هناك مواخير في الجحيم فسيّشكرُكِ المأفون، وفيما عدا ذلك فإنكِ تُبذّدين ذهبًا قيّمًا».

- «إنني أوفي بوعودي. ماذا تفعل هنا؟».

- «اللورد راندل أمرّني بأن أتبعكِ، قال لي أن أعود بسانزا ستارك إلى (بِركة العذارى) إذا عثرتِ عليها بمعجزةٍ ما. لا تخافي، لقد أمرّني بألّا أمسسكِ بسوء».

رنّت پريان ساخرةً: «كأنك تستطيع».

- «ماذا ستفعلين الآن يا سيّدتي؟».

- «سأغطّيه».

- «قصدتُ إزاء الفتاة، الليدي سانزا».

فكّرت پريان لحظةً، ثم أجابَت: «كانت ذاهبةً إلى (ريڤرّن) إذا صدقَ تيميون، وفي مكانٍ ما في الطّريق أخذَها كلب الصّيد. إذا وجدته...».

- «... سيّقتلكِ».

قالت بعناد: «أو سأقتله. هلّا ساعدتني على تغطية كراب المسكين أيها الفارس؟».

أجابَ السير هايل: «لا فارس حقيقيًا يَرفُض طلبًا لهذا الجمال»، ونزلَ من على الثور، ومعًا كوّما التُّراب فوق جثّة ديك الرّشيق بينما ارتفع القمر أكثر في السّماء وما فتأت رؤوس الملوك المنسيّين تتهامَس الأسرار تحت الأرض.

---

(59) الأوجر كائن أسطوري شبيه بالغول، يُوصف بضخامة البدن والرّأس وغزارة الشّعر والنّهم الوحشي والقوّة البدنيّة الخارقة، وقد ظهرَ أولًا في الحكايات الشّعبيّة الفرنسيّة. (المترجم).

تحت شمس (دورن) الحارقة تُقاس الثّروة بالمياه كما تُقاس بالذّهب، ولذا توضَع الآبار كلّها تحت حراسةٍ مشدّدة. على أن البئر في (شانديستون) جفّت قبل مئة عام، ورحلَ خزّاسها إلى مكانٍ أكثر بللًا هاجرين معقلهم المتواضع بأعمدته المحزّزة وقناطره الثّلاثيّة، وبَعدها عادَت الرّمال تزحف على المكان مستردّةً ما لها.

وصلَت آريان مارتل مع دراي وسيلفا بينما تميل الشّمس إلى المغيب، والغرب لوحة مزدانة بالذّهبي والأرجواني والسّحاب يتوهّج بالقرمزي. بدَت الأطلال متوهّجة أيضًا، إذ برقَت الأعمدة السّاقطة بلونٍ وردي، وزحفَت الظّلال الحمراء على الأرضيّات الحجريّة المتشقّقة، واستحالَت الرّمال نفسها من الذّهبي إلى البرتقالي إلى الأرجواني مع خفوت الضّوء شيئًا فشيئًا. كان جارين قد سبقهم إلى الوصول بساعة، والفارس المسمّى النّجم المظلم بيوم.

علّق دراي بينما يُساعِد جارين على سقي الخيول: «المكان جميل هنا». كانوا قد حملوا ماءهم معهم، فعلى الرغم من أن جياد الصّحراء الدورنيّة سريعة لا تكلّ، وتستطيع الاستمرار في العدو فراسخ طويلةً بعد أن يُصيب الإعياء عداها من الخيول، فإنها لا تقوى على ذلك دون ماء. «كيف عرفتِ هذا المكان؟».

أجابَت آريان والذّكرى ترسم ابتسامةً على شفتيها: «عمّي جاء بي هنا مع تايين وساريلا. اصطادَ بعض الأفاعي وأرى تايين الطّريقة الأسلم لاستحلاب الزُّعاف منها. ساريلا قلبَت الصّخور ونفضَت الرّمل عن الصّور الفسيفساء وأرادَت أن تعرف كلّ شيءٍ عمّن عاشوا هنا».

سألَتها سيلفا الرّقطاء: «وماذا فعلتِ أنتِ أيتها الأميرة؟».

جلستُ إلى جوار البئر وتظاهرتُ بأن فارسًا لصًا أتى بي هنا لينال مني مناله، رجلًا طويلًا صُلبًا عيناه سوداوان وينحسر شَعره عن مقدِّمة *رأسه*. قالت وقد أصابَتها الذِّكرى بالاضطراب: «استغرقتُ في الأحلام، ولمَّا غابَت الشَّمس جلستُ مربِّعةً ساقَيَّ عند قدمَي عمِّي وناشدته أن يحكي قصَّةً».

- «الأمير أوبرين كان يعرف قصصًا عديدةً». جارين أيضًا كان معهم يومها. إنه أخو آريان في الرَّضاعة، وطيلة حياتهما والاثنان متلازمان حتى من قبل أن يتعلَّما المشي. «أذكرُ أنه حكى عن الأمير جارين الذي سُمِّيتُ على اسمه».

أضافَ دراي: «جارين العظيم، أعجوبة (الروين)».

- «هو ذا، الذي جعلَ (ڤاليريا) ترتجف».

قال السير چيرولد: «ارتجفوا ثم قتلوه. إذا قدتُ رُبع مليون رجل إلى حتفهم فهل سيُسمُّونني چيرولد العظيم؟»، وأطلقَ نخيرًا ساخرًا، وأردفَ: «أظنُّني سأبقى النَّجم المظلم، فهو اسمي على الأقل»، واستلَّ سيفه الطَّويل وجلسَ على حافة البئر الجافَّة وبدأ يشحذ النَّصل بحجرٍ زيتي.

راقبَته آريان بحذرٍ مفكِّرةً: *نَسبه رفيع كفايةً لأن يكون أهلًا لي كزوج. سيُشكِّك أبي في سلامة اختياري، لكن أطفالنا* سيكونون *أبهياء كسادة التِّنانين*. إذا كان هناك رجل أوسم في (دورن) فإنها لا تعرفه. للسير چيرولد داين أنف معقوف وعظام وجنتين مرتفعة وفَكٌّ قوي، ويُحافِظ على وجهه حليقًا لكن شَعره الكثيف ينسدل حتى ياقته كنهرٍ من الجليد الفضِّي، ويقسمه من المنتصف خطٌّ أسود كاللَّيل. *لكن فمه قاسٍ، ولسانه أقسى*. بدَت عيناه سوداوين وهو جالس محدِّدًا بنور الشَّمس المحتضرة يشحذ فولاذه، لكنها نظرَت إليهما من زاويةٍ أقرب من قبل وتعلم أنهما أرجوانيَّتان. *أرجوانيَّتان داكنتان، داكنتان وغاضبتان*.

لا بُدّ أنه شعرَ بتحديقها إليه، إذ رفعَ عينيه عن سيفه ولاقى نظرتها بنظرته وابتسمَ، وأحسّت آريان بالحرارة تسري في وجهها. *لم يكن عليّ أن أجلبه. إذا رمقَني بنظرةٍ كهذه في وجود آريس سُرّاق النّماء على الرّمال*. إلّا أنها تجهل دماء مَن، فالعادة جرَت على أن رجال الحرس الملكي أفضل فُرسان (الممالك السّبع) على الإطلاق... لكن النّجم المظلم هو النّجم المظلم.

على الرّمال يشتدُّ البرد في ليالي (دورن)، ولذا جمعَ لهم جارين الحطب من فروع الأشجار البيضاء التي ذبلَت وماتَت منذ مئة سنة، وتولّى دراي إشعال النّار وهو يصفر بينما يقدح الشّرر بحجر صوّان.

ما إن شبّ اللّهب في الحطب حتى جلسوا حوله ممرّرين قِربةً من النّبيذ الصّيفي من يدٍ إلى يد... باستثناء النّجم المظلم الذي يُفضّل شرب عصير اللّيمون غير المحلّى. كان جارين في مزاجٍ مرحٍ وسلّاهم بأجدد الحكايات من (بلدة الأخشاب) عند مصبّ (الدّم الأخضر)، حيث يأتي أيتام النّهر للتّجارة مع القراقير والأكواج والقوادس الآتية من وراء (البحر الضّيّق). إذا صدقَ البحّارة فالشّرق يغلي بالأعاجيب والأهوال. ثورة عبيدٍ في (أستابور)، وتنانين في (كارث)، وطاعون أرمد في (يي تي)، وملك قراصنةٍ جديد ظهرَ في (جُزر البازيليسق)[60] وشنّ غارةً على (بلدة الأشجار الطّويلة)، وفي (كوهور) أثارَ أتباع الرّهبان الحمر شغبًا وحاولوا إحراق الكبش الأسود. «والجماعة الذّهبيّة فسخَت عقدها مع (مير) قُبيل دخول المايريّين الحرب ضد (لِيس)».

قالت سيلفا مخمّنةً: «اللايسينيّون اشتروهم».

عقّب دراي: «اللايسينيّون الأذكياء، اللايسينيّون الأذكياء الجُبناء».

لكن آريان تعرف خيرًا عنهم. *إذا كانت الجماعة الذهبيّة وراء* كوينتن... «تحت الذهب الفولاذ الأليم» هتافهم في المعارك. *ستحتاج إلى الفولاذ الأليم وأكثر يا أخي إذا كنت تفكّر في تنحيتي.* آريان محبوبة في (دورن)، أمّا كوينتن فلا يعرفه إلّا قلائل، ولا جماعة من المرتزقة يمكنها أن تغيّر هذا.

قام السير چيرولد قائلًا: «أظنّ أني سأذهب لأتبوّل».

قال دراي محذّرًا: «انتبه لموطئ قدميك. لقد مرّت فترة طويلة منذ استجلبَ الأمير أوبرين الأفاعي في هذه الأنحاء».

ردّ السير چيرولد: «لقد قطمت على الزّعاف يا دالت. الأفعى التي تلدغني ستندم»، واختفى تحت قنطرةٍ مكسورة.

حين رحلَ تبادلَ الآخرون نظرةً، وقال جارين برفق: «اعذريني أيتها الأميرة، لكن هذا الرّجل لا يروقني».

قال له دراي: «مؤسف. أعتقد أنه شبه واقع في غرامك».

ردّت آريان مذكّرةً إياهم: «إننا محتاجون إليه. ربما نحتاج إلى سيفه، ومؤكّد أننا سنحتاج إلى قلعته».

عقّبت سيلفا الرّقطاء: «(الصّومعة العالية) ليست القلعة الوحيدة في (دورن)، ثم إن معكِ فرسانًا آخرين يحبّونكِ للغاية. دراي فارس».

أيّدها قائلًا: «نعم، وأملك حصانًا رائعًا وسيفًا ممتازًا، ولا يفوقني شجاعةً... إلّا كثيرون في الحقيقة».

قال جارين: «عدّة مئات على الأرجح أيها الفارس».

تركتهم آريان لمزاحهم. دراي وسيلفا الرّقطاء أعزّ أصدقائها علاوةً على تايين ابنة عمّها، وجارين يُعابثها منذ كان كلاهما يرضع من ثديَي أمّه، لكنها في هذه اللّحظة تحديدًا ليست في مزاج مزاح. كانت الشّمس قد غابت وامتلأت السّماء بالنّجوم. كثيرة جدًا. أسندت ظَهرها إلى عمودٍ محزّز وتساءلَت إن كان أخوها يتطلّع إلى النّجوم نفسها اللّيلة أينما كان. *هل ترى النّجم الأبيض يا كوينتن؟ هذا نجم نايميريا المتّقد، والكوكبة البيضاء كالحليب وراءه سُفنها العشرة آلاف. لقد بارَت الرّجال جميعًا في الألق، وكذا سأكونُ أنا. لن تسلبني حقّ ميلادي!*

كان كوينتن حديث السّنّ حين أُرسِلَ إلى (يرونوود)، صغيرًا للغاية حسب تعبير أمّها. ليس من تقاليد النورفوشيّين أن يُرسلوا أطفالهم إلى غيرهم ليُرَبُّوهم، والليدي ميلاريو لم تغفر للأمير دوران قطّ إبعاده ابنها عنها. في مرّةٍ سمعت آريان أباها مصادفةً يقول: «الأمر لا يروقني أكثر منكِ، لكن هناك دين دم، وكوينتن العملة الوحيدة التي سيقبلها اللورد أورموند».

صرخَت أمّها: «عملة؟! إنه ابنك! أيّ صنفٍ من الآباء يُسدّد ديونه بلحمه ودمه؟».

أجابَ دوران مارتل: «صنف الأمراء».

ما زالَ الأمير دوران يتظاهَر بأن أخاها مع اللورد يرونوود، لكن أم جارين رأته في (بلدة الأخشاب) متنكّرًا في هيئة تاجر. لأحد رفاقه عين كسول، تمامًا مِثل كليتوس يرونوود ابن اللورد آندرز الشّهواني، وفي صحبتهما مِايستر أيضًا. مِايستر ضليع في اللُّغات. *أخي ليس بالذّكاء الذي يخاله. كان رجل ذكي ليُغادِر من (البلدة القديمة)، حتى إذا كان ذلك يعني رحلةً أطول في البحر. في (البلدة القديمة) كانت فُرصة أن يتعرّفه أحد ضعيفةً.* لآريان أصدقاء وسط أيتام (بلدة الأخشاب)، وقد شعرَ بعضهم بالفضول إزاء سفر أميرٍ وابن لورد تحت اسمين مستعارَيْن وسعيهما إلى عبور (البحر الضيّق). في ليلةٍ تسلّل أحدهم من نافذةٍ وعالجَ قفل صندوق كوينتن المتين، ووجدَ لفائف الرُّقوق في الدّاخل.

كانت آريان لتدفع ثمنًا باهظًا كي تعلم أن هذه الرّحلة السرّيّة عبر (البحر الضيّق) من صُنع أخيها كوينتن وحده... لكن الوثائق التي يحملها مختومة بشمس (دورن) وحربتها. لم يجرؤ ابن عمّ جارين على كسر الأختام ليقرأ محتوياتها، ولكن...

- «سموّ الأميرة»، قال السير جيرولد داين إذ وقفَ وراءها، نِصفه في ضوء النّجوم ونِصفه في الظّلال.

سألَته آريان بخُبث: «كيف كان تبوُّلك؟».

قال داين: «الرّمال في غاية الامتنان»، ووضعَ قدمه على رأس تمثالٍ ربما كان لـ(العذراء) قبل أن تطمس الرّمال ملامحه، وأردفَ: «خطرَ لي وأنا أتبوّلُ أن خطّتكِ هذه قد لا تُثمِر ما تُريدينه».

- «وما الذي أريده أيها الفارس؟».

- «إطلاق سراح أفاعي الرّمال، الانتقام لأوبرين وإليا. أعرفُ تلك الأغنيّة. تُريدين تذوّق دماء الأسد».

هذا، وحقّي في الميلاد. أريدُ (صنسبير) ومقعد أبي، أريدُ (دورن). «أريدُ العدل».

- «أسميه كما تشائين. تتويج ابنة لانستر لفتة فارغة. إنها لن تجلس على العرش الحديدي أبدًا، ولن تنالي الحرب التي تُريدينها. الأسد لا يُستفَزُّ بسهولة».

- «الأسد مات. مَن يدري أيَّ الشبلين المتبقِّيين تُفضِّل اللَّبؤة؟».

قال السير چيرولد: «الشبل الذي في عرينها»، وامتشقَ سيفه ليَبرُق في ضوء النُّجوم بحدَّة الأكاذيب، وتابعَ: «هكذا تبدئين حربًا، ليس بتاجٍ من ذهب وإنما بنصلٍ من فولاذ».

لستُ قاتِلة أطفال. «أغمِد هذا الشيء. مارسلا تحت حمايتي، والسير آريس لن يسمح بأن يمسَّ أميرته الغالية أذى، وأنت تعلم هذا».

- «لا يا سيِّدتي. ما أعلمه أن آل داين يُقتِّلون آل أوكهارت منذ آلاف السِّنين».

ردَّت وقد أذهلَتها غطرسته: «يبدو لي أن آل أوكهارت كانوا يُقتِّلون آل داين طيلة الفترة نفسها».

دسَّ النَّجم المظلم سيفه في غِمده قائلًا: «كلُّنا لنا تقاليدنا العائليَّة. القمر يطلع، وأرى رجلكِ القُدوة يقترب».

بصره ثاقب حقًّا. راكب الجواد الحربي الرَّمادي الطَّويل هو السير آريس بالفعل، يخفق معطفه وراء ظهره في منظرٍ بهي بينما ينطلق على الرِّمال، وقد ركبَت الأميرة مارسلا وراءه متدثِّرةً بمعطفٍ مزوَّد بقلنسوةٍ تُخفي خُصلاتها الذَّهبيَّة.

ساعدَها السير آريس على النُّزول، وجثا دراي على رُكبةٍ واحدة أمامها قائلًا: «جلالة الملكة».

وقالت سيلفا الرُّقطاء إذ جثت إلى جواره: «مولاتي».

وقال جارين راكعًا على كلتا رُكبتيه: «أنا رجلكِ يا مليكتي».

أمسكَت مارسلا ذراع السير آريس حائرةً، وسألَته بنبرةٍ وجِلة: «لماذا يدعونني بجلالة الملكة؟ سير آريس، ما هذا المكان ومَن هؤلاء؟».

ألم يُخبِرها بشيء؟ تقدّمت آريان في دوّامة من الحرير، وابتسمت لتُطمئِن الطفلة قائلةً: «إنهم أصدقائي الأوفياء المخلصون يا جلالة الملكة... ويرغبون في أن يُصبِحوا أصدقاءك أيضًا».

قالت مارسلا: «الأميرة آريان»، واحتضنتها متسائلةً: «لماذا يدعونني بالملكة؟ هل حدث شيء لتومن؟».

أجابتها آريان: «لقد تورّط مع أناس أشرار يا جلالة الملكة، وأخشى أنهم تآمروا معه على سرقة عرشكِ».

قالت الفتاة وقد تضاعفت حيرتها: «عرشي؟ تعنين العرش الحديدي؟ لكنه لم يسرقه. تومن...».

- «... أصغر منكِ قطعًا، أليس كذلك؟».

- «أنا أكبره بعام».

قالت آريان: «ومعنى هذا أن العرش الحديدي حقُّكِ. أخوكِ مجرّد صبيّ صغير ويجب ألّا تلوميه. مستشاروه هم السيّئون... أمّا أنتِ فلكِ أصدقاء. هلّا منحتِني شرف تقديمهم؟»، وأمسكت يد الطفلة قائلةً: «جلالة الملكة، أقدّمُ لك السير آندراي دالت وريث (غابة الليمون)».

- «أصدقائي يَسمّونني دراي، وسيكون شرفًا عظيمًا لي أن تدعوني صاحبة الجلالة بالاسم نفسه».

على الرغم من وجه دراي الصّريح وابتسامته العفويّة رمقته مارسلا بحذرٍ قائلةً: «حتى أعرفك عليّ أن أدعوك بالفارس».

- «أنا رجل صاحبة الجلالة أيًا كان الاسم الذي تُفضّله».

تنحنحت سيلڤا إلى أن قالت آريان: «اسمحي لي بأن أقدّم الليدي سيلڤا سانتاجار يا مولاتي، سيلڤا الرّقطاء صديقتي الأعز».

سألت مارسلا: «لماذا يُطلِقون عليكِ هذا اللّقب؟».

أجابتها سيلڤا: «بسبب نمَشي يا جلالة الملكة، مع أنهم يتظاهرون جميعًا بأن السّبب أني وريثة (الغابة الرّقطاء)».

حانَ دور جارين ببنيته الرّشيقة وبشرته السّمراء وأنفه الطّويل وحِليةٍ من اليَشب في إحدى أذنيه، وقالت آريان: «هذا جارين اليتيم المرِح. أمّه كانت مُرضعتي».

قالت مارسلا: «آسفةٌ لأنها ماتت».

ردّ جارين: «لم تَمُت يا ملكتنا الجميلة»، وابتسمَ كاشفًا عن السّنّ الذّهبيّة التي ابتاعتها له آريان بدلًا من التي كسرَتها، وأضافَ: «سيّدتي تعني أني من أيتام (الدّم الأخضر)».

ستجد مارسلا وقتًا يكفي لأن تتعلّم تاريخ الأيتام في أثناء رحلتها في النّهر، وهكذا قادَت آريان ملكتها المقبلة إلى العضو الأخير في مجموعتها الصّغيرة، وقالت: «أخيرًا -ولكن أولًا في الشّجاعة- أقدّمُ لكِ السير چيرولد داين فارس (ستارفول)».

جثا السير چيرولد على رُكبته، ولمعَ ضوء النّجوم في عينيه الدّاكنتين إذ رمقَ الفتاة ببرود، وقالت مارسلا: «كان هناك آرثر داين، كان فارسًا في الحرس الملكي في عهد الملك المجنون إيرس».

- «كان سيف الصّباح. لقد مات».

- «وأنت سيف الصّباح الآن؟».

- «لا، يدعونني بالنّجم المظلم. إنني ابن اللّيل».

سحبَت آريان الطّفلة قائلةً: «لا بُدّ أنكِ جائعة. معنا تمر وجُبنة وزيتون وعصير ليمون محلّى، لكن لا يَجدُر بكِ أن تأكلي أو تشربي كثيرًا. بَعد راحةٍ قصيرة علينا أن نتحرّك. هنا على الرّمال الأفضل دائمًا أن نتحرّك ليلًا قبل أن تطلع الشّمس في السّماء، رفقًا بالخيول».

أضافَت سيلفا الرّقطاء: «وبالرّاكبين. هلمّي يا صاحِبة الجلالة، دفّئي نفسكِ. من دواعي شرفي أن تسمحي لي بتقديم الطّعام لكِ».

وبينما قادَت سيلقا الأميرة إلى النّار وجدَت آريان السير چيرولد وراءها يقول متذمّرًا: «تاريخ عائلتي يعود عشرة آلاف عام إلى فَجر الزّمان، فلِمَ لا يَتذكّر النّاس مِن آل داين كلّهم إلّا ابن عمومتي؟».

علّق السير آريس أوكهارت: «كان فارسًا عظيمًا».

ردّ النّجم المظلم: «كان سيفه عظيمًا».

قال السير آريس: «وقلبه أيضًا». وأخذَ آريان من ذراعها قائلًا: «سموّ الأميرة، اسمحي لي بلحظةٍ على انفراد».

- «تعالَ». قادَت السير آريس وتوغّلت به أكثر بين الأطلال. تحت معطفه يرتدي الفارس سترةً من قُماش الذّهب مطرّزة بورقات السّنديان الثّلاث رمز عائلته، وعلى رأسه خوذة فولاذيّة خفيفة تعلوها ريشة محزّزة ومربوط عليها وشاح أصفر على الطّريقة الدورنيّة. كان يُمكن أن يحسبه النّاس فارسًا تقليديًا لولا معطفه المفضّل من الحرير الأبيض النّاصع، شاحب كنور القمر وخفيف كالنّسيم. *معطف فارسٍ في الحرس الملكي دون أدنى شكّ. الأحمق النّبيل*. سألَته: «ما الذي تعرفه الطّفلة؟».

- «القليل. قبل أن نُغادر (كينجز لاندنج) ذكّرها خالها بأني حاميها وقال لها إن أيّ أوامر أمليها عليها الغرض منها الحفاظ على سلامتها. هي أيضًا سمعَتهم في الشّوارع يهتفون مطالبين بالثّأر، وتعرف أن هذه ليست لُعبةً. الفتاة شُجاعة وحكمتها تفوق سِنّها. لقد فعلَت كلّ ما طلبته منها ولم تُلقِ سؤالًا واحدًا». وأمسكَ الفارس ذراعها وتلفّت حوله، ثم خفضَ صوته قائلًا: «هناك أخبار أخرى يجب أن تعرفيها. تايوين لانستر ماتَ».

ردّدت مصدومةً: «ماتَ؟».

- «قتلَه العفريت. الملكة تولّت الوصاية على العرش».

- «حقًّا؟». *امرأة على العرش الحديدي؟* تفكَّرت آريان في الأمر لحظةً ثم قرَّرت أنه في صالحها. إذا ألف لوردات (الممالك السَّبع) حُكم الملكة سرسي فسيكون ركوعهم للملكة مارسلا أسهل كثيرًا. ثم إن اللورد تايوين كان خصمًا خطرًا، وفي غيابه أعداء (دورن) أضعف كثيرًا. *أولاد لانستر يَقتلون أولاد لانستر، رائع*. «وماذا جرى للقزم؟».

قال السير آريس: «هربَ. سرسي عرضَت اللورديَّة على من يأتيها برأسه أيًّا كان».

في ساحةٍ داخليَّة مفروشة بالبلاط وتكاد الرِّمال المنجرفة تدفنها دفعَ الفارس ظَهر الأميرة إلى عمودٍ ليُقبِّلها ووضعَ يده على ثديها. قبَّلها بشبقٍ طاغٍ، وكان ليرفع تنُّورتها لولا أن آريان تملَّصت منه ضاحكةً، وقالت: «أرى أن صناعة الملكات تُثيرك أيها الفارس، لكن لا وقت لهذا الآن. لاحقًا، أعدك»، ومسَّت وجنته متسائلةً: «هل قابلَتكم مشكلة؟».

- «تريستان فقط. أرادَ أن يجلس إلى جوار فِراش مارسلا ويلعب معها السايفاس».

- «قلتُ لك إنه أصيبَ بداء البُقع الحمراء وهو في الرَّابعة. المرء يُصاب به مرَّةً فقط في العُمر. كان عليك أن تُذيع أن مارسلا مصابة بالدَّاء الأرمد ليبتعد عنها تمامًا».

- «الصَّبي ربما، ولكن ليس مِايستر أبيكِ».

- «كاليوت. هل حاولَ أن يراها؟».

- «ليس بَعد أن وصفتُ له البُقع الحمراء على وجهها. قال إن لا شيء في الإمكان حتى يجري المرض مجراه، وأعطاني جرَّة من المرهم لتهدئة الحكَّة».

لا أحد دون العاشرة يموت من البُقع الحمراء أبدًا، لكن من شأن الدَّاء أن يكون مميتًا للكبار، والمِايستر كاليوت لم يُصَب به في صِغره كما علمت آريان حين أصابها الدَّاء نفسه في الثَّامنة. «عظيم. وماذا عن الوصيفة؟ أهي مقيَّدة؟».

- «من بعيد. العِفريت انتقاها لهذا الشبب من بين فتياتٍ كثيرات كريمات المحتد. مارسلا ساعدَتها على تجعيد شَعرها ورسمَت البُقع على وجهها بنفسها. إنهما قريبتان من بعيد. (لانسپورت) تعجُّ بآل لاني وآل لانيت وآل لانتل والفروع الأدنى من عائلة لانستر، وبِصفهم له الشَّعر الأصفر نفسه. الفتاة ترتدي معطف نوم مارسلا ووجهها ملطّخ بمرهم المِايستر.. كانت لتخدعني أنا نفسي في إضاءةٍ خافتة. الأصعب كان عثوري على رجلٍ يأخذ مكاني. دايك الأقرب إلى طولي لكنه أسمن من اللّازم، فألبستُ رولدر دِرعي وقلتُ له أن يخفض مقدّمة خوذته. إنه أقصر مني بثلاث بوصات، لكن ربما لا يلحظ أحد الفرق إذا لم أكن هناك لأقف إلى جواره. سيلزم مسكن مارسلا على كلّ حال».

- «لا نحتاج إلّا إلى أيامٍ قليلة فقط، وعندئذٍ ستكون الأميرة قد ابتعدَت عن متناول أبي».

سحبَها إليه ومرّغ أنفه في رقبتها متسائلًا: «أين؟ حانَ الوقت لأن تُخبِريني ببقيّة خطّتكِ، أليس كذلك؟».

دفعَته ضاحكةً، وقالت: «لا، حانَ وقت الرُّكوب».

كان القمر قد توّج كوكبة (عذراء القمر) عندما خرجوا من أطلال (شانديستون) المغبّرة الجافّة متّجهين جنوبًا وغربًا. قادتهم آريان والسير آريس وبينهما مارسلا على متن فَرسٍ رشيقة، وعلى مقربةٍ تبعهم جارين مع سيلقا الرّقطاء، بينما ركِبَ الفارسان الدورنيّان في المؤخّرة. *نحن سبعة*. أدركَت آريان هذا وهم راكبون، ولم تكن قد فكّرت فيه من قبل، إلّا أنه بدا لها بشيرَ خيرٍ لقضيّتهم. *سبعة راكبين في طريقهم إلى المجد. ذات يومٍ سيُخلّدنا جميعًا المغنّون*. أرادَ دراي مجموعةً أكبر، لكن ذلك كان ليلفت انتباهًا غير مرغوب، كما أن كلّ رجلٍ إضافي يُضاعِف خطر الخيانة. *أبي علّمني هذا القدر على الأقل*. حتى في وقت تمتّعه بالشّباب والقوّة كان دوران مارتل رجلًا حذرًا يجنح كثيرًا إلى الصّمت والسرّيّة. *آنَ أوان أن يتخلّى عن الأعباء التي تُثقِل كاهله، لكني لن أسمح بإهانةٍ لشرفه أو لشخصه*. سأُعيده إلى حدائقه المائيّة ليعيش ما تبقّى له من عمرٍ محاطًا بالأطفال الضّاحكين وروائح اللّيمون والبرتقال. *نعم، وليُصاحِبه كوينتن. حالما أتوّج مارسلا وأطلق سراح أفاعي الرّمال ستحتشد (دورن) أجمعها تحت رايتي*. ربما يُعلِن آل يرونوود تأييدهم كوينتن، لكنهم لا يُشكّلون تهديدًا بمفردهم، وإذا منحوا تومن وآل لانستر ولاءهم فستجعل النّجم المظلم يستأصلهم من جذورهم.

قالت مارسلا بعد عدّة ساعاتٍ من الرّكوب: «أنا متعبة. أما زالَ المكان بعيدًا؟ أين نحن ذاهبون؟».

أجابها السير آريس مطمئنًا: «الأميرة آريان تأخذ جلالتكِ إلى مكانٍ تكونين آمنةً فيه».

قالت آريان: «إنها رحلة طويلة، لكنها ستصبح أسهل ما إن نبلُغ (الذّم الأخضر). سيُقابلنا بعض قوم جارين هناك، أيتام النّهر. إنهم يعيشون على القوارب ويسوقونها في (الذّم الأخضر) وروافده، يصطادون السّمك ويقطفون الفواكه ويقومون بالأعمال الضّروريّة».

صاح جارين بمرح: «نعم، ونُغنّي ونلعب ونرقُص على الماء، ونعرف الكثير من فنون العلاج. أمّي أفضل قابلة في (وستروس)، وأبي يستطيع شفاء الثّآليل».

سألَت الفتاة: «كيف تكونون أيتامًا ولكم أمّهات وآباء؟».

فسّرت آريان قائلةً: «إنهم الرّوينار، وأمُّهم كانت نهر (الروين)».

قالت مارسلا التي لم تفهم: «حسبتكم أنتم الرّوينار، أنتم الدورنيّون أعني».

- «نحن كذلك جزئيًا يا جلالة الملكة. إن دماء نايميريا في عروقي، وكذا دماء مورس مارتل، اللورد الدورني الذي تزوّجته. يوم زفافهما أضرمَت نايميريا النّار في سُفنها كي يفهم قومها أن لا سبيل للعودة. سُرّ أغلبهم لرؤية اللّهب لأن رحلتهم كانت طويلةً شنيعةً قبل وصولهم إلى (دورن)، وفقدوا كثيرين منهم بسبب العواصف والأمراض والنّخّاسين. على أن بعضهم حزن، أولئك الذين لم يحبّوا هذه الأرض الحمراء الجافّة أو آلهتها السّبعة، فتمسّكوا بعاداتهم القديمة وبنوا قوارب من أبدان السُّفن المحروقة وأصبحوا أيتام (الذّم الأخضر). الأم في أغانيهم ليست (الأم) إلهتنا، وإنما (الأم الروين) التي غذّتهم مياهها منذ فجر الزّمان».

قال السير آريس: «سمعتُ أن الرّوينار لهم إله سُلحفاة».

أجابَه جارين: «رجل النّهر العجوز إله أدنى. هو أيضًا وُلِدَ من النّهر الأم، وقاتَلَ ملك السّراطين ليظفر بالهيمنة على كلّ ما يحيا تحت المياه الجارية».

غمغمت مارسلا: «أوه».

قال دراي بأكثر نبراته مرحًا: «بلغني أنكِ خُضتِ معارك ضروسًا أيضًا يا جلالة الملكة. يُقال إنكِ لا تُرين أميرنا الشُّجاع تيريستان رحمةً على طاولة السايڤاس».

قالت مارسلا: «إنه يرضُ قطعه بالطَّريقة نفسها دائمًا، الجبال كلُّها في المقدِّمة والأفيال في الممرَّات، فأرسلُ تنّينتي لتأكل أفياله».

سألَها دراي: «هل تلعب وصيفتكِ السايڤاس أيضًا؟».

- «روزاموند؟ لا. حاولتُ أن أعلِّمها لكنها قالت إن القواعد صعبة للغاية».

سألَتها الليدي سيلڤا: «أهي من عائلة لانستر أيضًا؟».

- «لانستر من (لانسپورت) لا (كاسترلي روك). شَعرها لونه كشَعري، لكنه مفرود بدلًا من مجعَّد. روزاموند لا تُشبِهني حقًّا، لكن حين ترتدي ثيابي يظنُّها من لا يعرفوننا أنا».

- «هل فعلتما هذا من قبل إذن؟».

- «أوه، نعم. لقد تبادلنا الأماكن على متن (مِغوار البحر) في الطَّريق إلى (براڤوس). السّيِّدة إجلانتين صبغَت شَعري بالبنِّي وقالت إنها لُعبة، لكن الغرض كان حمايتي في حال استيلاء عمِّي ستانيس على السَّفينة».

كان واضحًا أن الفتاة تزداد إرهاقًا، فدعتهم آريان إلى التَّوقُّف. سقوا الخيول ثانيةً واستراحوا قليلًا وأكلوا الجُبنة والفواكه، واقتسمت مارسلا بُرتقالةً مع سيلڤا الزُّقطاء، بينما أكلَ جارين الزَّيتون وبصق النَّوى على دراي.

كانت آريان تأمل أن يَبلُغوا النّهر قبل مطلع الشّمس، لكنهم بدأوا رحلتهم بَعد الوقت المزمع بفترةٍ طويلة، ولذا كانوا ما زالوا على متون خيولهم حين اصطبغَت سماء الشّرق بالأحمر. لحقَ النّجم المظلم بها قائلًا: «أيتها الأميرة، يَحسُن أن نُسرِع ما لم تكوني تنتوين قتل الفتاة حقًّا. ليست معنا خيام، والرّمال قاسية بالنّهار».

قالت له: «أعرفُ الرّمال مِثلك تمامًا أيها الفارس»، ومع ذلك نفّذت اقتراحه، وهو ما شَقَّ على دوابّهم، لكن خسارة ستّة أحصنة خير من خسارة أميرة واحدة.

سرعان ما بدأت الرّيح تهبُّ من الغرب ساخنةً جافّةً ومحمّلةً بحُبيبات الرّمل. سحبَت آريان على وجهها لثامًا من الحرير البرّاق، من أعلى أخضر باهت ومن أسفل أصفر، وكلا اللّونين مندمج في الآخَر، وقد أضافَت لآلئ خضراء صغيرة مزيدًا إلى وزنه وخشخشَت بنعومةٍ بينما تركب.

قال السير آريس وهي تُثبّت لثامها بصُدغَي خوذتها النّحاسيّة: «أعرفُ لِمَ تُلثّم أميرتي وجهها. إذا لم تفعل فسيفوق جَمالها الشّمس سطوعًا».

ضحكَت رغمًا عنها، وقالت: «لا، أميرتك تُلثّم وجهها لتقي عينيها من الوهج وفمها من الرّمال. حريٌّ بك أن تفعل المِثل أيها الفارس». تساءلَت منذ متى يُنقّح فارسها الأبيض مجامَلته السّمجة هذه. السير آريس صُحبة سارّة في الفِراش، لكنه وخفّة الظّلّ غريبان.

غطّى رفاقها الدورنيّون وجوههم مِثلها، وساعدت سيلفا الرّقطاء الأميرة الصّغيرة على وقاية وجهها من الشّمس، إلّا أن السير آريس ظلَّ عنيدًا، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يسيل العَرق على وجهه وتتورّد وجنتاه بلونٍ وردي. *فترة أطول قليلًا وسينشوي في هذه الملابس الثّقيلة*. لن يكون الأول، ففي القرون المنصرمة دخلَ أكثر من جيش (دورن) من (ممر الأمير) تحت الرّايات الخفّاقة، فقط ليذوي كلٌ منهم وتشويه الرّمال الدورنيّة الشّاخنة. في كتابه المتباهي (غزو دورن) كتبَ التّنين الصّغير قائلًا: «*رمز عائلة مارتل يتكوّن من شمس وحربة، وهما سلاحا الدورنيين المفضّلان، لكن بين الاثنين الشّمس مميتة أكثر*».

لحُسن الحظّ أنهم لا يحتاجون إلى التّوغّل في الرّمال وإنما إلى قطع مساحةٍ محدودة من الأراضي الجافّة لا أكثر، ولمّا لمحت آريان صقرًا يدور بعيدًا أعلاهم تحت سماءٍ بلا سحاب علمَت أن الأسوأ صارَ وراءهم بالفعل، وسرعان ما صادَفوا شجرةً. صحيحٌ أنها ملتوية كثيرة العُقد وأشواكها تُعادِل أوراقها -ككلّ الأشجار التي تنتمي إلى النّوع المسمّى شحّاذ الرّمال- لكن وجودها يعني أنهم ليسوا بعيدين الآن عن الماء.

- «كدنا نصل يا جلالة الملكة»، قال جارين لمارسلا ببشاشةٍ عندما لمحَ مزيدًا من شخاذي الرِّمال أمامهم، دغلًا منها ينمو حول قاع جدولٍ جاف. كانت الشَّمس تهوي عليهم بضرباتها كمطرقةٍ ناريّة، لكن هذا لا يهمُّ ما دامت رحلتهم قُرب نهايتها. توقَّفوا لسقي الخيول مرَّةً أخرى ونهلوا من قِربهم وبلَّلوا لُثمهم، ثم عادوا يركبون توطئةً للمرحلة الأخيرة، وخلال نِصف فرسخٍ كانوا يطئون الغشب الشّيطاني ويمرُّون ببساتين الزَّيتون، ووراء خطٍّ من التِّلال الحجريّة أصبحَ الغشب أكثر اخضيضابًا ونضارةً، وثمَّة بساتين ليمون ترويها شبكة من القنوات القديمة. كان جارين أول من لمحَ النّهر يلتمع بالأخضر، فأطلقَ صيحةً وانطلقَ سابقًا إياهم.

ذات مرَّةٍ عبرَت آريان مارتل نهر (الماندر) حين ذهبَت مع ثلاثةٍ من أفاعي الرِّمال لزيارة أم تايين، ومقارنةً بذلك المجرى المائي العظيم يكاد (الدّم الأخضر) لا يستحقُّ أن يُسمَّى نهرًا، وعلى الرغم من ذلك يبقى شريان الحياة في (دورن). يستمدُّ النّهر اسمه من لون مياهه الرَّاكدة الأخضر الدّاكن، لكن مع دنوِّهم بدا أن نور الشّمس يصبغ تلك المياه بالذَّهبي. لم ترَ آريان منظرًا أجمل من قبل قَطُّ، وقالت لنفسها: *المفترَض أن يكون الجزء التّالي بطيئًا وبسيطًا، نتحرَّك في (الدّم الأخضر) ومنه إلى نهر (ڤايث)، أطول مسافةٍ يستطيع القارب أن يقطعها*. سيمنحها هذا وقتًا يكفي لإعداد مارسلا لما سيحدث. وراء (ڤايث) تنتظرهم الرِّمال العميقة، وسيحتاجون إلى عون (حجر الرِّمل) و(هضبة الجحيم) ليعبروها، لكنها لا تشك في استعدادهما للمساعدة. لقد تربّى الأفعوان الأحمر في (حجر الرِّمل)، وإلاريا ساند خليلة الأمير أوبرين ابنة اللورد أولر الطّبيعيّة، وأربع من أفاعي الرِّمال حفيداته. *سأتوِّج مارسلا في (هضبة الجحيم وأرفع راياتي هناك*.

وجدوا القارب على بُعد نِصف فرسخٍ في اتِّجاه المصب، متواريًا تحت الغصون المتدلِّية من صفصافةٍ خضراء ضخمة. القوارب التي تُدفَع بالعصيّ واطئة السَّقف وعريضة من المنتصَف وغاطِسها لا يُذكَر، وقد استخفَّ بها التنين الصَّغير باعتبارها «أكواخًا مبنيَّة على أطواف»، ولو أن ذلك ليس عادلًا حقًّا. جميع تلك القوارب باستثناء التي يملكها أفقر اليتامى محلًّى بنقوشٍ وألوانٍ أخَّاذة، وقاربهم هذا مطليٌّ بدرجات الأخضر، وله ذراع دفَّة خشبيَّة منحوتة على شكل عروس بحر، ومن حواجزه تطلُّ وجوه أسماك، وعلى سطحه تصطفُّ العصيّ والحبال وبرطمانات زيت الزَّيتون، ومن مقدِّمته ومؤخِّرته تتأرجح مصابيح حديديَّة. غير أن آريان لم ترَ أيًّا من الأيتام، وتساءلَت: *أين الطَّاقم؟*

أوقف جارين حصانه تحت الصَّفصافة، ونادى بينما وثبَ من فوق السَّرج: «استيقظوا أيها الكسالى. ملكتكم هنا وتُريد ترحيبها الملكي. هلمُّوا، اخرجوا. سنُغنِّي ونشرب النَّبيذ المحلَّى. فمي جاهز لـ...».

وانفتحَ باب القارب بعُنف، وإلى ضوء الشَّمس خرجَ آريو هوتا حاملًا فأسه الطَّويلة.

توقَّف جارين بحدَّة، وشعرَت آريان كأن بلطةً أصابَتها في بطنها. *لم يكن يُفترَض أن تكون هذه النِّهاية، لم يكن يُفترَض أن يَحدُث هذا!* ولمَّا سمعت دراي يقول: «آخِر وجهٍ كنتُ آملُ أن أراه»، علمَت أن عليها أن تتصرَّف، وصاحَت وهي تثب فوق حصانها من جديد: «ابتعدوا! سير آريس، احمِ الأميرة...».

دَقَّ هوتا سطح القارب بكعب فأسه الطَّويلة، ومن وراء الحواجز المنقَّقة نهضَت دستة من الحُرَّاس المسلَّحين بالحِراب والنُّشابيَّات، وظهرَ المزيد منهم فوق القمرة، ونادى قائدهم: «استسلمي يا أميرتي، وإلَّا فعلينا أن نَقتُل الجميع باستثنائكِ والطِّفلة بأمر أبيكِ».

ظلّت الأميرة مارسلا على متن فَرسها بلا حراك، وتراجعَ جارين بتؤدةٍ عن القارب رافعًا يديه، وحَلّ دراي حزام سيفه، وصاح مخاطبًا آريان إذ ارتطمَ السّيف بالأرض: «الاستسلام يبدو التّصرُّف الأسلم».

- «لا!»، صاح السير آريس أوكهارت ووضعَ حصانه بين آريان والشّابيّات وسيفه يلتمع فضّيًا في يده، وكان قد خلعَ تُرسه ودَسّ ذراعه في الأحزمة. «لن تأخذوها وفي صدري أنفاس تتردّد».

لم تجد آريان وقتًا إلّا لتقول له دون كلام: *أيها الأحمق المتهوّر ماذا تحسب نفسك فاعلًا؟*

ورَنّت ضحكة النّجم المظلم إذ قال: «أأنت أعمى أم غبي يا أوكهارت؟ إنهم كثيرون للغاية. اترك سيفك».

واستحثّه دراي قائلًا: «افعل كما يقول أيها الفارس».

أرادَت آريان أن تُناديه وتقول: *لقد وقعنا في الأسر أيها الفارس. موتك لن يُحرّرنا . إذا كنت تحبّ أميرتك فاستسلم،* لكن حين حاولَت أن تتكلّم احتبسَت الكلمات في حَلقها.

رمقَها السير آريس أوكهارت بنظرة اشتياقٍ أخيرة، ثم ضربَ حصانه بمهمزَيه الذّهبيّين وانقضّ.

انطلقَ صوب القارب مباشرةً ومعطفه الأبيض يخفق وراءه، ولم ترَ آريان مارتل في حياتها كلِّها شيئًا بهذه الشَّجاعة أو بهذه الحماقة. صرخَت: «لاااا!»، لكنها عثرَت على صوتها متأخِّرًا جدًّا. انطلقَ سهم نُشَّابيَّة ثم آخَر، وهدرَ هوتا بأمر. من هذه المسافة القصيرة فكأن دِرع الفارس الأبيض من ورق، فاخترقَ السَّهم الأول ترسه البلُّوطي الثَّقيل مثبِّتًا إياه إلى كتفه، وكشطَ الثَّاني فوده، في حين أصابَت حربة مقذوفة حصانه في الخاصرة، وعلى الرغم من هذا واصلَ الحصان الانقضاض وترنَّح إذ ارتطمَ بالمعبر الخشبي. كانت فتاة ما تصيح، فتاة صغيرة حمقاء تصيح: «لا، لا، أرجوكم، لم يكن يُفترَض أن يَحدث هذا»، وسمعَت آريان مارسلا تَصرخ أيضًا بصوتٍ رفيع حاد من جرَّاء الهلع.

ضربَ سيف السير آريس الطَّويل ذات اليمين وذات الشِّمال، وسقطَ اثنان من حاملي الجِراب. رفعَ حصانه قائمتيه الأماميَّتين ورفسَ أحد رُماة النُّشابيَّة في وجهه بينما يُحاول إعادة تلقيمها، لكن سهام النُّشابيَّات الأخرى انطلقَت لتنغرس في جسم الجواد الحربي الكبير بعُنفٍ بالغ أسقطَه على سطح القارب. بوسيلةٍ ما وثبَ آريس أوكهارت مفلتًا، بل واستطاعَ الحفاظ على سيفه في يده كذلك، وبصعوبةٍ اعتدلَ راكعًا على رُكبتيه إلى جوار حصانه المحتضر...

... ووجدَ آريو هوتا واقفًا فوقه.

رفعَ الفارس الأبيض سيفه ولكن ببُطءٍ شديد، وبترَت فأس هوتا الطَّويلة ذراعه تحت الكتف مباشرةً ودارَت ناثرةً الدِّماء، ثم عادَت تُومِض بضربةٍ رهيبة أطارَت رأس السير آريس وطوَّحت به في الهواء ليحطَّ وسط أعواد البوص ويبتلع (الدَّم الأخضر) الأحمر بصوتٍ خافت.

لا تَذكُر آريان أنها ترجّلت عن حصانها. ربما سقطت، لكن ذلك أيضًا لا تَذكُره. فقط وجدت نفسها على يديها وقدميها فوق الرِّمال، ترتجف وتنتحب وتقيء غشاءها، ولم تستطِع أن تقول لنفسها إلّا: *لا، لا، لم يكن يُفترَض أن يتأذّى أحد. كلُّ شيءٍ كان مخطَّطًا، كنتُ حذرةً للغاية*. سمعت آريو هوتا يجأر: «وراءه. إياكم أن يهرب. وراءه!». كانت مارسلا على الأرض تُوَلوِل وترتعد، وجهها الشّاحب في يديها والدّماء تسيل من بين أصابعها. لم تفهم آريان. كان بعض الرِّجال يهرع ممتطيًا الخيول وبعضهم يُحيط بها وبرفاقها، لكن لا شيء بدا لها مفهومًا. لقد وقعَت في حُلم، في كابوس أحمر شنيع. *لا يُمكن أن يكون هذا حقيقيًا. سأصحو قريبًا وأضحك مما أصابَني ليلًا من فزع*.

حين قيّدوا يديها وراء ظَهرها لم تُحاوِل المقاومة، ثم سحبَها أحد الحَرس بحذَرٍ لتقف فرأت أنه يرتدي ألوان أبيها، وانحنى آخَر وانتزعَ من حذائها سكّينها الذي كان هديّةً من ابنة عمِّها الليدي نيم. التقطَه آريو هوتا من الرِّجل، وأعلنَ ودماء آريس أوكهارت تُلطِّخ وجنتيه وجبهته: «الأمير قال إن عليّ أن أعيدكِ إلى (صنسبيير). آسفٌ يا أميرتي الصّغيرة».

رفعَت آريان وجهًا خطّطته الدُّموع، وسألَت قائد الحَرس: «كيف عرفَ؟ لقد توخَّيتُ الحذر الشّديد. كيف أمكنَه أن يعرف؟».

هزَّ هوتا كتفيه مجيبًا: «أحدهم وشى، أحدهم يشي دومًا».

---

(60) البازيليسق مخلوق زاحف أسطوري، يتميَّز بالقُدرة على القتل بنَفَسه الزُّعاف، ويُقال إنه ملك الأفاعي. (المترجم).

كلّ ليلةٍ قبل النّوم تُتمتِم بصلاتها لوسادتها: «السير جريجور، دانسن، راف المعسول، السير إلين، السير مرين، الملكة سرسي».
كانت لتهمس بأسماء آل فراي سادة (المعبر) أيضًا لو أنها تعرفها.
ذات يومٍ سأعرفُ، وعندها سأقتلهم جميعًا.

لا همسة أكثر خفوتًا من أن تُسمَع في (دار الأبيض والأسود)، ولذا سألَها الرّجل الطيّب في مرّة: «ما تلك الأسماء التي تهمسين بها ليلًا أيتها الصّغيرة؟».

قالت: «لستُ أهمسُ بأيّ أسماء».

- «كاذبة. كلُّ البشر يكذبون وهُم خائفون. بعضهم يكذب كثيرًا وبعضهم قليلًا، وبعضهم عنده كذبة واحدة كبيرة يَرّدّدونها طويلًا إلى أن يكادوا يُصَدّقونها... ولو أن جزءًا صغيرًا منهم يعرف دائمًا أنها لا تزال كذبةً، وهو ما يلوح على وجوههم. حدّثيني عن تلك الأسماء».

مضغَت شفتها قائلةً: «الأسماء لا تهمُّ».

رَدّ الرّجل الطيّب بإصرار: «بل تهمُّ. أخبِريني أيتها الصّغيرة».
سمعَت لسان حاله يقول: *أخبِريني وإلّا طردناكِ*، فقالت: «إنهم أناس أكرههم، أريدهم أن يموتوا».

- «نسمع صلواتٍ كثيرةً كهذه في هذا المكان».

قالت آريا: «أعرفُ». سبقَ أن أجابَ جاكِن هاجار ثلاثًا من صلواتها. *ما كان عليّ إلّا أن أهمس...*

واصلَ الرّجل الطيّب: «ألذا أتيتِ إلينا؟ لتتعلّمي فنوننا كي تَقتُلي مَن تكرهين؟».

لم تدرِ آريا بِمَ تُجيب، فقالت: «ربما».

- «إذن فقد أتيتِ إلى المكان الخطأ. ليس لكِ أن تُقرّري مَن يعيش ومَن يموت. الهديّة تنتمي إليه هو ذي الوجوه العديدة، وما نحن إلّا خُدّامه المقسمون على تنفيذ إرادته».

- «أوه». تطلّعت آريا إلى التماثيل الواقفة عند الجدران والشموع الوامضة عند أقدامها، وسألت: «أيّ إله هو؟».

جاوبَها الكاهن المتّشح بالأبيض والأسود: «إنه هُم جميعًا».

لم يُخبِرها الرّجل باسمه قطّ، وكذا اللّقيطة، الفتاة الصّغيرة ذات العينين الكبيرتين والوجه الضّاوي التي تُذكّرها بصغيرةٍ أخرى اسمها بنت عرس. مِثل آريا تعيش اللّقيطة تحت المعبد مع ثلاثةٍ من المُعاونين وخادمين وطاهيةٍ اسمها أوما. تحبُّ أوما الكلام فيما تعمل، غير أن آريا لا تفهم كلمةً تتفوّه بها، أمّا الآخرون فلا أسماء لهم، أو أنهم محجِمون عن الإفصاح بها. أحد الخادمين عجوز للغاية وظَهره محنيٌ كالقوس، والثّاني متورّد الوجه وينمو الشّعر من أذنيه، وقد حسبَتهما آريا أبكمين إلى أن سمعَتهما يُصلّيان. المُعاونون أصغر، أكبرهم في سِنّ أبيها والاثنان الآخران لا يُمكن أن يكونا أكبر من سانزا التي كانت أختها، ويرتدي ثلاثتهم الأبيض والأسود أيضًا، لكن أرديتهم بلا قلنسوة، وسوداء على اليسار وبيضاء على اليمين، في حين يرتدي الرّجل الطيّب واللّقيطة العكس. أُعطِيَت آريا ملابس الخدم؛ سُترةً قصيرةً من الصّوف غير المصبوغ وسراويل فضفاضةً وثيابًا داخليّةً من الكتّان، بالإضافة إلى خُفّين من القُماش لقدميها.

وحده الرَّجل الطيِّب يعرف اللُّغة العاميّة، وكلَّ يومٍ يسألها: «مَن أنتِ؟»، فتجيب: «لا أحد». تقولها تلك التي كانت آريا سليلة عائلة ستارك، آريا الفداسة، آريا وجه الحصان، والتي كانت أيضًا آري وبنت عرس والكتكوت ومِلحة، وكانت نان الشاقية، فأزا رماديًا، نعجةً، شبح (هارنهال)... لكن ليس حقًّا، ليس في أعماق أعماقها. هناك هي آريا ابنة (وينترفل)، وليدة اللورد إدارد ستارك والليدي كاتلين، التي كان لها في الماضي إخوة يُسمُّون روب وبران وريكون، وأخت اسمها سانزا، وذئبة رهيبة اسمها نايميريا، وأخ غير شقيق اسمه چون سنو. هناك في الدّاخل هي شخص ما... لكن تلك ليست الإجابة التي يرغب فيها.

دون لُغةٍ مشتركة لا تجد آريا وسيلةً للكلام مع الآخرين، لكنها تُصغي إليهم وتُكرِّر الكلمات التي تسمعها لنفسها بينما تُمارِس عملها. مع أن أصغر المُعاونين أعمى فإنه المسؤول عن الشُّموع، فيطوف في المعبد بخُفَّين ليِّنين محاطًا بغمغمة النِّساء المسنَّات اللاتي يأتين بصفةٍ يوميّة للصَّلاة، وحتى بلا بصرٍ يعرف دائمًا أيَّ الشُّموع انطفأ، وهو ما علَّله الرَّجل الطيِّب قائلًا: «الرَّائحة تُرشِده، والهواء أكثر دفئًا حيث تشتعل الشُّموع»، وقال لآريا أن تُغلِق عينيها وتُجرِّب بنفسها.

في الفَجر يُصلُّون راكعين حول البِركة السَّوداء الرَّاكدة قبل أن يُفطِروا، وفي بعض الأيام يقود الرَّجل الطيِّب الصَّلاة وفي بعضها تقودها اللَّقيطة. لا تعرف آريا إلَّا كلماتٍ معدودة من البراڤوسيّة، تلك التي لها المعاني نفسها بالڤاليريّة الفُصحى، ولذا تتوجَّه بصلاتها الخاصَّة إلى الإله عديد الوجوه. «السير جريجور، دانسن، راف المعسول، السير إلين، السير مرين، الملكة سرسي». تُصَلّي في صمت، وإذا كان الإله عديد الوجوه إلهًا حقًّا فسيسمعها.

يأتي المتعبّدون (دار الأبيض والأسود) كلّ يوم. معظمهم يأتي وحده ويجلس وحده، فيشعِلون الشّموع عند مذبحٍ أو آخر ويُصلُّون إلى جوار البِركة وأحيانًا يبكون، ويشرب بعضهم من الكوب الأسود ويَخلُد إلى النّوم، لكن عددًا أكبر لا يشرب. ليست هناك شعائر أو ترانيم أو أناشيد ثناءٍ تسرُّ الآلهة، ولا يمتلئ المعبد أبدًا، لكن بين الفينة والفينة يَطلُب أحد المتعبّدين أن يرى كاهنًا، فيأخذه الرّجل الطيّب أو اللّقيطة إلى المعتكَف في الأسفل، لكن ذلك لا يَحدُث كثيرًا.

ثلاثون إلهًا مختلفًا يقفون عند الجُدران محاطين بالأضواء الخافتة. رأت آريا أن المرأة الباكية هي المفضّلة عند النّساء المسنّات، بينما يُفضّل الأثرياء أسد اللّيل والفُقراء عابر السّبيل المقلنس، ويُضيء الجنود الشّموع للطّفل الشّاحب باكالون، والبحّارة للعذراء شاحبة القمر وملك شعب البحار. للإله الغريب مقامه هنا أيضًا، ولو أن المتعبّدين عنده نُدرة، وأكثر الوقت تقف شمعة وحيدة تتذبذب عند قدميه، لكن الرّجل الطيّب أخبرَها بأن هذا لا يهمّ، وقال: «إن له وجوهًا عدّةً وآذانًا عدّةً يسمع بها».

الهضبة التي يرتفع فوقها المعبد ملأى في باطنها بالممرّات المنحوتة في الصّخر. في المستوى الأول حُجيرات نوم الكهنة والمُعاونين، وفي الثّاني تنام آريا والخدم، أمّا المستوى الأدنى فمحرّم دخوله على الجميع باستثناء الكهنة، إذ يضمّ المعتكَف المقدّس.

عندما لا تعمل آريا تكون لها حرّيّة التّجوال في الأقبية والمخازن، شريطة ألّا تُغادِر المعبد أو تنزل إلى المستوى الثّالث. وجدت حُجرةً تملأها الأسلحة والدّروع؛ خُوذ منقّقة وواقيات صدورٍ قديمة غريبة الشّكل وسيوف طويلة وسكاكين وخناجر ونُشّابيّات وحِراب طويلة تتّخذ رؤوسها شكل أوراق الشّجر. ووجدت أحد الأقبية متخمًا بالملابس؛ فراء سميك وحرير فاخر بعشرات الألوان إلى جوار أكوامٍ من الأسمال كريهة الرّائحة والخيش المهترئ. قالت آريا لنفسها بثقة: *لا بُدّ أن هناك حُجراتٍ فيها كنوز أيضًا*، وتخيّلت أكداسًا من الأطباق الذّهب وصُررًا ملأى بالعملات الفضّة والياقوت الأزرق كالبحر وحبالًا من اللّآلئ الخضراء الكبيرة.

في يومٍ وجدت الرّجل الطيّب أمامها على غير انتظارٍ يسألها عمّا تفعله، فقالت له إنها ضلّت الطّريق.

- «كاذبة، والأدهى أنكِ لا تُجيدين الكذب. مَن أنتِ؟».

- «لا أحد».

تنهّد قائلًا: «كذبة أخرى».

كان ويز ليضربها حتى يُدميها لو ضبطَها متلبّسةً بالكذب، لكن الأمر مختلف في (دار الأبيض والأسود). عندما تُساعِد في المطبخ تضربها أوما أحيانًا بملعقتها إذا اعترضَت طريقها، لكن أحدًا آخر لم يرفع يده عليها. *لا يرفعون أيديهم إلّا للقتل*.

انسجمت آريا مع الطّاهية بما فيه الكفاية. تضع أوما سكّينًا في يدها وتُشير إلى بصلةٍ فتقطّعها، تدفعها أوما نحو كُتلةٍ من العجين فتعجنها إلى أن تقول لها الطّاهية أن تتوقّف (و«توقّفي» هي أول كلمةٍ براڤوسيّة تعلّمتها)، تُناوِلها أوما سمكةً فتنظّفها وتُقطّعها إلى شرائح تُدوّرها في المكسّرات التي تسحقها الطّاهية.

شرح لها الرّجل الطيّب أن المياه المسوس[61] التي تُحيط بـ(براقوس) تعجُّ بأسماكٍ وأصدافٍ من جميع الأنواع، وثمّة نهر بنّي بطيء يصبّ في الهور من الجنوب ويمضي متعرّجًا في مساحةٍ مديدة من البوص والبِرك المدّيّة والسّهول الطّينيّة، ولذا فهنالك وفرة وفيرة دائمًا من المحار وأم الخُلول وبلح البحر وسمك الكراكي والضّفادع والسّلاحف وسراطين الوحل والسّراطين الزّقطاء والسّراطين المتسلّقة وثعابين الماء الحمراء والسّوداء والمخطّطة وأسماك الشّلق ومحار اللؤلؤ، وكلّ هذه الأصناف يتكرّر ظهوره على المائدة الخشبيّة المنقوشة التي يتناوَل عليها خدم الإله عديد الوجوه وجباتهم. في بعض اللّيالي تُتبَّل أوما السّمك بملح البحر وحَبّ الفلفل المكسّر أو تطهو ثعابين الماء بالثّوم المفروم، وكلّ فترةٍ طويلة تُضيف الطّاهية قليلًا من الزّعفران أيضًا. *كان هوت پاي ليحبّ هذا.*

العشاء وقتها المفضّل من اليوم، فقد مضى وقت طويل منذ خلدَت آريا إلى النّوم كلّ ليلةٍ ببطنٍ ممتلئ. في بعض اللّيالي يسمح لها الرّجل الطيّب بأن تُلقي عليه أسئلةً، فسألَته في مرّةٍ لماذا يبدو النّاس الذين يأتون المعبد هادئين في سلامٍ دائمًا. في وطنها يخاف النّاس الموت، وتتذكّر كيف بكى المرافق ذو البثور حين طعنَته في بطنه، وكيف توسّل السير آموري لورك حين ألقاه الكبش في جُبّ الدّب، وتتذكّر القرية عند (عين الآلهة) وصريخ القرويّين وعويلهم ونحيبهم ما إن يبدأ الفدغدغ في السّؤال عن الذّهب.

أجابَها الرَّجل الطيّب: «الموت ليس أسوأ شيءٍ في الدُّنيا. إنه هديّة الإله إلينا، نهاية للحاجة والألم. يوم نولَد يُرسِل الإله عديد الوجوه إلى كلِّ منا ملاك ظُلمةٍ يمضي إلى جوارنا في الحياة، وحين تصير خطايانا ومعاناتنا أثقل من أن نستطيع حملها يأخذنا الملاك من يدنا ويقودنا إلى أراضي اللَّيل حيث تلتمع النُّجوم بلا نهاية. من يأتون للشُّرب من الكوب الأسود يبحثون عن ملائكتهم، وإذا كانوا خائفين تُهدِّئ الشُّموع روعهم. عندما تشمّين شموعنا ففيمَ تجعلكِ تُفكِّرين يا صغيرتي؟».

أرادَت أن تقول: (وينترفل). *أشمُّ الثَّلج والدُّخان وإبر الصَّنوبر، أشمُّ الاسطبلات، أشمُّ هودور يضحك وجون وروب يتبارَزان في السَّاحة وسانزا تُغنِّي عن ليدي جميلة حمقاء ما، أشمُّ السَّراديب حيث يجلس الملوك الحجريُّون، أشمُّ الخُبز الطَّازج، أشمُّ أيكة الآلهة، أشمُّ ذئبتي، أشمُّ فروها كأنها لم تزل إلى جواري*، غير أنها ردَّت لترى ما سيقوله: «لا أشمُّ شيئًا».

- «كاذبة، لكن لكِ أن تحتفظي بأسراركِ إذا شئتِ يا آريا يا سليلة عائلة ستارك». لا يدعوها بهذا الاسم إلَّا عندما تُثير استياءه. «تعرفين أنكِ تستطيعين مغادَرة هذا المكان. إنكِ لستِ منا بعد. يُمكنكِ العودة إلى وطنكِ متى أردتِ».

- «قلت لي إنني إذا غادرتُ فلا يُمكنني العودة».

- «بالضَّبط».

أحزنَتها الكلمة. *اعتادَ سيريو أن يقولها أيضًا، كان يقولها طوال الوقت*. سيريو فورل علَّمها أشغال الإبرة وماتَ من أجلها. «لا أريدُ أن أرحل».

- «ابقي إذن... لكن تذكَّري أن (دار الأبيض والأسود) ليست بيتًا للأيتام. كلُّ البشر واجبهم الخدمة تحت هذا السَّقف. ڤالار دوهايرِس كما نقولها هنا. ابقي إذا شئتِ، لكن اعلمي أننا سنتطلَّب طاعتكِ في جميع الأحيان وفي كلِّ الأشياء. إذا كنتِ لا تستطيعين التزام الطَّاعة فعليكِ أن ترحلي».

- «أستطيعُ التزام الطّاعة».

- «سنرى».

كلّفوها بواجباتٍ أخرى بخلاف مساعدة أوما، فتكنس آريا أرضيّات المعبد وتُقدّم الوجبات وتصبُّ الشّراب وتفرز أكوام ثياب الموتى وتُفرِغ صُرر نقودهم وتُحصي العملات الغريبة. كلّ صباحٍ تسير إلى جوار الرّجل الطيّب بينما يدور في أنحاء المعبد بحثًا عمّن ماتوا، فتقول لنفسها متذكّرةً سيريو: بصمت *الظّلال*. تحمل مصباحًا بمصاريع حديديّة سميكة، وعند كلّ فجوةٍ تُوارِب مصراعًا لترى إن كان هناك أحدهم ميتًا فيها.

ليس العثور على الموتى عسيرًا أبدًا. إنهم يأتون (دار الأبيض والأسود) ويُصلّون ساعةً أو يومًا أو عامًا، ثم يشربون الماء الدّاكن الخلو من البِركة، ويتمدّدون على فِراشٍ من حجر وراء إلهٍ أو آخَر، ويُغلِقون أعينهم وينامون ولا يستيقظون بَعدها أبدًا. قال لها الرّجل الطيّب: «هديّة الإله عديد الوجوه تتّخذ عديد الصُور، لكنها رقيقة دومًا هنا». حين يجدان جثّةً يَرتّل صلاةً ويتأكّد من أن الرّوح فاضت، وتجلب آريا الخادمين المكلّفين بحمل الموتى إلى الأقبية، وهناك يَجرّد المعاونون الجُثث من الثّياب ويغسلونها، وتوضَع الثّياب والنّقود والمقتنيات الأخرى في سلّةٍ للفرز، ثم تؤخَذ الأجساد الميتة الباردة إلى المعتكَف في الأسفل حيث الدّخول متاح للكهنة وحدهم، أمّا ما يَحدث هناك فليس مسموحًا لآريا بأن تعرفه. في مرّةٍ بينما تتناول عشاءها استحوذ عليها شكٌ رهيب، ووضعت سكّينها وحدّقت بريبةٍ إلى شريحةٍ من اللّحم الأبيض الشّاحب، فرأى الرّجل الطيّب الرّعب على وجهها، وقال لها: «إنه لحم خنزير أيتها الصّغيرة، لحم خنزير فقط».

سريرها من الحجر ويذكّرها بـ(هارنهال) والسّرير الذي نامت عليه هناك وقت أن كانت تُنظّف السّلالم لويز، وحشيّته مليئة بالخِرق بدلًا من القش، وهو ما جعلّها أكثر تكتّلًا من تلك التي اعتادَت النّوم عليها في (هارنهال)، لكنها أقلّ وخزًا أيضًا. مسموحٌ لها بالعدد الذي تُريده من الأغطية الصّوف السّميكة، منها الأحمر والأخضر ومربّع النّقش، كما أن حُجيرتها لها وحدها، وهناك تحتفظ بكنوزها؛ الشّوكة الفضّيّة والقبّعة العريضة والقفّاز الذي بلا أصابع، وكلّها أشياء أهداها إليها بحّارة (ابنة المارد)، بالإضافة إلى خنجرها وحذائها وحزامها وحصيلتها الصّغيرة من النّقود والملابس التي كانت ترتديها...

و(الإبرة).

على الرغم من أن واجباتها تترك لها قليلًا من الوقت لأشغال الإبرة فإنها تتدرّب متى استطاعت وتُنازِل ظِلّها على ضوء شمعةٍ زرقاء. ذات يومٍ مرّت اللّقيطة مصادفةً ورأت آريا في مران المبارزة، فلم تقل الفتاة شيئًا ولكن في اليوم التالي ساق الرّجل الطيّب آريا إلى حُجيرتها، وقال لها مشيرًا إلى كنوزها: «عليكِ أن تتخلّصي من كلّ هذه الأشياء».

قالت آريا مذعورةً: «إنها ملكي».

- «ومَن أنتِ؟».

- «لا أحد».

التقطَ شوكتها الفضّة، وقال: «هذه ملك آريا سليلة عائلة ستارك، كلّ هذا ملكها. لا مكان لهذه الأشياء هنا، ولا مكان لها أيضًا. إن اسمها اسم رفيع للغاية، ولا مجال هنا للتّرفّع. إننا خدم».

مجروحةً قالت: «أنا أخدمُ». لقد أحبّت هذه الشّوكة الفضّة.

- «بل تلعبين دور الخادمة، لكنكِ ما زلتِ ابنة لورد في قلبكِ. لقد حملتِ أسماءً أخرى، لكنكِ وضعتِها على نفسكِ بالاستخفاف نفسه كما لو أنكِ تضعين فُستانًا، وتحتها ظلّت آريا موجودةً دائمًا».

- «لا أرتدي الفساتين! لا يُمكنك أن تُقاتِل بينما ترتدي فُستانًا سخيفًا!».

سألَها: «ولِمَ تُريدين أن تُقاتِلي؟ هل أنتِ مُبارز براڤو يتبختر في الأزقّة متعطّشًا للدماء؟»، وتنهّد متابعًا: «قبل أن تشربي من الكوب البارد عليكِ أن تهبي كيانكِ كلّه له هو ذي الوجوه العديدة؛ جسدكِ، روحكِ، نفسكِ. إذا كنتِ لا تستطيعين أن تدفعي نفسكِ إلى فِعل ذلك فيجب أن تُغادري هذا المكان».

- «العُملة الحديد...».

- «... دفعتِ بها ثمن رحلتكِ إلى هنا، ومن هنا عليكِ أن تدفعي لتسلُكي طريقكِ، والتكلفة باهظة».

- «لا أملك ذهبًا».

- «ما نُقدّمه لا يُشترى بالذهب. التكلفة أنتِ بأكملكِ. البشر يَسلُكون مختلف الطُرق في وادي الدموع والآلام هذا، وطريقنا الأصعب، قلائل مخلوقون للمشي فيه. إنه يتطلّب قوّةً نادرةً للجسد والرّوح، وقلبًا صُلبًا وطيدًا».

هناك فجوة في الموضع الذي يُفترَض أن يحتلّه قلبي، ولا مكان آخَر أذهبُ إليه. «إنني قويّة، قويّة مِثلك، إنني صُلبة».

قال كأنه سمعَ أفكارها: «تعتقدين أن هذا هو المكان الوحيد لكِ، لكنكِ مخطئة. ستجدين خدمةً أقلّ مشقّةً في منزل أحد التجّار، أم أنكِ تُفضّلين أن تكوني محظيّةً يتغنّون بجمالها؟ ما عليكِ إلّا أن تقولي وسنُرسلكِ إلى (اللؤلؤة السّوداء) أو (ابنة الغسق). ستنامين على بتلات الورد وترتدين تنانير حريريّةً تحفُّ حين تمشين، وسيدفع السّادة العظام ثرواتٍ طائلةً ويفقرون أنفسهم من أجل دم بكارتكِ. أو إذا كنتِ راغبةً في الزّواج والأطفال فأخبريني وسنجد لكِ زوجًا، صبيًا حِرفيًا ما أو عجوزًا غنيًا أو رحّال بحار، أيًا كان ما تُريدين».

لا تُريد آريا شيئًا من ذلك، ولذا هزّت رأسها بصمت.

- «هل تحلُمين بـ(وستروس) إذن أيتها الصّغيرة؟ (سيّدة البريق) سفينة لوكو بريستاين سترحل غدًا إلى (بلدة النّوارس) و(كينجز لاندنج) و(تايروش). هل نجد لكِ مكانًا عليها؟».

- «لقد جئتُ لتوّي من (وستروس)!». أحيانًا يبدو كأن ألف عامٍ مرّت منذ فرّت من (كينجز لاندنج)، وأحيانًا كأن هذا حدث البارحة فحسب، لكنها تعلم أنها لا تستطيع العودة. «سأذهب إذا كنت لا تُريدني، لكني لن أذهب إلى هناك».

قال الرّجل الطيّب: «ما أريده لا يهمُّ. ربما قادكِ الإله عديد الوجوه إلى هنا لتكوني أداته، لكن حين أنظرُ إليكِ أرى طفلةً... والأدهى أنكِ فتاة. كثيرون خدموا الإله عديد الوجوه على مَرّ القرون، لكن أقلّ القليل من خدمه كن نساءً. النّساء يأتين بالحياة إلى الدّنيا، ونحن نجلب هديّة الموت. لا أحد يستطيع أن يفعل هذا وذاك».

يُحاوِل أن يُخيفني لأرحل كما فعلَ من قبل بالدّودة. «لا أبالي بهذا».

- «عليكِ أن تُبالي. ابقي وسيأخذ الإله عديد الوجوه أذنيكِ وأنفكِ ولسانكِ، سيأخذ عينيكِ الرّماديّتين الحزينتين اللتين رأيتا الكثير، سيأخذ يديكِ وقدميكِ وساقيكِ وعورتكِ، سيأخذ آمالكِ وأحلامكِ وحُبّكِ وكراهيتكِ. مَن ينخرطون في خدمته عليهم التّخلّي عن كلّ ما يجعلهم هُم. هل تستطيعين أن تفعلي ذلك؟»، وأمسك الرّجل الطيّب ذقنها بأصابعه وتطلّع إلى عينيها سابرًا أغوارهما لدرجةٍ جعلَتها ترتجف، وأردف: «لا، لا أظنّ أنكِ تستطيعين».

ضربَت آريا يده مزيحةً إياها، وقالت: «أستطيعُ إذا أردت».

- «هذا ما تقوله آريا سليلة عائلة ستارك، آكلة دود القبور».

- «أستطيعُ التّخلّي عن أيّ شيءٍ أريده!».

أشارَ إلى كنوزها قائلًا: «ابدئي بهذه إذن».

ليلتها بَعد العَشاء عادَت آريا إلى حُجيرتها وخلعَت ثيابها وهمسَت بأسمائها، لكن النّوم أبى أن يأتيها، وظلّت تتقلّب على الحشيّة المليئة بالخِرق وهي تَمضُغ شفتها شاعرةً بالفجوة في داخلها حيث كان قلبها.

في جوف اللّيل قامَت ثانيةً وارتدَت الثّياب التي كانت عليها في الطّريق من (وستروس)، وتمنطقَت بحزام سيفها معلّقة (الإبرة) على أحد وَركيها وخنجرها على الثّاني. بقبّعتها العريضة على رأسها وقفّازها عديم الأصابع المدسوس في حزامها وشوكتها الفضّيّة في يدها تحرّكت صاعدةً السّلالم بخفّةٍ مفكّرةً: *لا مكان هنا لآريا سليلة عائلة ستارك*. مكان آريا في (وينترفل)، لكن (وينترفل) ضاعت. *عندما تَسقُط الثّلوج وتهبّ الرّيح البيضاء يَنفُق الذّئب الوحيد بينما ينجو القطيع*. غير أنها بلا قطيع. لقد قتلوا قطيعها، قتلَه السير إلين والسير مرين والملكة، ولمّا حاولَت أن تُكوّن واحدًا جديدًا فَرّ أفراده جميعًا؛ هوت پاي وجندري ويورن ولومي أخضر اليد، وحتى هاروين الذي كان رجل أبيها.

خرجَت من الباب إلى اللّيل.

إنها المرّة الأولى التي تَخرج فيها منذ دخلَت المعبد. كانت السّماء غائمةً والأرض يُغطّيها الضّباب كدثارٍ رمادي متهتّك، وإلى يمينها سمعَت تجذيفًا من إحدى القنوات، ففكّرَت: *(براقوس)، المدينة السرّيّة*. يبدو لها الاسم لائقًا للغاية. انسلّت نازلةً السّلالم المنحدِرة إلى الرّصيف المسقوف بينما تدور دوّامات الضّباب حول قدميها بكثافةٍ حالَت دون أن ترى الماء، وإن سمعَته يرتطم بنعومةٍ بالرّكائز الحجريّة، ورأت من بعيدٍ ضوءًا يتوهّج في الغيوم، فخطرَ لها أنها النّار اللّيليّة في معبد الرّهبان الحُمر.

توقّفت على حافة الماء وفي يدها الشّوكة المصنوعة من الفضّة الخالصة. *ليست شوكتي، لقد أهداها إلى مِلحة*. ألقَتها إلى أسفل وسمعَت صوت تناثُر المياه الخافت إذ غاصَت فيها. بعدها ألقَت القبّعة العريضة والقُفّاز، فهما أيضًا ملك لمِلحة، ثم إنها أفرغَت محتويات جرابها في كفّها؛ خمسة أيائل فضّيّة وتسع نجومٍ نُحاسيّة وبعض البنسات وأنصاف البنسات والجِراوت. نثرَتها جميعًا في الماء، ثم حانَ دور حذائها الذي أحدث الصّوت الأعلى، وبعده الخنجر الذي أخذَته من القوّاس الذي توسّل من كلب الصّيد الرّحمة، ثم ألقَت حزام سيفها في القناة، ومعطفها وسترتها وسراويلها وثيابها الدّاخليّة.

ألقَت كلّ شيءٍ باستثناء إبرتها.

وقفَت في أقصى الرّصيف شاحبةً مقشعرّة الجِلد ترتجف في الضّباب، في يدها إبرتها كأنها تهمس لها وتقول: *اطعنيهم بالطّرف المدبّب*، وتقول: *لا تُخبِري سانزا!* على النّصل علامة ميكن. *إنه مجرّد سيف*. إذا احتاجَت إلى سيف فهناك مئة تحت المعبد، ثم إن (الإبرة) أصغر من أن يكون سيفًا حقيقيًّا، بالكاد أكثر من لُعبة. لقد كانت فتاةً صغيرةً حمقاء حين صنعَه چون لها. «إنه مجرّد سيف»، قالتها بصوتٍ عالٍ هذه المرّة...

... لكنه ليس كذلك.

إبرتها روب وبران وريكون، أمُّها وأبوها، وحتى سانزا. إبرتها جُدران (وينترفل) الرّماديّة وضحك أهلها. إبرتها ثلوج الصّيف وقِصص العجوز نان وشجرة القلوب بأوراقها الحمراء ووجهها المخيف ورائحة التُّربة الدّافئة في الصُّوبة الزُّجاجيّة وصوت رياح الشّمال إذ ترجُّ مصاريع غُرفتها. إبرتها ابتسامة چون سنو. قالت لنفسها متذكّرةً: *اعتادَ أن ينفش شَعري ويدعوني بـ«أختي الصّغيرة»*، وفجأةً كانت العبرات تُغرِق عينيها.

پوليڤر سرق منها السّيف عندما أسرّها رجال الجبل، ثم إذا به هناك حين دخلَت الخان على تقاطع الطّرق مع كلب الصّيد. *الآلهة أرادتني أن أحمله*. ليست الآلهة السّبعة ولا الإله عديد الوجوه، بل آلهة أبيها، آلهة الشّمال القديمة. *فليأخذ الإله عديد الوجوه البقيّة، لكن لا يُمكنه أن يأخذ هذا*.

صعدَت السّلالم عاريةً كيوم مولدها وقد أطبقَت على إبرتها، وفي منتصف الطّريق إلى أعلى اهتزَّ حجر تحت قدمها، فركعَت آريا وحفرَت حول حوافه بأصابعها. لم يتحرّك في البداية، لكنها ثابرَت مكشّرةً الملاط المتفتّت بأظفارها، إلى أن تحرّك الحجر أخيرًا، فأنّت ومدّت يديها معًا تسحبه، وانفتح شَقٌّ أمامها.

قالت لـ(الإبرة): «ستكون آمنًا هنا. لا أحد يعرف مكانك غيري»، ودسّت السّيف والغِمد وراء الدّرجة ثم أعادَت الحجر إلى موضعه ليبدو كسائر الأحجار الأخرى من جديد، وبينما واصلَت طريقها إلى أعلى عدّت الدّرجات لتعلم أين تجد السّيف ثانيةً. ذات يومٍ قد تحتاج إليه. همسَت لنفسها: «ذات يوم».

لم تُخبِر الرّجل الطيّب بما فعلته، لكنه علمَ، وفي اللّيلة التّالية أتاها في حُجيرتها بَعد العشاء، وقال: «تعالي واجلسي معي أيتها الصّغيرة. عندي حكاية أودُّ أن أحكيها لكِ».

سألته بحذر: «حكاية ماذا؟».

- «حكاية بداياتنا. إذا كنتِ تُريدين أن تكوني منا فالأفضل أن تعرفي مَن نحن وكيف جئنا إلى الوجود. ربما يتهامس النّاس عن رجال (براڤوس) عديمي الوجوه، لكننا أقدم من المدينة السرّيّة. قبل أن يرتفع (المارد) وقبل أن يُميط أوثيرو اللّثام عن المدينة وقبل تأسيسها كنا نحن. لقد أينعنا في (براڤوس) وسط هذا الضّباب الشّمالي، لكن جذورنا تعود إلى (ڤاليريا) وعبيدها البائسين الذين كدحوا في المناجم العميقة تحت (الأربع عشرة شعلة) التي كانت تُضيء ليالي المعقل الحر قديمًا. معظم المناجم مظلم بارد ومحفور في الحجر الميت، لكن (الأربع عشرة شعلة) كانت جبالًا حيّةً عروقها من صخرٍ مصهور وقلوبها من نار، وهكذا كانت مناجم (ڤاليريا) ساخنةً دومًا، وتزايدت سخونتها أكثر فأكثر كلّما حُفِرَ المزيد من الأنفاق في الأعماق. كان العبيد يكدُّون في أتون، الصّخور حولهم أسخن من أن يلمسوها، والهواء يعبق برائحة الكبريت ويسفع رئاتهم مع كلّ نفسٍ يَدخُل صدورهم، وتُحرِق الأرض باطن أقدامهم وتُقرّحها حتى مع انتعالهم أكثر الصّنادل سماكةً. أحيانًا عندما يخترقون جدارًا بحثًا عن الذّهب كانوا يجدون بدلًا منه بُخارًا أو مياهًا تغلي أو صخورًا مصهورةً، وبعض الأنفاق كان واطئًا للغاية ولا يستطيع العبيد الوقوف فيه معتدلين، فكانوا يزحفون أو ينحنون. وكانت هناك ديدان في تلك الظُّلمة الحمراء أيضًا».

سألته مقطِّبةً جبينها: «ديدان الأرض؟».

- «ديدان النّار. يقول بعضهم إنها من جنس التّنانين، فتلك الدّيدان تنفث النّار أيضًا، ولكن بدلًا من التّحليق في السّماء تنخر الحجارة والتّربة. إذا صدّقنا الحكايات القديمة فديدان النّار كانت تعيش في (الأربع عشرة شعلة) من قبل مجيء التّنانين. أصغرها ليس أكبر من ذراعكِ النّاحلة هذه، لكنها تنمو إلى أحجامٍ رهيبة ولا تحبُّ البَشر على الإطلاق».

- «هل قتلَت العبيد؟».

- «كثيرًا ما كان يُعثَر على الجُثث المحروقة والمسودّة في الأنفاق التي تشقّقت جُدرانها أو امتلأت بالفتحات، وعلى الرغم من ذلك تواصلَ حفر الأنفاق في أعماقٍ أبلغ وأبلغ. كان العبيد يهلكون بالعشرات لكن أسيادهم لم يُبالوا. بالنّسبة إليهم كان الذّهب الأحمر والأصفر والفضّة أثمن من أنفس العبيد، والعبيد كانوا رخيصين في المعقل الحُر القديم. في الحروب كان القاليريّون يأسرونهم بالآلاف، وفي أوقات السّلام كانوا يجعلونهم يتوالدون، ولو أن أسوأهم فقط كان يُرسَل ليموت في الظُّلمة الحمراء».

- «ألم يَثُر العبيد ويُقاتِلوا؟».

- «بعضهم. كانت التّمرُّدات شائعةً في المناجم، لكن قليلًا منها حقّق شيئًا. سادة التّنانين في المعقل الحُر القديم كانوا أقوياء في الشّعوذة، وكان مَن هم أدنى منهم يتحدّونهم معرّضين أنفُسهم للخطر. أول رجلٍ عديم الوجه كان من هؤلاء».

اندفعَت آريا تسأل قبل أن تتوقّف لتُفكّر: «مَن كان؟».

أجابتها: «لا أحد. بعضهم يقول إنه كان عبدًا، ويصرّ غيرهم على أنه كان ابنًا لأحد الأسياد مولودًا من شلالةٍ نبيلة، بل وهناك من يقول إنه كان مُشرفًا أشفقَ على من يعملون تحت إمرته، لكن الحقيقة أن لا أحد يعلم. أيًا كان فقد اعتادَ أن يتحرّك بين الرّقيق ويسمع صلواتهم. كان أناس من مئة أمّةٍ مختلفة يُعانون في المناجم، كلٌّ منهم يدعو ربّه بلغته، لكن جميعهم كان يُصلّي طالبًا الشّيء نفسه. كانوا يَطلُبون الخلاص ونهاية الألم، شيء صغير بسيط، لكن آلهتهم لم تُجِب واستمرّ عذابهم. تساءلَ الرّجل: *هل آلهتهم كلُّها صمّاء؟* إلى أن أتته الإجابة ذات ليلةٍ في الظُّلمة الحمراء. لكلّ الآلهة أدواتها، رجال ونساء يخدمونها ويُساعِدون على تنفيذ إرادتها على الأرض. لم يكن العبيد يتضرّعون إلى مئة إلهٍ مختلف كما بدا، وإنما إلى إلهٍ واحد له مئة وجهٍ مختلف... والرّجل كان أداة هذا الإله. في اللّيلة ذاتها اختارَ أكثر العبيد تعاسةً، الذي كان يُصلّي بحرارةٍ أشد من غيره ناشدًا الخلاص، وعتقَه من عبوديّته. ليلتها أُعطِيت الهديّة الأولى».

تراجعت آريا قائلةً وقد بدا لها الكلام خاطئًا: «قتلَ العبد؟! كان المفترَض أن يَقتُل الأسياد!».

- «لاحقًا أعطاهم الهديّة أيضًا... لكن تلك حكاية ليومٍ آخر، حكاية الأفضل أن تطّلع عليها مَن هي لا أحد»، وحنى الرّجل الطيّب رأسه إلى الجانب سائلًا: «ومَن أنتِ أيتها الصّغيرة؟».

- «لا أحد».

- «كاذبة».

- «وما أدراك؟ أهو السّحر؟».

قال: «ليس ضروريًا أن يكون الإنسان ساحرًا ليعرف الصّدق من الكذب إذا كانت له عينان. عليكِ فقط أن تتعلّمي قراءة الوجوه. انظري إلى العينين، إلى الفم، والعضلات هنا في زكن الفَك، وهنا حيث يلتحم العُنق بالكتفين»، ومسّها بإصبعين بخفّةٍ متابعًا: «بعض الكذّابين تطرف أعينهم، وبعضهم يُحملِق، وبعضهم يُشيح بوجهه، وبعضهم يلعق شفتيه، وكثيرون يُغطّون أفواههم قبل أن ينطقوا كذبًا كأنهم يُحاوِلون إخفاء خداعهم. ثمّة علامات أخرى أقلّ وضوحًا، لكنها موجودة دائمًا. قد تتشابه ابتسامة زائفة وأخرى صادقة، لكنهما مختلفتان كما الغسق والفَجر. هل يُمكنكِ تمييز الغسق من الفَجر؟».

أومأت آريا برأسها إيجابًا، مع أنها ليست واثقةً باستطاعتها هذا حقًّا.

- «إذن فيمكنكِ أن تتعلّمي رؤية الأكاذيب... وبمجرّد أن تتعلّمي فلن يأمن منكِ سر».

- «علّمني». ستُصبِح لا أحد ما دام هذا ما يتطلّبه الأمر. إذا كانت لا أحد فلن تكون في داخلها فجوة.

- «هي ستُعلّمكِ»، قال الرّجل الطيّب إذ ظهرَت اللّقيطة خارج بابها. «بدايةً بلغة (براقوس). ما فائدتكِ إذا كنتِ لا تتكلّمينها أو تفهمينها؟ وستُعلّمينها أنتِ لُغتكِ، وبهذا ستتعلّم كلتاكما معًا من الأخرى. هل ستفعلين هذا؟».

أجابَت: «نعم»، ومنذ تلك اللّحظة باتَت مبتدئةً في (دار الأبيض والأسود). أخذوا منها ملابس الخدم وأعطوها بدلًا منها رداءً من الأبيض والأسود شديد النّعومة كالدّثار الأحمر القديم الذي كانت تتغطّى به في (وينترفل)، وتحته ارتدَت ثيابًا داخليّةً من الكتّان الأبيض النّاعم وشترةً تحتيّةً سوداء تدلّت على جسدها متجاوزةً ركبتيها.

منذ ذلك الحين تقضي واللُّقيطة أوقاتهما معًا في لمس الأشياء والإشارة إليها، وكلٌّ منها تُحاوِل تعليم الأخرى بضع كلماتٍ من لُغتها. بدأتا بكلماتٍ بسيطة ككوب وشمعة وحذاء، ثم كلماتٍ أصعب، ثم جُملٍ كاملة. في الماضي اعتادَ سيريو فورل أن يجعلها تقف على ساقٍ واحدة حتى ترتعد، وبَعدها أرسلَها تُطارِد القِطط، ورقصَت آريا رقصة المياه على فروع الأشجار وفي يدها سيف من خشب. كلُّ هذه الأشياء كان صعبًا، لكن هذا أصعب.

حتى الخياطة كانت أمتع من اللُّغات، قالت لنفسها في ليلةٍ بَعد أن نسيَت نِصف الكلمات التي ظنَّت أنها تعلَّمتها وأساءت نُطق النِّصف الآخر لدرجةٍ أضحكَت اللَّقيطة منها. *عباراتي معوجَّة كما كانت غرزي*. لو لم تكن الفتاة صغيرةً مهزولةً لهشَّمت آريا وجهها السَّخيف، لكنها راحت تَمضُغ شفتها بدلًا من ذلك. *أغبى من أن أتعلَّم وأغبى من أن أستسلم*.

تعلَّمت اللَّقيطة اللُّغة العاميَّة أسرع، وذات ليلةٍ التفتَت إليها وسألَتها: «مَن أنتِ؟».

أجابَتها آريا بالبراڤوسيَّة: «لا أحد».

- «كاذبة. يجب أن تكذبي مفضَّل».

ضحكَت آريا قائلةً: «مفضَّل؟ تعنين أفضل يا حمقاء».

- «أفضل يا حمقاء. سأريكِ».

في اليوم التَّالي بدأتا لُعبة الأكاذيب التي تتبادل فيها كلتاهما إلقاء الأسئلة على الأخرى. أحيانًا تُجيبان صدقًا وأحيانًا تكذبان، وعلى السَّائلة أن تُحاول التَّفريق بين هذا وذاك. بدا أن اللَّقيطة تعرف دائمًا، أمَّا آريا فعليها أن تُخمِّن، وأكثر الوقت يكون تخمينها خاطئًا.

في مرّةٍ سألَتها اللّقيطة باللغة العاميّة: «كم عامًا عندكِ؟»، فجاوبَت آريا: «عشرة»، ورفعَت عشرة أصابع. ظنّتها أنها لا تزال في العاشرة، ولو أن الشّيقْن عويص، كما أن البراڤوسيّين يعدّون الأيام بشكلٍ مختلف عن الوستروسيّين. ربما حَلَّ يوم ميلادها وانقضى بالفعل.

أومأت اللّقيطة برأسها وردّت آريا الإيماءة، وبأفضل ما تعرف من البراڤوسيّة سألَت: «كم عامًا عندكِ؟».

أرَتها اللّقيطة عشرة أصابع، ثم عشرةً أخرى، ثم عشرةً أخرى، ثم ستّة. ظَلّ وجهها بهدوء المياه الرّاكدة، وفكّرت آريا: *لا يُمكن أن تكون في السّادسة والثّلاثين، إنها بنت صغيرة.* قالت لها: «أنتِ كاذبة»، فهزّت اللّقيطة رأسها نفيًا وأرَتها ثانيةً: 10 و10 و10 و6، وقالت مقابل 36 بالبراڤوسيّة وجعلَت آريا تُردّدها.

أخبرَت الرّجل الطيّب بما ادّعته اللّقيطة في اليوم التّالي، فقال الكاهن مقهقهًا: «لم تكذب. مَن تُسمّينها اللّقيطة امرأة بالغة قضَت حياتها في خدمة الإله عديد الوجوه. لقد سلّمته كيانها كلّه وكلّ ما كان يُمكن أن تكونه وكلّ ما في داخلها من حيوات».

عضّت آريا شفتها، وسألَته: «هل سأصبح مِثلها؟».

- «لا، ما لم تُريدي ذلك. الشّموم هي ما جعلَها تبدو كما ترينها».

الشّموم. الآن تفهم. كلّ ليلةٍ بَعد الصّلاة تُفرِغ اللّقيطة إبريقًا حجريًّا في مياه البِركة السّوداء.

ليست اللّقيطة والرّجل الطيّب خادمَي الإله عديد الوجوه الوحيدين، فمن حينٍ إلى آخر يزور غيرهما (دار الأبيض والأسود). الرّجل البدين له عينان سوداوان شرستان وأنف معقوف وفم عريض مليء بالأسنان المصفرّة، وصاحِب الوجه الصّارم لا يبتسم أبدًا وعيناه شاحبتان وشفتاه ممتلئتان داكنتان، والوسيم يتغيّر لون لحيته كلّما رأته ويتغيّر شكل أنفه أيضًا، لكنه يتحلّى دومًا بالوسامة. هؤلاء الثلاثة أكثر من يأتون، لكن هنالك آخَرين، مِثل ضيّق العينين واللورد الصّغير والرّجل المهزول. في مرّةٍ جاء البدين وضيّق العينين معًا، فأرسلَت أوما آريا تصبّ لهما الشّراب، وكان الرّجل الطيّب قد قال لها: «عندما لا تصبّين عليكِ أن تقفي ثابتةً كأنكِ منحوتة من الحجر. هل يُمكنكِ هذا؟».

- «نعم». *قبل أن تتعلّمي الحركة يجب أن تتعلّمي الثّبات*. سيريو فورل أوصاها بهذا منذ زمنٍ طويل في (كينجز لاندنج)، ولقد تعلّمت. في (هارنهال) عملَت آريا ساقيةً عند رووس بولتون، الرّجل الذي يُمكنه أن يَسلُخك إذا سكبت نبيذه.

قال الرّجل الطيّب: «عظيم. والأفضل أن تكوني عمياء صمّاء أيضًا. ربما تسمعين أشياء، لكن عليكِ أن تتركيها تَدخُل من أذنٍ وتَخرُج من الثّانية. لا تُنصِتي».

سمعَت آريا الكثير والكثير ليلتها، لكن معظمه تقريبًا كان بلُغة (براقوس)، وبالكاد فهمَت كلمةً من عشر. قالت لنفسها: *بثبات الحجر*، لكنها وجدَت مقاومة التّثاؤب صعبةً، وقبل نهاية اللّيل كان ذهنها قد شردَ بعيدًا، وإذ وقفَت هناك حاملةً الإبريق حلمَت بأنها ذئبة تركُض حرّةً في غابةٍ يُنيرها القمر وفي أعقابها قطيع عظيم يعوي.

في الصّباح التالي سألَت الرّجل الطيّب: «هل الرّجال الآخَرون كهنة كلُّهم؟ أتلك وجوههم الحقيقيّة؟».

- «ماذا تحسبين أيتها الصّغيرة؟».

قالت لنفسها: لا، وقالت له: «هل چاكن هاجار كاهن أيضًا؟ هل تعرف إن كان چاكن سيعود إلى (براڤوس)؟».

ببراءةٍ سألَها: «مَن؟».

- «چاكن هاجار! لقد أعطاني العملة الحديد».

- «لا أعرفُ أحدًا بهذا الاسم أيتها الصَّغيرة».

- «سألته كيف يُبدِّل ملامحه وقال إن هذا ليس أصعب من انتحال اسمٍ جديد إذا عرفتُ الوسيلة».

- «حقًّا؟».

- «هل ستُريني كيف أبدِّلُ ملامحي؟».

قال: «إذا أردتِ»، وأمسكَ ذقنها بأصابعه ودوَّر رأسها مردفًا: «انفُخي وجنتيكِ وأخرِجي لسانكِ».

ونفخَت آريا وجنتيها وأخرجَت لسانها.

- «ها قد تبدَّلت ملامحكِ».

- «لم أعنِ هذا. چاكن استخدمَ السِّحر».

- «كلُّ السِّحر يأتي بتكلفته أيتها الصَّغيرة، ولا بُدَّ من سنين من الصَّلاة والتَّضحية والدِّراسة لإتقان التَّمويه».

ردَّدت مصدومةً: «سنين؟!».

- «لو كان ذلك سهلًا لفعلَه البَشر كلُّهم. يجب أن تمشي قبل أن تجري. لِمَ تستخدمين تعويذةً بينما تُصلح حيل الممثِّلين؟».

- «لا أعرفُ أيَّ حيل ممثِّلين كذلك».

- «تمرَّني على التَّلاعُب بقسماتكِ. تحت جِلدكِ عضلات، فتعلَّمي كيف تستخدمينها. هذا وجهكِ، وجنتاك، شفتاكِ، أذناكِ. يجب ألَّا يُباغِتكِ الابتسام والعبوس بالظُّهور على وجهكِ دون إرادتكِ. الواجب أن تكون الابتسامة خادمةً لكِ وتأتي فقط حين تستدعينها. تعلَّمي أن تتحكَّمي في وجهكِ».

- «أرِني كيف».

قال: «انفخي وجنتيكِ»، ففعلَت. «ارفعي حاجبيكِ. لا، أعلى»، ففعلَت هذا أيضًا. «عظيم. انظري كم من الوقت تستطيعين إبقاءهما هكذا. لن يستمرّ هذا طويلًا، لكن جرّبي ثانيةً غدًا. ستجدين مرآةً مايريّة في الأقبية. تمرّني أمامها ساعةً كلّ يوم. العينان والمنخران والوجنتان والأذنان والشّفتان، تعلّمي التّحكّم فيها جميعًا»، وعادَ يضمُّ أصابعه على ذقنها ويسألها: «مَن أنتِ؟».

- «لا أحد».

- «كذبة، كذبة محزنة أيتها الصّغيرة».

وجدَت المرآة المايريّة في اليوم التّالي، وتعوّدت الجلوس أمامها تتلاعب بقسماتها كلّ صباحٍ وكلّ مساءٍ وعلى جانبيها شمعتين. *تحكّمي في وجهكِ وستستطيعين الكذب*.

بَعدها بفترةٍ قصيرة أمرَها الرّجل الطيّب بمساعدة المعاونين على تجهيز الجثث، فلم تجد في عملها هذا صعوبةً تُداني تنظيف السّلالم لويز. أحيانًا إذا كانت الجثّة كبيرةً أو سمينةً يشقُّ عليها ثِقلها، لكن أكثر الموتى عظام قديمة جافّة تحت جلودٍ متغضّنة، وبينما تُغسّلهم آريا تتطلّع إليهم وتتساءل عمّا دفعهم إلى البِركة السّوداء. تذكّرت حكايةً روَتها العجوز نان عن الأشتية الطّويلة، وكيف يُعلِن مَن يبلغون من الكِبر عتيًا أنهم ذاهبون للصّيد، وسمعَت العجوز نان تقول: *فتبكي بناتهم ويُشيح أبناؤهم بوجوههم إلى النّار، لكن لا أحد يمنعهم أو يسألهم عن الفرائس التي ينتوون اقتناصها في الثّلوج العميقة بينما تعوي الرّيح الباردة*. تساءلَت عمّا يقوله البراڤوسيّون العجائز لأبنائهم وبناتهم قبل أن يرحلوا إلى (دار الأبيض والأسود).

دارَ القمر ودارَ ثانيةً ولو أن آريا لم ترَه. ظلّت تخدم وتُغسّل الموتى وتتلاعب بقسماتها في المرآة وتتعلّم البراڤوسيّة وتُحاوِل أن تتذكّر أنها لا أحد.

ثم أرسلَ الرّجل الطيّب يستدعيها ذات يوم، وقال لها: «لهجتكِ شنيعة، لكنكِ تعرفين كلماتٍ تكفي لجعل النّاس يفهمون ما تُريدينه إلى حَدٍّ ما. حانَ الوقت لأن تَترُكينا فترةً. الطّريقة الوحيدة التي ستُجيدين بها لُغتنا حقًّا أن تتكلّميها من الغسق إلى الفَجر. يجب أن تُغادِري».

سألته: «متى؟ إلى أين؟».

- «الآن. وراء هذه الجُدران ستجدين جُزر (براڤوس) المئة في بحرها. لقد تعلّمتِ مرادفات بلح البحر وأم الخلول والمحار، أليس كذلك؟».

أجابت: «نعم»، وردّدتها بأفضل براڤوسيّة تقدر عليها.

جعلَته أفضل براڤوسيّة تقدر عليها يبتسم، وقال: «لا بأس. على الأرصفة قبل (البلدة الغارقة) ستجدين تاجر أسماكٍ اسمه بروسكو، رجل صالح يُعاني تعبًا في ظَهره. إنه في حاجةٍ إلى فتاةٍ تدفع عربته وتبيع أم الخُلول والمحار وبلح البحر للبحّارة. ستكونين هذه الفتاة. مفهوم؟».

- «نعم».

- «ولمّا يسألكِ بروسكو فمَن أنتِ؟».

- «لا أحد».

- «لا، لن يَصلُح ذلك خارج هذه الدّار».

قالت بَعد تردُّد: «يُمكنني أن أكون مِلحة من (الملّاحات)».

«مِلحة معروفة لترنيسيو تيريس ورجال (ابنة المارد). إنكِ موسومة بالطّريقة التي تتكلّمين بها، ولذا يجب أن تكوني فتاةً من (وستروس)... لكن فتاة مختلفة على ما أظنّ».

عضّت شفتها متسائلةً: «أيُمكنني أن أكون كات؟».

فكّر لحظةً، ثم قال: «كات، نعم. (براڤوس) تعجّ بالقطط، ولن يلحظ أحد قطّةً إضافيّةً. أنتِ كات، يتيمة من...».

- «(كينجز لاندنج)». لقد زارَت (الميناء الأبيض) مع أبيها مرّتين، لكن معرفتها بـ(كينجز لاندنج) أفضل.

- «بالضّبط. أبوكِ كان مُشرف ملّاحين على متن قادس، ولمّا ماتت أمُّكِ أخذكِ معه إلى البحر، ثم مات بدوره ولم يجد رُبّانه حاجةً إليكِ، فأنزلكِ من السّفينة في (براڤوس). وماذا كان اسم السّفينة؟».

أجابت من فورها: «(نايميريا)».

ليلتها تركَت (دار الأبيض والأسود)، على وَركها الأيمن سكّين حديدي طويل يُخفيه معطفها المرقّع الباهت كما ينبغي لمعطفٍ ترتديه فتاة يتيمة أن يكون. كان حذاؤها ضيّقًا على أصابع قدميها وسُترتها خفيفةً لدرجة أن الرّيح تخلّلتها مباشرةً... لكن (براڤوس) تمتدُّ أمامها، وهواء اللّيل يعبق بروائح الدُّخان والملح والأسماك، والقنوات ملتوية والأزقّة أكثر التواءً. رمقها النّاس بفضولٍ وهي تمرُّ وناداها الأطفال المتسوّلون بكلماتٍ لم تفهمها، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تتوه في المدينة تمامًا.

قطعَت جسرًا حجريًّا تحمله أربع قناطر، ومن منتصفه رأت صواري السّفن الرّاسية في (ميناء راجمان)، وبينما تمشي ترنّمت: «السير جريجور، دانسن، راف المعسول، السير إلين، السير مرين، الملكة سرسي». بدأ المطر يَسقُط، ورفعَت آريا وجهها لتغسله القطرات شاعرةً بسعادةٍ بالغة تجعلها ترغب في الرّقص، وأضافَت: «ڤالار مورجولِس، ڤالار مورجولِس، ڤالار مورجولِس».

---

(61) المياه القسوس هي المياه الأملح من المياه العذبة والأعذب من المياه المالحة. (المترجم).

تدفّق ضوء الشّمس المشرقة من النّوافذ لتعتدل إليني جالسةً في فِراشها وتتمطّى، وسمعَتها جرتشل تتحرّك فنهضَت في الحال تُحضِر لها معطفها، إذ كان المسكن قد برَد خلال اللّيل. *وما إن يستبدّ بنا الشّتاء سيكون الطّقس أسوأ هنا. الشّتاء سيجعل هذا المكان باردًا كمقبرة.* ارتدَت إليني المعطف وربطَته حول خصرها قائلةً: «النّار تكاد تنطفئ. ضعي المزيد من الحطب إذا سمحتِ».

قالت العجوز: «كما ترغب سيّدتي».

مسكنها في (بُرج العذراء) أوسع وأفخم من غُرفة النّوم الصّغيرة التي وُضِعَت فيها حين كانت الليدي لايسا حيّةً، ولها الآن غُرفة تبديل ملابس ومرحاض خاصّان بها، بالإضافة إلى شرفةٍ من الحجر الأبيض المنحوت تطلّ على (الوادي). بينما تولّت جرتشل إذكاء النّار قطعَت إليني الغُرفة حافية القدمين وخرجَت إلى الشُّرفة. كانت الأحجار باردةً تحت قدميها والرِّيح تعوي بشراسةٍ كما تفعل هنا دائمًا، لكن المنظر جعلَها تنسى كلّ هذا بُرهةً. يقع (بُرج العذراء) في أقصى شرق أبراج (العُش) الرّفيعة السّبعة، جاعلًا (الوادي) كلّه يمتدّ أمامها بغاباته ونهوره وحقوله المبهَمة في ضوء الصّباح، وقد سقطَت أشعّة الشّمس على الجبال جاعلةً إياها تبدو كأنها من الذّهب الخالص.

يا للجمال. من فوقها تلوح قمّة (رُمح العملاق) الملتحفة بالثّلوج. يُقزِّم الجبل الهائل بصخوره وجليده القلعة القابعة على منكبه، بينما تتدلّى كُتَل من الجليد بطول عشرين قدمًا على شفا الجُرف الذي تنهمر عليه (دموع أليسا) في الصّيف، وفوق الشّلّال المتجمّد يُحلّق صقر بجناحين أزرقين مبسوطين عن آخِرهما في سماء الصّباح. *يا ليتني أملك جناحين أيضًا.*

أراحت يديها على الحاجز الحجري وجعلَت نفسها تُلقي نظرة من فوق الحافة، فرأت تحتها بسِتّمئة قدمٍ القلعة الفرعيّة (سماء) والدّرجات الحجريّة المنحوتة في جسم الجبل، الطّريق الملتف الذي يمرّ بـ(ثلج) و(حجر) نازلًا إلى أرض الوادي، ورأت أيضًا أبراج وحصون (بوّابات القمر) صغيرةً كلُعب الأطفال، وقد بدأ رجال لوردات البيان حول أسوارها يتحرّكون خارجين من خيامهم كنملٍ يزحف من كثيبه. *لو كانوا نملًا حقًّا لدهسناهم وسحقناهم.*

قبل يومين انضمّ اللورد هنتر اليافع وجنوده إلى الآخرين. كان نستور رويس قد أغلقَ (بوّابات القمر) أمامهم، لكن في حاميته أقلّ من ثلاثمئة رجل، في حين جلبَ كلٌّ من لوردات البيان السّتّة ألف رجل. تعرف إليني أسماءهم كما تعرف اسمها: بنيدار بلمور سيّد (الأغرودة)، وسايموند تمبلتون فارس (النّجوم التّسع)، وهورتون ردفورت سيّد (ردفورت)، وآينا واينوود سيّدة (السّنديانة الحديديّة)، وجيلوود هنتر سيّد (بهو القوس الطّويل) الذي يُلقّبه القاصي والدّاني باللورد هنتر اليافع، بالإضافة إلى يون رويس، أقواهم جميعًا، يون البرونزي المهيب سيّد (رونستون)، ابن عمومة نستور وزعيم الفرع الأعلى من عائلة رويس. اجتمعَ ستّتهم في (رونستون) بَعد سقطة الليدي لايسا، وهناك تعاهدوا معًا وتعهّدوا أن يُدافِعوا عن اللورد روبرت و(الوادي) وبعضهم بعضًا. لم يتذكّر بيانهم اللورد الحافِظ، وإن وردَ فيه كلام عن «سوء الحُكم» الذي يجب أن يوضَع له حَدٌّ و«الأصدقاء الزّائفين والمستشارين الأشرار» أيضًا.

هبّت الرّيح الباردة ضاربةً ساقيها، فدخلَت لتختار فُستانًا تتناول إفطارها فيه. كان پيتر قد أعطاها ملابس زوجته الرّاحلة، ثروةً من الحرير والسّاتان والمخمل والفراء أفخر من أيّ شيءٍ حلمَت به، وإن كان السّواد الأعظم منها كبير المقاس عليها للغاية، إذ امتلأ جسد الليدي لايسا كثيرًا خلال سلسلة الحمل والإملاص والإجهاض الطّويلة التي مرّت بها. على أن بعضًا من الفساتين القديمة كان مفضّلًا للشّابة لايسا تَلي سليلة (ريڤررَن)، وثمّة فساتين أخرى استطاعت جرتشل تعديلها لتناسب مقاس إليني، التي تكاد ساقاها في سِنّ الثّالثة عشرة تبلُغان طول ساقَي خالتها لمّا كانت في العشرين.

هذا الصّباح لفت نظرها فُستان مبرقَش بأحمر وأزرق عائلة تَلي ومبطّن بفرو السّناجب، وساعدَتها جرتشل على دسّ ذراعيها في الكمّين الواسعين وعقدَت الأربطة على ظَهرها، ثم مشّطت شَعرها وثبّتته بالدّبابيس. ليلة البارحة قبل ذهابها إلى النّوم صبغَته إليني بلونٍ داكنٍ ثانيةً، وكانت الصّبغة التي أعطتها خالتها إياها قد بدّلت لون شَعرها الكستنائي الغني بلون شعر إليني البنّي المحروق، لكن نادرًا ما يطول الوقت قبل أن يُعاوِد الأحمر الزّاحف على جذوره من جديد. *وماذا أفعلُ حين تنفد الصّبغة؟* لقد جُلِبَت من (تايروش) وراء (البحر الضيّق).

في طريقها إلى أسفل لتناوُل الفطور عاذت الدّهشة تُصيب إليني من سكون (الغش)، التي لا توجَد قلعة أكثر هدوءًا منها في (الممالك السّبع) كلّها. الخدم هنا قليلون ومسنّون ويتكلّمون بأصواتٍ خفيضة كي لا يُزعِجوا اللورد الصّغير، وليست هناك خيول على الجبل أو كلاب صيد تنبح وتُزمجِر أو فُرسان يتمرّنون في السّاحة، وحتى وقع أقدام الحُرّاس يبدو مكتومًا وهُم يقطعون الأروقة الحجريّة الشّاحبة. تسمع إليني الرّيح تئنّ وتتنهّد حول البُرج، لكن هذا كلُّ شيء. في بداية مجيئها إلى (الغش) كانت تسمع خرير (دموع أليسا) أيضًا، إلّا أن الشّلّال تجمّد، وقالت جرتشل إنه سيبقى صامتًا حتى الرّبيع.

وجدَت اللورد روبرت وحده في (قاعة الصّباح)، يدفع ملعقةً خشبيّةً بفتورٍ في وعاءٍ كبير من الثّريد والعسل، وحين رآها قال متبرّمًا: «أردتُ أن آكل البيض، أردتُ ثلاث بيضاتٍ مسلوقة ولحمًا مقدّدًا».

ليس عندهم بيض أو لحم مقدّد. حاليًا تحوي صوامع الغلال في (الغش) من الشّوفان والذُّرة والشّعير ما يكفي لإطعامهم عامًا، لكنهم يعتمدون على الفتاة النّغلة المسمّاة ميا ستون في إحضار الأغذية الطّازجة من الوادي بالأسفل، والآن مع عسكرة لوردات البيان عند سفح الجبل فلا سبيل لميا للمرور. كان اللورد بلمور -أول من وصلَ إلى (بوّابات القمر) من السّتّة- قد أرسلَ غُدافًا إلى الإصبع الصّغير قائلًا في رسالته إن لا مزيد من الطّعام سيصعد إلى (الغش) ما لم يُرسل إليه اللورد روبرت. إنه ليس حصارًا بعد، لكنه أقرب شيءٍ إليه.

وعدَت إليني اللورد الصّغير قائلةً: «يُمكنك أن تأكل كلّ ما تُريده من بيضٍ حين تأتي ميا. ستجلب بيضًا وزُبدةً وشمّامًا وكلّ الأصناف الشّهيّة».

قال الصّبي دون أن يبدو عليه الرّضا: «أردتُ بيضًا اليوم!».

ردّت: «ليس هناك بيض يا غصفوري الجميل، تعلم هذا. أرجوك، كُل ثريدك. إنه لذيذ للغاية»، وأكلَت ملعقةً منه.

عادَ روبرت يدفع الملعقة في الوعاء لكنه لم يرفعها إلى فمه، وأخيرًا قال: «لستُ جائعًا. أريدُ العودة إلى الفِراش. لم أنم ليلة أمس. سمعتُ غناءً! المِايستر كولمون سقاني نبيذ النّوم لكنني ظللتُ أسمعه».

وضعَت إليني ملعقتها قائلةً: «لو كان هناك غناء لسمعته أيضًا. لقد رأيتَ حُلمًا سيّئًا لا أكثر».

قال وقد اغرورقَت عيناه بالدّموع: «لا، لم يكن حُلمًا. ماريليون كان يُغنّي ثانيةً. أبوكِ يقول إنه ماتَ لكنه لم يَمُت».

- «بل ماتَ». أرعبَها أن تسمعه يتكلّم هكذا. *سيّئ كفايةً أنه ضئيل سقيم. ماذا لو كان مجنونًا أيضًا؟* «إنه ميت يا غصفوري الجميل. ماريليون أحبَّ السيّدة والدتك كثيرًا ولم يستطِع الحياة بَعد ما فعلَه بها، فخطا إلى السّماء». لم ترَ إليني الجثّة كما لم يرَها روبرت، لكنها لا تشكّ في حقيقة موت المغنّي. «لقد ماتَ، حقًّا».

- «لكنني أسمعه كلَّ ليلة، حتى حين أغلقُ النّوافذ وأضعُ وسادةً على رأسي. كان على أبيكِ أن يقطع لسانه. قلتُ له أن يقطعه لكنه رفضَ».

كان في حاجةٍ إلى لسانٍ ليعترف. ناشدَته إليني قائلةً: «كُن صبيًا مهذّبًا وكُل ثريدك. أرجوك، لأجل خاطري».

صاح روبرت: «لا أريدُ الثّريد»، وطوّح بملعقته عبر القاعة لترتطم بمعلّقةٍ وترتدّ عنها تاركةً لطخةً من الثّريد على قمرٍ من الحرير الأبيض. «اللورد يُريد بيضًا!».

قال صوت بيتر من ورائهما: «اللورد سيأكل الثّريد ويكون شاكرًا».

التفتت إليني ورأته في المدخل المقنطر وإلى جواره المايستر كولمون، الذي قال: «عليك أن تُصغي إلى حضرة اللورد الحافِظ يا سيِّدي. اللوردات حمَلة رايتك يصعدون الجبل ليُقدِّموا لك فروض الولاء، وستحتاج إلى كامل قوَّتك».

فرك روبرت عينه اليُسرى بمفصل إصبعه، وقال: «اصرفوهم. لا أريدهم. إذا أتوا سأجعلهم يطيرون».

قال پيتر: «إنك تُغريني بأن أفعل ذلك للغاية يا سيِّدي، لكني أخشى أني وعدتهم بالأمان، وعلى كلِّ حالٍ فاتَ أوان أن يعودوا أدراجهم. لا بُدَّ أنهم بلغوا (حجر) بالفعل».

ولولَت إليني: «لماذا لا يدعوننا وشأننا؟ إننا لم نمسَّهم بسوءٍ قَطُّ. ماذا يُريدون منا؟».

أجابَ پيتر مبتسمًا: «اللورد روبرت فقط، هو و(الوادي). سيكونون ثمانيةً. اللورد نستور يقودهم إلى هنا، ولين كوربراي معهم. السير لين ليس بالرَّجل الذي يعزف عن الحضور إذا كانت إراقة الدِّماء وشيكةً».

لم يُفلِح كلامه في تهدئة مخاوفها. لقد قتلَ لين كوربراي رجالًا في النّزال بعدد مَن قتلَ في المعارك، وتعلم أنه ظفرَ بفروسيّته في أثناء ثورة روبرت، إذ قاتلَ أولًا ضد اللورد چون آرن على أبواب (بلدة النّوارس)، ولاحقًا تحت رايته في معركة (الثّالوث)، حيث قتلَ الأمير ليوين الدورني الذي كان فارسًا أبيض في الحرس الملكي. قال پيتر إن الأمير ليوين كان مثخنًا بالجراح بالفعل حين جرفَه تيّار المعركة إلى رقصته الأخيرة مع سيف السير لين المسمّى (سيّدة البؤس)، لكنه أضافَ: «إلّا أن تلك ليست نُقطةً تُريدين إثارتها مع كوربراي، فمَن يفعلون سرعان ما ينالون فُرصة سؤال مارتل نفسه عن الحقيقة في دركات الجحيم». إذا كان نِصف ما سمعته من حرس اللورد روبرت صحيحًا فلين كوربراي أخطر من ستّة لوردات البيان مجتمعين. سألَت پيتر: «لماذا سيأتي؟ حسبتُ آل كوربراي يُؤيِّدونك».

- «لايونل كوربراي ميّال جدًّا إلى حُكمي، لكن أخاه يَسلُك سبيله الخاص. في معركة (الثّالوث)، عندما سقطَ أبوهما جريحًا كان لين هو من التقطَ (سيّدة البؤس) وقتلَ الرّجل الذي أصابَه، وبينما حملَ لايونل الأب العجوز إلى المِايسترات في المؤخّرة قادَ لين هجمةً ضد الدورنيّين الذين يُهدِّدون ميسرة روبرت وحطّم صفوفهم وفتك بليوين مارتل، ولذا أسبغَ اللورد كوربراي السّيف على ابنه الأصغر لدى موته. لايونل نالَ أراضي أبيه ولقبه وقلعته وماله كلّه، ومع ذلك ما زالَ يَشعر بأنه سُلِبَ حقَّ ميلاده. أمّا السير لين... إنه يحبُّ لايونل بقدر ما يحبُّني. لقد أرادَ يد لايسا لنفسه».

قال روبرت بعناد: «لا أحبُّ السير لين ولا أريده هنا. اجعله يعود. لم أقل إنه يستطيع المجيء، ليس هنا. أمّي قالت إن (العُش) منيعة».

قال بيتر: «أمُّك ماتت يا سيِّدي، وحتى يوم ميلادك السّادس عشر أنا حاكم (الغش)»، والتفت إلى الخادمة محنيّة الظّهر التي تحوم قُرب سلالم المطبخ، وخاطبها قائلًا: «ميلا، أحضِري ملعقةً أخرى لحضرة اللورد. إنه يُريد أن يأكل ثريده».

- «لا أريده! أريدُ أن يطير الثّريدا». هذه المرّة طوّح بالوعاء بما فيه من ثريدٍ وعسل، ليتفاداه بيتر بايلش برشاقةٍ وسرعةٍ لا يتمتّع بهما المِايستر كولمون، فأصابه الوعاء الخشبي في صدره مباشرةً وتفجّرت محتوياته إلى أعلى على وجهه وكتفيه. ولولَ الرّجل على نحوٍ لا يليق بمِايستر على الإطلاق، في حين التفتت إليني تُهَدِّئ اللورد الصّغير، ولكن متأخّرًا جدًّا. لقد أصابته النّوبة بالفعل، وطارَ إبريق من الحليب إذ ضربته يده، ولمّا حاولَ أن ينهض أوقعَ كُرسيّه إلى الوراء وسقط فوقه، وأصابت ساقه إليني في بطنها بقوّةٍ أفرغت الهواء من صدرها، وسمعت بيتر يقول بامتعاض: «أوه، بحقّ الآلهة».

لوّثت كُتل الثّريد وجه المِايستر كولمون وشعره إذ ركع فوق غهدته متمتمًا بكلماتٍ مهدِّئة، وزحفت واحدة منها على خدّه الأيسر كدمعةٍ بنّيّة رماديّة ثقيلة. فكّرت إليني محاولةً أن تكون متفائلةً: *ليست النّوبة سيّئةً كالمرّة السّابقة*. لدى انتهاء الرّجفة كان حارسان في معطفين بزُرقة السّماء وقميصين معدنيّين فضّيّين قد أتيا على إثر استدعاء بيتر، وقال لهما اللورد الحافِظ: «خُذاه إلى الفِراش ليُغلّق له الفلق»، فحملَ أطولهما قامةً الصّبي بين ذراعيه، وقالت إليني لنفسها: *أستطيعُ أن أحمله بنفسي. إنه ليس أثقل من دُمية*.

مكثَ كولمون لحظةً قبل أن يتبعهما، وقال: «سيّدي، ربما الأفضل أن تؤجّل هذه المفاوضات إلى يومٍ آخر. لقد ساءت نوبات حضرة اللورد منذ موت الليدي لايسا، صارت أكثر تكرارًا وأكثر عنفًا. إنني أعلّق له الفلق متى أجرؤ، وأمزجُ له نبيذ النّوم وحليب الخشخاش لمساعدته على النّوم، ولكن...».

قاطعه بيتر: «إنه ينام اثنتي عشرة ساعةً في اليوم، وأحتاجُ إليه مستيقظًا بين الحين والآخر».

مرّر المِايستر أصابعه في شعره مسقطًا كُتلًا من الثّريد على الأرض، وقال: «الليدي لايسا اعتادت إرضاع حضرة اللورد متى احتاج. المِايستر إيبروز يقول بأن لبن الأم فيه الكثير من الخصائص الصحّيّة».

- «أهذه مشورتك أيها المِايستر؟ أن نجد مُرضعةً لسيّد (العُش) وحامي (الوادي)؟ متى نفطمه إذن؟ يوم زفافه؟ هكذا ينتقل مباشرةً من حلمتَي مُرضعته إلى حلمتَي زوجته»، وجعلَت ضحكة اللورد بيتر رأيه في هذا جليًا قبل أن يُضيف: «لا، لا أظنّ. أقترحُ أن تجد وسيلةً أخرى. الصّبي مولع بالحلويات، أليس كذلك؟».

- «الحلويات؟».

- «الحلويات. الكعك والفطير، المربّى والهُلام، أقراص العسل. ربما رشّة من حُلو الكرى في حليبه، هل جرّبت هذا؟ رشّة صغيرة لتهدئته وإيقاف تلك الرّجفة اللّعينة».

ردّد كولمون: «رشّة؟»، وتحرّكت تفّاحة حلقه إلى أعلى وأسفل إذ ازدرد ريقه، ثم قال: «رشّة واحدة صغيرة... ربما، ربما. ليس الكثير، وليس في أوقاتٍ متقاربة، نعم، يُمكنني أن أجرّب...».

قال اللورد بيتر: «رشّة قبل أن تأتي به للقاء اللوردات».

قال المِايستر: «كما تأمر يا سيّدي»، وأسرعَ مغادرًا وسلسلته ترنّ بخفوتٍ مع كلّ خُطوة.

سألَت إليني بَعد خروجه: «هل تُريد وعاءً من الثّريد لإفطارك يا أبي؟».

رمقها بعينَي الإصبع الصّغير قائلًا: «أكرهُ الثّريد. أفضّلُ أن أفطر على قُبلة».

الابنة الحقيقيّة لا تأبى على أبيها قُبلةً، وهكذا ذهبت إليه إليني وقبّلته، مجرّد قُبلةٍ سريعة جافّة على الخدّ تراجعت بَعدها بالسّرعة نفسها.

قال الإصبع الصّغير مبتسمًا بفمه ولكن ليس بعينيه: «يا لكِ من... مطيعة. حسن، إن عندي واجباتٍ أخرى لكِ بهذه المناسبة. قولي للطّاهي أن يَتبّل النّبيذ الأحمر بالعسل والزّبيب. سيكون ضيوفنا بردانين ظمآنين بَعد طول الصّعود. ستستقبلينهم لدى وصولهم وتُقدّمين لهم النّبيذ والخُبز والجُبنة. ما نوع الجُبنة المتبقّي عندنا؟».

- «البيضاء اللّاذعة والزّرقاء العفنة».

- «البيضاء، والأفضل أن تُبدّلي ثيابكِ أيضًا».

نظرَت إليني إلى فُستانها بأزرقه الدّاكن وأحمره القاني الغني، لونَي (ريفرزن)، وقالت: «أهو...».

- «إنه ثَلي أكثر من اللّازم! لن يسرّ لوردات البيان منظر ابنتي النّغلة تتهادى مرتديةً ثياب زوجتي الميتة. انتقي شيئًا آخر. هل عليّ أن أذكّركِ بأن تتجنّبي الأزرق السّماوي والقشدي؟».

- «لا». الأزرق السّماوي والقشدي لونا عائلة آرن. «قلت إنهم ثمانية... هل يون البرونزي أحدهم؟».

- «الوحيد الذي يهمّ».

قالت مذكّرةً إياه: «يون البرونزي يعرفني. لقد نزلَ ضيفًا في (وينترفل) حين ذهبَ ابنه شمالًا للالتحاق بحرس اللّيل». كم كانت متيّمةً بالسير وايمار. ما زالَت تَذكّره بعض الشّيء، لكن ذلك كان منذ عُمرٍ كامل، عندما كانت فتاةً صغيرةً حمقاء. «ولم تكن تلك المرّة الوحيدة. اللورد رويس رأى... رأى سانزا ستارك ثانيةً في (كينجز لاندنج) في أثناء دورة مباريات اليد».

وضعَ بيتر إصبعًا تحت ذقنها قائلًا: «لا أشكّ في أن رويس رأى هذا الوجه الجميل، لكنه كان وجهًا واحدًا وسط ألف. ثمّة أشياء يهتمُّ بها الرّجل الذي يُقاتِل في دورة مباريات أكثر من طفلةٍ ما في الزّحام. وفي (وينترفل) كانت سانزا فتاةً صغيرةً كستنائيّة الشّعر، أمّا ابنتي فطويلة جميلة وشعرها بنّي. النّاس يرون ما يُريدون أن يروه يا إليني»، وطبعَ قُبلةً على أنفها مضيفًا: «قولي لمادي أن تُشعِل نارًا في الغُرفة الشّمسيّة. سأستقبلُ لوردات البيان هناك».

- «ليس في (القاعة العالية)؟».

- «لا. حاشا للآلهة أن يروني قُرب مقعد آل آرن العالي. قد يحسبونني أنتوي الجلوس عليه. المولود بفلقتي مؤخّرةٍ وضيعتين مِثلي يجب ألّا يطمح إلى الجلوس على وسائد وثيرة كتلك أبدًا».

- «الغُرفة الشّمسيّة». كان عليها أن تتوقّف عند هذا الحدّ، لكن الكلام تدفّق منها رغمًا عنها: «إذا أعطيتهم روبرت...».

- «... و(الوادي)؟».

- «(الوادي) في أيديهم بالفعل».

- «أوه، أكثره، هذا صحيح، ولكن ليس كلّه. إنني محبوب في (بلدة النّوارس)، وعندي بعض الأصدقاء الأعيان كذلك. جرافتون، ليندرلي، لايونل كوربراي... ولو أنهم ليسوا أندادًا للوردات البيان بالفعل. وأين تُريديننا أن نذهب يا إليني؟ نعود إلى معقلي العظيم في (الأصابع)؟».

كانت قد فكّرت في هذا من قبل، فأجابت: «چوفري منحك (هارنهال). إنك سيّدها الشّرعي».

- «اسمًا. لقد احتجتُ إلى مقرّ عظيم لأتزوّج لايسا، وآل لانستر ما كانوا ليمنحوني (كاسترلي روك)».

- «نعم، لكن القلعة لك».

- «آه، ويا لها من قلعة. قاعات فسيحة وأبراج متهدّمة وأشباح وتيّارات هواء عنيفة، تدفئتها عسيرة وإقامة حامية فيها مستحيلة... وهناك المسألة الصّغيرة الخاصّة باللّعنة».

- «اللّعنات لا توجَد إلّا في الأغاني والقِصص فقط».

بدا أنه وجدَ ردّها طريفًا إذ قال: «هل ألف أحد أغنيّةً عن موت جريجور كليجاين بحربةٍ مسمومة؟ أو عن المرتزق من قبله الذي قطّع السير جريجور أطرافه مفصلًا مفصلًا؟ ذلك المرتزِق أخذَ القلعة من السير آموري لورك الذي تلقّاها من اللورد تايوين. أحدهما قتلَه ذئبٌ والثاني قتلَه قزمك. سمعتُ أن الليدي وِنت ماتت أيضًا. آل لوثستون، آل ستّرونج، آل هارووواي... (هارنهال) أودَت بكلّ من مسّها».

- «أعطِ اللورد فراي إياها إذن».

ضحك بيتر، وقال: «ربما أفعلُ، أو الأفضل أن أعطي عزيزتنا سرسي إياها، ولو أنه لا يَجدُر بي أن أتكلّم عنها بقسوةٍ لأنها أرسلَت إليّ بضع معلّقاتٍ رائعة. أليس هذا لُطفًا منها؟».

جعلَها ذِكر اسم الملكة تتسمّر وتقول: «سرسي ليست لطيفةً. إنها تُخيفني. إذا علمَت مكاني...».

- «... فربما أضطرُّ إلى إزاحتها من اللّعبة في وقتٍ أقرب مما خطّطت، هذا إذا لم تُزِح نفسها أولًا». وداعبَها بيتر بابتسامةٍ متابعًا: «في لُعبة العروش حتى أكثر البيادق تواضُعًا يُمكن أن تكون له إرادته الخاصّة، وأحيانًا يَرفض بعض البيادق أن يتحرّك كما خطّطتِ له. احفظي هذا عن ظَهر قلب يا إليني. إنه درس ما زالَ على سرسي لانستر أن تتعلّمه. والآن أليست عليكِ واجبات تُؤدّينها؟».

عليها واجبات بالفعل. أشرفَت أولًا على تتبيل النّبيذ، ووجدَت قالبًا مناسبًا من الجُبنة البيضاء اللّاذعة، وأمرَت الطّاهي بخَبز خُبزٍ يكفي عشرين فردًا تحسّبًا لأن يجلب لوردات البيان رجالًا أكثر من المتوقّع. *حالما يأكلون عيشنا وملحنا سيُصبِحون ضيوفنا ولن يُمكنهم إيذاءنا*. آل فراي ضربوا بجميع قوانين الضّيافة عرض الحائط عندما اغتالوا السيّدة والدتها وأخاها في (التّوأمتين)، لكنها لا تُصَدّق أن رجلًا نبيلًا كاللورد يون رويس بإمكانه أن ينحدر إلى اقتراف فعلٍ وضيع كهذا.

بَعد ذلك ذهبَت إلى الغُرفة الشّمسيّة. الأرضيّة هناك مغطّاة ببساطٍ مايري، وليس هناك داعٍ إلى فرشها بالحصائر. طلبَت إليني من اثنين من الخدم أن ينصبا الطّاولة ويجلبا ثمانيةً من المقاعد الثّقيلة المصنوعة من السّنديان والجِلد. في حال إقامة مأدبةٍ كانت لتضع واحدًا عند رأس الطّاولة وواحدًا عند قدمها وثلاثةً على كلّ جانب، لكن هذه ليست مأدبة، ولذا جعلَت الخادمين يرصّان ستّة مقاعد على أحد الجانبين ومقعدين على الجانب الآخَر. لا بُدّ أن لوردات البيان بلغوا (ثلج) الآن بالفعل. الصُّعود يستغرق أكثر اليوم حتى على ظهور البغال، وعلى الأقدام يستغرق عدّة أيام.

ربما ينهمك اللوردات في الحديث حتى ساعةٍ متأخرة من اللّيل وسيحتاجون إلى شموعٍ جديدة، ولذا بَعد أن أشعلَت مادي النّار أرسلَتها إليني لتجلب الشّموع المعطّرة التي أهداها اللورد واكسلي إلى الليدي لايسا حين سعى إلى الفوز بيدها، ثم إنها عادَت إلى المطبخ لتتأكّد من أن النّبيذ والخُبز جاهزان. بدا كلُّ شيءٍ على ما يُرام، وما زالَ أمامها وقت لتستحمّ وتغسل شَعرها وتُبدّل ثيابها.

ثقة فُستان من الحرير الأرجواني توقَّفت عنده لحظةً، وآخَر من المخمل الأزرق الدّاكن مشرّط بالفضّي من شأنه أن يُوقِظ كلّ ما في عينيها من ألوان، لكنها في النّهاية تذكّرت أن إليني رغم كلّ شيءٍ نغلة ويجب ألّا تتجزأ وترتدي شيئًا يفوق مقامها. هكذا انتقت فُستانًا من صوف الحِملان لونه بنّي داكن وتفصيلته بسيطة، على صدره وكُمّيه وحاشيته أوراق شجرٍ ونباتات معترشة مطرّزة بخيطٍ ذهبي. اختارَته لأنه متواضع وملائم، وإن كان ليس أفخم كثيرًا من فُستانٍ ترتديه خادمة. كان بيتر قد أعطاها جميع حُليّ الليدي لايسا أيضًا، فجرّبت عدّة قلادات لكنها بدَت مبهرجةً كلُّها، وفي آخِر الأمر اختارَت شريطًا بسيطًا من المخمل بلون الذُّهب الخريفي، ولمّا جليَت لها جرتشل مرآة لايسا المفضّضة بدا اللون متاليًا مع شَعر إليني البنّي القاتم. *لن يتعرّفني اللورد رويس أبدًا. إنني بالكاد أتعرّفُ نفسي.*

شاعرةً بجرأةٍ تُداني جرأة بيتر بايلش، رسمَت إليني ستون ابتسامتها على شفتيها ونزلَت تستقبل الضُّيوف.

(الغش) القلعة الوحيدة في (الممالك السّبع) التي يقع مدخلها الرّئيس تحت الزّنازين. على جانب الجبل ترتفع السّلالم الحجريّة المنحدِرة متجاوزةً القلعتين الفرعيّتين (حجر) و(ثلج)، لكنها تنتهي عند شقيقتهما (سماء)، أمّا الأقدام السّتُّمئة المتبقّية من رحلة الصّعود فعموديّة تُجبِر الزّائرين على التّرجُّل عن بغالهم والاختيار، فإمّا أن يركبوا السّلّة الخشبيّة المتأرجحة التي تُستخدَم لرفع المؤن، وإمّا أن يتسلّقوا مدخنةً صخريّةً مستخدمين دعاماتٍ منحوتة في الصّخر.

اختارَ اللورد ردفورت والليدي واينوود -أكبر لوردات البيان سِنًا- أن تسحبهم الرّافعة إلى أعلى، وبعدها أنزِلَت السّلّة ثانيةً للورد بلمور السّمين، في حين تسلّق اللوردات الآخرون المدخنة. استقبلَتهم إليني في (قاعة الهلال) إلى جوار مستوقَد نار، حيث رحّبت بهم باسم اللورد روبرت وقدّمت لهم الخُبز والجُبنة ونبيذًا متبّلًا ساخنًا في كؤوس فضّيّة.

كان بيتر قد أعطاها لفافةً من رموز النّبالة تدرسها لتتعرّفهم من رموزهم إن لم يكن من وجوههم. القلعة الحمراء لردفورت بالطّبع، وهو رجل قصير القامة له لحية شائبة مشذّبة وعينان وديعتان. الليدي آنيا المرأة الوحيدة بين لوردات البيان، وقد ارتدَت معطفًا أخضر داكنًا عليه العجلة المكسورة رمز عائلة واينوود مطرّزةً بالكهرمان الأسود. الأجراس الفضّيّة السّتّة على المعطف الأرجواني هي رمز بلمور ذي البطن الكبير والكتفين المستديرتين واللّحية الحمراء الضّاربة إلى الرّمادي، لحية شنيعة نابتة من ذقنه المترهّل. على العكس منه لحية سايموند تمبلتون سوداء مدبّبة تمامًا، وقد جعلَ الأنف المعقوف والعينان الزّرقاوان الباردتان كالثّلج فارس (النّجوم التّسع) يبدو كطائرٍ كاسرٍ أنيق، خصوصًا مع سترته القصيرة بنجماتها السّوداء التّسع المرسومة على صليب ذهبي مائل. حيّرها معطف اللورد هنتر اليافع المصنوع من فرو القاقوم إلى أن لمحت الدّبّوس الذي يُثبّته متّخذًا شكل خمسة سهامٍ فضّيّة منشورة كالمروحة. قدّرت إليني أن سِنّه أقرب إلى الخمسين من الأربعين. كان أبوه قد حكمَ في (يهو القوس الطّويل) فترةً تقرُب من ستّين عامًا، فقط ليموت على نحوٍ مباغت للغاية، حتى إن بعضهم قال هامسًا إن اللورد الجديد استعجلَ الحصول على إرثه. لهنتر وجنتان وأنف بلون التّفّاح الأحمر، وهو ما يشي بولعٍ معيّن بالعنب، ولذا حرصَت على إعادة مَلء كأسه ما إن يُفرِغها.

أصغر رجلٍ في المجموعة على صدره ثلاثة غِدفان كلٌّ منها يقبض على قلب أحمر دامٍ ببراثنه، ويبلُغ شَعره البنّي كتفيه بينما تتجعّد خُصلة نافرة منه على جبهته. بنظرةٍ حذرة إلى فمه القاسي وعينيه الضَّجرتين قالت إليني لنفسها: *السير لين كوربراي*.

آخِرهم ابنا عائلة رويس، اللورد نستور ويون البرونزي. يُعادِل سيِّد (رونستون) كلب الصَّيد طولًا، وعلى الرغم من شيب شَعره وتجاعيد وجهه فلم يزل اللورد يون يبدو قادرًا على كسر رجالٍ أصغر منه سِنًّا كغُصينات الشَّجر بهاتين اليدين الضَّخمتين الخشنتين. أعادَ وجهه الصَّارم المتغضِّن إلى سانزا جميع ذكرياتها عنه في (وينترفل)، وتذكَّرته جالسًا إلى المائدة يتكلَّم بهدوءٍ مع أمِّها، وسمعت صوته الجهوري يتردَّد على الأسوار إذ عادَ من الصَّيد بظبيٍ وراءه على حصانه، ورأته في الشَّاحة وفي يده سيف تدريب يهوي به على أبيها بلا كللٍ حتى أسقطه ثم يلتفت ليهزم السير رودريك أيضًا. سيتعرَّفني، وكيف لا؟ خطرَ لها أن تُلقي نفسها عند قدميه وتتوسَّل حمايته، لكنها أحجمت قائلةً لنفسها: *إنه لم يُقاتِل من أجل روب، فلِمَ يُقاتِل من أجلي؟ الحرب انتهت و(وينترفل) سقطت*. سألَته بخفر: «لورد رويس، هل تشرب كأسًا من النَّبيذ تُدفِّئك من البرد؟».

ليون البرونزي عينان رماديَّتان كصخر الأردواز، شِبه متواريتين تحت أكثف حاجبين رأتهما على الإطلاق، وقد انعقدا حين نظرَ إليها من أعلى متسائلًا: «هل أعرفكِ يا فتاة؟».

أحسَّت إليني كأنها ابتلعت لسانها، لكن اللورد نستور أنقذَها بردِّه على ابن عمومته بلهجته الفظَّة: «إليني ابنة اللورد الحافظ الطَّبيعيَّة».

قال لين كوربراي بابتسامةٍ خبيثة: «يبدو أن إصبع الإصبع الصَّغير الصَّغير كان مشغولًا»، فضحك بلمور وأحسَّت إليني بوجنتيها تتخضَّبان بالحمرة.

سألتها الليدي واينوود: «كم سِنُّكِ أيتها الصَّغيرة؟».

- «أربع... أربع عشرة سنة يا سيِّدتي». للحظةٍ نسيَت سِنَّ إليني المفترَضة. «ولستُ صغيرةً. إنني فتاة مزهرة».

قال اللورد هنتر اليافع وقد أخفى شاربه الكَثُّ فمه تمامًا: «لكن أحدًا لم يقطف زهرتكِ كما آملُ».

قال لين كوربراي كأنها ليست موجودةً: «ليس بعدُ، لكني أرى أنها ناضجة جاهزة للقطاف قريبًا».

- «أهذا ما يعدُّ كياسةً في (بيت القلوب)؟». لآنيا واينوود شعر يزحف عليه الشَّيب وتجاعيد حول عينيها وجِلد رخو تحت ذقنها، لكن لا مجال لإخطاء طابع النُّبل فيها. «الفتاة صغيرة وطيِّبة النَّسب وعانَت ما يكفي من أهوال. احفظ لسانك أيها الفارس».

رَدَّ كوربراي: «لساني يخصُّني وحدي، وعلى حضرة الليدي أن تحرص على حفظ لسانها هي. إنني لم أعتَد التَّعامُل مع التَّوبيخ بلُطفٍ قَطُّ، كما سيؤكِّد لكِ عدد كبير من الموتى».

التفتَت الليدي واينوود عنه، وقالت: «الأفضل أن تأخذينا إلى أبيكِ يا إليني. كلَّما عجَّلنا بالفروغ من هذا كان أفضل».

- «حضرة اللورد الحافِظ ينتظركم في الغُرفة الشَّمسيَّة. أرجو أن تتفضَّلوا وتتبعوني». من (قاعة الهلال) قادَتهم صاعدةً السَّلالم الرُّخام العالية التي تتجاوَز الأقبية والزَّنازين وتمرُّ تحت ثلاث فتحات دفاعٍ تظاهرَ لوردات البيان بأنهم لا يرونها، وسرعان ما بدأ بلمور ينفخ ككير الحدّاد، واصطبغَ وجه ردفورت بالرَّمادي كشعره. رفعَ الحُرّاس على قمَّة السَّلالم الشَّبكة الحديديَّة لدى وصولهم، وقالت إليني للضُّيوف: «تفضَّلوا من هنا أيها السّادة»، وقادَتهم عبر الرُّواق المقنطر مرورًا بدستةٍ من المعلَّقات البديعة، وكان السير لوثور برون واقفًا خارج الغُرفة الشَّمسيَّة، ففتحَ لهم الباب ثم تبعهم إلى الدّاخل.

كان بيتر جالسًا إلى الطّاولة وقُرب يده كأس نبيذ، يقرأ رَقًّا أبيض مجعّدًا، وإذ دخلَ لوردات البيان رفعَ عينيه قائلًا: «مرحبًا بكم أيها السّادة، وبكِ أيضًا يا سيّدتي. أعرفُ أن الصّعود كان متعِبًا. تفضّلوا بالجلوس. إليني يا خلوتي، المزيد من النّبيذ لضيوفنا النّبلاء».

- «كما تقول يا أبي». سرّها أن ترى الشّموع مضاءةً وتشمّ في هواء الغرفة رائحة جوز الطّيب وغيره من التّوابل النّفيسة. ذهبَت تُحضِر الإبريق فيما رتّب الزّائرون أنفسهم جنبًا إلى جنبٍ على المقاعد... كلُّهم باستثناء نستور رويس الذي تردّد قبل أن يدور حول الطّاولة ليأخذ المقعد الشّاغر إلى جوار اللورد بيتر، ولين كوربراي الذي وقفَ إلى جوار المستوقَد، لتلتمع الياقوتة ذات شكل القلب في قبيعة سيفه بالأحمر إذ دفّأ يديه فوق النّار. رأته إليني يبتسم للسير لوثور برون، ففكّرت: *السير لين وسيم للغاية بالنّسبة إلى رجلٍ أكبر سِنًّا، لكن ابتسامته لا تُعجِبني.*

استهلّ بيتر الكلام قائلًا: «كنتُ أقرأ بيانكم المهمّ هذا. مدهش. المِايستر الذي كتبه أيًّا كان يتمتّع بفصاحةٍ بالغة. ليتكم فقط دعوتموني لأوقّعه أيضًا».

باغتَهم قوله، وردّ بلمور: «أنت؟ تُوَقّع؟».

- «أستطيعُ الكتابة بالرّيشة كأيّ أحد، ولا إنسان يحبُّ اللورد روبرت أكثر مني. وبالنّسبة إلى هؤلاء الأصدقاء الزّائفين والمستشارين الأشرار فهيا بنا نستأصلهم مهما كلّف الأمر. إنني معكم قلبًا وقالبًا أيها السّادة. أروني أين أوقّعُ أرجوكم».

بينما تصبُّ إليني النّبيذ سمعَت لين كوربراي يُقهقِه، في حين بدا الآخرون حائرين، إلى أن فرقعَ يون رويس البرونزي مفاصل أصابعه، وقال: «لم نأتِ من أجل توقيعك، ولا ننوي أن نتراشق معك الكلام أيها الإصبع الصّغير».

- «مؤسف. إنني أحبُّ الكلام المتراشَق»، وأزاح بيتر الزِّقَّ قائلًا: «كما ترغبون، لنتكلَّم بلا موازبة. ماذا تُريدون مني أيها السَّادة والسيِّدة؟».

ثبَّت سايموند تمبلتون نظرته الزَّرقاء الباردة على اللورد الحافِظ مجيبًا: «لا نُريد منك شيئًا، نُريدك أن ترحل».

تساءلَ بيتر متظاهرًا بالدَّهشة: «أرحلُ؟ إلى أين؟».

قال اللورد هنتر اليافع: «التَّاج نصَّبك سيِّدًا على (هارنهال). المفترَض أن يكتفي أيُّ رجلٍ بهذا».

وأضافَ اللورد هورتون ردفورت العجوز: «أراضي النَّهر في حاجةٍ إلى حاكم. (ريڤررَن) محاصَرة، وآل براكن وآل بلاكوود في حربٍ مفتوحة، والخارجون عن القانون يجولون على جانبَي (الثَّالوث) بحرِّيَّةٍ مطلقة، يسرقون ويقتلون كما يشاؤون. الجُثث غير المدفونة تفترش أرض الرِّيف أينما ذهبَ المرء».

أجابَ بيتر: «تجعل الأمر يبدو جذَّابًا للغاية يا لورد ردفورت، لكن الحقيقة أن عليَّ واجباتٍ ملحَّة هنا. ويجب وضع اللورد روبرت في الاعتبار أيضًا. هل تُريدونني أن أجرَّ طفلًا سقيمًا معي في غمار تلك الفوضى؟».

أعلنَ رون رويس: «حضرة اللورد سيبقى في (الوادي). إنني أنوي أن آخذه معي إلى (رونستون) وأربِّيه لكي يصير فارسًا كان جون آرن ليفخر به».

سألَ بيتر متأمِّلًا: «ولِمَ (رونستون)؟ لِمَ ليس (السَّنديانة الحديديَّة) أو قلعة (ردفورت) أو (بهو القوس الطَّويل)؟».

قال اللورد بلمور بحزم: «أيُّ مكانٍ من هذه يَصلُح، وفي الوقت المناسب سيزور حضرة اللورد كلًّا منها».

بنبرةٍ تشي بالشَّكِّ قال بيتر: «حقًّا؟».

تنهّدت الليدي واينوود، وقالت: «لورد بيتر، إذا كنت ترمي إلى إحداث الوقيعة بيننا فوفّر على نفسك الجهد. إننا نتكلّم بصوتٍ واحد، و(رونستون) تناسبنا جميعًا. اللورد يون ربّى ثلاثة أبناءٍ صالحين، وليس هناك من هو أنسب منه لتربية حضرة اللورد الصّغير، ثم إن المِايستر هليوبيج أكبر سِنًا وأكثر خبرةً بكثير من مِايسترك كولمون وأقدر على علاج ضعف اللورد روبرت. في (رونستون) سيتعلّم الصّبي فنون الحرب من سام ستون القوي، ولا أحد يأمل أن يكون معلّم سلاحه رجلًا أفضل، وسيُرشِده السّپتون لوكوس في أمور الرّوح. وفي (رونستون) سيجد أيضًا صِبيةً آخَرين من سِنّه، رفاقًا أنسب له من المسنّات والمرتزِقة الذين يُحيطون به الآن».

داعبَ پيتر بايلش لحيته بأصابعه قائلًا: «حضرة اللورد في حاجةٍ إلى رفاق، لا أخالفكم في هذا، لكن إليني ليست مسنّةً. اللورد روبرت مغرم بابنتي وسيسرّه أن يُخبِركم بهذا بنفسه. وبهذه المناسبة، حدثَ أن طلبتُ من اللورد جرافتون واللورد ليندرلي أن يُرسِل كلٌّ منهما إليّ ابنًا يكون ربيبي. كلاهما له ابن في سِنّ روبرت».

قال لين كوربراي ضاحكًا: «جروان ابنا كلبين خانعين».

- «يجب أن يكون هناك فتى أكبر في رِفقة روبرت أيضًا، مُرافق شاب واعد مثلًا، شخص يُعجَب به ويُحاوِل أن يحتذي مثاله»، والتفتَ پيتر إلى الليدي واينوود مخاطبًا إياها: «إن عندكِ فتى كهذا في (السّنديانة الحديديّة) يا سيّدتي. ربما تُوافِقين على أن تُرسِلي إليّ هارولد هاردينج».

ردّت آنيا واينوود وقد وجدَت قوله طريفًا: «لورد پيتر، أنت أجرأ لِصّ التقيته على الإطلاق».

- «لستُ أرغبُ في سرقة الفتى، لكن ينبغي أن يكون هو واللورد روبرت صديقين».

مالَ يون رويس البرونزي إلى الأمام قائلًا: «ملائم تمامًا أن يُصادق اللورد روبرت الفتى هاري، وسيفعل... في (رونستون) تحت رعايتي، باعتباره ربيبي ومُرافقي».

وقال اللورد بلمور: «أعطِنا الصَّبي ولك أن ترحل من (الغش) دون أن يعترض طريقك أحد إلى مقرِّك اللّائق في (هارنهال)».

رمقه پيتر بنظرة تأنيب خفيف، وقال: «هل تُلمِّح إلى أن أذى سيمسُّني في حال عدم حدوث ذلك يا سيِّدي؟ لا أستطيع التَّفكير في سبب. زوجتي الرَّاحلة ارتأت أن هذا مقرِّي اللّائق».

قالت الليدي واينوود: «لورد بايلِش، لايسا تَلي كانت زوجة چون آرن وأُم ابنه، وحكمَت هنا باعتبارها الوصيَّة عليه، أمَّا أنت... لنكن صُرحاء، أنت لست من آل آرن واللورد روبرت ليس من دمك. بأيِّ حَقٍّ تُحاوِل أن تَحكُمنا؟».

- «لايسا سمَّتني اللورد الحافِظ على ما أذكر».

قال اللورد هنتر اليافع: «لايسا تَلي لم تكن ابنة (الوادي) حقًّا، ولم يكن لها الحَقُّ في إدارة شؤوننا».

- «واللورد روبرت؟ هل سيَزعُم حضرة اللورد أيضًا أن الليدي لايسا لم يكن لها الحَقُّ في إدارة شؤون ابنها؟».

ظَلَّ نستور رويس صامتًا طوال الوقت، لكنه رفع صوته الآن قائلًا: «لقد أملتُ أن أتزوَّج الليدي لايسا من قبل عن نفسي، كما كان يأمل أبو اللورد هنتر وابن الليدي آنيا، وكوربراي برح جانبها بالكاد طيلة نِصف عام. لو اختارت أيًّا منا لما جادَل أحد هنا في حقِّه في أن يكون اللورد الحافِظ... لكنها اختارت اللورد الإصبع الصَّغير وعهدَت إليه برعاية ولدها».

قال يون البرونزي عابسًا في وجه وليِّ (بوّابات القمر): «إنه ولد چون آرن أيضًا يا ابن العم، ومكانه في (الوادي)».

تظاهرَ پيتر بالدهشة قائلًا: «(الغش) جزء من (الوادي) تمامًا كـ(رونستون)، ما لم يكن أحدهم قد نقلَها».

رَدَّ اللورد بلمور مغضبًا: «امزح كما تُريد أيها الإصبع الصَّغير. الصَّبي سيأتي معنا».

- «أكرهُ أن أخيِّب أملكم يا لورد بلمور، لكن ابن زوجتي سيبقى هنا معي. إنه ليس طفلًا قويًا كما تعلمون جميعًا، والرِّحلة ستُنهِكه لأقصى درجة. بصفتي زوج أمِّه واللورد الحافِظ لا أستطيعُ أن أسمح بذلك».

تنحنحَ سايموند تمبلتون، وقال: «كلٌّ منا معه ألف رجل عند سفح الجبل أيها الإصبع الصَّغير».

- «مكان رائع لهم».

- «ويُمكننا استدعاء المزيد إذا دعَت الحاجة».

سألَه پيتر دون أن يلوح في نبرته أدنى خوف: «هل تُهدِّدني بالحرب أيها الفارس؟».

قال يون البرونزي: «سنأخذ اللورد روبرت».

بدا أنهم بلغوا طريقًا مسدودًا، إلى أن التفتَ لين كوربراي عن النَّار قائلًا: «كلُّ هذا الكلام يُصيبني بالغثيان. الإصبع الصَّغير سيُقنعكم بخلع ثيابكم الدَّاخليَّة إذا أصغيتم له كفاية. الطَّريقة الوحيدة للتَّعامُل مع أمثاله الفولاذ»، واستلَّ سيفه الطَّويل.

بسطَ پيتر يديه قائلًا: «لستُ أحملُ سيفًا أيها الفارس».

تموَّج ضوء الشُّموع على الفولاذ الرَّمادي كالدُّخان، الدَّاكن لدرجةٍ ذكَّرت سانزا بسيف أبيها العظيم (جليد)، وردَّ كوربراي: «مشكلة سهلة العلاج. رجلك آكل الثُّفَّاح يحمل سيفًا. قُل له أن يُعطيك إياه أو اسحب هذا الخنجر».

رأت لوثور برون يمدُّ يده إلى سيفه، لكن قبل أن يتقارع النَّصلان نهضَ يون رويس البرونزي قائلًا بحنق: «ضَع سيفك في غِمده أيها الفارس! أأنت كوربراي أم فراي؟ نحن ضيوف هنا».

وزمَّت الليدي واينوود شفتيها قائلةً: «هذا لا يليق».

وردّد اللورد هنتر اليافع: «أغمِد سيفك يا كوربراي. إنك تُخزينا جميعًا بتصرُّفك هذا».

وقال اللورد ردفورت موبِّخًا بنبرةٍ ألطف: «هلمّ يا لين، لن يُفيدك هذا إطلاقًا. ضَع (سيّدة البؤس) في غِمدها».

ردّ السير لين بعناد: «سيّدتي ظمأى. كلّما خرجَت تَرقُص رغبَت في قطرةٍ من الأحمر».

وضعَ يون البرونزي نفسه في طريق كوربراي مباشرةً قائلًا: «فلتظلّ سيّدتك ظمأى».

أطلقَ لين كوربراي نخيرًا ساخرًا، وقال: «لوردات البيان. كان حريًا بكم أن تُسمّوا أنفسكم المسنّات الستّ»، وعادَ يدسّ السّيف القاتم في غِمده وتركَهم مارًّا بلوثور برون كأنه ليس موجودًا، وسمعت إليني وقع خُطواته يخفت.

تبادلَت آنيا واينوود وهورتون ردفورت نظرةً، وأفرغَ هنتر كأسه في جوفه ورفعَها لتُملَأ من جديد، بينما قال السير سايموند: «لورد بايلش، أرجو أن تغفر لنا هذا الابتذال».

قال الإصبع الصّغير بنبرةٍ زحفَ عليها البرود: «حقًّا؟ لقد أتيتم به هنا أيها السّادة».

قال يون البرونزي: «لم تكن نيّتنا قَطّ أن...».

- «أنتم أتيتم به هنا! سيكون من حقّي تمامًا أن أستدعي حَرسي وألقي القبض عليكم جميعًا».

هَبّ هنتر واقفًا بعُنف كادَ يُسقِط الإبريق من يد إليني، وقال: «لقد وعدتنا بالأمان!».

رَدّ بيتر بنبرةٍ غاضبة لم تسمعها في صوته من قبل إطلاقًا: «نعم. فلتمتثلوا لتحلّي بالشّرف أكثر من بعض النّاس. لقد قرأتُ بيانكم وسمعتُ مطالبكم، والآن اسمعوا مطالبي. أبعِدوا جيوشكم عن هذا الجبل، عودوا إلى دياركم واتركوا ابني في سلام. كان هناك سوء حُكمٍ بالفعل ولن أنكر هذا، لكنه كان من صُنع لايسا لا صُنعي. امنحوني عامًا واحدًا فقط، وبمساعدة اللورد نستور أعدكم بأن لا أحد منكم سيجد سببًا للشّكوى».

قال بلمور: «هذا ما تقوله، لكن كيف نثق بك؟».

- «هل تجرؤ على القول بأنني لستُ أهلًا للثّقة؟ لستُ أنا مَن جرّد فولاذه في أثناء التّفاوُض. لقد كتبتم عن الدّفاع عن اللورد روبرت بينما تأبون عليه الطّعام. يجب أن ينتهي هذا. إنني لستُ محاربًا لكنني سأقاتلكم إذا لم ترفعوا هذا الحصار. هناك لوردات غيركم في (الوادي)، وسترسِل (كينجز لاندنج) رجالًا أيضًا. إذا كانت الحرب ما تُريدون فقولوا وسنُراق الدّماء في (الوادي)».

رأت إليني زهور الشّكّ تتفتّح في أعيُن لوردات البيان، وقال اللورد ردفورت بتردُّد: «عام ليس وقتًا طويلًا. ربما... إذا أعطيتنا ضمانات...».

أيّدته الليدي واينوود قائلةً: «لا أحد منّا يُريد الحرب. الخريف يُشارِف نهايته ولا بُدّ أن نُهَيِّئ أنفسنا للشّتاء».

تنحنحَ بلمور وقال: «في نهاية هذا العام...».

- «... إذا لم أُصحِّح الأوضاع في (الوادي) فسأتنحّى عن منصب اللورد الحافِظ بإرادتي».

عقّب نستور رويس: «أظنُّ هذا عادلًا وأكثر».

وقال تمبلتون بإصرار: «يجب ألّا يكون هناك قصاص أو كلام عن الخيانة أو التّمرُّد. عليك أن تُقسِم على هذا أيضًا».

قال بيتر: «يُسعدني أن أفعل. إنني أرغبُ في الأصدقاء لا الأعداء. سأعفو عنكم جميعًا، كتابةً إذا أردتم، حتى لين كوربراي. أخوه رجل صالح، ولا داعي إلى تكليل عائلةٍ نبيلة بالعار».

التفتت الليدي واينوود إلى رفاقها لوردات البيان قائلةً: «هل نطرح الأمر للمشاورة أيها السّادة؟».

قال يون البرونزي: «لا داعي. واضحٌ أنه فاز»، وتفرَّس في بيتر بايلش بعينيه الزّماديّتين مردفًا: «لا يروقني هذا، لكن يبدو أن لك العام الذي تَطلُبه. خيرٌ لك أن تُحسن استغلاله يا سيِّدي، فليس من السّهل خداعنا جميعًا»، وفتحَ الباب بقوّةٍ عاتية كادَت تخلعه من مِفصلاته.

لاحقًا أقيمَ ما هو أشبه بالمأدبة، وإن اضطرَّ بيتر إلى الاعتذار إليهم بسبب الطّعام المتواضع، وجيءَ بروبرت في سُترةٍ من القشدي والأزرق ولعبَ دور اللورد الصّغير بتهذيب شديد، في حين تغيّب يون البرونزي إذ رحلَ بالفعل من (الغش) ليبدأ رحلة النّزول الطّويلة التي سبقَه إليها السير لين كوربراي، وظَلَّ الباقون معهم حتى الصّباح.

ليلتها بينما تمدّدت إليني في الفِراش مصغيةً إلى عُواء الرّيح في الخارج فكّرت: *لقد سحرَهم*. لا تدري من أين أتى الارتياب الذي انتابها، لكن بمجرَّد أن جالَ ببالها حرمَها النّوم، وراحت تتقلّب وهو ينهشها كما ينهش الكلب عظمةً، وأخيرًا نهضَت وارتدَت ثيابها تاركةً جرتشل لأحلامها.

كان بيتر لا يزال مستيقظًا يخطُّ رسالةً، ولمّا دخلَت عليه سألَها: «إلين يا خلوتي، ماذا تفعلين هنا في هذه السّاعة المتأخِّرة؟».

- «يجب أن أعرف. ما الذي سيَحدُث خلال عام؟».

وضعَ ريشته مجيبًا: «ردفورت ووداينوود عجوزان، وربما يموت أحدهما أو كلاهما. جيلوود هنتر سيغتاله إخوته، غالبًا هارلان الشّاب الذي رتّب موت اللورد إيون. كما أقولُ دائمًا، إذا سرقتِ فاسرقي أيلًا. بلمور فاسد ويُمكن شراؤه. تمبلتون سأصادِقه. أمّا يون رويس البرونزي فأخشى أنه سيظلُّ معاديًا، لكن ما دامَ وحده فلن يُشكّل تهديدًا يُذكَر».

- «والسير لين كوربراي؟».

تراقصَ ضوء الشُّموع في عينيه إذ أجابَ: «السير لين سيبقى عدوّي اللّدود، وسيتكلّم عني بسخريةٍ وازدراء مع كلّ من يلتقي ويُشارِك بسيفه في كلّ مؤامرةٍ سرّيّة للإطاحة بي».

هنا استحالَت ريبتها إلى يقين، فقالت: «وكيف ستُكافِئه على خدمته؟».

أطلقَ الإصبع الصّغير ضحكةً عاليةً، وقال: «بالذّهب والغِلمان والوعود بالطّبع. السير لين رجل بسيط الذّوق يا حُلوتي، لا يحبُّ إلّا الذّهب والغِلمان والقتل».

بشفتين ممطوطتين استياءً قال لها الملك: «أريدُ أن أجلس على العرش الحديدي. كنتِ تدعين جوف يجلس عليه دائمًا».

- «جوفري كان في الثّانية عشرة».

- «لكنني الملك! العرش ينتمي إليّ!».

سألَته سرسي: «مَن أخبرَك بهذا؟»، وأخذَت نفسًا عميقًا كي تعقد دوركاس أربطة فُستانها بمزيدٍ من الإحكام. إنها فتاة كبيرة الحجم وأقوى كثيرًا من سينل، وإن كانت أكثر خَرقًا أيضًا.

احمرَّ وجه تومن، وقال: «لا أحد أخبرَني».

- «لا أحد؟ أبهذا تدعو السيِّدة زوجتك؟». رائحة مارچري تايرل فائحة من هذا العصيان مفعمةً أنف الملكة. «إذا كذبت عليّ فلن تترُك لي خيارًا إلّا استدعاء پايت ليُضرَب حتى ينزف». پايت هو كبش فِداء[62] تومن كما كان لچوفري من قبله. «أهذا ما تُريده؟».

أجابَ الملك بتجهُّم: «لا».

- «مَن أخبرَك إذن؟».

جرجرَ قدميه على الأرض قائلًا: «الليدي مارچري». الصّبي أعقل من أن يدعوها بالملكة في حضور أمِّه.

- «هذا أفضل. تومن، إن على عاتقي أمورًا جسيمةً عليّ أن أتّخذ قرارًا فيها، أمورًا أنت أصغر كثيرًا جدًّا من أن تفهمها، ولستُ في حاجةٍ إلى صبيٍّ سخيف يتململ على العرش ورائي ويُشتِّت انتباهي بالأسئلة الطّفوليّة. أظنُّ أن مارچري ترى أن عليك حضور اجتماعات مجلسي أيضًا، أليس كذلك؟».

- «بلى، تقول إن عليّ أن أتعلَّم أن أكون ملكًا».

قالت له سرسي: «عندما تكبر يُمكنك أن تحضر كلّ ما تُريد من اجتماعات. أعدك بأنها سرعان ما ستُصيبك بالملل. روبرت كان ينعس في تلك الجلسات». *حين كان يُجشِّم نفسه عناء الحضور من الأصل.* «كان يُفضِّل الصّيد والقنص تاركًا الشُّؤون المملّة للورد آرن العجوز. هل تذكُره؟».

- «لقد ماتَ بألمٍ في البطن».

- «صحيح، الرَّجل المسكين. ما دُمت توّاقًا إلى التّعلُّم فربما عليك أن تتعلّم أسماء جميع ملوك (وستروس) والأيدي الذين خدموهم. يُمكنك أن تتلوها عليّ غدًا».

ردّ صاغرًا: «حاضر يا أمّاه».

- «هذا صبيّي المهذّب». الحُكم لها، ولا تنوي سرسي أن تتخلّى عنه قبل أن يَبلُغ تومن سِنّ الرُّشد. *أنا انتظرتُ، وهو أيضًا يستطيع الانتظار. يُصف حياتي قضيته انتظارًا.* لقد لعبت دور الابنة المطيعة والعروس الخجلى والزّوجة المطواعة، وتحمّلت تلمُّس روبرت جسدها وهو سكران وغيرة چايمي وسخرية رنلي وضحكات ڤارس المكبوتة وصرير أسنان ستانيس اللا نهائي، ونافسَت چون آرن وند ستارك وأخاها القزم القاتل الخائن البغيض، وطيلة كلّ ذلك الوقت ظلّت تَعِد نفسها بأن أوانها سيأتي. *إذا كانت مارچري تايرل تبغي حرماني ساعتي في الشّمس فعلى الحقيرة أن تُعيد النّظر.*

وعلى الرغم من ذلك فما زالَت هذه بدايةً سيئةً ليومها الذي لم يتحسّن بَعدها كثيرًا. أمضَت سرسي بقيّة الصّباح مع اللورد جايلز ودفاتره، تُصغي إليه يَسعُل عن النّجوم والأيائل والثّنانين، وبَعده وصلَ اللورد ووترز ليُخبِرها بأن ذرموناتها الثّلاث الأولى تُشارِف الاكتمال ويَطلُب مزيدًا من الذّهب لإنهائها بالفخامة التي تستحقُّها. فسرّ الملكة أن تُلبّي طلبه. لاحقًا توثّب فتى القمر أمامها فيما تناولَت وجبة منتصَف النّهار مع أعضاءٍ من روابط التُّجّار وأنصتَت إلى شكاواهم من العصافير الذين يتسكّعون في الشّوارع ويناموَن في الميادين. *ربما أحتاجُ إلى استخدام ذوي المعاطف الذّهبيّة في طرد هؤلاء العصافير من المدينة*. كانت تُفكّر في هذا عندما دخلَ عليها پايسل.

مؤخّرًا صارَ المايستر الأكبر كثير الاعتراض بصورةٍ مبالَغ فيها في اجتماعات المجلس، وفي أثناء الجلسة الأخيرة اشتكى بشدّةٍ من الرّجال الذين اختارَهم أوران ووترز لقيادة ذرموناتها الجديدة. يُريد ووترز أن يُعطي السُّفن لرجالٍ أكثر شبابًا، في حين يحثّ پايسل على اللُّجوء إلى ذوي الخبرة، ويصرّ على أن القيادة ينبغي أن تكون للزّبابنة الذين نجوا من حريق (النّهر الأسود)، واصفًا إياهم بأنهم «رجال محنّكون أثبتوا ولاءهم». أمّا سرسي فقالت إنهم مسنّون وانحازَت إلى اللورد ووترز قائلةً: «الشّيء الوحيد الذي أثبتَه هؤلاء الزّبابنة أنهم يُجيدون السّباحة. لا يَجدُر بأمٍّ أن تعيش بعد موت أطفالها ولا يَجدُر بزبّانٍ أن يعيش بَعد غرق سفينته».

تلقّى پايسل تبكيتها على مضض، وإن بدا أقلّ مشاكسةً اليوم، بل ونجحَ في رسم ابتسامةٍ راجفة على شفتيه كذلك إذ خاطبَها معلنًا: «أخبار سارّة يا جلالة الملكة. وايمان ماندرلي نفّذ ما أمرتِ به وقطعَ رأس فارس البصل رجل اللورد ستانيس».

- «أهذا أكيد؟».

- «لقد علّق رأس الرَّجل ويداه على أسوار (الميناء الأبيض).
اللورد وايمان صرّح بهذا وآل فراي يؤكّدونه. لقد رأوا الرَّأس هناك وفي فمه بصلة، وأيضًا رأوا اليدين اللتين تُميّز إحداهما أصابعها المقصّرة».

قالت سرسي: «عظيم. أرسِل طائرًا إلى ماندرلي وبلّغه بأن ابنه سيُعاد إليه في الحال ما دامَ قد برهنَ على إخلاصه». قريبًا ستعود (الميناء الأبيض) إلى سلام الملك، ورووس بولتون وابنه النّغل يُضيِّقان الخناق على (خندق كايلن) من الجنوب والشّمال، وبمجرّد استيلائهما على القلعة ستنضمُّ قوّاتهما لطرد الحديديِّين من (مربَع تورين) و(ربوة الغابة) أيضًا، ومن شأن هذا أن يُكسِبهما ولاء حمَلة راية ند ستارك المتبقّين حين يأتي وقت الزّحف ضد اللورد ستانيس.

في تلك الأثناء أقام مايس تايرل في الجنوب مدينةً من الخيام خارج (ستورمز إند)، وثمّة دستة من المجانيق تضرب أسوار القلعة العملاقة بالحجارة، ولكن بلا تأثيرٍ يُذكَر حتى الآن. قالت الملكة لنفسها متأمّلةً: *اللورد تايرل المحارب. المفترض أن يكون رمزه رجلًا سمينًا جالسًا على مؤخّرته.*

بَعد الظُّهر وصلَ المبعوث البراقوسي الكالح للقائه معها، والذي أرجأته سرسي أسبوعين وكانت لترجِئه عامًا آخر لولا أن اللورد جايلز قال إنه لم يَعُد قادرًا على التّعامُل مع الرّجل... وإن كانت الملكة قد بدأت تتساءل إن كان جايلز قادرًا على أيّ شيء غير السّعال.

قال البراقوسي إن اسمه نوهو ديميتيس. *اسم مزعج لرجلٍ* مزعج. صوته أيضًا مزعج، وقد تململَت سرسي في جلستها بينما تكلّم وتكلّم، متسائلةً كم عليها أن تتحمّل غطرسته، ومن ورائها يرتفع العرش الحديدي وتُلقي نصاله وبروزاته ظلالًا ملتويةً على الأرض. وحده الملك أو يده يستطيع الجلوس على العرش نفسه، ولذا جلسَت سرسي عند قاعدته على مقعدٍ من الخشب المذهّب تكوّمت عليه الوسائد القرمزيّة.

حين توقّف البراقوسي ليلتقط أنفاسه اغتنمت الفُرصة قائلةً: «هذه مسألة تليق أكثر باللورد الخازِن».

بدا أن الإجابة لم تسرّ النّبيل نوهو إذ قال: «لقد تكلّمتُ مع اللورد جايلز ستّ مرّات، فلا يفعل إلّا السّعال في وجهي والتّحجّج يا جلالة الملكة، لكن الذّهب ما زالَ غير حاضر».

قالت سرسي مقترحةً بعذوبة: «تكلّم معه مرّةً سابعةً. الرّقم 7 مقدّس عند آلهتنا».

- «أرى أن المزاح يسرّ صاحِبة الجلالة».

- «حين أمزحُ أبتسمُ. هل تراني مبتسمةً؟ هل تسمع ضحكًا؟ أؤكّدُ لك أن النّاس يضحكون عندما أمزحُ».

- «الملك روبرت...».

قاطعَته بحدّة: «... مات. (المصرف الحديدي) سينال ذهبه عندما يُخمَد هذا التّمرّد».

جرؤَ الرّجل على أن يعبس في وجهها بكلّ عجرفةٍ قائلًا: «جلالة الملكة».

قالت سرسي التي تحمّلت ما يكفيها تمامًا اليوم: «هذا اللّقاء انتهى. سير مرين، اصحب النّبيل نوهو ديميتيس إلى الباب. سير أوزموند، يُمكنك أن تصحبني إلى مسكني». سيصل ضيفاها قريبًا، وعليها أن تستحمّ وتُبدّل ثيابها، ولو أن العَشاء المنتظَر يَعِد بأن يكون مضجرًا كذلك. حُكم مملكةٍ واحدة صعب بما فيه الكفاية، ناهيك بسبع ممالك.

لحقَ بها السير أوزموند كِتلبلاك على الدَّرج، طويلًا رشيقًا في ثياب الحرس الملكي البيضاء، وحين تأكَّدت سرسي من وجودهما وحدهما تأبَّطت ذراعه متسائلةً: «كيف حال أخيك الصَّغير يا تُرى؟».

لاحَ الارتباك على السير أوزموند إذ قال: «آه... بخير، غير أن...».

تركَت الملكة لمحةً من الغضب تشوب نبرتها وهي تردُّ: «غير أن؟ عليَّ أن أعترف بأن صبري على أوزني العزيز بدأ ينفد. حانَ الوقت لأن يلج تلك الفهرة الصَّغيرة. لقد عيَّنته حارسًا شخصيًّا لتومن كي يقضي وقتًا كلَّ يومٍ في صُحبة مارچري. المفترَض أن يكون قد اقتطفَ الوردة بالفعل. هل الملكة الصَّغيرة معميَّة عن سِحره؟».

- «سِحره يعمل بكفاءة. إنه كِتلبلاك، أليس كذلك؟ أرجو ألَّا تؤاخِذيني»، ومرَّر السير أوزموند أصابعه في شَعره الأسود الدُّهني مضيفًا: «إنها هي المشكلة».

- «وما السَّبب؟». بدأت الشُّكوك تُساوِر الملكة في السير أوزني. *ربما هناك رجل آخَر يروق مارچري أكثر. أوران ووترز بشَعره الفضِّي، أو رجل كبير قوي البنية كالسير تالاد.* «هل تُفضِّل الفتاة أحدًا آخَر؟ هل يُزعِجها وجه أخيك؟».

- «إنها تحبُّ وجهه. قال لي إنها تحسَّست ندوبه منذ يومين وسألَته عن المرأة التي أصابته بها. لم يقل أوزني قَطُّ إنها امرأة، لكنها عرفَت. ربما أخبرَها أحد. يقول إنها تلمسه دائمًا عندما يتكلَّمان، تُعدِّل دبُّوس معطفه وتُسوِّي شَعره وما إلى ذلك، وفي مرَّةٍ في تدريب الرِّماية جعلَته يُريها كيف تحمل القوس الطَّويل، فطوَّقها بذراعيه. أوزني يحكي لها نكاتًا بذيئةً فتضحك وتردُّ بنكاتٍ أكثر بذاءةً. لا، إنها راغبة فيه، هذا واضح، ولكن...».

استحثَّته سرسي قائلةً: «ولكن؟».

- «إنه لا ينفرد بها أبدًا. الملك معهما أغلب الوقت، وإن لم يكن هو فهناك غيره. اثنتان من رفيقاتها تنامان معها في فِراشها، اثنتان مختلفتان كلّ ليلة، واثنتان أخريان تجلبان لها الإفطار وتُساعِدانها على ارتداء ثيابها. إنها تُصَلّي مع سِبتتها وتقرأ مع بنت عمومتها إلينور وتُغنّي مع بنت عمومتها آلا وتخيط مع بنت عمومتها مِجا، وحين لا تذهب للصّيد بالصُّقور مع جانا فوسواي وميري كرين تلعب (تعالَ إلى قلعتي) مع ابنة بولوار الصّغيرة، ولا تذهب لركوب الخيل أبدًا دون أن تأخذ حاشيةً من أربعة أو خمسة رفاق ودستةٍ على الأقل من الحُرّاس، وهناك رجال حولها دومًا، حتى في (قفص العذراوات)».

- «رجال. مَن هُم؟ أخبِرني؟». هذا أفضل من لا شيء وينطوي على احتمالات.

هَزّ السير أوزموند كتفيه مجيبًا: «مغنّون. إنها مغرمة بالمغنّين والحواة وأمثالهم، وثمّة فُرسان يأتون للتّحديق ولها إلى بنات عمومتها. السير تالاد أسوأهم كما يقول أوزني. الأبله الكبير لا يدري إن كان يُريد إلينور أم آلا، لكنه يعرف أنه يُريدها للغاية. التوأمان ردواين يأتيان لزيارتها أيضًا. سلوبر يجلب زهورًا وفواكه، وهورور تعلّم العزف على العود. حسب كلام أوزني فخنق القِطط يُصدِر ألحانًا أفضل. رجل (جُزر الصّيف) حاضر دائمًا أيضًا».

قالت سرسي: «چالابار شو؟»، وأطلقت نخير سخريةٍ مردفةً: «يتوسَّل منها الذَّهب والرِّجال لاسترداد وطنه على الأرجح». تحت جواهره وريشه ليس شو أكثر من شحَّاذٍ ينحدر من أصلٍ عريق. كان بمقدور روبرت أن يضع نهايةً لإلحاحه بـ«لا» واحدة حازمة، إلَّا أن فكرة غزو (جُزر الصَّيف) استهوَت زوجها الجلف السِّكِّير. لا ريب أنه كان يَحلُم بالنِّساء بنِّيَّات البشرة العاريات تحت المعاطف الرِّيش وحلماتهن السَّوداء كالفحم، ولذا بدلًا من «لا» اعتادَ روبرت أن يقول لشو: «العام المقبل»، مع أن ذلك العام المقبل لم يَقبِل قَطُّ.

رَدَّ السير أوزموند: «لا أدري إن كان يتوسَّل أم لا يا جلالة الملكة. أوزني يقول إنه يُعلِّمهم لُغة الصَّيف. ليس أوزني، بل الملك... المُهرة وبنات عمومتها».

قالت الملكة بجفاف: «الحصان الذي يتكلَّم لُغة الصَّيف يُحدِث انطباعًا قويًّا. قُل لأخيك أن يُحافِظ على حدَّة مِهمزيه. قريبًا سأجدُ وسيلةً له ليمتطي المُهرة، لك أن تثق بهذا».

- «سأخبِره يا جلالة الملكة. إنه متشوِّق إلى تلك الرُّكوبة، لا تحسبي العكس. تلك المُهرة حسناء حقًّا».

إنه متشوِّق إليّ أنا أيها الأحمق. لا يُريد من مارچري إلَّا اللورديَّة التي بين ساقيها. على الرغم من ولعها بأوزموند فإنه يبدو بطيء الفهم كروبرت أحيانًا. *آمُلُ أن يكون سيفه أسرع من بديهته، فربما يأتي يوم يحتاج فيه تومن إليه*.

كانا يمرَّان في ظِلِّ أنقاض (بُرج اليد) حين تعالى صوت التَّهليل ليغمرهما. عبر السَّاحة كان مُرافق ما قد سدَّد ضربةً إلى الطَّاووس مدوِّرًا ذراعه العرضيَّة، وقد قادَت الهتاف مارچري تايرل ودجاجاتها. فكَّرت سرسي: جعجعة *صاخبة لطحنٍ لا يُذكَر. كان المرء ليحسب الصَّبي فاز في دورة مباريات*، ثم أذهلَها أن ترى أن مَن على متن الجواد الحربي هو تومن مدرَّعًا بالصَّفائح المعدنيَّة المذهَّبة.

لم تجد الملكة خيارًا إلّا أن ترسم ابتسامةً على شفتيها وتذهب لترى ابنها، وبلغَته بينما ساعدَه فارس الزُّهور على النُّزول من فوق حصانه. كان الصَّبي متقطِّع الأنفاس من فرط الإثارة، ويسأل الجميع: «هل رأيتم؟ فعلتها كما قال السير لوراس تمامًا. هل رأيت يا سير أوزني؟».

أجابَ أوزني كِتلبلاك: «رأيتُ. منظر جميل».

أضافَ السير درموت: «تُجيد الرُّكوب أفضل مني يا مولاي».

- «كسرتُ الرُّمح أيضًا. هل سمعته يا سير لوراس؟».

- «كأنه هزيم الرَّعد». كانت وردة من الذَّهب واليَشب تُثبِّت معطف السير لوراس الأبيض عند الكتف، والرِّيح تُموِّج خُصلاته البنِّيَّة بأناقة. «لقد ركبت بمنتهى البراعة، لكن مرَّةً واحدةً لا تكفي. عليك أن تُكرِّرها غدًا. يجب أن تركب كلَّ يومٍ إلى أن تُصبح كلُّ ضربةٍ تُوَجِّهها ثابتةً مستقيمةً ويصير الرُّمح جزءًا من جسدك مِثله مِثل ذراعك».

- «أريدُ هذا».

قالت له مارجري: «كنت مجيدًا»، وجثَت على رُكبتها ولثمَت الملك على وجنته ووضعَت ذراعها على كتفه قائلةً للوراس: «أظنُّ أن زوجي الباسل سيُسقِطك عن حصانك خلال سنواتٍ قليلة»، وأيَّدتها بنات عمومتها الثَّلاث، وبدأت ابنة بولوار المأفونة تتوثَّب مترنِّمةً: «تومن سيكون البطل، البطل، البطل!».

قالت سرسي: «حين يُصبِح رجلًا بالغًا».

ذبلَت ابتساماتهم كورداتٍ قبَّلها الصَّقيع، وكانت الشيتة ذات الوجه المجدور أول من يركع، وتبعها الآخَرون باستثناء الملكة وأخيها.

لم يبدُ على تومن أنه لاحظَ البرودة المفاجئة في الهواء، واندفعَ يقول بسعادة: «هل رأيتني يا أمِّي؟ لقد كسرتُ رُمحي على التُّرس ولم يضربني كيس الرَّمل!».

- «شاهدتك عبر الساحة. أحسنت البلاء للغاية يا تومن. لا أتوقّع منك ما هو أقل. إن النّزال في دمك، وذات يومٍ ستسود المضامير مِثل أبيك».

منحت مارچري تايرل الملكة ابتسامةً ظاهِرها الخجل قائلةً: «لا أحد سيَصمد أمامه. لكني لم أعرف أن الملك روبرت كان صاحِب إنجازاتٍ في النّزال. أخبِرينا من فضلكِ يا جلالة الملكة، ما المباريات التي فازَ فيها؟ مَن الفُرسان العظام الذين أسقطَهم من فوق خيولهم؟ أعرفُ أن الملك يحبُّ أن يُحيط علمًا بانتصارات أبيه».

زحفَ الأحمر على عُنق سرسي. لقد أوقعَتها الفتاة في مصيدة. الحقيقة أن روبرت باراثيون لم يكن يُبالي بالنّزال في المضامير، وخلال المباريات كان يُفضِّل الالتحامات الجماعيّة كثيرًا، حيث يُمكنه أن يطيح في الرِّجال ضربًا بفأسٍ ثلمة أو مطرقةٍ حتى يُدميهم. حين تكلّمت كانت تُفكِّر في چايمي. *ليس من ديدني أن أنسى نفسي*. هكذا قالت مرغمةً: «روبرت فازَ في مباراة (الثالوث)، أسقطَ الأمير ريجار وسفّاني ملكة الحُبِّ والجَمال. يُدهِشني أنكِ لا تعرفين هذه القصّة يا زوجة ابني»، ولم تمنح مارچري فُرصةً للرَّدّ إذ قالت: «سير أوزموند، ساعِد ابني على خلع دِرعه إذا سمحت. سير لوراس، امشِ معي، أريدُ أن أتكلّم معك».

لم يجد فارس الزُّهور ما يفعله إلّا أن يمشي في أعقابها كالجرو، وانتظرَت سرسي حتى أصبحا على الدَّرجات الملتفّة لتقول: «تُرى مَن صاحِب هذه الفكرة؟».

أجابَ مضطرًا: «أختي. السير تالاد والسير درموت والسير پورتيفر كانوا يتمرّنون على الطّاووس، واقترحَت الملكة أن يأخذ صاحِب الجلالة دورًا».

يدعوها بهذا اللّقب ليضايِقني. «وماذا فعلت أنت؟».

- «ساعدتُ جلالته على ارتداء دِرعه وأريته كيف يُسَدِّد الرُّمح».

- «ذلك الحصان كان كبيرًا عليه للغاية. ماذا لو سقط؟ ماذا لو ضربَ كيس الرَّمل رأسه؟».

- «الكدمات والشِّفاه الدَّامية جزء من تكوين الفارس».

قالت: «بدأتُ أفهمُ لماذا أصبحَ أخوك معاقًا»، فسرَّها مرأى قولها يمسح الابتسامة عن وجهه الوسيم، وتابعَت: «ربما أخفقَ أخي في شرح واجباتك لك أيها الفارس. أنت هنا لحماية ابني من أعدائه، أمَّا تدريبه على الفُروسيَّة فمسؤوليَّة قيِّم السِّلاح».

قال السير لوراس وفي نبرته لمحة لوم: «ليس في (القلعة الحمراء) قيِّم سلاحٍ منذ مقتل أرون سانتاجار. جلالته يكاد يَبلُغ التاسعة، وتوَّاق إلى التعلُّم. في سِنِّه هذه يُفترَض أن يكون مُرافقًا، وعلى أحدهم أن يُعلِّمه».

أحدهم سيُعلِّمه، لكنه لن يكون أنت. سألَته بعذوبة: «أخبِرني، مَن الذي كنت مُرافقه؟ اللورد رنلي، أليس كذلك؟».

- «كان لي هذا الشَّرف».

- «نعم هذا ما حسبته». رأت سرسي الأواصر القويَّة التي تنعقد بين المُرافقين والفُرسان الذين يخدمونهم، ولا تُريد أن تنشأ علاقة مشابهة بين تومن ولوراس تايرل، ففارس الزُّهور ليس بالرَّجل الذي يحذو أيّ صبيّ حذوه. «لقد قصَّرتُ في هذا. في خضمّ حُكم البلاد وخوض الحرب والحُزن على أبي فاتتني المسألة الملحَّة الخاصَّة بتعيين قيِّم سلاحٍ جديد. سأصلحُ هذا الخطأ في الحال».

أزاحَ السير لوراس خُصلةً بنِّيَّةً سقطَت على جبهته قائلًا: «لن تجد صاحِبة الجلالة رجلًا أمهر مني في القتال بالسَّيف والرُّمح».

يا لتواضعك. «تومن مولاك لا مُرافقك. ستُقاتِل في سبيله وتموت في سبيله إذا لزمَ الأمر، وليس أكثر من هذا».

تركته على الجسر المتحرّك الممتد فوق الخندق الجاف والخوازيق البارزة من قاعه ودخلَت (حصن ميجور) وحدها، وبينما صعدَت السّلالم إلى مسكنها سألَت نفسها: *أين أجد قيّمًا للسّلاح؟* بَعد أن رفضَت السير لوراس لا تستطيع أن تلجأ إلى فارسٍ آخَر في الحرس الملكي، إذ سيكون ذلك بمثابة ملحٍ على الجرح، ولا شكّ أنه سيثير حفيظة (هايجاردن). *السير تالاد؟ السير درموت؟ لا بُدّ من أحد.* تومن أصبحَ مولعًا بحارسه الشّخصي الجديد، لكن أوزني أثبت أنه أقلُّ مهارةً مما أملَت في مسألة العذراء مارچري، كما أنها تُفكِّر في منصبٍ آخَر لأخيه أوزفريد. مؤسفٌ أن كلب الصّيد أصابه الشّعار. لطالما خافَ تومن صوت ساندور كليجاين الأجش ووجهه المحروق، ولكانت سخرية كليجاين بمثابة التّرياق المثالي لشهامة لوراس تايرل المداهِنة.

أرون سانتاجار كان دورنيًا. يُمكنني أن أبعث برسالةٍ إلى (دورن). بين (صنسپير) و(هايجاردن) قرون من الدّم. نعم، قد يَصلُح رجل دورني لمتطلّباتي تمامًا. لا بُدّ من وجود مُقاتلين بارعين في (دورن).

دخلَت غُرفتها الشّمسيّة لتجد اللورد كايبرن جالسًا يقرأ على مقعدٍ مجاور للنّافذة، ولمّا رآها قال: «بَعد إذن جلالة الملكة، معي تقارير».

قالت سرسي: «المزيد من المؤامرات والخيانة؟ كان يومي طويلًا ومتعِبًا، فأخبِرني سريعًا».

ابتسم بتعاطُف قائلًا: «كما تشائين. ثمّة كلام عن عرض أركون[63] (تايروش) على (لِيس) شروط هدنةٍ لإنهاء حرب التّجارة الحاليّة بينهما. كان أشيعَ أن (مير) على وشك دخول الحرب في صَفّ (تايروش)، لكن من دون الجماعة الذّهبيّة لم يرَ المايريّون أنهم يستطيعون...».

- «ما يراه المايريّون لا يهمّني». دائمًا يُحارِب بعض المدن الحُرّة بعضًا، وخياناتهم وتحالُفاتهم اللا نهائيّة تعني القليل جدًّا لـ(وستروس). «هل لديك أخبار أكثر أهمّيّة؟».

- «ثورة العبيد في (أستابور) امتدّت إلى (ميرين) على ما يبدو، وبحّارة دستةٍ من الشفن يتكلّمون عن التنانين...».

- «الهارپيات، في (ميرين) هارپيات». إنها تتذكّر هذه المعلومة من مكانٍ ما. (ميرين) واقعة في أقصى الأرض، شرقًا وراء (ڤاليريا). «فليثُر العبيد. لماذا أعبأ؟ لا عبيد عندنا في (وستروس). أهذا كلُّ ما لديك؟».

- «ثمّة أخبار من (دورن) قد تجدها صاحبة الجلالة أكثر إثارةً للاهتمام. الأمير دوران سجنَ السير ديمون ساند، النّغل الذي كان مُرافقًا للأفعوان الأحمر».

- «أذكره». كان السير ديمون من الفُرسان الذين رافقوا الأمير أوبرين إلى (كينجز لاندنج). «ماذا فعلَ؟».

- «طالبَ بإطلاق سراح بنات الأمير أوبرين».

- «أحمق».

تايغ كايبرن: «هناك أيضًا ابنة فارس (الغابة الزّقطاء) التي خُطِبَت على نحوٍ غير متوقّع للورد إسترمونت، حسب إفادة أصدقائنا في (دورن). في اللّيلة نفسها أرسلَت إلى (الحجر الأخضر)، ويُقال إنها وإسترمونت تزوّجا بالفعل».

قالت سرسي مداعبةً خُصلةً من شَعرها: «نغل في بطنها يشرح الشبب. كم سِنُّ العروس الخجلى؟».

- «ثلاثة وعشرون سنةً يا جلالة الملكة، بينما إسترمونت...».

- «... في السّبعين على الأقل، أعي هذا». آل إسترمونت أصهارها من خلال روبرت، الذي تزوّج أبوه واحدةً منهم في خَطوةٍ لا يُمكن تفسيرها إلّا بنوبة شهوةٍ أو جنون. لدى زواج سرسي بالملك كانت أم روبرت قد رحلَت منذ زمنٍ طويل، وإن حضرَ كلا أخويها زفافهما وبقيا نِصف عامٍ في المدينة، وبَعدها أصرّ روبرت على رَدّ الجميل بزيارة (إسترمونت)، الجزيرة الجبليّة الصّغيرة الواقعة عند (رأس الغضب). وكان الأسبوعان الكئيبان الرّطبان اللذان أمضَتهما سرسي في (الحجر الأخضر) -مقر عائلة إسترمونت- الأطول في شبابها على الإطلاق. بمجرّد النّظر سمّى جايمي القلعة «الخراء الأخضر»، وسرعان ما حذَت سرسي حذوه، وفيما عدا ذلك قضَت وقتها في مشاهدة زوجها الملوكي يصيد ويقنص ويشرب مع خاليه ويُبرّح عددًا كبيرًا من أبناء الخُؤولة ضربًا في ساحة (الخراء الأخضر).

كانت هناك ابنة خالٍ ما أيضًا، أرملة قصيرة مكتنزة ذات نهدين كبيرين كبِطّيختين ماتَ زوجها وأبوها عند (ستورمز إند) في أثناء الحصار، وعنها قال روبرت لسرسي: «أبوها عاملَني بطيبة، وكنا نلعب معًا في صِغرنا». لم يستغرق وقتًا طويلًا قبل أن يبدأ اللّعب معها من جديد، وبمجرّد أن تُغلِق سرسي عينيها تعوّد الملك أن يتسلّل ليُواسي الأرملة الوحيدة المسكينة. في ليلةٍ جعلَت جايمي يتبعه ليُؤكّد شكوكها، ولمّا عادَ أخوها سألَها إن كانت تُريده أن يَقتُل روبرت، فأجابَت: «لا، أريدُ أن أركّب له قرنين». تحبّ سرسي أن تعتقد أن تلك هي اللّيلة التي حبلَت فيها بجوفري.

قالت لكايبرن: «إلدون إسترمونت تزوّج فتاةً تصغره بخمسين عامًا، فلِمَ أكترثُ لهذا؟».

هزَّ كتفيه قائلًا: «لا أقولُ إنكِ يجب أن تكترثي... لكن ديمون ساند وابنة سانتاجار تلك قريبان من آريان ابنة الأمير دوران، أو أن هذا ما يُشيعه الدورنيُّون. ربما لا يعني الأمر شيئًا، لكن خطرَ لي أن على جلالتكِ أن تعرفي».

قالت وقد بدأ صبرها ينفد: «والآن أعرفُ. هل لديك المزيد؟».

ردّ: «شيء واحد آخر، مسألة تافهة»، وابتسم لها معتذرًا وأخبرها عن عرض دُمى لاقى إقبالًا كبيرًا من عامّة المدينة في الفترة الأخيرة، عرض تُحكَم فيه مملكة الحيوان الأسود المتكبِّرة. «مع تواصل هذه الحكاية المحرِّضة على الخيانة تُصبح الأسود الدُّمى أكثر طمعًا وخيلاء، إلى أن تبدأ في افتراس رعاياها، وحين يعترض الوعل النَّبيل تفترسه الأسود أيضًا وتزأر بأن هذا حقُّها باعتبارها أقوى الحيوانات».

سألَته سرسي باستمتاع: «أهذه هي النِّهاية؟». إذا نظرَ المرء إلى الحكاية من الزَّاوية السَّليمة فربما يراها كدرسٍ مفيد.

- «لا يا جلالة الملكة. في النِّهاية يَخرُج تنِّين من بيضةٍ ويلتهم الأسود كلَّها».

هكذا تنقل النِّهاية عرض الدُّمى من خانة الإهانة البسيطة إلى الخيانةِ البيِّنة. قالت سرسي: «أغبياء حمقى. لا يُخاطِر برأسه من أجل تنِّينٍ خشبي إلَّا مختل»، وتفكَّرت لحظةً ثم أردفَت: «أرسِل بعض هامسيك إلى تلك العروض واجعلهم يُعاينون الحاضرين. إذا كان أيُّهم من الأناس البارزين فأريدُ أن أعرف أسماءهم».

- «وماذا سيحدُث لهم إذا سمحتِ لي بالسُّؤال؟».

- «الأثرياء منهم سيُغرَّمون. يكفي نِصف ثرواتهم لتلقينهم درسًا قاسيًا وإعادة مَلء خزائننا دون خراب بيوتهم. الأفقر من أن يدفعوا تُفقأ لهم عين لمشاهدتهم الخيانة، والإعدام بالفأس لمحرِّكي الدُّمى».

- «إنهم أربعة. ربما تسمح لي صاحبة الجلالة باثنين منهم لأجل أغراضي. امرأة بالذات ستكون...».

قاطعته الملكة محتدّةً: «لقد أعطيتك سينل».

- «للأسف الفتاة المسكينة... منهَكة تمامًا».

لا يروق سرسي التفكير في هذا. لقد ذهبَت الفتاة معها دون أن يُخالِجها أدنى شك، متصوِّرةً أنها ستقدِّم الطَّعام وتصبُّ الشَّراب، وحتى حين طوَّق كايبرن معصمها بالسّلسلة لم يبدُ عليها الفهم. ما زالَت الذِّكرى تُصيب الملكة بالغثيان. *كانت الزّنازين قارسة البرودة، وحتى المشاعل كانت ترتجف، وذلك الشَّيء الكريه كان يَصرخ في الظَّلام*... «حسن، يُمكنك أن تأخذ امرأةً. خُذ اثنتين إذا أردت. لكني أريدُ الأسماء أولًا».

قال كايبرن قبل أن ينسحب: «كما تأمرين».

مالَت الشّمس إلى المغيب في الخارج. كانت قد دوركاس قد جهَّزت لها حمّامًا، وبينما غاصت الملكة مسرورةً في الماء الدّافئ مفكِّرةً في ما ستقوله لضيفيها على العشاء اقتحمَ چايمي الباب وأمرَ چوسلين ودوركاس بالخروج. بدا أخوها مفتقرًا إلى الأناقة والنَّظافة وقد فاحَت منه رائحة الخيول إذ دخلَ ومعه تومن، وقال لها: «أختي الجميلة، الملك يَطلُب كلمةً معكِ».

كانت خُصل سرسي الذّهبيّة طافيةً في مياه الاستحمام والبُخار يُفعِم الغرفة، وأحسَّت بقطرةٍ من العرق تسيل على وجنتها وهي تقول بنبرةٍ شديدة الخطورة من فرط نعومتها: «تومن، ما الأمر الآن؟».

يعرف الصّبي هذه النّبرة، ولذا انكمشَ على نفسه متراجعًا، في حين قال چايمي: «جلالته يُريد جواده الأبيض غدًا من أجل درس النّزال».

اعتدلَت جالسةً في الحوض، وردَّت: «لن يكون هناك نزال».

مَطَّ تومن شفته السُّفلى قائلًا: «بل سيكون. يجب أن أركب كلَّ يوم».

أعلنَت الملكة: «وستفعل بمجرّد أن نُعيّن قيّم سلاحٍ لائقًا يُشرِف على تدريبك».

- «لا أريدُ قيّم سلاحٍ لائقًا، أريدُ السير لوراس».

- «إنك ترفع شأن ذلك الصّبي كثيرًا. أعرفُ أن زوجتك الصّغيرة ملأت رأسك بكلامٍ سخيف عن براعته الفائقة، لكن أوزموند كِتلبلاك فارس أفضل من لوراس ثلاث مرّات».

علّق چايمي ضاحكًا: «ليس أوزموند كِتلبلاك الذي أعرفه».

كانت لتخنقه لحظتها. *ربما عليّ أن آمر السير لوراس بأن يدع السير أوزموند يُسقِطه عن حصانه*. قد يُفلِح هذا في وضع حَدٍّ لافتتان تومن به. *قصقِص ريش الطّاووس وكلِّل البطل بالعار وفي الحال ينحطُّ مقامهما*. قالت: «سأرسلُ لأطلب رجلًا دورنيًا يُدرِّبك. الدورنيّون أفضل المُنازلين في البلاد».

قال تومن: «لا، ليسوا كذلك، وعلى كلِّ حالٍ لا أريدُ رجلًا دورنيًا سخيفًا، بل أريدُ السير لوراس. هذا أمرًا!».

عادَ چايمي يضحك، ففكّرت الملكة: *لا يُساعِدني على الإطلاق. هل يحسب هذا طريفًا؟* ضربَت الماء غاضبةً، وقالت: «هل عليّ أن أرسل في استدعاء پايت؟ إنني لا أمتثلُ لأوامرك، أنا أمّك».

ردّ تومن: «نعم، لكنني الملك. مارچري تقول إن على الجميع طاعة ما يقوله الملك. أريدُ أن يُجهَّز جوادي الأبيض غدًا كي يُعلّمني السير لوراس النّزال. أريدُ هريرةً أيضًا، ولا أريدُ أن آكل الشّمندر».

كان چايمي لا يزال يضحك، لكن الملكة تجاهلَته قائلةً: «تومن، تعالَ هنا»، ولمّا لم يتحرّك الصّبي تنهّدت وقالت له: «أأنت خائف؟ يجب ألّا يُبدي الملك خوفًا». هكذا دنا ابنها من الحوض مطرقًا عينيه، فمدّت يدها تُمَلّس على شعره الذّهبي، وقالت: «ملك أم لا، أنت صبيٌّ صغير، والحُكم لي حتى تَبلُغ سِنّ الرُّشد. سوف تتعلّم النّزال، أعدك بهذا، لكن ليس من لوراس. فُرسان الحرس الملكي عليهم واجبات أهمّ من اللّعب مع طفل. سَل حضرة القائد. أليس كذلك أيها الفارس؟».

أجابَ چايمي بابتسامةٍ رفيعة: «واجبات مهمّة للغاية. الدّوران حول أسوار المدينة على سبيل المثال».

قال تومن وقد بدا على وشك البُكاء: «هل لي بفريرة إذن؟».

أجابَت الملكة: «ربما، ما دمتَ لن أسمع المزيد من الهُراء عن النّزال. هل تعدني بهذا؟».

جرجرَ قدميه قائلًا: «نعم».

- «عظيم. والآن اذهب. ضيفاي سيصلان قريبًا».

هرعَ تومن مغادرًا، لكن قبل أن يَخرُج التفتَ وقال: «حين أصبحُ الملك وحدي سأحرّمُ أكل الشّمندر!».

أغلقَ أخوها الباب بجَدعة يده، ولمّا انفردَ بسرسي سألَها: «كنتُ أسألُ نفسي يا صاحِبة الجلالة، أأنتِ سكرانة أم حمقاء فقط؟».

ضربَت الماء مرّةً أخرى ناثرةً إياه على قدميه، وقالت: «صُن لسانك وإلّا...».

- «... وإلّا ماذا؟ ستُرسلينني لفحص الأسوار ثانيةً؟»، وجلس چايمي واضعًا ساقًا على ساقٍ مردفًا: «أسوارك اللّعينة سليمة. لقد زحفتُ على كلّ بوصةٍ منها وألقيت نظرةً على السّبع بوّابات. مِفصلات (البوّابة الحديديّة) صدئة، ويجب استبدال (بوّابة الملك) و(بوّابة الطّمي) بَعد أن هشّمهما ستانيس بِمِدكّاته. الأسوار قويّة كما كانت دومًا... لكن هل نسيتِ صاحِبة الجلالة أن أصدقاءنا من (هايجاردن) داخل الأسوار لا خارجها؟».

- «لا أنسى شيئًا»، ردّت عليه مفكّرةً في عُملةٍ ذهبيّة معيّنة على أحد وجهيها يد وعلى الوجه الآخر رأس ملكٍ منسيٍ ما. *كيف تحصّل سجّان بائس حقير على عُملةٍ كهذه وخبّأها تحت وعاء فضلاته؟ كيف وصلَ رجل كروجن إلى ذهبٍ قديم من (هايجاردن)؟*

- «هذه أول مرّةٍ أسمعُ بتعيين قيّم سلاحٍ جديد. ستحتاجين إلى بحثٍ طويل دقيق عن مُنازلٍ أفضل من لوراس تايرل. السير لوراس...».

بترّت عبارته شاعرةً بماء حمّامها يَفتُر: «أعرفُ السير لوراس ولا أريده قُرب ابني. الأفضل أن تُذكّره بواجباته».

- «إنه يعرف واجباته، وليس هناك من يحمل الرُّمح أفضل...».

- «أنت كنت أفضل قبل أن تفقد يدك، والسير باريستان في شبابه، وآرثر داين كان أفضل، والأمير ريجار كان نِدًّا له. كفى ثرثرةً عن قوّة الزهرة. إنه مجرّد صبي». لقد ملَّت معارَضة چايمي. لا أحد كان يُعارِض السيّد والدها. حين يتكلَّم تايوين لانستر كان النّاس يُطيعون، وحين تتكلَّم سرسي يُعطون أنفسهم حرّيّة إعطائها المشورة ومناقضتها، بل ورفض أوامرها. *كلُّ هذا لأنني امرأة، لأنني لا أستطيع قتالهم بالسّيف. لقد احترموا روبرت أكثر مما يحترمونني، وروبرت كان سكّيرًا أبله*. لن تسمح بهذا، خصوصًا من چايمي. *يجب أن أخلِّص نفسي منه، وعاجلًا*. في سالف الأيام كانت تَحلُم بأن يَحكُما (الممالك السّبع) جنبًا إلى جنب، لكن چايمي أضحى عائقًا أكثر منه عونًا.

نهضَت سرسي من الحوض لتسيل المياه على ساقيها وتقطر من شعرها، وقالت: «عندما أريدُ نصيحتك سأطلبها. اتركني أيها الفارس. عليّ أن أرتدي ملابسي».

قال چايمي: «ضيفاكِ على العشاء، أعرفُ. وأيّ مؤامرةٍ هذه تحديدًا؟ إنها كثيرة للغاية وفاتني بعضها»، وسقطَت نظرته على قطرات الماء المتلألئة على الشّعر الذهبي بين ساقيها.

ما زالَ راغبًا فيّ. «هل تشتاق إلى ما فقدته يا أخي؟».

رفعَ عينيه قائلًا: «أنا أيضًا أحبّكِ يا أختي الجميلة، لكنكِ حمقاء، حمقاء ذهبيّة جميلة».

أوجعَتها كلماته، وفكّرت: *وصفتني بكلماتٍ ألطف في (الحجر الأخضر) ليلة زرعت چوفري في داخلي*. قالت له: «اخرج»، وأدارَت له ظَهرها وسمعَته يُغادِر متلمّسًا الباب بجدعته بارتباك.

بينما تأكّدت چوسلين من أن كلّ شيءٍ جاهز للعشاء، ساعدت دوركاس الملكة على ارتداء فُستانها الجديد، المفضّل على شكل خطوطٍ من الساتان الأخضر اللّامع بالتّبادل مع خطوطٍ من القطيفة السّوداء، بالإضافة إلى شرائط الزّينة المايريّة السّوداء الدّقيقة فوق الصّدر. شرائط الزّينة المايريّة مكلّفة، لكن من الضروري أن تبدو الملكة في أبهى صُورها طوال الوقت، كما أن غسّالاتها الحقيرات تسبّبن في انكماش عددٍ كبير من فساتينها القديمة فلم تَعُد تُناسِبها. كانت لتجلدهن لاستهتارهن لولا أن تاينا حثّتها على الرّأفة، وقالت لها: «سيحبّكِ العوام أكثر إذا كنتِ رحيمةً»، وهكذا أمرَت سرسي بخصم قيمة الفساتين من أجور الغسّالات، وهو الحَلُّ الأكثر أناقةً بكثير.

وضعت دوركاس مرآةً فضّيّةً في يدها، ففكّرت الملكة مبتسمةً لانعكاسها: *جميل جدًا*. من السّار أن تخلع ثياب الحِداد، فالأسود يجعلها تبدو شاحبةً للغاية. *مؤسفٌ أنني لن أتناول عشائي مع الليدي ميريويذر*. كان يومها طويلًا، ودائمًا تُبهِجها تاينا بخفّة دمها. لم تكن لسرسي صديقة تستمتع بصُحبتها لهذه الدّرجة منذ ميلارا هيذرسپون، وميلارا اتّضح أنها متآمرة جشعة في دماغها أفكار تتجاوز مقامها. *لا يَجدُر بي أن أفكّر فيها بسوء. لقد غرقَت وماتَت، وعلّمتني ألّا أثق بأحدٍ غير چايمي أبدًا*.

حين انضمّت إليهما في الغُرفة الشّمسيّة كان ضيفاها قد قطعا شوطًا لا بأس به في شُرب الهيپوكراس بالفعل، وعندما لاحظَت سرسي الإبريق نِصف الفارغ قالت لنفسها: *الليدي فاليس لا تبدو كسمكةٍ فحسب، بل تشرب كواحدةٍ أيضًا*. صاحت مقبّلةً المرأة على وجنتها: «فاليس العزيزة والسير بالمان الشّجاع، لقد فجعَني أن أسمع بما جرى لأمّكِ الغالية. كيف حال الليدي تاندا؟».

بدَت الليدي فاليس كأنها على وشك الإجهاش بالبُكاء إذ أجابَت: «لُطف من جلالتكِ أن تسألي. المايستر فرنكن يقول إن السَّقطة حطَّمت وَرك أمي. لقد فعلَ ما يستطيع، والآن نُصلِّي، ولكن...».

صلُّوا كما تشاؤون، لكنها ستموت لا محالة قبل أن يدور القمر. النِّساء المسنَّات كتاندا ستوكوورث لا يتعافين من وَرك مكسور. «سأضيفُ صلواتي إلى صلواتكم. اللورد كايبرن أخبرَني بأن تاندا سقطَت من فوق حصانها».

رَدَّ السير بالمان بيرش: «حزام سَرجها انفتقَ وهي راكبة. كان على عامل الاسطبل أن يرى أنه تالف. لقد عوقِبَ».

قالت الملكة: «آملُ أن العقاب كان شديدًا»، وجلسَت مشيرةً لضيفيها بالجلوس بدورهما، واستطردَت: «هل تشربين كأسًا أخرى من الهيبوكراس يا فاليس؟ أذكرُ أنكِ لطالما كنتِ مولعةً به».

- «لَطف بالغ منكِ أن تتذكَّري يا جلالة الملكة».

وكيف أنسى؟ جايمي قال إنها أعجوبة أنك لا تتبوَّلينه. «كيف كانت رحلتكما؟».

أجابَت فاليس بتأفُّف: «غير مريحة. المطر ظَلَّ يَسقُط معظم اليوم. فكَّرنا أن نقضي اللَّيل في (روزبي)، لكن ربيب اللورد جايلز الشَّاب رفضَ تضييفنا»، وتنشَّقت متابعةً: «لكِ أن تثقي بأنه بمجرَّد موت جايلز سيفرُّ ذلك المأفون وضيع الميلاد بذهبه كلِّه، بل وربما يُحاوِل الاستيلاء على أراضيه ولورديَّته، مع أن الحقَّ أن تنتقل (روزبي) إلينا بَعد موت جايلز. السيِّدة أمِّي خالة زوجته الثَّانية، وابنة خُؤولةٍ ثالثة لجايلز نفسه».

تساءلَت سرسي في أعماقها: *هل رمزكم حمل يا سيّدتي أم قرد طمّاع؟* قالت: «اللورد جايلز يُهدّد بالموت منذ عرفته، لكنه لا يزال معنا وآملُ أن يظلّ كذلك سنواتٍ طويلة»، وابتسمت ببشاشةٍ مردفةً: «لا شكّ أنه سيظلُّ يَسعُل بَعد أن نذهب جميعًا إلى قبورنا».

قال السير بالمان: «غالبًا سيحدث هذا. على أن ربيب روزبي لم يكن الوحيد الذي أزعجنا يا جلالة الملكة. لقد قابلنا عددًا من الهمجيّين على الطّريق أيضًا، مخلوقاتٍ قذرة بشعة الهيئة تحمل التّروس الجِلد والفؤوس، بعضها على صدره نجوم مخيطة، نجوم شباعيّة مقدّسة، لكن منظر هؤلاء الرّجال أوحى بالشّرّ رغم ذلك».

أضافت فاليس: «أنا واثقة بأنهم كانوا مقمّلين أيضًا».

قالت سرسي: «يُسمّون أنفسهم العصافير. إنهم وباء يجتاح البلاد. على السّپتون الأعلى الجديد أن يتعامَل معهم بمجرّد تتويجه، وإذا لم يفعل فسأتعامَلُ معهم بنفسي».

سألَتها فاليس: «هل اختيرَ صاحب القداسة بعد؟».

أجابَت الملكة مقرّةً: «لا. كان السّپتون أوليدور على شفا الاختيار إلى أن تبِعَه بعض هؤلاء العصافير إلى ماخورٍ وجرّوه عاريًا إلى الشّارع. يبدو أن لوشن الخيار المرجّح الآن، ولو أن أصدقاءنا على التّلّ الآخر يقولون إن بضعة أصواتٍ ما زالت تنقصه ليبلُغ العدد المطلوب».

قالت الليدي فاليس بمنتهى الخشوع: «عسى (العجوز) أن تُرشِد المداوَلات بمصباح الحكمة الذّهبي».

اعتدلَ السير بالمان في مقعده قائلًا: «جلالة الملكة، هذه مسألة محرِجة، ولكن... خشية أن تنمو المشاعر السيّئة بيننا، يجب أن تعرفي أن زوجتي الكريمة وأمّها لم يكن لهما دور على الإطلاق في تسمية الوليد النّغل. لوليس مخلوقة بسيطة، وزوجها يميل إلى المزاح الأسود. قلتُ له أن يختار اسمًا أليق للصّبي، فضحك».

رشفَت الملكة من نبيذها وأمعنَت النّظر إليه. في الماضي كان السير بالمان مُنازلًا بارزًا، وأحد أوسم الفُرسان في (الممالك السّبع) كذلك، ولئن ما زالَ فوق شفته شارب فاخر فإن التّقدُّم في العمر لم يترفّق به، فانسحبَ شَعره الأشقر المتموّج، في حين تقدَّم بطنه بعنادٍ ضاغطًا على شترته. قالت لنفسها: *كأداة، ينقُصه الكثير، لكن لا بأس به*. «تيريون كان اسمًا ملكيًا قبل مجيء الثّنانين. العِفريت لوّثه، لكن ربما يردُّ الصّغير إلى الاسم شَرفه». *هذا إذا عاش النّغل*. «أعرفُ أن لا لوم عليكم. الليدي تاندا هي الأخت التي لم أحظَ بها قَطّ، وأنتما...»، وتهدّج صوتها إذ استدركَت: «سامِحاني، إنني أعيشُ في خوف».

فتحَت فاليس فاها وأغلقَته، وهو ما جعلَها تبدو كسمكةٍ تحترف الغباء، وردّدت متسائلةً: «في... في خوف يا جلالة الملكة؟».

قالت سرسي: «لم أنم ليلةً بأكملها البتّة منذ موت چوفري»، وأعادَت مَلء الكؤوس بالهيپوكراس مواصلةً: «أيها الصّديقان... أنتما صديقاي كما آملُ، أليس كذلك؟ وصديقا الملك تومن؟».

أعلنَ السير بالمان: «ذلك الصّبي الجميل. جلالة الملكة، كلمات عائلة ستوكوورث ذاتها تقول: *نفخر بإخلاصنا*».

- «ليت هناك المزيد من أمثالكما أيها الفارس الكريم. أقولُ لكما صدقًا إن شكوكًا جادّةً تُساوِرني إزاء السير برون فارس (النّهر الأسود)».

تبادلَ الزّوج والزّوجة نظرةً، وقالت فاليس: «ذلك الرّجل وقح يا جلالة الملكة، فَظّ وسليط اللّسان».

أضافَ السير بالمان: «ليس فارسًا حقيقيًا».

ابتسمَت سرسي له وحده قائلةً: «نعم، وأنت فارس يعرف الفُروسيّة الحقّة. إنني أذكرُ مشاهدتك تُنازِل في... ما دورة المباريات التي قاتلت فيها بكلّ عظمةِ أيها الفارس؟».

أجابَ مبتسمًا بتواضُع: «تلك التي كانت في (وادي الغسق) منذ ستّة أعوام؟ لا، لم تكوني حاضرةً، وإلّا لتوّجتِ ملكةً للحُبّ والجمال بكلّ تأكيد. أكانت دورة المباريات التي أقيمَت في (لانسپورت) بَعد تمرُّد جرايچوي؟ لقد أسقطتُ فيها عدّة فُرسانٍ بارعين...».

ردّت: «هي بالضّبط»، ثم تجهّم وجهها إذ أردفَت: «العِفريت اختفى ليلة موت أبي تاركًا سجّانين أمينين في بِركةٍ من الدّماء. بعضهم يدّعي أنه فَرّ عابرًا (البحر الضيّق)، لكنني أتساءلُ. القزم ماكر. ربما لا يزال كامنًا على مقربةٍ ويُخطّط للمزيد من الاغتيالات، ربما يُخفيه صديق ما».

ملّس السير بالمان على شاربه الكثّ متسائلًا: «برون؟».

- «لقد كان مخلوق العِفريت دومًا، و(الغريب) وحده يعلم كم رجلًا أرسلَ إلى الجحيم بأمر تيريون».

قال السير بالمان: «جلالة الملكة، أعتقدُ أني كنتُ لألاحظ لو أن هناك قزمًا متواريًا في أراضينا».

ردّت سرسي: «أخي صغير الحجم ومخلوق للتواري»، وتركَت يدها ترتجف مواصلةً: «اسم الطّفل مسألة صغيرة... لكن الوقاحة التي تمرُّ دون عقابٍ تستولِد الخيانة، ثم إن كايبرن أخبرني بأن ذلك الرّجل برون يجمع المرتزِقة حوله».

قالت فاليس: «لقد ضَمّ أربعة فُرسان إلى أهل بيته».

أطلقَ السير بالمان نخيرًا ساخرًا، وقال: «زوجتي تُطري عليهم بوصفهم بالفُرسان. إنهم مرتزِقة متسلِّقون دون ذرّةٍ واحدة من الفُروسية بين أربعتهم».

قالت سرسي منتحبةً: «كما خشيت. برون يحشد رجالًا للقزم، وليُنقِذ (السَّبعة) ابني الصَّغير. العِفريت سيَقتُله كما قتلَ أخاه. أيها الصَّديقان، إنني أضعُ شَرفي في أيديكما... لكن ما قيمة شَرف الملكة أمام مخاوف الأم؟».

طمأنها السير بالمان قائلًا: «تكلَّمي يا صاحِبة الجلالة. لن يَخرج كلامكِ من هذه الغُرفة أبدًا».

مدَّت سرسي يدها عبر المائدة واعتصرَت يده قائلةً: «سـ... سأنامُ مطمئنة البال أكثر إذا سمعتُ أن السير برون أصابَته... أصابَته حادثة... وهو يصطاد ربما».

فكَّر السير بالمان لحظةً قبل أن يسأل: «حادثة مميتة؟».

لا، أريدُ أن يكسر إصبع قدمه الصَّغير. عضَّت شفتها كاظمةً غيظها، وقالت لنفسها: *أعدائي في كلِّ مكانٍ وأصدقائي بُله*. همسَت: «أتوسَّلُ إليك أيها الفارس، لا تجعلني أقولها...».

قال السير بالمان رافعًا إصبعه: «فهمتُ».

كانت حبَّة لِفت لتفهم أسرع منك. «أنت فارس حقيقي، جواب لدُعاء أمٍّ خائفة». وقبَّلته سرسي متابعةً: «عجِّل بفِعلها من فضلك. برون حوله رجال قلائل الآن، لكن إذا لم نتصرَّف فمؤكَّد أنه سيجمع المزيد». وقبَّلت فاليس، وقالت: «لن أنسى هذا أبدًا أيها الصَّديقان، يا صديقاي المخلصان في (ستوكوورث). *نفخر بإخلاصنا.* لكما كلمتي، سنجد للوليس زوجًا أفضل عند الانتهاء من هذا الأمر». *من عائلة كِتلبلاك ربما. «نحن أولاد لانستر نُسدِّد ديوننا».*

كانت البقيّة المزيد من الهيپوكراس مع الشّمندر بالزُّبدة والخُبز السّاخن وسمك الكراكي المغلّف بالأعشاب وضلوع الخنازير البرّيّة. باتت سرسي مغرمةً للغاية بلحم الخنازير البرّيّة منذ موت روبرت، حتى إنها لم تجد غضاضةً في صُحبتها الحاليّة، على الرغم من أن فاليس راحت تتزلّف إليها وأخذ بالمان يتفاخر بلا توقُّف من طبق الحساء إلى طبق الحلويات.

كانت السّاعة قد تجاوزت منتصف اللّيل قبل أن تُخلّص نفسها منهما. أثبت السير بالمان أنه مولع بالشّراب حين اقترح تقديم إبريقٍ آخر، فلم تجد الملكة أن من الحصافة أن ترفض، وعندما رحلا أخيرًا قالت لنفسها: *كان يُمكنني أن أستأجر رجلًا عديم الوجه يَقتل برون مقابل نِصف ما أنفقته على الهيپوكراس.*

في هذه السّاعة كان تومن غائبًا في نومٍ عميق، لكن سرسي ألقت نظرةً عليه قبل أن تذهب إلى فِراشها. أدهشها أن ترى ثلاث هُريرات نائمةً بسكينةٍ إلى جواره، فسألت السير مرين الواقف خارج غُرفة النّوم الملكيّة: «من أين أتت تلك القِطط؟».

- «الملكة الصّغيرة أعطتها له. كانت ستُعطيه واحدةً فقط لكنه لم يستطِع أن يختار أيّها تروقه أكثر».

أفضل من شقّ بطن أمّها وإخراجها منه على ما أعتقد. محاولات مارچري الرّعناء للغواية مفضوحة لدرجة تبعث على الضّحك. *تومن صغير للغاية على القُبَل فبدلًا منها تُعطيه القِطط.* على أن سرسي تتمنّى لو لم يكن لونها أسود، فالقِطط السّوداء فأل سيّئ، كما اكتشفت ابنة ريجار الصّغيرة في هذه القلعة ذاتها. *لولا دُعابة الملك المجنون القاسية مع أبي لكانت ابنتي.* لا بُدّ أن الجنون هو ما قاد إيرس إلى رفض ابنة اللورد تايوين وأخذ ابنه بدلًا منها، بينما زوّج ابنه هو بأميرةٍ دورنيّة واهنة عيناها سوداوان وصدرها مسطّح.

ما زالَت ذكرى الرَّقص تعتمل في نفسها بَعد كلّ هذه السِّنين. ليالي كثيرةً تفرَّجت على الأمير ريجار في القاعة يعزف على قيثارته ذات الأوتار الفضِّيَّة بأصابعه الطَّويلة الأنيقة. *هل عرفَ العالم رجلًا أجمل؟* لكنه كان أكثر من مجرَّد رجل. *دماؤه كانت دماء (ڤاليريا) القديمة، دماء التَّنانين والآلهة*. في صِباها وعدَها أبوها بأنها ستتزوَّج ريجار. آنذاك لم تكن قد تجاوزَت السَّادسة أو السَّابعة، وبينما يبتسم تلك الابتسامة السرِّيَّة التي لم يرَها بَشريّ إلَّا سرسي قال لها: «لا تُذكَري الأمر لأحدٍ أبدًا يا صغيرتي إلى أن يُوافِق جلالته على الخِطبة. يجب أن يظلّ هذا سِرَّنا في الوقت الحالي». وظَلَّ السِّرُّ طَيَّ الكتمان، مع أنها في مرَّةٍ رسمَت نفسها محلِّقةً وراء ريجار على متن تنِّينٍ وقد لفَّت ذراعيها بإحكامٍ حول صدره، ولمَّا اكتشفَ چايمي الرَّسم قالت له إنهما الملكة أليسين والملك چهيرس.

كانت في العاشرة حين رأت الأمير بشحمه ولحمه أخيرًا، في دورة المباريات التي أقامَها أبوها ترحيبًا بالملك إيرس في الغرب. نُصِبَت منصَّات المتفرِّجين عند أسوار (لانسپورت)، وتردَّدت أصداء هتاف العامَّة على أسوار (كاسترلي روك) كقصف الرَّعد. *دوّى تهليلهم لأبي أعلى مرَّتين من تهليلهم للملك، لكنهم هلَّلوا للأمير ريجار أعلى مما هلَّلوا لأبي مرَّتين*.

حينئذٍ كان ريجار تارجارين في السابعة عشرة وحديث العهد بالفروسيّة، وقد ارتدى دِرعًا سوداء فوق قميصٍ من الحلقات المعدنيّة الذّهبيّة عندما خَبّ بحصانه إلى مضمار النّزال، ورفرفت شرائط طويلة من الحرير الأحمر والذّهبي والبرتقالي من خوذته كألسنة اللّهب. سقط اثنان من أعمامها أمام رمحه، علاوةً على دستةٍ من أفضل منازلي أبيها، زهور الغرب، وفي اللّيل اعتاد الأمير العزف على قيثارته الفضّيّة لتنهمر دموعها. عندما قُدّمت إليه كادت سرسي تغرق في أعماق عينيه الأرجوانيّتين الحزينتين، وتذكُر أنها فكّرت: *لقد جُرِح، لكنني سأشفي جرحه حين نتزوّج*. مقارنةً بريجار بدا أخوها الجميل جايمي نفسه مجرّد صبيٍّ غِر، وقالت لنفسها وقد أسكرتها الإثارة: *سيُصبح الأمير زوجي، وعندما يموت الملك العجوز سأغدو الملكة*. أفصحت لها عمّتها عن تلك الحقيقة قبل دورة المباريات، وقالت لها الليدي چنا بينما تُسوّي فُستانها: «يجب أن تبدي في غاية الجمال، فخلال المأدبة الأخيرة ستُعلَن خِطبتكِ إلى الأمير ريجار».

كم كانت سرسي سعيدةً يومها، وإلّا لما كانت قد جرؤت قَطّ على الذّهاب إلى خيمة ماجي الضّفدعة، لكنها لم تفعلها إلّا لتُبرهِن لچاين وميلارا على أن النُبوءة لا تخشى شيئًا. *كنتُ سأصبح ملكةً، ولِمَ تخاف الملكة من عجوزٍ دميمة؟* لا تزال ذكرى النُبوءة تجعل جِلدها يقشعرّ بعد العمر الذي انقضى. چاين فرّت *من الخيمة تُصرخ خوفًا، لكن ميلارا مكثت ومكثتُ أنا. تركناها تتذوّق دمنا وضحكنا من نُبوءاتها السّخيفة التي لم يكن أيّها يُعقَل*. كانت ستُصبِح زوجة الأمير ريجار مهما قالت المرأة. لقد وعدَها أبوها، وكلمة تايوين لانستر من ذهب.

ماتت ضحكتها مع نهاية المباريات. لا أقيمت مأدبة أخيرة ولا ارتفعت الأنخاب احتفالًا بخِطبتها إلى الأمير ريجار. لا شيء إلّا الصّمت البارد والنّظرات الفاترة بين الملك وأبيها. لاحقًا، بَعدما رحلَ إيرس وابنه وجميع فُرسانه البواسل إلى (كينجز لاندنج)، ذهبَت الفتاة إلى عمّتها باكيةً لا تفهم، فأخبرَتها الليدي چنا: «أبوكِ عرضَ الزّيجة لكن إيرس رفضَ أن يسمعه، وقال له: *أنت أكفأ خدمي يا تايوين، لكن الرّجل لا يُزوِّج وريثه بابنة خادمه*. جفّفي دموعكِ هذه أيتها الصّغيرة. هل رأيتِ أسدًا يبكي من قبل؟ سيجد أبوكِ لكِ رجلًا آخر، رجلًا أفضل من ريجار».

لكن عمّتها كذبَت وخذلَها أبوها، تمامًا كما يخذلها چايمي الآن. *لم يجد أبي رجلًا أفضل، بل أعطاني روبرت، وأينعَت لعنة ماجي كزهرةٍ سامّة*. لو أنها تزوّجت ريجار كما شاءت الآلهة لما نظرَ مرّتين إلى الذّئبة الصّغيرة. *ولكان ملكنا اليوم ولكنتُ ملكته وأمّ أولاده*.

لم تغفر سرسي لروبرت قتله قَطّ.

إلّا أن الأسود لا تُجيد المغفرة، وهو الدّرس الذي سيتعلّمه السير برون فارس (النّهر الأسود) قريبًا.

---

(62) كبش الفِداء كان صبيًا يتلقّى العقاب جَلدًا أو ضربًا بدلًا من صغار العائلات الملكيّة في أوروبا في الفترة بين نهاية العصور الوُسطى وبداية الثّورة الصّناعيّة. (المترجم).

(63) الأركون كلمة يونانيّة قديمة تعني حرفيًا «الحاكم»، وإن كانت قد استُخدِمَت مع عددٍ مختلف من أصحاب المناصب الرّسميّة وكبار التّجّار في روما القديمة والإمبراطوريّة البيزنطيّة، كما استخدمَها العرب للإشارة إلى العظيم من الدّهقان الفُرس. (المترجم).

أصرَّ السير هايل هَنت على أن يأخذوا معهم الرؤوس، وقال: «تارلي سيُريدها ليُعلِّقها على الأسوار».

علَّقت بريان التي لا تُريد أن تجتاز ظُلمة غابة الصَّنوبر الخضراء ومعها رؤوس الرِّجال الذين قتلَتهم: «ليس معنا قطران. اللَّحم سيتعفَّن. اترُكها».

لكن هَنت رفضَ الإصغاء، وجزَّ أعناق الموتى بنفسه وربطَ الرُّؤوس الثَّلاثة معًا من شَعرها وعلَّقها من سَرجه، فلم تجد بريان بُدًّا من محاولَة التَّظاهر بأنها غير موجودة، وإن كانت أحيانًا -لا سيَّما ليلًا- تَشعر بأعيُنها الميتة تُحدِّق إلى ظَهرها، وفي مرَّةٍ حلمَت بأنها تسمع بعضها يهمس لبعض.

كانت الأجواء باردةً مبتلَّةً في (الرَّأس المتصدِّع) إذ عادوا أدراجهم. في بعض الأيام تُمطِر السَّماء وفي بعضها تتوعَّد بالمطر، ولم يَشعُروا بالدِّفء قَطُّ، وحتى عندما يُخيِّمون يستعصي عليهم العثور على حطبٍ جاف لإشعال النَّار.

لدى بلوغهم بوَّابة (بِركة العذارى) كان سرب من الذُّباب يُصاحبهم، وقد أكلَ غراب عينَي شاجويل وغَجَّ رأسا بيج وتيميون باليرقات. قبلها بفترةٍ طويلة تعوَّدت بريان وبودريك الرُّكوب متقدِّمين بمئة ياردة لتظلَّ رائحة العفَن وراءهما، أمَّا السير هايل فزعمَ أنه فقدَ حاسَّة الشَّمِّ تمامًا. كلَّما خيَّموا ليلًا سألَته بريان أن يُحرِق الرُّؤوس، لكن هَنت شديد العناد حقًّا.

على الأرجح سيقول اللورد راندل إنه قتلَ ثلاثتهم بنفسه.

إلَّا أن الفارس تحلَّى بالشَّرف ولم يفعل شيئًا من هذا القبيل.

- «المُرافق المتلعثم ألقى صخرةً»، قال هَنت عندما مثَلَ مع بريان أمام تارلي في ساحة قلعة موتون، بعد أن قُدِّمت الرُّؤوس إلى رقيب الحرَّاس الذي أُمِرَ بتنظيفها وغمسها في القطران وتعليقها فوق البوَّابة. «المُبارزة قامت بالباقي».

لاحَ الشّكُّ على اللورد راندل إذ سألَه: «الثلاثة؟».

- «بالطّريقة التي قاتلَت بها كان بإمكانها أن تَقتُل ثلاثةً آخَرين».

سألَها تارلي: «وهل وجدتِ ابنة ستارك؟».

- «لا يا سيّدي».

- «وبدلًا من ذلك قتلتِ بضعة فئران. هل استمتعتِ بهذا؟».

- «لا يا سيّدي».

- «مؤسف. حسن، ها قد جرّبتِ مذاق الدّم وأثبتِّ ما أردتِ إثباته. حان الوقت لأن تخلعي هذه الحلقات المعدنيّة وترتدي ثيابًا لائقةً. ثمّة سُفن في الميناء، ومؤكّد أن إحداها ستتوقّف في (تارث). سأضعكِ عليها».

- «أشكرك يا سيّدي، لكن لا».

نمّ وجه اللورد تارلي عن أنه لا يرغب في شيءٍ أكثر من أن يغرس خازوقًا في رأسها ويُعلّقه فوق بوّابة (بِركة العذارى) إلى جوار تيميون وبيج وشاجويل، وبغلظةٍ سألَها: «أتنوين الاستمرار في هذه الحماقة؟».

- «أنوي العثور على الليدي سانزا».

قال السير هايل: «بَعد إذن سيّدي، لقد شاهدتها تُقاتِل الممثّلين. إنها أقوى من معظم الرّجال، وسريعة...».

قاطعَه تارلي بحدّة: «سيفها هو السّريع. هذه طبيعة الفولاذ الڤاليري. أقوى من معظم الرّجال؟ أجل، إنها مسخ، مُحال أن أنكر هذا».

فكّرت بريان: *لن يحبّني أمثاله أبدًا مهما فعلت*. «سيّدي، ربما يعرف ساندور كليجاين شيئًا عن الفتاة. إذا وجدته...».

- «كليجاين أصبحَ مجرمًا. إنه يركب مع جماعة بريك دونداريون الآن على ما يبدو، وربما لا، الحكايات متعدِّدة. أريني أين مخبأهما وبكلِّ سرورٍ سأبقرُ بطنيهما وأخرجُ أمعاءهما وأحرقها. لقد شنقنا عشراتٍ من الخارجين عن القانون، لكن القادة ما زالوا يُضَلِّلوننا؛ كليجاين ودونداريون والرّاهب الأحمر، والآن تلك المرأة قلب الحجر... كيف تعتزمين العثور عليهم بينما لا أستطيعُ أنا؟».

قالت عاجزةً عن إعطائه إجابةً جيِّدةً: «سيِّدي، إنني... ليس في وسعي إلّا أن أحاول».

- «حاوِلي إذن. إن معكِ وثيقتكِ ولستِ محتاجةً إلى إذني، لكني سأعطيكِ إياه مع ذلك. إذا كنتِ محظوظةً فلن يُصيبكِ لقاء عنائكِ أكثر من أوجاع الرُّكوب، وإن لم يكن فربما يَترُككِ كليجاين حيَّةً بَعد أن يَفرُغ وقطيعه من اغتصابكِ، وعندئذٍ يُمكنكِ أن تعودي إلى (تارث) وفي بطنكِ نغل كلب ما».

تجاهلَت بريان ردَّه قائلةً: «بَعد إذن سيِّدي، كم رجلًا مع كلب الصَّيد؟».

- «ستَّة أو ستُّون أو ستُّمئة. الإجابة مرهونة بمَن تسألين».

كان جليًّا أن راندل تارلي اكتفى من هذه المحادثة إذ بدأ يلتفت مبتعدًا، لكن بريان قالت: «أستأذِنك ومُرافقي في كرم ضيافتك حتى...».

- «لكِ أن تستأذِني كما شئتِ، لكني لن أسمح بوجودكِ تحت سقفي».

تقدَّم السير هايل هنت قائلًا: «بَعد إذن سيِّدي، معلومي أن هذا لا يزال سقف اللورد موتون».

حدجَ تارلي الفارس بنظرةٍ ساهمة مجيبًا: «موتون يملك شجاعة الدود. لن تُكلّمني عن موتون. وبالنّسبة إليكِ يا سيّدتي فيُقال إن أباكِ رجل صالح، وإذا كان هذا صحيحًا فإنني أشفقُ عليه. بعض الرّجال يُرزَق أبناءً وبعضهم يُرزَق بناتٍ، لكن لا أحد يستحقُّ أن تحلّ به لعنة مِثلكِ. عيشي أو موتي يا ليدي بِريان، لكن لا تعودي إلى (بِركة العذارى) وهي تحت حُكمي».

قالت بِريان لنفسها: *الكلام هواء، لا يُمكنه أن يجرحكِ، لا تدعيه يُؤثّر فيكِ*، وحاولَت أن تقول له: «كما تأمر يا سيّدي»، لكن تارلي رحلَ قبل أن تَخرُج منها الكلمات، فخرجَت هي من السّاحة شاعرةً كأنها نائمة، لا تدري أين تذهب.

لحقَ بها السير هايل قائلًا: «هناك خانات».

هزّت رأسها دون رَد، فليست راغبةً في الكلام مع هايل هَنت.

- «هل تَذكُرين (الإوزة النّتنة)؟».

ما زالَت رائحة المكان عالقةً بمعطفها. «لماذا؟».

- «قابليني هناك غدًا في منتصف النّهار. آلن ابن عمّي كان ممّن أرسلوا للعثور على كلب الصّيد. سأتكلّم معه».

- «ولِمَ تفعل شيئًا كهذا؟».

- «ولِمَ لا؟ إذا نجحتِ في ما فشلَ فيه آلن سأستطيعُ التّندّر عليه أعوامًا».

لم يكن السير هايل مخطئًا، فما زالَت في (بِركة العذارى) خانات، إلّا أن بعضها احترقَ خلال نهب أو آخَر ولم يُبنَ ثانيةً بعد، والمتبقّي مكتظٌّ عن آخِره بجُنود جيش اللورد تارلي. بَعد الظّهيرة زارَتها وپودريك جميعًا، ولم يجدا في أيٍّ منها أسرّةً شاغرةً.

قال پودريك بينما تنخفض الشّمس في الغرب: «أيتها الفارس، سيّدتي، هناك سُفن. السُّفن فيها أسرّة، شِباك نوم أو أسرّة بدورَين».

لم يزل رجال اللورد راندل يذرعون أرصفة الميناء بكثافة الذُّباب الذي غطّى رؤوس الممثِّلين السَّفّاحين الثلاثة، لكن رقيبهم تعرَّف بريان بمجرَّد النَّظر وتركَها تمرّ. كان الصَّيّادون المحليُّون يربطون قواربهم مع دنوّ اللَّيل وينادون على ما اصطادوه نهارًا، لكن ما يهمُّها هو السُّفن الكبيرة التي تمخُر مياه (البحر الضيِّق) العاصفة. وجدَت نِصف دستةٍ منها راسيةً، وإن رأت ڤاليونًا اسمه (ابنة المارد) يُلقي حباله ليُبحِر في تيّار المساء، وطاقَت مع پودريك بالسُّفن المتبقِّية، فحسبتها زبّان (بنت بلدة النَّوارس) عاهرةً وقال لهما إن سفينته ليست بيت دعارة، وعرضَ عليها صياد إيبنيزي من سفينة صيد حيتان أن يشتري صبيَّها، لكنهما صادَفا حظًّا أفضل في غيرهما من السُّفن. ابتاعَت لپودريك بُرتقالةً على متن (جوّال البحر)، وهو كوج وصلَ للتَّوّ من (البلدة القديمة) عن طريق (تايروش) و(پنتوس) و(وادي الغسق)، وقال لها زبّانه: «(بلدة النَّوارس) وجهتنا التالية، ومن هناك ندور حول (الأصابع) إلى (بلدة الأخوات) و(الميناء الأبيض)، إذا تركَت لنا العواصف الفُرصة. (الجوّال) سفينة نظيفة، ليست عليها جرذان كثيرة كأغلب السُّفن، وعندنا بيض طازج وزُبدة ممخوضة حديثًا. هل ترغب سيِّدتي في الذَّهاب شمالًا؟».

- «لا». *ليس بعد*. الفكرة مغرية، ولكن...

في طريقهما إلى الرَّصيف التالي قال پودريك مجرجرًا قدميه: «أيتها الفارس، سيِّدتي، ماذا لو عادَت سيِّدتي إلى وطنها؟ أعني سيِّدتي الأخرى أيتها الفارس، الليدي سانزا».

- «لقد أحرَقوا وطنها».

- «ولو، إن آلهتها هناك، والآلهة لا تموت».

الآلهة لا تموت لكن الفتيات يَفنين. «تيميون كان قاتلًا متوحِّشًا، لكني لا أظنُّ أنه كذبَ بشأن كلب الصَّيد. لا يُمكننا أن نذهب شمالًا إلى أن نتأكَّد. ستكون هناك سُفن أخرى».

في أقصى شرق الميناء وجدا مأوى لهما اللّيلة على متن قادس تجاري حطّمته عاصفة اسمه (سيّدة مين). كان مائلًا على نحوٍ سيِّئ وقد فقدَ صاريته ونِصف طاقمه في العاصفة، لكن رُبّانه لا يملك المال الكافي لإصلاحه، فسرّه أن يأخذ القليل من البنسات من بريان ويسمح لها وپود بأن يتقاسما قمرةً خاليةً.

لم تكن ليلتهما مريحةً. ثلاث مرّاتٍ استيقظَت بريان، الأولى عندما بدأ المطر يَسقُط، والثّالثة مع صريرٍ جعلها تحسب أن ديك الرّشيق يتسلّل زاحفًا ليَقتُلها. في المرّة الثّانية استيقظَت وسكّينها في يدها، لكن شيئًا لم يكن هنالك، وفي ظلام القمرة الصّغيرة الضيّقة استغرقَت لحظةً لتتذكّر أن ديك الرّشيق مات، وفي النّهاية لمّا غابَت في النّوم مجددًا حلمَت بالرّجال الذين قتلَتهم. كانوا يَرقُصون حولها، يسخرون منها ويُحاوِلون قرصها بينما هوَت عليهم بسيفها. مزّقتهم إربًا داميةً، لكنهم ظلّوا يدورون حولها كالبعوض... شاجويل وتيميون وپيج، نعم، ولكن راندل تارلي أيضًا، وڤارجو هوت ورونيت كونجتون الأحمر. حملَ رونيت وردةً بأصابعه، وحين قدّمها لها بترَت يده.

صحَت تتصبّب عرقًا، وقضَت باقي اللّيل منكمشةً تحت معطفها تُصغي إلى المطر يدقّ سطح السّفينة فوق رأسها دقًّا. كانت ليلةً ليلاء، ومن حينٍ إلى آخَر سمعَت هزيم رعدٍ بعيد جعلَها تُفكّر في السّفينة البراڤوسيّة التي أقلعَت مساءً.

في اليوم التّالي عادَت إلى (الإوزة النّتنة) وأيقظَت مالكة الحانة القذرة ونقدَتها ثمن القليل من الشجق والخُبز المحمّر ونِصف كوب نبيذ وإبريق من الماء المغلي وكوبين نظيفين. زرّت المرأة عينيها رامقةً بريان بينما وضعَت الماء على النّار، وقالت: «أنتِ الفتاة الكبيرة التي ذهبَت مع ديك الرّشيق. هل خدعَكِ؟».

- «لا».

- «اغتصبَكِ؟».

- «لا».

- «سرقَ حصانكِ؟».

- «لا. لقد قتلَه خارجون عن القانون».

لاحَ على المرأة الفضول أكثر من الضِّيق وهي تقول: «خارجون عن القانون؟ لطالما تصوَّرتُ أن ديك سيُشنَق أو يُرسَل إلى (الجِدار)».

أكلا الخُبز المحمَّر ونِصف الشجق، وازدرد يودريك پاين طعامه بالماء المنكَّه بالنَّبيذ، في حين رشفَت بِريان ببُطءٍ من النَّبيذ المخفَّف بالماء وتساءلَت عن سبب مجيئها هنا. هايل هَنت ليس فارسًا حقيقيًا، ووجهه الضَّريح مجرَّد قناع ممثِّلين. قالت لنفسها: *لستُ محتاجةً إلى عونه ولا إلى حمايته، ولستُ محتاجةً إليه. إنه لن يأتي على الأرجح. قال لي أن أقابله هنا كمزحةٍ أخرى لا أكثر.*

كانت ناهضةً لتُغادِر عندما وصلَ السير هايل قائلًا: «سيِّدتي، يودريك»، وتطلَّع إلى الكوبين والأطباق وبقيَّة الشجق التي تَبرُد في بِركةٍ من الدُّهن، وقال: «بحقِّ الآلهة، آملُ أنكما لم تأكلا شيئًا هنا!».

ردَّت بِريان: «ما أكلناه لا يخصُّك. هل وجدت ابن عمِّك؟ بِمَ أخبرَك؟».

- «ساندور كليجاين شوهِدَ آخِر مرَّةٍ في (الملَّاحات) يوم الغارة، وبعدها ركبَ غربًا بمحاذاة (الثَّالوث)».

قالت مقطِّبةً جبينها: «(الثَّالوث) نهر طويل».

- «أجل، لكني لا أظنُّ أن كلبنا ابتعدَ كثيرًا عن مصبِّه. يبدو أن (وستروس) فقدَت سحرها في ناظرِيه، لأنه كان يبحث عن سفينةٍ في (الملّاحات)»، وسحبَ السير هايل لفافةً من جلد الخراف من حذائه، وأزاحَ الشجق جانبًا وبسطَها، فاتّضح أنها خارطة. «كلب الصّيد فتك بثلاثةٍ من رجال أخيه في الخان القديم عند مفترَق الطُّرق، هنا، ثم قادَ الغارة على (الملّاحات)، هنا»، ونقرَ على (الملّاحات) بإصبعه متابعًا: «ربما يكون عالقًا. آل فراي هنا في (التّوأمتين)، و(داري) و(هارنهال) في الجنوب على ضفّة (الثالوث) الأخرى، وفي الغرب هناك قتال دائر بين آل بلاكوود وآل براكن، واللورد راندل هنا في (بِركة العذارى)، و(الطّريق العالي) الذي يقود إلى (الوادي) مسدود بالثّلوج، حتى إذا استطاعَ تجاوُز قبائل الجبال. أين يذهب الكلب إذن؟».

- «إذا كان مع دونداريون...؟».

- «ليس معه، آلن واثق بهذا. رجال دونداريون يبحثون عنه أيضًا، وأذاعوا أنهم ينوون شنقه لما ارتكبَه في (الملّاحات). لم يكن لهم دور في ذلك، لكن اللورد راندل يُشيع العكس على أمل أن ينقلب العوام على بريك وأخوّته. إنه لن يقبض على سيِّد البرق أبدًا ما دام الأهالي يحمونه. ثم إن هناك تلك الجماعة الأخرى التي تقودها المرأة قلب الحجر... عشيقة اللورد بريك وفقًا لإحدى الحكايات. يُقال إن آل فراي شنقوها، لكن دونداريون قبّلها وأعادَها إلى الحياة، والآن أصبحت مِثله لا تموت».

تفحّصت بريان الخارطة، وقالت: «إذا شوهِدَ كليجاين آخِر مرّةٍ في (الملّاحات) فهذا هو المكان الذي سنجد فيه أثره».

- «لم يتبقَّ أحد في (الملّاحات) إلّا فارس عجوز مختبئ في قلعته، هذا ما قالَه آلن».

- «ولو، إنه مكان نبدأ منه على الأقل».

قال السير هايل: «هناك رجل، سِپتون دخلَ من بوّابتي قبل ظهوركِ بيوم، اسمه ميريبولد، وُلِدَ في أراضي النّهر ونشأ فيها، وخدمَ هنا طيلة حياته. سيرحل غدًا ليبدأ دورته، ودائمًا يزور (الملّاحات). يُمكننا أن نذهب معه».

رفعَت بريان عينيها بحدّةٍ مرتّدةً: «نذهب؟».

- «أنا ذاهب معكم».

- «لا، لن تذهب».

- «طيِّب، أنا ذاهب مع السِّپتون ميريبولد إلى (الملّاحات). أنتِ وپودريك تستطيعان الذّهاب حيثما تُريدان».

- «هل أمرَك اللورد تارلي بأن تتبعني ثانيةً؟».

- «بل أمرَني بالابتعاد عنكِ. اللورد راندل يرى أن شيئًا من الاغتصاب العنيف سينفعكِ».

- «لماذا تُريد أن تأتي معي إذن؟».

- «إمّا هذا وإمّا العودة إلى واجب البوّابة».

- «إذا أمرَك سيِّدك...».

- «إنه لم يَعُد سيِّدي».

أدهشَها هذا، فسألَته: «تركت خدمته؟».

- «حضرة اللورد أبلغَني بأنه لم يَعُد محتاجًا إلى سيفي أو إلى وقاحتي، لا فرق. من الآن فصاعدًا سأستمتعُ بحياة المغامرة كفارسٍ متجوّل... وإن كنتُ أتصوّرُ أننا سننال مكافأةً سخيّةً إذا عثرنا على سانزا ستارك».

الذّهب والأراضي، هذا كلُّ ما يرى في الأمر. «إنني أنوي إنقاذ الفتاة لا بيعها. لقد حلفتُ يمينًا».

- «وأنا لا أذكرُ أني حلفتُ».

- «ولذا لن تأتي معي».

في الصّباح التالي بينما تُشرِق الشّمس غادَروا.

كان موكبًا غريبًا؛ السير هايل على جوادٍ كستنائي، وبريان على فَرسها الرَّماديَّة الطَّويلة، وبودريك باين على حصانه الأرقط الثعس، وإلى جوارهم يمشي السِّبتون ميريبولد متكئًا على نبُّوت ويقود حمارًا صغيرًا وكلبًا كبيرًا. على ظَهر الحمار حمولة شديدة الثِّقل لدرجة أن بريان خشيَت أن ينكس، وكان السِّبتون ميريبولد قد قال لهم عند بوَّابة (بركة العذارى): «طعام للفقراء والجائعين في أراضي النَّهر؛ بذور ومكسَّرات وفواكه مجفَّفة وثريد شوفان وطحين وخُبز شعير وثلاثة قوالب من الجُبنة الصَّفراء من الخان عند (بوَّابة المهزجين)، وسمك قَد مملَّح لي، وضأن مملَّح لكلب... أوه، وملح، وبصل وجزر ولِفت وجوالان من الفاصوليا وأربعة أجولة من الشَّعير وتسعة أجولة من البُرتقال. أعترفُ بأنني ضعيف الإرادة أمام البُرتقال. لقد حصلتُ عليه من بحَّارٍ وأخشى أنه آخِر ما سأذوقه منه حتى الرَّبيع».

ميريبولد سِبتون بلا سِبت، يعلو درجةً واحدةً فقط على الإخوة الشَّحَّاذين في تدرُّج العقيدة الهرمي. هناك مئات مِثله، رجال بائسون واجبهم المتواضع أن يمشوا من قريةٍ ضئيلة إلى أخرى ليؤدُّوا المراسم المقدَّسة ويُقيموا طقوس الزِّفاف ويغفروا الخطايا. معظم مَن يزورهم ينتظِر منهم أن يُطعِموه ويُؤووه، لكن أكثرهم فقراء مِثله، ولذا لا يبقى ميريبولد في مكانٍ واحدٍ طويلًا دون أن يُثقِل على مضيفيه. أحيانًا يسمح له أصحاب الخانات الطَّيِّبون بالمبيت في مطابخهم أو اسطبلاتهم، وثمَّة سِبتري هنا أو معقل هناك بل وبضع قلاعٍ أيضًا يعلم أنه سيُلاقي ترحيبًا فيها، وحين لا يكون هناك مكان من هذه في الجوار ينام تحت شجرةٍ أو سياجٍ من الشُّجيرات. «في أراضي النَّهر سوج شُجيرات ممتازة كثيرة. أفضلها الأقدم. لا شيء يفوق سياج شُجيراتٍ عمره مئة عام. داخلها يستطيع المرء أن ينام مِلء جفنيه كأنه في خان، ولا يخشى البراغيث كثيرًا».

لا يقرأ السّيتون أو يَكتُب، وهو ما اعترف لهم به بمرحٍ على الطّريق، لكنه يعرف مئةً من الأدعية ويستطيع أن يتلو مقاطع طويلةً من (التّجمة الشباعيّة) من الذّاكرة، وهذا كلُّ المطلوب في القُرى. للرّجل وجه متغضّن لوّحته الرّيح وشَعر شائب كثيف وتجاعيد عند زكتي عينيه، وعلى الرغم من حجمه الكبير وطوله الذي يُناهِز الأقدام السِتّة فإنه يحني ظَهره إلى الأمام بينما يمشي بطريقةٍ تجعله أقصر قامةً بكثير. يداه كبيرتان متينتان، ومفاصل أصابعه حمراء وتحت أظفاره وسخ، كما أن له أكبر قدمين رأتهما بِريان على الإطلاق، حافيتان وسوداوان وقاسيتان كقرون الغزلان.

قال الرّجل لبِريان: «لم أنتعل حذاءً منذ عشرين عامًا. في العام الأول كانت في قدمَي قروح أكثر من الأصابع، وكان باطنهما ينزف كالخنازير كلّما وطأتُ حجرًا صُلبًا، لكنني صلّيتُ وقوّى (الإسكاف في الأعالي) جِلدي ومتّنه».

قال پودريك محتجًا: «ليس هناك إسكاف في الأعالي».

- «بل هناك أيها الصّبي... وإن كنت تدعوه باسمٍ آخر ربما. أخبِرني، مَن أكثر مَن تحبُّ مِن الآلهة السّبعة؟».

أجابَ پودريك بلا لحظة تردُّد: «(المُحارب)».

تنحنحت بِريان، وقالت: «في (بهو المساء) كان سپتون أبي يقول دومًا إن هناك إلهًا واحدًا».

- «إله واحد بسبعة وجوه. هذا صحيح يا سيِّدتي ولك الحَقُّ في الإشارة إليه، لكن طلسم السَّبعة الذين هم واحد ليس سهل الإدراك عند البُسطاء، وأنا رجل شديد البساطة، ولذا أتكلَّمُ عن آلهةٍ سبعة»، وعاد ميريبولد يلتفت إلى پودريك قائلًا: «لم أعرف قَطُّ صبيًا لا يحبُّ (المُحارب)، لكنني عجوز، ولأنني عجوز أحبُّ (الحدَّاد)، فدون عمله عَمَّ سيَدافِع (المُحارب)؟ في كلِّ بلدةٍ وكلِّ قلعةٍ حدَّاد، وهؤلاء الحدَّادون يصنعون المحاريث التي نحتاج إليها لزراعة محاصيلنا، والمسامير التي نستخدمها لبناء سُفننا، والحدوات لحفظ حوافر خيولنا المخلصة، وسيوف سادتنا اللَّامعة. لا أحد يُشكِّك في قيمة الحدَّاد، ولذا نُسمِّي أحد آلهتنا السَّبعة هكذا تكريمًا له، لكن كان يُمكن بالسُّهولة نفسها أن نُسمِّيه المُزارع أو الصَّيَّاد أو النَّجَّار أو الإسكاف. ما يعمل عليه لا يهمُّ، المهمُّ أنه يعمل. (الأب) يَحكُم و(المُحارب) يُقاتِل و(الحدَّاد) يَحكُم، ومعًا يفعلون كلَّ ما هو في صالح الإنسان. مِثلما (الحدَّاد) وجه واحد للألوهيَّة فـ(الإسكاف) وجه واحد لـ(الحدَّاد)، وهو من سمعَ صلواتي وشفى قدمَي».

قال السير هايل بجفاف: «الآلهة كريمة، ولكن لِمَ تُزعِجها بينما كان بإمكانك الاحتفاظ بحذائك بالبساطة نفسها؟».

- «المشي حافي القدمين كفَّارتي. حتى السِّپتونات الأتقياء يُمكن أن يكونوا خُطاةً، وجسدي كان ضعيفًا أيما ضعف. كنتُ شابًا غِرًّا، والفتيات... من الممكن أن يبدو سِپتون ما نبيلًا كفارِس إذا كان الرَّجل الوحيد الذي تعرفه الفتاة وارتحلَ أكثر من ميلٍ واحد عن قريتها. كنتُ أتلو عليهن من (النَّجمة الشباعيَّة)، وأثمر (سِفر العذراء) أفضل النَّتائج. أوه، كم كنتُ رجلًا شَزِيرًا قبل أن أتخلَّص من حذائي. يُخزيني أن أفكِّر في كلِّ العذراوات اللائي دنَّستهن».

اعتدلَت بِريان فوق سَرجها بتوتُّرٍ مفكِّرةً في المعسكَر أسفل أسوار (هايجاردن) ورهان السير هايل والآخَرين لرؤية مَن يستطيع أن يُضاجِعها أولًا.

قال پودريك پاين: «إننا نبحث عن فتاة، فتاة رفيعة النَّسب في الثَّالثة عشرة لها شَعر كستنائي».

- «اعتقدتُ أنكم تبحثون عن بعض الخارجين عن القانون».

- «هم أيضًا».

قال الشيتون ميريبولد: «معظم المسافرين يفعلون ما في وسعهم لتحاشي أمثال هؤلاء، ومع ذلك تبحثان أنتما عنهم».

قالت بِريان: «نبحث عن واحدٍ فقط، كلب الصَّيد».

- «هكذا أخبرَني السير هايل. عسي (السَّبعة) أن يُنقِذوكِ يا بنيَّتي. يُقال إنه يَترُك وراءه أثرًا من الأطفال المذبوحين والعذراوات المدنَّسات، وسمعتُ من يدعوه بكلب (الملّاحات) المسعور. ما الذي يُريده أناس صالحون من رجلٍ كهذا؟».

- «الفتاة التي ذكرَها پودريك قد تكون معه».

- «حقًّا؟ إذن يجب أن نُصلّي من أجل المسكينة».

قالت بِريان في قرارتها: *ومن أجلي، صلاة من أجلي أيضًا. سَل (العجوز) أن ترفع مصباحها وتقودني إلى الليدي سانزا، وسَل (المُحارِب) أن يبثَّ القوَّة في ذراعي كي أدافع عنها.* على أن الكلام لم يَخرُج من شفتها، فليست تُريد هايل هَنت أن يسمعه ويسخر من ضعفها الأنثوي.

مع سير الشيتون ميريبولد على قدميه والحمولة الثقيلة على ظَهر حماره كان تقدُّمهم بطيئًا طيلة هذا اليوم. لم يأخذوا الطّريق الرّئيس غربًا، الطّريق الذي سبقَ أن سلكته بريان مع السير چايمي عندما أتيا من الاتّجاه الآخر ليجدا (بِركة العذارى) منهوبةً ملأى بالجُثث، وبدلًا من ذلك اتّجهوا إلى الشّمال الغربي متّبعين ساحل (خليج السّراطين) على دربٍ معوج صغير لدرجة أنه لا يظهر على أيٍّ من خريطتَي جِلد الخراف الثّمينتين اللتين يحملهما السير هايل. على هذا الجانب من (بِركة العذارى) ليس هناك وجود لتلال (الرّأس المتصدّع) شديدة التّحدُّر أو مستنقعاته السّوداء أو غاباته الصّنوبريّة، أمّا الأراضي التي يرتحلون فيها فواطئة بليلة، براري من الكُثبان الرّمليّة والمستنقعات المالحة تحت سماءٍ رحبة يمتزج فيها الرّمادي بالأزرق. أحيانًا يختفي الطّريق وسط أعواد البوص والبِرك المدّيّة، فقط ليُعاود الظُّهور بَعد ميل، وتعلم بريان أن لولا ميريبولد لضلّوا الطّريق لا محالة. الأرض تحتهم طريّة في مواضع كثيرة، ولذا يسبقهم الشيتون في بقاعٍ بعينها ويدقُّ بنبُوته ليتأكّد من صلابة موطئ أقدامهم، ويمضون دون رؤية أيّ أشجارٍ لفراسخ وفراسخ، وما من شيءٍ حولهم إلّا البحر والسّماء والرّمال.

شتّان ما بين هذه الأرض و(تارث) بجبالها وشلّالاتها ومروجها العالية ووديانها الظّليلة، وإن خطرَ لبريان أن لهذا المكان جماله الخاص رغم ذلك. مرّوا بدستةٍ من النُّهيرات بطيئة التّيّار التي تزخر بالضّفادع وصراصير الحقل، وشاهَدوا طيور خطّاف البحر تُحلّق عاليًا فوق الخليج، وسمعوا طيور زمّار الرّمل تصدح من بين الكُثبان، وفي مرّةٍ صادَفوا ثعلبًا جعلَ كلب ميريبولد ينبح بضراوة.

وهناك أناس أيضًا، بعضهم يَقطن وسط البوص في بيوتٍ من الطّمي والقّش، في حين يصطاد آخرون من الخليج في زوارق صغيرة من الجلد ويبنون بيوتهم على ركائز خشبيّة متقلقلة فوق الكُثبان، ويبدو أن أغلبهم يعيش وحده معتكفًا عن سائر النّاس. يبدون في الغالب قومًا خجولين منطوين، لكن قُرب منتصف النّهار بدأ الكلب ينبح ثانيةً، وخرجَت ثلاث نسوة من بين أعواد البوص وأعطين ميريبولد سلّةً مجدولةً ملأى بأم الخُلول، فأعطى كلًّا منهن بُرتقالةً في المقابل، مع أن أم الخُلول منتشرة كالطّمي في هذه الأنحاء والبُرتقال نادر نفيس. إحدى النّسوة عجوز للغاية والثّانية حُبلى منتفخة البطن والثّالثة فتاة ناضرة جميلة كزهرةٍ في الرّبيع، ولمّا انتحى بهن ميريبولد جانبًا ليسمع خطاياهن قهقة السير هايل، وقال: «يبدو أن الآلهة معنا... على الأقل (العذراء) و(الأم) و(العجوز)»، فلاحَت على پودريك دهشة بالغة حدَت بِريان إلى أن تشرح له أنهن مجرّد ثلاث نساء من أهل المستنقعات.

لاحقًا حين استأنفوا رحلتهم التفتَت إلى الشيتون قائلةً: «هؤلاء النّاس لا يَبعدون أكثر من يومٍ من الرّكوب عن (بِركة العذارى)، لكن القتال لم يمسّهم».

- «لأنهم يملكون القليل مما يُغِش يا سيّدتي. كنوزهم الأصداف والحجارة والزّوارق الجلديّة، وأفضل أسلحتهم سكاكين من الحديد الصّدئ. يُولَدون ويعيشون ويحبّون ويموتون. إنهم يعلمون أن اللورد موتون يَحكُم أراضيهم، لكن قلائل منهم رأوه، و(ريفرَن) و(كينجز لاندنج) وغيرهما مجرّد أسماء بالنّسبة إليهم».

قالت بِريان: «ومع ذلك يعرفون الآلهة. هذا عملك في رأيي. منذ متى تجول في أراضي النّهر؟».

- «قريبًا سيتمّ تجوالي أربعين عامًا»، أجابَ الشيتون، وأطلق كلبه نباحًا عاليًا. «من (بِركة العذارى) إلى (بِركة العذارى) تستغرق جولتي نِصف عامٍ وكثيرًا ما تطول عن هذا، وإن كنتُ لا أدّعي أنني أعرفُ (الثالوث). إنني أبصرُ قلاع اللوردات العظام من بعيدٍ فقط، لكنني أعرفُ بلدات الأسواق والمعاقل، والقرى الأصغر من أن تكون لها أسماء، وسُوج الشُّجيرات والتلال، والغُدران التي يشرب منها العطاشى، والكهوف التي يستطيعون أن يأووا إليها، وأعرفُ الطُّرق التي يَسلُكها العامّة، الدُّروب الموحلة المتعرّجة التي لا تظهر على أيّ خريطةٍ من ورق الرُّقوق»، وقهقهة مضيفًا: «يَجدُر بي أن أعرف. لقد وطأت قدماي كلّ ميلٍ منها عشر مرّات».

المجرمون يَسلُكون الطُّرق الخلفيّة، والكهوف مكان مثالي لاختباء المطارَدين. جعلَت لمحة من الارتياب بِريان تتساءل عن قدر معرفة السير هايل بهذا الرّجل. «لا بُدّ أنها حياة مفعمة بالوحدة أيها الشيتون».

قال ميريبولد: «(السّبعة) معي دومًا، ولديّ خادمي المخلص، وكلب أيضًا».

سألَه پودريك پاين: «ألكلبك اسم؟».

- «مؤكّد، لكنه ليس كلبي، ليس هذا».

نبحَ الكلب وهزهزَ ذيله. إنه مخلوق ضخم أشعث، يزن مئة رطلٍ على الأقل، لكنه ودود.

سألَ پودريك: «إلى مَن ينتمي إذن؟».

- «إلى نفسه بالطّبع، وإلى الآلهة. أمّا اسمه فلم يُخبِرني به، ولذا أدعوه بكلب».

- «أوه». كان واضحًا أن پودريك يجهل ماذا يقول عن كلبٍ اسمه كلب، وقد فكّر في هذا فترةً، ثم قال: «كان عندي كلب في صِغري، سمّيته هيرو».

- «وهل كان اسمًا على مسمًّى؟».

- «كان ماذا؟».
- «بطلًا».
- «لا، لكنه كان كلبًا مطيعًا. لقد مات».

قال السّيتون: «كلب يُحافِظ على سلامتي على الطُرق، حتى في أوقاتٍ عصيبة كهذه. لا ذئب أو خارج عن القانون يَجسُر على إزعاجي ما دام كلب إلى جانبي»، وعقدَ حاجبيه مردفًا: «الذّئاب أصبحت شنيعةً في الآونة الأخيرة. في أماكن بعينها خيرٌ للمرء أن يجد شجرةً ينام فوقها. في حياتي كلّها أكبر قطيع رأيته كانت ذئابه أقلّ من دستة، لكن القطيع العظيم الذي يجوب أراضي (الثالوث) الآن تعداده بالمئات».

سألَه السير هايل: «هل رأيت تلك الذّئاب بنفسك؟».

- «أُعفيتُ من ذلك وليحمني (السّبعة)، لكنّي سمعتها ليلًا أكثر من مرّة. أصوات كثيرة للغاية... صوت يُخثّر دماء المرء في عروقه ويجعل كلب نفسه يرتعد، مع أنه قتلَ دستةً من الذّئاب من قبل»، وداعبَ رأس الكلب نافشًا شعره، وتابعَ: «ستجدين مَن يقول لكِ إنها شياطين. يقولون إن القطيع تقوده ذئبة وحشيّة أشبه بظِلٍّ شبحي، شرسة وشهباء وضخمة، ويقولون إنها معروفة باقتراس الثّيران البرّيّة بمفردها، وإن لا فَخٌّ أو شَرك يُقيّدها، وإنها لا تخاف الفولاذ أو النّار وتَقتُل أيّ ذئبٍ يُحاوِل اعتلاءها ولا تلتهم إلّا لحم البشر».

قال السير هايل هنت ضاحكًا: «ها قد فعلتها أيها السّيتون، الآن عينا پودريك المسكين متّسعتان كأنهما بيضتان مسلوقتان».

رَدّ پودريك ساخطًا: «غير صحيح»، وأطلق كلب نباحًا.

ليلتها أقاموا مخيّمًا باردًا وسط الكُثبان. أرسلَت بريان پودريك يمشي على الشاطئ ويبحث عن خشبٍ مجروف لإشعال النّار، لكنه عادَ خاوي الوفاض والطّمي يُغطّي ساقيه حتى الرُّكبتين.

نصحه الشيتون ميريبولد قائلًا: «ابتعد عن الطّمي يا بُنّي. الطّمي لا يحبّ الغُرباء، وإذا مشيت في المكان الخطأ سينشقّ ويبتلعك».

قال پودريك بإصرار: «إنه طمي فحسب».

قال الرّجل: «إلى أن يملأ فمك ويبدأ الزّحف داخل أنفك. عندئذٍ هو الموت»، وابتسمَ ليكسر حدّة كلامه مردفًا: «امسح الطّمي وتعالَ كُل فصًّا من البُرتقال يا بُنّي».

كان اليوم التّالي مزيدًا من الأشياء نفسها. أفطَروا على سَمك القُدّ والمزيد من فصوص البُرتقال، وواصَلوا طريقهم قبل أن تُشرِق الشّمس تمامًا، من ورائهم سماء ورديّة ومن أمامهم سماء أرجوانيّة. قادَ كلب الطّريق متشمّمًا كلّ كُتلةٍ من البوص ومتوقّفًا بين الفينة والفينة ليتبوّل على إحداها، وقد بدا أنه يعرف الطّريق مِثل ميريبولد بالضّبط. وشقّ صياح طيور خطّاف البحر الزّاجف هواء الصّباح مع تدفّق مياه المَد.

قُرب منتصَف النّهار توقّفوا في قريةٍ ضئيلة هي الأولى التي صادَفوها، حيث ترتفع ثمانية بيوتٍ على ركائز خشبيّة فوق جدولٍ صغير. كان الرّجال يصطادون في زوارقهم الجِلديّة، لكن النّساء والأطفال نزلوا على سلالم مدلّاة من الحبال وتجمّعوا حول الشّيتون ميريبولد ليَصلّوا، وعقب الطّقوس غفرَ لهم خطاياهم، ثم تركَهم بَعد أن أعطاهم القليل من اللّفت وجوالًا من الفاصوليا واثنتين من بُرتقالاته الثّمينة.

عندما عادوا إلى الطّريق قال الشّيتون: «خيرٌ لنا أن نُعيِّن حراسةً اللّيلة أيها الأصدقاء. أهل القرية قالوا إنهم رأوا ثلاثة رجالٍ مكسورين يتسلّلون حول الكُثبان غرب برج المراقبة القديم».

ابتسمَ السير هايل قائلًا: «ثلاثة فقط؟ ثلاثة بمثابة العسل عند مُبارِزتنا العزيزة. ليس محتملًا أن يُزعِجوا قومًا مسلّحين».

قال السّپتون: «ما لم يكونوا يتضوّرون جوعًا. في هذه المستنقعات طعام، ولكن فقط لمن يعرف أين يبحث، أمّا هؤلاء الرّجال فأغراب، ناجون من معركةٍ أو أخرى. إذا دنوا منا فأرجوك أيها الفارس أن تتركهم لي».

- «وماذا ستفعل معهم؟».

- «سأطعمهم، سأسألهم أن يعترفوا بخطاياهم كي أغفرها لهم، وأدعوهم إلى المجيء معنا إلى (جزيرة الهدوء)».

رَدّ هايل هَنت: «كأنك تدعوهم إلى ذبحنا ونحن نائمون. اللورد راندل له سُبل أفضل للتّعامُل مع الرّجال المكسورين... الفولاذ والحبال».

تساءلَ پودريك: «أيتها الفارس، سيّدتي، هل الرّجل المكسور خارج عن القانون؟».

أجابَت برِيان: «بشكلٍ ما».

ناقضَها السّپتون ميريبولد قائلًا: «الأمر ليس بهذه البساطة. الخارجون عن القانون أنواعهم كثيرة كثرة أنواع الطّيور. زمّار الرّمل ونورس البحر كلاهما له جناحان، لكنهما مختلفان. يحبُّ المطربون الغناء عن الرّجال الصّالحين الذين أُرغِموا على الخروج عن القانون لقتال أحد اللوردات الأشرار، لكن معظم الخارجين عن القانون أقرب إلى كلب الصّيد المفترس هذا من سيّد البرق. إنهم سفلة يُحرّكهم الجشع ويُلوّثهم الحقد، يستخفّون بالآلهة ولا يكترثون إلّا لأنفسهم. أمّا الرّجال المكسورون فيستحقّون شفقتنا أكثر، ولو أنهم لا يقلّون خطرًا. كلّهم تقريبًا أولاد عوام، قوم بُسطاء لم يبتعدوا أكثر من ميلٍ واحد عن البيت الذي وُلِدوا فيه، إلى أن يحين يوم ويأتي أحد اللوردات ليأخذهم إلى الحرب. بأحذيةٍ بالية وثيابٍ مهترئة يسيرون تحت راياته، وفي أغلب الأحيان لا يكون سلاحهم أفضل من منجلٍ أو معزقٍ مسنون، أو مطرقةٍ صنعوها بأنفسهم بربط حجرٍ على عصا بشريطٍ من الجِلد.

يسير الإخوة مع إخوتهم والأبناء مع آبائهم والأصدقاء مع أصدقائهم. لقد سمعوا الأغاني والقصص، فيذهبون بقلوبٍ متشوّقة حالمين بالأعاجيب التي سيرونها وبما سيكسبون من ذهبٍ ومجد. تبدو لهم الحرب مغامَرةً رائعةً، أعظم ما سيشهده أكثرهم في حياته... ثم يذوقون طعم المعركة. بالنّسبة إلى بعضهم يكفي هذا المذاق الواحد لكسرهم، في حين يستمرُّ آخَرون سنواتٍ إلى أن يعجزوا عن إحصاء المعارك التي قاتَلوا فيها، لكن حتى الرّجل الذي نجا من مئة قتالٍ يُمكن أن ينكسر في القتال الواحد بَعد المئة. يُشاهِد الإخوة إخوتهم يموتون، ويفقد الآباء أبناءهم، ويرى الأصدقاء أصدقاءهم يُحاوِلون إعادة أحشائهم إلى بطونهم التي بقرَتها فأس، يرون اللورد الذي قادَهم يُقتَل، ويسمعون غيره يصيح أنهم رجاله الآن. يُصابون بجرح، وقبل أن يندمل يُصابون بآخَر، وليس هناك طعام كافٍ أبدًا، وأحذيتهم تتفسّخ من طول السَّير، وثيابهم ممزّقة تتعفّن، ونِصفهم يتبرّز في سراويله من جرّاء شُرب المياه الفاسدة. إذا أرادوا حذاءً جديدًا أو معطفًا أثقل أو ربما خوذةً قصيرةً صدئةً فعليهم أن يخلعوها عن جثّة، ولا يمضي وقت طويل قبل أن يبدأوا في سرقة الأحياء أيضًا، فيسرقون من الأهالي الذين يُقاتِلون في أراضيهم، من أناسٍ يُشبِهون كثيرًا مَن كانوا، يذبحون خرافهم ويسطون على دجاجهم، ومن هنا تفصلهم خُطوة قصيرة فقط عن اختطاف بناتهم أيضًا.

ثم يتطلّعون حولهم في يومٍ من الأيام ليُدرِكوا أن أهلهم وأصدقاءهم جميعًا لم يعودوا هناك، أنهم يُقاتِلون إلى جوار غُرباءٍ تحت رايةٍ يتعرّفونها بالكاد. لا يعرفون أين هُم الآن ولا كيف يرجعون إلى ديارهم، واللورد الذي يُقاتِلون من أجله يجهل أسماءهم، لكن ها هو ذا يزعق فيهم أن يتّخذوا تشكيلهم ويُكَوِّنوا صفًّا من الحراب والمناجل والمعازق المسنونة، أن يثبتوا... ثم ينقضُّ عليهم الفُرسان، رجال بلا وجوهٍ مدرّعون بالفولاذ، ويملأ هدير هجمتهم الحديديّة العالم... وعندئذٍ ينكسر الرّجل؛ يستدير ويَهرُب، أو يزحف مبتعدًا بَعدها فوق جُثث القتلى، أو ينسلُّ تحت جُنح الظّلام ويجد مكانًا يختبئ فيه. ما عاد في عقله خاطِر عن الوطن، والملوك واللوردات والآلهة لا قيمة لهم عنده تزيد على قيمة فخذٍ من اللّحم الفاسد ستُبقيه على قيد الحياة يومًا آخَر، أو قِربةٍ من النّبيذ التّالف قد تُغرِق مخاوفه بضع ساعات. الرّجل المكسور يحيا من يومٍ إلى يوم، من وجبةٍ إلى وجبة، أقرب إلى حيوانٍ من إنسان. الليدي بِريان ليست مخطئةً. في أوقاتٍ كهذه يجب أن يحذر المسافرون الرّجال المكسورين ويخافوهم... لكن يجب أن يُشفِقوا عليهم أيضًا».

حين فرغ السّپتون ميريبولد من الكلام ران صمت مهيب على مجموعتهم الصّغيرة. سمعَت بِريان هفيف الرّيح في كُتلةٍ من الصّفصاف القصير، وفي مكانٍ ما أبعد طائر غوّاص يصيح، وسمعَت كلب يلهث بخفوتٍ وهو يتوثّب إلى جوار السّپتون وحماره وقد تدلّى لسانه من فمه.

امتدّ الهدوء وامتدّ، إلى أن قالت أخيرًا: «في أيّ سِنٍّ أخذوك إلى الحرب؟».

أجابَ ميريبولد: «لم أكن أكبر من صبيّك هذا، صغيرًا للغاية على القتال والحقُّ يُقال، لكن إخوتي كلّهم كانوا ذاهبين ولم أرِد أن يَتركوني وحدي. قال ويلام إنه يُمكنني أن أكون مُرافقه، ولو أن ويل لم يكن فارسًا، بل مجرّد ساقٍ مسلّح بسكّين مطبخٍ سرقه من الخان. لقد ماتَ في (الأعتاب) دون أن يضرب ضربةً واحدةً. الحُمّى أجهزَت عليه وعلى أخي روبن. أوين ماتَ بهراوةٍ فلقَت رأسه، وصديقه چون المجدور شُنِقَ بتهمة الاغتصاب».

سألَه السير هايل هَنت: «حرب ملوك التّسع بنسات؟».

- «هكذا أطلَقوا عليها، مع أني لم أرَ ملكًا أو أجنِ بنسًا. لكنها كانت حربًا، كانت حربًا حقًّا».

وقف سام أمام النّافذة يتأرجح على كعبيه بعصبيّةٍ ويُشاهِد البصيص الأخير من نور الشّمس يختفي وراء صَفٍّ من الشقوف المدبّبة، وبكآبةٍ قال لنفسه: *لا بُدّ أنه سكرَ ثانيةً، أو قابلَ فتاةً أخرى*. لا يدري هل يسبّ ويلعن أم يبكي. المفروض أن داريون أخوه. *اطلُب منه أن يُغَنّي ولا أحد أفضل منه، لكن اطلُب منه أن يفعل أيّ شيءٍ آخر...*

بدأ ضباب المساء يرتفع مرسلًا أصابع رماديّةً تزحف على جُدران المباني المصطفّة على ضفّة القناة القديمة، وقال سام: «لقد وعدَ بأنه سيعود. أنتِ أيضًا سمعتِه».

رمقته جيلي بعينين منتفختين مؤطّرتين بالأحمر، وقد تدلّى شعرها على وجهها متشابكًا متسخًا، فبدَت كحيوانٍ حذِر يختلس النّظر من داخل دغل. أيام عدّة مرّت منذ شعروا بحرارة النّار، لكن الفتاة الهمجيّة تحبّ الجثوم قُرب المستوقَد، كأن لمحةً من الدّفء لا تزال عالقةً بالرّماد البارد. قالت له هامسةً كي لا توقِظ الرّضيع: «إنه لا يحبّ البقاء معنا، المكان حزين هنا. يحب البقاء حيث النّبيذ والابتسامات».

فكّر سام: *نعم، والنّبيذ في كلّ مكانٍ إلّا هنا*. (براڤوس) ملأى بالخانات والحانات والمواخير، وإذا كان داريون يُؤثِر النّار وكوبًا من النّبيذ المتبّل على الخُبز البائت وصُحبة امرأةٍ باكية وجبانٍ بدين وعجوزٍ مريض، فمَن يلومه؟ *أنا ألومه. قال إنه سيعود قبل الشّفق، قال إنه سيجلب لنا نبيذًا وطعامًا*.

مرّةً أخرى نظرَ من النّافذة آملًا رغم خيبة الأمل أن يرى المغنّي مسرعًا بالعودة. كان الظّلام يحلُّ على المدينة السرّيّة ويتسلّل إلى الأزقّة والقنوات. قريبًا سيُغلِق أهل (براڤوس) الطّيّبون مصاريع نوافذهم ويُنزِلون مزاليج أبوابهم، فاللّيل ينتمي إلى مُبارزي البراڤو والمحظيّات. فكّر سام بمرارة: *أصدقاء داريون الجُدد*. في الفترة الأخيرة لا يتكلّم داريون إلّا عنهم، ويُحاوِل أن يَكتُب أغنيةً عن محظيّةٍ اسمها ظِل القمر سمعته يُغنّي إلى جوار (بِركة القمر) وجازته بقُبلة. قال له سام: «كان واجبك أن تَطلُب الفضّة. إننا محتاجون إلى النُّقود لا القُبلات»، لكن المغنّي اكتفى بالابتسام مجيبًا: «بعض القُبلات أثمن من الذّهب الأصفر أيها القاتِل».

هذا أيضًا يُغضِبه، فلا يُفترَض أن يُؤلّف داريون الأغاني عن المحظيّات، وإنما ينبغي له أن يُغنّي عن (الجِدار) وشَجاعة حَرس اللّيل. كان چون يأمل أن تنجح أغانيه في إقناع عددٍ من الشُّبّان بارتداء الأسود، لكن بدلًا من ذلك يُغنّي داريون عن القُبلات الذّهبيّة والشّعر الفضّي والشّفاه الحمراء المتورّدة، ولا أحد أبدًا يرتدي أسود حَرس اللّيل من أجل الشّفاه الحمراء المتورّدة.

أحيانًا يُوقِظ غناؤه الرّضيع أيضًا فينفجر في العويل، ويزعق داريون فيه أن يَصمت، وتنتحب چيلي، ويندفع المغنّي مغادرًا ويغيب أيامًا. «كلُّ هذا البُكاء يجعلني أريدُ أن أصفعها، وأكادُ لا أستطيعُ النّوم من نحيبها».

كادَ سام يقول: *كنت لتنتحب أيضًا لو كان لك ابن وفقدته*. ليس في مقدوره أن يلوم چيلي على حُزنها، لكنه يلوم چون سنو ويتساءل متى استحالَ قلبه إلى حجر. في مرّةٍ ألقى هذا السُّؤال تحديدًا على المِايستر إيمون حين نزلَت چيلي إلى القناة تجلب لهم ماءً، فأجابَ العجوز: «حين رفعته إلى القيادة».

حتى الآن وهو يتعفَّن هنا في هذه الغُرفة الباردة تحت إفريز السَّطح، ما زالَ جزء من سام لا يُريد أن يُصَدِّق أن چون فعلَ ما يعتقده المِايستر إيمون. *لكن لا بُدَّ أنها الحقيقة، وإلَّا فلِمَ تبكي جيلي بلا انقطاع؟* ما عليه إلَّا أن يسألها ابن مَن تُرضِع من ثدييها، لكنه لا يملك شَجاعة السُّؤال ويخشى الجواب. *ما زلتَ جبانًا يا چون*. أينما ذهبتَ في هذا العالم الفسيح لازمَته مخاوفه.

ترددت أصداء هديرٍ عميق على سقوف (براڤوس) كهزيم رعدٍ بعيد إذ أطلقَ (المارد) نفير المساء عبر الهَور. كان الصَّوت صاخبًا لدرجةٍ أيقظَت الرَّضيع، ليوقِظ عويله المِايستر إيمون بدوره، وبينما ذهبت جيلي إلى الصَّغير لتلقِمه ثديها انفتحت عينا العجوز وتحرَّك بوهنٍ على السَّرير الضيِّق قائلًا: «إج؟ المكان مظلم. لماذا هذا الظَّلام الدَّامس؟».

لأنك أعمى. منذ وصلوا إلى (براڤوس) وعقل إيمون يتوه أكثر فأكثر. في بعض الأيام لا يعرف أين هو، وفي بعضها يَشرُد ذهنه وهو يقول شيئًا ما ويهيم في الكلام عن أبيه أو أخيه. قال سام لنفسه مذكِّرًا: *إنه في المئة والاثنين من العُمر*. غير أن الرَّجل كان في السِّنِّ نفسها في (القلعة السَّوداء) ولم يَتُه عقله هناك قَطُّ.

قال مضطرًا: «هذا أنا، ساموِيل تارلي، وكيلك».

لعقَ المِايستر إيمون شفتيه وأغمضَ عينيه وفتحهما قائلًا: «سام، نعم، وهذه (براڤوس). سامِحني يا سام. هل أتى الصَّباح؟».

- «لا»، وتحسَّس سام جبهة العجوز، ليجد جِلده مبلَّلًا بالعَرق وملمسه بارد رخو، علاوةً على أن كلَّ نفسٍ يلفظه يَخرُج منه مصحوبًا بصفيرٍ خافت. «إنه اللَّيل أيها المِايستر. كنت نائمًا».

- «نمتُ طويلًا جدًّا. المكان بارد».

رَدّ سام: «ليس عندنا حطب، وصاحِب الخان يَرفُض إعطاءنا المزيد إلى أن ندفع ثمنه». إنها المرّة الرّابعة أو الخامسة التي يُقال فيها الكلام ذاته، وكلّ مرّة يُوَبّخ سام نفسه قائلًا: *كان عليّ أن أشتري حطبًا بالنّقود، كان عليّ أن أكون عاقلًا وأحافظ على دفئه*.

وبدلًا من ذلك بدّد آخِر ما معهم من فضّةٍ على مُعالِجٍ من (بيت الأيدي الحمراء)، رجل طويل شاحب يرتدي ثيابًا مطرّزةً بخطوطٍ دوّامة من الأحمر والأبيض. لم يَحصُلوا بالفضّة على أكثر من نِصف قنينةٍ من نبيذ النّوم، وقال البراڤوسي بنبرةٍ لم تفتقِر إلى الرّفق: «قد يُساعِد هذا على تسهيل الرّحيل عليه»، فسأله سام إن كان يستطيع أن يفعل المزيد، لكن الرّجل هَزّ رأسه نفيًا، وأجابَ: «إن عندي مراهم وعقاقير وأنقعةً وصبغاتٍ وسمومًا وكمّادات، وأستطيعُ أن أعطيه دواءً مسهّلًا للبطن أو أعلّق له العلق... لكن لماذا؟ لا علقة ستردّ إليه شبابه. هذا رجل هَرِم، والموت في رئتيه. اسقِه هذا ودَعه ينام».

ونامَ العجوز طيلة اللّيل وطيلة النّهار، وإن كان الآن يُكافِح للاعتدال جالسًا، ويقول: «يجب أن نذهب إلى السّفن».

السّفن مرّةً أخرى. رغمًا عنه قال له سام: «إنك أضعف من أن تَخرج». أصابَ المايستر إيمون بردٌ في أثناء رحلتهم في البحر وكمنَ في صدره، ولدى بلوغهم (براڤوس) كان واهنًا لدرجة أنهم حملوه حملًا إلى الشّاطئ. حينئذٍ كانت لا تزال معهم صُرّة منتفخة بالفضّة، فطلبَ داريون أكبر أسرّة الخان، وحصلوا على واحدٍ يتّسع لثمانية، فأصرّ صاحِب الخان على أن يَنقُدوه ثمن هذا العدد.

وعدَه سام قائلًا: «غدًا نذهب إلى الميناء. يُمكنك أن تستعلم عمّا تُريد وتعرف ما السّفينة التّالية المبحرة إلى (البلدة القديمة)». حتى في الخريف تظلُّ (براڤوس) ميناءً مزدحمًا، وبمجرّد أن يستردَّ المِايستر إيمون ما يكفي من طاقةٍ للسّفر فلن يجدوا مشكلةً في العثور على سفينةٍ تأخذهم إلى حيث يُريدون الذّهاب. الأصعب أن يدفعوا تكلفة رحلتهم، وأفضل أملٍ لهم أن تكون السّفينة من (الممالك السّبع). *سفينة تجاريّة من (البلدة القديمة) ربما، لبحّارتها أقارب في حرس اللّيل. لا بُدّ أن بعض النّاس ما زالَ يحتفي بالرّجال الذين يَحرُسون (الجِدار).*

صفرَت أنفاس المِايستر إيمون وهو يقول: «(البلدة القديمة)، نعم. لقد حلمتُ بـ(البلدة القديمة) يا سام. كنتُ شابًا من جديدٍ وكان معي أخي إج وذلك الفارس الكبير الذي يخدمه. كنا نشرب في الخان القديم الذي يُقدّمون فيه خمر التُّفّاح القويّة للغاية». حاولَ ثانيةً أن ينهض، لكنه ألفى المجهود أقوى منه، وبَعد لحظةٍ عاد يتمدّد، وقال: «الشفن. سنجد الإجابة هناك، بخصوص التّنانين. أحتاجُ إلى المعرفة».

لا، ما تحتاج إليه هو الطّعام والدّفء، تحتاج إلى معدةٍ ممتلئة ونارٍ تُطقطِق في المستوقَد. «أأنت جائع أيها المِايستر؟ تبقّى لدينا القليل من الخُبز والجُبنة».

- «ليس الآن يا سام، لاحقًا حين أصبحُ أقوى».

- «كيف ستصبح أقوى ما لم تأكل؟». لم يأكل أيُّهم الكثير في البحر منذ (سكاجوس). طوال طريقهم عبر (البحر الضيِّق) استبدَّت بهم عواصف الخريف، تهبُّ أحيانًا من الجنوب مصحوبةً بالرَّعد والبرق والأمطار السَّوداء التي تنهمر أيامًا بلا انقطاع، وأحيانًا من الشَّمال باردةً كئيبةً تنفذ ريحها العاتية إلى عظام المرء. في مرَّةٍ اشتدَّ البرد على نحوٍ غير مسبوق، حتى إن سام استيقظ ليجد السَّفينة كلَّها مغلَّفةً بجليدٍ أبيض يلتمع كاللُّؤلؤ. كان الرُّبَّان قد أنزلَ الصَّاري وربطَه على السَّطح ليُكمِل الرِّحلة بالمجاذيف فقط، ولدى رؤيتهم (المارد) أخيرًا لم يكن أحدهم يأكل.

لكن حالما صاروا آمنين على الشَّاطئ وجدَ سام معدته تَصرُخ جوعًا، مِثله مِثل داريون وجيلي، وحتى الصَّغير بدأ يرضع بشراهةٍ أكثر. أمَّا إيمون...

قال سام للعجوز: «الخُبز بائت، لكن يُمكنني أن أتوسَّل القليل من المرق من المطبخ لتُغمِّسه به». صاحِب الخان رجل قاسٍ بارد العينين ويرتاب في هؤلاء الأغراب السُّود تحت سقفه، لكن الطَّاهي أكثر وُدًّا.

- «لا، لكن هل لي برشفةٍ من النَّبيذ؟».

ليس لديهم نبيذ. كان داريون قد وعدَ بابتياع القليل منه بما سيجنيه من غنائه. قال سام: «سنشرب النّبيذ فيما بَعد. عندنا ماء، لكنه ليس الماء النّظيف». الماء النّظيف يأتي من فوق قناطر القناة القرميد العظيمة التي يَسقيها البراڤوسيّون نهر المياه العذبة، والتي يضخُّ الأثرياء ماءها إلى منازلهم، في حين يملأ الفُقراء دلاءهم وسطولهم من النّوافير العامّة. كان سام قد أرسلَ جيلي لتجلب القليل منه ناسيًا أن الفتاة الهمجيّة عاشت حياتها كلّها في حدود (قلعة كراستر) دون أن ترى ولو بلدة سوقٍ صغيرة. أخافَتها المتاهة الحجريّة المسقَّفة (براڤوس) بجُزرها وقنواتها وخلوّها من العُشب والشّجر وامتلائها بالغرباء الذين يُحدّثونها بكلماتٍ لا تفهمها—أخافَتها لدرجة أنها فقدت الخارطة وسرعان ما تاهَت، ووجدَها سام تبكي عند قدمَي تمثال أمير بحرٍ مات منذ زمنٍ بعيد. قال للمِايستر إيمون: «ليس عندنا إلّا ماء القناة، لكن الطّاهي غلاه. هناك نبيذ نوم أيضًا إذا كنت تُريد المزيد منه».

- «لقد نمتُ وحلمتُ بما فيه الكفاية. لا بأس بماء القناة. ساعِدني من فضلك».

برفقٍ ساعدَ سام العجوز على الاعتدال ورفعَ كوبًا إلى شفتيه الجافّتين المشقّقتين، وعلى الرغم من هذا انسكبَ نِصف الماء على صدر المِايستر، وبَعد بضع رشفاتٍ سعلَ وقال: «كفى، ستُغرقني»، وارتجفَ بين ذراعَي سام متسائلًا: «لماذا الغُرفة باردة هكذا؟».

- «لم يَعُد لدينا حطب». كان داريون قد نقدَ صاحِب الخان ضِعف الأجرة لأجل غُرفةٍ مزوّدة بمستوقَد، لكن لا أحد منهم كان يعلم أن الحطب باهظ الثّمن هنا لهذه الدّرجة، فالأشجار لا تنمو في (براقوس) إلّا في ساحات وحدائق عِلية القوم، كما أن البراقوسيّين يأبون قطع شجر الصّنوبر الذي يُغطّي الجُزر النّائية المحيطة بالهَور العظيم ويعمل كحواجز ريحٍ تقيهم العواصف، وبدلًا من هذا يأتون بالحطب بالقوارب عبر النّهر والهَور. حتى الرّوث مكلّف هنا، فالبراقوسيّون يستخدمون القوارب بدلًا من الخيول. ما كان شيء من هذا ليهمّ لو أنهم رحلوا إلى (البلدة القديمة) وفق الخطّة، لكن مع مرض المِايستر إيمون الشّديد ثبتت استحالة ذلك، إذ إن رحلةً أخرى في البحر كفيلة بالقضاء عليه.

زحفَت يد إيمون على الأغطية بحثًا عن ذراع سام، وقال له: «يجب أن نذهب إلى الميناء يا سام».

- «حين تُصبِح أقوى». ليس العجوز في حالةٍ تُتيح له أن يُواجِه الرّذاذ المالح والرّيح البليلة على الواجهة المائيّة، و(براقوس) كلُّها واجهة مائيّة. إلى الشّمال (الميناء الأرجواني)، حيث ترسو الشفن التّجاريّة البراقوسيّة أسفل قباب وأبراج (قصر أمير البحر)، وإلى الغرب (ميناء راجمان) المزدحم بالشّفن من المُدن الحُرّة الأخرى و(وستروس) و(إيبن) وبلدان الشّرق البعيدة المحفوفة بالأساطير، وفي كلّ مكانٍ آخَر تنتشر الأرصفة الصّغيرة ومراسي العبّارات والمرافئ الرّماديّة القديمة التي يربط صيّادو الأسماك والرّوبيان والشراطين مراكبهم عندها بَعد العمل في الشهول الطّينيّة ومصبّات النّهر. «سيكون المجهود شديدًا عليك».

قال إيمون بإلحاح: «اذهب بدلًا مني إذن واجلب لي أحدًا رأى تلك التّنانين».

ردّ سام وقد أفزعته الفكرة: «أنا؟ أيها المِايستر، إنها مجرّد قصّة، قصّة بحّارة». داريون الملوم على هذا أيضًا، إذ اعتاد المغنّي أن يعود إليهم بمختلِف أنواع الحكايات العجيبة من الحانات والمواخير، لكنه لسوء الحَظّ كان ثملًا عندما سمعَ حكاية الثّنانين ولا يتذكّر تفاصيلها. «ربما اختلقها داريون برُمّتها. هذا ما يفعله المغنّون، يَلفّقون الحكايات».

قال المِايستر إيمون: «نعم، لكن ربما يحوي أكثر الأغاني شطوحًا في الخيال لمحةً من الحقيقة. اعثر على تلك الحقيقة من أجلي يا سام».

- «لن أدري مَن أسألُ أو كيف أسأله. إنني أعرفُ القليل فقط من الڤاليريّة الفُصحى، وعندما يُكلّمونني بالبراڤوسيّة لا أفهمُ نِصف ما يقولون. أنت تتكلّم لُغاتٍ أكثر مني، وما إن تُصبِح أقوى...».

- «متى سأصبحُ أقوى يا سام؟ أخبِرني».

- «قريبًا، إذا استرحت وأكلت. حين نصل إلى (البلدة القديمة)...».

قاطعه العجوز: «إنني لن أرى (البلدة القديمة) ثانيةً أبدًا، أعلمُ هذا الآن»، وأحكمَ قبضته على ذراع سام متابعًا: «قريبًا سأكونُ مع إخوتي. بعضهم ربطتني بهم الأيمان وبعضهم ربطني به الدّم، لكنهم كانوا إخوتي جميعًا. وأبي... إنه لم يحسب قَطّ أن العرش سينتقل إليه، لكنه انتقلَ، وردّد كثيرًا أن هذا عقابه على الضّربة التي أودَت بحياة أخيه. أدعو الآلهة أنه وجدَ في الموت السّلام الذي لم يعرفه قَطّ في الحياة. السّيتونات يترنّمون عن راحةٍ جميلة، عن تخلّينا عن همومنا والارتحال إلى أرضٍ بعيدةٍ رائعة نضحك ونحبّ ونلتهم الولائم فيها حتى آخِر الزّمان... لكن ماذا لو لم يكن لأرض النّور والعسل تلك وجود؟ وماذا لو لم يكن هناك إلّا البرد والظّلمة والآلام وراء الجِدار المسقّى الموت؟».

إنه خائف. «لستَ تُحتضَر. إنك مريض فحسب، والمرض سينقضي».

- «ليس هذه المرّة يا سام. لقد حلمتُ... في جوف اللّيل يسأل المرء ما لا يجرؤ عليه في ضوء النّهار من أسئلة، وبالنّسبة إليّ لم يتبقَّ لديّ إلّا سؤال واحد في السنّوات الأخيرة. لماذا تأخذ الآلهة عينَي وقوّتي ومع ذلك تَحكَّم عليّ بالحياة الطّويلة مجففًا منسيًا؟ ما فائدة شيخٍ منتهٍ مِثلي عندها؟»، وارتعشت أصابع إيمون الشّبيهة بغُصيناتٍ رفيعة مغلّفة بالجِلد المبقّع، وأضافَ: «إنني أذكرُ يا سام، ما زلتُ أذكرُ».

سأله سام الذي لم يفهم: «تَذكُر ماذا؟».

همسَ إيمون: «التّنانين. بليّة عائلتي ومجدها».

- «آخِر التّنانين ماتَ قبل أن تُولَد، فكيف تَذكُرها؟».

- «إنني أراها في أحلامي يا سام، أرى نجمًا أحمر ينزف في السّماء. ما زلتُ أذكرُ الأحمر. أرى ظلالها على الثّلج وأسمعُ خفقان أجنحتها الجِلديّة وأشعرُ بأنفاسها السّاخنة. إخوتي أيضًا حلموا بالتّنانين وقتلَتهم أحلامهم جميعًا بلا استثناء. سام، إننا نقف راجفين على حافة نبوءاتٍ نِصف منسيّة، وأمامنا أعاجيب وأهوال لا أمل لإنسانٍ حيٍّ في استيعابها... أو...».

- «أو؟».

- «... أو لا»، وقهقهَ إيمون بخفوت، وأردفَ: «أو أنني عجوز محموم يُحتضَر»، وأغمضَ عينيه البيضاوين بإرهاق، ثم أجبرَهما على الانفتاح من جديدٍ قائلًا: «ما كان عليّ أن أترك (الجِدار) قَطّ. لم يكن بإمكان اللورد سنو أن يعلم، لكن كان حريًا بي أنا أن أرى. النّار تُذوي، أمّا البرد فيحفظ. (الجِدار)... لكن أوان العودة فاتَ. (الغريب) منتظر خارج بابي ولن يُحرَم غنيمته. أيها الوكيل، لقد خدمتني بإخلاص، فأدِّ هذه المهمّة الشّجاعة الأخيرة من أجلي. اذهب إلى السّفن يا سام واعرف كلّ ما تستطيع عن تلك التّنانين».

سحبَ سام ذراعه من قبضة العجوز بهدوء، وقال: «سأفعلُ ما دُمت تُريد هذا. إنني فقط...». لا يدري ماذا يقول غير هذا. *لا أستطيعُ أن أرفض طلبه*. يُمكنه أن يبحث عن داريون أيضًا عند أرصفة ومراسي (ميناء راجمان). *سأجِد داريون أولًا ونذهب إلى السُفن معًا، ولمّا نعود سيكون معنا طعام ونبيذ وحطب. سنُشعِل نارًا ونأكل وجبةً ساخنةً شهيةً*. نهضَ قائلًا: «حسن، سأذهبُ الآن ما دمتُ ذاهبًا. جيلي ستكون هنا. جيلي، أنزِلي مزلاج الباب بَعد خروجي». *(الغريب) منتظر خارج الباب*.

أومأت جيلي برأسها ضامّةً الصّغير إلى صدرها والدُّموع تترقرق في عينيها. *ستبكي ثانيةً*. هذا يفوق احتماله حقًّا. كان حزام سيفه معلّقًا من مشجبٍ على الحائط إلى جوار البوق المكسور الذي أعطاه چون إياه، فاختطفَه وتمنطقَ به، ثم وضعَ معطفه الصُّوف الأسود على كتفيه المستديرتين، وخرجَ من الباب بخُطى متثاقلة ونزلَ السُّلّم الذي صرّت درجاته الخشبيّة تحت وطأة وزنه. للخان بابان أماميّان، أحدهما ينفتح على شارعٍ والثّاني على قناة، فخرجَ سام من الأول ليتجنّب القاعة العامّة، حيث من المؤكّد أن يراه صاحِب الخان ويَرمُقه بالعبوس الذي يدّخره للنُّزلاء الذين يَمكثون بَعد زوال التّرحاب بهم.

في الهواء برودة، لكن اللّيلة ليست كثيفة الضّباب كأكثر اللّيالي، وهو ما أشعرَ سام بالامتنان. أحيانًا يكسو الضّباب الأرض بكثافةٍ تحول دون أن يرى المرء قدميه، وفي مرّةٍ فصلَته خُطوة واحدة عن السّقوط في إحدى القنوات.

في صِباه قرأ سام تاريخ (براقوس) وحلمَ بأن يزورها يومًا. أرادَ أن يرى (المارد) يرتفع صارمًا مهيبًا من البحر، ويُبحِر في القنوات بقاربٍ أفعواني مارًّا بالقصور والمعابد، ويُشاهِد مُبارزي البراڤو يَرقُصون رقصة الماء وتُومِض نصالهم في ضوء النُّجوم، لكن الآن وقد صارَ هنا بالفعل فلا شيء يرغب فيه أكثر من الرّحيل إلى (البلدة القديمة).

بقلنسوةٍ مرفوعة ومعطفٍ يُرَفرِف في الرّيح قطعَ الطّرقات المرصوفة بالحصى صوب (ميناء راجمان)، وقد ظَلّ حزام سيفه يُهَدِّد بالشقوط حول كاحليه، فاضطرّ إلى شَدّه إلى أعلى كلّ مدّةٍ بينما يمضي. التزم المشي في الشّوارع الصّغيرة المظلمة، حيث تقلّ احتمالات أن يلتقي أحدًا، إلّا أن كلّ قطّةٍ مرّت به جعلَت قلبه يخفق بعنف... و(براڤوس) تعجّ بالقِطط. *يجب أن أعثر على داريون. إنه رجل في حرس اللّيل، أخي المحلّف. معًا سنتوصّل إلى ما يُمكننا أن نفعله*. المِايستر إيمون خارَت قُواه، وجيلي كانت لتضيع هنا حتى من دون الأسى الذي يَغمرها، لكن داريون... *لا يَجدُر بي أن أسيء به الظّن. ربما يكون جريحًا ولهذا السّبب لم يرجع، وربما يكون ميتًا، منطرحًا في زُقاقٍ ما في بِركةٍ من الدّم، أو طافيًا على وجهه في إحدى القنوات*. في اللّيل يمشي مُبارزو البراڤو متبخترين في أنحاء المدينة بثيابهم المبرقشة المبهرجة، ساعين إلى إثبات براعتهم في القتال بالشيوف الرّفيعة التي يحملونها. بعضهم يُقاتِل لأيّ سببٍ وبعضهم دون سببٍ على الإطلاق، وداريون طليق اللّسان سريع الغضب، خصوصًا عندما يشرب. *ليس معنى أنه يستطيع الغناء عن المعارك أنه قادر بالضّرورة على خوضها*.

تقع أفضل الحانات والخانات والمواخير قُرب (الميناء الأرجواني) و(بركة القمر)، غير أن داريون يُفضِّل (ميناء راجمان)، حيث فُرصة أن يتكلَّم الزَّبائن اللُّغة العاميَّة أكبر. بدأ سام بحثه في (خان ثُعبان الماء الأخضر) و(الملَّاح الأسود) و(موروجو)، وكلُّها أماكن سبقَ لداريون أن غنَّى فيها، لكنه لم يَعثُر عليه في أيِّها. خارج (بيت الضِّباب) كانت عدَّة قوارب أُفعوانيَّة مربوطةً في انتظار الزَّبائن، وحاولَ سام أن يسأل الملَّاحين إن كانوا قد رأوا مطربًا يرتدي السَّواد، لكن لا أحد منهم فهمَ ڤاليريَّته الفُصحى. *إمَّا هذا وإمَّا أنهم يختارون ألَّا يفهموا.* ألقى سام نظرةً داخل الخمَّارة القذرة تحت قنطرة (جسر نابو) الثَّانية التي تتَّسع بالكاد لعشرة أفراد، ولم يكن داريون أحدهم، ثم جرَّب (خان المنبوذين) و(دار القناديل السَّبعة)، ثم الماخور المسقَّف (المقطَّطة)، حيث تلقَّى نظرات الارتياب لكن لا عون على الإطلاق.

بينما يُغادِر كادَ يرتطم بشابَّين واقفَين تحت مصباح (المقطَّطة) الأحمر، أحدهما داكن الشَّعر والثَّاني أشقره، وقد قال الأول شيئًا ما بالبراڤوسيَّة، فرَدَّ سام مضطرًّا: «آسفٌ، لكنني لا أفهمك»، وبدأ يبتعد عنهما خائفًا. في (الممالك السَّبع) يكسو النُّبلاء أنفسهم بالمخمل والحرير والسَّميت من مئة لون، بينما يرتدي الفلَّاحون والعامَّة الصُّوف غير المصبوغ والخيش البنِّي الباهت، أمَّا في (براڤوس) فالعكس بالعكس، فيمشي مُبارزو البراڤو مختالين كالطَّواويس مداعبين سيوفهم، بينما يرتدي الأعيان الرَّمادي الفاحم والأرجواني والأزرق القاتم كالأسود والأسود الحالك كليلةٍ بلا قمر.

- «صديقي تيرو يقول إن بدانتك تقلب معدته»، قال مُبارز البراڤو الأشقر، الذي يرتدي سُترةً مقسومةً طوليًا إلى مخملٍ أخضر وقُماش فضّة. «صديقي تيرو يقول إن صلصلة سيفك تُصدِّع رأسه». كان يُخاطِب سام باللُّغة العاميّة، أمّا الآخر، البراڤو أسود الشّعر الذي يرتدي الشترة الخمريّة الموشّاة تحت معطفٍ أصفر ويبدو أن اسمه تيرو، فألقى تعليقًا ما بالبراڤوسيّة جعلَ صديقه الأشقر يضحك ويقول: «صديقي تيرو يقول إنك ترتدي ثيابًا أعلى من مقامك. ألَنت أحد اللوردات العظام لترتدي الأسود؟».

أرادَ سام أن يَهرب، لكن إذا فعلَ فعلى الأرجح سيتعثّر في حزامه بينما يجري. قال لنفسه: *لا تلمس سيفك*. مجرّد إصبع على المقبض قمين بأن يعتبره أحدهما دعوةً للنّزال. حاولَ التّفكير في كلامٍ يسترضيهما، فلم يَخرج منه إلّا: «لسث...».

تدخّل صوت طُفولي قائلًا: «ليس لورد. إنه في حرس اللّيل أيها الأحمقان، من (وستروس)»، وخرجَت فتاة صغيرة إلى الضّوء دافعةً عربة يد ملأى بالطّحالب البحريّة، مخلوقة بائسة نحيلة تنتعل حذاءً كبيرًا ولها شَعر أشعث متّسخ. أخبرَت مُبارزَي البراڤو: «هناك واحد آخر في (الميناء السّعيد) يُغنّي لزوجة البحّار»، ولسام قالت: «إذا سألَك أيّ براڤو مَن أجمل امرأةٍ في العالم فقُل إنها العندليب وإلّا تحدّاك للنّزال. هل تشتري أم الخلول؟ لقد بعتُ محاري كلّه».

أجابَ سام: «ليس معي مال».

قال البراڤو الأشقر ساخرًا: «ليس معه مال»، فابتسمَ صديقه فاحم الشّعر ابتسامةً عريضةً، وقال شيئًا بالبراڤوسيّة ترجمَه الأشقر: «صديقي تيرو بردان. كُن صديقنا البدين الكريم وأعطِه معطفك».

قالت فتاة العربة: «لا تفعل هذا أيضًا وإلّا طلبا حذاءك بعده وسرعان ما ستجد نفسك عاريًا».

خاطبَها البراڤو الأشقر منذرًا: «القِطط الصّغيرة التي تموء بِصوتٍ مزعج يُغرِقونها في القنوات».

ردّت الفتاة: «ليس إذا كان لها مخالب»، وفجأةً ظهرَ في يدها اليُسرى سكّين نصله رفيع كقوامها، فقال المدعو تيرو شيئًا لصديقه الأشقر، ثم ابتعدَ الاثنان مقهقهين.

قال سام للفتاة بَعد رحيلهما: «أشكركِ».

اختفى سكّينها، وقالت: «إذا حملت سيفًا ليلًا فمعنى هذا أنك قابل للتّحدّي. هل أردت أن تُقاتِلهما؟».

خرجَت الكلمة من سام كصريرٍ أجفلَه: «لا!».

سألَته الفتاة: «أأنت في حَرس اللّيل حقًا؟ لم أرَ أخًا أسود مِثلك من قبل»، وأشارَت إلى العربة مضيفةً: «يُمكنك أن تأكل أم الخُلول المتبقّية. لقد سادَ الظّلام ولن يبتاعها أحد. هل ستُبحِر إلى (الجِدار)؟».

أجابَ سام: «إلى (البلدة القديمة)»، وأخذَ واحدةً من أم الخُلول المخبوزة والتهمَها بنهم، ثم قال: «نحن بين سفينتين الآن». وجدَ أم الخُلول لذيذةً، فأكلَ أخرى.

- «مُبارزو البراڤو لا يُزعِجون أحدًا لا يحمل سيفًا أبدًا، حتى فروج الثّوق الحمقى مِثل تيرو وأوربيلو».

- «مَن أنتِ؟».

قالت ورائحة السّمك الذّفرة تفوح منها: «لا أحد. كنتُ أحدًا من قبل ولم أغدُ كذلك. يُمكنك أن تدعوني بكات إذا أردت. مَن أنت؟».

- «ساموِيل سليل عائلة تارلي. إنكِ تتكلّمين العاميّة».

- «أبي كان مُشرف الملّاحين على متن (نايميريا). قتلَه براڤو لأنه قال إن أمّي أجمل من العندليب، ليس واحدًا من فروج الثُّوق الذين التقيت اثنين منهم، مُبارز براڤو حقيقي. في يومٍ ما سأذبحه. قال الرُّبّان إن (نايميريا) ليست في حاجةٍ إلى البنات الصِّغار وأنزلَني، وبعدها أخذَني بروسكو إلى بيته وأعطاني عربةً»، ورفعَت عينيها إليه متسائلةً: «ما السَّفينة التي سترحلون عليها؟».

- «دفعنا ثمن رحلة على (الليدي أوشانورا)».

ضيَّقت الفتاة عينيها بشكٍّ قائلةً: «لقد رحلَت. ألم تعلم؟ غادرَت منذ أيام طويلة».

كان سام ليُجيب: *أعلَم*. هو وداريون وقفا على الرَّصيف يُشاهِدان مجاذيفها ترتفع وتنخفض بينما تشقُّ طريقها نحو (المارد) والبحر المفتوح، وقال المغنّي: «طيِّب، انتهينا إذن». لو كان سام رجلًا أشجع لدفعه في الماء. حين يتعلَّق الأمر بإقناع الفتيات بخلع ثيابهن يَقطر من لسان داريون الشَّهد، لكن بوسيلةٍ ما في قمرة الرُّبّان وقعَ عبء الكلام على كاهل سام وحده إذ حاولَ إقناع البراڤوسي بانتظارهم، لكن الرَّجل قال: «انتظرتُ العجوز ثلاثة أيام كاملةً. إن مخازني ممتلئة ورجالي نكَحوا زوجاتهم وودَّعوهن. بكم أو دونكم سترحل (الليدي) مع الجَزر».

متوسِّلًا قال سام: «أرجوك، أيام إضافيّة قليلة، لا أطلبُ سوى هذا، كي يستردَّ المِايستر إيمون قوّته».

كان الرُّبّان قد زارَ الخان في اللّيلة السّابقة ليرى المِايستر إيمون بنفسه، فقال: «قوّته كلُّها خارت. إنه عجوز ومريض ولا أريده أن يموت على متن (الليدي). ابقوا معه أو اتركوه، لا فرق عندي. أنا مبحر». الأسوأ أنه رفضَ أن يردّ ثَمن الرّحلة الذي نقدوه إيّاه بالفعل، الفضّة التي كان يُفترَض أن تأخذهم بأمانٍ إلى (البلدة القديمة). «لقد استأجرتم أفضل قمراتي، وهي موجودة في انتظاركم. إذا اخترتم ألّا تشغلوها فليس هذا ذنبي. لماذا أتحمّلُ الخسارة؟».

قال سام لنفسه محزونًا: *لكننا قد بلغنا (وادي الغسق) الآن بالفعل، بل وربما (پنتوس) أيضًا لو ترفّقت بنا الرِّياح.*

لكن شيئًا من هذا لن يهمّ فتاة العربة، فقال لها: «ذكرتِ أنكِ رأيتِ مغنّيًا...».

- «في (الميناء السّعيد). سيتزوّج زوجة البحّار».
- «يتزوّج؟».
- «إنها تُضاجع مَن يتزوّجونها فقط».
- «أين هذا (الميناء السّعيد)؟».
- «قُبالة (سفينة الممثّلين). يُمكنني أن أدلّك على الطّريق».
- «أعرفُ الطّريق». سبقَت لسام رؤية (سفينة الممثّلين). *لا يُمكن لداريون أن يتزوّج! لقد حلفَ اليمين!* «يجب أن أذهب».

ركضَ سام. كان الطّريق طويلًا على حجارة الرّصف الزّلقة، وسرعان ما راح يلهث ومعطفه الأسود الكبير يخفق بإزعاجٍ وراءه، وقد أمسك حزام سيفه بينما يَركُض. رمقه القلائل الذين صادفَهم بنظرات الفضول، ورفعَت قطّة عجيزتها وهسهسَت في وجهه، ولدى بلوغه السّفينة كان يترنّح.

قُبالتها في الزُّقاق وجدَ (الميناء السّعيد)، وما إن دخلَ سام بوجهٍ محتقن وأنفاس متقطّعة حتى طوّقت امرأة عوراء عُنقه بذراعيها، فقال لها: «لا. لستُ هنا لأجل هذا». قالت شيئًا بالبراڤوسيّة، فردّ سام بالڤاليريّة الفصحى: «لا أتكلّمُ تلك اللُّغة». في المكان شموع مضاءة ونار مشتعلة في المستوقَد، وأحدهم يعزف على الكمنجة، ورأى فتاتين ترقُصان حول راهب أحمر بأيدٍ متشابكة. ضغطَت العوراء ثدييها إلى صدره، فصاح: «لا تفعلي هذا! لستُ هنا لأجل هذا!».

رنّ صوت داريون المألوف قائلًا: «سام! يانا، دعيه، هذا سام القاتِل، أخي المحلّف!».

أزاحت العوراء ذراعيها وإن أبقت يدًا على ذراعه، ونادت إحدى الرّاقصتين قائلةً: «يُمكنه أن يَقتلني إذا أرادَ»، وسألَت الأخرى: «هل تظنُّ أنه سيتركني ألمس سيفه؟». وراءهما قاليون أرجواني مرسوم على الحائط، طاقمه نساء ينتعلن أحذيةً ترتفع حتى الفخذ ولا يرتدين شيئًا آخر، وفي أحد الأركان ثمّة بحّار تايروشي غائب عن الوعي ويغطّ من تحت لحيته القرمزيّة الضّخمة، وفي موضعٍ آخر امرأة أكبر سِنًّا ذات نهدين عظيمين تلعب البلاطات مع رجلٍ عملاق من (جُزر الصّيف) يرتدي الرِّيش الأسود والقرمزي، وفي مركز كلّ هذا يجلس داريون ممرّغًا أنفه في رقبة المرأة الجالسة في حِجره مرتدية معطفه الأسود.

نادى المغنّي بلسانٍ أثقلَته الخمر: «أيها القاتِل، تعالَ والتقِ السيّدة زوجتي». شعره رمل وعسل، وابتسامته دافئة. «غنّيتُ لها أغاني الحُب. النّساء يَذُبن كالزُّبدة حين أغنّي. كيف أقاومُ هذا الوجه؟»، وقبّل أنفها، وتابعَ: «أعطي سام قُبلةً يا زوجتي، إنه أخي». لمّا نهضَت الفتاة رأى سام أنها عارية تحت المعطف، وقال داريون ضاحكًا: «إياك أن تعبث بجسد زوجتي أيها القاتِل، لكن إذا أردت واحدةً من أخواتها فتفضّل. ما زالَ معي مال يكفي على ما أظنُّ».

مال كان يُمكن أن تشتري به لنا طعامًا، مال كنا لنشتري به حطبًا ليتدفأ المايستر إيمون. «ماذا فعلت؟ لا يُمكنك أن تتزوّج. لقد حلفت اليمين مثلي. يُمكن أن يقطعوا رأسك من أجل هذا».

- «إننا متزوّجان لليلةٍ واحدة فقط أيها القاتِل. حتى في (وستروس) لا أحد يقطع رأسك من أجل هذا. ألم تذهب إلى (بلدة المناجذ) ولو مرّة لتنقّب عن الكنوز الدّفينة؟».

احتقنَ وجه سام، وقال: «نعم، لا يُمكنني أبدًا أن...».

- «وماذا عن فتاتك الهمجيّة؟ لا بُدّ أنك ضاجعتها مرّةً أو ثلاثًا. كلُّ تلك اللّيالي في الغابة تحت معطفك، لا تقل لي إنك لم تضعه فيها قطّ»، ولوّح داريون بيده نحو مقعدٍ مردفًا: «اجلس أيها القاتِل. خُذ كوبًا من النّبيذ، خُذ عاهرةً، خُذ الاثنين».

قال سام الذي لا يُريد كوبًا من النّبيذ: «لقد وعدتني بالعودة قبل الشّفق، بأن تجلب نبيذًا وطعامًا».

رَدّ داريون: «أهكذا قتلت (الآخر)؟ بتوبيخه حتى الموت؟»، وضحك قائلًا: «هي زوجتي لا أنت. ما دُمت لن تشرب نخب زواجي فغادِر».

- «تعالَ معي. المايستر إيمون استيقظ ويُريد أن يسمع ما يُقال عن تلك التّنانين. إنه يتكلّم عن النّجوم النّازفة والظّلال البيضاء والأحلام و... إذا عرفنا المزيد عن تلك التّنانين فربما يُريحه هذا. ساعِدني».

- «غدًا، ليس ليلة زفافي»، ودفعَ داريون نفسه إلى الوقوف، وأخذَ عروسه من يدها وبدأ يتحرّك نحو الشّلالم ساحبًا إياها.

اعترضَ سام طريقه قائلًا: «لقد وعدت يا داريون، وحلفت اليمين. المفروض أنك أخي».

- «في (وستروس). هل يبدو لك أننا في (وستروس)؟».

- «المايستر إيمون...».

قاطعه داريون بفمٍ قسا: «... يُحتضَر. هذا ما قاله المُعالج المخطّط الذي بذّدت عليه فضّتنا. خُذ فتاةً أو ارحل يا سام. إنك تُفسِد زفافي».

قال سام: «سأذهب، لكنك آتٍ معي».

- «لا، لقد فرغتُ منك وفرغتُ من الأسود»، وانتزع داريون معطفَ من على جسد عروسه العاري ورماه في وجه سام قائلًا: «هاك. ألقِ هذه الخرقة على العجوز وربما تُدفّئه أكثر قليلًا. لن أحتاج إليها. قريبًا سأرفلُ في المخمل، والعام القادم سأكون مرتديًا الفراء وآكلُ...».

وضربَه سام.

لم يُفكّر. ارتفعت يده وتكوّرت قبضته وارتطمت بفم المغنّي، ليُطلِق داريون سبابًا وتَصرخ زوجته العارية، وألقى سام نفسه على المغنّي وأسقطَه على ظَهره فوق مائدةٍ واطئة. الاثنان قريبان في الطّول، لكن سام يفوقه وزنًا مرّتين، وهذه المرّة على الأقل هو أكثر غضبًا من أن يخاف. لكمَ المغنّي في وجهه وبطنه، وراح يهوي على كتفيه بقبضتيه، ولمّا أمسك داريون معصميه نطحَه سام برأسه وشَقَّ شفته، فتخلّى المغنّي عن معصميه وضربَه في أنفه. في مكانٍ ما كان رجل يضحك وامرأة تسبُّ وتلعن، وبدا أن حركة العِراك تتباطأ، كأنهما ذُبابتان سوداوان تخوضان في قطعةٍ من الكهرمان... ثم جَرَّ أحدهم سام من فوق صدر المغنّي، فضربَ هذا الشّخص أيضًا، ثم هوى شيء على رأسه.

بَعدها لم يَشعر إلّا بنفسه في الخارج طائرًا في الضّباب، ولأقلّ من لحظةٍ رأى المياه السّوداء تحته، ثم ارتفعت القناة ولطمَته على وجهه.

وغاصَ سام كالحجر، كالجُلمود، كالجبل.

دخلَ الماء عينيه وأنفه قاتمًا باردًا مالحًا، ولمّا حاولَ أن يصيح مستغيثًا ابتلعَ المزيد، وراحَ يَرفُس ويشهق منقلبًا والفقاقيع تتفجّر من أنفه. قال لنفسه: *اسبح، اسبح*. لسعَ الملح عينيه عندما فتحهما وأعماهما، وبرزَ رأسه من السّطح لحظةً عَبّ خلالها الهواء وضربَ الماء بيأس بيدٍ واحدة بينما تحسّست الثّانية جِدار القناة، لكنه وجدَ الحجارة زلقةً لزجةً ولم يستطِع الإمساك بها... وعادَ يغوص.

أحسّ سام بالبرودة على جلده مع نفاذ المياه من ثيابه، وانزلقَ حزام سيفه على ساقيه واشتبكَ حول كاحليه، وبهلعٍ أسود أعمى قال لنفسه: *سأغرقُ*. تلوّى محاولًا العثور على طريق العودة إلى السّطح، وبدلًا من هذا لطمَه قاع القناة على وجهه. *إنني مقلوب، إنني أغرقُ*. تحرّك شيء تحت يده الضّاربة بهياج، ثُعبان ماء أو سمكة انزلقَت بين أصابعه. *لا يُمكن أن أموت. المايستر إيمون سيموت من غيري، ولن يعود لجيلي أحد. يجب أن أسبح، يجب أن...*

سمعَ شيئًا ضخمًا يرتطم بالماء، وشعرَ بشيءٍ ما يُطوّقه من تحت ذراعيه وحول صدره، وأول ما خطرَ له كان: *ثُعبان الماء، الثُّعبان طوّقني، سيسحبني إلى أسفل*. فتحَ فمه ليَصرُخ فابتلعَ المزيد من الماء، وآخِر فكرةٍ دارَت بباله كانت: *لقد غرقتُ، أوه، بحقّ الآلهة، لقد غرقتُ*.

حين فتحَ عينيه كان على ظَهره ورجل (جُزر الصّيف) الأسود الكبير يدقّ على بطنه بقبضتين ضخمتين. حاولَ سام أن يَصرُخ: *توقّف، إنك تؤلمني*، لكن بدلًا من الكلمات خرجَ منه الماء وشهقَ. كان مبتلًا عن آخِره ويرتعد على الأرض في بِركةٍ من الماء. لكمَه الرّجل في بطنه ثانيةً وانبثقَ المزيد من الماء من أنفه، وقال سام لاهثًا: «توقّف، لم أغرق، لم أغرق».

مالَ مُنقذه الأسود الضّخم عليه والماء يَقطر منه، وقال: «نعم. أنت مدين لزوندو بريش كثير. الماء أفسدَ معطف زوندو الأنيق».

رأى سام صحّة هذا في ريشات المعطف المبتلّة المتّسخة الملتصقة بكتفَي الأسود الضّخمتين، وقال: «لم أكن أقصد...».

- «... أن تسبح؟ زوندو رأى. تلويح كثير جدًا. المفترَض أن يطفو السّمان»، وأطبقَ الرّجل على سُترة سام بقبضةٍ سوداء هائلة وسحبَه موقفًا إياه، وقال: «زوندو وكيل زبّان على (ريح القرفة). لُغاتٍ كثيرة يتكلّم بعض الشّيء. في الدّاخل يضحك زوندو لرؤيتك تَلكُم المغنّي. وزوندو يسمع»، واتّسعت ابتسامة بيضاء على وجهه إذ أضافَ: «زوندو يعرف هذه الثّنائين».

- «كنتُ آملُ أنك سئمت من هذه اللّحية الشّنيعة. كلُّ هذا الشّعر يجعلك تُشبه روبرت». كانت أخته قد نبذَت ثياب الحداد، وبدلًا منها ارتدَت فُستانًا بلون اليَشب الأخضر له كمّان من شرائط الزّينة المايريّة المفضّضة، وطوّقت عنقها بسلسلةٍ ذهبيّة تتدلّى منها زمرّدة بحجم بيضة حمامة.

- «لحية روبرت كانت سوداء، لحيتي أنا ذهبيّة».

سألَته سرسي: «ذهبيّة أم فضّيّة؟»، ونتفَت شعرةً من تحت ذقنه، شعرةً شائبةً رفعتها قائلةً: «الألوان كلُّها تتسرّب منك يا أخي. لقد صِرت شبحًا للرّجل الذي كنته، شيئًا باهتًا عاجزًا، وشاحبًا للغاية أيضًا، دائمًا تلبس الأبيض»، ونقرَت الشّعرة بطرف إصبعها مضيفةً: «أفضّلك مرتديًا القرمزي والذّهبي».

وأفضّلكِ موشّاةً بنور الشّمس وقطرات الماء تتلألأ على بشرتكِ العارية. يُريد أن يُقبّلها، أن يحملها إلى غُرفة نومها ويُلقيها على الفِراش... *كانت تُضاجِع لانسل وأوزموند كِتلبلاك وفتى القمر*... «سأعقدُ معكِ صفقةً. أعفيني من هذا الواجب وسأضعُ الموسى تحت أمركِ».

تقلّص فمها. كانت تشرب النّبيذ المتبّل السّاخن وتتضوّع منها رائحة جوز الطّيب. «هل تتجزأ وتُساومني؟ أعليّ أن أذكّرك بأنك أقسمت على الطّاعة؟».

- «أقسمتُ على حماية الملك، ومكاني إلى جانبه».

- «مكانك أينما يُرسلك».

- «تومن يختم كلَّ ورقةٍ تضعينها أمامه. هذه فعلتكِ أنتِ، وحماقة. لماذا تُقلّدين داڤن حُكم الغرب إذا كنتِ لا تثقين به؟».

جلسَت سرسي على مقعدٍ أسفل النّافذة، وسألَت جايمي المتطلّع إلى أطلال (برج اليد) المسودّة وراءها: «ما الذي يُنفّرك هكذا من مهمّتك أيها الفارس؟ هل فقدت شجاعتك مع يدك؟».

- «لقد أقسمتُ لليدي ستارك ألّا أرفع السّلاح ضد آل ستارك أو تَلي ثانيةً أبدًا».

- «وعد شخصٍ مخمور قطعته وعلى عُنقك سيف مصلت».

- «كيف أدافع عن تومن إن لم أكن معه؟».

- «بهزيمة أعدائه. لطالما قال أبونا إن ضربة السّيف السّريعة دفاع أفضل من أيّ تُرس... ولو أنني لا أنكر أن معظم ضربات السّيوف يحتاج إلى يد، لكن حتى الأسد المُعاق يُمكن أن يُثير الخوف. أريدُ (ريڤررَن)، أريدُ برايندن تَلي سجينًا أو ميتًا، وعلى أحدهم أن يُصحّح الأوضاع في (هارنهال). إننا في حاجةٍ ماسّة إلى وايليس ماندرلي، بفرض أنه لا يزال حيًا وأسيرًا، لكن الحامية لم تردّ على أيٍّ من غِدفاننا».

ذكّرها چايمي قائلًا: «مَن في (هارنهال) رجال جريجور. الجبل كان يُفضّلهم قساةً وحمقى. على الأرجح أكلوا غِدفانكِ برسائلها».

- «لهذا سأرسلك. ربما يأكلونك أيضًا يا أخي الشّجاع، لكنني واثقة بأنك ستُصيبهم بعُسر الهضم»، وسوّت سرسي تنّورتها مردفةً: «أريدُ أن يقود السير أوزموند الحرس الملكي في غيابك».

... *كانت تُضاجِع لانسل وأوزموند كِتلبلاك وربما فتى القمر أيضًا*... «الخيار ليس لكِ. إذا كنتُ ذاهبًا لا محالة فسيتولّى السير لوراس القيادة هنا بدلًا مني».

- «أهذه مزحة؟ أنت تعرف شعوري نحو السير لوراس».

- «لو لم تُرسِلي بالون سوان إلى (دورن)...».

- «أحتاجُ إلى وجوده هناك. أولئك الدورنيّون ليسوا أهلًا للثّقة. الثُّعبان الأحمر ناصرَ تيريون، هل نسيت؟ لن أترك ابنتي تحت رحمتهم، ولن أترك لوراس تايرل يقود الحرس الملكي».

- «السير لوراس أكثر رجولةً من السير أوزموند ثلاث مرّات».

- «أفكارك عن الرّجولة تغيّرت بعض الشّيء يا أخي».

قال چايمي شاعرًا بغضبته تتصاعد، «صحيح، السير لوراس لا يَخملق إلى تدييك باشتهاءٍ كالسير أوزموند، لكنني لا أفكِّر في...».

- «فكِّر في هذه»، ولطمَته سرسي على وجهه.

لم يحاوِل چايمي أن يصدَّ اللَّطمة، وقال: «أرى أنني في حاجةٍ إلى لحيةٍ أثقل تُلَطِّف تربيت مليكتي». يُريد أن ينتزع فُستانها من عليها ويُحوِّل ضرباتها إلى قُبلات. لقد فعلَها من قبل، عندما كانت له يدان سليمتان.

قالت الملكة بعينين من الجليد الأخضر: «خيرٌ لك أن تذهب أيها الفارس».

... لانسل وأوزموند كِتلبلاك وفتى القمر...

- «أأنت أصم علاوةً على عاهتك؟ ستجد الباب وراءك أيها الفارس».

ردَّ چايمي: «أمرك»، ودارَ على عقبيه وتركَها.

لا بُدَّ أن الآلهة تضحك في مكانٍ ما. سرسي لا تتلقَّى المعارَضة بصدرٍ رحب أبدًا، وهو يعلم هذا. ربما كانت كلمات أرقُّ لتجعلها تستجيب، لكن في الفترة الأخيرة يُغضِبه مجرَّد منظرها.

جزء منه سيُسَرُّ لوضع (كينجز لاندنج) وراءه. إنه لا يُطيق صُحبة الفرائين والبُله المحيطين بسرسي، «المجلس الوضيع» كما يُسَمُّونهم في (جُحر البراغيث) وفق كلام أدام ماربراند. ثم إن كايبرن... ربما أنقذَ الرَّجل حياته، لكنه لا يزال من الممثِّلين السَّفاحين، وقد قال چايمي لسرسي منذرًا: «رائحة الأسرار العفنة تفوح من كايبرن»، فردَّت عليه ضاحكةً: «كلُّنا لنا أسرارنا يا أخي».

... كانت تُضاجِع لانسل وأوزموند كِتلبلاك وربما فتى القمر أيضًا...

أربعون فارسًا ومِثلهم من المرافقين كانوا ينتظرونه خارج اسطبلات (القلعة الحمراء)، نِصفهم من الغربيِّين المقسمين على الولاء لعائلة لانستر، والآخرون كانوا أعداءً حتى فترةٍ قريبة قبل أن يُصبِحوا أصدقاءَ مشكوكًا فيهم. سيحمل السير درموت ابن (الغابة المطيرة) عَلم تومن، ورونيت كونتجتون الأحمر راية الحرس الملكي البيضاء، في حين سيتقاسم واحد من كلِّ من آل پايپر وپايج وپكلدون شرف مُرافقة حضرة القائد. «ضَع أصدقاءك وراء ظهرك وأعداءك أمام ناظريك». هكذا نصحه سَمنر كراكهول ذات يوم... أم أن أباه مَن قالها؟

حصان ركوبه كستنائي غني بالخمرة، وجواده الحربي فَحل رمادي مطهَّم. سنوات طويلة مرَّت منذ سمَّى چايمي أيًّا من خيوله، إذ رأى كثيرًا منها يموت في المعارك، وهذا أصعب على النَّفس عندما تكون للخيل أسماء، لكن حين بدأ ابن پايپر يدعو حصانيه بأوثَر وجلوري، ضحك چايمي وأجازَ الاسمين. على جلوري كسوة بلون لانستر القرمزي، وعلى أوثَر أبيض الحرس الملكي، وقد أمسك چوزمين پكلدون زمام الثَّاني بينما امتطاه السير چايمي. المُرافق نحيل كالحربة، طويل الذِّراعين والسَّاقين، وله شَعر بنِّي كالفئران ووجنتان ينبت منهما الزَّغب النَّاعم، ويرتدي معطف لانستر القرمزي، لكن على سُترته نجمات عائلته الأرجوانيَّة العشر المصفوفة على خلفيَّةٍ صفراء. سأله الصَّبي: «هل ستُريد يدك الجديدة يا سيِّدي؟».

استحثَّه السير كينوس الكايسي قائلًا: «ضعها يا چايمي، لوِّح بها للعامَّة وامنحهم حكايةً يحكونها لأطفالهم».

- «لا أظنُّ». لن يُري الجماهير كذبةً من ذهب. *فليروا العاهة، فليروا المُعاق*. «لكن لك حرِّيَّة أن تُعوِّضهم يا سير كينوس. لوِّح بكلتا يديك وارفُس بقدميك أيضًا إذا أردت»، ولملمَ چايمي العِنان بيُسراه ودارَ بالحصان، ونادى بينما اتَّخذ الباقون تشكيلهم: «پاين، ستركب إلى جواري».

شَقَّ السير إلين پاين طريقه إلى چايمي باديًا كالشَّحّاذين وسط الأبّهة المحيطة، وقد ارتدى قميصًا قديمًا من الحلقات المعدنيَّة الصَّدئة فوق سُترةٍ متَّسخة من الجِلد المقوَّى. لا يحمل الرَّجل أو دابَّته أيّ شعارات نُبالة، وتُرسه بالٍ مكسَّر لدرجةٍ تُصعِّب معرفة لون الطِّلاء الذي كان يُغطِّيه. بوجهه الكئيب وعينيه الغائصتين ونظرتهما الخاوية كان المرء ليحسب السير إلين الموت نفسه... وهو الدَّور الذي لعبه أعوامًا.

لكنه لم يَعُد كذلك. السير إلين هو نِصف الثَّمن الذي طلبَه چايمي كي يبتلع أمر مليكه الصَّبي باعتباره قائد الحرس الملكي المطيع، والنِّصف الثّاني هو السير أدام ماربراند. قال لأخته إنه محتاج إليهما، ولم تُعارِضه سرسي. *إنها في الغالب مسرورة لخلاصها منهما*. السير أدام صديق صِبا چايمي، والجلّاد الصّامت كان ينتمي إلى أبيهما إن كان ينتمي إلى أيّ أحد. كان پاين قائد حرس يد الملك حين سَمِعَ يقول بزهوٍ إن اللورد تايوين هو من يَحكُم (الممالك السَّبع) ويُملي على الملك إيرس ما يفعله، ولأجل هذا قطعَ إيرس تارجاريَن لسانه.

قال چايمي: «افتحوا البوّابة»، فزعقَ الغفر القوي بصوته الجهوري: «افتحوا البوّابة!».

حين خرجَ مايس تايرل من (بوّابة الطَّمي) على وقع الطُّبل والكمنجات اصطفَّ ألوف في الشَّوارع لتحيَّته، وانضمَّ صِبية صغار إلى المسيرة ماشين إلى جوار جنود تايرل برؤوس مرفوعة وأرجُلٍ تدقُّ الأرض، بينما رمَت أخواتهم القُبلات من النَّوافذ.

ليس الأمر هكذا اليوم. صاحت بعض العاهرات داعيات إياهم وهم يمرُّون، ونادى بائع فطير لحم على بضاعته، وفي (ميدان الأساكفة) كان غصفوران رثَّا الثياب يَخطُبان في عدَّة مئاتٍ من العامَّة داعين بالهلاك على الكافرين وعبدة الشَّياطين. أفسحَ المتزاحمون الطَّريق للمسيرة، ورمقهم الغصفوران والأساكفة على حدٍّ سواء بنظراتٍ فاترة، فعلَّق چايمي: «تُعجِبهم رائحة الورد لكنهم لا يحبُّون الأسود. من الحكمة أن تأخذ أختي هذا بعين الاعتبار». لم يردَّ السير إلين، فقال لنفسه: *الرَّفيق المِثالي لرحلةٍ طويلة. سأستمتع بمحادثاتي معه.*

كان الجزء الأكبر من قوَّته في انتظاره خارج أسوار المدينة؛ السير أدام ماربراند مع جنوده، والسير ستفون سويفت مع قافلة الأمتعة، والسير بونيفر الصَّالح ورجاله الأتقياء المئة، ورُماة سارسفيلد الرَّاكبون، والمايستر چوليان بأربعة أقفاص مليئة بالغدفان، ومئتان من الخيول الثَّقيلة تحت قيادة السير فليمنت براكس. ليس جيشًا جرَّارًا بشكلٍ عام، أقل من ألف رجلٍ إجمالًا، على أن الأعداد آخِر ما يحتاجون إليه في (ريفرَن)، فأحد جيوش لانستر يُحاصِر القلعة بالفعل، وثمَّة قوَّة أكبر من رجال فراي أيضًا. آخِر طائرٍ جاءهم لمَّحت رسالته إلى أن المحاصِرين يجدون صعوبةً في إطعام أنفسهم، إذ استولى برايندن تَلي على ما في الأراضي المحيطة بالكامل قبل أن ينسحب وراء أسواره. *ولو أنه لم يكن هناك كثير يستولي عليه.* مما رأى چايمي في أراضي النَّهر لا يكاد يتبقَّى حقل لم يُحرَق أو بلدة لم تُنهَب أو فتاة لم يُنتهَك عِرضها. *والآن تُرسِلني أختي الجميلة لأتمَّ العمل الذي بدأه أموري لورك وجريجور كليجاين.*

تركَت الفكرة في فمه مذاقًا مريرًا.

على هذه المقربة من (كينجز لاندنج) يعدُّ (طريق الملوك) أكثر أمنًا من أيِّ طريقٍ آخر في وقتٍ كهذا، وعلى الرغم من ذلك أرسلَ چايمي ماربراند وكشّافته لاستطلاع الطّريق، وقال: «روب ستارك أخذني على حين غرّة في (الغابة الهامسة)، ولن يَحدث ذلك ثانيةً أبدًا».

- «لك كلمتي». يبدو ماربراند مستريحًا بوضوحٍ لوجوده على صهوة حصانٍ من جديد، وقد ارتدى معطف عائلته الرّمادي الدّخاني بدلًا من صوف حرس المدينة الذّهبي. «إذا دنا أيّ عدوٍّ أكثر من دستةٍ من الفراسخ فستعرف بوجوده قبلها».

كان چايمي قد أعطى أوامر مشدّدةً بعدم خروج أحدٍ من الصّفّ دون إذنه، فلولا هذا سيجد لورداتٍ صغار يَشعرون بالملل فيتسابقون في الحقول ويُشتّتون قُطعان الماشية ويدعسون المحاصيل. ما زالَت هناك أبقار وخراف قُرب المدينة، وتفّاح على الأشجار وتوت في الأجمات، وسنابل ذُرة وشوفان وقمح شتوي في الحقول، وعربات يد وعربات تجرّها الثّيران على الطّريق، لكن على مسافاتٍ أبعد لن تكون الأمور ورديّةً هكذا.

يكاد چايمي يحسّ بالقناعة وهو راكب على رأس الجيش وإلى جواره السير إلين الصّامت. الشّمس دافئة على ظهره والرّياح تُداعِب شَعره كأصابع امرأة، ولمّا هرولَ ليو پايپر الصّغير إليه بمِلء خوذةٍ من الثوت الأسود أكلَ چايمي حفنةً وقال للصّبي أن يتقاسم الباقي مع زُملائه المرافقين والسير إلين پاين.

يبدو پاين مرتاحًا في صمته مِثلما يرتاح في قميصه المعدني الصَّدِئ وجِلده المقوّى، لا يَصدُر منه صوت إلّا طقطقة حوافر حصانه المخصي وصلصلة سيفه في غِمده كلّما عدّل نفسه فوق سَرجه. على الرغم من وجهه المجدور الكئيب وعينيه الباردتين كالجليد على بُحيرةٍ في الشّتاء يَشعُر چايمي بأن الرّجل مسرور لمجيئه. قال لنفسه مذكّرًا: *لقد منحته الخيار. كان بإمكانه أن يَرفُض ويبقى جلّاد الملك.*

كان تعيين السير إلين في منصب عدالة الملك هديّة زفافٍ من روبرت باراثيون لوالد عروسه، وظيفةٌ تدرّ دخلًا بلا جُهدٍ تعويضًا لپاين عن اللّسان الذي فقدَه في خدمة عائلة لانستر. عملَ الرّجل سيّافًا ممتازًا، ولم يُفسِد إعدامًا قَطُّ ونادرًا ما احتاج إلى ضربةٍ ثانية، كما أن هناك شيئًا في صمته يُوقِع الخوف في القوب. قلّما بدا عدالة ملكٍ مناسبًا لمنصبه تمامًا.

حين قرّر چايمي أن يأخذه سعى إليه في مسكنه في طرف البُرج المسمّى (مشية الخونة). ينقسم الطّابق العُلوي من البُرج القصير نِصف المستدير إلى زنازين الشجناء الذين يتطلّبون نوعًا من الرّاحة، الأسرى من الفُرسان وصغار اللوردات الذين ينتظرون دفع فديتهم أو مبادلتهم، ويقع مدخل الزّنازين الحقيقيّة في الطّابق الأرضي، وراء بابٍ من الحديد المطرّق وبابٍ ثانٍ من الخشب الرّمادي المشقّق، وتضمّ الطّوابق الأخرى غُرفًا مخصّصةً لرئيس السّجّانين واللورد قيِّم الاعترافات وعدالة الملك. الأخير جلّاد، ولكن جرى العُرف على أن يكون مسؤولًا أيضًا عن الزّنازين ورجالها.

ولهذه المهمّة تحديدًا لم يكن السير إلين پاين مناسبًا على الإطلاق، فيما أنه لا يقرأ أو يَكتُب أو يتكلّم، ترك السير إلين إدارة الزّنازين لمرؤوسيه، وهُم قلائل. على أن البلاد لم تعرف قيّمًا للاعترافات منذ عهد دايرون الثّاني، وآخِر رئيس سجّانين كان تاجر أقمشةٍ اشترى الوظيفة من الإصبع الصّغير خلال حُكم روبرت. لا شَكّ أن الرّجل أحسنَ الانتفاع من منصبه بضعة أعوام، إلى أن ارتكبَ غلطة التّآمُر مع عددٍ من الأغنياء الحمقى الآخَرين على إعطاء ستانيس العرش الحديدي. كانوا يُسمُّون أنفسهم رجال القرون، فدَقّ جوف في رؤوسهم قرونًا قبل أن يرميهم بالمنجنيق من فوق أسوار المدينة، وهكذا وقعَ فتح باب الزّنازين لچايمي على عاتق رينيفر لونجووترز، رئيس مُشرفي السّجّانين ذي الظّهر المحني الذي يُسهِب على نحوٍ ممل في ادّعاء أن في عروقه «قطرة من دماء التّنانين». قادَه الرّجل صاعدًا السّلالم الضيّقة المنحوتة داخل الجُدران إلى حيث يَسكُن السير إلين پاين منذ خمسة عشر عامًا.

كانت رائحة الطّعام المتعفّن تُفعِم الغُرفة، والحصير يعجّ بالحشرات، وإذ دخلَ چايمي كادَ يتعثّر في جرذ. رأى سيف پاين العظيم مستقرًّا على طاولةٍ إلى جانب مشحذٍ وقطعةٍ لزجة من القماش المزيّت. لا تشوب الفولاذ شائبة، ويلتمع حدّه بالأزرق في الضّوء الشّاحب، لكن فيما عدا ذلك تناثرَت أكوام الثّياب المتّسخة على الأرض، وقِطع الحلقات المعدنيّة والدّروع الملقاة هنا وهناك مبقّعة بالصّدأ الأحمر، ولم يستطِع چايمي إحصاء آنية النّبيذ المكسورة. *الرّجل لا يعبأ إلّا بالقتل*، قال لنفسه بينما خرجَ السير إلين من غُرفة نومٍ تفوح منها رائحة أوعية الفضلات الطّافحة. خاطبَ الرّجل قائلًا: «صاحِب الجلالة طلبَ مني أن أستردّ أراضي نهره. أريدك معي... إذا كنت تطيق التّخلّي عن كلّ هذا».

جاوبَه الصّمت، ونظرة طويلة بعينين لا تطرفان، لكن قُبيل أن يلتفت ليُغادِر أومأ پاين برأسه موافقًا.

رمقَ چايمي رفيقه مفكِّرًا: *وها هو ذا راكب معي. ربما لم يزل هناك أمل لكلينا.*

ليلتها خيَّموا أسفل قلعة عائلة هايفورد القائمة فوق تلِّها. مع ميل الشَّمس إلى المغيب ارتفعَت مئة خيمة عند سفح التَّل على ضفاف الجدول الجاري إلى جواره، وعيَّن چايمي الحراسة بنفسه. لا يتوقَّع متاعب على هذا القُرب من المدينة، لكن عمَّه ستافورد حسبَ نفسه آمنًا في (أوكسكروس) أيضًا، والأفضل ألَّا يُجازِف.

حين وصلَت الدَّعوة من أعلى لأن يتناوَل العَشاء مع أمين قلعة الليدي هايفورد، أخذَ چايمي معه السير إلين بالإضافة إلى السير أدام ماربراند والسير بونيفر هاستي ورونيت كوننجتون الأحمر والغُفر ومجموعةٍ أخرى من الفُرسان وصِغار اللوردات، وقبل أن يصعد قال لپك: «أظنُّ أن عليَّ أن أضع اليد».

جلبَها الصَّبي في الحال. اليد مطرَّقة من الذَّهب، يُحاكي تكوينها يدًا حقيقيَّةً بشدَّة، ومرصَّعة بأظفار من عِرق اللُّؤلؤ، وأصابعها الخمسة نِصف مغلقةٍ بحيث تُحيط بساق الكأس. قال لنفسه بينما أحكمَ الصَّبي عقد الأربطة التي تُثبِّتها إلى جِدعته: *لا أستطيعُ القتال لكني أستطيعُ أن أشرب*. عندما ركَّبها صانع السِّلاح على معصم چايمي أول مرَّةٍ قال له مؤكِّدًا: «سيدعوك النَّاس بذي اليد الذَّهبيَّة من الآن فصاعدًا يا سيِّدي». *كان مخطئًا. سأبقى قاتِل الملك إلى أن أموت.*

كانت اليد الذَّهبيَّة محطّ العديد من تعليقات الإعجاب خلال العَشاء، على الأقل حتى خبطَ چايمي كأس نبيذٍ وأسقطَها، وعندها تمكَّن منه حنقه، وقال لفليمنت براكس: «إذا كانت اليد اللَّعينة تُعجِبك لهذه الدَّرجة فابتُر يد سيفك وخُذها».

بَعدها سكتَ الكلام عن يده تمامًا، واستطاعَ أن يشرب القليل من النَّبيذ في سلام.

تنتمي سيِّدة القلعة إلى عائلة لانستر بالزَّواج، وهي طفلة ممتلئة لا تزال تتعلَّم المشي زُوِّجت بتايرك ابن عمِّه قبل أن تتمَّ العام. حسب الأصول جيءَ بالليدي إرميساند وعُرِضَت على الضُّيوف لأجل استحسانهم، وقد ألبَسوها فُستانًا صغيرًا من قُماش الذَّهب عليه رمز عائلة هايفورد -الشَّبكة الخضراء المائلة والخَطُّ المموَّج الأخضر الباهت- مشغولًا بحبَّات اليَشب. لكن سرعان ما انفجرَت الصَّغيرة في البُكاء، وبلا إبطاءٍ حملَتها مُرضعتها إلى الفراش.

بينما يُقدَّم طبق سَمك الترويت سأل أمين القلعة: «ألا توجَد أخبار عن اللورد تايرك؟».

- «إطلاقًا». اختفى تايرك لانستر في أثناء الشَّغب في (كينجز لاندنج) وقت أن كان چايمي نفسه أسيرًا في (ريڤررَن)، وبافتراض وجوده على قيد الحياة فقد بلغَ الصَّبي الرَّابعة عشرة.

علَّق السير أدام ماربراند وهو يُزيل شوك سمكته: «قدتُ بحثًا بنفسي بأمر اللورد تايوين، لكني لم أجد أكثر مما وجدَه بايووتر من قبلي. آخِر مرَّةٍ شُوهِد الصَّبي كان على متن حصانه حين اخترقَ الغوغاء صفوف ذوي المعاطف الذَّهبيَّة، لكن بَعدها... لقد عُثِرَ على حصانه من دون الرَّاكب. على الأرجح سحبوه من فوقه وقتلوه، لكن إذا كان هذا ما حدث، فأين الجثَّة؟ الغوغاء تركوا الجُثث الأخرى، فلِمَ ليس هو أيضًا؟».

قال الغفر: «قيمته أعلى حيًّا. أيُّ لانستر يستحقُّ فديةً ضخمةً».

ردَّ ماربراند: «لا شك، لكن لا أحد طلبَ فديةً بتاتًا. الصَّبي اختفى ببساطة».

- «الصّبي مات». كان چايمي قد شربَ ثلاثة كؤوس نبيذ، ويَشعُر بيده الذّهبيّة تزداد ثِقلًا وخزقًا بمرور كلّ لحظة. سينفعني *خُطّاف بالقدر نفسه*. «إذا تبيّنوا مَن قتلوا فلا ريب أنهم ألقوه في النّهر خشية غضبة أبي. إنهم يعرفون مذاقها في (كينجز لاندنج). اللورد تايوين كان يُسدِّد ديونه دائمًا».

أيّده الغفر قائلًا: «دائمًا»، وبهذا انتهى الكلام في الموضوع.

لكن لاحقًا، وهو وحده في غُرفة البُرج التي أنزلوه فيها اللّيلة، وجدَ چايمي نفسه يتساءل. تايرك خدمَ الملك روبرت كمُرافق جنبًا إلى جنب لانسل، ومن شأن المعرفة أن تكون أثمن من الذّهب ومميتةً أكثر من الخنجر. عندئذٍ فكّر في ڤارس مبتسمًا وتفوح منه رائحة الخُزامى. كان للخصيّ مُخبرون وجواسيس في جميع أنحاء المدينة، ولكان سهلًا عليه للغاية أن يُرتِّب لاختطاف تايرك وسط البلبلة... بفرض أنه عرفَ باندلاع شغب الرّعاع مسبقًا. *وڤارس كان يعرف كلّ شيء، أو أنه أرادنا أن نعتقد هذا، لكنه لم يُحذِّر سرسي من الشّغب، ولا نزلَ إلى الرّصيف لوداع مارسلا.*

فتحَ النّافذة ليَشعُر بالبرودة تتوغّل في اللّيل، والتمعَت يده في ضوء القمر المُحاق الشّاحب. *لا تَصلُح لخنق المخصيّين لكنها ثقيلة بما فيه الكفاية لتهشيم ذلك الوجه الباسم اللّزج وتحويله إلى خرابٍ أحمر.* يُريد أن يضرب أحدًا.

عثرَ چايمي على السير إلين يشحذ سيفه العظيم، وقال له: «حانَ الوقت»، فنهضَ الجلّاد وتبعه، يحتكّ حذاؤه الجِلد المشقّق بالدّرجات الحجريّة العالية بينما ينزلان. ينفتح مستودَع السّلاح على ساحةٍ صغيرة، وهناك وجدَ تُرسين وخوذتين قصيرتين وسيفَي مباريات مثلومين، تناولَ پاين أحدهما وحملَ الثّاني بيُسراه ودَسّ اليُمنى في أحزمة تُرسه الجِلديّة. أصابعه الذّهبيّة منحنية بما يكفي للإمساك بالأحزمة لكن لا يُمكنها الإطباق عليها، فلم يستطِع حمل التّرس بإحكام.

قال چايمي: «كنتُ فارسًا ذات يوم، وأنا كذلك. لنرَ مَن نحن الآن».

رفعَ السير إلين سيفه ردًّا، وتحرَّك چايمي منقضًّا عليه من فوره. كانت مهارة پاين صدئةً كقميصه المعدني، وقوَّته ليست مفرطةً كبريان، لكنه قابلَ كلَّ ضربةٍ بسيفه أو اعترضَها بترسه. رقصا تحت الفحاق والنَّصلان المتلومان يَزدَدان أغنيتهما الفولاذيَّة، وقنعَ الفارس الصَّامت بترك چايمي يقود الرَّقصة بعض الوقت، لكنه بدأ أخيرًا يردُّ الضَّربة بالضَّربة، وحالما انتقلَ من الدِّفاع إلى الهجوم أصابَ چايمي على فخذه وكتفه وساعِده، وثلاث مرَّاتٍ دَقَّ رأسه بضرباتٍ سدَّدها إلى خوذته، وانتزعَت أخرى ترسه من ذراعه اليُمنى وكادَت تُمزِّق الأحزمة التي تربط يده الذَّهبيَّة بجَدعته. حين خفضا سيفيهما كان مكدومًا جريحًا، لكن أثر النَّبيذ زالَ تمامًا وصفا رأسه. وعدَ السير إلين قائلًا: «سنَرقُص ثانيةً، غدًا وبعد غد. كلَّ يومٍ سنَرقُص إلى أن أجيد القتال بيُسراي كما كنتُ أجيده بيُمناي».

فتحَ السير إلين فمه وأصدرَ طقطقةً، وبَعد لحظةٍ أدركَ چايمي أنه يضحك، والتوى شيء ما في أعماقه.

في الصَّباح لم يتجرَّأ أحد الآخرين ويتذكَّر كدماته، ويبدو أن أحدًا منهم لم يسمع أصوات المبارزة ليلًا، لكن لدى نزولهم التَّلَّ إلى المعسكر أفصحَ ليو پايپر الصَّغير عن السُّؤال الذي لم يَجسُر الفُرسان وصغار اللوردات على إلقائه، فرَدَّ عليه چايمي بابتسامةٍ عريضة: «عندهم فتيات شبقات في عائلة هايفورد. هذه لدغات حُب يا فتى».

يوم آخر مشرق قويُّ الرِّيح مرّ عليهم، تبعه يوم غائم ثم ثلاثة أيامٍ من المطر، لكن الرِّيح والماء لم يصنعا فرقًا، وحافظ الرَّكب على سرعة تقدُّمه شمالًا على (طريق الملوك). كلَّ ليلةٍ يجد چايمي مكانًا منعزلًا ليجني المزيد من لدغات الحُب، وهكذا تبارَزا داخل اسطبلٍ بينما تفرَّج عليهما بغل أعور، وفي قبو خانٍ وسط براميل النَّبيذ والمِزر، وفي حظيرةٍ حجريّة لم يتبقَّ منها إلَّا هيكلها المسودّ، وعلى جزيرةٍ مشجَّرة في جدولٍ ضحل، وفي حقلٍ مفتوح والمطر يَطَقطِق بنعومةٍ على خوذتيهما وتُرسيهما.

اختلقَ چايمي الأعذار للذَّهاب في غزواته اللَّيليّة، لكنه ليس بالحماقة التي تجعله يخال الآخَرين يُصدِّقونها. مؤكَّد أن أدام ماربراند يعرف ما يفعله، ولا بُدَّ أن بعض غيره من القادة خمَّنوه، لكن لا أحد ذكرَ هذا على مسمعٍ منه... وبما أن الشَّاهد الوحيد بلا لسانٍ فليس هناك ما يدعو چايمي إلى خشية أن يعرف أحد كم أصبحَ قاتِل الملك مُبارِزًا فاشلًا.

سرعان ما لاحت آثار الحرب في كلِّ حدبٍ وصوب. في الحقول التي ينبغي أن يَنضُج فيها القمح الخريفي تنمو الحشائش والأشواك والشُّجيرات الكثيفة بارتفاع رأس الحصان، و(طريق الملوك) خالٍ من المسافرين، والذِّئاب تَحكُم العالم المتعب من الغسق إلى الفَجر. أكثر الحيوانات حذرٌ بما يكفي للاحتفاظ بمسافةٍ بينه وبينهم، لكن حصان أحد كشَّافة ماربراند هوجِمَ وقُتِلَ عندما ترجَّل الرَّجل ليتبوَّل، فأعلنَ السير بونيفر الصَّالح بوجهه الصَّارم الحزين: «لا حيوان يتمتَّع بهذه الجرأة. تلك شياطين في فرو ذئاب، أرسِلَت لتُعاقِبنا على آثامنا».

قال چايمي الواقف فوق بقايا الحيوان المسكين: «لا بُدَّ أنه كان حصانًا آثمًا للغاية إذن»، وأمرَ بتقطيع بقيّة الجثّة وتمليح اللَّحم، فربما يحتاجون إليه.

في مكانٍ اسمه (قرن الخنزيرة) وجدوا فارسًا عجوزًا متين البنيان يُسقى السير روجر هوج قابعًا بعنادٍ في بُرجه مع ستّة جنود وأربعةٍ من زماة النُّشابيّة ونحو عشرين من الفلّاحين. السير روجر رجل كبير الحجم غزير الشّعر كالخنازير، واقترح السير كينوس أنه ربما يكون ابنًا مفقودًا لآل كراكهول، بما أن رمزهم خنزير بزّي مخطّط، وقد بدا أن الغفر يعتقد هذا، إذ أمضى ساعةً يستجوب السير روجر عن أسلافه بمنتهى الجدّيّة.

أمّا چايمي فاهتمّ أكثر بما لدى الرّجل أن يقوله عن الذّئاب، فأخبرَه الفارس العجوز: «واجَهنا متاعب من جماعةٍ من ذئاب النّجمة البيضاء إياهم. كانوا يتشمّمون أثرك يا سيّدي لكننا طردناهم، ودفنّا ثلاثةً منهم عند حقل اللّفت. قبلهم جاء قطيع من الأسود اللّعينة، لا تؤاخِذني. كان على ترس قائدهم مانتيكور».

فسّر چايمي: «السير آموري لورك. السيّد والدي أمرَه بالإغارة على أراضي النّهر».

ردّ السير روجر بقوّة: «التي لسنا جزءًا منها. إنني أدينُ بالولاء لعائلة هايفورد، والليدي إرميساند تحني هامتها الصّغيرة لـ(كينجز لاندنج)، أو أنها ستفعل عندما تتعلّم المشي. أخبرته بهذا، لكن لورك رفضَ الإصغاء، وذبحَ نِصف خرافي وثلاثًا من الماعز الحلوب الممتازة، وحاولَ أن يشويني في بُرجي، لكن جُدراني من الحجر المصمت وسُمكها ثمانية أقدام، فرحلَ شاعرًا بالملل بَعد أن خمدَت ناره. لاحقًا أتت الذّئاب ذات السّيقان الأربع وأكلَت الخراف التي تركَها لي المانتيكور. حصلتُ على بضع فرواتٍ لا بأس بها على سبيل التّعويض، لكن الفرو لا يُشبِع الجائعين. ماذا نفعل يا سيّدي؟».

أجابَ چايمي: «ازرعوا وصلّوا من أجل حصادٍ أخير». ليست إجابةً مفعمةً بالأمل، لكنها الوحيدة التي لديه.

في اليوم الثالي عبروا النّهير الذي يَعيّن الحدود بين الأراضي المدينة بالولاء لـ(كينجز لاندنج) وتلك المدينة به لـ(ريفرّن).
رجعَ المايستر جوليان إلى خريطةٍ ثم أعلنَ أن هذه التلال تابعة للأخوين وود، وهما فارسان من مُلّاك الأراضي مقسمان على الولاء لـ(هارنهال)... لكن مقرّهم هو مبنيٌّ من التربة والخشب، ولم يتبقَّ منه إلّا العوارض المتفحّمة.

لم يظهر الأخوان وود أو أيٌّ من قومهم، وإن كان عدد من الخارجين عن القانون أوى إلى القبو الأدنى تحت حصن الأخ الثّاني، وقد ارتدى أحدهم أسمال معطفٍ قرمزي، لكن چايمي شنقه مع الباقين. أحسَّ بالرّاحة. هذه هي العدالة. *اجعلها عادةً يا لانستر وربما يأتي يوم ويدعوك النّاس بذي اليد الذّهبية حقًّا، ذي اليد الذّهبية العادل.*

باتَ العالم أكثر اكفهرارًا مع دنوّهم من (هارنهال)، وركبوا تحت سماءٍ رماديّة ملبّدة وإلى جوار مياهٍ قديمة تلتمع بالبرد كصفائح الفولاذ المطرّق. وجدَ چايمي يتساءل إن كانت برِيان قد سبقته إلى المرور من هذا الطّريق. *إذا حسبت أن سانزا ستارك توجّهت إلى (ريفرّن)*... لو قابلوا مسافرين غيرهم لتوقّف وسألَ إن كان أحدهم قد صادفَ فتاةً جميلةً بشعرٍ كستنائي أو واحدةً كبيرةً قبيحةً لها وجه يَخثّر الحليب، لكن لا أحد على الطّرق إلّا الذّئاب، وليست في عوائها إجابة.

عبر مياه البحيرة الرّماديّة كالقصدير ظهرَت أبراج حماقة هارن الأسود أخيرًا، خمسة أصابع ملتوية من الحجارة السّوداء المشوّهة تحاوِل بلوغ عنان السّماء. على الرغم من تنصيب الإصبع الصّغير سيّدًا على (هارنهال) فلا يبدو أنه متعجّل على احتلال مقرّه الجديد، وهكذا وقعَ على كاهل چايمي لانستر أن «يُسوّي الأمور» في طريقه إلى (ريفرّن).

ولا شكّ لديه في أن الأمور في حاجةٍ إلى تسوية. كان جريجور كليجاين قد انتزع القلعة الهائلة الكئيبة من الممثّلين السّفّاحين قبل أن تستدعيه سرسي إلى (كينجز لاندنج)، ومؤكّد أن رجال الجبل ما زالوا متناثرين في الدّاخل بلا هدف، لكنهم ليسوا مهيّئين لمهمّة إعادة سلام الملك إلى (الثالوث). السّلام الوحيد الذي ناله أحد من شرذمة السير جريجور هو سلام القبر.

كان كشّافة السير أدام قد بلّغوهم بأن بوّابة (هارنهال) مغلقة وموصدة، فصفّ چايمي رجاله أمامها وأمرَ السير كينوس الكايسي بالنّفخ في بوق هيروك الأسود الملتوي المطوّق بالذّهب القديم.

حين تردّدت ثلاث دفقاتٍ على الأسوار سمعوا أنين المِفصلات الحديد وانفتحت البوّابة ببطء. أسوار حماقة هارن الأسود سميكة للغاية، حتى إن چايمي مرّ من تحت دستةٍ من فتحات الدّفاع قبل أن يَخرُج فجأةً إلى ضوء الشّمس في السّاحة التي ودّع فيها الممثّلين السّفّاحين قبل فترةٍ ليست بالطّويلة. كانت الحشائش تنبت من الأرض الصّلبة، والذّباب يئزّ حول جثّة حصان.

خرجَت حفنة من أتباع السير جريجور من الأبراج وشاهدوه يترجّل، رجال قُساة الأعيُن قُساة الأفواه عن آخِرهم. *لا بُدّ أن يكونوا كذلك ليركبوا في صُحبة الجبل*. أفضل ما يُمكن أن يُقال عن رجال جريجور إنهم ليسوا كريهين عنيفين كرِفقة الشّجعان، وقد اندفعَ جندي أشيب منهم يقول: «فتحلّ بي اللّعنة، إنه چايمي لانستر. إنه قاتِل الملك التّعس يا أولاد. فلتنكني حربة!».

سأله چايمي: «مَن أنت؟».

قال الرّجل: «سيّدنا كان يدعوني بفم الخراء، بَعد إذن سيّدي»، وبصقَ في يديه ومسحَ بهما وجنتيه، كأن هذا سيجعل منظره مقبولًا أكثر.

- «بديع. هل أنت القائد هنا؟».

- «أنا؟ تبًّا، لا يا سيِّدي، فلتنكني حربة لعينة». في لحية المدعو قم الخراء فُتات طعامٍ يكفي لإطعام الحامية بأكملها. ضحك چايمي رغمًا عنه، فاعتبرَ الرَّجل هذا تشجيعًا، وكرَّر: «فلتنكني حربة لعينة»، وبدأ يضحك بدوره.

قال چايمي لإلين پاين: «سمعتَ الرَّجل. جِد حربةً طويلةً جيِّدةً ودُسَّها في دُبره».

لا يحمل السير إلين حرابًا، لكن سَرّ چون بتلي الحليق أن يُلقي إليه واحدةً، ليتبخَّر فم الخراء ضحكاته السّكرانة قائلًا: «أبعِد هذا الشّيء اللَّعين عني».

قال چايمي: «احزم أمرك. لمَن القيادة هنا؟ هل عيَّن السير جريجور أمينًا للقلعة؟».

أجابَه رجل آخَر: «پوليڤر، لكن كلب الصّيد قتلَه يا سيِّدي، هو والمُدغدِغ، بالإضافة إلى صبيّ سارسفيلد».

كلب الصّيد مرَّةً أخرى. «أأنت واثق بأنه كان ساندور؟ هل رأيتموه».

- «ليس نحن يا سيِّدي. صاحِب الخان أخبرَنا».

- «حدث هذا في الخان على مفترَق الطُّرق يا سيِّدي». المتكلِّم رجل أصغر سِنًّا له شعر رملي، ويضع حول عُنقه سلسلة العُملات التي كانت ملكًا لڤارجو هوت؛ عُملات من عشرات المدائن البعيدة، ذهب وفضَّة ونُحاس وبرونز، مربَّعة ومدوَّرة ومثلَّثة، وحلقات وقِطع من العظم. «صاحِب الخان أقسمَ أن جانب وجه الرَّجل محترق، وقالت عاهراته الكلام نفسه. كان مع ساندور صبيٌّ ما، ابن فلّاح يرتدي ثيابًا رثَّة. قيل لنا إنهما مزَّقا پولي والمُدغدِغ إربًا وركبا نحو (الثالوث)».

- «هل أرسلتم رجالًا في أعقابهما؟».

تجهَّم وجه فم الخراء كأن الفكرة في حدِّ ذاتها مؤلمة، وقال: «لا يا سيِّدي، فلئنك جميعًا، لم نُرسِل أحدًا».

- «عندما يُصاب الكلب بالسُّعار يُذبَح».

فركَ الرّجل فمه قائلًا: «ذلك الخراء پولي لم أحبّه قطّ، والكلب كان أخا سيّدنا، فـ...».

تدخَّل صاحِب سلسلة الفملات قائلًا: «نحن سيِّئون يا سيِّدي، لكن مَن يُواجِه كلب الصّيد يجب أن يكون مجنونًا».

تطلّع إليه چايمي مفكّرًا: *أجرأ من البقيّة وليس سكران كفم الخراء*. «كنتم خائفين منه».

- «لا أقول إننا كنا خائفين يا سيّدي، بل إننا تركناه لمَن هُم أفضل منا، لأحدٍ مِثل سيّدنا، أو مِثلك».

مِثلي حينما كانت لي يدان. لا يُخادِع چايمي نفسه. الآن يستطيع ساندور أن يفتك به في لحظات. «ألك اسم؟».

- «رافورد، بَعد إذن سيّدي. يدعونني براف».

- «راف، اجمع الحامية في (قاعة المئة مستوقَد). وأسراكم أيضًا، أريدُ أن أراهم. وعاهرات مفترَق الطُّرق كذلك. أوه، وهوت. أحزنني أن أسمع بموته، وأريدُ أن أرى رأسه».

حين أتوه به ألفى شفتَي الكبش مقطوعتين، بالإضافة إلى أذنيه ومعظم أنفه، وكانت الغِربان قد التهمت عينيه، وإن ظَلَّ تعرُّفه كهوت ممكنًا، إذ كان چايمي ليعرف لحيته في أيِّ مكان، حبل الشّعر السّخيف الذي يتدلّى من ذقنٍ مدبّب بطول قدمين، لكن فيما عدا هذا لم يتبقَّ على جمجمة الكوهوري إلّا قِطع يابسة من اللّحم. سألَ چايمي: «أين بقيّته؟».

لم يرغب أحد في إخباره، وفي النّهاية خفضَ فم الخراء بصره، وغمغمَ: «تعفَّن يا سيّدي، وأُكِلَ».

قال رافورد: «أحد الأسرى كان يتوسّل الطّعام دائمًا، فقال سيّدنا أن نُطعِمه لحم الكبش المشوي. لم يكن في جسد الكوهوري لحم كثير، وقطعَ سيّدنا يديه وقدميه أولًا، ثم ذراعيه وساقيه».

أضافَ فم الخراء: «البدين اللّعين حصلَ على أغلبه يا سيّدي، لكن سيّدنا قال أن نحرص على أن يذوق جميع الأسرى اللّحم، وهوت أيضًا، لحم نفسه. كان ريق ابن العاهرة يجري عندما نُطعِمه والدّهن يسيل على لحيته الرّفيعة هذه».

كلا كلبيك أصابَه السُّعار يا أبي. وجدَ نفسه يتذكّر حكاياتٍ سمعَها أول مرّةٍ في طفولته في (كاسترلي روك)، عن الليدي لوتستون المجنونة التي كانت تستحمّ في أحواضٍ ملأى بالدّماء وتُشرِف على ولائم من اللّحم البشري في هذه القلعة بالذّات.

بوسيلةٍ ما فقدَ الانتقام مذاقه الحُلو، فقال چايمي لپك: «خُذ هذه وألقِها في البحيرة»، ورماها له ثم التفتَ يُواجِه الحامية قائلًا: «إلى أن يحين الوقت ويأتي اللورد پيتر ليتّخذ مقرّه، سيتولّى السير بونيفر هاستي قيادة (هارنهال) باسم التّاج. مَن يرغب منكم في الانضمام إليه فلينضمّ إذا قبلَه، والبقيّة ستركب معي إلى (ريڤررَن)».

تطلّع بعض رجال الجبل إلى بعض، ثم قال أحدهم: «إن لنا دينًا. سيّدنا وعدَنا، قال إننا سننال مكافآت سخيّة».

وافقَه فم الخراء قائلًا: «كلامه بالضّبط: *مكافآت سخيّة لمَن يركبون معي*»، وبدأ دستة من الآخَرين يُتمتِمون مؤيّدين.

رفعَ السير بونيفر يده المقفّزة قائلًا: «كلُّ رجلٍ يبقى معي هنا سيَحصُل على قطعةٍ من الأرض يعمل فيها، وقطعةٍ ثانية عندما يتزوّج، وثالثة عند مولد طفله الأول».

قال فم الخراء بحدّة: «أرض يا سيّدي؟ بول على هذا! لو أردنا أن نعزق التّربة اللّعينة لبقينا في ديارنا. لا تُؤاخِذني أيها الفارس. سيّدنا قال مكافآت سخيّة، أي الذّهب».

قال چايمي: «إذا كانت لديكم شكوى فاذهبوا إلى (كينجز لاندنج) واعرضوها على أختي الجميلة»، والتفتَ إلى رافورد قائلًا: «سأرى الأسرى الآن، بدايةً بالسير وايليس ماندرلي».

سألَه رافورد: «أهو السّمين؟».

- «آملُ هذا بشدّة، ولا تحكِ لي قصّة حزينةً عن موته وإلّا سيَحدُث المِثل لكم جميعًا».

خابَت كلُّ آمالِ راونته في العثور على شاجويل أو بيج أو زولو في الزّنازين، إذ يبدو أن رجال رِفقة الشُّجعان قد تخلّوا عن ڤارجو هوت عن آخِرهم. من قوم الليدي وِنت تبقّى ثلاثة فحسب؛ الطّاهي الذي فتحَ البوّابة الجانبيّة للسير جريجور، وصانع سلاحٍ محنيّ الظّهر اسمه بن ذو الإبهام الأسود، وفتاة اسمها پيا لم تَعُد جميلةً كما كانت حين رآها چايمي آخِر مرّة. أحدهم كسرَ أنفها وحطّم نِصف أسنانها، ولمّا رأته الفتاة ارتمت على قدميه باكيةً متمسّكةً بساقيه بقوّةٍ جنونيّة، إلى أن سحبَها الغفر عنه.

قال لها چايمي: «لا أحد سيؤذيكِ الآن»، لكن قوله لم يُفلِح إلّا في جعل بُكائها يتصاعَد.

لاقى السّجناء الآخَرون معاملةً أفضل. كان السير وايليس ماندرلي بينهم، ومعه عدّة شماليّين عوالي المقام أسرَهم الجبل راكب الخيول في أثناء القتال في مخاضات (الثّالوث)، رهائن مفيدون يستحقّون فديةً كبيرةً، كلُّهم متّسخ رَثّ الثّياب أشعث الشّعر، وبعضهم لديه كدمات حديثة وأسنان مكسورة وأصابع مفقودة، لكن جروحهم مغسولة مضمّدة، ولا أحد منهم يُعاني الجوع. تساءلَ چايمي إن كانت لدى أيّهم أدنى فكرة عمّا كانوا يأكلونه، وقرّر أن من الأفضل ألّا يسأل.

لم يتبقَّ في أحدٍ منهم تحدٍّ، لا سيّما السير وايليس السّمين بلحيته الكثّة وعينيه الفاترتين ولُغده الشّاحب المتدلّي، وحين أخبرَه چايمي بأن هناك من سيصطحبه إلى (بِركة العذارى) كي يوضَع على متن سفينةٍ إلى (الميناء الأبيض)، خرّ السير وايليس على رُكبتيه على الأرض وانفجرَ في بُكاءٍ أعلى وأطول من بِيا، وتطلّب الأمر أربعة رجالٍ لإعادته إلى الوقوف على قدميه. قال چايمي لنفسه: *لحم كبش مشويّ كثير للغاية. بحَقّ الآلهة، لكم أمقت هذه القلعة*. في أعوامها الثّلاثمئة شهدَت (هارنهال) أهوالًا أكثر من (كاسترلي روك) خلال ثلاثة آلاف عام.

أمرَ چايمي بإشعال النّار في (قاعة المئة مستوقَد)، وأرسلَ الطّاهي مسرعًا إلى المطبخ ليعدّ وجبةً ساخنةً لرجاله قائلًا له: «أيّ شيءٍ إلّا لحم الكباش».

تناولَ عشاءه في (قاعة الصّيّادين) مع السير بونيفر هاستي، وهو رجل نحيل وقور ينزع إلى تتبيل كلامه بذِكر الآلهة السّبعة. «لا أريدُ أيًّا من أتباع السير جريجور»، أعلنَ الرّجل وهو يُقطّع حبّة كُمّثرى ذابلةً مِثله، كأنما يحرص على ألّا يُبقّع عصيرها المعدوم سُترته الأرجوانيّة التي لا تشوبها شائبة، والمطرّز عليها الشّريط المائل رمز عائلته. «لن أسمح بوجود خُطاةٍ أمثالهم في خدمتي».

- «اعتادَ سِيتوني أن يقول إن كلّ البشر خُطاة».

ردّ السير بونيفر: «لم يكن مخطئًا، لكن ثمّة خطايا أكثر سوادًا من غيرها، ورائحتها أكثر عفنًا في أنوف (السّبعة)».

إذن فمِثل أخي الصّغير لا أنف لك، وإلّا لجعلَت خطاياي حبّة الكُمّثرى هذه تسدّ حلقك. «ليكن، سأريحك من شرذمة جريجور». يستطيع دائمًا أن يستفيد من المقاتلين، وإن لم يكن لغرضٍ آخر فيُمكنه أن يُرسِلهم لصعود السّلالم أولًا إذا اضطرّ إلى اقتحام (ريقرزن).

قال السير بونيفر بالحاح: «خُذ العاهرة أيضًا. أنت تعرفها، تلك الفتاة من الزّنازين».

- «پيا». آخِر مرّةٍ كان هنا أرسلَ كايبرن الفتاة إلى فِراشه معتقدًا أن هذا سيسرُّه، لكن پيا التي أتوا بها من الزّنازين مخلوقة مختلفة عن تلك الخلوة البسيطة الضّحوك التي دسّت نفسها تحت أغطيته. ارتكبَت الفتاة غلطة الكلام في وقتٍ أرادَ فيه السير جريجور الهدوء، فحطّم الجبل أسنانها بقبضته المقفّزة بالحلقات المعدنيّة وكسرَ أنفها الجميل الصّغير أيضًا، ولا ريب أنه كان ليفعل بها ما هو أسوأ لو لم تستدعِه سرسي إلى (كينجز لاندنج) ليُواجِه حربة الأفعوان الأحمر. لن يبكيه چايمي. قال للسير بونيفر: «پيا مولودة في هذه القلعة. إنها البيت الوحيد الذي تعرفه».

- «إنها نبع فساد. لا أريدها قُرب رجالي تتميّع بـ... بمفاتنها».

- «أعتقدُ أن أيام ميوعتها ولّت، لكن ما دُمت تجدها منفّرة لهذه الدّرجة فسآخذها». يُمكنه أن يَشغَلها غسّالةً. مُرافقوه لا يُمانِعون أن يَنصبوا خيمته ويسوسوا حصانيه وينَظّفوا دِرعه، لكنهم يجدون واجب غسل ثيابه لا يليق بالرّجال. سألَ چايمي: «هل تستطيع السّيطرة على (هارنهال) بأتقيائك المئة فقط؟». المفترَض أن يكون اسمهم الأتقياء الستّة وثمانون، إذ فقدوا أربعة عشر رجلًا في معركة (النّهر الأسود)، لكن مؤكّد أن السير بونيفر سيُعوّض النّقص حالما يَعثر على مجنّدين يرى فيهم الورع المطلوب.

- «لا أتوقّع متاعب. (العجوز) ستُنير طريقنا و(المُحارب) سيبثّ القوّة في أذرعنا».

أو سيزور (الغريب) جماعتكم المؤمنة كلّها. لا يدري چايمي مَن بالضّبط أقنع سرسي بتعيين السير بونيفر أمينًا للقلعة في (هارنهال)، لكن رائحة أورتون ميريويذر تفوح من الأمر. إنه يَذكُر بشيءٍ من الغموض أن هاستي خدمَ جَدّ ميريويذر، كما أن كبير القُضاة ذو الشّعر البرتقالي كالجزر من النّوع الأبله السّاذج بما يكفي لأن يعتقد أن أحدًا ملقّبا بـ«الصّالح» هو عينه الدّواء الذي تحتاج إليه أراضي النّهر لتندمل جراحها التي خلّفها رووس بولتون وڤارجو هوت وجريجور كليجاين.

لكن ربما لا يكون مخطئًا. ينحدر هاستي من أراضي العواصف، أي أن لا أصدقاء له أو أعداء على ضفاف (الثّالوث)، لا ضغائن يدفع ثَمنها أو ديون يُسَدِّدها أو أصحاب يُكافِئهم، والرّجل يقظ وعادل ومطيع، ورجاله الأتقياء السّتّة وثمانون منضبطون كأيّ جنودٍ في (الممالك السّبع)، ويصنعون منظرًا رائقًا عندما يدورون بخيولهم المخصيّة الرّماديّة الطّويلة ويرمحون بها. في مرّةٍ قال الإصبع الصّغير مازحًا إن السير بونيفر خصى رجاله أيضًا بالتّأكيد، فسُمعتهم ناصعة لا يرقى إليها الشّك.

وعلى الرغم من هذا ساورَت چايمي الشُّكوك في جنودٍ مصدر شُهرتهم خيولهم المطهّمة لا الأعداء الذين قتلوهم. *يُجيدون الصّلاة على ما أظنّ، لكن هل يستطيعون القتال؟* على حَدّ علمه لم يُكلّلوا أنفسهم بالعار في معركة (النّهر الأسود)، لكنهم لم يتميّزوا كذلك. السير بونيفر نفسه كان فارسًا واعدًا في شبابه، إلّا أن شيئًا ما حَلّ به، هزيمةٌ أو وصمةٌ أو مناوشةٌ وشيكةٌ مع الموت، وبَعدها قرّر أن النّزال خيلاء فارغة وتخلّى عن رُمحه إلى الأبد.

لكن لا بُدّ من الحفاظ على (هارنهال)، وبيلور فتحة الشّرج هذا هو الرّجل الذي اختارته سرسي للحفاظ عليها. قال للسير بونيفر محذِّرًا: «هذه القلعة سيئة الشمعة، وعن جدارة. يُقال إن هارن وأبناءه ما زالوا يمشون في ظرقاتها ليلًا مشتعلين نارًا، ومَن يَنظُرون إليهم يشبُّ فيهم اللّهب».

- «لا أخافُ الأشباح. مكتوب في (النّجمة الشباعيّة) أنه ليس بإمكان الأرواح والجُثث الحيّة والعائدين من الموت أذيّة الأتقياء ما داموا مدرّعين بإيمانهم».

- «درّع نفسك بالإيمان إذن كما شئت، لكن ارتدِ الحلقات المعدنيّة والفولاذ أيضًا. كلُّ من يتولّى القيادة في هذه القلعة يؤول إلى نهايةٍ سيّئة؛ الجبل، والكبش، وحتى أبي...».

- «أرجو أن تَعذرني لقولي هذا، لكنهم لم يكونوا رجالًا متديِّنين مِثلنا. (المحارب) يُدافِع عنا، والعون قريب دومًا إذا هدّدنا عدوٌ ما. المايستر چوليان سيبقى مع غِدفانه، واللورد لانسل قريب في (داري) مع حاميته، واللورد راندل يَسيطِر على (بِركة العذارى). معًا سنلاحِق ونُدمِّر كلَّ مَن يجوبون هذه الأنحاء من الخارجين عن القانون، وفور الفروغ من هذا سيقود (السّبعة) الأهالي الطيّبين معيدين إياهم إلى قُراهم ليَحرُثوا ويزرعوا ويُعيدوا البناء».

مَن لم يَقتُلهم الكبش على الأقل. وضعَ چايمي أصابعه الذّهبيّة حول ساق كأسه، وقال: «إذا وقعَ أحد من رجال هوت في أيديكم أريدك أن تُرسِل إليّ خبرًا في الحال». ربما اختطفَ (الغريب) الكبش قبل أن يَبلُغه چايمي، لكن زولو البدين لا يزال طليقًا، وكذا شاجويل وروِرچ وأورزويك الوفي والباقون.

- «لتُعذِّبهم وتَقتُلهم؟».

- «أظنُّ أنك كنت لتُسامِحهم لو أنك في مكاني؟».

- «إذا أخلَصوا التّوبة عن ذنوبهم... نعم، سأتقبّلهم جميعًا كإخوة وأصلّي معهم قبل أن أرسلهم إلى قُرمة الجلّاد. الخطايا قابلة للغُفران، والجرائم تستوجب العقاب»، وشبّك هاستي أصابعه أمامه بطريقةٍ ذكّرت چايمي على نحوٍ غير مريح بأبيه، وتساءلَ: «إذا واجَهنا ساندور كليجاين فماذا تُريدني أن أفعل؟».

صَلِّ بحرارة واهرب. «أرسِله لينضمَّ إلى أخيه الحبيب واشكُر الآلهة لأنها خلقت سبع جحانم، فواحدة فقط لا تكفي لاحتواء كلا الأخوين كليجاين»، ودفعَ نفسه إلى القيام بغير راحةٍ مضيفًا: «بريك دونداريون مسألة أخرى. إذا قبضت عليه فاحتفظ به حتى أعود. سأريدُ أن أسوقه إلى (كينجز لاندنج) بحبلٍ حول عُنقه وأجعل السير إلين يقطع رأسه حيث يراه نِصف أهل البلاد».

- «والرّاهب المايري الذي يركب معه؟ يُقال إنه يَنشُر عقيدته الباطلة في كلّ مكان».

- «اقتُله أو قبّله أو صَلِّ معه، كما ترغب».

- «لا رغبة لديّ في تقبيل الرّجل يا سيّدي».

قال چايمي: «لا شكّ أنه سيقول المِثل عنك»، واستحالَت ابتسامته إلى تثاؤب، فأردفَ: «اعذُرني، أستأذنُ منك في الانصراف إن لم يكن لديك اعتراض».

ردّ هاستي: «إطلاقًا يا سيّدي». مؤكّد أنه يُريد أن يُصلّي.

يُريد چايمي أن يُقاتِل أحدًا. نزلَ الدّرجات اثنتين في المرّة خارجًا إلى هواء اللّيل البارد الجاف. في السّاحة المضاءة بالمشاعل كان الغفر والسير فليمنت براكس يتقاتَلان وسط حلقةٍ من الجنود المشجّعين. وقال لنفسه: *لا ريب أن السير لايل سيغلب براكس. يجب أن أعثر على السير إلين.* في أصابعه تلك الحاجة إلى القتال من جديد. قادَته خُطاه بعيدًا عن الضّوء والضّوضاء، ومَرّ من تحت الجسر المغطّى وعبر (ساحة الحجر المصهور) قبل أن يعي أين يتّجه.

مع دنوّه من جُبّ الذّئب رأى وهج مصباحٍ يغمر نوره البارد الشّاحب المدرّجات الحجريّة العالية. *يبدو أن أحدهم سبقَني إلى هنا*. الجُبُّ مكان لا بأس به للرّقص، وربما توقّع السير إلين مجيئه.

لكن الفارس الواقف عند الجُبّ أكبر حجمًا، رجل ملتحٍ متين يرتدي سُترةً طويلةً حمراء وبيضاء ويُزَيّنها اثنان من الجَرافِن. كوننجتون. *ماذا يفعل هنا؟* في الأسفل كانت جثّة الدّبّ لا تزال ملقاةً شِبه مدفونةٍ في الرّمل، وإن لم يتبقَّ منها إلّا العظم والفرو المتهتّك. أحسّ چايمي بالشّفقة على الحيوان تعتصر قلبه، وقال لنفسه: *على الأقل مات في المعركة*، ثم إنه نادى: «سير رونيت، هل ضللت طريقك؟ أعرفُ أنها قلعة كبيرة».

رفعَ رونيت الأحمر مصباحه قائلًا: «أردتُ أن أرى أين رقصَ الدّبّ مع تلك التي ليست جميلةً». كانت لحيته تلتمع في الضّوء كأنها متّقدة، واشتمّ چايمي رائحة الخمر في أنفاسه. «أصحيحٌ أن الفتاة قاتلَته عاريةً؟».

أجابَ متسائلًا كيف أضيفت هذه التّفصيلة إلى القصّة: «عاريةً؟ لا. الممثّلون ألبَسوها فُستانًا ورديًا من الحرير ووضعوا في يدها سيف مباريات. أرادَ الكبش أن يكون موتها «مَثلَيًا»، لكن فيما عدا هذا...».

قال كوننجتون ضاحكًا: «كان منظر بريان عارية ليجعل الذئب يفرُّ مفزوعًا».

لكن چايمي لم يضحك، وقال: «تتكلَّم عن الليدي كأنك تعرفها».

- «كنتُ خطيبها».

فاجأه هذا. لم تذكر بريان خِطبةً قَطُّ. «أبوها رتَّب لها زيجة...».

- «ثلاث مرَّات. أنا الثَّاني. فكرة أبي. كنتُ قد سمعتُ أن الفتاة قبيحة وأخبرته بهذا، لكنه قال إن كلَّ النِّساء واحد عندما تنطفئ الشُّموع».

- «أبوك». حدَّق چايمي إلى سُترة رونيت الأحمر التي يتواجه عليها اثنان من الجَرافِن على خلفيَّةٍ من الأحمر والأبيض. *الجَرافِن الرَّاقصة*. «كان... شقيق يد الملك الرَّاحل، أليس كذلك؟».

- «ابن عمِّه. لم يكن للورد چون إخوة».

- «نعم». عادت إليه الذِّكريات كلُّها. كان چون كوننجتون صديق الأمير ريجار، ولمَّا فشلَ ميريويذر فشلًا ذريعًا في احتواء ثورة روبرت ولم يستطِع أحد العثور على الأمير ريجار، لجأ إيرس إلى أفضل رجلٍ بَعده ورفعَ كوننجتون إلى اليدويَّة، لكن الملك المجنون اعتادَ أن يقطع أيديه، وقطعَ اللورد چون بَعد معركة الأجراس مجرِّدًا إيَّاه من ألقابه وأراضيه وثروته، وأرسلَه عبر (البحر الضيِّق) ليقضي بقيَّة حياته في المنفى، وسرعان ما ظَلَّ الرَّجل يشرب حتى مات. أمَّا ابن العمِّ -أبو رونيت الأحمر- فقد انضمَّ إلى الثَّورة وكُوفئ بـ(وكر الجَرافِن) بَعد معركة (الثَّالوث)، لكنه لم يحصل إلَّا على القلعة، إذ استحوذَ روبرت على الذَّهب وأسبغَ السَّواد الأعظم من أراضي كوننجتون على مؤيِّدين أكثر حماسةً.

السير رونيت يمتلك أراضي محدودةً لا أكثر، ولأيّ رجلٍ مِثله لكانت عذراء (تارث) ثمرةً شهيّةً بالفعل. سأله چايمي: «ولِمَ لم تتزوّجا؟».

- «ذهبتُ إلى (تارث) ورأيتها. إنني أكبرها بستّة أعوام، لكنني وجدتُ الفتاة تُناهزني طولًا، خنزيرة ترتدي الحرير، ولو أن أكثر الخنزيرات له أثداء أكبر. لمّا حاولَت أن تتكلّم كادَت تختنق بلسانها. أعطيتها وردةً وقلتُ لها إنها لن تنال غيرها مني»، ونظرَ كوننجتون إلى الجُبّ متابعًا: «أراهنُ أن الدُّبّ كان له شَعر أقل من تلك المسخ، و...».

لكمَت يد چايمي الذّهبيّة الفارس الآخر في فمه بقوّةٍ أسقطَته على المدرّجات، ووقعَ مصباحه وتحطّم وتناثرَ زيته المشتعل. «إنك تتكلّم عن ليدي رفيعة النّسب أيها الفارس. ادعُها باسمها، ادعُها بِريان».

زحفَ كوننجتون على يديه وركبتيه مبتعدًا عن اللّهب المنتشر، وقال: «بِريان، بَعد إذن سيّدي»، وبصقَ كُتلةً من الدّم عند قدم چايمي، وأضافَ: «بِريان المليحة».

بِبُطءٍ صعدوا (تَل ڤيزينيا)، وإذ كدّت الخيول متحرّكةً إلى أعلى أسندَت الملكة ظَهرها إلى وسادةٍ قرمزيّة منتفخة. ومن الخارج أتى صوت السير أوزموند كِتلبلاك يصيح: «أفسحوا الطّريق، أخلوا الشّارع، أفسحوا الطّريق لصاحبة الجلالة الملكة!».

كانت الليدي ميريويذر تقول: «مارچري محاطة بصُحبةٍ مثيرة حقًّا. عندنا حُواة وممثّلون وشعراء ومحرّكو دُمى...».

استحثّتها سرسي سائلةً: «ومغنّون؟».

- «كثيرون يا جلالة الملكة. هاميش ذو القيثارة يُغنّي لها مرّةً كلّ أسبوعين، وفي بعض الأماسي يُسلّينا ألاريك الآيزيني، لكن الشّاعر الأزرق مطربها المفضّل».

تَذكّرَ سرسي الشّاعر من زفاف تومن. *شابٌ وسيم الطّلعة*. هل *ثمّة شيء واعد هنا؟* «سمعتُ أن هناك رجالًا آخرين، فُرسانًا ورجال حاشية، معجبين. أخبريني بالحقيقة يا سيّدتي، هل تحسبين أن مارچري لا تزال بِكرًا؟».

- «هذا ما تقوله يا جلالة الملكة».

- «هذا ما تقوله هي، فماذا تقولين أنتِ؟».

أجابَت تاينا والمكر يترقرَق في عينيها السّوداوين: «حين تزوّجت اللورد رنلي في (هايجاردن) ساعدتُ على خلع ملابسه من أجل الإضجاع. حضرة اللورد كان رجلًا حسن البنيان، ومفعمًا بالشّهوة. رأيتُ الدّليل على هذا عندما ألقيناه في فِراش الزِّفاف حيث انتظرَته عروسه العارية كيوم مولدها ببشرةٍ محمرّة خجلًا تحت الأغطية الخفيفة. السير لوراس حملَها على السّلالم بنفسه. ربما تقول مارچري إن الزّيجة لم تتمّ، إن اللورد رنلي أفرطَ في شُرب النّبيذ خلال المأدبة، لكنني أؤكّد لكِ أن ما بين ساقيه لم يكن متعَبًا على الإطلاق لمّا رأيته آخِر مرّة».

سألَتها سرسي: «هل رأيتِ فِراش الزَّوجيّة في الصَّباح التَّالي؟ هل نزفَت؟».

- «لم يرَ أحد الملاءة يا جلالة الملكة».

مؤسف. على أن غياب الملاءة الدَّامية يعني القليل في حدِّ ذاته. بنات الفلَّاحين ينزفن كالخنازير ليلة زفافهن حسب ما سمعَت، لكن ذلك لا ينطبق بالدَّرجة نفسها على العذراوات كريمات المحتد كمارجري تايرل. يُقال إن بنات اللوردات يفقدن عذريَّتهن من جرَّاء ركوب الخيل أكثر من الزَّواج، ومارجري اعتادَت الرُّكوب منذ تعلَّمت المشي. «بلغني أن للملكة الصَّغيرة معجبين بين فُرسان بيتنا. التَّوأمان ردواين والسير تالاد... أخبِريني، ومن أيضًا؟».

هزَّت الليدي ميريويذر كتفيها قائلةً: «السير لامبرت، الأحمق الذي يُخبِّئ عينه السَّليمة برُقعة، بايارد نوركروس، كورتناي جرينهيل، الأخوان وودرايت، أحيانًا بورتيفر وغالبًا لوكانتين. أوه، والمِايستر الأكبر پايسل زائر متكرِّر».

- «پايسل؟ حقًّا؟». هل هجرَت الدُّودة العجوز الخرفة الأسد إلى الوردة؟ إن صَحَّ هذا فسيندم. «مَن أيضًا؟».

- «رجل (جُزر الصَّيف) ذو المعطف الرِّيش. كيف أنساه ببشرته السَّوداء كالحبر؟ هناك آخرون يأتون ليتودَّدوا إلى بنات عمومتها. إلينور موعودة لابن أمبروز لكنها تحبُّ المغازلة، ومِجا يأتيها خاطِب جديد كلَّ أسبوعين. في مرَّة قبَّلت عاملًا في المطبخ. سمعتُ كلامًا عن زواجها بأخي الليدي بولوار، لكن إذا كان لِمِجا الاختيار بنفسها فستفضِّل مارك مالندور، إنني واثقة».

ضحكَت سرسي، وقالت: «فارس الفراشات الذي فقدَ ذراعه في معركة (النَّهر الأسود)؟ ما جدوى نِصف رجل؟».

- «مِجا تراه محبَّبًا. لقد سألَت الليدي مارجري أن تُساعِدها على العثور على قردٍ له».

ردّدت الملكة: «قرد». لا تدري ماذا تقول عن هذا. عصافير وقرود. حقًّا *أصابَ هذه البلاد الجنون*. «وماذا عن فارسنا الشُّجاع السير لوراس؟ كم يزور أخته؟».

أجابَت الليدي تاينا: «أكثر من كلِّ الآخَرين»، وعقدَت حاجبيها لتظهر تجعيدة ضئيلة بين عينيها الذّاكنتين، وتابعَت: «كلَّ صباحٍ وكلَّ مساءٍ يزورها، ما لم يُعيقه واجبه. أخوها مخلص لها، ويتشارَكان كلَّ شيءٍ... أوه...». للحظةٍ بدَت المايريّة كأنها مصدومة، ثم اتَّسعت ابتسامة على وجهها، وقالت: «خطرَت لي فكرة شرِّيرة للغاية يا جلالة الملكة».

- «يُستحسَن أن تحتفظي بها لنفسكِ. العصافير منتشرون على التل، وكلُّنا يعلم كم يبغض العصافير الشّر».

- «سمعتُ أنهم يبغضون الماء والصّابون أيضًا يا جلالة الملكة».

- «ربما يحرم الإكثار من الصّلاة المرء حاسّة الشّم. سأحرص على سؤال صاحِب القداسة الأعلى».

قالت الليدي تاينا والسّتائر القرمزيّة الحرير تتأرجح: «أورتون قال لي إن السّبتون الأعلى لا اسم له. أهذا صحيح؟ في (مير) كلُّنا لنا أسماء».

أجابَت الملكة: «أوه، كان له اسم من قبل. كلُّهم كذلك»، ولوَّحت بيدها باستهانةٍ مضيفةً: «حتى السّبتونات أبناء العائلات النّبيلة يُعرَفون فقط بأسمائهم الأولى حالما يحلفون اليمين، وعندما يترقَّى أحدهم إلى مقام السّبتون الأعلى يتخلّى عن هذا الاسم أيضًا. تقول العقيدة إنه لم يَعُد في حاجةٍ إلى اسمٍ بَشري، إذ أصبحَ تجسّدًا للآلهة».

- «وكيف تُميِّزون بين سبتون أعلى وغيره؟».

- «بصعوبة. عليكِ أن تقولي: *السّمين*، أو *الذي سبق السّمين*، أو *العجوز الذي مات في نومه*. يُمكنكِ دائمًا أن تتوصّلي إلى الأسماء التي وُلِدوا بها إذا أردتِ، لكن استخدامها يُضايِقهم، يُذَكِّرهم بأنهم وُلِدوا بَشرًا عاديِّين، ولا يحبُّون هذا».

- «السيِّد زوجي يقول لي إن هذا السِّبتون الأعلى وُلِد وتحت أظفاره الوسخ».

- «هذا ما أرتابُ فيه. كقاعدةٍ يرفع مجلس القانِتين واحدًا من أفراده، لكن ثمّة استثناءات». كان المِايستر الأكبر پايسل قد أخبرَها بالتّاريخ بتفصيلٍ ممل. «في عهد الملك بيلور المبارَك اختيرَ حجّار بسيط لمنصب السِّبتون الأعلى. كان ينحت أشكالًا في غاية الجَمال من الحجارة لدرجة أن بيلور اعتقدَ أنه (الحدّاد) وقد وُلِدَ من جديدٍ في هيئةٍ بَشريّة. لم يكن الرَّجل يقرأ أو يَكتُب أو يتذكّر كلمات أبسط الأدعية». ما زالَ البعض يَزعُم أن يد بيلور سمَّم الرَّجل ليُعفي البلاد من الإحراج. «بعد موته رُفِعَ صبيٌّ في الثّامنة إلى المنصب، مرّةً أخرى بإيعازٍ من الملك بيلور، وأعلنَ جلالته أن الصّبي يصنع المعجزات، ولو أن يديه الشّافيتين الصّغيرتين لم تنجحا في إنقاذ بيلور نفسه وقت صيامه الأخير».

أطلقَت الليدي ميريويذر ضحكةً، وقالت: «في الثّامنة؟ ربما يستطيع ابني أن يُصبِح السِّبتون الأعلى إذن. إنه يكاد يَبلُغ السّابعة».

سألَتها الملكة: «هل يُصلّي كثيرًا؟».

- «يُفضِّل اللّعب بالسّيوف».

- «صبيٌّ حقيقيٌّ إذن. هل يعرف أسماء الآلهة السّبعة جميعًا؟».

- «أظنُّ هذا».

- «سأضعه في الاعتبار». لا تشكّ سرسي في أن وجود عددٍ ما من الصّبية الذين بإمكانهم تكريم التّاج البلّوري أكثر من المأفون الذي اختارَ مجلس القانِتين أن يهبه له. *هذا ما ينتج عن ترك الحمقى والجُبناء يَحكّمون أنفسهم. المرّة القادمة سأختار لهم سيّدهم*. وربما لا تتأخّر المرّة القادمة كثيرًا إذا استمرَّ السّبتون الأعلى الجديد في إزعاجها، فليس عند يد بيلور كثير يَلقّن سرسي لانستر إياه في مِثل هذه الأمور.

كان السير أوزموند كِتلبلاك يزعق: «أخلوا الشّارع! أفسِحوا الطّريق لصاحِبة الجلالة!».

بدأت حركة الهودج تتباطأ، وهو ما يعني أنهم دنوا من قمّة التّل. قالت سرسي لليدي ميريويذر: «يَجدُر بكِ أن تجلبي ابنكِ هذا إلى البلاط. ستّة أعوام ليست سِنًا صغيرةً جدًا. تومن محتاج إلى صِبيةٍ آخرين حوله، فلِمَ لا يكون ابنكِ أحدهم؟».

حسب ما تذكُر لم يكن لجوفري صديق مقرّب من سِنّه قطّ. *كان الصّبي المسكين وحيدًا دومًا. في طفولتي كان عندي جايمي... وميلارا، إلى أن سقطَت في البئر*. أي نعم كان جوف مغرمًا بكلب الصّيد، لكنها لم تكن صداقةً، بل كان يبحث عن الأب الذي لم يجده في روبرت. *قد يكون أخ في التّربية ما يحتاج إليه تومن بالضّبط لفطامه عن مارجري ودجاجاتها*. ومع الوقت ربما يُصبِحان قريبين قُرب روبرت وصديق صِباه ند ستارك. *أحمق، لكنه أحمق مخلص، وتومن سيحتاج إلى أصدقاءٍ مخلصين لحماية ظَهره*.

- «جلالتكِ لطيفة، لكن راسل لم يعرف بيتًا إلّا (الطّاولة الطّويلة)، وأخشى أن يضيع في هذه المدينة العظيمة».

علّقت الملكة: «في البداية، لكن سرعان ما سيتغلّب على ذلك مِثلما تغلّبت عليه. حين أرسلَني أبي إلى البلاط بكيث وثآز جايمي، إلى أن أجلسَتني عمّتي في (الحديقة الحجريّة) وأفهمَتني أنه ليس هناك مَن أخشاه في (كينجز لاندنج). قالت: *أنتِ لبؤة، وعلى كلّ الدّواب الأدنى أن تخشاكِ*. ابنكِ أيضًا سيَعثُر على شَجاعته. مؤكّد أنكِ تُريدينه قريبًا منكِ حيث تستطيعين رؤيته كلّ يوم. إنه طفلكِ الوحيد، أليس كذلك؟».

- «في الوقت الحالي. السيّد زوجي سألَ الآلهة أن تَرزُقنا بابنٍ آخَر في حال...».

- «أعرفُ». فكّرت سرسي في جوفري وهو يخمش عُنقه. في لحظاته الأخيرة نظرَ إليها بضراعةٍ يائسة، وأوقفَت ذكرى مباغتة قلبها عن الخفقان؛ قطرة من الدّم الأحمر تُهَسهِس في لهب شمعة، وصوت مشؤوم يتكلّم عن التّيجان والأكفان، عن الموت على يدَي الڤالونكار.

خارج الهودج كان السير أوزموند يزعق بشيءٍ ما ويردّ عليه أحدهم زاعقًا، ثم توقّف الهودج بحركةٍ حادّة، وهدرَ كِتلبلاك: «أأنتم موتى جميعًا؟ ابتعدوا عن الطّريق اللّعين!».

أزاحت الملكة رُكن السّتار، وأشارَت إلى السير مِرين ترانت متسائلةً: «ما المشكلة؟».

كان السير مرين يرتدي دِرعًا بيضاء تحت معطفه، وقد علّق خوذته وتُرسه من سَرجه. أجابَها: «العصافير يا جلالة الملكة. إنهم مخيّمون في الشّوارع. سنجعلهم ينزاحون».

- «افعلوا هذا ولكن برفق. لا أريدُ أن أجد نفسي وسط شغبٍ آخَر»، وأفلتَت سرسي السّتار قائلةً: «هذا سُخف».

قالت الليدي ميريويذر مؤيّدةً: «نعم يا جلالة الملكة. كان ينبغي أن يأتيكِ السّپتون الأعلى بنفسه، وهؤلاء العصافير الخقراء...».

- «إنه يُطعمهم ويُدلِّلهم ويُبارِكهم، ومع ذلك يَرفُض مبارَكة الملك». تعلم أن المبارَكة طقس فارغ، لكن للطُّقوس والمراسم سطوة في أعيُن الجاهلين. إجون الفاتِح نفسه حنَّذ تاريخ بداية مملكته بيوم مرخَه السِّبتون الأعلى بالزُّيوت المقدَّسة في (البلدة القديمة). «إمَّا أن يخضع ذلك الرَّاهب التَّافه وإمَّا سيتعلَّم أنه لا يزال إنسانًا ضعيفًا».

- «أورتون يقول إن ما يُريده حقًّا هو الذَّهب، إنه ينوي الإمساك عن مبارَكة الملك إلى أن يستأنف التَّاج دفع ديونه».

- «ستحصُل العقيدة على ذهبها ما إن يحلَّ السَّلام». السِّبتون توربرت والسِّبتون راينارد تفهَّما أزمتها تمامًا... على عكس البراقوسي المأفون الذي ألحَّ على اللورد جايلز المسكين بلا رحمة، إلى أن أخذَ إلى فِراشه وهو يَسعُل دمًا. *كان من الضَّروري أن نبني تلك السُّفن*. لا تستطيع سرسي الاعتماد على (الكرمة) في شأن قوَّتها البحريَّة، فآل ردواين قريبون للغاية من آل تايرل، وهي محتاجة إلى قوَّتها الخاصَّة في البحر.

ستمنحها الذّرمونات التي ترتفع في النّهر هذا. سفينة القيادة ستُبحِر بضِعف مجاذيف (مطرقة الملك روبرت)، وقد طلبَ أوران إذنها في تسميتها (اللورد تايوين)، فقبلَت سرسي مسرورةً، وتتطلّع إلى أن تسمع النّاس يتكلّمون عن أبيها باعتباره أنثى. إحدى الشفن الأخرى ستُسَمّى (الجميلة سرسي)، وستحمل تمثال مقدّمةٍ مذهّبًا منحوتًا بحيث يُحاكي ملامحها بينما ترتدي الحلقات المعدنيّة وتعتمر خوذة الأسد وتحمل حربةً. ستتبعها (جوفري الشُّجاع) و(الليدي جوانا) و(اللّبؤة) إلى البحر، بالإضافة إلى (الملكة مارجري) و(الوردة الذّهبيّة) و(اللورد رنلي) و(الليدي أولينا) و(الأميرة مارسلا). ارتكبَت الملكة خطأً إخبار تومن بأنه يستطيع تسمية الشفن الخمس الأخيرة، والحقيقة أنه اختارَ اسم (فتى القمر) لإحداها، وفقط حين علّق اللورد أوران قائلًا إن الرّجال قد لا يرغبون في الخدمة على متن سفينةٍ مسمّاة على اسم مهرّج، قبلَ الصّبي على مضضٍ بتكريم أخته بدلًا من ذلك.

قالت لتايِنا: «إذا كان هذا الشّيتون الوضيع يحسب أنه سيجعلني أشتري مبارَكة تومن فسيتعلّم واقع الأشياء قريبًا». لا تنوي الملكة أن تنصاع لقطيعٍ من الرُّهبان.

توقّف الهودج ثانيةً بشكلٍ مباغت لدرجةٍ رجّت جسد سرسي، فقالت: «أوه، لم يَعُد هذا يُطاق»، ومالَت إلى الخارج فرأت أنهم بلغوا قمّة (تَل ڤيزينيا). أمامها لاح (سِبت بيلور الكبير) بقُبّته المهيبة وبروجه السّبعة البرّاقة، لكن بينها وبين درجاته الرّخام بحر كئيب من البَشر مسمرّي البشرة لابسي الأسمال متّسخي الأجساد. فكّرت متنشّقةً: *عصافير*، ولو أن لا عصفور تفوح منه رائحة عفنٍ ونتانة كهذه.

ارتاعَت سرسي للمنظر. كان كايبرن قد جلبَ لها تقارير بأعدادهم، لكن السّماع بها شيء ورؤيتها رأي العين شيء مختلف. في السّاحة يُخيِّم المئات، وفي الحدائق مئات أكثر، تُفعِم بؤر نيرانهم الهواء بالدُّخان والرّوائح المنفِّرة، وتلوّث خيامهم الخيش وأكواخهم الحقيرة المبنيّة بالطّمي وفضالة الأخشاب الأرضيّة الرُّخام العريقة، بل ويتلملَمون بالمِثل على السّلالم أمام باب (السّبت الكبير) الشّاهق.

عادَ السير أوزموند إليها خببًا، وإلى جواره يركب السير أوزفريد فَحلًا ذهبيًا كمعطفه. أوزفريد أوسط الإخوة كِتلبلاك، وأكثر من أخويه هدوءًا وجنوحًا إلى العبوس عن الابتسام. *وأقسى كذلك إذا صدقَت الحكايات. ربما كان عليّ أن أرسله إلى (الجِدار).*

أرادَ المِايستر الأكبر پايسل رجلًا أكبر سِنًّا «متمرِّسًا في أمور الحرب» لقيادة ذوي المعاطف الذّهبيّة، واتّفق معه كثيرون من مستشاريها الآخرين، فقالت لهم: «السير أوزفريد متمرِّس بما فيه الكفاية»، لكن حتى هذا لم يُخرسهم. ينبحون في وجهي *كقطيعٍ من الجِراء المزعجة*. يكاد صبرها على پايسل ينفد عن آخِره. بكلّ سفاهةٍ اعترضَ الرّجل على إرسالها إلى (دورن) طالبةً قيِّم سلاح، بزعم أن شيئًا كهذا قد يُسيء إلى آل تايرل، وعندها سألته متهكِّمةً: «ولِمَ تحسبني أفعلُ هذا؟».

قال السير أوزموند: «أستميحكِ العُذر يا صاحبة الجلالة. أخي يستدعي المزيد من ذوي المعاطف الذّهبيّة. سنفتح طريقًا، لا تخافي».

- «ليس لديّ وقت. سأواصلُ على قدمَي».

أمسكَت تاينا ذراعها قائلةً: «أرجوكِ يا جلالة الملكة، أنا خائفة منهم. إنهم مئات، ومتّسخون للغاية».

طبعت سرسي قُبلةً على وجنتها، وقالت: «اللّيث لا يخشى العصفور... لكن لُطف منكِ أن تُلقي بالًا لسلامتي. أعلمُ أنكِ تحبّينني كثيرًا يا سيّدتي. سير أوزموند، ساعِدني على النّزول من فضلك».

لو عرفتُ أني سأضطرُّ إلى المشي لارتديتُ ما يُناسِبه. اليوم ترتدي فُستانًا أبيض مشرّطًا بقماش الذّهب، فيه تخريم لكن لا يعوزه الاحتشام. آخِر مرّةٍ وضعَته الملكة على جسدها كانت منذ عدّة أعوام، والآن تجده ضيّقًا من المنتصَف على نحوٍ غير مريح. خاطبَت رجالها قائلةً: «سير أوزموند، سير مرين، ستصحباني. سير أوزفريد، احرص على سلامة هودجي». بعض العصافير يبدو ضاويًا غائص العينين بما فيه الكفاية لالتهام خيولها.

بينما شقّت طريقها في زحام المعدِمين مارّةً ببؤر نيرانهم وعرباتهم ومساكنهم البائسة، وجدَت الملكة نفسها تتذكّر مرّةً سابقةً ازدحمَ فيها النّاس في هذه السّاحة. يوم زفافها إلى روبرت باراثيون جاء آلاف يهتفون لهما. ارتدَت كلُّ النّساء أفضل ثيابهن وحملَ نِصف الرّجال أطفالهم على أكتافهم، ولمّا خرجَت من السِّبت ويدها في يد الملك الشّاب أطلق الجمهور هديرًا مدوّيًا من شأنه أن يُسمَع في (لانسپورت)، فهمسَ روبرت في أذنها: «يحبّونكِ للغاية يا سيّدتي. انظُري، الوجوه كلُّها مبتسمة». في هذه اللّحظة الواحدة العابرة كانت سعيدةً في زواجها... إلى أن وقعَ ناظراها مصادفةً على چايمي، وتذكّرَت أنها فكّرت لحظتها: *لا، ليس كلُّ الوجوه يا سيّدي*.

لا أحد يبتسم الآن. النّظرات التي يرميها بها العصافير فاترة كئيبة عدوانيّة، وقد أفسحوا لها الطّريق على مضض. *لو كانوا عصافير حقًّا لطيّرتهم صيحة. مئة من ذوي المعاطف الذّهبيّة بالعصيّ والسّيوف والهراوات يستطيعون طرد هؤلاء الغوغاء خلال وقتٍ قصير.* هذا ما كان اللورد تايوين ليفعله. *كان ليدعسهم بدلًا من المشي وسطهم.*

حين رأت ما فعلوه ببيلور المبارَك وقعَ الأسف في قلب الملكة الرّقيق. التّمثال المرمر العظيم الذي يرتفع مبتسمًا في السّاحة منذ مئة عامٍ مغطّى حتى الخصر بكومةٍ من العظم والجماجم، وبعض الجماجم ما زالَت رُقع لحمٍ عالقةً به، وقد حطّ غُراب على واحدةٍ من هذه ليستمتع بوليمته اليابسة الجافّة، وراح الذُّباب يطنّ في كلّ مكان. سألَت الجمع: «ما هذا؟ هل تُريدون دفن بيلور المبارَك تحت جبلٍ من الجيف؟».

تقدّم رجل بساقٍ واحدة متّكئًا على عُكّازٍ خشبي، وقال: «جلالة الملكة، هذه عظام مؤمنين ومؤمنات قُتِلوا لإيمانهم، سِپتونات وسِپتوات، وإخوة بنيّون ورماديّون وخُضر، وأخوات بيضاوات وزرقاوات ورماديّات. بعضهم شُنِقَ وبعضهم بُقِرَ بطنه. السّپتات نُهِبت والفتيات وأمّهاتهن اغتصبهن الكافرون وعبدة الشّياطين. حتى الأخوات الصّامتات تعرّضن للتّحرّش. (الأم في الأعالي) تَصرخ لوعةً. لقد جلبنا عظامهم من جميع أنحاء البلاد لتشهد على كرب العقيدة المقدّسة».

شعرَت سرسي بثِقل النّظرات المسلّطة عليها، وبرصانةٍ أجابَت: «سيعرف الملك بهذه البشاعات وسيشارِككم تومن غضبتكم. هذا عمل ستانيس وساحرته الحمراء، وعمل الشّماليّين الهمجيّين عابدي الأشجار والذّئاب»، ورفعَت صوتها مضيفةً: «أيها القوم الكرام، ستنالون ثأر موتاكم!».

هلّل قلائل، ولكن قلائل فحسب، وقال ذو الشاق الواحدة: «لا نطلب ثأرًا لموتانا وإنما الحماية للأحياء، وللسّبتات والأماكن المقدّسة».

دمدم جلف ضخم على جبهته نجمة سُباعيّة مرسومة: «يجب أن يُدافع العرش الحديدي عن العقيدة. الملك الذي لا يحمي شعبه ليس ملكًا على الإطلاق»، فارتفعت همهمات التأييد من حوله، وكان أحدهم بالنزق الكافي لأن يُمسك معصم السير مرين ويقول: «آن أوان أن يتخلّى جميع الفُرسان المحلّفين عن سادتهم الدُّنيويّين ويدافعوا عن عقيدتنا المقدّسة. قِف معنا أيها الفارس إذا كنت تحبّ (السّبعة)».

انتزع السير مرين يده قائلًا: «اتركني».

قالت سرسي: «أسمعكم. ابني صغير، لكنه يحبّ (السّبعة) حُبًّا جمًّا. ستحظون بحمايته وحمايتي أيضًا».

لم يقتنع الكبير ذو النّجمة على جبهته، وقال: «(المُحارب) سيُدافع عنا، وليس ذلك الملك الصّبي البدين».

مدّ مرين ترانت يده إلى سيفه، لكن سرسي أثنته عن هذا قبل أن يستلّه. إن معها فارسين لا أكثر في بحرٍ من العصافير، كما أنها ترى عصيًّا ومناجل ونبابيت وهراوات وعدّة فؤوس. قالت: «لن أسمح بسفك الدّماء في هذا المكان المقدّس أيها الفارس». *لماذا الرّجال جميعهم أطفال؟ اقتله وسيمزّقنا البقيّة تمزيقًا*. «كلُّنا أطفال (الأم). هيا، صاحب القداسة الأعلى ينتظرنا». لكن إذ خطت وسط الزّحام إلى درجات السّبت تقدّمت جماعة من المسلّحين لتحول بينها وبين الباب. يرتدون الحلقات المعدنيّة والجلد المقوّى بالزّيت المغلي، وهنا وهناك قِطعة منبعجة من دِرع، ويحمل بعضهم الحِراب وبعضهم السّيوف الطّويلة، في حين يُفضّل أكثرهم الفؤوس، وقد خاطوا نجماتٍ حمراء على سُتراتهم البيضاء الطّويلة، وبلغت الوقاحة باثنين منهم أن يُقاطِعا حربتيهما ويسدّا طريقها.

سألتهم: «أهكذا تستقبلون ملكتكم؟ أين راينارد وتوربرت؟».
ليس من عادة هذين الاثنين أن يَفُوّتا فُرصة تملُّقها، ودائمًا يركع توربرت على رُكبتيه ويغسل قدميها على نحوٍ استعراضي.

قال واحد ممن يحملون النّجمة الحمراء على ستراتهم: «لا أعرفُ عمَّن تتكلّمين، لكن إذا كانا من رجال العقيدة فلا بُدّ أن الآلهة احتاجَت إلى خدماتهما».

قالت سرسي: «الشيتون راينارد والشيتون توربرت من مجلس القانِتين، وسيُغضِبهما أن يعلما أنكم أعقتموني. هل تمنعونني من دخول سِپت بيلور المقدّس؟».

أجابَها شيخ بكتفين محنيّتين: «مرحبًا بكِ هنا يا جلالة الملكة، لكن على رجليك أن يَترُكا حزاميهما. ليس مسموحًا بالأسلحة في الدّاخل بأمر الشيتون الأعلى».

- «فُرسان الحرس الملكي لا يتخلّون عن سيوفهم حتى في حضرة الملك».

رَدّ الفارس المسِنُّ: «في بيت الملك الكلمة للملك، لكن هذا بيت الآلهة».

احتقنَ وجهها. كلمة واحدة لمرين ترانت وسيلقى الشّيخ محنيُ الظّهر آلهته خلال وقتٍ أقرب مما يحبُّ. *لكن ليس هنا، ليس الآن*. قالت لفارسَي الحرس الملكي باقتضاب: «انتظراني»، ووحدها صعدَت السّلالم. سحبَ حاملَي الحِراب حربتيهما، ودفعَ اثنان آخَران مصراعَي الباب بالأكتاف لينفتحا مصدرَين قعقعةً عظيمةً.

في (بهو القناديل) وجدَت عشرين من الشيتونات راكعين، ولكن ليس للصّلاة. كانت معهم دلاء من الماء والصّابون ويمسحون الأرض. دفعَت ثيابهم الخيش وصنادلهم سرسي إلى اعتقادهم عصافير، إلى أن رفعَ أحدهم رأسه، لترى وجهه المحمّر كالبنجر والقروح المفتوحة النّازفة في يديه. خاطبَها الرّجل قائلًا: «جلالة الملكة؟».

قالت وهي تكاد لا تُصدِّق ما تراه: «السِّپتون رايناردٍ؟ ماذا تفعل على رُكبتيك؟».

- «يُنظِّف الأرض». المتكلِّم أقصر قامةً من الملكة بعدَّة بوصات، ورفيع كعصا المقشَّة. «العمل صورة من صُور العبادة، ويُرضي (الحدَّاد) للغاية»، ونهضَ الرَّجل حاملًا فُرشاةً خشنةً، وقال: «جلالة الملكة، كنا ننتظر حضوركِ».

لحية الرَّجل بنِّيَّة شائبة ومشذَّبة بعناية، وشعره معقود بإحكامٍ وراء رأسه، وعلى الرغم من أن رداءه نظيف فإنه مهترئ ومرتوق، وكان قد شمَّر كُمَّيه حتى المِرفقين بينما يحكُّ الأرض، لكن تحت رُكبتيه القُماش مبتلٌّ تمامًا. له وجه مدبَّب وعينان غائصتان بنِّيَّتان كالظُّمي، ورأت سرسي قدميه فقالت لنفسها مشدوهةً: *حافيتان*. ثم إنهما شنيعتان أيضًا، صُلبتان قاسيتان وجِلدهما يابس. «أنت صاحِب القداسة الأعلى؟».

- «نحن كذلك».

أبانا، امنحني القوَّة. تعلم الملكة أن عليها أن تركع، لكن الأرض مبتلَّة بالمياه المتَّسخة والصَّابون، وليست راغبةً في إتلاف فُستانها. تطلَّعت إلى المسنِّين على رُكبهم، وقالت: «لا أرى صديقي السِّپتون توربرت».

- «السِّپتون توربرت محتجَز في صومعة توبة ويقتات بالخُبز والماء. من الإثم أن يكون رجل ما بدينًا هكذا بينما يتضوَّر نِصف البلاد جوعًا».

تحمَّلت سرسي ما يكفي ليومٍ واحد، فتركته يرى غضبها إذ قالت: «أهكذا تُحيِّيني؟ بفُرشاةٍ يَقطر منها الماء في يدك؟ هل تعرف مَن أنا؟».

أجابَ الرَّجل: «أنتِ صاحِبة الجلالة الملكة الوصيَّة على عرش (الممالك السَّبع)، لكن مكتوب في (النَّجمة السُّباعيَّة) أنه كما يحني الإنسان رأسه لسادته، والسَّادة لملوكهم، فعلى الملوك والملكات حني رؤوسهم للسَّبعة الذين هُم واحد».

هل يقول لي أن أركع؟ إذا كان الأمر هكذا فهو لا يعرفها جيِّدًا. «كان المفترَض أن تُقابِلني على السلالم في أبهى صورةٍ وعلى رأسك التاج البلّوري».

- «ليس لدينا تاج يا جلالة الملكة».

ردَّت بوجهٍ ازدادَ جهامةً: «السيِّد والدي أهدى إلى سلفك تاجًا نادر الجمال من البلّور والذَّهب المغزول».

قال السِّبتون الأعلى: «ولهذه الهديَّة نَذكُره بالخير في صلواتنا، لكن الفُقراء في حاجةٍ إلى طعامٍ في بطونهم أكثر مما نحتاج إلى الذَّهب والبلّور على رأسنا. ذلك التَّاج بيعَ، وكذا جميع التِّيجان الأخرى في خزائننا، إضافةً إلى خواتمنا وأرديتنا المصنوعة من قُماش الذَّهب وقُماش الفضَّة. الصُّوف يَصلُح لتدفئة المرء بالقدر ذاته. لهذا خلق (السَّبعة) الخراف».

يا لجنونه المطبق. لا بُدَّ أن أعضاء مجلس القانِتين كانوا مجانين أيضًا إذ رقّوا مخلوقًا كهذا... مجانين أو مرعوبين من المتسوِّلين على أبوابهم. هامسو كايبرن ادَّعوا أن تسعة أصواتٍ كانت تفصل السِّبتون لوشن عن التَّرقية حين انفتحت تلك الأبواب، وتدفَّق العصافير إلى (السِّبت الكبير) حاملين قائدهم على أكتافهم والفؤوس في أيديهم.

حدَّقت إلى الرَّجل الصَّغير بنظرةٍ جليديَّة متسائلةً: «أهناك مكان نستطيع الكلام فيه على انفراد يا صاحِب القداسة؟».

ناولَ السِّبتون الأعلى أحد القانِتين فُرشاته مجيبًا: «تفضَّلي واتبعيني يا صاحِبة الجلالة».

قادها عبر الباب الدّاخلي إلى صحن السّيت وتردّدت أصداء خُطاهما على الأرضيّة الرّخام، وقد طفا الهباء في أشعّة الضّوء الملوّن المتسلّلة من زُجاج القبّة العظيمة المطلي بالرّصاص، وعطّر البَخور الهواء، وإلى جوار المذابح السّبعة تألّقت الشّموع كالنّجوم. لـ(الأم) تتلألآ ألف شمعة، ولـ(العذراء) نحوها، لكن يُمكنك أن تُحصي الشّموع المضاءة لـ(الغريب) على أقلّ من عشرة أصابع.

بلغ غزو العصافير قلب السّيت. أمام (المحارب) تركع دستة من الفُرسان المتجوّلين متّسخي الملبس، يتضرّعون إليه أن يُبارِك الشيوف التي كوّموها عند قدميه، وعند مذبح (الأم) يقود سپتون مئةً من العصافير في الصّلاة، بعيدة أصواتهم كالموج على السّاحل. قاد السّپتون الأعلى سرسي إلى حيث ترفع (العجوز) مصباحها، ولمّا ركعَ أمام مذبحها لم تجد خيارًا إلّا الرّكوع إلى جواره، لكن من الرّحمة أن هذا السّپتون الأعلى لا يجنح إلى الإطناب في الصّلاة كسلفه السّمين. *أظنّ أن عليّ أن أمتنّ لهذا على الأقل*.

لم يُحاوِل صاحِب القداسة الأعلى القيام حين فرغ من الصّلاة، ويبدو أن عليهما أن يتشاوَرا راكعين. فكّرت وقد وجدَت هذا طريقًا: *حيلة من رجلٍ وضيع*. «صاحِب القداسة، هؤلاء العصافير يُخيفون أهل المدينة. أريدهم أن يرحلوا».

- «وأين يذهبون يا جلالة الملكة؟».

ثمّة سبع جحائم، أيّ منها يَصلح. «إلى حيث جاءوا كما أتصوّر».

- «لقد جاءوا من كلّ مكان. مِثل العصفور الأكثر تواضعًا وشيوعًا بين الطّيور، هم أكثر النّاس تواضعًا وشيوعًا».

إنهم شائعون بالفعل، على هذا نتّفق. «هل رأيت ما فعلوه بتمثال بيلور المبارَك؟ إنهم يُدنّسون السّاحة بخنازيرهم وماعزهم وفضلاتهم».

- «غسل الفضلات أسهل من غسل الدّماء يا جلالة الملكة. إذا دُنّست السّاحة فقد دنّسها الإعدام الذي تمّ هنا».

هل يجرؤ على إلقاء ند ستارك في وجهي؟ «كلّنا آسفون لهذا. جوفري كان صغيرًا ولا يتمتّع بحكمةٍ كافية. كان يجب قطع رأس اللورد ستارك في مكانٍ آخر احترامًا لبيلور المبارَك... لكن دَعنا لا ننسى أن الرّجل كان خائنًا».

- «الملك بيلور عفا عمّن تآمروا ضده».

الملك بيلور حبس أخواته اللاتي كانت جريرتهن الوحيدة جَمالهن. أول مرّةٍ سمعَت سرسي هذه الحكاية ذهبَت إلى غُرفة تيريون الرّضيع وقرصَته حتى انفجرَ باكيًا. *كان حريًّا بي أن أكتم أنفاسه وأدسّ جوربي في فمه.* أجبرَت نفسها على الابتسام قائلةً: «والملك تومن سيعفو عن العصافير أيضًا ما إن يرحلوا إلى ديارهم».

- «أكثرهم فقدَ داره. المعاناة في كلّ مكان... والحُزن والموت. قبل مجيئي إلى (كينجز لاندنج) اعتدتُ التّجوال بين عشرات القُرى الأصغر من أن يكون لها سِبتونها الخاص، وسرتُ من كلّ واحدةٍ إلى التّالية مقيمًا طقوس الزّفاف وغافرًا خطايا الخُطاة ومسمّيًا المواليد. تلك القُرى لم يَعُد لها وجود يا جلالة الملكة، والحشائش والأشواك تنمو حيث كانت الحدائق المُزهِرة، وعظام الموتى ملقاة على قارعة الطّريق».

- «الحرب شيء فظيع. هذه البشاعات من صُنع الشّماليّين واللورد ستانيس ورجاله عبدة الشّياطين».

- «بعض عصافيري يتكلّمون عن جماعاتٍ من الأسود انتهكَت حُرمتهم... وعن كلب الصّيد الذي كان رجلكم الوفي. في (الملّاحات) فتك بسِبتون مسن واغتصبَ فتاةً في الثّانية عشرة، طفلةً بريئةً موعودةً للعقيدة. كان يرتدي دِرعه بينما يغتصبها، ومزّقت حلقاته المعدنيّة لحمها الغَضّ وسحقَه، ولمّا فرغَ منها تركَها لرجاله الذين قطعوا أنفها وثدييها».

- «لا يُمكن تحميل جلالة الملك مسؤوليّة كلّ رجلٍ سبقَت له خدمة عائلة لانستر. ساندور كليجاين خائن متوحّش. لماذا تحسبني صرفته من خدمتنا؟ إنه يُقاتِل لحساب المجرم بريك دونداريون الآن، وليس الملك تومن».

- «كما تقولين، لكن يجب ألّا نُغفِل هذا السؤال... أين كان فُرسان الملك عندما جرى هذا؟ ألم يُقسِم چهيرس المُصلح ذات يومٍ على العرش الحديدي نفسه أن التّاج سيُدافِع عن العقيدة دومًا ويحميها؟».

لا تدري سرسي بِمَ أقسمَ چهيرس المُصلح، لكنها قالت متفقةً: «صحيح، وباركَه السِّپتون الأعلى ومرخَه بالزُّيوت المقدّسة باعتباره الملك. لقد جرَت العادة على أن يُبارِك كلُّ سِپتون أعلى جديد الملك... ومع ذلك تَرفُض مباركة الملك تومن».

- «جلالتكِ مخطئة. نحن لم نَرفُض».

- «لكنك لم تأتِ».

- «لم تَحِن ساعة القطاف بعدُ».

أأنت راهب أم خُضري؟ «وما الذي يُمكن أن يجعلها... تحين؟». *إذا جرؤ على ذِكر الذّهب سأتعاملُ معه كما تعاملت مع سابقه وأجد طفلًا ورعًا في الثّامنة يعتمر التّاج البلّوري.*

- «البلاد ملأى بالملوك، ولتعلي العقيدة واحدًا فوق البقيّة يجب أن نكون واثقين. قبل ثلاثمئة عام، عندما رسا إجون الفاتِح عند هذا التلّ تحديدًا، حبسَ الشيتون الأعلى نفسه في (السِّبت النّجمي) في (البلدة القديمة) وصلّى سبعة أيام وسبع ليالٍ دون غذاءٍ إلّا الخبز والماء، وحين خرجَ أعلنَ أن العقيدة لن تُناوِئ إجون وأختيه، لأن (العجوز) رفعَت مصباحها وأرَته المستقبَل. لو رفعَت (البلدة القديمة) السّلاح ضد التنّين لاحترقَت، ولحاقَ الخراب والدّمار بـ(البُرج العالي) و(القلعة) و(السِّبت النّجمي). اللورد هايتاور كان رجلًا متديّنًا، ولمّا سمعَ النُّبوءة أبقى قوّاته في دياره وفتحَ بوّابات المدينة لإجون لدى وصوله، ومرّخَ صاحِب القداسة الأعلى الفاتِح بالزُّيوت السّبعة. عليَّ أن أفعل ما فعلَه الشيتون الأعلى قبل ثلاثمئة عام، عليّ أن أصلّي وأصوم».

- «سبعة أيام وسبع ليالٍ؟».

- «مهما تطلّب الأمر».

فكّرت سرسي وهي تتحرّق شوقًا إلى صفعه على وجهه الرّصين: *أستطيعُ مساعدتك على الصِّيام، أستطيعُ أن أحبسك في بُرجٍ ما وأحرص على ألّا يأتيك أحد بطعامٍ إلى أن تقول الآلهة كلمتها*. قالت له مذكّرةً: «هؤلاء الملوك الزّائفون يعتنقون أديانًا باطلةً. ملكنا تومن يُدافِع عن العقيدة المقدّسة».

- «ومع ذلك تُحرَق السِّبتات وتُسرَق في كلِّ مكان، وحتى الأخوات الصّامتات اغتُصِبن ويرفعن أصواتهن الملتاعة إلى السّماء. هل رأت صاحِبة الجلالة عظام وجماجم إخوتنا المؤمنين؟».

ردّت مرغمةً: «رأيتها. امنح تومن البَركة وسيضع نهايةً لهذه الانتهاكات».

- «وكيف سيفعل ذلك يا جلالة الملكة؟ هل سيُرسِل فارسًا يمشي على الطُّرق مع كلِّ أخٍ شحّاذ؟ هل سيُعطينا رجالًا لحماية سِبتواتنا من الذِّئاب والأُسود؟».

سأتظاهرُ بأنك لم تتذكّر الأسود. «البلاد في حرب. صاحِب الجلالة في حاجةٍ إلى كلِّ رجل». لا نيّة لدى سرسي في تبديد قوّة تومن بإرسال رجاله للعب دور المُرضعات مع العصافير أو حراسة الفروج المتغضِّنة لألف سِبتة كئيبة. *على الأرجح يُصلّي نِصفهن طلبًا للاغتصاب.* «عصافيرك يحملون هراواتٍ وفؤوسًا. فليُدافِعوا عن أنفسهم».

- «قوانين الملك ميجور تُحظِّر ذلك كما تعلم صاحبة الجلالة بالتأكيد. بمرسومٍ منه لم تَعُد العقيدة تحمل الشيوف».

- «تومن الملك الآن لا ميجور». لِمَ تُبالي بما فرضَه ميجور المتوحّش قبل ثلاثمئة عام؟ *بدلًا من أخذ الشيوف من أيدي المؤمنين كان عليه استغلالها في تحقيق مآربه.* أشارَت إلى (المُحارب) الواقف فوق مذبحه الرُّخامي الأحمر، وسألَت: «ما هذا الذي يحمله؟».

- «إنه سيف».

- «هل نسيَ كيف يستخدمه؟».

- «قوانين ميجور...».

- «... قابلة للإلغاء»، قالتها وتركَت القول يسبح في الهواء منتظرةً أن يلتقط السّيتون الأعلى الطُّعم.

ولم يُخيِّب الرّجل ظنّها، وقال: «ميلاد مُناضلي العقيدة من جديد... ستكون هذه إجابةً لثلاثمئة عامٍ من الدُّعاء يا جلالة الملكة. سيرفع (المُحارب) سيفه ثانيةً ويُطهِّر هذه البلاد الأثيمة من شرورها. إذا سمحَ لي صاحِب الجلالة بإحياء جماعتَي السّيف والنّجمة العريقتَين المباركتَين فسيعرف كلُّ مؤمنٍ في (الممالك السّبع) يقينًا أنه مولانا الشّرعي الحق».

رائع أن تسمع هذا، لكن سرسي حرصَت على عدم إبداء لهفتها، وقالت: «تكلّمت منذ قليلٍ عن العفو يا صاحِب القداسة الأعلى. في هذه الأوقات العصيبة سيكون الملك تومن ممتنًا للغاية إذا وجدت وسيلةً للعفو عن ديون التّاج. على حدّ علمي نحن مدينون للعقيدة بنحو تسعمئة ألف تنين».

- «تسعمئة ألف وستُّمئة وأربعة وسبعون، ذهب من شأنه إطعام الجياع وإعادة بناء ألف سِپت».

سألته الملكة: «هل تُريد الذّهب أم إبطال قوانين ميجور التي عفا عليها الزّمن؟».

فكّر السّپتون الأعلى لحظةً، ثم قال: «كما ترغبين. سنعفو عن هذا الدّين، وسينال الملك تومن البَركة. سيصحبني أبناء المُحارب إليه متألّقين بمجد عقيدتهم، بينما يذهب عصافيري للدّفاع عن الضُّعفاء والمساكين في البلاد، مولودين من جديدٍ كجماعة الصّعاليك القديمة».

نهضَت الملكة وسوّت تنّورتها قائلةً: «سآمر بتجهيز الأوراق، وسيُوَقّعها جلالته ويضع عليها الختم الملكي». إذا كان هناك جزء من المُلك يحبّه تومن فهو اللّعب بختمه.

قال السّپتون الأعلى: «فليحمه (السّبعة) وعسى أن يطول حُكمه»، وشبّك أصابعه ورفعَ عينيه إلى السّماء، وأردفَ: «فليرتجف الأشرار!».

هل تسمع يا لورد ستانيس؟ لم تستطِع سرسي أن تمنع نفسها من الابتسام. ما كان السيّد والدها نفسه ليُبلي بلاءً أحسن. بضربةٍ واحدة خلّصت (كينجز لاندنج) من وباء العصافير وأمّنت بَركة تومن وخفّضت نحو مليون تنّين من ديون التّاج. كان قلبها يُحلّق تحليقًا إذ سمحت للسّپتون الأعلى باصطحابها عائدةً إلى (بهو القناديل).

شاركتها الليدي ميريويذر ابتهاجها، مع أنها لم تسمع قَطّ بأبناء المَحارب أو جماعة الصّعاليك، فشرحت لها سرسي قائلةً: «تاريخهم يرجع إلى ما قبل غزوة إجون. أبناء المَحارب كانوا جماعةً من الفُرسان الذين تنازَلوا عن أراضيهم وذهبهم وأقسموا على تكريس سيوفهم لصاحِب القداسة الأعلى. الصّعاليك... كانوا رجالًا أكثر تواضُعًا ولو أن أعدادهم كانت أكبر كثيرًا، نوعًا من الإخوة الشّحّاذين ولكن يحملون الفؤوس بدلًا من الآنية. اعتادوا أن يجوبوا الطُّرق ويصطحبوا المُسافرين من سپت إلى سپت وبلدة إلى بلدة حاملين شارة النّجمة السُّباعيّة، أحمر على أبيض، فسمّاهم العامّة النُّجوم. أمّا أبناء المَحارب فارتدوا معاطف بألوان قوس قزح ودروعًا فضّيّةً مزخرفةً فوق قمصانٍ من الشَّعر، وكانت في قبيعة سيف كلٍّ منهم بلُّورة على شكل نجمة. هؤلاء كانوا الشيوف. مؤمنون، متنسّكون، متعصّبون، مشعوذون، قتَلة تنانين، صيّادوا شياطين... الحكايات عنهم عديدة، لكن جميعها متّفق على أنهم كانوا لا يُبارون في كراهيتهم لكلّ أعداء العقيدة المقدّسة».

قالت الليدي ميريويذر وقد فهمَت في الحال: «أعداء كاللورد ستانيس ومشعوذته الحمراء مثلًا؟».

ردّت سرسي: «نعم، بالفعل»، وقهقهت كفتاةٍ صغيرة، وقالت: «هل نفتح برميلًا من الهيپوكراس ونشرب نخب حميّة أبناء المَحارب في طريقنا؟».

- «نخب حميّة أبناء المَحارب وعبقريّة الملكة الوصيّة على العرش! نخب سرسي الأولى!».

كان الهيپوكراس حلوًا لذيذًا كانتصار سرسي، وبدا هودج الملكة كأنه طافٍ في الهواء في طريق العودة عبر المدينة.

لكن عند سفح (تَل إجون العالي) صادفَت مارچري تايرل وبنات عمومتها العائدات من ركوب الخيل، ولمَّا وقعت عيناها على الملكة الصَّغيرة قالت سرسي لنفسها بضيق: *تُزعِجني في كلِّ مكان.*

وراء مارچري طابور طويل من أفراد حاشيتها، حُرَّاس وخدم يحمل كثيرون منهم سلالًا من الزُّهور النَّاضرة، وقد لازم كلًّا من بنات عمومتها أحد المعجبين، فركبَ المُرافق الطَّويل الهزيل آلن أمبروز إلى جوار خطيبته إلينور، والسير تالاد مع آلا الخجول، ومقطوع الذِّراع مارك مالندور مع مِجا الممتلئة الضَّحوك، وصاحبَ التَّوأمان ردواين اثنتين من رفيقات مارچري الأخريات، ميريديث كرين وچانا فوسواي. وضعَت كلُّ النِّساء في شعورهن الزُّهور، وضَمَّ چالابار شو نفسه إلى الرَّكب أيضًا، بالإضافة إلى السير لامبرت تِرنبري بالرُّقعة على عينه، والمغنِّي الوسيم المعروف باسم الشَّاعر الأزرق.

وبالطَّبع لا بُدَّ أن يُصاحِب فارس من الحرس الملكي الملكة الصَّغيرة، وبالطَّبع هو فارس الزُّهور. بدا السير لوراس متألِّقًا في دِرعه البيضاء المنقوشة بالذَّهبي. على الرغم من أنه لم يُحاول ثانيةً أن يُدرِّب تومن على السِّلاح فما زالَ الملك الصَّغير يقضي أوقاتًا طويلةً للغاية معه، وكلَّما عادَ الصَّبي بَعد أن أمضى الأصيل مع زوجته الصَّغيرة حكى قصَّةً جديدةً عن شيءٍ قاله السير لوراس أو فعلَه.

حيَّتهم مارچري عندما التقى الرَّكبان وركبَت إلى جوار هودج الملكة. كانت وجنتاها متورِّدتين، وخليقات شَعرها البُنِّيَّة تنسدل بلا انتظامٍ على كتفيها، تُحرِّكها مجدِّد نفخة ريحٍ خفيفة. قالت لهم: «كنا نقطف زهور الخريف من (غابة الملوك)».

أعرفُ أين كنتم. مُخبروها مفلحون للغاية في إطلاعها على كلّ حركات مارچري وسكناتها. *فتاة ملول للغاية ملكتنا الصّغيرة هذه*. نادرًا ما تترك ثلاثة أيامٍ بأكملها تمرّ دون أن تخرج للرُّكوب. أحيانًا يركبون على طريق (روزيي) لصيد الأصداف والأكل على شاطئ البحر، وفي أحيانٍ أخرى تأخذ حاشيتها عبر النّهر لقضاء الأصيل في الصّيد بالصّقور. الملكة الصّغيرة مولعة بركوب القوارب أيضًا، والإبحار جيئةً وذهابًا في (النّهر الأسود) بلا وجهةٍ بعينها، ولمّا يعِزُّ إليها الإيمان تُغادِر القلعة لتُصلّي في (سيت بيلون)، ثم إنها زبونة عند دستةٍ من الخيّاطات، ومعروفة جيّدًا وسط صاغة المدينة، بل ومعروفة أيضًا بزيارة سوق السّمك عند (بوّابة الظّمي) لتُلقي نظرةً على صيد اليوم. أينما ذهبَت يتزلّف إليها العامّة، والليدي مارچري تفعل كلَّ ما في إمكانها لتُلهِب حماستهم. بلا انقطاعٍ تتصدّق على المتسوّلين وتشتري الفطير السّاخن من عربات الخبّازين وتُوقِف حصانها لتتكلّم مع عوام التُّجّار.

لو كان الأمر بيدها لجعلَت تومن يفعل كلّ تلك الأشياء أيضًا. طوال الوقت تدعوه إلى المجيء معها ودجاجاتها في مغامراتهن، وطوال الوقت يتوسّل الصّبي إلى أمّه لتأذن له في الذّهاب، وقد وافقت الملكة بضع مرّات، ولو فقط لتسمح للسير أوزني بقضاء بضع ساعاتٍ إضافيّة في رِفقة مارچري. *كأن هذا أثمرَ شيئًا. أوزني خيّب آمالي تمامًا*. سألَت سرسي ابنها: «هل تذكُر يوم أبحرَت أختك إلى (دورن)؟ هل تذكُر غوغاء الرّعاع في طريق عودتنا إلى القلعة؟ والحجارة واللّعنات؟».

لكن بفضل الملكة الصّغيرة صَمَّ الملك أذنيه عن سماع صوت العقل، وقال: «إذا اختلطنا بالعامّة فسيحبّوننا أكثر».

ذكّرته قائلةً: «الزّعاع أحبّوا السّبتون الأعلى السّمين لدرجة أنهم مزّقوه إربًا رغم قدسيّته»، لكن قولها لم يُفضِ إلّا إلى وجوم تومن. *أراهنُ أن هذا ما أرادته مارجري بالضّبط. كلُّ يومٍ تُحاوِل بكلّ وسيلةٍ أن تسرقه مني*. كان جوفري ليستشفّ الدّسائس المتوارية تحت ابتساماتها، لكن تومن أكثر سذاجةً. فكّرت متذكّرة العملة الذّهب التي وجدَها كايبرن: *كانت تعلم أن جوف أقوى من أن تحتال عليه، ولأجل أن يكون لعائلة تايرل أمل في الحُكم كان يجب أن يُزاح*. عادَ إلى ذاكرتها فجأةً أن مارجري وجدّتها الشّنيعة خطّطتا ذات مرّةٍ لتزويج سانزا ستارك بويلاس أخي الملكة الصّغيرة المُعاق، وقد أحبطَ اللورد تايوين هذا المخطّط باستباق آل تايرل وتزويج سانزا بتيريون، لكن الرّابط موجود. قالت لنفسها مفزوعةً وقد خطّ عليها الإدراك: *كلُّهم متآمرون معًا. آل تايرل رشوا السّجّانين لإطلاق سراح تيريون وهرّبوه على (الطّريق الوردي) لينضمّ إلى عروسه البغيضة. لا بُدّ أنهما آمنان الآن في (هايجاردن)، مختبئان وراء جدارٍ من الورود*.

بينما صعدوا منحدَر (تَل إجون العالي) واصلَت المتآمرة الصّغيرة ثرثرتها قائلةً: «ليتكِ أتيتِ معنا يا جلالة الملكة. كنا لنقضي وقتًا رائقًا معًا. الأشجار متّشحة بالذّهبي والأحمر والبُرتقالي، والزّهور في كلّ مكان، والكستناء أيضًا. شوينا القليل في طريق العودة».

قالت سرسي: «ليس لديّ وقت للرّكوب في الغابة وقطف الزّهور. إن عندي مملكةً أحكمها».

ردّت مارجري: «واحدة فقط يا جلالة الملكة؟ ومَن يَحكُم السّت الأخريات؟»، وأطلقت ضحكةً مرحةً قصيرةً، وأردفت: «آملُ أن تغفري لي مزحتي. أعرفُ العبء الذي تحملينه. يَجدُر بكِ أن تدعيني أشاركِكِ إياه. لا بُدّ من وجود أشياء يُمكنني فِعلها لأعينكِ. سيضع هذا حدًّا لكلّ الكلام الدّائر عن تنافُسنا على الملك».

مبتسمةً قالت سرسي: «أهذا ما يقولون؟ حماقة. إنني لم أعدّكِ منافِسة قَطّ ولو لحظةً».

لم يبدُ على الفتاة أنها أدركت ما في ردّها من استخفاف، وقالت: «يسرُّني للغاية أن أسمع هذا. يجب أن تأتي معنا أنتِ وتومن المرّة القادمة. أعرفُ أن جلالته سيحبُّ هذا. الشّاعر الأزرق يُغنّي لنا، والسير تالاد أرانا كيف نُقاتِل بالدّبابيس على غرار العوام. الغابة جميلة للغاية في الخريف».

- «زوجي الرّاحل أحبّ الغابة أيضًا». في سنوات زواجهما الأولى كان روبرت يُناشِدها طوال الوقت أن تذهب معه للصّيد، لكن سرسي اعتذرَت دومًا، إذ أتاحت لها رحلاته قضاء الوقت مع چايمي. *نهارات من ذهب وليالات من فضّة*. لا شكّ أنهما كانا يُجازِفان، فـ(القلعة الحمراء) ملأى بالأعيُن والآذان دومًا، ولم يكونا متأكّدين متى قد يعود روبرت، لكن بوسيلةٍ ما جعلَ الخطر أوقاتهما معًا تبدو أكثر إثارةً مرارًا. قالت للملكة الصّغيرة محذّرةً: «ولو أن الجمال من شأنه أن يُخفي خطرًا مميتًا أحيانًا. روبرت فقدَ حياته في الغابة».

منحت مارجري السير لوراس ابتسامةً أخويّةً عذبةً مفعمةً بالحنان، وقالت: «ألطف من جلالتكِ أن تخافي عليّ، لكن أخي يحميني جيّدًا».

عشرات المرّات ألحّت سرسي على روبرت قائلةً: *اذهب للصّيد، أخي يحميني جيّدًا*. تذكّرت ما قالته تاينا قبلًا، وتفجّرت من بين شفتيها ضحكة.

ابتسمت لها الليدي مارچري بفضول، وقالت: «ضحكة جلالتك جميلة للغاية. هلّا أشركتِنا في الدُّعابة؟».

ردَّت الملكة: «ستشتركون فيها، هذا وعد».

دقّت طبول المعركة و(النّصر الحديدي) تتقدّم مسرعةً، يشقُّ مِدكُّها المياه الخضراء المتلاطمة نحو السّفينة الأصغر حجمًا التي تدور أمامهم ومجاذيفها تضرب البحر وعلى راياتها تُرَفرِف الورود؛ من كلّ من المقدّمة والمؤخّرة ترتفع وردة بيضاء على خلفيّةٍ حمراء بشكل المِجَنّ، وفوق صاريتها وردة ذهبيّة على خلفيّةٍ خضراء كالنّجيل. ارتطمَت (النّصر الحديدي) بجانبها بعُنفٍ أفقدَ نِصف رجال فِرقة الاقتحام توازُنهم، وانقصفَت المجاذيف وتشظّت بصوتٍ تردّد في أذني القائد كلحنٍ أخّاذ.

وثبَ من فوق الحاجز وحطّ على السّطح الأدنى ومعطفه الذّهبي يخفق وراء ظهره، فتراجعَت الورود البيضاء كدأب الرّجال الدّائم لدى مرأى ڤيكتاريون جرايجوي مسلّحًا مدرّعًا وقد توارى وجهه تحت خوذة الكراكِن. كانوا يحملون سيوفًا وحِرابًا وفؤوسًا، غير أن تسعةً من كلّ عشرةٍ لا تحميهم دروع، والعاشر لا يرتدي أكثر من قميصٍ من الحلقات المعدنيّة المخيطة. *هؤلاء ليسوا رجالًا حديديّين، ما زالوا يخافون الغرق.*

صاح أحدهم: «نلوا منه! إنه بمفرده!».

وهدرَ ڤيكتاريون مجيبًا: «هلمّوا! تعالوا واقتلوني إن استطعتم!».

من كلّ صوبٍ التفّ محاربو الورود حوله، في أيديهم الفولاذ الرّمادي وفي أعينهم الذُّعر، محسوسٌ ملموسٌ خوفهم لدرجة أنه تذوّقه على لسانه. شِمالًا ويمينًا انهالَ بضرباته شاطرًا ذراع الرّجل الأوّل من عند المِرفق وفالقًا كتف الثّاني، ودفنَ الثّالث رأس فأسه في خشب تُرس ڤيكتاريون الصّنوبري الليّن، فهوى به على وجه الأحمق طارحًا إياه أرضًا، وقتلَه لمّا حاولَ النّهوض.

بينما يُحاوِل انتزاع فأسه من قفص القتيل الصّدري وخزّته حربة بين لوحي الكتفين، فأحسّ كأن أحدًا لطمه على ظهره، ودارَ ڤيكتاريون على عقبيه وهوى بفأسه على رأس حامل الحربة شاعرًا بتأثير الصّدمة في ذراعه إذ شَقَّ الفولاذ الخوذة والشّعر والجمجمة. ترنّح الرّجل لحظةً أو أقلّ، ثم انتزعَ القائد الحديدي فولاذه وترك الجثّة تَسقُط بأطرافٍ مرتخية على سطح السّفينة وهي تبدو سكرانة أكثر من ميتة.

عندها كان رجاله الحديديّون قد تبعوه إلى سطح السّفينة الطّويلة المحطّمة. سمعَ وولف ذا الأذن الواحدة يُطلِق غواءً وهو يبدأ العمل، ولمحَ راجنور پايك في قميصه المعدني الصّدئ، ورأى نيوت الحلّاق يُلقي فأسًا دارَت في الهواء وأصابَت أحد الخصوم في صدره. قتلَ ڤيكتاريون رجلًا آخَر وآخَر، وكان ليقتل ثالثًا على التّوالي، لكن راجنور أرداه أولًا، فجأرَ مخاطبًا إيّاه: «أحسنت القتلة!».

حين التفتَ باحثًا عن ضحيّة فأسه الثّالية أبصرَ الزّبّان الآخَر عبر سطح السّفينة، سترته البيضاء الطّويلة ملوّثة بالدّم الطّازج والمتخثّر، إلّا أن ڤيكتاريون ميّز الرّمز على صدره، الوردة البيضاء على المِجنّ الأحمر، وقد حملَ تُرسه الرّمز نفسه على خلفيّةٍ بيضاء مؤطّرة بشكل شُرفات الحصن. ناداه الزّبّان الحديدي عبر المقتلة بينهما: «أنت! أنت يا حامل الوردة! أأنت سيّد (تُرس الجنوب)؟».

رفعَ الزّبّان الآخَر مقدّمة خوذته ليظهر وجهه الحليق، وأجاب: «ابنه ووريثه، السير تالبرت سيري. ومَن أنت أيها الكراكِن؟».

رَدّ ڤيكتاريون: «موتك»، وانقضّ عليه.

وثبَ سيري يُجابِهه رافعًا سيفه الفولاذي المطرّق في قلعة، وقد جعلَه الفارس الشّاب يُغنّي. كانت ضربته الأولى منخفضةً وتلقّاها ڤيكتاريون على فأسه، وأصابت الثّانية الرُّبّان الحديدي على خوذته قبل أن يرفع تُرسه، فردَّها بضربةٍ جانبيّة من فأسه اعترضَها تُرس سيري لتتطايَر شظايا الخشب وتنشقَّ الوردة البيضاء بالطّول بصوتٍ حاد عذب. هوى السّيف الطّويل على فخذه مرّةً واثنتين وثلاثًا صارخًا مع احتكاكه بفولاذ دِرعه، فقال الرُّبّان الحديدي لنفسه: *الصّبي سريع*، وهوى بتُرسه على وجه سيري دافعًا إياه إلى التّراجُع مترنّحًا إلى الحاجز، ثم رفعَ ڤيكتاريون فأسه واضعًا ثِقله كلّه وراء ضربتها ليفلق جسد الصّبي من العُنق إلى ملتقى الفخذين، لكن سيري دارَ متملّصًا، وانغرسَ رأس الفأس في الحاجز الخشبي مطيّرًا الشّظايا، ولمّا حاولَ ڤيكتاريون انتزاعه وجدَه عالقًا... وتحرَّك ظَهر السّفينة تحت قدميه وسقطَ على رُكبته.

ألقى السير تالبرت تُرسه المهشّم وسدّد ضربةً بسيفه الطّويل، وكان تُرس ڤيكتاريون قد التوى جزئيًا حين سقطَ، فصَدَّ النّصل بقبضةٍ من حديد، ليتحطّم فولاذ قُفّازه المقعّر وتسري في ذراعه طعنة من الألم جعلَته يئنُّ، لكنه ظَلَّ متشبّثًا، وقال: «أنا أيضًا سريع يا فتى»، وانتزعَ السّيف من يد الفارس وألقاه في البحر.

اتّسعت عينا السير تالبرت، وغمغمَ: «سيفي...».

طوّق ڤيكتاريون رقبة الصّبي بقبضته الدّامية قائلًا: «اذهب واعثر عليه»، وألقاه من فوق الحاجز في المياه الملطّخة بالدّماء.

منحه هذا فترة راحةٍ ليُحرِّر فأسه من الخشب. كانت الورود البيضاء تتراجع أمام السَّيل الحديدي، يُحاوِل بعضها الفرار إلى قلب السَّفينة ويَصرخ بعضها متوسِّلًا الرَّحمة. شعرَ ڤيكتاريون بالدَّم الدَّافئ يسيل على أصابعه تحت الحلقات المعدنيَّة والجِلد والفولاذ المقعَّر، لكن هذا لا شيء. حول الصَّارية رأى مجموعةً ملتزَّةً من الخصوم يُواصِلون القتال كتفًا إلى كتفٍ في حلقة، ففكَّر: *هؤلاء القلائل رجال على الأقل، يُؤثِرون الموت على الاستسلام*، ودَقَّ بفأسه على تُرسه وانقضَّ عليهم.

لم يخلق الإله الغريق ڤيكتاريون جرايچوي للقتال بالكلمات في انتخاب الملك، ولا لمغالَبة الأعداء الخفيِّين المتسلِّلين في مستنقعاتٍ بلا نهاية. أمَّا هذا فهو ما وُضِعَ على هذه الأرض لكي يفعله، لأن يقف مدرَّعًا بالفولاذ وفي يده فأس حمراء يَقطر منها الدَّم، مُعملًا الموت مع كلِّ ضربة.

من الأمام والخلف هاجَموه، لكن سيوفهم لم تُصِبه بأذى كأنها غصون صَفصاف. لا نصل يُمكنه النَّفاذ من دِرع ڤيكتاريون جرايچوي الثَّقيلة، ولا أعطى هو غُرماءه فُرصة العثور على نقاط الضَّعف عند المفاصل حيث لا يقيه إلَّا الجِلد وحلقات المعدن. فليُهاجِمه ثلاثة رجال، أو أربعة، أو خمسة، لا فرق. واحدًا تلو الآخر قتلَهم مؤتمنًا فولاذه على حمايته من الآخرين، وإذ سقطَ كلُّ غريمٍ سلَّط ڤيكتاريون ثورته على التَّالي.

لا بُدّ أن آخِر رجلٍ واجهَه حدّاد، فللرّجل كتفان ضخمتان كأكتاف الثّيران وإحداهما مفتولة العضلات أكثر من الثّانية بكثير. ليست دِرعه أكثر من سُترةٍ جِلديّة مرصّعة بالحديد وقبّعة من الجِلد المقوّى، والضّربة الوحيدة التي سدّدها أكملَت دمار تُرس ڤيكتاريون، لكن الضّربة التي ردّ بها القائد شطرَت رأسه نِصفين. *ليتني أستطيع التّعامُل مع عين الغُراب بهذه البساطة*. حين انتزعَ رأس فأسه ثانيةً انفجرَ رأس الحدّاد، وتناثرَت العظام والدّماء وخلايا المُخّ في كلّ مكان، وسقطَت الجثّة إلى الأمام على ساقيه، وفكّر ڤيكتاريون وهو يَخلّص نفسه من الرّجل الميت: *فاتَ أوان توسُّل الرّحمة*.

عندئذٍ كان سطح السّفينة قد صارَ زلِقًا تحت قدميه، وأكوام الموتى والمحتضرين على كلّ جانب. ألقى تُرسه وعبَّ الهواء، وسمعَ الحلّاق يقول من جانبه: «حضرة القائد، النّصر لنا».

حولهم من كلّ جهةٍ امتلأ البحر بالسُّفن، بعضها يحترق وبعضها يغرق وبعضها تحطّم تمامًا، وبين أبدانها المياه زاخرة بالجُثث والمجاذيف المكسورة والرّجال المتمسّكين بالحطام، ومن بعيدٍ نِصف دستةٍ من سُفن الجنوبيّين الطّويلة تهرع صوب نهر (الماندر). *فليذهبوا ويحكوا الحكاية*. ما إن يُولّي الرّجل الأدبار ويفرّ من المعركة لا يعود رجلًا.

كانت عيناه تُؤلِمانه من العرق الذي سالَ فيهما خلال القتال. ساعدَه اثنان من ملّاحيه على حَلّ أربطة خوذة الكراكِن ليرفعها، وجفّف ڤيكتاريون جبهته مدمدمًا: «الفارس، فارس الوردة البيضاء. هل سحبَه أحد من الماء؟». الصّبي ابن لورد ويستحقّ فديةً لا بأس بها، من أبيه إذا نجا اللورد سيري من المعركة، وإن لم يكن فمن وليّ أمره في (هايجاردن).

على أن أحدًا من رجاله لم يرَ ما جرى للفارس بَعد أن سقطَ في الماء، وعلى الأرجح غرِقَ، فقال ڤيكتاريون: «عسى أن ينعم كما قاتلَ في أبهاء الإله الغريق المائيّة». مع أن أهل (جُزر الثُّروس) يقولون عن أنفسهم إنهم بحّارة، فإنهم يجتازون البحر في خوفٍ ويدخُلون المعارك مرتدين ثيابًا خفيفةً خشية الغرق، أمّا سيري الشّاب فمختلف. *رجل شُجاع، يكاد يكون حديديًا*.

أعطى راجنور پايك السّفينة المأسورة واختارَ دستةً من الرّجال لطاقمها، ثم عادَ يصعد إلى سطح سفينته (النّصر الحديدي)، حيث قال لنيوت الحلّاق: «جرِّدوا الأسرى من السّلاح والدُّروع وضمِّدوا جراحهم، وألقوا المحتضرين في البحر. إذا توسّل أحدهم الرّحمة فاذبحوه». لا يَشعر ڤيكتاريون إلّا بالاحتقار نحو أمثالهم، فالمفترَض أن خيرًا لهم أن يغرقوا في مياه البحر من الدّماء. «أريدُ إحصاء الشفن التي ظفرنا بها وجميع الفُرسان وصغار اللوردات الذين أسرناهم، وأريدُ راياتهم كذلك». ذات يومٍ سيعلّقها في قاعته، وعندما يشيخ ويتمكّن منه الوهن سيتذكّر كلّ الأعداء الذين بطشَ بهم وقت أن كان يتمتّع بقوّته وعنفوانه.

ردّ نيوت بابتسامةٍ واسعة: «كما تأمر. إنه انتصار عظيم».

أجل، انتصار عظيم لعين الغُراب وسحرته. سيهتف الزّبانية الآخَرون باسم أخيه من جديدٍ عندما تَبلُغ الأنباء (ثُرس الشنديان). لقد سحرَهم يورون بلسانه المعسول وعينه الباسمة وضمَّهم إلى قضيّته بغنائم من عشرات البلدان البعيدة؛ ذهب وفضّة، ودروع منمّقة وسيوف مقوّسة بقبائع مذهّبة وخناجر من الفولاذ القاليري، وجلود نمورٍ مخطّطة وقططٍ رقطاء، ومانتيكورات من اليَشب وتماثيل أبي هولٍ عتيقة من (قاليريا)، وصناديق من جوز الطّيب والقرنفل والزّعفران، وأنياب من العاج وقرون يونيكورنات، وريش أخضر وبرتقالي وأصفر من (جُزر الصّيف)، ولفائف من الحرير النّاعم والشميت البرّاق... لكن كلّ هذا لا يُذكَر مقارنةً بما أعطاهم إياه الآن. *الآن أعطاهم الغزو وأصبحوا له بلا رجعة*. تركّت الفكرة مذاقًا مُرًّا على لسانه. *هذا انتصاري أنا لا انتصاره. أين هو؟ في (ثُرس الشنديان) يجلس متكاسلًا في قلعة. لقد سرقَ زوجتي وسرقَ عرشي، والآن يسرق مجدي.*

الطّاعة من طباع ڤيكتاريون جرايجوي ومفطور عليها. خلال نشأته في ظِلّ إخوته وقبل بلوغه مبلغ الرّجال تبِعَ بالون بإخلاصٍ في كلّ ما فعلَه، ولاحقًا بَعد مولد أبناء بالون تقبّل مع مرور الوقت حقيقة أنه سيركع لهم أيضًا عندما يحلُّ أحدهم محلّ أبيه على كُرسي حجر اليم. إلّا أن الإله الغريق استدعى بالون وأبناءه إلى أبهائه المائيّة، والآن لا يستطيع ڤيكتاريون أن يدعو يورون بالملك دون أن يذوق المرارة في حلقه.

الرّيح منعشة، وعطشه يتأجّج. دائمًا يشتهي النّبيذ بَعد المعركة، وهكذا سلّم نيوت سطح السّفينة وذهب إلى أسفل، وفي قمرته الضيّقة في المؤخّرة وجدَ المرأة السّمراء مبتلّةً وجاهزةً. ربما أحمت المعركة دماءها أيضًا. أخذَها مرّتين متتاليتين بلا استراحة، ولمّا فرغا كان الدّم يُلطّخ ثدييها وفخذيها وبطنها، لكنه دمه هو النّازف من الجرح البليغ في يده

غسلَته له الشمراء بالخَلّ المغلي، وبينما تركع إلى جواره قال ڤيكتاريون: «الخطّة كانت موفَّقةً، أعترفُ بهذا. (الماندر) مفتوح لنا الآن كما كان من قديم». إنه نهر خامل، واسع وبطيء الجريان ومليء بأخطار غصون الأشجار الساقطة والامتدادات الرّمليّة المرتفعة، وهكذا لا يجرؤ معظم مراكب البحر على الإبحار فيه بَعد (هايجاردن)، لكنّ الشفن الطّويلة بغواطسها المسطّحة بإمكانها الإبحار في اتّجاه التّيار حتى (جسر العلقم).

في سالف الزّمن اعتادَ حديديُّو الميلاد خوض النّهر بجرأةٍ والإغارة على جانبيه وعلى روافده... إلى أن سلّح ملوك الأراضي الخضراء صيّادي الجُزر الأربع الصّغيرة عند مصبّ (الماندر) وسمّوها ثُروسه.

ألفا عامٍ مرّا، لكن في أبراج المراقبة على شواطئ الجُزر الوعرة ما زالَ المسنُّون يقفون حراسةً حتى الآن، وعند أول بادرةٍ للشفن الطّويلة يُشعِل هؤلاء العجائز نيران مناراتهم ويثب النّداء من تلّ إلى تلّ ومن جزيرةٍ إلى جزيرة. *خوف! أعداء! مُغيرون! مُغيرون!* حين يرى الصّيّادون النّار مضطرمةً في البقاع العالية يضعون شباكهم ومحاريثهم جانبًا ويحملون السّيوف والفؤوس، ويهرع سادتهم من قلاعهم وفي صُحبتهم فُرسانهم وجنودهم، وتُدوّي أبواق الحرب عبر الماء من (الثُّرس الأخضر) و(الثُّرس الرّمادي) و(ثُرس السّنديان) و(ثُرس الجنوب)، وتُخرج شفنهم الطّويلة من أحواضها الحجريّة المغطّاة بالطّحالب بطول الشُّطآن، تُومض مجاذيفها بينما تحتشد في المضايق لإغلاق (الماندر) ومطاردة المُغيرين وسياقتهم إلى حتفهم.

أرسلَ يورون كلًّا من تورووولد ذي السّن البنّيّة والملّاح الأحمر يخوضان (الماندر) بدستةٍ من السّفن الطّويلة السّريعة كي يندفع لوردات (جُزر الثّروس) إلى مطارَدتهما، ولدى وصول القوّة الأساسيّة من أسطوله لم تَعُد هناك إلّا حفنة من المُقاتلين المتبقّين للدّفاع عن الجُزر نفسها. أتى الحديديّون مبحرين في تيّار المساء، ليُخفيهم وهج الشّمس الغاربة عن أعيُن المسنّين في أبراج المراقبة حتى يفوت الأوان. كانت الرّياح تهبُّ من ورائهم مِثلما ظلّت منذ إقلاعهم من (ويك القديمة)، وقد سرَت عبر الأسطول همسات تقول إن سحرة يورون لعبوا دورًا كبيرًا في هذا، إن عين الغُراب استرضى إله العواصف بقرابين الدّم، وإلّا كيف كان ليَجسُر على التّوغّل غربًا هكذا بدلًا من الإبحار بمحاذاة السّاحل كما جرَت العادة؟

رسا حديديّو الميلاد بسُفنهم الطّويلة على الأرصفة الحجريّة وتدفّقوا منها في الغسق الأرجواني والفولاذ يَبرُق في أيديهم. عندئذٍ كانت المنارات قد أضيئت في البقاع العالية، ولكن في وجود قلائل يحملون السّلاح. سقطت (الثّرس الرّمادي) و(الثّرس الأخضر) و(ثرس الجنوب) قبل شروق الشّمس، بينما ظلّت (ثرس السّنديان) صامدةً طول نِصف النّهار، وحين تخلّى رجال (جُزر الثّروس) عن مطارَدتهم تورووولد والملّاح الأحمر وعادوا أدراجهم وجدوا الأسطول الحديدي ينتظرهم عند مصبّ (الماندر).

قال للسمراء وهي تُضَمِّد يده بالكتّان: «كلُّ شيءٍ جرى كما قال يورون. لا بُدّ أن سحرته رأوا هذا». إن معه ثلاثةً على متن (الصّمت)، كما باح له كويلون همبل همسًا، رجالًا أغرابًا فُظعاء، لكن عين الغُراب استعبدَهم. واصلَ ڤيكتاريون بإصرار: «لكنه ما زالَ محتاجًا إليّ لخوض المعارك. لا بأس بالسّحرة، لكن الحروب تُربَح بالدّم والفولاذ». جعلَ الخَلُّ ألم جرحه أسوأ من قبل، فدفعَ السّمراء جانبًا وأغلق قبضته بسحنةٍ مكفهرّة، وقال: «أحضِري لي نبيذًا».

شربَ في الظّلام مفكّرًا في أخيه. *إذا لم أوجّه الضّربة بيدي أفما زلت قاتِل أقربين؟* لا يخشى ڤيكتاريون إنسانًا، لكن لعنة الإله الغريق تبعث على التّردُّد. *إذا جندلَه أحد غيري بأمري فهل تلوّث دماؤه يدَي أنا؟* كان آرون ذو الشّعر الرّطب ليعرف الجواب، لكن الرّاهب في مكانٍ ما في (جُزر الحديد)، لا يزال يأمل أن يُجَيِّش الحديديّين ضد ملكهم المتوّج لتوّه. نيوت يُمكنه أن يحلق لحية رجلٍ برمية فأسٍ من بُعد مئة ياردة، ولا أحد من هِجان يورون يقوى على الصّمود ضد وولف ذي الأذن الواحدة أو أندريك اللا مبتسم. بإمكان أيّهم أن يفعلها... لكن ما يستطيع الرّجل أن يفعله شيء وما يقبل أن يفعله شيء مختلف، وهو ما يعلمه ڤيكتاريون.

في (ويك القديمة) تنبّأ آرون قائلًا: «تجديف يورون سيستجلب غضبة الإله الغريق علينا جميعًا. يجب أن نُوقِفه يا أخي. إننا ما زلنا من دم بالون، أليس كذلك؟».

ردّ ڤيكتاريون: «وهو أيضًا. الأمر لا يروقني أكثر منك، لكن يورون الملك. الانتخاب الذي دعوت أنت إليه رفعَه، وبنفسك وضعت تاج الخشب المجروف على رأسه!».

قال الرّاهب والماء يَقطر من طحالب البحر في شَعره: «وضعتُ التّاج على رأسه، وعن طيب خاطرٍ سأنتزعه من عليه وأضعه على رأسك بدلًا منه. أنت الوحيد القوي بما فيه الكفاية لمقاتلته».

قال ڤيكتاريون متذمِّرًا: «الإله الغريق رفعه، فلنترُك الإله الغريق يطيح به».

رماه آرون بنظرةٍ مُهلكة، تلك النّظرة المعروفة بتسميم الآبار وجعل النّساء عواقر، وقال: «ليس الإله من تكلّم. يورون معروف بالاحتفاظ بالسّحرة والمشعوذين البغيضين على سفينته الحمراء. لقد ألقوا تعويذةً بيننا كي لا نسمع البحر. الزّبابنة والملوك أسكرَهم الكلام عن التّنانين».

- «أسكرَهم الكلام وأخافَهم ذلك البوق. أنت سمعت الصّوت الذي خرج منه. لا يهمُّ، يورون مليكنا».

أعلنَ الرّاهب: «ليس مليكي. الإله الغريق يُعين الجسورين لا مَن يتوارون في بطون سُفنهم حين تثور العاصفة. ما دُمت لن تُحرّك ساكنًا لإزاحة عين الغُراب من على كُرسي حجر اليم، فعليّ أن أتولّى هذه المهمّة بنفسي».

- «كيف؟ إنك لا تملك سُفنًا ولا يتبعك جنود».

ردّ الرّاهب: «إن لديّ صوتي، والإله معي. قوّتي قوّة البحر، قوّة لا أمل لعين الغُراب في التّصدّي لها. ربما تتكسّر الأمواج على الجبل، لكنها تظلُّ تأتي موجةٌ عقب موجة، وفي النّهاية لا يتبقّى من الجبل الشّامخ إلّا الحصى، وسرعان ما ينجرف الحصى ويغوص إلى قرار البحر ويفترِشه إلى الأبد».

دمدم ڤيكتاريون: «حصى؟ أنت مجنون إذا كنت تحسب أنك ستطيح بعين الغُراب بالكلام عن الموج والحصى».

قال ذو الشَّعر الرَّطب: «حديديُّو الميلاد سيكونون الموج، ليس العُظماء والسَّادة وإنما البُسطاء الذين يفلحون الأرض ويصطادون من البحر. الرَّبابنة والملوك رفعوا يورون، لكن العامَّة سيُسقِطونه. سأذهبُ إلى (ويك الكُبرى)، إلى (هارلو)، إلى (أوركمونت)، إلى (پايك) ذاتها. في كلِّ بلدةٍ وقريةٍ سيسمعونني. ليس لكافرٍ أن يجلس على كُرسي حجر اليم!»، وهَزَّ رأسه الأشعث وعادَ يَخرج ليغيب في اللَّيل. وحين أشرقَت الشَّمس في اليوم الثَّالي كان آرون ذو الشَّعر الرَّطب قد اختفى من (ويك القديمة)، وحتى رجاله الغرقى لم يعرفوا مكانه، وقالوا إن عين الغُراب اكتفى بالضَّحك حين علمَ.

لكن على الرغم من غياب الرَّاهب ظلَّت تحذيراته الملحَّة في عقل ڤيكتاريون، الذي وجدَ نفسه يستعيد ما قاله له بيلور بلاكتايد أيضًا. «*بالون كان مجنونًا وآرون أكثر جنونًا ويورون الأكثر جنونًا على الإطلاق*». حاولَ اللورد الشَّاب الإبحار إلى دياره بَعد انتخاب الملك رافضًا أن يقبل يورون مولاه، لكن الأسطول الحديدي كان قد أغلقَ الخليج، وعادة الطَّاعة متجذِّرة في ڤيكتاريون جرايجوي، ويورون يعتمر تاج الخشب المجروف، وهكذا استولي على (طيَّار اللَّيل) وأُخِذَ اللورد بلاكتايد إلى الملك مكبَّلًا بالسَّلاسل، ثم قطَّعه بُكم يورون وهِجانه إلى سبعة قِطعٍ لإطعام آلهة الأراضي الخضراء السَّبعة التي كان يَعبُدها.

مكافأةً على خدمته المخلصة، منحَ الملك حديث التتويج ڤيكتاريون المرأة السمراء التي أخذها من سفينة نخّاسين كانت متّجهةً إلى (لِيس)، فقال لأخيه بازدراء: «لا أريدُ شيئًا من فُضالتك»، لكن لمّا قال عين الغُراب إنها ستموت إن لم يأخذها ضعفَت مقاوَمته. لسانها مقطوع، لكنها فيما عدا هذا سليمة، ثم إنها جميلة أيضًا، بشرتها بنّيّة كخشب السّاج المزيّت، غير أنه عندما يَنظُر إليها يجد نفسه أحيانًا يتذكّرُ المرأة الأولى التي منحه أخوه إياها لتصنع منه رجلًا.

أرادَ ڤيكتاريون أن يستعمل السّمراء مرّةً أخرى، لكنه لم يجد في نفسه القُدرة، فقال لها: «أحضِري لي قِربة نبيذ أخرى ثم اخرُجي»، وحين عادَت بقِربةٍ من النّبيذ الأحمر المُر صعدَ بها القائد إلى السّطح ليتنشّق هواء البحر النّظيف. شربَ نِصف القِربة وصَبّ البقيّة في البحر لأجل كلّ من ماتوا.

ظلّت (النّصر الحديدي) راسيةً عند مصبّ (الماندر) ساعات، وبينما أبحرَ الجزء الأكبر من الأسطول الحديدي إلى (تُرس السّنديان) احتفظَ ڤيكتاريون بكلٍّ من (الثّبور) و(اللورد داجون) و(الرّيح الحديد) و(لعنة العذراء) حوله لحراسة المؤخّرة. سحبوا النّاجين من البحر وشاهدوا (اليد القويّة) تغرق ببُطء، يجرُّها إلى أسفل حُطام السّفينة التي دكّتها، ولدى غيابها تحت الماء بلغَ ڤيكتاريون الإحصاء الذي طلبَه، وعرفَ أنه فقدَ ستّ سُفنٍ وأسرَ ثماني وثلاثين. قال لنيوت: «لا بأس. إلى المجاذيف، سنعود إلى (بلدة اللورد هيويت)».

جذَّف ملَّاحوه نحو (ترس السّنديان)، وعادَ الرُّبّان الحديدي إلى قمرته مجدّدًا، حيث قال للسّمراء: «يمكنني أن أقتله، ولو أنه إثم عظيم أن يَقتل المرء مليكه، وإثم أعظم أن يَقتل أخاه»، وقطّب جبينه مردفًا: «كان على آشا أن تُعطيني صوتها». كيف أملَت أن تكسب الرّبابنة والملوك بأكواز الصّنوبر واللّفت؟ في *عروقها دماء بالون، لكنها تظلُّ امرأة*. فرَّت آشا بَعد انتخاب الملك. ليلة وُضِعَ تاج الخشب المجروف على رأس يورون ذابَت هي وطاقمها، وفي أعماق ڤيكتاريون جزء صغير مسرور لهذا. *إذا احتفظَت الفتاة بعقلها فستتزوّج أحد لوردات الشّمال وتحيا معه في قلعته بعيدًا عن البحر ويورون عين الغُراب*.

نادى أحد رجال الطّاقم: «(بلدة اللورد هيويت) يا حضرة القائد».

نهضَ ڤيكتاريون. كان النّبيذ قد خفّف نبض الألم في يده. ربما يجعل المايستر الذي يخدم هيويت يُلقي نظرةً عليها إذا لم يكن قد قُتِلَ. عادَ إلى السّطح بينما يدورون حول لسانٍ من اليابسة، ورأى قلعة اللورد هيويت مستقرّةً فوق الميناء فذكّرته بـ(لوردزبورت)، مع أن هذه البلدة تَبلُغ ضِعفها مساحةً. بَعد الميناء يخوض نحو عشرين من الشّفن الطّويلة المياه وعلى ذيولها يتلوّى الكراكِن الذّهبي، في حين ترسو مئات أخرى بطول الأرصفة مربوطةً بالحبال، وعند رصيف حجري ثمّة ثلاثة أكواج عظيمة ودستة من الأكواج الأصغر تُحمَّل بالغنائم والمؤن. أمرَ ڤيكتاريون بأن تُلقي (النّصر الحديدي) مرساتها، وقال لرجاله: «جهّزوا لي قاربًا».

بدت البلدة هادئةً على نحوٍ غريب مع اقترابهم. معظم المحال والمنازل نُهِبَ كما تشهد الأبواب المحطّمة والنّوافذ المهشّمة، لكن وحده السّبت أحرِقَ، وفي الشّوارع تتناثر الجثث، كلٌّ منها يتحلّق حوله سرب صغير من غِربان الجيف. راحت مجموعة من النّاجين العابسين تتحرّك بينها طاردةً الطّيور السّوداء وملقيةً الموتى على ظهر عربةٍ ليُؤخَذوا إلى المدافن، وهو ما أفعمَ ڤيكتاريون بالازدراء، فلا ولد حقيقيًا للبحر يرغب في أن يتعفّن في باطن الأرض، وإلّا فكيف سيَعثُر على أبهاء الإله الغريق المائيّة لينعم بالمأكل والمشرب أبد الدّهر؟

من بين الشّفن التي مرّوا بها (الصّمت). انجذبَت نظرة ڤيكتاريون إلى تمثال المقدّمة الحديدي، الفتاة عديمة الفم ذات الشّعر الذي يَهَفهِف في الرّيح والذّراع الممدودة، وقد بدا كأن عينيها المصنوعتين من عِرق اللّؤلؤ تتبعانه، فقال لنفسه: *كان لها فم كأيّ امرأةٍ أخرى، إلى أن خاطه عين الغراب وأغلقه.*

مع دنوّهم من الشّاطئ لاحظ مجموعةً من النّساء والأطفال المصفوفين على متن أحد الأكواخ العظيمة، بعضهم يداه مقيّدتان وراء ظَهره، وحول أعناقهم جميعًا حبال من القنّب. سألَ الرّجال الذين ساعدوا على ربط القارب: «مَن هؤلاء؟».

- «أرامل وأيتام، سيُباعون كعبيد».

- «يُباعون؟». ليس في (جزر الحديد) عبيد، بل أقنان فقط، والقِنُّ ملزَم بالخدمة لكنه ليس ملكًا لسيّده، ويُولَد أطفاله أحرارًا شريطة أن يُعطَوا للإله الغريق، ثم إن الأقنان لا يُشترون أو يُباعون بالذّهب أبدًا، فعلى الرّجل أن يدفع الثّمن الحديدي مقابلهم وإلّا فلا أقنان له على الإطلاق. قال متبرّمًا: «المفترَض أن يكونوا أقنانًا أو زوجاتٍ ملحيّات».

ردّ الرّجل: «هذا أمر الملك».

قال نيوت الحلّاق: «الأقوياء يأخذون من الضّعاف دومًا. أقنان أو عبيد، لا فرق. رجالهم لم يستطيعوا الدّفاع عنهم، والآن أصبحوا لنا لنفعل بهم ما نشاء».

كان ليقول: *ليس هذا النّهج القديم*، ولكنه لم يجد وقتًا، إذ سبقته أخبار انتصاره واحتشد الرّجال حوله يُقدّمون له التّهاني. تركهم ڤيكتاريون يُداهِنونه، إلى أن بدأ أحدهم يُثني على جرأة يورون، فزمجرَ: «جرأة حقًّا أن نُبحِر بعيدًا عن اليابسة كي لا تَبلُغ كلمة عن مجيئنا هذه الجُزر القابعة أمامنا، لكن عبور نِصف العالم لصيد الثّنانين شيء آخر»، ولم ينتظِر ردًّا بل تحرّك شاقًّا طريقه في الزّحام وصعدَ إلى القلعة.

قلعة اللورد هيويت صغيرة لكن قويّة، أسوارها سميكة وبوّابتها المصنوعة من السّنديان المدعّم بالحديد تستدعي إلى الذّهن رمز عائلته العريق، المِجَنّ السّندياني المطعّم بالحديد على خلفيّة من الأزرق والأبيض المتموّجين. على أن كراكِن عائلة جرايچوي هو ما يخفق فوق الأبراج ذات السّطوح الخضراء الآن، ووجدوا البوّابة العظيمة محروقةً محطّمةً، وفي الشّرفات يمشي الحديديّون حاملين الحِراب والفؤوس، بالإضافة إلى بعض هِجان يورون.

في السّاحة وجدَ ڤيكتاريون جورولد جودبراذر ودروم العجوز يتكلّمان بهدوءٍ مع رودريك هارلو. أطلق نيوت الحلّاق صيحةً هازئةً لمرآهم، ونادى: «أيها القارئ، لماذا الوجه العابس؟ هواجسك كانت بلا داعٍ. النّصر لنا، ولنا الغنائم!».

زمّ اللورد رودريك فمه قائلًا: «تعني هذه الصّخور؟ أربعتها معًا أصغر من (هارلو). لم نفُز إلّا ببعض الأحجار والأشجار والخِلج الزّخصية، وعداوة عائلة تايرل».

قال نيوت ضاحكًا: «الورود؟ وما الوردة التي بإمكانها إيذاء كَراكِن الأعماق؟ لقد سلبناهم ثروسهم وحطّمناها تحطيمًا. مَن يحميهم الآن؟».

ردّ القارئ: «(هايجاردن). قريبًا ستحتشد قوّات (المرعى) كلُّها ضدنا أيها الحلّاق، وعندها قد تتعلّم أن لبعض الورود أشواكًا من فولاذ».

أومأ دروم برأسه موافقًا وقد استقرّت يده على مقبض سيفه (المطر الأحمر)، وقال: «اللورد تارلي يحمل السّيف العظيم (آفة القلوب) المصنوع من الفولاذ القاليري، ودائمًا يقود طليعة جيش اللورد تايرل».

قال ڤيكتاريون وقد اشتعلّت غضبته: «فليأتِ. سآخذ سيفه لنفسي مِثلما أخذ سلفك (المطر الأحمر). فليأتوا جميعًا ويجلبوا آل لانستر معهم أيضًا. ربما تكون للأسد السّطوة على اليابسة، لكن في البحر للكراكِن السّيادة المطلقة». يُمكنه أن يتخلّى عن نِصف أسنانه لقاء فُرصةٍ لتجربة فأسه ضد قاتِل الملك أو فارس الزُّهور. هذا هو نوع المعارك الذي يفهمه. قاتِل الأقربين ملعون عند الآلهة والبَشر، لكن المُحارب مكرّم موقَّر.

قال القارئ: «لا تخف يا حضرة القائد، سيأتون. جلالته يتمنّى هذا، وإلّا فلِمَ أمرَنا بترك غِدفان هيويت تُحلّق؟».

قال نيوت: «تقرأ كثيرًا للغاية وتُقاتِل قليلًا للغاية. إن دماءك حليب»، لكن القارئ تظاهرَ بأنه لم يسمع.

كانت في القاعة مأدبة صاخبة عندما دخلَ ڤيكتاريون، يحتشد حديديّو الميلاد على الموائد يشربون ويتصايحون ويتدافعون ويتباهون بقتلاهم ومآثرهم وما سلبوه، وقد تحلَّى كثيرون منهم بالغنائم، فارتدى لوكاس كود الأعسر وكويلون همبل معطفين من المعلّقات التي انتزعاها من على الحوائط، ووضع جرموند بوتلي عِقدًا من اللُّؤلؤ والعقيق الأحمر فوق واقي صدره المذهّب الذي كان لأحد قادة لانستر، وتحرَّك أندريك اللا مبتسم مترنِّحًا ومطوِّقًا بكلٍّ من ذراعيه امرأةً، وعلى الرغم من أنه ظَلَّ غير مبتسم فعلى أصابعه كلِّها خواتم، وبدلًا من الصِّحاف المصنوعة من الخُبز الجامد البائت كان الزَّبانية يأكلون من أطباقٍ من الفضَّة الخالصة.

اربدَّ وجه نيوت الحلّاق غضبًا إذ تطلَّع حوله، وقال: «يُرسِلنا عين الغُراب لمواجهة الشفن الطَّويلة فيما يأخذ رجاله القلاع والقُرى ويستولون على الغنائم والنِّساء. ماذا ترك لنا؟».

- «المجد لنا».

- «لا بأس بالمجد، لكن الذَّهب أفضل».

هَزَّ ڤيكتاريون كتفيه قائلًا: «عين الغُراب يقول إننا سننال (وستروس) كلَّها. (الكرمة)، (البلدة القديمة)، (هايجاردن)... هناك ستجد الذَّهب. لكن كفى كلامًا، إنني جائع».

بحقِّ الدَّم كان ڤيكتاريون ليتَّخذ مقعدًا على المنصَّة، لكنه لا يرغب في الأكل مع يورون ومخلوقاته، وبدلًا من هذا اختارَ مكانًا إلى جوار رالف الأعرج زبّان (اللورد كويلون).

قال له الأعرج: «نصر عظيم يا حضرة القائد، نصر يستحقُّ لورديَّة. المفترَض أن تنال إحدى الجُزر».

اللورد ڤيكتاريون، أجل، ولِمَ لا؟ ربما لا يحظى بكُرسي حجر اليم، لكن ذلك أفضل من لا شيء.

كان هوثو هارلو جالسًا قُبالتهما على الطّاولة ينهش اللّحم من على عظمة، ثم إنه ألقاها جانبًا ومالَ إلى الأمام قائلًا: «الفارس سينال (الثّرس الرّمادي)، هل سمعت؟».

أجابَ ڤيكتاريون: «لا»، وتطلّع عبر القاعة إلى حيث يجلس السير هاراس هارلو يشرب النّبيذ من كأس ذهبيّة. الفارس رجل مديد القامة، له وجه طويل وقسمات صارمة. «لماذا يمنح يورون أحدًا مِثله جزيرة؟».

رفعَ هوثو كأسه الفارغة لتملأها له شابّة شاحبة في فُستانٍ من المخمل الأزرق وشرائط الزّينة المذهّبة، وقال: «الفارس استولى على (جريمستن) بنفسه، غرسَ رايته عند القلعة وتحدّى آل جريم أن يُواجِهوه، فتحدّاه أحدهم، ثم آخر وآخر، وقتلَهم جميعًا... أو ما يَقرُب من هذا، اثنان منهم استسلَما. حين سقطَ الرّجل السّابع حزمَ سِيتون اللورد جريم أمره وأعلنَ أن الآلهة قالت كلمتها وسلّم القلعة»، وضحك هوثو مواصلًا: «سيصير سيّد (الثّرس الرّمادي)، وهنيئًا له بها. في غيابه أصبحُ أنا وريث القارئ»، ودقّ صدره بكأسه، وأضافَ: «هوثو الأحدب، سيّد (هارلو)».

- «تقول سبعة؟». تساءلَ ڤيكتاريون في قرارة نفسه كيف يُمكن أن يُبلي سيف الفارس المسمّى (غُروب) في مواجَهة فأسه. إنه لم يُقاتِل رجلًا يحمل سيفًا من الفولاذ الڤاليري قَطّ، وإن كان قد غلبَ هاراس هارلو مرّاتٍ عدّة في صِباهما. في صِغره كان هارلو صديقًا صدوقًا لروودريك أكبر أبناء بالون، الذي ماتَ عند أسوار (سيجارد).

المأدبة جيّدة، أفضل ما فيها النّبيذ، وهناك أيضًا لحم ثيرانٍ مشوي، دامٍ وغير تام الاستواء، بالإضافة إلى بطّ محشو ودلاء من السّراطين الطّازجة. لم يغب عن عينَي حضرة الزّبّان القائد أن الخادمات يرتدين ملابس مترفةً من الصّوف والمخمل، وفي البداية حسبهن مساعِدات طبّاخ في ثياب الليدي هيويت ورفيقاتها، إلى أن أخبَرَه هوثو بأنهن الليدي هيويت ورفيقاتها أنفسهن، إذ طابَ لعين الغُراب أن يجعلهن يقدّمن الطّعام ويصبّبن الشّراب. هناك ثمانية منهن؛ حضرة الليدي نفسها التي لا تزال حسناء على الرغم من امتلاء قوامها، وسبعة أخريات أصغر منها، تتراوح أعمارهن من الخامسة والعشرين إلى العاشرة، بناتها وزوجات أبنائها.

اللورد هيويت نفسه جالس في مكانه المعتاد على المنصّة مرتديًا أفخر ثيابه التي تحمل رمز وألوان عائلته، لكن ذراعيه وساقيه مقيّدة إلى مقعده، وثمّة حبّة فجل بيضاء ضخمة مدسوسة بين أسنانه لمنعه من الكلام... ولو أنه يرى ويسمع. اتّخذ عين الغُراب موضع الشّرف إلى يمين حضرة اللورد، وقد جلست فتاة حسناء عامرة الصّدر في السّابعة أو الثّامنة عشرة في حِجره حافية القدمين منفوشة الشّعر واضعةً ذراعيها حول عنقه. سألَ ڤيكتاريون الرّجال المحيطين به: «مَن هذه؟».

أجابَه هوثو ضاحكًا: «ابنة حضرة اللورد النّغلة. قبل استيلاء يورون على القلعة كانت مرغمةً على خدمة الآخَرين على المائدة وأكل وجباتها مع الخدم».

وضعَ يورون شفتيه الزَّرقاوين على حَلقها، فقهقهَت الفتاة وهمسَت بشيءٍ ما في أذنه، ليبتسم ويُقبِّل حَلقها ثانيةً. كانت العلامات الحمراء تُغطِّي بشرتها البيضاء حيث قبَّلها، وتصنع قلادةً ورديَّةً حول رقبتها وكتفيها. همسة أخرى في الأذن دفعَت عين الغُراب إلى الضَّحك بصوتٍ عالٍ هذه المرَّة، ثم إنه دَقَّ المائدة بكأسه آمرًا بالصَّمت، ونادى خادماته رفيعات النَّسب قائلًا: «سيِّداتي الكريمات، فاليا قلقة على فساتينكن الأنيقة ولا تُريدها أن تتَّسخ بالدُّهون والنَّبيذ والأصابع القذرة التي تتحسَّسكن، لأني وعدتها بأن تختار ثيابها من أصونتكن بَعد المأدبة. الأفضل أن تخلعنها إذن».

دوَّى الضَّحك الهادر في أنحاء القاعة الكبيرة، واحتقنَ وجه اللورد هيويت لدرجة أن ڤيكتاريون حسبَ أن رأسه سينفجر. لم تجد النِّساء خيارًا إلَّا الطَّاعة، وبكَت أصغرهن قليلًا لكن أمَّها واسَتها وحلَّت الأربطة على ظَهر فُستانها، وبَعدها تابعن الخدمة كما من قبل وتحرَّكن بين الموائد بأباريق النَّبيذ لمَلء الكؤوس الفارغة، مع فرق أنهن يفعلن هذا عارياتٍ الآن.

فكَّر القائد متذكِّرًا الزَّوجة التي سالَت دموعه وهو يضربها: يذلُّ هيويت *كما ذلَّني من قبل*. يعلم أن أهل (الثُّروس الأربعة) يتزوَّج بعضهم بعضًا غالبًا مِثل حديديِّي الميلاد، وربما تكون واحدة من هؤلاء الخادمات العاريات زوجة السير تالبرت سيري. أن تَقتُل عدوَّك شيء وأن تُهين شَرفه شيء آخر. كوَّر ڤيكتاريون قبضته وقد تلوَّثت يده بدماء جرحه التي تغلغلَت في كتَّان الضِّمادة.

على المنصَّة دفعَ يورون مومسه جانبًا ووقفَ فوق المائدة، فبدأ الزَّبانية يدقُّون الموائد بالكؤوس والأرض بالأقدام هاتفين: «*يورون! يورون! يورون! يورون!*»، كأنه انتخاب الملك ثانيةً.

حين هدأت الجلبة قال عين الغُراب: «أقسمتُ أن أعطيكم (وستروس)، وهاكم أول مذاقٍ منها، لُقيمة لا أكثر... لكننا سنأكل الوليمة قبل أن يحلّ اللّيل!». على الجُدران تتوهّج المشاعل وضّاءةً، وكذا هو بشفتيه الزّرقاوين وعينه الزّرقاء وجسده كلّه. «ما يُطبِق عليه الكراكِن لا يُفلِته. هذه الجُزر كانت لنا من قبل، والآن عادَت لنا من جديد... لكننا نحتاج إلى رجالٍ أقوياء للحفاظ عليها، فانهض أيها السير هاراس هارلو سيّد (الثُّرس الرّمادي)». نهضَ الفارس مريحًا يده على قبيعة سيفه (غُروب) المصنوعة من أحجار القمر، وتابعَ يورون: «انهض يا أندريك اللا مبتسم سيّد (ثُرس الجنوب)»، فدفعَ أندريك امرأته جانبًا وهبَّ واقفًا كجبلٍ يرتفع على حين غرّةٍ من البحر. «انهض يا مارون ڤولمارك سيّد (الثُّرس الأخضر)»، فنهضَ ڤولمارك الصّبي الحليق ذو السّتة عشر عامًا باديًا كأنه سيّد الأرانب. «وانهض يا نيوت الحلّاق سيّد (ثُرس السّنديان)».

اكتسَت نظرة نيوت بالحذر كأنه يخشى أن يكون مرمى دُعابةٍ قاسية، وتساءلَ: «أنا لورد؟».

كان ڤيكتاريون يتوقّع أن يمنح عين الغُراب اللورديّات لمخلوقاته، مِثل ذي اليد الحجر والملّاح الأحمر ولوكاس كود الأعسر. حاولَ أن يقول لنفسه: *على الملك أن يكون سخيًا*، إلّا أن صوتًا مختلفًا همسَ: *هدايا يورون مسمومة*. لمّا دوّر الخاطر في رأسه رأى الأمر بوضوح. *الفارس كان وريث القارئ المختار، وأندريك اللا مبتسم ذراع دنستان دروم اليُمنى القويّة، وڤولمارك صبيّ غرير لكن دماء هارن الأسود في عروقه من خلال أمّه، والحلّاق...*

أمسكَه ڤيكتاريون من ساعِده قائلًا: «ارفُض!».

رمقَه نيوت كأن صوابه طارَ، وردّ: «أرفض؟ الأراضي واللورديّة؟ هل سترفعني أنت إلى مصافّ اللوردات؟»، وانتزعَ ذراعه وقامَ يتنعّم بهتاف الهاتفين.

والآن يسرق رجالي.

نادى الملك يورون الليدي هيويت طالبًا كأسًا جديدةً من النّبيذ، ثم إنه رفعَها عاليًا فوق رأسه، وصاح: «أيها الرّبابنة والملوك، ارفعوا كؤوسكم لسادة (الثّروس الأربعة)!».

شربَ ڤيكتاريون مع البقيّة مفكّرًا: *لا خمر بحلاوة الخمر المأخوذة من عدوّ.* أحدهم قال له هذا في مرّة، أبوه أو أخوه بالون. *ذات يومٍ سأشربُ نبيذك يا عين الغُراب وآخذُ كلّ ما تعدُّه عزيزًا.* لكن هل من شيءٍ يعدّه يورون عزيزًا؟

كان الملك يقول: «غدًا نستعدُّ للإبحار من جديد. أعيدوا مَلء براميلنا بمياه الينابيع، وخُذوا كلّ جوالٍ من الحبوب وكلّ برميلٍ من لحم الأبقار وكلّ ما نستطيع أن نحمل من الماعز والخراف. الجرحى الذين ما زالوا يتمتّعون بعافيةٍ تكفي لتحريك المجاذيف سيُجَدِّفون، وسيظلُّ الباقون هنا للمساعَدة على حِفظ هذه الجُزر لسادتها الجُدد. قريبًا سيعود توروولد والملّاح الأحمر بالمزيد من المؤن. ستفوح من سُفننا روائح الخنازير والدّجاج الكريهة في الطّريق شرقًا، لكننا سنعود بالتّنانين».

سمعَ ڤيكتاريون صوت اللورد رودريك يقول: «متى؟ متى سنعود يا جلالة الملك؟ بَعد عام؟ ثلاثة أعوام؟ خمسة؟ تنانينك تلك تَبعُد عنا عالمًا كاملًا، والخريف حَلّ»، وتقدّم القارئ معدّدًا المخاطر كلّها: «القوادس تَحرُس (بوغاز ردواين). الشّاحل الدورني جافٌّ مقفر، أربعمئة فرسخٍ من الدّوّامات والجُروف والمياه الضّحلة الخفيّة، وبالكاد بُقعة تُصلُح لرسوٍ آمن. وبَعد هذا تنتظر (الأعتاب) بعواصفها وأوكار القراصنة اللايسينيّين والمايريّين. إذا أبحرَت ألف سفينة فربما تَبلُغ ثلاثمئة الجانب البعيد من (البحر الضّيّق)... ثم ماذا؟ (لِيس) لن تُرحِّب بنا، ولا (ڤولانتيس). أين ستجد الماء العذب والطّعام؟ أول عاصفةٍ نُواجِهها ستُشتّتنا وتُنثرنا عبر نِصف العالم».

تلاعبت ابتسامة على شفتي يورون الزّرقاوين إذا قال: «أنا العاصفة يا سيّدي، العاصفة الأولى والأخيرة. لقد أخذتُ (الصّمت) في رحلاتٍ أطول من هذه وأخطر مرارًا. هل نسيت؟ لقد أبحرتُ في (بحر الدّخان) ورأيتُ (ڤاليريا)».

كلُّ رجلٍ حاضر يعلم أن الشلطة المطلقة لا تزال للهلاك في (ڤاليريا). هناك تغلي مياه البحر ذاته وينبعث منها الدّخان، واليابسة تجتاحها الشّياطين، ويُقال إن أيّ بحّارٍ يرى ولو لمحةً من جبال (ڤاليريا) النّاريّة ترتفع فوق الموج سرعان ما تحيق به ميتة شنعاء، لكن عين الغُراب ذهبَ إلى هناك وعاد.

بمنتهى الهدوء سأله القاريّ: «حقًّا؟».

اختفت ابتسامة يورون الزُّرقاء، وفي الشكون الذي خيّم قال: «أيها القاريّ، خيرٌ لك أن تُبقي أنفك مدسوسًا في كُتُبك».

شعرَ ڤيكتاريون بالتّوتُّر في القاعة، فنهضَ قائلًا بصوتٍ جهوري: «أخي، إنك لم تُجب أسئلة هارلو».

هَزَّ يورون كتفيه، وقال: «أسعار العبيد ترتفع. سنبيع عبيدنا في (لِيس) و(ڤولانتيس). مقابلهم بالإضافة إلى ما أخذناه من هنا من غنائم سيكون معنا ذهب يكفي لشراء المؤن».

سألَه القاريّ: «أنحن نخّاسون الآن؟ ومن أجل ماذا؟ تنانين لا أحد هنا رآها؟ هل سنطارِد وهم بحّارٍ سكران إلى أطراف الأرض؟».

استدرّت كلماته همهمات التّأييد. رفعَ رالف الأعرج صوته قائلًا: «(خليج النّخّاسين) بعيد للغاية»، وصاح كويلون همبل: «وقريب للغاية من (ڤاليريا)»، وقال فرالج القوي: «(هايجاردن) قريبة. رأيي أن نبحث عن الثنانين هناك، التّنانين الذّهب!»، وأضافَ آلڤن شارپ: «لماذا نُبحِر عبر العالم و(الماندر) مفتوح أمامنا؟»، وهبّ رالف ستونهاوس الأحمر معلنًا: «(البلدة القديمة) أغنى، و(الكرمة) أغنى وأغنى. أسطول ردواين بعيد، وما علينا إلّا أن نمدّ يدنا لنقطف أينع ثمرةٍ في (وستروس)».

قال الملك وقد بدَت عينه سوداء أكثر من زرقاء: «ثمرة؟ لا يسرق الثمار بينما يستطيع الاستيلاء على البُستان كلّه إلّا جبان».

قال رالف الأحمر: «نُريد (الكرمة)»، وسرى الهتاف بين الرِّجال الآخَرين، فترك عين الغُراب صيحاتهم تغمره، ثم وثبَ من فوق المائدة وأخذَ المومس من ذراعها وسحبَها خارجًا من القاعة.

هربَ *كالكلاب*. لم تَعُد سيطرة يورون على كُرسي حجر اليم تبدو محكمةً كما كانت قبل دقائق قليلة. *لن يتبعوه إلى (خليج النخاسين). ربما ليسوا كلابًا حمقى كما خشيتُ*. الفكرة لذيذة لدرجة أن ڤيكتاريون اضطرّ إلى ازدرادها بالنبيذ، فشربَ كأسًا مع الحلّاق ليُريه أنه لا يحسده على لورديّته، حتى إذا جاءت من يد يورون.

كانت الشّمس قد غربَت في الخارج وتوغّل الظّلام وراء الأسوار، لكن في الدّاخل تُضيء المشاعل بوهجٍ بُرتقالي ضارب إلى الحُمرة ويتكاثف دُخانها تحت عوارض السّقف كسحابةٍ رماديّة. بدأ السّكرانون يَرقُصون رقصة الأصابع، وفي لحظةٍ ما قرّر لوكاس كود الأعسر أنه راغب في إحدى بنات اللورد هيويت، وأخذَها هناك على مائدةٍ بينما صرخَت أخواتها وانتحبن.

شعرَ ڤيكتاريون بتربيتةٍ على كتفه. كان أحد هِجان يورون واقفًا وراءه، صبيٌ في العاشرة له شَعر كالصّوف وبشرة بلون الطّمي قال له: «أبي يُريد أن يتكلّم معك».

قامَ ڤيكتاريون بلا ثبات. على الرغم من كونه رجلًا كبير الحجم وقادرًا على شُرب الكثير من النّبيذ فقد شربَ أكثر من اللّازم بالفعل. *ضربتها حتى الموت بيدَي، لكن عين الغُراب هو من قتلَها عندما ولَجها. لم أملك خيارًا.* تبعَ الصّبي النّغل من القاعة وصعدَ وراءه سلالم حجريّةً ملتفّةً، ومع صعودهما خفتت أصوات الاغتصاب والمرح الصّاخب، إلى أن لم يَعُد هناك إلّا صوت احتكاك نعالهما بالحجر.

علاوةً على ابنته النّغلة أخذَ عين الغُراب غُرفة نوم اللورد هيويت أيضًا، ولمّا دخلَ ڤيكتاريون كانت الفتاة متمدّدةً عاريةً على الفِراش وتغطّ بصوتٍ خافت، في حين وقفَ يورون عند النّافذة يشرب من كأسٍ فضّيّة، وقد ارتدى معطف فرو السّمُّور الذي أخذَه من بلاكتايد وزُقعة عينه الجِلديّة الحمراء ولا شيء غيرهما. أعلنَ قائلًا: «في صِباي حلمتُ بأنني أستطيعُ الطّيران، وحين استيقظتُ لم أستطِع... أو أن هذا ما قاله المِايستر. لكن ماذا لو أنه كذبَ؟».

كان ڤيكتاريون يشمُّ رائحة البحر الدّاخلة من النّافذة المفتوحة مع أن الغُرفة تُفعِمها روائح النّبيذ والدّم والجنس، وساعدَ الهواء المالح البارد على صفاء دماغه إذ سألَ: «ماذا تعني؟».

التفتَ يورون يُواجِهه، والتوَت شفتاه الزّرقاوان المكدومتان في ابتسامةٍ صغيرة وهو يُجيب: «ربما نستطيع الطّيران كلُّنا. كيف سنعرف ما لم نقفز من بُرجٍ شاهق؟». هبّت الرّيح من النّافذة محرّكةً معطفه، وكان في غريه شيء ما فاحش مزعج. «لا أحد يدري ما يقدر على فِعله حقًّا ما لم يجرؤ على القفز».

- «ها هي النّافذة. اقفز». لا يملك ڤيكتاريون صبرًا على هذا، كما أن يده الجريحة تُؤلمه. «ماذا تُريد؟».

- «العالم». في عين يورون يلتمع نور النّار. عينه *الباسمة*. «هل تشرب كأسًا من نبيذ اللورد هيويت؟ لا خمر بحلاوة الخمر المأخوذة من عدوٍّ مهزوم».

أجابَ ڤيكتاريون: «لا»، وأشاح بنظره مضيفًا: «غطِّ نفسك».

جلسَ يورون وشدَّ معطفه ليُغطّي عورته، وقال: «كنتُ قد نسيتُ أن رجالي الحديديِّين قوم ضآل مزعجون. أريدُ أن آتيهم بالتّنانين فيزعقون طالبين العنب».

- «العنب حقيقي ملموس ويستطيع المرء أن يلتهم ما يشاء منه، ثم إن عصيره حلو ويُصنَع منه النّبيذ. ما الذي تصنعه التّنانين؟».

أجابَ عين الغراب: «الويل»، ورشفَ من كأسه الفضّة، وتابعَ: «في مرّة حملتُ بيضة تنّينٍ بيدي هذه يا أخي. ذلك السّاحر المايري أقسمَ أنه يستطيع أن تجعلها تفقس إذا أمهلته عامًا وأعطيته كلّ ما يتطلّب من ذهب. حين مللتُ أعذاره قتلته، وبينما رأى أحشاءه تنزلق بين أصابعه قال: *لكن عامًا لم يمضِ!*»، وضحك مردفًا: «هل تعلم أن كراجورن مات؟».

- «مَن؟».

- «الرّجل الذي نفخَ في بوق التّنانين. حين فتحَ المايستر صدره وجدَ رئتيه متفحّمتين مسودّتين كالشّخام».

مرتجفًا قال ڤيكتاريون: «أرِني بيضة التنّين هذه».

- «رميتها في البحر في خلال إحدى نوبات غضبي»، وهزَّ يورون كتفيه متابعًا: «يبدو لي أن القارئ ليس مخطئًا. إذا كان الأسطول أكبر من اللّازم فلن يستطيع التّماسك طيلة تلك المسافة. الرّحلة طويلة جدًّا وخطيرة جدًّا، ولا أمل إلّا لأفضل سفننا وأطقمنا في الإبحار إلى (خليج النّخّاسين) ثم الإياب، الأسطول الحديدي».

فكّر ڤيكتاريون: *الأسطول الحديدي لي*، لكنه لم يقل شيئًا.

ملأ عين الغُراب كأسين بنبيذٍ أسود غريب قوامه ثخين كالعسل، وقال: «اشرب معي يا أخي، تذوّق هذا»، ومَدّ يده لفيكتاريون بإحدى الكأسين.

التقطَ فيكتاريون الكأس التي لم يَقدّمها يورون وتشمّم محتوياتها بارتياب. من قُرب يبدو الشّراب أقرب إلى الأزرق من الأسود، وله منظر زيتي خاثر ورائحة كالأسماك المتعفّنة. جرّب رشفةً صغيرةً بصقها من فوره، وقال: «شراب كريه. هل تُريد أن تُسمّمني؟».

ردّ يورون: «أريدُ أن أفتح عينيك»، وجرعَ من كأسه، ثم ابتسمَ مواصلًا: «صبغة المساء، خمر الدّجّالين. وجدتُ برميلًا منها عندما استوليتُ على قاليون معيّن من (كارث)، بالإضافة إلى القليل من القرنفل وجوز الطّيب وأربعين لفّةً من الحرير الأخضر وأربعة دجّالين حكوا حكايةً تُثير الاهتمام. أحدهم تجرّأ على تهديدي فقتلته وأطعمتُ الثّلاثة الآخرين إياه. في البدء رفضوا أكل لحم صديقهم، لكن حين استبدّ بهم الجوع غيّروا رأيهم. البَشر لحم».

بالون كان مجنونًا وآرون أكثر جنونًا ويورون الأكثر جنونًا على الإطلاق. كان فيكتاريون يلتفت ليُغادِر عندما قال عين الغُراب: «يجب أن تكون للملك زوجة تمنحه ورثة. إنني في حاجةٍ إليك يا أخي. هل تذهب إلى (خليج النّخّاسين) وتعود إليّ بحبيبتي؟».

تكوّرت قبضتا فيكتاريون وسقطَت قطرة دماءٍ على الأرض إذ قال في قرارته: *كانت لي حبيبة ذات يومٍ أيضًا. يَجدُر بي أن أبرّحك ضربًا وأطعمك للشراطين كما فعلتَ بها*. أجابَ أخاه: «إن لك أبناءً».

- «هِجان نغول، أبناء العاهرات والنّائحات».

- «لقد خرجوا من جسدك».

- «وكذا محتويات وعاء فضلاتي. لا أحد منهم يَصلُح للجلوس على كُرسي حجر اليم، ناهيك بالعرش الحديدي. لا، إنني محتاج إلى امرأةٍ مختلفة كي أنجب وريثًا يليق به (هو). حين يتزوّج الكراكِن التنّينة يا أخي فليحذر العالم كلُّه».

تساءلَ ڤيكتاريون مقطِّبًا جبينه: «أيّ تنّينة؟».

- «آخِر سلالتها. يقولون إنها أجمل امرأةٍ في العالم، إن شَعرها ذهب وفضّة وعينيها جَمَشت... لكنك لست مضطرًّا إلى تصديق كلمتي يا أخي. اذهب إلى (خليج النخّاسين) واطّلع على جَمالها بنفسك وارجع إليّ بها».

سأله ڤيكتاريون: «ولِمَ أفعلُ ذلك؟».

- «لأجل الحُب، لأجل الواجب، لأن مليكك أمرَك»، وقهقه يورون مضيفًا: «ولأجل كُرسي حجر اليم. إنه لك حالما أرتقي العرش الحديدي. ستتبعني كما تبعث بالون... وذات يومٍ سوف يتبعك أبناؤك الشّرعيّون».

أبنائي. ولكن لكي يُنجِب الرّجل ابنًا شرعيًّا يجب أن تكون له زوجة أولًا، وڤيكتاريون سيِّئ الحظّ في الزّواج. قال لنفسه مذكِّرًا: هدايا *يورون مسمومة، ومع ذلك*...

- «الخيار لك يا أخي. عِش قِنًّا أو مُت ملكًا. هل تَجسُر على الطّيران؟ ما لم تقفز فلن تعرف أبدًا»، والتمعت السّخرية في عين يورون الباسمة إذ أردفَ: «أم أنني أحمِّلك ما لا طاقة لك به؟ الإبحار بَعد (ڤاليريا) مخيف حقًّا».

رَدّ ڤيكتاريون: «سأبحرُ بالأسطول الحديدي إلى الجحيم إذا لزِمَ الأمر»، وفتحَ يده ليجد راحتها مبلّلةً بالدّماء، وتابعَ: «سأذهبُ إلى (خليج النّخاسين)، أجل، وسأجدُ تلك التنّينة وأرجعُ بها». *ولكن ليس من أجلك. لقد سرقت زوجتي وهتكت عِرضها، ولذا سأظفرُ بامرأتك، أجمل نساء العالم، لي أنا*.

عادَت الحقول خارج أسوار (داري) تُحرَث من جديدٍ بَعد أن جُزَّت المحاصيل المحروقة، وأبلَغه كشّافة السير أدام برؤية نسوةٍ في الأخاديد يقتلعن الحشائش، في حين تُمَهِّد مجموعة من الثيران أرضًا جديدةً للزِّراعة على حافة غابةٍ قريبة، وقد وقفَت دستة من الرِّجال الملتحين حاملي الفؤوس حراسةً عليها فيما تعمل.

لدى بلوغ جايمي وركبه القلعة كانوا قد فرُّوا جميعًا إلى ما وراء الأسوار، ووجدَ (داري) مغلقةً في وجهه مِثل (هارنهال) من قبلها، ففكَّر: *استقبال بارد من لحمي ودمي*. قال آمرًا: «أطلِق النَّفير». فخلع السير كينوس الكايسي بوق هيروك من على كتفه ونفخَ فيه، وبينما انتظرَ جايمي ردًّا من القلعة رمقَ الرّاية الخافقة بالبنّي والقرمزي فوق حصن ابن عمّه الأمامي. يبدو أن لانسل اختارَ تقسيم رايته إلى أربعة مربّعاتٍ على كلِّ اثنين منها أسد لانستر وحارث داري، ورأى جايمي يد عمّه في هذا كما رآها في اختيار عروس لانسل. منذ أطاحَ الأنداليّون بالبَشر الأوائل والحُكم في هذه الأنحاء لعائلة داري، ولا شكَّ أن السير كيڤان ارتأى أن المهمّة ستكون أيسر على ابنه إذا رآه الفلّاحون استمرارًا للسّلالة القديمة، يَحكُم هذه الأراضي بحقِّ المصاهَرة بالأحرى من مرسومٍ ملكي. *المفترَض أن يكون كيڤان يد تومن. هاريس سويفت رجل تافه، وأختي حمقاء إذا كانت تعتقد غير هذا*.

انفتحت بوّابة القلعة ببطء، وقال جايمي للغفر: «ليست عند ابن عمّي مساحة لإيواء ألف رجل. سننصب المعسكر عند السّور الغربي. أريدُ حفر الخنادق وغرس الخوازيق في محيطنا. ما زالَت هناك جماعات من الخارجين عن القانون في هذه المنطقة».

- «سيكونون مجانين بالتأكيد إذا هاجموا قوةً كقوّتنا».

- «مجانين أو يتضوّرون جوعًا». إلى أن تُصبح لديه فكرة أفضل عن هؤلاء الخارجين عن القانون وقوّتهم لا ينوي چايمي أن يُجازِف بالاستهانة بدفاعاته. كرَّر: «خنادق وخوازيق»، ثم همزَ أوتَر نحو البوّابة، وإلى جواره يركب السير درموت حاملًا الوعل والأسد الملكيّين، والسير هيوجو ڤانس براية الحرس الملكي. كان چايمي قد كلّف رونيت الأحمر بمهمّة توصيل وايليس ماندرلي إلى (بِركة العذارى)، كي لا يضطرّ إلى رؤية وجهه ثانيةً أبدًا.

مع مُرافقيه تركب پيا الحصان المخصيّ الذي وجدَه لها پك، وقد سمعَها چايمي تقول: «كأنها قلعة لُعبة»، فحدّث نفسه متأمّلًا: *الفتاة لم تعرف بيتًا إلّا (هارنهال). كلُّ قلعةٍ في البلاد ستبدو لها صغيرةً، باستثناء (الصّخرة).*

ردَّ چوزمين پكلدون عليها بالكلام نفسه قائلًا: «لا يجب أن تُحكّمي بـ(هارنهال). هارن الأسود بناها بضخامةٍ غير عاديّة»، وأصغت پيا بإذعان فتاةٍ في الخامسة تتلقّى الدّروس من سيّدتها. *ليست إلّا هذا، فتاة صغيرة في جسد امرأة، على جسدها النّدوب وفي نفسها الخوف*. على أن پك مفتون بها. لا يظنُّ چايمي أن الصّبي عرفَ امرأةً من قبل، وپيا لا تزال حسناء بما فيه الكفاية ما دام فمها مغلقًا. *لا أظنُّ أن هناك أذًى في أن يُضاجِعها، بشرط أن تكون راغبةً.*

في (هارنهال) حاولَ أحد رجال الجبل اغتصاب الفتاة، وبدا مندهشًا بصدقٍ عندما أمرَ چايمي إلين پاين بقطع رأسه، وإذ أرغَموه على الرّكوع ظلَّ يُردِّد: «لقد استعملتها مئة مرّةٍ من قبل، مئة مرّة يا سيّدي، كلُّنا استعملناها». حين قدَّم السير إلين الرّأس لپيا بَعدها ابتسمَت كاشفةً حُطام أسنانها.

أيدٍ كثيرة تداولَت (داري) في أثناء القتال، واحترقَت قلعتها مرَّةً ونُهِبت مرَّتين على الأقل، وإن يبدو أن لانسل لم يُضَيِّع وقتًا قبل الشروع في تصحيح الأوضاع. هكذا غُلِّق مصراعان جديدان للبوَّابة من ألواح السنديان الخام المدعَّمة بالحديد، والآن يُبنى اسطبل جديد في مكان القديم الذي أحرِق، كما استُبدِلَت السلالم الصَّاعدة إلى الحصن ومصاريع نوافذ كثيرة. ما زالَت الأحجار المسودَّة تشي بالبقاع التي لعقَتها ألسنة اللَّهب، لكنها ستبهت مع مرور الوقت وسقوط الأمطار.

داخل القلعة يذرع رماة النُّشابيَّة الشُّرفات، بعضهم يرتدي المعاطف القرمزيَّة وخوذات الأسد، وبعضهم يرتدي أزرق ورمادي عائلة فراي. خَبَّ چايمي في السَّاحة ليفرَّ الدَّجاج من تحت حوافر أونَر، وثغَت الخراف وحدجَه الفلَّاحون بنظراتٍ باهتة. لم يَفُته أنهم فلَّاحون مسلَّحون، منهم من يحمل المناجل ومنهم حاملو الهراوات والمعاول مدبَّبة الرؤوس، وهناك من يحملون فؤوسًا أيضًا، كما لمح عدَّة رجالٍ ملتحين خيطَت على ستراتهم الرَّثَّة المتَّسخة نجوم سباعيَّة حمراء. *المزيد من العصافير الملاعين. من أين يأتي كلُّ هؤلاء؟*

لم يرَ أثرًا لعمِّه كيڤان أو لانسل، ولم يَخرُج لتحيَّته إلَّا مِايستر يخفق رداؤه الرَّمادي حول ساقيه النَّاحلتين، وقد خاطبَه الرَّجل قائلًا: «حضرة القائد، شرَّفت (داري) بهذه... الزِّيارة غير المتوقَّعة. أرجو أن تَعذُرنا لعدم استعدادنا. ظننَّا أنك في طريقك إلى (ريڤررَن)».

رَدَّ چايمي كاذبًا: «كانت (داري) في طريقي». *(ريڤررَن) ستنتظر.* وإذا تصادفَ أن ينتهي الحصار قبل أن يَبلُغ القلعة فسيُعفى من الاضطرار إلى حمل السِّلاح ضد آل تلي. ترجَّل وناولَ أحد غِلمان الاسطبل زمام أونَر متسائلًا: «هل سأجِد عمِّي هنا؟». لم يَذكُر الاسم، فالسير كيڤان العمُّ الأوحد الذي تبقَّى له، آخِر أبناء تايتوس لانستر الأحياء.

أجابَ الِمايستر: «لا يا سيِّدي. السير كيڤان رحلَ بَعد الزَّفاف»، وشَدَّ سلسلته كأنها ضاقَت على عُنقه، وتابَعَ: «أعلمُ أن اللورد لانسل سيُسَرُّ لرؤيتك و... وجميع فُرسانك البواسل، لكن يُؤسِفني أن أعترف بأن (داري) لا تستطيع إطعام هذا العدد الكبير».

- «إن معنا مؤننا. مَن أنت؟».

- «الِمايستر أوتومور، بَعد إذن سيِّدي. الليدي آميري رغبَت في التَّرحيب بك بنفسها، لكنها تُشرِف على تجهيز مأدبةٍ على شرفك، وتتمنَّى أن تتمكَّن وكبار فُرسانك وقادتك من الانضمام إلينا على المائدة هذا المساء».

- «نُرَحِّب بوجبةٍ ساخنة بالتَّأكيد. الأيام الماضية كانت باردةً مطيرةً»، وتطلَّع چايمي عبر الشَّاحة إلى وجوه العصافير الملتحين مفكِّرًا: *كثيرون جدًّا، ورجال فراي كثيرون جدًّا أيضًا*. «أين أجد الحجر الصُّلب؟».

- «بلغَتنا أنباء عن وجود خارجين عن القانون على ضفَّة (الثَّالوث) الأخرى، فأخذَ السير هاروين خمسة فُرسان وعشرين من الرُّماة وخرجَ يتعامَل معهم».

- «واللورد لانسل؟».

- «يُصَلِّي. حضرة اللورد أمرَنا بعدمِ إزعاجه أبدًا في أثناء الصَّلاة».

هو *والسير بونيفر سينسجمان معًا*. «ليكن». لاحقًا سيجد الوقت الكافي للحديث مع ابن عمِّه. «اصحبني إلى مسكني واجعلهم يجلبون لي حوض استحمام».

- «بَعد إذن سيِّدي، سنُنزِلك في (حصن الحارث). سأريك الطَّريق».

- «أعرفُ الطّريق». ليست هذه القلعة غريبةً على چايمي، إذ سبقَ أن نزلَ وسرسي هنا ضيفين مرّتين، الأولى في الطّريق إلى (وينترفل) والثّانية في طريق العودة إلى (كينجز لاندنج). على الرغم من صغر مساحة القلعة فإنها أكبر من أيّ خان، وعند النّهر ثمّة بقاع جيّدة للصّيد، وروبرت باراثيون لم يعزف قطّ عن استغلال كرم ضيافة رعاياه.

وجدَ چايمي الحصن كما يَذكُره، وبينما قطعَ به المِايستر رواقًا علّق: «الجُدران لا تزال عاريةً».

قال أوتومور: «اللورد لانسل يأمل أن يَغطّيها ذات يومٍ بالمعلّقات، مشاهد تُعبّر عن الورع والبِر».

رنّد في سريرته باذلًا قصارى جهده كي لا يضحك: *الورع والبِر*. كانت الجُدران عاريةً في زيارته الأولى أيضًا، وأشارَ تيريون إلى مربّعات الحجارة الأغمق حيث كانت المعلّقات من قبل. استطاعَ السير رايمون أن يُزيل المعلّقات ولكن ليس الآثار التي تركَتها. لاحقًا رشا العِفريت أحد خدم داري بحفنةٍ من الأيائل الفضّيّة من أجل مفتاح القبو الذي يحوي المعلّقات المفقودة، وقد أرى چايمي إياها على ضوء شمعةٍ وقد ارتسمَت على شفتيه ابتسامة عريضة. كانت الصُّور المنسوجة لجميع ملوك عائلة تارجاريَن من إجون الأول إلى إيِنس الثّاني، وقال القزم بضحكةٍ خافتة: «إذا أخبرتُ روبرت فلربما يجعلني أنا سيّد (داري)».

قادَ المِايستر أوتومور چايمي إلى قمّة الحصن، حيث قال: «إنني واثق بأنك ستكون مستريحًا هنا يا سيّدي. ثمّة مرحاض لتلبية نداء الطّبيعة، ونافذتك تطلّ على أيكة الآلهة. غُرفة نومك مجاورة لغُرفة حضرة الليدي، وبينهما حُجيرة خادمة».

- «كان هذا مسكن اللورد داري».

- «نعم يا سيّدي».

- «ابن عمّي في غاية اللُّطف. لم أكن أريد إخراج لانسل من غُرفة نومه».

- «اللورد لانسل ينام في السَّبت».

ينام مع (الأم) و(العذراء) في حين أن له زوجة دافئة وراء الباب؟ لا يدري چايمي هل يضحك أم يبكي. *ربما يُصَلّي لكي* ينتصب قضيبه. في (كينجز لاندنج) لاكَت الألسنة شائعةً عن أن جراح لانسل تركته عاجزًا. *ولو، حريّ به أن يكون عاقلًا كفايةً ويُحاوِل.* لن يُحكِم ابن عمّه سيطرته على هذه الأراضي الجديدة إلى أن يُنجِب ابنًا من زوجته المنتمية نصفيًا إلى عائلة داري. بدأ النّدم يُراوِد چايمي على النّزوة التي دفعته إلى المجيء هنا.

شكرَ أوتومور وذكَّره بالحمّام وأمرَ پك باصطحابه إلى الخارج.

تغيَّرت غُرفة نوم اللورد منذ زيارته الأخيرة، وليس للأفضل. الأرض يُغطّيها الحصير القديم بدلًا من البساط المايري الفاخر، والأثاث كلُّه جديد بسيط. كان سرير السير رايمون داري يسع ستّة أفراد، وله ستائر بنّيّة من المخمل وأعمدة من خشب السّنديان منقوشة عليها نباتات متسلّقة وأوراق شجر، أمّا سرير لانسل فحشيّة من القشّ المتكتّل موضوعة أسفل النّافذة حيث يضمن أن يُوقِظه أول خيوط النّهار. لا ريب أن السّرير الآخر قد أُحرِقَ أو حُطِّمَ أو سُرِقَ، ومع ذلك...

حين وصلَ حوض الاستحمام خلعَ ليو الصّغير حذاء چايمي وساعدَه على حَلّ يده الذّهبيّة، بينما جلبَ پك وجاريت الماء ووجدَت له پيا ثيابًا نظيفةً يرتديها على العشاء. رمقَته الفتاة بخجلٍ وهي تنفض شترته، ووجدَ چايمي نفسه يلحظ على نحوٍ غير مريح انحناءات وَركيها وثدييها تحت فُستانها الخيش البنّي، ليتذكّر الأشياء التي همسَت له بها في (هارنهال) ليلة أرسلَها كايبرن إلى فِراشه. *أحيانًا وأنا مع رجلٍ ما أغلقُ عينَيّ وأتخيّلُ أنك أنت فوقي.*

شعرَ بالامتنان لعُمق الحوض الذي أخفى إثارته، وإذ نزلَ في المياه السّاخنة تذكّر حمّامًا آخَر، ذلك الذي تقاسمَه مع بِريان. كان محمومًا واهنًا من جرّاء ما فقدَ من دماء، ودوّرت الحرارة رأسه فوجدَ نفسه يقول أشياءَ كان أفضل ألّا تُقال، أمّا هذه المرّة فلا عُذر له. *تذكّر قَسمك. پيا أصلح لفراش تيريون من فِراشك.* قال لپك: «أحضِر لي صابونًا وفُرشاةً يابسةً»، ولپيا قال: «يُمكنكِ أن تتزكّينا».

ردّت مقطّبةً فمها كي تُخفي أسنانها المكسورة: «حاضر يا سيّدي، شكرًا يا سيّدي».

حين خرجَت سألَ چايمي پك: «هل تُريدها؟»، ولمّا احمرّ وجه الفرافق كالبنجر قال له: «إذا قبلَتك فخُذها. لا شكّ لديّ في أنها ستُعلّمك أشياءَ ستجدها نافعةً ليلة زفافك، وليس محتمَلًا أن تزرع نغلًا في بطنها». لقد فتحَت پيا ساقيها لنِصف رجال جيش أبيها ولم تحبل، وعلى الأرجح الفتاة عاقر. «لكن إن ضاجعتها فتلطّف بها».

- «أتلطّف يا سيّدي؟ كيف... كيف يُمكنني أن...».

- «كلمات حلوة، لمسات رقيقة. لست تُريد أن تتزوّجها، لكن ما دامَت معك في الفِراش فعامِلها كأنها عروسك».

أومأ الصّبي برأسه، وقال: «سيّدي، إنني... أين يُمكنني أن أفعل ذلك معها؟ ليس هناك مكان أبدًا لـ... لـ...».

أكملَ چايمي قوله: «... لتكونا وحدكما؟»، وابتسمَ ابتسامةً واسعةً مردفًا: «سنغيب عدّة ساعات على العشاء. القَشُّ يبدو متكتِّلًا لكن يُفترَض أن يكون مناسبًا».

اتّسعت عينا پك، وسألَه: «سرير حضرة اللورد؟».

- «ستشعر كأنك لورد عن نفسك عندما تَفرَغ، إذا كانت پيا تعرف ما تفعله». *وحريّ بأحدهم أن يستغلّ تلك الحشية القَش البائسة.*

حينما نزلَ لحضور المأدبة ليلتها كان چايمي لانستر يرتدي سُترةً ضيّقةً من المخمل الأحمر المشرّط بقُماش الذّهب، ووضعَ حول رقبته سلسلةً ذهبيّةً مطعّمةً بالماسات السّوداء، وقد ربطَ يده الذّهبيّة إلى جِدعته أيضًا بَعد تلميعها وصقلها حتى تألّقت. ليس هذا بالمكان الملائم لارتداء ثيابه البيضاء، فواجبه ينتظره في (ريڤررَن)، بينما بعثته حاجة أكثر سوادًا على المجيء هنا.

لا يُقال عن قاعة (داري) الكُبرى إنها كُبرى إلّا على سبيل المجامَلة، إذ تتزاحم فيها الموائد من جِدارٍ إلى جِدار، وعوارض السّقف مسودّة من الدُّخان. وضعوا چايمي على المنصّة إلى يمين مقعد لانسل الشّاغر، وبينما جلسَ سألَ: «ألن ينضمّ إلينا ابن عمّي على العَشاء؟».

أجابَت زوجة لانسل: «سيّدي يُفضِّل الصّيام. إنه حزين لأقصى حدّ على السّپتون الأعلى المسكين». الليدي آميري فتاة طويلة السّاقين عامرة الصّدر قويّة البنية، تَبلُغ من العمر نحو الثّامنة عشرة، ويبدو من منظرها أنها تتمتّع بالصّحّة، وإن كان وجهها المدبّب الممصوص يُذكِّر چايمي بكليوس ابن عمّته الرّاحل غير مأسوف عليه، الذي بدا دومًا أشبه بابن عرس.

الصّيام؟ إنه أكثر حمقًا مما ظننتُ إذن. المفترَض أن ينشغل ابن عمّه بإنجاب وريث له وجه ابن عرس من زوجته الأرملة بدلًا من تجويع نفسه حتى الموت. تساءلَ عمّا كان السير كيڤان ليقوله عن حماسة ابنه المستجدّة هذه. أهذا هو السّبب وراء رحيل عمّه المتعجّل؟

بينما يتناولون حساء الفاصوليا واللّحم المقدّد حكّت الليدي آميري لچايمي عن زوجها الأول الذي قتلَه السير جريجور كليجاين عندما كان آل فراي ما زالوا يُحارِبون في صفوف روب ستارك. «توسّلتُ إليه ألّا يذهب، لكن عزيزي پايت كان شديد الشّجاعة وأقسمَ أنه سيكون الرّجل الذي يَقتُل الوحش. أرادَ أن يصنع اسمًا عظيمًا لنفسه».

كلُّنا كذلك. «حين كنتُ مُرافقًا قلتُ لنفسي إنني سأكون الرّجل الذي يَقتُل الفارس الباسم».

سألَته حائرةً: «الفارس الباسم؟ مَن هو؟».

جبل صِباي، نِصفه في الحجم وضِعفه في الجنون. «خارج عن القانون ماتَ منذ زمن، ليس أحدًا يهمُّ حضرة الليدي».

ارتعشَت شفتها وسالَت الدّموع من عينيها البُنّيّتين، فقالت امرأة أكبر سِنًّا: «أرجو أن تُعذُر ابنتي، إنها لا تزال حزينةً على أبيها». كانت الليدي آميري قد جلبَت معها زُهاء عشرين من آل فراي إلى (داري)، أختًا وعمًّا ونِصف عمّ وعددًا من أبناء وبنات العمومة، بالإضافة إلى أمّها المولودة في (داري).

باكيةً قالت آميري: «المجرمون قتلوه. لم يذهب أبي إلّا لدفع فدية پيتر ذي الدّمامل. أحضرَ لهم الذّهب الذي طلبوه، لكنهم علّقوه على كلّ حال».

قالت الليدي ماريا: «شنقوه يا آمي، أبوكِ لم يكن لافتةً»، والتفتَت إلى چايمي قائلةً: «أعتقدُ أنك كنت تعرفه أيها الفارس».

- «كلانا كان مُرافقًا في (كراكهول)». لن يتمادى ويَزعُم أنهما كانا صديقين. حين وصلَ چايمي كان ميريت فراي بلطجي القلعة الذي يفرض سيطرته على الضبية الأصغر سِنًّا. *ثم حاولَ البلطجة عليّ*. «لقد كان... قويًا للغاية». هذا هو الثناء الوحيد الذي خطرَ بباله. ميريت كان بطيئًا وأخرق وأحمق، لكنه لم يفتقر إلى القوّة إطلاقًا.

قالت الليدي آميري متنشّقةً: «لقد قاتلتما أخوّة غابة الملوك معًا. اعتادَ أبي أن يحكي لي».

تعنين أن أباكِ اعتادَ أن يتباهى ويكذب. «صحيح». أكبر إسهامات فراي في القتال كان الإصابة بعدوى الجُدري من تابعة معسكَراتٍ والسّماح لنفسه بالوقوع في أسر الظّبية البيضاء. آنذاك وسمَت ملكة الخارجين عن القانون مؤخِّرته برمزها قبل أن تُعيده إلى سَمنر كراكهول لقاء فدية، وطيلة أسبوعين لم يستطِع ميريت الجلوس، وإن كان چايمي قد شكّ في أن الحديد الملتهب آلمَه بقدر الشخرية التي انهالَت عليه من زُملائه المُرافقين فور عودته. *الضبية أقسى مخلوقاتٍ على وجه الأرض*. طوّق كأس نبيذه بيده الذّهبيّة، ورفعَها قائلًا: «لذكرى ميريت». أسهل عليه أن يشرب نخب الرّجل من أن يتكلّم عنه.

بَعد النّخب كفّت الليدي آميري عن البُكاء وتحوّل حديث المائدة إلى الذّئاب، تحديدًا النّوع ذي الأقدام الأربع. زعمَ السير دانويل فراي إن هناك أعدادًا أكبر منها الآن مما يتذكَّر جدُّه نفسه، وقال: «لم تَعُد تعرف خوفًا من البَشر. قُطعان منها هاجمَت قافلة أمتعتنا ونحن في الطّريق من (التّوأمتين)، وغرس رُماتنا سهامهم في نحو دستةٍ منها قبل أن تفرَّ البقيّة»، فرَدَّ السير أدام ماربراند معترفًا بأن ركبهم واجه متاعب مشابهةً في الطّريق من (كينجز لاندنج).

ركّز چايمي على الطّعام أمامه، مقطّعًا الخُبز بيده اليُسرى وممسكًا بيُمناه كأس النّبيذ بحركةٍ خرقاء. شاهدَ أدام ماربراند يجتذب الفتاة الجالسة إلى جواره، وستفون سويفت يُعيد خوض معركة (كينجز لاندنج) بالخُبز والمكسّرات والجزر، بينما شدَّ السير كينوس خادمةً وأجلسَها في حِجره وحثّها على التّمليس على بوقه، وسلّى السير درموت عددًا من الفرافقين بحكايات تطواف الفُرسان في (الغابة المطيرة). في موضعٍ أبعد على المائدة كان هيوجو ڤانس قد أغمضَ عينيه، ففكّر چايمي: *يُفكّر في غوامض الحياة ربما، أو أنه يغفو بين صنفٍ وصنف.* عادَ يلتفت إلى الليدي ماريا قائلًا: «الخارجون عن القانون الذين قتلوا زوجكِ... أهم من جماعة اللورد بريك؟».

على الرغم من الشّيب الذي وخطَ شعر الليدي ماريا فإنها لا تزال امرأةً حسناء، وقد أجابَته: «هذا ما حسبناه في البداية. القتلة تفرّقوا حين غادَروا (الحجر العتيق). تعقّب اللورد ڤاييرن مجموعةً منهم إلى (الشوق القصيّة) لكنه فقدَ أثرهم هناك، وقادَ والدر الأسود قنّاصين وكلاب صيدٍ إلى (مستنقع هاج) مطاردًا الآخَرين. أنكرَ الفلّاحون رؤيتهم، لكن عند استجوابهم بغلظةٍ غيّروا أقوالهم وتكلّموا عن رجلٍ بعينٍ واحدة وآخَر يرتدي معطفًا أصفر... وعن امرأةٍ تُخفي ملامحها تحت قلنسوة معطفها».

- «امرأة؟». كان ليحسب أن الظّبية البيضاء علّمت ميريت أن يظلّ بمنأى عن الخارجات عن القانون. «كانت هناك امرأة مع أخوّة غابة الملوك أيضًا».

- «سمعتُ بها»، قالت الليدي ماريا، فيما قالت نبرتها: وكيف لا وقد تركَت وسمها على زوجي؟ «الظّبية البيضاء كانت شابّةً جميلةً حسب ما يُقال، أمّا تلك المرأة المقلنسة فلا هذا ولا ذاك. الفلّاحون يُؤكّدون أن وجهها ممزّق مليء بالنّدوب ونظرة عينيها مريعة، ويدّعون أنها تقود الخارجين عن القانون».

قال چايمي الذي يجد هذا عصيًا على التّصديق: «تقودهم؟ بريك دونداريون والزّاهب الأحمر...».

أتقت الليدي ماريا عبارته بنبرةٍ واثقة: «... لم يرهما أحد».

قال الغفر: «دونداريون مات. الجبل أغمدَ سكّينًا في عينه، ومعنا رجال رأوا هذا بأنفسهم».

عقّب أدام ماريراند: «هذه حكاية واحدة. سيقول لك آخرون إن اللورد بريك لا يُقتَل».

لفّت الليدي آميري خُصلةً من شَعرها حول إصبعها قائلةً: «السير هاروين يقول إن تلك الحكايات كاذبة. لقد وعدَني برأس اللورد بريك. إنه شهم للغاية»، وعلى الرغم من دموعها تخضّب وجهها بالخمرة.

استعادَ چايمي في ذاكرته الرّأس الذي أعطى پيا إياه، وفي الآن نفسه كادَ يسمع أخاه الصّغير يُقهقِه. كان تيريون ليسأل: *ماذا جرى لإعطاء النّساء الزّهور؟* وكان ليقول بضع كلماتٍ منتقاة عن هاروين پلوم أيضًا، ولو أن «شهم» ليست واحدةً منها. أخوا پلوم رجلان كبيران لحيمان لكلٍّ منهما عُنق ثخين ووجه متورّد، وكلاهما صاخب شبِق سريع الضّحك سريع الغضب سريع الغفران... أمّا هاروين فصنف مختلف من آل پلوم، صموت قاسي العينين لا يعرف السّماح، كما أنه مميت وفي يده مطرقة. إنه رجل صالح لقيادة الحامية، لكنه ليس رجلًا يُحَبّ. مع أن... رمقَ چايمي الليدي آميري بنظرةٍ متفرّسة.

جاء الخدم بطبق سمك الكراكي النهري المخبوز بالأعشاب والمكسّرات المفرومة، فتذوّقته زوجة لانسل وأبدَت استحسانها، ثم أمرَت بتقديم الحصّة الأولى لچايمي، وبينما يضعون السمك أمامه مالَت من فوق مكان زوجها لتمسّ يده الذّهبيّة قائلةً: «أنت تستطيع أن تَقتل اللورد بريك يا سير چايمي كما قتلت ذلك الفارس المبتسم. أرجوك يا سيّدي، أتوسّلُ إليك، ابقَ وساعِدنا على التّغلُّب على اللورد بريك وكلب الصّيد»، ومسّدت أصابعها الشّاحبة أصابعه الذّهبيّة.

هل تحسبني أشعر بهذا؟ «سيف الصّباح هو من قتلَ الفارس الباسم يا سيّدتي، السير آرثر داين، فارس أفضل مني»، وسحبَ چايمي يده الذّهبيّة والتفت إلى الليدي ماريا مخاطبًا إياها: «إلى أين تعقّب والدر الأسود تلك المرأة ذات القلنسوة ورجالها؟».

أجابَته المرأة الأكبر سنًا: «كلابه التقطت رائحتهم ثانيةً شمال (مستنقع هاج). يُقسِم أنه لم يكن وراءهم بأكثر من نِصف يومٍ حين اختفوا في (الغنق)».

أعلنَ السير كينوس بمرح: «فليتعفّنوا هناك. إذا شاءت الآلهة ستبتلعهم الرّمال المتحرّكة أو تلتهمهم الأسود الزواحف(64)».

قال السير دانويل فراي: «أو يأخذهم أكلة الضّفادع. لن يُدهِشني أن يُؤوي أهل المستنقعات الخارجين عن القانون».

قالت الليدي ماريا: «ليتهم الوحيدون. بعض لوردات النّهر متواطئ مع رجال اللورد بريك أيضًا».

تنشّقت ابنتها، وقالت: «والعامّة أيضًا. السير هاروين يقول إنهم يَخبّؤونهم ويطعِمونهم، ولمّا يسألهم أين ذهبوا يكذبون. يكذبون على سادتهم!».

حضّها الغفر قائلًا: «اقطعوا ألسنتهم إذن».

قال چايمي: «حظًّا سعيدًا في الحصول على إجاباتٍ إذن. إذا أردتم مساعدتهم فعليكم أن تجعلوهم يحبُّونكم. هذا ما فعلَه آرثر داين حين خرجنا لقتال أخوّة غابة الملوك؛ نقدَ العامّة ثَمن الطّعام الذي أكلناه، وأطلعَ الملك إيرس على مظالمهم، ووسّع مساحات الرّعي حول قُراهم، بل وكسبَ لهم حَقَّ قطع عددٍ معيّن من الأشجار كلّ عام وصيد بعض غزلان الملك في الخريف. أهل الغابة تطلّعوا إلى توين ليُنقِذهم، لكن السير آرثر فعلَ من أجلهم أضعاف ما كانت الأخوّة لتأمل أن تفعله، وكسبَهم إلى صفّنا، وبعدها كانت البقيّة سهلةً».

قالت الليدي ماريا: «حضرة القائد يتكلّم بحكمة. لن نتخلّص من هؤلاء المجرمين أبدًا ما لم يحبّ العامّة لانسل كما أحبّوا أبي وجدّي من قبل».

رمقَ چايمي مكان ابن عمّه الخالي مفكّرًا: *غير أن لانسل لن يربح حبّهم بالصّلاة أبدًا.*

مطّت الليدي أميري شفتيها قائلةً: «سير چايمي، أتوسّلُ إليك ألّا تتخلّى عنا. إن زوجي في حاجةٍ إليك وكذلك أنا. نحن في زمنٍ مخيف حقًّا. في بعض اللّيالي أكاد لا أستطيعُ النّوم من خوفي».

- «مكاني مع الملك يا سيّدتي».

قال الغفر: «أنا سآتي. حالما نَفرَغ من (ريفرَرن) سأكون متشوّقًا إلى قتالٍ آخَر، ولو أن اللورد بريك لن يَصمُد أمامي. إنني أذكره في دورات المباريات السّابقة. كان فتى وسيمًا في معطفٍ أنيق، نحيلًا وغِرًّا».

قال السير آرووِد فراي الشّاب: «كان هذا قبل أن يموت. العامّة يقولون إن الموت غيّره. يُمكنك أن تَقتله لكنه لن يبقى ميتًا. كيف تَقتل رجلًا كهذا؟ وهناك كلب الصّيد أيضًا. لقد قتلَ عشرين رجلًا في (الملّاحات)».

قهقهة الغفر بقوّة، وقال: «قتلَ عشرين صاحب خانٍ بديئًا ربما، عشرين خادمًا يبولون في سراويلهم، عشرين أخًا شحّاذًا مسلّحين بالآنية. ليس عشرين فارسًا، ليس أنا».

ردّ السير آروود بإصرار: «ثقة فارس في (الملّاحات). الرّجل اختبأ وراء أسواره بينما عاث كليجاين وكلابه المسعورة تدميرًا في بلدته. إنك لم ترَ الأشياء التي فعلَها أيها الفارس، أنا رأيتها. حين بلغَت الأخبار (التوأمتين) خرجت مع السير هاريس هاي وأخيه دونل وخمسين من الرّماة والمشاة. كنا نظنّ أن اللورد بريك هو من فعلَ هذا وأملنا أن نجد أثره لنقتفيه. لم يتبقَّ في (الملّاحات) إلّا القلعة، وكان السير كوينسي العجوز مرعوبًا لدرجة أنه رفضَ فتح بوّابته، وخاطبَنا بالزّعيق من فوق أسواره بالأعلى. البقيّة عظام ورماد، البلدة بأكملها. كلب الصّيد أحرقَ المباني وقتَل الشكّان وغادرَ ضاحكًا. النّساء... لن تُصدّقوا ما فعلَه ببعض النّساء. لن أتكلّم عن هذا على المائدة. مجرّد مرآه أثارَ غثياني».

قالت الليدي آميري: «لقد بكيتُ عندما سمعتُ».

رشفَ چايمي من نبيذه، وسألَ: «وما الذي يجعلكم واثقين بأنه كلب الصّيد؟». ما يصفونه أقرب إلى أفعال جريجور من ساندور. صحيحٌ أن ساندور قاسٍ صُلب، لكن أخاه الكبير هو الوحش الحقيقي في عائلة كليجاين.

قال السير آروود: «هناك من رأوه. ليس من السّهل ألّا يتعرّف المرء خوذته إيّاها أو ينساها، وثمّة من نجوا ليحكوا ما جرى؛ الفتاة التي اغتصبَها، وبعض الصّبية الذين تواروا، وامرأة وجدناها حبيسةً تحت عارضةٍ متفحّمة، والصّيّادون الذين شاهدوا المجزرة من قواربهم...».

قالت الليدي آميري بخفوت: «لا تصفها بالمجزرة، إنها إهانة للجزّارين الشّرفاء في كلّ مكان. ما حدث في (الملّاحات) من صُنع حيوانٍ رهيب في هيئةٍ بَشريّة».

هذا زمن الحيوانات، الأسود والذئاب والكلاب الغاضبة، زمن الغِدقان وغِربان الجيف.

عادَ الغفر يملأ كأسه قائلًا: «عمل آثم. ليدي ماريا، ليدي آميري، لقد أثرت فيّ محنتكما. لكما كلمتي، ما إن تَسقُط (ريفرَن) سأعود لملاحَقة كلب الصّيد وأقتله من أجلكما. الكلاب لا تُخيفني».

المفترَض أن يُخيفك هذا الكلب. كلا الرّجلين كبير الحجم قويّ، إلّا أن ساندور كليجاين أسرع كثيرًا، ويُقاتِل بشراسةٍ لا يقوى لايل كراكهول على مضاهاتها.

على أن الليدي آميري قالت مفتونةً: «أنت فارس حقيقي يا سير لايل لمساعَدتك ليدي في محنةٍ مِثلي».

لم تدعُ نفسها بالفتاة على الأقل. مدّ چايمي يده الذّهب إلى كأسه فأسقطَها، ليتشرّب مفرش المائدة الكتّاني النّبيذ، وبينما اتّسعت بُقعة الأحمر تظاهرَ رفاقه جميعًا بأنه لم يلحظوا. قال لنفسه: *إنها كياسة المائدة العالية،* لكن مذاقها في فمه لم يختلف عن مذاق الشّفقة. نهضَ على حين غرّةٍ قائلًا: «سيّدتي، أرجو أن تَعذُريني».

بدا الانزعاج على الليدي آميري، وقالت: «هل ستتركنا؟ ما زلنا سنأكل لحم الغزلان، وهناك ديوك محشوّة بالكرفس والفِطر».

- «لا شكّ أنهما صنفان شهيّان، لكني لن أستطيع أن آكل لُقمةً أخرى. يجب أن أرى ابن عمّي»، وحنى چايمي رأسه وتركَهم لطعامهم.

كان الرّجال يأكلون في السّاحة أيضًا، وقد تحلّق العصافير حول دستةٍ من بؤر النّار لتدفئة أيديهم من برد الغسق ومتابعة أصابع الشّجق السّمينة التي تُطقطِق وينزُّ منها الدّهن فوق النّار. لا بدّ أنهم مئة على الأقل. *أفواه معدومة القيمة*. تساءلَ چايمي عن مخزون الشّجق لدى لانسل وكيف ينوي إطعام العصافير حين ينفد. *بحلول الشّتاء ستجدهم يأكلون الجرذان، ما لم يجدوا محصولًا يحصدونه*. في هذا الوقت المتأخّر من الخريف فُرصة حصادٍ آخَر ضعيفة.

وجدَ سِپت القلعة في الجناح الدّاخلي، مبنى سُباعي الجوانب بلا نوافذ، نِصفه من الخشب وبابه الخشبي منقوش وسطحه مغطّى بالبلاط. على الدّرجات يجلس ثلاثة من العصافير، وقد نهضوا مع اقتراب چايمي، وسألَه أحدهم: «أين أنت ذاهب يا سيّدي؟». هو أصغر الثّلاثة، لكن لحيته الأكبر.

- «إلى الدّاخل؟».

- «حضرة اللورد في الدّاخل، يُصلّي».

- «حضرة اللورد ابن عمّي».

قال عصفور آخَر، رجل أصلع ضخم فوق عينه رسم لنجمةٍ سُباعيّة: «إذن فلست تُريد إزعاج ابن عمّك في أثناء صلاته يا سيّدي».

- «اللورد لانسل يسأل (الأب في الأعالي) الهداية»، قال العصفور الثّالث الحليق، الذي حسبَه چايمي صبيًا أولًا، لكن صوتها أخبرَه بأنها امرأة ترتدي أسمالًا بلا شكلٍ وقميصًا من الحلقات المعدنيّة الصّدئة. «يُصلّي لأجل أرواح الشّيتون الأعلى وكلّ من ماتوا».

أجابَها چايمي: «سيظلّون موتى غدًا. (الأب في الأعالي) لديه وقت أطول مني. هل تعرفون مَن أنا؟».

ردّ الكبير ذو العين المنجّمة: «لورد ما».

وقال الصّغير ذو اللّحية الكبيرة: «مُعاق ما».

وقالت المرأة: «قاتِل الملك، لكننا لسنا ملوكًا وإنما مجرّد صعاليك، ولا يُمكنك الدُخول ما لم يقل حضرة اللورد أن تَدخُل»، ورفعت هراوةً مدبّبةً ورفعَ الصّغير فأسًا.

انفتحَ الباب من ورائهم، وقال لانسل برفق: «دعوا ابن عمّي يمرُّ بسلامٍ أيها الأصدقاء، كنتُ في انتظاره».

وانزاحَ العصافير في الحال.

يبدو لانسل أكثر هزالًا مما كان في (كينجز لاندنج)، ثم إنه حافي القدمين ويرتدي سُترةً قصيرةً تقليديّةً من الصُوف غير المصبوغ تجعله يبدو أقرب إلى متسوّلٍ من لورد، وكان قد حلقَ قمّة رأسه ونبتَ زغبٌ لحيته بعض الشّيء، ولو أن من الصّعب أن يعدّ ما على وجهه زغبًا، خصوصًا أنه لا يتماشى مع الشّعر الأبيض حول أُذنيه.

قال چايمي لمّا صارا وحدهما داخل السّبت: «هل فقدت عقلك يا ابن العم؟».

- «أوثرُ أن أقول إنني عثرتُ على إيماني».

- «أين أبوك؟».

أجابَ لانسل: «رحل. لقد تشاجَرنا»، وركعَ أمام مذبح أبيه الآخَر قائلًا: «هلّا صلّيت معي يا چايمي؟».

- «هل سيُعطيني (الأب) يدًا جديدةً إذا صلّيتُ جيّدًا؟».

- «لا، لكن (المحارب) سيُعطيك الشّجاعة، و(الحدّاد) القوّة، و(العجوز) الحكمة».

- «إنني محتاج إلى يد». فوق المذابح المنحوتة ترتفع الآلهة السّبعة ويلتمع خشبها الدّاكن في ضوء الشّموع، وفي الهواء رائحة بَخورٍ خفيفة. «هل تنام هنا؟».

- «كلّ ليلةٍ أنامُ عند مذبحٍ مختلف ويُرسِل لي (السّبعة) رؤًى».

كان بيلور المبارَك يرى رؤًى أيضًا. *خصوصًا عندما يصوم*. «متى أكلت آخِر مرّة؟».

- «إيماني الغذاء الوحيد الذي يلزمني».

- «الإيمان كالثريد، أفضل بالحليب والعسل».

- «لقد حلمتُ بأنك ستأتي. في الحُلم كنت تعرف الذي فعلته وما ارتكبتُ من خطايا، ولأجل هذا قتلتني».

- «الأرجح أنك ستقتل نفسك بكلّ هذا الصّيام. ألم يَضم بيلور المبارَك حتى الموت؟».

- «ما حيواتنا إلّا لهب شموع، كما تقول (النّجمة الشباعيّة)، مجرّد هبّة ريحٍ شاردة كفيلة بإطفائها. الموت ليس بعيدًا أبدًا في هذا العالم، وثمّة سبع جحائم تنتظر الخُطاة الذين لم يتوبوا عن خطاياهم. صَلِّ معي يا چايمي».

- «إذا فعلتُ فهل ستأكل وعاءً من الثّريد؟». لم يُجِبه ابن عمّه، فزفر چايمي، وقال: «حريٌّ بك أن تنام مع زوجتك لا (العذراء). إنك في حاجةٍ إلى ابنٍ في عروقه دماء داري إذا أردت الاحتفاظ بهذه القلعة».

قال لانسل: «كومة حجارةٍ باردة لم أطلبها ولم أرِدها. لم أرِد إلّا أن...»، وارتجفَ مردفًا: «فليحمني (السّبعة)، لكني أردتُ أن أكون أنت».

ضحك چايمي رغمًا عنه، وقال: «أنا أفضل من بيلور المقدّس. (داري) محتاجة إلى أسدٍ يا ابن عمّي، وكذا زوجتك الصّغيرة ابنة فراي. كلّما أتى أحدهم على ذِكر الحجر الصُّلب ابتلّ ما بين ساقيها. إذا لم تكن قد ضاجعته بعدُ فستفعل قريبًا».

- «إذا كانت تحبّه فأتمنى أن يجد كلاهما المسرّة في الآخر».

- «لا يَجدُر بالأسد أن يكون له قرنان. لقد تزوّجت الفتاة».

- «ردّدتُ بعض الكلمات وأعطيتها معطفًا أحمر، ولكن لإرضاء أبي فحسب. الزّيجة تتطلّب أن تتمّ في الفِراش. الملك بيلور اضطرّ إلى الزّواج بأخته داينا، لكنهما لم يعيشا كزوجٍ وزوجةٍ قطُّ، وحال تتويجه اعتزلها».

- «كان أصلح للبلاد أن يُغلِق عينيه وينكحها. أعرفُ ما يكفي من التّاريخ لأدرك هذا. على كلِّ حالٍ ليس واردًا أن يحسبك أحد كبيلور المبارَك».

- «صحيح. لقد كان صاحِب نفسٍ نادرة، نفسٍ نقيّة وشَجاعة وبريئة لم تمسّها شرور العالم. أمّا أنا فآثم، ولديّ كثير أكفِّرُ عنه».

وضعَ چايمي يده على كتف ابن عمِّه، وقال: «ماذا تعرف عن الآثام يا ابن عمِّي؟ لقد قتلتُ ملكي».

- «الشُّجاع يَقتل بالسّيف، والجبان بقِربة نبيذ. كلانا قاتِل ملكٍ أيها الفارس».

- «روبرت لم يكن ملكًا حقًّا، بل وقد يقول بعضهم إن الوعل فريسة الأسد الطّبيعيّة». كان چايمي يَشعر بالعظم البارز تحت جِلد ابن عمِّه... وبشيءٍ آخَر أيضًا، إذ يرتدي لانسل قميصًا من الشَّعر تحت سترته. «ماذا فعلت غير هذا ويتطلَّب تكفيرًا؟ أخبِرني؟».

طأطأ ابن عمِّه رأسه والدّموع تجري على وجنتيه.

وكانت هذه الدّموع كلَّ الإجابة التي أرادَها چايمي، الذي قال: «قتلت الملك ثم نكحت الملكة».

- «لم يَحدث قَطّ...».

- «... أن نِمت مع أختي الجميلة؟». *قُلها، قُلها!*

- «لم يَحدث قَطُّ أني أفرغت منيّي في... في...».

- «... فَرجها؟».

- «... في رحمها. إنها ليست خيانةً ما لم تُفرغ المنيّ في الدّاخل. لقد واسيتها بَعد موت الملك. كنت أنت أسيرًا وأبوك في ميدان المعركة وأخوك... كانت تخشاه، ولسببٍ وجيه. لقد جعلَتني أخونها».

- «حقًّا؟». *لانسل والسير أوزموند وكم غيرهما؟ هل قال فتى القمر على سبيل الاستهزاء؟* «هل أكرهتها؟».

- «لا! لقد أحببتها، أردتُ أن أحميها».

أردت أن تكون أنا. أحسّ بأصابعه الشّبحيّة تستحكُه. يوم أتته أخته في (بُرج السّيف الأبيض) تتوسّل إليه أن يتبرّأ من قَسمه—يومها ضحكَت بَعد أن رفضَ وقالت متبجّحةً إنها كذبَت عليه ألف مرّة، لكن چايمي اعتبرَها محاولةً رعناء لإيلامه كما آلمَها. *ربما كان هذا الشّيء الحقيقي الوحيد الذي قالَته لي.*

ناشدَه لانسل قائلًا: «لا تُسئ الظّنّ بالملكة. كلُّ مخلوقٍ من لحمٍ ضعيف يا چايمي. لم يَنتج عن خطيئتنا أذى، لا... لا نغول».

- «نعم، نادرًا ما يَنتج النّغول عن إفراغ المنيّ على البطن».

تساءلَ عمّا سيقوله ابن عمّه إذا اعترفَ له بخطاياه هو، بالخيانات الثّلاث التي سفّتها سرسي چوفري وتومن ومارسلا.

- «كنتُ غاضبًا من جلالتها بَعد المعركة، لكن السّپتون الأعلى قال إن عليّ أن أسامحها».

- «إذن فقد اعترفت بخطاياك لصاحِب القداسة الأعلى، أليس كذلك؟».

- «لقد صلّى معي عندما كنتُ جريحًا. كان رجلًا صالحًا».

إنه رجل ميت، دقّوا له الأجراس بالفعل. تساءلَ إن كانت لدى ابن عمّه فكرة عمّا قد تُثمِره كلماته. «لانسل، أنت أحمق كبير».

قال لانسل: «لست مخطئًا، لكني وضعتُ حماقتي ورائي أيها الفارس. لقد سألتُ (الأب في الأعالي) أن يُريني السّبيل، وقد فعلَ. سأتخلّى عن هذه اللورديّة وهذه الزّوجة. هنيئًا للحجر الصّلب بهما إذا أرادَ. غدًا سأعودُ إلى (كينجز لاندنج) وأتعهّد بسيفي للسّپتون الأعلى الجديد و(السّبعة). إنني أنوي حلفان اليمين والانضمام إلى أبناء المحارب».

علّق چايمي الذي لم يفهم ما قالَه الصّبي: «أبناء المحارب محظورون منذ ثلاثمئة عام».

- «السِّپتون الأعلى الجديد أحياهم، وأرسلَ يستدعي الفرسان الجديرين ليتعهّدوا بأنفسهم وسيوفهم لخدمة (السّبعة). جماعة الصّعاليك ستعود ثانيةً أيضًا».

- «ولِمَ يسمح العرش الحديدي بهذا؟». يَذكُر چايمي أن أحد ملوك تارجاريَن الأوائل كافحَ أعوامًا لقمع الجماعتين العسكريّتين، وإن كان قد نسيَ مَن. ميجور ربما، أو چهيرس الأول. *كان تيريون ليعرف*.

- «صاحِب القداسة الأعلى كتبَ قائلًا إنّ الملك تومن وافقَ. سأريك الرِّسالة إذا أردت».

- «حتى إذا كان هذا صحيحًا... أنت أسد من أولاد (الصّخرة)، لورد! إن لك زوجةً وقلعةً وأراضيَ تُدافِع عنها ورعايا تحميهم، وإذا شاءت الآلهة سيكون لك أبناء من دمك يخلفونك. لماذا تهجُر كلَّ هذا من أجل... من أجل يمين؟».

سأله لانسل: «لماذا هجرت أنت ما كان لك؟».

كان چايمي ليُجيب: *من أجل الشّرف، من أجل المجد*، ولكن لكانت إجابته كاذبةً. أي نعم لعبَ الشّرف والمجد دورًا، إلّا أن الجزء الأكبر من حافزه كان سرسي. فرّت ضحكة من بين شفتيه، وقال: «هل تهرع إلى السّپتون الأعلى أم إلى أختي الجميلة؟ صَلِّ لتعرف الإجابة يا ابن عمّي، صَلِّ كثيرًا».

- «هلّا صلّيت معي يا چايمي؟».

تطلّع إلى الآلهة في جوانب السّپت؛ إلى (الأم) الملأى بالرّحمة، و(الأب) الصّارم في حُكمه، و(المحارب) المستقرّة يده على سيفه، وإلى (الغريب) وسط الظِّلال، يتوارى وجهه نِصف الإنساني تحت قلنسوة معطفه. *حسبتُ نفسي (المحارب) وسرسي (العذراء)، لكنها كانت (الغريب) طيلة الوقت، تُخفي وجهها الحقيقي عن بصري*. قال لابن عمّه: «صَلِّ من أجلي إذا أردت. لقد نسيتُ الكلمات كلَّها».

كان العصافير ما زالوا يُزقزِقون على الدَّرج عندما خرج چايمي إلى اللّيل، فقال لهم: «أشكركم. أشعرُ بأني أكثر إيمانًا بكثير الآن».

وذهبَ ووجدَ السير إلين وزوجين من الشيوف.

ساحة القلعة مليئة بالأعين والآذان، ولتحاشيها سعيا إلى أيكة الآلهة. لا يوجد عصافير هناك، فقط سكينة الأشجار الجرداء التي تخدش فروعها السّوداء السّماء، وقد افترش الأرض بساط من أوراق ميتة سحقَتها أقدامهما.

أشارَ چايمي بسيفه قائلًا: «هل ترى هذه النّافذة أيها الفارس؟ كانت هذه غُرفة نوم رايمون داري، حيث نامَ روبرت خلال رحلة عودتنا من (وينترفل). لا بُدَّ أنك تذكُر أن ابنة ند ستارك هربَت بَعد أن هاجمَت ذئبتها چوف. أرادَت أختي أن تُقطَع يد الفتاة، العقوبة القديمة لضرب أحد ذوي الدّم الملكي، فقال لها روبرت إنها متوحّشة مجنونة، وقضيا نِصف اللّيلة في الشّجار... أو أن سرسي تشاجرَت في حين شربَ روبرت. بَعد منتصَف اللّيل استدعَتني الملكة إلى داخل الغُرفة، وكان الملك قد فقدَ وعيه وراحَ يغطّ في نومٍ عميق على البساط المايري. سألتُ أختي إن كانت تُريدني أن أحمله إلى الفراش، فقالت لي أن أحملها هي إلى الفِراش وخلعَت ثوبها، وأخذتها هناك على فِراش رايمون داري بَعد أن خطونا فوق روبرت. لو استيقظَ جلالته لقتلته في مكانه في لحظتها، ولما كان أول ملكٍ يموت بسيفي... لكنك تعرف تلك القصّة. أليس كذلك؟»، وضربَ غُصن شجرةٍ شاطرًا إياه نِصفين، وتابعَ: «بينما أضاجعُ سرسي صاحَت: *أريدُ*. ظننتها تُريدني أنا، لكن مَن أرادَته كان ابنة ستارك، إمّا مشوَّهةً وإمّا ميتةً». *يا للأشياء التي أفعلها من أجل الحُب*. «تصادفَ أن عثرَ رجال ستارك على الفتاة قبلي، لكن لو عثرتُ عليها أولًا...».

في ضوء المشعل بدَت آثار الجُدري على وجه السير إلين كثقوب سوداء مظلمة كروح چايمي، وأصدرَ الرَّجل صوت الطَّقطقة إياه.

فكَّر چايمي لانستر: يضحك مني، وقال بحدَّة: «على حَدِّ علمي ربما تكون قد ضاجعت أختي أيضًا أيها الوغد المجدور. حسن، أغلِق فمك اللَّعين واقتلني إن استطعت».

---

(64) الأسود الزَّواحف الاسم الذي يُطلِقه الوستروسيُّون على التماسيح التي تعيش في المستنقعات. (المترجم).

يرتفع السِّيتري فوق جزيرةٍ منبثقة من قلب الماء على بُعد نِصف ميلٍ من السّاحل، حيث يتّسع ثغر (الثالوث) الواسع أكثر فأكثر ليُقبِّل (خليج السّراطين). حتى من الشّاطئ يبدو ازدهارها جليًّا؛ منحدراتها مغطّاة بالحقول المدرَّجة، وأسفلها بِرك أسماكٍ وأعلاها طاحونة هواء تدور ريشاتها المصنوعة من الخشب وقُماش الأشرعة ببطءٍ في نسيم الخليج، ورأت بريان خرافًا ترعى على جانب التلّ ولقالق تخوض في المياه الضّحلة حول مرسى العبّارة.

قال السِّيتون ميريبولد مشيرًا شمالًا عبر الخليج: «(الملّاحات) على الضّفّة الأخرى. سيَعبُر بنا الإخوة غدًا في تيّار الصّباح، ولو أنني متوجِّس خيفةً مما سنجده هناك. لنستمتع بوجبةٍ شهيّة ساخنة قبل أن نواجِهه. الإخوة عندهم دائمًا عظم يستغنون عنه لكلب». مع قوله الأخير نبحَ كلب وهزهزَ ذيله.

كانت المياه التي تفصل الجزيرة عن السّاحل تنحسر بسُرعةٍ مع الجَزر، تاركةً مساحةً شاسعةً من السّهول الطّينيّة اللّامعة التي تنتشر فيها البِرك المدّيّة المتلألئة كعملاتٍ من الذّهب في شمس الأصيل. حكّت بريان مؤخّرة عُنقها حيث لدغتها حشرة، وكانت قد رفعت شعرها وثبّتته بدبّوس ودفّأت الشّمس بشرتها.

سأل پودريك: «لماذا يُسمّونها (جزيرة الهدوء)؟».

- «مَن يقطُنون هنا تائبون يسعون إلى التّكفير عن ذنوبهم عن طريق التّأمّل والصّلاة والصّمت. فقط الأخ الكبير ونُظّاره مسموح لهم بالكلام، والنُّظّار يتكلّمون يومًا واحدًا فقط من كلّ سبعة».

قال پودريك: «الأخوات الصّامتات لا يتكلّمن أبدًا. سمعت أنهن بلا ألسنة».

ابتسمَ الشّيتون ميريبولد، وقال: «منذ كنتُ في سِنّك أسمعُ الأمّهات يُخِفن بناتهن بهذه الحكاية، لكنها لم تمتّ للحقيقة بِصِلةٍ آنذاك ولا تمتُّ لها بصِلةٍ الآن. نذر الصّمت فِعل الغرض منه التّوبة، تضحية نُثبِت بها انكبابنا على عبادة (الشبعة في الأعالي). أن يأخذ الأخرس على نفسه نذر صمتٍ أشبه بأن يعتزل رجل بلا ساقين الرّقص»، وقادَ حماره نازلًا به المنحدَر، وأشارَ لهم بأن يتبعوه مستطردًا: «إذا أردتم النّوم تحت سقفِ اللّيلة فعليكم أن تترجّلوا وتعبُروا الأوحال معي. نُسَمِّيه طريق الإيمان. وحدهم المؤمنون يستطيعون عبوره بأمان، أمّا الآثمون فتبتلعهم الرّمال المتحرّكة أو يغرقون عندما يتدفّق المدّ. آملُ أن لا أحد منكم آثم. ومع ذلك أنصحكم بالانتباه إلى موطئ أقدامكم. امشوا حيث أمشي فقط وستبلُغون الجانب الآخَر».

لم يكن بمقدور بِريان ألّا تلحظ أن طريق الإيمان معوجٌ، فعلى الرغم من أن الجزيرة ترتفع إلى شمال شرق البقعة التي تحرّكوا منها على الشّاطئ، لم يتّجه الشّيتون ميريبولد صوبها في خطّ مستقيم، وبدلًا من هذا تحرّك شرقًا نحو مياه الخليج الأعمق التي تبرُق بالأزرق والفضّي من بعيد. انهرسَ الطّمي البنّي اللّين بين أصابع قدميه، وفي أثناء سيره كان يتوقّف بين الفينة والفينة ويجسّ الطّريق أمامه بنبّوته، وقد ظلّ كلب يمشي في أعقابه متشمّمًا كلَّ صخرةٍ وصدفةٍ وكُتلةٍ من طحالب البحر، ممتنعًا هذه المرّة عن استباقهم أو الحيد عن الطّريق.

تحرّكت بريان بحرص على الالتزام بخطّ الآثار الذي يرسمه الكلب والحمار ورجل الدّين، ووراءها پودريك ثم السير هايل. بعد أن قطعوا مئة ياردة انعطف ميريبولد بغتةً إلى الجنوب فكادَ ظَهره يُصبح إلى السّپتري مباشرةً، وقد واصلَ السّير في هذا الاتّجاه مئة ياردة أخرى قائدًا إياهم بين بِركتين مذيّتين ضحلتين. دَسّ كلب فمه في إحداهما ونبحَ عندما قرصَه سرطان بمخالبه، ثم اندلعَ قتال قصير لكن عنيف قبل أن يعود الكلب متوثّبًا وقد ابتلّ جسمه وتلوّث بالوحل وبين فكّيه السّرطان.

نادى السير هايل من ورائهم مشيرًا إلى السّپتري: «ألسنا نُريد الذّهاب إلى هناك؟ يبدو أننا نمشي في كلّ اتّجاهٍ ما عدا نحوه».

رَدّ السّپتون ميريبولد بنبرةٍ ملحّة: «الإيمان. آمِن وثابِر واتبع وسنجد السّلام الذي نسعى إليه».

من كلّ جهةٍ حولهم تلتمع الأرض المسطّحة المبتلّة المرقّشة بعشرات درجات الألوان. الطّمي بنّي داكن للغاية لدرجة أنه يكاد يبدو أسود، لكن هناك رُقعًا من الرّمل الذّهبي أيضًا، وصخورًا منتصبةً حمراء ورماديّةً، وشباكًا من الطّحالب البحريّة السّوداء والخضراء. في البِرك المذيّة تتحرّك اللّقالق تاركةً آثار أقدامها في كلّ مكان، وتجري الشّراطين مسرعةً على سطوح المياه الضّحلة، بينما تُفعِم الهواء روائح الملح والعفَن، وتمتصّ الأرض أقدامهم ولا تتركها تتحرّر إلّا على مضضٍ بصوتٍ كالفرقعة المصحوبة بتنهيدةٍ بليلة. انعطفَ السّپتون ميريبولد مرّةً أخرى وأخرى وأخرى، لتمتلئ آثار قدميه بالماء توّ أن يخطو مبتعدًا، وحين أصبحَت الأرض أكثر صلابةً وبدأت ترتفع تحت أقدامهم أخيرًا كانوا قد قطعوا ميلًا ونِصفًا على الأقل.

كان ثلاثة رجالٍ في انتظارهم وهم يتسلّقون الحجارة المكسّرة التي تُطوّق ساحل الجزيرة، يرتدون ثياب الإخوة ذات الأكمام الواسعة والقلانس المدبّبة بلونيها البنّي والرّمادي، ومنهما اثنان يلفّ كلاهما وشاحًا من الصّوف حول نِصف وجهه السّفلي أيضًا، فلا يلوح منه إلّا العينان. الأخ الثّالث هو من تكلّم مناديًا: «السّيتون ميريبولد. مضى ما يَقرب من عام. أهلًا بك وبرفاقك أيضًا».

هزهزَ كلب ذيله، ونفضَ ميريبولد الوحل عن قدميه قائلًا: «هل لنا في التماس كرم ضيافتكم ليلةً؟».

- «نعم، بالطّبع. سنتناول يخنة السّمك هذا المساء. هل ستحتاجون إلى العبّارة في الصّباح؟».

أجابَ ميريبولد: «إن لم نكن نُثقِل عليكم»، والتفتَ إلى رفاقه، وقال: «الأخ ناربرت من نُظّار الجماعة، ولذا فمسموح له بالكلام يومًا واحدًا من كلّ سبعة. أيها الأخ، هؤلاء القوم الطيّبون ساعدوني في الطّريق. السير هايل فارس هُمام من (المرعى)، والصّبي هو بودريك باين الذي أصبح من الغربيّين منذ فترةٍ قريبة، وهذه هي الليدي بريان المعروفة بعذراء (تارث)».

توقّف الأخ ناربرت فجأةً، وغمغمَ: «امرأة».

خلعَت بريان دبّوس شعرها ونفضّته قائلةً: «نعم أيها الأخ. أليست عندكم نساء هنا؟».

ردّ ناربرت: «ليس في الوقت الرّاهن. النّساء اللائي يَزرننا يأتيننا مريضات أو جريحات أو حوامل. لقد باركَ (السّبعة) أخانا الكبير بيدين شافيتين، وعليهما تعافى رجال كثيرون لم يستطِع المايسترات أنفسهم علاجهم، ونسوة كثيرات أيضًا».

- «لستُ مريضةً أو جريحةً أو حاملًا».

قال السّيتون ميريبولد: «الليدي بريان فتاة مُحاربة، تُطارِد كلب الصّيد».

لاحت الدّهشة على ناربرت، وتساءلَ: «حقًّا؟ لأيّ غاية؟».

مشت بِريان مقبض (حافِظ العهد) مجيبةً: «نهايته».

تفرّس النّاظر في ملامحها قائلًا: «إنكِ... قويّة بالنّسبة إلى امرأة، هذا صحيح، ولكن... ربما عليّ أن آخذك إلى الأخ الكبير. لا بدّ أنه رآكم تعبُرون الأوحال. تعالوا».

قادَهم ناربرت في ممرّ مفروش بالحصى وعبر بُستان تفّاحٍ إلى اسطبلٍ مطليّ بالجير الأبيض له سقف مدبّب من القَش، حيث قال لهم: «يُمكنكم أن تَترُكوا حيواناتكم هنا. سيحرص الأخ جيلام على إطعامها وسقائها».

أكثر من ثلاثة أرباع الاسطبل خالٍ. في أحد طرفيه نِصف دستةٍ من البغال يرعاها أخ صغير متقوّس السّاقين خمّنت بِريان أنه جيلام، وفي الطّرف الأقصى، بعيدًا تمامًا عن الحيوانات الأخرى، جواد أدهم ضخم دوّى صهيله حين سمعَ أصواتهم ورفَسَ باب مربطه.

حدجَ السير هايل الفَحل الكبير بنظرة إعجابٍ وهو يَتناول الأخ جيلام عِنان حصانه، وقال: «دابّة فارهة».

تنهّد الأخ ناربرت معلّقًا: «(السّبعة) يُرسلون لنا نِعمًا ويُرسلون لنا مِحنًا. ربما يكون فارهًا، لكن دريفتوود وُلِدَ في الجحيم من غير ريب. عندما حاوَلنا ربطه بمحراثٍ رفسَ الأخ راوني وكسرَ قصبة ساقه في موضعين. كنا نأمل أن يُحسّن الإخصاء مزاجه الأسود، ولكن... هلّا أريتهم أيها الأخ جيلام؟».

أنزلَ الأخ جيلام قلنسوته، ليلوح من تحتها شَعره الأشقر وقمّة رأسه المحلوقة وضِمادة ملوّثة بالدّم تحتلّ مكان أُذنه.

شهقَ پودريك، وسألَ: «الحصان قضمَ أذنك؟!».

أومأ جيلام برأسه إيجابًا وعادَ يُغطّي رأسه، وقال له السير هايل: «سامِحني أيها الأخ، لكني كنتُ لآخذ الأذن الأخرى لو اقتربت مني حاملًا مقصًّا».

لم تُعجِب الدُّعابة الأخ ناربرت، الذي قال: «أنت فارس يا سيِّدي، ودريفتوود دابّة أحمال. (الحدّاد) وهبَ الخيل للبَشر لإعانتهم على أشغالهم»، والتفت مضيفًا: «تفضَّلوا معي. لا شكَّ أن الأخ الكبير ينتظركم».

وجدوا المنحدَر أشدّ ارتفاعًا مما بدا من النّاحية الأخرى من السُّهول الطِّينيّة، ولتسهيله رفعَ الإخوة سلالم خشبيّةً تتعرّج يمينًا ويسارًا على جانب التَّلّ وبين البنايات. بَعد يومٍ طويل من الجلوس فوق السَّرج سُرَّت بريان لفُرصة فرد قدميها.

مرُّوا بدستةٍ من إخوة الجماعة في طريقهم إلى أعلى، رجال يُغطُّون رؤوسهم بالقلانس ويرتدون البنّي والرَّمادي رمقوهم بنظراتٍ فضوليّة لدى مرآهم وإن لم ينبسوا بكلمة تحيّةٍ واحدة، أحدهم يقود بقرتين حلوبين نحو حظيرةٍ واطئة سقفها من النَّجيل، بينما يعمل آخَر على ممخضة زُبدة. على المنحدَرات الأعلى رأوا ثلاثة صِبيان يسوقون الأغنام، وفي مستوى أعلى من هذا مرُّوا بساحة دفنٍ فيها أخ أكبر حجمًا من بريان يكدح في حفر قبر، وقد بدا بوضوحٍ من الطَّريقة التي يتحرَّك بها أنه أعرج، وإذ طوَّح بملء مجرافٍ من التُّربة الحجريّة من فوق كتفه تناثرَ القليل على أقدامهم، وقال الأخ ناربرت مؤنِّبًا: «توخَّى الحذر أكثر، التُّراب كان سيدخُل فم السِّبتون ميريبولد»، فخفضَ حفّار القبور رأسه، ولمّا ذهبَ إليه كلب يتشمّمه أفلتَ مجرافه وحَكَّ أذنه.

قال ناربرت مفسِّرًا: «إنه مبتدئ».

سألَه السير هايل بينما استأنفوا صعود السَّلالم الخشب: «لِمَن القبر؟».

- «الأخ كليمنت، عسى (الأب) أن يَحكُم عليه بالعدل».

سألَ پودريك پاين: «هل كان متقدِّمًا في السِّن؟».

- «إذا كنت تعدُّ الثامنة والأربعين تقدمًا في السّن، نعم، لكن ليست السّن ما قتلَه، بل مات بالجروح التي أصيبَ بها في (الملّاحات). كان قد أخذَ القليل من يتعنا إلى الشوق هناك يوم هاجمَ الخارجون عن القانون البلدة».

سألَت بِريان: «كلب الصّيد؟».

- «واحد آخَر، لكنه يُعادِله توحُشًا. لقد قطعَ لسان كليمنت المسكين عندما رفضَ الكلام، وقال الهجّام إنه ليس في حاجةٍ إليه ما دام قد أخذَ على نفسه نذر الصّمت. الأخ الكبير سيعرف المزيد. إنه يحتفظ بأسوأ الأخبار من الخارج لنفسه كي لا يَقلِق سكينة السِّيتري. كثيرون من إخوتنا جاءوا هنا للهرب من أهوال العالم وليس للإسهاب في التفكير فيها. لم يكن الأخ كليمنت الوحيد الجريح منا، فثمّة جراح لا تتبدّى للأعين»، وأشارَ الأخ ناربرت إلى يمينهم، واستطرد: «هناك كرمتنا الصّيفيّة. العنب صغير ولاذع، لكننا نصنع منه نبيذًا صالحًا للشُّرب، ونصنع مِزرنا الخاص أيضًا، كما أن اليتع وخمر التفّاح اللذين نُنتِجهما ذائعا الصّيت».

سألَته بِريان: «ألم تمسّكم الحرب هنا؟».

- «ليس هذه الحرب والشّكر لـ(السّبعة). صلواتنا تحمينا».

أضافَ السِّبتون ميريبولد: «والمَدُّ والجَزر أيضًا»، ونبحَ كلب مؤيّدًا.

قمّة التّلّ متوّجة بسورٍ من الحجارة غير الملّطة يُحيط بمجموعةٍ من المباني الكبيرة؛ الطّاحونة التي تصرُّ ريشاتها مع دورانها، والمساكن التي ينام فيها الإخوة، والقاعة العامّة التي يتناولون فيها وجباتهم، بالإضافة إلى سِبت خشبي للصّلاة والتّأمّل له نوافذ من الزّجاج المطلي بالرّصاص، وباب مصراعاه الكبيران منقوش عليهما شكلا (الأم) و(الأب)، وبَرج شباعي الجوانب على قمّته ممشى، ووراءه حديقة خضراوات يجتثُّ منها إخوة أكبر سِنًّا الحشائش.

قادَ الأخ ناربرت الزُّوّار دائرًا حول شجرة كستناء إلى بابٍ خشبي في جانب التل، فتساءلَ السير هايل مندهشًا: «كهف بباب؟».

ابتسمَ السِّپتون ميريبولد قائلًا: «يُسمّى (خفرة المتنسّكين). أول رجل دينٍ وجدَ طريقه إلى هنا أقامَ في الدّاخل وصنعَ أعاجيب دفعَت آخرين إلى الإتيان والانضمام إليه. يقولون إن ذلك كان منذ ألفي عام، أمّا الباب فوُضِعَ في زمنٍ لاحق».

ربما كانت (خفرة المتنسّكين) مكانًا مظلمًا رطبًا قبل ألفي عام، أرضه من ترابٍ وتتردّد فيه أصداء تقاطُر المياه، لكنه لم يَعُد كذلك، فالكهف الذي دخلَته بريان ورفاقها تحوّل إلى معتكَفٍ دافئ مريح، تُغطّي البُسط الصّوف أرضه والمعلّقات جُدرانه، وتشعُّ فيه الشُّموع الطّويلة ضوءًا يكفي ويزيد. الأثاث غريب لكن بسيط؛ طاولة طويلة ودكّة وصندوق وعدّة رفوف ملأى بالكُتب ومقاعد، كلُّها مصنوع من الأخشاب المجروفة ذات الأشكال المتنافرة، وإن نُسقَت معًا ببراعةٍ وصُقِلَت حتى صارَت تلتمع بلونٍ ذهبي عميق في ضوء الشُّموع.

ليس الأخ الكبير كما توقّعته بريان. بدايةً، لا يبدو من مظهره أن لقب «الكبير» يَصلُح له، فبينما للإخوة الآخرين الذين ينتزعون الحشائش في الحديقة أكتاف وظهور الرّجال الأكبر سِنًّا المحنيّة، يقف هو منتصب القامة طويلها ويتحرّك بنشاط رجلٍ في ريعان الشّباب، كما أن وجهه ليس بالوجه الحنون الطيّب الذي توقّعت أن يكون لمُعالج، فرأسه كبير مربّع، وعيناه ثاقبتان، وأنفه أحمر مليء بالعروق، ومع أن قمّة رأسه جرداء فشعره كثيف كالذي يُغطّي فكّه الثّقيل.

فكّرت عذراء (تارث): *يبدو أقرب إلى رجلٍ مخلوق لكسر العظام من تجبيرها.*

تقدّم الأخ الكبير بخُطواتٍ واسعة ليُعانِق السِّبتون ميريبولد ويُرَبِّت على كلب، ثم أعلنَ: «يوم سعيد دومًا عندما يُشرِّفنا صديقانا ميريبولد وكلب بزيارةٍ أخرى»، والتفت إلى ضيوفه الآخَرين قائلًا: «والوجوه الجديدة مرحَّب بها دائمًا، إننا نرى القليل منها».

أدّى ميريبولد المجاملات المعتادة ثم جلس على الدِّكَّة. على عكس ناربرت لم يبدُ الأخ الكبير منزعجًا من جنس بِريان، لكن ابتسامته تذبذبَت وخفتَت حين أخبرَه السِّبتون بسبب مجيئها والسير هايل، ولم يردَّ إلّا بـ«مفهوم»، قبل أن يلتفت قائلًا: «لا بُدَّ أنكم ظمآنون. تفضَّلوا، اشربوا القليل من خمر تفّاحنا المحلّاة لتغسلوا حلوقكم من غُبار الطَّريق». صَبَّ لهم بنفسه في أكوابٍ من الخشب المجروف لا يتشابَه منها اثنان، ولمّا أثنَت عليها بريان قال لها: «سيِّدتي شديدة اللُّطف. لا نفعل أكثر من تقطيع الخشب وتلميعه. إننا في نعمةٍ هنا. حيث يلتقي النَّهر بالخليج تتصارَع التَّيّارات فتدفع إلينا أشياء غريبةً عجيبةً كثيرةً نجدها على شواطئنا. الخشب المجروف أقلُّها. لقد وجدنا كؤوسًا من الفضَّة وأوعيةً من الحديد وأجولةً من الصُّوف ولفافاتٍ من الحرير وخوذاتٍ صدئة وسيوفًا لامعةً... أجل، وعثرنا على ياقوت أيضًا».

أثارَ هذا اهتمام السير هايل، فسألَ: «ياقوت ريجار؟».

- «ربما. مَن يدري؟ المعركة دارَت على بُعد فراسخ عديدة من هنا، لكن النَّهر صبور لا يتعب. عثرنا على ستِّ حبّاتٍ وننتظر السّابعة».

عقَّب السِّبتون ميريبولد وهو يَفرُك قدمه ليتقشَّر الطِّين تحت أصابعه: «الياقوت أفضل من العظام. ليست كلُّ هدايا النَّهر تسرُّ. الإخوة الكرام ينتشلون الموتى من الماء أيضًا؛ الأبقار والغزلان الغارقة، والخنازير الميتة التي تنتفخ فتبلُغ نِصف حجم الحصان، أجل، والجُثث البشريّة أيضًا».

تنهّد الأخ الكبير قائلًا: «جُثث كثيرة هذه الأيام. حفّار القبور لا يعرف الرّاحة. رجال من أراضي النّهر ومن الغرب ومن الشّمال، كلُّهم تجرفهم المياه إلينا، الفُرسان والخدم على حدٍّ سواء. ندفنهم جنبًا إلى جنب، ستارك ولانستر، بلاكوود وبراكن، فراي وداري. هذا هو الواجب الذي يَطلُبه النّهر منا لقاء هداياه، ونؤدّيه بأفضل ما نستطيع. لكننا نجد امرأةً أحيانًا... أو أسوأ، طفلًا صغيرًا. تلك أقسى الهدايا طرًّا»، والتفت إلى السّيتون ميريبولد، وقال: «آملُ أن لديك الوقت لإبرائنا من خطايانا. منذ قتلَ المُغيرون السّيتون بينيت العجوز لم يأتنا أحد لسماع اعترافاتنا».

قال ميريبولد: «سأجدُ وقتًا، وإن كنتُ آملُ أن ذنوبكم هذه المرّة أفضل من آخِر مرّةٍ زُرتكم فيها». نبحَ كلب، فأردفَ: «أترى؟ لقد أصابَت كلب نفسه بالملل».

لاحت الحيرة على پودريك پاين، الذي قال: «ظننتُ أن لا أحد يستطيع الكلام. ليس لا أحد، وإنما الإخوة، الإخوة الآخَرون وليس أنت».

أجابَه الأخ الكبير: «مسموح لنا بالخروج عن الصّمت عند الاعتراف. من العسير الكلام عن الخطايا بالإشارات والإيماءات».

سألَه هايل هَنت: «هل أحرَقوا السّپت في (الملّاحات)؟».

اختفَت ابتسامة الرّجل، وقال: «أحرَقوا كلّ شيءٍ في (الملّاحات) باستثناء القلعة. الفرق أنها مبنيّة من الحجر... ولو أنها لم تنفع البلدة في شيءٍ كأنها مبنيّة من الورق. وقعَ على عاتقي أن أعالج بعض النّاجين الذين جلبَهم الصّيّادون إليّ عبر الخليج بَعد أن همدت النّار ووجدوا الرّسو آمنًا. ثمّة امرأة بائسة اغتصبوها مرارًا، وثدياها... سيّدتي، إنكِ ترتدين دروع الرّجال، فلن أعفيكِ من ذكر هذه الأهوال... ثدياها مُزّقا ونُهشا وأكِلا أكلًا، كأن من فعل بها هذا... وحش كاسر. فعلتُ ما استطعتُ من أجلها مع أنه قليل، وبينما تلفظ آخِر أنفاسها لم تصبّ أسوأ لعناتها على مَن اغتصبوها أو على الوحش الذي التهمَ لحمها الحيّ، بل على السير كوينسي كوكس الذي أوصدَ أبوابه عندما دخلَ الخارجون عن القانون البلدة، وجلسَ في الأمان وراء أسواره الحجريّة في حين صرخَ قومه وماتوا».

قال السّپتون ميريبولد برفق: «السير كوينسي رجل عجوز، أبناؤه وزوجا ابنتيه الوحيدتين بعيدون أو موتى، وأحفاده ما زالوا صغارًا. ماذا كان ليفعل وهو رجل واحد ضد كثيرين؟».

فكّرت بريان: *كان يُمكنه أن يُحاوِل، أن يموت*. *عجوزًا كان أم شابًا، الفارس الحقيقي يُقسِم على حماية من هم أضعف منه، أو يموت وهو يُحاوِل*.

قال الأخ الكبير للسّپتون ميريبولد: «كلام صحيح وحكيم. لا شكّ أن السير كوينسي سيسألك المغفرة عندما تَعبُر إلى (الملّاحات). يسرّني أنك هنا لإعطائه إيّاها، فأنا لم أستطِع»، ووضعَ كوب الخشب المجروف، ونهضَ مستطردًا: «جرس العشاء سيُدَقّ قريبًا. أيها الأصدقاء، هلّا أتيتم معي إلى السّپت لنُصلّي لأرواح أهل (الملّاحات) الطّيّبين قبل أن نجلس ونتقاسَم الطّعام والشّراب؟».

أجابَ ميريبولد: «يسرّنا هذا»، ونبحَ كلب.

كان عَشاؤهم في الشِّيتري أغرب وجبةٍ شهدَتها بِريان في حياتها، وإن لم تكن سيِّئةً على الإطلاق. الطَّعام تقليدي غير أنه شهيٌ للغاية؛ أرغفة من الخُبز السَّاخن، وآنية من الزُّبدة الطَّازجة، وعسل من خلايا نحل الشِّيتري، ويخنة غنيَّة بالسَّراطين وبلح البحر وثلاثة أنواع على الأقل من السَّمك. شرِبَ السِّبتون ميريبولد والسير هايل البتع الذي يصنعه الإخوة وأعلنا أنه ممتاز، في حين قنعت هي وبودريك بالمزيد من خمر التُّفَّاح الحلوة. ولم تكن الوجبة كئيبةً كذلك، إذ ردَّد ميريبولد صلاةً قبل تقديم الطَّعام، وبينما أكلَ الإخوة الجالسون إلى الموائد الطَّويلة الأربع عزفَ لهم أحدهم على القيثارة السَّامية مالئًا القاعة بالأنغام الهادئة العذبة، ولمَّا أذِنَ الأخ الكبير للمغنِّي في تناوُل وجبته تبادلَ الأخ ناربرت وناظر آخَر القراءة من (النَّجمة السَّباعيَّة).

مع ختام القراءة كانت الأطباق قد رفعَها المبتدئون المكلَّفون بالخدمة، أكثرهم صِبية في سِنِّ بودريك أو أصغر، لكن هناك رجالًا بالغين أيضًا، منهم حفَّار القبور الكبير الذي صادَفوه بينما يصعدون التَّلَّ وله تلك المشية الخرقاء المتمايلة كأنه نِصف مشلول. لدى فروغ القاعة طلبَ الأخ الكبير من ناربرت أن يُري بودريك والسير هايل سريريهما في المساكن، وقال لهما: «آملُ أنكما لا تُمانِعان في اقتسام حُجيرةٍ واحدة. ليست واسعةً، لكنكما ستجدانها مريحةً».

قال بودريك: «أريدُ البقاء مع الفارس، أعني سيِّدتي».

ردَّ الأخ ناربرت: «ما تفعله أنت والليدي بِريان في الخارج بينكما وبين (السَّبعة)، لكن على (جزيرة الهدوء) لا ينام رجل وامرأة تحت سقفٍ واحد ما لم يكونا متزوِّجين».

قال الأخ الكبير: «عندنا بعض الأكواخ المتواضعة المخصصة للنساء اللاتي يَزُرننا، سواء أكن نبيلات أم قرويّات. إنها لا تُستخدَم كثيرًا، لكننا نُحافِظ على نظافتها وجفافها. ليدي بِريان، هل تسمحين لي بأن أريكِ الطّريق؟».

- «نعم، شكرًا. بودريك، اذهب مع السير هايل. إننا ضيوف الإخوة المؤمنين، وتحت سقفهم تسري قواعدهم».

تقع أكواخ النساء في الجانب الشّرقي من الجزيرة، وتطلُّ على مساحةٍ شاسعة من الأوحال ومياه (خليج السّراطين) البعيدة. المكان أكثر برودةً ووعورةً هنا من الجانب الآخر المحجوب، والتلُّ أكثر تحدُّرًا، والطّريق يتعرّج بين الحشائش والنّباتات البرّيّة والصُّخور التي نحتتها الرّيح والأشجار الشّائكة الملتوية المتعلّقة بعنادٍ بجانب التّل. حملَ الأخ الكبير مصباحًا ليُضيء طريقهم إلى أسفل، وعند أحد المنعطفات توقّف قائلًا: «في اللّيالي الصّافية يمكنكِ أن تري أنوار (الملّاحات) من هنا، عبر الخليج، هناك»، وأشارَ إلى البُقعة التي يعنيها.

قالت بِريان: «ليس هناك شيء».

- «لم يتبقَّ إلّا القلعة. الصّيّادون أنفسهم رحلوا، القلائل المحظوظون الذين كانوا في الماء عندما أتى المغيرون وشاهدوا بيوتهم تحترق وسمعوا الصّريخ والبُكاء يترددان عبر الميناء خائفين من الرّسو بقواربهم، وحين رسوا أخيرًا ذهبوا لدفن أهاليهم وأصدقائهم. ما الذي تبقّى لهم في (الملّاحات) إلّا العظام والذّكريات المريرة؟ لقد نزحوا إلى (بِركة العذارى) أو بلداتٍ أخرى»، وأشارَ الأخ الكبير بمصباحه وواصلَ النّزول قائلًا: «لم تكن (الملّاحات) من الموانئ المهمّة قطّ، لكن السّفن اعتادت الرّسو هناك بين الحين والآخر. هذا ما أرادَه المغيرون، كانوا يبحثون عن قادِس أو كوج يحملهم عبر (البحر الضيّق)، وعندما لم يجدوا واحدًا أفرَغوا غضبهم ويأسهم في أهل البلدة. إنني أتساءلُ يا سيّدتي... علامَ تأملين أن تعثري هناك؟».

أجابته: «فتاة، بنت رفيعة النّسب في الثّالثة عشرة، لها وجه جميل وشَعر كستنائي».

بخفوتٍ قال الرّجل: «سانزا ستارك. هل تعتقدين أن تلك المسكينة مع كلب الصّيد؟».

- «الدورني قال إنها كانت في طريقها إلى (ريفرن). تيميون، كان مرتزِقًا من رِفقة الشُّجعان، قاتلًا ومغتصِبًا كذّابًا، لكني لا أظنّ أنه كذبَ بشأن هذا. قال إن كلب الصّيد اختطَفها وفَرّ بها».

- «مفهوم». انعطف الطّريق مرّةً أخرى وإذا بالأكواخ أمامهما. الأخ الكبير ذكَر أنها متواضعة، وهي كذلك بالفعل، إذ تبدو كأنها خلايا نحلٍ مبنيّة من الحجارة. قال مشيرًا إلى أقربها: «هنا»، وهو الكوخ الوحيد الذي يتصاعَد الدُّخان من فتحة التّهوية في منتصَف سقفه. اضطرّت بريان إلى طأطأة رأسها حين دخلَت كي لا يصطدم رأسها بالعارضة، وفي الدّاخل وجدَت أرضيّةً من التّربة وسريرًا من القشّ وأغطيةً من الفرو وحوض ماء وإبريقًا من خمر التّفّاح والقليل من الخُبز والجُبنة وبؤرة نارٍ صغيرة، بالإضافة إلى مقعدين صغيرين جلسَ الأخ الكبير على أحدهما ووضعَ المصباح قائلًا: «هل تسمحين بأن أبقى قليلًا؟ أشعرُ أن علينا أن نتكلّم».

قالت بريان: «إذا أردت»، وخلعَت حزام سيفها وعلّقته على المقعد الثّاني، ثم جلسَت مربّعةً ساقيها على السّرير.

قال الأخ الكبير: «ذلك الدورني لم يكذب، لكني أخشى أنكِ لم تفهميه. إنك تُطاردين الذّئبة الخطأ يا سيّدتي. إدارد ستارك كانت له بنتان، والأخرى هي مَن فَرّ بها كلب الصّيد، الصّغيرة».

حملقَت إليه بريان مذهولةً بفمٍ مفغور، ثم قالت: «آريا ستارك؟ أأنت واثق؟ أخت الليدي سانزا حيّة؟».

- «آنذاك، أمّا الآن... فلا أدري. ربما كانت بين الأطفال الذين قُتِلوا في (الملّاحات)».

أحسّت بكلامه كسكّينٍ في بطنها. *لا، لا، ستكون هذه قسوةً لا تُطاق*. «ربما... بمعنى أنك لست واثقًا؟».

- «ما أثِقُ به أن الفتاة كانت مع ساندور كليجاين في الخان عند مفترَق الطُّرق، ذلك الذي كانت صاحِبته العجوز ماشا هِدِل قبل أن يَشنقها الأسود، وواثق بأنهما كانا في طريقهما إلى (الملّاحات)، لكن بَعدها... لا، لا أدري أين هي أو إن كانت حيّةً حتى. على أن هناك شيئًا واحدًا أعرفه... الرَّجل الذي تُطارِدينه مات».

صدمَها هذا أيضًا، وتساءلَت: «كيف مات؟».

- «كما عاش، بالسّيف».

- «أتعرف هذا يقينًا؟».

- «دفنته بنفسي. يُمكنني أن أخبركِ بموضع قبره إذا أردتِ. لقد غطّيته بالحجارة لئلا ينبش أكَلة الجيف جُثمانه ووضعتُ خوذته فوق كومة الرُّكام لأعلِّم مثواه الأخير. كان هذا خطأً فادحًا، إذ عثرَ مُسافر آخَر على علامتي وأخذَها لنفسه. الرَّجل الذي اغتصبَ وقتَل في (الملّاحات) لم يكن ساندور كليجاين، ولو أنه لا يقلُّ خطورةً. أراضي النَّهر ملأى بأمثاله من حيوانات الجيف. لن أدعوهم بالذِّئاب، فالذِّئاب أنبل من هذا... والكلاب كذلك على ما أظنّ. لا أعرفُ إلّا القليل عن هذا الرَّجل ساندور كليجاين. كان حارس الأمير جوفري الشَّخصي لعدّة سنوات، وحتى هنا كنا نسمع بأفعاله خيرها وشرِّها. إذا كان نِصف ما سمعناه فقط صحيحًا فقد كان صاحِب روحٍ مريرة معذَّبة، رجلًا آثمًا يسخر من الآلهة والبشر على حدٍّ سواء. لقد خدم لكنه لم يجد فخرًا في خدمته، وقاتَلَ لكنه لم يعرف بهجة النَّصر، وشربَ ليُغرِق ألمه في بحرٍ من النَّبيذ. لم يُحِبّ أو يُحَبّ، دافعه الوحيد الكراهية، وارتكبَ خطايا عديدةً لكنه لم يسعَ إلى الغُفران، وفي حين حلمَ غيره بالحُبّ أو الثَّراء أو المجد كان هذا الرَّجل ساندور كليجاين يَحلُم بقتل أخيه، خطيئة شنيعة يجعلني مجرَّد الكلام عنها أرتجفُ، لكنها كانت الزَّاد الذي تغذَّى به والوقود الذي أبقى ناره مشتعلةً. على الرغم من خلوِّه من النُّبل كان أمل رؤية دماء أخيه على سيفه كلَّ ما عاش هذا المخلوق الحزين الغاضب من أجله... وحتى ذلك لم ينَله عندما طعنَ الأمير أوبرين الدورني السير جريجور بحربةٍ مسمومة».

قالت بِريان: «تتكلَّم كأنك تُشفِق عليه».

- «أشفقتُ عليه بالفعل، وكنتِ لتُشفقي عليه أيضًا لو أنكِ رأيتِه في النّهاية. لقد وجدته عند (الثالوث) وقد اجتذبَني إليه صُراخ ألمه، وتوسّل إليّ أن أعطيه هديّة الرّحمة، لكنّي مقسمٌ على عدم القتل ثانيةً، وبدلًا من ذلك غسلتُ جبهته المتّقدة بماء النّهر وأعطيته نبيذًا يشربه وكمّادةً لجرحه، لكن جهودي كانت أقلّ من اللّازم وفاتَ أوانها. كلب الصّيد ماتَ هناك بين ذراعيّ. ربما رأيتِ فَحلًا أسود كبيرًا في الاسطبل. كان هذا جواده الحربي سترينجر. اسم فيه تجديف على الآلهة. نُفَضِّل أن نُسمّيه دريفتوود بما أننا وجدناه عند النّهر كالخشب المجروف. أخشى أن له طبيعة سيّده السّابق».

الحصان. لقد رأته وسمعته يَرفُس، لكنها لم تفهم. خيول الحرب مدرّبة على الرّفس والعضّ، وفي المعارك تعدّ سلاحًا كالرّجال الذين يمتطونها. *مِثل كلب الصّيد.* قالت بقُنوط: «الأمر صحيح إذن، ساندور كليجاين مات».

قال الأخ الكبير: «لقد استراح»، وصمتَ لحظةً قبل أن يُردِف: «أنتِ صغيرة يا بنيّتي. لقد أحصيتُ أربعةً وأربعين يوم ميلاد... أي أنني أفوقكِ سنًّا مرّتين على ما أظنّ. هل سيُدهِشكِ أن تعلمي أنني كنتُ فارسًا ذات يوم؟».

- «لا، إنك تبدو أقرب إلى فارسٍ من رجل دين». يبوح بهذا صدره وكتفاه وفكّه المربّع السّميك. «لماذا تخلّيت عن الفُروسيّة؟».

- «لم أخترها قطُّ. أبي كان فارسًا، وكذا أبوه من قبله، وجميع إخوتي. تدرَّبت على المعارك منذ يوم قرَّروا أنني كبير بما فيه الكفاية لأن أحمل سيفًا خشبيًّا، وقد رأيت نصيبي منها ولم أكلِّل نفسي بالعار. كانت لي نساء أيضًا، وفي هذا كلَّلت نفسي بالعار، لأني أخذت بعضهن قسرًا. كانت هناك فتاة أردت أن أتزوَّجها، ابنة صُغرى لأحد اللوردات الصِّغار، لكني كنت ابن أبي الثَّالث ولم أملك أرضًا أو ثروةً أقدِّمها لها... فقط سيفي وحصاني وتُرسي. إجمالًا كنت رجلًا حزينًا، عندما لا أقاتلُ أسكرُ، حياتي مسطورة بالأحمر، بالدَّم والنَّبيذ».

سألته بريان: «ومتى تغيَّرت؟».

«حين مِتُّ في معركة (الثالوث). كنتُ أقاتلُ في سبيل الأمير ريجار، ولو أنه لم يعرف اسمي قَطُّ. لا أستطيعُ إخباركِ بسببٍ إلّا أن اللورد الذي خدمته خدم لورد يخدمُ لورد قرّر تأييد التنّين بدلًا من الوعل، ولو قرّر العكس لكنتُ على الجانب الآخَر من النّهر. كانت المعركة داميةً. أغاني المطربين تُريدنا أن نُصدِّق أنها كانت كلُّها بين ريجار وروبرت المتصارعين في الغدير من أجل المرأة التي يدّعي كلاهما محبّته لها، لكني أؤكِّد لكِ أن رجالًا غيرهما قاتلوا أيضًا، وكنتُ منهم. أصبتُ بسهمٍ في الفخذ وبآخَر في القدم، وقُتِلَ حصاني تحتي لكني واصلتُ القتال. ما زلتُ أذكرُ لهفتي على العثور على حصانٍ آخَر، فلم أكن أملك مالًا لشراء واحد، ودون حصانٍ لا أعودُ فارسًا. هذا هو الشّيء الوحيد الذي جالَ ببالي في الحقيقة، ولم أرَ الضّربة التي أسقطَتني. سمعتُ حوافر وراء ظَهري وفكّرتُ: *حصان!* لكن قبل أن ألتفت ارتطمَ شيء برأسي وأسقطَني في النّهر، حيث كان يُفترَض أن أغرق، وبدلًا من ذلك أفقتُ لأجد نفسي على (جزيرة الهدوء). قال لي الأخ الكبير إن المَدّ جرفَني إليهم عاريًا كيوم مولدي، ولا أستطيعُ أن أتصوّر إلّا أن أحدًا وجدَني في المياه الضّحلة فجرّدني من درعي وحذائي وسراويلي قبل أن يدفعني إلى المياه الأعمق، ولذا أحسبُ أن من الملائم أنني بدأتُ حياتي الثّانية بالطّريقة ذاتها. بَعدها أمضيتُ الأعوام العشرة التّالية في صمت».

قالت بريان: «مفهوم». لا تدري لِمَ يحكي لها كلَّ هذا أو إن كان هناك شيء آخَر يُمكنها أن تردّ به.

- «حقًّا؟»، ومالَ الأخ الكبير واضعًا يديه الكبيرتين على رُكبتيه، وتابعَ: «إذا كان هذا صحيحًا فدعكِ من مهمَّتك هذه. كلب الصَّيد مات، وعلى كلِّ حالٍ لم تكن سانزا ستارك معه من الأصل. وبالنِّسبة إلى الوحش الذي يعتمر خوذته فسيقع ويُشنَق. الحروب تكاد تضع أوزارها، وهؤلاء الخارجون عن القانون لن يستطيعوا العيش في زمن السَّلام. راندل تارلي يُلاحِقهم من (بِركة العذارى)، ووالدر فراي من (التَّوأمتين)، وثمَّة لورد شاب جديد في (داري)، رجل ورِع مؤكَّد أنه سيُعيد الأمور إلى نصابها السَّليم في أراضيه. عودي إلى دياركِ يا بنيَّتي. إن لكِ ديارًا، وهذا أكثر مما يستطيع كثيرون أن يقولوا في هذه الأيام السَّوداء. ثم إن لكِ أبًا نبيلًا لا ريب أنه يحبُّكِ. فكِّري في حُزنه إذا لم ترجعي إليه. ربما يأخذون إليه سيفكِ وتُرسكِ بَعد سقوطكِ، بل وربما يُعَلِّقهما في بهوه ويتطلَّع إليهما بفخر... لكن إذا سألتِه فإنني أعلمُ أنه سيقول لكِ إنه يُؤثِر أن تكون معه ابنته الحيَّة لا تُرسها المحطَّم».

اغرورقت عينا بِريان بالدّموع، وقالت: «ابنته. هذا ما يستحقُّه، ابنة تُغنّي له وتنشر البهجة في بهوه وتحمل له أحفاده. ويستحقُّ ابنًا أيضًا، ابنًا قويًا شهمًا يُكرِّم اسمه. جالادون غرِق حين كان في الثّامنة وكنتُ في الرّابعة، وأليسين وآريان ماتتا في المهد. أنا الولد الوحيد الذي سمحت له الآلهة بالبقاء، المسخ الذي لا يَصلُح لأن يكون ابنًا أو ابنةً». لحظتها انصبَّ كلُّ شيءٍ من بين شفتَي بِريان وتدفّق كالدّم الأسود من جرح؛ الخيانات والخِطبات، رونيت الأحمر ووردته، اللورد رنلي يَرقُص معها، الرِّهان على بتولتها، الدّموع المريرة التي ذرفتها ليلة تزوّج مليكها مارچري تايرل، الالتحام الجماعي في (جسر العلقم)، معطف قوس قزح الذي تاهت به فخرًا، الظِّلُّ في سُرادق الملك، موت رنلي بين ذراعيها، (ريڤررَن) والليدي كاتلين، الرّحلة في (الثّالوث)، مبارزة چايمي في الغابة، الممثّلون الشُّفّاحون، چايمي يصيح: صفّير، چايمي في الحوض في (هارنهال) والبخار يتصاعد من جسده، مذاق دم ڤارجو هوت حين قضمَت أذنه، جُبّ الدِّب، وثبة چايمي إلى الرِّمال، الرّحلة الطّويلة إلى (كينجز لاندنج)، سانزا ستارك، العهد الذي أخذَته على نفسها لچايمي، العهد الذي أخذَته على نفسها لليدي كاتلين، (حافِظ العهد)، (وادي الغسق) و(بِركة العذارى)، ديك الرّشيق و(الرّأس المتصدِّع) و(قلعة الهمس)، الرّجال الذين قتلَتهم...

أنهت كلامها قائلةً: «يجب أن أعثر عليها. ثمّة آخَرون يبحثون عنها، وكلُّهم يسعى إلى القبض عليها وبيع الملكة إياها. يجب أن أعثر عليها أولًا كما وعدتُ چايمي. لقد سمّى السّيف (حافِظ العهد). يجب أن أحاول أن أنقذها... أو أموت وأنا أحاولُ».

- «ألف سفينة!». كان شعر الملكة الصّغيرة منفوشًا أشعث، وجعلَ ضوء المشاعل وجنتاها تبدوان متورّدتين كأنها أتت لتوّها من حضن رجل. «جلالة الملكة، يجب الرّدّ عليهم بعنف!». رنّت كلمتها الأخيرة على عوارض السّقف وتردّد صداها في قاعة العرش الفسيحة.

جالسةً على مقعدها الذّهبي والقرمزي العالي عند قاعدة العرش الحديدي، أحسّت سرسي بالشّدّ يزداد في عُنقها، وفكّرت: يجب. *تتجرّأ وتقول لي يجب*. كم تتوق إلى صفع ابنة تايرل على وجهها. *حريٌّ بها أن تكون على رُكبتيها تتوسّل مني العون، وبدلًا من ذلك تقلُّ حياءها وتُخبِر ملكتها الشّرعيّة بما عليها أن تفعله*.

قال السير هاريس سويفت لاهثًا: «ألف سفينة؟ مؤكّد أن هناك خطأ. ليس في البلاد لورد يملك ألف سفينة».

أيّده أورتون ميريويذر قائلًا: «أحمق مرعوب ما أحصى ضِعف العدد، أو أن حمَلة راية اللورد تايرل يكذبون علينا ويُهَوّلون أعداد العدوّ كي لا نحسبهم متهاونين».

يُلقي ضوء المشاعل المثبّتة على الجدار الخلفي ظِلّ العرش الحديدي الطّويل الشّائك حتى منتصَف المسافة إلى الباب، بينما يغيب طرف القاعة البعيد في الظّلام، ولا تَشعر سرسي إلّا بالظّلال كأنها تنغلق عليها أيضًا. *أعدائي في كلّ مكانٍ وأصدقائي معدومو الفائدة*. ما عليها إلّا أن تُلقي نظرةً على مستشاريها لتعلم هذا. وحدهما اللورد كايبرن وأوران ووترز يبدوان مستيقظين، في حين يقف الآخَرون مشوّشين مرتبكين بَعد أن دَقّ زسل مارجري أبوابهم وأيقَظوهم من النّوم. في الخارج اللّيل أسود ساكن، والمدينة والقلعة نائمتان، وهنا يبدو بوروس بلاونت ومرين ترانت نائمين أيضًا ولكن على أقدامهما، وحتى أوزموند كِتلبلاك يتثاءب. *لكن ليس لوراس، ليس فارس الزُّهور*. كان واقفًا وراء أخته الصّغيرة، ظِلٌّ شاحب يستريح على وَركه سيف طويل.

رَدّ أوران ووترز على أورتون ميريويذر قائلًا: «نِصف عدد السُّفن ما زالَ يعني أنها خمسمئة يا سيّدي. فقط (الكرمة) تملك قوّةً كافيةً في البحر لمواجهة أسطولٍ بهذا الحجم».

سألَه السير هاريس: «وماذا عن الدُّرمونات الجديدة؟ سُفن الحديديّين الطّويلة لا يُمكن أن تَصمُد أمام دُرموناتنا بالتّأكيد. (مطرقة الملك روبرت) أقوى سفينةٍ حربيّة في (وستروس) بأسرها».

قال ووترز: «كانت كذلك. (الجميلة سرسي) ستكون نظيرتها حالما تكتمل، و(اللورد تايوين) سيكون حجمها ضِعف الاثنتين. لكن نِصف الشفن فقط جاهز، ولا واحدة منها طاقمها كامل، وحتى عندئذٍ ستظلُّ الأعداد ضدنا إلى حدٍّ كبير. السّفينة الطّويلة التّقليديّة صغيرة الحجم مقارنةً بقوادسنا، هذا صحيح، لكن الحديديّين لديهم سُفن أكبر أيضًا. (الكراكِن العظيم) سفينة اللورد بالون وسُفن الأسطول الحديدي الحربيّة مبنيّة للمعارك لا الغارات، وتُضاهي قوادسنا الأقلّ شأنًا في الشرعة والقوّة، وأكثرها أطقمه وربابنته أفضل. الحديديُّون يقضون حياتهم كلّها في البحر».

كان على روبرت أن يُطَهِّر (جُزر الحديد) بَعدما تمرّد بالون جرايچوي عليه. لقد حطّم أسطولهم وأحرقَ بلداتهم واقتحم قلعتهم، لكن بَعد أن أركعَهم سمحَ لهم بالنُّهوض من جديد. كان عليه أن يصنع جزيرةً أخرى من جماجمهم. هذا ما كان أبوها ليفعله، لكن روبرت لم يتمتّع قَطّ بالإرادة التي يُفترَض أن يملكها الملوك ليحفظ السّلام في البلاد. قالت: «الحديديُّون لم يَجسُروا على الإغارة على (المرعى) منذ كان داجون جرايچوي جالسًا على كُرسي حجر اليم. لماذا يفعلون هذا الآن؟ ما الذي شجّعهم؟».

قال كايبرن الواقف مخبِّئًا يديه داخل كُمّيه: «ملكهم الجديد، أخو اللورد بالون الملقّب بعين الغُراب».

قال المايستر الأكبر پايسل: «غِربان الجيف تُقيم ولائمها من لحم الموتى والمحتضرين ولا تُهاجم الحيوانات السّليمة المعافاة. نعم، سيَتخِم اللورد يورون معدته بالذّهب والغنائم، لكن حالما نتحرّك ضده سيرجع إلى پايك كديدن اللورد داجون في عصره».

قالت مارجري تايرل: «أنت مخطئ. الفغيرون لا يُهاجمون بكلّ هذه القوّة. ألف سفينة! اللورد هيويت واللورد تشستر قُتِلا، وكذا ابن اللورد سيري ووريثه. سيري نفسه فَرَّ إلى (هايجاردن) بما تبقّى له من سُفن، واللورد جريم سجين في قلعته. ويلاس يقول إن الملك الحديدي نصَّب أربعة لوردات جُددًا من رجاله بدلًا منهم».

ويلاس، العاجز. هو الملوم على هذا. ذلك الأبله مايس تايرل ترك الدّفاع عن (المرعى) بين يدَي ابنه التّعس الضّعيف. «الرّحلة من (جُزر الحديد) إلى (الثّروس) طويلة. كيف قطعت ألف سفينة كلّ تلك المسافة دون أن يراها أحد؟».

أجابت مارجري: «ويلاس يعتقد أنهم لم يتحرّكوا بمحاذاة الشّاحل، بل ابتعدوا عن اليابسة وتوغّلوا في (بحر الغروب)، ثم عادوا وانقضّوا من الغرب».

الأرجح أن العاجز لم يضع رجالًا في أبراج الحراسة، والآن يخشى أن نعلم هذا. الملكة الصّغيرة تختلق الأعذار لأخيها. أحسّت سرسي بجفاف فمها، فقالت لنفسها: *أريدُ كأسًا من نبيذ (الكرمة) الذّهبي.* إذا كانت خُطوة الحديديّين التّالية أن يأخذوا (الكرمة) فربما يُصيب العطش البلاد كلّها عمّا قريب. «قد تكون لستانيس يد في هذا. بالون جرايجوي عرضَ على أبي حِلفًا، وربما عرضَ أخوه واحدًا على ستانيس».

قطّب پايسل جبينه متسائلًا: «وما الذي يجنيه اللورد ستانيس من...».

- «يجني موطئًا آخر لقدمه، وهناك الغنائم أيضًا. ستانيس يحتاج إلى الذّهب ليَنقُد مرتزقته أجورهم، وبالإغارة على الغرب يأمل أن يصرف انتباهنا عن (دراجونستون) و(ستورمز إند)».

أومأ اللورد ميريويذر برأسه، وقال: «تشتيت انتباه. ستانيس أمكر مما حسبنا. ذكاءٌ من جلالتكِ أن تستشفّي حيلته».

قال پايسل: «اللورد ستانيس يُكافِح لكسب الشّماليّين إلى صفوفه، وإذا صادق الحديديّين فلا أمل له...».

قاطعته سرسي متسائلةً كيف يُمكن لرجلٍ عليم مِثله أن يكون بهذا الغباء: «الشّماليّون لن يقبلوه. اللورد ماندرلي قطعَ رأس فارس البصل ويديه كما أكّد لنا آل فراي، وثمّة نِصف دستة من اللوردات الشّماليّين الآخَرين الذين انضمّوا إلى اللورد بولتون. عدوّ عدوّي صديقي. إلى من إذن يلجأ ستانيس إلّا أعداء الشّمال من الحديديّين والهَمج؟ لكن إذا كان يحسب أنني سأقعُ في الفخّ فهو أكثر منك حُمقًا»، وعادَت تلتفت إلى الملكة الصّغيرة قائلةً: «(جُزر التُّروس) تنتمي إلى (المرعى). جريم وسيري والبقيّة مقسمون على الولاء لـ(هايجاردن)، وعلى (هايجاردن) أن تردّ على هذا العُدوان».

قالت مارچري تايرل: «(هايجاردن) سترُدّ. ويلاس أرسلَ خبرًا إلى لايتون هايتاور في (البلدة القديمة) ليحرص على تشديد دفاعاته، وجارلان يحشد الرِّجال لاسترداد الجُزر، لكن الجزء الأكبر من قوّتنا مع أبي. يجب أن نبعث له برسالةٍ في (ستورمز إند) على الفور».

- «ونرفع الحصار؟». لا تروق سرسي وقاحة مارچري. *تقول لي على الفور. هل تحسبني وصيفتها؟* «لا شكّ لديّ في أن اللورد ستانيس سيُسَرُّ لهذا. ألم تُصغي يا سيّدتي؟ إذا نجحَ في صرف انتباهنا عن (دراجونستون) و(ستورمز إند) إلى تلك الصّخور...».

شهقَت مارچري، وقالت: «صخور؟ هل قالت صاحبة الجلالة إنها صخور؟».

وضعَ فارس الزُّهور يده على كتف أخته قائلًا: «بَعد إذن جلالتكِ، من تلك الصُّخور المزعومة يُهدِّد الحديديُّون (الكرمة) و(البلدة القديمة)، فمِن معاقل (الثُّروس) يستطيع المغيرون الإبحار في (الماندر) إلى قلب (المرعى) ذاته كما اعتادوا قديمًا، وبعددٍ كافٍ من الرِّجال بإمكانهم تهديد (هايجاردن) نفسها».

قالت الملكة بمنتهى البراءة: «حقًّا؟ إذن على أخويك الشُّجاعين طردهم من على تلك الصُّخور، وسريعًا».

قال السير لوراس: «كيف تقترح الملكة أن يفعلا ذلك بلا سُفنٍ كافية؟ ويلاس وجارلان يقدران على حشد عشرة آلاف رجل في غضون أسبوعين، وضِعف هذا العدد خلال دورة قمر، لكنهم لا يستطيعون المشي على الماء يا صاحِبة الجلالة».

ذكَّرته سرسي قائلةً: «(هايجاردن) تستقرُّ أعلى (الماندر). أنتم وأتباعكم تملكون ألف فرسخٍ من السّاحل. أليس هناك صيّادون؟ ألا توجد قوارب نُزهة أو عبّارات أو قوادس نهريّة أو زوارق؟».

أجابَ السير لوارس: «هناك الكثير».

- «إذن فمن المفترَض أن يكفي هذا لحمل جيشٍ عبر مساحةٍ صغيرة من المياه في رأيي».

- «وعندما تنقضُّ الشفن الطّويلة على أسطولنا البائس بينما يقطع تلك «المساحة الصّغيرة من المياه»، فما الذي تُريدنا صاحِبة الجلالة أن نفعله عندها؟».

اغرقوا. «(هايجاردن) تملك الذّهب أيضًا. لكم إذني في استئجار قراصنةٍ من وراء (البحر الضيِّق)».

زدّ لوارس باحتقار: «تعنين قراصنةً من (مير) و(لِيس)؟ حُثالة المُدن الحُرّة؟».

وقح كأخته. قالت بعذوبيةٍ سامّة: «من المؤسف أن علينا جميعًا التّعامُل مع الحُثالة بين الحين والآخر. هل لديك فكرة أفضل؟».

- «وحدها (الكرمة) تملك السُّفن الكافية لاستعادة مصبِّ (الماندر) من الحديديِّين وحماية أخوي من سُفنهم الطَّويلة خلال العبور. أتوسَّلُ إلى جلالتكِ أن تُرسلي إلى (دراجونستون) وتأمري اللورد ردواين بالإبحار في الحال».

على الأقل يتمتَّع بعقلٍ كافٍ لأن يتوسَّل. يملك پاكستر ردواين مئتي سفينةٍ حربيَّة وخمسة أضعافها من القراقير وأكواج النَّبيذ والقوادس التِّجاريَّة وسُفن صيد الحيتان، على أن ردواين مخيِّم عند أسوار (دراجونستون)، والجزء الأكبر من أسطوله مشغول بنقل الرِّجال عبر (الخليج الأسود) من أجل الهجوم على معقل الجزيرة، والبقيَّة تجوب (خليج السُّفن الغارقة) إلى الجنوب، حيث يحول وجودها وحده دون إمداد (ستورمز إند) بالمؤن من البحر.

قال أوران ووتيز متميِّزًا غيظًا من اقتراح السير لوراس: «إذا أبحرَت سُفن اللورد ردواين فكيف ننقل المؤن إلى رجالنا في (دراجونستون)؟ دون قوادس (الكرمة) كيف نستمرُّ في حصار (ستورمز إند)؟».

- «يُمكن استئناف الحصار لاحقًا بَعد...».

قاطعته سرسي: «(ستورمز إند) أعلى قيمة مئة مرَّة من (الثَّروس)، و(دراجونستون)... ما دامَت (دراجونستون) في يدَي ستانيس باراثيون فستبقى سيفًا مصلتًا على رقبة ابني. سنسمح للورد ردواين وأسطوله بالإبحار عند سقوط القلعة»، ونهضَت الملكة قائلةً: «هذا الاجتماع انتهى. أيها المِايستر الأكبر پايسل، أريدُ كلمةً معك».

جفلَ العجوز كأن صوتها أيقظَه بخلمٍ ما من شبابه، لكن قبل أن يقوم تقدّم لوراس تايرل بخُطى سريعة لدرجة أن الملكة تراجعَت مذعورةً، وكانت على وشك أن تصيح في السير أوزموند أن يُدافِع عنها عندما جثا فارس الزُّهور على رُكبته أمامها قائلًا: «جلالة الملكة، اسمحي لي بالاستيلاء على (دراجونستون)».

ارتفعَت يد أخته إلى فمها، وقالت: «لوراس، لا».

تجاهلَ السير لوراس مناشَدتها، وتابعَ: «تجويع (دراجونستون) حتى تخضع سيستغرق نِصف عامٍ كما ينوي اللورد پاكستر أن يفعل. كلِّفيني بالقيادة يا صاحِبة الجلالة. ستكون القلعة ملكَكِ خلال أسبوعين ولو اضطررت إلى أن أهدمها بيدَي».

لا أحد أعطى سرسي هديَّة بهذه الحلاوة منذ هرعَت إليها سانزا ستارك لتفضَح لها عن خُطط اللورد إدارد، فقالت وقد سرَّتها رؤية وجه مارچري الذي امتقعَ: «شجاعتك تحبس أنفاسي يا سير لوراس. لورد ووترز، هل أيٌّ الدُّرمونات الجديدة صالح للإبحار؟».

- «(الجميلة سرسي) يا جلالة الملكة. إنها سفينة سريعة، وقويّة مِثل سميَّتها الملكة».

- «رائع. فلتحمل (الجميلة سرسي) فارس الزُّهور إلى (دراجونستون) على الفور. سير لوراس، القيادة لك. عِدني بأنك لن ترجع قبل أن تكون (دراجونستون) لتومن».

ردَّ: «سأفعلها يا جلالة الملكة»، ونهضَ.

لثمَته سرسي على كلتا وجنتيه، ولثمَت أخته أيضًا وهمسَت لها: «إن لكِ أخًا باسلًا». ولكن إمّا أن مارچري لم تجد الكياسة لتردّ وإمّا أن الخوف سلبَها القُدرة على الكلام.

كانت ساعات عدّة لا تزال تفصلهم عن الفجر عندما خرجت سرسي من باب الملك وراء العرش الحديدي، يتقدَّمها السير أوزموند بمشعلٍ ويمشي كايبرن إلى جوارها، في حين جدّ بايسل السّير ليلحق بهم، وقال لاهثًا: «بَعد إذن صاحبة الجلالة، الشُّبّان يُبالِغون في جراءتهم ولا يُفكِّرون أبدًا إلّا في أمجاد المعركة وليس في أخطارها. السير لوراس... خطّته هذه محفوفة بالمخاطر. مجرّد الهجوم على أسوار (دراجونستون)...».

- «... شَجاعة بالغة».

- «... شَجاعة، نعم، ولكن...».

- «لستُ أشك في أن فارس الزُّهور سيكون أول رجلٍ يَبلغ الشُّرفات». *وربما أول من يَسقُط*. النَّغل المجدور الذي تركَه ستانيس للدِّفاع عن قلعته ليس بطل مبارياتٍ غريرًا وإنما قاتل مخضرم، وإن شاءت الآلهة فسيُعطي السير لوراس النّهاية المجيدة التي يبدو أنه يُريدها. *بفرض أن الفتى لن يغرق في الطّريق*. ليلة البارحة هبّت عاصفة أخرى عاتية، وانهمر المطر الأسود مدرارًا طيلة ساعات. *أولن يكون ذلك محزنًا؟ الغرق نهاية تقليديّة. السير لوراس يشتهي المجد كما يشتهي الرِّجال الحقيقيّون النِّساء، وأقلُّ ما تستطيع الآلهة فِعله أن تمنحه ميتةً تليق بالأغاني*.

لكن مهما حدث للفتى في (دراجونستون) فالملكة الفائزة. إذا أخذ لوراس القلعة فتلك ضربة موجعة لستانيس ويستطيع أسطول ردواين الإبحار لمواجهة الحديديّين، وإذا أخفق فستحرص على أن يتحمّل نصيب الأسد من اللّوم. لا شيء يُفقِد البطل بريقه كالفشل. *وإذا عاد محمولًا على تُرسه مغطّى بالدّم والمجد فسيكون السير أوزني موجودًا لمواساة أخته في فجيعتها*.

لم تَعُد سرسي قادرةً على كتمان الضَّحكة، ومن بين شفتيها تفجَّرت لتتردَّد على جُدران الزُّواق.

حدَّق المِايستر الأكبر پايسل إليها بفمٍ مرتخٍ، وسألَها: «جلالة الملكة، لماذا... لماذا تضحكين؟».

أجابَت مضطرَّةً: «كي لا أبكي. إن قلبي يتفجَّر حُبًّا للسير لوراس وإقدامه».

تركَت المِايستر الأكبر على السَّلالم الملتفَّة مفكِّرةً بحسم: *لم يَعُد لهذا الرَّجل نفع البتَّة*. يبدو أن پايسل لا يفعل شيئًا في الفترة الأخيرة إلَّا ابتلاءها بالتَّحذير والاعتراض، حتى إنه اعترضَ على التَّفاهم الذي توصَّلت إليه مع السِّيتون الأعلى، محملقًا إليها بعينين منطفئتين دامعتين حين أمرَته بإعداد الأوراق الضَّروريَّة ومثرثرًا عن التَّاريخ السَّحيق، إلى أن بترَت سرسي كلامه قائلةً بحزم: «عهد الملك ميجور انتهى وكذلك مراسيمه. الآن عهد الملك تومن وعهدي». *كان الأفضل لي أن أتركه يضمحلُّ في الزَّنازين السَّوداء*.

قال اللورد كايبرن وهم يَعبُرون فوق الخندق الجاف الذي يُطوِّق (حصن ميجور): «إذا سقطَ السير لوراس فستحتاج صاحِبة الجلالة إلى فارسٍ آخَر جديرٍ بالحرس الملكي».

أيَّدته قائلةً: «يجب أن يكون أحدًا فائقًا، أحدًا شابًّا وسريعًا وقويًّا يُنسي تومن السير لوراس تمامًا. لا بأس بشيءٍ من البسالة، لكن يجب ألَّا يمتلئ عقله بالأفكار الحمقاء. هل تعرف رجلًا كهذا؟».

أجابَ كايبرن: «للأسف لا، لكنني أفكِّرُ في نصيرٍ من نوعٍ آخَر. ما يفتقر إليه من البسالة سيردُّه عشرة أضعاف بالإخلاص. سيحمي ابنكِ ويَقتُل أعداءكِ ويحفظ أسراركِ، وما من رجلٍ حي سيستطيع الصُّمود أمامه».

- «هذا ما تقوله أنت. الكلام هواء. في الوقت المناسب يُمكنك الإفصاح عن رجلك المثالي هذا وسنرى إن كان كما وعدت».

تلألأ الاستمتاع في عينَي اللورد كايبرن وهو يقول: «سيُغنُّون عنه، أقسمُ لك. هل لي أن أسأل عن الدِّرع؟».

- «طلبتُ ما أخبرتَني به. صانع السِّلاح يحسبني مجنونةً، يُؤكِّد لي أن لا رجل بالقوَّة الكافية للحركة والقتال بكلِّ هذا المعدن الثَّقيل»، ورمقَت سرسي المِايستر منزوع السِّلسلة، وأردفَت: «حاوِل أن تخدعني وستموت صارخًا. لا بُدَّ أنك تعي ذلك».

- «دائمًا يا جلالة الملكة».

- «عظيم. لا تقل المزيد في هذا الصَّدد».

- «الملكة حكيمة. هذه الجُدران لها آذان».

- «صحيح». أحيانًا في اللَّيل تسمع سرسي أصواتًا خافتةً، حتى في مسكنها ذاته، فتقول لنفسها: *إنها فئران داخل الجُدران لا أكثر.*

إلى جوار فِراشها وجدَت شمعةً مشتعلةً، لكن نار المستوقَد انطفأت ولا ضوء آخَر، ثم إن الغُرفة باردة أيضًا. خلعَت سرسي فُستانها تاركةً إياه يتكوَّم على الأرض ودخلَت تحت الأغطية، وعلى الجانب الآخَر من الفِراش تحرَّكت تاينا وغمغمَت بنعومة: «جلالة الملكة، ما السَّاعة؟».

- «ساعة البومة».

على الرغم من أن سرسي تنام غالبًا بمفردها فإنها لم تحبّ هذا قطّ. أقدم ذكرياتها عن اقتسام الفِراش مع چايمي حين كان كلاهما صغيرًا للغاية ولا أحد يستطيع التمييز بينهما، ولاحقًا بَعد الفصل بينهما عرفَت سلسلةً من وصيفات الفِراش والرّفيقات، أكثرهن فتيات من سِنّها، بنات فُرسان بيت أبيها وحمَلة رايته، لكن ولا واحدة منهن أرضَتها، وقليلات بقين مدّةً طويلةً. *غادرات صغيرات جميعهن، مخلوقات باكية مضجرة لا تكفُّ عن حكاية القِصص ومحاولة الحيلولة بيني وبين چايمي*. ومع ذلك مرّت عليها ليالٍ في أعماق (الصّخرة) السّوداء كانت لتُرحّب فيها بدفئهن إلى جوارها. الفِراش الخالي فِراش بارد.

لا سيّما هنا. هذه الغُرفة باردة، وزوجها الملوكي المأفون مات تحت هذه المظلّة تحديدًا. *روبرت باراثيون الأول، عسى ألّا يأتي ثانٍ أبدًا*. رجل بليد سكّير غاشم. *فليترنّد بُكاؤه في دركات الجحيم*. تاينا تُدفّئ الفِراش أفضل من روبرت كثيرًا، ولا تُحاوِل أبدًا أن تفتح ساقَي سرسي بالإكراه، وفي الفترة الأخيرة تُشارِك الملكة فِراشها أكثر من زوجها اللورد ميريويذر، ولا يبدو أن أورتون يُمانِع... أو يُمانِع لكنه أعقل من أن يبوح بهذا.

- «قلقتُ حين استيقظتُ ولم أجدكِ»، غمغمَت الليدي ميريويذر وهي تعتدل جالسةً وتستند إلى الوسائد، وقد تشابكَت الأغطية حول خصرها. «هل من خطبٍ ما؟».

أجابَت سرسي: «لا، كلُّ شيءٍ على ما يُرام. غدًا سيُبحِر السير لوراس إلى (دراجونستون) ليظفر بالقلعة ويُطلِق أسطول ردواين ويُثبِت رجولته لنا جميعًا». حكَت للمايريّة كلّ ما جرى في ظِلّ العرش الحديدي المتقلقل، ثم قالت: «من دون أخيها الشُّجاع ملكتنا الصّغيرة تكاد تكون عاريةً. إن معها حُرّاسها بالتّأكيد، لكني أرسلُ قائدهم هنا وهناك في أنحاء القلعة. إنه رجل ثرثار على شترته الطّويلة سنجاب، والسّناجب تفرُّ من الأسود. ليس باستطاعته تحدّي العرش الحديدي».

قالت الليدي ميريويذر محذِّرةً: «مارچري حولها رجال مسلَّحون آخَرون. لقد كوَّنت صداقاتٍ كثيرة في البلاط، وهي وبنات عمومتها الصِّغيرات لهن معجبون جميعًا».

ردَّت سرسي: «لا يُقلِقني قليلون من خاطبي الوُد، أمَّا الجيش المعسكِر عند (ستورمز إند)...».

- «ماذا تنوين أن تفعلي يا جلالة الملكة؟».

وجدَت سرسي السُّؤال مباشرًا على نحوٍ لا يروقها، فقالت: «لماذا تسألين؟ آملُ أنكِ لا تُفكِّرين في إطلاع ملكتنا الصَّغيرة المسكينة على تأمُّلاتي الفارغة».

- «مستحيل. أنا لستُ تلك الفتاة سينل».

لا ترغب سرسي في التَّفكير في سينل. *لقد ردَّت فضلي بالخيانة*. سانزا ستارك فعلَت المِثل، ومن قبلها ميلارا هيذرسپون وچاين فارمان السَّمينة في صِباهن. *لم أكن لأدخل تلك الخيمة إطلاقًا لولاهما، لم أكن لأسمح لماجي الضِّفدعة بتذوُّق غدي في قطرةِ من الدَّم*. «سأحزنُ كثيرًا إذا خُنتِ ثقتي يا تاينا. لن أجد خيارًا إلَّا إعطاء اللورد كايبرن إياكِ، لكني أعلمُ أنني سأبكي».

- «لن أعطيكِ سببًا للبُكاء أبدًا يا جلالة الملكة، وإذا فعلتُ فما عليكِ إلَّا أن تقولي وسأُسلِّمُ نفسي إلى كايبرن. أريدُ فقط أن أكون قريبةً منكِ، أن أخدمكِ بأيِّ وسيلةٍ تَطلُبين».

- «وما المكافأة التي تتوقَّعينها لقاء هذه الخدمة؟».

قالت تاينا: «لا شيء. يُسعدني فقط أن أسعدكِ»، واعتدلَت على جانبها وبشرتها الزَّيتونيَّة تلتمع في ضوء الشَّمعة. ثدياها أكبر من ثديَي الملكة وتكلّلهما حلمتان سوداوان كبيرتان. *إنها أصغر مني، وثدياها لم يبدآ في الارتخاء بعد.* تساءلَت سرسي كيف ستشعر إذا قبّلت امرأةً أخرى، ليس بخفّةٍ على الوجنة على سبيل الكياسة كما تفعل بنات الأعيان، وإنما على الشَّفتين مباشرةً، وشفتا تاينا ممتلئتان للغاية. تساءلَت عن شعورها إذا مصّت هاتين الحلمتين، إذا مدّدت المايريَّة على ظَهرها وفتحت ساقيها واستعملَتها استعمال الرَّجل للمرأة، استعمال روبرت لها حين كان يسكر دون أن تستطيع إزاحته من فوقها بيديها أو بفمها.

كانت تلك أسوأ اللَّيالي طرًّا، عندما تتمدَّد تحته عاجزةً بينما يقضي وطره منها وقد فاحت منه رائحة النَّبيذ وراح يخور كالخنازير البرِّيَّة. عادةً كان يتدحرج من فوقها ويغيب في النَّوم ما إن يَفرُغ ويتعالى غطيطه قبل أن تجفَّ نطفته على فخذيها، وبَعدها كانت تَشعر بالألم دائمًا، تتوجَّع بين ساقيها ويتوجَّع ثدياها من هرسه إياهما. المرَّة الوحيدة التي جعلَها تبتلُّ كانت ليلة زفافهما.

في بداية زواجهما كان روبرت وسيمًا كفايةً، طويل القامة قويًّا متين البنيان، لكن شَعره أسود غزير، كثيف على صدره وخشن حول عانته. أحيانًا عندما يلجها كانت الملكة تُفكِّر: *الرَّجل الخطأ عادَ من معركة (الثالوث)*. في السَّنوات القليلة الأولى، وقت أن اعتادَ أن يعتليها أكثر، كانت تُغلِق عينيها وتتظاهَر بأنه ريجار، إذ لم تستطِع التَّظاهُر بأنه جايمي لأنه كان مختلفًا للغاية وغير مألوف، وحتى رائحته ذاتها خطأ.

بالنّسبة إلى روبرت لم تَحدُث تلك اللّيالي قَطّ. مع مجيء الصّباح لم يكن يتذكّر شيئًا، أو هكذا أرادَها أن تعتقد. ذات مرّةٍ في عام زواجهما الأول أعربَت سرسي عن استيائها في الصّباح التّالي، وقالت شاكيةً: «لقد آلمتني»، فلاحَ عليه الخجل، وبنبرةٍ عابسة واجمة قال: «لم يكن هذا أنا يا سيّدتي، بل النّبيذ. إنني أشربُ الكثير من النّبيذ»، كأنه طفل ضُبِطَ يسرق كعكات التُّفّاح من المطبخ. وليزدرد روبرت اعترافه مَدَّ يده إلى قرن المِزر، وإذ رفعَه إلى فمه حطّمت قرنها هي على وجهه بقوّةٍ كسرَت قطعةً من إحدى أسنانه، وبَعد سنواتٍ في أثناء مأدبة سمعَته يقول لخادمةٍ إنه كسرَ سِنّه في التحامٍ جماعي، فقالت لنفسها: *لم يكذب. زواجنا كان كالقتال في التحامٍ جماعي.*

على أن البقيّة كلّها أكاذيب. إنها مقتنعة بأنه كان يَتذكّر ما يفعله بها ليلًا. كانت ترى هذا في عينيه، لكن الأسهل أن يدّعي النّسيان من أن يُواجه خزيه. في أعماقه كان روبرت باراثيون جبانًا. مع الوقت قلّت هجماته عليها، فخلال العام الأول تعوّد أن يأخذها مرّةً كلّ أسبوعين على الأقل، وقُرب النّهاية لم يَعُد يأخذها ولو مرّةً في العام، لكنه لم يتوقّف تمامًا، وعاجلًا أم آجلًا كانت تأتي دائمًا ليلة يُسرِف فيها في الشُّرب ويرغب في ممارَسة حقوقه. ما كلّله بالعار في نور النّهار منحه المُتعة تحت جُنح الظّلام.

قالت تاينا ميريويذر: «جلالة الملكة، على وجهكِ نظرة غريبة. هل أنتِ بخير؟».

أجابَت شاعرةً بالجفاف في حلقها: «كنتُ فقط... أتذكّر. أنتِ صديقة طيّبة يا تاينا. لم أحظَ بصديقةٍ طيّبة منذ...».

قاطعَتها دقّات قويّة على الباب.

ثانيةً؟ جعلَها إلحاح الدّقّات ترتجف. *هل هاجمَتنا ألف سفينة أخرى؟* ارتدَت معطف نومٍ وذهبت ترى مَن الطّارق، فوجدَته حارسًا قال لها: «اغفري لي إزعاجكِ يا جلالة الملكة، لكن الليدي ستوكوورث في الأسفل تَطلُب لقاءكِ».

قالت سرسي بحدّة: «في هذه السّاعة؟ هل فقدَت فاليس عقلها؟ قُل لها إنني خلدتُ إلى النّوم، قُل لها إن أهل (الثّروس) يَذبحون، قُل لها إنني أمضيتُ نِصف اللّيل مستيقظةً. سأراها غدًا».

رَدّ الحارس بتردُّد: «بَعد إذن جلالتكِ، إنها... إنها ليست في حالةٍ جيّدة، إذا كنتِ تفهمين ما أعنيه».

عقدَت سرسي حاجبيها. لقد افترضَت أن فاليس هنا لتُخبِرها بأن برون مات. قالت: «ليكن. عليّ أن أرتدي ثيابي. خُذها إلى غُرفتي الشّمسيّة واجعلها تنتظر». عندما بدأت الليدي ميريويذر تنهض لتذهب معها منعَتها الملكة قائلةً: «لا، ابقي. على واحدةٍ منا على الأقل أن تظفر بالقليل من الرّاحة. لن أتأخّر».

وجدَت وجه الليدي فاليس مكدومًا متورّمًا وعينيها محمرّتين من الدّموع، وشفتها السّفلي مشقوقةً وثيابها متّسخةً ممزّقةً، فقالت سرسي إذ أشارَت لها بدخول غُرفتها الشّمسيّة وأغلقَت الباب: «بحقّ الآلهة، ماذا حدث لوجهكِ؟».

لم يبدُ على فاليس أنها سمعت السّؤال، وقالت بصوتٍ راجف: «قتلَه! رُحماكِ يا أمّنا، لقد... لقد...»، وانهارَت باكية وجسدها كلُّه يرتعد.

صبّت سرسي كأسًا من النّبيذ وأخذَتها إلى المرأة الباكية قائلةً: «اشربي هذا، النّبيذ سيهَدّئكِ. نعم، اشربي أكثر. كفّي عن البُكاء وأخبِريني ماذا تفعلين هنا».

تطلّب الأمر بقيّة الإبريق كي تستطيع سرسي أخيرًا استخلاص الحكاية الحزينة من الليدي فاليس، وبعد أن عرفَتها لم تدرِ هل تضحك أم تثور. ردّدت: «نزال فردي». *أما من أحدٍ في (الممالك السّبع) يُمكنني الاعتماد عليه؟ ألا الوحيدة في (وستروس) التي تملك شيئًا من العقل؟* «تقولين لي إن السير بالمان تحدّي برون في نزالٍ فردي؟!».

- «قال إن المسألة ستكون بـبسيطةً. قال إن الرُّمح سلاح الفـفارس، وإن بـبرون ليس فارسًا حقيقيًا. بالمان قال إنه سيُسقِطه من فوق حصانه ويُجهِز عليه وهو مذمذمذهول على الأرض».

برون ليس فارسًا حقيقيًا، هذا صحيح. برون قاتِل عركَته المعارك. زوجك *القميئ كتبَ شهادة وفاته بنفسه*. «خطّة رائعة. هل لي أن أعلم كيف فشلَت؟».

- «بـبرون غرسَ رُمحه في صدر حـحـحـحصان بالمان المسكين. بالمان... انسحقَت ساقاه عندما سقطَ الحصان فوقه. كان صُراخه يُثير الشُّفقة...».

كانت سرسي لتقول: *المرتزِقة لا يعرفون الشَّفقة*. «طلبتُ منكما أن تُرتّبا لحادثة صيد. سهم طائش، سقطة من فوق حصان، خنزير برّي غاضب... الوسائل عدّة لموت رجلٍ ما في الغابة، لكن ولا واحدة منها تتضمّن الرِّماح!».

بدا على فاليس أنها لن تسمعها إذ واصلَت: «لمّا حاولتُ أن أهرع إلى بالمان ضربَني برون في... في... في وجهي! لقد جعلَ زوجي يعترف. بالمان كان يَصرُخ سائلًا المِايستر فرنكن أن يأتي ويُعالِجه، لكن المرتزِق... لقد... لقد... لقد...».

- «يعترف؟». لا تُعجِب سرسي هذه الكلمة. «مؤكّد أن السير بالمان الشُّجاع صانَ لسانه».

- «برون غرَسَ خنجرًا في عينه وقال لي إن عليّ أن أغادر (ستوكوورث) قبل مغيب الشّمس وإلّا أصابَني المِثل، قال إنه سيُذوِّرني على الحاحاحاحاحامية إذا أرادني أيٌّ من رجاله. عندما أمرتُ بالقبض على برون قال أحد فُرسانه بوقاحةٍ إن عليّ أن أفعل ما يقوله اللورد ستوكوورث. دعاه باللورد ستوكوورث!»، وأطبقَت الليدي فاليس على يد الملكة متابعةً: «يجب أن تُعطيني فُرسانًا يا جلالة الملكة، مئة فارس! ورُماة أيضًا لاستعادة القلعة. (ستوكوورث) لي! إنهم لم يسمحوا لي بجمع ملابسي حتى! قال برون إنها ملابس زوجته الآن، كلُّ ملابسي الحـحرير والمخمل».

أسمالكِ أقلُّ مشكلاتكِ الآن. سحبَت الملكة أصابعها من قبضة المرأة الأخرى الرَّطبة، وقالت: «طلبتُ منكما أن تُخمِدا شمعةً للمساعَدة على حماية الملك، وبدلًا من هذا سكبتما عليها جرّةً من النّار الشَّعواء. هل ذكرَ الأحمق بالمان اسمي؟ قولي لي إنه لم يفعل».

لعقَت فاليس شفتيها قائلةً: «كان... كان يتألّم، ساقاه انكسرَتا. برون قال إنه سيتعامَل معه برحمة، ولكن... ماذا سيحدُث لأأمي المسكينة؟».

أظنُّ أنها ستموت. «ماذا تحسبين؟». ربما ماتَت الليدي تاندا بالفعل، فبرون لا يبدو من الرِّجال الذين يبذلون جهدًا في رعاية امرأةٍ عجوز مكسورة الوَرك.

- «يجب أن تُساعِديني. أين أذهبُ؟ ماذا أفعلُ؟».

كانت سرسي تقول: *ربما يُمكنكِ أن تتزوّجي فتى القمر، إنه أقرب في التّهريج إلى زوجكِ الرّاحل*. لا تستطيع المجازفة بحربٍ على أعتاب (كينجز لاندنج) الآن. هكذا قالت: «الأخوات الصّامتات يُرَحّبن بالأرامل دومًا. إن حياتهن حياة هادئة، حياة من الصّلاة والتّأمّل والأعمال الصّالحة، ويمنحن الأحياء المواساة والموتى السّلام». *ولا يتكلّمن*. لا يُمكنها أن تُترَك المرأة تجوب (الممالك السّبع) ناشرةً الحكايات الخطرة.

إلّا أن فاليس صمّت أذنيها عن كلمة العقل، وقالت: «كلُّ ما فعلناه فعلناه في خدمة جلالتكِ. *نفخر بإخلاصنا*. لقد قلتِ...».

قاطعتها سرسي: «أذكرُ»، وأجبرَت نفسها على الابتسام مردفةً: «ستبقين هنا معنا يا سيّدتي إلى أن يحين الوقت ونستطيع استرداد قلعتكِ. دعيني أصبُّ لكِ كأس نبيذ أخرى، سيُعينكِ على النّوم. أنتِ متعَبة وسقيمة القلب، هذا واضح. عزيزتي المسكينة فاليس. نعم، اشربي».

بينما عملَت ضيفتها على الإبريق ذهبَت سرسي إلى الباب ونادَت وصيفتيها. قالت لدوركاس أن تجد لها اللورد كايبرن وتأتي به في الحال، وأرسلَت چوسلين سويفت إلى المطابخ قائلةً: «أحضري خُبزًا وجُبنةً وفطيرة لحمٍ وبعض التّفّاح، ونبيذًا أيضًا. إننا ظمآنتان».

وصلَ كايبرن قبل الطّعام، وكانت فاليس قد تجرّعت ثلاث كؤوسٍ أخرى حينئذٍ وبدأ رأسها يميل على صدرها، وإن ظلّت تنتبه من حينٍ إلى آخَر وتنتحب. انتحت الملكة بكايبرن جانبًا وأخبرَته بحماقة بالمان، ثم إنها قالت: «لا يُمكنني أن أترك فاليس تُنشر الحكايات في المدينة. لقد أفقدَها الحُزن صوابها. أما زلت محتاجًا إلى امرأةٍ من أجل... عملك؟».

- «نعم يا جلالة الملكة. محرّكات الدُّمى استنزِفن تمامًا».

- «خُذها إذن وافعل بها ما شئت، لكن ما إن تنزل إلى الزّنازين السّوداء... هل عليّ أن أقول المزيد؟».

- «لا يا صاحبة الجلالة، مفهوم».

ردّت الملكة: «عظيم»، وعادت ترسم الابتسامة على وجهها قائلةً: «عزيزتي فاليس، المايستر كايبرن هنا. سيُساعِدكِ على الرّاحة».

قالت فاليس بإبهام: «أوه، أوه، جيّد».

حين انغلق الباب وراءهما صبّت سرسي لنفسها كأسًا أخرى، وقالت: «إنني محاطة بالأعداء والبُله». لا تستطيع حتى الثّقة بلحمها ودمها، ولا بجايمي الذي كان نِصفها الآخر. *كان يُفترَض أن يكون سيفي وتُرسي، ذراعي اليُمنى القويّة. لماذا يصرّ على مضايقتي؟*

برون ليس أكثر من مصدر إزعاجٍ محدود حقًّا. إنها لم تعتقد قَطّ أنه يُؤوي العِفريت، ثم إن أخاها الصّغير الشّائه أذكى من أن يسمح للوليس بإطلاق اسمه على نغلها المأفون عالمًا أن ذلك سيجتلب عليها غضبة الملكة بكلّ تأكيد. الليدي ميريويذر أشارت إلى هذا وكانت محقّةً. من شِبه الأكيد أن الإهانة من صُنع المرتزِق نفسه، وتستطيع سرسي أن تتخيّله يُشاهِد ابن زوجته المتغضّن المتورّد يرضع من أحد ضرعَي لوليس الممتلئين وفي يده كأس من النّبيذ وعلى وجهه ابتسامة صفيقة. *ابتسم كما تشاء أيها السير برون، فقريبًا ستصرُخ. استمتع بزوجتك البلهاء وقلعتك المسروقة بينما تستطيع. عندما يحين الوقت سأسحقك كأنك ذُبابة*. ربما عليها أن تُرسِل لوراس تايرل ليسحقه إذا عاد بوسيلةٍ ما حيًّا من (دراجونستون). كم سيكون هذا لذيذًا. *إذا شاءت الآلهة سيَقتُل كلاهما الآخر على غرار السير آريك والسير إريك*. وبالنّسبة إلى (ستوكوورث)... لا، لقد سئمت التّفكير في (ستوكوورث).

كانت تاينا قد عادت تغيب في النّوم حين رجعت الملكة إلى الغرفة ورأسها يدور. *نبيذ كثير جدًا ونوم قليل جدًا*. ليس كلّ ليلةٍ تستيقظ مرّتين على أخبارٍ مزعجة كهذه. *على الأقل إيقاظي ممكن*. *كان شكر روبرت ليمنعه من النّهوض، ناهيك بالحُكم، ولوقعَ على كاهل چون آرن أن يتعامل مع كلّ هذا*. يسرّها أن تعتقد أنها ملك أفضل من روبرت.

بدأت السّماء خارج النّافذة تُنير بالفعل، وجلسَت سرسي على الفِراش إلى جوار الليدي ميريويذر مصغيةً إلى أنفاسها الهادئة تُشاهِد ثدييها يرتفعان وينخفضان. هل *تَحلُم بـ(مير)؟ أم بحبيبها ذي الّدبة، الرّجل الخطِر فاحم الشّعر الذي لا يقبل الرّفض؟* إنها واثقة تمامًا بأن تاينا لا تَحلُم باللورد أورتون.

وضعَت سرسي يدها على ثدي المرأة الأخرى، بنعومةٍ في البداية، تكاد لا تلمسه، تَشعُر بدفئه تحت كفّها وبجِلده الأملس كالساتان، ثم إنها اعتصرَته برفقٍ ثم حرّكت أنملة إبهامها بخفّةٍ على الحلمة الدّاكنة الكبيرة، جيئةً وذهابًا وجيئةً وذهابًا إلى أن شعرَت بها تنتصب، ولمّا رفعَت عينيها وجدَت عينَي تاينا مفتوحتين، فسألَتها: «هل يُعجِبك هذا؟».

أجابَت الليدي ميريويذر: «نعم».

- «وهذا؟»، وقرصَت سرسي الحلمة جاذبةً إياها بشدّةٍ ولاويةً إياها بين أصابعها.

أطلقَت المايريّة شهقة ألم، وقالت: «إنكِ تؤلِمينني».

قالت: «إنه النّبيذ فحسب. شربتُ إبريقًا على العَشاء وآخَر مع الأرملة ستوكوورث. كان يجب أن أشرب لأهذّبها»، ولوَت حلمة تاينا الأخرى وشدّتها إلى أن شهقت، فأضافَت: «أنا الملكة، وأريدُ أن أمارس حقوقي».

- «افعلي ما تشائين». شَعر تاينا أسود كشعر روبرت، حتى بين ساقيها، وعندما مسّتها هناك وجدَت الشَّعر مبلّلا تمامًا بينما كان شَعر روبرت خشنًا جافًا. قالت المايريّة: «أرجوكِ استمرّي يا مولاتي، افعلي ما تشائين بي، أنا ملككِ».

ولكن ما فعلَته كان بلا جدوى. أيًا كان ما شعرَ به روبرت في اللّيالي التي أخذها فيها لم تَشعُر به هي، لم تجد مُتعةً... أمّا تاينا فوجدَت. حلمتاها ماستان سوداوان، وفَرجها زلق ساخن. *كان روبرت ليحبّكِ... لمدّة ساعة*. وضعَت الملكة إصبعًا في المستنقع المايري، ثم آخر، وحرّكتهما إلى الدّاخل والخارج متابعةً في سريرتها: *لكن حالما يُفرِغ لذّته في داخلكِ كان ليتذكّر اسمكِ بصعوبة*.

أرادَت أن ترى إن كان الأمر سهلًا مع امرأةٍ مِثلما كان دومًا مع روبرت، وفكّرت واضعةً إصبعًا ثالثًا في (مير): *عشرة آلاف من أطفالك ماتوا في كفّي يا جلالة الملك. بينما تغطّ في النّوم كنتُ ألعقُ أطفالك من على وجهي وأصابعي واحدًا تلو الآخر، كلّ أولئك الأمراء الشّاحبين اللّزجين. أخذتَ حقوقك يا سيّدي، لكن في الظّلام كنتُ آكلُ ورثتك*. ارتعدَت تاينا وشهقَت قائلةً شيئًا ما بلُغةٍ أجنبيّة، ثم ارتعدَت ثانيةً وقوّست ظَهرها وصرخَت، ففكّرت الملكة: *كأن أحدًا يُمزّقها إربًا*، وللحظةٍ تركَت نفسها تتخيّل أن أصابعها أنياب خنزيرٍ بَرّي تشقُّ جسد المايريّة من الخصر إلى العُنق.

وبلا جدوى.

لم تَشعُر سرسي بأيّ لذّةٍ إلّا مع چايمي.

حين حاولَت أن تسحب يدها أمسكَتها تاينا ولثمَت أصابعها قائلةً: «ملكتي الجميلة، كيف أمتعكِ؟»، وحرّكت يدها على جانب سرسي ومسّتها بين السّاقين مضيفةً: «أخبريني بما تُريدين مني يا حبيبتي».

أجابَت سرسي: «اتركيني»، وتدحرجَت مبتعدةً وسحبَت الأغطية على جسدها مرتجفةً. كان الفجر يَبزُغ وقريبًا سيأتي الصَّباح ويَنسى كلُّ هذا.

كأن شيئًا لم يكن.

أصدرت الأبواق دويًا نُحاسيًا شَقَّ هواء الغسق الأزرق السّاكن، فهَبّ چوزمين پكلدون على قدميه بلا إبطاءٍ وهرعَ يلتقط حزام سيف سيّده.

فكَّر چايمي: *غريزة الصّبي يقظة*، وقال له: «الخارجون عن القانون لا يَنفُخون في الأبواق ليُعلِنوا عن مجيئهم. لن أحتاجَ إلى سيفي. هذا ابن خالي، حاكم الغرب».

كان الخيّالة يترجَّلون عندما خرجَ من خيمته، نِصف دستةٍ من الفُرسان وأربعون من الجنود والرُّماة الرّاكبين، ولمّا رأى چايمي هدرَ رجل أشعث يرتدي الحلقات المعدنيّة المذهّبة ومعطفًا من فرو الثّعالب: «چايمي! تبدو مهزولًا للغاية، وترتدي الأبيض! وأطلقت لحيتك أيضًا!».

- «هذه؟ مجرّد زغبٍ مقارنةً بلبدتك يا ابن الخال». تلتحم لحية السير داڤن المتنفشة مع شاربه الكثّ على جانبَي وجهه بكثافة الأحراش، ومعًا يلتحمان بالدّغل الأصفر المتشابك فوق رأسه، والذي ضغطته الخوذة التي يخلعها. في مكانٍ ما وسط كلّ هذا الشّعر يَكمُن أنف أفطس وعينان جذِلتان بلون البندق. «هل سرق أحد الخارجين عن القانون موساك؟».

بالنّسبة إلى رجلٍ أسديّ الشّحنة مثله، فلداقن لانستر نبرة مستكينة غريبة، وقد أجابَ: «أقسمتُ ألّا أقصّ شَعري حتى أثأر لأبي، لكن الذّئب الصّغير نالَ من كارستارك أولًا وسلبَني انتقامي»، وناولَ أحد الفرافقين خوذته ومرّر أصابعه في شَعره الذي سوّاه الفولاذ الثّقيل، وتابعَ: «أحبّ أن يكون شَعري طويلًا بعض الشّيء. اللّيل أصبحَ أشدّ برودةً، والقليل من النّمو على الوجه يُساعِد على تدفئته، أجل، ثم إن العمّة چِنا اعتادَت أن تقول دومًا إن لي ذقنًا كقالب القرميد»، وأمسكَ چايمي من ذراعيه قائلًا: «خفنا عليك بَعد (الغابة الهامسة). سمعنا أن ذئب ستارك الرّهيب نهشَ عُنقك».

- «وهل ذرفتَ الدّمع المرير من أجلي يا ابن الخال؟».

- «نِصف (لانسپورت) رثى لك، النّصف الأنثوي»، وانتقلَت نظرة السير داقن إلى جدعة چايمي، فقال: «الأمر صحيح إذن، الأوغاد بتروا يد سيفك».

- «لديّ واحدة جديدة من الذّهب. ثمّة إيجابيّات كثيرة في كون المرء بيدٍ واحدة. الآن أشربُ أقلّ خشية أن أسكب النّبيذ، ونادرًا ما أنزعُ إلى حَكّ مؤخّرتي في البلاط».

- «نعم، صحيح. ربما عليّ أن أجعلهم يقطعون يدي أيضًا»، وضحكَ ابن خاله، وتساءلَ: «أهي كاتلين ستارك من قطعَتها؟».

- «ڤارجو هوت». *من أين تأتي هذه الحكايات؟*

قال السير داقن: «الكوهوري؟»، وبصقَ مواصلًا: «هذه له ولكلّ رفاقه الشّجعان. قلتُ لأبيك إنني سأبحثُ له عن الإمدادات لكنه رفضَ وقال إن بعض المهام يليق بالأسود، أمّا الإمدادات فالأفضل تركها للكباش والكلاب».

يعلم چايمي أن هذه كلمات اللورد تايوين تحديدًا، بل ويكاد يسمع صوت أبيه يقولها. «ادخُل يا ابن الخال. يجب أن نتكلّم».

كان جاريت قد أشعلَ النّار في المستوقَدات وبثّت جمراتها المتوهِّجة بالأحمر الحرارة في خيمة چايمي. خلعَ السير داڤن معطفه وألقاه إلى ليو الصّغير، وسألَه بخشونة: «أأنت من آل پايپر يا فتى؟ إن لك شكلًا أعجف».

- «أنا ليو پايپر، بَعد إذن سيِّدي».

- «لقد هزمتُ أخاك اللّعين في التحامٍ جماعي ذات مرّة. الأحمق الأعجف شعرَ بالمهانة حين سألته إن كانت هذه أخته التي تَرقُص عاريةً على تُرسه».

- «هذا رمز عائلتنا. ليست لنا أخت».

- «مؤسف. رمزكم له ثديان جميلان، لكن مَن الرّجل الذي يختبئ وراء امرأةٍ عارية؟ كلّما هويتُ بضربةٍ على تُرس أخيك شعرتُ بالخسّة».

كانت پيا تُتبِّل لهما النّبيذ وتُقلِّبه في قِدرٍ بملعقة، وقال چايمي لداڤن ضاحكًا: «كفى، دعه وشأنه. أريدُ أن ألمّ بما سأجده في (ريڤررَن)».

هَزّ ابن خاله كتفيه مجيبًا: «الحصار مستمرٌّ. السّمكة السّوداء جالس داخل القلعة ونحن جالسون خارجها في معسكَراتنا. مسألة مملّة للغاية إذا أردت الحقيقة»، وجلسَ على كُرسي متابعًا: «ينبغي أن يشنّ تُلي غارةً ليذكِّرنا جميعًا بأننا ما زلنا في حرب. سيكون لُطفًا منه أن يُخلِّصنا من بعض أبناء فراي أيضًا. رايمان كبداية. إنه سكران أغلب الوقت. أوه، وإدوين. ليس بليدًا كأبيه لكنه مفعم بالكراهية كما يُفعِم البثورَ القيح. وكذا عزيزنا السير إمون... لا، اللورد إمون وليحمنا (السّبعة)، يجب ألّا ننسى لقبه الجديد... سيِّد (ريڤررَن) لا يفعل شيئًا إلّا محاولة إخباري بكيفيّة إدارة الحصار. يُريدني أن أستولي على القلعة دون أن أتلفها، بما أنها مقرٌّ لوردِيّته الجديد».

سأل چايمي پيا: «هل سخنَ النّبيذ؟».

أجابَت الفتاة مغطّيةً فمها: «نعم يا سيِّدي».

قدَّم پك النَّبيذ على صحفةٍ ذهبيَّة، وخلع السير داڤن قُفَّازه ثم تناولَ كأسًا قائلًا: «شُكرًا يا فتى. مَن أنت؟».

- «چوزمين پكلدون، بَعد إذن سيِّدي».

قال چايمي: «پك من أبطال معركة (النَّهر الأسود)، قتلَ فارسين وأسرَ اثنين غيرهما».

- «لا بُدَّ أنك أخطر مما تبدو يا فتى. أهذه لحية أم أنك نسيت غسل وجهك من الوسخ؟ زوجة ستانيس باراثيون لها شارب أكثف من هذا. كم سِنُّك؟».

- «خمسة عشر عامًا أيها الفارس».

قال السير داڤن ساخرًا: «أتعرف أفضل ما في الأبطال يا چايمي؟ كلُّهم يموتون مبكِّرًا ويَتركون لبقيَّتنا مزيدًا من النِّساء»، وألقى كأسه للمُرافق قائلًا له: «املأها ثانيةً وسأدعوك بالبطل أيضًا. إنني ظمآن».

رفع چايمي كأسه بيُسراه ورشف منها لينتشر الدِّفء في صدره، وقال: «كنت تتكلَّم عن أبناء فراي الذين تُريد موتهم؛ رايمان وإدوين وإمون...».

قال داڤن: «وابن العاهرة والدر ريڤرز. يكره أنه نغل ويكره كلَّ من ليسوا كذلك. لكن السير پروين يبدو رجلًا طيِّبًا، لا بأس بالإبقاء عليه، وعلى النِّساء أيضًا. سمعتُ أنني سأتزوَّجُ إحداهن. ربما كان حريًّا بأبيك أن يستشيرني بشأن هذه الزِّيجة بالمناسبة. كان أبي يتَّفق مع پاكستر ردواين قبل (أوكسكروس)، هل تعلم هذا؟ ردواين له ابنة حسناء مَهرها غالٍ...».

ردَّ چايمي ضاحكًا: «دسميرا؟ هل تحبُّ النَّمش؟».

- «إذا كان خياري بين بنات فراي والنَّمش... نِصف فتيات اللورد والدر يُشبِهن بنات عرس».

- «نِصفهن فقط؟ اشكُر بختك السَّعيد إذن. لقد رأيتُ عروس لانسل في (داري)».

- «آمي البوّابة، لترحمنا الآلهة. لم أصدّق أن لانسل اختارَها. ما خطب ذلك الصّبي؟».

أجابَ چايمي: «أصبحَ متديّنًا، لكن ليس هو من اختارَها. أم الليدي آميري من عائلة داري، وارتأى عمُّنا أنها ستُساعِد لانسل على كسب رعايا (داري)».

- «كيف؟ بمضاجعتهم؟ هل تعرف لماذا يلقّبونها بآمي البوّابة؟ لأنها ترفع شبكتها الحديديّة لكلّ فارسٍ يمرّ بها. خيرٌ للانسل أن يجد صانع سلاحٍ يدقُّ له خوذةً بقرنين».

- «لن يكون ذلك ضروريًا. ابن عمّنا ذاهب إلى (كينجز لاندنج) ليحلف اليمين كأحد رجال السّپتون الأعلى المسلّحين».

ما كانت دهشة أكبر لتلوح على وجه السير داڤن لو أن چايمي قال له إن لانسل قرّر أن يُصبِح قردًا، وقال: «حقًّا؟ أنت تُمازِحني. لا بُدّ أن آمي البوّابة أكثر شبهًا ببنات عرس مما سمعتُ ما دامت قد دفعت الصّبي إلى هذا!».

حين استأذنَ چايمي في الانصراف من الليدي آميري كانت تبكي بهدوءٍ انفضاض زواجها بينما تسمح للسير لايل كراكهول بمواساتها، لكن دموعها لم تُزعِجه بنصف إزعاج النّظرات القاسية على وجوه أقاربها الواقفين في السّاحة. قال لداڤن: «آملُ أنك لا تنوي أن تحلف يمينًا بدورك يا ابن خالي. آل فراي حسّاسون عندما يتعلّق الأمر باتّفاقات الزّواج، وأكرهُ أن نُخيِّب أملهم ثانيةً».

أطلق السير داڤن نخيرًا هازئًا، وقال: «سأتزوّج بنت عرس وأضاجعها، لا تقلق، إنني أعلمُ ما جرى لروب ستارك. لكن مما أخبرَني به إدوين فالأفضل لي أن أختار واحدةً لم تُزهِر بعد، وإلّا فغالبًا سأجدُ والدر الأسود قد سبقَني إليها. أراهنُ أنه افترش آمي البوّابة، وأكثر من ثلاث مرّات. ربما يُفسّر هذا تديُّن لانسل ومزاج أبيه».

- «رأيت السير كيڤان؟».

- «نعم. مَرَّ بنا هنا في طريقه إلى الغرب. سألته أن يُعيننا على الاستيلاء على القلعة، لكن كيڤان رفضَ تمامًا. طيلة الوقت الذي أمضاه هنا كان عابسًا، يتكلَّم بكياسةٍ كافية لكن باردة. أقسمتُ له أنني لم أطلب قَطُّ أن أكون حاكم الغرب، أن ذلك الشَّرف ينبغي أن يكون له، فأعلنَ أنه لا يكنُّ لي ضغينةً، وإن لم تقل نبرته هذا على الإطلاق. بقيَ ثلاثة أيام وبالكاد قال لي ثلاث كلمات. ليته ظَلَّ معنا. كنتُ محتاجًا إلى نصيحته، وما كان أصدقاؤنا أبناء فراي ليجرؤوا على إزعاج السير كيڤان كما يُزعِجونني».

قال چايمي: «أخبِرني».

- «أريدُ أن أفعل، لكن أين أبدأ؟ بينما أبني المِدكَّات وأبراج الحصار نصبَ رايمان فراي مشنقةً، وكلَّ يومٍ عند الفَجر يأتي بإدميور تَلي ويضع أنشوطةً حول عُنقه ويُهدِّد بشنقه ما لم تستسلم القلعة، لكن السَّمكة السَّوداء لا يُلقي بالًا لهذه المسرحيَّة، ومع حلول المساء يُنزِلون اللورد إدميور ثانيةً. هل تعلم أن زوجته حامل؟».

لم يكن چايمي يعلم هذا. «إدميور ضاجعَها بَعد الزُّفاف الأحمر؟».

- «بل كان يُضاجِعها في أثناء الزُّفاف الأحمر. روزلين صغيرة حسناء، لا تمتُّ بصِلةٍ لبنات عرس بتاتًا، والغريب أنها مولعة بإدميور. پروين قال لي إنها تُصَلِّي لإنجاب فتاة».

تأمَّل چايمي في هذا لحظةً، ثم قال: «ما إن يُولَد لإدميور ابن لن يعود اللورد والدر محتاجًا إلى إدميور نفسه».

- «هذا رأيي أيضًا. عمُّنا الكريم إمـ... آه، اللورد إمون بالأحرى... يُريد أن يُشنَق إدميور في الحال. وجود سيِّد من آل تَلي لـ(ريفرَن) يكاد يُكدِّره بقدر احتمال مولد واحدٍ آخَر. كلَّ يومٍ يُناشِدني أن أجعل السير رايمان يُعلِّق تَلي من رقبته، ولا أدري كيف أُقنعه. وفي تلك الأثناء يشدُّ اللورد جاون وسترلينج كفَّي الآخَر. السيِّدة زوجته مع السَّمكة السَّوداء داخل القلعة، بالإضافة إلى ثلاثة من أولاده ذوي الأنوف السَّائلة، ويخشى حضرة اللورد أن يَقتلهم تَلي إذا شنقَ آل فراي إدميور. إحداهم ملكة الذِّئب الصَّغير».

يظنُّ جايمي أنه التقى جاين وسترلينج من قبل، وإن كان لا يتذكَّر شكلها. *لا بُدَّ أنها رائعة الجَمال ما دامَت استحقَّت مملكةً كاملةً*. قال لابن خاله مؤكِّدًا: «السير برايندن لن يَقتُل أطفالًا، إنه ليس سمكةً سوداء لتلك الدَّرجة». الآن بدأ يستوعب سبب عدم سقوط (ريفرَن) بعدُ. «حدِّثني عن تجهيزاتك يا ابن الخال».

- «إننا نُطوِّق القلعة. السير رايمان ورجال فراي معسكِرون شمال (الجُلمود)، وجنوب (الفرع الأحمر) يجلس اللورد إمون مع السير فورلي برستر وفلول جيشك القديم، بالإضافة إلى لوردات النَّهر الذين انضمُّوا إلينا بَعد الزِّفاف الأحمر. ليس لديَّ ما يمنع أن أقول إنهم مجموعة كئيبة، صالحون للوجوم في خيامهم ولكن ليس أكثر من هذا. معسكَري أنا بين النَّهرين، قُبالة الخندق وبوَّابة (ريفرَن) الرَّئيسة. لقد ألقينا سلسلةً عبر (الفرع الأحمر) في اتِّجاه المجرى. مانفريد ياو وراينارد روتيجر مسؤولان عن الدِّفاع عنها كي لا يهرب أحد بالقارب، وأعطيتهما شباكًا أيضًا للصَّيد، فهذا يُساعِد على إطعامنا».

- «هل نستطيع تجويع القلعة؟».

هزَّ السير داڤن رأسه نفيًا، وأجاب: «السَّمكة السَّوداء طردَ جميع الأفواه عديمة الجدوى من القلعة واقتلعَ كلَّ نبتةٍ تؤكَل في الرِّيف المحيط. إن معه مؤنًا تكفي لإطعام الرِّجال والخيول طيلة عامين».

- «وبالنِّسبة إلى مؤننا نحن؟».

- «ما دامَت في النَّهرين أسماك فلن نجوع، وإن كنتُ لا أدري كيف سنُطعِم الخيول. آل فراي ينقلون الطَّعام والعلف من (التَّوأمتين)، لكن السير رايمان يدَّعي أن ما لديهم ليس كافيًا لاقتسامه معنا، ولذا فعلينا الحصول على إمداداتنا بأنفُسنا. نِصف الرِّجال الذين أرسِلهم للعثور على طعامٍ لا يرجعون. بعضهم يتهرَّب، وغيرهم نجدهم يتعفَّنون تحت الأشجار وحول أعناقهم حبال».

- «صادَفنا بعضهم أول من أمس». وجدَهم كشَّافة آدام ماربراند مسوَدّي الوجوه مشنوقين من شجرة تفَّاح، وقد جُرِّدَت الجُثث من ثيابها تمامًا ودُسَّت تفَّاحة في فم كلٍّ منها. لا أحد منهم كانت في جسده جروح، وواضح أنهم استسلَموا، وقد أشعلَ هذا غضبة الغفر القوي الذي أقسمَ على الانتقام الدَّامي من كلِّ مَن يُعلِّق رجالًا مُحاربين هكذا ليموتوا كالخنازير.

قال السير داڤن عندما حكى له چايمي: «ربما فعلَها خارجون عن القانون وربما لا. ما زالَت هناك جماعات من الشَّماليِّين في هذه الأنحاء، وربما ركعَ لوردات (الثَّالوث) هؤلاء، لكنني أظنُّ أن قلوبهم لا تزال... ذئبيَّة».

رمقَ چايمي مُرافقيه الصَّغيرين اللذين يحومان قُرب المستوقَدات متظاهرَين بأنهما لا يسمعان. ليويس پايپر وجاريت پايچ كلاهما من أبناء لوردات النَّهر، وقد أمسى چايمي مولعًا بالاثنين ويكره أن يُعطي السير إلين إياهما. «الحبال تُوحي بأن هذا عمل دونداريون».

- «سيِّد البرق ليس الوحيد الذي يعرف كيف يعقد أنشوطةً. لا تجعلني أتكلَّم عن اللورد بريك. إنه هنا، إنه هناك، إنه في كلِّ مكان، لكن حين تُرسِل رجالًا لمطارَدته يتبخَّر كقطرات النَّدى. لوردات النَّهر يُساعِدونه، إياك أن تشك في هذا، رغم أنه من لوردات (التُّخوم) الملاعين. في يومٍ تسمع أنه مات، وفي التَّالي يقولون إنه لا يُقتَل»، ووضعَ السير داڤن كأسه مواصلًا: «كشَّافتي يُبلِغونني بمشاهَدة نيرانٍ مشتعلة في البقاع العالية ليلًا. يظنُّون أنها إشارات... كأن هناك حلقةً من المُراقبين في كلِّ مكانٍ حولنا. ثم إن هناك نيرانًا في القُرى أيضًا. إله جديد ما...».

لا، بل إله قديم. «ثوروس مع دونداريون، ذلك الرَّاهب المايري البدين الذي اعتادَ أن يشرب مع روبرت». كانت يده الذَّهبيَّة على الطَّاولة، فمسَّها چايمي وشاهدَ ذهبها يلتمع في ضوء المستوقَدات الخافت مردفًا: «ستتعامَل مع دونداريون إذا اضطررنا، لكن يجب أن يأتي السَّمكة السَّوداء أولًا. لا بُدَّ أنه يعلم أن قضيَّته خاسرة. هل حاولت التَّفاوُض معه؟».

- «السير رايمان حاولَ، ركبَ إلى القلعة شِبه سكران ورفعَ عقيرته ملقيًا التَّهديدات، فظهرَ السَّمكة السَّوداء في الشُّرفة فقط ليقول إنه لن يُبدِّد كلامًا حسنًا على رجلٍ كريه، ثم غرسَ سهمًا في كفل حصان رايمان، فأسقطه الحصان في الوحل وضحكت بقوَّةٍ لدرجة أنني كدت أبلِّل سراويلي. لو كنت أنا داخل القلعة لصوَّبت السَّهم إلى حنجرة رايمان الكاذبة».

زمَّ چايمي بابتسامةٍ خفيفة: «سأضعُ واقيًا على عُنقي عندما أتفاوَض معه. إنني أنوي أن أعرض عليه شروطًا سخيَّةً». إذا استطاعَ إنهاء هذا الحصار دون إراقة دماءٍ فلن يقول أحد إنه حملَ السِّلاح ضد عائلة تَلي.

- «هنيئًا لك بالمحاولة يا سيِّدي، وإن كنت أشك في أن الكلام سيُجدي نفعًا. يجب أن نقتحم القلعة».

في وقتٍ ما ليس ببعيد كان چايمي ليحضّ على التّصرُّف نفسه بلا تردُّد. إنه يعلم أنه لا يستطيع البقاء هنا عامين كاملين حتى يُجَوِّع السّمكة السّوداء ويُرغِمه على الاستسلام. قال للسير داڤن: «أيًّا كان ما سنفعله فعلينا أن نتعجَّل. إن مكاني في (كينجز لاندنج) مع الملك».

قال ابن خاله: «أجل. مؤكّد أن أختك محتاجة إليك. لماذا صرفْت كيڤان؟ حسبتها ستجعله يد الملك».

- «لقد رفضَ اليدويّة». *لم يكن أعمى مِثلما كنتُ.*

- «المفترَض أن يكون كيڤان حاكم الغرب، أو أنت. لا أنكرُ أنني ممتنٌ لهذا الشّرف بالطّبع، لكن عمّنا في ضِعف سِنّي وأكثر خبرةً بالقيادة. آملُ أنه يعلم أنني لم أطلب هذا إطلاقًا».

- «إنه يعلم».

- «وكيف حال سرسي؟ جميلة كالعادة؟».

- «متألِّقة». *مخادعة*. «ذهبيّة». *زائفة كالذّهب القشرة*. ليلة البارحة حلمَ بأنه ضبطَها تُضاجِع فتى القمر، فقتلَ المهرِّج وحطّمَ أسنان أخته بيده الذّهبيّة كما فعلَ جريجور كليجاين بالمسكينة ﭙيا. في أحلامه لچايمي دومًا يدان، إحداهما من ذهبٍ لكنها تعمل بكفاءة الثّانية تمامًا. «كلّما عجّلنا بالفروغ من مسألة (ريڤرزن) عجّلتُ بالعودة إلى سرسي».

أمّا ماذا سيفعل حينها فلا يدري.

تكلّم مع ابن خاله ساعةً أخرى قبل أن يستأذن حاكم الغرب في الانصراف، ولمّا غادرَ ركّبَ چايمي يده الذّهبيّة وارتدى معطفه البنّي ليتمشّى بين الخيام.

الحقيقة أنه يحبُّ هذه الحياة، ويَشعر براحةٍ أكبر كثيرًا وسط الجنود في الميدان من البلاط، ورجاله يبدون مرتاحين معه أيضًا. عند واحدةٍ من بؤر النّار عرضَ عليه ثلاثة من رُماة النُّشّابيّة نصيبًا من أرنبٍ برّي اصطادوه، وعند أخرى طلبَ فارس شابٌ نصيحته في أفضل وسيلةٍ للدّفاع عن نفسه ضد مطرقةٍ حربيّة، وعلى ضفّة النّهر شاهدَ غسّالتين تتنازلان في المياه الضّحلة فوق أكتاف جنديّين. كانت الفتاتان نِصف ثملتين نِصف عاريتين، تضحكان وتضرب كلتاهما الأخرى بمعطفٍ مطويّ بينما تُشجّعهما دستة من الرّجال. راهنَ چايمي بنجمةٍ نُحاسيّة على الشّقراء التي تركب راف المعسول، وخسرَها عندما سقطَ الاثنان وسط البوص.

على ضفّة النّهر الأخرى تعوي الذّئاب، وتهبُّ الرّيح متخلّلةً مجموعةً من أشجار الصّفصاف جاعلةً أغصانها تتلوّى وتتهامَس. وجدَ چايمي السير إلين پاين يشحذ سيفه العظيم، فقال له: «هيّا». ونهضَ الفارس الصّامت وعلى شفتيه ابتسامة رفيعة. *إنه مستمتع بهذا، يطيب له أن يمتهنني كلّ ليلة، بل وقد يسرُّه أكثر أن يَقتلني*. يحبُّ أن يعتقد أنه يتحسّن، لكن التّحسّن بطيء وليس بلا ثمن، فتحت الفولاذ والصّوف والجِلد المقوّى جسد چايمي لانستر لوحة من الجروح والنُّدوب والكدمات.

اعترضَ حارس طريقهما وهما يقودان حصانيهما إلى خارج المعسكَر، فربّت چايمي على كتف الرّجل بيده الذّهبيّة قائلًا: «ابقَ يقظًا. ثمّة ذئاب في الجوار».

ركبا في الاتّجاه المعاكس بمحاذاة (الفرع الأحمر) نحو أطلال قريةٍ محترقة مرّا بها هذا الأصيل، وهناك رقصا رقصة منتصَف اللّيل وسط الحجارة المسودّة والجمرات القديمة الباردة. لفترةٍ قصيرة كان التّفوّق لچايمي، وسمحَ لنفسه بأن يحسب أن مهارته القديمة تعود إليه، وربما تكون اللّيلة ليلة ذهاب پاين إلى فِراشه مكدومًا مُدمًى.

وكأن السير إلين سمعَ أفكاره. بحركةٍ كسول تفادى ضربة چايمي الأخيرة وكرَّ عليه بهجمةٍ مضادّة دفعته دفعًا إلى النّهر، حيث انزلق حذاؤه من تحته في الوحل، فانتهى به الأمر على ركبتيه، سيف الفارس الصّامت على حَلقه وسيفه هو ضائع وسط أعواد البوص. في نور القمر تبدو آثار الجُدري على وجه پاين كبيرةً كفوّهات البراكين، وأصدرَ الرّجل صوت الطّقطقة إياه الذي ربما يكون ضحكةً، وحرّك سيفه إلى أعلى على عُنق چايمي إلى أن استقرّ رأسه بين شفتيه، وعندئذٍ فقط تراجعَ وأغمدَ فولاذه.

قال چايمي لنفسه وهو ينفض الطّمي عن يده الذّهبيّة: *كان خيرًا لي أن أتحسّى راف المعسول وعلى ظَهري عاهرة*. جزء منه يُريد انتزاع هذا الشّيء والتّطويح به في النّهر. يده بلا جدوى، ويُسراه ليست أفضل كثيرًا. كان السير إلين قد عادَ إلى الحصانين تاركًا إياه ينهض بنفسه. *على الأقل لم تزل لي قدمان*.

كان اليوم الأخير من رحلتهم باردًا عاصفًا، تُصَرصِر الرّيح بين الفروع العارية في الغابة البنّيّة الجرداء وتُجبِر أعواد البوص على الانحناء بشدّةٍ بطول (الفرع الأحمر)، وعلى الرغم من ارتدائه معطف الحرس الملكي الشّتوي الصّوف شعرَ چايمي بأسنانها الحديديّة تنهش جسده إذ ركبَ إلى جوار داڤن ابن خاله. في وقتٍ متأخّر من الأصيل أبصَروا (ريڤررَن) ترتفع على الرّأس الأرضي الضيّق حيث يتلاقى (الجلمود) و(الفرع الأحمر). تبدو قلعة آل تَلي كسفينةٍ حجريّة عظيمة مقدّمتها موجّهة صوب المصب، وقد غمرَ الضّوء الذّهبي الأحمر أسوارها المبنيّة بالحجر الرّملي فبدَت أعلى وأغلظ مما يَذكُر چايمي، ففكّر بكآبة: *لن تتمّ هذه المهمّة بسهولة*. إذا رفضَ الشمكة السّوداء الإصغاء فلن يجد خيارًا إلّا الحنث في قَسمه لكاتلين ستارك، فقَسمه لملكه يأتي أولًا.

وجدَ السّلسلة عبر النّهر والمعسكَرات الثّلاثة الكبيرة لجيش المحاصِرين كما وصف ابن خاله تماقا. معسكَر السير رايمان فراي شمال (الجُلمود) هو الأوسع مساحةً والأقلّ تنظيفا، وفوق الخيام ترتفع مشنقة رماديّة ضخمة بحجم المِقذاف، وعلى منصّتها يقف شبح وحيد يُحيط بعنقه حبل. *إدميور تَلي*. أحسّ جايمي بطعنةٍ من الشّفقة في قلبه. *أن يجعلوه يقف هكذا يومًا وراء يوم بتلك الأنشوطة حول عنقه... الأفضل أن يقطعوا رأسه ويَفرَغوا من الأمر*.

وراء المشنقة تنتشر فوضى الخيام وبؤر النّار. كان صغار لوردات وفُرسان آل فراي قد نصبوا سُرادقاتهم براحةٍ في اتّجاه المنبع بعيدًا عن حُفر المراحيض، وفي اتّجاه المصبّ زرائب وعربات يد وعربات ثيران. قال السير داڤن: «السير رايمان لا يُريد أن يُصيب الملل فتيته، فيُعطيهم عاهرات ومصارَعة ديوك وصيد الخنازير البرّيّة، بل وحصلَ لنفسه على مغنٍّ! عمّتنا جليَنت وات ذا الابتسامة البيضاء من (لانسپورت)، صدِّق أو لا تُصدّق، فكان على رايمان أن يكون له مغنّيه الخاص أيضًا. ألا يُمكننا الاكتفاء بسَدّ النّهر وإغراقهم جميعًا يا ابن العمّة؟».

رأى الرّماة يتحرّكون وراء الشُّرّافات في شُرفات القلعة وفوقهم تخفق رايات عائلة تَلي، سمكة التّرويت الجرينة على خلفيّتها المخطّطة بالأحمر والأزرق. على أن أطول أبراج القلعة يعلوه علم مختلف، علم أبيض طويل يُزيّنه ذئب ستارك الرّهيب. قال جايمي لابن خاله: «أول مرّةٍ رأيت (ريفررَن) كنتُ مُراهقًا أخضر كخشب الصّيف. أرسلَني العجوز سمنر كراكهول لأوصِل رسالةً أكّد أنه لا يستطيع أن يأتمن عليها غُداقًا، فأبقاني اللورد هوستر أسبوعين بينما يُفكّر مليًا في الرّد، وأجلسني إلى جوار ابنته لايسا عند كلّ وجبة».

- «لا عجب أنك انضممت إلى الحرس الملكي. كنتُ لأفعل المِثل».

- «أوه، لايسا لم تكن مخيفةً لهذه الدّرجة». الحقيقة أنها كانت فتاةً حسناء رقيقةً لها غمّازتان وشعر كستنائي طويل. *وإن كانت خانعةً، تميل إلى الصّمت بلسانٍ معقود وبين الحين والآخر القهقهة، ليس فيها لسان لهبٍ واحد من نار سرسي*. بدَت أختها الكبيرة أكثر إثارةً للاهتمام، ولو أنها كانت موعودةً لصبيٍّ ما من الشّمال هو وريث (وينترفل)... لكن في تلك السّنّ لم تكن أيُّ فتاةٍ لتثير نِصف اهتمام چايمي بشقيق هوستر الشّهير الذي نالَ المجد في أثناء قتاله ملوك البنسات التّسعة في (الأعتاب). على المائدة تجاهلَ لايسا المسكينة وألحّ على برايندن تَلي أن يحكي له عن ميليز الوحش والأمير الأبنوسي. *وقتها كان السير برايندن أصغر مني الآن، وكنتُ أصغر من بِك*.

تقع أقرب مخاضةٍ عبر (الفرع الأحمر) في اتّجاه المنبع، وليبلُغوا معسكَر السير داڤن كان عليهم أن يمرُّوا من معسكَر إمون فراي بسُرادقات لوردات النّهر الذين ركعوا وقبِلوا من جديدٍ في سلام الملك. لاحظَ چايمي رايات لايتشستر وڤانس وروت وجودبروك، وجوز بلُوط آل سمولفورد وعذراء اللورد پايپر الرّاقصة، لكن الرّايات التي لم يرَها هي ما أثارَت اهتمامه. لا أثر لنسر ماليستر الفضّي، أو لحصان براكن الأحمر، أو صَفصافة رايجر، أو ثُعباني پايپ المضفورَين معًا. جميع هؤلاء جدّدوا ولاءهم للعرش الحديدي، إلّا أن أحدًا منهم لم يأتِ للانضمام إلى الحصار. يعلم چايمي أن آل براكن يُقاتِلون آل بلاكوود، أمّا الباقون...

أصدقاؤنا الجدد ليسوا أصدقاءً على الإطلاق، إخلاصهم ضحل. لا بُدّ من الظّفر بـ(ريڤررَن)، وقريبًا. كلّما طالَ الحصار تشجّع متمرّدون آخَرون على شاكلة تايتوس بلاكوود.

عند المخاضة أطلقَ السير كينوس الكايسي دفقةً من بوق هيروك. *هذا كفيل بإخراج السَّمكة السَّوداء إلى الشُّرفات.* قاد السير هيوجو والسير درموت جايمي عبر النَّهر خائضين في المياه البنِّيَّة المحمرَّة الموحلة وقد رفعا راية الحرس الملكي البيضاء وراية وعل وأسد تومن لتخفقا في الرِّيح، وتبعتهم بقيَّة الرَّكب بلا إبطاء.

تردَّدت أصوات المطارق الخشبيَّة في معسكر لانستر حيث يرتفع بُرج حصارٍ جديد، وقد وقف بُرجان آخران مكتملين وكلٌّ منهما نِصف مغطَّى بجِلد الخيل الخام، وبينهما يستقرُّ مِدَكٌّ دوَّار مصنوع من جذع شجرةٍ وله رأس مقوَّى بالنَّار ومعلَّق بالسَّلاسل تحت سقف خشبي. *يبدو أن ابن خالي لم يتوانَ في عمله.*

سأله پك: «أين تُريد خيمتك يا سيِّدي؟».

- «هناك، فوق هذا المرتفع»، وأشارَ بيده الذَّهبيَّة -مع أنها ليست مناسبةً لهذا- وأضافَ: «المؤن هناك، خطوط الخيول هناك. سنستخدم المراحيض التي تكرَّم ابن خالي بحفرها لنا. سير أدام، افحص محيطنا واحرص على ملاحظة أيِّ نقاط ضَعف». لا يتوقَّع جايمي هجومًا، لكنه لم يتوقَّع (الغابة الهامسة) كذلك.

سأله داڤن: «هل أستدعي بنات عرس لمجلس الحرب؟».

أجابَ جايمي: «ليس قبل أن أتكلَّم مع السَّمكة السَّوداء»، وأشارَ إلى چون بتلي الحليق قائلًا: «ارفع راية سلامٍ واحمل رسالةً إلى القلعة. بلِّغ السير برايندن تَلي أنني أرغبُ في الحديث معه مع أول خيوط الضَّوء غدًا. سأذهبُ إلى حافة الخندق وأقابله على الجسر المتحرِّك».

لاحَ الانزعاج على پك، وقال: «سيِّدي، الرُّماة يُمكنهم أن...».

ترجَّل جايمي قائلًا: «لن يفعلوا. انصبوا خيمتي وارفعوا رايتي». *وسنرى من يأتي جريًا وبأيِّ سُرعة.*

لم يتطلّب الأمر طويلًا. كانت پيا تُحاوِل إشعال النّار في فحم المستوقَد، فذهبت پك يُساعِدها. في الفترة الأخيرة كثيرًا ما يَخلُد چايمي إلى النّوم على صوت جماعهما في ركن الخيمة. بينما يحلُّ جاريت مشابك واقي ساقيه انفتحت الخيمة، وقالت عمّة چايمي بصوتٍ جهير: «وصلت أخيرًا؟». كانت تحتلُّ الباب بالكامل، وقد حدّق زوجها ابن فراي من ورائها. «تأخّرت. ألن تُعانِق عمّتك السّمينة العجوز؟»، وفتحت ذراعيها فلم تَترُك له خيارًا إلّا عناقها.

في شبابها كانت چنا لانستر امرأةً متناسقة الجسد يبدو نهداها دومًا على وشك الخروج من صدارها، أمّا الآن فالشّكل الوحيد الذي يتّخذه جسدها هو المربّع، ولها وجه عريض أملس وعُنق كعمودٍ وردي غليظ وثديان هائلان، وفي بدنها لحم يكفي لصُنع اثنين من زوجها. احتضنها چايمي بطاعةٍ وانتظرَ أن تَقرُص أُذنه كما تعوّدت أن تفعل طيلة حياته، لكنها أحجمت عن ذلك اليوم، وبدلًا منه طبعت قُبلةً ناعمةً مبتلّةً على كلّ من وجنتيه، ثم قالت: «آسفةٌ لخسارتك».

رَدّ: «لديّ يد جديدة مصنوعة من الذّهب»، وأراها إياها.

قالت الليدي چنا بحدّة: «جميل. هل سيصنعون لك أبًا من الذّهب أيضًا؟ تايوين الخسارة التي قصدتها».

أعلنَ زوجها: «رجل كتايوين لانستر لا يأتي إلّا مرّةً كلّ ألف عام». إمون فراي رجل عصبيّ الطّباع له يدان متوتّرتان، ولكان وزنه ثقيلًا لو ارتدى ثيابًا مبتّلةً والحلقات المعدنيّة، لكنه أشبه بعودٍ من البوص يرتدي الصّوف وليس له ذقن يُذكَر، وهو عيب جعلَه بروز تفّاحة حلقه يبدو أكثر سخافةً. قبل بلوغه الثّلاثين كان نِصف شَعره قد سقط، والآن وهو في السّتين تبقّت له شعيرات محدودة.

قالت الليدي چِنا بَعد أن صرفَ چايمي پيا ومُرافقيه: «بلَغَتنا حكايات عجيبة في الفترة الأخيرة. المرء يكاد لا يدري ماذا يُصَدِّق. أحقيقيٌ أن تيريون قتلَ تايوين أم أن هذا افتراء أذاعَته أختك؟».

- «حقيقي». كان وزن يده الذَّهب قد بدأ يُضايِقه، فبدأ يحلُّ الأحزمة التي تُثَبِّتها إلى معصمه.

قال السير إمون: «أن يرفع الابن يده ضد أبيه... عمل وحشي. هذه أيام سوداء في (وستروس). إنني أخشى علينا جميعًا بَعد رحيل اللورد تايوين».

ردَّت چِنا: «كنت تخشى علينا جميعًا وهو موجود»، وأراحَت عجيزتها الكبيرة على أحد الكراسي، فصَرَّ تحت وزنها على نحوٍ مزعج، واستطردَت: «حدِّثنا عن ابننا كليوس وطريقة موته يا ابن أخي».

حلَّ چايمي آخِر الأحزمة ووضعَ يده جانبًا قائلًا: «هاجمَنا خارجون عن القانون وشتَّتهم السير كليوس، لكن هذا كلَّفه حياته». أتته الأكذوبة بسهولة، ورأى أنها سرَّتهما بالفعل.

- «كان فتى شُجاعًا، لطالما قلتُ هذا، الشُّجاعة في دمه». عندما يتكلَّم السير إمون تلتمع على شفتيه رغوة ورديَّة باهتة من جرَّاء التَّبغ المُرّ الذي يحبُّ أن يَمضُغه.

أعلنَت الليدي چِنا: «المفترَض أن يُدفَن زُفاته تحت (الصَّخرة) في (قاعة الأبطال). أين قبره؟».

لا قبر له. المُمثلون السَّفَّاحون جرَّدوا جثَّته من كلِّ شيءٍ وتركوا لحمه وليمةً لغِربان الجيف. أجابَ كاذبًا: «إلى جوار جدول. عندما تضع هذه الحرب أوزارها سأجدُ المكان وأرسله إلى الوطن». الرُّفات هو الرُّفات، وما أسهل العثور عليه هذه الأيام.

قال اللورد إمون: «هذه الحرب...»، وتنحنح لتتحرّك تفّاحة حلقه إلى أعلى وأسفل، وتابع: «لا بدّ أنك رأيت آلات الحصار، المِدكّات والمقاذيف والأبراج. لن يَصلُح هذا يا چايمي. داڤن يُريد هدم أسواري وتحطيم بوّابتي، يتكلّم عن القار المشتعل وإحراق القلعة، قلعتي!»، ودسّ يده في كُمّه وأخرج رَقًّا رفعه في وجه چايمي مواصلًا: «إن معي المرسوم الموقّع من الملك، من تومن. انظُر، ها هو ذا الختم الملكي، الوعل والأسد. أنا سيّد (ريڤرّن) الشّرعي، ولن أسمح بتحويلها إلى أطلالٍ محترقة».

قالت زوجته محتدّةً: «أوه، ضع هذا الشّيء السّخيف جانبًا. ما دام السّمكة السّوداء داخل (ريڤرّن) يُمكنك أن تمسح مؤخّرتك بهذه الورقة التي لم تنفعنا بشيء». على الرغم من كونها من آل فراي طيلة خمسين عامًا تظلُّ الليدي چنا إلى حدٍّ كبير ابنة لانستر. *ابنة لانستر كبيرة الحجم للغاية*. «چايمي سيُسلّمك القلعة».

قال السير إمون: «بالتأكيد. سير چايمي، ثقة السيّد والدك بي كانت في محلّها، سترى. إنني أنوي أن أكون حازمًا لكن عادلًا مع أتباعي الجُدد. بلاكوود وبراكن وچيسون ماليستر وڤانس وبايبر، كلُّهم سيتعلّمون أن إمون فراي مولى عادل... وأبي أيضًا، نعم. إنه سيّد (المعبر)، لكنني أنا سيّد (ريڤرّن). صحيح أن واجب الابن أن يُطيع أباه، لكن على حامِل الرّاية أن يُطيع مولاه».

أوه، بحقّ الآلهة. «أنت لست مولاه أيها الفارس. اقرأ الوثيقة. لقد مُنحت (ريڤرّن) وأراضيها ودخولها لا أكثر، لكن بيتر بايلش هو سيّد أراضي (الثالوث) الأعلى. (ريڤرّن) ستخضع لحكم (هارنهال)».

لم يسرّ ردّه اللورد إمون، فقال محتجًا: «(هارنهال) خراب، مسكونة وملعونة، وبايلش... إنه عدّاد عُملة، ليس لورد حقيقيًا، ميلاده...».

- «إذا لم تكن راضيًا عن هذه التّرتيبات فاذهب إلى (كينجز لاندنج) واطرح الأمر على أختي الجميلة». لا شَكَّ لديه في أن سرسي ستلتهم إمون فراي حيًّا وتُسَلِّك أسنانها بعظامه. *ما لم تكن مشغولةً بمضاجَعة أوزموند كِتلبلاك*.

أطلقت الليدي چنا نخيرًا ساخرًا، وقالت: «لا داعي لإزعاج جلالتها بهذا الهراء. إم، هلّا خرجت تشمُّ الهواء؟».

- «أشمُّ الهواء؟».

- «أو تبوّل إذا أردت. أنا وابن أخي لدينا أمور عائليّة نتناقَش فيها».

احتقنَ وجه اللورد إمون، وقال: «نعم، المكان دافئ هنا. سأنتظرُ في الخارج يا سيّدتي. أيها الفارس»، وطوى حضرة اللورد وثيقته وانحنى لچايمي وخرج من الخيمة.

ليس احتقار إمون فراي عسيرًا. لقد وصلَ إلى (كاسترلي روك) في سِنِّ الرّابعة عشرة ليتزوّج لبؤةً يكبرها مرّتين. اعتادَ تيريون أن يقول إن اللورد تايوين قلبَ معدته على سبيل هديّة الزّفاف. وچنا *لعبت دورًا أيضًا*. يَذكُر چايمي مآدب كثيرةً جلسَ خلالها إمون يعبث بطعامه بوجومٍ في حين تتبادَل زوجته المزاح البذيء مع أيِّ فارسٍ جالس إلى يسارها وتتخلَّل محادَثاتهما انفجارات الضّحك المدوّي. *لكنها أنجبت لفراي أربعة أبناء، أو على الأقل تقول إنهم أبناؤه*. لا أحد في (كاسترلي روك) يملك شَجاعة التّلميح إلى غير هذا، لا سيّما السير إمون.

لم يكد الرّجل يُغادِر حتى دوّرت السيّدة زوجته عينيها في محجريهما باستياءٍ قائلةً: «زوجي وسيّدي. فيمَ كان أبوك يُفكِّر حين قلّده سيادة (ريفررَن)؟».

- «أظنُّ أنه كان يُفكّر في أبنائكِ».

- «أنا أيضًا أفكّرُ فيهم. إم سيكون لورد سيّئًا للغاية. ربما يُبلي تاي بلاءً أحسن إذا كان عاقلًا وتعلّم مني لا من أبيه»، وتلفّتت عفته متسائلةً: «هل عندك نبيذ؟».

وجدَ چايمي إبريقًا وصَبَّ لها بيدٍ واحدة قائلًا: «ماذا تفعلين هنا يا سيِّدتي؟ كان عليكِ أن تبقي في (كاسترلي روك) حتى ينتهي القتال».

- «ما إن سمعَ إم بأنه أصبحَ من اللوردات أصرَّ على أن يأتي في الحال ويتسلَّم مقرَّه»، وجرعَت الليدي چنا من نبيذها ومسحت فمها بكفِّها، ثم قالت: «كان على أبيك أن يمنحنا (داري). كليوس تزوَّج واحدةً من بنات الحارث كما تذكُر، وأرملته الثَّكلى غاضبة لأن ابنيها لم يُمنَحا أراضي السيِّد والدها. آمي البوَّابة تنتمي إلى عائلة داري من جانب أمِّها فحسب، وچاين أرملة ابني خالتها، أخت الليدي ماريا الشَّقيقة».

ذكَّرها چايمي قائلًا: «أخت أصغر، ثم إن تاي سيحظى بـ(ريڤرزن)، غنيمة أعظم من (داري)».

- «غنيمة مسمومة. سُلالة الذُّكور في عائلة داري بادت، أمَّا في عائلة تَلي فلا. ذلك الأبله السير رايمان يضع أنشوطةً حول عنق إدميور لكنه يأبى أن يَشنُقه، وثمَّة سمكة تَرويت تنمو في بطن روزلين فراي. لن يأمن أحفادي في (ريڤرزن) أبدًا ما دام وريث من آل تَلي حيًّا».

يعلم چايمي أنها ليست مخطئةً، فقال: «إذا أنجبَت روزلين فتاةً...».

- «... فيُمكنها أن تتزوَّج تاي، شريطة أن يقبل اللورد والدر. نعم، فكَّرتُ في هذا. إلَّا أن احتمال أن تلد صبيًّا قائم بالقدر نفسه، وسيُعقِّد قضيبه الصَّغير الأمور. وإذا خرجَ السير براينِدن حيًّا من هذا الحصار فربما تجده ميَّالًا إلى أخذ (ريڤرزن) باسمه... أو باسم روبرت آرن الصَّغير».

يَتذكَّر چايمي روبرت الصَّغير في (كينجز لاندنج)، لا يزال يرضع من ثديَي أمِّه في سِنِّ الرَّابعة. «آرن لن يعيش حتى يُنجِب، وما حاجة سيِّد (العُش) إلى (ريڤرزن)؟».

- «ما حاجة رجلٍ يملك جزّةً من الذّهب إلى أخرى؟ البشر جشعون. كان على تايوين أن يمنح كيڤان (ريڤرزن) وإم (داري). كنتُ لأقول له هذا لو كلّف نفسه عناء سؤالي، لكن منذ متى يستشير أبوك أحدًا في شيءٍ إلّا كيڤان؟»، وأطلقَت عمّته تنهيدةً عميقةً، وأضافَت: «لا ألومُ كيڤان على رغبته في مقرٍّ أكثر أمنًا لابنه، إنني أعرفه جيّدًا».

- «شتّان بين ما يرغب فيه كيڤان وما يرغب فيه لانسل». أخبرَها بقرار لانسل أن يتخلّى عن زوجته وأراضيه ولورديّته من أجل القتال في سبيل العقيدة المقدّسة، ثم قال: «إذا كنتِ لا تزالين راغبةً في (داري) فاكتُبي لسرسي واعرضي عليها الأمر».

لوّحت الليدي چنا بكأسها استهانةً، وقالت: «لا، فاتَ أوان هذا. إم يخال أنه سيحكُم أراضي النّهر ولانسل... أظنُّ أنه كان علينا أن نتوقّع هذا منذ زمن. الحياة لحماية الشّيتون الأعلى لا تختلف عن الحياة لحماية الملك رغم كلّ شيء. أخشى أن كيڤان سيغضب كما غضبَ تايوين عندما وضعت في رأسك أن تخدم في الحرس الملكي. على الأقل سيبقى مارتن وريثًا لكيڤان. يُمكنه أن يُزوّجه آمي البوّابة بدلًا من لانسل، ليحمنا (السّبعة) جميعًا»، وعادَت تتنهّد ثم قالت: «وعلى ذِكر (السّبعة)، لِمَ تسمح سرسي للعقيدة بحمل السّلاح مجدّدًا؟».

هزّ چايمي كتفيه مجيبًا: «أنا واثق بأن لديها أسبابًا».

ردّدت الليدي چنا: «أسبابًا؟»، وأطلقت صوتًا بذيئًا، وأردفت: «خيرٌ لنا أن تكون أسبابًا وجيهةً. الشيوف والنُّجوم أزعجوا آل تارجاريَن أنفسهم. الفاتِح ذاته تعاملَ بحذرٍ مع العقيدة كي لا تُعارِضه، ولمّا مات إجون وتمرّد اللوردات على ابنيه كانت كلتا الجماعتين في قلب هذا التّمرّد. اللوردات الأكثر تدیّنًا أيّدوهم، وكثيرون من العوام، وأخيرًا اضطرّ الملك ميجور إلى وضع مكافأةٍ على رؤوسهم، فدفعَ تنّينًا مقابل رأس كلّ واحدٍ من أبناء المَحارب لم يرجع عن تمرّده، وأيلًا فضّيًا مقابل فروة رأس كلّ صُعلوك، إذا كنتُ أذكرُ التّاريخ الذي تعلّمته. قُتِلَ آلاف، لكن آلاف غيرهم ظلّوا يجوبون البلاد بتحدٍّ، إلى أن قتلَ العرش الحديدي ميجور ووافق الملك چهيرس على العفو عن كلّ من يتخلّى عن القتال».

قال معترفًا: «نسيتُ أغلب هذا».

ردّت عمّته: «أنت وأختك»، وأخذت جرعة أخرى من النّبيذ، وسألته: «أصحيحٌ أن أباك كان مبتسمًا فوق تابوته؟».

- «كان يتعفّن فوق تابوته، وجعلَ هذا فمه يلتوي».

- «أهذا كلّ ما هنالك؟». بدا إن الإجابة أحزنَتها. «يقول كثيرون إن تايوين لم يبتسم قطّ، لكنه ابتسمَ حين تزوّج أمّك، وحين جعلَه إيرس يده. ولمّا انهارَ (بهو تاربك) على رأس تلك الحقيرة المتآمرة الليدي إيلين، قال تايج إنه ابتسمَ حينها أيضًا... وابتسمَ يوم مولدك يا چايمي، رأيتُ هذا بعينَي. أنت وسرسي كنتما متورّدين مثاليّين ومتماثلين... باستثناء بين السّاقين طبعًا. يا لرئاتكما القويّة!».

قال چايمي بابتسامةٍ واسعة: «اسمعوا زئيرنا. يَنقُص أن تقولي لي إنه أحبّ الضّحك كثيرًا أيضًا».

- «لا، تايوين لم يكن يحق بالضحك. لقد سمعْ كثيرين يضحكون من جدك»، وقطبت عقته جبينها مستطردة: «أؤكد لك أن مهزلة الحصار هذه ما كانت لتسرّه. كيف تنوي أن تضع حدًا لها الآن وقد أصبحت هنا؟».

- «سأتفاوض مع السمكة السوداء».

- «لن ينجح هذا».

- «أنوي أن أعرض عليه شروطًا جيّدةً».

- «الشروط تتطلّب الثقة. آل فراي اغتالوا ضيوفًا تحت سقفهم، وأنت... لا أقصد إساءةً يا حبيبي، لكنك قتلت ملكًا معيّنًا أقسمت على حمايته».

- «وسأقتلُ السمكة السوداء إذا لم يستسلم». خرجت نبرته أكثر خشونةً مما انتوى، لكنه ليس في مزاجٍ يسمح بالقاء إيرس تارجاريَن في وجهه.

سألَته بتهكُّم: «كيف؟ بلسانك؟ ربما أكونُ عجوزًا بدينةً، لكن ما في رأسي مُخ لا جُبنة يا چايمي، وكذا السمكة السوداء. التهديدات الفارغة لن تُثبِّط همّته».

- «وبِمَ تنصحين؟».

هزّت كتفيها ببطء، وقالت: «إم يُريد أن يُقطع رأس إدميور، وربما يكون محقًّا على سبيل التغيير. السير رايمان جعلَنا أضحوكةً بمشنقته إياها. عليك أن تُري السير برايندن أن لتهديداتك أنيابًا».

- «ربما يُقوّي قتل إدميور عزيمة السير برايندن».

- «العزيمة شيء لم يفتقر إليه برايندن السمكة السوداء قطّ. كان بإمكان هوستر تلي أن يُخبرك بهذا»، وأفرغَت الليدي چنا ما تبقّى من النبيذ في جوفها، وأردفَت: «طيّب، لن أجرؤ أبدًا على إخبارك بكيفيّة خوض الحروب، إنني أعرفُ منزلتي... على عكس أختك. أصحيحٌ أن سرسي أحرقَت (القلعة الحمراء)؟».

- «(برج اليد) فقط».

دوّرت عمّته عينيها، وقالت: «كان خيرًا لها أن تُبقي على البَرج وتُحرِق اليد. هاريس سويفت؟! إذا كان هناك رجل جديرًا برمزه فهو السير هاريس. وجايلز روزبي، ليحمنا (السّبعة)، حسبته مات منذ زمن. ميريويذر... أبوك تعوّد دعوة جدّه بالمقهقه، أريدك أن تعلم. قال تايوين إن الشّيء الوحيد الذي يَصلُح له ميريويذر هو القهقهة لدُعابات الملك. حضرة اللورد ظَلّ يُقهقِه حتى نُفِيَ على ما أذكر. سرسي وضعت نغلًا ما في المجلس أيضًا، ورجلًا وضيعًا في الحرس الملكي، وسمحت للعقيدة بالتّسلُّح، والبراقوسيُّون يُطالِبون بسداد ما لهم من ديون في جميع أنحاء (وستروس). ما كان شيء من هذا ليَحدث لو أنها تحلّت بالعقل وجعلَت عمّك كيڤان اليد».

- «السير كيڤان رفضَ المنصب».

- «هذا ما قاله، لكنه لم يَذكُر السّبب. أشياء كثيرة لم يقلها، رفضَ أن يقولها»، ورسمت الليدي چنا الامتعاض على ملامحها، وتابعت: «لطالما فعلَ كيڤان ما يُطلَب منه، وليس من طباعه أن يُولي الواجب ظهره. في الأمر شيء ما خطأ، باستطاعتي أن أشمّه».

- «قال إنه متعَب». وقالت سرسي وهما واقفان عند نعش أبيهما إنه يعرف بأمرهما.

زمّت عمّته شفتيها قائلةً: «متعَب؟ أظنُّ أنه حقُّه. كان صعبًا على كيڤان أن يعيش حياته كلّها في ظِلّ تايوين، صعبًا على إخوتي جميعًا. الظِّلُّ الذي ألقاه تايوين كان طويلًا أسود، واضطرّ كلٌّ منهم إلى المعاناة حتى يجد بصيصًا من الشّمس لنفسه. تايجت حاولَ أن يستقلّ بذاته، لكنه لم يستطِع قَطّ أن يُضاهي أباك، وأفضى هذا إلى جعله أكثر غضبًا مع مرور السّنين. أمّا جيريون فاكتفى بالسّخرية. كان أفضل له أن يسخر من اللُّعبة من أن يلعبها ويخسر. لكن كيڤان رأى طبائع الأمور مبكّرًا، فصنعَ لنفسه مكانًا إلى جانب أبيك».

سألَها چايمي: «وأنتِ؟».

- «لم تكن لُعبةً للفتيات. كنتُ أميرة أبي الغالية... وأميرة تايوين أيضًا، إلى أن خيَّبت أمله، وأخي لم يتعلَّم أن يحبَّ مذاق خيبة الأمل إطلاقًا»، ونهضَت عمَّته مستطردةً: «لقد قلتُ ما جئتُ لأقوله ولن آخذ المزيد من وقتك. افعل ما كان تايوين ليفعله».

سمعَ چايمي نفسه يسألها: «هل أحببتِه؟».

حدجَته عمَّته بنظرةٍ غريبة، وقالت: «كنتُ في السَّابعة حينما أقنعَ والدر فراي السيِّد والدي بإعطاء إم يدي، ابنه الثَّاني وليس وريثه حتى. أبي نفسه كان ابنًا ثالثًا، والإخوة الصِّغار يشتهون رضا إخوتهم الأكبر. فراي استشعرَ نُقطة الضَّعف تلك فيه، ولم يقبل أبي لسببٍ أفضل من إرضائه. أُعلِنَت خطبتي في أثناء مأدبةٍ حضرَها نِصف الغرب، وضحكَت إيلين تاربك وخرجَ الأسد الأحمر غاضبًا من القاعة، أمَّا الآخَرون فانعقدَت ألسنتهم. وحده تايوين جرؤَ على الاعتراض على الزِّيجة. كان صبيًّا في العاشرة. شحبَ وجه أبي حتى أصبحَ كالحليب، وارتعشَ والدر فراي»، وابتسمَت مواصلةً: «كيف يُمكنني ألَّا أحبَّه بَعد هذا؟ لكن هذا لا يعني أنني وافقتُ على كلِّ ما فعلَه أو استمتعتُ كثيرًا بصُحبة الرَّجل الذي صارَه... لكن كلَّ فتاةٍ صغيرة تحتاج إلى أخٍ كبير يحميها، وتايوين كان كبيرًا حتى في صِغره»، وزفرَت متسائلةً: «مَن سيحمينا الآن؟».

قبَّلها چايمي على وجنتها، وقال: «لقد خلَّف ابنًا».

- «نعم، وهذا أخشى ما أخشاه في الحقيقة».

أدهشَه تعليقها الغريب، فسألَها: «وماذا تخشين؟».

قالت جاذبةً أذنه: «چايمي يا عزيزي، أنا أعرفك منذ كنت ترضع من ثديَي چوانا. إنك تبتسم كجيريون وتُقاتِل كتايج، وفيك القليل من كيڤان أيضًا، وإلّا ما كنت لترتدي هذا المعطف... لكن تيريون هو ابن تايوين لا أنت. قلتُ هذا ذات مرَّةٍ في وجه أبيك فقضى نِصف عامٍ لا يُكلِّمني. الرِّجال حمقى كبار صاخبون حقًّا، حتى مَن يجود بهم الدَّهر كلَّ ألف عامٍ».

استيقظَت قبل شروق الشّمس في الغُرفة الصّغيرة تحت الإفريز، التي تتقاسَمها مع ابنتَي بروسكو.

كات أول من يصحو دومًا. تحت الأغطية مع تاليا وبريا دافئ مريح، وباستطاعتها أن تسمع أنفاسهما الهادئة المنتظمة، وحين تحرّكت واعتدلَت جالسةً تبحث عن خُفّيها تمتمَت بريا بشكوى ناعسة وانقلبَت على جانبها. اقشعرّ جِلد كات من جرّاء البرد المنبعث من الجُدران الحجر الرّماديّة، فأسرعَت ترتدي ثيابها في الظّلام، وبينما تضع سترتها على جسدها فتحَت تاليا عينيها، وقالت لها: «كات، كوني طيّبةً واجلبي لي ثيابي». تاليا فتاة خرقاء، جسدها جِلد على عظم ومِرفقاها بارزان، ودائمًا تشتكي من البرد.

أحضرَت لها كات ملابسها فارتدَتها تحت الأغطية، ومعًا سحبَتا الأخت الكبيرة من الفِراش وقد راحَت بريا تُهمهِم بالتّهديدات النّاعسة.

حين نزلَت ثلاثتهن السُّلّم من الغُرفة الواقعة تحت الإفريز كان بروسكو وابناه قد خرجوا بالفعل إلى القارب في القناة الصّغيرة وراء المنزل. زعقَ بروسكو في الفتيات أن يُسرِعن مِثلما يفعل كلّ صباح، وساعدَ ابناه تاليا وبريا على ركوب القارب، أمّا كات فمهمّتها أن تحلّ الحبل الذي يربطه بالدّعامة، ثم تُلقي الحبل لبريا وتدفع القارب مبعدةً إياه عن المرسى بحذائها. بدأ كلا ابنَي بروسكو التّجذيف بالعصا، وجرَت كات ووثبَت فوق الفجوة التي أخذَت تتّسع بين المرسى والقارب.

بَعدها لم يَعُد هناك ما تفعله إلّا الجلوس والتّثاؤب لوقتٍ طويل بينما يمضي بهم بروسكو وابناه في عتمة ما قبل الفجر عبر شبكةٍ من القنوات الصّغيرة. يبدو هذا النّهار نادرًا، معتدل البرودة صافيًا ساطعًا، بينما المعتاد أن (براڤوس) لا تعرف إلّا ثلاثة أنواع فقط من الطّقس. الضّباب سيّئ، والمطر أسوأ، والمطر المتجمِّد الأسوأ، لكن كلّ فترةٍ طويلة يأتي صباح يطلع فيه الفَجر ورديًا وأزرق ويكون هواؤه منعشًا مالحًا، وتلك أكثر أيامٍ تحبُّها كات.

حين بلغوا المجرى المائي العريض المستقيم المسمّى (القناة الطّويلة) انعطفوا جنوبًا نحو سوق الأسماك، وقد جلسَت كات مربّعةً ساقيها تُقاوم التّثاؤب وتُحاوِل أن تتذكّر تفاصيل حُلمها. *مرّةً أخرى أحلم بأنني ذئبة*. أكثر ما تَذكُره الرّوائح: الأشجار والتّربة وإخوتها في القطيع والخيول والغزلان والبشر، كلٌّ منها غير الأخرى، ورائحة الخوف القويّة اللّاذعة التي لا تختلف أبدًا. في بعض اللّيالي تكون أحلام الذّئاب شديدة الجلاء لدرجة أنها تظلّ تسمع عُواء إخوتها حتى وهي تستيقظ، وفي مرّةٍ زعمت بريا أنها كانت تُزمجِر في نومها وتتلوّى تحت الأغطية، فحسبتها كذبةً سخيفةً إلى أن قالت تاليا الكلام نفسه.

أخبرَت الفتاة نفسها: *لا يَجدُر بي أن أحلم أحلام الذّئاب. إنني الآن قطّة لا ذئبة، قطّة القنوات*. أحلام الذّئاب تنتمي إلى آريا سليلة عائلة ستارك، ولكن على الرغم من كلّ محاوَلاتها ما زالَت لا تستطيع تخليص نفسها من آريا. لا فرق بين نومها تحت المعبد أو في الغُرفة الصّغيرة تحت الإفريز مع ابنتَي بروسكو، فلم تزل أحلام الذّئاب تُطارِدها ليلًا... وأحيانًا أحلام أخرى أيضًا.

أحلام الذّئاب هي الجيّدة، ففيها تكون سريعةً قويّةً، تنقضّ على فرائسها وفي أعقابها قطيعها. الحُلم الآخَر هو ما تكرهه، الحُلم الذي لها فيه ساقان بدلًا من أربع وتمشي متعثّرةً في أرضٍ يباب ملأى بالأوحال والدّماء والنّيران. دائمًا تُمطِر السّماء في ذلك الحُلم وتسمع صُراخ أمّها، لكن وحشًا برأس كلبٍ يُعيقها عن الذّهاب لإنقاذها. في ذلك الحُلم تبكي دومًا كأنها فتاة صغيرة مذعورة. *القِطط لا تبكي أبدًا، ولا تبكي الذّئاب. إنه مجرّد حُلمٍ سخيف*.

أخذَت (القناة الطّويلة) قارب بروسكو إلى أسفل قباب (قصر الحقيقة) النُّحاسيّة الخضراء وأبراج عائلتَي پرستاين وآنتاريون الطّويلة المربّعة، قبل أن يمرّ من إحدى قناطر نهر المياه العذبة الرّماديّة الهائلة إلى المنطقة المعروفة باسم (بلدة الفرين)، حيث المباني أصغر حجمًا وأقلّ فخامةً. في وقتٍ لاحقٍ من النّهار ستختنق القناة بالقوارب الأفعوانيّة والصّنادل، لكن الآن في ظُلمة ما قبل الفجر لا يتحرّك في المجرى المائي غيرهم تقريبًا. يحبّ بروسكو أن يصل إلى سوق الأسماك قبل أن يهدر (المارد) معلنًا شروق الشّمس ويتردّد صوته المدوّي عبر الهَور خافتًا بعيدًا ولكن مسموعًا بما فيه الكفاية لإيقاظ المدينة النّائمة.

عندما ربط بروسكو وابناه القارب عند سوق الأسماك كان المكان يعجُّ بباعة الرّنجة وأسماك القُد والمحار وأم الخُلول، وبالوُكلاء والطُّهاة وبائعات الخُردة وبحّارة القوادس، يُساوِم بعضهم بعضًا بأصواتٍ عالية بينما يفحصون صيد الصّباح. سارَ بروسكو من قارب إلى قارب ملقيًا نظرةً على الأصداف بأنواعها، وبين الحين والآخر يَنقُر على برميلٍ أو قفصٍ بعصاه، ويقول: «هذا، نعم». طَق طَق. «هذا». طَق طَق. «لا، ليس هذا. هذا». طَق. قلّما يتكلّم بروسكو، وتقول تاليا إن أباها يبخل بكلامه كما يبخل بنقوده. المحار وأم الخُلول والسّراطين وبلح البحر والحلزونات وأحيانًا القريدس... يشتري بروسكو كلّ شيءٍ حسب ما يبدو الأفضل هذا اليوم، وعلى الآخرين حمل الأقفاص والبراميل التي نقرَ عليها إلى القارب، فبروسكو يُعاني ألمًا في ظَهره ولا يستطيع أن يحمل شيئًا أثقل من دورقٍ من المِزر البنّي.

دائمًا تفوح من كات رائحة السّمك والملح لدى بدء رحلة عودتهم إلى البيت، لكنها اعتادَتها تمامًا حتى إنها لم تَعُد تشمُّها تقريبًا، كما أنها لا ترى ما يعيبها في هذا العمل، وعندما تُؤلِمها عضلاتها من الرّفع أو يتوجّع ظَهرها من وزن برميلٍ تقول لنفسها إن قوّتها تزداد.

بمجرّد تحميل جميع البراميل والأقفاص على القارب دفعه بروسكو من جديدٍ وعادَ بهم ابناه إلى (القناة الطّويلة)، في حين جلسَت بريا وتاليا عند المقدّمة تتهامسان. تعلم كات أنهما تتكلّمان عن فتى بريا الذي تتسلّق إلى سطح المنزل لتقابِله بَعد خلود أبيها إلى النّوم.

حين أرسلَها إلى المدينة قال لها الرّجل الطيّب آمزا: «تعلّمي ثلاثة أشياء جديدة قبل أن تعودي إلينا»، وهذا ما تفعله دائمًا. أحيانًا لا يكون ما تتعلّمه أكثر من ثلاث كلماتٍ جديدة من البراقوسيّة، وأحيانًا تعود بحكاياتٍ من البحّارة عن الأشياء الغريبة العجيبة الحادثة في العالم الواسع البليل حول (براقوس)، عن الحروب وأمطار الضّفادع والتّنانين الوليدة. أحيانًا تتعلّم ثلاث دُعاباتٍ جديدة أو ثلاث أحاجي جديدة أو حيل هذه التّجارة أو غيرها، وكلّ فترةٍ طويلة تعرف سِرًّا ما.

(براقوس) مدينة من الأسرار، مدينة ضبابٍ وأقنعةٍ وهمسات، وجودها ذاته ظَلَّ سِرًّا طيلة قرنٍ كامل كما تعلّمت الفتاة، وموقعها ظَلَّ خفيًا ثلاثة أضعاف هذه المدّة. قال لها الرّجل الطيّب: «المُدن التّسع الحُرّة بنات (ڤاليريا) التي كانت، لكن (براقوس) طفلتها النّغلة التي فرّت من البيت. نحن شعب هجين، أولاد الرّقيق والعاهرات واللّصوص، وأتى أسلافنا من عشرات البلدان إلى هذا الملاذ ليهربوا من سادة التّنانين الذين استعبدوهم، ومعهم أتى عشرات الآلهة، لكن هناك إلهًا واحدًا يشتركون فيه جميعًا».

- «هو ذو الوجوه العديدة».

- «والأسماء العديدة. في (كوهور) هو الكبش الأسود، وفي (يي تي) أسد اللّيل، وفي (وستروس) الغريب. كلُّ البشر ينحنون له في النّهاية، سواء أكانوا يَعبُدون الآلهة السّبعة أم إله الضّياء أم أم القمر أم الإله الغريق أم الرّاعي الأعظم. كلُّ البشر ينتمون إليه... وإلّا لكان في مكانٍ ما من العالم قوم يحيون إلى الأبد. هل تعرفين قومًا يحيون إلى الأبد؟».

فتجيب الفتاة: «لا. كلُّ البشر يُدرِكهم الموت».

دومًا تجد كات الرّجل الطيّب في انتظارها حينما تعود إلى المعبد فوق الهضبة ليلة اسوداد القمر، ودومًا يسألها: «ما الذي تعلّمتِه ولم تكوني تعلمينه لمّا تركتِنا؟».

- «أعلمُ ما يضعه بِكو الضّرير في الصّلصة الحارّة التي يستخدمها مع محاره. أعلمُ أن الممثّلين في (القنديل الأزرق) سيعرضون (سيّد الملامح الأليمة) وأن الممثّلين في (السّفينة) ينوون الرّدّ بـ(سبعة ملّاحين سكارى). أعلمُ أن بائع الكتب لوثو لورنل ينام في منزل الرّبّان التّاجر موريدو پرستاين متى خرج الرّبّان التّاجر النّبيل إلى رحلةٍ في البحر، ومتى عادت سفينته (الثّعلبة) إلى الوطن غادرَ لوثو».

- «جيّد أن تعلمي هذه الأشياء. ومَن أنتِ؟».

- «لا أحد».

- «تكذبين. أنتِ كات قطّة القنوات، إنني أعرفكِ جيّدًا. اذهبي ونامي أيتها الصّغيرة، فغدًا عليكِ أن تخدمي».

- «كلُّ البَشر واجبهم الخدمة». وهذا ما تفعله ثلاثة أيامٍ من كلّ ثلاثين. عندما يسودُ القمر لا تكون أحدًا، مجرّد خادمةٍ للإله عديد الوجوه ترتدي الأبيض والأسود. تمشي إلى جوار الرّجل الطيّب في الظّلام العطِر حاملةً مصباحها الحديد، وتُغسّل الموتى وتفرز ثيابهم وتُحصي مالهم، وأحيانًا تعود إلى مساعدة أوما في المطبخ مقطّعةً الفطر الأبيض الكبير ونازعةً أشواك السّمك... لكن فقط حين يسودُ القمر، أمّا بقيّة الوقت فهي فتاة يتيمة تنتعل حذاءً ممزّقًا أكبر من قدميها وترتدي معطفًا بنّيًا مهترئ الحاشية، وتصيح: «بلح بحر وحلزون وأم الخُلول!» بينما تدور بعربتها في (ميناء راجمان).

تعلم أن القمر سيكون أسود اللّيلة، فليلة أمس لم يكن أكثر من شظيةٍ صغيرة في السّماء، وما إن يراها الرّجل الطيّب سيسألها: «ما الذي تعلّمتِه ولم تكوني تعلمينه لمّا تركتِنا؟». *أعلمُ أن بريا ابنة بروسكو تلتقي فتًى على السّطح عندما ينام أبوها. تاليا تقول إن بريا تّتركه يتحسّسها مع أنه مجرّد جرذ سطوح، والمفترض أن جميع جرذان السّطوح لصوص.* على أن هذا شيء واحد، وستحتاج كات إلى شيئين آخرَين، لكنها ليست قلقةً، فعند الشفن أشياء جديدة تتعلّمها طيلة الوقت.

حين عادوا إلى المنزل ساعدَت كات ابنَي بروسكو على تفريغ القارب من البضائع، وقسّم بروسكو وابنتاه الأصداف على ثلاث عرباتٍ ورصّوها على طبقاتٍ من الطّحالب البحريّة، ثم قال بروسكو للفتيات كما يفعل كلّ صباح: «غدن عندما تبعن كلّ شيء»، وخرجت ثلاثتهن يُنادين على الصّيد. ستذهب بريا بعربتها إلى (الميناء الأرجواني) لتبيع ما معها للبحّارة البراڤوسيّين الذين ترسو سُفنهم هناك، وتاليا إلى الأزقّة المحيطة بـ(بِركة القمر) أو تدور بين المعابد على (جزيرة الآلهة)، في حين اتّجهت كات إلى (ميناء راجمان) كما تفعل تسعة أيامٍ من كلّ عشرة.

وحدهم البراقوسيّون من (البلدة الغارقة) و(قصر أمير البحر) مسموح لهم باستخدام (الميناء الأرجواني)، أمّا السّفن الآتية من المدن الثّمان أخوات (براقوس) فتستخدم (ميناء راجمان) الأكثر تواضعًا واضطرابًا واتساخًا، كما أنه أعلى صخبًا أيضًا، إذ يزدحم البحّارة والتّجّار من عشرات البلاد على أرصفته وفي أزقّته مختلطين بمن يخدمونهم ويحتالون عليهم. إنه أكثر مكانٍ تحبّه كات في (براقوس)، إذ تحلو لها الضّوضاء والرّوائح الغريبة ورؤية الشفن التي وصلّت مساء أمس ومعرفة تلك التي أقلعت. يروقها البحّارة أيضًا؛ التايروشيّون المجعجِعون بأصواتهم الجهوريّة وشواربهم المصبوغة، واللايسينيّون الشّقر الذين يُحاوِلون دومًا بخس أسعارها، لكنها تُفضّل بني (جُزر الصّيف) ببشرتهم الملساء القاتمة كخشب السّاج، الذين يرتدون معاطف من الرّيش الأحمر والأخضر والأصفر ويركبون سُفنًا بجعيّةً رائعةً طويلة الصّواري بيضاء القلوع.

وأحيانًا تُقابِل وستروسيّين أيضًا، بحّارةً وملّاحين من قراقير (البلدة القديمة)، والقوادس التّجاريّة من (وادي الغسق) و(كينجز لاندنج) و(بلدة النّوارس)، وأكواج النّبيذ كبيرة البطون من (الكرمة). تعرف كات المرادفات البراقوسيّة لبلح البحر والحلزون وأم الخلول، غير أنها تُنادي على بضاعتها في (ميناء راجمان) بلُغة التّجارة، لُغة الأرصفة والمراسي وحانات البحّارة، وهي فوضى خشنة من الكلمات والجُمل من لغاتٍ عدّة تصحبها إشارات وإيماءات أكثرها مهين، وتلك أكثر ما يروق كات. أيّ رجلٍ يُضايِقها من شأنه أن يرى التّينة أو يسمع نفسه يُوصَف بقضيب الحمار أو فرج النّاقة. «ربما لم أرَ ناقةً من قبل، لكنني أعرفُ فرج النّاقة حين أشمّه».

كلّ فترةٍ طويلة يُغضِب قول كهذا أحدهم، لكنها تكون جاهزةً بسكّينها الرّفيع الذي تُحافِظ على حدّته الشّديدة وتعرف كيف تستخدمه أيضًا، كما أراها روجو الأحمر ذات أصيلٍ في (الميناء السّعيد) بينما ينتظر فروغ لانا. علّمها روجو كيف تُخبّئه في كفّها وتُخرِجه عندما تحتاج إليه، وكيف تشقُّ كيس نقودٍ بنعومةٍ وسُرعةٍ تُسقِطان منه العُملات كلّها قبل أن يلحظ صاحِبها. مفيد أن تتعلّم هذا -كما أكّد الرّجل الطيّب نفسه- لا سيّما ليلًا حين يَخرُج مُبارزو البراڤو وجرذان الشطوح.

كوّنت كات صداقاتٍ على الأرصفة، وأصدقاؤها عتّالون وممثّلون وصُنّاع حِبال ومُصلحو أشرعة وأصحاب حانات وحفّارون وخبّازون وشحّاذون وعاهرات. منها يشترون أم الخُلول والحلزون، ولها يحكون قِصصًا حقيقيّةً عن (براڤوس) وأكاذيب عن حيواتهم، ويضحكون من نُطقها عندما تُحاوِل أن تتكلّم البراڤوسيّة، لكنها لا تدع هذا يُزعِجها أبدًا، وبدلًا من ذلك تُريهم التّينة وتقول لهم إنهم فروج نوق، وهو ما يجعل ضحكهم يُدَوّي أكثر. علّمها جايلورو دوتار أغاني بذيئةً، وأخبرَها أخوه جايلينو بأفضل البقاع لصيد ثعابين الماء، وأراها ممثّلو (السّفينة) كيف يقف البطل ولقّنوها خطاباتٍ من (أغنيّة الروين) و(الفاتِح وزوجتاه) و(سيّدة التّاجر الشّبقة)، وعرضَ عليها كويل -الرّجل الصّغير حزين العينين الذي يُؤلّف المسرحيّات الهزليّة البذيئة لـ(السّفينة)- أن يُعلّمها كيف تُقبّل النّساء، لكن تاجانارو لطفه بسمكة قُد ووضعَ نهايةً لهذا، بينما علّمها كوزومو الحاوي خفّة اليد. يستطيع كوزومو أن يبتلع الفئران ويُخرِجها من أذنيه قائلًا: «إنه السّحر»، فتردّ كات: «لا، الفأر كان في كُمّك طوال الوقت. لقد رأيته يتحرّك».

«محار وأم الخُلول وحلزون» الكلمات السّحريّة، وككلّ الكلمات السّحريّة الجيّدة فمن شأنها أن تأخذها إلى أيّ مكانٍ تقريبًا. لقد صعدت إلى متون سفنٍ من (ليس) و(البلدة القديمة) و(ميناء إيبن) وباعت محارها على سطوحها، وفي بعض الأيام تمرّ بعربتها على بروج الأثرياء وتعرض أم الخُلول المخبوزة على الحرس الواقفين على الأبواب، وفي مرّةٍ نادت على بضاعتها على درجات (قصر الحقيقة)، ولمّا حاول بائع متجوّل آخر أن يَطردها قلبَت عربته وبعثرَت محاره على الأرض. يشتري منها مأمورو الجمارك في (المرفأ المرتع)، وكذا مجذّفو (البلدة الغارقة) الذين تَبرز قبابهم وأبراجهم المغمورة من مياه الهَور الخضراء، وفي مرّةٍ عندما أرقدَ النّزيف القمري بريا في فِراشها دفعت كات عربتها إلى (الميناء الأرجواني) لبيع السّراطين والقريدس لملّاحي قارب نُزهة أمير البحر المغطّى من أقصاه إلى أقصاه برسوم الوجوه الضّاحكة، وفي أيامٍ أخرى تتّبع نهر المياه العذبة إلى (بِركة القمر)، حيث تبيع لمُبارزي البراڤو المختالين في حريرهم المخطّط وحمَلة المفاتيح والقُضاة الذين يرتدون المعاطف البنّيّة والرّماديّة الباهتة، لكنها دومًا تعود إلى (ميناء راجمان).

«محار وأم الخلول وحلزون!»، صاحت الفتاة دافعةً عربتها على الأرصفة. «بلح بحر وقريدس وحلزون!». جاءت قطّة بُرتقاليّة متسخة تمشي وراءها وقد اجتذبَها الصِّياح، وبَعد مسافةٍ ظهرَت قطّة ثانية، واحدة رماديّة حزينة ممرَّغة بالأوساخ ذيلها قصير. تحبُّ القِطط رائحة كات، وفي بعض الأيام تجد دستةً منها ماشيةً وراءها قبل مغيب الشَّمس. من حين إلى آخَر تُلقي لها كات محارةً وتشاهِد لترى مَن يظفر بها، وقد لاحظَت أن أكبر القِططة حجمًا نادرًا ما يربح، وغالبًا تذهب الغنيمة إلى القِطط الأصغر الأسرع بنحولها وشراستها وجوعها. مِثلي. قِطّها المفضَّل عجوز له أُذن مقضومة يُذَكِّرها بقِطّ آخَر اعتادَت مطارَدته ذات يومٍ في (القلعة الحمراء). *لا، كانت تلك فتاةٌ ما أخرى ليست أنا.*

رأت كات أن سفينتين من التي كانت هناك البارحة رحلَتا، لكن خمسًا جديدات جئن، هي قرقور صغير اسمه (القرد النّحاسي)، وسفينة صيد حيتان إيبنيزيّة تفوح منها روائح القطران والدّم وزيت الحيتان، وكوجان باليان من (پنتوس)، وقادس أخضر رشيق من (ڤولانتيس القديمة). توقّفت كات عند قدم كلّ لوح عبورٍ تُنادي على أم الخُلول والمحار، مرّةً بلُغة التّجارة ومرّةً بعاميّة (وستروس). سبّها أحد أفراد الطّاقم على سفينة صيد الحيتان بصوتٍ مدوٍّ أخاف قِططها، وسألَها أحد الملّاحين البنتوشيّين كم تُريد مقابل المحارة التي بين ساقيها، لكنها وجدَت حظًّا أفضل عند الشّفن الأخرى، والتهمَ مساعد رُبّان على متن القادس الأخضر نِصف دستةٍ من المحار وحكى لها كيف قتلَ القراصنة اللايسينيّون الرُّبّان عندما حاوَلوا الاستيلاء على سفينتهم قُرب (الأعتاب)، وأضافَ: «كان ذلك الوغد سان ومعه (ابن الأم العجوز) وسفينته الكبيرة (ڤاليريان). لقد فررنا منهم، ولكن بالكاد».

اتّضح أن القرقور الصّغير (القرد النّحاسي) من (بلدة النّوارس)، وقد سعدَ طاقمه الوستروسي للكلام مع أحدٍ باللُّغة العاميّة. سألَها أحدهم عمّا أفضى بفتاةٍ من (كينجز لاندنج) إلى بيع بلح البحر على أرصفة الموانئ في (براڤوس)، فقصّت عليهم حكايتها، وقال لها واحد آخَر: «سنبقى هنا أربعة أيام وأربع ليالٍ طويلة. أين يجد المرء القليل من التّسلية؟».

أخبرَتهم كات: «الممثّلون في (السّفينة) سيقدّمون (سبعة ملّاحين سكارى)، وهناك عراك ثعابين الماء في (القبو المرقّط) عند بوّابة (البلدة الغارقة)، أو إذا أردتم فيمكنكم الذّهاب عند (بركة القمر) حيث يتنازَل مُبارزو البراڤو ليلًا».

قال بحّار آخَر: «نعم، لا بأس بهذا، لكن ما يُريده وات حقًّا هو امرأة».

- «أفضل العاهرات في (الميناء السّعيد)، حيث ترسو (السّفينة)»، وأشارَت في اتّجاه المكان. بعض عاهرات أرصفة الموانئ متوحّشات، وأحيانًا لا يدري البحّارة الآتون لتوِّهم من البحر من منهن كذلك. سفرون أسوأهن، ويقول الجميع إنها سرقَت وقتلَت دستةً من الرّجال ودحرجَت جُثثهم إلى القنوات لتُطعِم ثعابين الماء، والابنة السّكّيرة ليّنة العريكة عندما تكون مفيقةً فقط وليس حين تشرب، وچاين القُرحة في الحقيقة رجل. «اسألوا عن مِري. اسمها الحقيقة ميرالين، لكن الكلّ يدعوها بمِري، وهي مرحة حقًّا». تشتري مِري دستةً من المحار كلّما ذهبَت كات إلى الماخور وتتقاسَمه مع فتياتها، ويتّفق الجميع على طيبة قلبها، «ثم إن لي أكبر ثديين في (براڤوس) كلّها»، كما يحلو لمِري نفسها أن تتباهى.

فتياتها أيضًا لطيفات؛ بِحاني الخجول وزوجة البحّار، ويانا ذات العين الواحدة التي ترى مستقبَلك في قطرةٍ من الدّم، ولانا الصّغيرة الحسناء، وحتى آسادورا الإيبنيزيّة ذات الشّارب. ربما لا يكن جميلات حقًّا، لكنهن يترفّقن بها. أكّدت كات لرجال (القرد النّحاسي) قائلةً: «كلُّ العتّالين يذهبون إلى (الميناء السّعيد). مِري تقول: *الفتيان يُفرِغون أحمال السّفن وفتياتي يُفرِغن أحمال من يُبحِرون بها*».

- «وماذا عن العاهرات الممتازات اللاتي يُغنُّون عنهن؟»، سألها أصغر القِردة، صبيٌّ أحمر الشّعر منمّش الوجه لا يُمكن أن تزيد سِنّه على السّادسة عشرة. «أهن جميلات كما يقولون؟ أين أجد واحدةً منهن؟».

نظرَ إليه رفاقه البحّارة وضحكوا، وقال أحدهم: «بحقّ الجحائم السّبع يا فتى، ربما يستطيع الرّبّان أن يَحصُل لنفسه على محظيّة، لكن فقط إذا باعَ السّفينة اللّعينة. هذا النّوع من الفروج للوردات وأمثالهم وليس لنا».

محظيّات (براقوس) شهيرات في جميع أنحاء العالم، يُغنّي عنهن المطربون، ويُغدِق عليهن الصّاغة وصُنّاع الجواهر بالهدايا، ويتوسّل الجرفيّون شرف أن يكن زبائنهم، ويدفع الأمراء التّجّار أسعارًا فلكيّةً كي يتأبّطن أذرعهم في الحفلات والمآدب وعروض الممثّلين، ويَقتل بعض مبارزي البراقو بعضًا باسمهن. أحيانًا بينما تدفع عربتها بطول القنوات تلمح كات إحداهن مارّةً في قاربٍ أو في طريقها إلى أمسيّةٍ مع عشيقٍ ما. لكلّ محظيّةٍ صندلها الخاص وخدمها الذين يُبحِرون بها إلى مواعيدها. الشّاعرة في يدها كتاب دومًا، وظِلّ القمر لا ترتدي إلّا الأبيض والفضّي، وملكة البحار لا تُرى أبدًا من دون وصيفاتها عرائس البحر، أربع عذراوات في ريعان الإزهار يحملن ذيل فُستانها ويُصفّفن شعرها. كلُّ محظيّةٍ أروع جمالًا من الأخرى، وحتى الليدي الملثّمة جميلة، وإن كان من تتّخذهم عشّاقًا فقط يرون وجهها.

قالت كات للبحّارة: «بعث ثلاثة حلزونات لمحظيّة. نادتني وهي تنزل من صندلها». كان بروسكو قد شدّد عليها ألّا تُخاطِب أيّ محظيّةٍ ما لم تُبادِرها المحظيّة بالكلام أولًا، لكن المرأة ابتسمت لها ونقدتها أجرها فضّةً تفوق قيمة الحلزونات بعشرة أضعاف.

- «مَن هي؟ ملكة الحلزونات؟».

أجابتهم: «اللّؤلؤة السّوداء». تدّعي مِري أن اللّؤلؤة السّوداء أشهر المحظيّات جميعًا، وقالت المرأة لكات: «إنها سليلة التّنانين. اللّؤلؤة السّوداء الأولى كانت ملكةً قُرصانةً اتّخذها أمير وستروسي عشيقةً وأنجبَ منها ابنةً كبرَت لتُصبِح محظيّةً، ثم تبعَتها ابنتها وابنة ابنتها، وهكذا دواليك حتى اللّؤلؤة السّوداء الحاليّة. ماذا قالت لكِ يا كات؟».

ردّت الفتاة: «قالت: *سآخذ ثلاثة حلزونات*، وسألتني: *هل معكِ صلصة حارّة أيتها الصّغيرة؟*».

- «وماذا قلتِ؟».

- «قلت: *لا يا سيّدتي، ولا تُناديني بالصّغيرة، إن اسمي كات*. المفترَض أن تكون معي صلصة حارّة. يِكو معه، ويبيع ثلاثة أضعاف ما يبيعه بروسكو من المحار».

حكّت كات عن اللُّؤلؤة السّوداء للرّجل الطيّب أيضًا، وقالت له: «اسمها الحقيقي بيليجير أوثيريس». كان هذا واحدًا من الأشياء الثّلاثة التي تعلّمتها.

قال الكاهن برفق: «صحيح. أمّها كانت بيلونارا، لكن اللُّؤلؤة السّوداء الأولى كان اسمها بيليجير أيضًا».

على أن كات تعرف أن رجال (القرد النّحاسي) لن يأبهوا لاسم أمّ محظيّة، وبدلًا من ذلك سألتهم عن أخبار (الممالك السّبع) والحرب.

أجابَ أحدهم ضاحكًا: «الحرب؟ أيّ حرب؟ ليست هناك حرب».

وقال آخر: «ليس في (بلدة النّوارس) وليس في (الوادي). اللورد الصّغير أبقانا بمنأى عنها مثلما فعلَت أمّه».

مثلما فعلَت أمّه. سيّدة (الوادي) أخت أمّها. «الليدي لايسا. هل...».

- «... ماتت؟»، أنهى الفتى ذو النّمش الممتلئ رأسه بالمحظيّات سؤالها. «نعم، قتلَها مغنّيها».

- «أوه». *لا يعني الأمر لي شيئًا. قطّة القنوات لم تكن لها خالة قطّ*. رفعَت كات عربتها ودفعَتها بعيدًا عن (القرد النّحاسي) لتهتزّ على حجارة الرّصف، ونادَت: «محار وأم الخلول وحلزون! محار وأم الخلول وحلزون!». باعَت أكثر ما معها من أم الخلول للعتّالين الذين يُفرِغون حمولة كوج النّبيذ الكبير الآتي من (الكرمة)، والبقيّة للرّجال الذين يُصلِحون قادسًا تجاريًا من (مير) دكّته العواصف.

على مسافةٍ أبعد على الرّصيف وجدَت تاجانارو جالسًا مسندًا ظَهره إلى دعامةٍ إلى جوار كاسو ملك الفقمات، وابتاعَ منها الرّجل بعض بلح البحر، ونبحَ كاسو وتركَها تهزُّ زعنفته. استحثَّها تاجانارو قائلًا وهو يمتصّ بلح البحر من الصّدف: «تعالي واعملي معي يا كات». إنه يبحث عن شريكٍ جديد منذ غرسَت الابنة السّكّيرة سكّينها في يد ناربو الصّغير. «سأنقدكِ أجرًا أكثر من بروسكو ولن تكون رائحتك كالسّمك».

ردّت: «كاسو يحبّ رائحتي»، ونبحَ ملك الفقمات كأنه موافق. «ألم تتحسّن يد ناربو؟».

قال تاجانارو متذمّرًا بين بلحتين: «ثلاثة من أصابعه لا تنثني. ما فائدة نشّالٍ لا يستطيع استخدام أصابعه؟ ناربو كان بارعًا في النّشل وليس كذلك في اختيار العاهرات».

- «مِري تقول المِثل». شعرَت كات بالحُزن. لقد أحبّت ناربو الصّغير على الرغم من كونه لصًّا. «ماذا سيفعل؟».

- «يقول إنه سيعمل على مجذاف. يظنُّ أن إصبعين كافيان لهذا، وأمير البحر يبحث دائمًا عن ملّاحين جُدد. قلتُ له: *لا يا ناربو، هذا البحر أبرد من عذراء وأقسى من عاهرة. أفضل لك أن تقطع يدك وتتسوّل*. كاسو يعرف أنني محقٌّ، أليس كذلك يا كاسو؟».

نبحَ كلب البحر وابتسمت كات، وألقَت له حلزونًا آخَر قبل أن تذهب في حال سبيلها.

كان النّهار قُرب آخِره عندما بلغت كات (الميناء السّعيد) قُبالة مرسى (السّفينة)، وقد جلس عدد من الممثّلين أعلى السّفينة الضّخمة المائلة يُمرّرون قِربة نبيذٍ من يدٍ إلى يد، لكن حين رأوا عربة كات نزلوا ليشتروا بعض المحار. سألَتهم عن أخبار عرض (سبعة ملّاحين سكارى)، فهَزّ چوس المكتئب رأسه مجيبًا: «كوينس ضبَطَ آلاكو في الفِراش مع سلوي أخيرًا، وتبارزَ الاثنان بسيفَي ممثّلين ثم تركانا. يبدو أننا سنكون خمسة ملّاحين سكارى فقط اللّيلة».

أعلنَ ميرملو: «سنَبذُل قصارى جهدنا لنُعوّض غياب الملّاحين بالسُّكر. أنا عن نفسي قادر على هذا!».

أخبرَتهم كات: «ناربو الصّغير يُريد أن يكون ملّاحًا. إذا حصلتهم عليه تُصبِحون ستّةً».

قال لها چوس: «الأفضل أن تذهبي إلى مِري. تعلمين كيف تكون عندما لا تأكل المحار».

لكن حين دخلَت كات الماخور وجدَت مِري جالسةً بعينين مغمضَتين تُصغي إلى داريون الذي يعزف على قيثارته الخشبيّة. كانت يانا موجودةً أيضًا، تُضفّر شَعر لانا الذّهبي الطّويل الجميل. *أغنيّة حُبّ سخيفة أخرى*. دائمًا تتوسّل لانا إلى المطرب أن يُغنّي لها أغاني الحُبّ السّخيفة. إنها أصغر العاهرات سنًّا، في الرّابعة عشرة فقط، وتعلم كات أن مِري تَطلُب مقابلها ثلاثة أضعاف ما تَطلُبه ثمنًا للفتيات الأخريات.

أغضبتها رؤية داريون الجالس هناك مختالًا، يرمي لانا بنظرات الشّهوة بينما تتراقص أصابعه على أوتار القيثارة. تُسمّيه العاهرات المغنّي الأسود، مع أن السّواد يكاد يغيب عنه تمامًا الآن، فبالمال الذي يجنيه من غنائه حوّل الغُراب نفسه إلى طاووس. اليوم يرتدي معطفًا مترفًا من المخمل المبطّن بالفرو وسترةً مخطّطةً بالأبيض والأرجواني الفاتح وسراويل مُبارزي البراڤو المبرقشة، لكنه يملك معطفًا حريريًا أيضًا، وواحدًا من المخمل الخمري المبطّن بقُماش الذّهب. الأسود الوحيد في ثيابه حذاؤه، وسمعته كات يقول للانا إنه ألقى البقيّة كلّها في قناة، وأعلن: «لقد ضقت ذرعًا بالظّلام».

بينما يُغنّي داريون عن ليدي سخيفة ألقت نفسها من فوق بُرجٍ سخيف لأن أميرها السّخيف مات فكّرت الفتاة: *إنه رجل في حرس اللّيل. المفترَض أن تذهب الليدي وتَقتل من قتَلوا أميرها وأن يكون المغنّي على (الجِدار)*. مع بداية تردّد داريون إلى (الميناء السّعيد) كادَت آريا تسأله أن يأخذها معه وهو عائد إلى (القلعة الشّرقيّة)، ثم إنها سمعته يُخبِر بِثاني بأنه لن يعود أبدًا، ويقول: «أسرّة صُلبة وسَمك قُد مملّح وحراسة بلا نهاية، هذا هو (الجِدار). ثم إن (القلعة الشّرقيّة) ليست فيها واحدة بنِصف جَمالكِ. كيف يُمكنني أن أتركك؟». سمعته كات يقول الكلام نفسه للانا، ولواحدةٍ من عاهرات (المَقططة)، بل وللعندليب ليلة غنّى في (دار القناديل السّبعة).

ليتني كنت هنا يوم ضربَه السّمين. ما زالَت الحادثة تُضحِك عاهرات مِري، وتقول يانا إن الصّبي السّمين احمرّ كالبنجر كلّما لمسته، لكن حين بدأ يُثير المتاعب جعلَتهم مِري يجرّونه إلى الخارج ويُلقونه في القناة.

كانت كات تُفكّر في الصّبي السّمين وتتذكّر إنقاذها إياه من تيرو وأوريليو عندما وجدَت زوجة البحّار إلى جوارها تُغمغِم بنعومةٍ بعاميّة (وستروس): «يُغنّي أغاني جميلةً. لا بُدّ أن الآلهة تحبّه ما دامت أنعمَت عليه بهذا الصّوت وهذا الوجه الوسيم».

فكّرت آريا: *إنه وسيم الوجه وقبيح القلب*، لكنها لم تقلها. في مرّةٍ تزوّج داريون زوجة البحّار التي لا تُضاجع إلّا من يتزوّجونها. أحيانًا يشهد (الميناء السّعيد) ثلاثة أو أربعة زفافاتٍ في اللّيلة، وغالبًا ما يؤدّي الرّاهب الأحمر البشوش السّكّير إزيلينو الطّقوس، وإن لم يكن هو فإيوستس الذي كان في الماضي سِبتون في (سِپت ما وراء البحر)، وفي حال غياب الرّاهب والسّبتون تهرع إحدى العاهرات إلى (السّفينة) لتأتي بأحد الممثّلين. دائمًا تُرغم مِري أن الممثّلين رهبان أفضل من الرّهبان، خصوصًا ميرملو.

الزّفافات صاخبة مرحة وتتدفّق فيها أنهار النّبيذ، وكلّما تمرّ كات في أثناء أحدها بعربتها تصرّ زوجة البحّار على أن يبتاع زوجها الجديد بعض المحار لتقويته من أجل إتمام الزّيجة. إنها فتاة طيّبة ضحوك، وإن خطرَ لكات أن فيها شيئًا من الحزن أيضًا.

تقول العاهرات الأخريات إن زوجة البحّار تزور (جزيرة الآلهة) في أيام إيناع زهرتها وتعرف كلّ الآلهة المقيمة هناك، بما فيها تلك التي نسيتها (براڤوس). يقلن إنها تذهب للصّلاة من أجل زوجها الأول، زوجها الحقيقي الذي ضاعَ في البحر حين كانت فتاةً في سِنّ لانا، وقالت يانا العوراء التي تعرفها منذ فترةٍ أطول من الأخريات: «تظنّ أنها إذا وجدَت الإله السّليم فسيُرسِل الرّيح لتدفع إليها بحبيبها القديم، لكنني أصلّي ألّا يَحدث هذا أبدًا. لقد ماتَ حبيبها وتذوّقت هذا في دمها. إذا عادَ إليها فسيعود جثّةً».

كانت أغنيّة داريون في نهايتها أخيرًا، وإذ تلاشت النّغمات الأخيرة في الهواء تنهّدت لانا ووضعَ المغنّي قيثارته جانبًا وجذبَ الفتاة إلى حِجره، وما إن بدأ يُدَغدِغها حتى رفعَت كات صوتها قائلةً: «معي محار إذا كان أحد يُريد»، فانفتحت عينا مِري من فورها، وقالت: «عظيم. هاتيه أيتها الصّغيرة. يانا، أحضِري الخُبز والخل».

حين خرجَت كات من (الميناء السّعيد) ومعها صُرّة ممتلئة بالنّقود وعربة خالية إلّا من الملح والطّحالب كانت الشّمس الحمراء المنتفخة عالقةً في السّماء وراء صَفٍّ من الصّواري. خرجَ معها داريون أيضًا، إذ كان قد وعدَ بالغناء في الخان المسقّى (ثعبان الماء الأخضر) هذا المساء، كما قال لها وهما يمشيان جنبًا إلى جنب، وأضافَ متباهيًا: «كلّما غنّيتُ هناك أعودُ بالفضّة، وفي بعض اللّيالي يحضر ربابنة ومُلّاك». عبرا الجسر الصّغير وشقّا طريقهما في شارعٍ خلفي ملتوٍ وقد بدأت الظّلال تستطيل، وواصلَ داريون: «قريبًا سأغنّي في (الميناء الأرجواني)، وبعده في (قصر أمير البحر)». كانت عربة كات تُقعقِع على حجارة الرّصف مصدرةً موسيقاها الخاصّة، والمغنّي يُتابِع: «البارحة أكلتُ الرّنجة مع العاهرات، لكن خلال عامٍ سآكلُ السّراطين الإمبراطوريّة مع المحظيّات».

قالت كات: «ماذا حدثَ لأخيك؟ ذلك السّمين، هل وجدَ سفينةً ذاهبةً إلى (البلدة القديمة)؟ قال إنه كان من المفترَض أن يُبحِر على متن (الليدي أوشانورا)».

- «كلّنا كذلك. إنه أمر اللورد سنو. قلتُ لسام أن يَترُك العجوز، لكن الأحمق البدين لم يُصغِ»، والتمعَ ضوء الشّمس الغاربة الأخير في شَعر داريون إذ أضافَ: «فاتَ أوان ذلك».

قالت كات إذ خطوَا إلى عتمة زُقاقٍ صغير ملتوٍ: «بالضّبط».

لدى عودتها إلى منزل بروسكو كان ضباب المساء يحتشد فوق القناة الصّغيرة. ركنت عربتها ووجدت بروسكو في حجرته، وبقوّةٍ وضعت صُرّة النّقود على الطّاولة أمامه، ثم إنها وضعت الحذاء أيضًا.

ربّت بروسكو على الصُّرّة، ثم قال: «عظيم، لكن ما هذا؟».

- «حذاء».

قال بروسكو: «العثور على الأحذية الجيّدة صعب، لكن هذا صغير للغاية على قدمي»، ورفع فردةً وزرّ عينيه يتفحّصها.

- «القمر سيكون أسود اللّيلة».

ردّ بروسكو: «خيرٌ لكِ أن تذهبي للصّلاة إذن»، وأزاح الحذاء جانبًا وصبّ العملات ليحصيها مضيفًا: «ڤالار دوهايرِس».

ڤالار مورجولِس.

ارتفع الضّباب من كلّ جهةٍ حولها بينما تقطع شوارع (براڤوس)، ولدى دخولها من مصراع باب (دار الأبيض والأسود) المنحوت من خشب الويروود كانت ترتجف بعض الشّيء. شموع قليلة مشتعلة هذا المساء، يتذبذب لهبها كالشُّهب، وفي الظّلام كلُّ الآلهة غُرباء.

في الأقبية حلّت معطف كات المهترئ وخلعت سترة كات البنّيّة ذفرة الرّائحة وركلّت حذاء كات المبقّع بالملح وتجرّدت من ثياب كات الدّاخليّة، ثم استحمّت بالماء واللّيمون لتغسل عن جسدها رائحة قطّة القنوات، وحين خرجت وقد نظّفت نفسها بالصّابون وفركت جلدها حتى تورّد والتصق شعرها بوجنتيها لم تعُد كات موجودةً. ارتدت ثوبًا نظيفًا وانتعلت خُفّين ناعمين من القماش، ثم ذهبت إلى المطبخ لتطلُب القليل من الطّعام من أوما. كان الكهنة والمعاونون قد أكلوا بالفعل، لكن الطّاهية أبقت لها قطعةً من سمك القُد المحمّر اللّذيذ والقليل من اللّفت الأصفر المهروس. التهمت طعامها بنهمٍ وغسلت الطّبق، ثم ذهبت تُعاوِن اللّقيطة على إعداد عقاقيرها.

أغلب دورها إحضار ما تَطلُبه اللُّقيطة، فتصعد سُلَّمًا لتجد الأعشاب وأوراق الأشجار. قالت لها اللُّقيطة وهي تطحن القليل منها في الهاون: «حُلو الكرى ألطف الشموم. بضع حبّات تجعل نبضات القلب السّريعة تتباطأ وتُوقِف اليد عن الارتجاف وتجعل المرء يَشعر بالهدوء والقوّة. رشّة واحدة تمنح المرء ليلةً من النّوم العميق بلا أحلام، وثلاث رشّات تجلب النّوم الذي لا ينتهي أبدًا. الطّعم حُلو للغاية، ولذا فمن الأفضل استخدامه في الكعك والفطائر والخمور المحلّاة بالعسل. هاكِ، يُمكنك أن تشمّي رائحته الحُلوة»، وتركَتها تتشمّم ثم أرسلَتها تصعد السُّلّم لتجد قارورةً زُجاجيّةً حمراء. «هذا شمٌّ أقسى، لكنه بلا طعمٍ أو رائحة، ومن ثَمّ إخفاؤه أسهل. يُسمّونه دموع لِيس، ويُذوّب في النّبيذ أو الماء ليجعل أمعاء المرء ومعدته تتآكل ويقتله كأنه مرض في هذه الأعضاء. تشمّميه»، فتنشّقت آريا ولم تشمّ شيئًا. ثم إن اللُّقيطة وضعت الدّموع جانبًا وفتحت جرّةً حجريّةً منتفخةً قائلةً: «هذا المعجون متبّل بدماء البازيليسق. يُعطي اللّحم المطبوخ رائحةً مشهّيةً، لكن إذا أُكِلَ أفضى إلى جنونٍ عنيف في الإنسان والحيوان. ستجدين الفأر يُهاجِم الأسد إذا ذاقَ دماء البازيليسق».

مضغَت آريا شفتها متسائلةً: «هل يَصلُح مع الكلاب؟».

أجابَت اللُّقيطة: «مع كلّ حيوان حار الدّماء»، وصفعَتها.

رفعَت يدها إلى وجهها شاعرةً بالدّهشة أكثر من الألم، وقالت: «لماذا فعلتِ هذا؟».

- «آريا سليلة عائلة ستارك هي مَن تَمضَغ شفتها متى فكّرت. هل أنتِ آريا سليلة عائلة ستارك؟».

ردّت غاضبةً: «أنا لا أحد. مَن أنتِ؟».

لم تتوقّع أن تُجيبها اللّقيطة، لكنها فعلَت. «وُلِدتُ طفلةً وحيدةً في عائلةٍ عريقة وكنتُ وريثة أبي النّبيل. ماتت أمّي في صِغري ولا أذكرها، وحين كنتُ في السّادسة تزوّج أبي ثانيةً، وعاملَتني زوجته الجديدة بطيبةٍ إلى أن أنجبَت ابنةً من لحمها ودمها، وعندها أرادتني أن أموت كي ترث ابنتها ثروة أبي. كانت لتسعى إلى عطيّة الإله عديد الوجوه، ولكنها لم تتحمّل التّضحية التي كان ليَطلُبها منها، وبدلًا من ذلك خطرَ لها أن تُسمّمني بنفسها. تركَتني الشّمُ كما ترينني الآن لكنني لم أمُت، ولمّا أخبرَ المُعالجون في (بيت الأيدي الحمراء) أبي بما فعلَته جاء هنا وقدّم قُربانًا، عارضًا ثروته بأكملها ومعها أنا، وأجابَ هو ذو الوجوه العديدة دُعاءه وجيءَ بي إلى المعبد لأخدم، وتلقّت زوجة أبي الهديّة».

تفرّست آريا فيها بحذرٍ سائلةً: «أهذه حكاية حقيقيّة؟».

- «فيها حقيقة».

- «وأكاذيب أيضًا؟».

- «هناك نقيض للحقيقة، وهناك مبالَغة».

كانت تُراقِب وجه اللّقيطة طيلة الوقت وهي تحكي قِصّتها، إلّا أن أمارةً لم تظهر على وجه الفتاة الأخرى. قالت لها: «الإله عديد الوجوه أخذَ ثُلثَي ثروة أبيكِ وليس كلّها».

- «بالضّبط، هذه هي المبالَغة».

ارتسمَت على وجه آريا ابتسامة عريضة، ثم إنها أدركَت أنها تبتسم فقرصَت وجنتها، وقالت لنفسها: *تحكّمي في وجهكِ. ابتسامتي خادمتي، ويجب أن تأتي بأمري فقط*. «وما الكذبة؟».

- «لا كذبة. لقد كذبتُ بشأن الكذب».

- «حقًّا؟ أم أنكِ تكذبين الآن؟».

لكن قبل أن تُجيبها اللّقيطة دخلَ الرّجل الطيّب الحُجرة مبتسمًا، وقال: «غدتِ إلينا».

- «القمر أسود».

- «نعم. ما الأشياء الثلاثة الجديدة التي تعلّمتِها ولم تكوني تعلمينها لمّا تركتِنا؟».

كانت تقول: *أعلمُ ثلاثين شيئًا جديدًا*، وأجابت: «ثلاثة من أصابع ناربو الصّغير لا تنثني، ويُريد أن يُصبح ملّاحًا».

- «جيّد أن تعلمي هذا. وماذا أيضًا؟».

استرجعت أحداث يومها في رأسها، ثم قالت: «كوينس وآلاكو تشاجَرا وتركا (السّفينة). لكنني أظنّ أنهما سيعودان».

- «تظنّين فقط أم تعلمين؟».

قالت مضطرّةً على الرغم من يقينها: «أظنّ فقط». الممثّلون يحتاجون إلى كسب رزقهم كغيرهم، وكوينس وآلاكو لا يَصلُحان كفايةً لـ(القنديل الأزرق).

قال الرّجل الطيّب: «بالضّبط. والشّيء الثّالث؟».

هذه المرّة أجابَت بلا تردُّد: «داريون مات، المغنّي الأسود الذي ينام في (الميناء السّعيد). كان متهرّئًا من حرس اللّيل في الحقيقة. أحدهم ذبحه وألقاه في القناة، لكنه احتفظ بحذائه».

- «العثور على الأحذية الجيّدة صعب».

قالت محاولةً الحفاظ على جمود ملامحها: «بالضّبط».

- «تُرى من فعلَ هذا؟».

- «آريا سليلة عائلة ستارك». كانت تُراقِب عينيه وفمه وعضلات فكّه.

- «تلك الفتاة؟ حسبتها غادرَت (براقوس). مَن أنتِ؟».

- «لا أحد».

رَدّ: «تكذبين»، والتفت إلى اللّقيطة قائلًا: «حلقي جاف. أسدي لي صنيعًا واجلبي لي كوبًا من النّبيذ وحليبًا دافئًا لصديقتنا آريا التي رجعت إلينا على غير توقُّع».

في طريقها عبر المدينة تساءلَت آريا عمّا سيقوله الرّجل الطيّب عندما تُخبِره بأمر داريون. ربما يغضب منها، أو ربما يُسَرُّ لأنها أعطَت المغنّي هديّة الإله عديد الوجوه. عشرات المرّات دوَّرت هذا الحديث في مخيِّلتها كممثّلٍ في مسرحيّة، لكن ما لم يَخطُر لها هو الحليب الدّافئ!

حين وصلَ الحليب شربَته آريا، وكانت له رائحة محروقة بعض الشّيء وخلّف في فمها مذاقًا مُرًّا.

قال لها الرّجل الطيّب: «اذهبي إلى النّوم الآن أيتها الصّغيرة. غدًا واجبكِ أن تخدمي».

ليلتها حلمَت من جديدٍ بأنها ذئبة، لكن حُلمها هذا كان مختلفًا عن الأحلام الأخرى. في هذا الحُلم لم يكن لها قطيع، وراحَت تمضي وحيدةً، تجري فوق أسطح المباني وتمشي بصمتٍ على ضفاف قناةٍ متربّصةً بظلالٍ في الضّباب.

ولمّا استيقظَت في الصّباح التّالي وجدَت نفسها عمياء.

(ريح القرفة) سفينة بجعيّة من (بلدة الأشجار الطّويلة) في (جُزر الصّيف)، حيث الرّجال سُود والنّساء لعوبات والآلهة ذاتها غريبة، وليس على المتن سپتون يقودهم في صلاة الجنازة، فوقعَت المهمّة على عاتق ساموِيل تارلي في مكانٍ ما عند ساحل (دورن) الجنوبي المتلظّي بالشّمس.

ارتدى سام ثيابه السّوداء الثّقيلة من أجل التّأبين، على الرغم من حرارة الأصيل ورطوبته وغياب نفحات الرّيح إلّا قليلًا. استهلّ كلامه قائلًا: «كان رجلًا صالحًا»... لكن ما إن خرجَت الكلمات من فمه حتى علمَ أنها خطأ. «لا، بل كان رجلًا عظيمًا. كان مِايستر من (القلعة)، مسلسَلًا ومحلّفًا، وأخًا في حرس اللّيل شيمته الإخلاص. حين وُلِدَ أطلَقوا عليه اسم بطلٍ مات في ريعان الشّباب، ومع أنه عاشَ طويلًا جدًّا فحياته لم تكن أقلّ بطولةً. لم يكن هناك رجل أكثر منه حكمةً أو حنانًا أو طيبةً. لقد عرفَ (الجِدار) دستةً من القادة الذين أتوا وذهبوا خلال سنين خدمته، لكنه كان موجودًا دومًا ليُسديهم النّصيحة، بل وكان ناصحًا لملوكٍ أيضًا. كان بإمكانه أن يكون هو نفسه ملكًا، لكن لمّا عرضوا عليه التّاج قال إن عليهم أن يُعطوه لأخيه الصّغير. كم رجلًا يُمكنه أن يفعل شيئًا كهذا؟». أحسّ سام بالعبرات تترقرَق في عينيه، فأدرك أنه لا يقدر على الاستمرار طويلًا، وختمَ بقوله: «كان من دم التّنين، لكن نيرانه همدَت. كان إيمون تارجاريَن، والآن انتهَت حراسته».

تمتمت جيلي بَعده وهي تُهزهِز الرَّضيع بين ذراعيها: «والآن انتهت حراسته»، وردّدت كوچا مو الكلمات بلُغة (وستروس) العاميّة ثم كرّرتها بلُغة الصّيف لزوندو وأبيها وبقيّة الطّاقم المجتمِع. طأطأ سام رأسه وانفجرَ في البُكاء، نحيبه عالٍ عنيف لدرجةٍ هزّت جسده كلّه، فذهبَت جيلي إليه ووقفَت إلى جواره تاركةً إياه يبكي على كتفها، وقد اغرورقَت عيناها بالدُّموع أيضًا.

الهواء رطب دافئ ساكن تمامًا، و(ريح القرفة) طافية على صفحة بحرٍ أزرق عميق بعيدًا تمامًا عن اليابسة. قال زوندو: «سام الأسود قال كلمات جيّدة. الآن نشرب لحياته»، وزعقَ بشيءٍ ما بلُغة الصّيف، فجيءَ ببرميلٍ من الرّم المتبّل إلى مؤخّرة السّفينة، وفُتِحَ ليشرب الحاضرون كوبًا في ذكرى التِّنّين العجوز الكفيف الذي لم يعرفه الطّاقم إلّا فترةً قصيرةً، لكن بني (جُزر الصّيف) يُوَقّرون المسنّين ويحتفون بموتاهم.

لم يشرب سام الرّم من قبل، ووجدَ الشّراب غريبًا مسكِرًا، حُلوًا في البداية لكنه يترك على اللّسان مذاقًا ناريًّا لسعَ فمه. كم هو متعَب. كلُّ عضلةٍ في جسده تؤلِمه، وثمّة آلام أخرى في مواضع لم يكن يعلم أن فيها عضلات، ورُكبتاه متخشّبتان، ويداه تُغطّيهما قروح جديدة وزقع لزجة رطبة من الجِلد حيث انفتحَت القروح القديمة، وإن كان يبدو أن الشّراب والحُزن معًا يُزيحان ألمه. قال لجيلي بينما يرشفان من الرّم فوق سلوقيّة (ريح القرفة) العالية: «لو استطعنا فقط أن نأخذه إلى (البلدة القديمة) فلربما أنقذَه رؤساء المِايسترات. مُعالجو (القلعة) هُم الأفضل في (الممالك السّبع) كلّها. لفترةٍ حسبتُ... أملت...».

في (براڤوس) بدا تماثل إيمون للشفاء ممكنًا، وخُيِّلَ إلى سام أن حديث زوندو عن التّنانين يكاد يُعيد العجوز إلى طبيعته. ليلتها أكلَ كلَّ لُقمةٍ وضعَها سام أمامه، وقال: «لا أحد بحث عن فتاةٍ قَطُّ. كان الموعود أميرًا لا أميرة. اعتقدتُ أنه ريجار... الدُّخان كان من الحريق الذي التهمَ (قلعة الصَّيف) يوم مولده، والملح من دموع من بكوا الموتى. كان يُشارِكني اعتقادي في صِغره، وإن باتَ لاحقًا على قناعةٍ بأن النُّبوءة تتحقَّق في ابنه لا فيه هو، ذلك أن مذنَّبًا شُوهِدَ فوق (كينجز لاندنج) ليلة حبلَت إليا ياجون، وريجار كان واثقًا بأن النَّجم النّازف ما هو إلَّا مذنَّب. كم كنا حمقى إذ خِلنا أنفسنا آيةً في الحكمة! الخطأ ناجم عن التَّرجمة. التّنانين ليست ذكورًا أو إناثًا، وقد رأى بارث حقيقة هذا، وإنما هكذا لحظةً وهكذا لحظةً، كاللَّهب دائمة التَّقلُّب. اللُّغة ضلَّلتنا جميعًا طيلة ألف عام. دنيرس هي الموعودة المولودة وسط الملح والدُّخان، والتّنانين تُثبِت هذا». بدا أن مجرَّد الكلام عنها يجعله أقوى. «يجب أن أذهب إليها، يجب! ليتني كنتُ أصغر عشرة أعوامٍ فقط».

كان العجوز عاقد العزم حتى إنه صعدَ على لوح العبور إلى متن (ريح القرقة) على قدميه بَعد أن اتّفق سام على رحلتهم. قبلها كان سام قد أعطى زوندو سيفه وغِمده بالفعل، تعويضًا لوكيل الزبّان الكبير عن المعطف الزِّيش الذي تلفَ حين نجدَه من الفرق. الشّيء الوحيد ذو القيمة الذي تبقّى لهم بَعدها هو الكُتب التي أتوا بها من أقبية (القلعة السّوداء)، وقد تخلّى سام عنها بكآبة، وردّ عندما سأله زوندو عن سبب عبوسه: «كان المفترَض أن نأخذها إلى (القلعة)»، ولمّا ترجمَ الوكيل ردّه ضحكَ الزبّان، ثم قال له زوندو مترجِمًا: «كاهورو مو يقول إن الرّجال الرّماديِّين سيحصلون على هذه الكُتب، لكن الفرق أنهم سيشترونها الآن من كاهورو مو. المِايسترات يدفعون فضّةً جيّدةً مقابل الكُتب التي ليست عندهم، وأحيانًا الذّهب الأحمر والأصفر».

أرادَ الزبّان سلسلة إيمون أيضًا، إلّا أن سام رفض وشرح أنه عار عظيم أن يتخلّى أيُّ مِايستر عن سلسلته، واضطرّ زوندو إلى تكرار هذا الجزء ثلاث مرّات حتى قبلَ كاهورو مو، ولدى إبرام الاتّفاق لم يَعُد سام يملك إلّا حذاءه وثيابه السّوداء وملابسه الشّحتيّة والبوق المكسور الذي وجدَه چون عند (قبضة البَشر الأوائل). قال لنفسه: *لم أملك الخيار. لم نكن نستطيع البقاء في (براڤوس)، وما لم نلجأ إلى السّرقة أو الشّحاذة فلم يكن هناك سبيل آخَر لدفع ثَمن الرّحلة*. كان ليعدّ التّكلفة رخيصةً حتى إذا دفعوا ثلاثة أضعاف لو أنهم فقط نجحوا في أخذ المِايستر إيمون بأمانٍ إلى (البلدة القديمة).

غير أن الرّحلة إلى الجنوب كانت عاصفةً، وخصمَت كلُّ هبّة ريحٍ من قوّة العجوز ومعنويّاته. في (پنتوس) طلبَ أن يأخذه سام إلى السّطح ليرسم له صورةً للمدينة بكلماته، لكنها كانت آخِر مرّةٍ يبرح فيها فِراش الرُّبّان، وسرعان بَعدها ما بدأ عقله يتوه من جديد، ولدى مرور (ريح القرفة) بـ(البُرج النّازف) لتَدخُل ميناء (تايروش) كان إيمون قد كفَّ عن الكلام عن محاولة العثور على سفينةٍ تحمله شرقًا، وبدلًا من ذلك تحوّل كلامه إلى (البلدة القديمة) ورؤساء المِايسترات في (القلعة)، وقال: «يجب أن تُخبِرهم يا سام، يجب أن تُخبِر رؤساء المِايسترات، يجب أن تجعلهم يفهمون. الرّجال الذين كانوا في (القلعة) وقت وجودي هناك ماتوا منذ خمسين عامًا، أولئك الآخَرون لم يعرفوني قطُّ. رسائلي... لا بُدّ أنهم حسبوها في (البلدة القديمة) هذيان شيخٍ فقدَ عقله. يجب أن تُقنِعهم بما فشلت في إقناعهم به. أخبِرهم يا سام... أخبِرهم بالوضع على (الجِدار)... الجُثث الحيّة والمُشاة البِيض والبرد الزّاحف...».

وعدَه سام قائلًا: «سأفعلُ، سأضمُّ صوتي إلى صوتك أيها المِايستر. كلانا سيُخبِرهم، نحن الاثنان معًا».

رَدَّ العجوز: «لا، يجب أن تُخبِرهم أنت. أخبِرهم. النُبوءة... حُلم أخي... الليدي مليساندرا أساءت تفسير العلامات. ستانيس... ستانيس في عروقه القليل من دماء التنِّين، نعم، وأخواه أيضًا. رايل ابنة إج الصَّغيرة، ورثوها عن طريقها... أم أبيهم... اعتادَت أن تُناديني بالعم المِايستر في طفولتها. تذكَّرتُ هذا فسمحتُ لنفسي بالأمل... ربما أردتُ أن... كلُّنا نخدع أنفسنا عندما نُريد أن نُصدِّق شيئًا، بالذَّات مليساندرا على ما أظنُّ. السَّيف ليس سليمًا، يجب أن تعلم هذا... ضوء بلا حرارة... سِحر فارغ... السَّيف ليس سليمًا، ولا يُمكن للضَّوء الزَّائف إلَّا أن يتوغَّل بنا في الظُّلمات أكثر يا سام. دنيرس أملنا. أخبِرهم بهذا في (القلعة)، اجعلهم يُصغون. يجب أن يُرسِلوا إليها مِايستر. لا بُدَّ من نُصح دنيرس وتعليمها وحمايتها. طيلة هذه الأعوام عشتُ وانتظرتُ وراقبتُ، ثم يأتي اليوم المنتظَر وقد طعنتُ في السِّن. إنني أحتضرُ يا سام». سالَت الدُّموع من عينَي إيمون البيضاوين مع هذا الاعتراف، وتابعَ: «لا يُفترَض أن يُخيف الموت عجوزًا مِثلي، لكنه يُخيفني. أليس هذا سخيفًا؟ إنني أعيش في ظلامٍ دامس، فلِمَ أخشى الظَّلام؟ ورغم ذلك لا أستطيعُ إلَّا أن أتساءل عمَّا سيأتي عندما يتسرَّب الدِّفء كلُّه من جسدي. هل سأحتفلُ إلى الأبد في بهو (الأب) الذَّهبي كما يقول السِّپتونات؟ هل سأتكلَّمُ مع إج ثانيةً وأجِد داريون سليمًا سعيدًا وأسمعُ أختَيَّ تُغنِّيان لأطفالهما؟ ماذا لو كانت الحقيقة عند سادة الخيول؟ هل سأركبُ في سماء اللَّيل إلى الأبد على صهوة جوادٍ من لهب؟ أم سأعودُ ثانيةً إلى وادي الآلام هذا؟ مَن يدري حقًّا؟ مَن اجتازَ جِدار الموت ليرى؟ فقط الجُثث الحيَّة، ونحن نعلم ماهيتها، نحن نعلم».

لم يجد سام إلّا القليل ليقوله ردًا، لكنه واسى العجوز قدر المستطاع، ثم جاءت جيلي بَعدها وغنَّت له أغنيّةً بلا معنى تعلّمتها من بعض زوجات كراستر الأخريات، لكنها جعلَت العجوز يبتسم وساعدَته على الخلود إلى النّوم.

كان هذا واحدًا من آخِر أيامه الجيّدة، وبَعدها قضى العجوز فتراتٍ أطول في النّوم أكثر من اليقظة، وقد تمدّد تحت كومةٍ من الأغطية الفرو في قمرة الرُبّان. أحيانًا كان يُتمتِم في نومه، وحين يستيقظ يَطلُب سام قائلًا بإصرارٍ إن عليه أن يُخبِره بشيء، لكن في أغلب الأحيان كان ينسى ما أرادَ أن يقوله لدى وصول سام، وحتى حينما يتذكّر كان كلامه مرتبكًا مشوّشًا. تكلّم عن أحلامٍ لكنه لم يَذكُر الحالم، وتكلّم عن شمعةٍ زُجاجيّة غير قابلةٍ للإشعال وبيضاتٍ لا تفقس، وقال إن أبا الهول هو الأحجية لا صانِع الأحاجي (أيًا كان ما يعنيه ذلك)، وطلبَ من سام أن يقرأ له من كتابٍ للسِّبتون بارث الذي أحرِقَت كتاباته في عهد بيلور المبارَك، وفي مرّةٍ استيقظ باكيًا وولولَ: «لا بُدّ أن تكون للتنين ثلاثة رؤوس، لكنني أكثر هرَمًا ووهنًا من أن أكون أحدها. كان يجب أن أكون معها لأريها الطّريق، لكن جسدي خانني».

إذ شقّت (ريح القرفة) طريقها عبر (الأعتاب) صار المِايستر إيمون ينسى اسم سام أكثر الوقت، وأحيانًا حسبَه أحد إخوته الموتى.

أعلى السّلوقيّة بَعد رشفةٍ أخرى من الرّم قال لسام لجيلي: «كان أضعف من أن يحتمل رحلةً طويلةً كهذه. كان على چون أن يتوقّع هذا. إيمون كان عُمره مئةً واثنين عام، وما كان يجب إرساله إلى البحر على الإطلاق. لو ظَلّ في (القلعة السّوداء) فلربما عاش عشرة أعوامٍ أخرى».

- «أو لكانت المرأة الحمراء قد أحرقَته». حتى هنا على بُعد ألف فرسخٍ من (الجِدار) تعرض جيلي عن لفظ اسم الليدي مليساندرا. «لقد أرادَت دم الملوك من أجل نيرانها. قال كانت تعلم هذا، وكذا اللورد ستو، ولذا جعلاني آخذ ابن دالا وأترك ابني في مكانه. المايستر إيمون نامَ ولم يصحُ ثانيةً، لكن لو مكثَ هناك لأحرقَته».

فكَّر سام ببؤس: *ما زالَ سيحترق. الفرق أن عليَّ أنا أن أفعلها الآن.* اعتادَ آل تارجاريَن دومًا إطعام النَّار بموتاهم، لكن كاهورو مو لم يسمح بإشعال محرقة جنازة على متن (ريح القرفة)، فوُضِعَ جُثمان إيمون في برميلٍ من رَم الثوت الأسود لحفظه حتى تَبلُغ السَّفينة (البلدة القديمة).

واصلَت جيلي: «في اللَّيلة السَّابقة لموته سألَني أن أتركه يحمل الصَّبي. خشيتُ أن يُسقِطه لكنه لم يفعل، بل هزهزَه ودندنَ له أغنيّةً، ورفعَ ابن دالا يده ومسَّ وجهه وشَدَّ شفته بطريقةٍ جعلتني أحسبه يؤلِمه، لكن العجوز ضحك فقط».

وملَّست على يد سام مردفةً: «يُمكننا أن نُسمِّي الصَّغير مِايستر إذا أردت، عندما يكبُر، ليس الآن، لكن يُمكننا هذا».

- «مِايستر ليس اسمًا، لكن يُمكننا أن نُسمِّيه إيمون».

فكَّرت جيلي لحظةً، ثم قالت: «دالا ولدَته في أثناء المعركة بينما تُغنِّي السُّيوف حولها. يجب أن يكون هذا اسمه، إيمون وليد المعركة، إيمون أغنيّة الفولاذ».

اسم ربما يُعجِب أبي نفسه، اسم مُحارب. في النِّهاية الصَّبي ابن مانس رايدر وحفيد كراستر، وليس في عروقه قطرة من دماء سام الجبانة. «نعم، ليكن هذا اسمه».

وعدَته قائلةً: «عندما يَبلُغ الثَّانية وليس قبل هذا».

خطرَ لسام أن يسأل: «أين الصَّبي؟». بين الرَّم والأسى استغرقَ كلُّ هذه المدَّة حتى أدرك أن الرَّضيع ليس مع جيلي.

- «مع كوجا. طلبتُ منها أن تأخذه قليلًا».

- «أوه». كوجا هو ابنة الزبّان، أطول قامةً من سام وممشوقة القوام كالحربة ولها بشرة ملساء كالكهرمان الأسود المصقول. تقود الفتاة زماة السفينة الخمر أيضًا، وتحمل قوسًا مزدوج المنحنى من خشب القلب الذّهبي بإمكانها أن تُطلِق منه السّهام حتى مسافة أربعمئة ياردة، وحين هاجمَهم القراصنة في (الأعتاب) أردَت سهام كوجا دستةً منهم في حين سقطَت سهام سام في الماء. الشّيء الوحيد الذي تحبّه كوجا أكثر من قوسها هو هزهزة ابن دالا على ركبتها والغناء له بلُغة الصّيف، وقد أصبحَ الأمير الهمجي محبوب جميع نساء الطّاقم، ويبدو أن جيلي تأتمنهن عليه كما لم تأتمن أيّ رجلٍ على الإطلاق.

قال سام: «هذا لُطف من كوجا».

- «كنتُ أخافها في البداية. إنها سوداء جدًا وأسنانها كبيرة وبيضاء جدًا، فخشيتُ أنها مسخ أو وحش ما، لكنها ليست كذلك. إنها طيّبة وأحبُّها».

- «أعرفُ هذا». الرّجل الوحيد الذي عرفَته جيلي معظم حياتها كان كراستر المخيف، أمّا بقيّة عالمها فإناث. *الرّجال يُخيفونها والنّساء لا*. إنه يفهم هذا. في (هورن هيل) كان سام يُفضّل صحبة الفتيات أيضًا وعاملَته أخواته بطيبة، وعلى الرغم من أن الفتيات الأخريات كن يسخرن منه أحيانًا فتجاهُل الكلمات القاسية كان أسهل من الضّربات واللّطمات التي تلقّاها من صِبية القلعة. حتى هنا والآن على متن (ريح القرفة) يَشعُر سام بالارتياح لكوجا هو أكثر من أبيها، ولو أن السّبب ربما يكون أنها تتحدّث العاميّة ولا يتحدّثها هو.

همسَت جيلي: «وأحبّك أيضًا يا سام. وأحبُّ هذا الشّراب، إن مذاقه كالنّار».

نعم، شراب يليق بتنين. فرغ كوباهما فذهب سام إلى البرميل وملأهما ثانيةً. رأى أن الشّمس انخفضَت في الغرب وتضخَّمت إلى ثلاثة أضعاف حجمها، وقد جعلَ نورها الضّارب إلى الخمرة وجه جيلي يبدو مخضّبًا بالأحمر. شربا كوبًا لكوچا مو وواحدًا لابن دالا وواحدًا لابن جيلي على (الجِدار)، وبَعدها لم يكن هناك مفرٌّ من أن يشربا كوبين لإيمون سليل عائلة تارجاريَن، ثم قال سام متنشقًا: «عسى (الأب) أن يَحكُم عليه بالعدل». كانت الشّمس قد أوشكَت على الغياب تمامًا حين فرغا من المِايستر إيمون، ولم يتبقَّ إلّا خَطٌّ أحمر رفيع يتوهّج في الأفق الغربي كشقٍّ طويل في السّماء. قالت جيلي إن الشّراب يجعل السّفينة تميد بها، فساعدَها سام على نزول السُّلّم إلى مسكن النّساء تحت المقدّمة.

ثمّة مصباح معلّق داخل باب القمرة مباشرةً، وقد اصطدم رأسه به وهو يَدخل، فقال: «آو!»، وقالت جيلي: «هل جُرِحت؟ دعني أري»، ومالَت عليه...

... وقبّلته على فمه.

ووجدَ سام نفسه يُقبّلها أيضًا. قال لنفسه: *لقد حلفتُ اليمين،* لكن يديها كانتا تشدّان معطفه الأسود وتحلّان أربطة سراويله. فقطعَ القُبلة قائلًا: «لا يُمكننا»، إلّا أن جيلي ردّت: «بل يُمكننا»، ومرّةً أخرى غطّت ثغره بثغرها. من حولهما دارَت (ريح القرفة)، وذاقَ سام طعم الرّم على لسان جيلي، وإذا بثدييها عاريان ويتحسّسهما. ثانيةً قال لنفسه: *لقد حلفتُ اليمين،* لكن إحدى حلمتيها وجدَت طريقها إلى ما بين شفتيه. كانت ورديّة منتصبةً، وحين مصّها ملأ لبنها فمه ممتزجًا بمذاق الرّم، ولم يتذوّق سام في حياته كلّها شيئًا بهذا الجمال أو الحلاوة أو الرّوعة. فكّرَ: *إذا فعلتُ هذا فلستُ أفضل من داريون،* لكنه يَشعُر بمتعةٍ أعجزَته عن التّوقُّف. وفجأةً كان ذكره خارج سراويله منتصبًا كساريةٍ ورديّة غليظة، يبدو سخيفًا للغاية حتى إن سام كان ليضحك، لكن جيلي دفعَته على ظَهره فوق سريرها القشّ ورفعَت تنّورتها حول فخذيها وأنزلَت نفسها عليه مطلقةً آهةً ناعمةً، وكان هذا أفضل وأفضل من حلمتيها، وقال سام لنفسه شاهقًا: *إنها مبتلّة للغاية. لم أعرف قطّ أن امرأةً يُمكن أن تبتلّ هكذا هناك.* همسَت منزلقةً إلى أعلى وأسفل: «أنا زوجتك الآن»، وتأوّه سام وقال في أعماقه: *لا، لا، لا يُمكنكِ أن تكوني زوجتي، لقد حلفتُ اليمين، حلفتُ اليمين،* لكن الكلمة الوحيدة التي بدرَت منه هي «نعم».

بعدها غابَت في النّوم مطوّقةً إياه بذراعيها ورأسها على صدره. يحتاج سام إلى النّوم أيضًا، لكنه ثمل بالرّم ولبن الأم وجيلي. يعلم أن عليه أن يعود إلى سريره المعلّق في قمرة الرّجال، غير أنه شعور رائع أن تلتصق به هكذا، وبشكلٍ ما لا يقوى على الحركة.

دخلَ آخَرون القمرة، رجال ونساء، وسمعَهم يُقَبِّل بعضهم بعضًا ويضحكون ويتطارَحون الغرام. *بنو (جُزر الصَّيف)، هكذا يُعلِنون الحِداد، يردُّون على الموت بالحياة*. قرأ سام هذا في مكانٍ ما منذ فترةٍ طويلة، ويتساءل إن كانت جيلي تعرفه، إن كانت كوجا مو قد أخبرَتها بما تفعله.

تنشَّم عبير شَعرها وحدَّق إلى المصباح المتأرجح بالأعلى مفكِّرًا: *(العجوز) نفسها لا تستطيع أن تُخرِجني بأمانٍ من هذا المأزق*. أفضل ما يستطيع أن يفعله الآن أن ينسلَّ مبتعدًا ويلقي نفسه في البحر. *إذا غرِقتُ فلن يعلم أحد أبدًا أنني أخزيتُ نفسي وحنثتُ بقَسَمي، وستجد جيلي لنفسها رجلًا أفضل ليس جبانًا بدينًا*.

استيقظ في اليوم التالي في سريره المعلَّق في قمرة الرِّجال على صوت زوندو يجأر بشأن الرِّيح، وظَلَّ وكيل الرُّبَّان يزعق: «الرِّيح تهبُّ! الرِّيح تهبُّ! استيقِظ واعمل يا سام الأسود! الرِّيح تهبُّ!». ما يفتقر إليه زوندو من مفردات عاميَّة (وستروس) يُعوِّضه بصوته الجهوري. نهضَ سام من سريره وشعرَ بالنَّدم في الحال. رأسه كأنه سينفلِق، وأحد القروح في كَفِّه انفتحَ ليلًا، ويحسُّ كأنه على وشك التَّقيُّؤ.

لكن زوندو بلا رحمة، ولم يستطِع سام إلَّا أن يرتدي ثيابه السَّوداء بصعوبة. وجدَها على الأرض تحت السَّرير المعلَّق في كومةٍ رطبة، وتشمَّمها ليرى مدى سوء رائحتها، فاستنشقَ روائح الملح والبحر والقطران والأشرعة المبتلَّة والعفَن الفِطري والفاكهة والأسماك وزَم الثُّوت الأسود، وتوابل غريبةً وأخشابًا عجيبةً، وقذرًا وفيرًا من عَرق جسده الجاف، لكن في ملابسه رائحة جيلي أيضًا، رائحة شَعرها النَّظيفة ورائحة لبنها الحلوة، ولذا ارتداها مسرورًا. كان ليدفع ثمنًا كبيرًا مقابل جوربٍ جاف ثقيل، إذ بدأ نوع ما من الفِطر ينمو بين أصابع قدميه.

لم يكن صندوق الكُتب كافيا على الإطلاق كثمن رحلةٍ لأربعة من (براڤوس) إلى (البلدة القديمة)، على أن (ريح القرفة) تُعاني نقصًا في الأيدي العاملة، وهكذا وافق كُاهورو مو على أن يأخذهم على المتن شريطة أن يعملوا في الطّريق، ولمّا احتجّ سام قائلًا إن المِايستر إيمون ضعيف للغاية والصّبي ما زالَ رضيعًا وجيلي مرعوبة من البحر، ضحك زوندو وزدّ: «سام الأسود رجل كبير بدين، سام الأسود سيعمل لأربعة».

الحقيقة أن سام أخرق لدرجة أنه يشكّ في قيامه بعمل فرد واحد جيّد، لكنه يُحاوِل رغم ذلك، فينظّف سطح السّفينة ويحكّه بالحجارة، ويسحب سلاسل الرّسو، ويلفّ الحبال، ويصطاد الجرذان، ويرتق القلوع الممزّقة، ويسدّ الثّغرات في الخشب بالقطران المغلي، وينزع أشواك السّمك ويُقطّع الفواكه للطّاهي. وجيلي أيضًا تُحاوِل، كما أنها أبرع منه في لَفّ حبال الأشرعة، وإن كان منظر المياه الخالية يجعلها تُغلِق عينيها من حينٍ إلى حين.

جيلي، ماذا أفعلُ مع جيلي؟

هذا النّهار طويل لزج، وجعلَه رأس سام الذي لم يكفّ عن الدّقّ أطول وأطول. شغلَ نفسه بالحبال والأشرعة والواجبات الأخرى التي كلّفه بها زوندو، وحاولَ ألّا يَترُك عينيه تخونانه وتذهبان إلى برميل الرّم الذي يحوي جثّة المِايستر إيمون... أو إلى جيلي. لا يستطيع أن يُواجِه الفتاة الهمجيّة الآن بَعد ما فعلاه ليلة البارحة. حين تصعد إلى السّطح ينزل، حين تذهب إلى الأمام يذهب إلى الخلف، حين تبتسم له يُشيح بوجهه شاعرًا بالتّعاسة. *كان يَجدُر بي أن أثب في البحر وهي نائمة. لقد كُنتُ جبانًا دومًا، لكنني لم أكن حانثًا بالقَسم حتى الآن.*

لو لم يَفُت المايستر إيمون لسأله سام ماذا يفعل. لو كان چون سنو على متن السَّفينة، أو حتى پيپ وجرِن، للجأ إليهم، لكن بدلًا منهم هناك زوندو. *لن يفهم زوندو ما أقوله، أو إذا فهمه لقال لي أن أنكح الفتاة ثانيةً*. «ينكح» هي أول كلمةٍ تعلَّمها زوندو من اللُّغة العاميَّة، ومغرم بقولها جدًّا.

من حُسن حظِّه أن (ريح القرفة) سفينة كبيرة، أمَّا على متن (الطَّائر الأسود) فكانت جيلي لتلحق به وتُحاصِره في غضون لحظات. في (الممالك السَّبع) تُسمَّى مراكب أهل (جُزر الصَّيف) الشُّفن البجعيَّة، لقلوعها البيضاء المنتفخة وتماثيل مقدِّماتها التي يتَّخذ أكثرها أشكال طيور. على الرغم من كِبر أحجامها تركب الشُّفن البجعيَّة الأمواج برشاقةٍ تخصُّها وحدها من دون الفُلك، وما دامت تدفعها ريح سريعة قويَّة تستطيع (ريح القرفة) أن تسبق أيَّ قادس، وإن كانت تعجز تمامًا عند سكون الأجواء... ثم إن على السَّفينة مواضع عدَّة يستطيع أن يختبئ فيها الجبان.

قُرب نهاية عمله حوصِرَ سام أخيرًا. كان ينزل سُلَّمًا عندما أطبقَ زوندو على ياقته قائلًا: «سام الأسود يأتي مع زوندو»، وجرَّه عبر سطح السَّفينة وألقاه عند قدمَي كوچا مو.

بعيدًا إلى الشَّمال يلوح سديم غامض منخفض في الأُفق، وقد أشارَت كوچا إليه قائلةً: «هذا ساحل (دورن). رمال وصخور وعقارب، ولا بُقعة صالحة للرُّسو بطول مئة فرسخ. يُمكنك أن تسبح إلى هناك إذا أردت ثم تمشي إلى (البلدة القديمة). عليك أن تقطع الصَّحراء الشَّاسعة وتتسلَّق بعض الجبال وتسبح في (التورنتين)، أو يُمكنك أن تذهب إلى جيلي».

- «لستِ تفهمين. ليلة أمس...».

- «... كرّمتما ميتكما والآلهة التي خلقتكما. زوندو فعلَ المِثل. كان الطّفل معي، ولولا هذا لكنت معه. أنتم معشر الوستروسيِّين تصمون الغرام بالعار. ليس في الغرام عار. إذا كان سِپتوناتكم يقولون هذا فلا بُدّ أن آلهتكم شياطين. في جُزرنا نفهم أكثر منكم. الآلهة وهبَت لنا سيقانًا نجري بها وأنوفًا نشمُّ بها وأيادي نتلمَّس ونتحسَّس بها. ما الإله المتوحّش المجنون الذي يُعطي المرء عينين ويقول له إن عليه أن يُغلِقهما حتى يموت ولا يَنظُر أبدًا إلى ما في العالم من جَمال؟ إله وحش، شيطان من الظّلام»، ووضعَت كوچا يدها بين ساقَي سام مضيفةً: «الآلهة وهبَت لك هذا لسببٍ أيضًا، من أجل... ما الكلمة الوستروسيّة؟».

ساعدَها زوندو قائلًا: «النّكاح!».

- «نعم، من أجل النّكاح، للإمتاع وإنجاب الأطفال. لا عار في هذا».

قال سام متراجعًا: «لقد حلفتُ يمينًا. *لن أتَّخذ لنفسي زوجةً أو أنجب أولادًا*. قلتُ هذه الكلمات».

- «چيلي تعرف الكلمات التي قلتها. إنها طفلة في بعض النّواحي، لكنها ليست عمياء، تعلم لِمَ ترتدي الأسود وسبب ذهابك إلى (البلدة القديمة)، وتعلم أنها لا تستطيع الاحتفاظ بك. إنها تُريدك فترةً قصيرةً لا أكثر. لقد فقدَت أباها وزوجها وأمَّها وأخواتها، فقدَت بيتها وعالمها. ليس عندها الآن إلّاك والصّغير، فاذهب إليها أو اسبح».

رمقَ سام الشّديم الذي يُغلّم السّاحل البعيد بيأسٍ عالمًا أنه لا يستطيع أن يسبح هذه المسافة.

وهكذا ذهبَ إلى چيلي، وقال لها: «ما فعلناه... لو أنني أستطيعُ الزّواج لفضّلتكِ على أيّ أميرةٍ أو ابنة أعيان، لكنني لا أستطيعُ. إنني ما زلتُ غرابًا. لقد حلفتُ اليمين يا چيلي، ذهبتُ مع چون إلى الغابة وقلتُ الكلمات أمام شجرة قلوب».

قالت جيلي ماسحةً الدّموع عن وجنتيه: «الأشجار تَحرُسنا، في الغابة ترى كلّ شيء... لكن لا توجد أشجار هنا. فقط الماء يا سام، فقط الماء».

النّهار بارد غائم بليل. طيلة الصّباح هطلَت الأمطار بلا انقطاع، وحتى عندما توقّفت أخيرًا بَعد الظّهيرة رفض السّحاب أن ينقشع ولم يروا الشّمس مرّةً. طقس رديء لهذه الدّرجة تكفّل بثبط الملكة الصّغيرة نفسها عن الخروج، وبدلًا من ركوب الخيل مع دجاجاتها وحاشيتهن من الحرس والمعجبين قضَت النّهار كلّه في (قفص العذراوات) مع الدّجاجات في الاستماع إلى غناء الشّاعر الأزرق.

لم يكن نهار سرسي أفضل كثيرًا، ثم حلّ المساء. إذ استحالَت السّماء من الرّمادي إلى الأسود أخبَروها بأن (الجميلة سرسي) عادَت محمولةً على تيّار المساء، وبأن أوران ووترز في الخارج يَطلُب مقابلَتها.

سمحَت له الملكة بالدّخول في الحال، وما كادَ يخطو إلى غرفتها الشّمسيّة حتى علمَت أنه يحمل نبأً سارًّا، وبابتسامةٍ عريضة قال لها: «(دراجونستون) لكِ يا جلالة الملكة».

ردّت: «رائع»، والتقطَت يديه ولثمَته على الخدّين، ثم قالت: «أعرفُ أن تومن سيُسَرُّ أيضًا. معنى هذا أننا نستطيع إطلاق أسطول اللورد ردواين وطرد الحديديّين من (الثّروس)». مع وصول كلّ غدافٍ جديد تبدو الأخبار الآتية من (المرعى) أكثر مدعاةً للقلق، فمن الواضح أن الحديديّين ليسوا قانعين بصخورهم الجديدة، إذ شنّوا غاراتٍ قويّة على ضفاف (الماندر) وتمادوا إلى حدّ مهاجمة (الكرمة) والجزر الأصغر التي تُحيط بها. لم يكن آل ردواين قد أبقوا أكثر من دستةٍ من الشّفن الحربيّة في مياههم، وكلّها حُطّم أو أُسِرَ أو أُغرِق، والآن ثمّة تقارير تقول إن ذلك الرّجل المجنون الذي يُسمّي نفسه يورون عين الغُراب يُرسِل سُفنًا طويلةً عبر (النّهر الهامس) نحو (البلدة القديمة) نفسها.

أخبرَها اللورد ووترز: «اللورد پاكستر كان يُحمِّل المؤن من أجل رحلة العودة عندما أقلعت (الجميلة سرسي)، وأتصوّرُ أن أسطوله الأساسي في البحر بالفعل الآن».

قالت الملكة: «لنأمل أن يتمتّعوا برحلةٍ سريعة وطقسٍ أفضل من اليوم»، وسحبَت ووترز ليجلس على مقعد النّافذة إلى جوارها، وسألَته: «هل ندين بالشُّكر للسير لوراس على هذا النّصر؟».

اختفَت ابتسامته، وأجابَ: «هذا ما سيقوله بعضهم يا صاحِبة الجلالة».

رمقَته بفضولٍ متسائلةً: «بعضهم ولكن ليس أنت؟».

قال ووترز: «لم أرَ فارسًا أشجع منه، لكنه حوّل ما كان يُمكن أن يكون نصرًا بلا دماءٍ إلى مذبحة. لقد ماتَ ما يُقرِب من ألف رجل، أكثرهم من رجالنا، وليسوا جميعًا مجرّد جنودٍ تقليديِّين يا جلالة الملكة، بل منهم فُرسان ولوردات صغار، الأفضل والأشجع».

- «والسير لوراس نفسه؟».

- «سيُصبِح الأول بَعد الألف. لقد حملوه إلى داخل القلعة بَعد المعركة، لكن إصاباته بليغة وفقدَ دماءً كثيرةً لدرجة أن المِايسترات يَرفُضون أن يَعلَقوا له العَلق».

- «أوه، هذا محزن. قلب تومن سينكسر. إنه معجب للغاية بفارس الزُّهور الباسل».

قال أميرالها: «والعاهِرة أيضًا. في أنحاء البلاد كلِّها ستبكي الفتيات حين يموت لوراس».

تعلم الملكة أنه ليس مخطئًا. يوم أبحرَ السير لوراس احتشدَ ثلاثة آلاف من العامّة عند (بوّابة الطّمي) لتوديعه، ولم يُفضِ المنظر إلّا إلى إفعام نفسها بالازدراء. أرادَت أن تُصرِخ فيها قائلةً إنهم خراف، أن تُخبِرهم بأن كلّ ما سينالونه منه لن يتجاوَز ابتسامةً ووردةً، وبدلًا من ذلك أعلنته أشجع فارس في (الممالك السّبع) وابتسقت فيما قدّم له تومن سيفًا محلًى بالجواهر يحمله في المعركة. عانقَه الملك أيضًا، وإن لم يكن هذا الجزء من ترتيب سرسي، لكنه لم يَعُد يهمّ، وبإمكانها أن تكون كريمةً. لوراس تايرل يُحتضَر.

أمرَته سرسي قائلةً: «أخبِرني. أريدُ أن أعرف كلّ ما حدث، من البداية إلى النّهاية».

كانت الغُرفة قد أظلمَت لدى فروغه من الرّواية، فأشعلَت الملكة بعض الشّموع وأرسلَت دوركاس إلى المطابخ لتجلب لهما القليل من الخُبز والجُبنة مع اللّحم البقري المسلوق بالفجل الحار. وبينما تناوَلا العشاء طلبَت من أوران أن يحكي الحكاية ثانيةً كي تتذكّرها بجميع تفاصيلها بشكلٍ سليم. «... فلستُ أريدُ أن تسمع غاليتنا مارچري هذا الخبر من غريب. سأخبرها بنفسي».

قال ووترز مبتسمًا: «جلالتكِ في غاية اللُّطف». *ابتسامة خبيثة*. الحقيقة أن أوران لا يُشبِه الأمير ريجار بالقدر الذي حسبته في البداية. *إن له شعرًا أشبه به، ولكن كذا يُصف العاهرات في (ليس) إذا صدقت الحكايات. ريجار كان رجلًا، أمّا هذا فصبيٌّ ماكر لا أكثر، غير أنه مفيد على طريقته*.

وجدَت مارچري في (قفص العذراوات) تشرب النّبيذ وتُحاوِل أن تفهم قواعد لُعبةٍ جديدة ما من (ڤولانتيس) مع بنات عمومتها الثّلاث. على الرغم من تأخُّر السّاعة أدخلَها الحُرّاس في الحال، وخاطبَت مارچري قائلةً: «جلالة الملكة، الأفضل أن تسمعي الخبر مني. أوران عادَ من (دراجونستون). أخوكِ بطلٌ».

- «لطالما عرفتُ هذا». لم تَلُح دهشة على مارچري. *ولِمَ تندهش؟ لقد توقَّعت هذا منذ اللّحظة التي تَوسّل لوراس فيها القيادة*. لكن لدى انتهاء سرسي من القصّة كانت الدُّموع تلتمع على وجه الملكة الصّغيرة. «ردواين جعلَ عُمّال مناجم يَحفُرون نفقًا تحت سور القلعة، لكن فارس الزُّهور رأى تقدُّم العمل بطيئًا للغاية. لا ريب أنه كان يُفكِّر في معاناة قوم السيِّد والدك في (الثروس). اللورد ووترز يقول إنه أمرَ بالهجوم خلال أقلّ من نِصف يومٍ من تولِّيه القيادة، بَعد أن رفضَ أمين قلعة اللورد ستانيس عرضه تسوية الحصار بالنِّزال الفردي بينهما. كان لوراس أول من يَعبُر الثّغرة عندما حطّم المِدَكّ بوّابة القلعة، ويقولون إنه انطلقَ داخلًا فم التِّنين مباشرةً وقد ارتدى الأبيض ولوَّح بكُرَته الشّائكة حول رأسه مقتِّلًا ذات اليمين وذات اليسار».

عندئذٍ كانت مِجا تايرل تبكي جهرًا، وسألَت: «كيف مات؟ مَن قتلَه؟».

أجابَت سرسي: «هذا الشَّرف ليس لرجلٍ واحد. السير لوراس أُصيبَ بسهمٍ في الفخذ وآخَر في الكتف، لكنه واصلَ القتال ببسالةٍ على الرغم من الدَّم السّائل منه. بَعدها أُصيبَ بضربةٍ من هراوة كسرَت بعض ضلوعه، ثم... لا، أُريدُ أن أُعفيكِ من معرفة أسوأ ما حدث».

قالت مارچري: «أخبِريني، هذا أمر».

أمر؟ صمتت سرسي وهلةً، ثم قرَّرت أن تتغاضى عن هذا، وقالت: «المُدافِعون تقهقَروا إلى الحصن الدّاخلي ما إن سقطَ السّور، وقادَ لوراس الهجوم هناك أيضًا. لقد غمَروه بالزَّيت المغلي».

امتقعَ وجه الليدي آلا حتى صارَ كالطّباشير، وهرعَت ثُغاءِ الغُرفة.

واصلَت سرسي: «المِايسترات يفعلون كلَّ ما بالإمكان كما أكَّد لي اللورد ووترز، لكنني أخشى أن حروق أخيك فادحة»، وأخذَت مارجري بين ذراعيها ثواسيها مضيفةً: «لقد أنقذ البلاد»، ولمَّا قبَّلت الملكة الصَّغيرة على وجنتها تذوَّقت ملوحة دموعها، ثم أردفَت: «سيُدرِج چايمي جميع مآثره في (الكتاب الأبيض)، وسيُغنِّي المطربون عنه لألف عام».

تملَّصت مارجري من حضنها بعُنفٍ كادَ يُسقِط سرسي، وقالت: «الاحتضار ليس موتًا».

- «نعم، لكن المِايسترات يقولون...».

- «الاحتضار ليس موتًا!».

- «أردتُ فقط أن أعفيكِ من...».

- «أعرفُ ما تُريدين. اخرجي».

الآن تعلمين بِمَ أحسَستُ ليلة ماتَ چوفري. حنَت سرسي رأسها ووجهها قناع من الكياسة الباردة، وقالت: «ابنتي العزيزة، إنني حزينة للغاية من أجلكِ. سأترككِ لحُزنكِ».

لم تظهر الليدي ميريويذر ليلتها، وجفا جنب سرسي عن الفِراش ولم تستطِع النَّوم، وبينما تغطُّ چوسلين سويفت إلى جوارها فكَّرت: *لو رآني اللورد تايوين الآن لعرفَ أن له وريثًا، وريثًا جديرًا بـ(الصَّخرة).* قريبًا ستذرف مارجري الدُّموع المريرة التي كان عليها أن تذرفها من أجل چوفري، وربما يبكي مايس تايرل أيضًا، لكنها لم تُعطِه سببًا لخصامها، فما الذي فعلَته على كلِّ حالٍ أكثر من تشريف السير لوراس بثقتها؟ لقد طلبَ القيادة جاثيًا على رُكبته على مرأى من نِصف البلاط.

عندما يموت عليَّ أن أبني له تمثالًا في مكانٍ ما وأشيِّع له جنازةً لم تشهد لها (كينجز لاندنج) مثيلًا. سيروق هذا العوام، وتومن أيضًا. *بل وربما يَشكرني مايس أيضًا، ذلك المسكين. وبالنِّسبة إلى السيِّدة والدته فإذا شاءت الآلهة سيَقتُلها الخبر.*

كان هذا أجمل شروقٍ رأته سرسي منذ سنوات، وسرعان ما ظهرَت تاينا واعترفَت بأنها أمضَت اللّيل في مواساة مارچري ورفيقاتها وشاركتهن الشُّرب والبُكاء وحكاية القِصص عن لوراس، وإذ ارتدَت الملكة ثيابها من أجل البلاط قالت لها: «مارچري ما زالَت مقتنعةً بأنه لن يموت. إنها تنوي إرسال مِايسترها الخاص للعناية به، وبنات عمومتها يُصَلّين طلبًا لرحمة (الأم)».

قالت سرسي: «أنا أيضًا سأصلّي. غدًا تعالي معي إلى (سِبت بيلور) وسنشعل مئة شمعةٍ لفارس الزُّهور الباسل»، ثم التفتَت إلى وصيفتها قائلةً: «دوركاس، أحضِري لي تاجي، التّاج الجديد إذا سمحتِ». إنه أخفُّ من القديم، مصنوع من الذّهب المغزول الباهت المرصّع بالزُّمرُّذ الذي يَبرُق حين تُدير رأسها.

قال السير أوزموند عندما أدخلَته چوسلين: «هناك أربعة أتوا بشأن العِفريت هذا الصّباح».

- «أربعة؟». أدهش هذا الملكة على نحوٍ سارّ. ثمّة سلسلة متواصلة من المُخبرين الذين يأتون إلى (القلعة الحمراء) زاعمين أن لديهم معلوماتٍ عن تيريون، لكن أربعةً في يومٍ واحد عدد غير معتاد.

أجابَ أوزموند: «أجل. أحدهم معه رأس لكِ».

- «سأراه أولًا. خُذه إلى غُرفتي الشّمسيّة». *أرجو ألّا يكون هناك خطأ هذه المرّة، أرجو أن أنال ثأري أخيرًا ليرقُد چوفري في سلام*. يقول السّبتونات إن الرّقم 7 مقدّس عند الآلهة، وربما يكون هذا الرّأس السّابع الدّواء الذي تبتغيه روحها.

اتّضح أن الرّجل تايروشي قصير ممتلئ يَبْلّل وجهه العَرق، وله ابتسامة متملّقة لزجة ذكّرتها بقارس، ولحية مشعّبة مصبوغة بالوردي والأخضر. لم يُعجِب الرّجل سرسي بمجرّد النّظر، لكنها مستعدّة للتّغاضي عن عيوبه إذا كان رأس تيريون داخل هذا الصّندوق الذي يحمله بالفعل. الصّندوق من خشب الأرز المزخرَف بنقشٍ من العاج يُصوِّر نباتاتٍ متسلّقةً وأزهارًا، وله مِفصلات وأقفال من الذّهب الأبيض، منظره جميل حقًّا، لكن الملكة لا تكترث إلّا لما قد يكون في داخله. *إنه كبير كفايةً على الأقل. رأس تيريون كان كبيرًا على نحوٍ شاذ بالنّسبة إلى شخصٍ صغير ناقص النّمو.*

انحنى التايروشي بشدّةٍ مغمغمًا: «صاحِبة الجلالة، أرى أن ما يُحكى عن جمالكِ صادق. حتى وراء (البحر الضيّق) سمعنا عن براعة حُسنكِ والحُزن الذي يُمزّق قلبكِ المرهف. لا أحد يستطيع أن يُعيد إليكِ ابنكِ الشّجاع، لكن أملي أن أقدّم لكِ على الأقل بلسمًا لآلامكِ»، ووضع يده على صُندوقه مضيفًا: «أتيتكِ بالعدالة، أتيتكِ برأس ڤالونكاركِ».

بعثت الكلمة الڤاليريّة القديمة رعدةً في جسدها، وإن استشعرَت وخز الأمل أيضًا، وأعلنت: «العِفريت لم يَعُد أخي، إن كان كذلك من الأصل، ولن أنطق اسمه. لقد كان اسمًا ساميًا ذات يوم، قبل أن يُلَوِّثه».

- «في (تايروش) ندعوه بذي اليدين الحمراوين للدّماء السّائلة من بين أصابعه، دماء ملكٍ ودماء أب. يقول بعضهم إنه قتلَ أمّه أيضًا ممزّقًا رحمها بمخالبه ليَخرُج».

يا للهُراء. «صحيح. إذا كان رأس العِفريت في هذا الصّندوق فسأرفعك إلى اللورديّة وأهبُ لك أراضي خصبةً وقلاعًا». الألقاب أرخص من التّراب، وأراضي النّهر ملأى بالقلاع المتهدّمة الواقفة في عُزلتها وسط حقولٍ مهجورة وقُرى محروقة. «إن بلاطي ينتظرني. افتح الصّندوق ولنرَ».

فتحَ التايروشي الصُّندوق بحركةٍ مسرحيَّة وتراجعَ مبتسمًا، وفي الدّاخل كان رأس قزمٍ مستقرًا على طبقةٍ من المخمل الأزرق النّاعم يَنظُر إليها.

ألقَت سرسي نظرةً طويلةً، ثم قالت وفي فمها مذاق مرير: «هذا ليس أخي». *أظنُّ أنني بالغتُ في الأمل، خصوصًا بَعد لوراس. الآلهة ليست بذلك الكرم أبدًا.* «هذا الرَّجل عيناه بنّيَّتان. تيريون كانت له عين سوداء وعين خضراء».

- «العينان، بالضّبط... جلالة الملكة، عينا أخيكِ... تعفَّنتا بعض الشَّيء، فسمحتُ لنفسي باستبدالهما بالزُّجاج... لكن لونه خطأ كما تقولين».

لم يُفلِح قوله إلّا في زيادة حنقها، وردّت: «ربما تكون عينا رأسك من الزُّجاج، أمّا عيناي أنا فلا. في (دراجونستون) كَراجِل[65] أشبه بالعِفريت من هذا المخلوق. إنه أصلع وفي ضِعف سِنِّ أخي! ماذا حدث لأسنانه؟».

انكمشَ الرَّجل من الغضب في صوتها، وقال: «كان لديه طقم ممتاز من الأسنان الذَّهبيّة يا جلالة الملكة، لكننا... يُؤسِفني...».

- «أوه، لم تأسف بعدُ، لكنك ستفعل». *حريٌّ بي أن آمر بإعدامه خنقًا. فليُنازِع محاولًا التقاط أنفاسه بينما يسودُّ وجهه مِثل ابني الجميل.* كانت الكلمات على شفتيها بالفعل.

- «خطأ غير مقصود. كلُّ الأقزام متشابهون، و... لا بُدَّ أن جلالتكِ لاحظتِ أنه بلا أنف...».

- «إنه بلا أنف لأنك قطعته!».

صاحَ: «لا!»، لكن جبهته المتصبّبة عرقًا وشَت بكذب إنكاره.

ردّت سرسي: «نعم»، وتسلَّلت عذوبة سامّة إلى نبرتها إذ أردفَت: «على الأقل فكّرت في هذا. آخِر أحمق جاءني حاولَ إقناعي بأن ساحرًا متجوِّلًا أنبتَه من جديد. على كلِّ حالٍ يبدو لي أنك مدين لهذا القزم بأنف. عائلة لانستر تُسدِّد ديونها، وكذا ستفعل أنت. سير مرين، خُذ هذا المحتال إلى كايبرن».

أخذ السير مرين ترانت التايروشي من يده وسحبَه وهو لا يزال يصيح محتجًا، وحين خرجا التفتت سرسي إلى أوزموند كِتلبلاك قائلةً: «سير أوزموند، أبعِد هذا الشَّيء عن نظري وأدخِل الثَّلاثة الآخَرين الذين يدَّعون معرفتهم بمكان العِفريت».

- «حاضر يا جلالة الملكة».

لكن للأسف اتَّضح أن ثلاثة المدَّعين ليسوا ذوي جدوى أكثر من التايروشي. قال أحدهم إن العِفريت مختبئ في ماخور بـ(البلدة القديمة) ويخدم الرِّجال بفمه، وهي صورة طريفة لكن سرسي لم تُصَدِّقها لحظةً. الثَّاني زعمَ أنه رأى القزم في عرض ممثِّلين في (براڤوس)، والثَّالث أكَّد أن تيريون أصبح ناسكًا في أراضي النَّهر ويعيش فوق تلٍّ مسكون ما. أجابَت الملكة كلًّا منهم بالوعد نفسه: «إذا تفضَّلت بقيادة مجموعةٍ من فُرساني الشُّجعان إلى هذا القزم فستتلقَّى مكافأةً سخيَّةً، شريطة أن يكون العِفريت حقًّا... وإن لم يكن هو... إن فُرساني لا صبر لهم على الخداع أو الحمقى الذين يُرسلونهم لمطارَدة الأشباح. قد تفقد لسانك»، وبهذه السُّرعة فقدَ الثَّلاثة ثقتهم فجأةً وقال كلٌّ منهم إنه ربما رأى قزمًا آخَر ما.

لم تكن سرسي تُدرِك أن هناك أقزامًا كثيرين هكذا، وقالت متذمِّرةً مع خروج آخِر المُخبرين: «هل اجتاح هؤلاء الوحوش المشوَّهون العالم؟ كم يُمكن أن يكون عددهم؟».

قالت الليدي ميريويذر: «أقل مما كان. هل لي بشرف اصطحاب جلالتكِ إلى البلاط؟».

- «إذا كان يُمكنكِ احتمال الملل. روبرت كان أحمق في معظم الأشياء، لكنه أصابَ في شأنٍ واحد. حُكم المملكة عمل متعِب».

- «يُحزِنني أن أرى جلالتك مثقلةً بالهموم. رأيي أن تَهرَبي وتلعبي وتتزكي سماع الالتماسات المتعِبة ليد الملك. يُمكننا أن نتنكّر في هيئة خادمتين ونقضي اليوم وسط العامّة ونسمع ما يقولونه عن سقوط (دراجونستون). إنني أعرفُ الخان الذي يُغنّي فيه الشّاعر الأزرق حين لا يكون في حضور الملكة الصّغيرة، وأعرفُ قبوًا معيّنًا يُحوّل فيه ساحر الرّصاص إلى ذهب والماء إلى نبيذ والفتيات إلى فِتية. ربما يُلقي تعاويذه علينا. هل يُسلّي جلالتكِ أن تكوني رجلًا ليلةً؟».

لو كنتُ رجلًا لأردت أن أكون چايمي، لو كنتُ رجلًا لحكمت هذه البلاد باسمي بدلًا من اسم تومن. قالت عالمةً ما تُريد تاينا أن تسمعه: «بشرط أن تبقي امرأةً. أنتِ شرِّيرة لإغرائي هكذا، لكن أيّ ملكةٍ أنا إذا تركتُ مملكتي بين يدَي هاريس سويفت الرّاجفتين؟».

مطّت تاينا شفتيها قائلةً: «جلالتكِ دءوب للغاية».

ردّت سرسي: «نعم، ومع نهاية اليوم سأندمُ على هذا»، وتأبّطت ذراع الليدي ميريويذر مضيفةً: «هلمّي».

كان چالابار شو أول الملتمسين يومها كما يليق بمقامه كأمير منفي، لكن على الرغم من مظهره الفاخر في معطفه الرّيش الزّاهي لم يأتِ الرّجل إلّا ليشحذ. تركته سرسي كعادته يلتمس الرّجال والسّلاح لاسترداد (وادي الزّهرة الزّرقاء)، ثم قالت: «جلالته يخوض حربًا بالفعل أيها الأمير چالابار، وليس عنده رجال يستغني عنهم لحربك الآن. ربما العام المقبل». هكذا أجابَه روبرت دومًا. العام المقبل ستقول له: «لن يَحدث»، لكن ليس اليوم. إن (دراجونستون) لها.

جاء اللورد هالاين من رابطة الخيميائيّين ليطلُب الإذن لپايرومانسراته في محاوَلة إفقاس أيِّ بيضات تنانين تظهر في (دراجونستون) ما دامَت الجزيرة قد عادَت آمنةً إلى الأيدي الملكيّة. فقالت له الملكة: «لو كانت بيضات كهذه تبقّت لباعها ستانيس ليُنفِق على تمرُّده»، وإن أحجمَت عن إضافة أنها خطّة جنونيّة. منذ نفقَ آخِر تنانين آل تارجاريَن انتهَت كلُّ المحاولات المشابهة بالموت أو المصائب أو المهانة.

مثلَت أمامها مجموعة من التُّجّار الذين توسّلوا إلى العرش أن يتوسّط لهم عند مصرف (براڤوس) الحديدي، فالبراڤوسيُّون يُطالِبون بسداد الدُّيون واجبة الدّفع ويَرفُضون منح أيِّ قروضٍ جديدة. قالت سرسي لنفسها: *نحن محتاجون إلى مصرفنا الخاص، مصرف (لانسپورت) الذّهبي*. ربما تستطيع أن تفعل ذلك عندما تُؤَمِّن عرش تومن، أمّا في الوقت الرّاهن فليس بإمكانها إلّا أن تقول للتُّجّار أن يرُدُّوا لمرابيّي (براڤوس) مالهم.

وصلَ وفد العقيدة بقيادة صديقها القديم السّپتون رايناردٌ، وقد رافقه ستّة من أبناء المُحارب عبر المدينة. معًا يصنعون سبعةً، وهو رقم مقدّس مبشّر بالخير، وهكذا يفعل السّپتون الأعلى -أو العصفور الأعلى كما لقّبه فتى القمر- كلَّ شيءٍ بالسّبعات. يتمنطق الفُرسان بأحزمة سيوفٍ مخطّطة بألوان العقيدة السّبعة، ويُزَيِّن البلّور قبائع سيوفهم الطّويلة وريشات خوذاتهم العظيمة، ويحملون تُروسًا لوزيّة الشّكل من طرازٍ لم يَعُد شائعًا منذ غزوة إجون عليها شعار لم يُرَ في (الممالك السّبع) منذ قرون؛ سيف بألوان قوس قزح يلتمع على خلفيّة مظلمة. ما يَقرُب من مئة فارس أتوا بالفعل ليتعهّدوا بحيواتهم وسيوفهم لأبناء المُحارب طِبقًا لتقارير كايبرن، ومزيد منهم يجيء كلّ يوم. *أسكرَتهم الآلهة جميعًا*. من كان ليتخيّل أن في *البلاد كلّ هذه الأعداد؟*

أكثرهم فُرسان حراسة وفُرسان متجوِّلون، لكن منهم كريمي المحتد كذلك، من أبناء أصغر ولوردات صغار ومسنِّين يبتغون التَّوبة عن خطايا قديمة... ثم إن هناك لانسل أيضًا. لقد حسبَت أن كايبرن يمزح عندما أخبرَها بأن المغفَّل ابن عمِّها تخلَّى عن قلعته وأراضيه وزوجته وعاد إلى المدينة لينضمَّ إلى جماعة أبناء المُحارب النَّبيلة العظيمة، لكن ها هو ذا مع الحمقى المتديِّنين بالفعل.

لا يروق سرسي هذا على الإطلاق، ولا يسرُّها استمرار تشدُّد العصفور الأعلى وتكرانه على الإطلاق. سألَت السِّپتون رايناردد: «أين السِّپتون الأعلى؟ لقد استدعيته هو».

انتحلَ السِّپتون رايناردد نبرةً آسفةً مجيبًا: «صاحِب القداسة الأعلى أرسلَني بدلًا منه وطلبَ مني أن أخبر جلالتكِ بأن الآلهة أرسلَته يُكافِح الشُّرور».

- «كيف. بالتَّبشير بالعفَّة في (شارع الحرير)؟ هل يظنُّ أن الصَّلاة على العاهرات ستُعيد إليهن عذريَّتهن؟».

ردَّ رايناردد: «أجسادنا شكَّلها أبونا وأمُّنا الإلهان كي يتزاوَج الذَّكر والأنثى لإنجاب أولادٍ شرعيِّين. من الرَّذيلة والإثم أن تبيع النِّساء أعضاءهن المقدَّسة بالمال».

لربما كان هذا الرَّأي المحمَّل بالتَّقوى أكثر إقناعًا لو أن الملكة لا تعلم أن للسِّپتون رايناردد صديقاتٍ معيَّنات في كلِّ ماخورٍ بـ(شارع الحرير). لا شكَّ أنه قرَّر أن ترديده تغريد العصفور الأعلى أفضل من تنظيف الأرضيَّات. قالت له: «لا تُحاوِل أن تعظني. أصحاب المواخير يشتكون، ولهم الحق».

- «إذا تكلَّم الآثمون فلِمَ يُصغي إليهم الصَّالحون؟».

رنّت الملكة بلا مواربة: «هؤلاء الآثمون يُغذّون الخزانة الملكيّة، بينساتهم ندفع أجور ذوي المعاطف الذّهبيّة ونبني القوادس للدّفاع عن سواحلنا. ويجب وضع التّجارة في الاعتبار أيضًا. إذا خلّت (كينجز لاندنج) من المواخير فستذهب السّفن إلى (وادي الغسق) أو (بلدة النّوارس). صاحِب القداسة الأعلى وعدَني بالسّلام في شوارعي، والعِهر يُساعِد على حِفظ السّلام. العامّة المحرومون من العاهرات يجنحون إلى الاغتصاب. فليلتزم صاحِب القداسة الأعلى من الآن فصاعدًا بالصّلاة في السّبت حيث ينتمي».

توقّعت الملكة أن تسمع من اللورد جايلز أيضًا، لكن بدلًا منه ظهرَ المِايستر الأكبر پايسل بوجهٍ مريد ونبرةٍ اعتذاريّة يُخبِرها بأن روزبي أوهى من أن يبرح فِراشه، وأضافَ: «يُحزِنني أن أقول إن اللورد جايلز سيلحق بأسلافه النّبلاء قريبًا. عسى (الأب) أن يَحكُم عليه بالعدل».

إذا ماتَ روزبي فسيُحاوِل مايس تايرل والملكة الصّغيرة فرض جارث السّمين عليّ مجدّدًا. قالت بتبرُّم: «اللورد جايلز مصاب بهذا السُّعال منذ سنين ولم يَقتُله. لقد ظَلّ يَسعُل خلال نِصف حُكم روبرت وطيلة حُكم چوفري. إذا كان يَحتضِر الآن فالسبب الوحيد أن أحدًا يُريد موته».

حملقَ المِايستر الأكبر پايسل إليها مذهولًا، وقال: «جلالة الملكة، مـمن قد يُريد موت اللورد جايلز؟».

- «وريثه ربما». *أو الملكة الصّغيرة*. «امرأة ما نبذَها في الماضي». *مارجري ومايس وملكة الأشواك. لِمَ لا؟ جايلز في طريقهم*. «عدوٌّ قديم، عدوٌّ جديد، أنت».

امتقعَ وجه العجوز وتلعثمَ قائلًا: «جـجلالة الملكة تمزح. لقد... لقد سقيتُ حضرة اللورد مسهّلًا للبطن وعلّقتُ له العَلق وعالجته بالكمّادات والأنقعة... الرّذاذ يُريحه بعض الشّيء، وخلو الكرى يُخفّف غُنف سُعاله، لكنني أخشى أن قِطعًا من الرّئتين تَخرُج مع الدّم الآن».

- «بغضّ النّظر عن هذا، ستعود إلى اللورد جايلز وتُبلِغه بأني لا أسمحُ له بالموت».

انحنى پايسل بجمودٍ قائلًا: «كما تأمر صاحِبة الجلالة».

جاء المزيد منهم، والمزيد، والمزيد، كلٌّ ملتمِس أكثر إثارةً للملل من سابِقه. ليلتها، بَعد أن رحلَ جميعهم أخيرًا وجلسَت تتناوَل عشاءً بسيطًا مع ابنها قالت له: «تومن، عندما تُصلّي قبل النّوم اشكُر (الأم) و(الأب) لأنك ما زلت طفلًا. المُلك عمل شاق، وأؤكّدُ لك أنك لن تحبّه. إنهم يَنقُرونك كسربٍ من الغِربان، كلٌّ منهم يرغب في قطعةٍ من لحمك».

قال تومن بنبرةٍ حزينة: «حاضر يا أمّاه». كان قد بلغَها أن الملكة الصّغيرة أخبرَته بما جرى للسير لوراس، وقال السير أوزموند إن الصّبي بكى. *إنه صغير. حين يَبلُغ سِنّ چوف سيكون قد نسيَ شكل لوراس*. واصلَ ابنها: «لكني لا أمانعُ أن يَنقُروني. المفترَض أن أذهب معكِ إلى البلاط كلّ يومٍ لأنصت. مارچري تقول...».

بحدّةٍ قاطعَته سرسي: «... أكثر من اللّازم. مقابل نِصف جروت سيسُرّني أن أقطع لسانها».

صاح تومن فجأةً وقد احتقنَ وجهه المستدير الصّغير: «إياكِ أن تقولي هذا! دعي لسانها وشأنه. إياكِ أن تلمسيها. أنا الملك لا أنتِ».

حدّقت إليه مشدوهةً، وقالت: «ماذا قلت؟».

- «أنا الملك. أنا من آمرُ بقطع الألسنة لا أنتِ. لن أسمح لكِ بإيذاء مارچري، لن أسمح. أحرّجُ عليكِ أن تفعلي ذلك».

أمسكته سرسي من أذنه وجرّته صارخًا إلى الباب حيث يقف السير بوروس بلاونت حراسةً، وقالت: «سير بوروس، جلالة الملك نسي نفسه. من فضلك خُذه إلى مسكنه وائتِ بپايت. أريدُ أن يجلد تومن الصّبي بنفسه هذه المرّة، وأن يستمرّ حتى تنزف فلقتا مؤخّرته. إذا رفضَ جلالته أو اعترضَ بكلمةٍ واحدة فاستدعِ كايبرن وقُل له أن يقطع لسان پايت ليتعلّم جلالته ثمن قلّة الأدب».

نفخَ السير بوروس رامقًا الملك بارتباك، وقال: «كما تأمرين. تعالَ معي يا جلالة الملك إذا سمحت».

مع حلول اللّيل على (القلعة الحمراء) أوقدَت چوسلين نارًا في مستوقَد الملكة بينما أشعلَت دوركاس الشّموع إلى جوار الفِراش. فتحت سرسي النّافذة طلبًا لنسمة هواء، فرأت أن السّحب عادت تحتشد مواريةً النّجوم، وتمتمَت دوركاس: «ليلة مظلمة يا جلالة الملكة».

فكّرت: نعم، *لكن ليست بظُلمة (قفص العذراوات) أو (دراجونستون) حيث ينطرِح لوراس تايرل محروقًا ينزف، أو في الزّنازين السّوداء تحت القلعة*. لا تدري الملكة لِمَ خطرَ لها هذا بَعد أن عزمَت على عدم التّفكير في ڤاليس ثانيةً. *نزال فردي. كان على ڤاليس أن تكون أعقل من أن تتزوّج مهرّجًا مِثله*. الأخبار من (ستوكوورث) أن الليدي تاندا ماتَت ببرد في الصّدر أفضى إليه وركها المكسور، وأعلِنَت لوليس البلهاء سيّدةً على (ستوكوورث) والسير برون سيّدها. *تاندا ماتَت وجايلز يموت. جيّد أن فتى القمر لم يزل معنا وإلّا خرِمَ البلاط المهرّجين بالكامل*. ابتسمَت الملكة إذ أراحَت رأسها على الوسادة، وقالت لنفسها: حين *لثمَت وجنتها تذوّقَت الملح في دموعها*.

رأت خلقًا قديمًا فيه ثلاث فتياتٍ يرتدين المعاطف البنّيّة وحيزبون لها لُغد وخيمة تعبق برائحة الموت.

كانت خيمة الحيزبون قاتمةً ذات سقفٍ مدبّب طويل، ولم تُرِد سرسي أن تدخلها مثلما لم تُرِد وهي في العاشرة، لكن الفتاتين الأخريَين كانتا تُراقِبانها ولم تستطِع التَّراجُع. في الحُلم كن ثلاثًا كما كن في الواقع. تخلّفت چاين فارمان السَّمينة عن رفيقتيها كما فعلَت دومًا، وإنها لأعجوبة أن الفتاة قطعَت كلَّ هذا الشَّوط معهما من الأصل، أمّا ميلارا هيذرسپون فكانت أكبر سِنًّا وأجرأ وتتحلّى بنوعٍ منمَّش من الحُسن. بَعد أن تسلَّلن من أسِرَّتهن وارتدين معاطف من الخيش ورفعن قلنسواتها عبرَت الفتيات الثَّلاث مضمار النِّزال وسعين إلى العرّافة. كانت ميلارا قد سمعَت الخادمات يتهامَسن عن قُدرتها على إلقاء اللَّعنات على المرء أو جعله يقع في الحُبّ واستدعاء الشَّياطين والتَّنبُّؤ بالمستقبَل.

في الواقع كانت الفتيات مبهوراتٍ طائشات، يمضين متبادلاتِ الهمس شاعراتٍ بحماسةٍ تُكافئ خوفهن، لكن الحُلم كان مختلفًا. في الحُلم كانت السُّرادقات مظلمةً، والفُرسان والخدم الذين مرّرن بهم من ضباب. جالَت الفتيات فترةً طويلةً قبل أن يجدن خيمة الحيزبون، وحين بلغنَها كانت المشاعل كلُّها تتذبذَب توطئةً للانطفاء. شاهدَت سرسي ثلاثتهن متلاصقاتٍ يتهامَسن، فحاولَت أن تقول لهن: *عُدن، ارحلن، لا شيء لكُن هنا*، إلّا أن صوتًا لم يَخرج منها رغم أن فاها تحرَّك.

سبقَت ابنة اللورد تايوين رفيقتيها إلى الدُّخول من سديلة الخيمة، تتبعها ميلارا وراءها مباشرةً، وفي النِّهاية جاين فارمان التي حاولَت الاختباء وراء الأخريَين كعادتها الدّائمة. في الدّاخل أفعمَت هواء الخيمة الرَّوائح؛ القرفة وجوز الطّيب، والفلفل أحمره وأبيضه وأسوده، وحليب اللّوز والبصل، والقرنفل وحشيشة اللّيمون والزّعفران الثّمين، وتوابل أخرى أغرب وأندر. الضّوء الوحيد كان ينبعث من مستوقَدٍ حديدي على شكل رأس بازيليسق، ضوء أخضر خافت جعلَ حوائط الخيمة تبدو باردةً ميتةً تتعفَّن. هل كانت تبدو هكذا في الواقع أيضًا؟ لم تستطِع سرسي أن تتذكَّر.

في الحلم كانت المشعوذة نائمةً كما وجدنها في الواقع، وأرادَت الملكة أن تصيح: *دعنها وشأنها. أيتها الحمقاوات الصّغيرات، إياكن وإيقاظ مشعوذةٍ نائمة*، لكن بلا لسانٍ لم يكن بمقدورها إلّا أن تُشاهد الفتاة تنتزع معطف العرّافة وتركُل فِراشها قائلةً: «استيقظي، نُريد قراءة طالعنا».

حين فتحت ماجي الضّفدعة عينيها أطلقَت جاين فارمان صريرًا مرعوبًا وفرَّت من الخيمة مندفعةً إلى اللّيل في الخارج من جديد. جاين الصّغيرة البدينة الحمقاء الجبانة، شاحبة الوجه مكتنزة خائفة من كلّ ظِل. *لكنها كانت الحكيمة بيننا*. ما زالَت جاين تعيش على (الجزيرة القصيّة)، وقد تزوَّجت أحد حمَلة راية أخيها اللورد وأنجبَت دستةً من الأطفال.

كانت عينا المرأة صفراوين وتُحيط بهما قشرة شيءٍ كريه. في (لانسپورت) أشيعَ أنها كانت شابةً جميلةً عندما عاد بها زوجها من الشّرق مع شحنةِ من التّوابل، لكن الزّمن والشّرّ تركا آثارهما عليها. كانت قصيرةً ممتلئةً، في وجهها ثآليل ولها لُغد متغضّن مخضّر، وقد سقطَت أسنانها جميعًا وتدلّى ثدياها حتى ركبتيها. إذا وقفت قريبًا منها فبإمكانك أن تشمّ رائحة المرض، لكن حين فتحَت فمها كانت لأنفاسها رائحة غريبة قويّة كريهة، وبهمسةٍ مبحوحة قالت للفتاتين: «ارحلا».

قالت لها سرسي الصّغيرة: «جئنا لأجل قراءة طالعنا».

نعبَت العجوز ثانيةً: «ارحلا».

قالت ميلارا: «سمعنا أنكِ ترين الغد. نُريد فقط أن نعرف الرّجلين اللذين سنتزوّجهما».

ومرّةً ثالثةً نعبت ماجي: «ارحلا».

ولو كان للملكة لسان لصرخَت: *أصغيا إليها. ما زالَت فُرصة الهرب سانحةً. اهرُبا أيتها الحمقاوان!*

وضعَت الفتاة ذات الخُصلات الذّهبيّة يديها على وَركيها قائلةً: «اقرئي طالعنا وإلّا ذهبتُ إلى السيّد والدي وجعلته يأمر بجَلدكِ لوقاحتكِ».

وأضافَت ميلارا متوسّلةً: «أرجوكِ، أخبرينا بمستقبلنا فقط ثم سنرحل».

تمتمَت ماجي بصوتها العميق الرّهيب: «بعض مَن هنا بلا مستقبَل»، ثم إنها سحبَت معطفها حول كتفيها وأشارَت إلى الفتاتين بالاقتراب، وقالت: «أقبِلا إذن ما دمتما لن ترحلا. أنتما حمقاوان. نعم، أقبِلا، يجب أن أذوق دمكما».

شحبَ وجه ميلارا لكن سرسي حافظَت على رباطة جأشها، فاللبؤة لا تخاف الضّفدعة مهما كانت عجوزًا قبيحةً. كان عليها أن ترحل، كان عليها أن تُصغي، كان عليها أن تفرّ، وبدلًا من ذلك أخذَت الخنجر الذي ناولَتها ماجي إياه ومرّرت النّصل الحديدي الملتوي على أنملة إبهامها، ثم فعلَت المِثل مع ميلارا.

في الخيمة الخضراء المعتمة بدا الدّم أقرب إلى الأسود من الأحمر، وقد ارتعش فم ماجي الخالي من الأسنان لمرآه، وهمسَت: «ناوِليني يدكِ»، فلمّا فعلَت سرسي امتصّت العرّافة الدّم من إصبعها بلثةٍ ليّنة كلثة طفلٍ حديث الولادة، ولا تزال الملكة تُذكّر كم كان فمها غريبًا باردًا.

ما إن شربَت الحيزبون حتى قالت: «لكِ ثلاثة أسئلة. لن تُعجِبكِ إجاباتي. سَلي أو ارحلي».

فكّرت الملكة الحالمة: *ارحلي، الزمي الصّمت واهرُبي*، لكن الفتاة كانت أقلّ عقلًا من أن تخاف.

سألَت: «متى سأتزوّجُ الأمير؟».

- «لن تتزوّجيه أبدًا، ستتزوّجين الملك».

تحت خُصلاتها الذّهبيّة التوَت ملامحها حيرةً، وطيلة سنواتٍ بَعدها فسّرت الكلام بأنها لن تتزوّج ريجار إلّا بَعد موت أبيه إيرس.

سألَت سرسي الصّغيرة: «لكنني سأكون الملكة؟».

التمعَ الحقد في عينَي ماجي الضّفراوين إذ أجابَت: «ملكةً ستكونين، إلى أن تأتي أخرى أصغر منكِ وأجمل، لتُطيح بكِ وتسلبكِ كلّ ما تعدّينه عزيزًا».

ومضَ الغضب على وجه الفتاة، وقالت: «إذا حاولَت سأجعلُ أخي يَقتلها». حتى في ذلك الحين لم تتوقّف تلك الطّفلة العنيدة، فما زالَ لها سؤال أخير، لمحة أخرى من حياتها الآتية، وهكذا سألَت: «هل سأنجبُ والملك أطفالًا؟».

- «أوه، أجل. ستّة عشر له وثلاثة لكِ».

وجدَت سرسي الجواب بلا معنى. كان إبهامها يؤلِمها حيث جرحَته ودمها يَقطر على البساط. أرادَت أن تَطلُب تفسيرًا، لكنها فرغَت من أسئلتها.

على أن العجوز لم تَفرَغ منها، وتابعَت: «ذهبيّةٌ ستكون تيجانهم وذهبيّةٌ أكفانهم، وحين تُغرِقكِ دموعك سيُطَوِّق الڤالونكار جيدكِ الأبيض الشّاحب بيديه ويَخنُقكِ حتى الموت».

قالت الفتاة الذّهبيّة التي لم تفهم النّبوءة: «ما هو الڤالونكار؟ وحش ما؟ أنتِ كذّابة وضفدعة مغطّاة بالثّآليل وهمجيّة عجوز كريهة الرّائحة، ولا أصدِّق كلمةً مما تقولين. هيا بنا يا ميلارا، إنها لا تستحقُّ أن نسمعها».

ردَّت صديقتها بإصرار: «إن لي ثلاثة أسئلة أيضًا». ولمّا شدّتها سرسي من ذراعها تملّصت وعادَت تلتفت إلى الشّمطاء سائلةً باندفاع: «هل سأتزوّج چايمي؟».

فكّرت الملكة شاعرةً بالغضب منها حتى الآن: *أيتها البلهاء، چايمي لا يدري أن لكِ وجودًا أصلًا*. آنذاك كان أخوها يعيش فقط للسّيوف والكلاب والخيول... ومن أجلها، توأمته.

أجابَت ماجي: «ليس چايمي ولا أيّ رجلٍ غيره. بكارتكِ سيفضُّها الدُّود. إن موتكِ هنا اللّيلة أيتها الصّغيرة. هل تشمّين أنفاسها؟ إنها دانية للغاية».

قالت سرسي: «الأنفاس الوحيدة التي نشمُّها أنفاسكِ». على الطّاولة قُرب مِرفقها كان برطمان فيه عقّار ثخين ما، فاختطفَته وألقَته في عينَي العجوز. في عالم الواقع صرخَت الحيزبون فيهما بلُغةٍ أجنبيّة غريبة ما وصبّت عليهما لعناتها إذ فرّتا من الخيمة، لكن في الحُلم تبدّد وجهها وذابَ مستحيلًا إلى خيوطٍ من الضّباب الرّمادي، ثم لم يتبقَّ منه إلّا عينان صفراوان ضيّقتان، عينا الموت.

سمعت الملكة مَن يقول: *سيُطوِّق القالونكار جيدكِ بيديه*، لكنه لم يكن صوت العجوز، وبرزَت اليدان من غيوم حُلمها والتفَّتا حول عُنقها، يدان غليظتان قويّتان يطفو فوقهما وجهه النّاظر إليها شزرًا بعينيه غير المتماثلتين. حاولَت الملكة أن تصيح: *لا*، لكن يدَي القزم انغرسَتا أكثر في لحم رقبتها خانقتين مقاوَمتها، وراحَت تَركَل وتَصرخ بلا طائل، وسرعان ما صارَت تُصدِر الصّوت ذاته الذي خرجَ من ابنها، صوت الامتصاص الرّفيع الشّنيع الذي صاحبَ آخِر أنفاسٍ يلفظها جوف في دُنياه.

استيقظَت شاهقةً في الظّلام لتجد دثارها معقودًا حول عُنقها، فانتزعَته سرسي بعُنفٍ مزّقه واعتدلَت جالسةً تلهث، وقالت لنفسها: *حُلم، حُلم قديم ودثار معقود، هذا كلُّ ما هنالك*.

هذه اللّيلة أيضًا تقضيها تاينا مع الملكة الصّغيرة، وبدلًا منها تنام إلى جوارها دوركاس. هزّتها سرسي من كتفها بخشونةٍ قائلةً: «استيقظي واعثري على پايسل. أظنّه سيكون مع اللورد جايلز. أحضِريه في الحال». فنهضَت دوركاس شِبه نائمةٍ ونزلَت من الفِراش لتقطع الغُرفة مترنّحةً وتبحث عن ثيابها، وقد احتكّت قدماها الحافيتان بالحصائر.

بَعد عصورٍ دخلَ المِايستر الأكبر پايسل يجرُّ قدميه ووقفَ أمامها برأسٍ محني، يطرف بعينيه ثقيلتَي الجفنين ويُقاوِم التثاؤب، ويبدو كأن وزن سلسلة المِايستر الضَّخمة حول عُنقه المتهدِّل يسحبه سحبًا إلى الأرض. كان پايسل عجوزًا طيلة معرفة سرسي به، ولكنه شهدَ زمنًا تمتَّع فيه بالبهاء أيضًا، إذ تعوَّد ارتداء الأقمشة الفاخرة وأحاطَ به طابع من الجلال وميَّزته كياسة منقطعة النظير، ومنحته لحيته البيضاء الهائلة سمت الحكمة... إلَّا أن تيريون حلقَ لحيته، وما نبتَ منها من جديد يُثير الشَّفقة، مجرَّد زقع قليلة من الشَّعر الهَشّ لا تُخفي إلَّا القليل من الجِلد الوردي الرِّخو تحت ذقنه المتدلِّي. *ليس هذا رجلًا وإنما أطلال رجل. الزنازين السَّوداء سلبَته ما فيه من قوَّة، هي وموسى القزم.*

بادرَته سرسي سائلةً: «كم سِنُّك؟».

- «أربعة وثمانون عامًا، بَعد إذن صاحِبة الجلالة».

- «كنتُ أفضِّلَ رجلًا أصغر».

لعقَ شفتيه قائلًا: «كنتُ في الثانية والأربعين فقط عندما استدعاني مجمع المِايسترات. كايث كان في الثَّمانين حين اختاروه، وإليندور كان في التاسعة والثَّمانين. كلاهما سحقَته أعباء المنصب وماتَ في غضون عامٍ من ترقيته، وخلفَهما ميريون في سِنِّ السادسة والستين، لكنه ماتَ بالبرد في طريقه إلى (كينجز لاندنج)، وبَعدها طلبَ الملك إجون من (القلعة) أن تُرسِل رجلًا أصغر، فكان أول ملكٍ خدمته».

وتومن سيكون الأخير. «أحتاجُ إلى عقَّارٍ منك، شيء يُساعِدني على النوم».

- «كأس من النَّبيذ قبل النَّوم غالبًا ما...».

- «إنني أشربُ النَّبيذ أيها الأبله القميء. أريد شيئًا أقوى، شيئًا لا يجعلني أحلُمُ».

- «صاحِبة... صاحِبة الجلالة لا تُريد أن تَحلُم؟».

- «ماذا قلتَ لتوّي؟ هل وهنت أُذناك كقضيبك؟ أيُمكنك أن تصنع لي عكّازًا كهذا! أم أن عليّ أن آمر كايبرن بتصحيح فشلٍ آخَر لك؟».

- «لا، ليس هناك داعٍ لتدخُّل هذا الـ... لتدخُّل كايبرن. نوم بلا أحلام. ستحصُلين على عكّازكِ».

قالت: «عظيم. يُمكنك أن تذهب»، لكن إذ التفت نحو الباب استوقفَته متسائلةً: «شيء آخَر. ما الذي تُدَرِّسه (القلعة) بخصوص التّنبّؤ؟ هل التّكهُّن بالغد ممكن؟».

تردَّد العجوز، وتحسَّست يده صدره بحركةٍ عفويّة كأنها أرادَت التّمليس على اللّحية التي زالَت، وبتؤدةٍ ردّد: «هل التّكهُّن بالغد ممكن؟»، ثم إنه قال: «ربما. ثمّة تعاويذ معيّنة في الكُتب القديمة... لكن ربما على جلالتكِ أن تسألي: *هل ينبغي التّكهُّن بالغد؟* وعلى هذا أردُّ بلا. خيرٌ للإنسان أن يظلّ بعض الأبواب مغلقًا».

- «احرص على إغلاق بابي عندما تخرج». كان يَجدُر بها أن تعلم أن إجابته ستكون عديمة الفائدة مِثله.

في الصّباح التّالي تناولَت إفطارها مع تومن، وقد بدا الصّبي خاضعًا للغاية. واضح إذن أن جَلده پايت آتى أكله. أكلا البيض المقليّ والخُبز المحمَّر واللّحم المقدَّد والقليل من البرتقال الدّموي الذي وصلَ حديثًا على سفينةٍ من (دورن). صاحبَت ابنها هُريراته، وإذ توثّبَت ولعبَت حول قدميه أحسَّت سرسي بشيءٍ من التّحسُّن. *لا أحد سيمسُّ تومن ما دمتُ حيّةً*. ستقتُل نِصف لوردات (وستروس) وعامّتها كافّةً إذا كان ذلك ما يتطلّبه الحفاظ على سلامته. بَعد الأكل قالت للصّبي: «اذهب مع چوسلين»، ثم إنها أرسلَت تستدعي كايبرن، ولمّا جاء سألَته: «أما زالَت الليدي فاليس حيّةً؟».

- «حيّة، نعم، لكن ربما لا تكون... مستريحةً».

غمغمت سرسي: «مفهوم»، وفكّرت بُرهةً قبل أن تُردِف: «هذا الرّجل برون... لا أستطيعُ أن أقول إن فكرة وجود عدوٍّ بهذا القُرب تُعجِبني. إن قوّته كلّها مستمدّة من لوليس، فإذا كشفنا عن أختها الكبيرة...».

قال كايبرن: «للأسف أخشى أن الليدي فاليس لم تَعُد قادرةً على حُكم (ستوكوورث)، أو على إطعام نفسها حتى. يسؤني أن أقول إنني تعلّمتُ الكثير منها، لكن الدّروس لم تكن بلا مقابل. آملُ أنني لم أتجاوَز تعليمات جلالتكِ».

- «نعم». أيًا كان ما انتوته فقد فاتَ أوانه، ولا جدوى من إطالة التّفكير فيه. *الأفضل أن تموت، فليست تُريد أن تُواصِل الحياة من دون زوجها. على الرغم من سذاجته بدَت الحمقاء* مغرمةً به. «ثمّة مسألة أخرى. ليلة أمس رأيتُ حُلمًا مخيفًا».

- «شيء يُصيب البَشر كلّهم من حينٍ إلى آخَر».

- «الحُلم يخصّ ساحرةً زُرتها في طفولتي».

- «ساحرة غابات؟ أكثرهن غير مؤذيات. يعرفن القليل من العلاج بالأعشاب والقِبالة، لكن فيما عدا هذا...».

- «كانت أكثر من ذلك. يَصِف أهل (لانسپورت) اعتادوا الذّهاب إليها من أجل التّمائم والعقاقير. كانت أمّ أحد اللوردات الصّغار، تاجر ثري رقّاه جدّي، وقد وجدَها أبو هذا اللورد بينما يُتاجِر في الشّرق. قال بعضهم إنها ألقَت عليه تعويذةً، مع أن الأرجح أن التّعويذة الوحيدة التي احتاجَت إليها كانت بين فخذيها. لم تكن بشعة الخلقة دائمًا، أو هكذا قالوا. لا أذكرُ اسمها. كان اسمًا شرقيًا طويلًا غريبًا، لكن العامّة تعوّدوا دعوتها بماجي».

- «مايجي؟».

- «أهكذا يُنطق؟ كانت المرأة تمتصّ قطرة دمٍ من إصبعك وتُخبِرك بما يُخبّئه مستقبلك».

- «السّحر الدّموي أكثر أنواع الشّعوذة سوادًا، ويقول بعضهم إنه الأقوى كذلك».

قالت سرسي التي لا تُريد أن تسمع هذا: «هذه المايجي تنبّأت بأشياء معيّنة. في البدء ضحكتُ منها، لكنها... تنبّأت بموت واحدةٍ من رفيقات فِراشي. وقت النّبوءة كانت الفتاة في الحادية عشرة، في صحّةٍ ممتازة كمُهرة وآمنةً في (الصّخرة)، لكنها سقطَت بَعد فترةٍ قصيرة في بئرٍ وغرقَت». توسّلت ميلارا إليها ألّا تتكلّما أبدًا عمّا سمعتاه تلك اللّيلة في خيمة المايجي. *إذا لم نتكلّم عمّا حدث فسرعان ما سننساه، وعندها سيكون مجرّد حُلمٍ سيّئ رأيناه. الأحلام السيّئة لا تتحقّق أبدًا*. كانت كلتاهما صغيرةً، فبدا الكلام أقرب إلى الحكمة.

سألَها كايبرن: «أما زلتِ حزينةً على صديقة طفولتكِ؟ أهذا ما يُزعِجكِ يا جلالة الملكة؟».

- «ميلارا؟ لا. إنني أذكرُ شكلها بالكاد. غير أن... المايجي علمَت كم طفلًا سأنجبُ، وعلمَت بأمر نغول روبرت، قبل سنواتٍ من إنجابه أولهم علمَت. لقد وعدَتني بأنني سأصيرُ ملكةً، لكنها قالت إن ملكةً أخرى ستأتي...». *أصغر وأجمل*. «... ملكةً أخرى ستسلبني كلّ ما أحبّ».

- «وترغبين في تحاشي تحقُّق هذه النّبوءة؟».

أكثر من أيّ شيء. «أهذا ممكن؟».

- «أوه، نعم. لا تشكّي في هذا أبدًا».

- «كيف؟».

- «أظنُّ أن جلالتكِ تعرف الجواب».

وهي تعرفه بالفعل. *كنتُ أعرفه طيلة الوقت، حتى في الخيمة*. «*إذا حاولَت سأجعلُ أخي يَقتلها*».

إلّا أن معرفة ما عليها أن تفعله شيء ومعرفة كيف تفعله شيء آخر. إنها لا تستطيع الاعتماد على چايمي. أفضل الحلول أن يفتك بها مرض مفاجئ، لكن الآلهة نادرًا ما تكون بذلك الكرم. *كيف إذن؟* سكّين؟ *وسادة؟* كوب من *آفة القلوب؟* كلُّ هذه الخيارات يتضمّن مشكلات. حين يموت رجل مسنٌّ في نومه لا يُفكّر أحد في الأمر مرّتين، لكن العثور على فتاةٍ في السّادسة عشرة ميتةً في فِراشها سيفضي بكلّ تأكيدٍ إلى أسئلةٍ تتعذّر إجابتها، ثم إن مارچري لا تنام بمفردها أبدًا، وحتى مع احتضار السير لوراس ما زالَ الحرس المسلّحون حولها ليل نهار.

لكن لكلّ سيفٍ حدّان. الرّجال أنفسهم الذين يَحرُسونها يُمكن استغلالهم في الإطاحة بها. يجب أن يكون الدّليل دامغًا لدرجة ألّا يجد السيّد والد مارچري ذاته خيارًا غير الموافقة على إعدامها، ولن يكون ذلك سهلًا. *ليس واردًا أن يعترف عشّاقها عالمين أن معنى هذا قطع رؤوسهم مع رأسها، ما لم...*

في اليوم التّالي وجدت الملكة أوزموند كِتلبلاك يُبارِز أحد التّوأمين ردواين في السّاحة. لا تدري أيُّهما، إذ لم تتمكّن قطُّ من التّمييز بينهما. شاهدت المبارزة فترةً، ثم نادت السير أوزموند، وقالت له: «تمشَّ معي واصدِقني القول. لا أريدُ زهوًا فارغًا أو كلامًا عن أن أيّ ابن لكِتلبلاك أفضل ثلاث مرّاتٍ من أيّ فارسٍ آخر. الكثير يعتمد على إجابتك. أخوك أوزني، ما مدى براعته في استخدام السّيف؟».

- «إنه بارع. لقد رأيتِه. ليس قويًا مِثلي أو مِثل أوزفريد، لكنه سريع القتل».

- «إذا دعت الحاجة، فهل يستطيع أن يهزم السير بوروس بلاونت؟».

أطلق السير أوزموند ضحكةً مكتومةً، وقال: «بوروس الكِرش؟ كم سِنُّه؟ أربعون عامًا؟ خمسون؟ إنه نِصف ثمل نِصف الوقت، وبدين حتى وهو مفيق. إذا كان يستسيغ القتال من قبل فلم يَعُد يفعل. أجل يا جلالة الملكة، إذا كان قتل السير بوروس مطلوبًا فأوزني كفيل بهذا بسهولة. لماذا؟ هل ارتكبَ بوروس خيانةً ما؟».

أجابَت: «لا»، *لكن أوزني ارتكبها*.

---

(65) الكَراجِل مخلوقات أسطوريّة ذات مظهر مشوّه مخيف مصوّرة في منحوتاتٍ عدّة، وبالأخص على الجُدران الخارجيّة لعددٍ من كنائس العصور الوُسطى، حيث تتّخذ شكل ميزاب ناتئ. (المترجم).

صادَفوا أولى الجُثث على بُعد مِيلٍ من مفترَق الطُّرق.

كان الرَّجل يتأرجَح من فرع شجرةٍ ميتة ما زالَ جذعها المتفحِّم يحمل ندوب صاعقة البرق التي قتلَتها، وقد أدّت الغِربان عملها في وجهه، والتهمَت الذِّئاب وليمةً من لحم ساقيه حيث تتدلّيان قُرب الأرض، فلم يتبقَّ أسفل الرُّكبتين إلّا العظم والأسمال... بالإضافة إلى فردة حذاءٍ ممضوغة تمامًا ويكاد يُغطّيها الطّمي والعفَن.

سألَ پودريك: «ما هذا الذي في فمه؟».

اضطرَّت بريان إلى استجماع أطراف شَجاعتها لتلقي نظرةً. وجه الرَّجل رمادي وأخضر وفظيع، وفمه مفتوح منتفخ إذ دَسّ أحدهم صخرةً بيضاء محزَّزةً بين أسنانه، صخرةً أو...

قال السّيتون ميريبولد: «إنه ملح».

بَعد خمسين ياردةً أبصَروا الجثّة الثّانية. كان آكلو الجيف قد سحبوها أرضًا، وما تبقّى منها مبعثَر على الأرض تحت حبلٍ بالٍ مربوط حول فرع شجرة دَردار. كانت بريان لتمرّ بها دون أن تلحظ، لولا أن كلب التقط رائحتها ووثبَ بين الحشائش ليتشمَّمها من كثب.

سألَ السير هايل: «ماذا وجدت يا كلب؟»، وترجّل ولحقَ بالكلب، ثم عادَ بخوذةٍ قصيرة لا تزال تحوي جمجمة الميت بالإضافة إلى القليل من الدّيدان والخنافس، وأعلن: «فولاذ جيّد، ليس منبجعًا لهذه الدّرجة، ولو أن الأسد فقدَ رأسه. پود، هل تُريد خوذةً؟».

- «ليس هذه، إن فيها دودًا».

- «يُمكنك أن تغسلها من الدُّود يا فتى. إنك شديد الحساسيّة كالبنات».

قالت له بريان عابسةً: «إنها كبيرة عليه للغاية».

- «سيكبُر حتى تُناسبه».

قال پودريك: «لا أُريدها»، فهزَّ السير هايل كتفيه وألقى الخوذة ذات ريشة الأسد المكسورة وسط الحشائش، ونبحَ كلب وذهبَ يرفع ساقه على الشّجرة.

بَعد ذلك لم تكد مئة ياردة تمرُّ بلا جُثثٍ مدلّاة من أشجار الفران وجار الماء والزّان والبَتولة والأرز والدّردار، ومن أشجار الصّفصاف العجوز الزّغِبة وأشجار الكستناء المهيبة. كلُّ رجلٍ حول رقبته أنشوطة معلّقة من حبلٍ من القِنّب، وكلُّ رجلٍ فمه محشوٌّ بالملح. يرتدي بعضهم معاطف رماديّة أو زرقاء أو قرمزيّة، وإن أبهتَتها الشّمس والأمطار لدرجةٍ تُصعِّب التّمييز بين لونٍ وآخر، وعلى صدور بعضهم شارات مخيطة. ورأت برِيان فؤوسًا وسهامًا وعدّة أسماك سلمون وشجرة صَنوبر وورقة سَنديان وخنافس وديوكًا ورأس خنزيرٍ برّي ونِصف دستةٍ من الرّماح الثّلاثيّة. *رجال مكسورون، فلول عشرة جيوشٍ أو أكثر، فُضالة اللوردات.*

بعض الموتى أصلع وبعضهم ملتحٍ، وبعضهم شاب وبعضهم عجوز، وبعضهم قصير وبعضهم طويل، وبعضهم بدين وبعضهم نحيل، لكن مع انتفاخ الجُثث وتآكُل الوجوه وتعفُّنها يتشابَه الجميع. *على مشانق الأشجار كلُّ البشر إخوة*. قرأت برِيان هذه المقولة في كتابٍ ما، وإن نسيَت اسمه.

هايل هَنت هو من أعربَ عمّا أدرَكوه جميعًا إذ قال: «هؤلاء هم الرّجال الذين أغاروا على (الملّاحات)».

قال ميريبولد الذي كان صديق سِبتون البلدة الشّيخ: «عسى (الأب) أن يَحكُم عليهم بالعذاب».

لا تهمُّ هُويّاتهم برِيان بقدر ما يهمُّها مَن شنقَهم. يُقال إن الأنشوطة وسيلة الإعدام المثاليّة عند بريك دونداريون وجماعته من الخارجين عن القانون، وإذا كان مَن يُسمّى سيّد البرق شانقهم حقًّا فربما يكون قريبًا.

نبحَ كلب، فتلفّت الشيتون ميريبولد حوله بتجهُّم، وقال:
«هلّا حثثنا الخطى؟ الشّمس موشكة على الغروب، والجُثث
ضحبة رديئة ليلًا. هؤلاء كانوا رجالًا قُساةً خطرين في حياتهم،

عندما سألَ پودريك عن اسم الخان الذي يأملون قضاء اللّيل فيه، انتهزَ الشيتون ميريبولد الفُرصة بحماسةٍ -ربما ليصرف تفكيرهم عن الحُرّاس المريعين على جانب الطّريق- وقال: «يُسمِّيه بعضهم (الخان القديم). ثمّة خان كان قائمًا هناك عدّة مئاتٍ من السّنين، ولو أن الخان الموجود حاليًا بُنِيَ في عهد جهيرس الأول، الملك الذي شَقَّ (طريق الملوك)، ويُقال إن جهيرس وملكته اعتادا النّوم هناك خلال رحلاتهما، وهكذا ظَلَّ المكان معروفًا فترةً باسم (خان التّاجين) تكريمًا لهما، إلى أن شيّد أحد أصحابه بُرج جرسٍ وغيّر الاسم إلى (خان قارع الجرس). بَعدها انتقلَ المكان إلى فارسٍ مُعاق اسمه چون هيِل الفارع اشتغلَ في الحدادة حين تقدّمت به السّنُّ ولم يَعُد يقوى على القتال، فصنعَ لافتةً جديدةً للسّاحة، تنّينًا ثُلاثي الرّؤوس من الحديد الأسود علّقه من ساريةٍ خشبيّة. كان التّنين كبير الحجم لدرجة أنه تكوّن من عدّة قطعٍ زُبِطَت معًا بالحبال والأسلاك، وحين تهبُّ الرّيح كان يُصلصِل ويرنُّ، فاشتهرَ الخان في كلّ مكانٍ باسم (التّنين الرنّان)».

سألَ پودريك: «أما زالَت لافتة التّنين موجودةً؟».

أجابَ السّيتون ميريبولد: «لا. عندما تقدّم ابن الحدّاد في السّنّ بدوره تمرّد ابن نغل لإجون الرّابع على أخيه الشّرعي واتّخذ لرمزه تنّينًا أسود. وقتها كانت هذه الأراضي تنتمي إلى اللورد داري، وكان حضرة اللورد مخلصًا للملك لأقصى درجة، فأغضبه منظر التنّين الأسود وقطع السّارية الخشب وحطّم اللّافتة وألقاها في النّهر. بَعدها بسنواتٍ كثيرة جرفَت المياه أحد رؤوس التنّين إلى (جزيرة الهدوء)، ولو أن حُمرة الصّدأ كانت قد صبغَته عندئذٍ. لم يُعلّق صاحِب الخان لافتةً أخرى، ونسيَ النّاس التنّين وأصبحوا يدعون المكان بـ(خان النّهر). آنذاك كان (الثّالوث) يتدفّق أسفل الباب الخلفي، ونِصف الغُرف كان مبنيًا فوق المياه مباشرةً. يقولون إن الضّيوف كان بإمكانهم صيد أسماك التّرويت من نوافذ غُرفهم بالصّنانير. كان هناك مرسى عبّارة أيضًا، ليستطيع الضّيوف العبور إلى (بلدة اللورد هاروواي) و(الأسوار البيضاء)».

قالت بِريان: «لقد تركنا (الثّالوث) في الجنوب وركبنا شمالًا وغربًا... ليس نحو النّهر بل بعيدًا عنه».

- «أجل يا سيّدتي. مجري النّهر تبدّل. كان هذا منذ سبعين عامًا، أم أنها ثمانين؟ وقتها كان جَدّ العجوز ماشا هدِل يملك المكان، وهي مَن حكَت لي تاريخه كلّه. امرأة طيّبة ماشا، مولعة بالتّبغ المُرّ وكعك العسل. عندما لا تكون عندها غُرفة شاغرة لي كانت تَترُكني أنام إلى جوار المستوقَد، ولم تُوَدّعني قطّ دون أن تُعطيني خُبزًا وجُبنةً وبعض الكعكات البائتة».

سألَه پودريك: «أهي صاحِبة الخان الآن؟».

- «لا. لقد شنقَها الأسود. سمعتُ أن بَعد رحيلهم حاولَ أحد أبناء إخوتها إعادة فتح الخان من جديد، لكن الحروب جعلَت سفر العامّة على الطّرق محفوفًا بالأخطار، فلم يأتِ زبائن كثيرون. جلبَ الرّجل عاهرات، لكن حتى هذا لم ينفعه. سمعتُ أن أحد اللوردات قتلَه أيضًا».

رسمَ السير هايل تعبيرًا ساخرًا على وجهه، وقال: «لم أتخيَّل قَطُّ أن امتلاك خانٍ من شأنه أن يكون خطرًا مميتًا هكذا».

رَدَّ الشيتون ميريبولد: «الخطر أن تكون من أولاد العامَّة وقت أن يلعب اللوردات لُعبة العروش، أليس كذلك يا كلب؟»، فنبحَ الكلب مؤيِّدًا.

سألَ پودريك: «إذن هل للخان اسم الآن؟».

- «العامَّة يُسَمُّونه خان مفترَق الطُّرق. الأخ الكبير أخبرَني بأن اثنتين من بنات إخوة ماشا هدِل أعادَتا فتح المكان للزَّبائن»، ورفعَ الشيتون نبُّوته مضيفًا: «بمشيئة الآلهة سيكون الدُّخان المرتفع من وراء المشنوقين من مداخن الخان».

قال السير هايل: «يمكنهم أن يُسَمُّوا المكان خان المشانق!».

بأيِّ اسمٍ الخان كبير، يرتفع ثلاثة طوابق فوق الطُّرق الموحلة، وجُدرانه وشُرفاته ومداخنه من حجرٍ أبيض ناعم يلتمع بشحوبٍ شبحي تحت السَّماء الرَّماديَّة. الجناح الجنوبي مشيَّد فوق دعائم خشبيَّة ثقيلة أعلى مساحةٍ غائصة مشقَّقة من الحشائش والعشب البنِّي الميت، وثمَّة اسطبل بسقفٍ من القَشِّ وبرج جرس ملحقان بالجانب الشَّمالي، والمكان كلُّه محاط بسورٍ واطئ من حجارةٍ بيضاء مكسَّرة تنمو عليها الطَّحالب بكثافة.

على الأقل لم يُحرِقه أحد. في (الملّاحات) لم يجدوا إلّا الموت والدّمار. لدى وصول بريان ورفاقها بالعبّارة من (جزيرة الهدوء) كان النّاجون قد هربوا والموتى فُوروا الثراب، لكن جثّة البلدة نفسها تبقى متفحّمةً لم تُدفَن، ما زالَت في الهواء رائحة الدُّخان، ويكاد صياح النّوارس المحلّقة بالأعلى يكون بشريًا كأنه نواح أطفالٍ ضاعوا من أهاليهم. حتى القلعة بدَت كئيبةً مهجورةً. رماديّة هي كرماد البلدة المحيطة بها، وتتكوّن من حصنٍ مربّع محاط بسورٍ ومشيّد بحيث يطلُّ على الميناء. وجدَت بريان والآخرون المكان مغلقًا بإحكامٍ إذ قادوا دوابّهم من العبّارة، ولا شيء يتحرّك في الشّرفات إلّا الزّايات، واستغرقَ الأمر ربع ساعةٍ من نباح كلب وطرق السّبتون ميريبولد البوّابة الأماميّة بنبّوته قبل أن تظهر امرأة من فوقهم لتسألهم عمّا يُريدون.

عندئذٍ كانت العبّارة قد رحلَت وبدأت السّماء تُمطِر، ورفع ميريبولد صوته مجيبًا: «أنا سبتون من العقيدة يا سيّدتي الكريمة، وهؤلاء مسافرون شرفاء. نسألكم المأوى من المطر ومكانًا إلى جوار النّار اللّيلة».

على أن مناشدته لم تؤثّر في المرأة، وردّت: «أقرب خان عند مفترَق الطّرق إلى الغرب. لا نُريد أغرابًا هنا، ارحلوا»، وما إن غابَت لم تُفلِح صلوات ميريبولد أو نباح كلب أو سباب السيل هايل في إعادتها، وفي النّهاية أمضوا اللّيل في الغابة تحت سقيف صنعوه من الغصون المجدولة.

لكن في خان مفترَق الطّرق حياة. حتى قبل بلوغهم البوّابة سمعَت بريان صوت الدّقّ خافتًا لكن ثابتًا وله رنين فولاذي.

قال السير هايل: «ورشة. إمّا أن عندهم حدّادًا وإمّا أن شبح صاحِب الخان القديم يصنع تنّينًا حديديًا آخَر»، وهمز حصانه مضيفًا: «آملُ أن عندهم طبّاخًا شبحًا أيضًا. دجاجة مشويّة ناضجة كفيلة بجعل كلّ شيءٍ على ما يُرام».

ساحة الخان بحر من الأوحال البنّيّة التي مضت حوافر خيولهم. رنين الفولاذ أعلى هنا، ورأت پريان وهج الورشة الأحمر عند طرف الاسطبل القصيّ وراء عربة ثيرانٍ لها عجلة مكسورة. رأت أحصنةً في الاسطبل أيضًا، وصبيًا صغيرًا يتأرجح على سلسلة المشنقة البالية الصّدئة التي ترتفع فوق الساحة، وقد وقفت أربع فتياتٍ في شُرفة الخان الأماميّة يُشاهِدنه. أصغرهن العارية لا تتجاوز العامين، وأكبرهن -التي تَبلُغ التّاسعة أو العاشرة- تقف ضامّةً الصّغيرة بذراعيها حمايةً.

ناداهن السير هايل قائلًا: «أيتها الفتيات، أسرِعن وناديْن أمّكن».

وثبَ الصّبي من السّلسلة وهرعَ إلى الاسطبل، في حين وقفَت الفتيات الأربع متململات، وبَعد وهلةٍ قالت إحداهن: «ليست لنا أمّهات»، وأضافَت أخرى: «كانت لي واحدة لكنهم قتلوها»، ثم تقدّمت أكبر الأربعة دافعةً الصّغيرة وراءها، وسألَت: «مَن أنتم؟».

- «مُسافرون شُرفاء نبحث عن مأوى. اسمي پريان، وهذا هو السّيتون ميريبولد المعروف في أراضي النّهر، والصّبي هو مُرافقي پودريك پاين، والفارس هو السير هايل هَنت».

توقّفت الدّقّات فجأةً، وتطلّعت إليهم الفتاة الواقفة في الشُّرفة بحذرٍ لا تتحلّى به إلّا طفلة في العاشرة، ثم قالت: «أنا ويلو. هل تُريدون أسرّةً؟».

ترجّل السير هايل مجيبًا: «أسرّةً ومِززًا وطعامًا ساخنًا. هل أنتِ صاحِبة الخان؟».

هزّت رأسها نفيًا، وقالت: «إنها أختي چاين، لكنها ليست هنا. ليس عندنا ما نأكله إلّا لحم الخيل، ولا توجَد عاهرات إذا كنتم قد جئتم من أجلهن، أختي طردَتهن. لكن عندنا أسرّةً، بعضها محشو بالرِّيش لكن أغلبها بالقش».

قال السير هايل: «وكلُّها تَسكُنه البراغيث لا شك».

- «هل معكم مال تدفعون به؟ فضّة؟».

ضحك السير هايل، وقال: «فضّة؟ للمبيت ليلةً وفخذ حصان؟ هل تُحاولين سرقتنا أيتها الصّغيرة؟».

- «ستدفعون بالفضّة، أو يُمكنكم النّوم في الغابة مع الموتى»، ورمقت ويلو الحمار وما على ظَهره من براميل وحُزَم متسائلةً: «أهذا طعام؟ أين حصلتهم عليه؟».

أجابَ ميريبولد: «(بركة العذارى)»، ونبحَ كلب.

سألَ السير هايل: «أتستجوبون ضيوفكم جميعًا بهذه الطّريقة؟».

- «لا يأتينا ضيوف كثيرون منذ بدأت الحرب. أكثر مَن على الطّريق هذه الأيام عصافير أو أسوأ».

رنّت بريان: «أسوأ؟».

قال صوت صبيّ من الاسطبل: «لصوص وقُطّاع طرق».

والتفتت بريان فرأت شبحًا.

رنلي. لا ضربة من مطرقةٍ كانت لتُرديها بهذه القوّة. شهقت: «سيّدي؟».

أزاح الصّبي خُصلةً نافرةً من الشّعر الأسود عن عينيه قائلًا: «سيّدك؟ إنني مجرّد حدّاد».

تبيَّنت بريان أنه ليس رنلي حقًّا. *رنلي ميت، رنلي مات بين ذراعي رجلًا في الحادية والعشرين. هذا مجرّد صبي.* صبيٌّ يُشبه رنلي عندما زارَ (تارث) أول مرّة. *لا، أصغر. فَكُّه مربّع أكثر وحاجباه أكثف*. رنلي كان نحيلًا ممشوقًا، أمّا هذا الصّبي فله الكتفان الثّقيلتان والذّراع اليُمنى مفتولة العضلات التي كثيرًا ما تُرى في الحدّادين. يرتدي مئزرًا جِلديًا طويلًا لكن صدره عارٍ تحته، ويُغَطّي زغب داكن وجنتيه وذقنه، وشَعره كُتلة سوداء غزيرة تنمو متجاوزةً أذنيه. شَعر الملك رنلي كان أسود فاحمًا كهذا، لكنه حرِصَ دومًا على غسله وتمشيطه وتصفيفه. أحيانًا كان يُقَصّره وأحيانًا يَتركه ينسدل على كتفيه أو يربطه وراء رأسه بشريطٍ ذهبي، لكنه لم يكن قَطّ ملبّدًا أو مبلّلًا بالعَرق. وعلى الرغم من أن لون عينيه كان هذا الأزرق العميق نفسه، فإنهما كانتا دائمًا دافئتين مرحِّبتين ضاحكتين، في حين تنضح عينا الصّبي بالغضب والارتياب.

رأى السّيتون ميريبولد هذا أيضًا، فقال: «لا نقصد أذًى يا فتى. وقت امتلاك ماشا هدِل هذا الخان كانت تُطعِمني كعك العسل دومًا، وأحيانًا تُعطيني فِراشًا إذا لم يكن المكان ممتلئًا».

رَدّ الصّبي: «لقد ماتت، الأسود شنقوها».

قال السير هايل هَنت: «يبدو أن الشّنق الرّياضة المفضّلة هذه الأيام. ليتني أملك أرضًا في هذه الأنحاء. كنتُ لأزرع القِنّب وأبيع الحبال وأجني ثروةً».

سألَت بريان الفتاة ويلو: «هؤلاء الأطفال، أهم... إخوتكِ وأخواتكِ؟ أقاربكِ وأولاد عمومتكِ؟».

قالت ويلو محدّقةً إليها بنظرةِ تحفظها عن ظَهر قلب: «لا، إنهم فقط... لا أدري... أحيانًا يأتي بهم العصافير، وهناك آخَرون يأتون من تلقاء أنفسهم. ما دمتِ امرأةً فلِمَ ترتدين ثياب الرّجال؟».

أجابَها الشّيتون ميريبولد: «الليدي بِريان فتاة مُحاربة في مهمّة، لكنها تحتاج الآن إلى فِراش جاف ونارٍ تتدفّأ بها، ونحن أيضًا. عظامي العجوز تُنبئني بأن المطر سيُعاوِد الشقوط قريبًا. هل عندكم غُرف لنا؟».

قال الصّبي الحدّاد: «لا»، وقالت الفتاة ويلو: «نعم».

تبادلَ الاثنان نظرةً، ثم دبدبَت ويلو بقدمها قائلةً: «إن معهم طعامًا يا جِندري. الصِّغار جائعون»، وأطلقَت صفيرًا فخرجَ مزيد من الأطفال كأنما بفعل السّحر. زحفَ صِبيان شُعث الشَّعر يرتدون الأسمال خارجين من تحت الشُّرفة، وظهرَت صبايا كامنات في النّوافذ المطلّة على السّاحة، قد حملَ بعضهم نُشّابيّات ملقّمة جاهزة للإطلاق.

قال السير هايل: «يُمكنهم تسميته خان النُّشّابيّة».

فكّرت بِريان: *خان اليتامى اسم أجدر.*

قالت ويلو: «وات، ساعِدهم على ربط الخيول. ويل، ضَع هذه الصّخرة، إنهم لم يأتوا لأذيّتنا. تانسي، پايت، أسرِعا بإحضار حطب للنّار. چون پني، ساعِد الشّيتون على إنزال الحمولة. سآخُذهم إلى غُرفهم».

في النهاية أخذوا ثلاث غُرف متجاورة في كلٍّ منها فِراش بحشيّة من الرّيش ووعاء فضلات ونافذة، وفي غُرفة بِريان مستوقَد أيضًا، فدفعت بضعة بنسات إضافيّة من أجل الحطب. بينما تفتح النّافذة سألَها پودريك: «هل سأنامُ في غُرفتكِ أم غُرفة السير هايل؟»، فأجابَته: «لسنا في (جزيرة الهدوء). يُمكنك أن تنام معي». في اليوم التّالي تنوي أن يتحرّك الاثنان وحدهما. الشّيتون ميريبولد سيتّجه إلى (نوتن) و(ريڤربند) و(بلدة اللورد هارووواي)، لكن بِريان لا ترى جدوى من أن تتبعه فترةً أطول. إن معه كلب رفيقًا، والأخ الكبير أقنعها بأنها لن تجد سانزا ستارك على ضفاف (الثّالوث). «أنوي أن أستيقظ قبل شروق الشّمس والسير هايل لا يزال نائمًا». لم تُسامِحه بِريان على (هايجاردن)... وكما قال هنت بنفسه، إنه لم يُقيم على شيءٍ بخصوص سانزا.

- «أين سنذهب أيتها الفارس؟ أعني يا سيّدتي؟».

لا تملك بِريان إجابةً جاهزةً. إنهما عند مفترَق الطّرق حرفيًا، المكان الذي يتقاطع فيه (طريق الملوك) و(الطّريق العالي) وطريق النّهر معًا. (الطّريق العالي) يأخذهما شرقًا عبر الجبال إلى (وادي آرن)، حيث كانت خالة سانزا تَحكُم حتى موتها، وإلى الغرب طريق النّهر الذي يمضي بمحاذاة (الفرع الأحمر) إلى (ريڤررَن) وعمّ أمّ سانزا المحاصَر وإن كان حيًا، أو يُمكنهما أن يَسلُكا (طريق الملوك) إلى الشّمال ويمرّا بـ(التّوأمتين) إلى منطقة (العُنق) بمستنقعاتها ومياهها الآسنة. وإذا استطاعت أن تجد وسيلةً لاجتياز (خندق كايلن) ومَن يُسيطِر عليها الآن فسيأخذهما (طريق الملوك) حتى (وينترفل) نفسها.

أو يُمكنني أن أسلك (طريق الملوك) إلى الجنوب، أن أعود خلسةً إلى (كينجز لاندنج) وأعترف بفشلي للسير چايمي وأعيد إليه سيفه، ثم أجد سفينةً تحملني إلى (تارث) كما أوعزَ إليَّ الأخ الكبير. فكرة مريرة، لكن جزءًا منها يحنُّ إلى (بهو المساء) وأبيها، وثمَّة جزء آخَر يتساءل إن كان چايمي سيُواسيها إذا بكَت على كتفه. هذا ما يُريده الرِّجال، أليس كذلك؟ نساء رقيقات الحاشية مهيضات الجناح يحتجن إلى حمايتهم؟

- «أيتها الفارس، سيِّدتي، سألتكِ أين سنذهب».

- «إلى القاعة العامَّة لنتناوَل العَشاء».

كانت القاعة العامَّة تعجُّ بالأطفال. حاولَت بريان أن تُحصيهم، لكنهم لا يقفون ثابتين ولو لحظةً، فعدَّت بعضهم مرَّتين أو ثلاثًا وبعضهم لم تعدَّه على الإطلاق، وفي النِّهاية استسلمَت. كانوا قد دفعوا الموائد معًا مكوِّنين ثلاثة صفوفٍ طويلة، والصِّبية الأكبر سِنًّا يجرُّون الدِّكك بصعوبةٍ من المؤخِّرة. «الأكبر سِنًّا» معناها أنهم في العاشرة أو الثَّانية عشرة. جندري أقربهم إلى الرُّجولة، لكن ويلو هي مَن تصيح بالأوامر كأنها ملكة في قلعتها والأطفال الآخَرون خدمها فحسب.

لو أنها رفيعة النَّسب لكانت القيادة من صفاتها الطَّبيعيَّة والإذعان من طباع البقيَّة. تساءلَت بريان إن كانت ويلو أكثر مما تبدو. الفتاة أصغر سِنًّا وملامحها أكثر تقليديَّةً من أن تكون سانزا ستارك، لكنها في السِّنِّ المناسبة لأن تكون الأخت الصَّغيرة، وحتى الليدي كاتلين نفسها قالت إن آريا تفتقر إلى جَمال أختها. *شَعرها بنِّي، عيناها بنِّيتان، نحيلة... أيُمكن أن تكون هي؟* تذكَّرَت بريان أن شَعر آريا ستارك بنِّي، لكنها ليست متأكِّدةً من لون عينيها. *بنِّي وبنِّي، أليس كذلك؟ أيُمكن أن يتَّضح أنها لم تَمُت في (الملَّاحات)؟*

في الخارج يتلاشى ضوء النّهار، وفي الدّاخل جعلتهم ويلو يُشعلون أربع شمعاتٍ من الشّحم وقالت للفتيات أن يُحافِظن على تأجُّج نار المستوقَد. ساعدَ الصّبية پودريك پاين على إنزال حمولة الحمار ودخلوا حاملين سَمك القُد المملّح والضّأن والخضراوات والمكسّرات وقوالب الجُبنة، في حين ذهبَ السّپتون ميريبولد إلى المطبخ ليتولّى إعداد الثّريد، وقال لأحد الصّبية الصّغار: «للأسف نفدَ بُرتقالي، وأخشى أنني لن أرى بُرتقالةً أخرى قبل الرّبيع. هل أكلت البُرتقال من قبل يا بُنيّ؟ هل اعتصَرت واحدةً وامتصَصت عصيرها؟»، فلمّا هزَّ الطّفل رأسه نفيًا نفشَ السّپتون شَعره قائلًا: «سأجلبُ لك واحدةً إذن عندما يأتي الرّبيع إذا كنت صبيًّا طيّبًا وساعدتني على تقليب الثّريد».

خلعَ السير هايل حذاءه ليُدفّئ قدميه عند النّار، وحين جلسَت بريان إلى جواره أشارَ برأسه إلى طرف القاعة القصيّ قائلًا: «ثمّة بُقع دم هناك على الأرض حيث يتشمّم كلب. لقد نُظّفَت لكن الدّم تخلّل الخشب ولا يُمكن الخلاص منه».

ذكّرته قائلةً: «هذا هو الخان الذي قتلَ فيه ساندور كليجاين ثلاثةً من رجال أخيه».

- «صحيح، ولكن مَن يدري إن كانوا أول مَن ماتوا هنا... أو آخِرهم؟».

- «أأنت خائف من أطفال قلائل؟».

- «أربعة قلائل، عشرة كثرة، وهؤلاء حشد. المفترَض أن يُلَفَّ الأطفال بالقِماط ويُعلّقوا على الحائط إلى أن تنبت للفتيات أثداء ويبدأ الفِتية حلاقة ذقونهم».

- «أشعرُ بالأسف من أجلهم. كلُّهم فقدوا أمّهاتهم وآباءهم، وبعضهم رآهم يُقتَلون».



انقضَّ الأطفال على العشاء كما تنقضُّ الذئاب على غزالةٍ جريحة، يتشاجرون على سمك القد ويمزّقون خبز الشعير ويَنثُرون الثريد في كلّ مكان، وحتى قالب الجبنة الضخم لم ينجُ منهم طويلًا. قنعت بريان بالسمك والخبز والجزر، بينما أطعم الشيتون ميريبولد كلب لُقمتين مقابل كلّ لُقمةٍ لنفسه. في الخارج بدأ المطر يَسقط، وفي الداخل طقطقت النار وملأت القاعة العامّة أصوات المضغ وضرب ويلو الأطفال بملعقتها. علّق السير هايل قائلًا: «ذات يوم ستصبح هذه الفتاة زوجةً مخيفةً لرجلٍ ما، صبيّ الحدّاد المسكين على الأرجح».

- «المفترَض أن يأخذ إليه أحدهم القليل من الطعام قبل أن ينفد».

- «أنتِ أحدهم».

لفّت شريحةً من الجبنة ورغيفًا من الخبز وتفّاحةً مجفّفةً وقطعتين من سمك القد المقلي بمنديلٍ مربّع، ولمّا نهضَ پودريك ليتبعها إلى الخارج قالت له أن يجلس ويأكل، وأضافت: «لن أتأخّر».

كان المطر ينهمر بغزارةٍ على الساحة، فغطّت بريان الطعام بطيّةٍ من معطفها، وإذ مرّت بالإسطبل صهلَ بعض الخيول، فقالت لنفسها: هي *أيضًا جائعة*.

وجدت جندري في ورشته عاري الجذع تحت متزره الجلد، يهوي بالمطرقة على سيفٍ كأنه يتمنّى لو أنه عدوّ، وقد سقط شعره المبلّل عن آخِره بالعرق على جبهته. راقبته فترةً مفكّرةً: *إن له عينَي رنلي وشعره ولكن ليس بنيانه. اللورد رنلي كان أقرب إلى الرشاقة من القتال العضلات... على عكس أخيه روبرت صاحب القوّة الشهيرة*.

لم يرَها جندري واقفةً هناك حتى توقّف يمسح جبهته، فسألها: «ماذا تريدين؟».

أجابَت: «أحضرتُ لك عشاءك»، وفتحت المنديل ليرى.

- «لو أردتُ طعامًا لأكلت».
- «على الحدّاد أن يأكل ليُحافِظ على قوّته».
- «أأنتِ أمّي؟».
قالت واضعةً الطّعام: «لا. مَن أمُّك؟».
- «ولِمَ تُريدين أن تعرفي؟».
- «أنت مولود في (كينجز لاندنج)». لكنته تجعلها واثقةً بهذا.
قال: «أنا وكثيرون غيري»، وغمسَ السّيف في حوضٍ من ماء الأمطار ليُطفئ ناره، فهسهسَ الفولاذ السّاخن غاضبًا.
سألَته بِريان: «كم سِنُّك؟ أما زالَت أمُّك حيّةً؟ وأبوك، مَن كان؟».
ردّ: «تُلقين أسئلةً كثيرةً»، ووضعَ سيفه مضيفًا: «أمّي ماتت وأبي لم أعرفه قطُّ».
- «أنت نغل إذن».
اعتبرَ كلامها إهانةً، وقال حانقًا: «أنا فارس. هذا السّيف سيكون لي ما إن أفرغ منه».
لماذا يعمل فارس في ورشة حدادة؟ «إن لك شَعرًا أسود وعينين زرقاوين، ووُلِدت في ظِلِّ (القلعة الحمراء). ألم يُعلّق أحد على وجهك من قبل؟».
- «وما عيب وجهي؟ إنه ليس قبيحًا كوجهكِ».
- «لا بُدّ أنك رأيت الملك روبرت في (كينجز لاندنج)».
هزّ كتفيه قائلًا: «أحيانًا، في المباريات من بعيد، ومرّةً في (سِبت بيلور). ذوو المعاطف الذّهبيّة دفعونا لنُفسح له الطّريق. في مرّةٍ أخرى كنتُ ألعبُ قُرب (بوّابة الطّمي) وهو عائد من الصّيد. كان سكران تمامًا وكادَ يدعسني بحصانه. كان سكّيرًا بدينًا، لكن ملكًا أفضل من ابنيه».

انقضَّ الأطفال على العشاء كما تنقضُّ الذِّئاب على غزالةٍ جريحة، يتشاجرون على سمك القُد ويمزّقون خُبز الشَّعير وينثرون الثَّريد في كلِّ مكان، وحتى قالب الجُبنة الضَّخم لم ينجُ منهم طويلًا. قنعت بريان بالسَّمك والخُبز والجزر، بينما أطعمَ السِّپتون ميريبولد كلب لُقمتين مقابل كلِّ لُقمةٍ لنفسه. في الخارج بدأ المطر يَسقط، وفي الدَّاخل طقطقَت النَّار وملأت القاعة العامَّة أصوات المضغ وضرب ويلو الأطفال بملعقتها. علَّق السير هايل قائلًا: «ذات يومٍ ستُصبِح هذه الفتاة زوجةً مخيفةً لرجلٍ ما، صبيّ الحدّاد المسكين على الأرجح».

- «المفترَض أن يأخذ إليه أحدهم القليل من الطَّعام قبل أن ينفد».

- «أنتِ أحدهم».

لفَّت شريحةً من الجُبنة ورغيفًا من الخُبز وتفَّاحةً مجفَّفةً وقطعتين من سمك القُد المقلي بمنديلٍ مربَّع، ولمَّا نهضَ پودريك ليتبعها إلى الخارج قالت له أن يجلس ويأكل، وأضافَت: «لن أتأخَّر».

كان المطر ينهمر بغزارةٍ على السَّاحة، فغطَّت بريان الطَّعام بطيَّةٍ من معطفها، وإذ مرَّت بالاسطبل صهلَ بعض الخيول، فقالت لنفسها: هي *أيضًا جائعة*.

وجدَت جندري في ورشته عاري الجذع تحت مئزره الجِلد، يهوي بالمطرقة على سيفٍ كأنه يتمنَّى لو أنه عدوٌ، وقد سقطَ شعره المبلَّل عن آخِره بالعرق على جبهته. راقبَته فترةً مفكِّرةً: *إن له عينَي رنلي وشعره ولكن ليس بنيانه. اللورد رنلي كان أقرب إلى الرَّشاقة من انفتال العضلات... على عكس أخيه روبرت صاحب القوَّة الشَّهيرة*.

لم يرَها جندري واقفةً هناك حتى توقَّف يمسح جبهته، فسألَها: «ماذا تريدين؟».

أجابَت: «أحضرتُ لك عشاءك»، وفتحَت المنديل ليرى.

ليسا ابنيه. ستانيس قال الحقيقة يوم التقى رنلي. جوفري وتومن لم يكونا ابنَي روبرت قَطّ، أمّا هذا الضبي... بدأت بِريان تتكلّم قائلةً: «اسمعني...»، إلّا أنها سمعَت كلب ينبح بصوتٍ عالٍ هائج، فقالت: «أحدهم قادم».

قال جندري بلا مبالاة: «أصدقاء».

سألته بِريان: «أصدقاء من أيّ نوع؟»، وذهبَت إلى باب الورشة تُلقي نظرةً عبر المطر.

هَزَّ كتفيه مجيبًا: «ستلتقينهم قريبًا».

فكّرت بِريان إذ دخلَ أول الخيّالة السّاحة خائضًا في بِرك الوحل: *ربما لا أريدُ أن التقيهم*. تحت طقطقة المطر ونباح الكلب سمعَت الصّلصلة الخافتة الصّادرة من سيوفهم وقمصانهم المعدنيّة أسفل معاطفهم المهترئة، وعدّتهم واحدًا تلو الآخَر. *2، 4، 6، 7*. وشَت الطّريقة التي يركب بها بعضهم بكونهم جرحى، ثم جاء آخِرهم الضّخم الذي يُعادِل اثنين من الآخَرين معًا في الحجم، حصانه منهَك دامٍ ويترنّح تحت ثِقل راكِبه. كان الخيّالة جميعهم يرفعون قلنسواتهم لتقيهم من جلدات المطر، جميعهم باستثنائه هو، فلاحَ وجهه العريض الحليق الشّاحب كالدّيدان ووجنتاه المستديرتان اللتان تُغطّيهما القروح المفتوحة.

حبسَت بِريان أنفاسها واستلّت (حافِظ العهد)، وفكّرت جافلةً خوفًا: *كثيرون للغاية، عددهم كبير جدًّا*، ثم إنها قالت بصوتٍ خفيض: «جندري، ستحتاج إلى سيف ودِرع. هؤلاء ليسوا أصدقاء، ليسوا أصدقاء أحد».

قال الضّبي: «عمّ تتكلّمين؟»، وجاء يقف إلى جوارها حاملًا مطرقته.

سطعَ البرق في الجنوب بينما يترجّل الخيّالة، ولِنصف لحظةٍ استحالَ الظّلام إلى نهار، لتلتمع فأس بالأزرق الفضّي ويتوهّج الضّوء على القمصان المعدنيّة والدّروع، وتحت قلنسوة الخيّال القائد القاتمة لمحت بريان خطمًا حديديًا وصفّين من الأسنان الفولاذ، فم كلب يُزمجِر.

رأى جندري أيضًا الخوذة، فقال: «هو».

- «ليس هو، بل خوذته». حاولت بريان أن تمنع الخوف من التّسلّل إلى صوتها، لكنها وجدت فمها جافًا كالتّراب. إن لديها تخمينًا لا بأس به على الإطلاق بخصوص من يعتمر خوذة كلب الصّيد. فكّرت: *الأطفال*.

انفتحَ باب الخان بقوّةٍ وخرجت ويلو إلى المطر رافعةً نشّابيّةً، وصاحت الفتاة في الوافدين لكن الرّعد هزم في السّاحة طاغيًا على كلامها، وإذ خفتَ سمعت بريان مَن يعتمر خوذة كلب الصّيد يقول: «أطلِقي عليّ سهمًا وسأدسّ هذه النّشّابيّة في كسّكِ وأنكحكِ بها، ثم سأقتلع عينيكِ وأجعلكِ تأكلينهما».

دفعَ الغضب في صوت الرّجل ويلو إلى التّراجع خُطوةً مرتجفةً، وثانيةً فكّرت بريان بيأس: سبعة. تعلم أن لا فُرصة لها في التّغلّب على سبعة. *لا فُرصة ولا خيار*.

خرجَت إلى المطر حاملةً (حافِظ العهد)، وقالت: «دعوها وشأنها. إذا أردتم أن تغتصبوا أحدًا فجرّبوني».

التفتَ إليها الخارجون عن القانون في آنٍ واحد. ضحك أحدهم، وقال آخَر شيئًا بلُغةٍ تجهلها بريان، وصدرَ من الضّخم ذي الوجه الأبيض العريض هسيسسسسسسسسسسسس محمّل بالغِل، ثم انفجرَ الرّجل الذي يعتمر خوذة كلب الصّيد ضاحكًا، وقال: «إنكِ أقبح مما أذكر. أوَتظن أن أغتصب حصانكِ».

قال أحد الجرحى: «الأحصنة، هذا ما نُريد، أحصنة جديدة والقليل من الطّعام. هناك خارجون عن القانون يُطارِدوننا. أعطونا أحصنتكم وسنذهب، لن نؤذيكم».

اختطف المجرم معتمر خوذة كلب الصَّيد فأسًا حربيّةً من سرجه قائلًا: «تبًا لهذا. أريدُ أن أقطع ساقيها اللّعينتين. سأضعها على جدعتيها لتشاهدني أغتصب فتاة التّشّابيّة».

قالت برِيان باستهزاء: «بماذا؟ شاجويل قال إنهم بتروا ذَكرك مع أنفك».

أرادت أن تستفزّه، ونجحت.

جائرًا بالشّتائم انقضّ عليها، تَنثر قدماه ماء البِرك الأسود إذ ركض نحوها، في حين ظَلّ الآخرون في أماكنهم ليتفرّجوا على العرض كما أملَت أن يفعلوا. وقفَت برِيان ثابتةً كالحجر تنتظر. السّاحة مظلمة، والوحل زلِق تحت الأقدام. *الأفضل أن أتركه يُهاجمني. بمشيئة الآلهة سيزِلُّ ويَسقُط.*

ولم تشأ الآلهة، لكن سيفها كان جاهزًا. *خمس خُطوات، أربع خُطوات، الآن*، وفلقَ (حافِظ العهد) الهواء مرتفعًا يصدُّ انقضاضته، وارتطمَ الفولاذ بالفولاذ إذ شَقَّ نصلها أسماله وقميصه المعدني في اللّحظة نفسها التي هوَت فيها فأسه، فالتوَت إلى الجانب وسدّدت ضربةً أخرى إلى صدره بينما تراجَع.

وتبعَها متعثرًا ينزف ويهدر ثائرًا: «عاهرة! مسخ! حقيرة! سأعطي كلبي إياكِ لينكحكِ أيتها الحقيرة!». دارَت فأسه في أقواسٍ قاتلة، ظِلٌّ أسود غاشم يصطبِغ بالفضّي كلّما ومضَ البرق. لا تحمل برِيان تُرسًا تصدُّ به الضّربات، ولا تستطيع إلّا التّملُّص منه مندفعةً في هذا الاتّجاه أو ذاك لتتفادى رأس الفأس الهاوي عليها. مرّةً انزلقَ كعبها في الوحل وكادَت تَسقُط، لكنها استعادَت توازنها بوسيلةٍ ما، ولو أن الفأس كشطَت كتفها اليُسرى مخلّفةً حريقًا من الألم. صاح أحد الآخرين: «أصبت الحقيرة!»، وقال آخر: «لنرَ كيف سترقُص الآن».

ورقصَت بِريان شاعرةً بالرّاحة لاكتفائهم بالمشاهَدة. أفضل لها أن يُشاهِدوا من أن يتدخّلوا، فليس بمقدورها أن تُقاتِل سبعةً بمفردها على الرغم من إصابات واحدٍ أو اثنين منهم. السير جودوين العجوز في قبره منذ سنين، لكنها سمعَته يهمس في أذنها: *سيبخس الرّجال قدركِ دومًا، وستجعلهم كبرياؤهم يرغبون في هزيمتكِ سريعًا خشية أن يُقال إن امرأةً أرهقَتهم ودوّختهم. اتركيهم يستهلكون طاقتهم في الهجمات الضّارية بينما تدّخرين طاقتكِ. انتظري وراقبي يا فتاة، انتظري وراقبي.*

وانتظرَت بِريان، وشاهدَت، تتحرّك إلى الجانب، ثم إلى الخلف، ثم إلى الجانب ثانيةً، تُسدّد ضربةً إلى وجهه، إلى ساقيه، إلى ذراعيه، والآن صارَت ضرباته أبطأ إذ تثقلَت فأسه، ودفعَته بِريان إلى الدّوران ليكون المطر في عينيه ثم أسرعَت تتراجع خطوتين، ورفعَ فأسه مرّةً أخرى لاعنًا وكرّ عليها، وانزلقَت قدمه في الوحل...

... ووثبَت تُقابِله وكلتا يديها على مقبض سيفها. وضعَته انقضاضته المباشرة عند رأس السّيف بالضّبط، وانغرسَ (حافِظ العهد) في القُماش والمعدن والجِلد والمزيد من القُماش، وغاصَ في أحشائه وانبثقَ من ظَهره مصدرًا صوتًا خشنًا إذ احتكّ بعموده الفقري. سقطَت فأسه من أصابع ارتخَت، وتصادمَ الاثنان ليضرب وجه بِريان خوذة رأس الكلب وتَشعر ببرودة المعدن المبتل على وجنتها. سالَ المطر على الفولاذ أنهارًا، وحين سطعَ البرق من جديدٍ لمحَت الألم والخوف والذُّهول الخالص عبر فتحتَي الرُّؤية. همسَت له: «صغُير»، ودوّرت نصلها بقسوةٍ أرسلَت في جسده الرّعدة، وتراخى وزنه الثّقيل عليها، وذفعةً واحدةً أصبحَ ما تحتضنه هناك تحت المطر الأسود جثّةً. تراجعَت وتركَته يَسقُط...

... وارتطمَ بها العضّاض صارخًا.

سقطَ عليها كتَيهورٍ من الصّوف المبتلّ واللّحم الأبيض كالحليب، يرفعها في الهواء ثم يرميها على الأرض بمنتهى العُنف لتحطّ في بِركةٍ ويتناثَر الماء داخلًا أنفها وعينيها. أفرغَت الصّدمة كلَّ ما في صدرها من هواء، وضربَ رأسها حجرًا شِبه مدفون بصوتٍ حاد، ولم تجد وقتًا إلّا لتقول: «لا»، قبل أن يَسقُط فوقها ليغوص بها وزنه أكثر في الوحل. امتدّت إحدى يديه إلى شعرها تسحب رأسها إلى الخلف، والأخرى إلى عُنقها. لم تجد (حافِظ العهد) معها إذ أفلتَته قبضتها، ولا تملك إلّا يديها تصدُّه بهما، لكن حين لكمَته في وجهه فكأنها لكمَت كُرةً من العجين الأبيض المبتل، وأجابَ لكمتها مهسهسًا في وجهها.

ضربَته مرّةً أخرى وأخرى وأخرى بكعب يدها في عينه، فبدا كأنه لا يَشعُر بضرباتها. خمشت معصميه، لكنه أحكمَ قبضته عليها مع أن الدّماء سالَت من الجروح التي خلَّفتها أظفارها. إنه يسحقها، يَخنُقها. دفعَت كتفيه، لكنه ثقيل كالحصان، زحزحته مستحيلة. عندما حاولَت أن تضربه بِرُكبتها بين ساقيه لم تنجح إلّا في إصابة بطنه، وأطلقَ العضّاض صوتًا كقباع الخنازير ومزّق خُصلةً من شعرها.

خنجري. تشبثت بريان بالخاطر بيأس. دسّت يدها بينهما وراحت أصابعها تَحفر تحت لحمه الخانق الكريه، تبحث وتبحث إلى أن وجدَت المقبض أخيرًا. أغلقَ العضّاض كلتا يديه على عُنقها وبدأ يضرب رأسها بالأرض. ومضَ البرق مجدَّدًا، هذه المرة داخل جمجمتها، لكن أصابعها انقبضَت بوسيلةٍ ما وجذبَت الخنجر من غِمده. اعتلاؤه إياها هكذا يحول دون أن ترفع النَّصل وتطعنه به، فسحبَته بقوّةٍ على بطنه بالعرض، وتفجَّر شيء دافئ بليل بين أصابعها. هسهسَ العضّاض ثانيةً بصوتٍ أعلى، وتخلّى عن رقبتها فقط ليَلكمها في وجهها، وسمعَت بريان عظامًا تتهشّم وأعماها الألم لحظةً. عندما حاولَت أن تشقَّ لحمه بخنجرها ثانيةً انتزعَه من يدها وهوى بركبته على ساعِدها كاسرًا إياه، ثم عادَ يُطبِق على عُنقها ويُحاوِل اجتثاثه من كتفيها.

سمعَت بريان كلب ينبح والرِّجال يصيحون حولها، وبين قصفات الرَّعد سمعَت الفولاذ يُقارِع الفولاذ، ففكَّرت: *السير هايل، السير هايل انضمَّ إلى القتال*، لكن كلَّ هذا بدا بعيدًا لا يهمُّ. عالمها الآن يقتصر على اليدين اللتين تُطوِّقان عُنقها والوجه الذي فوقها. سالَ المطر على قلنسوته إذ مالَ عليها أكثر، تفوح من أنفاسه رائحة بغيضة كالجُبنة العفِنة.

كان صدر بريان مشتعلًا نارًا والعاصفة وراء عينيها تُعميها والعظام يطحن بعضها بعضًا في داخلها. ففغرَ العضّاض فاه باتِّساعٍ مستحيل، ورأت أسنانه الصَّفراء المعوجّة المدبَّبة، ولمّا انغلقَت على لحم وجنتها اللَّدن شعرَت بها بالكاد، وأحسَّت بدوّامةٍ تحملها غائصةً في الظّلام. *لا يُمكن أن أموت الآن، ما زالَ هناك شيء عليَّ أن أفعله*.

انتزعَ العضّاض فمه المليء بالدّماء واللّحم، وبصقَ وابتسمَ ابتسامةً عريضةً ثم عادَ يغرس أسنانه المدبّبة في لحمها، وهذه المرّة مضغَه وابتلعَه. قالت لنفسها مدركةً ما يفعله: *إنه يأكلني*، إلّا أن طاقةً لم تتبقَّ فيها لتقاوِمه. شعرَت كأنها طافية فوق نفسها، تُشاهِد هذا الرّعب كأنه يَحدث لامرأةٍ أخرى، لفتاةٍ حمقاء حسبَت نفسها فارسًا. *سينتهي الأمر قريبًا، وعندها لن يهمّ إذا أكلَني*. ألقى العضّاض رأسه إلى الوراء فاتحًا فمه ليعوي، ثم أخرجَ لسانه، لسانًا مدبّبًا يَقطر منه الدّم، أطول من أيّ لسانٍ طبيعي، وقد راح ينزلق خارجًا من فمه أحمر مبتلًّا لامعًا، منظره قبيح شنيع، وقُبيل أن يطويها الظّلام فكّرت بِريان: *لسانه طوله قدم كامل، يكاد يُشبِه السّيف*.

للدّبّوس الذي يُثبّت معطف السير برايندن تَلي شكل سمكةٍ سوداء من السّبج والذّهب، وقميصه المعدني رماديٌ كئيب، ومعه يرتدي قُفّازين وصفائح تقي ساقيه وزكبتيه وعُنقه وكتفيه، جميعها من الفولاذ الأسود، وليس منها ما هو حالك كالنّظرة على وجهه إذ انتظرَ جايمي لانستر عند طرف الجسر المتحرّك، وحده على صهوة جوادٍ كستنائي يكسوه الأحمر والأزرق.

هذا الرّجل لا يحبّني. لتَلي وجه صخري عميق التّجاعيد لوّحته الرّيح تحت شَعره الشّائب اليابس، لكن جايمي ما زالَ يرى الفارس العظيم الذي فتنَ مُرافقًا صغيرًا بحكاياتٍ عن ملوك البنسات التّسع ذات يوم. طقطقَت حوافر أونر على ألواح الجسر المتحرّك، وعلى متنه جايمي الذي فكّر مليًا في ارتداء دِرعه الذّهبيّة أم البيضاء في هذا اللّقاء، وفي النّهاية اختار سُترةً من الجِلد ومعطفًا قرمزيًا.

توقّف على بُعد ياردة من السير برايندن وحنى رأسه للعجوز فقال تَلي: «قاتِل الملك».

اختياره أن يكون هذا اللّقب أول ما يَخرج من فمه يقول الكثير، غير أن جايمي عزم على تمالُك أعصابه، وأجاب: «السّمكة السّوداء، أشكرك لمجيئك».

قال السير برايندن: «أفترضُ أنك أتيت لتفي بقسمك لابنة أخي. أذكرُ أنك وعدت كاتلين بإعادة ابنتيها مقابل حرّيّتك»، وتقلّص فمه مضيفًا: «لكنني لا أرى الفتاتين. أين هما؟».

أيجب أن يجعلني أقولها؟ «ليستا معي».

- «مؤسف. هل ترغب في استئناف حبسك إذن؟ ما زالَت زنزانتك القديمة متاحةً، وفرشنا حصائر جديدةً على الأرض».

ووضعتم دلوًا جديدًا أتبرّزُ فيه أيضًا لا شك. «أشكر لك مراعاتك أيها الفارس، لكن أخشى أن عليّ أن أرفض. أفضّلُ راحة سُرادقي».

- «بينما تستمتع كاتلين براحة قبرها؟».

كان ليقول: *لم تكن لي يد في موت الليدي كاتلين، وابنتاها اختفتا قبل أن أصل إلى (كينجز لاندنج)*، وكان على لسانه أن يَذكُر بريان والسيف الذي أعطاها إياه، لكن السّمكة السّوداء كان يرميه بالنّظرة عينها التي رماه بها إدارد ستارك لحظة أن رآه على العرش الحديدي ودماء الملك المجنون على سيفه. «أتيتُ أتكلّمُ عن الأحياء لا الموتى، عمّن لا داعي لموتهم لكنهم سيموتون...».

- «... ما لم أسلّمكم (ريڤرزن). هل ستُهدّد بشنق إدميور الآن؟». تحت حاجبيه الكثيفين كانت عينا تَلي حجرًا وهو يقول: «ابن أخي محكوم عليه بالموت مهما فعلت، فاشنقوه وافرغوا من الأمر. أظنُّ أن إدميور سئم من الوقوف على هذه المشنقة كما سئمتُ من رؤيته عليها».

رايمان فراي أحمق كبير. واضح تمامًا أن تمثيليّته مع إدميور والمشنقة نجحت فقط في جعل السّمكة السّوداء يتعنّت أكثر. «إنك تحتجز الليدي سيبل وسترلينج وثلاثةً من أولادها. سأعيدُ ابن أخيك مقابلهم».

- «كما أعدت ابنتي الليدي كاتلين؟».

لم يسمح چايمي لنفسه بأن يُستفَزّ، وقال: «امرأة عجوز وثلاثة أطفال لقاء سيّدك. هذه صفقة أفضل من أيّ شيءٍ كنت تأمله».

ابتسم السير برايندن بقسوةٍ قائلًا: «لست تفتقر إلى الجرأة يا قاتِل الملك، لكن إبرام الصّفقات مع الحانثين في أيمانهم كالبناء على الرّمال المتحرّكة. كان على كات أن تكون أعقل من أن تثق بأمثالك».

كادَ چايمي يقول: *لقد وثقَت بتيريون. العفريت أيضًا خدعَها*، لكنه رَدَّ: «وعودي لليدي كاتلين كانت تحت تهديد السَّيف».

- «وقَسمك لإيرس؟».

أجابَ شاعرًا بأصابعه الشَّبحيَّة تختلِج: «لا صِلة لإيرس بهذا. هل ستُبادِل أولاد وسترلينج بإدميور؟».

- «لا. مليكي ائتمنني على ملكته وأقسمتُ على الحفاظ على سلامتها. لن أسلِّمها إلى آل فراي ليَشنقوها».

- «الفتاة نالَت عفوًا. لن يمسَّها سوء، لك كلمتي».

قال السير برايندن: «كلمة شرف؟»، ورفعَ حاجبه مضيفًا: «هل تعرف ما الشَّرف أصلًا؟».

حصان. «سأقسمُ لك على ما تشاء».

- «اعفِني يا قاتِل الملك».

- «هذا ما أريدُ أن أفعله. أنزِل راياتك وافتح بوَّابتك وسأمنحُ رجالك حياتهم. مَن يرغب منهم في البقاء في (ريڤرَن) وخدمة اللورد إمون فليفعل، وللباقين أن يذهبوا حيث يُريدون، وإن كنتُ أطلبُ أن يُسلِّموا أسلحتهم ودروعهم».

- «ترى ما المسافة التي سيقطعونها وهُم عُزَّل قبل أن يُهاجِمهم «الخارجون عن القانون»؟ إنك لن تجرؤ على السَّماح لهم بالانضمام إلى اللورد بريك، وكلانا يعلم هذا. هل ستستعرضونني في (كينجز لاندنج) لأموت مِثل إدارد ستارك؟».

- «سأسمحُ لك بالالتحاق بحرس اللَّيل. نِغل ند ستارك القائد على (الجدار) الآن».

ضيَّق السَّمكة السَّوداء عينيه قائلًا: «أهذا أيضًا من ترتيب أبيك؟ أذكرُ أن كاتلين لم تثق بهذا الصَّبي قَطُّ كما لم تثق بثيون جرايچوي، ويبدو أنها كانت محقَّة بشأن الاثنين. لا أيها الفارس، لا أظنُّ. سأموتُ دافئًا بَعد إذنك وفي يدي سيف تسيل عليه دماء الأسود الحمراء».

- «دماء تَلي حمراء أيضًا. إذا لم تُسَلِّم القلعة فعليّ أن أقتحمها. سيموت مئات».

- «مئات من رجالي وآلاف من رجالك».

- «ستهلك الحامية عن آخِرها».

- «أعرفُ هذه الأغنيّة. هل تُغنّيها على لحن (أمطار كاستامير)؟ رجالي يُؤثِرون الموت واقفين يُقاتِلون على أن يموتوا راكعين بفأس الجلّاد».

الحوار لا يمضي على ما يُرام إطلاقًا. «لا جدوى من هذا التّحدّي أيها الفارس. الحرب انتهَت وماتَ ذئبكم الصّغير».

- «اغتيلَ في انتهاكٍ لجميع شرائع الضِّيافة».

- «هذا عمل فراي لا عملي».

- «سمِّه كما تشاء، لكن رائحة تايوين لانستر تفوح منه».

لم يستطِع چايمي أن يُنكِر هذا، وقال: «أبي أيضًا ماتَ».

- «عسى (الأب) أن يَحكُم عليه بالعدل».

يا لها من فكرةٍ مريعة. «لو استطعتُ بلوغ روب ستارك في (الغابة الهامسة) لقتلته، لكن بعض الحمقى اعترَضوا طريقي. هل يهمُّ كيف ماتَ الصّبي؟ إنه ما زالَ ميتًا، ومعه ماتَت مملكته».

- «لا بُدّ أنك أعمى علاوةً على عاهتك أيها الفارس. ارفع عينيك وسترى أن الذّئب الرّهيب لا يزال يخفق فوق جُدراننا».

- «لقد رأيته، يبدو وحيدًا. (هارنهال) سقطَت، وكذا (سيجارد) و(بِركة العذارى)، وآل براكن ركعوا ويُحاصِرون تايتوس بلاكوود في (شجرة الغِدفان). پايپر، ڤانس، موتون، جميع حمَلة رايتكم استسلَموا ولم يبقَ إلّا (ريڤررَن). إن معنا عشرين ضِعف أعدادكم».

- «عشرون ضِعفًا من الرّجال تعني عشرين ضِعفًا من الطّعام. ما أخبار مؤنكم يا سيّدي؟».

- «تكفي لأن نبقى هنا حتى نهاية الزّمن إذا لزم الأمر بينما تتضوّرون أنتم جوعًا وراء أسواركم». نطقَ چايمي الكذبة بكلِّ ما استطاعَ من جراءةٍ متمنّيًا ألّا تخونه ملامحه.

على أنها لم تنطلِ على السّمكة السّوداء الذي قال: «حتى نهاية زمنكم ربما. مؤننا وفيرة، ولو أنني أخشى أننا لم نَترُك الكثير في الحقول للزّائرين».

- «نستطيع الإتيان بالطّعام من (التّوأمتين)، أو عبر التّلال من الغرب إذا دعَت الحاجة».

- «كما تقول. مُحال أن أشكّك في كلمة فارسٍ شريف مِثلك».

أغضبَ التّهكّم في نبرته چايمي، فقال: «هناك طريقة أسرع لتسوية المسألة. نزال فردي، نصيري ضد نصيرك».

قال السير برايندن ضاحكًا: «كنتُ أتساءلُ متى ستبلُغ هذه النّقطة. مَن سيكون؟ الغفر؟ أدام ماربراند؟ والدر فراي الأسود؟». ومالَ إلى الأمام مضيفًا: «ولِمَ لا يكون النّزال بيننا نحن أيها الفارس؟».

لكان ذلك قتالًا رائعًا في الماضي، حكايةً يُغنّي عنها المغنّون.

«عندما أطلقَت الليدي كاتلين سراحي جعلَتني أقسمُ على عدم حمل السّلاح ضد آل ستارك أو تَلي ثانيةً».

- «قَسم ملائم للغاية أيها الفارس».

اربدّ وجهه، وسألَ: «هل تنعتني بالجُبن؟».

أجابَ السّمكة السّوداء: «لا، أنعتك بالعجز»، وأشارَ برأسه إلى يد چايمي الذّهبيّة مردفًا: «كلانا يعلم أنك لا تستطيع القتال بهذه».

رَدّ: «إن لي يدين»، وهمسَ صوت في داخله: *هل تُفرّط في حياتك من أجل الكبرياء؟* «ربما يقول بعضهم إن معاقًا وعجوزًا نذين متاليّين. حلّني من قَسمي لليدي كاتلين وسأواجهك سيفًا بسيف. إذا فزتَ فـ(ريفررَن) لنا، وإذا قتلتني فسنرفع الحصار».

عادَ السير برايندن يضحك، وقال: «على الرغم من ترحيبي بفرصة أخذ سيفك الذَّهبي منك واقتلاع قلبك الأسود به، فوعودك بلا قيمة. لن أجني شيئًا من موتك إلَّا متعة قتلك، ولن أخاطر بحياتي في سبيل ذلك... مع أنها مخاطَرة محدودة».

من حُسن حظِّ چايمي أنه لا يحمل سيفًا، وإلَّا لكان استلَّه، ولو لم يقتله السير برايندن لأرداه الرُّماة على الأسوار بكلِّ تأكيد. «هل من أيِّ شروطٍ يُمكن أن تقبلها؟».

قال السير برايندن: «منك؟»، وهزَّ كتفيه مجيبًا: «لا».

- «لماذا خرجت تتكلَّم معي إذن؟».

- «الحصار مملٌّ لدرجةٍ مميتة. أردتُ أن أرى جُدعتك هذه وأسمع ما لديك من ذرائع تُبرِّر بها أحدث جرائمك. لكنها أوهى مما أملتُ. دائمًا تُخيِّب الأمل يا قاتِل الملك»، وداز السَّمكة السَّوداء بحصانه وخَبَّ عائدًا إلى (ريڤررَن)، ونزلَت الشَّبكة الحديديَّة بَعد دخوله بسرعةٍ وانغرسَت أطرافها المدبَّبة بعُمقٍ في الأرض الموحلة.

دوَّر چايمي رأس أونَر استعدادًا لرحلة العودة الطَّويلة إلى خطوط حصار جيش لانستر وقد شعرَ بالأعيُن المسلَّطة عليه، أعيُن رجال تَلي في الشُّرفات وأعيُن رجال فراي عبر النَّهر. *إن لم يكونوا عُميًا فلا بُدَّ أنهم رأوه يُلقي عرضي في وجهي.* لا مناص من اقتحام القلعة. *طيِّب، ما أسهل أن يحنث قاتِل الملك في يمينٍ أخرى. مزيد من الخراء في الدَّلو.* قرَّر چايمي أن يكون أول رجلٍ يتسلَّق إلى الشُّرفات. *وبيدي الذَّهبيَّة هذه سأكون أول من يموت على الأرجح.*

في المعسكَر أمسكَ ليو الضَّعيف لجام حصانه فيما ساعدَه پك على النُّزول، فسألَ نفسه: *أيحسبونني عاجزًا لدرجة احتياجي إلى مَن يُعينني على التَّرجُّل؟*

سألَه السير داڤن ابن خاله: «كيف أبليت يا سيِّدي؟».

- «لا أحد أصابَ كفل حصاني بسهم، لكن فيما عدا هذا لم يُمَيِّزني الكثير عن السير رايمان»، وتجهَّم چايمي مضيفًا: «والآن لا مفرَّ من أن يزداد (الفرع الأحمر) خمرةً». *لَم نفسك على هذا أيها السمكة السوداء. لم تترك لي خياراتٍ كثيرة.*

«اجمع مجلس الحرب. السير أدام والغفر وفورلي پرستر، ولوردات النهر أيضًا... والأصدقاء أولاد فراي، السير رايمان واللورد إمون وأيًا كان من يُريدون حضوره».

اجتمعوا سريعًا. جاء اللورد پايپر وكلا اللوردين ڤانس للكلام نيابةً عن لوردات (الثالوث) الثانيين الذين سيُختبَر ولاؤهم خلال فترةٍ قصيرة، في حين مثَّل الغرب كلٌّ من السير داڤن والغفر القوي وأدام ماربراند وفورلي پرستر، وانضمَّ إليهم اللورد إمون فراي وزوجته، وقد اتَّخذت الليدي چنا كُرسيَّها بنظرةٍ تتحدَّى أيَّ رجلٍ هناك أن يحتجَّ على وجودها، فلم يفعل أحد.

أرسلَ آل فراي والدر ريڤرز المسقَى والدر النغل، ومعه إدوين أكبر أبناء السير رايمان، وهو رجل شاحب ناحل له أنف مضغوط وشَعر داكن هزيل. تحت معطفٍ أزرق من صوف الجِملان يرتدي إدوين سترةً ممتازة التفصيل من جِلد العجول الرَّمادي مزيَّنة بزخارف لولبيَّة منققة، وقد أعلنَ: «سأتحدَّث نيابةً عن عائلة فراي. أبي متوعِّك هذا الصَّباح».

أطلقَ السير داڤن نخيرًا ساخرًا، وقال: «أهو سكران أم يَشعُر بالغثيان فحسب من نبيذ ليلة البارحة؟».

قال إدوين الذي له فم البُخلاء القاسي الخبيث: «لورد چايمي، أيجب أن أتحمَّل هذه الجلافة؟».

سألَه چايمي: «أهذا صحيح؟ هل أبوك سكران؟».

زمَّ فراي شفتيه ورمقَ السير إلين پاين الواقف عند سديلة الخيمة بقميصه المعدني الصَّدئ وسيفه البارز من وراء كتفه النَّحيلة، ثم قال: «إنه... أبي معتلُّ البطن يا سيِّدي. النَّبيذ يُساعِده على الهضم».

علّق السير داڤن: «لا بدّ أن ما يهضمه ماموث لعين إذن»، فضحك الغفر وقهقهَت الليدي چنا.

قال چايمي: «كفى. هناك قلعة علينا أن نظفر بها». أوقات اجتماع أبيه بمجلسه كان يَترك قادته يتكلّمون أولًا، وقد انتوى أن يحذو حذوه، فسألهم: «كيف نتصرّف؟».

أجابَ اللورد إمون فراي بإلحاح: «نَشنق إدميور تَلي كبداية. سيَعلَم هذا السير برايندن أننا نعني ما نقول. إذا أرسلنا رأس السير إدميور إلى عمّه فربما يدفعه هذا إلى الاستسلام».

- «برايندن السّمكة السّوداء لا يُدفَع إلى شيءٍ بهذه البساطة»، قال كاريل ڤانس سيّد (استراحة عابري السّبيل) ذو الملامح الكئيبة، الذي تُغَطّي وحمة قانية نِصف عُنقه وجانب وجهه. «أخوه نفسه لم يستطِع أن يدفعه إلى فِراش الزّوجيّة».

هزّ السير داڤن رأسه الأشعث قائلًا: «يجب أن نقتحم الأسوار كما أقولُ من البداية. أبراج حصار، سلالم، مِدَكّ نخترق به البوّابة، هذا ما نحتاج إليه».

قال الغفر: «سأقودُ الهجوم. نجعل السّمكة يذوق الفولاذ والنّار، هذا رأيي».

ردّ اللورد إمون باستهجان: «هذه أسواري، وهذه بوّابتي التي تُريدون اختراقها»، وأخرجَ وثيقته من كُمّه مضيفًا: «الملك تومن نفسه منحَني...».

قاطعه إدوين فراي بحدّة: «كلُّنا رأينا ورقتك يا عمّي. لِمَ لا تُري السّمكة السّوداء إيّاها على سبيل التّغيير؟».

قال أدام ماربراند: «اقتحام الأسوار سيكون عملًا داميًا. أقترحُ أن ننتظر ليلةً يغيب فيها القمر ونُرسِل دستةً من رجالنا المنتقين عبر النّهر بقارب مكتوم المجاذيف. يُمكنهم أن يتسلّقوا الأسوار بالحبال والخطاطيف ويفتحوا البوّابة من الدّاخل. سأقودهم بنفسي إذا أراد المجلس».

أعلنَ النّغل والدر ريفرز: «حماقة. السير برايندن ليس بالرّجل الذي تنطلي عليه تلك الحيل».

أيّده إدوين فراي قائلًا: «السّمكة السّوداء هو العقبة. إن ريشة خوذته سمكة سوداء تجعل تمييزه من بعيدٍ سهلًا. أقترحُ أن نُقرِّب أبراج الحصار من القلعة ونملأها بالرُّماة ونتظاهَر بالهجوم على البوّابة، وسيدفع هذا السير برايندن إلى الشُّرفات بخوذته. فليُلَوِّث كلُّ رامٍ سهامه بالفضلات ويجعل تلك الخوذة هدفه. ما إن يموت السير برايندن حتى تُصبِح (ريفررَن) لنا».

ردّ اللورد إمون بنبرةٍ حادّة: «لي، (ريفررَن) لي!».

ازدادَت وحمة اللورد كاريل قتامةً، وقال: «هل ستكون الفضلات مساهمتك يا إدوين؟ لا أشكّ في كونها شقًا قاتلًا».

قال الغفر: «السّمكة السّوداء يستحقُّ ميتةً أنبل، وأنا من سيُعطيه إياها»، ودَقّ الطّاولة بقبضته مردفًا: «سأتحدّاه في نزالٍ فردي. ليكن بالهراوة الشّائكة أو الفأس أو السّيف الطّويل، لا فرق، سأفتك بالعجوز».

خاطبَه السير فورلي پرستر قائلًا: «ولِمَ يتنازَل ويقبل التّحدّي أيها الفارس؟ ماذا سيجني من قتالٍ كهذا؟ هل سنرفع الحصار إذا فازَ؟ لا أصدّقُ ذلك، ولن يُصدّقه هو. النّزال الفردي لن يُثمِر شيئًا».

قال نوربرت ڤانس سيِّد (أترانتا): «إنني أعرف برايندن تَلي منذ كنا مُرافقين معًا في خدمة اللورد داري. بعد إذنكم أيها السّادة، دعوني أذهبُ وأتحدّث معه وأحاولُ أن أجعله يفهم موقفه اليائس».

ردّ اللورد پايپر: «إنه يفهمه جيّدًا». للرّجل قامة قصيرة وجسد ممتلئ وساقان مقوّستان وشَعر أحمر ثائر، وهو أبو أحد مُرافقي چايمي كما يشي الشّبه الجليّ بينهما. «الرّجل ليس غبيًا يا نوربرت. إن له عينين... وعقلًا أكبر من أن يستسلم لأمثال هذين»، ولوّح بيده بفظاظةٍ نحو إدوين فراي ووالدر ريفرز.

غاضبًا قال إدوين: «إذا كان اللورد پايپر يُلَمّح إلى...».

- «لستُ ألمّح يا فراي، بل أقولُ ما أعني مباشرةً كرجلٍ صادق، لكن ماذا تعرف أنت عن الصّادقين؟ إنك ابن عرس خائن كذّاب كجميع ذويك. أحبّذُ أن أشرب كوبًا من البول على الثّقة بكلمة أيّ فراي»، ومالَ پايپر عبر المائدة متابعًا: «أين مارك؟ أجبني. ماذا فعلتم بابني؟ لقد كان ضيفًا في زفافكم اللّعين».

قال إدوين: «وسيظلُّ ضيفنا المكرّم إلى أن تُثبِت ولاءك لجلالة الملك تومن».

- «خمسة فُرسان وعشرون جُنديًا ذهبوا مع مارك إلى (التّوأمتين). أهم ضيوفكم أيضًا يا فراي؟».

- «بعض الفُرسان ربما. الآخرون نالوا ما استحقّوا. خيرٌ لك أن تصون لسانك الخائن يا پايپر، ما لم تكن تُريد أن يرجع إليك وريثك قِطعًا».

فكّر چايمي: *لم يتحدّث هذا في مجلس أبي قَطّ*، وهبّ پايپر بجسده الصّغير مزمجرًا: «قُل هذا مجدّدًا بسيفٍ في يدك يا فراي، أم أنك تُقاتِل بالفضلات فقط؟».

شحبَ وجه إدوين الممصوص، وإلى جواره نهضَ والدر ريفرز قائلًا: «إدوين ليس رجل قتال... لكنني كذلك يا پايپر. إذا كان لديك المزيد من التّعليقات فاخرج معي وألقِها».

قال چايمي: «هذا مجلس حرب وليس حربًا. فليجلس كلاكما»، ولمّا لم يتحرّك أحدهما صاح: «الآن!».

جلسَ والدر ريفرز، أمّا اللورد پايپر فلم يخَف بهذه السّهولة، وهمهمَ بشتيمةٍ ما ثم خرج من الخيمة بخطواتٍ واسعة، فسألَ السير داڤن چايمي: «هل أرسلُ وراءه رجالًا يجرّونه ويعودون به يا سيّدي؟».

قال إدوين فراي: «أرسِل السير إلين. لسنا محتاجين إلّا إلى رأسه».

التفتَ كاريل ڤانس إلى چايمي قائلًا: «اللورد پايپر تكلَّم بدافع الحزن. مارك ابنه البِكر، والفرسان الذين ذهبوا معه إلى (التَّوأمتين) أبناء إخوة وعمومة جميعًا».

علَّق إدوين فراي: «تعني أنهم خونة ومتمرِّدون».

حدجَه چايمي بنظرةٍ باردة، وقال «(التَّوأمتان) انضمَّتا إلى قضيَّة الذِّئب الصَّغير أيضًا، ثم خُنتموه، وهو ما يجعل خيانتكم أفدح من خيانة پايپر مرَّتين». استمتعَ بمرأى ابتسامة إدوين الرَّفيعة تَذبُل وتموت، وقال لنفسه: *احتملتُ ما يكفي من النَّصائح اليوم*، ثم أعلنَ: «انتهينا. راجِعوا استعداداتكم أيها السَّادة. سنهجُم مع أول خيوط الضَّوء».

كانت الرِّياح تهبُّ من الشَّمال عندما غادرَ القادة الخيمة. حتى هنا تتناهى إلى أنف چايمي رائحة معسكَر فراي النَّتنة على ضفَّة (الجَلمود) الأخرى، وعبر الماء يقف إدميور تَلي بسحنةٍ مكفهِرَّة فوق المشنقة الرَّماديَّة الطَّويلة وحول رقبته حبل.

كانت عمَّته آخِر المغادرين، وفي أعقابها زوجها إمون الذي قال معترضًا: «سيِّدي، هذا الهجوم على مقرِّي... يجب ألَّا تُنفِّذه»، وازدردَ لُعابه لتتحرَّك تفَّاحة حَلقه إلى أعلى وأسفل، وتابعَ: «يجب ألَّا تفعلها. إنني... إنني أمنعك». كان يَمضُغ التَّبغ المُرَّ ثانيةً كما تنمُّ الرَّغوة الورديَّة الملتمعة على شفتيه. «القلعة ملكي. إن معي الوثيقة الموقَّعة من الملك، من تومن الصَّغير. أنا سيِّد (ريڤررَن) الشَّرعي و...».

قاطعَته الليدي چنا: «لست كذلك ما دام إدميور تَلي حيًّا. إنه ضعيف القلب والعقل، أعلمُ هذا، لكنه حيٌّ ولا يزال يُشكِّل خطرًا. ماذا تنوي أن تفعل يا چايمي؟».

السَّمكة السَّوداء الخطر لا إدميور. «اتركي إدميور لي. سير لايل، سير إلين، تعاليا معي من فضلكما. حانَ الوقت لأن أزور تلك المشنقة».

(الجلمود) أعمق وأسرع جريانًا من (الفرع الأحمر)، وأقرب مخاضةٍ تَبعُد عدّة فراسخ في اتّجاه المنبع. كانت العبّارة قد تحرّكت حاملةً والدر ريفرز وإدوين فراي لتوّها عندما وصلَ چايمي ورفيقاه إلى النّهر، وإذ انتظروا عودتها أخبرَهم چايمي بما يُريد، وبصقَ السير إلين في الماء.

حين نزلَ ثلاثتهم من العبّارة على الضّفّة الشّماليّة عرضَت تابعة معسكّرات سكرانة على الغفر أن تُمتّعه بفمها، فقال السير لايل دافعًا إياها نحو السير إلين: «متّعي صديقي»، وضاحكةً أخذَت المرأة خُطوةً لتُقبّل پاين على فمه، ثم إنها رأت عينيه وانسحبَت منكمشةً على نفسها.

الممرّات بين بؤر النّار من الطّمي البنّي الخام المختلط بروث الخيل، وتحمل آثار الحوافر والأحذية على حدّ سواء، وفي كلّ صوبٍ رأى چايمي بُرجَي عائلة فراي التّوأمين على الرّايات والتّروس، أزرق على رمادي، ومعهما رموز عائلاتٍ أدنى شأنًا مقسمة على الولاء لـ(المعبر)، كبلّشون[66] عائلة إرينفورد ومذراة عائلة هاي وغُصينات نبتة الدّبق الثّلاث رمز عائلة كارلتون. لم يمرّ وصول قاتِل الملك مرور الكرام، إذ توقّفت عجوز تبيع الخنازير الصّغيرة من سلّةٍ تُحدّق إليه، وحيّا فارس له وجه شبه مألوف على ركبته، واستدار جُنديّان يتبوّلان في حُفرةٍ يَنظُران قبلَ كلاهما الآخر، وناداه أحدهم: «سير چايمي»، لكنه واصلَ طريقه دون أن يلتفت. حوله لمحَ وجوه رجالٍ بذل أقصى جهده ليقتلهم في (الغابة الهامسة) حيث قاتلَ آل فراي تحت راية ذئب روب ستارك الرّهيب، وشعرَ بيده الذّهبيّة المعلّقة إلى جانبه ثقيلةً.

شرادق رايمان فراي المستطيل هو الأكبر والأوسع في المعسكر، وتتّخذ جُدرانه الرّماديّة المصنوعة من قُماش القنّب شكل مربّعاتٍ مخيطة معًا لتشبِه الأحجار، بينما تُحاكي قمّتاه (التّوأمتين). أبعد ما يكون التّوغّك، كان السير رايمان يستمتع بوقته، إذ سَمِعت من داخل الخيمة ضحكات امرأةٍ ثملة ممتزجةً بأنغام أوتار قيثارةٍ خشبيّة وصوت مغنٍّ. *سأتعاملُ معك لاحقًا أيها الفارس*. كان والدر ريفرز واقفًا أمام خيمته المتواضعة يتكلّم مع جُنديّين، يحمل تُرسه رمز عائلة فراي بألوانٍ معكوسة، وثمّة شريط أحمر مائل إلى اليسار على البُرجين. عبسَ النّغل حين رأى چايمي، فقال لنفسه: *يا لها من نظرةٍ باردة شكّاكة. هذا الرّجل أخطر من أيٍّ من إخوته الشّرعيّين*.

ترتفع المشنقة عشرة أقدامٍ عن الأرض، وقد وقفَ اثنان من حاملي الحِراب عند قاعدة سلالمها، وقال أحدهما لچايمي: «لا تستطيع أن تصعد دون إذن السير رايمان».

ربّت چايمي على مقبض سيفه قائلًا: «هذا يقول إنني أستطيعُ. السّؤال الآن، هل عليّ أن أخطو فوق جثّتك؟».

وانزاحَ الرّجلان.

فوق المشنقة يقف سيِّد (ريفرزَن) رامقًا الكوّة الأفقيّة تحته، قدماه سوداوان مغلّفتان بالطّمي وساقاه عاريتان، ويرتدي صُدرةً حريريّةً متّسخةً يلوح عليها أحمر وأزرق عائلة تَلي، وثمّة حبل يلتفّ حول عُنقه أُنشوطة من القنّب. لدى سماع خُطوات چايمي رفعَ إدميور رأسه ولعقَ شفتيه الجافّتين المشقّقتين، وغمغمَ بدهشة: «قاتِل الملك؟». ولمّا رأى السير إلين اتّسعت عيناه، وقال: «السّيف أفضل من الحبل. افعلها يا پاين».

قال چايمي: «كما سمعت اللورد تَلي يا سير إلين، افعلها».

بكلتا يديه سحبَ الفارس الضّامت سيفه العظيم، سيفه الطّويل الثّقيل المتناهي في الحدّة بقدر ما يسمح الفولاذ التّقليدي. تحرّكت شفتا إدميور المشقّقتان بلا صوت، وإذ رفعَ السير إلين النّصل أغلقَ عينيه، ووضعَ باين ثِقله كلّه وراء الضَّربة.

سمعوا من يصيح: «لا! توقّف! لا!»، وظهرَ إدوين فراي لاهثًا يقول: «أبي قادم بأقصى سُرعة. چايمي، يجب...».

- «يُناسِبني أكثر أن تُخاطِبني بـ«سيّدي» يا فراي، وخيرٌ لك أن تتجنّب استخدام «يجب» في أيّ كلام تُوَجّهه إليّ».

صعدَ السير رايمان سلالم المشنقة بخُطواتٍ ثقيلة وفي صُحبته بغيٌ شَعرها بلون القشّ سكرانة مِثله، أربطة فُستانها من الأمام لكن أحدهم حلّها حتى السُّرّة، فتدلّى نهداها الكبيران الثّقيلان وظهرَت حلمتاها البُنّيّتان الكبيرتان، وقد استقرَّت على رأسها بانحرافٍ دائرة رفيعة من البرونز المطرّق منقوشة عليها حروف بأبجديّةٍ قديمة وتَبرز منها سيوف سوداء صغيرة. حين رأت المرأة چايمي ضحكَت، وقالت: «مَن هذا بحقّ الجحائم الشّبع؟».

رَدَّ چايمي بكياسةٍ باردة: «حضرة قائد الحرس الملكي. السّؤال نفسه لكِ يا سيّدتي».

- «سيّدتك؟ لستُ سيّدةً، أنا الملكة».

- «سيُدهِش أختي أن تسمع هذا».

قالت: «اللورد رايمان تَوَّجني بنفسه»، وهزَّت وَركيها الكبيرين مضيفةً: «أنا ملكة العاهرات».

لا، أختي الجميلة تحمل هذا اللّقب أيضًا.

أخيرًا استطاعَ السير رايمان أن يتكلّم، فقال: «اخرسي أيتها القذرة، اللورد چايمي لا يُريد أن يسمع هُراء مومس». ابن فراي هذا رجل غليظ البنية عريض الوجه صغير العينين وذقنه طريٌّ لحيم، ومن أنفاسه تفوح رائحة النّبيذ والبصل.

سألَه چايمي بهدوء: «هل تصنع الملكات يا سير رايمان؟ غباء، غباء لا يقلُّ عمَّا تفعله باللورد إدميور».

- «لقد حذَّرتُ السَّمكة السَّوداء، قلتُ له إن إدميور سيموت ما لم تستسلم القلعة، وأمرتُ ببناء هذه المشنقة لأريهم أن السير رايمان فراي لا يُلقي تهديداتٍ فارغة. في (سيجارد) فعلَ ابني المِثل مع پاتريك ماليستر واستسلمَ اللورد چيسون، ولكن... السَّمكة السَّوداء رجل بارد. لقد رفضَ، فـ...».

- «... فشنقتَ اللورد إدميور؟».

احتقنَ وجه الرَّجل، وقال: «السيِّد جِدِّي... إذا شنقناه فسنخسر رهينتنا أيها الفارس. هل فكَّرت في هذا؟».

- «فقط الأحمق يُلقي تهديداتٍ ليس مستعدًّا لتنفيذها. هَب أنني هدَّدتك بالضَّرب ما لم تخرس ثم تكلَّمتَ، فماذا تحسبني سأفعلُ؟».

- «أيها الفارس، أنت لا تفـ...».

وضربَه چايمي. كانت الضَّربة بظَهر يده الذَّهبيَّة، لكنها دفعت السير رايمان إلى التَّعثُّر إلى الوراء ساقطًا بين ذراعَي عاهرته، ثم قال چايمي: «إن لك رأسًا سمينًا يا سير رايمان، وعنقًا غليظًا أيضًا. سير إلين، بكم ضربة يُمكنك أن تقطع هذا العنق؟».

رفعَ السير إلين يده واضعًا إصبعًا واحدًا على أنفه.

ضحك چايمي، وقال: «خيلاء فارغة. أقولُ إنها ثلاث ضربات».

خَرَّ رايمان فراي على رُكبتيه قائلًا: «لم أفعل شيئًا...».

- «... إلَّا الشُّرب ونكاح العاهرات، أعرف».

- «أنا ووريث (التوأمتين). لا يُمكنك...».

قاطعَه چايمي: «لقد حذَّرتك من الكلام»، وشاهدَ وجه الرَّجل يمتقع مفكِّرًا: *سكِّير وأبله وجبان. خيرٌ لآل فراي أن يموت هذا قبل اللورد والدر وإلَّا انتهى أمرهم.* «يُمكنك الانصراف أيها الفارس».

- «الانصراف؟».

- «كما سمعتني، ارحل».

- «ولكن... أين أذهب؟».

- «إلى الجحيم أو إلى الوطن، كما تُفضِّل. احرص على عدم وجودك في المعسكر عند شروق الشمس. يُمكنك أن تأخذ ملكة العاهرات معك، ولكن ليس تاجها هذا»، ثم التفت چايمي عن السير رايمان إلى ابنه قائلًا: «إدوين، إنني أسلِّمك قيادة أبيك. حاوِل ألَّا تكون غبيًا مِثله».

- «لن يكون هذا عسيرًا يا سيِّدي».

- «أرسِل خبزًا إلى اللورد والدر. التَّاج يَطلُب جميع سُجنائه»، ولوَّح چايمي بيده الذَّهبيَّة مستطردًا: «سير لايل، اجلبه».

كان إدميور تَلي قد تهاوى على وجهه فوق المشنقة حينما قطعَ سيف السير إلين الحبل، الذي ظلَّت قطعة منه طولها قدم مدلَّاة من الأنشوطة المحيطة برقبته، فشدَّها الغفر ليوقِفه على قدميه، ثم قال ضاحكًا بسخرية: «سمكة بِمقوَد، منظر لم أرَه من قبل قطُّ».

أفسحَ لهم رجال فراي الطَّريق، وكانت مجموعة من الآخَرين قد ازدحمت عند قاعدة المشنقة، منها دستة من تابعات المعسكَرات على درجاتٍ مختلفة من الفوضى، ولاحظَ چايمي رجلًا يحمل قيثارةً خشبيَّةً، فقال له: «أنت، أيها المغنِّي، تعالَ معي».

رفعَ الرَّجل قبعته قائلًا: «أمر سيِّدي».

لم يلفظ أحد كلمةً فيما ساروا إلى العبَّارة وفي أثرهم مغنِّي السير رايمان، لكن إذ تحرَّكوا مبتعدين عن ضفَّة (الجلمود) نحو الجانب الجنوبي أطبقَ إدميور تَلي على ذراع چايمي متسائلًا: «لماذا؟!».

اللانستر يُسدِّد ديونه، ولم تتبقَّ لي عملة إلَّاك. «اعتبِرها هديَّة زفاف».

رمقه إدميور بعينين حذرتين، وردّد: «هديّة... زفاف؟».

- «قيلَ لي إن زوجتك حسناء. لا بُدّ أن تكون كذلك كي تُضاجِعها في أثناء اغتيال أختك وملكك».

لعقَ إدميور شفتيه، وقال: «لم أعرف. كان خارج الغُرفة عازفو كمنجة...».

- «والليدي روزلين كانت تُلهيك».

- «إنها... لقد جعلوها تفعلها، اللورد والدر والآخرون. روزلين لم تُرِد أن... لقد بكَت، لكنني حسبتُ السّبب...».

- «منظر ذَكرك الهائل؟ نعم، إنني واثق بأن شيئًا كهذا سيجعل أيّ امرأةٍ تبكي».

- «إنها تحمل طفلي».

لا، بل إن ما ينمو في بطنها موتك.

في سُرادقه صرفَ چايمي السير لايل والسير إلين، لكنه أبقى على المغنّي قائلًا: «ربما أحتاجُ إليك بَعد قليل. ليو، سخّن ماءً لحمّام ضيفي. پيا، جِدي له ثيابًا نظيفةً. لا شيء عليه أسد إذا سمحتِ. پك، نبيذ للورد تَلي. أأنت جائع يا سيّدي؟».

أومأ إدميور برأسه إيجابًا، لكن الشّك لم يبرح عينيه.

استقرّ چايمي على كُرسيّ بينما استحمّ تَلي الذي زالَت القذارة عن جسده في سحاباتٍ سوداء، وقال له: «بَعد أن تأكل سيصحبك رجالي إلى (ريڤررَن)، وما يَحدث عندئذٍ يتوقّف عليك».

- «ماذا تعني؟».

- «عمّك رجل عجوز. شُجاع، نعم، لكن أفضل سنين حياته انقضى. خير ما يأمله السّمكة السّوداء الآن ميتة مشرّفة... أمّا أنت فما زالَت أمامك سنوات يا إدميور. أنت سيّد عائلة تَلي الشّرعي لا هو، والمفترَض أن يُطيعك عمّك. مصير (ريڤررَن) بين يديك».

حملقَ إليه إدميور مردّدًا: «مصير (ريڤررَن)...».

- «سلِّم القلعة ولن يموت أحد. يستطيع رعاياك الرّحيل في سلام أو البقاء لخدمة اللورد إمون، وسيُسمَح للسير برايندن بالالتحاق بحرس اللّيل مع كلّ رجلٍ من الحامية يختار الانضمام إليه. أنت أيضًا إذا كان (الجدار) يستهويك، أو يُمكنك الذّهاب إلى (كاسترلي روك) باعتبارك أسيري وتستمتع بكلّ سُبل الرّاحة التي تليق برهينةٍ بمنزلتك. سأرسلُ زوجتك إليك إذا أردت، وإذا أنجبت صبيًا فسيخدم عائلة لانستر كوصيف ومُرافق، وعندما ينال الفُروسيّة سنهب له بعض الأراضي. وإذا أنجبت روزلين بنتًا فسأحرص على أن يكون مَهرها لائقًا عندما تَبلُغ سِنّ الزّواج. أنت نفسك من الممكن أن تنال إطلاق سراحٍ مشروط ما إن تنتهي الحرب، وما عليك إلّا تسليم القلعة».

رفع إدميور يديه من الحوض وشاهد الماء يجري بين أصابعه متسائلًا: «وإذا لم أسلّمها؟».

أيجب أن تجعلني أقولها؟ كانت پيا واقفةً عند سديلة الخيمة حاملةً ثيابًا، وكان مُرافِقوه والمغنّي يُصغون أيضًا. *فليسمعوا، فليسمع العالم كلُّه، لا يهمّ.* أرغمَ چايمي نفسه على الابتسام، وقال: «لقد رأيت أعدادنا يا إدميور، رأيت السّلالم والأبراج والمقاذيف والمدكّات. إذا ألقيتُ الأمر فسيُلقي ابن خالي جسرًا على خندقكم ويُحطّم بوّابتكم. مئات سيموتون، أكثرهم من رجالكم. موجة الهجوم الأولى ستتكوّن من حمَلة رايتكم السّابقين، وهكذا سيبدأ يومكم بقتل آباء وإخوة الرّجال الذين ماتوا في سبيلكم في (التّوأمتين). الموجة الثّانية ستكون من رجال فراي، فلستُ أعاني نقصًا فيهم، وسيتبعهم جنودي الغربيّون عندما تنفد سهام رُماتكم ويصير فُرسانكم عاجزين عن رفع سيوفهم من فرط الإنهاك. ثم لمّا تَسقُط القلعة سيُقتَل كلُّ مَن فيها، ستُذبَح حيواناتكم وتُدمَّر أيكة آلهتكم وتحترق حصونكم وأبراجكم. سأهدمُ أسواركم وأحوِّلُ مجرى (الجُلمود) ليغمر الأطلال، وحين أفرغُ لن يعرف أحد أن قلعةً كانت قائمةً هناك ذات يوم»، ونهضَ چايمي مضيفًا: «قد تضع زوجتك مولودها قبل ذلك. أتوقّعُ أنك ستُريد طفلك، وسأرسله إليك حين يُولَد... بالمنجنيق».

تلا الصّمت كلامه. جلسَ إدميور في حوضه، وضمّت پيا الملابس إلى صدرها، وشدّ المغنّي وترًا في قيثارته، وفرّغ ليو الصّغير رغيفًا من الخُبز البائت ليصنع طبقًا متظاهرًا بأنه لم يسمع. *بالمنجنيق.* لو أن عمّته هنا الآن فهل كانت لتصرّ على أن تيريون هو ابن تايوين؟

أخيرًا عثرَ إدميور تَلي على صوته، وقال: «يُمكنني أن أخرج من هذا الحوض وأقتلك حيث تقف يا قاتِل الملك».

ردّ چايمي: «يُمكنك أن تُحاوِل»، فلمّا لم يتحرّك إدميور قال: «سأتركك تستمتع بطعامك. أيها المغنّي، سَلِّ ضيفنا بينما يأكل. مؤكّد أنك تعرف الأغنيّة».

- «أغنيّة الأمطار إياها؟ أجل يا سيّدي، أعرفها».

بدا أن إدميور رأى الرّجل للمرّة الأولى، وقال: «لا، ليس هو. أبعِده عني».

قال چايمي: «إنها مجرّد أغنيّة، ولا يُمكن أن يكون صوته بهذا الشوء».

---

(66) البَلْشون طائر طويل الساقين شهير بصوته العذب، ويُعزف أيضًا باسم مالك الحزين. (المترجم).

كان المِايستر الأكبر پايسل عجوزًا منذ عرفَته، وإن يبدو كأنه شاخ مئة عامٍ أخرى خلال اللّيالي الثّلاث الماضية. استغرقَ الرّجل أبديّةً ليركع ثانيًا رُكبتيه المتيبّستين أمامها، ولمّا فعلَ لم يستطِع النّهوض من جديدٍ إلى أن سحبَه السير أوزموند بقوّةٍ ووقّفه.

تمعّنت فيه سرسي باستياءٍ قائلةً: «اللورد كايبرن أبلغني بأن اللورد جايلز لفظَ سُعلاته الأخيرة».

- «نعم يا جلالة الملكة. لقد بذلتُ أفضل ما في وسعي لأخفّف عنه سَكرات الموت».

قالت الملكة: «حقًّا؟»، والتفتت إلى الليدي ميريويذر تسألها: «ألم أقل إنني أريدُ روزبي حيًّا؟».

- «بلى يا جلالة الملكة».

- «سير أوزموند، ماذا تَذكُر عن تلك المحادثة؟».

- «أنكِ أمرتِ المِايستر الأكبر پايسل بإنقاذ الرّجل يا صاحبة الجلالة. كلُّنا سمعنا».

انفتحَ فم پايسل وانغلقَ، ثم قال: «يجب أن تعلم مولاتي أنني فعلتُ كلّ ما في الإمكان لإنقاذ الرّجل المسكين».

- «كما فعلت مع چوفري؟ ومع أبيه زوجي الحبيب؟ روبرت كان من أقوى الرّجال في (الممالك السّبع)، ومع ذلك فقدته بسبب خنزيرٍ بَرّي. أوه، ودعنا لا ننسى چون آرن. لا شكّ أنك كنت لتقتُل ند ستارك أيضًا لو تركته لك فترةً أطول. أخبِرني أيها المِايستر، هل تعلّمت في (القلعة) أن تتنصّل من مسؤوليّاتك وتختلق الحُجج؟».

زَدّ الرّجل الهرِم وقد أجفلَته نبرتها: «لا أحد كان يستطيع أن يفعل المزيد يا جلالة الملكة. لقد... لقد خدمتُ دومًا بإخلاص».

- «عندما أشَرت على الملك إيرس أن يفتح بوّاباته عند اقتراب جيش أبي، أكانت تلك فكرتك عن الخدمة بإخلاص؟».

- «هذا... لقد أسأتُ التّقدير...».

- «أكانت تلك نصيحةً سديدةً؟».

- «مؤكّد أن صاحِبة الجلالة تعلم...».

- «ما أعلمه أنك كنت أقلّ نفعًا من فتى القمر عندما سُمِّمَ ابني، ما أعلمه أن التّاج في حاجةٍ ماسّة إلى الذّهب واللورد الخازِن مات».

انتهزَ الأحمق المسنُّ الجزء الأخير من ردّها قائلًا: «سـ... سأصنعُ قائمةً بالرّجال الصّالحين لشغل مكان اللورد جايلز في المجلس».

قالت سرسي التي وجدَت اقتراحه طريفًا: «قائمة. يُمكنني أن أتخيّل نوع القائمة التي ستمدّني بها، قائمة بالشّيوخ والحمقى الجشعين وجارث السّمين»، وزمّت شفتيها مضيفةً: «إنك تقضي أوقاتًا طويلةً في صُحبة الليدي مارچري في الفترة الأخيرة».

- «نعم، نعم، إنني... الملكة مارچري مضطربة للغاية بسبب السير لوراس، وأزوّدُ جلالتها بعقاقير النّوم و... أنواع أخرى من الأدوية».

- «لا ريب. أخبِرني، هل ملكتنا الصّغيرة هي من أمرَتك بقتل اللورد جايلز؟».

اتّسعت عينا المِايستر الأكبر پايسل حتى صارَتا كبيضتين مسلوقتين، وقال: «قـقتل؟ لا يُعقَل أن جلالتكِ تعتقدين... لقد مات بالسّعال، أقسمُ بكلّ الآلهة أنني... جلالتها لا يُمكن أن... إنها لم تكنْ ضغينةً للورد جايلز. لماذا ترغب الملكة مارچري في...».

- «... موته؟ لتزرع وردةً أخرى في مجلس تومن بالتّأكيد. ألَأنت أعمى أم مرتشٍ؟ روزبي كان يعترض طريقها فوضعَته في قبره... وأنت تستّرت عليها».

ردّ الرّجل بفمٍ يرتعش: «جلالة الملكة، أقسمُ لكِ أن اللورد جايلز مات بالسّعال. لطالما كان إخلاصي للتّاج والبلاد... وعائلة لانستر».

بهذا التّرتيب؟ كان خوف بايسل صريحًا ملموسًا. *لقد نضجَ بما فيه الكفاية. حان الوقت لاعتصار الثّمرة وتذوُّق عصيرها.*

«إذا كنت مخلصًا كما تدّعي فلماذا تكذب عليّ؟ لا تُحاول الإنكار. لقد بدأت تتراقص حول العذراء مارجري قبل ذهاب السير لوراس إلى (دراجونستون)، فاعفِني من المزيد من حكاياتك الخياليّة عن رغبتك في مواساة زوجة ابننا في حُزنها. لماذا تتردّد إلى (قفص العذراوات) بهذه الكثرة؟ مؤكّد أن السّبب ليس أحاديث مارجري المضجِرة. هل تَخطب وُدّ سيّتتها ذات الوجه المجدور إياها؟ تُداعِب الليدي بولوار الصّغيرة؟ هل تلعب لحسابها دور الجاسوس وتُخبِرها بما أفعله لتستغلّه في مكايدها؟».

- «إنني... إنني أطيعُ. المِايستر يُقسِم على الخدمة...».
- «المِايستر الأكبر يُقسِم على خدمة البلاد».
- «يا صاحِبة الجلالة، إنها... إنها الملكة...».
- «أنا الملكة».
- «أعني... أنها زوجة الملك، و...».
- «أعرفُ مَن هي. ما أريدُ أن أعرفه هو سبب حاجتها إليك. هل زوجة ابننا مريضة؟».

ردّ: «مريضة؟»، وشدّ العجوز الشّيء الذي يُسمّيه لحيةً، زَغب الشّعر الأبيض الخفيف النّابت من اللُّغد الوردي المتهدّل تحت ذقنه، وقال: «لـليست مريضةً يا جلالة الملكة، ليس بالضّبط. إن قَسمي يمنعني من الإفصاح...».

- «قَسمك لن يكون مصدر عزاءٍ كبير في الزّنازين السّوداء. سأسمعُ منك الحقيقة أو أكبّلك بالسّلاسل».

خرّ بايسل على ركبتيه قائلًا بضراعة: «أتوسّلُ إليكِ... لقد كنتُ رجل السيّد والدكِ، وصديقًا لكِ في مسألة اللورد آرن. لن أحتمل البقاء في الزّنازين، ليس ثانيةً...».

- «لماذا تستدعيك مارجري؟».

- «إنها ترغب في... إنها... إنها...».

- «قُلها!».

جفلَ هامسًا: «شاي القمر، شاي القمر من أجل...».

- «أعرفُ فيمَ يُستخدَم شاي القمر». هكذا *إذن*. «ليكن. انهض على هاتين القدمين الواهنتين وحاوِل أن تتذكّر كيف تكون رجلًا». حاولَ بايسل النّهوض بعُسرٍ لكنه استغرقَ وقتًا طالَ حتى أمرَت السير أوزموند مضطرّةً بأن يسحبه ثانيةً. ثم قالت: «بالنّسبة إلى اللورد جايلز فلا ريب أن (الأب في الأعالي) سيحكُم عليه بالعدل. ألم يَترُك أولادًا؟».

- «لا أولاد من صُلبه، لكن هناك ربيبًا...».

- «... ليس من دمه». ولوّحت سرسي بيدها متجاهلةً هذا، وأردفَت: «جايلز كان يعرف بحاجتنا الملحّة إلى الذّهب. لا شكّ أنه أخبرَك برغبته في ترك كلّ أراضيه وثروته لتومن». سيُساعِد ذهب روزبي على إنعاش خزائنهم، ويُمكنها أن تهب قلعة (روزبي) وأراضيها لأحد رجالها مكافأةً على خدمته الوفيّة. *اللورد ووترز ربما*. منذ فترةٍ وأوران يُلمّح إلى حاجته إلى مقر، فدون مقرّ ليست لورديّته إلّا لقبًا فارغًا. تعلم سرسي أن عينه على (دراجونستون)، لكن طموحه أكبر من اللّازم هنا، أمّا (روزبي) فأنسب لمولده ومنزلته.

كان بايسل يقول: «اللورد جايلز أحبّ جلالة الملك حبًّا جمًّا، ولكن... ربيبه...».

- «... سيتفهّم بالتّأكيد ما إن يسمعك تتكلّم عن أمنيّة اللورد جايلز الأخيرة. اذهب ونفّذ هذا».

قال المايستر الأكبر پايسل: «كما تأمر جلالة الملكة»، وكاد يتعثَّر في ثوبه مع استعجاله الخروج.

أغلقَت الليدي ميريويذر الباب وراءه، ثم التفتت إلى الملكة قائلةً: «شاي القمر. يا لحماقتها. لماذا تفعل شيئًا كهذا وتُخاطِر بنفسها؟».

- «الملكة الصغيرة لها رغبات تومن أصغر من أن يُشبِعها». هذا الخطر قائم دومًا عندما تتزوَّج امرأة بالغة طفلًا. *وقائم أكثر إذا كانت أرملةً. ربما تَزعُم أن رنلي لم يمسَّها قَطُّ، لكني أرفضُ أن أصدِّق هذا.* النساء لا يشربن شاي القمر إلَّا لسبب واحد، أمَّا العذراوات فلا يحتجن إليه على الإطلاق. «مارچري خائنة ابني. إن لها عشيقًا. هذه خيانة عظمى عقوبتها الموت». أملها الآن أن تعيش أم مايس تايرل الشَّمطاء المتغضِّنة لتشهد المحاكمة. بإصرارها على زواج تومن ومارچري في الحال حكمَت الليدي أولينا على وردتها الغالية بسيف الجلَّاد. «چايمي أخذَ السير إلين پاين معه. أظنُّ أن عليَّ أن أجد عدالة مَلكٍ جديدًا يقطع رأسها».

اقترحَ أوزموند كِتلبلاك بابتسامةٍ واسعة تلقائيَّة: «سأفعلها أنا. مارچري لها عُنق جميل، صالح لأن يَبتُره سيف حاد بسهولة».

قالت تاينا: «نعم، لكن لتايرل جيشًا عند (ستورمز إند) وآخَر في (بِركة العذارى). هم أيضًا يحملون سيوفًا حادَّةً».

أنا محاصَرة بالورود. وهذا مزعج حقًّا. إنها لم تزل محتاجةً إلى مايس تايرل وإن لم يكن إلى ابنته. *حتى هزيمة ستانيس على الأقل، ثم لن أحتاج إلى أحدٍ منهم.* لكن كيف تتخلَّص نفسها من الابنة دون أن تفقد الأب؟ قالت: «الخيانة هي الخيانة، لكن يجب أن نُبَرهِن عليها، وأن يكون البُرهان ملموسًا أكثر من شاي القمر. إذا ثبتت خيانتها فعلى السيِّد والدها نفسه أن يُدينها وإلَّا أصبحَ عارها عاره».

مضغ كِتلبلاك طرف شاربه قائلًا: «يجب أن نضبطهما متلبِّسين بفعلتهما».

- «كيف؟ إنها نُصب أعيُن كايبرن ليل نهار، وخدمها يأخذون مالي ولا يأتوننا بغير التُّفاهات، لكن أحدًا لم يرَ عشيقها هذا. الآذان خارج بابها تسمع غناءً وضحكًا ونميمةً، لا شيء مفيدًا».

قالت الليدي ميريويذر: «مارجري أمكر من أن تُضبَط بهذه السُّهولة. إن نساءها أسوار قلعتها، ينَمن معها ويُلبِسنها ثيابها ويُصلِّين معها ويقرأن معها ويَخِطن معها، وعندما لا تَخرج لركوب الخيل أو الصَّيد بالصُّقور تلعب (تعالَ إلى قلعتي) مع أليسين بولوار الصَّغيرة، وفي حضور الرِّجال تكون معها سِيتتها أو بنات عمومتها».

قالت الملكة بإصرار: «لا بُدَّ أنها تُخلِّص نفسها من دجاجاتها أحيانًا»، ثم إن فكرةً خطرَت لها بغتةً، فأضافَت: «ما لم تكن رفيقاتها جزءًا من الأمر أيضًا... ليس جميعهن ربما ولكن بعضهن».

قالت تاينا بريبة: «بنات العمومة؟ ثلاثتهن أصغر من الملكة وأكثر براءةً».

- «فاجرات متنكِّرات في عفَّة العذارى، وهو ما يجعل خطاياهن صادمةً أكثر. سيُكلِّل أسماءهن العار». فجأةً تكاد الملكة تتذوَّق ملامح الخطَّة. «تاينا، السيِّد زوجكِ كبير قُضاتي. يجب أن يتناوَل كلاكما العشاء معي اللَّيلة تحديدًا». عليها أن تُسارِع بالتنفيذ قبل أن يعنّ لمارجري أن تعود إلى (هايجاردن) أو تُبحِر إلى (دراجونستون) لتقف مع أخيها الجريح على باب الموت. «سآمر الطُّهاة بشواء خنزيرٍ بَرِّي لنا، وبالطَّبع يجب أن نستمع إلى الموسيقى لتُساعِدنا على الهضم».

لم تتوانَ تاينا عن إدراك التَّلميح، فقالت: «موسيقى، بالتَّأكيد».

- «اذهبي وأخبري السيِّد زوجكِ ورتِّبي مجيء المغنِّي. سير أوزموند، لا تذهب، هناك تفاصيل كثيرة نتكلَّم عنها. سأحتاج إلى كايبرن أيضًا».

للأسف اتَّضح أن المطابخ تفتقر إلى الخنازير البرِّيَّة في الوقت الحالي، ولا وقت يكفي لإرسال صيَّادين إلى الغابة، فبدلًا من ذلك ذبحَ الطُّهاة إحدى خنزيرات القلعة وقدَّموا لهم لحمها متبَّلًا بالقرنفل ومسقًّى بالعسل والكرز المجفَّف. ليست الوجبة التي أرادَتها سرسي، لكنها تدبَّرت أمرها بها، وبعدها أكلوا التُّفَّاح المخبوز مع الجُبنة البيضاء اللَّاذعة. تلذَّذت الليدي تاينا بكلِّ قضمة، على عكس أورتون ميريويذر الذي ظَلَّ وجهه المستدير شاحبًا مبقَّعًا بالبثور من طبق المرق إلى طبق الجُبنة، وأفرطَ في الشَّراب وظَلَّ يختلس النَّظرات إلى المغنِّي.

أخيرًا قالت سرسي: «مؤسف للغاية رحيل اللورد جايلز، ولو أنني أظنُّ أن أحدًا منا لن يفتقد سُعاله».

- «نعم، نعم، أظنُّ هذا».

- «سنحتاج إلى خازنٍ جديد. لو لم تكن الأوضاع مضطربةً في (الوادي) لأرسلتُ أستدعي پيتر بايلش، ولكن... أفكِّرُ في تجربة السير هاريس في المنصب. لا يُمكن أن يُبلي بلاءً أسوأ من جايلز، وعلى الأقل لا يَسعُل».

قالت تاينا: «السير هاريس يد الملك».

السير هاريس رهينة، وحتى هذا ليس فعَّالًا فيه. «آن أوان أن يكون لتومن يد أقوى».

رفعَ اللورد أورتون عينيه عن كأسه قائلًا: «أقوى، بالتأكيد»، وتردَّد لحظةً قبل أن يسأل: «مَن...».

- «أنت يا سيّدي. إن اليدويّة في دمك. جدُّك حَلّ محلّ أبي نفسه كيد إيرس». لا شكّ أن استبدال تايوين لانستر بأوين ميريويذر كان أشبه باستبدال جوادٍ حربي بحمار، لكن أوين كان رجلًا في شتاء الغمر عندما رقّاه إيرس، وديغا لم يأتِ بالنّتائج المنشودة، أمّا حفيده فأصفر، و... *وله زوجة قويّة*. مؤسف أن تايينا لا يُمكن أن تشغل منصب يد الملك. إنها تفوق زوجها رجولة ثلاث مرّات، ثم إنها مصدر تسليةٍ أفضل كثيرًا، لكنها مولودة في (مير)، علاوةً على كونها أنثى، ولذا فلا مفرّ من الاكتفاء بأورتون. «لا شكّ لديّ في أنك أقدر من السير هاريس». *محتويات وعاء فضلاتي أقدر من السير هاريس*. «هل تُوافِق على الخدمة؟».

- «أنا... نعم، بالطّبع. جلالتك تُسبِغين عليّ شرَفًا عظيمًا».

شرَفًا أعظم مما تستأهِل. قالت: «لقد خدمتني باقتدارٍ في منصب كبير القُضاة يا سيّدي، وستستمرّ في فِعل هذا خلال... الأوقات العصيبة التي تنتظرنا». ولمّا رأت أن ميريويذر أدرك ما تُنوّه به التفتت الملكة تبتسم للمغنّي قائلةً: «وأنت أيضًا يجب أن تُكافَأ على الأغاني الجميلة التي غنّيتها لنا بينما نأكل. لقد أنعمت عليك الآلهة بموهبةٍ رائعة».

انحنى المغنّي مجيبًا: «لُطف من جلالتك أن تقولي هذا».

قالت سرسي: «ليس لُطفًا بل مجرّد شهادةٍ بالحقيقة. تايينا قالت لي إنك تُسمّى الشّاعر الأزرق».

- «نعم يا صاحِبة الجلالة». حذاء المطرب من جِلد العجول اللّيّن، وسراويله من الصُّوف الأزرق النّاعم، والسُّترة التي يرتديها من الحرير الأزرق الباهت المشرّط بالساتان الأزرق اللّامع، بل ويَصبِغ شَعره بالأزرق أيضًا على غِرار أهل (تايروش)، وشعره هذا طويل مجعّد ينسدل على كتفيه وتفوح منه رائحة تشي بأنه مغسول بماء الورد. *ماء وردٍ أزرق لا ريب. على الأقل له أسنان بيضاء.* أسنانه نضيدة وليس فيها اعوجاج على الإطلاق.

- «أليس لك اسم آخر؟».

اصطبغت وجنتاه بشيءٍ من الوردي إذ أجاب: «في صِغري كان اسمي وات. اسم لا بأس به لصبيٍّ من الأرياف، لكنه أقلّ جدارةً بمغنٍّ».

لعينَي الشّاعر الأزرق لون عينَي روبرت ذاته، ولهذا السّبب وحده كرِهَته. «من السّهل أن أرى سبب كونك مغنّي الليدي مارچري الأثير».

- «جلالة الملكة لطيفة، تقول إنني أمتّعها».

- «أوه، إنني واثقة. هل لي أن أرى عودك؟».

- «كما تأمر صاحِبة الجلالة». تحت كياسته كانت لمحة خافتة من التّوتّر، وإن ناولَها عوده على الرغم من هذا، فلا أحد يَرفُض للملكة طلبًا.

داعبت سرسي وترًا وابتسمت للنّغمة، ثم قالت: «صوت جميل وحزين كالحُب. أخبِرني يا وات... أول مرّةٍ أخذت مارچري إلى الفِراش، أكان هذا قبل زواجها بابني أم بَعده؟».

للحظةٍ لم يبدُ أنه فهِمَ، ولمّا فعلَ اتّسعت عيناه، وقال: «معلومات جلالتكِ مغلوطة. أقسمُ لك أنني لم...».

صاحت سرسي: «كاذب!»، وضربَت المغنّي في وجهه بالعود بقوّةٍ فجّرت الخشب إلى شظايا، ثم قالت: «لورد أورتون، استدعِ حَرسي وخُذ هذا المخلوق إلى الزّنازين».

قال أورتون ميريويذر بوجهٍ بلّله عرق الخوف: «هذه الـ... أوه، المخزاة... كيف جرؤ على إغواء الملكة؟».

- «أخشى أن العكس حدث، لكنه يظلُّ خائنًا. فليَغرَّ للورد كايبرن».

امتقع وجه الشّاعر الأزرق، وقال والدّم يقطر من شفته حيث مزّقها العود: «لا، إنني لم... »، ولمّا أطبق ميريويذر على ذراعه صرخ: «رُحماكِ يا أمّنا، لا!».

قالت له سرسي: «لستُ أمّك».

حتى في الزّنازين السّوداء لم تنَل منه إلّا الإنكار والتّضرّع والاسترحام، ولم يمضِ وقت طويل حتى سالَت الدّماء على ذقنه من أسنانه المحطّمة وبلّل سراويله الزّرقاء الدّاكنة ثلاث مرّات، وعلى الرغم من كلّ هذا أصرّ الرّجل على أكاذيبه.

سألَت سرسي: «أيُمكن أنه المغنّي الخطأ؟».

- «كلُّ شيءٍ ممكن يا جلالة الملكة. لا تخافي، سيعترف الرّجل قبل أن تنتهي اللّيلة». هنا في الزّنازين يرتدي كايبرن الصّوف الخشن ومئزر حذّاءٍ جلديًا، وقد خاطبَ الشّاعر الأزرق قائلًا بنبرةٍ رفيقة مهمومة: «أعتذر إذا عاملَك الحُرّاس بخشونة. إنهم يفتقرون إلى الكياسة للأسف. لسنا نُريد منك إلّا الحقيقة».

قال المغنّي منتحبًا والقيود الحديديّة تُثبّته إلى الجدار الحجري البارد بقوّة: «لقد قلتُ الحقيقة».

- «ونحن نعرف أنك لم تقلها». كان كايبرن يُمسِك بيده موسَى تلتمع حافتها بخفوتٍ في ضوء المشاعل، وبها قطّع ثياب الشّاعر الأزرق إلى أن صارَ عاريًا إلّا من حذائه الأزرق طويل العنق، ووجدَت سرسي مرأى الشّعر البنّي بين ساقيه طريفًا. قالت آمرةً: «أخبِرنا كيف كنت تُرَفِّه عن الملكة الصّغيرة».

- «لم... لقد غنّيتُ، هذا كلُّ شيء، غنّيتُ وعزفتُ. ستُخبِرك رفيقاتها. إنهن معها طوال الوقت، بنات عمومتها».

- «وكم منهن واقَعت؟».

- «ولا واحدة. إنني مجرّد مغنٍّ. أرجوك».

قال كايبرن: «جلالة الملكة، ربما غنّى هذا المسكين فقط لمارجري بينما تستضيف عشّاقًا آخَرين».

- «لا، أرجوك. إنها لم... لقد غنّيت، غنّيت فقط...».

مرّر اللورد كايبرن يده على صدر المغنّي قائلًا: «هل تأخذ حلمتيك في فمها عندما تتطارحان الغرام؟»، والتقط واحدة بسبّابته وإبهامه ولواها متابعًا: «بعض الرّجال يستمتع بهذا، حلماتهم حسّاسة كالنّساء»، وومضت الموسى وصرخ المغنّي، وعلى صدره ذرفت عين حمراء مبتلّة الدّم.

شعرت سرسي بالغثيان، وأراد جزء منها أن تُغلِق عينيه، أن تُشيح بوجهها، أن تضع حدًّا لهذا، لكنها الملكة وهذه خيانة. *ما كان اللورد تايوين ليشيح بوجهه.*

في النّهاية حكى الشّاعر الأزرق قصّة حياته كلّها منذ يوم ميلاده الأول. كان أبوه متعهّد تموين سفن ونشأ وات على هذه الحِرفة، لكنه اكتشف في صِباه أنه أكثر مهارةً في صُنع الأعواد من البراميل، ولمّا بلغ الثّانية عشرة هربَ لينضمّ إلى فرقةٍ من الموسيقيّين سمعَ أداءهم في مهرجان، وجابَ نِصف أنحاء (المرعى) قبل مجيئه (كينجز لاندنج) على أمل أن يجد حظوةً في البلاط.

قهقة كايبرن قائلًا: «حظوة؟ أهكذا تُسمّيها النّساء الآن؟ أخشى أنك وجدت قدرًا كبيرًا للغاية منها يا صديقي... ومن الملكة الخطأ. الملكة الحقيقيّة تقف أمامك».

نعم. تلوم سرسي مارجري تايرل على هذا. لولاها فلربما عاش وات حياةً طويلةً مثمرةً، يُردّد أغانيه ويُضاجع راعيات الخنازير وبنات المُزارعين. *تآمُرها أرغمني على هذا. لقد لوّثتني بخيانتها.*

قبل مطلع الفَجر كانت الدّماء تملأ حذاء المغنّي الأزرق طويل الغنق، وأخبرَهما كيف تُداعِب مارچري نفسها بينما تُشاهِد بنات عُمومتها يُقبّلنه بأفواههن، وفي أوقاتٍ أخرى يُغنّي لها فيما تُشبِع شهواتها مع عُشّاقٍ آخَرين. سألَت الملكة: «مَن هم؟»، فذكرَ المأفون وات أسماء السير تالاد الطّويل ولامبرت تِرنبري وچالابار شو والتّوأمين ردواين وأوزني كِتلبلاك وهيو كليفتون... وفارس الزُّهور.

أثارَ هذا استياءها. إنها لا تجرؤ على تلويث اسم بطل معركة (دراجونستون)، ثم إن لا أحد يعرف السير لوراس سيُصَدِّق هذا. كذلك، لا يُمكن أن يكون التّوأمان ردواين جزءًا من الأمر، فدون (الكرمة) وأسطولها لا أمل للبلاد في الخلاص من يورون عين الغُراب ورجاله الحديديّين الملاعين. «لست تلفظ إلّا أسماء رجالٍ رأيتهم في مسكنها. نُريد الحقيقة!».

- «الحقيقة». نظرَ إليها وات بالعين الزّرقاء الواحدة التي تركَها له كايبرن، وبقبقَت الدّماء من الفتحات التي كانت أسنانه تحتلُّها، وقال: «ربما... أسأتُ التّذكُّر».

- «لم يكن لهوراس وهوبر دور في الأمر، أليس كذلك؟».

- «بلى، ليس هما».

- «وبالنّسبة إلى السير لوراس فأنا واثقة بأن مارچري تُجشِّم نفسها عناءً كبيرًا لإخفاء ما تفعله عن أخيها».

- «نعم، الآن أذكرُ. في مرّةٍ اختبأتُ تحت الفِراش حين أتى السير لوراس لزيارتها. قالت لي: يجب *ألّا يعرف أبدًا*».

- «أفضلُ هذه الأغنيّة على الأخرى». فلتتزك اللوردات الكبار خارج الأمر، هذا أفضل. أمّا الآخرون... السير تالاد كان فارسًا متجوّلًا من قبل، وچالابار شو شحّاذ منفيّ، وكليفتون الوحيد المذكور من حرس الملكة الصّغيرة. *واوزني أساس المسألة كلّها.*

«أعرفُ أنك مرتاح أكثر الآن وقد قلت الحقيقة. عليك أن تتذكّرها عندما تَمثل مارچري للمحاكمة. إذا بدأت تكذب ثانيةً...».

- «لن أفعل، سأقولُ الحقيقة، وبَعدها...».

- «سيُسمَح لك بالانضمام إلى حرس اللّيل، لك كلمتي»، والتفتت سرسي إلى كايبرن قائلةً: «احرِص على تنظيف جروحه وتضميدها، واسقِه حليب الخشخاش لتخفيف الألم».

رَدَّ كايبرن: «جلالتكِ شديدة اللُّطف»، وأسقط الموسى الدّامية في دلوٍ من الخل، وقال: «ربما تتساءل مارچري أين ذهبَ شاعرها».

- «المغنّون يروحون ويأتون، إنهم شهيرون بهذا».

صعدت سرسي درجات الزّنازين السّوداء الحجريّة القاتمة لاهثةً، وقالت لنفسها: يجب *أن أستريح*. الحصول على الحقيقة عمل مضنٍ، كما أنها تخشى الخُطوة التالية. *لا بُدّ أن أكون قويّةً. لا أفعلُ ما أفعله إلّا في سبيل تومن والبلاد*. مؤسف أن ماچي الضّفدعة ماتت. *بولٌ على نبوءتكِ أيتها العجوز. ربما أكبُز الملكة الصّغيرة سِنًّا، لكنها لم تكن أجمل مني قَطّ، وقريبًا ستموت*.

كانت الليدي ميريويذر منتظرةً في غُرفة نومها. ما زالَ اللّيل حالكًا، أقرب إلى الفجر من الغسق، وچوسلين ودوركاس كلتاهما نائمة، ولكن ليس تاينا التي سألَتها: «أكان الأمر شنيعًا؟».

- «لن تتصوّري. أحتاجُ إلى النّوم لكن أخشى أن أحلم».

ملّست تاينا على شَعرها قائلةً: «كلُّ هذا من أجل تومن».

ردّت سرسي: «أعلم، أعلمُ أنه كذلك»، وارتجفَت مردفةً: «حلقي جاف. كوني حلوةً وصُبّي لي قليلًا من النّبيذ».

- «إذا كانت هذه مشيئتك. لا أبغي إلّا أن ألبّيها».

كاذبة. إنها تعلم ما تبغيه تاينا. ليكن إذن. ما دامَت المرأة مفتونةً بها فسيُساعِدها افتتانها على ضمان إخلاصها وزوجها، وفي عالمٍ زاخر بالخيانة يستحقُّ هذا بضع قُبلات. *ليست أسوأ من أكثر الرّجال. على الأقل خطر الحمل منها غير وارد*.

ساعدَها النّبيذ ولكن ليس كفايةً، وإذ وقفَت الملكة في النّافذة حاملةً كأسها قالت متذمّرةً: «أشعرُ بأنني ملوّثة».

قالت الليدي ميريويذر: «الاستحمام كفيل بعلاج هذا يا جميلتي»، وأيقظَت دوركاس وجوسلين وأرسلَتهما تجلبان ماءً ساخنًا، وبينما ملأتا الحوض ساعدَت الملكة على خلع ثيابها، فحلّت أربطة فُستانها بأصابع رشيقة وأنزلَته عن كتفيها برفق، ثم إنها خلعَت فُستانها بدورها وتركَته يتكوّم على الأرض.

نزلَت الاثنتان في الحوض معًا، وتمدّدت سرسي على ظَهرها بين ذراعي تاينا، وقالت للمايريّة: «لا بُدّ من إعفاء تومن من معرفة أسوأ التّفاصيل. ما زالَت مارجري تأخذه كلّ يومٍ إلى السّبت ليتطلّبا من الآلهة أن تشفي أخاها». لا يزال السير لوراس متشبّثًا بالحياة على نحوٍ مزعج. «إنه مغرم ببنات عمومتها أيضًا. سيشقُّ عليه أن يفقدهن جميعًا».

اقترحَت الليدي ميريويذر قائلةً: «ربما لا تكون ثلاثتهن مذنبات، ربما لم تشترك واحدة منهن مع الأخريات. إذا أخزاها وأغثاها ما رأته...».

- «... فربما يُمكن إقناعها بالشّهادة على البقيّة. نعم، ممتاز، لكن أيّهن البريئة؟».

- «آلا».

- «الخجول؟».

- «هكذا تبدو، لكن فيها خُبثًا أكثر من الخجل. اتزكيها لي يا جميلتي».

- «بكلّ سرور». اعتراف الشّاعر الأزرق وحده لن يكفي أبدًا، إذ إن دأب المغنّين أن يكسبوا رزقهم بالكذب، لكن آلا تايرل ستُساعِدها كثيرًا إذا استطاعت تاينا أن تجعلها تعترف. «السير أوزني أيضًا سيعترف، ويجب إفهام الآخرين أن من خلال الاعتراف وحده يُمكنهم أن ينالوا عفو الملك والذّهاب إلى (الجِدار)». سيجد چالابار شو الحقيقة جذّابةً، ولو أنها أقلّ ثقةً بالآخرين، وإن كان كايبرن يُجيد الإقناع...

كان الفجر يَبزُغ على (كينجز لاندنج) عندما خرجَتا من الحوض وقد ابيضّت بشرة الملكة وتجعّدت من انغمارها الطّويل في الماء. قالت لتاينا: «ابقي معي، لا أريدُ أن أنام وحدي»، ثم إنها ردّدت دُعاءً قبل أن تَدخُل تحت الأغطية، تُناشِد (الأم) الأحلام الطيّبة.

على أن دُعاءها كان مضيعةً لأنفاسها، فكالمعتاد صمّت الآلهة آذانها. حلمَت سرسي بأنها في الزّنازين السّوداء من جديد، لكن الفرق هذه المرّة أنها هي المقيّدة بالسّلاسل إلى الجدار بدلًا من المغنّي. كانت عاريةً والدّم يَقطُر من طرفَي ثدييها حيث مزّق العِفريت حلمتيها بأسنانه، وقالت له متوسّلةً: «أرجوك، أرجوك، ليس أطفالي، لا تؤذي أطفالي»، لكن تيريون اكتفى بالنّظر إليها شزرًا. هو أيضًا كان عاريًا، يُغطّي جسده شَعر خشن يجعله يبدو أقرب إلى قردٍ من إنسان، وقال لها: «سترينهم يُتوّجون وسترينهم يموتون»، ثم أخذ ثديها النّازف في فمه وبدأ يمصّ، وسرى الألم فيها كسكّينٍ ساخن.

استيقظَت مرتعدةً بين ذراعَي تاينا، وقالت: «حُلم سيّئ. هل صرختُ؟ آسفة».

- «في نور النّهار تتحوّل الأحلام إلى تُراب. أهو القزم مرّةً أخرى؟ لماذا يُخيفك ذلك الرّجل الصّغير السّخيف هكذا؟».

- «سيَقتُلني. إنها نبوءة منذ كنتُ في العاشرة. أردتُ أن أعرف مَن سأتزوّج، لكنها قالت...».

- «من قالت؟».

- «المايجي». تدفّقت منها الحكاية وهي لا تزال تسمع ميلارا هيذرسبون تقول مصرّةً إن امتناعهما عن الكلام عن النّبوءة سيحول دون تحقّقها. *لكنها لم تَصمت في البئر، بل صاحت وصرخت*. «تيريون هو الفالونكار. هل تستخدمون هذه الكلمة في (مين)؟ إنها ڤاليريّة فُصحى، تعني الأخ الصّغير». كانت قد سألَت السّيتة سارانيلا عن الكلمة بَعد غرق ميلارا.

التقطَت تاينا يدها وملّست عليها قائلةً: «كانت امرأةً مفعمةً بالكُره، عجوزًا مريضةً قبيحةً، وكنتِ أنتِ صغيرةً جميلةً مفعمةً بالحياة والكبرياء. قلتِ إنها عاشَت في (لانسبورت)، أي أنها سمعَت بالتّأكيد بمولد القزم وكيف قتلَ أمّك. تلك المخلوقة لم تَجسُر على ضربكِ بيدها نظرًا لمقامكِ، فسعَت إلى جرحكِ بلسان الحيّة».

أهذا ممكن؟ كم تُريد سرسي أن تُصدّق هذا. «لكن ميلارا ماتَت كما قالت النّبوءة، ولم أتزوّج الأمير ريجار، وچوفري... القزم قتلَ ابني أمام عينَيّ».

قالت الليدي ميريويذر: «ابن واحد، لكن لكِ آخَر جميلًا قويًّا، ولا أذى سيمسّه أبدًا».

- «مستحيل ما دمتُ على قيد الحياة». مجرّد القول جعلَها تُصدّق. *في نور النّهار تتحوّل الأحلام إلى تُراب، نعم*. في الخارج تسطع شمس الصّباح متخلّلةً سديمًا من السّحاب، وخرجَت سرسي من تحت الأغطية قائلةً: «سأفطر مع الملك هذا الصّباح. أريدُ أن أرى ابني». *لا أفعلُ ما أفعله إلّا في سبيله* .

ساعدَتها تومن على استعادة رباطة جأشها. لم تحسّ به غاليًا نفيسًا من قبل كهذا الصّباح إذ راح يَثرثِر عن هريراته وهو يصبّ العسل على قطعةٍ من الخُبز الأسمر السّاخن، وقال لها: «السير پاونس اصطاد فأرًا، لكن الليدي ويسكرز سرقَته منه».

لم أكن قطّ بهذه العذوبة أو البراءة. كيف يأمل أن يقوى على حكم هذه البلاد القاسية؟ تريد الأم في داخلها أن تحميه، والملكة في داخلها تعلم أن عليه ان يصير أقوى وإلّا التهمه العرش الحديدي لا محالة. قالت له: «على السير باونس أن يتعلّم أن يُدافِع عن حقوقه. في هذا العالم يقع الضُّعفاء ضحايا للأقوياء طوال الوقت».

فكّر الملك في قولها وهو يلعق العسل من على أصابعه، ثم قال: «لمّا يعود السير لوراس سأتعلّمَ القتال بالرّمح والسّيف والكرة الشّائكة مِثله».

قالت الملكة: «ستتعلّم القتال ولكن ليس من السير لوراس. إنه لن يعود يا تومن».

- «مارجري تقول إنه سيعود. نحن نُصلّي من أجله. نسأل (الأم) أن ترحمه و(المحارب) أن يُعطيه القوّة. إلينور تقول إن هذه أصعب معارك السير لوراس».

ملّست على شعره، على الخصل الذّهبية التي تذكّرها كثيرًا بجوف، وسألته: «هل ستقضي بعد الظّهر مع زوجتك وبنات عمومتها؟».

- «ليس اليوم. قالت إن عليها أن تصوم وتُطهّر نفسها».

تصوم وتُطهّر نفسها... أوه، من أجل عيد (العذراء). لقد مرّت سنوات منذ كان على سرسي الاحتفال بهذا العيد الدّيني تحديدًا. *تزوّجت ثلاث مرّات ولا تزال تُريدنا أن نعتقد أنها بِكر.* سترتدي الملكة الصّغيرة ثيابًا بيضاء محتشمةً وتقود دجاجاتها إلى (سِبت بيلور) لتُضيء الشّموع البيضاء الطّويلة عند قدمي (العذراء) وتُعلّق أكاليل من الزّقوق حول عُنقها المقدّس. بعض *دجاجاتها على الأقل.* في عيد (العذراء) تُمنع الأمّهات والأرامل والعاهرات على حدّ سواء من دخول السّبتات، وكذا الرّجال، خشية تدنيس ترانيم البراءة المقدّسة. وحدهن العذراوات مسموح لهن...

- «هل قلتُ شيئًا خطأً يا أمّي؟».

قبّلت سرسي جبهة ابنها، وقالت: «بل قلت شيئًا في غاية الحكمة يا عزيزي. والآن اذهب والعب مع قِططك».

بعدها استدعت السير أوزني كِتلبلاك إلى غرفتها الشّمسيّة، فجاءَ متبخترًا يتصبّب عرقًا من التّدريب في السّاحة، وبينما جثا أمامها جرّدها من ملابسها بنظراته كما يفعل دومًا.

- «انهض أيها الفارس وتعالَ اجلس إلى جواري. لقد أسديتني صنيعًا شجاعًا من قبل، لكن الآن لديّ مهمّة لك تتطلّب صلابةً أكثر».

- «نعم، وأنا لديّ شيء صُلب لكِ».

ردّت: «يجب أن نُرجئ ذلك»، ومرّرت أناملها بخفّةٍ على ندوب وجهه متابعةً: «أتذكُر العاهرة التي أصابتك بهذه النّدوب؟ سأعطيك إياها عندما تعود من (الجِدار). هل تحبّ هذا؟».

- «أريدكِ أنتِ».

كانت إجابته الصّحيحة، فقالت: «أولًا عليك أن تعترف بخيانتك. من شأن ترك خطايا المرء تتعفّن في داخله أن يُسقِم روحه. أعرفُ أن الحياة مع ما اقترفت صعبة عليك، وحانَ الوقت لأن تُخلّص نفسك من عارك».

بدا أوزني حائرًا إذ قال: «عاري؟ لقد قلتُ لأوزني إن مارجري تُعابِثني فقط، ولا تتركني أفعلُ أكثر من...».

بترَت سرسي عبارته: «شهامة منك أن تحميها، لكنك فارس أنبل من أن تُواصِل الحياة مع جريمتك. لا، يجب أن تأخذ نفسك إلى (سِبت بيلور الكبير) اللّيلة تحديدًا وتتكلّم مع السّبتون الأعلى. حين تكون ذنوب المرء بهذا السّواد لا يستطيع إلّا صاحِب القداسة الأعلى نفسه إنقاذه من عذاب الجحيم. أخبِره كيف كنت تُضاجع مارجري وبنات عمومتها».

حملقَ إليها سائلًا: «ماذا؟ بنات عمومتها أيضًا؟».

أجابَت وقد حزمَت أمرها: «مِجا وإلينور فقط وليس آلا».
هذه التَّفصيلة الصَّغيرة ستجعل القصَّة أكثر قابليَّةً للتَّصديق.
«آلا اعتادَت الجلوس باكيةً تتوسَّل إلى الأخريات أن يتوقَّفن عن المعصية».
- «مِجا وإلينور فقط أم مارجري أيضًا؟».
- «مارجري أيضًا بكلِّ تأكيد. إنها وراء الأمر برُمَّته».
أخبرَته بكلِّ ما تُفكِّر فيه، وإذ أنصتَ أوزني زحف الفهم بتؤدةٍ على وجهه، ولمَّا فرغَت قال: «بَعد أن تقطعي رأسها أريدُ أن أنال تلك القُبلة التي لم تمنحني إياها».
- «لك أن تنال كلَّ ما ترغب من قُبل».
- «ثم (الجِدار)؟».
- «لفترةٍ قصيرة. تومن ملك غفور».
حكَّ أوزني وجنته النَّديبة قائلًا: «عادةً عندما أكذبُ بخصوص امرأةٍ أقولُ أنا إنني لم أضاجعها وتصرُّ هي على العكس. هذا... إنني لم أكذب على سِيتون أعلى من قبل! أظنُّ أن المرء يذهب إلى جحيمٍ ما لهذا، إلى واحدةٍ من الجحائم السيئة».
اندهشَت الملكة. آخِر ما توقَّعته من أحد الإخوة كِتلبلاك هو التَّقوى. «هل تُرفُض أن تُطيعني؟».
قال أوزني متحسِّسًا شَعرها الذَّهبي: «لا. المسألة أن أفضل الأكاذيب يحوي شيئًا من الحقيقة... إنها تُعطيها نكهةً إن جازَ التَّعبير، وأنتِ تُريدينني أن أعترف بأنني ضاجعتُ ملكةً...».
كانَت تصفعه على وجهه... كادَت، لكنها قطعَت شوطًا طويلًا بالفعل وهناك الكثير على المحك. *لا أفعلُ ما أفعله إلَّا في سبيل تومن.* دوَّرت رأسها والتقطَت يدَي السير أوزني ولثمَت أصابعه الصُّلبة الخشنة من حمل السُّيوف. *روبرت كانت يداه كهاتين.*

طوّقت سرسي عُنقه بذراعيها، وبصوتٍ مبحوح همسَت: «لا أريدُ أن يُقال إنني جعلتك تكذب. أعطِني ساعةً ثم قابِلني في غُرفة نومي».

قال أوزني: «انتظَرنا بما فيه الكفاية»، ودَسّ أصابعه في صدر فُستانها وشَدّه ممزِّقًا الحرير بصوتٍ مرتفع حتى إن سرسي خشيَت أن نِصف قاطني (القلعة الحمراء) سمعوه، ثم إنه أضافَ: «اخلعي البقيّة قبل أن أمزِّقها أيضًا، لكن يُمكنك الاحتفاظ بالتّاج. إنني أحبُّكِ بالتّاج».

سجنها سجنٌ مترف.

وجدَت آريان في هذا سلوانًا، فلِمَ يَجشَم أبوها نفسه كلّ هذا العناء ويوَفّر لها جميع وسائل الرّاحة في محبسها لو أنه حكمَ عليها بالموت ميتة الخونة؟ مئة مرّةٍ قالت لنفسها: *لا يُمكن أنه ينوي أن يَقتلني. القسوة ليست من طباعه. أنا دمه ونسله، وريثته، ابنته الوحيدة*. إذا لزمَ الأمر ستلقي نفسها على عجلتَي مقعده المتحرّك وتعترف بغلطتها وتتوسّل غُفرانه، وستبكي أيضًا، وحين يرى الدّموع تسيل على وجهها سيُسامِحها.

لكنها لا تحسّ بالثّقة نفسها بقُدرتها على أن تُسامِح نفسها.

خلال الرّحلة الطّويلة الجافّة من (الدّم الأخضر) إلى (صنسپين) استجدَت آسِرها قائلةً: «آريو، لم أرِد قطّ أن يُصيب الفتاة أذى، صدِّقني»، فلم يردّ هوتا إلّا بزمجرة، وشعرَت آريان بغضبه. لقد قلت منه النّجم المظلم، العضو الأخطر على الإطلاق في مجموعتها الصّغيرة من المتآمرين، ضلّل مُطارديه جميعًا واختفى في الصّحراء العميقة والدّماء تُلوِّث سيفه.

قالت آريان والفراسخ تمرّ: «أنت تعرفني أيها القائد، تعرفني منذ صِغري، ودائمًا حميتني كما حميت السيّدة والدتي منذ جئت معها من (نورڤوس الكُبرى) لتكون حارسها في هذا البلد الغريب. إنني محتاجة إلى مساعدتك. لم تكن نيّتي أن...».

قاطعها آريو هوتا بملامح من حجر: «نيّتك لا تهمّ يا أميرتي الصّغيرة. فقط ما فعلتِ. آسف، لكن لأميري الأمر وعلى هوتا الطّاعة».

توقَّعت آريان أن يأخذها إلى مقعد أبيها العالي تحت القُبَّة الزُّجاج المطليَّة بالرَّصاص في (بُرج الشَّمس)، لكن بدلًا من ذلك أخذَها هوتا إلى (بُرج الحربة)، ووضعَها تحت وصاية ريكاسو قهرمان أبيها والسير مانفري مارتل أمين القلعة. قال لها الأول: «أرجو أن تُسامِحي عجوزًا أعمى مِثلي على عدم الصُّعود معكِ أيتها الأميرة. هاتان السَّاقان لا تَصلُحان لتسلُّق الدَّرجات الكثيرة. ثمَّة غُرفة مجهَّزة لكِ سيصحبكِ إليها السير مانفري لتنتظري استدعاء الأمير».

- «تعني غضبة الأمير. هل سيُحبَس أصدقائي هنا أيضًا؟».

افترقَت آريان عن جارين ودراي والبقيَّة بَعد القبض عليهم، ورفضَ هوتا أن يُخبِرها بما سيَحدُث لهم، ولم يقل بخصوص هذه المسألة إلَّا: «القرار للأمير». على أن السير مانفري كان أكثر تعاوُنًا، فأجابَها: «لقد أُخِذوا إلى (بلدة الأخشاب) وسيُنقَلون بالسَّفينة إلى (جاستون جراي) إلى أن يُقرِّر الأمير دوران مصيرهم».

(جاستون جراي) قلعة قديمة متهدِّمة قابعة على صخرة في (بحر دورن)، معتقَل كئيب مخيف لا يُرسَل إليه إلَّا أسوأ المجرمين ليتعفَّنوا ويموتوا. قالت آريان مشدوهةً: «هل ينوي أبي أن يَقتُلهم؟! إنهم لم يفعلوا ما فعلوه إلَّا محبَّةً لي. إذا كان أبي يُريد الدَّم فليكن دمي».

- «كما تقولين أيتها الأميرة».

- «أريدُ أن أتكلَّم معه».

قال السير مانفري: «هكذا حسب»، وأخذَها من ذراعها وساقَها صاعدًا السَّلالم، إلى أعلى وأعلى حتى تقطَّعت أنفاسها. يرتفع (بُرج الحربة) مئةً وخمسين قدمًا، وتقع زنزانتها قُرب القمَّة. رمقَت آريان كلَّ بابٍ مرَّا به متسائلةً إن كانت إحدى أفاعي الرِّمال حبيسةً في الدَّاخل.

بَعد أن أغلقَ بابها وأوصدَ استكشفَت آريان بيتها الجديد. الغُرفة واسعة جيِّدة التَّهوية، ولا تفتقر إلى سُبل الرَّاحة، فعلى الأرض بُسط مايريَّة، وثمَّة نبيذ أحمر تشربه وكُتب تقرأها، وفي أحد الأركان تستقرُّ طاولة سايڤاس منمَّقة بقِطعٍ منحوتة من العاج والجزْع -ولو أن لا أحد هنالك يلعب معها إذا أرادَت أن تلعب- وهناك أيضًا فِراش بحشيَّةٍ من الرِّيش، ومرحاض بمقعدٍ من الرُّخام تُعطِّره سلَّة ملأى بالأعشاب. كما أن المناظر من هنا خلَّابة، إذ تطلُّ على الشَّرق نافذة ترى منها الشَّمس تُشرِق من وراء البحر، وتُتيح لها أخرى أن تَنظُر إلى (بُرج الشَّمس) بالأسفل، بالإضافة إلى الأسوار الملتفَّة و(البوَّابة الثُّلاثيَّة).

استغرقَ الاستكشاف وقتًا أقلَّ مما كانت لتقضيه في عقد أربطة صندلها، لكنه نجحَ على الأقل في الحيلولة دون انهمار دموعها فترةً. وجدَت آريان حوضًا وإبريقًا من الماء الفاتر وغسلَت يديها ووجهها، لكن مهما فركَت نفسها فلن يُمكنها تنظيفها من الحزن. *آريس، فارسي الأبيض.* ملأت الدُّموع عينيها، وفجأةً انفجرَت في البُكاء ورَجَّ النَّحيب جسدها كلَّه رَجًّا. تذكَّرت كيف شقَّت فأس هوتا الثَّقيلة لحمه وعظمه، وكيف طارَ رأسه ودارَ في الهواء. *لماذا فعلتها؟ لماذا قرَّطت في حياتك؟ لم أقل لك أن تفعلها، لم أرغب في هذا، أردتُ فقط... أردتُ... أردتُ...*

ليلتها بكَت حتى النّوم... للمرّة الأولى وإن لم تكن الأخيرة.

حتى في أحلامها لم تجد سلامًا. حلمَت بآريس أوكهارت يَفصد جسدها، يبتسم لها، يقول لها إنه يحبّها... لكن طيلة الوقت كانت السّهام منغرسةً فيه وتبكي جروحه دمًا محيلةً أبيضه إلى أحمر. جزء منها كان يُدرِك أن هذا كابوس حتى في أثنائه، وأخبرَت الأميرة نفسها: *كلُّ هذا سيختفي حين يطلع الصُّبح*، لكن الصُّبح طلعَ وهي لا تزال في زنزانتها، ولا يزال السير آريس ميتًا، ومارسلا... *لم أرِد هذا قَطّ، لم أرِده. لم تكن نيّتي أن يمسّ الفتاة سوء، لم أرِد لها إلّا أن تكون ملكةً. لو لم نتعرّض للخيانة*...

قال هوتا إن أحدهم وشى، ولم تزَل الذّكرى تُغضِبها، ولقد تشبّثت آريان بهذا الغضب وأزكّت به النّار في قلبها. الغضب أفضل من الدّموع، أفضل من الأسى، أفضل من النّدم. أحدهم وشى، أحد وثقت به، ومن جرّاء هذا مات آريس أوكهارت، قتلَته همسة الخائن كما قتلَته فأس قائد الحرس، والدّم الذي سالَ على وجه مارسلا من صُنع الخائن أيضًا. أحدهم وشى، أحد أحبّته، وهذا أبلغ الجروح قاطبةً.

وجدَت صندوقًا من خشب الأرز مليئًا بثيابها عند قدم الفراش، فخلعَت ملابسها التي وسّخها السّفر ونامَت بها ثم ارتدَت أكثر غِلالةٍ كاشفة وجدَتها، خيوطًا من الحرير تُغطّي كلّ شيءٍ ولا تُخفي شيئًا. ربما يُعامِلها الأمير دوران كأنها طفلة، إلّا أنها تأبى أن تلبس ثياب طفلة، وتعلم أن ما ترتديه سيُزعِج أباها حين يأتي يُوَبّخها على الهرب بمارسلا، بل وتعتمد على هذا. *إذا كان عليّ أن أزحف وأبكي فلينزعج هو أيضًا*.

توقّعت أن يأتيها اليوم، لكن حين انفتحَ الباب أخيرًا لم يظهر إلّا خدمها بوجبة منتصَف النّهار. سألَتهم: «متى أرى أبي؟»، لكن أحدًا لم يُجِبها. قدّموا لها جديًا مشويًا بالليمون والعسل، ومعه ورق عنب محشوًا بخليطٍ من الزّبيب والبصل وعيش الغُراب وفلفل التنين الحرّيف. في طريقهم إلى (جاستون جراي) يأكل أصدقاء آريان بسكويت الشفن واللّحم البقري المملّح، فقالت: «لستُ جائعةً. خُذوا هذا وائتوني بالأمير دوران»، لكنهم تركوا الطّعام ولم يأتِ أبوها، وبَعد مدّةٍ أضعفَ الجوع تصميمها، فجلسَت وأكلَت.

ما إن أكلَت آريان لم تجد ما تفعله. دارَت في بُرجها مرّةً وثلاثًا وتسعًا، وجلسَت إلى طاولة السايفاس وحرّكت فيلًا بفتور، واستراحَت على المقعد المجاور للنّافذة وحاولَت أن تقرأ كتابًا إلى أن تشوّشت الكلمات وأدركَت أنها تبكي مجدّدًا. *آريس أيها العزيز، فارسي الأبيض، لماذا فعلتها؟ كان يجب أن تستسلم. حاولتُ أن أقول لك لكن الكلام احتبسَ في فمي. أيها الأحمق الشُّجاع، لم تكن نيّتي أن تموت، أو لمارسلا أن... أوه، بحقّ الآلهة، تلك الصّغيرة...*

في النّهاية عادَت إلى فِراشها. كان العالم قد أظلم، ولا شيء تفعله إلّا النّوم. *أحدهم وشى، أحدهم وشى*. جارين ودراي وسيلفا الرّقطاء أصدقاء طفولتها، أعزّاء عندها كابنة عمّها تايين، ولا تُصدّق أن أحدهم قد يشي بها... لكن هكذا لا يتبقّى إلّا النّجم المظلم فقط، وإذا كان هو الخائن فلِمَ انقلبَ بسيفه على المسكينة مارسلا؟ *أرادَ أن نَقتلها بدلًا من أن نُتوّجها. هذا ما قاله في (شانديستون)، قال إنني هكذا سأنال الحرب التي أريدها.* لكن لا يُعقَل أن داين الخائن. إذا كان السير چيرولد الشمّ في العسل حقًّا، فلِمَ انقلبَ بسيفه على مارسلا؟

أحدهم وشى. أيُمكن أنه السير آريس؟ هل تغلّب إحساس الفارس الأبيض بالذّنب على شهوته؟ هل أحبّ مارسلا أكثر منها وخانَ أميرته الجديدة تكفيرًا عن خيانته أميرته القديمة؟ هل أحسّ بالعار مما فعلَه لدرجة أنه فضّل التّفريط في حياته على ضفاف (الدّم الأخضر) على العيش ومواجَهة الخزي؟

أحدهم وشى. حين يأتي أبوها يراها ستعرف مَن. على أن الأمير دوران لم يأتِ في اليوم التالي ولا التالي، وتُرِكَت الأميرة وحدها تذرع الغُرفة وتبكي وتلعق جراحها. في ساعات النّهار تُحاوِل أن تقرأ، لكن الكُتب التي تركوها لها مملّة حَدّ الموت؛ كُتب تاريخ قديمة ثقيلة، وكُتب جغرافيا وخرائط مزوّدة بحواشٍ، ودراسة جافّة كالتّراب عن قوانين (دورن)، ونسخة من (النّجمة الشّباعيّة) و(سِيَر السّبتونات الغلا)، ومجلّد ضخم عن التّنانين جعلَها بوسيلةٍ ما أقلّ تشويقًا من سَمندل الماء. كانت آريان لتدفع ثمنًا باهظًا لقاء نُسخةٍ من (عشرة آلاف سفينة) أو (أحباب الملكة نايميريا)، لقاء أيّ شيءٍ يشغل بالها ويجعلها تهرُب من بُرجها ساعةً أو ساعتين، لكنهم حرموها تلك التّسلية.

عليها فقط أن تَنظُر من نافذتها لترى القُبّة العظيمة المبنيّة بالذّهب والزُّجاج الملوّن بالأسفل حيث يجلس أبوها قلِقًا. قريبًا سيستدعيني.

الزُّوّار الوحيدون المسموح بدخولهم عليها خدمها؛ بورس بشعر فكّه القصير الخشن، وتيموث الطّويل الذي يشعّ اعتدادًا، والأختان مورا وميلي، وسِدرا الصّغيرة الحسناء، وبيلاندرا العجوز التي كانت رفيقة فِراش أمّها. يأتونها بالوجبات، ويَبدّلون أغطية سريرها، ويفرِغون وعاء الفضلات تحت مرحاضها، لكن لا أحد منهم يُخاطِبها. عندما تَطلُب مزيدًا من النّبيذ يذهب تيموث ويجلبه، وإذا رغبَت في أكلةٍ مفضّلة -التّين أو الزّيتون أو الفلفل المحشو بالجُبنة- فما عليها إلّا أن تُخبِر بيلاندرا فتُلبّي طلبها. تأخذ مورا وميلي ملابسها المتّسخة وتعودان بها نظيفةً طيّبة الرّائحة، وكلّ يومين يأتونها بحوض استحمامٍ وتغسل سِدرا الصّغيرة الخجول ظَهرها بالصّابون وتُمَشّط شَعرها.

إلّا أن أحدًا منهم لا ينبس لها ببنت شفة، ولا يتعطّفون عليها حتى بإخبارها بما يجري في العالم خارج قفصها المبني بالحجر الرّملي. في يومٍ سألَت بورس: «هل قبضوا على النّجم المظلم؟ أما زالوا يُطارِدونه؟»، لكن الرّجل أولاها ظَهره وابتعدَ، فصاحَت فيه آريان بحدّة: «هل أصابَك الصّمم؟ ارجع وأجِبني، هذا أمر»، لكن جوابه الوحيد كان صوت بابٍ ينغلِق.

في يومٍ آخَر حاولَت ثانيةً قائلةً: «تيموث، ماذا حدث للأميرة مارسلا؟ لم أقصد قَطّ أن يُصيبها الأذى». آخِر مرّةٍ رأت الأميرة الأخرى كانت في طريق العودة إلى (صنسبيير). كانت مارسلا أضعف من أن تركب حصانًا فوضعوها في هودج، وقد ضُمِّدَ رأسها بالحرير حيث جرحَها النّجم المظلم واتّقدت عيناها الخضراوان بالحمّى. «قُل لي إنها لم تَمُت، أتوسّلُ إليك. ما الضّرر من معرفتي؟ أخبِرني كيف حالها»، غير أن تيموث امتنعَ عن الإجابة.

وبَعد بضعة أيامٍ قالت آريان: «بيلاندرا، إذا أحببتِ أمّي يومًا فأشفِقي على ابنتها المسكينة وأخبِريني متى ينوي أبي أن يأتي ويراني، أرجوكِ، أرجوكِ»، لكن بيلاندرا أيضًا فقدت لسانها.

أهذه فكرة أبي عن التّعذيب؟ ليس الحديد السّاخن أو المِخلعة وإنما -ببساطة- الصّمت؟ لم يُدهِشها أن ينحو دوران مارتل هذا النّحو حتى إنها ضحكَت رغمًا عنها. *يظنُّ نفسه فطِنًا بينما يتصرّف بضَعفٍ لا أكثر.* قرّرت أن تستمتع بالهدوء، أن تستغلّ الوقت في التّعافي وشَدّ أزر نفسها استعدادًا لما سيأتي.

تعلم أن لا جدوى من الإسهاب في التّفكير في السير آريس، وبدلًا من ذلك جعلَت نفسها تُفكّر في أفاعي الرّمال، بالذّات تايين. تحبّ آريان بنات عمّها النّغلات جميعهن، من أوبارا العنيفة صعبة المراس إلى لوريزا أصغرهن التي تبلُغ السّادسة فحسب، ولكنها أحبّت تايين أكثر من الأخريات دومًا، الأخت الجميلة التي لم تحظَ بها قطّ. لم تكن الأميرة قريبة من أخويها، بما إن كوينتن غائب في (يرونوود) منذ سنين وتريستان صغير للغاية. لا، لطالما كانت هي وتايين، ومعهما جارين ودراي وسيلفا الرّقطاء. أحيانًا كانت نيم تنضمُّ إليهم في لعبهم، وتُحاول ساريلا دومًا أن تُقحِم نفسها حيث لا تنتمي، لكن أغلب الوقت كانت صُحبتهم من خمسة. في مسابح ونوافير (الحدائق المائيّة) لعبوا، وتعلّمت هي وتايين القراءة معًا، وركوب الخيل معًا، والرّقص معًا، ولمّا كانتا في العاشرة سرقَت آريان إبريق نبيذ وسكرَت الاثنتان معًا. كانتا تتقاسمان الطّعام والسّرير والحُلِيّ، وكان يُمكن أن تتقاسما رجلهما الأول أيضًا لولا أن هياج دراي جعلَه يقذف على أصابع تايين لحظة أن سحبَت ذكره من سراويله. *يداها خطرتان.* جعلَتها الذّكرى تبتسم.

كلّما فكّرت الأميرة في بنات عمّها افتقدتهن أكثر. *على حدّ علمي ربما يكن تحتي مباشرةً*. ليلتها جرّبت آريان الدّقّ على الأرضيّة بكعب صندلها، وحين لم يُجِبها أحد مالَت من النّافذة ونظرَت إلى أسفل، فرأت نوافذ أخرى أصغر من نافذتها، بعضها ليس أوسع من فتحة رماية. نادت: «تايين! تايين، هل أنتِ هنا؟ أوبارا؟ نيم؟ هل تسمعنني؟ إلاريا؟ هل من أحد؟ تايين؟». قضَت الأميرة نِصف اللّيل مطلّةً من النّافذة تُنادي حتى بحَّ صوتها، لكن لا أحد أجابها، وأخافَها هذا لأقصى حد. لو كانت أفاعي الرّمال مسجوناتٍ في (برج الحربة) لسمعتها بالتّأكيد، فلِمَ لم يُجِبن؟ *إذا آذاهن أبي فلن أسامحه أبدًا أبدًا.*

بَعد مضيّ أسبوعين على هذا المنوال شارفَ صبرها على النّفاد، وقالت لبورس بأقوى نبرةٍ آمرة لديها: «سأتكلّمُ مع أبي الآن. ستأخذني إليه». فلم يأخذها إليه، وقالت لتيموث: «أنا مستعدّة لرؤية الأمير». لكنه التفت عنها كأنه لم يسمع. في الصّباح التّالي كانت آريان منتظرةً إلى جوار الباب عندما انفتح، واندفعت متجاوزةً بيلاندرا ليتحطّم طبق البيض المتبّل الذي تحمله على الجِدار، لكن الحَرس أمسَكوها قبل أن تبتعد ثلاث ياردات. هُم أيضًا تعرفهم، لكنهم صمُّوا آذانهم عن توسّلاتها وجرُّوها إلى زنزانتها راكلةً محاولةً التّملّص.

قرّرت آريان أن عليها أن تكون أكثر مكرًا. أفضل آمالها سِدرا، فالفتاة صغيرة غريرة ساذجة، وتذكُر الأميرة أن جارين تباهى بمضاجعتها مرّةً. هكذا، وقت حمّامها التالي، وبينما تغسل سِدرا ظهرها بالصّابون، بدأت تتكلّم عن كلّ شيءٍ ولا شيء، وقالت: «أعلمُ أنكِ مأمورة بعدم الكلام معي، لكن لا أحد أمرَني بعدم الكلام معكِ». تكلّمت عن حرّ النّهار وما تناولته اللّيلة السّابقة على العشاء وكيف أصبحت بيلاندرا المسكينة بطيئةً متخشّبة الحركة. لقد سلّح الأمير أوبرين كلًّا من بناته كي لا يكن عزلاوات أبدًا، لكن سلاح آريان مارتل الوحيد مكرها، ولذا ابتسمت وتودّدت ولم تُطلب من سِدرا شيئًا في المقابل، لا كلمة ولا إيماءة.

في اليوم التالي على العشاء عادت تُثرثِر فيما قدّمت الفتاة الطّعام، وهذه المرّة دبّرت ذريعةً للكلام عن جارين، ولدى سماع اسمه رفعت سِدرا عينيها بخجلٍ وكادت تَسكُب النّبيذ الذي تصبّه. *هكذا إذن؟*

خلال حمّامها التالي تكلّمت عن أصدقائها المسجونين، خصوصًا جارين، وقالت للخادمة: «هو أكثر من أخشى عليه. الأيتام أحرار بالسّليقة، يعيشون للتّجوال. جارين يحتاج إلى ضوء الشّمس والهواء الطّلق. إذا حبسوه في زنزانةٍ حجريّة رطبة فكيف يعيش؟ لن يحتمل عامًا في (جاستون جراي)». لم تردّ سِدرا، لكن آريان رأت شحوب وجهها عندما نهضَت من الحوض، وكانت الفتاة تعتصر الإسفنجة بقوّةٍ جعلَت الصّابون يسيل على البساط المايري.

وعلى الرغم من هذا مرّت أربعة أيامٍ أخرى وحمّامان إضافيّان قبل أن تصير الفتاة لها. بَعد أن رسمَت آريان صورةً حيّةً لجارين يُلقي نفسه من نافذة زنزانته ليذوق الحرّيّة مرّةً أخيرةً قبل أن يموت—بَعدها همسَت سِدرا أخيرًا: «أرجوكِ، يجب أن تُساعِديه، أرجوكِ لا تترُكيه يموت».

ردّت هامسةً: «لا يُمكنني أن أفعل شيئًا ما دمتُ حبيسةً هنا. أبي يَرفُض أن يراني. أنتِ الوحيدة التي تستطيع إنقاذ جارين. هل تحبِّينه؟».

همست سِدرا بخجل: «نعم. لكن كيف أساعدكِ؟».

قالت الأميرة: «يُمكنكِ أن تُهرِّبي رسالةً مني. هلّا فعلتِ هذا؟ هلّا خاطرتِ... من أجل جارين؟».

اتَّسعت عينا سِدرا وأومأت برأسها إيجابًا.

فكّرت آريان بظفر: *الآن عندي غُداف، لكن إلى مَن أرسله؟* الوحيد من رفاقها في المؤامرة الذي فَرّ من شِباك أبيها هو النّجم المظلم، لكن من الوارد بشدّة أن السير چيرولد قد سقطَ بالفعل، وإن لم يكن فمؤكّد أنه هربَ من (دورن). بَعده خطرَت لها أم جارين وأيتام (الدّم الأخضر). *ليس هُم، لا. يجب أن يكون أحدًا ذا سُلطةٍ حقيقيّة، أحدًا لم يلعب دورًا في مؤامرتنا ولكن ربما يكون لديه سبب للتّعاطُف معنا.* فكّرت في مناشَدة أمّها، لكن الليدي ميلاريو بعيدة في (نورڤوس)، ثم إن الأمير دوران لم يُصغِ إلى السيّدة زوجته منذ سنوات. *ولا هي أصغَت إليه. إنّني محتاجة إلى لورد، إلى واحدٍ عظيم بما يكفي لإرغام أبي على إطلاق سراحي.*

أقوى لوردات (دورن) آندرز يرونوود، صاحِب الدّم الملكي وسيِّد (يرونوود) وحاكم (الطّريق الحجري)، لكن آريان أعقل من أن تَطلُب العون من الرّجل الذي ربّى أخاها كوينتن. *لا.* السير ديزيل دالت أخو دراي تطلّع في الماضي إلى الزّواج بها، لكنه أوفى من أن يُعارِض أميره، كما أن قُدرة فارس (غابة اللّيمون) على تخويف لورد صغير لا تعني أنه يملك قوّة التأثير على أمير (دورن). *لا.* والشّيء نفسه ينطبق على أبي سيلڤا الرّقطاء. *لا.* قرّرت آريان أخيرًا أن لها أملين حقيقيّين اثنين؛ هارمن أولر سيّد (هضبة الجحيم) وفرانكلين فاولر سيّد (قلعة الشّماء) وحاكم (ممر الأمير).

يقول المَثل الدورني: *يَصف آل أولر أنصاف مجانين، والنّصف الآخر أسوأ*. إلاريا ساند ابنة اللورد هارمن الطّبيعيّة، وهي وصغيراتها حبيسات مع بقيّة أفاعي الرّمال. لا بُدّ أن هذا أغضبَ اللورد هارمن، وآل أولر خطرون عند الغضب. *ربما أخطر من اللّازم*. والأميرة لا ترغب في تعريض المزيد من الأنفس إلى الخطر.

قد يكون اللورد فاولر خيارًا أسلم. الرّجل ملقّب بالصّقر العجوز، ولم يتّفق قَطّ مع آندرز يرونوود، فبين العائلتين ضغائن منذ ألف عام، منذ انحازَ آل فاولر إلى آل مارتل بدلًا من آل يرونوود في حرب نايميريا، والتّوأمان فاولر صديقان شهيران لليدي نيم أيضًا، ولكن ما وزن هذا عند الصّقر العجوز؟

تحيّرت آريان أيامًا بينما تُجهّز رسالتها السرّيّة. بدأتها بقولها: «*أعطِ الرّجل الذي يُسلّمك هذه الرّسالة مئة أيلٍ فضّي*»، فبهذا تضمن توصيل الرّسالة. كتبَت مكانها وتوسّلت النّجدة، وأضافَت: «*لن أنسى من يُنقذني من هذه الزّنزانة أيًا كان عندما أتزوّج*». وهذا كفيل بجعل الأبطال يهرعون إليّ. ما لم يكن الأمير دوران قد حرمَها الميراث فإنها تظلّ وريثة (صنسبير) الشّرعيّة، أي أن مَن يتزوّجها سيَحكُم (دورن) إلى جوارها ذات يوم. ليس بإمكان آريان إلّا أن تُصلّي أن يكون منقذها أصغر من المسنّين الذين عرضَهم أبوها عليها على مَرّ السّنين. حين رفضَت آخِرهم قالت له: «أريدُ زوجًا لم تَسقُط أسنانه».

لم تجرؤ على طلب ورقٍ خشية إثارة شكوك سجّانيها، فخطّت آريان رسالتها على هامش صفحةٍ قطعَتها من (النّجمة الشباعيّة)، ووضعَتها في يد سِدرا يوم الحمّام التالي قائلةً لها: «ثمّة مكان مجاور لـ(البوّابة الثّلاثيّة) تأخذ منه القوافل المؤن قبل عبور الرّمال العميقة. اعثري على مسافرٍ متّجه إلى (ممر الأمير) وعديه بمئة أيلٍ فضّي إذا وضعَ هذه الرّسالة في يد اللورد فاولر».

خبّأت سِدرا الرّسالة في صدر فُستانها، وقالت: «سأفعلُ، سأجدُ أحدًا قبل مغيب الشّمس أيتها الأميرة».

- «عظيم. غدًا أخبِريني ماذا فعلتِ».

لكن الفتاة لم ترجع في اليوم التّالي ولا الذي تلاه، ولمّا حانَ موعد استحمام آريان أتَت بدلًا منها مورا وميلي وملأتا حوضها وغسلَتا ظَهرها ومشّطتا شَعرها. سألَتهما الأميرة: «هل سِدرا مريضة؟»، فلم تُجيبا، ولم يَجُل بخاطرها إلّا أنها ضُبِطَت. *هل من تفسيرٍ آخَر؟* ليلتها نامَت بالكاد خشية ما قد يَحدُث.

في الصّباح التّالي عندما جاءها تيموث بإفطارها طلبَت أن ترى ريكاسو بدلًا من أبيها. واضح أنها لا تستطيع إجبار الأمير دوران على رؤيتها، لكن مؤكّد أن مجرّد قهرمان لن يتجاهَل استدعاء وريثة (صنسبيين) الشّرعيّة.

لكنه فعلَ، وحين رأت تيموث المرّة التّالية سألَته: «هل أخبرت ريكاسو بما قُلته؟ هل أخبرته بأنني أحتاجُ إليه؟»، فلمّا لم يُجِبها الرّجل اختطفَت آريان إبريق النّبيذ وسكبَته على رأسه، وتراجعَ الخادم مغموزًا بالأحمر ووجهه قناع من الكرامة الجريحة. *أبي ينوي أن يَترُكني هنا أتعفّن، أو أنه يُخطّط لتزويجي بعجوزٍ أحمق مقزّز وسيترُكني حبيسةً حتى الإضجاع.*

ترعرعَت آريان مارتل متوقّعة أنها ذات يومٍ ستتزوّج واحدًا من كبار اللوردات من اختيار أبيها، وتعلّمت أن لهذا تحيا الأميرات... ولو أن أحدًا لا يُنكِر أن عمّها أوبرين كانت له وجهة نظرٍ مختلفة، إذ قال الأفعوان الأحمر لبناته: «إذا أردتن الزّواج فتزوّجن، وإن لم يكن فنِلن المُتعة حيث تجدنها، فليس منها في هذا العالم إلّا القليل. لكن أوصيكن بحُسن الاختيار. إذا وجدَت إحداكن نفسها مع أحمق أو غاصِب فلا أريدها أن تتطلّع إليّ لأخلّصها منه. لقد أعطيتكن الأدوات التي تُتيح لكن أن تفعلن هذا بأنفسكن».

على أن الحرّيّة التي سمحَ بها الأمير أوبرين لنغلاته لم يكن فيها نصيب لوريثة الأمير دوران الشّرعيّة. يجب أن تتزوّج آريان، وقد قبلَت هذا. كانت تعلم أن دراي يُريدها، وكذا أخوه ديزيل فارس (غابة اللّيمون)، وديمون ساند أقدمَ على طلب يدها بالفعل، إلّا أن ديمون نغل، والأمير دوران لم يُردها أن تتزوّج دورنيًا.

وقبلَت آريان هذا أيضًا. في أحد الأعوام جاء أخو الملك روبرت لزيارتهم وبذلَت كلّ ما في وسعها لإغرائه، لكنها كانت فتاةً صغيرةً وبدا أن محاوَلاتها مع اللورد رنلي أثارَت حيرته أكثر من إلهاب رغبته. لاحقًا، حين طلبَ هوستر تَلي أن تذهب إلى (ريفررَن) وتلتقي وريثه، أشعلَت شمعةً لـ(العذراء) شكرًا، لكن الأمير دوران رفضَ الدّعوة. كانت الأميرة لتضع ويلاس تايرل نفسه في الاعتبار على الرغم من ساقه الكسيحة، لكن أباها أبى أن يُرسلها إلى (هايجاردن) لتلتقيه، فحاولَت الذّهاب رغمًا عنه بمساعدة تايين... إلّا أن الأمير أوبرين قبضَ عليهما في (ڤايث) وأعادَهما، وفي العام نفسه حاولَ الأمير دوران أن يخطبها لبن بيزبوري، وهو لورد بسيط في الثّمانين من العمر على الأقل، أعمى وسقطَت أسنانه.

ثوفّي بيزبوري بَعد بِضعة أعوام، وواساها هذا بعض الشّيء في محنتها الحاليّة، فلا يُمكن إجبارها على الزّواج به ما دامَ قد ماتَ... كما أن سيِّد (المعبر) تزوّج مجدّدًا، ولذا فهي آمنة منه أيضًا. لكن إلدن إسترمونت ما زالَ حيًا أعزب، وكذلك اللورد روزبي واللورد جرانديسون. يُدعى جرانديسون بذي اللّحية الشّائبة، لكن حين التقَته كانت لحيته قد صارَت ناصعة البياض، وفي مأدبة الاستقبال غابَ في النّوم بين طبقي السّمك واللّحم. تحدّاها جارين أن تربط غقدةً في لحيته دون أن توقِظه لكن آريان امتنعَت، إذ بدا جرانديسون رجلًا طيّبًا، أقلّ شكوى من إسترمونت وأفضل صحّةً من روزبي، غير أنها ما كانت لتتزوّجه أبدًا. حتى *لو وقف هوتا ورائي بفأسه.*

لم يأتِ أحد يتزوّجها في اليوم التّالي أو التّالي، ولا عادَت سِدرا. حاولَت آريان الظّفر بمورا وميلي بالطّريقة نفسها ولكن بلا طائل. ربما هناك أمل إذا استطاعَت أن تتكلّم مع إحداهما بمفردها، لكن الأختين معًا جدار مصمت.

والآن تكاد الأميرة تُرَحّب بلمسةٍ من الحديد السّاخن أو ليلةٍ على المِخلعة، فالوحدة على وشك إصابتها بالجنون. *أستحقُّ فأس الجلّاد لما اقترَفت، لكن حتى هذا يأباه عليّ، ويُؤثِر أن يسجنني وينسى أنني كان لي وجود يومًا.* تساءلَت إن كان المِايستر كاليوت يخطّ بيانًا بتسمية أخيها كوينتن وريث (دورن).

واحدًا تلو الآخَر مرّت الأيام، أيام طويلة كثيرة لدرجة أن آريان لم تَعُد تدري منذ متى وهي حبيسة، ووجدَت نفسها تقضي أوقاتًا أطول وأطول في الفِراش، إلى أن بلغَت حَدّ عدم القيام منه على الإطلاق إلّا لقضاء حاجتها. كلُّ وجبةٍ يجلبها الخدم لا تُمَسّ حتى تَبرُد، وتنام آريان وتصحو وتنام ثانيةً وتصحو شاعرةً بإرهاقٍ يحول دونها والنُّهوض. تُصَلّي لـ(الأم) طالبةً الرَّحمة ولـ(المُحارب) طالبةً الشَّجاعة، ثم تعود إلى النَّوم. تحلُّ وجبات طازجة محلّ القديمة ولا تزال لا تأكلها، وفي مرّةٍ أحسَّت فيها بالقوّة على غير العادة حملَت الطَّعام إلى النّافذة ورمَته في السّاحة كي لا يُغريها بأكله، فأرهقَها المجهود وعادَت إلى الفِراش ونامَت نِصف يومٍ كاملًا.

ثم أتى يوم وهزَّتها يد خشنة من كتفها تُوقِظها، وقال صوت تعرفه منذ الطُّفولة: «أميرتي الصَّغيرة، انهضي وارتدي ثيابكِ. الأمير يَطلُبكِ».

كان آريو هوتا صديقها القديم وحاميها واقفًا فوقها، ويُخاطِبها! ابتسمَت آريان ناعسةً. جميل أن ترى هذا الوجه بتجاعيده وندوبه وتسمع الصَّوت العميق الغليظ واللُّكنة النورڤوشيّة الثَّقيلة. سألَته: «ماذا فعلتم بسدرا؟».

أجابَ هوتا: «الأمير أرسلَها إلى (الحدائق المائيّة)، سيُخبِرك بهذا، لكن أولًا عليكِ أن تغتسلي وتأكلي».

لا بُدَّ أنها تبدو في حالةٍ مُزرية. نهضَت آريان من الفِراش بضَعف هُريرةٍ وليدة، وقالت له: «قُل لمورا وميلي أن تُجَهِّزا حمّامًا، واجعل تيموث يجلب لي طعامًا. لا شيء ثقيلًا، القليل من الحَساء البارد والخُبز والفاكهة».

قال هوتا: «حاضر»، وفي حياتها لم تسمع آريان صوتًا أعذب.

انتظرَ القائد في الخارج بينما اغتسلَت آريان وصفَّفت شَعرها وأكلَت قليلًا من الجُبنة والفواكه وشربَت القليل من النَّبيذ لتُهدِّئ معدتها. *إنني خائفة، للمرّة الأولى في حياتي أشعرُ بالخوف من أبي.* أضحكَها الخاطر حتى خرجَ النَّبيذ من أنفها. لمّا حانَ وقت ارتداء ملابسها اختارَت فُستانًا من الكتّان العاجي على كُمّيه وصدره زخرفة على شكل فروع كرمٍ وعناقيد عنب أرجوانيّة، ولم تضع حُليًا. يجب *أن أكون محتشمةً متواضعةً مبديةً النّدم، يجب أن ألقي نفسي على قدميه وإلّا فربما لا أسمعُ صوت إنسانٍ ثانيةً أبدًا.*

كان الغسق قد حَلَّ عندما استعدَّت للخروج. حسبَت آريان أن هوتا سيقودها إلى (بُرج الشَّمس) لتسمع حُكم أبيها، لكنه أخذَها بدلًا من ذلك إلى غُرفة الأمير الشَّمسيّة، حيث وجدا دوران مارتل جالسًا إلى طاولة سايڤاس، وقد أراحَ ساقيه النّقرسيّتين على مسندٍ مزوَّد بوسائد وراح يتلاعب بفيلٍ من الجزْع بيديه المحمرّتين المتورّمتين. بدا الأمير في أسوأ حالٍ رأته عليها، وجهه شاحب منتفخ ومفاصله ملتهبة لدرجة أن مجرّد النّظر إليها آلمَها. رؤيته هكذا جعلَت قلب آريان ينفطِر من أجله... وعلى الرغم من هذا لم تستطِع أن تبعث نفسها على الرّكوع والتّوسُّل كما انتوَت، وبدلًا من ذلك قالت: «أبي».

حين رفعَ رأسه يَنظُر إليها رأت عينيه ملبّدتين بالألم، فتساءلَت آريان في نفسها: *هل النّقرس السّبب أم أنا؟* تمتم واضعًا فيله: «قوم غُرباء ماكرون هؤلاء الڤولانتينيّون. لقد زرتُ (ڤولانتيس) مرّةً في طريقي إلى (نورڤوس)، حيث التقيتُ ميلاريو أول مرّة. كانت الأجراس تدقُّ والدِّببة ترقُص على الدّرجات. آريو يتذكّر هذا اليوم».

ردَّ آريو هوتا بصوته العميق: «أذكره. رقصَت الدِّببة ودقَّت الأجراس، وارتدى الأمير الأحمر والذّهبي والبرتقالي، وسألَتني سيِّدتي عن هُويّة هذا الرّجل المتألّق».

ابتسمَ الأمير دوران بشحوب، وقال: «اتركنا أيها القائد».

دَقَّ هوتا الأرض بكعب فأسه ودارَ على عقبيه وانصرفَ، ولمَّا صارَ الاثنان وحدهما قال أبوها: «أمرتهم بوضع طاولة سايفاس في غُرفتكِ».

- «ومع مَن كان يُفترَض أن ألعب؟». *لماذا يتكلَّم عن لُعبة؟ هل أفقدَه النقرس صوابه؟*

- «مع نفسكِ. أحيانًا الأفضل أن تدرسي اللُّعبة قبل أن تلعبيها. ما مدى معرفتكِ باللُّعبة يا آريان؟».

- «أعرفها بما يكفي لأن ألعبها».

قال: «ولكن ليس بما يكفي لأن تربحي. لقد أحبَّ أخي القتال في حدِّ ذاته، لكني لا أخوضُ إلَّا الألعاب التي أستطيعُ أن أربحها»، وتفرَّس في وجهها مدَّة طالَت قبل أن يُردِف: «لماذا؟ أخبِريني يا آريان، أخبِريني لماذا».

- «من أجل شرف العائلة». أغضبَتها نبرة أبيها الحزينة المتخاذلة الضَّعيفة، وأرادَت أن تزعق فيه: *أنت أميرًا المفترَض أن تثور ثورتك!* «خنوعك يُخزي (دورن) بأسرها يا أبتِ. أخوك ذهبَ إلى (كينجز لاندنج) بدلًا منك وقتلوه!».

- «أتظنِّين أنني لا أعرفُ هذا؟ أوبرين معي كلَّما أغمضتُ عينَي».

قالت جالسةً قُبالة أبيها إلى طاولة السايفاس: «يقول لك أن تفتحهما لا شك».

- «لم أسمح لكِ بالجلوس».

- «استدعِ هوتا إذن واجعله يجلدني لوقاحتي. أنت أمير (دورن)، تستطيع أن تفعل ذلك»، ومسَّت إحدى قِطع السايفاس، الحصان الثَّقيل، وسألَته: «هل قبضتم على السير چيرولد؟».

هزَّ رأسه نفيًا، وقال: «ليتنا فعلنا. كنتِ حمقاء عندما جعلتِه جزءًا من خطَّتكِ. النَّجم المظلم أخطر رجلٍ في (دورن)، وكلاكما آذانا بشدَّة».

سألته آريان متخوِّفةً من الإجابة: «مارسلا، هل...».

- «... ماتت؟ لا، ولو أن النّجم المظلم بذلَ أفضل ما لديه ليَقتلها. الأعيُن كلُّها كانت على فارسكِ الأبيض، ولذا فلا أحد متأكِّد مما حدث بالضَّبط، لكن يبدو أن حصانها جفلَ من حصانه في اللّحظة الأخيرة، وإلّا لكان قد قطعَ قمّة رأس الفتاة. الضَّربة التي أصابتها شقَّت خدَّها حتى العظم وبترَت أذنها اليُمنى. استطاعَ المِايستر كاليوت إنقاذ حياتها، لكن لا كمّادة أو شَربة من شأنها علاج وجهها. كانت ربيبتي يا آريان، مخطوبة لأخيكِ وتحت حمايتي. لقد لطّختِ شَرفنا جميعًا».

قالت آريان بإصرار: «لم تكن نيّتي أن يمسّها أذى. لو لم يتدخَّل هوتا...».

- «... لكنتِ قد توّجتِ مارسلا ملكةً لبدء تمرُّد ضد أخيها، وكانت لتفقد حياتها بدلًا من أذنها».

- «فقط إذا خسرنا».

- «إذا؟ تعنين عندما. (دورن) أقلُّ بلدٍ مأهول بالسُّكّان في (الممالك السَّبع). لقد سَرَّ التنّين الصَّغير أن يَهَوِّل أعدادنا حين ألّف كتابه ليُضفي على غزوته مزيدًا من المجد، وسرَّنا أن نروي البذرة التي زرعَها وندع أعداءنا يتصوّرون أننا أقوى مما نحن في الواقع، لكن الحريّ بالأميرة أن تعرف الحقيقة. الشَّجاعة بديل رديء للأعداد، ولا أمل لـ(دورن) في الانتصار في حرب ضد العرش الحديدي وحدها، ومع ذلك ربما يكون هذا ما أوصَلتِنا إليه بالفعل. أتَشعُرين بالفخر؟»، ولم يُعطِها الأمير فُرصةً للإجابة إذ سألَ: «ماذا أفعلَ بكِ يا آريان؟».

أرادَ جزء منها أن يقول: *سامِحني*، لكن كلامه أصابَها بجرحٍ غائر، فقالت: «ما تفعله دائمًا، لا شيء».

- «إنكِ تُصعِّبين عليّ ابتلاع غضبي».

ردَّت: «الأفضل أن تكفَّ عن الابتلاع إذن وإلّا اختنقت به»، ولمّا لم يردّ الأمير قالت: «أخبِرني كيف علمت بخطّتي».

- «أنا أمير (دورن)، النّاس يسعون إلى حظوتي».

/حدهم وشى. «كنت تعلم ومع ذلك تركتنا نرحل بمارسلا، فلِمَ؟».

- «كانت هذه غلطتي، وثبت أنها غلطة فادحة. أنتِ ابنتي يا آريان، الفتاة الصّغيرة التي اعتادت أن تهرع إليّ إذا جرحت رُكبتها. وجدتُ تصديق تآمرِكِ ضدي صعبًا، وكان يجب أن أعرف الحقيقة».

- «والآن تعرفها. أريدُ أن أعرف مَن أبلغَ عني».

- «كنتُ لأريد المِثل لو أنني في مكانكِ».

- «هل ستُخبِرني؟».

- «لا أستطيعُ التّفكير في سببٍ يدفعني إلى ذلك».

- «أتحسب أنني لا أقدر على اكتشاف الحقيقة وحدي؟».

قال الأمير دوران: «لكِ أن تُحاوِلي، ولكن حتى ذلك الحين عليكِ ألّا تثقي بأحدٍ منهم... والقليل من الرّيبة شيء مفيد للأميرات». وزفرَ مضيقًا: «خيّبتِ أملي يا آريان».

- «هكذا يقول الغُراب للغُداف. إنك تُخيِّب أملي منذ سنوات يا أبي». لم تكن تقصد أن تُخاطِبه بهذه الفظاظة، لكن الكلام انسكبَ منها رغمًا عنها. *ها قد قلتها*.

- «أعرفُ. أنا شديد الخُنوع والضّعف والحرص، متساهل للغاية مع أعدائنا. على أنكِ في حاجةٍ إلى شيءٍ من هذا التّساهُل تحديدًا كما يبدو لي. الأحرى بكِ أن تتوسّلي مغفرتي بدلًا من محاولة استفزازي أكثر».

- «لا أطلبُ التّساهُل إلّا مع أصدقائي».

- «يا لنُبلكِ».

- «ما فعلوه كان بدافع محبّتهم لي، ولا يستحقّون الموت في (جاستون جراي)».

- «يتصادف أنني أوافقكِ. باستثناء النّجم المظلم لم يكن رفاقكِ في المؤامرة أكثر من أطفالٍ حمقى، لكنها لم تكن مجرّد مباراة سايفاس غير مؤذية. أنتِ وأصدقاؤكِ ارتكبتم خيانةً. كان بإمكاني أن أضرب أعناقهم».

- «كان بإمكانك لكنك لم تفعل. داين ودالت وسانتاجار... لا، لست تجرؤ على مُعاداة تلك العائلات».

- «ما أجرؤ عليه لا تتخيّلينه... لكن دعكِ من هذا حاليًّا. السير آندراي أرسِل إلى (نورفوس) ليخدم السيّدة والدتكِ ثلاثة أعوام. جارين سيقضي العامين التّاليين في (تايروش)، وأخذتُ مالًا ورهائن من أهله الأيتام. الليدي سيلفا لم تتلقَّ عقابًا مني، لكنها في سِنّ الزّواج، وأرسلَها أبوها إلى (الحجر الأخضر) لتتزوّج اللورد إسترمونت. وبالنّسبة إلى آريس أوكهارت فقد اختارَ مصيره ولاقاه بشجاعة. فارس في الحرس الملكي... ماذا فعلتِ معه؟!».

- «ضاجعته يا أبي. أنت أمرتني بتسلية ضيوفنا الكرام على ما أذكرُ».

احتقنَ وجهه، وسألَها: «أهذا كلُّ ما تطلّبه الأمر؟».

- «قلتُ له إن مارسلا ستسمح لنا بالزّواج فور تتويجها. لقد أرادني زوجةً له».

قال أبوها: «إنني واثق بأنكِ تفانيتِ في منعه من الحنث في يمينه».

هذه المرّة احتقنَ وجهها هي. لقد استغرقَ إغراؤها السير آريس نِصف عام، وعلى الرغم من ادّعائه أنه عرفَ نساءً أخريات قبل انخراطه في الحرس الملكي فالطّريقة التي تصرّف بها لم تنمّ عن هذا إطلاقًا. لمساته كانت خرقاء، وقُبلاته متوتّرة، وأول مرّةٍ في الفِراش معًا أفرغَ لذّته على فخذها بينما تقوده إلى داخلها بيدها. الأسوأ أن الخزي التهمَه التهامًا، ولو نالَت تنيّنًا ذهبيًا كلّ مرّةٍ همسَ فيها: «لا يَجدُر بنا أن نفعل هذا»، لصارَت أثرى من آل لانستر. *هل انقضَّ على آريو هوتا أملًا في إلقائي أم فعلَها للفِرار مني وغسل عاره بدمائه؟* سمعَت نفسها تقول: «لقد أحبّني وماتَ من أجلي».

- «إذا كان هذا صحيحًا فربما يكون أول كثيرين. أنتِ وبنات عمّكِ أردتن الحرب، وقد تنلن رغبتكن. ثمّة فارس آخَر في الحرس الملكي يدنو من (صنسبيير) بينما نتكلّم. السير بالون سوان قادمٌ إليّ برأس الجبل. حفلة رايتي يُعطّلونه ليكسبوا لي بعض الوقت. آل وايل جعلوه يقضي ثمانية أيامٍ في الصّيد والقنص على (طريق العظام)، واللورد يرونوود احتفى به أسبوعين كاملين حين خرجَ من الجبال. في الوقت الرّاهن هو في (الرّبوة)، حيث رتّبت الليدي چورداين مبارياتٍ على شرفه، ولمّا يصل إلى (تَل الأشباح) سيجد الليدي تولاند عازمةً على التفوّق عليها. لكن عاجلًا أو آجلًا سيَبلُغ السير بالون (صنسبيير)، وحين يفعل سيتوقّع أن يرى الأميرة مارسلا... والسير آريس أخاه المحلّف. ماذا نقول له يا آريان؟ هل أخبِره بأن أوكهارت ماتَ في حادثة صيدٍ أم سقطَ على سلالم زلقة؟ ربما كان السير آريس في (الحدائق المائيّة) وانزلقَ على الرُّخام وصدمَ رأسه وغرقَ؟».

قالت آريان: «لا. قُل إنه مات مدافعًا عن أميرته الصّغيرة، قُل للسير بالون إن النّجم المظلم حاولَ أن يَقتلها فاعترضَ السير آريس طريقه وأنقذَ حياتها». هكذا ينبغي أن يموت فُرسان الحرس الملكي، تضحيةً بحياتهم في سبيل من أقسَموا على حمايتهم. «ربما يشكّ السير بالون كما شككت أنت حين قتلَ آل لانستر أختك وطفليها، لكنه لن يجد دليلًا...».

- «... حتى يتكلّم مع مارسلا، أم أن على الطّفلة الشّجاعة أن تتعرّض لحادثةٍ مأساويّة أيضًا؟ معنى ذلك الحرب. لا كذبة ستُنقذ (دورن) من غضبة الملكة إذا ماتت ابنتها وهي في عنايتي».

قالت آريان لنفسها وقد أدركَت الموقف: *إنه محتاج إليّ. لهذا أرسلَ يستدعيني.*

- «يُمكنني أن أملي على مارسلا ما تقوله، ولكن لِمَ أفعلُ ذلك؟».

تموّج الغضب على وجه أبيها إذ قال: «إنني أحذّرك يا آريان، لقد نفدَ صبري».

- «عليّ؟». *ليست هذه عادته.* «مع اللورد تايوين وآل لانستر تعاملت بحِلم بيلور المبارَك، أمّا مع دمك فلا».

- «إنكِ تخلطين بين الصّبر والحِلم. لقد عملتُ على إسقاط تايوين لانستر منذ يوم أخبَروني بما جرى لإليا وطفليها. كان أملي أن أجرّده من كلّ نفيس لديه قبل أن أقتله، لكن يبدو أن ابنه القزم سلبَني تلك المسرّة، ولو أنني أجدُ قليلًا من العزاء في حقيقة أنه مات ميتةً قاسيةً على يدَي الوحش الذي أنجبَه من صُلبه. على كلّ حال، اللورد تايوين يعوي في الجحيم... وآلاف سيلحقون به قريبًا إذا استحالَت حماقتكِ إلى حرب»، وكشّر أبوها كأن مجرّد نُطق الكلمة يُوجِعه، وسألَها: «أهذا ما تُريدين؟».

قالت الأميرة رافضةً أن يُرهبها: «أريدُ إطلاق سراح بنات عمّي، أريدُ الثأر لأبيهم، أريدُ حقوقي».

- «حقوقكِ؟!».

- «(دورن)».

- «ستحصلين على (دورن) عندما أموتُ. ألأنتِ متشوّقة لهذه الدّرجة للخلاص مني؟».

- «عليّ أن أسألك السؤال ذاته يا أبتِ. أنت مَن يُحاول الخلاص مني منذ أعوام».

- «غير صحيح».

- «حقًّا؟ هلّا سألنا أخي؟».

- «تريستان؟».

- «كوينتن!».

- «ماذا عنه؟».

- «أين هو؟».

- «مع جيش اللورد يرونوود على (طريق العظام)».

- «أنت تُجيد الكذب يا أبي، أعترفُ بهذا. لم يرفّ لك جفن حتى. كوينتن ذهبَ إلى (لِيس)».

- «ما الذي وضعَ هذه الفكرة في رأسكِ؟».

- «صديق أخبرَني». هي أيضًا تستطيع الاحتفاظ بأسرارها.

- «صديقكِ كذبَ. لكِ كلمتي، أخوكِ لم يذهب إلى (لِيس)، أقسمُ بالشّمس والحربة والآلهة السّبعة».

لكن آريان لا تنخدع بهذه البساطة، وهكذا قالت: «هل ذهبَ إلى (مِير) إذن؟ أو (تايروش)؟ أعلمُ أنه في مكانٍ ما وراء (البحر الضيّق)، يستأجر المرتزِقة لسرقة حقّي الشّرعي».

اربدّ وجه أبوها، وقال: «هذا الارتياب لا يُشرِّفكِ يا آريان. المفترَض أن يكون كوينتن هو من يتآمَر ضدي. لقد صرفته من البلاط وهو مجرّد طفلٍ أصغر من أن يفهم احتياجات (دورن). آندرز يرونوود كان أبًا له أكثر مني، ومع ذلك يظلُّ أخوكِ وفيًا مطيعًا».

- «ولِمَ لا؟ إنك تُفضِّله ولطالما فعلت. إنه يُشبِهك ويُفكِّر مِثلك، وتنوي أن تُعطيه (دورن). لا تُحاوِل الإنكار، لقد قرأتُ رسالتك». ما زالَت الكلمات مشتعلةً كالنّار في ذاكرتها. «كتبت له: *ذات يومٍ ستجلس حيث أجلسُ وتُحكِم (دورن) كلَّها*. أخبِرني يا أبي، متى قرّرت أن تحرمني ميراثي؟ يوم وُلِدَ كوينتن أم يوم وُلِدتُ؟ ماذا فعلتُ لأجعلك تكرهني هكذا؟». على الرغم من غضبها كانت في عينَي آريان دموع.

قال الأمير بصوتٍ رقيق للغاية محمّل بالأسى: «لم أكرهكِ قَطّ. آريان، أنتِ لا تفهمين».

- «هل تُنكِر أنك كتبت تلك الرِّسالة؟».

- «لا. كان هذا في بداية ذهاب كوينتن إلى (يرونوود). نعم، كانت نيّتي أن يخلفني، أمّا أنتِ فكانت لديّ خُطط أخرى لكِ».

قالت ساخرةً: «أوه، نعم، ويا لها من خُطط. جايلز روزبي، بن بيزبوري الأعمى، جراندیسون ذو اللِّحية الشّائبة. هذه هي خُططك!»، ولم تُعطِه فُرصةً للرّدّ إذ واصلَت: «أعرفُ أن واجبي أن أنجب وريثًا لـ(دورن) ولم أنسَ هذا البتّة. كنتُ لأتزوّج وبكلّ سرور، لكن الزّيجات التي عرضتها عليّ كانت مهينةً. كلُّ واحدةٍ منها بمثابة بصقة. إذا أحببتني حقًّا فلِمَ تعرضني على والدر فراي؟!».

- «لأنني علمتُ أنكِ سترفضينه. كان يجب أن يراني النّاس أحاولُ أن أجد لكِ زوجًا حالما بلغتِ سِنًّا معيّنةً خشية إثارة الشّكوك، لكنني لم أجرؤ على أن أعرض عليكِ رجلًا تقبلينه. لقد كنتِ موعودةً يا آريان».

موعودة؟ حدّقت إليه آريان مندهشةً، وقالت: «ماذا تعني؟ أهذه كذبة أخرى؟ لم تَذكُر قَطُّ...».

- «الاتّفاق أبرمَ سرًّا. كنتُ أنوي أن أخبرك حين تكبَرين... حين تَبلُغين، ولكن...».

- «أنا في الثالثة والعشرين، امرأة بالغة منذ سبع سنوات».

- «أعرفُ. إذا حجبتُ عنكِ الحقيقة طويلًا فالسّبب كان حمايتكِ فقط. آريان، إن طبيعتكِ... بالنّسبة إليكِ الأسرار مجرّد حكاياتٍ مثيرة تهمسين بها لجارين وتايين في الفراش ليلًا. جارين ثرثار ككلّ الأيتام، وتايين لا تُخفي شيئًا عن أوبارا والليدي نيم، وإذا علمتا... أوبارا مغرمة بالنّبيذ، ونيم قريبة للغاية من التّوأمين فاولر، ولمَن كان التّوأمان ليبوحا بالسّر؟ لم أستطِع أن أجازف».

شعرَت بالحيرة والارتباك. موعودة، كنتُ موعودةً. «مَن هو؟ لمَن كنتُ مخطوبةً طيلة هذه الأعوام؟».

- «لا يهمُّ، لقد ماتَ».

ضاعفَ هذا حيرتها مرارًا، وقالت: «المسنُّون ضُعفاء للغاية. كيف ماتَ؟ بوَركٍ مكسور أم البرد أم النّقرس؟».

أجابَ الأمير دوران: «بقِدرٍ من الذّهب المصهور. نحن الأمراء نرسم خُططنا بعنايةٍ ثم تُحطّمها الآلهة»، ولوّح بيده المحمرّة الملتهبة بتعبٍ مردفًا: «(دورن) ستكون لكِ، إنني أعطيكِ كلمتي إذا كان ما زالَ لها معنى عندكِ. أمّا أخوكِ كوينتن فعليه أن يَسلُك دربًا أصعب».

رمقَته آريان بشكٍّ قائلةً: «وما هذا الطّريق؟ ما الذي تُخفيه؟ ليُنقِذني (السّبعة)، لقد ضقتُ ذرعًا بالأسرار. أخبِرني بالبقيّة يا أبي... أو سَمِّ كوينتن وريثك واستدعِ هوتا وفأسه ودعني أموتُ إلى جوار بنات عمّي».

زَمَّ أبوها عابسًا: «هل تعتقدين حقًّا أنني أستطيعُ إيذاء بنات أخي؟ أوبارا ونيم وتايين لا يعوزهن شيء إلَّا الحزيَّة، وإلاريا وبناتها مقيمات بسعادةٍ في (الحدائق المائيَّة). دوريا تمشي هنا وهناك مسقطةً البرتقال من الأشجار بكُرتها الشَّائكة، وإليا وأوبلا أصبحتا رُعب المسابح». وتنهَّد ثم واصلَ: «لم يمضِ زمن طويل منذ كنتِ تلعبين في تلك المسابح. اعتدتِ أن تركبي على كتفَي فتاةٍ أكبر سِنًّا... فتاة طويلة لها شَعر أصفر خفيف...».

- «چاين فاولر أو أختها چينيلين». مرَّت أعوام منذ فكَّرت آريان في هذا. «أوه، وفرايني. كان أبوها حدَّادًا وشعرها بنيًّا. لكن چارين كان رفيقي المفضَّل. لا أحد استطاعَ هزيمتنا وأنا راكبة على كتفيه، حتى نيم وتلك الفتاة التايروشيَّة ذات الشَّعر الأخضر».

- «تلك الفتاة التايروشيَّة ذات الشَّعر الأخضر كانت ابنة الأركون. كان يُفترَض أن أرسلكِ إلى (تايروش) بدلًا منها لتخدمي الأركون كساقيةٍ وتلتقي خطيبكِ سرًّا، لكن أمَّكِ هدَّدتني بإيذاء نفسها إذا سرقتُ أحدًا آخَر من أطفالها، ولم... لم أقوَ على أن أفعل ذلك بها».

حكايته تزداد غرابةً. «هل ذهبَ كوينتن إلى (تايروش) إذن؟ ليتودَّد إلى ابنة الأركون خضراء الشَّعر؟».

التقطَ أبوها إحدى قِطع السايڤاس قائلًا: «يجب أن أعرف كيف عرفتِ بوجود كوينتن خارج البلاد. أخوكِ ذهبَ مع كليتوس يرونوود والمِايستر كِدري وثلاثة من أفضل فُرسان اللورد يرونوود الشُّبَّان في رحلةٍ طويلة محفوفة بالمخاطر ربما لا يجد في نهايتها ترحيبًا. لقد ذهبَ ليجلب لنا بُغية قلوبنا».

ضيَّقت عينيها متسائلةً: «وما بُغية قلوبنا؟».

بصوتٍ خافت كأنه يخشى أن أحدًا يتنصَّت عليهما أجابَ: «الثَّأر، العدالة»، ودسَّ الأمير دوران التنين المنحوت من الجزْع في كفِّها بيده الملتهبة، وأضافَ: «النَّار والدَّم».

دوّرت الحلقة الحديديّة ودفعت الباب صانعةً فرجةً صغيرةً لا أكثر، وقالت: «غصفوري الجميل، هل تسمح لي بالدّخول؟».

أجابتها جرتشل العجوز وهي تُفرّك يديها: «احذري يا سيّدتي، حضرة اللورد ألقى المايستر بوعاء الفضلات».

- «ليس هناك ما يُلقيني به إذن. أليس عندكِ عمل؟ وأنتِ يا مادي، هل أغلقتِ النّوافذ وأسدلتِ السّتائر؟ هل غطّيتِ الأثاث كلّه؟».

ردّت مادي: «نعم يا سيّدتي».

قالت إليني: «الأفضل أن تتأكّدي»، ودخلَت غرفة النّوم المظلمة مردفةً: «هذه أنا يا غصفوري الجميل».

تنشّق أحدهم في الظّلام، وسألها: «أأنتِ وحدكِ؟».

- «نعم يا سيّدي».

- «اقتربي إذن، أنتِ فقط».

أغلقت إليني الباب بإحكام. فلتتنصّت مادي وجرتشل كما تُريدان، لكن الباب من خشب السّنديان المصمت وسُمكه أربع بوصات، ولن تسمعا شيئًا. لا بأس، فلئن كانت جرتشل تصون لسانها فمادي تُنشُر النّميمة بلا حياء.

سألها الصّبي: «هل أرسلَكِ المايستر كولمون؟».

أجابَت كاذبةً: «لا، سمعتُ أن سيّدي متوعّك». بَعد حادثة وعاء الفضلات هرعَ المايستر إلى السير لوثور برون، ثم جاءها الفارس قائلًا: «إذا أقنعته سيّدتي بالقيام من الفراش فلن أضطرّ إلى جرّه منه عنوةً».

قالت لنفسها: *لا يُمكننا أن نسمح بهذا.* حين يُعامَل روبرت بخشونةٍ ففالبًا ما تُصيبه نوبة الرّجفة. سألَت اللورد الصّغير: «أأنت جائع يا سيّدي؟ هل أرسِل مادي تُحضِر توتًا وقشدةً أو القليل من الخُبز الدّافئ والزُّبدة؟». متأخّرًا جدًا تذكّرت أن لا خبز دافئًا عندهم، فالمطابخ أُغلِقت بالفعل والأفران باردة. *إذا أدّى إشعال فُرن إلى نهوض روبرت من الفِراش فالأمر يستحقُّ.*

قال اللورد الصّغير بنبرةٍ مشاكِسة حادّة: «لا أريدُ طعامًا. سأبقى في الفِراش اليوم. يُمكنكِ أن تقرأي لي إذا أردتِ».

بسبب السّتائر الثّقيلة المسدَلة على النّوافذ كانت الغُرفة مظلمةً كأنه اللّيل، فقالت إليني: «الظّلام شديد هنا، لا يَصلُح للقراءة. هل نسيَ غصفوري الجميل ما سنفعله اليوم؟».

- «لا، لكنني لن أذهب. أريدُ أن أبقى في الفِراش. اقرأي لي عن الفارس المجنّح».

الفارس المجنّح هو السير آرتيس آرن، وتقول الأسطورة إنه طردَ البَشر الأوائل من (الوادي) وطارَ إلى قمّة (رُمح العملاق) على متن صقرٍ ضخم ليقتُل ملك الجرافِن. هناك مئة قصّةٍ عن مغامراته، وروبرت الصّغير يحفظها كلّها عن ظَهر قلبٍ ويستطيع حكايتها بحذافيرها من الذّاكرة، لكنه يحبُّ أن تُقرَأ له رغم ذلك.

قالت إليني للصّبي: «يجب أن نذهب يا عزيزي، لكني أعدك بأن أقرأ لك حكايتين عن الفارس المجنّح عندما نصل إلى (بوّابات القمر)».

زدْ من فوره: «ثلاث حكايات». مهما عرضت عليه يرغب روبرت دومًا في المزيد.

- «ثلاث حكايات. هل لي أن أدع الشّمس تدخُل؟».

- «لا، الضّوء يُؤلِم عينَي. تعالي إلى الفِراش يا إليني».

لكنها ذهبت إلى النّافذة رغم ذلك، دائرةً حول وعاء الفضلات المحطّم الذي تشمّه أفضل مما تراه، وقالت: «لن أفتحها عن آخِرها، فقط بما يكفي لرؤية وجه غُصفوري الجميل».

قال متنشّقًا: «ليكن».

السّتائر من القطيفة الزّرقاء، وقد أزاحت إحداها مسافةً لا تربو على طول إصبعٍ وربطتها، لتسبح ذرّات التّراب في عمودٍ من ضوء الشّمس، وتلوح ألواح زجاج النّافذة الصّغيرة ذات الشّكل الماسي المكتسية بالصّقيع. مسحت إليني إحداها بكعب يدها بما يكفي لرؤية زرقة السّماء الصّافية ونصوع الأبيض على جانب الجبل. (الغش) متدثّرة بمعطفٍ من الجليد، وقمّة (زمح العملاق) بالأعلى مدفونة بالثّلوج الكثيفة.

حين التفتت كان روبرت آرن جالسًا مسندًا ظَهره إلى الوسائد ويَنظُر إليها. سيّد *(الغش)* وحامي *(الوادي)*. تحت الخصر يُغطّيه دثار من الصّوف، وفوقه لا يرتدي شيئًا، صبيٌّ شاحب شَعره طويل كالفتيات. لروبرت ذراعان وساقان طويلة نحيلة وصدر ليّن مقعّر وبطن صغير وعينان محمرّتان دامعتان دومًا. *لا حيلة له في هذا. لقد وُلد صغيرًا سقيمًا*. «تبدو قويًّا للغاية هذا الصّباح يا سيّدي». يحبّ الصّبي أن يُقال له كم هو قوي. «هل أجعلُ مادي وجرتشل تُحضِران ماءً ساخنًا للاستحمام؟ ستدعك مادي ظَهرك وتغسل شَعرك لتذهب في رحلتك بمظهرٍ نظيف يليق بك كلورد. أن يكون هذا لطيفًا؟».

- «لا. أنا أكره مادي. إن لها ثؤلولةً على عينها وتدعكني بشدّةٍ تؤلمني. مامي لم تؤلِمني بينما تُحمّمني قطّ».

- «سأقولُ لمادي ألّا تدعك عصفوري الجميل بشدّة. عندما تستحمُّ وتنتعش ستتحسّن».

- «قلتُ لا حمّام. رأسي يُؤلِمني للغاية».

- «هل أحضرُ لك قُماشةً دافئةً تضعها على جبهتك؟ أو كوبًا من نبيذ النّوم؟ القليل فقط. ميا ستون تنتظرنا في (سماء) وستستاء إذا نِمت وتركتها منتظرةً. أنت تعلم كم تحبّك».

ردّ روبرت: «أنا لا أحبّها. إنها فتاة البغال لا أكثر»، وتنشّق متابعًا: «المِايستر كولمون وضعَ شيئًا كريهًا في حليبي ليلة أمس، لقد تذوّقته. قلتُ له إنني أريدُ الحليب الحُلو لكنه رفضَ، حتى عندما أمرته! أنا اللورد، وعليه أن يفعل ما أقوله له. لا أحد يفعل كما أقولُ».

- «سأتكلّمُ معه، لكن فقط إذا نهضت من الفِراش. الطّقس جميل في الخارج يا غصفوري الجميل والشّمس ساطعة، يوم مثالي لنزول الجبل. البغال منتظرة في (سماء) مع ميا...».

ارتعش فمه وبدا كأنه سيجهش بالبكاء إذ قال: «أكرهُ تلك البغال ورائحتها الكريهة. في مرّةٍ حاولَ واحد أن يعضّني! قولي لميا تلك إنني سأبقى هنا. لا أحد يستطيع أن يؤذيني ما دمتُ هنا. (الغش) منيعة!».

- «ومَن قد يرغب في إيذاء غصفوري الجميل؟ لورداتك وفُرسانك يهيمون بك والعامّة يهتفون باسمك». *إنه خائف، وله حق*. منذ سقطَت السيّدة والدته والصّبي معرضٌ عن مجرّد الوقوف في الشُرفة، وخطورة الطّريق من (الغش) إلى (بوّابات القمر) كفيلة بإرهاب أيّ أحد. كان قلب إليني بين قدميها حين صعدَت مع الليدي لايسا واللورد پيتر، والجميع متفقون على أن النّزول أكثر إرعابًا لأنك تنظُر إلى أسفل طيلة الوقت، وميا تحكي عن لوردات عظام وفُرسانٍ شُجعان امتقعَت وجوههم وبلّلوا أنفسهم على الجبل. *ولا أحد منهم كان مبتلّى بداء الرّجفة*.

على أن التَّلكُّؤ لن ينفع. على أرض الوادي ما زالَ الخريف لابثًا، لكن الشّتاء أطبق على قمم الجبل، وقد نجوا بالفعل من ثلاث عواصف ثلجيّة وعاصفةٍ أخرى جليديّة أحالَت القلعة إلى بلّور منذ أسبوعين. ربما تكون (الغش) منيعةً، لكنها ستُصبِح مسدودةً أيضًا عمّا قريب، والطّريق إلى أسفل يزداد خطورةً كلَّ يوم. أكثر خدم القلعة وجنودها غادَروا بالفعل، ولم يتبقَّ هنا بالأعلى إلّا دستة منهم للعناية باللورد روبرت.

قالت برفق: «عصفوري الجميل، النُّزول سيكون سارًّا للغاية، سترى. السير لوثور سيكون معنا، وميا أيضًا. بغالها صعدَت ونزلَت هذا الجبل ألف مرّة».

رَدَّ بإصرار: «أكرهُ البغال، إنها بغيضة. قلتُ لك إن واحدًا حاولَ أن يعضّني وأنا صغير».

تعلم إليني أن روبرت لم يتعلّم الرُّكوب كما ينبغي. البغال أو الخيول أو الحمير، لا فرق، كلُّها عنده وحوش مخيفة لا تختلف عن التّنانين أو الجرافِن. لقد جيءَ به إلى (الوادي) لمّا كان في السّادسة، وقد ركِبَ موسّدًا رأسه بين ثديَي أمّه المليئين باللّبن، ومنذ ذلك الحين لم يبرح (الغش) مرّةً.

لكن عليهم أن يذهبوا قبل أن يُغلِق الجليد القلعة تمامًا، فلا أحد يدري إلى متى سيستمرُّ الطّقس الصّحو. قالت إليني: «ميا ستمنع البغال من العَضّ، وسأكونُ راكبةً وراءك مباشرةً. إنني مجرّد فتاة، لستُ شجاعةً أو قويّةً مِثلك. إذا كان باستطاعتي أن أفعلها فمؤكّد أنك تستطيع أيضًا يا عصفوري الجميل».

قال اللورد روبرت: «أستطيعُ أن أفعلها، لكنني أختارُ ألّا أفعل»، ومسحَ أنفه السّائل بظَهر يده مواصلًا: «قولي لميا إنني سأبقى في الفِراش. ربما أنزلُ غدًا إذا شعرتُ بتحسّن. اليوم بارد للغاية في الخارج ورأسي يُؤلِمني. يُمكنكِ أن تشربي الحليب الحلو أيضًا، وسأقولُ لجرتشل أن تُحضِر لنا قُرص عسل. سننام ونتبادل القُبلات ونلعب، وستقرأين لي عن الفارس المجنّح»

- «سأفعلُ، ثلاث حكاياتٍ كما وعدتُ... حين نَبلُغ (بوّابات القمر)». يكاد صبر إليني ينفد، وقالت لنفسها مذكّرةً: *يجب أن نذهب وإلّا سنكون فوق مستوى الثّلوج عند الغروب*. «اللورد نستور يُجهّز مأدبةً للتّرحيب بك، حساء فِطر ولحم غزلان وكعكات. لست تُريد تخييب أمله، أليس كذلك؟».

- «هل ستكون كعكات ليمون؟». يحبّ اللورد روبرت كعكات اللّيمون، ربما لأن إليني تحبّها.

- «كعكات ليمون ليمونيّة كلُّها ليمون، ويمكنك أن تأكل منها كما شِئت».

- «مئة؟ هل يُمكنني أن آكل مئةً؟».

قالت: «إذا أردت»، وجلسَت على طرف الفِراش وملَّست على شَعره النّاعم الطّويل مفكّرةً: *شَعره جميل حقًّا*. اعتادت الليدي لايسا تمشيطه بنفسها كلّ ليلةٍ وقصّه عندما يطول، لكن بَعد سقوطها أُصيبَ روبرت بنوبات رجفةٍ عنيفة متى دنا منه أحدهم بمقص، فأمرَهم بيتر بأن يَتركوا شَعره ينمو. لفّت إليني خُصلةً حول إصبعها متسائلةً: «والآن هل ستقوم من الفِراش وتَترُكنا نُلبِسك؟».

- «أريدُ مئة كعكة ليمون وخمس حكايات!».

أريدُ أن أصفعك على مؤخّرتك مئة مرّة وألطمك على وجهك خمس مرّات. لم تكن لتجرؤ على التّصرّف بهذه الطّريقة لو كان بيتر هنا. الحقيقة أن اللورد الصّغير يخشى زوج أمّه لدرجةٍ لا بأس بها. أرغمَت إليني نفسها على الابتسام قائلةً: «كما يرغب سيّدي، لكن لا شيء من هذا قبل أن تغتسل وترتدي ثيابك وتبدأ النّزول. هيا قبل أن يمرّ الصّباح»، وأمسكَته بحزمٍ من يده وسحبَته من الفِراش.

لكن قبل أن تستدعي الخادمتين طوّقها العصفور الجميل بذراعيه الناحلتين وقبّلها. كانت قُبلة صبيٍّ صغير خرقاء، وكلُّ ما يفعله روبرت آرن أخرق. *إذا أغلقتُ عينَي فيمكنني التظاهر بأنه فارس الزهور.* ذات مرّةٍ أعطى السير لوراس سانزا ستارك وردةً حمراء، لكنه لم يُقبّلها... ولا أحد من آل تايرل سيُقبّل إليني ستون أبدًا. على الرغم من جمالها فإنها في النهاية ابنة حرام.

إذ مسّت شفتا الصّبي شفتيها وجدت نفسها تُفكّر في قُبلةٍ أخرى، ولا تزال تتذكّر كيف شعرت حين انضغطَ فمه القاسي على فمها، وقد أتى سانزا في الظّلام بينما تملأ النّيران الخضراء السّماء. *أخذَ أغنيةً وقُبلةً*[67] *ولم يَترُك لي إلّا معطفًا داميًا.*

لا يهمّ. ذلك الزّمن انتهى، وكذا سانزا.

أبعدَت إليني اللورد الصّغير قائلةً: «كفى. يُمكنك أن تُقبّلني ثانيةً عندما نصل إلى (بوّابات القمر)، بشرط أن تفي بكلمتك».

كانت مادي وجرتشل منتظرتين في الخارج، ومعهما المايستر كولمون الذي غسلَ شعره من الفضلات وبدّل رداءه، وظهرَ أيضًا تيرانس وجايلز مُرافقا روبرت اللذان بإمكانهما دومًا أن يشمّا رائحة المتاعب.

قالت إليني للخادمتين: «اللورد روبرت أقوى الآن. أحضِرا ماءً ساخنًا لحمّامه لكن احرِصا على ألّا يسفعه، ولا تشدّا شَعره في أثناء تمشيط عُقده لأنه يكره هذا». أطلقَ أحد المُرافقين ضحكةً شِبه مكتومة، إلى أن قالت: «تيرانس، جهّز ثياب ركوب حضرة اللورد وأثقل معاطفه. جايلز، يُمكنك تنظيف وعاء الفضلات المكسور».

ردّ جايلز جرافتون بامتعاض: «لستُ عاملة نظافة».

قال المِايستر كولمون: «افعل كما تأمر الليدي إليني وإلّا أخبرتُ لوثور برون»، ثم قطع الرُواق مع إليني ونزلَ معها السّلالم الملتفّة، حيث قال لها: «أنا ممتنٌ لتدخُّلكِ يا سيّدتي. إنكِ قادرة على التّعامُل معه»، وتردّد لحظةً قبل أن يسألها: «هل لاحظتِ رجفةً وأنتِ معه؟».

- «كانت أصابعه ترتجف بعض الشّيء حين أمسكتُ يده، هذا كلُّ شيء. يقول إنك وضعت شيئًا كريهًا في حليبه».

ردّد كولمون: «شيئًا كريهًا؟»، وحدّق إليها وتحرّكت تفّاحة حلقه إلى أعلى وأسفل، ثم أردفَ: «وضعت فقط... هل ينزف من أنفه؟».

- «لا».

غمغمَ: «جيّد، هذا جيّد»، وصلصلَت حلقات سلسلته بخفوتٍ إذ أومأ برأسه الثّابت من رقبته الطّويلة الرّفيعة لدرجةٍ سخيفة، وقال: «النّزول... سيّدتي، قد يكون الأضمن أن أخلط لحضرة اللورد القليل من حليب الخشخاش. هكذا تستطيع ميا ستون أن تربطه على ظهر أكثر بغالها ثباتًا بينما يغيب في السُّبات».

- «لا يُمكن أن ينزل سيّد (العُش) جبله مربوطًا كجوالٍ من الشّعير». إليني متيقّنة من هذا، إذ حذّرها أبوها من أن يدعوا مبلغ هشاشة روبرت وجُبنه يغدو معرفةً مشاعًا. *ليته هنا، كان ليعلم ماذا نفعل.*

غير أن بيتر بايلش بعيد على الجانب الآخر من (الوادي)، يحضر زفاف اللورد لايونل كوربراي، وهو أرمل تجاوزَ الأربعين من العمر وبلا أطفال، وسيتزوّج ابنةً قويّة البنية في السّادسة عشرة لأحد تُجّار (بلدة النّوارس) الأغنياء. رتّب بيتر الزّيجة بنفسه، ويُقال إن مهر العروس باهظ، ولا بُدّ أنه كذلك بالفعل بما أنها من أولاد العامّة. سيحضر أتباع كوربراي الزّفاف، بالإضافة إلى اللوردات واكسلي وجرافتون وليندرلي، وبعض اللوردات الصّغار والفُرسان مُلّاك الأراضي... واللورد بلمور الذي تصالحَ مع أبيها في الفترة الأخيرة، في حين من المتوقّع أن يتجنّب لوردات البيان الآخرون الزّفاف، ولذا فحضور بيتر ضروري.

تعي إليني كلّ هذا جيّدًا، لكن معناه وقوع عبء إنزال العصفور الجميل بأمانٍ إلى سفح الجبل على عاتقها هي.

قالت للمِايستر: «اسقِ حضرة اللورد كوبًا من الحليب الحُلو، سيمنعه من الارتجاف خلال رحلة النّزول».

ردّ كولمون معترضًا: «لقد شربَ واحدًا قبل أقل من ثلاثة أيام».

- «وأرادَ آخَر ليلة البارحة، لكنك رفضت».

- «لأن وقتًا كافيًا لم يمضِ. لستِ تفهمين يا سيّدتي. كما أخبرتُ اللورد الحافِظ، رشّة واحدة من خلو الكرى مع الحليب تمنع الرّجفة، لكن الجسد لا يتخلّص منه، ومع الوقت...».

- «الوقت لن يهمّ إذا أصابَت حضرة اللورد نوبة وسقطَ من فوق الجبل. لو أن أبي هنا فأنا واثقة بأنه كان ليقول لك أن تُحافِظ على هدوء اللورد روبرت بأيّ ثمن».

- «إنني أحاولُ يا سيّدتي، لكن النّوبات تزداد عنفًا، ودمه خفيف للغاية حتى إنني لم أغد أجرؤ على أن أعلّق له العلق. خلو الكرى... أأنتِ واثقة بأنه لم ينزف من أنفه؟».

- «كان يتنشّق، لكنني لم أرَ دمًا».

- «يجب أن أتكلّم مع اللورد الحافِظ. هذه المأدبة... تُرى أمِن الحكمة أن يحضرها بَعد مجهود النُّزول؟».

طمأنَته قائلةً: «لن تكون مأدبةً كبيرةً. أربعون ضيفًا على الأكثر. اللورد نستور وأهل بيته وفارس البوّابة وبضع لوردات أدنى شأنًا وحاشيتهم...».

- «تعلمين أن اللورد روبرت لا يحبُّ الغُرباء، وسيكون هناك شرب وضوضاء... وموسيقى. الموسيقى تُخيفه».

قالت مصحّحةً: «الموسيقى تُهدِّئه، خصوصًا القيثارة الشامية. ما لا يُطيقه هو الغناء منذ قتلَ ماريليون أمّه». نطقت إليني هذه الكذبة مرارًا لدرجة أنها تتذكّر الموقف هكذا أغلب الوقت بالفعل، أمّا ما حدث حقًّا فلم يَعُد أكثر من حُلمٍ سيئٍ يُقلِق منامها أحيانًا. «اللورد نستور لن يسمح بالغناء خلال المأدبة. ستكون هناك نايات وكمنجات فحسب للرّقص». ماذا تفعل عندما يبدأ عزف الموسيقى؟ سؤال مزعج لقلبها عدّة إجابات عنه. سانزا تحبُّ الرّقص، لكن إليني... «اسقه كوبًا من الحليب الحُلو قبل أن نذهب وآخَر في أثناء المأدبة ولن تقع متاعب».

قال: «ليكن»، وعندما توقّفا عند قاعدة السّلالم أضافَ: «لكن يجب أن يكون الأخير لمدّة نِصف عامٍ على الأقل».

ردّت: «يَحسُن أن تقترح هذا على اللورد الحافِظ»، وفتحت الباب وخرجت تقطع السّاحة. تعلم إليني أن كولمون لا يُريد إلّا الأفضل لعُهدته، لكن الأفضل لروبرت الضّبي والأفضل للورد آرن ليسا الشّيء ذاته دومًا. هذا ما قاله بيتر وهذه هي الحقيقة. *لكن المِايستر كولمون مهتمٌّ بالضّبي فقط، أمّا أنا وأبي فعلى كاهلنا هموم أكبر.*

يكسو الثّلج القديم السّاحة، وتتدلّى كُتل الجليد كجرابٍ من البلّور من الشُرفات والأبراج. (الغش) مبنيّة بأحجارٍ بيضاء ناعمة، وقد جعلّها غطاء الشّتاء أكثر بياضًا. *جميلة للغاية، منيعة للغاية*. ليس بمقدورها أن تحبّ هذا المكان مهما حاولَت. حتى قبل رحيل الحرس والخدم كانت القلعة تبدو خاليةً كمقبرة، وبدَت كذلك أكثر بَعد رحيل پيتر بايلش. لا أحد يُغنّي هنا منذ ماريليون، ولا أحد يضحك بصوتٍ عالٍ، وحتى الآلهة نفسها صامتة. في (الغش) سپت لكن لا سپتون، وأيكة آلهة لكن لا شجرة قلوب. كثيرًا تُفكّر: *لا أدعية تُجاب هنا*، وإن كانت أحيانًا تُشعِر بوحدةٍ تحدو بها إلى المحاولة. لا يُجيبها هنا إلّا الرّيح، تهفُّ بلا نهايةٍ حول الأبراج البيضاء الرّفيعة السّبعة وترجُّ (باب القمر) متى هبّت. وسيكون *الوضع أسوأ في الشّتاء. في الشّتاء سيكون هذا سجنًا أبيض باردًا*.

ومع ذلك تكاد فكرة الرّحيل تُخيفها مِثلما تُخيف روبرت، والفرق أنها تُجيد إخفاء خوفها. قال أبوها إن لا شيء يُخجِل في الشّعور بالخوف، إن الخجل يأتي فقط من إبدائه، وأضافَ: «كلُّ البشر يتعايشون مع الخوف». ليست إليني واثقةً بأنها تعتقد ذلك، فلا شيء يُخيف پيتر بايلش. *لم يقل هذا إلّا ليُشجّعني*. عليها أن تكون شُجاعةً في الأسفل، حيث فُرصة افتضاح أمرها أكبر كثيرًا جدًّا. كان أصدقاء پيتر في البلاط قد أبلَغوه بإرسال الملكة رجالًا يبحثون عن العِفريت وسانزا ستارك، وقد ذكّرت نفسها وهي تنزل سُلّمًا حجريًّا متجلّدًا: *سأفقد رأسي إذا اكتشفوا هُويّتي. يجب أن أكون إليني طيلة الوقت، قلبًا وقالبًا*.

وجدَت لوثور برون في غُرفة الرّافعات يُساعِد مورد السّجّان واثنين من الخدم على رَصّ صناديق الملابس ولفائف الأقمشة في ستّة دلاءٍ ضخمة من خشب السّنديان، كلٌّ منها يتّسع لثلاثة رجال. الرّافعات ذات السّلاسل أسهل وسيلةٍ لبلوغ القلعة الفرعيّة (سماء) الواقعة أسفلهم بستّمئة قدم، وإلّا فعليك أن تنزل المدخنة الحجريّة الطّبيعيّة من القبو التّحتي. *أو تُغادِر كما غادرَ ماريليون والليدي لايسا من قبله*.

سألَها السير لوثور: «هل قام الصّبي؟».

- «إنه يستحمُّ. سيكون مستعدًّا خلال ساعة».

- «لنأمل هذا. ميا لن تنتظر بَعد انتصاف النّهار». ليست في غُرفة الرّافعات تدفئة، فخرجَت كلُّ كلمةٍ منه مصحوبةً بالبُخار.

- «ستنتظر، يجب أن تنتظر».

- «لا تكوني متأكّدةً هكذا يا سيّدتي. الفتاة نفسها نِصف بغلة. أظنُّ أنها تُفَضّل تركنا جميعًا نموت جوعًا قبل أن تُعرِّض حيواناتها للخطر». ابتسمَ حين قال هذا، ففكَّرت: *دائمًا يبتسم عندما يتكلَّم عن ميا ستون*. ميا أصغر كثيرًا من السير لوثور، لكن حين كان أبو إليني يتوسّط في زواج اللورد كوربراي وابنة التّاجر أخبرَها بأن الفتيات الشّابّات يكن أسعد دائمًا مع الرّجال الأكبر، وقال: «البراءة والخبرة تصنعان زيجةً مثاليّةً».

تساءلَت إليني عن رأي ميا في السير لوثور. بأنفه العريض وفكِّه المربَّع وشَعره الصُّوفي الأشيب لا يُمكن وصف برون بالوسامة، لكنه ليس قبيحًا كذلك. *وجه تقليدي لكنه صادق.* على الرغم من تقليده الفُروسيَّة فالسير لوثور وضيع المولد للغاية. في ليلةٍ أخبرَها بأنه قريب لآل برون أولاد (الغور البنّي)، وهم عائلة قديمة من الفُرسان من (الرَّأس المتصدِّع)، وباحَ لها قائلًا: «ذهبتُ إليهم عندما ماتَ أبي، لكنهم ازدروني وقالوا إنني لستُ من دمهم». لم يقل ما جرى بَعدها، وذكرَ فقط أنه تعلَّم كلَّ ما يعرفه عن السِّلاح بالطَّريقة الصَّعبة. إنه رجل هادئ حين يكون مفيقًا، لكنه لا يفتقر إلى القوَّة. *وبيتر يقول إنه مخلص ويثق به كثيرًا.* تحسب إليني أن برون زوج لا بأس به لفتاةٍ نغلة كميا ستون. *ربما كان الأمر ليختلف لو أن أباها اعترفَ بها، لكنه لم يفعل، ومادي تقول إنها ليست عذراء أيضًا.*

التقطَ مورد سوطه وهوى بضربة، وتحرَّك أول زوجين من الثِّيران بتثاقُلٍ في دائرةٍ لتدور الرَّافعة، وانحلَّت السِّلسلة مصلصلةً إذ احتكَّت بالحجر، وتأرجحَ الدَّلو السِّنديان إذ بدأ نزوله الطَّويل إلى (سماء). *ثيران مسكينة.* قبل أن يُغادِر مورد سيذبحها ويتركها للصُّقور، وما يتبقَّى منها عند إعادة فتح (العُش) سيُشوى من أجل مأدبة الرَّبيع، هذا إذا لم يفسد. تدَّعي جرتشل العجوز أن مخزونًا وافرًا من اللَّحم المتجمِّد يعِد بربيعٍ من الرَّخاء.

قال السير لوثور: «سيِّدتي، الأفضل أن تعلمي أن ميا لم تصعد وحدها. الليدي ميراندا معها».

- «أوه». *لِمَ تصعد الجبل لمجرّد أن تنزله ثانيةً؟* ميراندا رويس ابنة اللورد نستور، وكانت غائبةً في المرّة الوحيدة التي زارَت فيها سانزا (بوّابات القمر) في الطّريق إلى أعلى مع الليدي لايسا واللورد پيتر، لكنها سمعَت الكثير عنها من جنود وخادمات (العُش). ماتَت أمُّها منذ زمنٍ طويل، ولذا تتولّى الليدي ميراندا أعمال قلعة أبيها، ويُشاع أن وجودها يجعل المكان أكثر نشاطًا بكثيرٍ من غيابها، وقد نبّه پيتر إليني قائلًا: «عاجلًا أو آجلًا ستلتقين ميراندا رويس، وعندما تفعلين فعليكِ بالحذر. إنها تحبُّ لعب دور البلهاء المرحة، لكنها في أعماقها أمكر من أبيها. صوني لسانكِ في حضورها».

ساصونه، لكني لم أتوقّع أن أفعل بهذه السُّرعة. «سيفرح روبرت». الصّبي يحبُّ ميراندا رويس. «بَعد إذنك أيها الفارس، يجب أن أنهي حزم أغراضي». وحدها صعدَت الدَّرج إلى غُرفتها للمرّة الأخيرة. كانت النّوافذ قد أوصِدَت وأُسدِلَت ستائرها وغُطّيَ الأثاث، وقد نُقِلَ بعض حاجياتها بالفعل وخُزِّنَت البقيّة. تقرّر أن تبقى جميع ملابس الليدي لايسا المفضّلة من الحرير والسّميت، وكذا كلُّ ثوبٍ من الكتّان الشُّفّاف والمخمل الفاخر والتّطريز الفخم وشرائط الزِّينة المايريّة. هناك بالأسفل على إليني أن ترتدي ثيابًا متواضعةً تليق بفتاةٍ متواضعة. *لا يهمُّ. لم أجرؤ على ارتداء أفضل الثّياب هنا أيضًا.*

كانت جرتشل قد خلعت ملاءات الفراش ووضعت عليه بقيّة ملابسها. تحت تنّورتها ترتدي إليني بالفعل جوربًا طويلًا من الصّوف مع طبقتين من الثّياب الدّاخليّة، والآن أضافت سترةً من صوف الجملان ومعطفًا من الفرو مزوّدًا بقلنسوة ثبّتته بدبّوس على شكل طائر مُحاكٍ مطلي بالمينا كان هديّةً من بيتر. لفّت عنقها بوشاحٍ أيضًا، ودسّت يديها في قفّازين من الجلد المبطّن بالفرو يتماشيان مع حذائها، ولمّا ارتدت كلّ شيءٍ أحسّت كأنها بدينة مكسوّة بالفرو كدبٍّ صغير. ذكّرت نفسها قائلةً: *على الجبل سيكون هذا من دواعي سروري*. ألقت نظرةً أخيرةً على الغرفة قبل أن تخرج مفكّرةً: *كنتُ آمنةً هنا، لكن بالأسفل...*

حين عادت إليني إلى غرفة الزّافعات وجدت ميا ستون منتظرةً بصبرٍ نافد مع لوثور برون وموردِ. *لا بدّ أنها صعدت في الدّلو لترى ما يؤخّرنا*. على الرغم من نحولها تبدو ميا متينةً كسراويل الرّكوب الجلد التي ترتديها تحت قميص من الحلقات المعدنيّة المفضّضة، ولها شَعر أسود كجناح الغُداف، قصير وأشعث لدرجة أن إليني تظنّ أنها تقطعه بالخنجر لا المقص. أفضل ملامح ميا عيناها الزّرقاوان الكبيرتان. *من الممكن أن تبدو حسناء إذا ارتدت ثياب الفتيات*. وجدت إليني نفسها تتساءل إن كان السير لوثور يحبّها أكثر وهي ترتدي الحديد والجلد أم يحلم بها مرتديةً الحرير وشرائط الزّينة. تحبّ ميا أن تقول إن أباها كان كبشًا وأمّها بومةً، لكن إليني سمعت القصّة الحقيقيّة من مادي، والآن تنظر إليها مفكّرةً: *نعم، هاتان عيناه، ولها شَعره أيضًا، الشّعر الأسود الكثيف الذي اشترك فيه مع رنلي*.

سألتها النّغلة: «أين هو؟».

- «حضرة اللورد يستحمّ ويرتدي ثيابه».

- «يجب أن يُسرِع. الطّقس يزداد برودةً. ألا تَشعُرين به؟ يجب أن نتجاوز (ثلج) قبل غروب الشّمس».

- «ما مدى سوء الرّيح؟».

ردّت ميا: «يُمكن أن تكون أسوأ... وستكون كذلك بَعد هبوط الظّلام»، وأزاحت خُصلةً نافرةً عن عينها مضيفةً: «إذا قضى وقتًا أطول في الاستحمام فسنبقى حبيسين هنا طيلة الشّتاء ولا شيء نأكله إلّا بعضنا بعضًا».

لم تدرِ إليني بِمَ تردُّ، لكن لحُسن الحظّ أعفاها وصول روبرت آرن، وقد ارتدى اللورد الصّغير المخمل الأزرق السّماوي وسلسلةً من الذّهب والصّفير ومعطفًا أبيض من فرو الذّيبة، ورفعَ كلٌّ من مُرافِقيه أحد طرفيه وراءه كي لا يجرّه على الأرض. اصطحبَهم المِايستر كولمون مرتديًا معطفًا رماديًا خفيفًا مبطّنًا بفرو السّناجب، ولحقَت بهم جرتشل ومادي.

جبنَ روبرت لمّا شعرَ بالرّيح على وجهه، وإن حالَ وقوف تيرانس وجايلز وراءه دونه والفِرار. وسألَته ميا: «هلّا نزلت معي يا سيّدي؟».

فكّرت إليني: *لهجتها جافّة للغاية. كان يَجدُر بها أن تُحَيّيه بابتسامةٍ وتقول له كم يبدو قويًا شُجاعًا.*

قال اللورد روبرت: «أريدُ إليني. لن أذهب مع غيرها».

- «الدّلو يسع ثلاثةً».

- «أريدُ إليني فقط. أنتِ رائحتكِ سيئة كالبغال».

ردّت ميا بلا تعبيرٍ على وجهها: «كما ترغب».

بعض سلاسل الزّافعات مربوط بسلالٍ من الخيزران، وبعضها بالدِّلاء السّنديان القويّة التي يفوق أكبرها إليني طولًا وتُحيط بأضلاعه البنيّة الدّاكنة حلقات من الحديد تُثبّتها معًا، وعلى الرغم من هذا كان قلبها بين قدميها إذ التقطت يد روبرت وساعدته على الدُّخول. ما إن انغلقت الكُوّة وراءهما أحاط بهما الخشب من كلّ جانبٍ ولم يبقَ إلّا أعلاهم مفتوحًا. قالت لنفسها: *هكذا أفضل، فلا يُمكننا النّظر إلى أسفل*. تحتهما ليس هناك إلّا (سماء) والسّماء، ستُّمئة قدمٍ كاملة من السّماء، وللحظةٍ وجدَت نفسها تتساءل كم من الوقت استغرق سقوط هذه المسافة خالتها وماذا كانت آخِر فكرةٍ تدور بخلدها إذ اندفعَ الجبل إلى أعلى يستقبلها. *لا، يجب ألّا أفكّر في هذا، يجب!*

زعقَ السير لوثور: «**هيا!**»، ودفعَ أحدهم الدّلو بقوّةٍ ليتأرجح ويميل ويحتكّ بالأرض ثم يتدلّى حُزًا. سمعَت إليني كُرباج مورد يشقُّ الهواء وصلصلة السّلسلة، ثم بدأ الدّلو ينزل بهما بحركاتٍ مضطربة متشنّجة أولًا ثم برفقٍ أكثر. رأت وجه روبرت شاحبًا وعينيه منتفختين، لكن يديه ظلّتا ثابتتين. تقلّصت (الغش) من فوقهما، وجعلَت زنازين السّماء في المستويات الأدنى القلعة تبدو كقُرص عسلٍ من أسفل، ففكّرت إليني سامعةً صفير الرّيح حول الدّلو: *قُرص عسلٍ من الجليد، قلعة من الثّلج*.

بعد نزولهما مئة قدمٍ أصابت الدّلو هبّة مباغتة جعلته يميل إلى الجانب ودوّرته في الهواء، ثم صدمَته بقوّةٍ بوجه الجبل الصّخري لتنهال عليهما شظايا الجليد والثّلج ويصرّ السّنديان.

شهقَ روبرت وتشبّث بها دافنًا وجهه بين ثدييها، فقالت إليني شاعرةً به يرتجف: «سيّدي شجاع. أنا خائفة للغاية حتى إنني أكاد أعجزُ عن الكلام، أمّا أنت فلا».

شعرَت به يومئ برأسه، وقال لصدرها بفخر: «الفارس المجنّح كان شُجاعًا، وأنا كذلك. إنني من آل آرن».

سألته: «هلّا تمسّك بي غصفوري الجميل بقوّة؟»، ولو أن الصّبي كان متمسّكًا به بشدّةٍ بالفعل لدرجة أنها تستطيع التقاط أنفاسها بالكاد.

همسَ: «إذا أردتِ»، وعلى هذه الحال واصَلا الطّريق المباشر إلى (سماء) بالأسفل.

حين انفتحت كوّة الدّلو ليَخرُجا داخل القلعة الفرعيّة فكّرت إليني: *وصف هذا المكان بالقلعة كوصف بِركةٍ على أرض المرحاض بالبُحيرة*. ليست (سماء) أكثر من جدارٍ هلالي الشّكل من الحجارة القديمة غير المملّطة يحتوي إفريزًا صخريًا ومدخل كهفٍ كبير. في الدّاخل مخازن واسطبلات وقاعة طويلة طبيعيّة والدّعامات المنحوتة التي تقود إلى (الغش)، وفي الخارج تتناثر على الأرض الحجارة والجلاميد المكسورة، ويُمكن صعود الجدار على منحدَراتٍ من التّربة المكوّمة. على ارتفاع ستّمئة قدمٍ بالأعلى تبدو (الغش) صغيرةً للغاية حتى إنها تستطيع إخفاءها بيدها، لكن بعيدًا بالأسفل يمتدُّ (الوادي) ذهبيًا وأخضر.

داخل القلعة الفرعيّة ينتظرهم عشرون بغلًا مع اثنين من سائقي البغال والليدي ميراندا رويس، وقد اتّضح أن ابنة اللورد نستور قصيرة ممتلئة في سِنّ ميا ستون، ولكن لئن كانت ميا نحيلةً متينة البنيان فميراندا ليّنة الجسد وطيّبة الرّائحة، ولها وَركان عريضان وخصر ثخين ونهدان عامران، وتصنع خُصلها الكستنائيّة الغزيرة إطارًا حول وجنتين مستديرتين وفمٍ صغير وعينين بنّيّتين مرحتين. حين خرجَ روبرت بحذرٍ من الدّلو ركعَت في زقعةٍ من الثّلج ولثمَت يده وخدّيه، وقالت: «كم كبرت يا سيّدي!».

قال روبرت مسرورًا: «حقًّا؟».

ردّت الليدي كاذبةً: «قريبًا ستصير أطول مني»، ونهضَت ناقضةً الثّلج عن تنّورتها، وبينما عادَ الدّلو يرتفع إلى (الغش) خاطبَت إليني قائلةً: «ولا بُدّ أنكِ ابنة اللورد الحافِظ. لقد سمعتُ أنكِ جميلة، والآن أرى صحّة هذا».

انحنَت إليني، وقالت: «لُطف من سيّدتي أن تقول هذا».

ضحكَت الفتاة الأكبر سِنًّا قائلةً: «لُطف؟ اللُّطف ممل. إنني أطمحُ إلى الإثارة. يجب أن تُفصِحي لي عن أسرارِكِ كلّها في الطّريق إلى أسفل. هل تسمحين لي بأن أدعوكِ بإليني؟».

- «إذا أردتِ يا سيّدتي». *لكنكِ لن تنالي مني أسرارًا.*

- «أنا «سيّدتي» في (بوّابات القمر)، لكن هنا على الجبل تستطيعين دعوتي براندا. كم سِنُّكِ يا إليني؟».

- «أربعة عشر عامًا يا سيّدتي». كانت قد قرّرت أن تكون إليني ستون أكبر من سانزا ستارك.

- «راندا. كأن مئة عامٍ مرّت منذ كنتُ في الرّابعة عشرة. كم كنتُ بريئةً. أما زلتِ بريئةً يا إليني؟».

تورّد وجهها، وقالت: «لا يَجدُر بكِ... نعم، بالطّبع».

سألتها الليدي ميراندا مداعبةً: «تدّخرين نفسكِ للورد روبرت؟ أم أن هناك مُرافقًا غيورًا يَحلُم بمحاسنكِ؟».

أجابَت إليني: «لا»، في حين قال روبرت: «إنها صديقتي. ليس لتيرانس وجايلز أن ينالاها».

عندئذٍ كان دلو ثانٍ قد وصلَ وحطّ برفقٍ على كومةٍ من الثلج المتجلّد، وخرجَ المايستر كولمون مع المرافقين تيرانس وجايلز، ثم وصلَ الثالث بمادي وجرتشل مع ميا ستون. لم تُبدِّد الفتاة البَغلة وقتًا قبل أن تتولّى القيادة، وقالت لسائقي البغال الآخرين: «لسنا نُريد أن نعلق هنا على الجبل. سآخذُ اللورد روبرت ورفاقه. أوسي، ستنزل بالسير لوثور والآخرين، لكن اتركني أسبقك بساعة. كاروث، أنت المسؤول عن الصناديق والأقفاص»، والتفتت إلى روبرت آرن متسائلةً: «أيّ بغلٍ ستركب اليوم يا سيّدي؟».

- «كلُّها كريه الرّائحة. سأركبُ الرّمادي ذا الأذن المقضومة. أريدُ أن تركب إليني معي، وميراندا أيضًا».

- «ليكن، أينما اتّسع الطّريق كفايةً. هلمّ يا سيّدي، لنضعك على ظَهر بغلك. في الهواء رائحة ثلج».

مرَّ نِصف ساعةٍ آخر قبل أن يستعدّوا للتّحرُّك، ولمّا امتطى جميعهم البغال ألقت ميا ستون أمرًا حازمًا ففتحَ اثنان من جنود (سماء) البوّابة. قادتهم ميا إلى الخارج ووراءها مباشرةً اللورد روبرت متدثِّرًا بمعطف فرو الدِّببة، وتبعَتهما إليني وميراندا رويس، ثم جرتشل ومادي، ثم تيرانس ليندرلي وجايلز جرافتون، وفي النّهاية المايستر كولمون الذي يقود بغلًا ثانيًا محمّلًا بصناديق الأعشاب والعقاقير.

وراء الجدار تهبُّ الرِّيح بحدّة، إذ إنهم فوق مستوى الأشجار هنا ومكشوفون لعوامل التّعرية. أحسّت إليني بالامتنان لارتدائها ثيابًا ثقيلةً، وقد راح معطفها يخفق بإزعاجٍ من ورائها ودفعَت هبّة مفاجئة قلنسوتها. ضحكَت، لكن أمامها ببضع ياردات رأت اللورد روبرت يتوتّر، وقال: «الطّقس بارد للغاية. يَجدر بنا أن نعود وننتظر أن يدفأ».

قالت له ميا: «سيكون أدفأ على أرض الوادي يا سيّدي. سترى حين نصل».

ردّ روبرت: «لا أريدُ أن أرى»، لكن ميا لم تُعِره انتباهًا.

طريقهم سلسلة متعرّجة من الدّرجات الحجريّة المنحوتة في جانب الجبل، لكن البغال تحفظ كلّ بوصةٍ منه، وقد سرّ هذا إليني. هنا وهناك الحجارة محطّمة من ضغط فصولٍ لا تُحصى جمّدتها وأذابتها مرارًا، وعلى جانبي الطّريق تكسو الصّخور زقع الثّلج البيضاء لدرجةٍ تُعمي. الشّمس ساطعة والسّماء زرقاء، وبالأعلى صقور تدور راكبةً الرّيح.

هنا حيث الجُرف شديد التّحدّر تلتفُّ الدّرجات جيئةً وذهابًا بدلًا من النّزول إلى أسفل مباشرةً. *سانزا ستارك صعدَت الجبل لكن إليني ستون تنزله*. وجدَت الخاطر غريبًا. تذكّرَ أن في رحلة الصّعود نبهتها ميا إلى إبقاء عينيها على الطّريق أمامها، وقالت: «انظري إلى أعلى لا أسفل»... لكن ذلك ليس ممكنًا في أثناء النّزول. *يُمكنني أن أغلق عينَي. البغل يعرف الطّريق وليس محتاجًا إليّ*. على أن ذلك بدا كشيءٍ تفعله الفتاة الخائفة سانزا، أمّا إليني فامرأة أكبر سِنًّا وتتحلّى بشجاعة الثّغول.

في البداية تحرّكوا في طابورٍ فردي، لكن بَعد فترةٍ اتّسع الطّريق بما يكفي لركوب اثنين جنبًا إلى جنب، فلحقَت بها ميراندا رويس، وببساطةٍ قالت كأنهما جالستان تُمارِسان أشغال الإبرة مع سِيّدتهما: «جاءتنا رسالة من أبيك. يقول إنه في طريق العودة، ويأمل أن يرى ابنته العزيزة قريبًا. كتبَ أن لايونل كوربراي يبدو مسرورًا بعروسه، وأكثر سرورًا بالمَهر. آملُ أن يتذكّر اللورد لايونل مَن يأخذ منهما إلى الفِراش. اللورد بيتر يقول إن الليدي واينوود حضرَت مأدبة الزّفاف مع فارس (النّجوم التّسع) لدهشة الجميع».

- «آنيا واينوود؟ حقًا؟». يبدو إذن أن عدد لوردات البيان انخفضَ من ستّةٍ إلى ثلاثة. يوم نزلَ پيتر بايلش الجبل كان واثقًا بكسب سايموند تمپلتون إلى صفّه، ولكن ليس الليدي واينوود. سألَت: «أهناك المزيد؟». (الغش) مكان موحش للغاية، وإليني متشوِّقة إلى أيّ أخبارٍ من العالم الخارجي مهما كانت بسيطةً تافهةً.

- «ليس من أبيكِ، لكن طيورًا أخرى وصلَت إلينا. الحرب مستمرّة في كلّ مكانٍ إلّا هنا. (ريڤررَن) استسلمَت، لكن (دراجونستون) و(ستورمز إند) ما زالَتا صامدتين متمسّكتين باللورد ستانيس».

- «كانت حكمة من الليدي لايسا أن تُبقينا خارج الصّراع».

منحتها ميراندا ابتسامةً خبيثةً صغيرةً، وقالت: «نعم، سيّدتنا الكريمة كانت آيةً في الحكمة»، واعتدلَت في جلستها مردفةً: «أيجب أن تكون البغال نحيلةً سيّئة المزاج؟ ميا لا تُطعِمها كفايةً. ركوب البغال السّمينة مريح أكثر. هل علمتِ أن هناك سپتون أعلى جديدًا؟ أوه، وحرس اللّيل لهم قائد صبي الآن، ابن نغل ما لإدارد ستارك».

اندفعَت تسأل مندهشةً: «چون سنو؟».

- «سنو؟ نعم، لا بُدّ أن اسمه سنو على ما أظنّ».

لم تُفكّر في چون منذ دهر. إنه مجرّد أخٍ غير شقيق، ومع ذلك... بعد موت روب وبران وريكون لا يبقى لها إخوة إلّا چون سنو. *والآن أنا نغلة أيضًا، مِثله تمامًا. أوه، كم سيكون جميلًا أن أراه مرّةً أخرى*. لكن بالطّبع لا يُمكن أن يَحدُث ذلك أبدًا. فإليني ستون ليس لها إخوة شرعيّون أو غير شرعيّين.

تابعَت ميراندا رويس غير مدركةٍ ما يجول ببالها: «ابن عمومتنا يون البرونزي أقامَ التحامًا جماعيًا في (رونستون)، واحدًا صغيرًا للمرافقين فحسب. كان الغرض أن يفوز به هاري الوريث، وقد فعلَ».

- «هاري الوريث؟».

- «ربيب الليدي واينوود، هارولد هاردينج. أظنُّ أن علينا أن ندعوه بالسير هاري الآن. يون البرونزي قلّده الفُروسيَّة».

- «أوه». شعرَت إليني بالحيرة. لماذا يكون ربيب الليدي واينوود وريثها؟ إن لها أبناء من ذرِّيَّتها، أحدهم فارس (البوّابة الدّامية) السير دونل. إلّا أنها لم ترغب في أن تبدو حمقاء، فاكتفَت بقول: «أتمنّى أن يُثبِت جدارته بالفُروسيَّة».

قالت الليدي ميراندا ساخرةً: «أتمنّى أن يُصاب بالجُدري. إن له ابنةً نغلةً من إحدى بنات العوام. كان السيِّد والدي يأمل أن يُزوِّجني هاري، لكن الليدي واينوود رفضَت تمامًا. لا أدري إن كانت قد وجدَتني غير لائقة أم السّبب مَهري فحسب»، وزفرَت مضيفةً: «إنني في حاجةٍ إلى زوجٍ آخَر فعلًا. كان لي واحد لكنني قتلته».

سألَتها إليني مصدومةً: «حقًّا؟!».

«أوه، نعم، لقد مات فوقي، في داخلي في الحقيقة. آملُ أنكِ تعرفين ما يَحدث في فِراش الزَّوجية، أليس كذلك؟».

فكَّرت في تيريون وفي كلب الصّيد وقُبلته وأومأت برأسها إيجابًا، ثم قالت: «لا بُدَّ أن هذا كان فظيعًا يا سيِّدتي، أن يموت، أعني هناك... بينما... بينما...».

- «... ينكحني؟»، وهزَّت ميراندا كتفيها قائلةً: «كان هذا مزعجًا بالتَّأكيد، ناهيكِ بافتقاره إلى الكياسة. إنه لم يتحلَّ بلُطف أن يزرع طفلًا في داخلي حتى. المسنُّون نُطفتهم ضعيفة، وهأنذي أرملة لكن مستعملة بالكاد. كان يُمكن أن يجد هاري زوجةً أسوأ بكثير، وأتصوَّر أنه سيفعل. على الأرجح ستُزوِّجه الليدي واينوود إحدى حفيداتها أو حفيدات يون البرونزي».

قالت إليني متذكِّرةً تحذير بيتر: «كما تقولين يا سيِّدتي».

- «راندا. هيا، يُمكنكِ أن تقوليها. رانـدا».

- «راندا».

- «هذا أفضل. أخشى أن عليّ أن أعتذر إليكِ. أعرف أنك ستحسبينني فاسقةً، لكنني ضاجعتُ ذلك الفتى الوسيم ماريليون. لم أكن أعلمُ أنه وحش. كان غناؤه جميلًا ويستطيع أن يفعل أحلى الأشياء بأصابعه. ما كنتُ لآخذه إلى الفِراش إطلاقًا لو عرفتُ أنه سيدفع الليدي لايسا من (باب القمر). إنني -كمبدأ- لا أضاجعُ الوحوش»، وتفرَّست ميراندا في وجه إليني وصدرها، وتابعَت: «أنتِ أجمل مني، لكن ثديَي أكبر. المِايسترات يقولون إن الأثداء الكبيرة لا تدرُّ لبنًا أكثر من الصَّغيرة، لكنني لا أصدِّق هذا. هل عرفتِ مُرضِعةً بثديين صغيرين من قبل؟ ثدياك كبيران بالنِّسبة إلى فتاةٍ في سِنِّكِ، لكن ما داما ثديَي نغلة فلن أشغل بالي بهما». ودنَت أكثر ببغلها سائلةً: «هل تعلمين أن عزيزتنا ميا ليست بِكرًا؟».

تعلم. ذات مرَّةٍ حين جلبَت لهم ميا المؤن من أسفل همسَت لها مادي البدينة بالسِّر. «مادي أخبرَتني».

- «طبعًا أخبرَتكِ. إن لها فمًا كبيرًا كفخذيها، وفخذاها هائلتان! مايكل ردفورت هو من فعلَها معها. كان مُرافق لين كوربراي وقتها، مُرافقًا حقيقيًا وليس كالجلف الذي يُرافِق السير لين الآن ويقولون إنه قبلَه في سبيل المال فحسب. مايكل كان أفضل مُبارزٍ شاب في (الوادي) كلِّه، وشهمًا... أو أن هذا ما حسبَته المسكينة ميا إلى أن تزوَّج واحدةً من بنات يون البرونزي. إنني واثقة بأن اللورد هورتون لم يُعطِه خيارًا، لكنه ما زالَ تصرُّفًا قاسيًا في حَقِّ ميا».

قالت إليني: «السير لوثور مغرم بها»، ورمقَت فتاة البغال التي تسبقهما بعشرين درجةٍ مضيفةً: «أكثر من مغرم».

رفعَت ميراندا حاجبًا متسائلةً: «لوثور برون؟ هل تعرف؟»، ولم تنتظر جوابًا، وأردفَت: «لا أمل لهذا المسكين. أبي حاولَ تزويج ميا لكنها تَرفُضهم جميعًا. إنها نِصف بغلة».

رغمًا عنها وجدت إليني نفسها تحسُّ بالوُدّ نحو الفتاة الأخرى. إنها لم تحظَ بصديقةٍ تتبادل معها القيل والقال منذ حين يوول المسكينة. سألَت الفتاة التي تكبرها سِنًّا وتبدو عليمةً بالعالم: «هل تظنّين أن السير لوثور يحبّها كما هي في الحلقات المعدنيّة والجِلد أم يَحلُم بها ترفل في الحرير والمخمل؟».

- «إنه رجل، أي أنه يَحلُم بها عارية».

تُحاوِل أن تجعل وجهي يتورّد ثانيةً.

لا بُدّ أن الليدي ميراندا سمعَت أفكارها، إذ قالت: «إنكِ تتخضّبين بدرجةٍ جميلة من الوردي حقًّا. عندما يتورّد وجهي أبدو كتفّاحة، لكنه لم يتورّد منذ سنوات»، ومالَت عليها متسائلةً: «هل ينوي أبوكِ الزّواج ثانيةً؟».

- «أبي؟». لم تُفكِّر إليني في ذلك، وبشكلٍ ما وتّرتها الفكرة، ووجدَت نفسها تتذكّر التّعبير على وجه لايسا آرن إذ هوَت من (باب القمر).

قالت ميراندا: «كلُّنا نعلم كم كان مخلصًا لليدي لايسا، ولكن لا يجوز أن يظلّ حزينًا عليها إلى الأبد. إنه في حاجةٍ إلى زوجةٍ شابّة حسناء تغسل أحزانه. أظنّ أنه يستطيع اختيار مَن يشاء من نِصف عذارى (الوادي) النّبيلات، فهل من زوجٍ أفضل من لوردنا الحافِظ الجريء؟ وإن كنتُ أتمنّى لو أن له اسمًا أفضل من الإصبع الصّغير. صغير لأيّ درجة؟ هل تعرفين؟».

عادَ وجهها يتورّد، وقالت: «إصبعه؟ لا... إنني لم...».

أطلقَت الليدي ميراندا ضحكةً صاخبةً دفعَت ميا ستون إلى النّظر إليهما من فوق كتفها، وقالت: «لا عليكِ يا إليني، إنني واثقة بأنه كبير بما فيه الكفاية».

مرّوا من تحت قنطرةٍ نحتتها الرّيح، حيث تتدلّى كُتل الجليد من الحجارة الشّاحبة ويقطر منها الماء عليهم. على الجانب الآخر يضيق الطّريق وينحدر بحدّةٍ لمئة قدمٍ أو أكثر، فتراجعت ميراندا مرغمةً وسلّمت إليني القيادة لبغلها، ودفعتها شدّة انحدار هذه المرحلة من الرّحلة إلى التّشبّث بسَرجها بقوّة. الدّرجات هنا متآكلة بفعل حدوات كلّ البغال التي وطأتها، إلى أن أصبحت تُحاكي سلسلةً من التّجاويف الحجريّة الضّحلة التي يملأ الماء قيعانها ملتمعًا بالذّهبي في شمس الأصيل. *إنه ماء الآن، لكن مع حلول الظّلام سيتحوّل كلّه إلى جليد.* انتبهت إليني إلى أنها تحبس أنفاسها فأطلقتها. الآن توشك ميا ستون واللورد روبرت على بلوغ القمّة الصّخريّة المستدقّة التي يستوي عندها المنحدَر من جديد، فحاولت أن تنظُر إليهما وإليهما فقط قائلةً لنفسها: *لن أسقط، بغل ميا سيعبُر بي.* صدحت الرّيح من حولها وهي تنزل متخبّطةً درجةً درجةً، وبدا لها كأن هذا الجزء استغرق عمرًا كاملًا.

وفجأةً صارت في قاع المنحدَر مع ميا واللورد الصّغير المنكمش تحت قمّةٍ صخريّة محزّزة. أمامهم يمتدّ سناد حجري مرتفع ضيّق يكسوه الجليد، وإذ سمعت إليني الرّيح تصرخ وشعرت بها تشدّ معطفها تذكّرت هذه البقعة من رحلة الصّعود، وقد أخافتها حينئذٍ وتُخيفها الآن. كانت ميا تقول للورد روبرت بنبرةٍ مرحة: «إنه أوسع مما يبدو، عرضه ياردة وطوله ليس أكثر من ثمان ياردات، هذا لا شيء».

ردّ روبرت: «لا شيء»، وكانت يده ترتجف.

أوه، لا، أرجوك، ليس هنا، ليس الآن.

- «الأفضل أن نقود البغال مترجّلين. بَعد إذن سيّدي سأعبرُ ببغلي أولًا ثم أعودُ لأعبر بك»، لكن اللورد روبرت لم يُجب وظَلّ يُحدّق إلى السّناد الضيّق بعينيه المحمرّتين، فوعدَته ميا قائلةً: «لن أتأخّر يا سيّدي»، وإن شكّت إليني في أن الصّبي سمعَها من الأصل.

حين خرجَت النّغلة ببغلها من تحت القمّة المستدقّة أطبقَت عليها الرّيح بأسنانها، وارتفعَ معطفها يتلوّى ويرَفرِف في الهواء، وترنّحت ميا وبدا لأقلّ من لحظةٍ أن الرّيح ستُلقيها في الهاوية، لكنها استعادَت توازُنها بوسيلةٍ ما وواصلَت طريقها.

أمسكَت إليني يد روبرت المقفّزة لتمنعه من الارتجاف، وقالت: «غصفوري الجميل، إنني خائفة. أمسك يدي وساعِدني على العبور. أعلمُ أنك لست خائفًا».

رمقَها ببؤبؤين كثّقبين داكنين في عينين متّسعتين مبيضّتين كالبيض، وقال: «لستِ خائفًا؟».

- «ليس أنت. أنت فارسي المجنّح أيها السير الغصفور الجميل».

همسَ روبرت: «الفارس المجنّح كان يستطيع الطّيران».

ردّت: «أعلى من الجبال»، واعتصرَت يده.

كانت الليدي ميراندا قد انضمّت إليهما عند القمّة المستدقّة، ولمّا رأت ما يَحدث ردّدت: «كان يستطيع الطّيران حقًّا».

قال اللورد روبرت: «السير الغصفور الجميل»، وأدركَت إليني أنها لا تستطيع انتظار رجوع ميا، وهكذا ساعدَت الصّبي على التّرجُّل، وبيدين متعانقتين خرجا إلى السّناد الحجري العاري بمعطفين يخفقان ويتلوّيان من ورائهما، لا يُحيط بهما إلّا الهواء الفارغ والسّماء، وعلى الجانبين الأرض بعيدة بعيدة، وتحت أقدامهما جليد وحجارة مكسّرة تنتظر أن يتعثّر فيها أحدهم ويلتوي كاحله. كانت الرّيح تعوي بشراسة، ففكّرَت سانزا: *كأنه صوت ذئب، ذئب شبحي جبّار كالجبال.*

ثم إذا بهما على الجانب الآخر. ضحكت ميا ستون ورفعت الصّبي محتضنةً إياه، فقالت لها إليني: «احترسي، يُمكنه أن يُؤذيك عندما يُلوّح بأطرافه. لستِ تظنين هذا لكنه يستطيع». وجدا مكانًا له في صدعٍ في الصّخر يقيه من الرّيح الباردة، واعتنت إليني به حتى انقضت الرّجفة، فيما عادت ميا لمساعدة الآخرين على العبور.

في (ثلج) وجدوا بغالًا جديدةً في انتظارهم، ووجبةً ساخنةً من يخنة الماعز والبصل. أكلت إليني مع ميا وميراندا، وقالت لها الثّانية: «أنتِ شجاعة علاوةً على حُسنك».

جعلت المجاقلة وجهها يتورّد مجدّدًا، وقالت: «لا، لستُ شجاعةً. كنتُ خائفةً. لا أظنّ أنني كنتُ لأقوى على العبور دون اللورد روبرت»، والتفتت إلى ميا ستون قائلةً: «كدتِ تسقُطين».

ردّت ميا التي نزلَ شعرها على وجنتها مخفيًا عينها: «أنتِ مخطئة. إنني لا أسقط أبدًا».

- «قلتُ كدتِ. لقد رأيتك. ألم تكوني خائفة؟».

هزّت ميا رأسها نفيًا مجيبةً: «أذكرُ رجلًا يُلقيني في الهواء وأنا صغيرة للغاية، يقف طويلًا كالسّماء ويُلقيني عاليًا جدًا فأشعرُ كأنني أطير، وكلانا يضحك، يضحك بقوّةٍ لدرجة أنني أكادُ لا أستطيع التقاط أنفاسي، وأخيرًا يتعالى ضحكي حتى إنني أبلّلُ ثيابي، فيجعله هذا يضحك أكثر وأكثر. لم أشعر بالخوف قطّ بينما يُلقيني، وكنتُ أعرفُ أنه سيكون موجودًا دومًا ليلتقطني»، وأزاحت شعرها النّافر متابعةً: «وفي يومٍ لم يَعُد موجودًا. الرّجال يأتون ويذهبون، يكذبون أو يموتون أو يتركونك. لكن الجبل ليس رجلًا، والحجارة ابنة الجبل. إنني أثقُ بأبي وأثقُ ببغالي ولن أسقط»، ووضعت يدها على صخرةٍ محزّزة ونهضت مستطردةً: «أنهيا طعامكما. ما زالَ طريقنا طويلًا وأشمُّ رائحة عاصفة».

بدأت الثلوج تسقط لدى خروجهم من (حجر)، أكبر وأدنى القلاع الفرعيّة الثلاث التي تدافِع عن الطّريق إلى (الغش). كان الغسق ينتشر وقتها، واقترحت الليدي ميراندا أن يعودوا أدراجهم ويقضوا اللّيل في (حجر) ثم يستأنفوا النّزول مع شروق الشّمس، إلّا أن ميا رفضَت قائلةً: «ربما يكون عمق الثّلوج خمسة أقدام عندها، وستكون الدّرجات خدّاعةً حتى بالنّسبة إلى البغال. الأفضل أن نُواصِل الطّريق. سنتحرّك ببطء».

وقد كان. أسفل (حجر) الدّرجات أعرض وأقلُّ انحدارًا، تتخلّل أشجار الصّنوبر والحارس الطّويلة التي تكسو منحدرات (رمح العملاق) السّفلى، كما يبدو أن بغال ميا تعرف كلّ جذرٍ وصخرةٍ في الطّريق إلى أسفل، وكلُّ ما تنساه الدّواب تتذكّره الفتاة.

كان نِصف اللّيل قد مرّ بالفعل عندما أبصَروا أضواء (بوّابات القمر) من خلال الثّلج المتساقط، وكانت المرحلة الأخيرة من رحلتهم الأكثر هدوءًا وسلامًا. سقط الثّلج بوتيرةٍ ثابتة مغلّفًا العالم بالأبيض، وغابَ العصفور الجميل في النّوم فوق سَرجه وراح يتمايَل إلى الأمام والخلف مع حركة بغله، وحتى الليدي ميراندا بدأت تتثاءب وتشتكي من الإرهاق، وقالت لإليني: «جهّزنا مساكن لكم جميعًا، لكن يُمكنكِ أن تُشارِكيني فِراشي اللّيلة. إنه يسع أربعة».

- «سيكون هذا من دواعي شَرفي يا سيّدتي».

- «راندا. اعتبري نفسكِ محظوظةً لأنني متعَبة. لستُ أريدُ إلّا الخلود إلى النّوم، لكن عادةً عندما تُشارِكني الفتيات الفِراش فعليهن أن يدفعن ضريبة الوسادة ويُخبِرنني بالأشياء المثيرة التي فعلنَها».

- «وماذا لو لم يفعلن أشياء مثيرةً؟».

أجابَت ميراندا: «عليهن إذن أن يعترفن بالأشياء المثيرة التي يُرِدن أن يفعلنها. ليس أنتِ بالطّبع. إنني أرى عفّتك بمجرّد النّظر إلى وجنتيك المتورّدتين هاتين وعينيك الزّرقاوين الكبيرتين»، وعادَت تتثاءب، ثم أضافت: «آملُ أن قدميكِ دافئتان. أكرهُ رفيقات الفِراش باردات الأقدام».

حين وصلوا إلى قلعة أبيها أخيرًا كانت الليدي ميراندا قد أخذَها الوسن أيضًا وإليني تَحلُم بالفِراش قائلةً لنفسها: سيكون *فِراشًا بحشيّةٍ من الرّيش، ناعمًا ودافئًا ووثيرًا وعليه كومة من الأغطية الفرو. سأرى حُلمًا جميلًا ولمّا أستيقظ سأسمعُ كلابًا تنبح ونسوةً يتبادَلن النّميمة عند البئر وسيوفًا تصلُ في السّاحة، ولاحقًا ستُقام مأدبة فيها موسيقى ورقص.* كم تحنُّ إلى الصّياح والضّحك بَعد صمت (الغش) المميت.

لكن بينما ترجّل الرّاكبون عن بغالهم خرج أحد حُرّاس بيتر من الحصن قائلًا لها: «ليدي إليني، اللورد الحافِظ في انتظاركِ».

سألَته مبغوتةً: «هل عادَ؟».

- «في المساء. ستجدينه في البُرج الغربي».

السّاعة أدنى إلى الفَجر من الغسق وأكثر أهل القلعة نيام، ولكن ليس بيتر بايلش الذي وجدَته إليني جالسًا إلى جوار نارٍ تُطقطِق ويشرب النّبيذ المتبّل السّاخن مع ثلاثة رجالٍ لا تعرفهم. نهضوا جميعًا لدى دخولها، وابتسمَ لها بيتر بدفءٍ قائلًا: «إليني، تعالي وقبّلي أباكِ».

عانقَته بطاعةٍ وطبعَت قُبلةً على خدّه، ثم قالت: «آسفةٌ لتطفّلي يا أبي. لم يُخبِرني أحد بأن معك رفاقًا».

- «لستِ تتطفّلين أبدًا يا حُلوتي. كنتُ أحكي لهؤلاء الفُرسان الكرام لتوّي عن ابنتي المطيعة».

قال فارس شاب أنيق ينسدل شَعره الأشقر الكثيف متجاوزًا كتفيه: «مطيعة وجميلة».

- «أجل»، قال الفارس الثّاني، وهو رجل متين البنيان له لحية كثّة وخطّها الشّيب وأنف أحمر منتفخ تلوح زُرقة عروقه المكسورة ويدان خشنتان كبيرتان كأفخاذ الخنازير. «لم تَذكَر هذا الجزء يا سيّدي».

- «كنتُ لأفعل المِثل لو كانت ابنتي، تحديدًا في وجود أمثالنا من الأجلاف»، قال الفارس الثّالث ذو القامة القصيرة والقوام النّحيل والابتسامة المعوجّة والأنف المدبّب والشّعر البُرتقالي الثّائر.

ضحكَت إليني، وقالت مداعبةً: «أأنتم أجلاف؟ حسبتُ ثلاثتكم فُرسانًا باسلين».

قال بيتر: «هم فُرسان، أمّا بسالتهم فما زالَ عليهم إثباتها، لكن لنأمل خيرًا. اسمحي لي بتقديم السير بايرون والسير مورجارث والسير شادريك. أيها الفُرسان، هذه إليني ابنتي الطّبيعيّة شديدة الذّكاء... والتي يجب أن أتحدّث معها إذا تفضّلتم وسمحتم لنا».

انحنى الفُرسان الثّلاثة وانسحبوا، ولو أن الطّويل الأشقر لثمَ يدها قبل أن يُغادر، ثم سألَت إليني بَعدما انغلقَ الباب: «فُرسان متجوّلون؟».

- «فُرسان جائعون. رأيتُ أن الأفضل أن يُحيط بنا المزيد من المسلّحين. الأيام تزداد إثارةً للاهتمام يا خلوتي، وعندما تُثير الأيام اهتمام المرء فلا شيء اسمه الإسراف في الحماية. (ملك البحار) رجعَت إلى (بلدة النّوارس)، وأوزويل العجوز عادَ ببضع حكايات».

لم تسأله عن كنه تلك الحكايات، فلو أرادَها بيتر أن تعلم لأخبرَها. قالت: «لم أتوقّع عودتك بهذه السّرعة. إنني مسرورة لأنك أتيت».

زدَّ: «ما كنتُ لأخمّن هذا من قُبلتكِ»، وجذبَها إليه وأمسك وجهها بيديه وقبّلها على شفتيها طويلًا، ثم قال: «هذه هي القُبلة التي تقول للمرء: *مرحبًا بعودتك*. احرِصي على هذا المرّة القادمة».

قالت شاعرةً بالحُمرة تصبغ وجهها: «نعم يا أبي».

قال وقد قرّر التغاضي عن قُبلتها الفاترة: «لن تُصَدِّقي نِصف ما يجري في (كينجز لاندنج) يا حُلوتي. سِرسي تزِلُّ من حماقةٍ إلى أخرى بمساعدة مجلسها المكوَّن من الصُّمّ والبُله والعُمي. لطالما توقَّعتُ أن تُفقِر البلاد وتُدمِّر نفسها، لكنني لم أخَل قَطُّ أن تفعلها بهذه السُّرعة! أمر مزعج حقًّا. لقد أملتُ أن أحظى بأربعة أو خمسة أعوام لأزرع بعض البذور وأترك بعض الثِّمار تَنضُج، لكن الآن... من الجيِّد أنني أتغذَّى على الفوضى. أخشى أن القدر القليل من السَّلام والنِّظام اللذين تركَهما لنا الملوك الخمسة لن يدوما طويلًا في ظِلِّ الملكات الثلاث».

ردَّدت حائرةً: «الملكات الثلاث؟».

اختارَ بيتر ألّا يُفسِّر، وبدلًا من ذلك ابتسمَ قائلًا: «جلبتُ لفتاتي الغالية هديّةً».

تساوى سرور إليني بدهشتها، وسألَته: «أهو فُستان؟». كانت قد سمعَت أن في (بلدة النَّوارس) خيّاطاتٍ بارعات، كما أنها سئمَت من ارتداء الثِّياب التَّقليديّة.

- «شيء أفضل. خمِّني ثانيةً».

- «جواهر؟».

- «لا جوهرة تُداني جمال عينَي ابنتي».

- «ليمون؟ هل عثرت على ليمون؟». لقد وعدَت العصفور الجميل بكعك اللَّيمون، وكعك اللَّيمون يتطلَّب ليمونًا.

سحبَها بيتر بايلش من يدها وأجلسَها في حِجره قائلًا: «اتَّفقتُ لكِ على زيجة».

- «زيجة...». شعرَت بحلقها يضيق. إنها لا تُريد الزَّواج ثانيةً، ليس الآن، وربما أبدًا. «لستُ... لا يُمكنني أن أتزوَّج. أبي، إنني...»، ورمقَت إليني الباب لتستوثق من إغلاقه، ثم همسَت: «إنني متزوِّجة بالفعل، أنت تعرف هذا».

وضعَ بيتر إصبعًا على شفتيها يُسكِتها، وقال: «القزم تزوَّج ابنة ند ستارك لا ابنتي، لكن بغَضِّ النَّظر عن هذا، هذه مجرَّد خطبة. أمَّا الزَّواج فعليه أن ينتظر إلى أن ينتهي أمر سرسي وتترمَّل سانزا، ثم إن عليكِ أن تلتقي الفتى وتحظي بقبوله. الليدي واينوود لن تجعله يتزوَّج رغم إرادته، وقد شدَّدت على هذا بمنتهى الحزم».

تساءلَت إليني عاجزةً عن التَّصديق: «الليدي واينوود؟ لماذا تُزَوِّج أحد أبنائها بـ... بـ...».

- «...نغلة؟ بدايةً أنتِ ابنة اللورد الحافِظ، لا تنسي. واينوود عائلة عريقة للغاية وأبيَّة للغاية، وإن لم تكن بالثَّراء الذي يحسبه المرء، كما اكتشفتُ عندما بدأتُ شراء ديونها. على أن هذا لا يعني أن الليدي آنيا قد تبيع ابنًا لها مقابل الذَّهب، أمَّا إذا كان ربيبًا... هاري الشَّاب مجرَّد ابن عمومة، والمَهر الذي عرضته على حضرة الليدي أكبر من الذي قبضَه لايونل كوربراي لتوِّه. كان يجب أن يكون كذلك كي تُخاطِر بإغضاب يون البرونزي، لأن هذه الزِّيجة تُفسِد خُططه. أنتِ موعودة لهاري هاردينج يا خلوتي، شريطة أن تظفري بقلبه الغرير... وهو ما لن يستعصي عليكِ».

- «هاري الوريث؟». حاولَت إليني أن تتذكَّر ما أخبرَتها به ميراندا عنه على الجبل، ثم قالت: «لقد قُلِّدَ الفُروسيَّة، وله بنت نغلة من فتاةٍ من العامَّة».

- «وطفل آخر في الطّريق من واحدةٍ أخرى. لا شَكَّ أن هاري يُجيد الإغواء. شعره رملي ناعم وعيناه زرقاوان عميقتان وتظهر غمّازتاه حين يبتسم، ويُقال لي إنه شهم للغاية أيضًا»، وداعبَها بيتر بابتسامةٍ متابعًا: «نغلة أو غير نغلة يا خلوتي، عندما تُعلَن الخطبة ستكونين محطّ حسد كلّ فتاةٍ من النُبلاء في (الوادي)، وبعض بنات أراضي النّهر و(المرعى) أيضًا».

حائرةً سألَته إليني: «لماذا؟ السير هارولد... كيف يكون وريث الليدي واينوود؟ أليس لها أبناء من دمها؟».

أجابَ بيتر: «ثلاثة، وبنات وأحفاد أيضًا».

سألَته إليني ورائحة النّبيذ في أنفاسه تتناهى إلى أنفها ممتزجةً بجوز الطّيب والقرنفل: «ألن يسبقوا هاري؟ لا أفهمُ».

- «ستفهمين. أنصِتي»، والتقطَ بيتر يدها ومرّر إصبعه بخفّةٍ على راحتها مردفًا: «اللورد چاسير آرن، لنبدأ به. إنه أبو چون آرن، وقد أنجبَ ثلاثة أولاد، ابنين وبنتًا. كان چون الأكبر، فورثَ (العُش) واللورديّة، وتزوّجت أخته آليس السير إليس واينوود عمّ الليدي واينوود الحاليّة»، وارتسمَ الامتعاض على وجهه إذ تابعَ: «إليس وآليس، أليس هذا طريفًا؟ ابن اللورد چاسير الأصغر، السير رونل آرن، تزوّج فتاةً من عائلة بلمور، لكنه لم يُعاشِرها إلّا مرّةٍ أو مرّتين قبل أن يموت بمرضٍ في البطن. كان ابنه إلبرت يُولَد في فِراشٍ بينما يُحتضَر رونل المسكين في فِراشٍ آخَر في غُرفةٍ مجاورة. أأنتِ منتبهة يا خلوتي؟».

- «نعم، كان هناك چون وآليس ورونل، لكن رونل ماتَ».

- «عظيم. والآن، چون آرن تزوّج ثلاث مرّات، لكن أول زوجتين لم تُنجبا له أطفالًا، ولذا ظلّ إلبرت ابن أخيه وريثه سنواتٍ طويلة. في تلك الأثناء كان إليس يُمارس واجباته الزّوجيّة مع آليس التي وضعت طفلًا كلّ عام، وأنجبت له تسعة أولاد، ثماني فتياتٍ وصبيًا عزيزًا واحدًا اسمه هو الآخر چاسپر، ثم ماتت وقد خارت قُواها. كان چاسپر الصّبي غافلًا عن الجهود البطوليّة التي بُذِلَت من أجل المجيء به إلى الحياة، وفي سِنّ الثّالثة رفسه حصان في رأسه، وبَعدها بفترةٍ قصيرة فتك الجُدري باثنتين من أخواته تاركًا ستّ أخوات. الكُبرى تزوّجت السير دينس آرن، ابن عمومةٍ بعيد لسادة (الغش). لعائلة آرن فروع عدّة مبعثرة هنا وهناك في (الوادي)، كلُّها يتحلّى بالكبرياء ويعوزه المال، باستثناء فرع آرن في (بلدة النّوارس) الذي تمتّع أولاده بالعقل وتزوّجوا تُجّارًا. إنهم أغنياء لكنهم يفتقرون إلى الطّباع الحميدة، ولذا لا يتكلّم أحد عنهم. كان السير دينس ينحدر من أحد الفروع الفخور الفقيرة... لكنه كان مُنازلًا ذائع الصّيت أيضًا ووسيمًا وشجاعًا وينضح كياسةً، وتمتّع كذلك باسم آرن السّحري الذي جعلَه زوجًا مثاليًا لأكبر فتيات واينوود. هكذا يكون أولادهم من آل آرن وورثة (الوادي) التالين إذا أصابَ إلبرت سوء، وما حدث أن الملك المجنون إيرس أصابَ إلبرت. هل تعرفين هذه القصّة؟».

تعرفها. «الملك المجنون قتلَه».

- «بالفعل، وسرعان ما تركَ السير دينس زوجته الحُبلى ابنة واينوود ليذهب إلى الحرب. مات دينس في معركة الأجراس بجُرعةٍ مفرطة من الشّجاعة وضربة فأس، وحين أبلَغوا زوجته بموته ماتَت بدورها من الحُزن وتبعَها ابنها حديث الولادة بَعد فترةٍ قصيرة. لا يهمُّ. كان چون آرن قد حصلَ لنفسه على زوجةٍ شابّة في أثناء الحرب، زوجةٍ يثق بخصوبتها. إنني واثق بأن أمله كان كبيرًا، لكن كلينا يعلم أن كلَّ ما نالَه من لايسا كان الإجهاض والإملاص وعُصفورنا الجميل المسكين. وهو ما يُعيدنا إلى بنات إليس وآليس الخمس المتبقّيات. الكُبرى شوَّهها الجُدري الذي قتلَ شقيقتيها، فأصبحَت سِپتة. واحدة أخرى أغواها مرتزِق، فطردَها السير إليس وانضمَّت إلى الأخوات الصّامتات بَعد أن مات نغلها في بطنها. الثّالثة تزوَّجت سيِّد (جزيرة الثّلّين) لكن اتَّضح أنها عاقر. الرّابعة كانت في طريقها إلى أراضي النّهر لتتزوَّج واحدًا ما من أبناء عائلة براكن عندما اختطفَتها قبيلة الرِّجال المحروقين. هكذا تبقى الصُّغرى التي تزوَّجت فارسًا من مُلّاك الأراضي في خدمة آل واينوود، وأنجبَت له ابنًا سمَّته هارولد ثم ماتت»، ودوَّر پيتر يدها وطبعَ قُبلةً خفيفةً على معصمها، وسألَها: «أخبريني إذن يا خلوتي، ما الذي يجعل هاري الوريث إذن؟».

اتَّسعت عيناها، وقالت: «إنه ليس وريث الليدي واينوود، بل وريث روبرت. إذا مات روبرت...».

قاطعها بيتر مقوّسًا حاجبه: «عندما يموت روبرت. عصفورنا الجميل الشّجاع صبيّ سقيم بشدّة. إنها مسألة وقتٍ لا أكثر. عندما يموت روبرت يُصبِح هاري الوريث اللورد هارولد حامي (الوادي) وسيّد (العُش). حمَلة راية چون آرن لن يحبّوني أبدًا، ولا روبرت السّخيف الرّاجف، لكنهم سيحبّون صقرهم الصّغير... وحين يجتمعون معًا لحضور زفافه وتَخرُجين بشَعركِ الكستنائي الطّويل مرتديةً معطف عذراءٍ لونه أبيض ورمادي ومطرّز على ظهره الذّئب الرّهيب... عندها سيتعهّد كلُّ فارسٍ في (الوادي) بسيفه ليستردّ لك حقّكِ بالميلاد. هذه إذن هداياي لكِ يا عزيزتي سانزا... هاري، و(العُش)، و(وينترفل). ألا يستحقُّ هذا قُبلةً أخرى؟».

---

(67) الواقع أن تلك القُبلة التي سمّاها القرّاء «اللا قُبلة» لم تحدث، ولدى سؤال المؤلّف عن هذا التّناقُض أجابَ بأن سانزا راوية لا يُعتمَد عليها في هذه الحالة، وأنه يترُك التّفسير للقارئ كما يراه. (المترجم).

بريان

قالت لنفسها: *هذا حُلم شرِّير*، لكن إذا كان حلمًا فلِمَ الألم الممضُّ؟

كفَّ المطر عن الهطول، إلّا أن العالم بأكمله بليل. تشعر بمعطفها ثقيلًا كقميصها المعدني، والحبل الذي يُكبِّل رُسغيها متشبِّع تمامًا بالماء الذي جعلَه أضيق وأضيق، ومهما دوَّرت يديها لا تستطيع تخليص نفسها منه. لا تفهم مَن قيَّدها ولِمَ، وحاولَت أن تسأل الظِّلال فلم تُجِبها. ربما لم تسمعها، ربما لا تكون حقيقيَّةً من الأصل. تحت طبقات الصُّوف المبتلِّ والحلقات المعدنيَّة التي بدأ الصَّدأ يأكلها بشرتها ملتهبة محمومة، وتتساءل بريان إن كان كلُّ هذا حلمًا محضًا تمخَّضت عنه الحُمَّى.

تحتها حصان، وإن كانت لا تذكُر أنها امتطَته، وقد انطرحَت على وجهها فوق عجيزته كأنها جوال من الشُّوفان وقُيِّدَ رُسغاها وكاحلاها معًا. الهواء رطب، والأرض مستترة بالضَّباب، ورأسها يدقُّ مع كلِّ خُطوة، وتسمع أصواتًا لكنها لا ترى إلّا التُّربة تحت حوافر الحصان. في داخلها أشياء مكسورة، وتحسُّ بوجهها متورِّمًا وبدمٍ لزِج على وجنتها، وكلُّ رجَّةٍ أو رَدَّةٍ تطعن ذراعها وتُشعِل فيها الألم. تسمع پودريك يُناديها كما لو أنه في مكانٍ بعيد، ما برح يُرَدِّد: «أيتها الفارس، أيتها الفارس، سيِّدتي، أيتها الفارس، سيِّدتي». صوته خافت عصيٌّ على السَّمع، وفي النِّهاية لم تَعُد تسمع إلّا الصَّمت.

حلمَت بنفسها في (هارنهال)، في جُبِّ الذئبِ من جديد، وهذه المرّة كان العضّاض مَن يُواجِهها، ضخم أصلع أبيض كالدّيدان، وفي وجنتيه القروح المفتوحة. عاريًا انقضَّ عليها، يَدلّك غضوه ويصرُّ بأسنانه المدبّبة، وفرّت منه بريان صائحةً: «سيفي، (حافِظ العهد)، أرجوكم»، لكن المتفرّجين لم يُجيبوا. كان رنلي هناك، ومعه ديك الرّشيق وكاتلين ستارك، وأتى شاجويل وبيج أيضًا، والجُثث المشنوقة من الأشجار بوجناتها الغائصة وألسنتها المنتفخة ومحاجر عيونها الخالية. ولولَت بريان زعبًا لمرآها، وأطبقَ العضّاض على ذراعها وشدّها إليه وقضمَ قطعةً من وجهها، وسمعَت نفسها تصرُخ: «چايمي، چايمي!».

حتى في أعماق الحُلم لازمَتها الآلام. وجهها ينبض، وكتفها تنزف، وأنفاسها تُوجِع، والألم يتّقد في ذراعها كالبرق.

صاحت طالبةً مِايستر، فأجابَتها صوت فتاة: «ليس هناك مِايستر، فقط أنا».

أبحث عن بنت، بنتٍ رفيعة النّسب في الثّالثة عشرة لها عينان زرقاوان وشَعر كستنائي. تمتمَت: «سيّدتي؟ ليدي سانزا؟».

ضحك رجل، وقال: «تظنّك سانزا ستارك».

- «لا يُمكنها أن تستمرّ هكذا طويلًا، ستموت».

- «ويقلُّ عدد الأسود واحدًا. لن أبكيها».

سمعَت بريان أحدهم يُصلّي فخطرَ لها أولًا أنه السّيتون ميريبولد، لكن الكلمات خطأ. *اللّيل مظلم ومفعم بالأهوال، وكذلك الأحلام.*

في غابةٍ موحشةٍ يركبون، مكان مظلم صامت رطب يتراصّ فيه شجر الصّنوبر ويتلاصَق، والأرض ليِّنة تحت حوافر الحصان، والآثار التي تَترُكها وراءها تمتلئ بالدّماء. إلى جوارها يركب اللورد رنلي وديك كراب وفارجو هوت، ومن حَلق رنلي يسيل الدّم، ومن أُذن الكبش الممزّقة ينزُّ القيح. سألت بريان: «أين سنذهب؟ إلى أين تأخذونني؟»، ولم يُجِبها أحد. *وكيف يُجيبون؟ إنهم موتى جميعًا*. أيعني هذا أنها ميتة أيضًا؟

كان اللورد رنلي يسبقها، مليكها الباسم الجميل يقودها عبر الأشجار، ورفعَت بريان عقيرتها تقول له كم تحبُّه، لكن حين التفتَ يَرمُقها عابسًا رأت أنه ليس رنلي أصلًا، فرنلي لم يكن يعبس قَطّ. فكّرت: *لطالما ابتسم لي*... ولو أن...

بصوتٍ هامسٍ حائرٍ قال رنلي: «يا للبرودة»، وتحرّك ظِلٌّ لا يُلقيه رجل، وتدفّقت دماء سيِّدها الجميل من فولاذ واقي عُنقه الأخضر لتُغرِق يديها. كان رجلًا دافئًا، إلّا أن دماءه باردة كالجليد. *ليس هذا حقيقيًا، إنه حُلم سيئ آخَر، وقريبًا سأصحو*.

توقّف حصانها فجأةً، وأطبقت عليها أيدٍ خشنة. رأت خيوط ضوء الأصيل الأحمر تتخلّل غصون شجرة، وحصانًا يبحث بسنابكه وسط الأوراق الميتة عن ثمارها الساقطة، ورجالًا يتحرّكون على مقربةٍ منها ويتكلّمون بأصواتٍ خفيضة، عشرة رجال أو اثني عشر رجلًا وربما أكثر. لم تتعرّف بريان وجوههم، وكانت على الأرض وظَهرها يستند إلى جذع شجرة.

قال صوت الفتاة: «اشربي هذا يا سيِّدتي»، ورفعَت كوبًا إلى شفتيها. كان المذاق قويًا كريهًا، فبصقَت بريان ما شربَته، وقالت: «ماء، أرجوكِ، ماء».

ردّت الفتاة: «الماء لن يُساعِدكِ على احتمال الألم، أمّا هذا فسيُساعِد... بعض الشيء»، وعادَت ترفع الكوب إلى شفتيها.

حتى الشُّرب يُؤلِم. سالَ النّبيذ على ذقنها وقطرَ على صدرها، ولمّا فرغَ الكوب أعادَت الفتاة ملأه من قِربة، وجرعَت بِريان النّبيذ حتى لفظَته رغمًا عنها، وقالت: «كفى».

- «أكثر. إن ذراعكِ مكسورة وبعض ضلوعكِ تصدَّع، اثنان وربما ثلاثة».

- «العضّاض». قالت بِريان متذكّرةً ثِقله فوقها وكيف ارتطمَت رُكبته بصدرها.

- «أجل، وحش حقيقي».

تذكَّرت كلَّ شيء؛ البرق من فوق والطّمي من تحت، ورنين قطرات المطر الخافت على فولاذ خوذة كلب الصّيد الأسود، والقوّة الغاشمة في يدَي العضّاض. فجأةً لم تَعُد تحتمل قيودها وحاولَت التّملُّص من الحبل، غير أن هذا لم يُفضِ إلّا إلى إيلامها أكثر. معصماها مقيّدان بإحكامٍ شديد، وعلى الحبل دم جاف. سألَت مرتعدةً: «هل مات؟ العضّاض، هل مات؟». الآن تَذكُر أسنانه تُمزِّق لحم وجهها، وفكرة أنه لا يزال طليقًا يتنفَّس في مكانٍ ما تجعلها تُريد أن تَصرُخ.

- «مات. جندري غرسَ رأس حربةٍ في مؤخّرة عُنقه. اشربي يا سيّدتي وإلّا صببته في حلقكِ».

وشربَت بِريان، وبين رشفتين همسَت: «إنني أبحثُ عن بنت». كانت تقول: أختي. «بنت رفيعة النّسب في الثّالثة عشرة لها عينان زرقاوان وشَعر كستنائي».

- «لستُ هي».

نعم. ترى بِريان هذا. الفتاة نحيلة لدرجة أنها تبدو كأنها تُعاني جوعًا مزمنًا، وتجدل شَعرها البنّي في ضفيرة، ونظرة عينيها أكبر من سِنّها. *شَعر بنّي وعينان بنّيتان وملامح تقليديّة. إنها ويلو لكن أكبر بستّة أعوام.* «أنتِ الأخت، صاحِبة الخان».

زرَّت الفتاة عينيها مجيبةً: «ربما. ماذا لو أنني هي؟».

سألَتها بِريان: «ما اسمكِ؟»، وقرقرَت معدتها فخشيت أن تتقيأ.

- «هدِل، مِثل ويلو، چاين هدِل».

- «چاين، حلّي وثاقي، أرجوكِ، أشفِقي عليّ. الحبل يكشط جِلد معصمَي ويُدميهما».

- «ليس مسموحًا لي. ستبقين مقيّدةً حتى...».

- «... حتى تقفين أمام سيِّدتي». كان رنلي واقفًا وراء الفتاة، يُزيح شَعره الأسود عن عينيه. *ليس رنلي، بل جندري*. «سيِّدتي تُريدكِ أن تدفعي ثمن جرائمكِ».

- «سيِّدتي». كان النَّبيذ يُدير رأسها ويجعل التَّفكير صعبًا. «قلب الحجر. أهي مَن تعني؟». إنها المرأة التي ذكرَها اللورد راندل في (بِركة العذارى). «الليدي قلب الحجر؟».

- «بعضهم يدعوها بهذا وبعضهم بأسماء أخرى؛ الأخت الصَّامتة، أم القسوة، الشَّنّاقة».

الشَّنّاقة. حين أغلقَت بِريان عينيها رأت الجُثث تتأرجح من الفروع البنّيّة الجرداء بوجوهٍ مسودّة منتفخة، وفجأةً استبدّ بها خوف عارم، وقالت: «پودريك، مُرافقي، أين پودريك؟ والآخرون... السير هايل والسِّپتون ميريبولد وكلب. ماذا فعلتم بكلب؟».

تبادلَ جندري والفتاة نظرةً، وكافحت بِريان لتنهض، واستطاعت أن ترفع رُكبةً واحدةً قبل أن يميد بها العالم، وقُبيل أن تبتلعها الظُّلمة سمعَت جندري يقول: «أنتِ التي قتلتِ الكلب يا سيِّدتي».

ثم إذا بها في (قلعة الهمس) من جديد، تقف بين الأطلال وتُواجِه كلارنس كراب. كان ضخمًا شرسًا ويمتطي ثورًا بزئيًا شعره أكثر شعثًا منه، وراح الحيوان يضرب الأرض ببراثنه بغضبٍ حافرًا فيها أخاديد عميقةً. لكراب أسنان مدبّبة، ولمّا مدّت يدها إلى سيفها تمتشقه وجدت الغِمد خاليًا، وإذ انقضّ السير كلارنس صاحت: «لا!». ليس هذا عدلًا. إنها لا تستطيع القتال دون سيفها السّحري، السّيف الذي أعطاها السير چايمي إياه، وفكرة أن تخذله كما خذلَت اللورد رنلي تجعلها تُريد الانفجار في البُكاء. «سيفي، أرجوكم، يجب أن أجد سيفي».

أعلنَ صوت: «تُريد سيفها».

- «وأنا أريدُ أن تمصّ لي سرسي لانستر قضيبي، وماذا في هذا؟».

- «چايمي سمّاه (حافِظ العهد)، أرجوكم!». إلّا أن الأصوات لم تُصغِ، وكرّ كلارنس كراب عليها كالرّعد وأطاح برأسها، وغاصت برِيان في ظُلمةٍ أعمق.

حلمَت بنفسها ممدّدةً في قاربٍ ورأسها يتوسّد حِجر أحدهم وحولهما من كلّ جانبٍ ظلال، رجال يُخفون وجوههم بالقلنسوات ويرتدون الحلقات المعدنيّة والجِلد ويَسلُكون بهما نهرًا يكسوه الضّباب بمجاذيف مكتومة. كانت ملتهبةً تتصبّب عرقًا، ولكن بوسيلةٍ ما ترتجف أيضًا. الضّباب مليء بالوجوه، وهمسَت أشجار الصّفصاف على الضّفاف: *المليحة*، لكن البوص ردّ: *المسخ، المسخ*. ارتعشَت برِيان، وقالت: «أسكِتوها، فليُسكِتها أحد».

عندما استيقظَت المرّة التالية كانت چاين ترفع كوبًا من الحساء الساخن إلى فمها. مرق بصل. شربَت منه ما استطاعت، إلى أن احتبسَت قطعة من الجزر في حلقها وكادت تخنقها، وكان السُّعال عذابًا. قالت الفتاة: «تمهّلي».

قالت بصوتٍ مصحوب بالصّفير: «جندري، يجب أن أتكلّم مع جندري».

- «لقد عادَ أدراجه عند النّهر يا سيّدتي، رجعَ إلى ورشته، إلى ويلو والصّفار ليحميهم».

لا أحد يستطيع حمايتهم. بدأت تَسعُل ثانيةً، فقال أحدهم: «آه، اتركيها تختنق ووفّري لنا الحبل». وتحرّك أحد الظّلال ودفعَ الفتاة جانبًا. رأته يرتدي الحلقات المعدنيّة الصّدئة ويتمنطَق بحزامٍ مطعَّم بالحديد، ومن وَركيه يتدلّى سيف طويل وخنجر، وقد التصقَ بكتفيه معطف أصفر ضخم متّسخ ومشبَع بالماء، ومن هاتين الكتفين يرتفع رأس كلبٍ من الفولاذ يُكشّر عن أنيابه.

وأنّت بريان، وقالت: «لا! لا، أنت ميت، لقد قتلتك».

ضحك كلب الصّيد، وردّ: «العكس هو الصّحيح. أنا مَن سيقتُلك. كنتُ لأفعلها الآن لولا أن سيّدتي ترغب في رؤيتك مشنوقةً».

مشنوقة. زلزلَتها الكلمة خوفًا. نظرَت إلى الفتاة چاين مفكّرةً: *إنها أصغر من أن تكون بهذه القسوة*، وشهقَت قائلةً لها: «العيش والملح. الخان... السّيتون ميريبولد أطعمَ الأطفال... لقد أكلنا عيشًا وملحًا مع أختكِ...».

قالت الفتاة: «لم يَعُد حقُّ الضّيافة يعني الكثير منذ عادت سيّدتي من الزّفاف. بعض المتدلّين عند النّهر حسبوا أنفسهم ضيوفًا أيضًا».

وقال كلب الصّيد: «ونحن حسبنا شيئًا آخر. أرادوا أسرّةً فأعطيناهم الأشجار».

أضافَ ظِلٌّ آخَر بعينٍ واحدة يعتمر خوذةً مستديرةً صدئةً: «عندنا أشجار أكثر من الأسرّة، دائمًا عندنا أشجار أكثر».

لمّا حانَ وقت التّحرّك مجدّدًا وضعوا على رأسها غطاءً من الجِلد بلا فتحتين للرؤية، وكتمَ الجِلد الأصوات المحيطة بها. ظَلَّ مذاق البصل على لسانها لاذعًا كمعرفتها بفشلها. ينوون شنقي. فكّرت في جايمي وفي سانزا وفي أبيها في (تارث)، وامتنّت لوجود الغطاء على وجهها إذ أخفى الدّموع المترقرقة في عينيها. بين الحين والآخر تسمع الخارجين عن القانون يتكلّمون دون أن تُميّز ما يقولونه، وبَعد فترةٍ سلّمت نفسها إلى الإنهاك وحركة حصانها البطيئة الرّتيبة.

هذه المرّة حلمَت بنفسها في الوطن في (بهو المساء). من نوافذ بهو أبيها الطّويلة المقنطَرة رأت الشّمس تبدأ رحلة المغيب، وقالت لنفسها: *كنتُ آمنةً هنا، كنتُ آمنةً*.

كانت ترتدي الحرير المطرّز، فُستانًا أزرق وأحمر مربّع النّقش تُزيّنه الشّموس الذّهب والأهلّة الفضّة. على بدن فتاةٍ أخرى كان ليبدو فُستانًا جميلًا، أمّا عليها هي فلا. كانت في الثّانية عشرة، خرقاء متوتّرةً، تنتظر لقاء الفارس الشّاب الذي اتّفق أبوها على زواجها به، الفتى الذي يكبُرها بستّة أعوام ومن المؤكّد أنه سيُصبِح بطلًا بعيد الصّيت ذات يوم. كم تخشى مجيئه. ثدياها صغيران للغاية، ويداها وقدماها كبيرة للغاية، وشعرها لا ينفكّ ينفر، وفي البُقعة الغائرة إلى جوار أنفها بثرة. وعدَها أبوها قائلًا: «سيُعطيكِ وردةً»، لكن الوردة لا جدوى منها، لا يُمكنها أن تحتمي بوردة. ما تُريده سيف. *(حافِظ العهد). يجب أن أعثر على الفتاة، يجب أن أعثر على شرفه*.

أخيرًا انفتحَ الباب ودخلَ خطيبها بهو أبيها بخُطواتٍ واسعة. حاولَت أن تُحَيِّيه كما أملِيَ عليها، فقط لتتدفَّق الدِّماء من فمها. كانت قد قضمَت لسانها بينما تنتظر، وبصقَته عند قدمَي الفارس الشَّاب ورأت الاشمئزاز على ملامحه. بنبرةٍ ساخرة قال لها: «بريان المليحة. لقد رأيتُ خنازير أجمل منكِ»، وألقى الوردة في وجهها، وإذ ابتعدَ تموَّجت الجَرافِن على معطفه وتشوَّشت واستحالَت إلى أسود. أرادَت أن تصيح: *چايمي! چايمي، عُد إليَّ!* إلَّا أن لسانها كان على الأرض إلى جوار الوردة تُلَطِّخه الدِّماء.

واستيقظَت بريان فجأةً تلهث.

لم تدرِ أين هي. الهواء بارد ثقيل ويعبق بروائح التُّربة والدُّود والعفَن، وهي مستلقية على سريرٍ من القَشِّ تحت كومةٍ من جلود الغنم، فوق رأسها صخور ومن الجُدران تَبرز جذور، والضَّوء الوحيد في المكان ينبعث من شمعةٍ من الشَّحم يتصاعَد دُخانها وتُحيط بها بركة شمعٍ ذائب.

أزاحَت الأغطية، ورأت أن أحدهم جرَّدها من ثيابها ودرعها، وبدلًا منها ترتدي الآن قميصًا طويلًا من الصُّوف البنِّي، خفيفًا لكن مغسولًا حديثًا. كان ساعِدها مثبَّتًا بجبيرةٍ ومربوطًا بالكتَّان، وأحسَّت بأحد جانبَي وجهها مبتلًا يابسًا، ولمَّا مسَّته وجدَت ضمادةً رطبةً تُغَطِّي وجنتها وفكَّها وأذنها. *العضَّاض*...

نهضَت بريان على قدمين من ماء وبرأسٍ خفيف كالهواء، وتساءلَت: «هل من أحدٍ هنا؟».

تحرَّك شيء ما في إحدى الفجوات الظَّليلة وراء الشَّمعة، رجل عجوز أشيب يرتدي الأسمال. سقطَت الأغطية التي التحفَ بها إلى الأرض، واعتدلَ جالسًا وفركَ عينيه قائلًا: «ليدي بريان؟ لقد أفزعتِني. كنتُ أحلمُ».

لا، كنتُ أنا الحالمة. «ما هذا المكان؟ أهذه زنزانة؟».

- «كهف. كالجرذان علينا أن نهرع إلى جحورنا حين تَخرج الكلاب تتشمّم آثارنا، والكلاب تزداد عددًا كلّ يوم». يرتدي الرّجل بقايا مهترئةً لثوبٍ طويل قديم كان لوناه أبيض وورديًا، وشَعره طويل شائب متلبّد، ويُغطّي زغب خشن جِلد وجنتيه وذقنه المتهدّل. سألَها: «أأنتِ جائعة؟ هل تستطيعين أن تشربي كوبًا من الحليب بلا قيء؟ ربما القليل من الخُبز والعسل؟».

- «أريدُ ملابسي وسيفي». دون قميصها المعدني تَشعر كأنها عارية، وتُريد (حافِظ العهد) إلى جانبها. «طريق الخروج. أرِني طريق الخروج». أرض الكهف تُراب وحجارة، خشنة تحت أخمصَي قدميها، وحتى الآن تُشعر بالدُّوار كأنها طافية. كان الضّوء المتذبذب يُلقي ظلالًا غريبةً، ففكّرت: *أرواح القتلى تَرقُص حولي، تختبئ كلّما التفتُّ أنظرُ إليها*. في كلِّ ناحيةٍ ترى فجواتٍ وصدوعًا وشروخًا، لكن لا سبيل إلى معرفة الطّريق الذي يأخذها إلى الخارج، أو الطّريق الذي يتوغّل بها في الكهف أكثر أو يقودها إلى نهايةٍ مسدودة. كلُّها أسود كالقار.

سألَها سجّانها: «هل تسمحين بأن أتحسّس جبهتكِ يا سيّدتي؟». يده نديية يابسة الجِلد، لكنها رقيقة على نحوٍ غريب، وقد أعلن بصوتٍ منكّه بلكنات المُدن الحُرّة: «زالَت الحمّى. عظيم. حتى البارحة كان ملمس جِلدكِ كأنه مشتعل نارًا، وخشيَت چاين أن نفقدكِ».

- «چاين. الفتاة الطّويلة؟».

- «هي بالضّبط، ولو أنها لا تُضاهيكِ في الطّول يا سيّدتي. يدعونها بچاين الفارعة. هي التي جبرَت ذراعكِ وضمّدته ببراعة أيِّ مِايستر. لقد بذلَت كلَّ ما استطاعت لعلاج وجهكِ أيضًا، غسلَت الجروح بالمِزر المغلي لتوقِف التّعفُّن، لكن رغم ذلك... عضّة الإنسان شيء قذر. إنني واثق بأنها كانت السّبب في الحمّى»، ومسّ الأشيب وجهها المضمّد مردفًا: «اضطررنا إلى قطع القليل من اللّحم. أخشى أن وجهكِ لن يعود جميلًا».

لم يكن كذلك قطُّ. «أتعني النُّدوب؟».

- «سيِّدتي، ذلك المخلوق مضغَ نِصف وجنتكِ».

جفلَت بريان رغمًا عنها. حين سألَت السير جودوين أن يُعلِّمها القتال بالسَّيف قال لها محذِّرًا: *كلُّ فارسٍ يحمل ندوب المعارك*. *أهذا ما تُريدين يا بُنيَّتي؟* على أن قيِّم السِّلاح العجوز كان يقصد إصابات السُّيوف، وما كان ليتوقَّع أسنان العضَّاض المدبِّبة مطلقًا. «لماذا تُجبِرون عظامي وتغسلون جروحي إذا كنتم تنتوون شنقي؟».

قال: «لماذا حقًّا؟»، ونقلَ بصره إلى الشَّمعة كأنه لم يَعُد يُطيق النَّظر إليها، وتابعَ: «قيلَ لي إنكِ قاتلتِ بشجاعةٍ عند الخان. لم يكن يَجدُر بليم أن يَترُك مفترَق الطُّرق. كانت تعليماته أن يبقى قريبًا متواريًا، وأن يأتي في الحال إذا رأى الدُّخان يتصاعَد من المدخنة... لكن حين بلغَه خبر برؤية كلب (الملّاحات) المسعور يشقُّ طريقه شمالًا بمحاذاة (الفرع الأخضر) ابتلعَ الطُّعم. كنا نُلاحِق تلك المجموعة منذ فترةٍ طويلة جدًّا... ومع ذلك كان عليه أن يكون أكثر حيطةً. هكذا مَرَّ نِصف يومٍ قبل أن يُدرِك أن الممثِّلين استخدَموا جدولًا لإخفاء آثارهم وداروا من ورائه، ثم ضاعَ منه المزيد من الوقت في الدَّوران حول فِرقةٍ من فُرسان فراي. لولاكِ لما وجدَ ليم ورجاله في الخان إلّا الجُثث عندما عادوا. لهذا ضمَّدت چاين جروحكِ ربما. أيًّا كان ما فعلتِه غير هذا فقد كسبتِ هذه الجروح بشرفٍ وفي سبيل أفضل الغايات».

أيًّا كان ما فعلتِه غير هذا. «وما الذي تحسبونني فعلته؟ مَن أنتم؟».

- «كنا رجال الملك حين بدأنا، لكن رجال الملك يحتاجون إلى ملك، ونحن لا ملك لنا. كنا إخوةً أيضًا، لكن أخوَّتنا انفصمَت عُراها. الحقيقة أنني أجهلُ مَن نحن أو إلامَ نتَّجه. لا أدري إلّا أن الطَّريق مظلم، والنِّيران لم تُرِني ما يقبع في نهايته».

أعرفُ ما في نهايته. لقد رأيتُ الجثث على فروع الأشجار.

ردّدت برِيان: «النّيران»، وفجأةً فهمَت، فقالت: «أنت الرّاهب المايري، السّاحر الأحمر».

خفضَ عينيه إلى ثوبه المهترئ وابتسمَ بكآبةٍ قائلًا: «المدّعي الوردي بمعنى أدق. أنا (ثوروس) الذي كان من (مير)، نعم... راهب سيّئ وساحر أسوأ».

- «أنت تركب مع دونداريون سيّد البرق».

- «البرق يسطع ويخفت ثم ينطفئ تمامًا، وكذا البشر. لقد انطفأت نار اللورد بريك في هذا العالم، والآن يقودنا ظِلٌّ أكثر جهامةً في مكانه».

- «كلب الصّيد؟».

زَمَّ الرّاهب شفتيه مجيبًا: «كلب الصّيد ماتَ ودُفِنَ».

- «لقد رأيته في الغابة».

- «حُلم حُمّى يا سيّدتي».

- «قال إنه سيشنُقني».

- «حتى الأحلام تكذب. سيّدتي، متى أكلتِ آخِر مرّة؟ مؤكّد أنك تتضوّرين جوعًا».

أدركَت أنها كذلك حقًّا، وأحسّت بخواء معدتها، فقالت: «الطّعام... سأرحّبُ بالطّعام، شكرًا».

- «وجبة إذن. اجلسي. سنتكلّم أكثر، لكن الوجبة أولًا. انتظري هنا»، وأشعلَ ثوروس فتيلًا من شمعةٍ ذائبة واختفى في فجوةٍ سوداء تحت إفريزٍ صخري، ووجدَت برِيان نفسها بمفردها في الكهف الصّغير. *لكن إلى متى؟*

ذرعَت المكان باحثةً عن سلاح. كان أيّ سلاحٍ ليَصلُح؛ عصا أو هراوة أو خنجر، لكنها لم تجد إلّا الصُّخور. ناسبَت إحداها يدها تمامًا... ثم إنها تذكّرت (قلعة الهمس) وما جرى لشاجويل حين حاولَ القتال بحجرٍ ضد سكّين، ولمّا سمعت خُطوات الرّاهب العائدة تركَت الصّخرة تَسقُط على أرض الكهف وجلسَت من جديد.

رجعَ ثوروس حاملًا خُبزًا وجُبنةً ووعاءً من اليخنة، وقال لها: «آسفٌ، آخِر حليبنا حمضَ والعسل كلُّه نفدَ. الطّعام أصبحَ شحيحًا، لكن هذا سيُشبِعك».

كانت اليخنة باردةً مليئةً بالدّهون والخُبز جامدًا والجُبنة أكثر جمودًا، وفي حياتها كلّها لم تتذوّق بريان شيئًا بهذه اللّذاذة. سألَت الرّاهب بينما تمسح ثُمالة اليخنة بالخُبز: «هل رفاقي هنا؟».

- «الشيتون أطلِقَ سراحه وذهبَ في حال سبيله. لم يكن الرّجل مؤذيًا. الآخران هنا، ينتظران الحُكم».

قطّبت وجهها قائلةً: «الحُكم؟ بودريك باين مجرّد صبي».

- «يقول إنه مُرافق».

- «أنت تعرف كم يحبُّ الصّبية التّباهي».

- «مُرافق العفريت. لقد قاتلَ في معركةٍ باعترافه، بل ويقول إنه قتلَ كذلك».

- «إنه صبي. أشفِقوا عليه».

قال ثوروس: «سيّدتي، لا أشكّ في أن الرّأفة والرّحمة والمغفرة ما زالَ لها وجود في مكانٍ ما في (الممالك السّبع)، لكن لا تتطلّعي إليها هنا. هذا كهف لا معبد. حين يُرغَم النّاس على المعيشة كالجرذان في الظّلام تحت الأرض فسرعان ما تنفد منهم الشّفقة كما ينفد الحليب والعسل».

- «والعدالة؟ أيُمكن العثور عليها في كهف؟».

ابتسمَ توروس بشحوبٍ قائلًا: «العدالة. إنني أذكرُ العدالة. كان لها مذاق سار. العدالة كانت بُغيتنا وقت أن قادَنا بريك، أو هكذا أخبَرنا أنفسنا. كنا رجالَ الملك، فُرسانًا وأبطالًا... لكن بعض الفُرسان قلبه مظلمٌ ومفعمٌ بالأهوال يا سيِّدتي. الحرب تُحيلنا جميعًا إلى وحوش».

- «هل تقول إنكم وحوش؟».

- «أقولُ إننا بَشر. لستِ الوحيدة المثخنة بالجراح يا ليدي بريان. بعض إخوتي كانوا رجالًا صالحين حين بدأنا، وبعضهم كانوا... لنقل إنهم كانوا أقلّ صلاحًا. ولو أن هناك من يقولون إن بداية الرّجل لا تهمّ، وإنما نهايته فقط. أظنُّ أن الشّيء نفسه ينطبق على النّساء»، ونهضَ الرّاهب مردفًا: «أخشى أن وقتنا معًا انتهى. إنني أسمعُ إخوتي قادمين. سيِّدتنا تَطلُبكِ».

سمعَت بريان وقع أقدامهم ورأت ضوء مشعلٍ يتذبذب في الممر، وقالت: «ذكرت أنها ذهبت إلى (الشوق القصيّة)».

- «بالفعل، وعادَت ونحن نائمون. إنها لا تنام أبدًا».

قالت لنفسها: *لن أخاف*، لكن أوان ذلك فاتَ بالفعل، فوعدَت نفسها: *لن أدعهم يرون خوفي*.

أتاها أربعة، رجال قُساة وجوههم تعِبة يرتدون الحلقات والصّفائح المعدنيّة والجِلد، وقد تعرّفت أحدهم، الأعور الذي رأته في أحلامها.

كان أكبر الأربعة حجمًا يرتدي معطفًا أصفر رثًّا متّسخًا، وخاطبَها قائلًا: «هل استمتعتِ بالطّعام؟ أتمنى هذا. إنها آخِر وجبةٍ ستأكلينها». له شَعر بنّي ولحية وعضلات مفتولة وأنف انكسرَ والتحمَ على نحوٍ سيِّئ. فكّرت بريان: *أعرفُ هذا الرّجل*، وقالت له: «أنت كلب الصّيد».

ابتسمَ باتّساعٍ كاشفًا منظر أسنانه المعوجّة النّخرة الشّنيع، وردّ: «أظنُّ أنني هو بما أن سيِّدتي قتلَت السّابق»، ودوّر رأسه وبصقَ.

قالت متذكّرة وميض البرق والوحل تحت قدميها: «رورج هو مَن قتلك. لقد أخذ الخوذة من على قبر كليجاين وأنت سرقتها من جثته».

- «لم أسمعه يعترض».

شهق ثوروس فزعًا، وسأل: «أهذا صحيح؟ خوذة رجلٍ ميت؟ هل انحدرنا لهذه الدّرجة؟».

أجابه الرّجل الكبير عابسًا: «إنه فولاذ جيّد».

قال الرّاهب الأحمر: «لا شيء جيّدًا في هذه الخوذة أو في الرّجلين اللذين اعتادا اعتمارها. ساندور كليجاين كان رجلًا معذَّبًا، ورورج وحشًا في هيئة إنسان».

- «لستُ مِثلهما».

- «لماذا تُري العالم وجههما إذن؟ هذا وجه شرس شائه مزمجر... أهذا مَن تُريد أن تكون يا ليم؟».

- «منظرها سيُخيف أعدائي».

- «منظرها يُخيفني أنا».

قال ذو المعطف الأصفر: «أغمِض عينيك إذن»، ثم لوّح بيده بحدّةٍ مستطردًا: «أحضِروا العاهرة».

لم تُقاوِم بريان. إنهم أربعة وهي واهنة وجريحة وعارية تحت القميص الصّوف الطّويل. اضطرّت إلى حني عُنقها كي لا يختبط رأسها بالسّقف إذ ساقوها في الممرّ المتعرّج، ثم ارتفع الطّريق أمامهم بحدّةٍ وانعطف مرّتين قبل أن يخرجوا إلى كهف أكبر مليء بالخارجين عن القانون.

في منتصف الأرضيّة حُفرة نار يصبغ دُخانها الهواء بالأزرق، وقد تلملمَ الرّجال قُرب النّار مدفّئين أنفسهم من برد الكهف، ووقفَ آخرون عند الحوائط أو جلسوا مربّعين السّيقان على أسرّةٍ من القش. رأت نساءً أيضًا، بل وبضعة أطفالٍ يختلسون النّظر من وراء تنانير أمّهاتهم. الوجه الوحيد الذي تعرّفته بريان هو وجه چاين هدِل الفارعة.

على الجانب الآخَر من الكهف طاولة منصوبة في صدعٍ في الصَّخر، ووراءها تجلس امرأة ترتدي الرَّمادي وتُخفي قلنسوة معطفها وجهها، وفي يدها تاج هو دائرةٌ رفيعة من البرونز الذي تَبرز منه سيوف حديديَّة صغيرة، وكانت المرأة تتفرَّس فيه وتتحسَّس أصابعها النّصال كأنها تختبر حدَّتها، وتحت القلنسوة تلتمع عيناها.

الرَّمادي لون الأخوات الصَّامتات، وصيفات (الغريب).

أحسَّت بِريان بالقشعريرة تسري على عمودها الفقري، وقالت لنفسها: *قلب الحجر*.

قال الرَّجل الكبير: «ها هي ذي يا سيِّدتي».

أضافَ الأعور: «أجل، عاهرة قاتِل الملك».

سألَت جافلةً: «لماذا تنعتني بهذا؟».

- «لو نلث أيلًا فضِّيًا كلَّ مرَّةٍ نطقتِ فيها اسمه لصرتُ ثريًا كأصدقائكِ أولاد لانستر».

- «كان هذا مجرَّد... لستم تفهمون...».

قال الكبير ضاحكًا: «حقًّا؟ أظنُّ أننا نفهم تمامًا. رائحة الأسود فائحة منكِ أيتها السيِّدة».

- «غير صحيح».

تقدَّم واحد آخَر من الخارجين عن القانون، رجل أصغر سِنًّا يرتدي سُترةً من جِلد الأغنام مبقَّعةً بالشَّحم، وفي يده (حافِظ العهد)، وقد قال بلكنةٍ يكسوها صقيع الشَّمال: «هذا يقول إنه صحيح»، ثم سحبَ السَّيف من غِمده ووضعه أمام الليدي قلب الحجر. في ضوء بؤرة النّار بدَت تموُّجات النَّصل الحمراء والسَّوداء كأنها تتحرَّك، لكن المرأة ذات المعطف الرَّمادي سلَّطت نظراتها على القبيعة وحدها، على رأس الأسد الذَّهبي ذي العينين الياقوت المتألِّقتين كنجمتين حمراوين.

قال توروس المايري: «هناك هذه أيضًا»، وسحبَ من كُمّه رَقًّا وضعه إلى جوار السّيف مضيفًا: «الورقة تحمل ختم الملك الصّبي وتقول إن حاملها مكلّف منه».

وضعَت الليدي قلب الحجر السّيف وقرأت الرّسالة.

قالت برِيان: «لقد أعطيتُ السّيف لهدفٍ وجيه. السير چايمي حلفَ يمينًا لكاتلين ستارك...».

قاطعَها الكبير ذو المعطف الأصفر: «لا بُدّ أن هذا كان قبل أن يذبحها أصدقاؤه. كلّنا يعرف قاتِل الملك وأيمانه».

فكّرت برِيان: *لا فائدة. لا شيء أقوله سيُقنِعهم،* إلّا أنها اندفعَت رغم ذلك تقول: «لقد وعدَ الليدي كاتلين بابنتيها، لكن لدى بلوغنا (كينجز لاندنج) كانتا قد رحلَتا. چايمي أرسلَني أبحث عن الليدي سانزا...».

سألَها الشّمالي الشّاب: «وإذا عثرتِ على الفتاة فماذا كنتِ ستفعلين بها؟».

- «أحميها، آخذها إلى مكانٍ آمن».

ضحك الكبير متسائلًا: «أين؟ زنزانة سرسي؟».

- «لا».

- «أنكِري كما شئتِ. السّيف يقول إنكِ كاذبة. هل يُفترَض أن نُصدّق أن آل لانستر يُعطون أعداءهم سيوفًا مرصّعة بالذّهب والياقوت؟ أن قاتِل الملك أرادكِ أن تُخفي الفتاة عن توأمته؟ وأظنّ أنكِ تحملين الورقة المذيّلة بختم الملك الصّبي تحسّبًا لأن تحتاجي إلى مسح مؤخّرتكِ بها؟ ثم إن هناك رفيقيكِ...»، والتفتَ الكبير وأشار، فانشقّت صفوف الخارجين عن القانون وجيءَ بأسيرين آخرين، وقال لليدي قلب الحجر: «الصّبي كان مُرافق العفريت يا سيّدتي، والآخر واحد ملعون من فُرسان راندل تارلي اللّعين».

تلقّى هايل هَنت ضربًا مبرِّحًا لدرجة أنها كادَت لا تتعرّف وجهه المتورِّم، وإذ دفعوه تعثَّر وكادَ يَسقُط، لكن پودريك أمسكَه من ذراعه، ولمّا رأى الصّبي بِريان قال ببؤس: «أيتها الفارس، أعني يا سيِّدتي، أنا آسفٌ».

ردّت بِريان: «ليس هناك ما تأسف له»، والتفتَت إلى قلب الحجر قائلةً: «أيًا كانت الخيانة التي تحسبينني ارتكبتها يا سيِّدتي فلم يكن لپودريك والسير هايل دور فيها».

قال الأعور: «إنهما أسدان، وهذا يكفي. أقولُ أن يُشنَقا. تارلي شنقَ عشرين من رجالنا، وآنَ أوان أن نشنق أحدًا من رجاله».

منحَ السير هايل بِريان ابتسامةً منطفئةً، وقال: «سيِّدتي، كان حريًا بكِ أن تتزوَّجيني عندما عرضتُ عليكِ، والآن أخشى أنكِ ستموتين عذراء وأنني سأموتُ فقيرًا».

قالت بِريان بضراعة: «أطلِقوا سراحهما».

لم تُجِب المرأة ذات المعطف الرّمادي، بل أمعنَت النّظر إلى السّيف والورقة والتّاج البرونز والحديد، وأخيرًا رفعَت يدها تضعها تحت فكّها وأمسكَت رقبتها بإحكامٍ كأنها تُريد أن تَخنق نفسها، لكنها بدلًا من ذلك تكلّمت... صوتها متقطِّع، مكسور، معذَّب، ويبدو كأنه يَخرج من حَلقها لا فمها، جزء منه نعيب، جزء منه صفير، جزء منه خشخشة الموت. *لُغة الملعونين*.

قالت بِريان: «لا أفهمُ. ماذا قالت؟».

أجابَ الشّمالي الشّاب ذو الشّترة الجِلد: «سألَت عن اسم سيفكِ هذا».

- «(حافِظ العهد)».

همهمَت المرأة من بين أصابعها، عيناها حُفرتان حمراوان متّقدتان في الظّلال... وتكلّمت ثانيةً.

- «تقول لا، تقول إن عليكِ أن تُسمّيه ناقِض العهد، إنه مصنوع للخيانة والغيلة. تُسمّيه الصّديق الغادر، مِثلكِ».

- «بِمَن غدرتُ؟».

قال الشمالي: «بها. أيُمكن أن سيِّدتي نسيت أنها أقسمت على خدمتها؟».

ثمة امرأة واحدة أقسمت لها عذراء (تارث) على الخدمة، فقالت: «مستحيل. لقد ماتت».

تمتمت چاين هِدِل الفارعة: «ما عادَ الموت وحقُّ الضِّيافة يعنيان الكثير كالسّابق».

خفضَت الليدي قلب الحجر قلنسوتها وحلَّت الوشاح الصُّوف الرّمادي عن وجهها. شعرها جافٌّ متقصِّف أبيض كالعظم، وجبهتها مزيج من الأخضر والرّمادي ومبقَّعة بشروخ التحلُّل البنِّيّة، ولحم وجهها شرائط متهتِّكة من عينيها إلى فكِّها، بعض شقوقه عليه قشرة من الدِّماء الجافّة، وبعضها مفتوح يكشف الجمجمة من تحته.

وجهها، وجهها كان قويًّا وسيمًا، وجِلدها أملس ناعمًا. ملأت الدُّموع عينَي بريان، وقالت: «ليدي كاتلين؟ قالوا... قالوا إنكِ مُتِّ».

قال ثوروس المايري: «إنها ميتة. آل فراي شقُّوا حلقها من الأذن إلى الأذن. حين وجدناها على ضفَّة النّهر كانت ميتةً منذ ثلاثة أيام. توسَّل إليّ هاروين أن أعطيها قُبلة الحياة، لكن وقتًا طويلًا جدًّا كان قد مضى. رفضتُ أن أفعلها ثانيةً، فوضعَ اللورد بريك شفتيه على شفتيها بدلًا مني وانتقلَ لهب الحياة إليها منه، و... نهضَت. فليحمنا إله الضِّياء، لقد نهضَت!».

أما زلتُ أحلمُ؟ أهذا كابوس آخَر ولدَته أسنان العضّاض؟ «لم أخنها قطّ. قُل لها هذا. أقسمُ بالآلهة السّبعة. أقسمُ بسيفي».

وضعَ الشّيء الذي كان كاتلين ستارك يده على حلقه ثانيةً ووضعَت أصابعه الشَّقّ الطّويل الفظيع في عنقه، وخرج منه المزيد من الكلمات المخنوقة، ثم قال الشّمالي لبريان: «تقول إن الكلام هواء، تقول إن عليكِ إثبات إخلاصكِ».

- «كيف؟».

- «بسيفك. تُسَمِّينه (حافِظ العهد)؟ سيِّدتي تقول أن تحفظي عهدكِ لها إذن».

- «ماذا تُريد مني؟».

قال الكبير: «تُريد ابنها حيًّا أو مَن قتلوه موتى. تُريد أن تُطعِم الغِربان كما فعلوا في الزِّفاف الأحمر، آل فراي وآل بولتون، نعم. هؤلاء ستعطيها العدد الذي ترغبه منهم. كلُّ المطلوب منكِ چايمي لانستر».

چايمي. كان الاسم سكِّينًا يتلوَّى في بطنها. «ليدي كاتلين، إنني... لستِ تفهمين. چايمي... لقد أنقذَني من الاغتصاب حين أسرَنا الممثِّلون السفَّاحون، ولاحقًا عادَ من أجلي ووثبَ في جُبِّ الدُّبِّ وهو أعزل... أقسمُ لكِ أنه لم يَعُد الرَّجل الذي كانه. لقد أرسلَني أبحث عن سانزا لأحميها، ولا يُمكن أنه لعبَ دورًا في الزِّفاف الأحمر».

انغرسَت أصابع الليدي كاتلين في حلقها، وخرجَت منها الكلمات مخشخشةً مخنوقةً مكسورةً، تتدفَّق جدولًا باردًا كالجليد، ثم قال الشمالي: «تقول إن عليكِ أن تختاري. خُذي السيف واقتلي قاتِل الملك وإلَّا شُنِقتِ كخائنة. تقول إمَّا السيف وإمَّا الأنشوطة. تقول اختاري، فهيا اختاري».

تذكَّرت بريان حلمها وانتظارها في بهو أبيها الرَّجل الذي كانت ستتزوَّجه. في الحلم قطعَت لسانها بأسنانها. *وكان فمي مليئًا بالدَّم*. التقطَت نفَسًا مهتزًّا، وقالت: «لن أختار».

رانَ صمت طويل، ثم تكلَّمت الليدي قلب الحجر ثانيةً، وهذه المرَّة فهمَت بريان ما قالته بصوتٍ كالنَّعيب. كانتا كلمتين لا أكثر: «اشنقوهم جميعًا».

قال الكبير: «كما تأمرين يا سيِّدتي».

عادوا يُقيّدون رُسغَي بريان بالحبال وساقوها من الكهف صاعدين ممرًا حجريًا متعرّجًا إلى السّطح. رأت مندهشةً أن الضّباح طلعَ في الخارج، وقد تخلّلت خيوط ضوء الفجر الشّاحب الأشجار. *أشجار كثيرة جدًا ينتقون منها. لن يضطرّوا إلى أخذنا بعيدًا.*

ولم يفعلوا. تحت صَفصافةٍ ملتوية وضعَ الخارجون عن القانون أنشوطةً حول عنقها وشدّوها بإحكامٍ وألقوا طرف الحبل الآخَر من فوق أحد الفروع. أعطوا هايل هَنت وپودريك پاين شجرتَي ردار، وكان السير هايل يصيح قائلًا إنه سيَقتُل چايمي لانستر، لكن كلب الصّيد لطمَه على وجهه فأخرسَه. كان قد اعتمرَ الخوذة ثانيةً، وقال لها: «إذا كانت هناك جرائم تُريدين الاعتراف بها لآلهتكِ فالآن الوقت المناسب».

- «پودريك لم يُؤذِكم قطّ. سيدفع أبي فديته. (تارث) تُسمّى جزيرة الضّفير. أرسِلوا پودريك مع زُفاتي إلى (بهو المساء) وستنالون صفيرًا وفضّةً، أيًا كان ما تُريدون».

قال كلب الصّيد: «أريدُ أن تعود إليّ زوجتي وابنتي. هل يستطيع أبوكِ إعادتهما لي؟ إن لم يستطِع فليذهب إلى الجحيم إذن. سيتعفّن الصّبي إلى جواركِ وستنهش الذّئاب عظامكما».

سأله الأعور: «هل تنوي أن تشنق الحقيرة يا ليم أم تقتلها بكلامك؟».

اختطفَ كلب الصّيد طرف الحبل من الرّجل الذي يُمسِكه قائلًا: «لنرَ إن كانت تُجيد الرّقص»، وشدّ الحبل.

شعرَت بريان بالقنّب يضيق منغرسًا في جلدها دافعًا ذقنها إلى أعلى. كان السير هايل يلعنهم بأطايب الألفاظ، ولكن ليس الصّبي، إذ لم يرفع پودريك عينيه عن الأرض، حتى عندما افترقَت قدماه عنها. *إذا كان هذا خلفًا آخَر فحانَ الوقت لأن أصحو، وإن لم يكن فهذه ساعة مماتي*. لم ترَ إلّا پودريك والأنشوطة حول عُنقه الرّفيع ورعشة ساقيه. انفتحَ فمها، وكان پودريك يَركُل، يختنق، يموت. امتصّت بريان الهواء بيأس بينما يَخنقها الحبل خنقًا، تتألّم كما لم تتألّم من قبل قَطُّ.

ثم إنها صرخَت بكلمة.

الشيپتة مويل عجوز شمطاء ملامحها حادّة كالفأس وفمها مزموم باستنكارٍ دائم. فكّرت سرسي: *أراهن أنها لا تزال محتفظةً بغشاء بِكارتها، ولو أنه الآن يابس صُلب كالجِلد المقوّى.* يصحب المرأة ستّة من فُرسان السّپتون الأعلى الذين يحملون الثّروس ذات الشّكل اللّوزي، المزيّنة بسيف قوس قزح رمز جماعتهم الوليدة من جديد.

قالت سرسي الجالسة عند قاعدة العرش الحديدي مرتديةً الحرير الأخضر وشرائط الزّينة الذّهبيّة: «أيتها السّپتة، أخبِري صاحِب القداسة الأعلى بأننا مستاءون منه. إنه يتعدّى حدوده». كان الزّمرّد يلتمع على أصابعها وفي شعرها الذّهبي، وأعيُن البلاط والمدينة عليها، وهي تعتزم أن تُريهم وجه ابنة اللورد تايوين. مع بلوغ هذه المهزلة نهايتها سيعلمون أن لهم ملكةً حقيقيّةً واحدة فقط. *لكن علينا أولًا أن نرقُص ونرقُص ولا نُفوّت خُطوةً.* «الليدي مارچري زوجة ابني المخلصة الرّقيقة، رفيقته وشريكة حياته. لم يكن لصاحِب القداسة الأعلى الحقُّ في أن يضع يدًا عليها أو يحتجزها وبنات عمومتها الصّغيرات العزيزات علينا جميعًا. أطالبكم بإطلاق سراحهن».

لم يهتزّ التّعبير الصّارم على وجه السّپتة مويل، وقالت: «سأنقلُ كلام جلالتكِ إلى صاحِب القداسة الأعلى، لكن يُؤسِفني أن أقول إن إطلاق سراح الملكة الصّغيرة ورفيقاتها ليس ممكنًا إلى أن وما لم تَثبت براءتهن».

- «براءتهن؟ ما عليكِ إلّا أن تَنظُري إلى وجوههن الجميلة لتري كم هن بريئات».

- «كثيرًا ما يُخفي الوجه الجميل قلبًا مليئًا بالخطايا».

تكلّم اللورد ميريويذر من مكانه على طاولة المجلس متسائلًا: «ما الجُرم الذي اتُّهِمَت به أولئك الصّغيرات ومَن اتَّهمهن؟».

أجابَت السّيتة: «مِجا تايرل وإلينور تايرل متّهمتان بالفِسق والخلاعة والتّآمر على ارتكاب الخيانة العظمى، وآلا تايرل متّهمة بشهادة عارهما والتّستُّر عليه. الملكة مارجري متّهمة بكلّ هذا أيضًا، بالإضافة إلى الزّنى والخيانة العظمى».

وضعَت سرسي يدها على صدرها قائلةً: «أخبِريني مَن يَنشُر هذه الافتراءات عن زوجة ابني! لا أصدِّقُ كلمةً من هذا. ابني الغالي يحبُّ الليدي مارجري بكلّ قلبه، ولا يُمكن أن تكون قاسيةً خدّاعةً هكذا».

- «المدّعي فارس من أهل بيتكِ. السير أوزني كِتلبلاك اعترفَ بمعرفته الحميمة بالملكة للسّيتون الأعلى نفسه أمام مذبح (الأب)».

على طاولة المجلس شهقَ هاريس سويفت وأشاحَ المِايستر الأكبر پايسل بوجهه، وامتلأ الهواء بالطّنين كأن في قاعة العرش ألف دَبُّور. بدأت بعض الليديهات في الشُّرفة ينسحبن، يتبعهن صَفٌّ من اللوردات والفُرسان الصّغار من مؤخِّرة القاعة. تركَهم ذوو المعاطف الذّهبيّة يَخرجون، لكن الملكة كانت قد أملَت على السير أوزفريد أن يُسجِّل أسماء كلّ مَن يفرّ. *فجأةً لم يَعُد عبير وردة تايرل أخّاذًا كما كان.*

قالت الملكة: «لا أنكرُ أن السير أوزني شابٌّ له شهواته، لكنه فارس مخلص رغم هذا. إذا قال إنه ضالعٌ في... لا، مستحيل. مارجري عذراء!».

- «ليست عذراء. لقد فحصتها بنفسي نزولًا عند رغبة صاحِب القداسة الأعلى. غشاء بكارتها مفضوض. ستؤكّد السّبتة آجلانتين والسّبتة ميليسنت هذا، علاوةً على نستيريكا سِبتة الملكة مارجري، التي احتُجِزت في صومعة توبة بسبب الدّور الذي لعبَته في عار الملكة. فحصنا الليدي مِجا والليدي إلينور أيضًا، ووجدنا بِكارة الاثنتين مفضوضةً».

تعالى طنين الذبابير لدرجة أن الملكة استطاعت سماع أفكارها بالكاد. *أتمنّى أن الملكة الصّغيرة وبنات عمومتها استمتَعن برحلات ركوب الخيل.*

ضربَ اللورد ميريويذر الطّاولة بقبضته قائلًا: «الليدي مارجري حلفَت أيمانًا مقدّسةً تؤكّد عذريّتها لصاحِبة الجلالة ووالدها الرّاحل، وهناك شهود كثيرون على هذا، كما شهدَ اللورد تايرل أيضًا على براءتها، بالإضافة إلى الليدي أولينا التي نعلم جميعًا أنها فوق مستوى الشّبهات. هل تريدوننا أن نُصدّق أن كلّ هؤلاء كذبوا علينا؟».

ردّت السّبتة مويل: «ربما خُدِعوا أيضًا يا سيّدي، ليست عندي بيّنة على هذا. أستطيعُ فقط أن أقسم على صحّة ما اكتشفته بنفسي حين فحصتُ الملكة».

كانت صورة هذه الحيزبون العجوز المتجهّمة تضع أصابعها المتغضّنة في فرج مارجري الوردي الصّغير طريفةً لدرجة أن سرسي كادَت تضحك. قالت: «إننا مضرّون على أن يسمح صاحِب القداسة الأعلى لمِايسترانتا بفحص زوجة ابني للبتّ في صحّة هذه المطاعن. أيها المِايستر الأكبر پايسل، ستصحب السّبتة مويل إلى سِپت المحبوب بيلور وترجع إلينا بحقيقة بتولة مارجري».

كان لون وجه پايسل يُحاكي الحليب الخاثر، ففكَّرت الملكة: *في اجتماعات المجلس لا يَصمت الأحمق العجوز المأفون أبدًا، لكن الآن عندما أريده أن يلفظ بضع كلماتٍ يفقد القُدرة على الكلام.* ثم إن العجوز نطقَ أخيرًا، وبصوتٍ راجفٍ قال: «ليس هناك داعٍ لأن أفحص... أعضاءها الحميمة. يُحزِنني أن أقول إن... الملكة مارچري ليست بِكرًا. لقد طلبَت مني أن أعدّ لها شاي القمر، ليس مرّةً بل عدّة مرّات».

الهدير الذي تبعَ قوله كان ما أملّته سرسي لانستر بالضّبط.

حتى دقّات الحاجب الملكي بعصاه على الأرض لم تُفلِح في إسكات الصّخب، وتركته الملكة يغمرها بضع لحظاتٍ مستطعمةً خزي الملكة الصّغيرة، ولمّا طالَ مدّةً كافيةً نهضَت بملامح حجريّة وأمرَت ذوي المعاطف الذّهبيّة بإخلاء القاعة، وقالت لنفسها بجذل: *انتهى أمر مارچري تايرل.* أحاطَ بها فُرسانها البِيض إذ خرجَت من باب الملك وراء العرش الحديدي؛ بوروس بلاونت ومرين ترانت وأوزموند كِتلبلاك، آخِر الباقين من رجال الحرس الملكي في المدينة.

كان فتى القمر واقفًا وراء الباب ممسكًا خُشخيشته ويُحملِق إلى الفوضى بعينيه المستديرتين الكبيرتين. *ربما يكون مهرّجًا، لكنه صادق في تهريجه. كان على ماجي الضّفدعة أن ترتدي ثياب المهرّجين أيضًا لجهلها بالغد.* تدعو سرسي الآلهة أن المحتالة العجوز تَصرُخ في قرار الجحيم. الملكة الأصغر التي تنبّأت بمجيئها انطوَت صفحتها، وإذا كان يُمكن أن تخيب هذه النُّبوءة فالبقيّة أيضًا ستخيب. *لا أكفان ذهبيّة، لا ڤالونكار. أخيرًا تحرّرتُ من نعيقكِ الحاقد.*

تبعها باقي أعضاء مجلسها الصغير إلى الخارج، وقد بدا هاريس سويفت دائخًا وتعثّر عند الباب وكاد يَسقط لولا أن أوران ووترز أمسكه من ذراعه، وحتى أورتون ميريويذر لاح عليه التوتّر إذ قال: «العامّة شغوفون بالملكة الصغيرة. لن يَتركوا شيئًا كهذا يمرّ مرور الكرام. أخشى ما قد يَحدث يا جلالة الملكة».

قال اللورد ووترز: «اللورد ميريويذر محقٌّ. بَعد إذن صاحِبة الجلالة، سأطلق بقيّة درموناتنا. منظرها في (النهر الأسود) وراية الملك تومن تخفق فوقها سيُذكّر المدينة بمَن يَحكم هنا، بالإضافة إلى الحفاظ على سلامتها إذا بدأ الغوغاء الشّغب من جديد».

ترك أوران البقيّة بلا ذِكر. حالما تَخرج الدّرمونات إلى الماء ستستطيع منع مايس تايرل من العودة بجيشه عبر النهر، تمامًا كما منع تيريون ستانيس من قبل. ليست لـ(هايجاردن) قوّة خاصّة بها في هذا الجانب من (وستروس)، ويعتمد آل تايرل على أسطول ردواين العائد في الوقت الرّاهن إلى (الكرمة).

أعلنَت الملكة: «خُطوة سديدة. إلى أن تمرّ هذه العاصفة أريدُ أن تُجهّز سفنك بأطقُمها وتَخرج إلى النهر».

كان وجه السير هاريس سويفت شاحبًا مخضّلًا بالعرق حتى إنه بدا على وشك فقدان الوعي إذ قال: «حين يَبلُغ الخبر اللورد تايرل لن تكون لغضبته حدود. ستسيل الدّماء في الشّوارع...».

قالت سرسي لنفسها متأمِّلةً: *فارس الدّجاجة الصّفراء*. حريٌّ *بك أن تتّخذ دودةً رمزًا لك أيها الفارس. بالنّسبة إليك الدّجاج أشجع من اللّازم. إذا كان مايس تايرل لا يستطيع الهجوم على (ستورمز إند)، فكيف تخاله يَجسُر على مهاجَمة الآلهة؟* لمّا فرغ من ثرثرته قالت: «يجب ألّا يَبلُغ الأمر حدّ إراقة الدّماء. سأذهبُ إلى (سِبت بيلور) لأتكلّم مع الملكة مارجري والسّپتون الأعلى. أعلمُ أن تومن يحبّ الاثنين، ولا ريب أنه سيرغب في أن أقيم السّلام بينهما».

ربّت السير هاريس على جبهته بكُمّه المخملي مجفّفًا عَرقه، وقال: «السّلام؟ إذا كان السّلام ممكنًا... هذه شَجاعة بالغة منكِ».

قالت الملكة: «ربما يكون ضروريًا أن تُعقَد محاكَمة ما تدحض هذه الافتراءات والأكاذيب الوضيعة وتُري العالم أن مارجري بالبراءة التي نعرفها عنها حقًّا».

قال ميريويذر: «أجل، لكن ربما يرغب السّپتون الأعلى في محاكَمة الملكة بنفسه كما اعتادَت العقيدة محاكَمة النّاس قديمًا».

هذا ما آمله. ليس واردًا أن تَنظُر محكمة كتلك بعين العطف إلى الملكة الخائنة التي فتحت ساقيها للمغنّين ودنّست طقوس (العذراء) المقدّسة لتُواري عارها. «المهمُّ أن نكتشف الحقيقة، إنني واثقة بأننا جميعًا متّفقون على هذا. والآن أيها السّادة أرجو أن تَعذُروني، يجب أن أذهب لأرى ابني، فلا ينبغي أن يكون وحده في وقتٍ كهذا».

كان تومن يصطاد القطط حين عادت أمه إليه. تحبُّ الهُريرات مطارَدة الفأر الذي صنعته له دوركاس من قُصاصات الفرو وربطته بخيطٍ طويل في طرف صنّارةٍ قديمة، ولا يحبُّ الصّبي شيئًا أكثر من جزّه على الأرض بينما تتوثّب هُريراته محاولةً الظّفر به. بدَت عليه الدّهشة عندما رفعته سرسي بين ذراعيها وقبّلته على جبهته، وسألَها: «لماذا تُقبّلينني يا أمّاه؟ ولِمَ تبكين؟».

أرادَت أن تقول له: *لأنك آمِن، لأن لا أذى سيُصيبك أبدًا.* «أنت مخطئ. الأسد لا يبكي أبدًا». سيكون هناك وقت فيما بَعد لإخباره بأمر مارچري وبنات عمومتها. «ثمّة أذون أريدك أن تُوَقّعها».

لأجل خاطر الملك لم تضع الملكة الأسماء على أذون الاعتقال، فذيّلها تومن بتوقيعه خاليةً وضغط ختمه في الشّمع الدّاقي بسعادةٍ كعادته، وبَعدها صرفَته سرسي مع چوسلين سويفت.

وصلَ السير أوزفريد كِتلبلاك بينما يجفُّ الحبر الذي كتبَت به سرسي الأسماء بنفسها؛ السير تالاد الطّويل وچالابار شو وهاميش ذو القيثارة وهيو كليفتون ومارك مالندور وبايارد نوركروس ولامبرت تِرنبري وهوراس ردواين وهوبر ردواين، بالإضافة إلى ريفيٍّ معيّن اسمه وات ويدعو نفسه بالشّاعر الأزرق.

- «كثيرون جدًا»، قال السير أوزفريد مقلّبًا الأذون بحذرٍ من الكلمات كأنها صراصير تزحف على الورق. لا أحد من الإخوة كِتلبلاك يقرأ.

- «عشرة. تحت قيادتك ستة آلاف من ذوي المعاطف الذهبيّة، عدد يكفي للقبض على عشرة على ما أظنّ. ربما فرّ بعض الأذكياء منهم بالفعل إذا تناهت الأخبار إلى مسامعهم في الوقت المناسب. إن حدث هذا فلا يهمّ، سيجعلهم غيابهم يبدون مذنبين أكثر. السير تالاد ساذج نوعًا وربما يُحاول مقاوَمتكم. احرِص على عدم موته قبل أن يعترف، ولا تؤذي أيًا من الآخَرين. قد يكون بينهم أبرياء». من المهم للغاية أن تجد المحكمة التّوأمين ردواين متّهمين زوزًا، إذ سيُبرهِن هذا على عدل الأحكام الصّادرة على الآخَرين.

قال السير أوزفريد: «سنقبض عليهم جميعًا قبل شروق الشّمس يا جلالة الملكة»، وتردّد لحظةً قبل أن يُردِف: «هناك زحام خارج باب (سِپت بيلور)».

- «زحام من أيّ نوع؟». أيّ شيء غير متوقّع يُثير فيها غريزة الحذر، وتذكّرت ما قاله اللورد ووترز عن الشّغب. *لم أضع ردّة فعل العامّة في الاعتبار. مارچري كانت حيوانتهم الأليفة.* «كم؟».

- «مئة أو نحوها. يزعقون مطالبين السّپتون الأعلى بالإفراج عن الملكة الصّغيرة. يُمكننا أن نطرُدهم إذا أردتِ».

- «لا، دَعهم يزعقون إلى أن تُبحّ أصواتهم. زعيقهم لن يؤثّر على العصفور. إنه لا يُصغي إلّا إلى الآلهة». في تخييم الرّعاع الغاضبين على عتبة باب صاحِب القداسة الأعلى سخرية قدريّة معيّنة، إذ رفعه رعاع مشابهون إلى اعتمار التّاج البلّوري. *الذي باعه من فوره.* «العقيدة لها فُرسانها الآن، فليُدافِعوا هم عن السّپت. أوه، وأغلِق بوّابات المدينة أيضًا. لا أحد يَدخُل (كينجز لاندنج) أو يَخرج منها دون إذني إلى أن تُسوّى هذه المسألة تمامًا».

قال السير أوزفريد: «كما تأمرين يا صاحِبة الجلالة»، وانحنى ثم ذهبَ يجد أحدًا يقرأ له الأذون.

لدى غروب الشّمس يومها كان المتّهمون بالخيانة جميعًا رهن الاعتقال. انهارَ هاميش ذو القيثارة عندما أتوا يقبضون عليه، وجرح تالاد الطّويل ثلاثةً من ذوي المعاطف الذّهبيّة قبل أن يقهره الآخرون، وأمرَت سرسي بوضع التّوأمين ردواين في مسكنٍ مريح في بُرج وإرسال البقيّة إلى الزّنازين.

أخبرَها كايبرن حين أتى لزيارتها ليلتها: «هاميش يُعاني صعوبةً في التّنفُّس ويَطلُب مِايستر».

ردَّت: «قُل له إن واحدًا سيذهب إليه ما إن يعترف»، وفكَّرت لحظةً ثم أضافَت: «إنه أكبر سِنًّا من أن يكون واحدًا من العشّاق، لكن لا شكّ أن مارچري جعلَته يعزف ويُغنّي لها بينما تستضيف رجالًا آخرين. سنحتاج إلى تفاصيل».

- «سأعينه على تذكُّرها يا جلالة الملكة».

في اليوم التّالي ساعدَتها الليدي تاينا ميريويذر على ارتداء ثيابها من أجل زيارتهما الملكة الصّغيرة، وقد قالت لها سرسي: «لا شيء مترفًا أو زاهي الألوان. الأنسب أن أرتدي شيئًا محتشمًا داكنًا للسّيتون الأعلى. غالبًا سيجعلني أصلّي معه»، وفي النّهاية انتقَت فُستانًا من الصّوف النّاعم كساها من الرّقبة إلى الكاحلين، على صدره وكُمّيه القليل من فروع الكرم الصّغيرة المطرّزة بخيطٍ ذهبي يُخفّف جهامة خطوطه بعض الشّيء. الأفضل أن لونه البنّي سيُساعِد على إخفاء الوسخ إذا ركعَت. «بينما أواسي زوجة ابني ستتكلّمين مع بنات عمومتها الثّلاث. اربحي آلا إذا استطعتِ، لكن توخّي الحذر في ما تقولين. ربما لا تكون الآلهة الوحيدة التي تسمعكما».

لطالما قال چايمي إن أصعب جزءٍ من أيّ معركةٍ هو الذي يسبقها مباشرةً في أثناء انتظار بدء المعمعة. حين خرجَت سرسي رأت السّماء غائمةً كئيبةً، ولمّا كانت لا تستطيع المجازَفة بالتّعرّض إلى وابلٍ من المطر ودخول (سِپت بيلور) مبتلّةً ملطّخةً بالأوساخ فقد قرّرت ركوب الهودج. لحراستها أخذَت عشرةً من رجال لانستر وبوروس بلاونت، بعد أن قالت للسير أوزموند: «ربما لا يملك دهماء مارجري الذّكاء الكافي للتمييز بين كِتلبلاك وآخَر، ولا يُمكنني أن أدعك ترفع سلاحك ضد العوام. الأفضل أن تبقى بعيدًا عن الأنظار فترةً».

إذ شقّتا طريقهما عبر (كينجز لاندنج) خامرَ تاينا شكٌّ مفاجئ، وقالت بخفوت: «هذه المحاكَمة، ماذا لو طالبَت مارچري بحسم براءتها من ذنبها عن طريق النّزال؟».

داعبَت ابتسامة شفتَي سرسي، وأجابَت: «باعتبارها الملكة فلا بُدّ من أن يُدافِع عن شرفها أحد رجال الحرس الملكي. كلُّ طفلٍ في (وستروس) يعلم أن الأمير إيمون الفارس التنّين ناصرَ أخته الملكة نييرس في مواجَهة اتّهامات السير مورجيل... لكن مع إصابة السير لوراس فأخشى أن دور الأمير إيمون سيقع على عاتق أحد إخوته المحلّفين»، وهزّت كتفيها مواصلةً: «لكن مَن؟ السير آريس والسير بالون بعيدان في (دورن)، وچايمي في (ريڤررَن)، والسير أوزموند شقيق الرّجل الذي يتّهمها، وهكذا لا يتبقّى إلّا... أوه، وَيلي...».

قالت الليدي تاينا ضاحكةً: «بوروس بلاونت ومرين ترانت».

- «نعم، والسير مرين متوعّك منذ فترة. ذكّريني بأن أقول له هذا عندما نعود إلى القلعة».

- «سأفعلُ يا جميلتي»، والتقطَت تاينا يدها وقبّلتها مردفةً: «آملُ ألّا أسيء إليكِ أبدًا. إنكِ رهيبة حين تُستثارين».

- «كلُّ أمٍّ تفعل المِثل لحماية أطفالها. متى تنتوين المجيء بابنكِ إلى البلاط؟ اسمه راسل، أليس كذلك؟ يُمكنه أن يتمرّن مع تومن».

- «سيتحمّس الصّبي لهذا، أعرفُ... لكن الأمور مضطربة للغاية الآن، وخطرَ لي أن الانتظار أفضل إلى أن يمرّ الخطر».

- «عمّا قريب. أرسلي خبزًا إلى (الطّاولة الطّويلة) وقولي لراسل أن يحزم أفضل سُتراته وسيفه الخشبي. صديق صغير جديد هو بالضّبط ما سيُعين تومن على نسيان خسارته بَعد أن يطير رأس مارچري».

نزلَتا من الهودج تحت تمثال بيلور المبارَك، وسُرَّت الملكة لرؤية السّاحة نظيفةً من العظام والقذارة. صدقَ قول السير أوزفريد، فالزّحام ليس شديدًا أو فوضويًّا كزحام العصافير، وقد وقف المحتشدون في مجموعاتٍ صغيرة يَرمُقون باب (السّبت الكبير) بوجوم، حيث يقف صَفٌّ من الشّيتونات المبتدئين حاملين النّبابيت. لا فولاذ. ليست واثقةً إن كانت هذه حكمةً بالغةً أم بلاهةً مفرطةً.

لم يُحاوِل أحد اعتراض طريقهما، وانزاح لهما العامّة والمبتدئون إذ مرّتا، وبمجرّد دخولهما استقبلَهما ثلاثة من الفُرسان في (بهو القناديل)، يرتدي كلٌّ منهم معطف أبناء المحارب ذي ألوان قوس قزح. قالت لهم سرسي: «أنا هنا لرؤية زوجة ابني».

أجابَها أحدهم: «صاحِب القداسة الأعلى كان يتوقّع حضوركِ. أنا السير ثيودان الصّادق، المعروف سابقًا باسم السير ثيودان ولز. أرجو أن تتفضّلي معي يا صاحِبة الجلالة».

كان العصفور الأعلى على رُكبتيه كالعادة، هذه المرّة يُصلّي عند مذبح (الأب)، ولم يقطع صلاته لدى اقتراب الملكة، بل جعلَها تنتظر بصبرٍ يكاد ينفد حتى فرغَ، وعندها فقط نهضَ وانحنى لها قائلًا: «جلالة الملكة، هذا يوم حزين».

- «حزين للغاية. هل لنا الإذن في الكلام مع مارجري وبنات عمومتها؟». اختارت أن تتّبع أسلوبًا حليمًا متواضعًا، فهذا أكثر ما يَصلح مع رجلٍ مِثله.

- «إذا أردتِ. تعالي إليّ بَعدها يا بنيّتي. يجب أن نُصلّي معًا».

الملكة الصّغيرة حبيسة أعلى أحد أبراج (السّبت الكبير) الرّفيعة، زنزانتها طولها ثمانية أقدام وعرضها ستّة، ولا أثاث فيها إلّا سرير من القشّ ودكّة للصّلاة، بالإضافة إلى إبريق ماء ونُسخةٍ من (النّجمة الشباعيّة) وشمعةٍ لقراءتها على ضوئها، والنّافذة الوحيدة ليست أوسع كثيرًا من فتحة رماية.

وجدَت سرسي مارجري حافيةً ترتجف، ترتدي ثوبًا من الخيش على غرار الأخوات المبتدئات، وشَعرها متشابك وقدماها متّسختان. ما إن صارَتا وحدها قالت لها الملكة الصّغيرة: «لقد أخذوا ثيابي. كنتُ أرتدي فُستانًا من الحرير العاجي صدره مزيّن بلآلئ المياه العذبة، لكن السّپتوات وضعن أيديهن عليّ وجرّدوني من ثيابي كلّها. فعلن المِثل مع بنات عمومتي أيضًا. مِجا دفعَت إحداهن وسط الشّموع وأشعلَت النّار في ثوبها، لكنّني أخشى على آلا. لقد شحبَ وجهها كالحليب ومنعَها خوفها من مجرّد البُكاء».

- «الصّغيرة المسكينة». ليست في المكان مقاعد، فجلسَت سرسي إلى جوار الملكة الصّغيرة على سريرها، وقالت: «الليدي تاينا ذهبَت تتكلّم معها لتجعلها تعلم أنها لم تُنسَ».

قالت مارجري مغتاظةً: «إنه يَرفُض أن يَترُكني أراهن حتى، وفصلَ كلّ واحدةٍ منا عن الأخريات. إلى أن جئتِ لم يكن مسموحًا لي بزوّار إلّا السّپتوات. واحدة منهن تأتي كلّ ساعةٍ لتسألني إن كنتُ أرغب في الاعتراف بفسوقي. حتى النّوم حرمنني إيّاه، ويُوقظنني ويطالِبن باعترافي. ليلة البارحة اعترفتُ للسّپتة أونلا برغبتي في خزق عينيها».

مؤسفٌ أنكِ لم تفعلي. كان إعماء سِيتة عجوز مسكينة كفيلًا بإقناع العصفور الأعلى بذنبكِ بالتأكيد. «إنهن يستجوبن بنات عمومتكِ بالطّريقة نفسها».

- «عليهن اللّعنة إذن، فليذهبن إلى الجحائم السّبع. آلا رقيقة خجول. كيف يفعلن بها هذا؟ ومِجا... أعرفُ أن ضحكتها صاخبة كعاهرةٍ على أرصفة الميناء، لكنها ما زالَت بنتًا صغيرةً في قلبها. إنني أحبُّهن وهن يحببنني. إذا كان هذا العصفور يُريد أن يجعلهن يكذبن بشأني...».

- «أخشى أنهن متّهمات أيضًا، ثلاثتهن».

امتقعَ وجه مارجري، وقالت: «بنات عمومتي؟ آلا ومِجا بالكاد أكبر من طفلتين. جلالة الملكة، هذا... هذا قُبح. هل ستُخرِجيننا من هنا؟».

ردّت بصوتٍ مفعم بالأسى: «ليتني أقدرُ. صاحِب القداسة الأعلى أمرَ فُرسانه الجُدد بحراستكن. لتحريركن عليّ إرسال ذوي المعاطف الذّهبيّة وتدنيس هذا المكان المقدّس بالقتل»، والتقطَت سرسي يدَي مارجري متابعةً: «لكنني لم أضيِّع الوقت سُدًى. لقد جمعتُ كلَّ من ذكرَ السير أوزني أنهم عُشّاقكِ. إنني واثقة بأنهم سيشهدون لصاحِب القداسة الأعلى ببراءتكِ ويُقسِمون عليها في محاكَمتكِ».

كان في نبرة الفتاة خوف حقيقي الآن وهي تقول: «محاكَمتي؟ أيجب أن تكون هناك محاكَمة؟».

قالت سرسي: «كيف ستُثبِتين براءتكِ دونها؟»، واعتصرَت يد مارجري مطمئِنةً، وأردفَت: «من حقِّكِ أن تُقرِّري نوع المحاكَمة بالطّبع. إنكِ الملكة، وفُرسان الحرس الملكي مقسمون على الدّفاع عنكِ».

فهمَت مارجري في الحال، فقالت: «محاكَمة بالنّزال؟ لكن لوراس مصاب، وإلّا لكان...».

- «إن له ستّة إخوان».

حدّقت مارجري إليها، ثم سحبت يديها قائلةً: «أهذه مزحة؟ بوروس جبان، ومرين عجوز وبطيء، وأخوكِ مُعاق، والآخَران في (دورن)، وأوزموند من عائلة كِتلبلاك اللّعينة. لوراس له أخوان لا ستّة. ما دامت المحاكمة بالنّزال فأريدُ أن يُناصِرني جارلان».

- «السير جارلان ليس عضوًا في الحرس الملكي. عندما يكون شرف الملكة مثار خلاف يفرض القانون والعُرف أن يكون نصيرها من سبعة الملك المحلّفين. أخشى أن الشيتون الأعلى سيصرّ». *سأحرص على هذا.*

لم تردّ مارجري في الحال، لكن عينيها البنيّتين ضاقتا شكًّا، وأخيرًا قالت: «بلاونت أو ترانت، لا مفرّ من أن يكون النّصير أحدهما. سيُعجِبكِ هذا، أليس كذلك؟ أوزني كِتلبلاك يستطيع تمزيق أيّهما إربًا».

بحقّ الجحائم السّبع. تظاهرت سرسي بالألم قائلةً: «أنتِ مخطئة في حقّي يا ابنتي. لستُ أريدُ إلّا...».

- «... ابنكِ، لكِ وحدكِ. لن تكون له زوجة لا تكرهينها أبدًا. وأنا لستُ ابنتكِ والشّكر للآلهة. اتركيني».

- «إنكِ تتكلّمين بحماقة. أنا هنا لمساعدتكِ فقط».

- «لمساعدتي على الذّهاب إلى قبري. طلبتُ منكِ أن ترحلي. هل ستجعلينني أنادي سجّاناتي ليجرُرنكِ إلى الخارج أيتها الحقيرة الشّريرة المتآمرة الكريهة؟».

لملمت سرسي تنّورتها بكرامة، وردّت: «لا بُدّ أن الموقف يُخيفكِ بشدّة. سأغفرُ لكِ ما قلتِه». هنا، كما في البلاط، لا يدري المرء إن كان أحدهم يتنصّت. «كنتُ لأخاف أيضًا لو أنني في مكانكِ. المايستر الأكبر پايسل أقرّ بتزويدكِ بشاي القمر، والشّاعر الأزرق... لو كنتُ في مكانكِ يا سيّدتي لطلبتُ من (العجوز) الحكمة ومن (الأم) رحمتها. أخشى أنكِ قد تصيرين في حاجةٍ ماسّة إلى الاثنتين قريبًا».

اصطحبَت أربع سِپتوات ذابلات الملكة إذ نزلَت سلالم البُرج، وقد بدَت كلٌّ من الحيزبونات أوهن من الأخرى. حين بلغن الأرض واصَلن الطّريق إلى أسفل في قلب (تَل ڤيزينيا)، وانتهَت الدّرجات تحت الأرض بمسافةٍ طويلة، حيث يُضيء صَفٌّ من المشاعل المتذبذبة ردهةً طويلةً.

وجدَت السّپتون الأعلى منتظرًا إياها في غُرفة اجتماعاتٍ صغيرة سُباعيّة الجوانب، غُرفة تقليديّة متواضعة جُدرانها الحجريّة عارية من الطّلاء وفيها طاولة خشبيّة غير متقنة الصُّنع وثلاثة مقاعد ودكّة صلاة. على الجُدران نُقِشَت وجوه (السّبعة)، وقد عدّت سرسي النّقوش بدائيّةً قبيحةً، ولو أن فيها قوّةً معيّنةً، خصوصًا في الأعيُن الكرويّة المصنوعة من الجزَع والملَكيت وحجارة القمر الصّفراء، والتي تبعث الحياة في الوجوه بشكلٍ ما.

قال السّپتون الأعلى: «تكلّمتِ مع الملكة».

قاومَت الرّغبة في أن تقول: *أنا الملكة*، وردّت: «نعم».

- «كلُّ البَشر يرتكبون الذُّنوب، حتى الملوك والملكات. أنا نفسي ارتكبتُ ذنوبًا ونلتُ المغفرة. لكن لا مغفرة دون اعتراف، والملكة تَرفُض أن تعترف».

- «ربما تكون بريئةً».

- «ليست بريئةً. السّپتوات الموقّرات فحصنها ويشهدن بانفضاض غشاء بكارتها. لقد شربَت شاي القمر لتَقتُل ثمرة زِناها في رحمها، وثمّة فارس أقسمَ على سيفه بمعرفته الحميمة بها وباثنتين من بنات عمومتها. يقول إن آخَرين عاشَروها أيضًا، وذكرَ أسماء رجالٍ كُثر، منهم الوضيع ومنهم عالي المقام».

- «ذوو المعاطف الذّهبيّة أخذوهم جميعًا إلى الزّنازين. واحد فقط خضعَ للاستجواب حتى الآن، مطرب اسمه الشّاعر الأزرق. وما قاله مزعج. على الرغم من هذا أدعو الآلهة أن تَثبُت براءة زوجة ابني عند مثولها للمحاكَمة»، وترَدّدت سرسي لحظةً، ثم قالت: «تومن يحبّ ملكته الصّغيرة كثيرًا يا صاحِب القداسة، وأخشى أن يكون إصدار حُكم عادل عليها من قِبله أو قِبل لورداته صعبًا. ربما الأفضل أن تتولّى العقيدة المحاكَمة؟».

شبّك العصفور الأعلى يديه قائلًا: «خطرَت لي الفكرة ذاتها يا صاحِبة الجلالة. كما سلبَت ميجور المتوحّش العقيدة سيوفها حرمَنا چهيرس المُصلح موازين العدل، لكن من يَصلُح حقًّا للحُكم على ملكةٍ إلّا (السّبعة في الأعالي) والمقسمون على خدمتهم على الأرض؟ ستتولّى محكمة موقَّرة من سبعة قُضاةٍ القضيّة، ثلاثة من جنسكِ الأنثوي، عذراء وأم وعجوز. مَن أجدر منهن بالحُكم على آثام النّساء؟».

- «سيكون هذا أفضل، لكن لا شَكّ أن لمارچري الحقّ في المطالَبة بإثبات ذنبها أو براءتها بمحاكَمةٍ بالنّزال، وفي تلك الحالة يجب أن يكون نصيرها من حَرس تومن السّبعة».

- «فُرسان الحَرس الملكي يخدمون كمُناصرين شرعيّين للملك والملكة منذ عهد إجون الفاتِح. صوت التّاج والعقيدة واحد في هذه المسألة».

دفنَت سرسي وجهها بين يديها متظاهرةً بالحُزن، ولمّا رفعَت رأسها ثانيةً التمعَت عبرة في عينها، وقالت: «هذه أيام حزينة بالفعل، لكن يسرّني أن أجدنا على وفاقٍ تام. أعرفُ أن تومن كان ليشكرُك لو أنه هنا. أنا وأنت يجب أن نَعثر على الحقيقة معًا».

- «سنفعل».

- «يجب أن أرجع إلى القلعة. بَعد إذنك سآخذُ السير أوزني كِتليلاك معي. سيُريد أعضاء المجلس الصّغير استجوابه وسماع اتّهاماته بأنفسهم».

رَدّ السِّپتون الأعلى: «لا».

مجرّد كلمة، كلمة واحدة صغيرة، غير أنها بمثابة ماء مثلّج قذفه في وجهها. حدّقت إليه وقد اهتزّت ثقتها قليلًا، وقالت: «سنحتجز السير أوزني في مكانٍ آمِن، أعدك».

- «إنه محتجَز في مكانٍ آمِن هنا. تعالي، سأريكِ».

شعرَت سرسي بأعيُن (السّبعة) تَرمُقها، أعيُن من اليَشب والمَلَكيت والجزْع، وسرَت في جسدها رعدة خوفٍ مباغتة باردة كالجليد، لكنها قالت لنفسها: *أنا الملكة، ابنة اللورد تايوين،* وبتردُّدٍ تبعته.

لم يكن السير أوزني بعيدًا. توقّفا عند غُرفةٍ مظلمة مغلَقة بباب حديديّ ثقيل، وأخرج السِّپتون الأعلى مفتاحًا والتقط مشعلًا من على الجدار ليُضيء الغُرفة من الدّاخل قائلًا: «بَعدكِ يا جلالة الملكة».

في الدّاخل كان أوزني كِتليلاك معلّقًا عاريًا من السّقف، يتأرجَح من سلسلتين حديديّتين ثقيلتين، مجلودًا تكاد ضربات السّوط تكشف لحم ظَهره وكتفيه كلّه وتتقاطع الجروح على ساقيه ومؤخّرته.

لم تحتمل الملكة النّظر إليه، والتفتت إلى السِّپتون الأعلى قائلةً: «ماذا فعلتم؟!».

- «سعينا إلى معرفة الحقيقة بكلّ جدّيّة».

- «لقد قال الحقيقة، أتاك بإرادته الحُرّة واعترف بخطاياه».

- «نعم، فعلَ هذا. لقد سمعتُ اعترافات رجالٍ كثيرين يا صاحِبة الجلالة، لكن نادرًا ما سمعتُ رجلًا مسرورًا بذنوبه لهذه الدّرجة».

- «لقد جلدتموه!».

- «لا توبة دون ألم. لا يَجدر بامرئٍ أن يستغني عن ضربات السّياط كما أخبرتُ السير أوزني. إنني نادرًا ما أشعر بقُربي من الإله كما أشعر حين أُجلَد تكفيرًا عن خطاياي، ولو أن أسوأ خطاياي ليس بسواد خطاياه».

قالت متلعثمةً: «لـلكنك تُبشِّر برحمة (الأم)...».

- «وسيتذوّق السير أوزني هذا اللّبن العذب في العالم الآخَر. مكتوب في (النّجمة الشباعيّة) إن الآلهة تغفر الذُّنوب كلّها ولكن لا بُدّ من عقاب المرء على ما يقترفه من جرائم. أوزني كِتلبلاك مذنب بالخيانة والقتل، وعقوبة الخيانة الموت».

إنه مجرّد راهب، لا يُمكنه أن يفعل هذا! «ليس للعقيدة أن تَحكّم على أحدٍ بالموت مهما كانت جريرته».

ببُطءٍ ردّد الشّيتون الأعلى الكلمات وازنًا إياها: «مهما كانت جريرته»، ثم أردفَ: «الغريب يا جلالة الملكة أنه كلّما أخلصنا في جَلد السير أوزني تغيّرت جرائره. الآن يُريدنا أن نُصدّق أنه لم يلمس مارجري تايرل بتاتًا. أليس كذلك يا سير أوزني؟».

فتح أوزني كِتلبلاك عينيه، ولمّا رأى الملكة واقفةً أمامه لعَق شفتيه المتورّمتين، وقال: «(الجِدار). لقد وعدتِني بـ(الجِدار)».

قالت سرسي: «إنه مجنون، قُدتموه إلى الجنون».

سألَ الشّيتون الأعلى بصوتٍ حازمٍ واضح: «سير أوزني، هل لك معرفة حميمة بالملكة؟».

صلصلَت القيود بخفوتٍ إذ تلوّى أوزني، وأجاب: «أجل، هذه الملكة، هي الملكة التي نكحتها، التي أرسلَتني لقتل الشّيتون الأعلى السّابق. لم يكن له حرس. دخلت وهو نائم وخنقته بالوسادة».

ودارَت سرسي على عقبيها تجري.

حاولَ الشّيتون الأعلى الإمساك بها، لكنه مجرّد عصفورٍ عجوز وهي اللّبؤة ابنة (الصّخرة). دفعته جانبًا واندفعت من الباب صافقةً إياه وراءها بصوتٍ صاخب. *الأخوان كِتلبلاك، أحتاجُ إلى الأخوين كِتلبلاك. سأرسلُ أوزفريد بذوي المعاطف الذّهبيّة وأوزموند بالحرس الملكي، وما إن يُحرّروه سيُنكِر أوزني كلَّ شيءٍ وأخلّص نفسي من هذا الشّيتون الأعلى كما تخلّصتُ من سلفه.* اعترضَت الشّيتوات المسنّات الأربع طريقها ومددن أيديهن المتغضّنة محاولاتٍ القبض عليها، لكنها أسقطَت إحداهن على الأرض وخمشت أخرى على وجهها واستطاعَت بلوغ السّلالم. في منتصف الطّريق إلى أعلى تذكّرت تاينا ميريويذر وتعثّرت لاهثةً. *ليَنقِذني (السّبعة). تاينا تعرف كلَّ شيء. إذا أخذوها أيضًا وجلدوها...*

جرَت حتى صحن السّبت لكنها لم تستطِع الابتعاد أكثر من هذا. هناك نسوة ينتظرنها، المزيد من الشّيتوات والأخوات الصّامتات أيضًا، أكثر شبابًا من الشّمطاوات الأربع بالأسفل. صاحت متراجعةً: «أنا الملكة. سأقطعُ رؤوسكن لهذا، سأقطعُ رؤوسكن جميعًا. اتركنني أمرُ»، وبدلًا من ذلك وضعن أيديهن عليها. جرّت سرسي إلى مذبح (الأم)، إلّا أنهن أمسكن بها هناك، نحو عشرين منهن، وجررنها راكلةً على سلالم البرج من جديد، وداخل زنزانتها ثبّتتها ثلاث أخواتٍ صامتات بينما جرّدتها سِيتة اسمها سكوليرا من كلّ ما تلبسه، بما فيه ثيابها الدّاخليّة، وألقت لها سِيتة أخرى ثوبًا من الخيش. ظلّت الملكة تَصرُخ فيهن: «لا يُمكنكن أن تفعلن هذا. إنني من آل لانستر. اتركنني. سيقتُلكن أخي، سيشقُّكن جايمي من الحلق إلى الفرج. اتركنني! أنا الملكة!».

قالت السّيتة سكوليرا: «على الملكة أن تُصلّي»، قبل أن يتركنها عاريةً في الزّنزانة الباردة الموحشة.

ليست سرسي خانعةً كمارچري تايرل لترتدي الثّوب الحقير وتستسلم للسّجن. *سأعلّمهن معنى حبس الأسد في قفص.* مزّقت الثّوب مئة قطعة، والتقطت إبريق الماء وهشّمته على الحائط، ثم فعلَت المِثل بوعاء الفضلات. فلمّا لم يأتِ أحد بدأت تدقّ الباب بقبضتيها. حُرّاسها بالأسفل في السّاحة، عشرة من رجال لانستر والسير بوروس بلاونت. *حالما يسمعون سيأتون لإطلاق سراحي، وسأجرّ الغصفور الأعلى الملعون إلى (القلعة الحمراء) مكبّلًا بالسّلاسل.*

عند الباب وعند النّافذة صرخَت وركلَت وعوَت حتى بَحّ صوتها، ولم يردّ عليها أحد، ولم يأتِ يُنقذها أحد. بدأت الزّنزانة تُظلِم وتزداد برودةً، وأخذَت سرسي ترتجف. *كيف يتركنني هكذا دون نار؟ إنني ملكتهن.* بدأ النّدم يُسوارها على تمزيق الثّوب الخيش. على السّرير القشّ في الرّكن دثار من الصّوف البنّي الخفيف الخشن، لكنه كلُّ ما لديها، وقد انكمشت سرسي على نفسها تحته لتوقِف رجفتها، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تغيب في نومٍ مرهق.

ثم إذا بيدٍ ثقيلة تهزّها، واستيقظَت في زنزانةٍ سوداء كالقار لتجد امرأةً قبيحة ضخمةً تركع إلى جوار السّرير حاملةً شمعةً.
سألتها الملكة: «مَن أنتِ؟ هل جئتِ لإطلاق سراحي؟».

- «أنا السّيتة أونلا، جئتُ أسمعُ اعترافكِ بالقتل والزّنى».

ضربَت سرسي يدها مزيحةً إياها، وقالت: «سأقطعُ رأسكِ. إياكِ أن تلمسيني، ابتعدي».

نهضَت المرأة قائلةً: «جلالة الملكة، سأعودُ بَعد ساعة. ربما تكونين مستعدّةً للاعتراف حينها».

ساعة تلو السّاعة تلو السّاعة. هكذا مرّت على سرسي لانستر أطول ليلةٍ في حياتها باستثناء ليلة زفاف چوفري. حلقها مسحوج من فرط الصّياح لدرجة أنها تبتلع ريقها بصعوبة، وبرودة الزّنزانة تُجمّد. كانت قد حطّمت وعاء الفضلات، فاضطرّت إلى القرفصة في رُكنٍ لتتبوّل وتشاهِد البول يسيل على الأرض. كلّما أغلقَت عينيها تجد أونلا فوق رأسها من جديد، تهزُّها وتسألها إن كانت تُريد الاعتراف بخطاياها.

لم يجلب لها النّهار راحةً. مع شروق الشّمس أتتها الشّيتة مويل بوعاءٍ من عصيدةٍ رماديّة مسيخة، فألقته سرسي على رأسها، لكن حين أتينَها بإبريق ماءٍ جديد لم يَترُك لها عطشها الشّديد خيارًا إلّا الشُّرب، ولمّا أتينَها بثوبٍ آخَر رمادي رقيق زنِخ الرّائحة تناولَته وغطّت به عُريها، وليلتها عندما عادَت مويل أكلَت الخُبز والسّمك وطلبت نبيذًا، لكن نبيذًا لم يظهر، فقط الشّيتة أونلا في زيارتها المحسوبة بالسّاعة تسأل الملكة إن كانت مستعدّةً للاعتراف.

بينما بدأت شريحة السّماء الرّفيعة خراج نافذتها تُظلِم ثانيةً تساءلَت سرسي في قرارة نفسها: *كيف يَحدُث هذا؟ لِمَ لم يأتِ أحد ينتزعني من هنا؟* لا تُصدّق أن يتخلّى الأخوان كِتلبلاك عن شقيقهما. وأعضاء مجلسها، ماذا يفعلون؟ *رعاديد وخونة*. حين *أخرجُ من هنا سآمرُ بضرب أعناقهم جميعًا وأجد رجالًا أفضل يحلّون محلّهم*.

ثلاث مرّاتٍ يومها ترامى إلى مسامعها صياح بعيد من السّاحة، لكن الرّعاع كانوا يهتفون باسم مارچري لا اسمها.

قُرب فَجر اليوم التّالي فيما تلعق سرسي ما تبقّى من الثّريد في قاع الوعاء انفتح باب الزّنزانة بلا سابق إنذار ودخلَ اللورد كايبرن. بذلَت أقصى جهدها كي لا تُلقي نفسها بين ذراعيه، وهمسَت: «كايبرن، أوه، يا للآلهة، كم أنا سعيدة لرؤية وجهك. خُذني إلى البيت».

- «لن يُسمح بذلك. ستمثُلين أمام محكمةٍ موقَّرة من سبعة قُضاة بتُهم الاغتيال والخيانة والزِّنى».

كانت سرسي مرهَقةً للغاية حتى إن الكلام بدا لها فارغًا في البداية، وقالت: «تومن. أخبِرني بأمر ابني، ألا يزال الملك؟».

- «بلى يا صاحِبة الجلالة. إنه بسلامٍ وخير، آمِن وراء جُدران (حصن ميجور) ويحميه الحرس الملكي، لكنه يَشعر بالوحدة والاضطراب، ويسأل عنكِ وعن ملكته الصَّغيرة. لم يُخبِره أحد بعدُ بـ... بـ...».

- «... أزمتي؟ وماذا عن مارجري؟».

- «ستمثُل للمحاكَمة أيضًا أمام القُضاة أنفسهم. لقد سلَّمت الشَّاعر الأزرق إلى السِّپتون الأعلى وفقًا لأوامركِ. إنه هنا الآن في مكانٍ ما بالأسفل. هامِسوي أخبروني بأنهم يجلدونه، لكنه حتى الآن يُغنِّي الأغنيَّة الجميلة نفسها التي لقَّنَّاه إياها».

فكَّرت بذهنٍ خدِر من جرَّاء الحاجة إلى النَّوم: *الأغنيَّة الجميلة نفسها. وات، اسمه الحقيقي وات*. إذا شاءت الآلهة سيموت وات بضربات الكُرباج تاركًا مارجري بلا سبيلٍ إلى دحض شهادته. «أين فُرساني؟ السير أوزفريد... السِّپتون الأعلى سيَقتُل أخاه أوزني. لا بُدَّ أن يتحرَّك ذوو المعاطف الذَّهبيَّة...».

- «لم يَعُد أوزفريد كِتلبلاك يقود حرس المدينة. الملك نحَّاه من منصبه وعيَّن قائد (بوَّابة التِّنين) في مكانه، اسمه همفري ووترز».

كانت سرسي منهَكةً للغاية، ولا شيء من هذا له معنى. «لماذا فعلَ تومن هذا؟».

- «اللَّوم ليس على الصَّبي. حين يضع مجلسه مرسومًا أمامه يُذَيِّله بتوقيعه ويمهَره بختمه».

- «مجلسي... مَن... مَن فعلَ هذا؟ أنت؟».

- «لقد طُرِدتُ من المجلس للأسف، لكنهم يسمحون لي بالاستمرار في العمل مع هامسي الخصيّ في الوقت الحالي. البلاد يَحكُمها السير هاريس سويفت والمِايستر الأكبر پايسل، وقد أرسَلا غُدافًا إلى (كاسترلي روك) داعيَين عمَّكِ إلى العودة إلى البلاط وتولّي الوصاية على العرش. إذا كان سيقبل فالأفضل أن يُسرِع. مايس تايرل تخلّى عن حصار (ستورمز إند) ويزحف على المدينة بجيشه، وراندل تارلي في الطّريق من (بِركة العذارى) أيضًا».

- «هل وافقَ اللورد ميريويذر على هذا؟».

- «ميريويذر استقالَ من منصبه في المجلس وفرَّ عائدًا إلى (الطّاولة الطّويلة) مع زوجته التي كانت أول من أبلَغنا نبأ... الاتّهامات... ضد جلالتكِ».

- «تركوا تاينا تذهب إذن». هذا أفضل شيءٍ سمعته منذ قال الشيتون الأعلى لها لا. كان يُمكن أن تُحكَم تاينا عليها بالهلاك. «وماذا عن اللورد ووترز؟ شفته... إذا جلبَ أطقُمها إلى اليابسة فسيكون معه رجال يكفون لـ...».

- «بمجرَّد أن بلغَت أخبار أزمة جلالتكِ الحاليّة النّهر رفعَ اللورد ووترز قلوعه وأنزلَ مجاذيفه وأخذَ أسطوله إلى البحر. السير هاريس يخشى أنه ينوي الانضمام إلى اللورد ستانيس، وپايسل يعتقد أنه مبحر إلى (الأعتاب) ليكون قُرصانًا».

- «كلُّ ذرموناتي الجميلة». كانت سرسي تضحك. «اعتادَ أبي أن يقول إن التّغول مخادعون بالفطرة. ليتني أصغيتُ إليه». وارتجفَت مضيفةً: «لقد ضعتُ يا كايبرن».

ردَّ: «لا»، والتقطَ يدها مواصلًا: «ما زالَ الأمل باقيًا. لجلالتكِ الحقُّ في إثبات براءتكِ بالنّزال، ونصيركِ جاهز يا مولاتي. لا أمل لرجلٍ في (الممالك السّبع) بأسرها في الصّمود أمامه. إذا ألقيتِ الأمر فقط...».

هذه المرّة ضحكَت. كان الأمر طريفًا، طريفًا على نحوٍ رهيب، طريفًا على نحوٍ بشع. «الآلهة تُحيل آمالنا وخُططنا جميعًا إلى دُعابات. لي نصير لا يقوى رجل على هزيمته لكنني ممنوعة من استخدامه. أنا الملكة يا كايبرن، وليس لأحدٍ أن يُدافِع عن شرفي إلّا أخ محلّف في الحَرس الملكي».

ماتَت الابتسامة على وجه كايبرن، وقال: «مفهوم. إنني حائر يا جلالة الملكة، ولا أدري بِمَ أنصحكِ...».

حتى في حالة الإرهاق والخوف هذه تعلم الملكة أنها لا تستطيع ائتمان محكمةٍ من العصافير على مصيرها، ولا يُمكنها الاعتماد على تدخُّل السير كيفان بَعد ما قيلَ بينهما في لقائهما الأخير. *يجب أن تكون محاكَمةً بالقتال، لا سبيل آخَر.* «كايبرن، لأجل حُبِّك لي أتوسّلُ إليك أن تبعث برسالةٍ من أجلي. أرسِل غُدافًا إن استطعت، وإن لم تستطِع فأرسِل خيّالًا. يجب أن تُرسل إلى أخي في (ريفرَن). أخبِره بما جرى واكتُب... اكتُب...».

- «نعم يا جلالة الملكة؟».

لعقَت شفتيها مرتعدةً، ثم قالت: «تعالَ في الحال. ساعِدني. أنقِذني. إنني محتاجة إليك الآن كما لم أحتَج إليك من قبل قَطّ. أحبُّك، أحبُّك، أحبُّك. تعالَ في الحال».

- «كما تأمرين. «أحبُّك» ثلاث مرّات؟».

- «ثلاث مرّات». يجب أن تُؤثّر فيه. «سيأتي، أعلمُ أنه سيأتي، يجب أن يأتي. چايمي أملي الوحيد».

قال كايبرن: «مولاتي، هل... نسيتِ؟ السير چايمي فقدَ يد سيفه. إذا ناصرَكِ وخسرَ...».

... فسنغادِر هذا العالم معًا كما جئناه معًا. «لن يخسر، ليس چايمي، ليس وحياتي على المحك».

كان سيّد (ريڤرّن) الجديد غاضبًا إلى حدّ الارتجاف وهو يقول: «لقد خُدِعنا، هذا الرّجل تلاعبَ بنا!»، وتطايرَ اللّعاب الوردي من فمه إذ أشارَ بإصبعه إلى إدميور تّلي متابعًا: «سأقطعُ رأسه! أنا الحاكم في (ريڤرّن)، مرسوم الملك يقول إنني...».

قاطعَته زوجته: «إمون، حضرة القائد على درايةٍ بمرسوم الملك، السير إدميور على درايةٍ بمرسوم الملك، غفّال الاسطبلات على درايةٍ بمرسوم الملك».

- «أنا اللورد، وأريدُ أن يُقطَع رأسه!».

- «بأيّ جريمة؟». على الرغم من هزاله يبدو إدميور أكثر وقارًا من إمون فراي، وقد ارتدى سراويل زرقاء ومعطفًا مبطّنًا من الصّوف الأحمر على صدره تطريز لسمكة الترويت الواثبة، وانتعلَ حذاءً من الجلد الأسود، وغسلَ شعره الكستنائي وهذّبه وشذّب لحيته الحمراء بعناية. «لقد فعلتُ كلَّ المطلوب مني».

لم يكن چايمي لانستر قد نامَ منذ فتحت (ريڤرّن) بوّابتها، وأحسّ برأسه يدقّ إذ قال: «أوه؟ لا أذكرُ أنني طلبتُ منك أن تتركَ السير برايندن يَهرُب».

- «طلبتَ مني أن أسلّم القلعة لا عمّي. لماذا ألامُ إن كان رجالك هم من تركوه ينسلُّ من بين صفوفهم؟».

لم تُرضِ الإجابة چايمي، وسألَ مبديًا حنقه: «أين هو؟». لقد فتّش رجاله (ريڤرّن) ثلاث مرّات ولم يجدوا للسير برايندن تّلي أثرًا.

- «لم يَذكُر لي أين سيذهب».

- «وأنت لم تسأله. كيف خرج؟».

أجابَ إدميور مبتسمًا: «السّمك يعوم، حتى السّمك الأسود».

راودت چايمي رغبة شديدة في أن يلكمه في فمه بيده الذهبيّة، فبضع أسنانٍ مفقودة كفيلة بوضع حدّ لابتساماته هذه. بالنّسبة إلى رجلٍ سيقضي ما تبقّى له من عمرٍ سجينًا يبدو إدميور تلي مسرورًا للغاية بنفسه. هكذا خاطبه قائلًا: «عندنا تحت (كاسترلي روك) دياميس[68] تنضغط على جسد المرء بضيق بزّةٍ مدرّعة، لا يمكنك أن تدور فيها أو تجلس أو تمد يدك إلى قدميك حين تبدأ الجرذان تقضم أصابعهما. هل ترغب في إعادة النّظر في هذه الإجابة؟».

اختفت ابتسامة إدميور، وقال: «لقد أعطيتني كلمتك بأنني سأعامَل بتكريم يليق بمقامي».

ردّ چايمي: «وهكذا ستُعامل. فُرسان أنبل منك ماتوا متوجّعين في تلك الدّياميس، وعدّة لوردات عظام أيضًا، ناهيك بملكٍ أو اثنين إن كنت أذكر ما تعلّمته من التّاريخ. يمكن لزوجتك أن تنزل بالدّيماس المجاور لك إذا أردت، فلست أرغب في التّفريق بينكما».

قال إدميور عابسًا: «لقد خرج عومًا حقًّا». للرّجل عينا أخته كاتلين الزّرقاوان، وفيهما يرى چايمي الازدراء نفسه الذي رآه من قبل في عينيها. «رفعنا شبكة (بوّابة الماء) الحديديّة، ليس عن آخرها، نحو ثلاثة أقدامٍ فقط، ما يكفي لترك ثغرة تحت الماء بينما تظلّ البوّابة تبدو مغلقة. عفي سبّاح قوي، وبعد حلول الظّلام خرج من تحت الشّبكة».

وسبح من تحت السلسلة بالطريقة نفسها لا ريب. ليلة بلا قمرٍ وحُرّاس ضجِرون وسمكة سوداء في نهرٍ أسود يحملها التيّار بهدوءٍ نحو المصبّ. لو سمعَ روتيجر أو ياو أو أحد رجالهما المياه تتناثر لعزوا الصّوت إلى سمكة ترويت أو سلحفاة. كان إدميور قد انتظرَ أغلب النّهار قبل أن يُنزِل راية ذئب ستارك الرّهيب دلالةً على الاستسلام، ومع فوضى تسليم القلعة لم يعرف چايمي أن السّمكة السّوداء ليس ضمن الأسرى إلّا صباح اليوم التّالي.

ذهبَ إلى النّافذة وتطلّع إلى النّهر الذي تتلألأ أشعّة الشّمس على صفحته في هذا النّهار الخريفي الصّحو، وفكّر: *ربما يكون السّمكة السّوداء قد ابتعدَ عشرة فراسخ بالفعل*.

قال إمون فراي بإصرار: «يجب أن تَعثروا عليه».

رَدّ چايمي بثقةٍ لا يَشعُر بها: «سنعثُر عليه. لقد أرسلتُ كلاب صيدٍ وصيّادين يقتفون أثره بالفعل». يقود السير أدام ماربراند البحث على ضفّة النّهر الجنوبيّة، ويقوده السير درموت ابن (الغابة المطيرة) على الشّماليّة. كان چايمي قد فكّر في الاستعانة بلوردات النّهر أيضًا، لكن الأرجح أن يُساعِد ڤانس وپايپر ومَن هم على شاكلتهما السّمكة السّوداء على الهرب بدلًا من تقييده بالأصفاد. إجمالًا لا يرى أملًا، لكنه قال: «ربما يُراوِغنا بعض الوقت لكنه سيظهر في النّهاية».

- «وماذا لو حاولَ أن يأخذ قلعتي؟».

- «إن معك حاميةً قوامها مئتا رجل». حامية أكبر من اللّازم في الحقيقة، لكن اللورد إمون ينزع إلى القلق دومًا. على الأقل لن تُواجِهه مشكلة في إطعامها، إذ ترك السّمكة السّوداء (ريڤررَن) مزوّدةً بفائضٍ من المؤن، تمامًا كما ادّعى. «بَعد ما تجشّمه السير برايندن كي يَتركنا أشكّ في أنه سيعود». *ما لم يكن على رأس جماعةٍ من الخارجين عن القانون*. ما لا يشكّ فيه هو نيّة السّمكة السّوداء استكمال القتال.

قالت الليدي چنا لزوجها: «هذا مقرُّك وعليك الحفاظ عليه. إن لم تكن تستطيع هذا فأضرِم فيه النّار وارجع إلى (الصّخرة)».

فرك اللورد إمون فمه ليَلطَخ التّبغ المُرّ يده بالأحمر اللّزج، وقال: «بالتّأكيد. (ريڤرَرن) لي، ولا أحد سيأخذها منّي أبدًا»، وحدج إدميور تَلي بنظرة ريبةٍ أخيرة بينما سحبَته الليدي چنا من الغُرفة الشّمسيّة.

لمّا صارا وحدهما سألَ چايمي إدميور: «هل من شيءٍ آخَر ترغب في إخباري به؟».

قال تَلي: «هذه غُرفة أبي الشّمسيّة. مِن هنا حكمَ أراضي النّهر بالعقل والعدل. كان يحبّ الجلوس عند تلك النّافذة. الإضاءة جيّدة هناك، ومتى رفع ناظرَيه عن عمله كان يرى النّهر، ولمّا تتعب عيناه كان يجعل كات تقرأ له. في مرّةٍ بنيتُ قلعةً من القوالب الخشب مع الإصبع الصّغير هناك إلى جوار الباب. لن تعلم أبدًا كم تُغثيني رؤيتك في هذه الغُرفة يا قاتِل الملك، لن تعلم أبدًا كم أحتقرك».

لكنه مخطئ في هذا. قال چايمي: «لقد احتقرَني رجال أفضل منك يا إدميور»، ونادى أحد الحرس وأمرَه قائلًا: «خُذ حضرة اللورد إلى بُرجه واحرِص على إطعامه».

وخرج سيّد (ريڤرَرن) صامتًا. غدًا سيبدأ رحلته غربًا، وسيقود السير فورلي پرستر حراسته المؤلّفة من مئة رجلٍ منهم عشرون فارسًا. *يَحسُن أن أضاعف هذا العدد. قد يُحاوِل اللورد بريك تحرير إدميور قبل أن يَبلغوا (النّاب الذّهبي).* لا يُريد چايمي أن يضطرّ إلى أسر تَلي للمرّة الثّالثة.

عادَ إلى مقعد هوستر تَلي والتقط خريطة (الثّالوث) وسوّاها بيده الذّهبيّة متسائلًا: *أين أذهبُ لو كنتُ السّمكة السّوداء؟*

ظهرَ حارس عند الباب المفتوح قائلًا: «حضرة القائد، الليدي ستِرلينج وابنتها منتظرتان في الخارج كما أمرت».

أزاح چايمي الخريطة، وقال: «أدخِلهما». *على الأقل لم تختفِ الفتاة أيضًا*. كانت چاين وسترلينج ملكة روب ستارك، الفتاة التي كلَّفته كلَّ شيء، وإذا كان في بطنها ذئب فهي أخطر من السَّمكة السَّوداء.

لا تبدو چاين خطرةً. فتاة غضَّة هي، لا تتجاوز الخامسة أو السَّادسة عشرة من العمر، وتبدو أقرب إلى الخَرق من الرَّزانة، ولها وَركان قويّان وثديان بحجم تفّاحتين وشَعر بنّي ضارب إلى الحُمرة وعينا ظبيةٍ بنّيّتان رقيقتان. *حسناء كفايةً بالنّسبة إلى طفلة، لكنها ليست فتاةً تستحقُّ خسارة مملكةٍ من أجلها*. رأى وجهها منتفخًا وقشرة جرحٍ على جبهتها تُخفيها خُصلة من شَعرها جزئيًّا، فسألَها: «ماذا حدث لكِ؟».

أشاحت الفتاة بوجهها، وقالت أمُّها بحزم: «لا شيء». المرأة صارمة الملامح، ترتدي فُستانًا من المخمل الأخضر وتُحيط بعُنقها الطَّويل الرَّفيع قلادة من الأصداف الذَّهبيَّة. «رفضَت التَّخلّي عن التّاج الذي أعطاها المتمرِّد إيّاه، وحين حاولتُ أن آخذه منها قاومَتني الطِّفلة العنيدة».

قالت چاين باكيةً: «كان مِلكي. لم يكن لكِ حَق. روب جعلَهم يصنعونه من أجلي. لقد أحببته!».

رفعَت أمُّها يدها تصفعها، لكن چايمي اعترضَ طريق الليدي سيبل وقال لها محذِّرًا: «إياكِ وهذا»، ثم أردفَ: «فلتجلس كلتاكما»، فانكمشت الفتاة على مقعدها كحيوانٍ خائف، في حين جلسَت أمُّها بجمودٍ رافعةً رأسها باعتداد. سألَهما: «هل تشربان نبيذًا؟»، فلم تُجِب الفتاة، أمّا أمُّها فقالت: «لا، شكرًا».

غمغمَ چايمي: «كما تُريدين»، والتفت إلى الفتاة قائلًا: «آسفٌ لخسارتكِ. الصَّبي كان شُجاعًا، أعترف بهذا. ثمَّة سؤال يجب أن ألقيه عليكِ... هل تحملين طفله يا سيِّدتي؟».

هبّت چاين من مقعدها، وكانت لتهرع هاربةً من الغُرفة لولا أن الحارس على الباب أمسك ذراعها، وبينما قاومَت ابنتها محاولةَ الإفلات أجابَت الليدي سيبل: «ليست حاملًا، لقد تيقّنتُ من هذا كما طلبَ مني السيّد والدك».

أومأ چايمي برأسه. لم يكن تايوين لانستر بالرّجل الذي يُغفِل تفصيلةً كهذه. قال للحارس: «اترُك الفتاة. فرغت منها في الوقت الحالي»، وإذ أسرعَت چاين تنزل السّلالم تطلّع إلى أمّها، وقال: «عائلة وسترلينج نالَت العفو، وأخوكِ رولف نُصّبَ سيّدًا على (كاستامير). ماذا تُريدين منا غير هذا؟».

- «السيّد والدك وعدَني بزيجةٍ لائقة لچاين وأختها الصّغيرة، وعدَ بأن يكون زوج كلٍّ منهما من اللوردات أو ورثتهم لا الأبناء الأصغر أو فُرسان أهل بيتهم».

من اللوردات أو ورثتهم، بالتّأكيد. وسترلينج عائلة عريقة فخور، لكن الليدي سيبل نفسها وليدة عائلة سپايسر، وتنحدر من ذرّيّة تُجّارٍ ناسبوا مَن هُم أعلى منهم مقامًا. كانت جدّتها عرّافةً شِبه مجنونةٍ من الشّرق على ما يَذكُر، وآل وسترلينج فُقراء. في مسار الأحداث الطّبيعي لكان الأبناء الأصغر أفضل ما تأمله ابنتا سيبل سپايسر، لكن جرّةً كبيرةً من ذهب لانستر كفيلة بجعل أرملة متمرّدٍ ميت جذّابةً لأحد اللوردات. قال چايمي: «ستحصُلين على الزّيجتين، لكن يجب أن تنتظر چاين سنتين كاملتين قبل أن تتزوّج ثانيةً». إذا تزوّجت الفتاة من جديد بَعد فترةٍ قصيرة وأنجبَت ابنًا فمن المحتّم أن يتهامَس بعض النّاس قائلين إن الذّئب الصّغير هو الأب.

ذكّرته الليدي وسترلينج قائلةً وفي نبرتها لمحة من التأنيب: «إن لي ابنين أيضًا. رولام معي، لكن رايناِلد كان فارسًا وذهبَ مع المتمرّدين إلى (التوأمتين). لو عرفتُ ما سيَحدُث هناك لما سمحتُ له بالذّهاب على الإطلاق. لم يكن رايناِلد يعلم شيئًا عن... التفاهم مع السيّد والدك. ربما يكون أسيرًا في (التوأمتين)».

أو ربما يكون ميتًا. لم يكن والدر فراي ليعلم بأمر هذا «التّفاهم» أيضًا. «سأستعلمُ عنه. إذا كان السير رايناِلد أسيرًا فسندفع فديته».

- «السيّد والدك ذكرَ ترتيب زيجةٍ له أيضًا، بعروس من (كاسترلي روك). قال إن رايناِلد سينال منه چوي إذا سارَ كلُّ شيءٍ كما نأمل».

حتى من القبر ما زالت يدا اللورد تايوين الميتتان تُحرّكاننا جميعًا. «چوي ابنة عمّي الرّاحل جيريون الطّبيعيّة. يُمكن عقد الخطبة إذا أردتِ، لكن على الأزواج أن ينتظر. چوي كانت في التاسعة أو العاشرة عندما رأيتها آخِر مرّة».

بدَت الليدي سيبل كأنها ابتلعت ليمونةً وهي تقول: «ابنته الطّبيعيّة؟! أتُريد ابنًا لعائلة وسترلينج أن يتزوّج نغلةً؟!».

- «ليس أكثر مما أريدُ أن تتزوّج چوي ابن حقيرةٍ متآمرة خائنة. إنها تستحقُّ أفضل». كان ليَسعد چايمي لحظتها أن يَخنُق المرأة بقلادة الأصداف المحيطة بعُنقها. چوي طفلة رقيقة وإن كانت وحيدةً، وكان أبوها عمّ چايمي الأثير. «ابنتكِ برقبة عشرٍ منكِ يا سيّدتي. ستُغادِرون مع إدميور والسير فورلي غدًا، وحتى ذلك الحين خيرٌ لك أن تَغرُبي عن وجهي»، وزعقَ مناديًا حارسًا، وذهبَت الليدي سيبل بشفتين مزمومتين عن آخِرهما. تساءلَ چايمي رغمًا عنه عن قدر ما عرفَه اللورد چاون عن تآمر زوجته. *وما قدر ما نعرفه نحن الرّجال أبدًا؟!*

حين رحلَ إدميور وآل وسترلينج ذهبَ معهم أربعمئة رجل، ففي اللّحظة الأخيرة قرّر چايمي مضاعفة الحراسة مرّةً أخرى، وركبَ معهم بضعة أميالٍ ليتحدّث مع السير فورلي پرستر. على الرغم من وجود رأس ثورٍ على سترته الطّويلة وقرنين على خوذته لا يبدو على السير فورلي أنه يمتُّ بأيّ صِلةٍ للثّيران، فهو رجل قصير نحيل خشن، وبأنفه الضيّق ورأسه الأصلع ولحيته البنّيّة المنقّطة بالرّمادي يبدو أقرب إلى صاحِب خانٍ من فارس.

قال له چايمي مذكّرًا: «لسنا نعرف مكان السّمكة السّوداء، لكن إذا استطاعَ تحرير إدميور فسيفعل».

كأكثر أصحاب الخانات ليس السير فورلي بأحمق، وقد أجابَ: «لن يَحدث يا سيّدي. سيسبقنا الكشّافة في أثناء الزّحف وسنُحصّن معسكَراتنا ليلًا. انتقيتُ عشرة رجالٍ للبقاء مع تّلي ليل نهار، أفضل رجالي من رُماة القوس الطّويل. إذا حادَ قدمًا واحدًا عن الطّريق سيُطلِقون عليه سهامًا يكفي ريشها لجعل أُمّه نفسها تحسبه إوزّةً».

- «عظيم». يُحبّذ چايمي أن يصل تلي إلى (كاسترلي روك) سالمًا، إلّا أن موته أفضل من هربه. «الأفضل أن تضع بعض الرُّماة قُرب ابنة اللورد چاون أيضًا».

قال السير فورلي مندهشًا: «ابنة چاون؟ إنها...».

- «... أرملة الذّئب الصّغير، وأخطر مرّتين من إدميور إذا هربَت منا».

- «كما تقول يا سيّدي، سنضعها تحت المراقبة».

اضطرّ چايمي إلى المرور خببًا بآل وسترلينج في طريق العودة إلى (ريڤرن). أومأ له اللورد جاون بتجهُّم إذ رآه، لكن الليدي سيبل رمقته بعينين من جليد، في حين لم ترَه چاين أصلًا. كانت الأرملة راكبةً بعينين مُطرقتين، وقد رفعت قلنسوة معطفها الذي تلوح من تحت طيّاته الثّقيلة ثياب أنيقة لكن ممزّقة. *مزّقتها بنفسها علامةً على الحِداد. لا يُمكن أن هذا سرّ أمّها*. وجدَ نفسه يتساءل إن كانت سرسي ستشقّ فُستانها إذا أتاها نبأ موته ذات يوم.

لم يَعُد إلى القلعة مباشرةً، بل عبرَ (الجُلمود) مرّةً أخرى ليزور إدوين فراي ويُناقِش معه نقل شجناء جدّه الكبير. كان جيش فراي قد بدأ يحلّ معسكَراته خلال ساعاتٍ من استسلام (ريڤرن)، وراح حملة راية اللورد والدر ومُحاربوه غير النّظاميّين يقتلعون الخوازيق من الأرض استعدادًا للرّحيل. رأى رجال فراي الباقين يحلّون معسكَرهم أيضًا، لكن إدوين كان مع عمّه النّغل في سُرادق الثّاني.

وجدَ الاثنين مائلين فوق خارطةٍ يتجادلان بانفعال، لكنهما بترا كلامهما لدى دخول چايمي، وقال ريڤرز بكياسةٍ باردة: «حضرة القائد»، لكن إدوين اندفعَ يقول: «دم أبي على يديك أيها الفارس».

أدهشَ هذا چايمي بعض الشّيء، وتساءلَ: «كيف؟».

- «أنت الذي أرسلته إلى الدّيار، أليس كذلك؟».

كان على أحدهم أن يفعل. «هل وقعَ للسير رايمان سوء؟».

قال والدر ريڤرز: «شُنِقَ مع مجموعته كلّها. الخارجون عن القانون هاجَموهم على بُعد فرسخين من (الشوق القصيّة)».

- «دونداريون؟».

- «هو أو ثوروس أو تلك المرأة قلب الحجر».

قطّب چايمي وجهه. رايمان فراي كان أبله وجبانًا وسكّيرًا، وليس واردًا أن يفتقده أحد كثيرًا، بالذّات أهله من آل فراي. إذا كانت عينا إدوين الجافّتان قرينةً فحتى أبناؤه أنفسهم لن يحزنوا عليه طويلًا. *ولو... هؤلاء الخارجون عن القانون يزدادون جراءةً ما داموا قد شنقوا وريث اللورد والدر على بُعد أقلّ من يومٍ من (التّوأمتين).* «كم رجلًا كان مع السير رايمان؟».

أجاب ريڤرز: «ثلاثة فُرسان ودستة من الجنود. كأنهم كانوا يعرفون أنه عائد إلى (التّوأمتين) بحراسةٍ خفيفة».

التوى فم إدوين، وقال: «أراهِنُ أن لأخي يدًا في هذا. لقد سمحَ للخارجين عن القانون بالهرب بَعد أن قتلوا ميريت وپيتر، وهذا هو السّبب. بموت أبينا لا يتبقّى إلّاي بين والدر الأسود و(التّوأمتين)».

قال والدر ريڤرز: «لا دليل لديك على هذا».

- «لستُ محتاجًا إلى دليل، إنني أعرفُ أخي».

ردّ ريڤرز بإصرار: «أخوك في (سيجارد). أنّى له بأن يعرف بعودة السير رايمان إلى (التّوأمتين)؟».

أجابَ إدوين بمرارة: «أحدهم أبلغه. إن له جواسيسه في معسكرنا، لك أن تثق بهذا».

وأنت لك جواسيسك في (سيجارد). يعرف چايمي أن العداوة بين إدوين ووالدر الأسود عميقة، لكنه لا يُبالي مقدار ذرّةٍ بخلافة أيّهما لجدّهما الأكبر في سيادة (المعبر).

قال بنبرةٍ جافّة: «إذا سمحتما لي بالتّطفُّل عليكما في حزنكما، ثمّة أمور أخرى علينا تسويتها. لدى عودتكما إلى (التّوأمتين) أرجو منكما إبلاغ اللورد والدر بأن الملك تومن يَطلُب جميع الأسرى الذين أخذتموهم في الزّفاف الأحمر».

ردّ السير والدر عابسًا: «هؤلاء الأسرى قيّمون أيها الفارس».

- «لم يكن جلالته ليطلُبهم لو أنهم بلا قيمة».

تبادلَ فراي وريفرز نظرةً، ثم قال إدوين: «سيتوقَّع السيِّد جذي تعويضًا عن هؤلاء الأسرى».

وسيناله ما إن تنبت لي يد جديدة. قال بكياسة: «كلُّنا لنا توقُّعاتنا. أخبِرني، هل السير راينالد وسترلينج بين هؤلاء الأسرى؟».

قال إدوين هازئًا: «فارس الأصداف؟ ستجد الأسماك تتغذَّى عليه في قاع (الفرع الأخضر)».

أضافَ والدر ريفرز: «كان في السّاحة عندما خرج رجالنا لقتل الذِّئب الرَّهيب. طالبَه والن بسيفه فسلَّمه بإذعان، لكن حين بدأ رُماة الشُّابيّة إطلاق سهامهم على الذِّئب انتزع فأس والن وأطلقَ سراح الوحش من الشَّبكة التي ألقوها عليه. والن يقول إنه أصيبَ بسهمٍ في كتفه وآخَر في بطنه، ومع ذلك استطاعَ بلوغ أعلى السُّور وإلقاء نفسه في النَّهر».

قال إدوين: «ترك أثرًا من الدّم على السّلالم».

سألَ چايمي: «هل عثرتم على جثّته بَعدها؟».

- «عثرنا على ألف جثّة بَعدها. بَعدما يقضون بضعة أيامٍ في مياه النَّهر يبدون متشابهين جميعًا».

علّق چايمي: «سمعتُ المِثل عن المشنوقين»، ثم انصرفَ.

بحلول الصّباح التّالي لم يتبقَّ من معسكر فراي إلّا الذُّباب وروث الخيول ومشنقة السير رايمان المرتفعة بكآبةٍ على ضفّة (الجُلمود). أرادَ ابن خاله أن يعرف ماذا يفعل بها وبمعدّات الحصار التي بناها، المِدكّات والسّلاحف[69] والأبراج والمجانيق، واقترح داڤن أن يجرُّوا كلّ هذا إلى (شجرة الغِدفان) لاستخدامه هناك، لكن چايمي قال له أن يُضرِم النّار في كلّ شيءٍ بدايةً بالمشنقة، وأضافَ: «أنوي أن أتعامل مع اللورد تايتوس بنفسي. لن يتطلّب الأمر أبراج حصار».

ابتسمَ داڤن ابتسامةً عريضةً من تحت لحيته الكثّة، وقال: «نزال فردي يا ابن العمّة؟ لا يبدو هذا عدلًا. تايتوس شيخ طاعن في السّن».

شيخ طاعن في السّنّ له يدان.

ليلتها تقاتلَ مع السير إلين ثلاث ساعات. كانت واحدةً من أفضل لياليه، فلو كان قتالهما حقيقيًا لفتك به پاين مرّتين، أمّا المعتاد فأن يموت ستّ مرّاتٍ على الأقل، وفي بعض اللّيالي يكون الأمر أسوأ. أعلنَ چايمي: «إذا استمررتُ على هذا المنوال سنةً أخرى فربما أصير ببراعة پك»، فأصدرَ السير إلين صوت الطّقطقة إياه الذي يعني أنه يضحك. «هلمّ، لنشرب المزيد من نبيذ هوستر ثلي الأحمر الممتاز».

أمسى النّبيذ جزءًا من طقوسهما اللّيليّة. السير إلين نديم الشّراب المثالي، إذ لا يُقاطِعه أبدًا أو يُخالِفه أو يشتكي أو يَطلُب خدماتٍ أو يحكي قِصصًا طويلةً لا غاية منها. كلُّ ما يفعله هو الشُّرب والإنصات.

قال چايمي بينما يملأ كأسيهما: «حريٌ بي أن أقطع ألسنة أصدقائي جميعًا، وأهلي أيضًا. كم ستكون سرسي الصّامتة رائعةً، ولو أنني سأفتقد لسانها حين أقبّلها»، ورشف من النّبيذ الأحمر القاني. كان خلوًا قويًا، وقد دفّأه إذ ابتلعه. «لا أذكر متى بدأنا التّقبيل، لكنه كان بريئًا في البداية، ثم لم يَعُد كذلك»، وأفرغَ باقي النّبيذ في جوفه ووضعَ كأسه جانبًا مضيفًا: «أخبرَني تيريون ذات مرّةٍ بأن أكثر العاهرات لا يُقبِّلن زبائنهن، قال إنهن يُضاجِعنك حتى العمى، لكنك لن تَشعُر بشفاههن على شفتيك أبدًا. هل تحسب أن أختي تُقبّل كِتليلاك؟». لم يُجِب السير إلين، فتابعَ چايمي: «لا أظنُّ أنه يليق بي أن أقتل أخي المحلّف. عليّ أن أخصيه وأرسِله إلى (الجِدار). هذا ما فعلوه بلوكامور الشّهواني. بالطّبع ربما لا يتقبّل كِتلبلاك الإخصاء ببساطة، ويجب وضع أخويه في الاعتبار أيضًا، فالإخوة خطرون أحيانًا. بَعد أن أعدمَ إجون غير الجدير السير تيرانس توين لنومه مع عشيقته بذلَ إخوة توين قصارى جهدهم لقتله، ولكن بفضل الفارس التنّين لم يكن قصارى جهدهم كافيًا، وإن لم يكن للتّواني في المحاولة. كلُّ هذا مدوّن في (الكتاب الأبيض)، كلُّ شيءٍ باستثناء ما أفعله بسرسي».

مرّر السير إلين يده على حلقه.

قال چايمي: «لا. تومن فقدَ أخاه والرّجل الذي يحسبه أباه. إذا قتلتُ أمّه سيكرهني... وستجد زوجته الصّغيرة الجميلة وسيلةً لصبّ هذه الكراهية في مصلحة (هايجاردن)».

ابتسم السير إلين بطريقةٍ لم تَرُق چايمي، فقال لنفسه: *ابتسامة قبيحة وروح قبيحة*، وقال للرّجل: «إنك تتكلّم كثيرًا».

في اليوم التالي رجعَ السير درموت ابن (الغابة المطيرة) خاوي الوفاض، ولدى سؤاله عمّا وجدَه أجابَ: «الذّئاب، مئات من تلك الحيوانات اللّعينة». بسبب الذّئاب فقدَ حارسيْن عندما خرجَت من الظّلام لتفترسهما. «رجلان مسلّحان يرتديان الحلقات المعدنيّة والجِلد المقوّى، ولم يُخيفا الوحوش على الإطلاق. قبل أن يموت چايت قال إن القطيع تقوده ذئبة هائلة الحجم، ذئبة رهيبة على حدّ تعبيره. هاجمَت الذّئاب الملعونة صفوف خيولنا أيضًا وقتلَت جوادي المفضّل».

قال چايمي: «ربما تتكفّل حلقة من النّار حول معسكَركم ليلًا بإبعادها»... ولو أنه يتساءل. هل يُمكن أن تكون ذئبة السير درموت الرّهيبة الذّئبة نفسها التي نهشَت چوفري قُرب مفترَق الطّرق؟

ذئاب أو لا ذئاب، أخذَ السير درموت خيولًا جديدةً ومزيدًا من الرّجال في الصّباح التّالي لاستئناف البحث عن برايندن تْلي. بَعد ظُهر اليوم نفسه أتى لوردات (الثّالوث) چايمي يَطلُبون إذنه في العودة إلى أراضيهم، ومنحهم إياه. أرادَ اللورد پايپر أن يعرف ما سيَحدُث لابنه مارك، فوعدَه چايمي قائلًا: «ستُدفَع فدية جميع الأسرى».

إذ غادرَ لوردات أراضي النّهر تخلّف كاريل ڤانس ليقول: «لورد چايمي، يجب أن تذهب إلى (شجرة الغِدفان). تايتوس لن يستسلم أبدًا ما دامَ چونوس على أبوابه، لكنني أعلمُ أنه سيركع لك». فشكرَه چايمي على نصيحته.

كان الغفر القوي الرّاحل التّالي، وقد أرادَ العودة إلى (داري) ليُقاتِل الخارجين عن القانون كما وعدَ، وقال: «لقد قطعنا نِصف البلاد اللّعينة، ومن أجل ماذا؟ كي تجعل إدميور تْلي يَبلّل سراويله؟ لا أغنيّة في هذا. أريدُ أن أقاتل! أريدُ كلب الصّيد يا چايمي، هو أو لورد (الشّخوم)».

- «رأس كلب الصّيد لك إذا استطعت أن تقطعه، لكن عليك أن تقبض على بريك دونداريون حيًا كي يُؤخذ إلى (كينجز لاندنج). يجب أن يراه ألف من النّاس يموت وإلّا فلن يظلّ ميتًا»، فدمدمَ الغفر معترضًا لكنه وافقَ في النّهاية، وفي اليوم التّالي رحلَ مع مُرافقه وجنوده، بالإضافة إلى جون بتلي الحليق الذي قرّر أن مطاردة الخارجين عن القانون خير من العودة إلى زوجته الشّهيرة بدمامتها، والتي يُفترَض أن لها اللّحية التي يفتقر إليها بتلي.

ما زالَ على چايمي أن يتعامَل مع الحامية، وقد أقسمَ رجالها عن آخِرهم أنهم لا يعلمون شيئًا عن خُطط السير برايندن أو أين ذهبَ. قال إمون فراي بإلحاح: «كاذبون»، لكن چايمي لا يحسب هذا، وردّ: «إذا لم تُطلِع أحدًا على خُططك فلا يُمكن أن يخونك أحد»، فاقترحت الليدي چنا إخضاع عددٍ من الرّجال للاستجواب، لكنه رفضَ قائلًا: «لقد وعدتُ إدميور بأن تُغادِر الحامية بسلامٍ إذا استسلمَ».

قالت عمّته: «وكانت هذه شهامة منك، لكن ما نحتاج إليه هنا هو القوّة وليس الشّهامة».

سَلي إدميور عن شهامتي، سَليه عن المنجنيق. بشكلٍ ما لا يحسب چايمي أن المايسترات سيخلطون بينه وبين الأمير إيمون الفارس التنّين حين يُدوِّنون سيرته، وعلى الرغم من ذلك يحسّ بقناعةٍ عجيبة. الحرب تُوشِك على وضع أوزارها. (دراجونستون) سقطَت ولا شكّ أن (ستورمز إند) ستلحق بها عمّا قريب، وهنيئًا لستانيس بـ(الجدار)، فلن يحبّه الشّماليّون أبدًا أكثر مما أحبّه لوردات أراضي العواصف، وإذا لم يبطش به رووس بولتون فسيدّمِّره الشّتاء.

ولقد قام بدوره هنا في (ريفرَن) دون أن يحمل السِّلاح ضد آل ستارك أو تَلي، وما إن يَعثر على السَّمكة السَّوداء سيكون خزًا في العودة إلى (كينجز لاندنج) حيث ينتمي. *مكاني مع مليكي، مع ابني*. ترى هل يُريد تومن أن يعرف ذلك؟ من شأن الحقيقة أن تُكلِّف الصَّبي عرشه. *هل تُؤثِر أن تحظى بأبٍ أم كُرسيٍّ يا فتى؟* يتمنَّى جايمي لو يعرف الجواب. *إنه يحبُّ وضع ختمه على الأوراق حقًّا*. ربما لا يُصدِّقه الصَّبي من الأصل طبعًا، إذ ستقول سرسي إنه يكذب. *أختي الجميلة المخادعة*. عليه أن يجد طريقةً لانتزاع تومن من براثنها قبل أن يتحوَّل إلى چوفري آخر، وبينما يفعل هذا عليه أن يجد للصَّبي مجلسًا صغيرًا جديدًا أيضًا. *إذا أزيحت سرسي فربما يُوافِق السير كيفان على أن يكون يد تومن*. وإن لم يقبل فلا بأس، (الممالك السَّبع) لا تفتقر إلى الرِّجال القادرين. فورلي پرستر اختيار جيِّد، أو رولاند كراكهول، وإذا دعت الحاجة إلى رجلٍ غير غربي لإرضاء آل تايرل فماثيس روان متاح دائمًا... أو حتى پيتر بايلش. الإصبع الصَّغير وديع بقدر ما هو ذكي، لكن مولده أكثر تواضُعًا من أن يُهدِّد أيًّا من كبار اللوردات، إذ إن لا جُند تحت إمرته. *اليد المثالي*.

رحلَت حامية تَلي في الصَّباح التَّالي بَعد تجريدها من السِّلاح والدُّروع، وقد سُمِحَ لكلِّ رجلٍ بطعامٍ يكفي ثلاثة أيام والثِّياب على ظَهره، بَعد حلفه يمينًا مغلَّظةً بعدم رفع السِّلاح ضد اللورد إمون أو عائلة لانستر أبدًا.

قالت الليدي چنا: «إذا كنت محظوظًا فربما يصون رجل واحد من كلِّ عشرة يمينه».

- «جيِّد. أفضِّل أن أواجه تسعة رجالٍ على عشرة، فلربما كان العاشر قاتِلي».

- «سيَقتُلك التِّسعة الآخَرون بالسُّرعة نفسها».

- «أفضل من أن أموت في الفِراش». *أو في المرحاض*.

اختارَ رجلان ألّا يرحلا مع الآخَرين. فضَّل السير دزموند جرل -قيِّم سلاح اللورد هوستر العجوز- ارتداء أسود حَرس اللَّيل، وكذا السير روبن رايجر قائد الحَرس في (ريفررَن)، وقال جرل: «هذه القلعة بيتي منذ أربعين عامًا. تقول إن لي حرِيَّة الرَّحيل، ولكن إلى أين؟ إنني أكبر سِنًّا وأكثر بدانةً من أن أصير فارسًا متجوِّلًا، لكنهم يُرَحِّبون بالرِّجال دومًا على (الجدار)».

على الرغم من انزعاجه البالغ قال چايمي: «كما ترغبان»، وسمحَ للرَّجلين بالاحتفاظ بأسلحتهما ودروعهما، وكلَّف دستةً من رجال جريجور كليجاين باصطحابهما إلى (بِركة العذارى). عهدَ إلى رافورد الملقَّب بالمعسول بالقيادة، وقال له: «احرِص على بلوغ الأسيرَين (بِركة العذارى) دون أن يُصيبهما أذى، وإلَّا لبدا ما فعلَه السير جريجور بالكبش كدُعابة مرحة مقارنةً بما سأفعله بك».

مرَّت أيام أخرى، وجمعَ اللورد إمون (ريفررَن) كلَّها في السَّاحة، قوم اللورد إدميور وقومه، وكلَّمهم لما يَقرُب من ثلاث ساعاتٍ عن المتوقَّع منهم الآن وقد صارَ سيِّدهم ومولاهم، ملوِّحًا بين الحين والآخَر بورقته فيما أصغى عُمَّال الاسطبلات والخادمات والحدَّادون بصمتٍ واجِم وسقطَ عليهم جميعًا مطر خفيف.

كان المغنِّي مع المنصتين، هذا الذي أخذَه چايمي من السير رايمان فراي، وقد وجدَه واقفًا تحت بابٍ مفتوح حيث لا يُبَلِّله المطر. قال الرَّجل: «كان جديرًا بحضرة اللورد أن يحترف الغناء. هذه الخُطبة أطول من أغنيَّة شعبيَّة من (التُّخوم)، ولا أظنُّه توقَّف يلتقط أنفاسه».

ضحكَ چايمي رغمًا عنه، وقال: «اللورد إمون ليس في حاجةٍ إلى التنفُّس ما دامَ يستطيع المضغ. هل ستؤلِّف أغنيَّةً عن هذه الخُطبة؟».

- «واحدةً طريفةً، سأسمِّيها (كلام مع الأسماك)».

- «فقط لا تُغنّيها على مسمعٍ من عمّتي». لم يَلقَ چايمي للزّجل بالًا من قبل. إنه صغير الحجم، ويرتدي سراويل خضراء باليةً وسترةً مهترئةً لونها الأخضر أفتح درجةً ومرقّعة بقطعٍ من الجلد البنّي، وله أنف طويل حاد وابتسامة واسعة طليقة، وينسدل شعره البنّي الخفيف حتى ياقته ملبّدًا متسخًا. في الخمسين من العمر على الأقل، مطرب متجوّل *أكلَت عليه الحياة* وشربَت. سأله چايمي: «ألم تكن رجل السير رايمان لمّا وجدتك؟».

- «لمدّة أسبوعين فقط».

- «كنتُ لأحسبك رحلت مع آل فراي».

قال المغنّي مشيرًا برأسه إلى اللورد إمون: «هذا من آل فراي، وهذه القلعة تبدو مكانًا لطيفًا مريحًا لقضاء الشّتاء. وات ذو الابتسامة البيضاء عادَ إلى دياره مع السير فورلي، فخطرَ لي أن أرى إن كنتُ أستطيعُ الظّفر بمكانه. وات يتمتّع بتلك النّبرة العالية العذبة التي لا أمل لأمثالي في مضاهاتها، لكنني أعرفُ ضِعف ما يعرفه من الأغاني البذيئة، بَعد إذن سيّدي».

قال چايمي: «هذا كفيل بجعلك تُعجِب عمّتي للغاية. إذا كنت تأمل أن تقضي الشّتاء هنا فاحرِص على أن يسرّ غناؤك الليدي چنا، فهي المهمّة».

- «وليس أنت؟».

- «مكاني مع الملك. لن أمكث هنا طويلًا».

- «يُؤسفني أن أسمع هذا يا سيّدي. إنني أعرفُ أغاني أفضل من (أمطار كاستامير). كان يُمكنني أن أغنّي لك... أوه، أغاني من شتّى الأصناف».

- «مرّة أخرى. ما اسمك؟».

رفعَ المغنّي قبّعته مجيبًا: «توم ابن (الجداول السّبعة)، بَعد إذن سيّدي، لكن أكثر النّاس يدعونني بتوم أبي السّبعات».

- «غناءً جميلًا يا توم يا أبا السّبعات».

ليلتها حلمَ جايمي بنفسه في (سپت بيلور) الكبير، ما زالَ واقفًا يَحرُس جثّة أبيه. كان السّپت ساكنًا مظلمًا إلى أن برزَت امرأة من قلب الظّلال ومشت الهوينى نحو النّعش، فسألَها: «أختاه؟».

غير أنها لم تكن سرسي. كانت مسربلةً بالرّمادي، أختًا صامتةً تُخفي قلنسوة ولثام ملامحها، لكنه رأى ضوء الشّموع المنعكس في بِركتي عينيها الخضراوين. قال: « أيتها الأخت، ماذا تُريدين مني؟»، وتردّدت أصداء كلمته الأخيرة في جنبات السّپت، *مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني-مني*.

ردّت: «لستُ أختك يا جايمي»، ورفعَت يدًا شاحبةً ناعمةً وأنزلَت قلنسوتها متسائلةً: «هل نسيتني؟».

كيف أنسى أحدًا لم أعرفه قطُّ؟ احتبسَت الكلمات في حلقه. إنه يعرفها بالفعل، لكن زمنًا طويلًا مضى...

- «هل ستنسى السيّد والدك أيضًا؟ ترى هل عرفته بحقٍّ يومًا؟». عيناها خضراوان، وشعرها ذهب مغزول، ولا يستطيع تخمين سنّها. *في الخامسة عشرة أو الخمسين*. ارتقَت الدّرجات لتقف إلى جوار النّعش قائلةً: «لم يتحمّل قطّ أن يضحك منه النّاس. هذا أكثر شيءٍ كرهَه».

- «مَن أنتِ؟». يجب أن يسمعها تقولها.

- «السّؤال هو مَن أنت؟».

- «هذا حلم».

قالت: «أهو كذلك؟»، وابتسمَت مضيفةً: «احصِ يديك يا صغيري».

واحدة. يد واحدة مطبقة بإحكامٍ على مقبض سيفه، واحدة فقط. «في أحلامي لي يدان اثنتان دومًا». رفعَ ذراعه اليُمنى وحدّق غير قادرٍ على الاستيعاب إلى قُبح عاهته.

- «كلُّنا يَحلُم بما لا يستطيع أن يحظى به. تايوين حلمَ بأن يصير ابنه فارسًا عظيمًا وتصير ابنته ملكةً، حلمَ بأن يكونا قويَّين شُجاعين جميلين لا يضحك منهما أحد أبدًا».

- «أنا فارس، وسرسي ملكة».

سالَت دمعة على وجنة المرأة، وعادَت ترفع قلنسوتها وأولَته ظَهرها. ناداها چايمي، لكنها كانت تبتعد بالفعل، تهمس تنّورتها بتهويدةٍ إذ تكنس الأرض بنعومة. أرادَ أن يصيح: *لا تتركيني*، لكنها -بالطَّبع- تركَتهم منذ زمن طويل فعلًا.

استيقظَ في الظَّلام مرتجفًا ليجد الغُرفة باردةً كالجليد. بقوَّةٍ أزاحَ الأغطية بجَدعة يد سيفه، ورأى أن نار المستوقَد همدَت والنّافذة انفتحَت. قطعَ الغُرفة دامسة الظَّلام ليُغلِق مصراعيها، لكن حين بلغَها داسَت قدمه الحافية شيئًا مبتلًا، فتراجعَ چايمي مذعورًا لحظةً، وأول ما جالَ بباله أن هذا دم، ولكن لما كان الدَّم بهذه البرودة.

كان الثَّلج ينجرف من النّافذة.

بدلًا من إغلاق المصراعين فتحَهما عن آخِرهما، ورأى السّاحة بالأسفل مغطّاةً بدثارٍ أبيض خفيف يزداد سُمكًا بينما يُشاهِد، وقد اكتسَت شُرّافات الشُّرفات بالبياض أيضًا. سقطَت نُدف الثَّلج بصمتٍ ودفعَ الهواء بعضها من النّافذة ليذوب على وجهه، وفي هذه اللَّحظة استطاعَ چايمي أن يرى أنفاسه.

ثلوج في أراضي النَّهر. ما دامَ الثَّلج يَسقُط هنا فمن الوارد أنه يَسقُط على (لانسپورت) و(كينجز لاندنج) أيضًا. *الشِّتاء يزحف على الجنوب ونِصف مخازننا خاوٍ على عروشه*. إذا كانت هناك محاصيل غير محصودة في الحقول حتى الآن فهي هالكة. لا مزيد من الزَّرع ولا أمل في حصادٍ أخير. وجدَ نفسه يتساءَل عمّا سيفعله أبوه لإطعام البلاد، قبل أن يتذكَّر أن تايوين لانستر مات.

حين بزغ الصّبح كان الثّلج عميقًا تغوص فيه القدم حتى الكاحل، وأعمق في أيكة الآلهة حيث تراكمَ تحت الأشجار. عادَ المُرافقون وغمّال الاسطبلات والوُصفاء النّبلاء إلى طفولتهم من جديدٍ متأثّرين بالشّعويذة البيضاء الباردة، وخاضوا حربًا بكّرات الثّلج في السّاحات والشّرفات، وسمعَهم چايمي يضحكون. في وقتٍ لم يمضِ عليه زمن طويل كان ليصنع كّرات الثّلج مع أفضلهم ليرمي تيريون بها عندما يمرّ أو يضع واحدةً في ظَهر فُستان سرسي. *لكنك تحتاج إلى يدين لتصنع كُرة ثلجٍ جيّدة.*

دَقّ أحدهم الباب، فقال: «انظُر مَن الطّارق يا پك».

كان مِايستر (ريڤرِن) العجوز يحمل رسالةً بيده المتغضّنة، وقد بدا وجه ڤايمان شاحبًا كالثّلوج المتساقطة. قال چايمي: «أعرفُ، وصلَ غُداف أبيض من (القلعة). الشّتاء هنا».

رَدّ المِايستر: «لا يا سيّدي، الرّسالة من (كينجز لاندنج). سمحتُ لنفسي بأن... لم أكن أعرف...»، وناولَه الرّسالة.

قرأها چايمي وهو جالس على الكّرسي المجاور للنّافذة مغموًرا بضوء الصّباح الأبيض البارد. كانت كلمات كايبرن مقتضبةً وفي الصّميم، وكلمات سرسي محمومةً ملتهبةً. *تعالَ في الحال. ساعِدني. أنقِذني. إنني محتاجة إليك الآن كما لم أحتَج إليك من قبل قطّ. أحبك، أحبك، أحبك. تعالَ في الحال.*

كان ڤايمان يحوم قُرب الباب، وشعرَ چايمي بپك يَرقُبه أيضًا، وبَعد فترة صمتٍ طالَت تساءلَ المِايستر: «هل يرغب سيّدي في الرّد؟».

حطّت رُقاقة ثلجٍ على الورقة، وإذ ذابَت بدأ الحبر يتلطّخ، ثم عادَ چايمي يطوي الرّسالة بكلّ ما تُتيح يده الواحدة من إحكام، وناولَ پك إياها مجيبًا: «لا، ألقِها في النّار».

---

(68) الدّيماس زنزانة تعذيب رأسيّة شديدة الضّيق لا يُمكن الوصول إليها إلّا من فتحة في السّقف، وكانت شائعة الاستخدام في قلاع القرون الوُسطى. (المترجم).

(69) الشلحفاة واحدة من أنظمة الوقاية في الحروب القديمة، يرفعها الجنود فوق رؤوسهم في أثناء الهجوم على بوّابات القلاع أو المدن لحمايتهم من السّهام وغيرها، على غرار صدفة السّلحفاة. (المترجم).

أخطر مرحلةٍ من الرِّحلة كانت الأخيرة. تمامًا كما حذَّروهم في (تايروش)، وجدوا (بوغاز ردواين) يعجُّ بالسُّفن الطَّويلة. في غياب القوَّة الأساسيَّة لأسطول (الكرمة) على الجانب الآخَر من (وستروس)، نهبَ الحديديُّون (مرفأ ريام) واستولوا على (بلدة العنب) و(ميناء نجم البحر)، مستخدمين إياهما كقاعدتين لاقتناص السُّفن المتَّجهة إلى (البلدة القديمة).

ثلاث مرَّاتٍ شوهِدَت السُّفن الطَّويلة من منصَّة المراقبة، إلَّا أن اثنتين منها كانتا وراءهم بمسافةٍ طويلة وسرعان ما سبقتهما (ريح القرفة)، أمَّا الثَّالثة فظهرَت قُرب الغروب لتعترض سبيلهم إلى (النَّهر الهامس). ولمَّا أبصَروا مجاذيفها ترتفع وتنخفض ماخضةً المياه النُّحاسيَّة ومحيلةً لونها إلى الأبيض، أرسلَت كوچا مو زُماتها إلى أعلى بأقواسهم العظيمة المصنوعة من خشب القلب الذَّهبي، والتي يُمكنها إطلاق السِّهام على مدى أبعد وإصابة الأهداف بدقَّةٍ أكبر من أقواس خشب الطُّقسوس الدورنيَّة نفسها. انتظرَت كوچا حتى دخلَت السَّفينة الطَّويلة حيِّز المنتي ياردة قبل أن تُلقي أمر الإطلاق، وأطلقَ سام سهامه مع الآخَرين، لكنه يحسبها بلغَت الهدف هذه المرَّة. لم يتطلَّب الأمر أكثر من وابلٍ واحد، وانحرفَت السَّفينة الطَّويلة إلى الجنوب بحثًا عن فريسةٍ أكثر وداعةً.

كانت السَّماء تتَّشح بزُرقة الغسق العميقة إذ دخلوا (النَّهر الهامس)، وقد وقفَت جيلي عند المقدِّمة حاملةً الرَّضيع وتتطلَّع إلى قلعةٍ قائمة فوق الجُروف، فأخبرَها سام: «إنها (الأبراج الثَّلاثة)، مقرُّ عائلة كوستاين». مرسومةً على خلفيَّةٍ من نجوم المساء بينما تتذبذب أضواء المشاعل في نوافذها، تصنع القلعة منظرًا مبهِرًا، وإن أحزنَ سام لأن رحلتهم تُشارِف على الانتهاء.

قالت جيلي: «عالية للغاية».

- «انتظري حتى تري (البُرج العالي)».

بدأ طفل دالا يبكي، ففتحت جيلي سترتها وألقمته ثديها، وبينما أرضعته ابتسمت وملَّست على شعره البني الناعم. فكّر سام: *أصبحت تحبُه مثلما أحبت الآخر الذي تركته*. يأمل أن تحنو الآلهة على كلا الطفلين.

كان الحديديُّون قد توغّلوا في مياه (النهر الهامس) المحميّة، وبحلول الصباح إذ استمرّت (ريح القرفة) في طريقها إلى (البلدة القديمة) بدأت ترتطم بالجثث الطافية المحمولة إلى البحر. بعض الجثث عليه جماعات من الغِربان طارت متذمّرةً بصخبٍ حين أزعجها مرور السفينة البجعيّة بأطواقها المنتفخة الشنيعة، وعلى الضفاف ظهرت الحقول المحروقة والقرى المتفحّمة، وتناثرت المراكب المحطّمة في المياه الضّحلة وعلى الامتدادات الرمليّة المرتفعة، الأشيع بينها السفن التجاريّة وقوارب الصيد، لكنهم رأوا سفنًا طويلةً مهجورةً أيضًا، وحطام ذرمونتين كبيرتين، وقد احترقت إحداهما حتى خطّ الماء ولاحت في جانب الثانية فجوة كبيرة حيث دُكّ بدنها.

قال زوندو: «معركة هنا. ليس من وقتٍ طويل».

- «مَن المخبول الذي يُغير على هذه المقربة من (البلدة القديمة)؟».

أشارَ زوندو إلى سفينةٍ طويلة شِبه غارقة في المياه الضّحلة، من مؤخّرتها تتدلّى بقايا راية مهترئة ملطّخة بالشحام، وعليها رمز لم يرَه سام من قبل على الإطلاق؛ عين حمراء بؤبؤها أسود تحت تاجٍ من الحديد الأسود يحمله غُرابان. سألَ سام: «راية مَن هذه؟»، لكن زوندو هزّ كتفيه دلالةً على جهله.

طلعَ النّهار التّالي باردًا ضبابيًا، وبينما تمرُّ (ريح القرفة) بقرية صيدٍ منهوبة أخرى خرجَ قادس حربي من الضّباب متّجهًا صوبهم بتؤدة. تحمل السّفينة اسم (القنّاصة) مكتوبًا بالطّلاء وراء تمثال مقدّمةٍ لفتاة ممشوقة القوام ترتدي أوراق الشّجر وتلوّح بحربتها مهدّدةً. بَعد لحظةٍ ظهرَ قادسان أصغر حجمًا على جانبيها كزوجين متماثلين من كلاب الصّيد يتحرّكان في أعقاب سيّدهما، وتنفّس سام الصّعداء لمرأى أسد ووعل الملك تومن على القوادس الثّلاث فوق بُرج (البلدة القديمة) الأبيض المدرّج بقمّته النّاريّة.

زيّان (القنّاصة) رجل طويل القامة يرتدي معطفًا رماديًا كالدُّخان حاشيته على شكل ألسنة لهبٍ من السّاتان الأحمر، وقد حاذى (ريح القرفة) بقادسه ورفعَ مجاذيفه وصاح أنه قادم إلى متنها، وبينما تبادلَ رُماته وزماة كوجا مو النّظرات عبر مساحة الماء الضّيّقة عبرَ الرّجل مع نِصف دستةٍ من الفرسان وحيّا كاهورو مو بإيماءةٍ من رأسه وطلبَ أن يرى مخازنه، فتشاورَ الأب والابنة فترةً وجيزةً ثم وافقا.

بَعد انتهاء التّفتيش قال الزّيّان: «تقبّلوا اعتذاري. يُؤسفني أن يتعرّض النّزهاء لفظاظةٍ كهذه، لكنها خيرٌ من دخول الحديديّين (البلدة القديمة). قبل أسبوعين فقط استولى بعض هؤلاء الأوغاد الملاعين على سفينةٍ تجاريّة من (تايروش) في البوغاز، وقتلوا رجالها وارتدوا ثيابهم واستخدموا الأصباغ التي وجدوها لتلوين لحاهم بعشرات الألوان. ما إن يجتازوا الأسوار كانوا ينتوون إشعال النّار في الميناء وفتح البوّابة من الدّاخل بينما نُكافِح الحريق، وكانت خطّتهم لتنجح لولا أن (سيّدة البُرج) اعترضَت طريقهم. زوجة وكيل زيّانها تايروشيّة، فلمّا رأى اللّحي الخضراء والأرجوانيّة حيّاهم بلُغة (تايروش)، ولم يستطِع أحد منهم أن يردّ عليه».

قال سام مفزوعًا: «لا يُمكن أنهم ينوون الإغارة على (البلدة القديمة)!».

رمقه زبّان (القنّاصة) بفضولٍ قائلًا: «هؤلاء ليسوا مجرّد مُغيرين. لطالما أغارَ حديديّو الميلاد أينما استطاعوا، يُهاجمون على حين غرّةٍ من البحر ويسرقون الذّهب ويختطفون الفتيات ثم يرحلون، لكن نادرًا ما يزيد عدد سفنهم الطّويلة على واحدةٍ أو اثنتين، ولا يزيد أبدًا على ستّة. الآن تبتلينا مئات من سفنهم التي تُبحِر من (جُزر الثّروس) وبعض الصّخور المحيطة بـ(الكرمة). لقد استولوا على (الشرطان الحجري) و(جزيرة الخنازير) و(قصر عروس البحر)، وثمّة أوكار أخرى لهم على (صخرة الحدوة) و(مهد الثّغول). دون أسطول اللورد ردواين نفتقر إلى السّفن الكافية لردعهم».

اندفع سام يقول: «وماذا يفعل اللورد هايتاور؟ اعتادَ أبي أن يقول إنه ثريٌ كآل لانستر، وتحت إمرته ثلاثة أضعاف سيوف حملة راية (هايجاردن) الآخرين».

قال الزّبان: «وأكثر إذا جنّد كنّاسة الشّوارع، لكن السّيوف لا تصلُح في مواجَهة الحديديّين ما لم يكن حاملوها يمشون على الماء».

- «لا بدّ أن يفعل (البُرج العالي) شيئًا!».

- «بالتّأكيد. اللورد لايتون حبَسَ نفسه على قمّة بُرجه مع العذراء المجنونة ويستشير كُتب التّعاويذ. ربما يستطيع أن يحشد جيشًا من الأعماق... وربما لا. بيلور يبني القوادس، وجونثور مسؤول عن الميناء، وجارث يُدرِّب المجنّدين الجُدد، وهمفري ذهبَ إلى (لِيس) لاستئجار القراصنة. إذا استطاعَ الظّفر بأسطولٍ مناسب من العاهرة أخته فربما نشرع في الرّدّ على الحديديّين بالمِثل، لكن حتى ذلك الحين فأفضل ما في وسعنا أن نحمي النّهر وننتظر أن تُطلِق الملكة الحقيرة في (كينجز لاندنج) سراح أسطول اللورد پاكستر».

صدمَت المرارة في نبرة الرُّبَّان سام بقدر ما صدمَته أقواله، وبينما ابتعدَت (القنّاصة) وأختاها فكَّر: *إذا خسرنا (كينجز لاندنج) كلًّا من (البلدة القديمة) و(الكرمة) فستنهار البلاد بأكملها*.

جعلَه هذا يتساءل إن كانت (هورن هيل) آمنةً حقًّا. أراضي عائلة تارلي تقع وسط تلالٍ كثيفة الغابات على بُعد مئة فرسخٍ شمال شرق (البلدة القديمة) وبعيدًا عن أيّ ساحل، وهكذا يُفترَض أن تكون بمنأى تمامًا عن متناوَل الحديديِّين والسُّفن الطَّويلة، حتى مع غياب أبيه الذي يُقاتِل في أراضي النَّهر والحراسة الخفيفة على القلعة. لا شكَّ أن الذِّئب الصَّغير اعتقد أن الشَّيء نفسه ينطبق على (وينترفل) حتى اللَّيلة التي تسلَّق فيها ثيون المارق أسواره. لا يستطيع سام احتمال فكرة أنه ربما قطعَ بجيلي وصغيرها كلَّ هذا الطَّريق الطَّويل ليحميهما من الأذى، فقط ليتخلَّى عنهما في غمار الحرب.

ظلَّ يُصارِع شكوكه وتُصارِعه طيلة ما تبقَّى من الرِّحلة ويتساءل ماذا يفعل. قد يُمكنه إبقاء جيلي معه في (البلدة القديمة)، فأسوار المدينة أقوى كثيرًا من أسوار قلعة أبيه، وهناك آلاف يُدافِعون عنها، على عكس القِلَّة التي لا بُدَّ أن اللورد راندل تركَها في (هورن هيل) عندما زحفَ على (هايجاردن) لتلبية استدعاء اللورد وليّ أمره. لكن إذا أبقاها فعليه أن يُخفيها في مكانٍ ما، ذلك أن (القلعة) لا تسمح للمبتدئين بالاحتفاظ بزوجاتٍ أو خليلات، ليس جهارًا على الأقل. *ثم إنني إذا بقيتُ مع جيلي فترةً أطول فكيف سأجد القُدرة على تركها؟* عليه أن يتركها... إمّا هذا وإمّا أن يتهرَّب من خدمته. *لقد حلفتُ اليمين. إذا تهرَّبتُ فسأدفع الثَّمن برأسي، وكيف يُساعِد شيء هكذا جيلي؟*

فكّرَ في أن يتوسّل إلى كوچا مو وأبيها أن يأخذا الفتاة الهمجيّة معهما إلى (جُزر الصّيف). على أن ذلك الطّريق له أخطاره أيضًا، فحينما ترحل (ريح القرفة) من (البلدة القديمة) فعليها أن تَعبُر (بوغاز ردواين) ثانيةً، وهذه المرّة ربما لا يُحالِفها الحَظّ. ماذا لو خمدَت الرّيح ووجدَ طاقم السّفينة نفسه عاجزًا عن الحركة؟ إذا صحّت الحكايات التي سمعَها فستختطَف جيلي ويجعلون منها قِنّةً أو زوجةً ملحيّةً، وعلى الأرجح سيرمون الرّضيع في البحر خلاصًا من إزعاجه.

أخيرًا حزمَ سام أمره. يجب *أن* تكون (هورن هيل). *ما إن نبلُغ (البلدة القديمة) سأستأجرُ عربةً وخيولًا وآخذها إلى هناك* بنفسي. بهذه الطّريقة يُمكنه الاستيثاق من دفاعات القلعة وحاميتها، وإذا لم يُعجِبه أيّ شيءٍ يراه أو يسمعه فسيعود أدراجه بجيلي إلى (البلدة القديمة).

وصلوا إلى (البلدة القديمة) ذات صباحٍ باردٍ رطبٍ كثيف الضّباب لدرجة أن منارة (البُرج العالي) الجزء الوحيد المرأي من المدينة. عبر الميناء تمتدُّ سلسلة رابطةٌ دستتين من السّفن الثّقيلة النّخرة، ووراءها مباشرةً صَفٌّ من السّفن الحربيّة التي تقودها ثلاث دُرمونات كبيرة وسفينة قيادة اللورد هايتاور الهائلة ذات الشّطوح الأربعة المسمّاة (شرَف البلدة القديمة). ثانيةً خضعَت (ريح القرفة) للتّفتيش، وهذه المرّة كان جونثور ابن اللورد لايتون هو من صعدَ إلى متنها مرتديًا معطفًا من قُماش الفضّة وبزّةً رماديّة من الصّفائح المعدنيّة المطليّة بالمينا. درسَ السير جونثور في (القلعة) سنينًا عدّةً ويُجيد لُغة الصّيف، فذهبَ مع كُاهورو مو إلى قمرة الرّبّان ليتشاوَرا على انفراد.

استغلَّ سام هذا الوقت في شرح نيّاته لجيلي، وقال: «أولًا (القلعة) لأقدّم لهم رسائل چون وأخبِرهم بوفاة المِايستر إيمون. أظنُّ أن رؤساء المِايسترات سيُرسِلون عربةً لنقل جُثمانه. ثم سأرتِّبُ لأن تأخذكِ عربة تجرُّها الخيول إلى أمّي في (هورن هيل). سأعودُ في أسرع وقتٍ ممكن، لكن ربما لا يكون هذا قبل الغد».

ردّدت: «الغد»، وأعطته قُبلةً للحظّ.

أخيرًا خرج السير جونثور وأعطى إشارةً بفتح السلسلة كي تدخل (ريح القرفة) إلى المرسى، وانضمَّ سام إلى كوچا مو وثلاثةٍ من زماتها قُرب لوح العبور بينما ربظ بنو (جُزر الصّيف) السّفينة وقد عادوا يتألّقون في معاطفهم الرّيش التي لا يرتدونها إلّا على اليابسة، فشعرَ وهو واقف إلى جوارهم بانعدام هندامه وقد ارتدى سراويله السّوداء الفضفاضة ومعطفه الباهت وانتعلَ حذاءه المبقّع بالملح. سألَ كوچا: «كم ستبقون في المرسى؟».

- «يومين أو عشرة، مَن يدري؟ ما سيستغرقه إفراغ مخازننا وملؤها ثانيةً»، وأضافَت كوچا بابتسامةٍ واسعة: «ويجب أن يزور أبي المِايسترات الزّماديّين أيضًا. إن معه كُتبًا يبيعهم إياها».

- «هل يُمكن أن تبقى جيلي على المتن حتى أرجع؟».

أجابَت: «يُمكن لجيلي أن تبقى كما شاءت»، ووكزَت سام بإصبعها في بطنه مردفةً: «إنها لا تأكل كثيرًا كبعض النّاس».

ردَّ بلهجةٍ دفاعيّة: «لم أغدُ بالبدانة نفسها كما كنتُ». تكفّلت بهذا الرّحلة جنوبًا، كلُّ نوبات الحراسة ولا شيء يُؤكَل إلّا الفواكه والأسماك، وأهل (جُزر الصّيف) يحبّون الفواكه والأسماك.

تبعَ سام الرُّماة نازلًا اللّوح، لكن بمجرّد أن أصبحوا على اليابسة افترَقوا وذهبَ كلٌّ منهم في حال سبيله. يأمل أنه ما زالَ يَذكُر كيف يصل إلى (القلعة)، فـ(البلدة القديمة) متاهة، ولا وقت لديه لضلال الطّريق.

جعلَت رطوبة النّهار حجارة الرّصف مبتلّةً زلقةً تحت قدميه والأزقّة ملتحفةً بالضّباب والغموض، وقد تحاشاها سام قدر الإمكان والتزمَ الطّريق الذي يمضي متمعّجًا بمحاذاة (نهر اليَتع) في قلب المدينة القديمة. أحسّ بالسّرور لوجود أرضٍ ثابتة تحت قدميه من جديدٍ بدلًا من سطح سفينةٍ يتمايَل، لكن المشي أصابَه بالاضطراب رغم ذلك، إذ شعرَ بالأعيُن تنظُر إليه من الشّرفات والنّوافذ وتُراقبِه من المداخل المظلمة. على متن (ريح القرفة) كان يعرف كلّ وجه، أمّا هنا فكلّما التفتَ يرى غريبًا آخَر. الأدهى فكرة أن يراه أحد يعرفه، فاللورد راندل معروف في (البلدة القديمة) لكن أهلها لا يحبّونه كثيرًا. لا يدري سام أيُّهما أسوأ، أن يتعرّفه أحد أعداء السيّد والده أم أحد أصدقائه، وهكذا رفعَ قلنسوة معطفه وجدّ الخُطى.

على جانبَي بوّابة (القلعة) تمثالان أخضران شامخان لأبي الهول وأم الهول، لكلٍّ منهما جسم أسد وجناحا نسر وذيل أفعى، وبَعدهما تقع (دار الكَتَبة) التي يأتيها أهل (البلدة القديمة) بحثًا عن مُعاونين يَكتُبون وصاياهم ويقرأون رسائلهم، وقد جلسَ عدد من المُعاونين الضّجِرين في أكشاكٍ مفتوحة ينتظرون الزّبائن. في أكشاكٍ أخرى تُباع الكُتب وتُشترى، فتوقّف سام عند واحدٍ يبيع الخرائط وراجعَ خارطةً مرسومةً باليد لـ(القلعة) ليتحقّق من الطّريق الأقصر إلى (بهو القهرمان).

يتفرّع الطّريق حيث يمتطي تمثال الملك دايرون الأول حصانه الحجري الطّويل رافعًا سيفه في اتّجاه (دورن)، وقد جثمَ نورس على رأس التنّين الصّغير واثنان آخران على نصله. سلك سام الفرع الأيسر الذي يمضي بحذاء النّهر، وعند (مرسى البكّائين) شاهدَ اثنين من المُعاونين يُساعِدان عجوزًا على ركوب قاربٍ سيحمله في رحلةٍ قصيرة إلى (الجزيرة الدّامية)، وبَعده ركبَت أم شابّة بين ذراعيها رضيع باكٍ لا يكبُر ابن جيلي كثيرًا، في حين خاضَ مُساعد طاهٍ ما في المياه الضّحلة تحت المرسى يجمع الضّفادع، وهرعَ طابور طويل من المبتدئين الصّغار نحو السّبتري. *كان عليّ أن آتي هنا حين كنتُ في سِنّهم. لو هربتُ واتّخذتُ اسمًا مستعارًا لاختفيتُ وسط المبتدئين الآخَرين وتظاهرَ أبي بأن ديكون ابنه الوحيد. أشكُّ في أنه كان ليُجشّم نفسه عناء البحث عني ما لم آخذ بغلةً أركبها. عندها كان ليُطارِدني بلا هوادة، ولكن من أجل البغلة فقط.*

خارج (بهو القهرمان) كان الموجّهون يُثبّتون مُعاونًا أكبر سِنًّا إلى هيكل تشهير(70)، وشرحَ أحدهم السّبب للمُعاونين المنتظرين رجم السّجين بالخضراوات الفاسدة قائلًا: «يسرق الطّعام من المطابخ». حدجَ جميعهم سام بنظرات الفضول إذ مرَّ بهم بخُطى سريعة ومعطفه الأسود منتفخ من ورائه كشراع السّفينة.

وراء الباب وجدَ بهوًا أرضيّته حجريّة ونوافذه عالية مقنطَرة، يجلس في أقصاه رجل ذو وجهٍ ممصوص على منصّةٍ مرتفعة يُدوِّن شيئًا ما في دفترٍ بريشته، ورغم أنه يرتدي ثياب المايسترات الرّماديّة فلا تُحيط بعنقه سلسلة. تنحنحَ سام، وحيّاه قائلًا: «طابَ يومك».

رفعَ الرّجل عينيه وبدا أن ما رآه لا يُعجِبه إذ قال: «رائحة المبتدئين تفوح منك».

ردّ سام: «آملُ أن أكون منهم قريبًا»، وأخرجَ الرّسائل التي أعطاه جون سنو إياها متابعًا: «جئتُ من (الجِدار) مع المِايستر إيمون، لكنه ماتَ خلال الرّحلة. إذا كان يُمكن أن أتكلّم مع القهرمان...».

- «أسمك؟».

- «ساموِيل، ساموِيل تارلي».

خَطَّ الرّجل الاسم في دفتره ولوّح بريشته نحو دكّةٍ عند الحائط، وقال: «اجلس. سنُناديك حين نُريدك».

وجلسَ سام على الدّكّة.

جاءَ آخَرون وذهبوا. سلّم بعضهم رسائل وغادرُوا، وتكلّم بعضهم مع الرّجل على المنصّة ثم سُمِحَ لهم بالدُّخول من الباب ورائه وصعدوا سُلّمًا ملتفًّا، وانضمَّ آخَرون إلى سام على الدّكّة في انتظار مناداة أسمائهم. عددُ ممّن نُودوا أتى بعده، وهو شِبه متأكّد من هذا، وبعد تكراره للمرّة الرّابعة أو الخامسة نهضَ سام وقطعَ البهو سائلًا الرّجل: «هل سأظلُّ منتظرًا طويلًا؟».

- «القهرمان رجل مهمّ».

- «لقد قطعتُ طريقًا طويلًا من (الجِدار)!».

- «إذن فلا مشكلة في أن تنتظر فترةً أطول قليلًا»، ولوّح الرّجل بالرّيشة مضيفًا: «إلى الدّكّة هناك، تحت النّافذة».

عادَ سام إلى الدّكّة، ومرّت ساعة أخرى. وصلَ آخَرون وتكلّموا مع الرّجل على المنصّة وانتظروا دقائق قليلةً ثم دخلوا، ولم يَكلّف الحاجب نفسه مجرّد النّظر إلى سام طوال هذا الوقت. انقشعَ الضّباب في الخارج مع مرور النّهار الثّقيل البطيء وتسلّل نور الشّمس الشّاحب من النّوافذ، ووجدَ سام نفسه يتفرّج على ذرّات الغُبار تَرقُص في خيوط الضّوء. تثاءبَ مرّةً ثم أخرى، وداعبَ قرحًا مفتوحًا في راحة يده، ثم إنه أرجعَ رأسه إلى الوراء وأسبلَ جفنيه.

لا بدّ أنه غفا، فإذا بالحاجب الجالس على المنصّة يُنادي اسمًا، فهبّ سام واقفًا ثم عادَ يجلس لمّا أدرك أنه ليس اسمه.

قال صوت من جواره: «عليك أن ترشو لوركاس ببنس وإلّا ظللت جالسًا هنا ثلاثة أيام. ماذا يفعل حرس اللّيل في (القلعة)؟».

المتكلّم شاب نحيل مشيق وسيم، يرتدي سراويل من جِلد الظّباء وسترةً جِلديّةً خضراء ضيّقةً مطعّمةً بالحديد، وله بشرة بلون المِزر البنّي الفاتح وشَعر أسود قصير ينسحب عند مقدّمة رأسه فوق عينيه السّوداوين الكبيرتين.

ردّ سام: «حضرة القائد يُرمّم القلاع المهجورة ويُعيد فتحها. نحتاج إلى المزيد من المِايسترات للعناية بالغِدفان... هل قلت بنسًا؟».

- «بنس واحد يكفي. مقابل أيلٍ فضّي سيحملك لوركاس إلى القهرمان بالأعلى على ظَهره. إنه مُعاون منذ خمسين عامًا ويكره المبتدئين، تحديدًا المبتدئين أبناء النّبلاء».

- «وما أدراك بأنني من أبناء النّبلاء؟».

- «بالطّريقة نفسها التي تدري بها أنني نِصف دورني». قيلَت الإجابة بابتسامةٍ ولكنةٍ دورنيّة خفيفة.

دسّ سام يده في جيبه يبحث عن بنس، وقال: «أأنت مبتدئ؟».

- «مُعاون. اسمي أليراس، لكن بعضهم يدعونني بأبي الهول».

هَزّ الاسم سام، وقال باندفاع: «أبو الهول الأحجية لا صانِع الأحاجي. هل تعرف معنى هذا؟».

- «لا. أهذه أحجية؟».

- «ليتني أعرف. أنا ساموِيل تارلي، سام».

- «أهلًا بك. وما شأن ساموِيل تارلي عند المِايستر الرّئيس ثيوبولد؟».

سأله سام حائرًا: «أهو القهرمان؟ المِايستر إيمون قال إن اسمه نورن».

- «لم يَعُد كذلك منذ قمرين. هناك واحد جديد كلَّ سنة، يشغل المنصب بالاقتراع من بين رؤساء المِايسترات. أكثرهم يعدُّه واجبًا لا يُشكَر عليه يُعطِّله عن عمله الحقيقي. هذا العام سحبَ المِايستر الرَّئيس والجريف الحجر الأسود، لكن عقل والجريف يتوه كثيرًا، فتطوَّع ثيوبولد بقضاء مدَّته بدلًا منه. إنه رجل فَظٌّ لكنه صالح. هل قلت المِايستر إيمون؟».

- «نعم».

- «إيمون تارجارين؟».

- «في السَّابق. أكثرنا كان يدعوه بإيمون فقط. لقد تُوفِّي خلال الرِّحلة إلى الجنوب. كيف تعرفه؟».

- «وكيف لا؟ إنه لم يكن أكبر مِايستر على قيد الحياة فقط، بل أكبر رجلٍ في (وستروس)، وشهدَ تاريخًا أكثر مما تعلَّم المِايستر الرَّئيس بيرستان في حياته كلِّها. كان ليحكي لنا الكثير والكثير عن عهد أبيه وعمِّه. هل تعلم كم كان عُمره؟».

- «مئة عامٍ واثنان».

- «وماذا كان يفعل في البحر في سِنِّه تلك؟».

تأمَّل سام السُّؤال وهلةً متسائلًا كم يَجدُر به أن يقول. *أبو الهول الأحجية لا صانع الأحاجي*. أيُمكن أن المِايستر إيمون كان يعني أبا الهول هذا؟ لا يبدو ذلك محتملًا. بتردُّدٍ بدأ يشرح: «حضرة القائد سنو صرفَه لإنقاذ حياته»، ثم إنه تحدَّث بارتباكٍ عن الملك ستانيس وميلساندرا الآشايِيّة ناويًا أن يكتفي بهذا القدر، لكن شيئًا قادَ إلى آخَر ووجدَ نفسه يحكي عن مانس رايدر والهَمج ودماء الملوك والتَّنانين، وقبل أن يدري ما يجري تدفَّقت البقيَّة كلُّها منه... الجُثث الحيَّة على (قبضة البَشر الأوائل)، (الآخَر) على حصانه الميت، اغتيال الدُّب العجوز في (قلعة كراستر)، جيلي وهروبهما، (وايتري) وبول الضَّخم، ذو اليدين الباردتين والغِدفان، انتخاب چون قائدًا، (الطَّائر الأسود)، داريون، (براڤوس)، التَّنانين التي رآها زوندو في (كَارث)، (ريح القرفة) وكلُّ ما همسَ به المِايستر إيمون قُرب النِّهاية. أحجمَ فقط عن ذِكر الأسرار التي أقسمَ أن يحفظها إزاء بران ستارك ورفاقه وتبديل چون سنو الطِّفلين، وختمَ حكايته قائلًا: «دنيرس هي الأمل الوحيد. إيمون قال إن على (القلعة) أن تُرسِل إليها مِايستر في الحال ليعود بها إلى (وستروس) قبل فوات الأوان».

أصغى أليراس باهتمامٍ شديد، يَحدِّق بين الحين والآخَر لكن لا يضحك أو يُقاطِعه أبدًا، وحين فرغَ سام مَسَّ ساعِده برفقٍ بيدٍ بنِّيَّة نحيلة، وقال: «وفِّر بنسك يا سام. لن يُصدِّق ثيوبولد نِصف هذا الكلام، لكن هناك آخَرين قد يُصدِّقونه. هلَّا أتيت معي؟».

- «أين؟».

- «للكلام مع أحد رؤساء المِايسترات».

قال المِايستر إيمون: *يجب أن تُخبِرهم يا سام، يجب أن تُخبِر رؤساء المِايسترات*، وهكذا ردَّ سام: «ليكن». يُمكنه أن يعود إلى القهرمان غدًا وفي يده بنس. «هل سنبتعد كثيرًا؟».

- «ليس المكان بعيدًا، (جزيرة الغِدفان)».

لم يحتاجا إلى ركوب قارب لبلوغ (جزيرة الغِدفان)، إذ يربطها جسر متحرّك خشبي بالٍ بالضّفّة الشّرقيّة، وبينما عبرا فوق مجرى (نهر البِتع) البطيء قال له أليراس: «(المِغدفة) أقدم مباني القلعة. يُقال إنها كانت في عصر الأبطال معقل لورد قُرصان استقرّ هنا ليسطو على السّفن التي تَدخل النّهر».

رأى سام الطّحالب والنّباتات المعترشة تُغطّي الجُدران، والغِدفان تذرع الشُّرفات بدلًا من الرُّماة. هذا الجسر المتحرّك لم يُرفَع منذ سنين عصيّة على الحسبان.

داخل القلعة الأجواء معتمة مائلة إلى البرودة، وفي السّاحة شجرة ويروود عتيقة تحتلُّها منذ بدأ بناء هذه الأحجار، تكسو الوجه المنقوش على جذعها الطّحالب الأرجوانيّة الثّقيلة نفسها التي تتدلّى من فروعها الشّاحبة، وقد بدا نِصف غصونها ميتًا، وإن ظهرَت في بقاعٍ أخرى بضع أوراقٍ حمراء لا تزال تحفُّ. هناك تحتشد الغِدفان الجثوم، والشّجرة ملأى بها، وثمّة المزيد منها في النّوافذ المقنطرة بالأعلى وفي كلّ أنحاء السّاحة، وعلى الأرض تتناثر فضلاتها. إذ قطعا السّاحة ضربَ أحدها الهواء بجناحيه فوقهما وسمعَ سام بعض الغِدفان الأخرى ينعب لبعض. قال له أليراس: «مسكن المِايستر الرّئيس والجريف في البُرج الغربي، تحت المِغدفة البيضاء. الغِدفان البيضاء والسّوداء تتشاجَر كأهل (دورن) و(التّخوم) ولذا يُفرّقون بينها».

تساءلَ سام: «هل سيفهم المِايستر الرّئيس والجريف ما أخبره به؟ قلت إن عقله يتوه كثيرًا».

أجابَ أليراس: «تمرّ عليه أيام جيّدة وأخرى سيّئة، لكنك لست ذاهبًا لرؤية والجريف»، وفتحَ باب البُرج الشّمالي وبدأ يصعد الدّرج، وتبعَه سام سامعًا الخفقات والتّمتمات من أعلى، وهنا وهناك صرخةً غاضبةً كأن الغِدفان تشتكي من إقلاق راحتها.

عند قمّة السّلالم يجلس شاب أشقر شاحب في سِنّ سام خارج بابٍ من السّنديان والحديد، يُحدّق بتركيزٍ إلى لهب شمعةٍ بعينه اليُمنى، وقد توارَت اليُسرى تحت خُصلةٍ من الشّعر الأشقر المائل إلى الرّمادي. سألَه أليراس: «عمّ تبحث؟ قدرك؟ حتفك؟».

التفتَ الأشقر عن الشّمعة طارفًا بعينيه، وقال: «عن النّساء العاريات. مَن هذا؟».

- «سام، مبتدئ جديد جاء للقاء المشعوذ».

قال الأشقر متذمّرًا: «لم تَعُد (القلعة) كما كانت. هذه الأيام تقبل أيّ شيء؛ الكلاب السّوداء والدورنيّين وزعاة الخنازير والمُعاقين ومعتلّي العقول، والآن هذا الحوت الذي يتردي الأسود. وأنا الذي كنتُ أحسبُ اللّوِياثانات رماديّةً». من على أحد كتفيه تنسدل حرملة قصيرة مخطّطة بالأخضر والذّهبي، وملامحه وسيمة للغاية، ولو أن عينيه خبيثتان وفمه قاسٍ.

يعرف سام هذا الشّاب، وقد خاطبَه قائلًا: «ليو تايرل». مجرّد لفظ الاسم أشعرَه كأنه لا يزال صبيًّا في السّابعة على وشك أن يَبلّل ثيابه الدّاخليّة. «أنا سام من (هورن هيل)، ابن اللورد راندل تارلي».

قال ليو: «حقًّا؟»، ورمقَه بنظرةٍ أخرى، ثم أردفَ: «أظنّك هو. أبوك قال لنا جميعًا إنك مُتّ، أم أن هذا ما كان يأمله فقط؟»، وأضافَ بابتسامةٍ واسعة: «أما زلت جبانًا؟».

أجابَ سام كاذبًا: «لا». هكذا أمرَه چون. «لقد ذهبتُ وراء (الجِدار) وخضتُ معارك، ويلَقّبونني بسام القاتِل». لا يدري لِمَ قالها، لكن الكلمات تدفّقت منه رغمًا عنه.

ضحكَ ليو، لكن قبل أن يردّ انفتحَ الباب من ورائه، ودمدمَ الرّجل الواقف على عتبته: «ادخُل أيها القاتل، وأنت أيضًا يا أبا الهول، الآن».

قال أليراس: «سام، هذا هو المِايستر الرّئيس ماروين».

حول عُنق ماروين الغليظ سلسلة من عدّة معادن، لكن فيما عدا هذا يبدو الرّجل أقرب إلى بلطجي ميناء من مايستر، فرأسه كبير للغاية بالنّسبة إلى بدنه، والطّريقة التي يَبرز بها إلى الأمام من بين كتفيه، بالإضافة إلى فكّه العريض، تجعله يبدو كأنه على وشك اجتثاث رأس أحدهم من رقبته، وعلى الرغم من قامته القصيرة وقوامه الممتلئ فله صدر عريض وكتفان قويّتان، وبطن مستدير صُلب كالحجر يضغط على أربطة سُترته الجِلديّة التي يرتديها بدلًا من ثياب المِايسترات. من أنفه ومنخريه ينبت الشَّعر الأبيض الخشن الثّائر، وله جبهة ناتئة وأنف انكسرَ أكثر من مرّة، ويُبقّع التّبغ المُرّ أسنانه بالأحمر، ويداه أكبر يدين رآهما سام على الإطلاق.

حين تردّد سام أطبقَت إحدى هاتين اليدين على ذراعه وشدّته عبر الباب إلى غُرفةٍ مستديرة واسعة مكتظّة بالكُتب والمخطوطات المتناثرة على الطّاولات والمرصوصة على الأرض في أكوامٍ ترتفع أربعة أقدام. تُغطّي المعلّقات الباهتة والخرائط المهترئة الجُدران الحجريّة، وفي المستوقَد نار مشتعلة تحت مرجلٍ نُحاسي تفوح منه رائحة شيءٍ محروق. بعيدًا عن هذا ينبعث الضّوء الوحيد في المكان من شمعةٍ سوداء طويلة في منتصَف الغُرفة.

ضوء الشّمعة ساطع على نحوٍ مزعج، وثمّة شيء عجيب فيها، إذ إن لهبها لا يتذبذَب، حتى عندما صفقَ المِايستر الرّئيس ماروين الباب بقوّةٍ طيّرت الأوراق الموضوعة على الطّاولة القريبة. ثم إن للضّوء تأثيرًا غريبًا على الألوان كذلك، فالأبيض ناصع كالثّلج الطّازج، والأصفر يتألّق كالذّهب، والأحمر استحالَ إلى لهب، لكن الظّلال سوداء حالكة لدرجة أنها تبدو كثقوبٍ في العالم. وجدَ سام نفسه يُحمِلق إلى الشّمعة. طولها ثلاثة أقدام، ورفيعة كالسّيف، ومحزّزة ملتوية، وسوادها لامع. قال سام: «أهذا...».

- «... زُجاج بُركاني»، قال الرّجل الآخَر في الغُرفة، شاب شاحب لحيم له كتفان مستديرتان ويدان طريّتان وعينان ضيِّقتان، وتلَوّث رداءه بُقع الطّعام.

قال المِايستر الرّئيس ماروين: «سقه زُجاج التنّين»، ورمقَ الشّمعة السّوداء لحظةً، ثم أردفَ: «يشتعل ولكن لا يُستهلَك».

سأله سام: «ما الذي يُغذّي اللّهب؟».

جلس ماروين على كُرسيّ قائلًا: «وما الذي يُغذّي نيران التّنانين؟ كلُّ السّحر القاليري جذوره ضاربة في الدّم أو النّار. كان بإمكان سحرة المعقل الحُر أن يروا عبر الجبال والبحار والصّحاري بواحدةٍ من هذه الشّموع الزّجاجيّة، وكانوا يجلسون أمامها ويدخُلون أحلام المرء ويمنحونه رؤًى ويُكلّم بعضهم بعضًا ونِصف العالم يفصل بينهم. أتظنُّ هذا مفيدًا أيها القاتِل؟».

- «لن نعود في حاجةٍ إلى الغِدفان».

قال المِايستر الرّئيس: «بَعد المعارك فقط»، وقشّر ورقةً من حزمةٍ من التّبغ المُرّ ودسّها في فمه وشرعَ يمضغها مستطردًا: «أخبِرني بكلّ ما قلته لأبي الهول الدورني. إنني أعرفُ الكثير منه بالفعل، ولكن ربما فاتني بعض التّفاصيل الصّغيرة».

ليس هذا رجلًا يُرفَض له طلب. تردّد سام لحظةً، ثم عاد يحكي حكايته فيما أصغى ماروين وأليراس والمبتدئ الآخر، ثم قال: «المِايستر إيمون اعتقدَ أن نبوءةً تتحقّق في دنيرس تارجاريَن... هي وليس ستانيس أو الأمير ريجار أو الأمير الصّغير الذي هشّموا رأسه على جدار».

قالماروين: «سيولَد وسط الملح والدُّخان تحت نجمٍ ينزف. أعرفُ هذه النُّبوءة»، ودوَّر رأسه وبصقَ كُتلةً من البلغم الأحمر على الأرض، ثم واصلَ: «ولا أثقُ بها. قديمًا كتبَ جورجان ابن (جيس القديمة) أن النُّبوءة مِثلها مِثل مرأةٍ مخادعة، تأخذ غضوك في فمها وتأخذ أنت تتأوَّه استمتاعًا مفكِّرًا كم أن هذا جميل ممتع رائع... ثم تنغلق أسنانها وتستحيل تأوُّهاتك إلى صريخ. قال جورجان إن تلك طبيعتها، إن النُّبوءة ستقضم غضوك كلَّ مرَّة»، ولاكَ تبغه قليلًا، ثم أضافَ: «ومع ذلك...».

وقف أليراس إلى جوار سام قائلًا: «كان إيمون ليذهب إليها لو تمتَّع بالقوَّة. أرادنا أن نُرسِل إليها مِايستر ينصحها ويحميها ويُعيدها آمنةً إلى الوطن».

هَزَّ ماروين كتفيه، وقال: «حقًّا؟ لعلَّ من الخير إذن أنه مات قبل أن يَبلُغ (البلدة القديمة)، وإلَّا فربما اضطرَّت الخراف الرَّماديَّة إلى قتله، وكان ذلك ليُزعِج أعزَّاءنا العجائز المساكين».

سألَ سام مصدومًا: «قتله؟ لماذا؟».

رَدَّ ماروين: «لو أخبرتك فربما يضطرُّون إلى قتلك أيضًا»، وابتسمَ ابتسامةً بشعةً لتسيل عصارة التَّبغ المُرِّ الحمراء من بين أسنانه، وقال: «مَن تحسبه قتلَ التِّنانين كلَّها آخِر مرَّة؟ قتَلة التِّنانين الأشاوس المسلَّحون بالسُّيوف؟»، وبصقَ ثم تابعَ: «العالم الذي تبنيه (القلعة) لا مكان فيه للسِّحر أو التَّنبُّؤ أو الشُّموع الزُّجاجيَّة، ناهيك بالتِّنانين. سَل نفسك لماذا سُمِح لإيمون تارجاريَن بتبديد حياته على (الجِدار) في حين كان الواجب أن يُرَقَّى إلى مِايستر رئيس. دماؤه السَّبب. لم يستطيعوا أن يثقوا به أكثر مما يستطيعون الثِّقة بي».

سألَه أليراس أبو الهول: «ماذا ستفعل؟».

- «سآخذ نفسي إلى (خليج النّخاسين) بدلًا من إيمون. السّفينة البجعيّة التي حملت القاتِل كفيلة بتلبية حاجتي. لا شكّ أن الخراف الرّماديّة ستُرسِل رجلها على قادس. إذا كانت الرّياح مواتيةً فسأسبقه إلى دنيرس»، ورمق ماروين سام مقطّبًا وجهه، وقال: «أنت... أنت عليك أن تبقى وتُكوّن سلسلتك. لو كنتُ مكانك لفعلتها سريعًا. سيأتي وقت تكون فيه حاجة إليك على (الجِدار)»، والتفتَ إلى المبتدئ الشّاحب قائلًا: «جِد حُجيرةً جافّةً للقاتِل. سينام هنا ويُساعِدك على العناية بالغِدفان».

متلعثمًا قال سام: «لـلـلكن... رؤساء المِايسترات الآخَرون... القهرمان... ماذا أقولُ لهم؟».

- «قُل لهم كم هُم حُكماء صالحون، قُل لهم إن إيمون أمرَك بوضع نفسك في أيديهم، قُل لهم إنك حلمت دومًا بأن تستطيع ذات يومٍ تكوين السّلسلة وخدمة الصالح العام، إن الخدمة أرفع شرف والطّاعة أسمى فضيلة. لكن لا تقل شيئًا عن النّبوءة أو التّنانين ما لم تكن تحبُّ السّمّ في طعامك». واختطفَ ماروين معطفًا جِلديًّا متّسخًا من على مشجبٍ قُرب الباب وربطه بإحكامٍ قائلًا: «اعتنِ به يا أبا الهول».

ردّ أليراس: «سأفعلُ»، لكن المِايستر الرّئيس كان قد خرج بالفعل، وسمعوا حذاءه يدقُّ السّلالم.

سألَ سام حائرًا: «أين ذهبَ؟».

أجابَه أليراس: «إلى الميناء. المشعوذ ليس رجلًا يُؤمِن بتضييع الوقت»، وابتسمَ مستطردًا: «عندي اعتراف. لقاؤنا لم يكن صُدفةً يا سام. المشعوذ أرسلَني لألحقك قبل أن تتكلّم مع ثيوبولد. كان يعلم بمجيئك».

- «كيف؟».

أشارَ أليراس برأسه إلى الشّمعة الزُّجاجيّة، فحدّق سام إلى اللّهب الباهت الغريب لحظةً، ثم طرفَ بعينيه وأشاح ببصره. كان الظّلام يحلُّ خارج النّافذة.

قال الشّاب الشّاحب: «ثمّة حُجيرة نوم شاغرة تحت حُجيرتي في البُرج الغربي، وفيها سلالم تقود إلى مسكن والجريف مباشرةً. إذا كان نعيب الغِدقان لا يُزعِجك فإنها تطلُّ على منظرٍ جيّد لـ(نهر البِتع). هل يُناسبك هذا؟».

- «أظنّ». عليه أن ينام في مكانٍ ما على كلّ حال.

- «سأجلبُ لك بعض الأغطية الصّوف. الجُدران الحجريّة تَبرُد ليلًا، حتى هنا».

- «أشكرك». في هذا الشّاب الشّاحب اللّحيم شيء ما لا يروقه، لكن سام لا يرغب في أن يبدو فظًا، فأضافَ: «اسمي ليس القاتِل حقًا. أنا سام، ساموِيل تارلي».

قال الآخر: «أنا پايت، كفتى الخنازير».

---

(70) هيكل التشهير أداة كانت تُستخدَم منذ العصور الوُسطى وخلال عصر النّهضة للعقاب البدني، عبارة عن ألواح خشبيّة كبيرة مثبّتة معًا بحيث يعجز المقيّد إليها عن تحريك قدميه، وأحيانًا كانت توضع قيود لليدين والرّأس أيضًا. (المترجم).

في تلك الأثناء على الجدار...

لا بُدّ أن بعضكم يقول الآن: «مهلًا، انتظر لحظةً، انتظر لحظةً، انتظر لحظةً! أين داني والتّنانين؟ أين تيريون؟ لقد رأينا چون سنو بالكاد. لا يُمكن أن يكون هذا كلّ شيء...».

بالطّبع لا. هناك المزيد في الطّريق، كتاب آخَر بحجم هذا الكتاب.

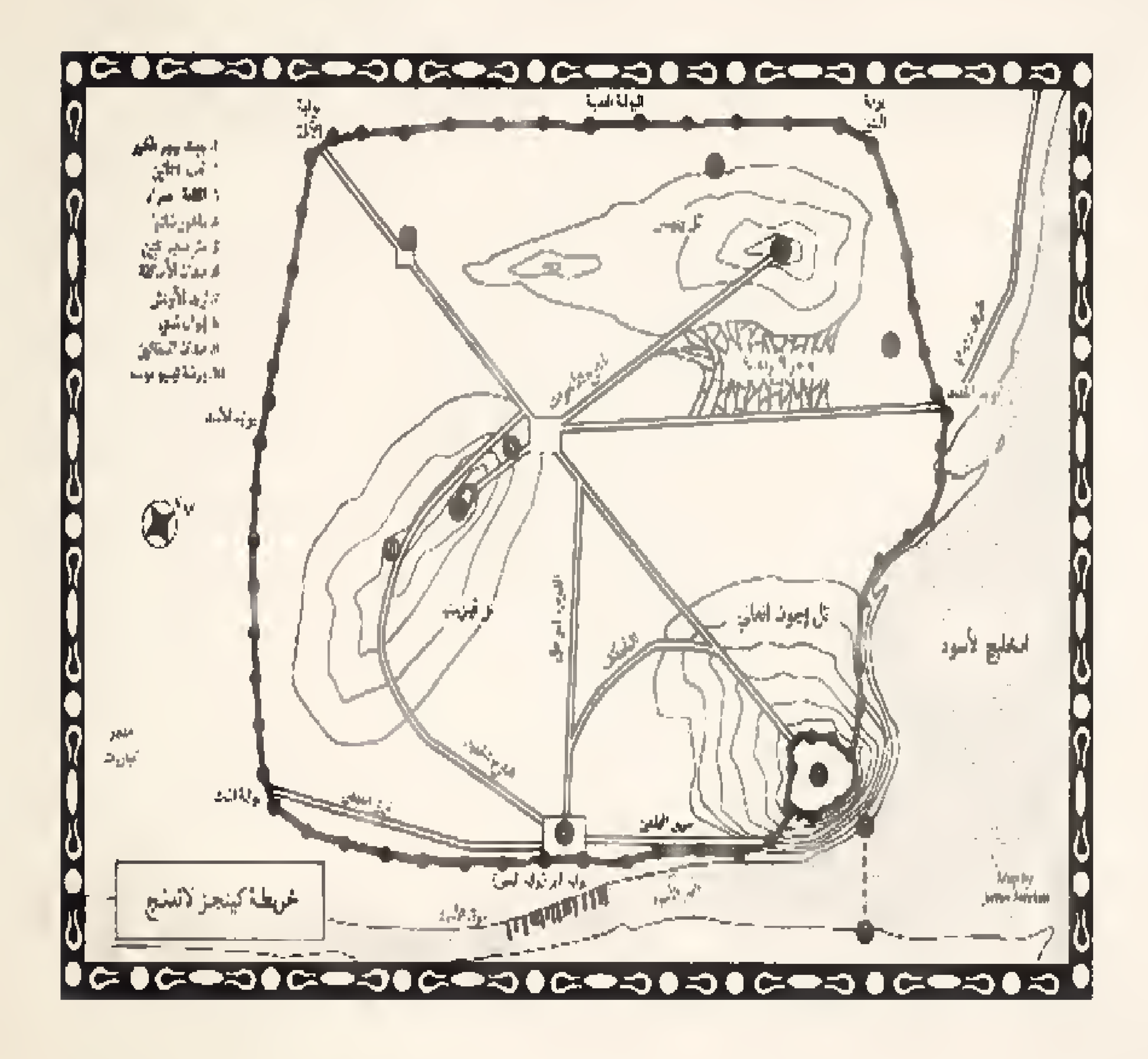
لم أنسَ أن أكتب عن الشّخصيّات الأخرى. بالعكس تمامًا، كتبتُ الكثير عنها، صفحاتٍ وصفحاتٍ وصفحات، فصولًا والمزيد من الفصول. كنتُ ما زلتُ أكتبُ حين اتّضح لي أن الرّواية أصبحت أطول من أن تُنشَر في كتاب واحد... ولم أكن قد دنوتُ من النّهاية بعدُ. لحكاية القصّة التي أريدُ أن أحكيها كان عليّ أن أقسم الكتاب إلى اثنين.

أبسط طريقةٍ لفعل ذلك أن آخذ ما لديّ وأشطره عند المنتصف وأنهي بعبارة «يُتبَع»، لكن كلّما أطلتُ التّفكير في هذا شعرتُ بأن الأصلح للقارئ أن يكون كتابًا يحكي القصّة الكاملة لِنصف الشّخصيّات بدلًا من نِصف قصّة كلّ الشّخصيّات، وهكذا قرّرتُ أن أسلك هذا السّبيل.

تيريون وچون وداني وستانيس ومليساندرا وداڤوس سيوورث وجميع الشّخصيّات التي تحبّونها أو تحبّون أن تكرهوها سيعودون العام المقبل -كما آمل بشدّة- في «رقصة مع التّنانين»، وهو الكتاب الذي سيُركّز على الأحداث على (الجدار) وعبر البحر، تمامًا كما ركّز الكتاب الحالي على (كينجز لاندنج).

چورج ر. ر. مارتن

يونيو/حزيران 2005


خريطة كينجز لاندنج
تل إيجون العالي
الخليج الأسود

مُلحق (١)

الملوك وبلاط كلٍّ منهم

الملكة الوصيّة على العرش



سرسي لانستر الأولى، أرملة (الملك روبرت باراثيون الأول)، الملكة الأم، حامية البلاد، سيّدة كاسترلي روك، الملكة الوصيّة على العرش،

- أولاد الملكة سرسي:
  - **(الملك جوفري باراثيون الأول)**، مات مسمومًا في مأدبة زفافه، صبي في الثانية عشرة،
  - **الأميرة مارسلا باراثيون**، فتاة في التاسعة، ربيبة الأمير دوران مارتل في صنسبير،
  - **الملك تومن باراثيون الأول**، ملك صبي في الثامنة،
  - قِططه، **السير باونس، الليدي ويسكرز بوتس**،
- شقيقا الملكة سرسي:
  - **السير جايمي لانستر**، توأمها، لقبه **قاتِل الملك**، قائد الحرس الملكي،
  - **تيريون لانستر** ولقبه **العِفريت**، متّهم ومدان باغتيال الملك وقتل الأقربين،

- **پودريك پاين**، مُرافق تيريون، صبي في العاشرة.
- أعمام وأخوال الملكة سرسي وأولادهم:
- **السير كيڤان لانستر** عمُّها.
- **السير لانسل**، ابن السير كيڤان، مُرافق الملك روبرت وعشيق سرسي سابقًا، نُصِّبَ سيِّدًا على داري حديثًا.
- **(ويلم)**، ابن السير كيڤان، قُتِلَ في ريڤررَن.
- **مارتن**، ابن السير كيڤان، مُرافق.
- **جاني**، ابنة السير كيڤان، فتاة في الثَّالثة.
- **الليدي چنا لانستر**، عمَّة سرسي، زوجة إمون فراي.
- **(السير كليوس فراي)**، ابن چنا، قتلَه الخارجون عن القانون.
- **السير تايوين فراي**، يُسَمَّى تاي، ابن كليوس.
- **ويلم فراي**، ابن كليوس، مُرافق.
- **السير لايونل فراي**، ابن الليدي چنا الثَّاني.
- **(تيون فراي)**، ابن چنا، قُتِلَ في ريڤررَن.
- **والدر فراي** ولقبه **والدر الأحمر**، أصغر أبناء الليدي چنا، وصيف في كاسترلي روك.
- **تايرك لانستر**، ابن عمّ سرسي الرَّاحل تايجت.
- **الليدي إرميساند هايفورد**، زوجة تايرك الطِّفلة.
- **چوي هيل**، ابنة جيريون عمّ الملكة سرسي المفقود النَّغلة، فتاة في الحادية عشرة.
- **سيرينا لانستر**، ابنة ستافورد خال سرسي الرَّاحل.
- **مارييل لانستر**، ابنة ستافورد خال سرسي الرَّاحل وأخت سيرينا.
- **السير داڤن لانستر**، ابن خالها ستافورد.

- **السير داميون لانستر**، ابن خؤولة بعيد، زوج شيرا كراكهول،
- **السير لوشن لانستر** ابنهما،
- **لانا**، ابنتهما، زوجة اللورد آنتاريو چاست،
- **الليدي مارجو**، ابن خؤولة أبعد، زوجة اللورد تايتوس پيك،

- مجلس الملك تومن الصَّغير:
  - **(اللورد تايوين لانستر)**، يد الملك،
  - **السير چايمي لانستر**، قائد الحرس الملكي،
  - **السير كيڤان لانستر**، قيّم القوانين،
  - **ڤارس ولقبه الخصي**، ولي الهامسين،
  - **المِايستر الأكبر پايسل**، مستشار ومعالج،
  - **اللورد مايس تايرل**، **اللورد ماثيس روان**، **اللورد پاكستر ردواين**، مستشارون،

- حرس تومن الملكي:
  - **السير چايمي لانستر**، القائد،
  - **السير مرين ترانت**،
  - **السير بوروس بلاونت**، أُعفِيَ من منصبه ثم أُعيدَ إليه،
  - **السير بالون سوان**،
  - **السير أوزموند كِتلبلاك**،
  - **السير لوراس تايرل**، فارس الزُّهور
  - **السير آريس أوكهارت**، مع الأميرة مارسلا في دورن،

- أهل بيت سرسي في كينجز لاندنج:
  - **الليدي چوسلين سويفت**، رفيقتها،
  - **سينل ودوركاس**، رفيقتاها في الفِراش وخادمتاها،

- **لوم، لستر الأحمر، هوك ولقبه ساق الحصان، ذو الأذن القصيرة، بوكنز خزّاس،**
- الملكة مارجري
- **الملكة مارجري** سليلة عائلة تايرل، فتاة في السّادسة عشرة، أرملة الملك چوفري باراثيون الأول ومن قبله اللورد رنلي باراثيون،
- بلاط مارجري في كينجز لاندنج:
  - **مايس تايرل**، سيّد هايجاردن، أبوها،
  - **الليدي آليري** سليلة عائلة هايتاور، أمّها،
  - **الليدي أولينا تايرل**، جدّتها، أرملة مسنّة لقبها ملكة الأشواك،
  - **آريك وإريك**، حارسا الليدي أولينا، توأمان طولهما سبعة أقدام لقبهما **شمال ويمين**،
  - **السير جارلان تايرل**، أخو مارجري ولقبه **الهُمام**،
  - **الليدي ليونيت**، زوجته، سليلة عائلة فوسواي،
  - **السير لوراس تايرل**، أصغر إخوتها، فارس الزّهور، أخ محلّف في الحرس الملكي،
- رفيقات مارجري:
  - بنات عمومتها، **مِجا وآلا وإلينور تايرل**،
  - خطيب إلينور، **آلن أمبروز**، مُرافق،
  - **الليدي أليسين بولوار**، فتاة في الثّامنة،
  - **ميريديث كرين**، أو **ميري**،
  - **الليدي تاينا ميريويذر**
  - **الليدي آليس جريسفورد**،
  - **الشّيتة نستيريكا**، أخت في العقيدة،
  - **پاكستر ردواين**، سيّد الكرمة،

- ابناه التوأمان، **السير هوراس والسير هوبر**،
- **المايستر بالابار** معالجه ومستشاره،
- **ماثيس روان**، سيِّد البُستان الذَّهبي،
- **السير ويلام ويذرن** قائد حرس مارچري،
- **هيو** كليفتون، حارس شاب وسيم،
- **السير پورتيفر وودرايت وأخوه السير لوكانتين**،
- بلاط سرسي في كينجز لاندنج:
- **السير أوزفريد كِتلبلاك والسير أوزني كِتلبلاك**، أخوان أصغر للسير أوزموند كِتلبلاك،
- **السير جريجور كليجاين ولقبه الجبل راكب الخيول**، يحتضَر متألِّمًا بجرحٍ مسموم،
- **السير أدام ماربراند**، قائد حرس المدينة في كينجز لاندنج «ذوو المعاطف الذَّهبيَّة»،
- **چالابار شو**، أمير وادي الزَّهرة الحمراء، منفي من جُزر الصَّيف،
- **جايلز روزبي**، سيِّد روزبي، مصاب بسُعال مزمن،
- **أورتون ميريويذر** سيِّد الطَّاولة الطَّويلة،
- **تاينا**، زوجته، امرأة من مير،
- **الليدي تاندا ستوكوورث**،
- **الليدي فاليس**، ابنتها الكُبرى ووريثتها،
- **السير بالمان بيرش**، زوج الليدي فاليس،
- **الليدي لوليس**، ابنتها الصُّغرى، حُبلى وضعيفة العقل،
- **السير برون فارس النَّهر الأسود**، زوج الليدي لوليس، مرتزِق سابق،
- **(شِاي)**، تابعة معسكرات تخدم كرفيقة فِراش لوليس، ماتت خنقًا في فِراش اللورد تايوين،

- **المايستر فرنكن**، في خدمة الليدي تاندا.
- **السير إلين باين**، عدالة الملك، جلَّاد.
- **رينيفر لونجووترز**، رئيس مُشرفي السَّجّانين في زنازين القلعة الحمراء.
- **روجن**، مُشرف سجّانين في الزَّنازين السّوداء.
- **اللورد هالاين البايرومانسر**، صاحِب حكمة من رابطة الخيميائيِّين.
- **نوهو ديميتيس**، مبعوث من مصرف براڤوس الحديدي.
- **كايبرن**، نِكرومانسر، مِايستر سابق من القلعة، لاحقًا غضو في رِفقة الشُّجعان.
- **فتى القمر**، المهرِّج الملكي.
- **پايت**، صبي في الثّامنة، كبش فداء الملك تومن.
- **أورموند ابن البلدة القديمة**، عازف القيثارة والمغنّي الملكي.
- **السير مارك ماليندون** الذي فقدَ قرنًا ونِصف ذراع في معركة النّهر الأسود.
- **أوران ووترز**، نغل دريفتمارك.
- **اللورد أليساندر ستيدمون** ولقبه **عاشق البنسات**.
- **السير رونيت كوننجتون** ولقبه **رونيت الأحمر**، فارس وكر الجَرافِن.
- **السير لامبرت تِرنبري، السير درموت ابن الغابة المطيرة، السير تالاد** ولقبه **الطّويل، السير بايارد نوركروس، السير بونيفر هاستي** ولقبه **الصّالح، السير هيوجو ڤانس**، فُرسان مقسمون على الولاء للعرش الحديدي.

- **السير لايل كراكهول** ولقبه **الغفر القوي**، **السير آلن ستاكسبين**، **السير جون بتلي** ولقبه **جون الحليق**، **السير ستفون سويفت**، **السير همفري سويفت**، فُرسان مقسمون على الولاء لكاسترلي روك.
- **جوزمين بكلدون**، مُرافق ومن أبطال معركة النّهر الأسود.
- **جاريت بايج وليو بايبر**، مُرافقان ورهينتان.

- أهل كينجز لاندنج:

- **الشيتون الأعلى**، أبو المؤمنين وصوت الآلهة السّبعة على الأرض، رجل عجوز واهن.
- **الشيتون توربرت**، **الشيتون راينارد**، **الشيتون لوشن**، **الشيتون أوليدون** أعضاء في مجلس القائتين، يخدمون الآلهة السّبعة في سبت بيلور الكبير.
- **الشيتة مويل**، **الشيتة آجلانتين**، **الشيتة هيلسنت**، **الشيتة أونلا**، عضوات في مجلس القائتين، يخدمن الآلهة السّبعة في سبت بيلور الكبير.
- «العصافير»، أكثر البشر تواضعًا، مخلصون في إيمانهم.
- **شاتايا**، مالكة ماخور مكلّف.
- **ألايايا**، ابنتها.
- **دانسي**، **ماري**، من فتيات شاتايا.
- **رايلا**، خادمة، خدمت الليدي سانزا ستارك حديثًا.
- **توبهو موت**، من أساتذة الحدادة.
- **هاميش ذو القيثارة**، مطرب مسن.
- **ألاريك الآيزيني**، مطرب كثير التّجوال.
- **وات**، مطرب يُطلق على نفسه لقب **الشّاعر الأزرق**.

- السير ثيودان وِلز، فارس متديِّن، عُرِفَ لاحقًا باسم السير ثيودان الصّالح.

راية الملك تومن عبارة عن وعل باراثيون المتوَّج، أسود على ذهبي، وأسد لانستر، ذهبي على قرمزي، يتصارَعان.



ستانيس باراثيون الأول، الابن الثاني للورد ستفون باراثيون والليدي كاسانا سليلة عائلة إسترمونت، سيّد دراجونستون، يُسمّي نفسه ملك وستروس،

- **الملكة سيليس** سليلة عائلة إسترمونت، زوجته، حاليًا في القلعة الشّرقيّة على البحر،
- **الأميرة شيرين**، ابنتهما، فتاة في السّابعة،
- **ذو الوجه المرقّع**، مهرّج شيرين الأبله،
- **إدريك ستورم**، ابن أخيه النّغل، ابن الملك روبرت من الليدي ديلينا فلورنت، صبي في الثّانية عشرة، على متن پرندوس المجنون في البحر الضيّق.
- **السير أندرو إسترمونت**، ابن خال الملك ستانيس، من رجال الملك، يقود حرّاس إدريك،
- **السير چيرالد جاور، لويس ولقبه السّمّاك، السير تريستون ابن هضبة تالي، أومر بلاكبري**، من رجال الملك حرّاس إدريك وحماته،
- بلاط ستانيس في القلعة السّوداء:
- **الليدي ميليساندرا الآشايّة ولقبها المرأة الحمراء**، من راهبات راهلور إله الضّياء،

- **مانس رايدر** ملك ما وراء الجدار، أسير ومحكوم عليه بالموت،
- ابن رايدر من زوجته (**دالا**)، وليد بلا اسم بعد، «الأمير الهمجي»،
- **جيلي**، مُرضعته، فتاة همجيّة،
- ابنها، وليد آخر بلا اسم بعد، من أبيها (**كراستر**)،
- **السير ريتشارد هورپ، السير جاستن ماسي، السير كلايتون سوجز، السير جودفري فارنج** ولقبه **قاتِل العمالقة، اللورد هاروود فِل، السير كورليس پني**، من رجال الملكة وفُرسانها،
- **دڤان سيوورث وبريان فارنج**، مُرافقان ملكيّان،
- بلاط ستانيس في القلعة الشّرقيّة:
- **السير داڤوس سيوورث** ولقبه **فارس البصل**، سيّد الغابة المطيرة، أميرال البحر الضيّق، يد الملك،
- **السير آكسل فلورنت**، عم الملكة سيليس، أبرز رجال الملكة،
- **سالادور سان**، من لِيس، قُرصان، زبّان ڤاليريان وأسطول من القوادس،
- حامية ستانيس في دراجونستون:
- **السير رولاند ستورم** ولقبه **نغل التّغريدة**، من رجال الملك، أمين القلعة في دراجونستون،
- **المايستر پايلوس**، معالج ومعلّم ومستشار،
- «**سجّان الثّريد**» و«**سجّان الشّلق**»، سجّانان،
- اللوردات المقسمون على الولاء لدراجونستون:
- **مونتريس ڤيلاريون**، سيّد المَدّ والجَزر وحاكم دريفتمارك، صبي في السّادسة،
- **دورام بار إمون**، سيّد الرّأس الحاد، صبي في الخامسة عشرة،

- حامية ستانيس في ستورمز إند:
  - **السير جيلبرت فارنج**، أمين القلعة في ستورمز إند،
  - **اللورد إلوود ميدون** نائب السير جيلبرت،
  - **المايستر چورن**، مستشار السير جيلبرت ومعالجه،
- اللوردات المقسمون على الولاء لستورمز إند:
  - **إلدون إسترمونت**، سيّد الحجر الأخضر، خال الملك ستانيس، خال أبي الملك تومن الكبير، صديق حذِر للاثنين،
  - **السير إيمون**، ابن اللورد إلدون ووريثه، مع الملك تومن في كينجز لاندنج،
  - **السير آلن**، ابن السير إيمون، أيضًا مع الملك تومن في كينجز لاندنج،
  - **السير لوماس**، أخو اللورد إلدون، خال الملك ستانيس ومناصره في ستورمز إند،
  - **السير أندرو**، ابن السير لوماس، يحمي إدريك ستورم في البحر الضيِّق،
  - **لستر موريجن**، سيِّد غش الغربان،
  - **اللورد لوكوس تشيترينج** ولقبه **لوكوس الصُّغير**، شاب في السادسة عشرة،
  - **داڤوس سيوورث**، سيِّد الغابة المطيرة،
  - **ماريا**، زوجته، ابنة نجّار،
  - **(دايل وآلارد وماثوس وماريك)**، أبناؤهما الأربعة الأكبر، فقداهم في معركة النهر الأسود،
  - **دڤان**، مُرافق مع الملك ستانيس في القلعة السوداء،
  - **ستانيس**، صبي في العاشرة، مع الليدي ماريا في رأس الغضب،
  - **ستفون**، صبي في السادسة، مع الليدي ماريا في رأس الغضب،

اتّخذ ستانيس لرايته رمز قلب إله الضّياء النّاري، وهو
قلب أحمر محاط باللّهب البرتقالي على خلفيّةٍ صفراء،
وفي داخل القلب وعل باراثيون المتوّج بلونٍ أسود.

ملك الجُزر والشّمال



ينحدر آل جرايجوي من الملك الأشيب الذي عاش في عصر الأبطال، وتقول عنه الأساطير إنه لم يَحكُم الجُزر الغربيّة فحسب، بل البحر نفسه كذلك وتزوّج عروس بحر. لآلاف السِّنين شكّل مُغيرو جُزر الحديد -الذين أطلق عليهم ضحاياهم لقب «الرّجال الحديديّين» زُعبًا مقيمًا عبر البحار، فقد أبحروا لمسافاتٍ بعيدةٍ حتى ميناء إيبن وجُزر الصّيف، وتباهوا بشراستهم في المعارك وخزياتهم المقدّسة. كان لكلّ واحدةٍ من جُزر الحديد «ملك ملحي» و«ملك صخري»، وكان هؤلاء ينتخبون ملك الجُزر الأعلى من بينهم، إلى أن جعلَ الملك أورون انتقال العرش بالوراثة عندما اغتالَ بقيّة الملوك أثناء اجتماعهم للانتخاب، ثم قُضِيَ على سلالة أورون كلها بَعد ألف عامٍ عندما اكتسحَ الأنداليّون جُزر الحديد، وصاهرَ آل جرايجوي الغزاة كما فعلَ عدد من سادة الجُزر الآخرين.

بسطَ الملوك الحديديُّون سيطرتهم لمسافاتٍ تجاوزَت جُزر الحديد نفسها بكثير، وأقاموا ممالك كاملةً على اليابسة بالسَّيف والنَّار، حتى إن الملك كوريد كان يتفاخَر بأن أوامره تسري «حيثما يشمُّ النَّاس المياه المالحة أو يسمعون تلاطم الأمواج». في القرون التَّالية فقدَ أبناء كوريد الكرمة والبلدة القديمة وجزيرة الدِّببة ومساحةً كبيرةً من السَّاحل الغربي، ومع ذلك ظلَّ الملك هارن الأسود مسيطرًا على الأراضي الواقعة بين الجبال من العُنق وحتى النهْر الأسود خلال حروب الغزو، لكن بَعد مصرعه مع أبنائه في سقوط هارنهال منحَ إجون تارجاريَن أراضي النهْر لعائلة تَلي، وسمحَ للوردات جُزر الحديد النَّاجين بإحياء تقليدهم القديم واختيار من يَحكُمهم، فاختاروا اللورد ڤيكون جرايچوي ابن پايك.

سبقَ أن قادَ بالون جرايچوي سيِّد جُزر الحديد تمرُّدًا على العرش الحديدي، أخمدَه الملك روبرت باراثيون الأول وإدارد ستارك سيِّد وينترفل، لكن في خضمِّ الفوضى التي تبعَت موت روبرت نصَّب اللورد بالون نفسه ملكًا ثانيةً وأرسلَ سُفنه الطَّويلة تُهاجِم الشَّمال.

(بالون جرايچوي)، تاسع من يحمل هذا الاسم منذ الملك الأشيب، ملك جُزر الحديد والشَّمال، ملك الملح والصَّخر، ابن رياح البحر، سيِّد حصاد پايك، ماتَ ساقطًا من علٍ،

- أرملة الملك بالون، **الملكة ألانيس** سليلة عائلة هارلو،

-أولادهما:

- **(رودريك)**، قُتِلَ خلال تمرُّد بالون الأول،
- **(مارون)**، قُتِلَ خلال تمرُّد بالون الأول،
- **آشا**، ابنتهما، زبّان الرِّيح السَّوداء وغازية ربوة الغابة،
- **ثيون**، يُسَمِّي نفسه أمير وينترفل، يُسمِّيه الشَّماليُّون ثيون المارِق،

-إخوة الملك بالون الأشقَّاء وغير الأشقَّاء:

-(**هارلون**)، ماتَ بالدّاء الأرمد في شبابه،

-(**كوينتون**)، ماتَ في طفولته،

-(**دونل**)، ماتَ في طفولته،

-**يورون ولقبه عين الغُراب**، رُبّان الصّمت،

-**ڤيكتاريون**، الرُّبان قائد الأسطول الحديدي، سيّد النّصر الحديدي،

-(**يوريجون**)، ماتَ بجرحٍ بليغ،

-**آرون**، من رُهبان الإله الغريق،

-**روس ونورجِن**، اثنان من مُعاونيه، «الرِّجال الغرقى»،

-(**روبن**)، ماتَ في طفولته،

-أهل بيت الملك بالون في پايك:

-**المايستر ويندامير**، مُعالج ومستشار،

-**هيليا**، راعية القلعة،

-مُحاربو الملك بالون والمقسمون له:

-**داجمر ولقبه ذو الفَك المفلوق**، رُبّان ثُمالة البحر، يقود الحديديّين في مربَع تورين،

-**ذو السِّن الزّرقاء**، رُبّان سفينة طويلة،

-**أولر وسكايت**، ملّاحان ومُحاربان،

-المطالبون بكُرسي حجر اليَم في انتخاب الملك في ويك القديمة:

جيلبرت فارويند، سيّد المنارة الوحيدة،

- أنصار جيلبرت: أبناؤه **جايلز ويجون ويون**،

إريك آيرونميكر ولقبه محطِّم السَّنادين وإريك العادل، عجوز، رُبّان ومُغير ذائع الصّيت سابقًا،

- أنصار إريك: أحفاده **أوريك وثورمور وداجون**،

دنستان دروم، دروم الكبير، اليد العظميّة، سيّد ويك القديمة،

- أنصار دنستان: ابناه **دينس ودونل، وأندريك اللا مبتسم**، رجل عملاق.

آشا جرايجوري، ابنة بالون جرايجوي الوحيدة، زبّان الزّيح السّوداء.

- أنصار آشا: **كارل البكر، تريستيفر بوتلي، السير هاراس هارلو.**

- ربابنة آشا وداعموها: **اللورد رودريك هارلو، اللورد بيلور بلاكتايد، اللورد ملدريد مرلين، هارموند شارپ.**

ڤيكتاريون جرايجوي، أخو بالون جرايجوي، سيّد النّصر الحديدي، الزّبان قائد الأسطول الحديدي.

- أنصار ڤيكتاريون: **رالف ستونهاوس الأحمر، رالف الأعرج، نيوت الحلّاق.**

- ربابنة ڤيكتاريون وداعموه: **هوتو هارلو، آلڤن شارپ، فرالج القوي، رومني ويڤر، ويل همبل، لينوود تاوني الصّغير، رالف كنينج، مارون ڤولمارك، جورولد جودبراذر.**

- طاقم سفينة ڤيكتاريون: **وولف ذو الأذن الواحدة، راجنور پايك.**

- رفيقة ڤيكتاريون في الفِراش امرأة سمراء خرساء بلا لسان، هديّة من أخيه يورون.

يورون جرايجوي ولقبه عين **الغُراب**، أخو بالون جرايجوي، زبّان الصّمت.

- أنصار يورون: **جرموند بوتلي، اللورد أوركوود سيّد أوركمونت، دونور سولتكليف.**

- ربابنة يورون وداعموه: **توروولد ذو السّن البنّيّة، جون ماير ذو الوجه المسحوب، رودريك المولود خرًا، الملّاح الأحمر، لوكاس كود الأعسر، كويلون همبل، هارن النّصف هور، كيميت پايك النّغل، ذو اليد الحجر، رالف الرّاعي، رالف سليل لوردزپورت.**
- طاقم سفينة يورون: كراجورن.
-حملة راية بالون، لوردات جزر الحديد:

في پايك:

- **(ساوان بوتلي)**، سيّد لوردزپورت، أغرقه يورون عين الغُراب.
- **تريستيفر** ابنه الثّاني ووريثه الشّرعي، طردَه عمّه.
- **سايموند وهارلون وڤيكون وبيناريون**، أبناؤه الأصغر، مطرودون أيضًا.
- **جرموند**، أخوه، نُصّبَ سيّدًا على لوردزپورت.
- ابنا جرموند، **بالون وكويلون**.
- **سارجون ولوسيمون** أخوا ساوان غير الشّقيقين.
- **وِكس**، صبي أخرس في الثّانية عشرة، ابن سارجون النّغل، مُرافق ثيون جرايچوي.
- **والدون وينش**، سيّد غابة الحديد.

في هارلو:

- **رودريك هارلو** ولقبه **القارئ**، سيّد هارلو، سيّد البروج العشرة، زعيم عائلة هارلو في هارلو.
- **الليدي جوينيس**، أخته الكبيرة.
- **الليدي ألانيس**، أخته الصّغيرة، أرملة الملك بالون جرايچوي.
- **سيجفريد هارلو** ولقبه **سيجفريد ذو الشّعر الفضّي**، عمّه الكبير، سيّد بهو هارلو.

- **هوثو هارلو** ولقبه **هوثو الأحدب**، مقرّه بُرج البريق، ابن عمومة،
- **السير هاراس هارلو** ولقبه **الفارس**، فارس الحديقة الرّماديّة، ابن عمومة،
- **بورموند هارلو** ولقبه **بورموند الأزرق**، سيّد تَل هاريدان، ابن عمومة،
- حمَلة راية اللورد رودريك والمقسمون له:
  - **مارون ڤولمارك**، سيّد ڤولمارك،
  - **ماير**، **ستونتري**، **كتينج**،
- **أهل** بيت اللورد رودريك:
  - **ذات الثّلاث أسنان**، وكيلته، امرأة عجوز،

في بلاكتايد:

- **بيلور بلاكتايد**، سيّد بلاكتايد، رُبّان طيّار اللّيل،
- **بن بلاكتايد الأعمى**، من زُهبان الإله الغريق،

في ويك القديمة:

- **دنستان دروم**، دروم الكبير، رُبّان الرّاعد،
- **نورن جودبراذر**، سيّد الحجر المهشَّم،
- **ستونهاوس الكبير**،
- **تارل** ولقبه **تارل الغارق ثلاثًا**، من زُهبان الإله الغريق،

في ويك الكُبرى:

- **جورولد جودبراذر**، سيّد هامرهورن،
- أبناؤه، **جرايدون وجورموند وجران**، توائم،
- ابنتاه، **جايزلا وجوين**،
- **المِايستر مورنميون** معلّم ومعالج ومستشار،
- **تريستون فاروينـد**، سيّد رأس الفقمات،
- **سپار الكبير**،
- ابنه ووريثه، **ستيفاريون**،
- **ملدريد مرلين**، سيّد بلدة الحصى،

في أوركمونت:

- **أوركوود سيّد أوركمونت،**
- **اللورد تاوني،**

في جُرف الملح:

- **اللورد دونور سولتكليف،**
- **اللورد سندرلي،**

في الجزر والصُّخور الأصغر:

- **جيلبرت فارويند**، سيّد المنارة الوحيدة،
- **النورس الرّمادي العجوز** من زهبان الإله الغريق.

راية آل جرايجوي عبارة عن كراكن ذهبي على خلفيّة سوداء، وكلماتهم: «نحن لا نزرع».

ملحق (٢)

عائلات أخرى صغيرة وكبيرة

عائلة آرن



تنحدر عائلة آرن من ملوك الجبال والوادي، وهي واحدة من أقدم وأنقى سلالات النُّبلاء الأنداليِّين. لم تُشارك عائلة آرن في حرب الملوك الخمسة، واحتفظَت بقوّاتها للدّفاع عن وادي آرن.

راية آل آرن عبارة عن قمرٍ وصقرٍ أبيضين على خلفيّة ذات لونٍ أزرق سماوي، وكلماتهم: «سامون كالشَّرف».

روبرت آرن، سيِّد العُش، حامي الوادي، سمَّته أمُّه حاكم الشَّرق الشَّرعي، صبي سقيم في الثَّامنة، يُسَمَّى أحيانًا العُصفور الجميل،

- أمُّه، **(الليدي لايسا سليلة عائلة تلي)**، أرملة اللورد چون آرن، ماتَت مدفوعةً من باب القمر،
- زوج أمُّه، **بيتر بايلش** ولقبه **الإصبع الصّغير**، سيِّد هارنهال، سيِّد الثالوث الأعلى، اللورد حافِظ الوادي،
- **إليني ستون**، ابنة اللورد بيتر الطّبيعيّة، فتاة في الثّالثة عشرة، هويّتها الحقيقيّة سانزا ستارك،
- **السير لوثور برون**، مرتزِق في خدمة اللورد بيتر، قائد حرس العُش،

- **أوزويل**، جُندي عجوز في خدمة اللورد بيتر، يُسمَّى أحيانًا **كِتلبلاك**،

- أهل بيت اللورد روبرت في الغش:

- **ماريليون**، مطرب شاب وسيم أثير عند الليدي لايسا ومتَّهم بقتلها،
- **المايستر كولمون**، مستشار ومعالج ومعلِّم،
- **مورد**، سجَّان غاشم له أسنان من الذَّهب،
- **جرتشل ومادي وميلا**، خادمات،

- حمَلة راية اللورد روبرت، لوردات الوادي:

- **اللورد نستور رويس**، وكيل الوادي الأعلى وأمين قلعة بوَّابات القمر،
- **السير ألبار** ابن اللورد نستور ووريثه،
- **ميراندا** وتُسمَّى **راندا**، ابنة اللورد نستور، أرملة بَعد زيجة قصيرة،

- أهل بيت اللورد نستور:

- **السير مارويِن بلمور** قائد الحرس،
- **ميا ستون**، سائقة وراعية بغال، ابنة الملك روبرت باراثيون الأول النَّغلة،
- **أوسي وكاروت**، سائقا بغال،
- **لايونل كوربراي**، سيِّد بيت القلوب،
- **السير لين كوربراي**، أخوه ووريثه، حامل السَّيف الشَّهير سيِّدة البؤس،
- **السير لوكاس كوربراي**، أخوه الأصغر،
- **جون ليندرلي**، سيِّد غابة الثَّعابين،
- **تيرانس**، ابنه ووريثه، مُرافق شاب،
- **إدموند واكسلي**، فارس ويكندن،
- **جيرولد جرافتون**، سيِّد بلدة النَّوارس،
- **جايلز** ابنه الأصغر، مُرافق،

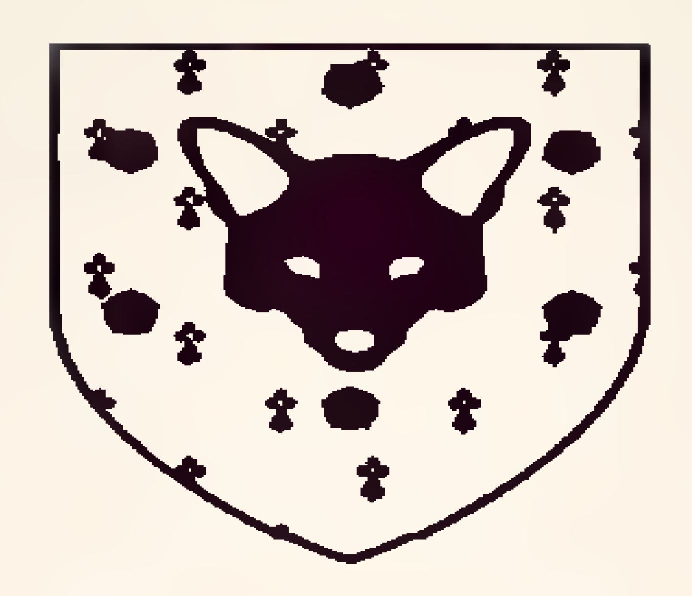
- **تريستون سندرلاند**، سيّد الثّلاث أخوات،
- **جودريك دورل**، سيّد الأخت العذبة،
- **رولاند لونجثورب**، سيّد الأخت الطّويلة،
- **أليساندور تورنت**، سيّد الأخت الصّغيرة،
- لوردات البيان، حملة راية عائلة آرن المتضافرون دفاعًا عن اللورد روبرت:
- **يون رويس** ولقبه **يون البرونزي**، سيّد رونستون، من الفرع الرّئيس لعائلة رويس،
- **السير أندار** ابن يون البرونزي الحي الوحيد، وريث رونستون،
- أهل بيت يون البرونزي:
- **المايستر هليويج**، معلّم ومعالج ومستشار،
- **السّپتون لوكوس**،
- **السير ساموويل ستون** ولقبه **سام ستون القوي**، قيّم السّلاح،
- حملة راية يون البرونزي والمقسمون له:
- **رويس كولدووتر**، سيّد غدير الماء البارد،
- **السير دامون شِفت**، فارس بُرج النّوارس،
- **أوثور توليت**، سيّد الوادي الرّمادي،
- **آنيا واينوود**، سيّدة السّنديانة الحديديّة،
- **السير مورتون**، ابنها الأكبر ووريثها،
- **السير دونل**، ابنها الثّاني، فارس البوّابة،
- **والاس**، ابنها الأصغر،
- **هارولد هاردينج**، ربيبها، مُرافق شاب يُسمّى غالبًا **هاري الوريث**،
- **بنيدار بلمور**، سيّد الأغرودة،
- **السير سايموند تمپلتون**، فارس النّجوم التّسع،
- **(إيون هنتر)**، سيّد بهو القوس الطّويل، مات قريبًا،

- **السير جيلوود**، ابن اللورد إيون الأكبر ووريثه، الآن يُسمّى **اللورد هنتر اليافع**.
- **السير إيوستس**، ابن اللورد إيون الثّاني،
- **السير هارلان**، ابن اللورد إيون الأصغر،

- أهل بيت اللورد هنتر اليافع:
- **المِايستر ويلامن**، مستشار ومعالج ومعلّم،
- **هورتون ردفورت**، سيّد ردفورت، تزوّج ثلاث مرّات،
- **السير جاسبر**، **السير كرايتون**، **السير جون**، أبناؤه،
- **السير مايكل**، ابنه الأصغر، فارس مستجد، زوج يسيلا رويس ابنة رونستون،

- زعماء قبائل جبال القمر:
- **شاجا بن دولف** زعيم **الغِربان الحجريّة**، حاليًا يقود جماعةً في غابة الملوك،
- **تيميت بن تيميت**، زعيم **الرّجال المحروقين**،
- **تشلا بنت تشيك**، زعيمة **الآذان السّوداء**،
- **كراون بن كالون** زعيم **إخوة القمر**.

عائلة فلورنت



آل فلورنت أولاد قلعة المياه الوضّاءة من حملة راية عائلة تايرل، على الرغم من أسبقيّة حقّهم في هايجاردن استنادًا إلى صلة دمٍ بينهم وبين عائلة جارندر التي حكمَ ملوكها المرعى قديمًا. لدى اندلاع حرب الملوك الخمسة تبعَ اللورد آلستر فلورنت آل تايرل في إعلانهم تأييد الملك رنلي، لكن أخاه السير آكسل اختارَ الملك ستانيس، الذي خدمه أعوامًا كأمين القلعة في دراجونستون، وقد كانت سيليس ابنة أخيهما وما زالَت ملكة ستانيس. بعد موت رنلي عند ستورمز إند انضمَّ آل فلورنت لستانيس بقوّتهم كلّها، وهُم أول من يفعل هذا من حملة راية رنلي. نصّب ستانيس اللورد آلستر يدًا له، وأعطى أخا زوجته السير إمري فلورنت قيادة أسطوله، وفي معركة النّهر الأسود ضاعَ كلا الأسطول والسير إمري، وعَدّ الملك ستانيس جهود اللورد آلستر للتفاوض على السّلام خيانةً، وأعطى الزّاهبة الحمراء ميليساندرا إياه لتحرقه كقُربان لراهلور.

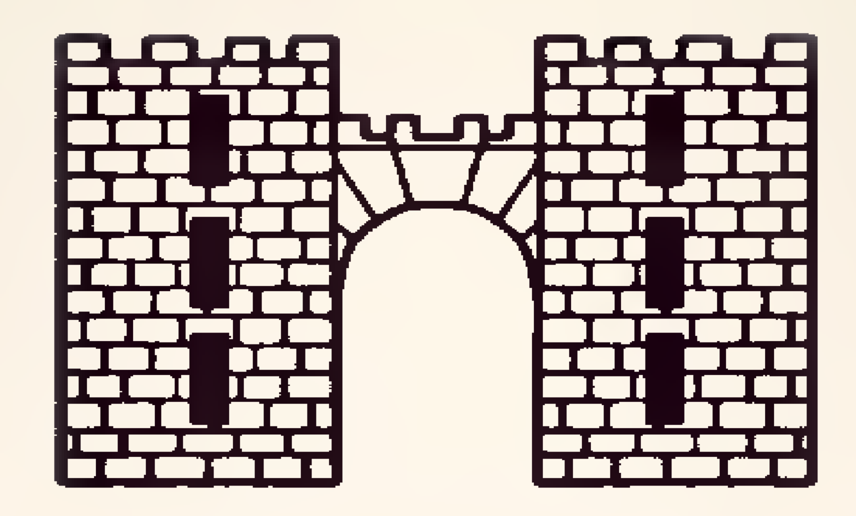
رمز عائلة فلورنت عبارة عن ثعلبٍ يطلُّ برأسه من حلقةٍ من الزّهور.

(آلستر فلورنت)، سيّد قلعة المياه الوضّاءة.

- زوجته، **الليدي ميلارا**، سليلة عائلة كرين.

- أولادهما:
  - **أليكاين**، وريث قلعة المياه الوضّاءة،
  - **ميليسا**، زوجة اللورد راندل تارلي،
  - **ريا**، زوجة اللورد لايتون هايتاور،
- أخواه:
  - **السير آكسل**، أمين قلعة دراجونستون،
  - **(السير ريام)**، مات حين سقط من فوق حصان،
  - ابنة السير ريام، **الملكة سيليس**، زوجة الملك ستانيس،
  - ابن السير ريام الأكبر ووريثه، **(السير إمري)**،
  - ابن السير ريام الثّاني، **السير إيِن**،
- **السير كولين**،
  - ابنة السير كولين، **ديلينا**، زوجة السير **هوسمان نوركروس**،
  - ابن ديلينا، **إدريك ستورم**، ابن غير شرعي للملك روبرت،
  - ابن ديلينا، **آلستر نوركروس**،
  - ابن ديلينا، **رنلي نوركروس**،
  - ابن كولين، **المايستر أومر** في خدمة أوك القديمة،
  - ابن كولين، **ميريل**، مُرافِق في الكرمة،
  - أخته، **رايلين**، زوجة ريتشارد كرين.

عائلة فراي



يتمتَّع آل فراي بالقوَّة والثَّراء وعددٍ وفير من الأولاد، وهم حمَلة راية عائلة تَلي ومقسمون على الولاء لريفررَن، وإن كانوا لا يلتزمون دائمًا بأداء واجبهم، فحين قاتلَ روبرت باراثيون ريجار تارجاريَن في معركة الثَّالوث لم يصل رجال فراي إلَّا بَعد انتهاء القتال، ومنذ ذلك الحين لقَّب هوستر تَلي اللورد والدر باللورد فراي المتلكِّئ. لم يُوافِق اللورد فراي على دعم روب ستارك إلَّا بَعد أن وافقَ روب ستارك على خطبة واحدةٍ من بناته أو حفيداته، ووعدَ بأن يتزوَّجها حين تنتهي الحرب، ثم عندما تزوَّج چاين وسترلينج بدلًا من ذلك تآمرَ آل فراي مع رووس بولتون واغتالوا الذِّئب الصَّغير وأتباعه في الحادثة التي صارت معروفةً باسم الزِّفاف الأحمر.

والدر فراي، سيِّد المعبر،

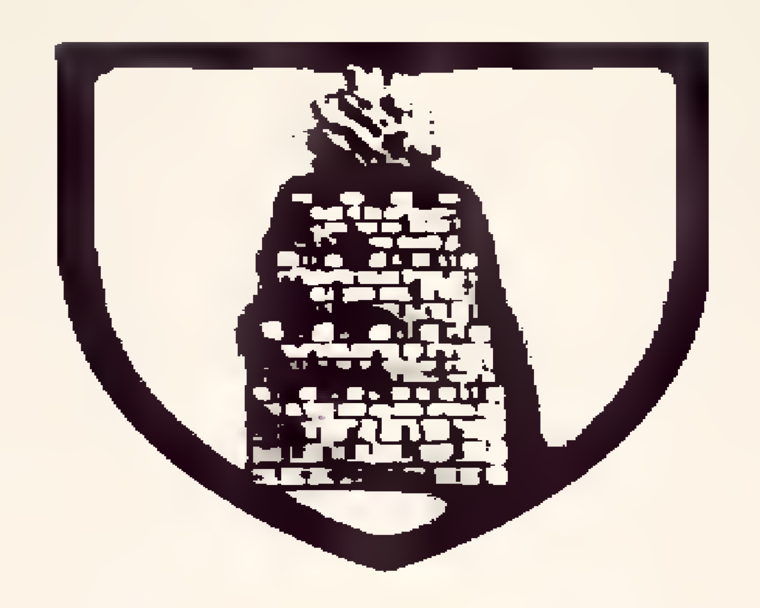
- من زوجته الأولى، **(الليدي پيرا)** سليلة عائلة رويس:
  - **السير ستفرون**، وريث التوأمتين،
  - زوجته **(كورينا سوان)**، ماتت بمرضٍ مزمن،
  - ابن ستفرون الأكبر، **السير رايمان**،
  - ابن رايمان، **إدوين**، زوج چانيس هنتر،
  - ابنة إدوين، **والدا**، فتاة في الثامنة،

- ابن إينس، **إجون وليد الدّم**، خارج عن القانون.
- ابن إمون، **ريجار** زوج چين بيزبوري.
- ابن ريجار، **روبرت**، صبي في الثّالثة عشرة.
- ابنة ريجار، **والدا**، فتاة في العاشرة، لقبها **والدا البيضاء**.
- ابن ريجار، **چونوس**، صبي في الثّامنة.
- **پريان**، زوجة السير ليزلين هاي.
- ابن پريان، **السير هاريس هاي**.
- ابن هاريس، **والدر هاي**، صبي في الرّابعة.
- ابن پريان، **السير دونل هاي**.
- ابن پريان، **السير آلين هاي**، مرافِق فارس.
- من زوجته الثّانية، **(الليدي كايرينا)** سليلة عائلة سوان:
- **السير چارد**، ابنهما الأكبر، زوج (آليس فراي).
- ابن چارد، **(السير تايتوس)**، زوج زوي بلينتري، قتلَه ساندور كليجاين خلال الزّفاف الأحمر.
- ابنة تايتوس، **زيا**، فتاة في الرّابعة عشرة.
- ابن تايتوس، **زاكري**، صبي في الثّانية عشرة، يتدرّب في سِپت البلدة القديمة.
- ابنة چارد، **(كايرا)**، زوجة چارس جودبروك، قُتِلَت خلال الزّفاف الأحمر.
- ابن كايرا، **والدر جودبروك**، صبي في التّاسعة.
- ابنة تايتوس، **چين جودبروك**، فتاة في السّادسة.
- **السِّپتون لوسيون**، يخدم في سِپت بيلور الكبير في كينجز لاندنج.
- من زوجته الثّالثة، **(الليدي أماري)** سليلة عائلة كراكهول:
- **السير هوستين**، ابنهما الأكبر، زوج بيلينا هاويك.
- ابن هوستين، **السير آروود**، زوج ريبلا رويس.
- ابنة آروود، **ريبلا**، فتاة في الخامسة.
- ابنا آروود التّوأم، **أندرو وآلين**، في الثّالثة.

- **الليدي لايثين**، زوجة اللورد لوشياس ڤايپرن.
- ابنة لايثين، **إليانا**، زوجة السير چون وايلد.
- ابن إليانا، **ريكارد وايلد**، في الرّابعة.
- ابن لايثين، **السير ديمون ڤايپرن**.
- **سايموند**، زوج بيتاريوس البراڤوسيّة.
- ابن سايموند، **أليساندر**، مغنٍّ.
- ابنة سايموند، **آلكس**، فتاة في السّابعة عشرة.
- ابن سايموند، **برادامار**، صبي في العاشرة، نشأ في براڤوس ربيبًا للتّاجر أورو تنداييريس.
- **السير دانويل**، زوج وايناڤري وِنت.
- (وُلِدَ أبناؤهما إمّا موتى أو ماتوا في المهد).
- **(ميريت)**، زوج ماريا داري، مات شنقًا في الحجر العتيق.
- ابنة ميريت، **آميري**، تُسمّى **آمي**، أرملة في السّادسة عشرة، كانت زوجة (السير پايت فارس الفرع الأزرق، قتلَه السير جريجور كليجاين).
- ابنة ميريت، **والدا**، لقبها **والدا السّمينة**، فتاة في الخامسة عشرة.
- ابنة ميريت، **ماريسا**، فتاة في الثّالثة عشرة.
- ابن ميريت، **والدر** لقبه **والدر الصّغير**، صبي في الثّامنة، ينشأ في وينترفل كربيب الليدي كاتلين ستارك.
- **(السير جريمي)**، مات غرقًا، كان زوج كارولي واينوود.
- ابن جريمي، **ساندور**، صبي في الثّانية عشرة، مُرافِق السير دونل واينوود.
- ابنة جريمي، **سينثيا**، فتاة في التّاسعة، ربيبة الليدي آنيا واينوود.
- **السير رايموند**، زوج بيوني بيزبوري.
- ابن رايموند، **روبرت**، في السّادسة عشرة، يتدرّب في قلعة البلدة القديمة.

- ابن رايموند، **مالوين**، في الخامسة عشرة، يتدرّب لدى خيميائي في لِيس،
- ابنتا رايموند التّوأم، **سيرا وسارا**، فتاتان في الرّابعة عشرة،
- ابنة رايموند، **سرسي**، في السّادسة، لقبها **النّحلة الصّغيرة**،
- من زوجته الرّابعة، **(الليدي أليسا)** سليلة عائلة بلاكوود:
- **لوثار**، ابنهما الأكبر، لقبه **لوثار الكسيح**، زوج ليونلا ليفورد،
- ابنة لوثار، **تايسين**، فتاة في السّابعة،
- ابنة لوثار، **والدا**، فتاة في الرّابعة،
- ابنة لوثار، **إمبريلي**، فتاة في الثّانية،
- **السير جاموس**، زوج سالي پايپر،
- ابن جاموس، لقبه **والدر الكبير**، صبي في الثّامنة، ينشأ في وينترفل كربيب الليدي كاتلين ستارك،
- ابنا جاموس التّوأم، **ديكون وماثوس**، في الخامسة،
- **السير والن**، زوج سيلوا پايپر،
- ابن والن، **هوستر**، صبي في الثّانية عشرة، مُرافِق السير ديمون پايپر،
- ابنة والن، **ماريان**، تُسمّى مِري، فتاة في الحادية عشرة،
- **الليدي موريا**، زوجة السير فليمنت براكس،
- ابن موريا، **روبرت براكس**، في التّاسعة، ينشأ كوصيف في كاسترلي روك،
- ابن موريا، **والدر براكس**، صبي في السّادسة،
- ابن موريا، **جون براكس**، صبي في الثّالثة،
- **تايتا**، لقبها **تايتا العذراء**، في التّاسعة والعشرين،
- من زوجته الخامسة، **(الليدي ساريا)** سليلة عائلة وِنت:
- لا أولاد،

عائلة هايتاور



آل هايتاور أولاد البلدة القديمة من أعرق عائلات وستروس الكُبرى وأكثرها إباءً، وتنحدر أصولهم من البَشر الأوائل. قديمًا كانوا ملوكًا يَحكُمون البلدة القديمة والأنحاء المحيطة بها منذ فَجر العصور، ورحَّبوا بالأنداليّين بدلًا من مقاوَمتهم، ولاحقًا خضعوا لملوك المرعى متخلِّين عن تيجانهم وإن احتفظوا بجميع امتيازاتهم العتيقة. على الرغم من سطوتهم وثرائهم الفاحش لطالما فضَّل لوردات البُرج العالي التِّجارة على القتال، ونادرًا ما لعبوا دورًا كبيرًا في حروب وستروس. كان آل هايتاور عاملًا أساسيًا في إنشاء القلعة وما زالوا يحمونها حتى اليوم، ولحصافتهم ورقيِّهم كانوا دومًا رُعاةً للعلم والعقيدة، ويُقال إن بعضًا معيَّنًا منهم اشتغلَ أيضًا في الخيمياء والپايرومانسي والنكرومانسي وغيرها من فنون السِّحر.

رمز عائلة هايتاور بُرج أبيض مدرَّج متوَّج بالنّار على خلفيَّة بلون الدُّخان، وكلماتهم: «نُنير الطَّريق».

لايتون هايتاور، صوت البلدة القديمة، سيِّد المرفأ، سيِّد البُرج العالي، حامي القلعة، منارة الجنوب، يُسمَّى **شيخ البلدة القديمة**.

- **الليدي ريا** سليلة عائلة هايتاور، زوجته الرّابعة.

- أكبر أبناء اللورد لايتون ووريثه، **السير بيلور** ولقبه **بيلور البشوش**، زوج روندا روان،
- ابنة اللورد لايتون، **مالورا** ولقبها **العذراء المجنونة**،
- ابنة اللورد لايتون، **آليري**، زوجة اللورد مايس تايرل،
- ابن اللورد لايتون، **السير جارث** ولقبه **الفولاذ الرّمادي**،
- ابنة اللورد لايتون، **دينيس**، زوجة السير دزموند ردواين،
- ابنها، **دينس**، مُرافق،
- ابنة اللورد لايتون، **لايلا**، زوجة السير چون كوپس،
- ابنة اللورد لايتون، **أليسين**، زوجة اللورد آرثر أمبروز،
- ابنة اللورد لايتون، **لينيس**، زوجة اللورد چورا مورمونت، والآن كبيرة محظيّات تريجار أورمولن في لِيس،
- ابن اللورد لايتون، **السير جونثور** زوج چاين فوسواي من فرع عائلة فوسواي الأخضر،
- ابن اللورد لايتون الأصغر، **السير همفري**،
- حمَلة راية اللورد لايتون:
- **تومن كوستاين**، سيِّد الأبراج الثّلاثة،
- **أليسين بولوار** سيِّدة التّاج الأسود، فتاة في الثّامنة،
- **مارتن مالندور** سيِّد الثّجود،
- **وارن بيزبوري**، سيِّد ربوة العسل،
- **برانستون كاي**، سيِّد بهو عبّاد الشّمس،
- أهل البلدة القديمة:
- **إما**، ساقية في الرِّيشة والدّورق، حيث النّساء شبِقات وخمر التّفّاح قويّة للغاية،
- **روزي**، ابنتها، فتاة في الخامسة عشرة ستتكلّف بِكارتها تنينًا ذهبيًا،
- رؤساء المِايسترات في القلعة:
- **المِايستر الرّئيس نورن**، قهرمان العام الحالي، خاتمه وصولجانه وقناعه من معدن الإلكتروم،

- **المِايستر الرّئيس ثيوبولد**، قهرمان العام المقبل، خاتمه وصولجانه وقناعه من الرّصاص،
- **المِايستر الرّئيس إيبرون** المعالج، خاتمه وصولجانه وقناعه من الفضّة،
- **المِايستر الرّئيس ماروين** ولقبه **ماروين المشعوذ**، خاتمه وصولجانه وقناعه من الفولاذ القاليري،
- **المِايستر الرّئيس پيرستان**، المؤرّخ، خاتمه وصولجانه وقناعه من النّحاس،
- **المِايستر الرّئيس ڤايلين** ولقبه **الخل**، الفلكي، خاتمه وصولجانه وقناعه من البرونز،
- **المِايستر الرّئيس ريام**، خاتمه وصولجانه وقناعه من الذّهب الأصفر،
- **المِايستر الرّئيس** والجريف، عجوز تائه العقل، خاتمه وصولجانه وقناعه من الحديد الأسود،
- **جالارد، كاستوس، زارابلو، بنيدكت، جاريزون، نايموس، سيثريس، ويليفر، مولوس، هارودون، جايني، أجريڤان، أوكلي**، كلُّهم رؤساء مِايسترات،
- مِايسترات ومُعاونو ومبتدئو القلعة:
  - **المِايستر جورمون**، يخدم غالبًا في مكان والجريف،
  - **آرمن ويُسمَّى المُعاون**، مُعاون في سلسلته أربع حلقات،
  - **أليراس** ولقبه **أبو الهول**، مُعاون في سلسلته ثلاث حلقات، قوّاس بارع،
  - **روبرت فراي**، في السّادسة عشرة، مُعاون في سلسلته حلقتان،
  - **لوركاس**، مُعاون في سلسلته تسع حلقات، في خدمة القهرمان،
  - **ليو تايرل** ولقبه **ليو الكسول**، مبتدئ من النُّبلاء،
  - **مولاندر** مبتدئ مولود بقدمٍ معوجّة،

- بايت، يعتني بفدفان المايستر الرّئيس والجريف، مبتدئ غير واعد.
- روون، مبتدئ صغير.

عائلة لانستر



يبقى آل لانستر أولاد كاسترلي روك أقوى المؤيِّدين لدعوى الملك تومن للعرش الحديدي، ويأتي نَسبهم من جهة الإناث من لان الأريب، المحتال الذي عاش في عصر الأبطال، وقد جعلَهم ذهب كاسترلي روك والنّاب الذّهبي أثرى العائلات الكُبرى.

راية آل لانستر عبارة عن أسدٍ ذهبي على خلفيّةٍ قرمزيّة، وكلماتهم: «اسمعوا زئيري».

(تايوين لانستر)، سيِّد كاسترلي روك، حامي لانسپورت، حاكم الغرب، يد الملك، قتلَه ابنه القزم في مرحاضه.

- أولاد اللورد تايوين:
  - **سرسي**، توأمة چايمي، الآن سيِّدة كاسترلي روك.
  - **چايمي**، توأم سرسي ولقبه **قاتِل الملك**.
  - **تيريون** ولقبه **العِفريت**، قزم وقاتِل أقربين.
- إخوة اللورد تايوين وأولادهم:
  - السير **كيڤان لانستر**، زوج دورنا سليلة عائلة سويفت.
  - **الليدي چنا**، زوجة إمون فراي، الآن سيِّد ريڤرزن.
  - ابن چنا الأكبر، **(السير كليوس فراي)**، زوج چاين سليلة عائلة داري، قتلَه الخارجون عن القانون.

- ابن كليوس الكبير، **السير تايوين فراي** ويُسمَّى **تاي**، الآن وريث ريڤرزن،
- **ابن كليوس الثاني، ويلم فراي**، مُرافق،
- ابن چنا الثاني، **السير لايونل فراي**،
- ابن چنا الثالث، **(تيون فراي)**، قُتِلَ وهو أسير في ريڤرزن،
- ابن چنا الأصغر، **والدر فراي** ولقبه **والدر الأحمر**، وصيف في كاسترلي روك،
- وات ذو الابتسامة البيضاء، مطرب في خدمة الليدي چنا،
- **السير تايجت لانستر**، مات بالجُدري،
- **تايرك**، ابن تايجت، مفقود ويُخشى أنه مات،
- **الليدي إرميساند هايفورد**، زوجة تايرك الطِّفلة،
- **(جيريون لانستر)**، مفقود في البحر،
- **چوي هيل**، ابنة جيريون النَّغلة، فتاة في الحادية عشرة،
- **أهل اللورد تايوين المقرَّبون الآخَرون:**
- **(السير ستافورد لانستر)**، ابن عم اللورد تايوين وأخو زوجته، قُتِلَ في معركة أوكسكروس،
- **سيرينا ومارييل**، ابنتا ستافورد،
- **السير داڤن لانستر**، ابن ستافورد،
- **السير داميون لانستر**، ابن عم، زوج شيرا كهراكهول،
- ابنهما، **السير لوشن**،
- ابنتهما، **لانا**، زوجة آنتاريو چاست،
- **الليدي مارجو**، ابنة عمومة، زوجة اللورد تايتوس پيك،
- **أهل بيت اللورد تايوين في كاسترلي روك:**
- **المِايستر كرايلن**، معالج ومعلِّم ومستشار،
- **ڤايلار**، قائد الحرس،
- **السير بنيدكت بلوم**، قيِّم السِّلاح،

- **وات ذو الابتسامة البيضاء**، مطرب،
- حمَلة راية ومقسمون على الولاء، لوردات الغرب:
- **دامون ماربراند**، سيِّد آشمارك،
- **السير أدام ماربراند**، ابنه ووريثه، قائد حرس المدينة في كينجز لاندنج،
- **رولاند كراكهول**، سيِّد كراكهول،
- أخو رولاند، **(السير برتون)**، قتلَه الخارجون عن القانون،
- ابن رولاند ووريثه، **السير تايبولت**،
- ابن رولاند، **السير لايل** ولقبه **الغفر القوي**،
- ابن رولاند الأصغر، **السير مرلون**،
- **سيباستون فارمان**، سيِّد الجزيرة القصيَّة،
- **جاين**، أخته، زوجة السير جاريث كليفتون،
- **تايتوس براكس**، سيِّد وادي القرون،
- **السير فليمنت براكس**، أخوه ووريثه،
- **كوينتن بانفورت**، سيِّد بانفورت،
- **السير هاريس سويفت**، حمو السير كيفان،
- ابن السير هاريس، **السير ستفون سويفت**،
- ابنة السير ستفون، **چوانا**،
- ابنة السير هاريس، **شيرل**، زوجة السير ملوين سارسفيلد،
- **ريچينارد إسترن**، سيِّد ويندهول،
- **جاون وسترلينج**، سيِّد الجُرف،
- زوجته، **الليدي سيبل** سليلة عائلة سبايسر،
- أخوها، **السير رولف سبايسر**، نُصِّبَ حديثًا سيِّدًا على كاستامير،
- ابن عمِّها، **السير سامويل سبايسر**،
- أولادهما:
- **السير رايْنالد وسترلينج**،

- **چاين**، أرملة روب ستارك.
- **إلينا**، فتاة في الثّانية عشرة.
- **رولام**، صبي في التّاسعة.
- اللورد **سلموند ستاكسبيير**.
- ابنه، **السير ستفون ستاكسبيير**.
- ابنه الثّاني، **السير آلن ستاكسبيير**.
- **تيرانس كنينج**، سيّد كايس.
- **السير كينوس الكايسي**، فارس في خدمته.
- **اللورد آنتاريو چاست**.
- اللورد **روبن مورلاند**.
- **الليدي أليسين ليفورد**.
- **لويس ليدن**، سيّد الوكر العميق.
- **اللورد فيليپ پلوم**.
- أبناؤه، **السير دنيس پلوم**، **السير پيتر پلوم**، **السير هاروين پلوم ولقبه الحجر الصّلب**.
- **اللورد جاريسون پرستر**.
- **السير فورلي پرستر**، ابن عمّه.
- **السير جريجور كليجاين ولقبه الجبل راكب الخيول**.
- **ساندور كليجاين**، أخوه.
- **السير لورنت لورك**، فارس من مُلّاك الأراضي.
- **السير جارث جرينفيلد**، فارس من مُلّاك الأراضي.
- **السير لايموند ڤيكاري**، فارس من مُلّاك الأراضي.
- **السير راينارد روتيجر** فارس من مُلّاك الأراضي.
- **السير مانفريد ياو**، فارس من مُلّاك الأراضي.
- **السير تايبولت هيذرسبون**، فارس من مُلّاك الأراضي.
- **(ميلارا هيذرسپون)**، ابنته، غرقت في بئرٍ وهي ربيبة في كاسترلي روك.

عائلة مارتل



كانت دورن آخِر الممالك السّبع التي أقسمت على الولاء للعرش الحديدي. يُميّز النّسب والعادات والتّاريخ الدورنيّين عن سائر الممالك الأخرى، وحين اندلعت حرب الملوك الخمسة لم تُشارِك دورن فيها. بَعد خطبة مارسلا باراثيون للأمير تريستان أعلنت صنسبير تأييدها الملك جوفري واستدعت راياتها.

راية عائلة مارتل عبارة عن شمس حمراء تخترقها حربة ذهبيّة، وكلماتهم «لا ننحني، لا نخضع، لا ننكسر».

دوران نايميروس مارتل، سيّد صنسبير، أمير دورن،

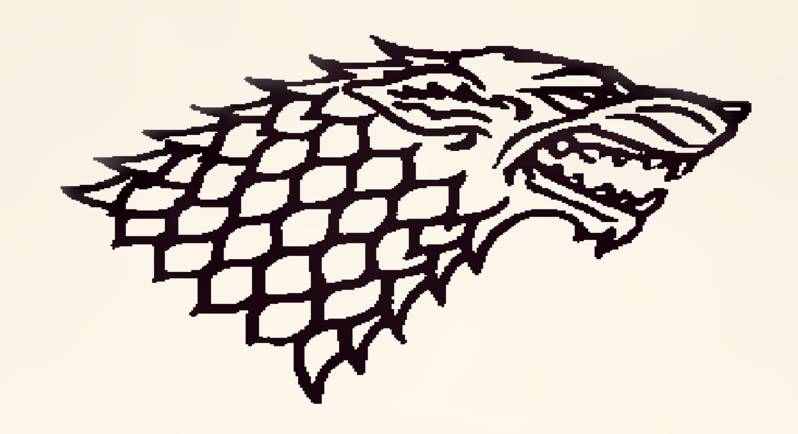
- زوجته، **ميلاريو**، من مدينة نورفوس الحُرّة،
- أولادهما:
  - **الأميرة آريان**، وريثة صنسبير،
  - **جارين**، أخو آريان في الرّضاعة، من أيتام الدّم الأخضر،
  - **الأمير كوينتن**، فارس مستجد، ربيب منذ الطُّفولة للورد يرونوود سيّد يرونوود،
  - **الأمير تريستان**، خطيب مارسلا باراثيون،
- أخوا الأمير دوران:
  - **(الأميرة إليا)**، اغتُصِبَت وقُتِلَت خلال نهب كينجز لاندنج،

- (ريينس تارجاريَن)، ابنتها الصّغيرة، قُتِلَت خلال نهب كينجز لاندنج،
- (إجون تارجاريَن)، رضيع، قُتِلَت خلال نهب كينجز لاندنج،
- (الأمير أوبرين) ولقبه الأفعوان الأحمر، قتلَه السير جريجور كليجاين في محاكَمةٍ بالنّزال،
- إلاريا ساند، خليلة الأمير أوبرين، ابنة اللورد هارمن أولر الطّبيعيّة،
- أفاعي الرّمال، بنات أوبرين النّغلات:
- أوبارا، في الثّامنة والعشرين، ابنة أوبرين من عاهرة في البلدة القديمة،
- نايميريا ولقبها الليدي نيم، في الخامسة والعشرين، ابنة أوبرين من امرأةٍ نبيلة من ڤولانتيس،
- تايين، في الثّالثة والعشرين، ابنة أوبرين من سِيتة،
- ساريلا، في التّاسعة عشرة، ابنته من تاجرة، رُبّان قُبلة الرّيش،
- إليا، في الرّابعة عشرة، ابنته من إليا ساند،
- أوبلا، في الثّانية عشرة، ابنته من إليا ساند،
- دوريا، في الثّامنة، ابنته من إليا ساند،
- لوريزا، في السّادسة، ابنته من إليا ساند،
- بلاط الأمير دوران في الحدائق المائيّة:
- آريو هوتا، من نورڤوس، قائد الحرس،
- المِايستر كاليوت، مستشار ومعالج ومعلّم،
- نحو ستّين من الأطفال من علية القوم والعامّة، أبناء وبنات لوردات وفرسان وأيتام وتُجّار وحرفيّين وفلّاحين، أربّاؤه،
- بلاط الأمير دوران في صنسبير:
- الأميرة مارسلا باراثيون، ربيبته، خطيبة الأمير تريستان،

- **السير آريس أوكهارت**، حارس مارسلا الشّخصي،
- **روزاموند لانستر**، رفيقة فِراش مارسلا ووصيفتها، ابنة عمومة بعيدة،
- **السّپتة إجلانتين**،
- **المِايستر مايلز**، مستشار ومعالج ومعلّم،
- **ريكاسو**، قهرمان صنسپير، عجوز كفيف،
- **السير مانفري مارتل**، أمين القلعة في صنسپير،
- **الليدي آليس ليديبرايت**، اللورد الخازن،
- **السير جاسكوين** ابن الدّم الأخضر، حارس الأمير تريستان الشّخصي،
- **بورس وتيموث**، خادمان في صنسپير،
- **بيلاندرا وسِدرا** والأختان **مورا وميلي**، خادمات في صنسپير،
- حمَلة راية الأمير دوران، لوردات دورن:
- **آندرز يرونوود**، سيّد يرونوود، حاكم الطّريق الحجري، صاحِب الدّم الملكي،
- **السير كليتوس**، ابنه، معروف بعينه الكسول،
- **المِايستر كِدري**، معالج ومستشار ومعلّم،
- **هارمن أولر**، سيّد هضبة الجحيم،
- **إلاريا ساند**، ابنته الطّبيعيّة،
- **السير أولويك أولر**، أخوه،
- **ديلون أليريون**، سيّدة عطيّة الآلهة،
- **السير ريون**، ابنه ووريثه،
- **السير ديمون ساند**، ابن ريون الطّبيعي، نغل عطيّة الآلهة،
- **داجوس مانوودي**، سيّد مقبرة الملك،
- **مورس وديكون**، ابناه،
- **السير مايلز** أخوه،

- **لارا بلاكمونت**، سيّدة بلاكمونت،
- **چينيسا**، ابنتها ووريثتها،
- **پيروس**، ابنها، مُرافق،
- **نايملا**، سيّدة تل الأشباح،
- **كوينتن كورجايل**، ابن حجر الرّمل،
- **السير چوليان**، ابنه الأكبر ووريثه،
- **السير أرون**، ابنه الثّاني،
- **السير ديزيل دالت**، فارس غابة اللّيمون،
- **السير آندراي**، أخوه ووريثه ويُسمّى دراي،
- **فرانكلين فاولر**، سيّد قلعة الشّماء، لقبه **الصّقر العجوز** حاكم ممر الأمير،
- **چاين وچينيلين**، ابنتاه التّوأم،
- **السير سايمون سانتاجار**، فارس الغابة الرّقطاء،
- **سيلڤا**، ابنته ووريثته، تُسمّى **سيلڤا الرّقطاء** بسبب نمشها،
- **إدريك داين**، سيّد ستارفول، مُرافق،
- **السير چيرولد داين** ولقبه **النّجم المظلم**، فارس الصّومعة العالية، ابن عمّه وحامل رايته،
- **تريبور چورداين**، سيّد الرّبوة،
- **ميريا**، ابنته ووريثته،
- **تريموند جارجالن**، سيّد ساحل الملح،
- **دايرون ڤايث**، سيّد الكُثبان الحمراء.

عائلة ستارك



يعود نَسب آل ستارك إلى براندون البنّاء وملوك الشّتاء القُدامى، ولآلاف السّنين حكَموا من مقرّهم في وينترفل كملوكٍ في الشّمال، إلى أن اختارَ تورين ستارك -الملك الذي ركعَ- أن يُقسِم على الولاء لإجون التنّين بدلًا من مُواجهته في المعركة.

حين أعدمَ الملك چوفري اللورد إدارد ستارك تخلّى الشّماليّون عن ولائهم للعرش الحديدي وأعلنوا روب ابن اللورد إدارد ملكًا في الشّمال، وخلال حرب الملوك الخمسة انتصرَ روب في كلّ معاركه، لكن آل فراي وآل بولتون خانوه واغتالوه في التّوأمتين في زفاف خاله.

راية آل ستارك عبارة عن ذِئب رهيب رمادي على خلفيّة بيضاء ثلجيّة، وكلماتهم: «الشّتاء قادم».

(روب ستارك)، الملك في الشّمال، ملك الثّالوث، سيّد وينترفل، أكبر أبناء اللورد إدارد ستارك والليدي كاتلين سليلة عائلة تَلي، شاب في السّادسة عشرة يُسمّى **الذِّئب الصّغير**، اغتيلَ في الزّفاف الأحمر.

- **(جراي ويند)**، ذئبه الرّهيب، قُتِلَ في الزّفاف الأحمر.

- إخوته الأشقّاء:

- **سانزا**، أخته، زوجة تيريون لانستر،

- **(ليدي)**، ذئبتها الرّهيبة، قُتِلَت في قلعة داري،
- **آريا**، فتاة في الحادية عشرة، مفقودة ويُعتقَد أنها ماتت،
- **نايميريا**، ذئبتها الرّهيبة، تجوب أراضي النّهر،
- **براندون ويُسمَّى بران**، طفل مُعاق في التّاسعة، وريث وينترفل، يُعتقَد أنه مات،
- **سمر**، ذئبه الرّهيب،
- رفاق بران وحماته:
- **ميرا ريد**، فتاة في السّادسة عشرة، ابنة اللورد هاولاند ريد سيِّد قلعة المياه الرّماديّة،
- **جوجن ريد**، أخوها، في الثّالثة عشرة،
- **هودور**، عامل اسطبل بسيط العقل، طوله سبعة أقدام،
- **ريكون**، طفل في الرّابعة، يُعتقَد أنه مات،
- **شاجيدوج**، ذئبه الرّهيب، أسود وشرس،
- رفيقة ريكون، **أوشا**، همجيّة أسيرة سابقة في وينترفل،
- أخوه النّغل غير الشّقيق، **جون سنو**، أخ في حرس اللّيل،
- **جوست**، ذئب جون الرّهيب، أبيض وصامت،
- المقسمون لروب على الولاء:
- **(دونل لوك، أوين نوري، داسي مورمونت، السير وندل ماندرلي، روبن فلينت)**، قُتِلوا في الزّفاف الأحمر،
- **هالس مولين**، قائد الحرس، ينقل رُفات اللورد إدارد ستارك إلى وينترفل،
- **جاكس، كوينت، شاد**، حرس،
- أعمام وأخوال روب:
- **بنجن ستارك**، أصغر أعمامه، فُقِدَ في جولةٍ وراء الجِدار ويُعتقَد أنه مات،
- **(لايسا آرن)**، خالته، سيِّدة العُش، زوجة اللورد جون آرن، ماتت سقوطًا من علٍ،

- ابنهما، **روبرت آرن**، سيِّد الغش وحامي الوادي، صبي سقيم،
- **إدميور تَلي**، سيِّد ريڤررَن، خاله، أسِرَ في الزِّفاف الأحمر،
- **الليدي روزلين** سليلة عائلة فراي، عروس إدميور،
- **السير برايندن** تَلي ولقبه **السَّمكة السَّوداء**، عمّ أمّه، أمين القلعة في ريڤررَن،

- حمَلة راية الذِّئب الصَّغير، لوردات الشَّمال:
- **رووس بولتون**، سيِّد معقل الخوف، المارِق،
- **(دومريك)**، ابنه الشَّرعي ووريثه، ماتَ بمرضٍ في البطن،
- **رامزي بولتون (رامزي سنو سابقًا)**، ابن رووس الطَّبيعي ويُسمَّى **نغل بولتون**، أمين القلعة في معقل الخوف،
- **والدر فراي ووالدر فراي** ويُسمَّيان **والدر الصَّغير ووالدر الكبير**، مُرافقا رامزي،
- **(ريك)**، جُندي معروف برائحته الكريهة، قُتِلَ في أثناء انتحاله شخصيَّة رامزي،
- **«آريا ستارك»**، أسيرة اللورد رووس، فتاة زائفة مخطوبة لرامزي،
- **والتون** ولقبه **ذو السَّاقين الفولاذ**، قائد حرس رووس،
- **بث كاسل، كايرا، تورنيپ، پالا، باندي، شايرا، پالا، العجوز نان**، نسوة من وينترفل أسيرات في معقل الخوف،
- **جون أومبر** ولقبه **جون الكبير**، سيِّد المستوقَد الأخير، أسير في التَّوأمتين،
- **(جون)** ولقبه **جون الصَّغير**، ابن جون الكبير ووريثه، قُتِلَ في الزِّفاف الأحمر،
- **مورس** ولقبه **آكِل الغُراب**، عم جون الكبير، أمين القلعة في المستوقَد الأخير،

- **هوثر** ولقبه **باقِر العاهرة**، عم چون الكبير، أيضًا أمين القلعة في المستوقَد الأخير.
- **(ريكارد كارستارك)**، سيِّد كارهولد، قُطِعَ رأسه لارتكابه الخيانة وقتل الأسرى.
- **(إدارد)**، ابنه، قُتِلَ في الغابة الهامسة.
- **(تورين)**، ابنه، قُتِلَ في الغابة الهامسة.
- **هاريون**، ابنه، أسير في بِركة العذارى.
- **آليس**، ابنة اللورد ريكارد، فتاة في الخامسة عشرة.
- عمّ ريكارد، **أرنولف**، أمين القلعة في كارهولد.
- **جالبارت جلوفر**، سيِّد ربوة الغابة، أعزب.
- **روبت جلوفر** أخوه ووريثه.
- زوجة روبت، **سيبل** سليلة عائلة لوك.
- طفلاهما:
  - **جاون**، صبي في الثالثة.
  - **إرينا**، رضيعة.
- ربيب جالبارت، **لارنس سنو**، ابن (اللورد هالس هورنوود) الطّبيعي، صبي في الثالثة عشرة.
- **هاولاند ريد**، سيِّد قلعة المياه الرّماديّة، من شعب المستنقعات.
- زوجته، **چيانا**، من شعب المستنقعات.
- طفلاهما:
  - **ميرا**، صيّادة شابّة.
  - **چوچن**، صبي موهوب البصيرة الخضراء.
- **وايمان ماندرلي**، سيِّد الميناء الأبيض، شديد البدانة.
- **السير وايليس ماندرلي**، ابنه الأكبر ووريثه، بدين جدًّا، أسير في هارنهال.
- زوجة وايليس، **ليونا** سليلة عائلة وولفيلد.
- **ويْنافريد**، ابنتهما، فتاة في التّاسعة عشرة.

- **وايلا**، ابنتهما، فتاة في الخامسة عشرة.
- **(السير وندل ماندرلي)**، ابنه الثّاني، قُتِلَ في الزّقاق الأحمر.
- **السير مارلون ماندرلي**، ابن عمّه، قائد الحامية في الميناء الأبيض.
- **المايستر تيومور**، مستشار ومعالج ومعلّم.
- **مِج مورمونت**، سيّدة جزيرة الدّببة.
- **(داسي)**، ابنتها الكُبرى ووريثتها، قُتِلَت في الزّقاق الأحمر.
- **أليسين، لايرا، چوريل، ليانا**، بناتها.
- **(چيور مورمونت)**، أخوها، قائد حرس اللّيل، اغتالَه رجاله.
- **السير چورا مورمونت**، ابن اللورد چيور، سيّد جزيرة الدّببة الشّرعي سابقًا، فارس مدان ومنفي.
- **(السير هلمان تولهارت)**، سيّد مربّع تورين، قُتِلَ في وادي الفسق.
- **(بنفريد)**، ابنه ووريثه، قتلَه الحديديّون على السّاحل الحجري.
- **إدارا**، ابنته، أسيرة في مربّع تورين.
- **(ليوبولد)**، أخوه، قُتِلَ في وينترفل.
- زوجة ليوبود، **بيرينا** سليلة عائلة هورنوود، أسيرة في مربّع تورين.
- ابناهما **براندون وبيرين**، أيضًا أسير في مربّع تورين.
- **رودريك ريزويل**، سيّد الغُدران.
- **باربري داستن**، ابنته، سيّدة بلدة الزّوابي، أرملة (اللورد ويلام داستن).
- **هاروود ستاوت**، من أتباعه، لورد صغير من بلدة الزّوابي.

- **(بثاني بولتون)**، ابنته، زوجة اللورد رووس بولتون الثّانية، ماتت بالحمّى،
- **روجر ريزويل، ريكارد ريزويل، رووس ريزويل**، أبناء عمومته وحمَلة رايته المشاكسون،
- **(كلايِ سروين)**، سيّد سروين، قُتِلَ في وينترفل،
- **چونل**، أخته، عذراء في الثّانية والثّلاثين،
- **ليسا فلينت**، سيّدة قلعة الأرملة،
- **أوندرو لوك**، سيّد القلعة العتيقة، عجوز،
- **هيوجو وول ولقبه الدّلو الكبير**، زعيم عشيرته،
- **بارندون نوري ولقبه النوري**، زعيم عشيرته،
- **تورين ليدل ولقبه الليدل**، زعيم عشيرته.

عائلة تَلي



كان اللورد إدمين تَلي سيِّد ريڤرَن من أوائل لوردات النَّهر الذين أقسَموا على الولاء لإجون الفاتِح، وكافأه إجون المظفَّر بتنصيبه حاكمًا على جميع أراضي نهر الثَّالوث.

راية آل تَلي عبارة عن سمكة تروويت فضِّيَّة واثبة على خلفيَّة متموِّجة من الأزرق والأحمر، وكلماتهم: «العائلة، الواجب، الشَّرف».

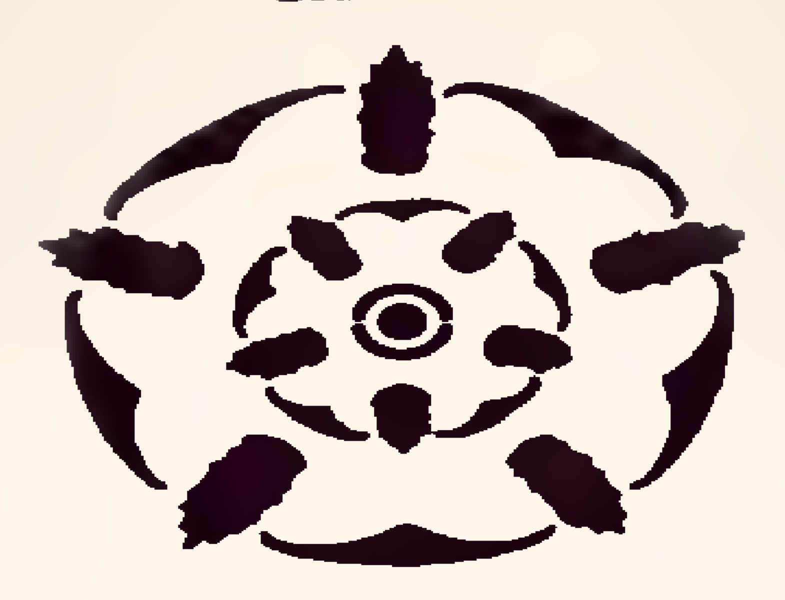
إدميور تَلي، سيِّد ريڤرَن، أُخِذَ أسيرًا في أثناء زفافه وسجين لدى آل فراي.

- **الليدي روزلين** سليلة عائلة فراي، عروس إدميور الشَّابَّة.
- **(الليدي كاتلين ستارك)**، أخته، أرملة اللورد إدارد ستارك سيِّد وينترفل، قُتِلَت في الزِّفاف الأحمر.
- **(الليدي لايسا آرن)**، أخته، أرملة اللورد چون آرن سيِّد الوادي، ماتت مدفوعةً من الغش.
- **السير برايندن تَلي ولقبه السَّمكة السَّوداء**، عمُّ إدميور، أمين القلعة في ريڤرَن.
- **أهل بيت اللورد إدميور في ريڤرَن:**
  - **المايستر ڤايمان**، مستشار ومعالج ومعلِّم.
  - **السير دزموند جرل**، قيِّم السِّلاح.

- **السير روبن رايجر**، قائد الحرس،
- **ليو الطّويل**، إلوود، دِلِب، حرس،
- **أوثيرايدس** واين، وكيل ريفرزن،
- حملة راية إدميور، لوردات التّالوت:
- **تايتوس بلاكوود**، سيّد شجرة الغِدفان،
- **(لوكاس)**، ابنه، قُتِلَ في الزّفاف الأحمر،
- **جونوس براكن**، سيّد السّياج الحجري،
- **جيسون ماليستر**، سيّد سيجارد، سجين في قلعته،
- **باتريك**، ابنه، سجين مع أبيه،
- **السير دينس ماليستر**، عمّ اللورد جيسون، رجل في حرس اللّيل،
- **كليمنت بايبر**، سيّد قلعة العذراء الورديّة،
- ابنه ووريثه، **السير مارك بايبر**، أخِذَ أسيرًا في الزّفاف الأحمر،
- **كاريل ڤانس**، سيّد استراحة عابري السّبيل،
- ابنته الكُبرى ووريثته، **ليان**،
- ابنتاه الصّغيرتان، **ريالنا وإمفيريا**،
- **نوربرت ڤانس**، سيّد أترانتا الأعمى،
- ابنه الأكبر ووريثه، **السير رونالد ڤانس** ولقبه السيّئ،
- أبناؤه الأصغر، **السير هيوجو**، **السير إليري**، **السير كيرث**، **المايستر جون**،
- **ثيومار سمولوود**، سيّد بهو البلّوط،
- زوجته، **الليدي راڤيلا** سليلة عائلة سوان،
- ابنتهما، **كاريلين**،
- **ويليام موتون**، سيّد بِركة العذارى،
- **شيلا وِنت**، سيّدة هارنهال المنخاة،
- **السير ويليس وود**، فارس في خدمتها،
- **السير هالمون بايبر**،

- اللورد لايموند جودبروك.

عائلة تايرل



صعدَ آل تايرل إلى السُلطة كوُكلاء لملوك المرعى، الذين ضمّت أملاكهم السُهول الخصبة في الجنوب الغربي من تخوم دورن والنَّهر الأسود وحتى سواحل بَحر الغروب. يأتي نَسب آل تايرل من جهة الإناث من جارث جرينهاند، ملك البَشر الأوائل البُستاني الذي ارتدى تاجًا من أوراق الشَجر والزُّهور واستغلَّ خصوبة الأرض وزرعَها حتى ازدهرَت، وعندما مات الملك مِرن التاسع -آخِر ملوك عائلة جاردنر- في معركة حقل النيران، سلّم وكيله هارلن تايرل قلعة هايجاردن إلى إجون الفاتِح وأقسمَ له على الولاء، فمنحَه إجون القلعة وحُكم المرعى.

أعلن اللورد مايس تايرل تأييده الملك رنلي في بداية حرب الملوك الخمسة وزوّجه ابنته مارچري، وبَعد موت رنلي تحالفَت هايجاردن مع عائلة لانستر، وخُطِبَت مارچري للملك چوفري.

راية آل تايرل عبارة عن وردةٍ ذهبيَّة على خلفيَّةٍ بلونٍ أخضر كالعُشب، وكلماتهم: «ننمو بقوَّة».

مايس تايرل، سيِّد هايجاردن، حاكم الجَنوب، حافِظ التُّخوم، عاهل المرعى الأعلى،

- زوجته، الليدي أليري، سليلة عائلة هايتاور من البلدة القديمة،

- أبناؤهما:

- **ويلاس**، الابن الأكبر، وريث هايجاردن،
- **السير جارلان**، لقبه الهُمام، الابن الثّاني،
- زوجته، **الليدي ليونيت**، سليلة عائلة فوسواي،
- **السير لوراس**، فارس الزُّهور، الابن الأصغر، أخ محلّف في الحرس الملكي،
- **مارجري**، ابنتهما، فتاة في الرّابعة عشرة من العمر،

- رفيقات مارجري:

- بنات عمومتها **مِجا وآلا وإلينور**،
- خطيب إلينور، **آلن أمبروز**، مُرافِق،
- **الليدي أليسين بولوار**، فتاة في الثّامنة،
- **ميريديث كرين**، تُسمّى **ميري**،
- **تاينا المايريّة**، زوجة اللورد أورتون ميريويذر،
- **الليدي آليس جريسفورد**،
- **الشّيتة نستيريكا**، أخت في العقيدة،
- أمّه الأرملة، **الليدي أولينا**، سليلة عائلة ردواين، لقبها مَلكة الأشواك،

- أختاه:

- **مينا**، زوجة پاكستر ردواين، سيّد الكرمة،

- أولادهما:

- **السير هوراس ردواين**، توأم هوبر، يُسمّى **هورور** سُخريةً،
- **السير هوبر ردواين**، توأم هوراس، يُسمّى **سلوبر** سُخريةً،
- **دسميرا ردواين**، فتاة في السّادسة عشرة،
- **چانا**، زوجة السير چون فوسواي،

- أعمامه وأولادهم:

- أخو أبيه، **جارث**، لقبه **الشّمين**، وكيل هايجاردن،

- ابناه غير الشَّرعيَّين، **جارس وجارت فلاورز**
- **السير مورين**، قائد حرس البلدة القديمة،
- ابن مورين، **(السير لوتون)**، زوج الليدي إلين نوريدج،
- ابن لوتون، **السير ثيودون** زوج الليدي ليا سِري،
- ابنة ثيودون، **إلينور**
- ابن ثيودون، **لوتون** مُرافِق،
- ابن لوتون، **المِايستر مدويك**،
- ابنة لوتون، **أولين**، زوجة السير ليو بلاكبار،
- ابن مورين، **ليو**، لقبه **ليو الكسول**،
- أخو أبيه، **المِايستر جورمون**، دارس في القلعة في البلدة القديمة،
- ابن عمّه، **(السير كوينتن)**، مات في آشفورد،
- ابن كوينتن، **السير أوليمر**، زوج الليدي لايسا ميدوز،
- ابنا أوليمر، **رايموند وريكارد**،
- ابنة أوليمر، **مِجا**،
- ابن عمّه، **المِايستر نورموند**، في خدمة التّاج الأسود،
- ابن عمّه، **(السيرڤيكتور)**، قتلَه الفارس الباسم رجل أخوّة غابة الملوك،
- ابنة ڤيكتور، **ڤيكتاريا**، تزوّجت (اللورد چون بولوار)، ماتت بِحُمّى صيفيّة،
- ابنتهما، **الليدي أليسين بولوار** فتاة في الثّامنة،
- ابن ڤيكتور، **السير ليو**، تزوّج الليدي آليس بيزبوري،
- ابنتا ليو، **آلا وليونا**،
- أبناء ليو، **لايونل ولوكاس ولورنت**،
- أهل بيته في هايجاردن:
- **المِايستر لوميس**، مستشار، مُعالِج، معلّم،
- **إيجون ڤيرويل**، قائد الحرس،
- **السير ڤورتيمر كرين**، قيِّم السّلاح،

- **برميل الزُّبدة**، نكّات ومهرّج مفرط البدانة،

- اللوردات حمَلة رايته:

- **راندل تارلي**، سيّد هورن هيل،
- **پاكستر ردواين**، سيّد الكرمة،
- **أروين أوكهارت**، سيّدة السّنديانة القديمة،
- **ماثيس روان**، سيّد البستان الذّهبي،
- **آلستر فلورنت**، سيّد قلعة المياه الوضّاءة، متمرّد يدعم ستانيس باراثيون،
- **لايتون هايتاور** صوت البلدة القديمة وسيّد المرفأ،
- **أورتون ميريويذر** سيّد الطّاولة الطّويلة،
- **اللورد آرثر أمبروز**.

- فُرسانه والمقيمون له:

- **السير مارك مولندون** شُلّ في معركة النّهر الأسود،
- **السير جون فوسواي**، من فرع التّفّاحة الخضراء من عائلة فوسواي،
- **السير تانتون فوسواي**، من فرع التّفّاحة الحمراء من عائلة فوسواي.

ملحق (٣)

متمرّدون ومجرمون

عوام وإخوة محلّفون

لوردات صغار ومتجوّلون وعاقة

- **السير كرايتون لونجبو والسير إيليفر المفلس**، فارسان متجوّلان وبطلان،
- **هيبالد**، تاجر جبان بخيل،
- **السير شادريك ابن الوادي الظّليل** ولقبه **الفأر المجنون**، فارس متجوّل في خدمة هيبالد،
- **بريان وثُسَقّى عذراء تارث وبريان المليحة**، عذراء في مهمّة،
- **اللورد سلوين نجم المساء**، سيّد تارث، أبوها،
- **(ين بوشي الكبير)، السير هايل هَنت، السير مارك مالندون، السير إدموند أمبروز، (السير ريتشارد فارو)، (ويل اللّقلق)، السير هيو بيزبوري، السير رايموند نايلاند، هاري سوير، السير أوين إنشفيلد، روبن پوتر**، خاطِبو وَدّها السابقون،
- **رينفريد ريكر**، سيّد وادي الغسق،
- **السير روفوس ليك**، فارس بساق واحدة في خدمته، أمين قلعة الثبّة في وادي الغسق،
- **ويليام موتون**، سيّد بِركة العذارى،
- **إلينور** ابنته الكُبرى ووريثته، في الثالثة عشرة،
- **راندل تارلي**، سيّد هورن هيل، يقود قوّات الملك تومن على ضفاف الثالوث،
- **ديكون**، ابنه ووريثه، مُرافق صغير،
- **السير هايل هَنت**، فارس في خدمة عائلة تارلي،

- **السير آلن هنت**، ابن عم السير هايل، أيضًا في خدمة عائلة تارلي،
- **ديك كراب** ولقبه **ديك الزشيق**، من آل كراب أولاد الرّأس المتصدّع،
- **إيوستس برون**، سيّد عرين داير،
- **بينارد برون**، فارس الغور البنّي، ابن عمّه،
- **السير روجر هوج**، فارس قرن الخنزيرة،
- **السّپتون ميريبولد**، سِپتون حافي القدمين،
- كلبه، **كلب**،
- **الأخ الكبير**، من جزيرة الهدوء،
- **الأخ ناربرت**، **الأخ جيلام**، **الأخ راوني**، إخون تائبون على جزيرة الهدوء،
- **السير كوينسي كوكس**، فارس الملّاحات،
- في خان مفترق الطُّرق:
- **چاين هدِل** ولقبها **چاين الفارعة**، فتاة طويلة شابّة في الثّامنة عشرة،
- **ويلو**، أختها، تُعاقِب بالضّرب بالملعقة،
- **تانسي**، **پايت**، **چون پني**، **بن**، أيتام في الخان،
- **جندري**، صبي حدّاد وابن غير شرعي للملك روبرت باراثيون الأول، يجهل أصله،
- في هارنهال:
- **رافورد** ولقبه **راف المعسول**، فم الخراء، دانسن، من رجال الحامية،
- **بن ذو الإبهام الأسود**، حدّاد وصانع سلاح،
- **پيا**، خادمة كانت حسناء،
- **المِايستر چوليان**، معالج ومعلّم ومستشار،
- في داري:

- **الليدي آميري فراي ولقبها آمي البوّابة**، أرملة شهوانيّة شابّة مخطوبة للانسل لانستر،
- أم الليدي آميري، **الليدي ماريا** سليلة عائلة داري، أرملة ميريت فراي،
- أخت الليدي آميري، **ماريسا**، فتاة في الثّالثة عشرة،
- **السير هاروين پلوم ولقبه الحجر الصّلب**، قائد الحامية،
- **المايستر أوتومور** معالج ومعلّم ومستشار،
- في خان الرّجل الرّاكع:
- **شارنا**، صاحِبة الخان، طاهية وقابلة،
- **زوجها** وتُسمّيه زوجي،
- **الصّبي**، من يتامى الحرب،
- **هوت پاي**، ابن خبّاز يتيم.

خارجون عن القانون ورجال مكسورون

(بريك دونداريون)، سيّد المرفأ الأسود السّابق، قُتِلَ ستّ مرّات،
- **إدريك داين**، سيّد ستارفول، صبي في الثّانية عشرة، مُرافق اللورد بريك،
- **القنّاص المجنون** من السّيت الحجري، حليفه أحيانًا،
- **ذو اللّحية الخضراء**، مرتزِق تايروشي، صديقه غير الموثوق به،
- **آنجاي القوّاس**، رامٍ من تُخوم دورن،
- **ميريت ابن بلدة القمر**، **واتي الطّحّان**، **مِج** فتاة المستنقعات، **جون ابن قرية نوتن**، خارجون عن القانون في جماعته،

الليدي قلب الحجر امرأة تُخفي ملامحها، تُسمّى أحيانًا أم القسوة والأخت الصّامتة والشّناقة،
- **ليم** ويُسمّى **ليم ذو المعطف اللّيموني**، جُندي سابق،
- **ثوروس المايري**، راهب أحمر،

- **هاروين**، الشّمالي ابن هالن، خدمَ اللورد إدارد ستارك سيِّد وينترفل سابقًا.
- **جاك المحظوظ**، رجل مطلوب، تنقصه عين.
- **توم ابن الجداول السّبعة**، مطرب سيِّئ السّمعة، لقبه **توم سبعة أوتار وتوم أبو السّبعات**.
- **لوك الزّاجح، نوتش، مودج، ديك الحليق**، خارجون عن القانون.

ساندور كليجاين ولقبه **كلب الصّيد**، حارس الملك جوفري الشّخصي سابقًا، ثم أخ محلّف في الحرس الملكي، شوهِدَ آخِر مرّةٍ محمومًا يُحتضَر على ضفّة الثّالوث.

(ڤارجو هوت)، من مدينة كُوهور الحُرّة، لقبه **الكبش**، قائد مرتزِقة ألعغ، قتلَه السير جريجور كليجاين في هارنهال.

- رجاله في رِفقة الشُّجعان، جماعة المرتزِقة المعروفة أيضًا باسم الممثّلين السّفّاحين:
- **أورزويك** ولقبه **الوفي**، نائبه.
- **(الشيپتون أوت)**، شنقَه اللورد بريك دونداريون.
- **تيميون الدورني، زولو السّمين، رورج، العضّاض، پيج، شاجويل المهرِّج، توج جوث الإيبنيزي**، مشتّتون وهاربون.
- في ماخور الثّفّاحة في السّيت الحجري:
- **تانسي**، مالكة المكان حمراء الشّعر.
- **آليس، كاس، لانا، جايزين، هيلي، بلّا**، بعض خوخاتها.
- في بهو البلّوط، مقر عائلة سمولوود:
- **الليدي راڤيلا**، من عائلة سوان سابقًا، زوجة اللورد ثيومار سمولوود.
- هنا وهناك:

- اللورد لايموند لايتشستر، رجل مسنٌ خَفَّ عقله، هزمَ السير ماينارد عند الجسر ذات مرّة،
- وكيله الشّاب، المِايستر روون،
- شبح القلب العالي،
- سيّدة الأوراق،
- السّبتون في ساليدانس.

إخوة حَرس اللَّيل المحلَّفون

جون سنو، نغل وينترفل، قائد حَرس اللَّيل الثَّامن والتِّسعون بَعد التِّسعمئة،

- **جوست،** ذئبه الرَّهيب الأبيض،
- وكيله، **إديسون توليت** ولقبه إد الكئيب،

رجال القلعة السَّوداء:

- **بنچن ستارك،** الجوَّال الأول، مفقود منذ فترةٍ طويلة ويُعتقَد أنه مات،
- **السير وينتون ستاوت،** جوَّال مسن تائه العقل،
- **كِدج ذو العين البيضاء، بدويك ولقبه العملاق، ماثار، دايوين، جارث جرايفيذر، أولمر ابن غابة الملوك، إلرون، پايپر ويُسمَّى پيپ، جرن ولقبه الثَّور، برنار ويُسمَّى برنار الأسود، جودي، تيم ستون، چاك بولوار الأسود، جيوف ولقبه السِّنجاب، بن الملتحي، جوَّالة،**
- **باون مارش،** قيِّم الوُكلاء،
- **هوب ذو الثَّلاثة أصابع،** وكيل وكبير الطُّهاة،
- **(دونال نوي)،** حدَّاد وصانع سلاح بذراعٍ واحدة، قتلَه ماج الجبَّار عند البوَّابة،
- **أوين ولقبه الجحش، تيم الفتهته، كوچن، دونل هيل ولقبه دونل المرح، ليو الأعسر، چيرن، ويك المهزول،** وُكلاء،
- **أوثيل ياروِيك،** البنَّاء الأول،
- **ذو النَّعل الواحد، هالدر آلبت، كِجز** بنَّائون،
- **كونواي وجورن،** مجنِّدان متجوِّلان،
- **السِّپتون سلادور** رجل دين سكِّير،
- **السير أليسر ثورن،** قيِّم السِّلاح السَّابق،

- **اللورد جانوس سلينت**، قائد حرس المدينة السّابق في كينجز لاندنج، سيّد هارنهال لفترةٍ وجيزة،
- **المِايستر إيمون (تارجارِيَن)**، معالج ومستشار، عجوز كفيف في المئة والاثنين من العُمر،
- وكيل إيمون، **كلايداس**،
- وكيل إيمون، **ساموِيل تارلي**، بدين ومحب للقراءة،
- **إميت الحديدي**، من رجال القلعة الشّرقيّة سابقًا، قيّم السّلاح،
- **هارث** ولقبه **الجواد**، التّوأمان **أرون** و**إمريك**، **ساتان**، **روبن النّطّاط**، مجنّدون تحت التّدريب،

رجال بُرج الظّلال:

- **السير دينس ماليستر**، قائد القلعة،
- وكيله ومرافقه، **والاس ماسي**،
- **المِايستر مولين**، معالج ومستشار،
- **(كورين ذو النّصف يد)**، كبير الجوّالة، قتلَه جون سنو وراء الجدار،

- إخوان بُرج الظّلال:

- **(المرافق دالبريدج، إيجن)**، مُرافقان، قُتِلا في الممر الصّادح،
- **ثُعبان الحجر** جوّال، مفقود في الممر الصّادح،

رجال القلعة الشّرقيّة على البحر،

- **كوتر بايك**، قائد القلعة،
- **المِايستر هارميون**، معالج ومستشار،
- **ذو الأسمال المالحة العجوز** رُبّان الطّائر الأسود،
- **السير جلندون هيويت**، قيّم السّلاح،

- إخوان القلعة الشّرقيّة:

- **داريون**، وكيل ومطرب،

في قلعة كراستر (الخونة):

- ديرك، الذي قتلَ مضيفه كراستر،
- أولو الأبتر، الذي قتلَ قائده اللورد مورمونت،
- جارث جرينواي، ماوني، جروبن، آلان ابن روزبي، جوَّالة سابقون،
- كارل ذو القدم المعوجَّة، أوس اليتيم، بيل المُتمتم، وكلاء سابقون.

الهمج

أو شعب الأحرار

مانس رايدر ملك ما وراء الجدار، أسير في القلعة السّوداء،

- **(دالا)**، زوجته، ماتت في أثناء الوضع،

- ابنهما حديث الولادة، وليد المعركة، بلا اسم بعدُ،

- **ڤال**، أخت دالا الصّغيرة، «الأميرة الهمجيّة»، أسيرة في القلعة السّوداء،

- زُعماء الهمج وقادتهم:

- **(هارما)** ولقبها **رأس الكلب**، قُتِلَت عند الجِدار،

- **هاليك**، أخوها،

- **سيّد العظام** ولقبه **ذو القميص المُخشخِش** سُخريةً، قائد فرقةٍ حربيّة، أسير في القلعة السّوداء،

- **(إيجريت)**، زوجة حربة شابّة، حبيبة چون سنو، قُتِلَت خلال الهجوم على القلعة السّوداء،

- **رايك**، لقبه **ذو الحربة الطّويلة**، من فرقته،

- **راجوايل**، **لاينل**، من فرقته،

- **(ستير)**، ماجنَر ثِن، قُتِلَ خلال الهجوم على القلعة السّوداء،

- **سيجورن**، ابن ستير، ماجنَر ثِن الجديد،

- **تورموند**، ملك الپِتع في البهو القاني، ألقابه **بليّة العماليق**، **المِهذار** **نافخ البوق**، **وكاسر الجليد**، وأيضًا **قبضة الرّعد**، **زوج الدّببة**، **كليم الآلهة**، **وأبو الجيوش**،

- أبناؤه، **توريچ الطّويل**، **توروِيند المروّض**، **دورموند**، **درين**، وابنته، **موندا**،

- **(أورل** ولقبه **أورل النّسر)**، مبدِّل جِلدة قتلَه چون سنو في الممر الصّادح،

- **ماج مار تون دوه ويج**، لقبه **ماج الجبّار** ملك العمالقة،
- **ڤاراميِر**، لقبه **سِت جلود**، سيِّد لثلاثة ذئاب وقِطّ ظِلٍّ وذِبّ ثلوج،
- **البكّاء**، مُغير وقائد فرقة حربيَّة،
- **(ألفين قاتِل الغِربان)**، قتلَه كورين ذو النّصف يد رجل حرس اللَّيل،
- **(چارل)**، مُغير شاب، حبيب ڤال، مات سقوطًا من على الجِدار،
- **جريج التَّيس**، **إروك**، **كورت**، **بودچر**، **دِل**، **بثرة الكبير**، **دان القنَّبي**، **هِنك ذو الذُّقَّة**، **لِن**، **توفينجر**، **ذو الإبهام الحجري**، **هجّانة**،

(كراستر)، سيِّد قلعة كراستر الذي لا يركع لأحد،
- **جيلي**، ابنته وزوجته،
- ابنها حديث الولادة، بلا اسمٍ بعد،
- **ديا**، **فيرني**، **نِلا**، ثلاث من زوجاته التِّسع عشرة.

ملحق (٤)

وراء البحر الضيّق

الملكة وراء البحر



دنيرس تارجارين الأولى، كاليسي الدوثراكي، تُسمَّى **دنيرس وليدة العاصفة، التي لم تحترق، أم التنانين**، آخِر من تبقَّى من أولاد الملك إيرس تارجارين الثاني وأرملة الدوثراكي كال دروجو.

- تنانينها الثلاثة: **دروجون، فسيريون، ريجال**.
- حرسها الملكي:
- **السير چورا مورمونت**، سيِّد جزيرة الدِّببة السابق، منفي لإتجاره بالرَّقيق.
- **چوجو**، كو وخيَّال دم، السوط.
- **آجو**، كو وخيَّال دم، القوس.
- **راكارو**، كو وخيَّال دم، الأراخ.
- **بلواس القوي**، عبد خصيّ سابق في حلبات القتال بميرين.
- مُرافِقه المسنّ، **آرستان**، لقبه **ذو اللِّحية البيضاء**، رجل من وستروس.
- وصيفتاها:

- **إيري**، فتاة من الدوثراكي، في الرّابعة عشرة.
- **چيكوي**، فتاة من الدوثراكي، في الخامسة عشرة.
- **جروليو**، رُبّان الكوج العظيم بالريون، ملّاح في خدمة إليريو موپاتيس.
- أهلها الرّاحلون:
- **(ريجار)**، أخوها، أمير دراجونستون ووريث العرش الحديدي، قتلَه روبرت باراثيون في معركة الثّالوث.
- **(ريينس)**، ابنة ريجار من إليا الدورنيّة، قُتِلَت خلال نهب كينجز لاندنج.
- **(إجون)**، ابن ريجار من إليا الدورنيّة، قُتِلَ خلال نهب كينجز لاندنج.
- **(ڤسيرس)**، سمّى نفسه الملك ڤسيرس الثّالث، لقبه **الملك الشحّاذ**، قُتِلَ في ڤايس دوثراك على يد كال دروجو.
- **(دروجو)**، زوجها، كال الدوثراكي العظيم، لم يُهزَم قطّ في معركة، مات متأثّرًا بجرح.
- **(ريجو)**، ابن دنيرس وكال دروجو الجهيض، قُتِلَ في الرّحم على يد ميري ماز دور.
- أعداؤها المعروفون:
- **كال پونو**، كو دروجو السّابق.
- **كال چهاكو**، كو دروجو السّابق.
- **ماجو**، خيّال دمه.
- **خالدو ڠارث**، جماعة من الدّجّالين.
- **پيات پري**، دجّال ڠارثيني.
- **الرّجال الأسفون**، جماعة من المغتالين الڠارثينيّين.
- تحالُفاتها غير المضمونة في الماضي والحاضر:
- **زارو زون داكسوس**، أمير تاجر من ڠارث.
- **كويث**، آسرة ظلال مقنّعة من آشاي.

- **إليريو موپاتيس**، ماجستر من مدينة پنتوس الحُرّة، رتَّب زواج دنيرس بكال دروجو،
- في أستاپور:
- **كرازنس مو نوكلون** تاجر رقيق ثري،
- أمته، **ميسانداي**، فتاة في العاشرة، من شعب ناث المسالم،
- **جرازدان مو أولهور** تاجر رقيق عجوز فاحش الثّراء،
- عبده، **كليون**، جزّار وطبّاخ،
- **الدُّودة الرّمادي**، خصيّ من المطهّرين،
- في يونكاي:
- **جرازدان مو إراز** مبعوث ونبيل،
- **ميرو البراڤوسي**، لقبه **نغل المارد**، قائد الأبناء الثّانين، جماعة حُرّة،
- **بن پلوم البنّي**، رقيب في الأبناء الثّانين، مرتزق مختلط النّسب،
- **پرندال نا غِزن**، مرتزق جيسكاري، قائد غِربان العاصفة، جماعة حُرّة،
- **سالور الأصلع**، مرتزق كارثيني، قائد غِربان العاصفة،
- **داريو نهاريس**، مرتزق تايروشي مبهرَج، قائد غِربان العاصفة،
- في ميرين:
- **أوزناك زو پال**، بطل من المدينة.

تسري دماء التنّين في عروق آل تارجارين الذين ينحدرون من كبار لوردات معقل ڤاليريا الحُر القديم، ويتبدّى ميراثهم في جمالهم الأخّاذ (الذي يقول بعض الناس إنه غير بَشري)، والأعيُن ذات اللّون الأرجواني أو النّيلجي أو البنفسجي، والشّعر الذّهبي الفضّي أو الأبيض كالپلاتين. فَرَّ أسلاف إجون التنيّن من هلاك ڤاليريا والفوضى والمذابح التي تبعَته واستقرّوا في دراجونستون، الجزيرة الصّخريّة الواقعة في البحر الضيّق، ومن هناك أبحرَ إجون مع أختيه لغزو الممالك السّبع. للحفاظ على الدّم المَلكي وصيانة نقائه، غالباً ما اتّبع آل تارجارين التقّليد الڤاليري القديم وزوّجوا الأخ أخته، وقد تزوّج إجون نفسه أختيه وأنجبَ أبناءً من كلتيهما.

راية آل تارجارين عبارة عن تنّين أحمر ذي ثلاثة رؤوس -يَرمز لإجون وأختيه- على خلفيّة سوداء، وكلماتهم: «النّار والدّم».

في براقوس

فيريجو آنتاريون، أمير بحر براقوس،

- **كارو ڤولنتين**، مُبارز براقوس الأول، حارسه،
- **بيليجير أوثيريس** ولقبها **اللؤلؤة السوداء**، محظيّة من سلالة الملكة القرصانة ذات الاسم نفسه،
- **الليدي الملثّمة، ملكة البحار ظِلُّ القمر ابنة الغسق، العندليب، الشّاعرة**، محظيّات شهيرات،
- **ترنيسيو تيريس**، الرُّبّان التّاجر مالك القاليون ابنة المارد،
- **يوركو ودينيو**، ابناه،
- **موريدو پرستاين**، الرُّبّان التّاجر مالك الثّعلبة،
- **لوثو لورنل**، تاجر كُتب ومخطوطات قديمة،
- **إزيلينو**، راهب أحمر سكّير،
- **الشيتون إيوستس**، معزول ومطرود،
- **تيرو وأوربيلو**، مُبارزا براقو،
- **بِكو الضّرير**، تاجر أسماك،
- **بروسكو**، تاجر أسماك،
- ابنتاه، **تاليا وبريا**،
- **ميرالين وثسفي مِري**، مالكة الميناء التّعيس، ماخور قُرب ميناء راجمان،
- **زوجة البحّار** عاهرة في الميناء التّعيس،
- **لانا**، ابنتها، عاهرة صغيرة،
- **بتاني الخجول، يانا العوراء، آسادورا الإيبنيزيّة**، من عاهرات الميناء التّعيس،
- **روجو الأحمر، جايلورو دوتار جايلينو دوتار** مؤلّف يُدعى **كويل، كوزومو الحاوي**، من مُرتادي الميناء التّعيس،

- **تاجانارو**، نشّال ولص في الميناء،
- **كاسو**، ملك الفقمات، كلب بحر مدرّب،
- **ناربو الصّغير**، شريكه أحيانًا،
- **ميرملو، چوس المكتئب، كوينس، آلاكو، سلوي**، ممثلون يعملون كلّ ليلة في السّفينة،
- **سقرون**، عاهرة قاتلة،
- **الابنة الشكّيرة**، عاهرة متقلّبة المزاج،
- **چاين القُرحة**، عاهرة غير موثوق بجنسها،
- **الرّجل الطيّب، اللّقيطة**، خادمان للإله عديد الوجوه في دار الأبيض والأسود،
- **أوما**، طاهية المعبد،
- **الرّجل الوسيم، الرّجل البدين، اللورد الصّغير، ذو الوجه الصّارم، ضيّق العينين، الرّجل المهزول**، خدم سرّيّون لذي الوجوه العديدة،
- **آريا سليلة عائلة ستارك**، فتاة تحمل غملةً من الحديد، معروفة أيضًا بأسماء **آري ونان وبنت عرس والكتكوت ومِلحة وكات**،
- **كاهورو مو**، من بلدة الأشجار الطّويلة في جُزر الصّيف، رُبّان ريح القرفة،
- **كوچا مو**، ابنته، رامية حمراء،
- **زوندو دورو**، وكيل رُبّان على متن ريح القرفة.

شكر وتقدير

كان هذا الكتاب مصيبةً.

مرّةً أخرى أتوجّهُ بشكري وتقديري إلى صاحِبات الأنفس الشُّجاعة، محرّراتي: نيتا توبليب وجوي تشامبرلين وجين جونسون، وبالذّات آن لزلي جرويل لنصائحها وروحها المرحة وصبرها البالغ.

الشُّكر أيضًا لقرّائي على رسائلهم اللّطيفة المشجِّعة، وعلى صبرهم كذلك. أحيّي بشكلٍ خاص كلًّا من لودي ذي القبضات الثّلاث، وپود الأرنب الشّيطاني، وتريبلا وداج الملكين التّافهين، وكارس العذبة بنت الجِدار، ولانستر قاتِل السّناجب، وبقيّة أخوَة اللا رايات، تلك الرُّفقة السّكّيرة شِبه المجنونة من الفُرسان الشُّجعان والليديهات الجميلات، الذين يُقيمون أفضل الحفلات خلال المهرجان العالمي للخيال العلمي عامًا بَعد عامٍ بَعد عام.

ودعوني أطلقُ النّفير أيضًا لإليو وليندا اللذين يبدو أنهما يعرفان الممالك السّبع أفضل مما أعرفها ويُساعِدانني على اتّساق التّفاصيل. إن موقعهما وفهرسهما عن وستروس مسرّة وأعجوبة.

وشكرًا إلى والتر جون ويليامز على قيادتي عبر بحارٍ أكثر ملوحةً، وساج ووكر على القلق والخمْر والعظام المكسورة، وپاتي نيجل على الـ«HTML» وتدوير الثّروس ونشر أخباري بسُرعة، وإلى ميلندا سنودجراس ودانييل إبراهام لخدماتهما التي تعدّت حدود الواجب. إنني لا أتقدّمُ إلّا بالقليل من العون من أصدقائي.

ولا كلمات تُوفّي حقَّ پاريس التي كانت موجودةً في الأيام الجيّدة والسيّئة ومع كلّ صفحة. كلُّ ما يُمكن أن يُقال إنني لم أكن لأستطيع غناء هذه الأغنيّة من دونها.

كلمة المترجم

قد يبدو غريبًا أن تجد كلمة المترجم في نهاية الكتاب لا بدايته، لكن هذا الجزء من السلسلة غير معتاد في حدّ ذاته، ولمّا كانت هناك معلومات عن الرّواية ربما يرغب القارئ العربي في معرفتها، فقد وجدت أن إيرادها في البداية سيحرق عددًا من الأحداث ويفسد ما ارتأى المؤلّف أن يتركه للنّهاية، وهكذا فضّلت أن أذكرها هنا لمن يُريد الاطّلاع عليها بعد الفروغ من قراءة النّص.

يقول چورچ ر. ر. مارتن إن الكتّاب في رأيه نوعان؛ الأول يُشبّهه بالمهندس المعماري حين يُخطّط لكلّ شيءٍ مسبقًا قبل الشّروع في بناء المنزل، فيعرف كم غُرفةً سيضمّ وطراز السّطح وأماكن الأسلاك والمواسير في الجدران، أي أن هناك تصميمًا كاملًا للبناء كلّه قبل أن تُصبّ الأساسات ويُدقّ أول مسمار. النّوع الثّاني هو البُستاني الذي يَحفر في الأرض حُفرةً ويغرس فيها بذرةً ويسقيها عالمًا نوعها وما إن كانت بذرة فانتازيا أم غموض أم غيرهما، لكن مع بروز النّبتة من التّربة واستمراره في سقيها لا يدري البُستاني كم سيكون فيها من غصونٍ وأوراق، ويكتشف هذا شيئًا فشيئًا مع نموّها.

ينتمي مارتن في كتابته الرّوائيّة إلى النّوع الثّاني، وأكبر دليل على هذا في ما يخصّ «أغنيّة الجليد والنّار» أنه حسبَ الفكرة تَصلُح قصّةً قصيرةً حين جالَت بباله للمرّة الأولى في صيف عام 1991، ثم بدأ يستكشفها أكثر فأكثر فوجدها تَصلُح لثلاثيّة الرّوايات الملحميّة التي كان يرغب في كتابتها منذ سنوات عمله في هوليوود، وبَعدها «كبرَت الحكاية» كما قال مستعيرًا مقولة تولكين عن تجربته المشابهة حين بدأ يكتب «سيّد الخواتم»، فتحوّلت الثّلاثيّة إلى خُماسيّة ثم إلى سُداسيّة، وفي النّهاية إلى سُباعيّة.

نُشِرَت «وليمة للغِربان» في أكتوبر/تشرين الأول 2005، بَعد خمسة أعوام وشهرين من الجزء السّابق، وقد نجمَ هذا عن تغيُّر خطّة مارتن في أثناء الكتابة. في البداية كانت نيّته أن يُطلِق على الكتاب الرّابع عنوان «رقصة مع التّنانين»، وأن تبدأ الأحداث بَعد خمس سنوات من «عاصفة السّيوف»، وكان من أسبابه أن تكون الشّخصيّات الصّغيرة قد تقدّمت في العُمر بعض الشّيء، على أن مارتن اكتشفَ خلال عمليّة الكتابة نفسها أن هذا سيقوده إلى الاعتماد أكثر من اللّازم على الاسترجاع (Fkashback) في سبيل حكاية ما جرى في تلك السّنوات الخمس، وبَعد عامٍ أو نحوه من الكتابة قرّر أن يتخلّى عن جزءٍ كبير من المكتوب ويبدأ من جديد، هذه المرّة مواصلًا الأحداث من حيث انتهَت في «عاصفة السّيوف»، وقد أعلنَ قراره هذا في المهرجان الدّولي للخيال العلمي بفيلادلفيا في 2001.

علاوةً على هذا، كان مارتن قد بدأ يُقَدِّم أحداثًا من وجهات نظر شخصيّات جديدة لا تظهر إلّا في فصلٍ أو اثنين، ثم إنه كتبَ فصلًا تمهيديًا وقعَ في مئتين وخمسين صفحة، إلّا أنه حذفَ معظمه لاحقًا ووزّع ما تبقّى على أحداث الرّواية، التي أدركَ قُرب اكتمالها أنها أطول كثيرًا من «عاصفة السّيوف»، ولمّا أخبرَ ناشره بهذا طلبَ منه أن يقسمها جزأين، ثم اقترحَ صديقه المؤلّف دانيِل إبراهام أن يقسمها حسب الشّخصيّات والأماكن، بحيث يتلو الكتاب التّالي أيضًا أحداث الجزء الثّالث مباشرةً مع شخصيّات أخرى وفي أماكن مختلفة، وهو ما وجدَه مارتن مقبولًا، وإن أدّى إلى المزيد من التّأخير في النّشر من أجل تنسيق الأحداث بين الكتابين.

تعدُّ «وليمة للغِربان» أول جزء من السّلسلة يصل إلى قائمة النيويورك تايمز للأعلى مبيعًا، وقد رُشِّحت كأفضل رواية لجائزتَي «هيوجو» و«كويل» وجائزة الفانتازيا البريطانيّة في عام 2006، وتُرجمَت حتى الآن إلى أكثر من عشرين لُغة. أمّا في مسلسل «*Game of Thrones*» المقتبس من «أغنيّة الجَليد والنّار» فقد غابَ السّواد الأعظم من الكتاب عن الأحداث، وما تبقّى قُدِّمَ على الشّاشة بشكلٍ مختلف كثيرًا.

كمترجِم، كانت قراءة روايات «أغنيّة الجَليد والنّار» والمتعة الشّديدة الذي وجدتها فيها هي الفيصل في اتِّخاذ قرار ترجمتها إلى العربيّة، وهذه التّرجمة التي بين يديك الآن هي نتاج عمل شهور طويلة مرهِقة لتقديم عالم چورچ مارتن المعقَّد وشخصيّاته المتشابكة للقارئ العربي بأفضل شكلٍ ممكن.

المؤلِّف

جورج ر. ر. مارتن



عشر سنوات قضاها جورج ريتشارد رايموند مارتن في العمل في هوليوود، واشترك خلالها في كتابة وإنتاج عدد من المسلسلات التليفزيونية المعروفة في عقد الثمانينات، منها «Beauty and the Beast» و«The Twilight Zone»، لكن مع مجيء العام 1994 كان مارتن قد ضاق ذرعًا برفض القائمين على الاستوديوهات الكبيرة المستمر للمشاريع التي يقدمها لهم للإنتاج في التليفزيون أو السينما -بزعم أن الأفكار التي يطرحها شديدة الضخامة وستتكلف مبالغ كبيرة جدًّا لا قِبل لهم بإنفاقها- وقال إنه اكتفى تمامًا من القيود التي تفرضها التكاليف على الإنتاج، ومن ثم قدرة الشاشة على تقديم ما يرغب فيه حقًّا على المستوى المطلوب، بينما يستطيع على الصفحة المطبوعة أن يحكي كل ما يريده من قصص بكل التفاصيل التي تتفتق عنها مخيلته النشطة. هكذا اتخذ مارتن القرار بأن يترك العمل في هوليوود ويعود إلى تأليف الكتب

وتقديم أفكاره كلها فيها، حيث لا توجد عقبات إنتاجية أو مالية تعوقه عن بناء العوالم الضخمة التي يتخيلها وتقديمها بأدق وأصغر تفاصيلها.

وُلد مارتن في سبتمبر 1948 في ولاية نيو جرسي لأب من أصول إيطالية يعمل في تفريغ وتحميل البضائع على السفن وأم من أصول أيرلندية، وفي عائلة تملك جذورًا إنجليزية وألمانية وفرنسية، وهو ما يفسر شغفه الشديد بالتاريخ الأوروبي، خصوصًا حقبة العصور الوسطى التي استلهم منها الكثير في كتاباته. يقول مارتن إن طفولته كلها كانت تتلخص في الذهاب إلى المدرسة والعودة إلى المنزل، ومشاهدة السفن التي تتوافد على ميناء نيوآرك من جميع أنحاء العالم من نافذة غرفته الصغيرة، واضعًا قائمة بأعلام الدول التي يراها ويحلم بأن يزورها ذات يوم، وكان هذا ما شجعه على القراءة بنهم شديد على سبيل زيارة تلك الدول في خياله، قبل أن يتجه إلى الكتابة في سن صغيرة، حيث بدأ يبيع القصص التي يكتبها لأطفال الحي مقابل بنس للقصة، وأحيانًا ما كان يقرأ عليهم هذه القصص كذلك.

ظل مارتن شغوفًا بالقراءة والكتابة، وخلال دراسته الثانوية أضاف قصص الكومكس إلى هواياته، حتى صارت لديه مجموعة ضخمة منها، وهو ما شجعه على كتابتها كذلك، وفي سنة 1970 اشترت مجلة «Galaxy» منه واحدة من تلك القصص، لتصبح أول عملٍ احترافي يُنشر له على الإطلاق. ثم التحق مارتن بجامعة نورثوسترن في ولاية إلينوي ليحصل على درجتي البكالوريوس والليسانس في الصحافة، وخلال دراسته الجامعية كان من النشطاء المعارضين لحرب ڤيتنام.

عمل مارتن أستاذًا للصحافة في الجامعة لفترة واصل فيها نشر قصصه ومقالاته في الصحف والمجلات المختلفة، وأخيرًا في سنة 1976 نشر مجموعته القصصية الأولى «أغنية ليا»

التي فازت بجائزة «Locus Poll» كأفضل مجموعة قصصية لهذا العام، ثم في العام التالي نشر روايته الأولى بعنوان «موت الضياء» التي رُشحت لجائزتي «Hugo» و«British Fantasy Award» كأفضل رواية، وتُرجمت إلى تسع لغات.

مع حلول سنة 1979 كان مارتن قد تفرغ للكتابة تمامًا، وواصل نشر مجموعاته القصصية ورواياته، التي تضمنت «أغاني النجوم والظلال» و«التنين الجليدي» و«في الأراضي المفقودة»، ليحصد المزيد من الجوائز الأدبية المرموقة عن أعماله المختلفة، والتي بلغ عددها حتى الآن 21 جائزة بخلاف الترشيحات، غير أن روايته الرابعة التي نشرها سنة 1983 بعنوان «المعركة الأخيرة» لاقت فشلًا ذريعًا في المبيعات على الرغم من إشادة النقاد بها، حتى أنه قال إنه «دمّر مسيرته المهنية كروائي في ذلك الحين». لكن سرعان ما تعافى مارتن من هذه العقبة واتجه إلى العمل في هوليوود، وفي الآن نفسه واصل كتابة القصص والروايات، لتبلغ حصيلته منها حتى الآن 18 رواية ومجموعة قصصية لا تتضمن سلسلته الأشهر «أغنية الجليد والنار» والكتب الأخرى التي تدور أحداثها في عالمها.

يقول مارتن إن تركه لهوليوود كان من أفضل القرارات التي اتخذها في حياته، ويقرّ بأن هوليوود كانت كفيلة بتدمير سلسلة «أغنيّة الجليد والنار» تمامًا لو كان قدمها للاستوديوهات الكبيرة لتحولها إلى سلسلة أفلام سينمائية ضخمة، بدلًا من شبكة «HBO» التي حولتها إلى مسلسل «Game of Thrones»، والذي يعمل عليه كمشرف ومنتج تنفيذي وشارك في كتابة عدد من أهم حلقاته، وإن توقف عن الكتابة للمسلسل بعد موسمه الرابع، ويعيش حاليًا في ولاية نيو مكسيكو مع زوجته الثانية باريس متفرغًا لكتابة الجزئين السادس والسابع من سلسلته، واللذين ينتظرهما القراء في جميع أنحاء العالم على أحر من الجمر.

المترجم

هشام فهمي



درس الأدب الإنجليزي والترّجمة في جامعة الإسكندرية، وعملَ مترجمًا وكاتبًا في عددٍ من الصُّحف والمجلّات والمواقع، وترجمَ عددًا من الأعمال لكُتّاب عالميِّين، منها «الهوبيت» لتولكين، «فرانكنشتاين» لماري شِلي، «1408» لستيڤن كينج، «الناجي الأخير» و«أغنية المهد» لتشاك پولانك، و«المحيط في نهاية الدَّرب» لنيل جايمان، و«حرب الفن» لستيڤن پرسفيلد.

موقع المترجم: www.hishamfahmy.com

شكر من المترجم

امتنان أعجزُ عن وصفه للشّجرة العطرة الليدي **ريندا الوكيل**. شكرًا على الدّعم المعنوي والعملي قبل وطيلة شهور العمل على هذا الكتاب. مَن يَكتُب أو يُترجِم وله قارئة مثلكِ محظوظ.

وشكر خاص جدًا للأصدقاء من حول العالم في «**SchwiftySquwad**» على مساعداتهم في الصّعوبات اللّغويّة وشرح وجهات النّظر المختلفة في بعض الأحداث ومناقشتها وتحليلها، وهو ما ساهمَ كثيرًا في إخراج التّرجمة بأفضل شكلٍ ممكن.

وأخيرًا، قرّرتُ أن أترك للمنظّرين والأكاديميّين مسألة أحقيّة إهداء المترجِم ترجمته إلى أحد. فهذه أمور لا تشغلنا كثيرًا هنا في وستروس، وعن نفسي أحبُّ أن أهدي هذه التّرجمة إلى روح الرّاحل الجميل **الدكتور أحمد** خالد توفيق، الرّجل الذي تعلّمتُ منه الكثير والكثير، ودومًا كنتُ به أسعدُ وله قلبي يطرب.